دير القديس انبا مقار

حقبة مضيئة في تاريخ مصر

بمناسبة مرور ستة عشر قرناً على نياحته

القديس أثناسيوس الرسولي

البابا العشرون

(٢٩٦ - ٣٧٣ م)

سيرته ، دفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين ، لاهوته

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار

برية شيهيت

حقبة مضيئة في تاريخ مصر

القديس أثناسيوس الرسولي

البابا العشرون

(٢٩٦ - ٣٧٣ م)

سيرته، دفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين، لاهوته

للأب متى المسكين

كتاب: القديس أثناسيوس الرسولي ــ البابا العشرون
سيرته، دفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين، لاهوته
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٨١
الطبعة الثانية: ٢٠٠٢
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون
صندوق بريد ٢٧٨٠ القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٩٥٧ / ٢٠٠١.
رقم الإيداع الدولي: 977-240-101-0



القديس أثناسيوس الرسولي

٢٩٦ - ٣٧٣م

ذكصولوجيتان للقديس أثناسيوس الرسولي
عن مخطوطات قبطية قديمة
(نشرها المتنيِّح العالِم القبطي الأستاذ يسى عبد المسيح)

ⲱ ⲡⲓⲛⲓϣϯ Ⲁⲑ[ⲁ]ⲛⲁⲥⲓⲟⲥ: ⲡⲓ̀ⲥⲧⲩⲗⲗⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ:
ϯⲕⲣⲏⲡⲓⲥ ⲉⲧⲧⲁϫⲣⲏⲟⲩⲧ: ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲛⲁϩϯ ⲛ̀ⲟⲣⲑⲟⲇⲟⲝⲟⲥ.
ⲡⲓⲙⲁⲛⲉⲥⲱⲟⲩ ⲉⲧⲉⲛϩⲟⲧ: ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲟϩⲓ ⲙ̀ⲡⲭ̅ⲥ̅:
ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲉⲧⲧⲁⲓⲏⲟⲩⲧ: Ⲁⲑ[ⲁ]ⲛⲁⲥⲓⲟⲥ ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ.
ⲧⲱ̅ⲃ̅ϩ̅: ⲡⲁ̅ϭ̅ⲥ̅ ⲛ̀ⲓⲱⲧ ⲛ̀ⲇⲓⲕⲉⲟⲥ: ⲁⲃⲃⲁ Ⲁⲑ[ⲁ]ⲛⲁⲥⲓⲟⲥ ⲓ̀ⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲓⲕⲟⲥ: ⲛ̀ⲧⲉϥⲭⲁ̅.

ترجمة ذكصولوجية القديس أثناسيوس الرسولي

(المنشورة بالقبطية في الصفحة السابقة)

العظيـــــم أثناســـــيوس عـــــامود الكنيســــــــة
الأســــــاس الثـــــابت للإيمـــــان الأرثوذكســــــي
الراعــــــي الأمــــــين لقطيــــــع المســــــيح
البطريـــــرك المكـــــرَّم أثناســـــيوس البطريـــــرك
اطلـــب مـــن الـــرب عنّـــا يـــا ســـيدي الأب الصدِّيـــق
أنبـــا أثناســـيوس الرســـولي ليغفـــر لنـــا خطايانـــا

✠✠✠

صورتان فوتوغرافيتان لورقة المخطوطة رقم ١٩٩ وجه / ظهر التي عُثر عليها في الحصن القديم
وهي توضِّح حقبة هامة من سيرة القديس أثناسيوس الرسولي

مقاس الورقة ١٦٠ × ١٧٥ ملليمتر

(ارجع إلى الصفحات من ٣٩-٤٦)

[illegible] وليلك فلا شي هو [illegible]

[illegible] بسيط الذي كان وما في [illegible]

[illegible] الكامل [illegible] ولا لم الموضع الاول ان

[illegible] من ذلك الانسان [illegible]

للطعام [illegible] وسط المدينة القرب [illegible]

[illegible] واحد [illegible]

[illegible] الانسان [illegible]

وقال ايضا الانسان العظيم اراد ان يصنع [illegible]

ولا يدع احدا من الناس يعلم [illegible] وكذلك [illegible]

[illegible] الا ان احتاج الى [illegible]

فقال له [illegible] الانسان فقال ايضا العاقل يستطيع [illegible] فقال له

لا [illegible] الامر [illegible] الحيوان

وكذلك [illegible]

[illegible]

[illegible] وكذلك [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ظهر ورقة المخطوطة رقم ١٩٩

[illegible] الأقل ولا يسمع منها [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

micrapos

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

المحتويات

••••❖••••

الباب الأول: القسم التاريخي

الباب الثاني: القسم اللاهوتي

فهارس الكتاب

Bibliography

I-Writings of St. Athanasius:

Nicene and Post Nicene Fathers, 2nd Series, Vol. IV.

Patrologia Graeca, Vol. 25-28.

II- Studies on St. Athanasius and Arianism:

Bouyer, L., *L'Incarnation et l'Eglise-Corps du Christ dans la théologie de S. Athanase,* Paris, 1943.

Florovsky, G., "St Athanasius' Concept of Creation", in *Aspects of Church History,* Vol IV of the *Collected Works of G. Florovsky,* 1978.

Gwatkin, H.M., *Studies in Arianism,* 1882.

Möhler, J.A., *Athanasius der Grosse und die Kirche seiner Zeit,* Mainz, 1827.

Newman, John Henry, *Select Treatises of St. Athanasius in Controversy with the Arians,* freely translated with an Appendix, 2 volumes, Westminster, 1881.

Newman, John Henry, *The Arians of the Fourth Century,* 1833.

Robertson, A., Prolegomena to the Works of St. Athanasius, in NPNF, 2nd Series, vol. IV.

Unger, D., "A special Aspect of Athanasian Soteriology" in *Franciscan Studies,* 1946.

Zaphiris, G., "Reciprocal Trinitarian Revelation and Man's Knowledge of God According to St. Athanasius", in *Τόμος ἑόρτιος Μεγάλου Ἀθανασίου (373-1973),* Θεσσαλονική, 1974.

III- General Works:

Bethune-Baker, *Early History of Christian Doctrine.*

Bouyer, L., *Histoire de la spiritualité chrétienne,* 1966.

Dorner, I.A., *Treatise on the Doctrine of the Person of Christ,* Eng. trans. 5 volumes, 1861-1866.

Gibbon, E., *The Decline and Fall of the Roman Empire,* 3 volumes, 1781.

Gross, J., *La divinisation du chrétien d'après les Pères grecs,* 1938.

Harnack, A., *History of Dogma,* 7 volumes, 1894-9.

Hefele, *History of the Councils of the Church,* 5 volumes, Eng. tr. W.R. Clark, Edinburgh, 1883-96.

Kelly, J.N.D., *Early Christian Creeds*, London, 1950.

Lossky, Vl., *The Mystical Theology of the Eastern Church,* London, 1957.
Mersch, *The Whole Christ,* transl. by J.R. Kelly, 1938.
Quasten, J., *Patrology,* 3 volumes, 1953, reprint by Spectrum, Utrecht,1964-6.
Resch, *La doctrine ascétique des premiers maîtres égyptiens,* 1931.
Schaff, Ph., *History of the Christian Church,* 3rd ed.1890, reprint Grand Rapids, 1966.
Stanley, Dean A.P., *Lectures on the History of the Eastern Church,* 1861.

IV- Dictionaries:

Cross, F.L., *The Oxford Dictionary of the Christian Church,* 1957.
Smith, W.S. and Cheetham, S., *Dictionary of Christian Antiquities,* 2 volumes, London, 1875-1880.
Smith, W.S. and Wace, H., *A Dictionary of Christian Biography and Literature,* 4 volumes, London, 1880-1900.

الباب الأول

القسم التاريخي

مقدِّمــة

شخصية القديس أثناسيوس التاريخية

الكنيسة القبطية سبَّاقة على كل الكنائس في عالم الروحيات؛ فإنجيل القديس مرقس - كاروز الديار المصرية - أول إنجيل دوِّن على الورق، وفي عاصمتها الإسكندرية قامت أول مدرسة لاهوتية تعليمية في العالم، قادها أعاظم اللاهوتيين على مدى خمسة قرون فأغنت الدنيا بمؤلَّفاتها.

وفي صحاريها الجرداء شرقاً وغرباً تكوَّنت منذ القرن الثالث أُولى جماعات رهبانية منظَّمة ذات قوانين أخذت عنها جميع أقطار الدنيا. فمصر أَمْلَتْ على العالم مبادئ النسك والعبادة بحسب الخبرة الإنجيلية.

وفي أول مجمع مسكوني جمع أساقفة العالم الثلاثمائة والثمانية عشر، ليحدِّد نصًّا حرفياً ملزماً لقانون الإيمان الرسولي، ترأَّس الجماعة أسقفُ الإسكندرية البابا ألكسندروس وعن يمينه شماسه أثناسيوس وبقية أساقفة مصر العلماء، ليقودوا الجلسات ويُحكموا الخناق على المرتدِّين عن الإيمان، وهكذا أَمْلَتْ الإسكندرية نص أول قانون للإيمان على كل كنائس الدنيا، لا يزال إلى الآن يتلوه كل مسيحي مهما كانت عقيدته: "نؤمن بإله واحد". ولولا أن مصر كانت تحت الاحتلال الروماني لانعقد المجمع في الإسكندرية بلا نزاع.

وعلى مدى خمسين عاماً من مجمع نيقية، ظلَّت مصر تضطلع بدورها الفريد في الحفاظ على مقررات هذا المجمع، ضد الأساقفة الذين ارتدوا عن الإيمان النيقاوي وانحازوا واحداً فواحداً للأريوسية تحت بطش الأباطرة؛ أمَّا مصر فقد اضطلعت بمسئوليتها، وقدَّمت الفدية كعادتها من صعيد مصر، رجلاً اختارته العناية الإلهية منذ الدهور، فتىً من تراب وادي النيل، سليل الفراعنة حقًّا حسب الجسد، أمَّا بحسب الروح والإيمان فهو سليل الرسل وربيب المسيح نفسه، **أثناسيوس** الذي رفع رأس مصر وأنجز المهمة العظمى كما أرادها الله، وحفظ الإيمان المسلَّم مرَّة للقديسين، بنجاح أذهل ولا يزال يُذهل كل مؤرِّخي الدنيا، فقد صارع على مدى خمسين سنة كل أساقفة الغرب والشرق، ووقف وحيداً بعد أن خذله كل من ادَّعوا القوة والجرأة حتى أساقفة روما، حتى هوسيوس أسقف قرطبة الذي كان يوماً ما أكبر المناصرين للإيمان القويم في مجمع نيقية. هؤلاء وكل الأساقفة في كل أوروبا والشرق وبلا استثناء ارتدوا عن الإيمان ووقَّعوا على هرطقة أريوس، كما أرادها الأباطرة الملحدون.

وهكذا باتت كنائس العالم كله أريوسية، شرقاً وغرباً. وفي هذا الوطيس لم يكن أمر الوقوف في وجه أساقفة الدنيا وإيقاع الحرم عليهم جميعاً من أسقف واحد، هو أثناسيوس، أمراً سهلاً، فكم بالحري إذا عرفنا أن أربعة أباطرة على التوالي، من أعتى الطغاة، كانوا على نفس إيمان أريوس يناصرون علناً أساقفتهم بكل عنف، وبجيوش جرَّدوها للإيقاع بأثناسيوس. وبعد أن أُعيوا من مطاردته بدون جدوى، أعلنوا - ويا للذلة! - عن مكافأة لمن يأتي برأس أثناسيوس!! ولكن عاش أثناسيوس برغم أنف جيوش روما والقسطنطينية، وخُذلت الأساقفة والأباطرة خذلاناً مهيناً، وانتصر الإيمان القويم على يد ابن النيل، وعادت الكنائس برمَّتها وبأساقفتها، وعاد الأباطرة بعدئذ لحظيرة الإيمان القويم كما أملاه أثناسيوس حرفاً حرفاً، إنها معجزة بركات الله لمصر! ...

ولكن لينتبه القارئ، فالنصرة في حرب الإيمان ليست مسألة سيوف أو منطق كلام، بل إيمان وإنجيل وتقليد وتقوى، والتقوى صدق والتزام بنص الإنجيل، عملاً وسلوكاً، لتأتي بعد ذلك الكلمة فعَّالة نيِّرة، والحجة ملهمة رادعة، والحرم قاطعاً بسيف السماء لا بسلطان الناس.

وكانت هذه أول مرَّة في تاريخ المسيحية والإنجيل، يُرفع فيها الإيمان العام إلى مستوى الفحص والبرهان، وبالتالي إلى مستوى التقنين. لقد استغرق فحص الإيمان على يد ٣١٨ أسقفاً في مجمع نيقية ثلاثة شهور من يونيو إلى أغسطس سنة ٣٢٥(١)، بعدها ظل أثناسيوس وحده يدافع عن مقررات هذا المجمع ويدعِّمها بأبحاث مستفيضة وبكل الآيات الممكنة من كافة الأسفار المقدَّسة حسب التقليد الذي استلمه، وذلك على مدى خمسين سنة. وأمَّا أبحاثه هذه فباقية تحت أيدينا حتى اليوم، تروي كيف حطَّم هذا العملاق اللاهوتي وحده هرطقة أريوس التي كادت أن تحل محل قانون مجمع نيقية، بعد أن وقَّع عليها أساقفة العالم وناصرها أربعة أباطرة على التوالي.

والسؤال الذي يلح هو: لماذا أثناسيوس ولماذا مصر بالذات التي أُهِّلَت لتضطلع بهذه المهمة العظمى دون كل دول العالم المسيحي آنئذ؟

والجواب هو: أن أثناسيوس لم يأتِ من فراغ، فمصر بمزاجها الروحاني حفظت التقليد الرسولي من جهة الإيمان بالمسيح منذ القرون الأُولى بصورة عملية وبإيمان حيّ ملتهب، ومارس شعب مصر، من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب، جوهر الإيمان المسيحي بسر الفداء والحب والأغابي (ولائم المحبة)

---

(1) D.C.A., p. 1389; Schwartz, *Zur Gesehichte des Athanas.*, 1904, p. 398, cited by Kelly: *Earl. Christ. Creeds*, p. 211.

بصورة تفوق كافة أرجاء العالم. فمصر كانت ولا تزال تعيش المسيح كل يوم فادياً ومخلِّصاً ومصالحاً، فأدركت بحسٍّ لاهوتي بارع تغلغل وجدان شعبها أعماق سر الفداء والخلاص والمصالحة. وكان الشعب - كل الشعب - يمارس ولائم المحبة في البيوت كولائم مصالحة مكتسبة من سر الاتحاد الذي يبدأ في الإفخارستيا، وظل الشعب يتزاحم على الكنائس ويمارس سهرات السبت كل أسبوع حتى مطلع فجر الأحد بالتسبيح استعداداً للاتحاد بالمسيح في الأسرار (سر الشركة) - واستمرت هذه الطقوس حيَّة حتى نهاية القرن الخامس[٢]، في حين توقف طقس الأغابي والسهر وضعف مفهوم طقس الإفخارستيا الحي في كنائس فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وكل الغرب منذ القرن الأول.

فبينما كان تجسُّد المسيح يُدرَّس في مدرسة أنطاكية - فلسفياً على مستوى الفلسفة العقلية والمنطق - كطبيعتين منفصلتين حلَّت الواحدة في الأخرى، كانت كنائس مصر بشعبها الإلهي ومدرستها اللاهوتية تتعاطى المسيح وتعلِّمه بآن واحد إلهاً متجسِّداً واحداً متحداً في سر الإفخارستيا، كترياق عدم الموت، أو دواء الخلود، يتناوله المؤمنون بتهليل كإيمان وشهادة لاتحاد غير مفترق، في وحدانية مطلقة بين اللاهوت والناسوت!

وهكذا شبَّ أثناسيوس يرضع التعليم اللاهوتي من فم أبيه الكاهن، ويحس بكيان الله الواحد بالعبادة اليومية، فكبر وله مع المسيح علاقة حب تأصَّلت على سر الفداء والخلاص الذي أكمله المسيح له بدمه الإلهي: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل ٢: ٢٠)

لقد عاصر أثناسيوس، وهو صبي ابن أربع عشرة سنة، أهوال اضطهادات الإمبراطور مكسيمين الثاني (٣١٢م). لقد انطبعت في ذاكرته اعترافات معلِّميه العظام أمثال فيلياس الشهيد أسقف تميّ وهو يشهد بلاهوت المصلوب بيقين وإصرار أمام معذِّبيه، واعترافات بابا الإسكندرية نفسه القديس بطرس الشهيد وهو يعترف والسيف على رقبته: "إن الذي بطبيعته إله صار بطبيعة البشر"[٣]. لقد أضفت هذه الصور والشهادات الحية إلى منابع التقليد المتعدِّدة التي استقاها أثناسيوس، ما رفع حرارة إيمانه ودفاعه إلى مستوى الشهداء فعلاً، وجعلت من تعليم أثناسيوس اللاهوتي امتداداً حيًّا لصراخ دماء هؤلاء الأبطال، وهي تهتف بحق المسيح وتشهد للاهوته. لقد صدق العالِم "نياندر" حينما قال عن أثناسيوس: [إن القلب هو الذي يصنع اللاهوتي Pectus Theologum Facit].

(٢) انظر كتاب: "الإفخارستيا والقداس" للمؤلِّف صفحة ٢٣٨.

(3) St. Peter of Alex., *on Ruth*; Socrat. IV. 48; Athanas., *Orat.* iii. 41, 51; *Apollin.* 1. 7; cited by D.C.B., vol. I, pp. 180 f.

وبينما من منطلق مدرسة أنطاكية (سوريا وآسيا الصغرى) أكثر مدارس الدين عقلانية منذ العصور الأُولى، تعلَّم أريوس ونسطور وغيرهما من هراطقة ذلك العصر؛ ودرسوا الدين كفلسفة يندرج تحتها كل التعليم اللاهوتي كمواضيع نقاش وتحليل، حيث الرجوع فيها دائماً إلى الرمز والسريَّة، والنقد الصريح للكتاب المقدَّس، على غرار فلسفة الإغريق والغنوسية، حيث إن مدارس آسيا الصغرى وأنطاكية لم تكن خاضعة للكنيسة، وغير ملتزمة بتقليد موروث للإيمان أو لشرح الكتاب المقدَّس، بل كانت تحت إدارة فلاسفة أحرار!

نقول: إنه بينما تعلَّم أريوس في مدرسة أنطاكية هكذا، نرى أثناسيوس ربيب مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الفريدة التي كانت تحت إدارة البطاركة مباشرة، وكانت هي المنبع الوحيد للتعليم في الكنيسة بالنسبة للمؤمنين والداخلين في الإيمان، وكان منها يتخرَّج البطاركة، فكانت خزانة التقليد الرسولي وأداة الحفاظ على التعليم الصحيح. ويكفي لكي ندرك مقدار صرامة الضبط والربط اللاهوتي الذي كان يمارسه البطاركة على مستوى التعليم والتلقين في مدرسة الإسكندرية ما حدث لأُوريجانوس، أعظم فلاسفة عصره وإمام الدارسين والشارحين للكتاب المقدَّس، إذ لم تعفِهِ مكانته العلمية من الطرد من عمادة المدرسة والنفي من الإسكندرية برمَّتها، عندما استشعر بطريرك الإسكندرية جنوح هذا العميد الفيلسوف عن حدود التقليد الرسولي في الشرح والتفسير!

لذلك كان صراع أثناسيوس صراعاً روحياً ومدرسياً بآن واحد، يقوم على أساس إيماني بلاهوت المسيح والعقيدة بالثالوث من واقع التقوى والشعور بالإخلاص للفادي. من أجل هذا لم يكن في العالم كله مَنْ يختاره الله ليضع عليه هذه المهمة الخطيرة - وهي الدفاع عن الخلاص الذي وهبه الله للبشرية بترسيخ حقيقة ابنه الوحيد الكلمة المتجسِّد - غير مصر مخزن التقليد الرسولي. ومن كل مصر اختار الله أثناسيوس الذي عاش الفداء بتقوى، وأحب المسيح، وعشق الثالوث، وعاصر الشهداء. فكان صراعه مع الأريوسية صراع النور مع الظلمة، والحياة مع اللاحياة.

ومن أجل هذا أيضاً كان يتحتَّم أن تتوج الأريوسية بهذا السقوط، وتندثر معها فلسفة مدرسة أنطاكية بلاهوتها العقلاني الملفَّق ومنهجها الفلسفي القائم على تعالي فكر الإنسان فوق تنازل الله في سر التجسُّد بحسب صلاحه. لقد تعالى أريوس عن محبة الله الآب التي أعلنها لنا في المسيح، كلمته الذاتي الأزلي، ابنه الذي بذله من أجلنا أجمعين لكي نحيا، فتوارت عن الأريوسية حقيقة الخلاص وحقيقة الله برمتها، ففقدت الانتقال من الموت إلى الحياة، وخرجت من الكنيسة خروج آدم من الفردوس.

ولقد خلف أثناسيوس وراءه بعد صراعه اللاهوتي الطويل الأمد هذا، مؤلفات تُعتبر من أغنى ما ورثته البشرية من قواعد وتفسيرات راسخة وشاملة للاهوت الأرثوذكسي، نعرض منها هذا المنهج في شرح أهمية التجسُّد وحتميته لخلاص الإنسان:

أولاً: لقد أكمل الله تجديد خلقة الإنسان على أساس النتيجة الحتمية التي أكملها الله في ابنه بالتجسُّد. فباتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، أدخل الله ـ حسب مسرَّته ـ الطبيعة البشرية التي كانت واقعة تحت الفساد والموت إلى دائرة عدم الفساد بلاهوته الذي انتهى إلى تجديد جبلتنا، ولكن ليس بلا ثمن بل بذبيحة ابنه على الصليب، مقدِّماً جسده كفارة عن كل خطايا البشرية ليخلِّص من الموت والفساد كل مَنْ يؤمن به. وهكذا ربط أثناسيوس بين خلاصنا (من الفساد والموت بتجديد جبلتنا) وبين حقيقة التجسُّد رباطاً أبدياً. فالتجسُّد الإلهي أنتج بالضرورة خلاصاً وتجديداً لجبلتنا.

ثانياً: كما ربط أثناسيوس بين تجسُّد المسيح "كلمة الله" وبين **الارتقاء الفائق الذي صار للإنسان لمعرفة الله في ذاته.** وهذه النتيجة هي غاية في الأهمية والخطورة ولا محيص عنها على الإطلاق لإدراك حقيقة الله. فبظهور اللاهوت متكلِّماً وعاملاً وشارحاً ومفسِّراً لكيان الله في ذاته بإنسان هو يسوع المسيح الذي هو نفسه كلمة الله: «كلَّمنا ... في ابنه» (عب ١:٢) ـ صار اللاهوت، أي الله الذي كان غير مدرك، مدرَكاً في المسيح، والذي كان غير مقترب إليه، قريباً ومنظوراً وملموساً من جهة ذاته وفكره وعلاقته بالإنسان والكون: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤:٩)، فاجتث من ذهن أضعف الناس أيَّ وهم من جهة اختفاء الآلهة وسريَّتها وتعددها، وهدم المسيح كل أعمال الشيطان بقوته وكلمته الإلهية أمام عين كل إنسان!

ثالثاً: وبعكس أريوس وكل الأنطاكيين الذين جعلوا المعرفة ـ المجرَّدة ـ أساس الصلة بالله ـ في حدود الفهم والتعبير!! نجد أثناسيوس يضع ليس مجرَّد المعرفة المجرَّدة بل الاتحاد بالطبيعة الإلهية، أي الشركة في اللاهوت بالتبنِّي، أساس الإيمان والعبادة والخلاص والحياة الأبدية: [لأن ابن الله صار جسداً لنصير نحن أبناء الله فيه].

وهذه الشركة «أمين هو الله الذي به دُعيتم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا» (١كو ١:٩)، المنبثقة من سر التجسُّد، جعلها أثناسيوس أساساً جديداً لعلاقة الله بالإنسان، وهذه الشركة دشَّنها المسيح على الصليب بموته عنا جميعاً ليكون لنا بدمه دخول مجَّاني ثابت إلى الله، وباتحادنا بجسده

وبدمه تصير لنا إقامة دائمة واتحاد وميراث في الله. وهكذا من هذه النتائج الباهرة التي نلناها من واقع سر التجسُّد الإلهي، يكون أثناسيوس قد قدَّم ـ وهو في سن الثالثة والعشرين ـ جواباً عن «لماذا ظهر الله في الجسد؟»، من واقع الإنجيل، بعمق لم يبلغه لاهوتي آخر في العالم. ومن هذا العمق نفهم لماذا تسيَّد أثناسيوس على النزاع الأريوسي منذ أول لحظة حيث حسمه بالقانون في مجمع نيقية، ثم صرعه بالشرح والبرهان ويقين الإيمان في معاقل القسطنطينية ومدن آسيا الصغرى وإيطاليا وأوروبا بكل مجامعها التي حفلت بمئات الأساقفة المخادعين والأباطرة المخدوعين.



والآن قد يؤخذ علينا أننا نكيل المديح لأثناسيوس لأنه زميل مواطنة وابن نيلنا وترابنا وزعيم عقيدتنا الأرثوذكسية، لذلك يليق بنا الآن أن نعرض لآراء مؤرِّخين أجانب قدامى ومُحدثين، حول شخصية أثناسيوس التي سحرتهم.

يقول فيليب شاف Philip Schaff المؤرِّخ الكنسي (١٨١٩-١٨٩٣) في كتابه: "تاريخ الكنيسة المسيحية" ـ الجزء الثالث، صفحة ٨٨٥ ما يلي:

[أثناسيوس هو المركز الذي كانت تدور حوله الكنيسة والتعليم اللاهوتي في العصر النيقاوي، وقد لُقِّب بالكبير، كما لُقِّب الإمبراطور قسطنطين نفسه الذي كان يعاصره. ولكن الأول كان عن جدارة ـ فكراً وأخلاقاً ـ جدارة تمحَّصت بالاضطهاد والآلام التي تحملها على مدى السنين في مقاومة أخطاء فظيعة ومقاومة حكومة الإمبراطور. وما القول المشهور "إن أثناسيوس صار وحده ضد العالم لمَّا صار العالم كله ضدَّه" إلاَّ تعبيراً جيداً يشرح بقوة حيدته المتفرِّدة الجريئة الحرة وأمانته التي لا تهتز إزاء قناعته، وهذا بحد ذاته يشكِّل معارضة خطيرة لا رد عليها ضد القاعدة الكاثوليكية بخصوص مبدأ السلطة: أن "كل ما يؤمن به الجميع في كل مكان وفي كل زمان يكون هو الحق Quod semper, quod ubique, quod ab omnibus creditum est".

مبرهناً بسلوكه هذا أن الحق ليس قط دائماً في جانب الأغلبية! بل غالباً ما يكون غير مقبول ولا مألوف لدى جمهور الناس. فأثناسيوس بمفرده في وقت من الأوقات ـ وهو تحت الحرم من مجمع أساقفة معلَن بفرمان إمبراطور ـ كان وحده الحامل للحق!!

لذلك دُعيَ فيما بعد: "أبو الأرثوذكسية ὁ πατὴρ τῆς ὀρθοδοξίας".

وهكذا صار مصير أثناسيوس وأموره الشخصية متشابكة ومرتبطة بمصير منجزات مجمع

نيقية، حتى إن اصطلاح نيقية واسم أثناسيوس أصبحا في التاريخ قيمتين متعادلتين، إلى الدرجة التي فيها كانت إحباطات ونفي أثناسيوس هي بعينها تُحسب إحباطات لمجمع نيقية بكليته (٣١٨ أسقفاً)، ثم عودة أثناسيوس من النفي واستعادة كرسيه كانت هي بآن واحد انتصاراً لأرثوذكسية مجمع نيقية!! هذا إلى خمس مرّات!! (على مدى أكثر من عشرين عاماً، وهذا التأرجح كان بعينه قائماً في مصير الكنيسة كلها)!!

وكان أثناسيوس مثل باقي أعظم أشخاص التاريخ: ـ داود النبي، بولس الرسول، نابليون ـ كان قصير القامة، منحنياً قليلاً، يبدو وقد أضناه الجهد وأرهقته الأصوام، بالإضافة إلى الضيقات، ولكنه كان بهيّ الطلعة بعينين ثاقبتين، مظهره الشخصي ينمُّ عن قوة جبَّارة حتى وعلى أعدائه، نشاطه فذ وثّاب سريع التحرُّك، وكأن قوة خفية تدفعه في الوقت المناسب، لا يهاب، له رؤية عميقة للمستقبل تكاد تكون نبوية، مما جعل أحباءه يعتقدون بأنه كانت تؤازره قوة إلهية.

دعاه المؤرِّخ الأسقف ثيئوذوريت (٣٩٣ـ٤٦٠) وهو قريب من زمن أثناسيوس، دعاه: "المنبر الأعظم". ودعاه يوحنا الدمشقي: "حجر الزاوية في كنيسة الله" ...

وأثناسيوس، على كل حال، واحد من أنقى وأجلّ الشخصيات ذات الوقار العظيم في تاريخ الكنيسة. وهذا هو الآن حكم التاريخ المأخوذ به بصفة عامة].

ثم يعود "فيليب شاف" ويستطرد:

[**لقد تحمَّل أثناسيوس الاضطهاد، ولكنه لم يضطهد أحداً قط!!**

وسار على القانون الروحي القائل **بأن الأرثوذكسية عليها أن تشرح الإيمان بالإقناع وليس بالقوة.** لذلك ليس بين كافة الشرقيين من يتمتَّع باحترام وتقدير عالٍ جدًّا في الكنيسة الغربية مثل أثناسيوس(٤). ولقد ساعد على ذلك فرصة تغرُّبه في تريف على أعلى حدود فرنسا مع ألمانيا، وكذلك في روما، وأيضاً تمكُّنه من اللغة اللاتينية، كما أنه نقل الرهبنة (القبطية) إلى الغرب، ولكن فوق هذا وذاك فإن دفاعه عن أُسس الإيمان المسيحي هو الذي منحه هذا الصيت بالدرجة الأُولى. حتى صار اسم أثناسيوس لا ينفصل عن الصراع الذي انتهى بانتصار الإيمان بالثالوث.

وأثناسيوس كمؤلِّف يمتاز بعمقه اللاهوتي وحدة بصيرته، وله مهارة في الحوار ومنطق مرعد، وقد أثبت تفوُّقاً وانتصاراً عقلياً على خصومه. وقد كان يتتبعهم في مخابئ أفكارهم

(٤) للأسف نلاحظ في كثير من كتب اللاهوتيين المحدثين الكاثوليك محاولة عجيبة لطمس معالم الأسماء القبطية الكبيرة ومنهم أثناسيوس الكبير وكيرلس الكبير.

ويدهمهم ويهتك حججهم وضعفاتهم دون أن يفقد الرؤية نحو هدفه، إذ يعود كل مرَّة إلى نقطة الصراع بقوة ومنطق جديد. ولكن ظروفه العاصفة التي كان يكتب فيها منعته مـن أن ينمِّـق عملاً منهجياً كبيراً، فكتاباته كلها تقريباً جاءت وليدة ظروفها وأغلبها مكتوب في المنفى.]

المؤرِّخ جيبون (١٧٣٧-١٧٩٤):

يلزم للقارئ أن يعرف أن جيبون كان لا يؤمن بالمسيحية، بل وكان لاذع النقـد لكـل رجالها، ولكنه وقف مبهوراً أمام تاريخ أثناسيوس وشخصيته الفريدة الفذة، ولم يكن أمامه بدٌّ - كما يقول شاف - من أن يدفع له ضريبة الإعجاب.

يقول جيبون:

[قلَّ أن تواتينا فرصة المتابعة والفحص التـاريخي مـا واتانـا مـع حيـاة أثناسـيوس، سـواء كنـا نلاحقه في نشاطه الحركي أو في انطلاقة تأملاته الرؤيويـة، حـين نكتشـف مقـدار مـا يمكـن لإنسان بمفرده وبفكره وحده - أن يُحدثه من أثر وما يمكن أن يتجاوزه من عراقيل ومعاثر، وهو ينطلق نحو هدفه الموضوعي بتشبُّث وإصرار. إن اسم أثناسيوس الخالد لـن ينفصـل عـن العقيدة الجامعة للإيمان بالثالوث، الذي أوقف نفسه في الدفاع عنها كل لحظـة مـن لحظـات حياته وبكل طاقته الفكرية ومن كل كيانه!!

وفي وسط كل أعاصير الاضطهاد ظلَّ رئيس أساقفة الإسكندرية هذا يعمل في صبر، غـير عابئ بالشهرة، غير مكترث بتأمين حياته، ... مُظهراً تسامياً في أخلاقياته وتفوقـاً في قدراتـه التي أهَّلته ليكون أفضل من أبناء قسطنطين المنحلِّين لإدارة حكومة المملكة الرومانية.][٥]

أمَّـا المـؤرِّخ الدكتـور بـاور (١٨٠٩-١٨٨٢م) Bruno Bauer - مُلحـد - فيحـدِّد صفـات أثناسيوس هكذا:

[إن موهبـة أثناسـيوس مـن جهـة رؤيتـه في فحـص اللاهـوت العقـائدي، وكيـف يسـتجلي الصحيح منها ويملك زمامه بدقة متناهية وبوضـوح، كـانت في الحقيقـة مواهـب بلغـت مـن العظمة مبلغاً أهَّله أن يقف على رأس كل جماعة اللاهوتيين ليدير ذلك الصراع اللاهوتي.

كما أن التقوى التي كان يدافع بها عن القيمة الأرثوذكسية وعن أهميـة العقيـدة الـتي كـانت موضوع النزاع، هذه التقوى هي التي جعلت اسمه من أجلِّ الأسمـاء وأكثرهـا وقـاراً في الكنيسـة،

(5) *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ch. XXI.

... وإنها لشهادة قوية تدعِّم عظمة طهارة سيرته تلك التي قدَّمتها الجماعة التي كـانت متعلّقـة بـه في أنطاكية إذ ظلوا أمناء له، ملتصقين بتعاليمه بعاطفة رقيقة حتى نهاية النزاع.][٦]

العالِم نياندر (١٧٨٩-١٨٥٠) يهودي متنصِّر عالِم لاهوتي ومؤرِّخ كنسي بارع:

[لم تأتِ سنة ٣٣٠م حتى صار أثناسيوس الشخصية المتفوِّقة والذائعـة الصيـت في الكنيسـة، بل ورأساً وروحاً أيضاً للجماعة التي انحازت إلى مفهوم وحدة الجوهر - بين الآب والابن - فهو الذي منذ البداية قاد البابا ألكسندروس أباه، قبل انعقاد مجمع نيقية، لعدم قبول أو عودة أريوس[٧]. وبعد ذلك أثبت أثناسيوس وجوده في مجمع نيقية بغيرته وحدَّة بصيرته التي دافـع بها عن عقيـدة وحـدة الجوهـر، حتـى صـرع الأريوسيين؛ واستمر أثناسـيوس بنفـس قوتـه وحدَّته، وعلى مدى نصف قرن، يتتبَّع حركاتهم بصلابة وثبـات لا ينثـني، مقـابلاً في ذلـك شتَّى صنوف الاضطهادات والمقاومات والآلام - ولم يأبه إطلاقاً بتهديـد الإمـبراطور - مع أنه هو ومصر كلها كانت تحت الاحتلال!!]

العالِم دين ستانلي[٨] (١٨١٥-١٨٨١): مؤرِّخ أنجليكاني ذائع الصيت:

[نحن نصوِّر أثناسيوس كما نتصوَّر النجم في السماء، ولكن مـن العسـير أن نحصـل علـى حقيقـة أبعاده[٩]. إن الصفات التي أذهلت كل معاصريه بشدة كانت حضور مواهبه وسرعة تحوُّلها. وفي إحدى قصائد أكسفورد قصيدة عن أثناسيوس بعنوان "القيثارة الرسولية"، تقول:

"أثناسيوس صاحب القلب الملكي،
المدثر بوشاح بولس المبارك".

إنه توجد مشابهة بين ليونة أثناسيوس وأخلاق بولس المتعدِّدة الجوانب الذي كان يفتخر أنه "جعل نفسه كل شيء لكل أحد"، الأمر الذي لم يحدث قبـل أثناسـيوس ولا حـدث مـن بعده، حتى جاء أغسطينوس ليحاكيه.

وأثناسيوس يُحسب أكبر لاهوتيي زمانه، وأيضاً لكل العصور والأجيال. ولهذا حاز على لقب "**الكبير**" من كل العالم وعلى المدى.

(6) *Vorlesungen über die Dogmengeschichte*, vol. 1, ii, p. 41, cited by Schaff, *op. cit.*, III, p. 889.
(7) Athanas., *C. Arian.*, 6.
(8) Dean Stanely, *Lectures on the Hist. of East. Church.*
(9) *Op. cit.*, pp. 44 f.

وقد ذاع قول "الأبوت قزماس" في القرن السادس:

"إذا قابلت جملة لأثناسيوس و لم يكن لديك ورقة، فاكتبها حالاً على ثوبك".

وكصورة توضّح مدى تهافت الغرب والشرق عليه، ما حدث لجسده، فقد نقلوه إلى القسطنطينية ثم إلى البندقية بإيطاليا ثم إلى فرنسا ثم إلى أسبانيا(١٠).

لقد كان يعتني بأسلوبه في المحاجاة عن دراية وقصد لكي يستميل انتباه لاهوتيي الغرب أكثر من تدقيقه في التنميق الأدبي أو المنطقي للُّغة؛ فترك بتوافق أفكاره انطباعاً عميقاً على المسيحية الغربية برمتها حتى إلى اليوم، حينما يُتلى بما يسمَّى "قانون أثناسيوس" (لم تثبت صحة نسبته حتى الآن للقديس أثناسيوس).

وبالاختصار، فإن **أثناسيوس هو أبو الأرثوذكسية** بكل معنى، فقد أثرى الكنيسة أكثر مما ورثته في أعمالها في الماضي أو حتى من منطوق قانونها الأرثوذكسي الأساسي. فهو المحسوب أنه مُنشيء الأرثوذكسية بحق، إذ يلزم أن نعرف أن قبل أثناسيوس، بل وقبل مجمع نيقية الذي اشترك فيه، كان **التعليم الأرثوذكسي كقانون متكامل** غير معروف ... إن كتابه عن "تجسُّد الكلمة" يمتد بصلاحياته ليغطِّي ما بعد زمانه ويصبح (حتى اليوم) صالحاً لاستخدامات لاهوتية متعدِّدة - ليكون في النهاية واحداً من أفضل البراهين على "الحق"!](١١)

جواتكن(١٢): صاحب كتاب تاريخ الأريوسية ١٨٨٢م:

[كان أثناسيوس يحكم مصر كلها من المنفى!!

وخطاباً وراء خطاب كتب أثناسيوس من منفاه الذي كان محوطاً بالكتمان والذي كان لا يرقى إلى معرفته أحد، حيث كانت الأيدي المخلصة والأمينة تحمل رسائله هذه بصورة سرِّيَّة، إلى أبعد حدود البلاد. وقد عُثر في حفائر طيبة (الأقصر) على كتابات له على مقابر الفراعنة في مغارة تل القرنة(١٣) وهي عبارة عن رسالة منه.

أمَّا هذا الأسقف العظيم حقًّا، والذي لم يكن أعظم منه أحد قط، فقد وقف وحيداً

---

(10) *Acta Sancta.*, May 2, 1. 35.

(11) Dean Stanely, *op. cit.*, pp. 229-237.

(١٢) هذا المؤرِّخ الإنجليزي لا يُجارى في نقد أثناسيوس (عن غير صحة).

(13) Boeckh 8607 (Quoted by Fialon: *St. Athanas.*: 133) is a letter of Athanas. from the ruins of Thebes.

يدافع عن مجمع نيقية. لقد حاول الإمبراطور قسطنطيوس أن ينتقم منه، ولكن كلَّفه ذلك أن ارتجَّت الإمبراطورية كلها من حوله حتى إلى أساسها. وحتى ذلك الزلزال المروع الذي أصاب منطقة الأدريانوبل، فلم يكن في نظر الإمبراطور من الخطورة والعنف بمثل ما أحدثه أثناسيوس بهروبه من وجه الإمبراطور علانية!

وجاء من بعده الإمبراطور يوليانس الوثني الجاحد، ونظر و لم يكد يصدِّق عينيه، كيف كان أثناسيوس كملك يحكم مصرا!! بل ويعمِّد السيدات (الشريفات) الوثنيات ـ المعتبرات أنهنَّ تحت حماية الإمبراطور ـ الأمر الذي أثار كوامن أفظع غيظه ... فاجتهد و لم يكلّ، حتى نجح في نفيه أيضاً، ولكن بالرغم من كل ذلك ظلَّ أثناسيوس بهدوء كما هو، يعمل بلا هوادة].



وأخيراً؛ لقد اجتهدنا في هذا الكتاب أن نقدِّم دراسة متكاملة بقدر الإمكان لشخصية القديس أثناسيوس الذي لقَّبه المؤرِّخون بـ"الرسولي" ـ بسبب جهاده المظفر لحفظ الإيمان الرسولي كاملاً ونقياً من أية شائبة.

وقد قدَّمنا الجزء الأول فيما يخص سيرته أو حياته، التي هي في حد ذاتها تشكِّل تاريخاً كاملاً للكنيسة المصرية على مدى أكثر من خمسين سنة، وهي نفسها وبدون أي مبالغة تشكِّل تاريخ الكنيسة كلها وفي جميع أنحاء العالم، في أصعب مرحلة إيمانية عبرت عليها على مدى ألفي سنة، حيث قاد أثناسيوس حركة الصراع، في البداية، ضد أريوس، وبعد ذلك ضد الأساقفة الأريوسيين الذين خرجوا عن الإيمان الرسولي بغواية هذا المبتدع الخطير، والذين ظلَّ عددهم يتزايد بصورة مرعبة حتى شمل جميع كنائس العالم.

ويذكر التاريخ أنه في لحظة وقف أثناسيوس وحده بإيمانه الرسولي يصارع أساقفة الدنيا بأسرها، وقد صاروا جميعاً أريوسيين، حتى قيل القول المشهور: "إن العالم كله صار أريوسياً".

أمَّا الجزء الثاني، فقد خصصناه لعرض ما يمكن أن يكون أساساً للمبادئ اللاهوتية التي دافع عنها أثناسيوس، والتي كان يقوم عليها الإيمان الرسولي الذي استلمه كما يقول هو من الآباء والرسل، دون أن يضيف على أصوله شيئاً، بل اكتفى أن يكون شارحاً ومدافعاً له حتى الموت.

لقد كتب أثناسيوس قانون الإيمان، وسجَّل تاريخاً للكنيسة وشرح وثائق التقليد الرسولي بمداد قلبه وريشة روحه الخفَّاق. أثناسيوس كان يكتب ما رآه وما سمعه من فم الحكمة ذاتها التي أعطته صولجان الفطنة، ليبدِّد أقنعة الظلمة ليستعلن الله حاضراً في الكون ومتكلِّماً في إنسان.

اللاهوت كان يتدفّق من قلب أثناسيوس جديداً منعشاً في كل لحظة، مع أنـه "الأزلي" و"القديـم الأيام"!! فجاء تعليم أثناسيوس اللاهوتي يتحدّى العقول المربوطة بفلسفات الشعوب المنقرضة، بـل ويتحدّى الزمان وعقل كل إنسان، إذ لا يمكن تصنيفه مع التاريخ، فلا هو تاريخ الماضي ولا تـاريخ الحاضر ولا المستقبل، بل لاهوت الكائن الذي كان والذي يأتي، الأول والآخر، البداية والنهاية معاً.

لذلك كان أسلوب أثناسيوس أكثر من واثق، ومن خلف مواقـف العنـف كـانت تشـع كلماتـه بالنصرة الأكيدة، وتنبض بفرح الرائي الذي يرى الحق وهو في سبيله لتبديـد الظلمـة المعاكسـة الـتي مآلها حتماً إلى زوال ... أمّا كلمات السـخط والغضـب الـتي فـاه بهـا أثناسـيوس وهـو في وطيـس المعركة، والتي يعثر فيها بعض السُّذَّج من العلماء المحدثين الآن، فلم تكـن عنـد أثناسـيوس إلاّ لهيـب الغضبة الإلهية الذي «يميت المنافق بنفخة شفتيه.» (إش ١١: ٤)

إن التعليم اللاهوتي لأثناسيوس لا يندرج تحت مفهوم المعارف والعلوم التي يستزيد منها الإنسان لمعرفة أكثر أو لثقافة أفضل. فقد انصهرت كلمات أثناسيوس في الحق نفسه الصادر من "اللُّوغس"، شعاع النور الأزلي، كلمة الله الخالق المحيي الفعَّال، وصارت مَدْرَجاً لارتقاء الإنسـان في هـذا النـور فوق ذاته وفوق كيانه وفوق كل مدركاته لبلوغ ذات المصدر المحيـي والالتحـام بالكلمـة الأزلي، لا في مفهوم المعرفة المجرَّدة، بل في إدراك سرِّ الخلق والدخول في صميم الحـق والحريـة والقداسـة، الـتي منها ومن أجلها خُلق الإنسان وإليها يسعى ويلتحم، التي هي كمال الغبطة والحب والسلام في الله، لكي يصير الله الكلَّ في الكل، كالنور الذي يبتلع كل الظلال.

دير القديس أنبا مقار ــ المغارة المجاورة لمغارة القديس أنبا مقار **الأب متى المسكين**
أسبوع الآلام سنة ١٩٨٠م

﴿رجاء من المؤلّف﴾

نرجو من القارئ قبل أن يبدأ بقراءة الكتاب أن يطّلع على الخرائـط لكـي يتعـرَّف مبدئيـاً علـى أسماء البلاد القديمة وموقعها من صفحة ٨٠٧ إلى صفحة ٨٣٤ ثم يعود إلى هذه الخرائط مـن حـين لآخر حتى تنسجم الحوادث مع المواقع أولاً بأول فيترسَّخ في الذهن مجرى التاريخ.

علماً بأن اهتمامنا بعمل ملخّـص في نهايـات الفصـول، وتدقيقنـا في تقديـم الفهـارس الموضّحـة للتواريخ في نهاية الكتاب هو لمزيد من الاستفادة بأقصى قدر مستطاع.

ويشكر المؤلّف ويعترف بفضل جميع الآباء الرهبان الذين قاموا بجمع وطبع الكتاب بمطبعة الديـر والآباء الذين ساهموا في عمل الفهارس ومقدِّمة الجزء اللاهوتي.

سيرة القديس أثناسيوس

المصادر التي اعتمدنا عليها في سرد سيرة هذا القديس العظيم تنقسم كالآتي:

١ – "مذكّراته الخاصة" وهي مدوَّنة في المجموعة المسمَّاة: "آباء نيقية وما بعد نيقية"، الجزء الرابع من المجموعة الثانية:

(أ) دفاعه المسمَّى "الدفاع الكبير ضد الأريوسيين".

(ب) نشرتان دوريتان بهذا الخصوص.

(ج) دفاعه لدى قسطنطيوس.

(د) دفاعه فيما يختص بهروبه.

(هـ) رسائله لسيرابيون أسقف تِمِيّ.

(و) رسالة إلى الرهبان وهي التي تعتبر سرداً لتاريخ الحركة الأريوسية.

٢ – مقتطفات من أقوال الآباء المعاصرين للبابا أثناسيوس مثل هيلاري أسقف بواتييه، وباسيليوس الكبير، وغريغوريوس النزينزي، وإبيفانيوس أسقف قبرص.

٣ – خطابات أثناسيوس الفصحية، أجزاء من مدوَّنات تاريخية تشبه السنكسار مترجمة باللغة اللاتينية عن أصل يوناني آخر، كُتبت في الإسكندرية سنة ٣٨٥م. وقد اكتشفها العالِم مافاي Maffei سنة ١٧٤٢م في مكتبة فيرونا، وتُعتبر ذات قيمة تاريخية كبيرة – إذا تغاضينا عن بعض الأخطاء الواردة فيها.

٤ – كتابات المؤرِّخين الكنسيين الذين جاءوا بعد أثناسيوس واهتموا بتسجيل تاريخه أمثال:

(أ) سالبيسيوس ساويروس، روفينوس، سقراطيس، سوزومين، وثيئودوريت.

(ب) تحقيقات العالِم مونفوكن في ثلاثة مجلَّدات، وتعتبر من بكور الدراسات الخاصة بالقديس أثناسيوس وهي معتمدة لدى المحققين المحدثين، صدرت سنة ١٦٩٨.

(ج) تحقيقات المؤرِّخ تيمون Tillemont، وهي تشمل دراسة متسعة لحياة القديس أثناسيوس في المجلَّد الثامن مع تعليقات وملاحظات كثيرة، صدرت سنة ١٧١٢.

(د) دراسات كيف Cave، وهي تجميع شامل لحياة القديس أثناسيوس في مجموعته المشهورة "حياة الآباء"، صدرت سنة ١٦٩٨. ومعظمها وارد في قاموس سير الآباء

لـ"سميث" و"والاس".

(هـ) دراسات موللر Möhler عن "أثناسيوس الكبير"، صدرت سنة ١٨٢٧، وهي عرض لأعمال القديس اللاهوتية أكثر منها تأريخاً لحياته، وتحتل موقعاً حسناً لدى المؤرخين. وقد جئنا بمقتطفات كثيرة منها.

(و) دراسات البندكتيين وملحقاتها في مجموعة ميني وتُعتبر المصدر الأساسي لتاريخ القديس أثناسيوس. وقد وردت ضمن سرد أخبار حياة أثناسيوس في القاموس المذكور آنفاً.

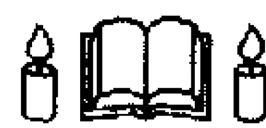
(ز) دراسات العالِم الكاردينال نيومان في كتابه: "الأريوسية في القرن الرابع"، صدر سنة ١٨٣٣.

(ح) دراسات هيفيلله في كتابه: "تاريخ المجامع"، الجزء الأول والثاني، صدر سنة ١٨٥٥.

(ط) دراسات العالِم جواتكن في كتابه النقدي: "عن الأريوسية"، صدر ١٩٠٠. وهو أغنى بحث صدر عن أكبر مجموعة مراجع معظمها باللغة الألمانية (ما يقرب من خمسين مرجعاً).

(ي) دراسات تاريخية مكثّفة للعالِم جون ماسون نيل في كتابه عن تاريخ الكنيسة المقدَّسة، صدر سنة ١٨٤٧.

(ك) دراسات مختصرة للعالِم "شاف" في كتابه عن تاريخ الكنيسة المسيحية، صدر سنة ١٩١٠.



ملاحظة هامة:

وقد عثرت شخصياً على ورقة مخطوطة في أرضية المكتبة القديمة بحصن دير القديس أنبا مقار تحت التراب برقم ١٩٩ (أ ، ب) من أصل مخطوط يحوي أخباراً تاريخية باللغة العربية وبخط يشير إلى أن المخطوطة ترقى إلى القرن الحادي عشر/ الثاني عشر، وربما أول ترجمة عربية لأصل قبطي، لأنها تحوي كلمات تفسيرية باليونانية والقبطية على الهوامش بخط حسن. وتعتبر هذه الورقة الفريدة من جهة تاريخ حياة القديس أثناسيوس ذات قيمة بالغة لأنها تلقي أضواءً متعدِّدة على نشأة القديس أثناسيوس ومصريته الصميمة، والمدينة التي تربَّى فيها صغيراً، ومهنة والده، وغيرة أثناسيوس الإلهية منذ طفولته المبكِّرة، ورجاحة عقله، وتهذيبه الكنسي في بكور شبابه. وسوف نعرض لهذا كله في بداية سيرته.

[illegible] اولئك المتكلمين يعلموا ما هي العله
[illegible] الوسنا الذي قانونها في القانون انه لا
يمد احداً يده لياكل الا اذا مد الكاهن يده اولا ليرشم الموضوع الماكل وان
لم يكن هنالك كاهنا يبارك بمراله الرب يكون في بيت ذلك الانسان وكان يوما مضي
لياخذ من السرائر اللازمه في كنيسه صغيره كانت في وسط المدينه بالقرب من بيت
معلمه ولم يجد في الكنيسه سوا قسيس واحد وهذا كان زاهدا في صنعته
يصنع الحزمه وحده ومن بعد الدا... رئيس الاساقفه مسك ذلك القس
وقال له ايها الانسان العظيم اريد ان تصنع لي حلة جديدة ... وخط
ولا تدع احدا من الناس يعمل معك فيها الا انت وحدك فاجابه القسيس
قايلا يا ابي انا ارسمها لك لان احتاج الى واحد ينسج واخر يطرز بالمطرزه
فقال له رئيس الاساقفه ايضا العلك تستطيع ... بغير مولا فقال له
لا فاجابه الاهر الحقيقي انا سوسن واذا انت لا تقدر ... هذا الشي الهيولاني
وحدك فباي نوع تقدم الخدمة السرائر لتكملها وحدك اذ تصنع الخدمه ...
بغير احداً من الناس يساعدك واذا كان ملكاً يقدر يدبر ... المملكة وحده
فما هي الحاجه لهذه النفقات الذي يعطيهم لجنده وهكذا لو كان الله ... يعرف
ان واحد وحده يقدر يعمل الخدمه فما كانت هي الحاجه ان يكون هؤلاء كلهم
فقال له القسيس يا ابي البس لك عمل وعمل لي انا ايضا هكذا لا ... هؤلاء
الاعمال هم للكهنه وحدهم

فقال له رئيس الاساقفة اغفر لي يا ابي يا تامل ولا تسمع هذا العمل وحدك ليلا

يغضب الرب عليك لاني انا ايضا ابي هو كاهن وهو الذي علمني هذه الاعمال هذا

فاجاب القسيس وقال له الرب يعرف اني قد بحث بحديثك جدا يا ابني لعلك

انت ايضا كاهن فقال له القديس اباسيوس اراد ان ينطق بالحق يا ابي ان كنت انا

كاهن فانت تنظرني لان شكلي هو هذا الذي تنظرني فيه وحينئذ القسيس بكى

جدا وصنع كل شي قال هم له والضروره تدعوني يا اخوتي المحبين المسيح لكي

اظهر لكم بقيه الذين كانوا امنه في مصر لكي الذين يسمعوهم يمجدوا الله كان

هيكلا في المدينه التي سبقنا ان نذكرها التي هي اخميم يدعوه مترومس وفي

احد الايام جاز القديس اباسيوس لابس الله وكانوا يمشوا اطفال صغار

يعملوا في الصنعه معه فقال لهم هكذا ترى الرجال الذين بنوا هذا ما

هو الذي في قلوبهم فاجابوا اولئك الاطفال الصغار وقالوا ان اهل هذه المدينه

الذين كانوا قبل هذه الايام لم يكن لهم فهم بل كانوا يخدموا الاوثان ويبنوا لهم

هذه الهياكل فقال لهم ايلياس الجديد اعني القديس اباسيوس وهو نصحك نعلم

نهدمه بعد البنا فقالوا له اولئك الاطفال الا بنظره ثابته هذه الحجاره

السابقه هذه الاعمال الباطله ونحن فليس لنا الله وانا قصير جدا في قوتنا وانا نقدر

نعاهدنا فقال لهم الرسولي اباسيوس دانيال الجديد انا اعرف صنعه في

كوني تعلموا معلمي الهياكل ويسكنوا الطوبه الذين تتاملوها في البنا ان

الفصل الأول

طفولة أثناسيوس حتى زمان اعتلائه كرسي الإسكندرية

(٢٩٦–٣٢٨م)

ميلاده والمدينة التي تربّى فيها(١):

لقد عاش أثناسيوس وتربّى طيلة فترة صباه في صعيد مصر، كما جاء على لسانه شخصياً، وبالذات في مدينة أخميم؛ وذلك كما ثبت في مخطوطة اكتُشفت في دير أنبا مقار. ولقد تعلّم كيف يحارب حروب الرب منذ صباه كما جاء على لسان القديس باسيليوس الكبير في خطابه رقم ٨٢.

المعتقد أن أثناسيوس وُلِدَ سنة ٢٩٦م أو ربما بعد ذلك بقليل، أمّا المدينة التي وُلِدَ وتربّى فيها فيظن العلماء أنها الإسكندرية اعتماداً على إشارة(٢) وردت في رسالة الإمبراطور قنسطنطيوس فيكتور سنة ٣٤٥م للقديس أثناسيوس وهو في منفاه يأمره بالعودة إلى "الإسكندرية وطنه"، ولكن للأسف لا يمكن أن تُعتبر هذه إشارة إلى أنه وُلِدَ وتربّى في الإسكندرية.

ولكن برجوعنا إلى الجزء من المخطوط الذي عثرنا عليه في أرضية مكتبة دير القديس أنبا مقار برقم ١٩٩ (ب) نقرأ الآتي:

[والضرورة تدعوني - يا إخوتي المحبين للمسيح - لكي أُظهر لكم بقية الذين كانوا منه في مصر لكي الذين يسمعوهم يمجّدوا الله: كان هيكلاً في المدينة التي سبقنا أن نذكرها التي هي أخميم يدعوه مثروس **πιμιθρος**. وفي أحد الأيام جاز القديس أثناسيوس لابس الله، وكانوا يمشوا أطفال صغار يعملوا في الصنعة معه، فقال لهم كلمة هكذا: ترى الرجال الذين بنوا هذا ما هو الذي في قلوبهم، فأجابوا أُولئك الأطفال الصغار وقالوا إن أهل هذه المدينة الذين كانوا قبل هذه الأيام لم يكن لهم فهم بل كانوا يخدموا الأوثان ويبنوا لهم هذه الهياكل. فقال لهم إيلياس الجديد أعني القديس أثناسيوس وهو يضحك: تعالوا نهدم هذا الهيكل، فقالوا له أُولئك الأطفال: ألا تنظره ثابت بهذه الحجارة ومشيَّد **ϥκλωπιζε** البنا بهذه الأعمال، ونحن فليس لنا آلة وناقصين جدًّا في قوتنا ولا نقدر نعمل هذا فقال لهم الرسولي أثناسيوس دانيال الجديد أنا أعرف صنعة في كورتي يعملوها معلمي البنيين ويمسكوا الطوبة الذين يتأملوها في البنايان ...] انتهى (بخطئه).

ومن هذه القراءة نستدل أن أثناسيوس **كان يعيش طفولته في كورة بجوار أخميم** وكان يتردَّد على هذه المدينة الكبيرة مع رفاقه من الأطفال. **وأنه في صبوَّته كان يتعلّم صَنعة حسب تقليد أهل**

---

(١) عاش أثناسيوس وتربّى في صعيد مصر - انظر برهان هذه الحقيقة من أقوال القديس أثناسيوس، وهي واردة في كلام أنبا باخوم، سيرة أنبا باخوم، صفحة ٤٣و٤٤.

(2) *Apologia contra Ar.* 51, NPNF, vol. IV.

مصر وربما كانت هذه الصنعة هي فن البناء.

كما يلزم أن ننتبه أن كاتب السيرة **يفرِّق بين مرحلتين عاشهما القديس أثناسيوس:** مرحلة منهما كانت بلا شك في مدينة الإسكندرية وهي التي ربما استهل بها الكاتب سيرته، وهي الأهم بطبيعة الحال. وحياة أخرى أقل أهمية في نظر الكاتب وهي الخاصة بطفولته قبل أن ينزح إلى الإسكندرية، والتي يقول عنها: [بقية الذين كانوا منه في مصر]. وهنا يعتبر الكاتب أن مصر شيء وأن الإسكندرية شيء آخر، وذلك حسب التقسيم البيئي والمدني والجغرافي بل والكنسي أيضاً الذي كان في العصور الأُولى، ولا تزال آثاره التقليدية باقية حتى الآن، إذ معروف أن أسقف الإسكندرية هو رئيس أساقفة مصر.

ويُستدل أيضاً بوضوح من هذه المخطوطة **أن أثناسيوس كان مسيحياً منذ طفولته وكان كارهاً لعبادة الأوثان** بغيرة شديدة وحماس يفوق قامته، وهنا يدعوه كاتب السيرة بـ "إيليا الجديد" إشارة إلى غيرة إيليا الشديدة لعبادة الرب وحماسه الفائق الذي جعله يذبح أنبياء البعل(٣).

عادات رسولية:

ثم إذ نعود إلى المخطوطة نقرأ أيضاً أموراً جديدة في حياة هذا القديس كانت ولا زالت مجهولة عند المؤرِّخين حتى هذا اليوم:

> [... خايف من الذباب الصغير و لم يكونوا أوليك المتكيين يعلموا ما هي العلة في ذلك ... وهذا كان يصنعه ليكمِّل وصية الرسل الذي قالوها في القانون أن لا يمد أحداً يده ليأكل إلاَّ إذا مد الكاهن يده أولاً ليرشم الموضوع للأكل وإن لم يكن هناك كاهناً يبارك، فبركة الرب تكون في بيت ذلك الإنسان ...] -(بخطئه)

وهنا يعرض كاتب السيرة إلى عادة أثناسيوس وهو صغير في أنه كان عند غياب الكاهن يرشم لنفسه الأكل الموضوع أمامه بحركة يديه على شكل الصليب قبل أن يأكل، فكان يظن الجلوس معه أنه كان يطرد الذباب. ومن هذه العبارات يُستدل أن أثناسيوس كان يحفظ التقليد الرسولي وقوانين الكنيسة المسلَّمة بدقة منذ صباه، وهذا يتفق تماماً مع الصفات المعروفة عن القديس أثناسيوس وشدة تعلقه بالقوانين الكنسية كل أيام حياته.

(٣) سفر الملوك الأول ١٨.

والد القديس أثناسيوس وأثره في حياة أثناسيوس:

ثم نعود للمخطوطة لنقرأ أيضاً عن والد القديس أثناسيوس، وهي أمور غاية في الأهمية تُنشر لأول مرَّة في التاريخ لتضع القديس أثناسيوس وعائلته في الموضع الصحيح جدًّا والمناسب جدًّا:

[وكان يوماً مضى ليأخذ من السراير الكريمة في كنيسة صغيرة كانت في وسط المدينة **بالقرب من بيت معلّمه** و لم يجد في الكنيسة سوى قسيس واحد وهذا كان حدَّاد في صنعته فصنع الخدمة وحده، ومن بعد القداس رئيس الأساقفة مسك ذلك القس وقال له: أيها الإنسان العظيم أريد أن تصنع لي حلقة حديد ⲓⲗⲟⲥ(٤) بيديك وحدك ولا تدع أحداً من الناس يعمل معك فيها إلاّ أنت وحدك فأجابه القسيس قائلاً يا ابني أنا أرسمها لك لكن أحتاج إلى واحد ينفخ وآخر يطرق بالمطرقة فقال رئيس الأساقفة أيضاً: ألعلَّك تستطيع تعمله بغير هؤلاء. فقال له: لا. فأجابه الكاهن الحقيقي أثناسيوس: فإذا كنت لا تقدر تكمل هذا الشكل الهيولاني ⲙⲡⲁⲓⲗⲟⲥ ⲛ̀ϩⲩⲗⲓⲕⲟⲛ(٥) وحدك فبأي نوع تتقدَّم لخدمة السراير لتكمِّلهم وحدك إذ تصنع الخدمة كلها بغير أحد من الناس يساعدك وإذا كان ملكاً يقدر يدبِّر أعمال المملكة وحده فما هي الحاجة لهذه النفقات ⲛⲓⲁⲛⲛⲱⲛⲁ(٦) الذي يعطيهم لجنده ... وهكذا لو أن الله كان يعرف أن واحداً وحده يقدر يكمِّل الخدمة فما كانت هي الحاجة أن يكرزوا هؤلاء كلهم. فقال القسيس: يا ابني أليس لك عمل وعمل لي أنا أيضاً هكذا لأن هؤلاء الأعمال هم للكهنة وحدهم ... فقال له رئيس الأساقفة: اغفر لي يا أبي تأمل ولا تصنع هذا العمل وحدك ليلا يغضب الرب عليك لأني أنا أيضاً أبي هو كاهن وهو الذي علَّمني هذه الأعمال هكذا. فأجاب القسيس وقال له: الرب يعرف أني قد ربحت بحديثك ⲉⲧⲉⲕⲥⲩⲛⲧⲓⲭⲓⲁ(٧) جدًّا يا ابني لعلك أنت أيضاً كاهن فقال له القديس أثناسيوس إذ كان ينطق بالحق: يا أبي إن كنت أنا كاهن فأنت تنظرني لكن شكلي هو هذا الذي تنظرني فيه. وحينئذ القسيس ربح جدًّا وصنع كل شيء قالهم له ...] (انتهى بخطئه)

ومن هذه القصة الشيقة نعلم الآتي:

---

(٤) كلمة ⲓⲗⲟⲥ باليونانية تعني "مُحَمَّى بالنار".

(٥) كلمة هيولي أصلها اليوناني ὕλη وتعني "المادة المظلمة".

(٦) "أنونا" أصلها لاتيني وتعني "الجراية السنوية".

(٧) وتصحيحها συντεχνία سينتيخنيا أي تبادل حديث الصنعة الواحدة. وهي مكونة من مقطعين، الأول σύν ومعناه مشترك، والثاني τεχνία أي "تكنيا" وهي الفن في الصنعة (تكنولوجي).

١ ـ أن أثناسيوس كان يمارس التناول في شبابه قبل تكريسه.

٢ ـ أنه كان يتعلّم على يد معلّم وفي منزله الخاص شأن العلماء في العصور الأُولى وذلك في بلده أخميم في مراحل حياته الأُولى، لأن كاتب السيرة يقول إن هذه الأخبار هي الخاصة به وهو في مصر تمييزاً عن الأعمال الأخرى التي له في الإسكندرية.

٣ ـ عدم احتمال الشاب أثناسيوس أن تُجرى طقوس الكنيسة ناقصة، فالغيرة على الطقس والقانون الكنسي تتأجَّج في صدره منذ طفولته وتلاحقه على مدى حياته كلها.

٤ ـ حكمة الشاب أثناسيوس ـ وهو لم يكن بعد كاهناً ـ تبرز بصورة رائعة في كيفية مواجهة كاهن خارج عن القانون الكنسي، بأدب جم، وباستخدام أسلوب الحوار والتشبيه والتطبيق المحكم الذي ظل معتمده في كل مناظراته واحتجاجاته اللاهوتية في أخطر المواقف كل أيام حياته.

٥ ـ يلاحظ أن الكاهن المخطئ يخاطب أثناسيوس بما يتناسب مع سن أثناسيوس ومظهره (يا ابني)، وهذا يوضِّح أن أثناسيوس كان وقتئذ مجرَّد شاب صغير.

٦ ـ كما نلاحظ مرَّة أخرى كيف يكون موقف أثناسيوس الشاب من نفس الكاهن عندما رفض أن يرضخ للنتيجة ويعترف بالخطأ بعد أن وصل به أثناسيوس إلى درجة الإقناع المنطقي، وبدأ يتحدَّى أثناسيوس [أليس لك عمل ولي أنا عمل ككاهن]، أو بما معناه: ما شأنك أنت؟ ولماذا تتدخَّل في عمل الكهنة؟

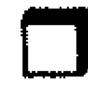
هنا يترك أثناسيوس الشاب المنطق والمحاجاة ويطرحهما جانباً وينطلق في مواجهة الكاهن الخاطئ المعاند، بأسلوبه الآخر الذي ما فتئ يستخدمه أيضاً كل أيام حياته، وهو رفع ضمير الخاطئ إلى مستوى المواجهة مع الله والوصية والقانون الكنسي بعد إخفاقه في قبول التعقُّل والحكمة والمنطق ... ولكنه يبدأ هذه المواجهة الصارمة بالجملة الرهبانية المشهورة: [اغفر لي يا أبي]. وهنا يبرز المستوى الأخلاقي لأثناسيوس الشاب وتشبُّعه بروح التقوى والاتضاع كسند لازم في كل مواقف التصدِّي والدفاع!

٧ ـ ينكشف لنا بصورة قاطعة، لها كل مبررات صدقها، أن **والد أثناسيوس كان كاهناً وكان يعيش حتى زمان هذه القصة**. وهنا ندرك أن أباه كان هو بلا نزاع المصدر الذي كان يستقي منه أثناسيوس كل تهذيبه الروحي والطقسي منذ طفولته المبكِّرة: [وهو الذي علَّمني هذه الأعمال هكذا].

أخطأ بعض المؤرِّخين في ظنهم أن أثناسيوس مات أبوه وهو طفل وتكفلت به أمه، والمحقق

بصورة قاطعة أن أبوي أثناسيوس كانا على قيد الحياة حتى بلوغ أثناسيوس الستين من عمره ويزيد! وقد ذكر ذلك بوضوح في رسالته التي أرسلها عام ٣٥٨م إلى لوسيفر أسقف كالاريس في جزيرة سردينيا (وهو معترف وعانى النفي أيضاً)، يقول فيها بغاية الوضوح: [إن عيني لا تكف عن الدمع ولا روحي عن الأنين فيَّ، لأننا لا نستطيع حتى افتقاد الإخوة، ولكن الله يشهد عليَّ أنني بسبب اضطهادهم أصبحت لا أستطيع أن أرى (أفتقد) حتى **والديَّ اللذين لي**، لأنه ما هو الذي أبقى عليه الأريوسيون؟ إنهم يراقبون الشوارع ويتحقَّقون من كل إنسان يدخل أو يخرج المدينة (الإسكندرية)، يفتِّشون المراكب، يجولون في الصحراء، ويحاصرون البيوت ويتحرَّشون بالإخوة حتى أقلقوا راحة كل إنسان]. وهنا يصف أثناسيوس اضطهاد الأريوسيين الذي أثاروه على الكنيسة أثناء معاناته النفي الثالث واختفائه الذي ظلَّ فيه يتنقَّل من مدينة لمدينة ومن قرية لقرية ومن برية لبرية (من سنة ٣٥٦-٣٦١م). ولكن نسمع عن حادثة تشير إلى موت أبيه بعد هذا الاضطهاد بست سنوات، وفي اضطهاد آخر يذكر فيها أنه ظل مختبئاً في مقبرة أبيه نحو أربعة أشهر(٨).

٨ - ومن سؤال الكاهن بعد أن ارتدع وقَبِلَ التصحيح والتوجيه: [ألعلَّك أنت أيضاً كاهن؟] يتضح أن أثناسيوس لم يكن قد رُسم كاهناً بعد. ثم في رد أثناسيوس المبدع يتبيَّن لنا مدى الإلهام: [إذ كان ينطق بالحق] بخصوص النير الكهنوتي الذي كان أثناسيوس يحس أنه مزمع أن يوضع عليه لا محالة: [يا أبي إن كنت أنا كاهن فأنت تنظرني]، ومعناه أنك أنت الذي تراني كاهناً بالرؤيا أو بالنبوَّة ولكني أنا في حقيقتي الآن لست كاهناً: [لكن شكلي هو الذي تنظرني فيه].



وهكذا نخرج من هذه الورقة الفريدة لهذا المخطوط الضائع بتاريخ جديد لحياة أثناسيوس يقلب كل أفكار العلماء وتخميناتهم، الذين منهم مَنْ قال إن أُمه كانت رئيسة عبدة الأوثان، ومنهم مَنْ قال إن أثناسيوس نفسه كان وثنياً في صغره.

ولعلَّ الله يساعدنا ويجعلنا نعثر على بقية المخطوطة الفريدة، وهي لا شك راقدة الآن ضمن مدشوتات المخطوطات التي سُرقت من مكتبة دير القديس أنبا مقار واستقرت في إحدى مكتبات العالم تنتظر يوم ظهورها وعودتها.

(8) Socrat., *E.H.* IV, 13.

بقية أخباره مع عائلته:

شهادة من القديس غريغوريوس النزينزي:

[لقد شبَّ منذ البدء في الممارسات الدينية وسيرة التقوى وبعد دراسة مختصرة في الآداب والفلسفة، تلك الأمور التي ما كان ينبغي قط أن لا يكون متمهِّراً فيها قبل أن ينقدها!!](٩)

أمَّا بقية أخبار عائلة أثناسيوس فنعلم أن والده مات ودُفن بالإسكندرية بعد سنة ٣٥٨م وأن قبره كان خارج المدينة(١٠). كذلك ومن كلمات أثناسيوس نفسه إلى قسطنطين الملك نعلم أن عائلته كانت فقيرة بعكس ما يكتبه بعض المؤرِّخين غير المدققين الذين يزعمون أنه كان من عائلة ثرية جدًّا. وهاك كلمات أثناسيوس: [واحتج أثناسيوس لدى الإمبراطور قائلاً: كيف يكون إنسان فقير مثلي وبحالي الضعيف هذا ويصنع مثل هذه الأمور؟](١١)

ولقد وردت قصة عن أيام صبوة أثناسيوس بقلم المؤرِّخ روفينوس(١٢) وعنه تناقلها جميع المؤرِّخين والكُتّاب، يقول فيها إن ألكسندروس بابا الإسكندرية التاسع عشر كان في يوم من الأيام مطلاً من نافذة البيت الذي يقطنه على البحر، فرأى صبية يلعبون على الشاطئ، فلمَّا تحقَّق من حركاتهم وجدهم يمثّلون طقس العماد الذي تجريه الكنيسة؛ فأخذ يراقبهم بشغف وابتدأ يحس أن عملهم هذا أصبح له وضعه السرائري، فاستدعاهم وكان ذلك بحضرة بعض الإكليروس، ولما استجوبهم علم أن الصبي أثناسيوس كان هو الذي يقوم بدور الأسقف في العماد (والمعروف أنه في العصور الأُولى للكنيسة كان الأسقف وحده هو المنوط بإجراء العماد من دون الكهنة)، وقام فعلاً بعماد بعض الأولاد رفقائه عن قصد وبكل مستلزمات الطقس، وهؤلاء لم يكونوا مسيحيين بعد؛ أمَّا البابا ألكسندروس فلم يأخذ الموضوع ببساطة. وبعد مداولات مع الإكليروس اعتبر أن هذا العماد ساري المفعول وامتدح أثناسيوس واحتفظ به عنده، وأمر أن تُجرى لبقية الأولاد ما يلزمهم من الطقوس والتعاليم اللازمة لتكميل الطقس.

وقد حاول بعض المؤرِّخين التقليل من قيمة هذه القصة أمثال: "كيف" و"تيمون" والبندكتيين،

---

(9) Greg. Naz., *Orat.* 21. 6.

(10) Socrat., IV. 13.

(11) *Apologia contra Ar.* NPNF, vol. IV, 9.

(12) Ruf. 14.

ولكن المؤرِّخ "دين ستانلي" يرى في هذه القصة ما يرجِّح صدقها تماماً[١٣]. أمَّا بخصوص العقبة التاريخية التي تتصدَّى لهذه القصة إذ أن ألكسندروس صار أسقفاً على الإسكندرية عام ٣١٣م. وبهذا يكون أثناسيوس وقتئذ قد بلغ ١٧ سنة من عمره. فيرى جماعة البولاندست بعد أن تحقَّقوا من نياحة أنبا بطرس الشهيد، أن هذا التاريخ (٣١٣م) متأخِّر جدًّا، والحقيقة أن ألكسندروس اعتلى الكرسي الإسكندري قبل ذلك التاريخ بكثير، مما يزكِّي صدق هذه القصة، وأن أثناسيوس فعلاً لم يكن قد تجاوز آنئذ دور الصبوة. ويؤكِّد المؤرِّخ سوزومين[١٤] صدق هذه القصة معتبراً إياها المدخل الذي بدأ منه القديس أثناسيوس تدرجه في المراتب الكنسية حتى جلوسه على كرسي الأسقفية.

وفي كتابه عن "تجسُّد الكلمة" يأتي القديس أثناسيوس عفواً على ذكر تقبُّله العلوم اللاهوتية على أيدي معلِّمين عانوا من اضطهاد مكسيمين الثاني الذي وقع سنة ٣١١م[١٥]. وهذا يعني أن أثناسيوس بدأ دراساته اللاهوتية ربما في مدرسة الإسكندرية بعد نزوحه من أخميم وهو دون الخمسة عشر عاماً!! والمعروف أن أول كتابين ألَّفهما القديس أثناسيوس وهما "ضد الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة" أكملهما قبل سنة ٣١٩م حيث كان عمره وقتئذ لم يتجاوز الثالثة والعشرين.

أثناسيوس سكرتير البابا ألكسندروس:

وبدخول أثناسيوس الشاب في خدمة البابا ألكسندروس كابن له وسكرتير يبدأ تاريخ أثناسيوس الكنسي بصورة عميقة وسريعة للغاية، حيث كان وقتها البابا الإسكندري يترأَّس على مائة أسقف ينتشرون في كل أنحاء مصر وليبيا والخمس مدن الغربية، وحيث كان أسقف الإسكندرية يلقَّب بـ "رئيس الأساقفة"[١٦] وبلقب "باباس"[١٧] (أي الأب العزيز) وذلك منذ أيام هيراكلاس البابا الثالث عشر[١٨].

ومعنى ذلك أن وظيفة سكرتير البابا الإسكندري كانت بحد ذاتها عملاً ضخماً للغاية متشعِّب المسئوليات. ويقول القديس كيرلس عمود الدين في خطابه لرهبان مصر إن أثناسيوس كان يعيش

(13) Dean Stanley, "*Lect. East*" p. 264.
(14) Soz. II, 17.
(15) *De Incarn.* 36.
(16) Athanas., *Ap. c. Ar.* 71.
(17) Dionis., *On Heraclas* (Euseb., H.E. VII, 7).
(18) Ibid.

مع البابا ألكسندروس (كابن مع أبيه) تحت سقف واحد (وكان محبوباً بسبب حلاوة صفاته)(١٩).

فكانت هذه الأيام من أحلى ذكريات أثناسيوس، خصوصاً في أيامه العصيبة إزاء المحن المتواترة التي عاناها على مدى حياته الطويلة.

دراسات أثناسيوس المدنية والروحية:

ولكن لم تكن أيام أثناسيوس في سكرتيريته للبابا ألكسندروس تنقضي في مجرَّد أعمال روتينية؛ بل ازدحمت إلى أقصى حد بجهاده المتواصل في تحصيل العلوم ودراسة الفلسفة والبلاغة والشعر، فقد درس هوميروس وأفلاطون وأرسطو وديموستين(٢٠). ونحن نعلم تماماً من كتابات أثناسيوس مقدار تحصيله لهذه العلوم واستخدامها في شرح وتوضيح أعماق الإنجيل(٢١)، وخصوصاً في مواقف الدفاع والمحاجاة ضد الفلاسفة. ويخبرنا المؤرِّخ سلبيسيوس ساويرس أن أثناسيوس درس القانون الروماني(٢٢). ولكن الذي ينبغي أن ننتبه له جدًّا أن كل هذه العلوم غير الكنسية التي توفَّر القديس أثناسيوس على تحصيلها لم تُصَب الكنيسة منها بأي سوء على الإطلاق، فلم نسمعه يوماً متعظِّماً بعلمه أو متكلاً على بلاغته أو منطقه، بل كان الله دائماً هو نوره وخلاصه.

أمَّا كل هذه الدراسات التي تلقَّاها سواء بجهاده الخاص أو على أيدي معلِّمين خصوصيين أو في مدرسة الإسكندرية، فلم تكن إلاَّ أمراً ثانوياً تماماً بالنسبة لشغف أثناسيوس أن يكون (كاتباً متعلِّماً في ملكوت السموات). وتظهر غيرته النارية في حبه للكتاب المقدس وتوقيره المطلق لسلطانه في جميع كتاباته، وبالأخص في مؤلَّفه (ضد الوثنيين: ١)، وفي عظته (١:٩)، والرسالة إلى أساقفة مصر (٤)، وفي دفاعه عن قانون نيقية (٣٢)، وفي كتاباته عن مجمعي أرمينيا وسلوقية (٦).

وعلى سبيل المثال لشغفه المطلق بالأسفار نقدِّم مقتطفات من أقواله توضِّح هذا الاتجاه:

١ - [وإني أعتقد أنه من اللائق أن أتقدَّم إليكم كمُحب للمسيح متحدِّثاً عن المسيح، وإني لواثق أنكم **تضعون إيمانكم به ومعرفتكم له** أعلى من كل شيء آخر مهما كان!

(19) Ruf. I. 1.

(20) Athanas., *Orat.* IV, 29, quotation from Odyss. II, 3633-66.

(21) Ibid.

(22) Salpicius Severus, II, 36; Soc. I, 31.

وإني أعتقد أن **الأسفار المقدَّسة الملهمة كفيلة بحد ذاتها أن تعلن الحق.**](٢٣)

(يُلاحَظ أن أثناسيوس يكرِّر هذه الحقيقة في جميع كتاباته).

٢ - [ممن يستلم "مارقيون" و"المانيون" الإنجيل إن كانوا يرفضون قبول الناموس أي العهد القديم؟ ونحن نعلم أن العهد الجديد انبثق من العهد القديم ويشهد له! فإن هم أجازوا لأنفسهم أن يرفضوا العهد القديم، فكيف وممَّن يستلمون الجديد الذي هو أصلاً منه؟ وبولس يقول إنه رسول مفرز لإنجيل الله: «الذي سبق فوعد به **بأنبيائه في الكتب المقدَّسة**» (رو ١:٢). وربنا نفسه يقول: «فتِّشوا الكتب لأنها هي التي **تشهد لي**» (يو ٥:٣٩). فكيف إذاً يمكنهم أن يعترفوا بالرب إن لم يفحصوا الأسفار (القديمة) أولاً التي كُتبت عنه؟ ونحن نسمع من فيلبُّس أحد التلاميذ وهو يبشِّر نثنائيل: «قد وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء: يسوع» (يو ١:٤٥). لأن الرب الذي أعطى الناموس هو نفسه الذي وعد في الناموس أنه سوف يقيم أنبياء أيضاً ليكون الرب هو نفسه رب الناموس والأنبياء، فالذي ينكر الواحد ينكر الآخر عن اضطرار أيضاً.

... وإن الأسفار المقدَّسة لهي كافية جدًّا لنا، لذلك فبالنسبة للذين لهم رغبة أن يعرفوا أكثر فيما يختص بهذه الأمور أنصحهم وأزكِّي لهم أن يقرأوا كلمة الله.](٢٤)

وعلى هذا النمط تجري جميع كتابات أثناسيوس مزدحمة بالآيات من العهد القديم والعهد الجديد، إمَّا بنصها الكتابي المحدّد أو بروحها دون الالتزام بالحرف، بحيث لا يمكن أن يخلو سطر من سند كتابي.

ذخيرة الآباء تُضاف لرصيد أثناسيوس:

غير أن مسرته العظمى كانت في الأبحاث اللاهوتية، فقد أوتي موهبتها في عمق لا يُجارَى. وقد كانت قدرته فذّة في تحويل كل فكر وكل ثقافة لتخدم فكرته اللاهوتية ويجمع كل شيء ليخدم غايته العظمى في إثبات حجته لمجد المسيح.

ولقد كانت حياة وتراث العلماء كليمندس وأوريجانوس وثيؤغنسطس والباباوات السابقين، وبالأخص استشهاد البابا بطرس خاتم الشهداء سنة ٣١١م في ظروف الاضطهاد المرعبة التي رآها

---

(23) *Contra Gent.* I.
(24) *Ad Episc. Aegypt.* 4.

بعينيه، هي الينبوع الذي استقى منه أثناسيوس حتى الشبع ونما عليه وترعرع وجدانه الروحي والإيماني واللاهوتي!! فأثناسيوس ابن علماء مصر وشهدائها بالحق وتلميذ المعترفين، وشريك آلام المسيح عن جدارة.

لقد ذاق أثناسيوس الموت مراراً تحت اضطهاد الوثنيين المرعب على يد مكسيمين Maximin الثاني عام ٣١٨م. ولقد تعلّقت روحه بمعلّميه الذين بعد أن أكملوا له التعليم، أكملوا حياتهم بالشهادة وسُفكت دماؤهم أمام عينيه! فأيّ تعليم عن المسيح هذا الذي استقاه أثناسيوس على مستوى الشهادة وببرهان الحب الصادق للمسيح حتى الموت!؟

لقد كان أثناسيوس صبياً صغيراً عندما وصلته أنباء استشهاد الأسقف الوقور فيلياس أسقف تمويس (تمي الأمديد)، الذي قَبلَ التعذيب حتى لفظ نفسه الأخير دون أن يتزحزح قيد شعرة عن الشهادة بلاهوت المسيح المصلوب!! نعم، أيّ درس في اللاهوت يمكن أن يستقيه صبي بدأت تتفتّح مداركه الروحية وقواه الإيمانية أعظم وأصدق من هذا الدرس؟ ثم أيّ درس يمكن أن يلقّن لشاب صغير مؤهّل من قِبَل الله أن يجلس على كرسي مار مرقس يوماً من الأيام، أعظم من أن يستلم بالخبر وبالإيمان والعيان قصة استشهاد أب الكنيسة كلها ورئيس أحبارها البابا بطرس خاتم الشهداء، وبحد السيف؟ ... لقد سلّم كل هؤلاء الشهداء، نعم سلّموا أرواحهم الشجاعة مع إيمانهم القريم للفتى أثناسيوس لكي يعلّم وهو متيقّن مما رأى وسمع ويشهد بجرأة وهو مدرك مسبقاً ماذا يمكن أن تكلّفه الشهادة!

وإليك أيها القارئ العزيز مقتطفات قصيرة من رسالته إلى أساقفة مصر تكشف عن روح أثناسيوس الحقيقية في الإقناع والدفاع التي كانت على مستوى الاستشهاد دائماً وبالحق!!:

[ومن أجل هذا أهيب بكم أن تكونوا أمثلة للإخوة في كل مكان، أنتم الذين وُضِعَ تحت أيديكم اعتراف قد تحدَّد بواسطة آباء نيقية الذين دافعوا عنه بأعظم غيرة وبثقة في الرب. علّموهم أنها الآن معركة أمامنا إزاء الحق في صراعه ضد الباطل، وأن مكايد العدو وحيله كثيرة متعدّدة. ولكن برهان الشهداء لا يكون برفض التبخير للأصنام وحسب، وإنما برفض أيّة محاولة لإنكار الإيمان، إنما بشهادة ضمير صالح متوهّج ...

فإبراهيم لم ينل الإكليل لأنه تألَّم بالموت ولكن لأنه كان أميناً لله. وكذلك بقية القديسين الذين تكلَّم عنهم بولس: جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والبقية، فإنهم لم يكمَّلوا بسفك دمهم إنما بالإيمان حُسبوا أبراراً مكمَّلين في المجد!! ...

أمَّا إذا أردت أن أضيف إلى هؤلاء شهادة من بلدنا الذي نعيش فيه فأنتم تعلمون الطوباني ألكسندروس (٣١٢-٣٢٨م) كيف ارتضى بسرور أن يُقاوم حتى الموت ضد هذه الهرطقة (الأريوسية)، وكم من المحن والمعاناة احتمل هذا الشيخ إلى أن انضم إلى آبائه في نهاية حياته؛ بل وكم من الآخرين أيضاً احتملوا العذاب والمشقة من أجل تعليمهم القويم ضد هذا الكفر والإلحاد. والآن هم يتنعَّمون بالمجد مع المسيح جزاء اعترافهم.

وعلينا أن نعتبر هذه الحقيقة: المعركة قائمة والاختبار أمامنا، فإمَّا أن نحفظ الإيمان أو ننكره.

كما أنه علينا أن نجعل حفظ ما استلمناه على درجة من الاهتمام والإخلاص كغاية حياتنا، على أن يكون أساس تعليمنا هو الاعتراف الذي رُسم في نيقية، مبتعدين عن كل ما هو مستحدث، معلِّمين الشعب أن لا يلتفت إلى "الأرواح المضلة".][٢٥]

أنطونيوس الكبير في حياة أثناسيوس:

ولكن لم تكن الينابيع التي استقى منها أثناسيوس لاهوتية إيمانية على مستوى الشهادة وسفك الدم وحسب؛ بل وامتدت أيضاً لتشمل أعمق ما في التراث الكنسي من روحيات ونسك، فقد تربَّى أثناسيوس وهو بعد شاب على يدي أنطونيوس الكبير، أو كما يقول هو بفمه: [لقد رأيت أنطونيوس مراراً وتعلَّمت منه لأنني لازمته زمناً طويلاً وسكبت ماءً على يديه (أي خدمته)][٢٦]. وهذا مما يرجِّح جدًّا قصة حياته الموجودة بالمخطوطة المذكورة، لأن وجوده في الصعيد في فجر شبابه هيَّأ له الفرصة لكي يتعرَّف على القديس أنطونيوس ويعيش بقربه ويخدمه.

وقد كانت هذه إحدى الاختبارات العظيمة في حياة أثناسيوس، والتي جعلت من إيمانه ولاهوته نوعاً من الجهاد النسكي على مستوى الحب الإلهي الذي اضطرم به قلبه، فهوَّن عليه العذاب والنفي والتشريد، وجعل دفاعه عن الإيمان رسالة حب أكثر منها رسالة تعليم، وعمل فداء أكثر منه عمل واجب!

(25) *Ad. Episcop. Aegypt.* 21.

(26) *Vita Ant.* I.

لقد كان أثناسيوس ناسكاً، لذلك لم يجد لنفسه أفضل من قلالي الرهبان ليقضي فيها معظم أوقات هروبه من وجه الأريوسيين، ملوكاً ورؤساء وأساقفة. كانت قلالي الرهبان في نظره حلوة كخيام يعقوب، حسب قول أثناسيوس نفسه: [وهكذا صارت قلاليهم في الجبال كهياكل مقدَّسة مكتظَّة بجماعة الأتقياء يرنّمون المزامير ويشغفون بالقراءة، يصومون ويصلّون فرحين برجاء الأمور العتيدة ... فكان كل مَنْ يرى مثل هذا النظام الجميل بين الرهبان يرفع صوته ويقول: «ما أحسن مساكنك يا يعقوب، خيامك يا إسرائيل، كأودية ظليلة، كجنّات على نهرٍ، كخيام أقامها الرب، كأرز على ماء».](٢٧)

وكان الراهب في نظر أثناسيوس، بما يقدِّمه من بذل الذات وإنكارها والتضحية بكل أهوائه وشهواته، على مستوى الشهيد والمعترف الذي بلغ إيمانه سفك الدم، وهذا ما يقوله أثناسيوس:

[وعندما توقَّف الاضطهاد أخيراً وأكمل المغبوط الأسقف بطرس شهادته (٢٥ فبراير سنة ٣١١م)، انصرف أنطونيوس واعتزل ثانية في صومعته وبقي هناك، وكان كل يوم شهيداً أمام ضميره، مناضلاً في جهاد الإيمان، وصار نسكه أشد صرامة لأنه كان دائم الصوم.](٢٨)

وهكذا كان تأثير الرهبنة، وبالذات القديس أنطونيوس على نفسية القديس أثناسيوس، عميقاً غاية العمق، إذ ظلَّ وجه أنطونيوس بوداعته وحركاته الهادئة وسلامة نفسه وهدوئه منطبعاً على ذهن أثناسيوس لا يفارقه، مما جعل حياة أنطونيوس أحد المصادر السريَّة الهامة جدًّا التي ظلَّت تنضح على أفكار وسلوك أثناسيوس كل أيام حياته! اسمعه وهو يصف أنطونيوس ولاحظ مقدار تأثُّره الشخصي:

[كان طيباً متواضع الروح ... كانت طلعته تنم عن نعمة عظيمة وعجيبة، وهذه النعمة أُعطيت له من المخلِّص. ومع أنه لم يتميَّز عن الباقين في الطول أو العرض إلاَّ أنه تميَّز عنهم في رصانة الأخلاق وطهارة النفس، لأن نفسه كانت قد خلت من كل شائبة فصارت هيئته الخارجية هادئة، وهكذا حصل من فرح نفسه على طلعة بهجة، وكانت تتبيَّن حالة روحه من حركات جسمه ... كانت نفسه في سلام ولم يكن ذليل النفس أبداً إذ كان قلبه جزلاً.](٢٩)

(27) Ibid. 44.
(28) Ibid. 47.
(29) Ibid. 67.

ولقد كان "النسك" هو إحدى المواهب التي زكّت أثناسيوس لاعتلاء كرسي الأسقفية وهو بعد فتى دون الثلاثين! وهذه هي شهادة أساقفة مصر يصفون حفلة رسامته ويعدِّدون الأوصاف التي قدّمها الشعب تعزيزاً لانتخابه:

[واجتمع كل شعب الكنيسة معاً كما بفكر واحد وجسد واحد، هاتفين بصراخ أن أثناسيوس مستحق بالضرورة أن يكون أسقفاً على كنيستهم، وجعلوا هذا موضوعاً لصلواتهم العامة أمام المسيح، متوسِّلين أن أوافق برجاء، ليلاً ونهاراً، وهم ملازمون الكنيسة لا يريدون أن يفارقوها ولا سمحوا لنا بالخروج منها، ونحن شهود لهذا كله وكل المدينة بل وكل الإقليم (مصر) أيضاً. لم يتكلّم أحد بكلمة واحدة ضد أثناسيوس، بل كانوا يلقِّبونه بأعظم وأكرم الألقاب قائلين: إنه صالح، مسيحي، تقي، "ناسك" (بما يُفهم الآن بكلمة راهب) أسقف حقيقي.](٣٠)

كذلك نجد أن الاتجاه النسكي وممارسة البتولية وحياة العفة صارت خطاً أساسياً في كتابات أثناسيوس، بدأت في أول كتاب له وهو "تجسُّد الكلمة":

[وإن حججنا هذه التي نقدِّمها لا تنبع من كلمات وحسب، ولكن لها شاهد حقيقي لصدقها وذلك بالممارسة والاختبار، والذي يريد أن يتحقّق من ذلك فليذهب ليرى برهان الحق في حياة عذارى المسيح (الراهبات)، وفي حياة هؤلاء الشبان الذين يمارسون حياة العفة المقدَّسة (جماعات الرهبان).](٣١)

والذي يقرأ هذه الكلمات يتبيَّن بلا شك أن القديس أثناسيوس هو كاتب سيرة أنطونيوس الكبير.

مؤلفات أثناسيوس قبل رسامته أسقفاً:

بدأ النضوج الفكري والخصب الروحي مبكِّراً جداً في حياة أثناسيوس. ومعروف كما سبق وقلنا إنه أكمل كتابين من كتبه وهما: "ضد الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة" في سن مبكِّرة جداً حوالي سنة ٣١٨م. فهو لم يذكر فيهما أي شيء عن النزاع الأريوسي الذي انفجر عام ٣١٩م. أمّا هذان الكتابان فقد كتبهما لا كلاهوتي يشرح عقيدة بل كمؤمن يشهد لمخلِّصه، وكتبهما لمنفعة أحد الوثنيين بعد دخوله في الإيمان المسيحي، لذلك نجد الكتابين يكمِّل أحدهما الآخر. فالأول يدحض

(30) *Apologia contra Ar.* 6.

(31) *De Incarn. Verb.* 48, 1,2.

آراء الوثنيين والثاني يثبت الإيمان المسيحي. ويتضح فيهما الفكر اللاهوتي الخاص بمدرسة الإسكندرية الذي ورثه أثناسيوس عن أسلافه ثم عمّقه وأفاض عليه من روحه ومن تجربته الإيمانية، فزاده قوة وأصالة حتى صار أثناسيوس نفسه جزءاً لا يتجزّأ في اللاهوت الإسكندري!

ويقول العالِم موللر[٣٢] وهو لاهوتي كاثوليكي روماني ذائع الصيت (١٧٩٦-١٨٣٨م)، ويعتبر في الرصانة العلمية اللاهوتية الثاني بعد "بوسويه"، في كتابه الذي ألّفه عن حياة أثناسيوس[٣٣]:

[إن كتاب "تجسُّد الكلمة" يُعتبر أول محاولة لشرح المسيحية وتقديم حياة المسيح بأسلوب علمي دقيق؛ حيث برز فيه فكر أثناسيوس العميق المرهف النابع من روح مسيحية رصينة واثقة وهو يوجّه كل شيء نحو شخصية الفادي، ويرسو بكل حقيقة لترتاح برفق على المسيح، فيظهر المسيح في النهاية يملأ كل شيء!!]

وينبغي أن لا يتوه عن بالنا أن الذي يقدِّم هذا التقريظ هو موللر أكبر عالِم لاهوتي ومؤرِّخ في زمانه، وأنه يتكلّم عن الشاب أثناسيوس مؤلِّف كتاب "تجسُّد الكلمة" الذي سنّه لم يكن يتجاوز الثالثة والعشرين و لم تكن له رتبة وقتئذ أكثر من شماس!! وهذا يعطينا فكرة عن مدى عظمة أثناسيوس الحقيقية!!

ثم بالتالي وانطلاقاً من هذه الحقيقة يمكننا أن ندرك مقدار المعونة الفذة التي أدخرها الله للكنيسة وللشيخ الوقور البابا ألكسندروس في شخص هذا الشماس الشاب الملهم، الذي أبقاه الله لزمن الشدة وليصدَّ عن الكنيسة جنون أريوس، ذلك القس الليبي الحقود المتعظِّم، الذي قام ليطعن بابا الإسكندرية متهماً إيَّاه بالسابيلية فسقط هو فيما هو أخطر:

(١) في تجريد المسيح من الأزلية.

(٢) ثم بالتالي إسقاط المسيح من خالق إلى مخلوق.

فتصدَّى له أثناسيوس وظل يصارعه حتى أنهى عليه وعلى تعاليمه، ولكن كلَّفه ذلك جهاد العمر كله وسبع عشرة سنة منفياً خارج كرسيه، لم يهدأ فيها يوماً واحداً.

(32) John Adam Möhler (1796-1838), Great R. C.

(33) *Life of Athanasius,* 2 vols., 1827.

أثناسيوس وصراعه مع الأريوسيين
(قبل مجمع نيقية ٣١٩-٣٢٥م):

إن تحالف الأريوسيين مع الميليتيين جعل من جماعتهم المتحالفة ثقلاً كبيراً جدًّا على الكنيسة في مصر. وينبغي أن ندرك طبيعة كل جماعة بمفردها:

فالميليتيون هم أتباع الأسقف ميليتُس أسقف ليكوبوليس (أسيوط الآن)، وهذا لم يكن له بدعة أو هرطقة لاهوتية معيَّنة، ولكنه كان ثائراً على الكنيسة أيام البابا بطرس بسبب عدم قبوله في شركتها، بعد أن سقط مع جماعة كبيرة في التبخير للأوثان في وقت الاضطهاد الذي أثاره دقلديانوس على الكنيسة سنة ٣٠٣م. فلمَّا قطعته الكنيسة من شركتها في مجمع خاص برئاسة البابا بطرس خاتم الشهداء، أثار قلقاً عظيماً فيها وتزعَّم جماعة اكليروس، منهم أساقفة وكهنة كثيرون، وقام هو برسامات متعدِّدة من أساقفة وكهنة ورهبان حتى زادت شيعته جدًّا. وقد رُفع أمرهم إلى المجمع المسكوني في نيقية، فاتخذ المجمع قراراً متخاذلاً بقبولهم في الكنيسة على أن يكونوا جميعاً خاضعين للبابا ألكسندروس وأن يُعطى لأساقفتهم الكراسي التي تشغر بنياحة أساقفتها الأصليين (الأرثوذكس) وبعد موافقة البابا ألكسندروس. أمَّا ميليتس نفسه فاحتفظ له المجمع بلقب أسقف ولكن لم يصرِّح له المجمع بإيبارشية بعد إسقاطه من كرسيه. وقد ظلَّ ضعيفاً محدود السلطان حتى نال من يوسابيوس النيقوميدي التشجيع والمعونة والسلطان الإمبراطوري.

ولقد زادت وطأة الميليتيين وقويت شوكتهم جدًّا بعد رسامة القديس أثناسيوس سنة ٣٢٨م. وذلك باتصالهم بالأسقف الأريوسي يوسابيوس أسقف نيقوميدية (الذي وقَّع على قانون نيقية كذباً وخداعاً)، الذي كان صديقاً حميماً للإمبراطور قسطنطين، ويُظن أنه كان من عائلته، وهو الذي عمَّده قبل موته، بل وكان صديقاً أيضاً للإمبراطور قسطنطيوس. ويوسابيوس هذا هو الذي كان يدبِّر جميع المؤامرات ضد أثناسيوس، مستعيناً بقوة الدولة مستغلاً صداقة الأباطرة إلى أقصى حد، وقد استطاع أن ينقل نفسه بانتقال العاصمة من نيقوميدية إلى القسطنطينية وظلَّ فيها حتى مات سنة ٣٤٢م. ويوسابيوس هو الذي استغل الميليتيين في مصر وضمَّهم إلى صفوف الأريوسيين. أمَّا سبب صداقة يوسابيوس النيقوميدي الشديدة لأريوس فيرجع إلى أنهما كانا معاً يتلقيان دروس اللاهوت في مدرسة "لوسيان" بأنطاكية.

ويُعتبر يوسابيوس هذا أنه هو المسئول الأول أمام الله والكنيسة في جميع العثرات والقلاقل التي حدثت لها من جراء هرطقة أريوس. لأنه بواسطة يوسابيوس هذا استطاع أريوس وهو مجرَّد قسيس

أن يفرض قضيته الفاسدة لتُسمع لدى الكنيسة كلها، مع أنه كان من الحق كل الحق أن يكتفى بفحص أمره محلياً وبواسطة رئيسه المباشر البابا ألكسندروس ويُحكم عليه ويُدان، ويكون حكم ألكسندروس نهائياً. ولكن تدخُّل يوسابيوس في إبطال حكم البابا ألكسندروس الذي اتخذه ضد أريوس في مجمع محلي بالإسكندرية سنة ٣٢١م، ثم بمحاولة يوسابيوس مرَّة أخرى لدى الإمبراطور، نجح في رفع قضيته إلى مجمع مسكوني.

ولكن من المعروف أن البابا بطرس هو الذي رسم أريوس الليبي شماساً، ولكنه عاد بسرعة وأسقطه من رتبته، ثم جاء البابا آرخيلاوس وأعاده إلى الشركة ورسمه قساً. وكان أريوس يطمع في أسقفية الإسكندرية فلمَّا خذلوه ورُسم ألكسندروس، بدأ ينفث حقده وانتقامه علناً في الكنيسة(٣٤).

وإن السر الأعظم الذي يكمن وراء هرطقة أريوس وكفره وعناده الشنيع يمكن أن نلخِّصه بكل قوة وكل اختصار في أن أريوس كان يملك معرفة دينية، ولكن لم يكن يملك أخلاقاً دينية. وقد وجد له صديقاً يماثله في كل شيء كان له نصيراً في كل شروره هو يوسابيوس النيقوميدي. ويقول عنه "جواتكن" المؤرِّخ المشهور: "كان يوسابيوس النيقوميدي غير عظيم في شيء ولا كان نيِّر الفكر"(٣٥). وصدق ما يقوله مار إسحق أسقف نينوى: "إن كل مَنْ يتعظَّم بمعرفته يسقط في أحد شرَّين: إمَّا التجديف على الله أو في زنا نجس".

ولكن شكراً لله الذي كان قد أعد للكنيسة في هذا الوقت الحرج قديساً ابن قديس، أثناسيوس ربيب أنطونيوس، لكي يدافع لها عن المعرفة الدينية الصادقة والأخلاق الدينية الطاهرة، ويرسم أمامها قانون إيمانها الذي عاشت ولا تزال تعيش به حتى اليوم.

ومعروف أن النزاع الأريوسي عاصره أثناسيوس منذ أول لحظة، وهو شماس، متصدياً له ونازله، كما يقول المؤرِّخ اللاهوتي دورنر(٣٦): "بأسلحة بالغة الاكتمال والقدرة، فأثناسيوس كان قد تكامل في نضجه الروحي واللاهوتي، وملك في قلبه وعقله كل الردود المفحمة على أسئلة أريوس التهكُّمية، لأنه كان قد بلغ أوج إلهامه في الإحساس بالفادي وإدراكه ككلٍّ لا يتجزَّأ، وهذا الإلهام

(34) Theodoret, *E. H.*, 1, 2.

(35) Gwatkin, *Studies of Arianism,* 1882, p. 38.

(36) Dorner, Isaak August (1809-1884): *Treatise on the Doctrine of the Person of Christ* (Eng. tr., 5 vols., 1861-1866).

بالمسيح ككلّ ظل سلاحه الذي استطاع أن يحطّم به كل نظريات أريوس العقلية الفاسدة".

انحرف أريوس في تيّار الأسلوب العقلي وأخضع الإنجيل لفكره، وأراد أن يحدِّد صفات المسيح الجوهرية بنفس الأسلوب المنطقي الذي يحدِّد به الأمور المنظورة الأخرى: [إن كان هناك آب وابن، فالآب يلزم أن يكون سابقاً للابن ... والنهاية فالابن منفصل عن جوهر الآب!].

ثم من جهة أزلية الابن، فإن أريوس يجحدها لأنها تقف حجر عثرة أمام الأسلوب العقلي المغلق الذي يريد أن يحدِّد بنفسه البدايات والنهايات لكل ما يدخل تحت الفحص العقلي: [الآب خلق لنفسه ابناً من لا شيء كأداة يخلق بواسطتها العالم].

أثناسيوس يرد على الأسلوب العقلي المغلق بأسلوب عقلي منفتح على الله خاضعاً للّانهائيات وليس مخضَعاً لها:

[أنتم أيها الأريوسيون بكلامكم هذا تبرهنون على ضعف الخالق (الآب). إذ أنه يكون كأنه لا يملك القوة ليخلق الكون بنفسه فاضطر أن يخلق أداة خارجة عنه، كنجّار يصنع لنفسه أولاً المنشار! وهل يمكن أن يكون شيء أكثر كفراً من ذلك؟

+ كذلك هل من اللائق أن نوازن ونقيس بين البنوَّة الإلهية بما يقابلها في الطبيعة البشرية؟ ... فتسألون (بتهكُّم) هل ممكن أن يكون للإنسان ابن قبل أن يلده؟ (يشير الأريوسيون بذلك إلى أن ابن الله خُلق من لاشيء وأنه كان في وقت ما غير موجود "غير أزلي").

+ فإذا فرضنا (فرضاً جدلاً وهذا غير صحيح) أن الآب لا يكون له ابن قبل أن يلده، لكن السؤال هو وماذا يكون بعد أن يلده؟ هل يكون الابن كأنه غريب عن الآب كأنه من خارجه؟ أم يكون هو من ذاته ومساوٍ لطبيعته وطبق الأصل لصورته، حتى إن الأول (الآب) يُرى في الآخر (الابن) والآخر (الابن) يُرى في الأول (الآب)؟

+ فالآن إن كان لك ابن فهل أنت اشتريته من الخارج كبيت أو خلافه؟ أم تقول إن ابني هذا هو مني خاصة ومساوٍ لطبيعتي؟ مولود مني وليس صائراً لي من آخر حيث أنا أيضاً بكلّيتي فيه مع أني باقٍ بنفسي ما هو أنا!!

+ والآن إذا رفعوا أمامنا سؤال الزمن، فعليهم أن يقولوا ما هو الذي يمنع في خاصية الله من أن يكون دائماً أباً للابن (ديمومة الأبوَّة والبنوَّة في الله وأزليتها هي من أخص مميزات

الطبيعة الإلهية).

فإذا سألوا امرأة في اعتبار الزمن (بالنسبة للولادة)، عليهم أن يسألوا الشمس فيما يختص بشعاعها (هل يمكن أن توجد الشمس بدون شعاع؟). كذلك عليهم أن يسألوا الينبوع بخصوص ما يتولّد منه أو يخرج منه. فهذه الأمور - أي الشعاع الخارج من الشمس والنهر الخارج من الينبوع - نجدها ولو أنها نتاج لآخر غيرها، إلاَّ أن وجودها قائم دائم وباستمرار (بدون أي فاصل زمني على الإطلاق) مع مصدرها الذي منه خرجت.

والآن إذا نظرنا إلى طبيعة الآباء هكذا (أي بنفس هذا الاعتبار)، نرى أنه يوجد فعلاً لهم مع أولادهم وجود طبيعي وديمومة، ... ألم يقل الكتاب إن لاوي كان موجوداً في صلب أبيه "إبراهيم" (حينما تقبَّل إبراهيم البركة) وذلك قبل أن يولد لاوي بمئات السنين؟

فإذا كان الله في تصوُّر الأريوسيين أقل من هذه الأمور، ألا يُحسب لهم هذا كُفراً وعلى المكشوف؟

... ومن هذا بالتالي يكون أن "الكلمة" باعتبار أنه من الله فهو يكون ذا وجودٍ مساوٍ دائم معه، وبه أيضاً جعل الآب كل الأشياء التي كانت غير موجودة جعلها موجودة.

وهكذا، فكون الابن لم يوجد من لا شيء بل هو أزلي ومن الآب، أمرٌ مؤكَّد بطبيعة الحال.

أمَّا هؤلاء الهراطقة فسؤالهم الذي يقولونه للوالدين (بخصوص استحالة إمكانية القول بوجود ابن قبل أن يولد)، فهو في الحقيقة يكشف التواءهم وزيغانهم عن الحق، لأنه قد تحقَّق أمامهم إمكانية ذلك حتى على المستوى الطبيعي، وها نحن قد وضعناهم موضع الخجل بالنسبة لموضوع الزمن أيضاً.](٣٧)

وبهذه الروح الواعية وبإحساسه المتكامل العميق بحقيقة المسيح ووجوده الأزلي مع الآب رافق أثناسيوس معلّمه البابا ألكسندروس، ميمِّماً شطر نيقية سنة ٣٢٥م للدفاع ضد أريوس عن يقين الإيمان بالفادي الذي أحبَّه. وكان أثناسيوس قد بلغ من عمره وقتئذ عامه التاسع والعشرين.

(37) Four Discourse Against the Arians: Discourse I, 26, 27.

أثناسيوس في مجمع نيقية: سنة ٣٢٥م

[إن السؤال الذي طرحه الآباء في مجمع نيقية لم يكن فحصاً لفحوى معاني الأسفار المقدَّسة بحسب رؤيتهم، ولا كان في ذهنهم مسبقاً أنهم سيتجادلون عمَّا تعنيه الأسفار من المعاني التي تنطبق وفكر الله نفسه، ولكن الذي كانوا يعنونه جدًّا هو شيء مختلف عن هذا تماماً، وهو أن يشهدوا بما تسلَّموه!!!

وكانوا يدركون تماماً أنهم إنما هم شهود وليسوا مفسِّرين!!

وكانوا يحملون عبء مسئولية شعروا تماماً أنها أُلقيت على عاتقهم ولابد أن يتمِّموها، وهي أن يسلِّموا للمؤمنين هذا التراث الصالح الذي استلمته الكنيسة بحسب وصية الله!

وكانوا جدّ واعين أن حاجتهم العظمى ليست إلى العلم بل إلى الأمانة!!

وكان السؤال المطروح عليهم للإجابة عليه ليس هو ما كانوا يعتقدونه أنه أكثر احتمالاً أو ترجيحاً أو حتى يقيناً من الكتب المقدَّسة؛ بل ما هو الذي تعلَّموه الذي استؤمنوا عليه ليسلِّموه للآخرين.](٣٨)

كان أثناسيوس في نيقية ـ بحد تعبير غريغوريوس النزينزي: "أعظم المرافقين للأساقفة"(٣٩)، "مجاهداً أقصى ما يكون الجهد لحصر هذه الكارثة وضغطها في أقل حيِّز ممكن"(٤٠). وسر نصرة أثناسيوس في مجمع نيقية كان يكمن بصورة أساسية في ثقته بالمسيح الفادي الذي كان يدافع عنه، فكان أثناسيوس يملك الحقيقة لا في عقله ولا في لسانه فحسب، بل في قلبه، في شخص يسوع الذي كان يتكلَّم فيه بروحه القدوس عند افتتاح فمه.

ويمكننا أن نتصوَّره، كما يصفه غريغوريوس أيضاً، بوجهه الملائكي وجسمه النحيف ـ الذي

(38) Athanasius, NPNF, 2nd ser., vol. IX, p. 2.

(39) Greg. Naz., *Orat.* 21.

(40) Ibid.

أصبح مرعباً لدى كل الخارجين عن الحق - وجبهته العريضة وعينيه اليقظتين، يرقب حركات الأريوسيين بنباهة وذكاء وحذر فائق، ليقطع عليهم كل طرق اللف والدوران والخداع والمؤامرة. وإليك ما ورد على قلمه في دفاعه عن قانون نيقية، حيث ترى في كلامه مستوى اليقظة التي يراقب بها هؤلاء الأساقفة الأريوسيين اللصوص:

[وعندما قال الأساقفة (الأرثوذكس) إن "الكلمة" يتحتَّم أن يوصَف "**بالقوة الحقيقية**" و"صورة الآب في **كل شيء مثله بلا تغيير**"، "دائم"، "**موجود فيه بلا انقسام**"، "لم يكن الكلمة قط غير موجود بل **دائم الوجود**"، "**أزلي مع الآب كشعاع النور للنور**"؛ وإذا بيوساب (الذئب النيقوميدي) وجماعته وأتباعه عندما لم يجدوا مفرًّا من الاحتمال (لهذه الأقوال) إذ لم تكن لديهم الجرأة للاعتراض لأنهم صاروا في خزي بسبب الاحتجاج الذي صار ضدَّهم، أخذوا يتهامسون الواحد مع الآخر ويغمزون بعيونهم.](٤١)

وهنا أدرك القديس أثناسيوس أنه أمكنهم قبول كل هذه الأوصاف إذ وجدوها هي بعينها قد استخدمتها الأسفار في وصف علاقة الإنسان العادي بالنسبة لله في أماكن كثيرة. فما كان من الأساقفة الأرثوذكس، وبتوجيه من أثناسيوس، إلاَّ أن أعادوا الصيغة مرة أخرى وأضافوا إليها صفة جديدة في وصف "الكلمة" وكانت معروفة سابقاً(٤٢)، وكانت هي الضربة القاضية التي كشفت كل مؤامرة الأريوسيين وأوقعتهم في الفخ الذي نصبوه. أمَّا هذه الصيغة فكانت: "**وأنه واحد مع الآب في الجوهر.**"(٤٣)

وكانت سرعة أثناسيوس في كشف نقط الخبث عند الأريوسيين يقابلها سرعة الرد وشدَّة الحجة واقتباس الآية، فكانت في الحقيقة قوة عظيمة لائقة بهذه المحنة العظيمة!!

ولم يكن أثناسيوس مجرَّد محاجج بل كان يستطيع في نهاية كل المحاجاة أن يضع المبادئ التي كانت موضع المناظرة في صورة قانون واجب القبول والنفاذ. ولذلك انتهت جميع المباحث والحجج والمناظرات في مجمع نيقية إلى مبادئ إيجابية غاية في الرصانة اللاهوتية تنبع من الإنجيل وتصب فيه، أي أنها تأخذ قوتها من الآيات ثم تعود على الآيات نفسها بالتوضيح والتطبيق. فمثلاً:

١ - تأكَّد لدى الكنيسة بصورة واضحة لاهوت المسيح في مواضع كثيرة من الأسفار المقدَّسة.

(41) *De Decr.* 20.

(٤٢) انظر شرح "الهوموؤوسيوس" في الجزء الثاني من الكتاب.

(43) *De Decr.* 20. and *ad Afr.* 5.

٢ ـ تأكّد لدى الكنيسة لاهوت المسيح بصورة واضحة في معنى كلمة "الابن الوحيد" (مونوجينيس).

٣ ـ تأكّد لدى الكنيسة أن لاهوت المسيح ضرورة جوهرية لتكميل عمل الفداء بالتدبير الإلهي.

٤ ـ تأكّد لدى الكنيسة لاهوت المسيح بشهادة التقليد كحق قائم ثابت محفور في وعي الكنيسة منذ البدء وعلى مر العصور لا يمكن أن يزعزعه مبتدع.

وإن كان أثناسيوس قد التزم دائماً بالنصوص الإنجيلية لا يحيد عنها في وصف لاهوت الكلمة، وأضفى هذا الطابع بأكمله على كل مجمع نيقية حتى الخصوم أيضاً ألزمهم بقبول هذه القاعدة ـ وذلك عن قناعة تامة بأنه لا يمكن أن يوجد في لغة البشر خارجاً عن الإنجيل ما يمكن أن يعبِّر عن لاهوت المسيح تعبيراً كافياً يكون خالياً من مأخذ ـ إلاَّ أنه وبالرغم من ذلك اضطر مع الآباء بسبب مكر والتواء الأريوسيين إلى تحديد التعبير اللاهوتي الجديد لقطع خط الرجعة على استخدامهم كل شيء، حتى الآيات، في الإخلال بلاهوت الابن:

[والمجلس (والإشارة هنا خفية لأثناسيوس نفسه) وهو برغبة في الإطاحة بأسلوب الأريوسيين في استخدامهم الجمل الكُفرية، اتخذ عوضاً عن العبارات العادية، نفس كلمات الأسفار المقدَّسة مؤكِّداً أن "**الابن مع الآب**" وليس من لا شيء (كما يقولون) وهو "**الكلمة**" و"**الحكمة**" وليس خليقة ولا عملاً وإنما ابن حقيقي للآب.

ولكن يوسابيوس مع أتباعه وهم مساقون مع عنادهم غير المستقيم، اعتبروا أن صفة الابن "من الله" هي له كما هي لنا نحن أيضاً (لأننا من الله)، وكأن «كلمة الله» لا يختلف شيئاً عنَّا، كالمكتوب. «يوجد إله واحد الذي منه كل شيء»، فانتبه الآباء لهم وأدركوا خبثهم ودهاءهم في تزكية كفرهم واضطروا أن يشرحوا بوضوح أكثر معنى القول: إن الكلمة هو "من الله" فكتبوا أنه "من جوهر الله ὁμοούσιον" وهذا حتى لا يستطيعوا أن يستخدموا كلمة "من الله" استخداماً مشتركاً بين "الابن" وبين الأشياء المخلوقة.](٤٤)

هذا الاصطلاح homoousion الذي كان قد استُخدِم سابقاً لكي يعبِّر عن الإيمان الصحيح بالمسيح كونه "ابن الله الحقيقي"، اختير في مجمع نيقية ليكون محكاً دقيقاً لمدى التزامهم بالآيات التي توضِّح لاهوت المسيح.

(44) *De Decr.* 19.

والأمر الذي يجب أن ننتبه إليه هو أن خصـوم أثناسيوس في المجمع وبعده كانوا مماحكين إلى أقصى حد حتى في استخدامهم الآيات، أمَّا أثناسيوس فكان دائماً ومنذ شبابه يتكلّم ويدافع ويبرهن ويستخدم الآيات بدافع واحد يملك عليه كل تفكيره وشعوره وحماسه، وهو إخلاصه الشديد للمسيح الذي يحبه، وغيرته الملتهبة في تكريمه وتعظيمه تعظيماً لائقاً بلاهوته. فكل عبارات أثناسيوس اللاهوتية، وبالأخص homoousion أي "مساوٍ للآب في الجوهر"، تتعدَّى الوضع النظري أو التحديد القانوني لتعبِّر عن حقيقة يراها أثناسيوس ويوقن بها ويجاهد حتى يراها الكل أيضاً ويوقنون بها!

وهذا يتضح من رسالته إلى أساقفة مصر: [إني أهيب بكم أنتم الذين وُضع تحت أيديكم اعتراف قد تحدَّد في نيقية بعد أن دافع عنه الآباء بغيرة عظيمة وثقة في الرب.](٤٥)

العودة المنتصرة وآلام في الأفق:

لم يكن شيء في ذهن أثناسيوس وهو في طريقه إلى نيقية أقوى يقيناً من أن يسوع المسيح هو ابن الله متجسِّداً بكل معنى الكلمة وقوَّتها!!

وبالتالي لم يكن في ذهنه وهو عائد من نيقية أقوى تعبيراً عن لاهوت المسيح من اصطلاح الـ ὁμοούσιον، أي أن المسيح مساوٍ للآب في الجوهر، إذ كان يعتبره أثناسيوس أنه هو الاصطلاح المركّز والمختصر الذي يضعنا في حالة الالتزام بعبادة المسيح عن استحقاق كلّي وبكل تقوى ووقار!!

وبهذه الروح كان أثناسيوس يرى أن أية معاناة في سبيل المناداة بهذا الإيمان والشهادة له هي جزء لا يتجزَّأ من العبادة بل من الأمانة بل من الحب. وكانت الآلام والمعاناة بالفعل قريبة جدًّا من أثناسيوس، فنحن نعلم أن نياحة البابا ألكسندروس حدثت بعد خمسة شهور فقط من ختام جلسات نيقية، حيث بدأ بالفعل مشوار الجهاد الطويل الممزوج بالعذاب والألم الذي كان ينتظر أثناسيوس! ...

[كان بطرس أسقفاً بيننا قبل الاضطهاد، وفي أثناء الاضطهاد استشهد. أمَّا ميليتس الذي كان يحمل لقب "أسقف ليكوبوليس" فقد ثبتت عليه جرائم كثيرة ومن ضمنها تقديم ذبائح للأوثان في زمن الاضطهاد الذي وقع سنة ٣٠٣ م. فأسقطه بطرس عن كرسيه في مجمع عام، ... ومنذ

(45) *Ad Episcopos Aegypti* 21; NPNF, 2nd series., vol. IV, p. 234.

ذلك الحين بدأ يناوئ الأساقفة ويلقي عليهم بالاتهامات الكاذبة، ضد بطرس نفسه وضد خليفته أرخيلاوس، وبعد أرخيلاوس ألكسندر، ... وبينما ميليتس (يعمل لحساب الشيطان) قامت هرطقة أريوس بالإضافة. ولكن بينما في مجمع نيقية وقعت الحروم على البدعة الأريوسية وأُسقط الأريوسيون من كراسيهم، نجد الميليتيين يعودون ويدخلون (الكنيسة) مرَّة أخرى، لست أعلم على أي أساس ولا داعي الآن لذكر السبب – (أثناسيوس هنا يهاجم بصورة خفية قرار مجمع نيقية بذلك ورضوخ ألكسندروس في قبول الميليتيين).

ولكن لم يمضِ على ذلك سوى خمسة شهور وتنيَّح المغبوط ألكسندر (٢٢ برمودة – ١٧ أبريل سنة ٣٢٨م). وبينما كان ينتظر أن يبقى الميليتيون في هدوء ويكونوا شاكرين بسبب قبولهم، ولكنهم كانوا كالكلاب التي حنَّت إلى قيئها فبدأوا يقلقون الكنيسة.

وإذ علم يوسابيوس الذي كان يرأس ويقود الهرطقة الأريوسية (أسقف نيقوميدية صديق قسطنطين الملك) بموت البابا ألكسندر، أرسل واشترى الميليتيين بوعود كثيرة وكبيرة وصاروا بالفعل أصدقاءه السريين.

ولكن يوسابيوس أرسل في البداية إليَّ أنا شخصياً يحضُّني على قبول أريوس وأتباعه في الشركة وهدَّدني شفهيًّا مع رسوله، أمَّا خطاباته فكان فيها يتوسَّل!!

فلمَّا رفضت معلناً أنه ليس من الحق أن الذين ابتدعوا هرطقة ضد الحق ووقعت عليهم حروم من مجمع مسكوني أن يصرِّح لهم بدخول الشركة، استعدى عليَّ الإمبراطور قسطنطين المطوَّب الذكر الذي كتب إليَّ مهدِّداً أنه في حالة عدم قبول أريوس وأتباعه سيُنزل عليَّ المحن التي سبق أن عانيتها والتي الآن أنا أُعاني منها!!](٤٦)

(46) *Apol. Contr. Arian. 59.*

الفصل الثاني

تقديم أثناسيوس أسقفاً على الإسكندرية

وجهاده حتى منفاه الأول

[إن اسم أثناسيوس الخالد لا يمكن أن ينفصل أبداً عن عقيدة الثالوث التي كرّس لها حياته وكل قدراته العقلية وكل كيانه ... وقد شهدت كل ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية ما كان يتحلّى به أثناسيوس من فضائل وما كان يعانيه من آلام في سبيل قضية وحدة الابن مع الآب في الجوهر التي أصبحت عمله الوحيد وهمّه الوحيد.] المؤرِّخ جيبون(١)

كانت نياحة البابا ألكسندروس في ٢٢ برمودة الموافق ١٧ أبريل، أي في موسم الصوم الفصحي سنة ٣٢٨م. بعد أن أرسل أول خطاب فصحي دوري لجميع أساقفة العالم محدِّداً فيه ميعاد بدء الصوم وميعاد القيامة، وذلك بمقتضى التكليف الذي صدر من مجمع نيقية إلى الكرسي الإسكندري، باعتبار المصريين أقدر أساقفة العالم من جهة الحسابات الشمسية والقمرية.

ولكن لم تعبر نياحة هذا البابا القديس اللطيف الهادئ (بحسب وصف المؤرِّخ روفينوس)(٢) دون إشارة إلهامية من الروح القدس بخصوص مَنْ سيخلفه على الكرسي، من أجل هذه المهمة السماوية الخطيرة التي بدأها ا لله على يديه ألا وهي الدفاع عن الإيمان الصحيح والشهادة للاهوت المسيح. فألكسندروس وهو في النزع الأخير، وكل الإكليروس مجتمعون حوله يتباركون منه، بدأ ينادي بإلحاح: "أثناسيوس ... أثناسيوس". ولكن لأن أثناسيوس كان يخشى هذه اللحظة وما يمكن أن يكون وراءها من مسئولية، هرب. فلمَّا كرَّر البابا نداءه: "أثناسيوس ... أثناسيوس"، ردَّ عليه أحد الإكليروس من الواقفين وكان يُدعى أثناسيوس أيضاً، فاستنكر البابا رد هذا المدَّعي، وبدأ ينادي أثناسيوس أيضاً. ولكن عندما تحقَّق من عدم وجوده قال: "وهل تظن أن بهروبك يمكنك أن تفلت ... لا يمكن".

انقضى شهران إلاَّ قليلاً بين نياحة ألكسندروس (١٧ أبريل سنة ٣٢٨م) ورسامة أثناسيوس (٨ يونيو سنة ٣٢٨م)، بعد أن تعبَّأ لها الرأي العام بصورة ساحقة، فيما عدا قلة مغرضة من الأريوسيين والميليتيين، بتحريض من الأسقف يوسابيوس النيقوميدي ـ الذين تجرَّأوا ورسموا أسقفاً من قِبَلِهم كان مقطوعاً من الشركة اسمه "ثيئوناس"، كان سابقاً أسقفاً على منطقة مارمريكا، ولكن لم يستطيعوا تقديمه إزاء إجماع

---

(١) اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الفصل ٢١. [مع ملاحظة أن المؤرِّخ جيبون لا يُعتبر مسيحياً، فهو يسخر من الكنيسة وكل رجال الكنيسة، و لم يترك شخصية إلاَّ وفضح عوارها ما عدا القديس أثناسيوس الذي لم يتمالك إلاَّ أن يشيد به في كل موضع يأتي فيه ذكره].

(2) Ruf., *Ec. Hist.* I, 1.

وقيل عن هذا البابا القديس إنه لم يقرأ الإنجيل في حياته قط وهو جالس، كما قيل إنه لم يأكل قط طعام إفطاره في أيام الصوم إلاَّ بعد غروب الشمس. Bolland Act. SS., Feb. 26.

الرأي الهائل حول أثناسيوس، الذي ناهز المائة أسقف (٩٤ أسقفاً مقابل ٣٥ من الميليتيين) من الإسكندرية ومصر وليبيا[٣]، بالرغم من الاعتراضات التي أُبديت من جهة صغر سنه، إذ كان وقت رسامته قد قارب الثلاثين من عمره فقط وهو دون السن القانونية بحسب التقليد الكنسي.

وكانت تزكية جميع أساقفة الإسكندرية ومصر وطيبة وليبيا والخمس مدن، كما وصفناها في صفحة ٥٨، تشهد بذلك. إذ يقرر هؤلاء الأساقفة في رسالتهم لإخوانهم أساقفة العالم:

[**إنه قد اُختير بأغلبيتنا العظمى على مرأى من جميع الشعب وباستحسانه، ونحن الذين أقمناه نشهد بذلك كشهود عيان، وتُعتبر شهادتنا أصدق من الذين لم يحضروا رسامته وجاءوا الآن لينشروا تقاريرهم المزيَّفة**، وهوذا لا يزال يوسابيوس (أسقف نيقوميديا عاصمة الإمبراطورية) يجد أخطاءً في اختيار أثناسيوس أسقفًا، الذي هو نفسه ربما لم يتلقَّ أية موافقة عند اختياره على الإطلاق، وحتى ولو كان قد حاز على موافقة فهو نفسه قد جعلها بلا أية قيمة.][٤]

ويعلِّق على هذه الوثيقة التاريخية المؤرِّخ جيبون بقوله: [ولا يمكن أن يُعقل أنهم يشهدون هكذا رسمياً لحادثة يمكن أن تكون مكذوبة.][٥]

ويقرِّر أيضاً القديس غريغوريوس النزينزي: [إنه بأصوات الشعب كله وتشفُّعاته – وليس بالعنف وإراقة الدماء التي سادت بعد ذلك – بل إنما في وقار رسولي وروحاني أُقيم أثناسيوس على عرش مارمرقس.][٦]

لم تكن أسقفية أثناسيوس على كرسي الإسكندرية شيئاً قليلاً، فكان يترأس وقتها على ١٢٩ أسقفاً من مصر وليبيا والخمس مدن. فوإن كانت الإسكندرية في ذلك الوقت وما قبله تعتبر الثانية (أي بعد روما) في الأهمية السياسية كمدينة، ولكن بالنسبة للدفاع عن الإيمان المسيحي بل وبالنسبة للمعرفة اللاهوتية عموماً والروحية خصوصاً، كانت كنيسة الإسكندرية "أم كنائس العالم" وأسقفها عظيم الأساقفة بلا منازع، أو بحد تعبير القديس باسيليوس: "أسقف الأساقفة".

(3) a. Epiphan., *Haer.* 68.
b. Gwatkin, *op. cit.*, p. 66.
c. Church Quarterly Rev., XVI, p. 393.

(4) *Apologia contra Ar.* 6.

(5) Gibbon, *D. & F.*, ch. 21.

(6) Greg. Naz., *Orat.* 21, ch. 8.

ولكن هذه المضادة المؤلمة: أن تكون الإسكندرية الثانية بعد روما، أو ربما الثالثة بعد القسطنطينية، في الأهمية السياسية ثم تكون هي بآن واحد الأُولى والعُظمى على المستوى اللاهوتي والعلمي والروحي معًا؛ هذا أنشأ صراعاً كان لابد أن يكون بين الأساقفة الخاملين لهذه المدن السياسية المرموقة وبين أسقف ذائع الصيت لاهوتي عالِم على أعلى مستوى روحاني يجلس على كرسي مدينة تحت الاحتلال والقهر السياسي! ... على أن هذه المضادة الحزينة المؤلمة ظلَّت قائمة لا في زمن أثناسيوس فحسب؛ بل وفي زمن البابا ثاوفيلس ثم البابا كيرلس الكبير، حتى انتهت بالبابا ديسقوروس الذي دفع ثمن القهر السياسي قهراً لاهوتياً وأدبياً (ملفَّقًا) عندما رخصت المعايير اللاهوتية والأدبية، وانحنت في ذلة الاستجداء للمجد الدنيوي حينما ازداد تعظُّم السياسة وسطوتها وتغلغلها في الدين وارتداؤها أخيراً لباس الكهنوت! ...

ألقاب القديس أثناسيوس التي كان يُخاطَب بها:

كان لقب القديس أثناسيوس المحبوب لدى كل المصريين هو "أبونا" ولكن في أعلى معنى للكلمة، وهذا يتضح من الحوار الآتي، وهو بين الدوق أرتيميوس المُرسَل من الإمبراطور للتفتيش على القديس أثناسيوس والقبض عليه سنة ٣٥٩-٣٦٠م، وبين رهبان دير بافو الذي كان يقيم فيه القديس باخوم مع أولاده. فعندما وصل هذا الدوق إلى الدير سائلاً عن البابا أثناسيوس جاوبه الرهبان هكذا: [وإن كان أثناسيوس هو **أبونا بعد الله**، إلاَّ أننا لم نَرَ وجهه حتى الآن].

وفي نفس هذا التاريخ بالذات أرسل القديس أثناسيوس رسالة لكافة رهبان البراري كان عنوانها كالآتي: [أثناسيوس **رئيس أساقفة الإسكندرية** إلى المتوحدين].

على أن اللقب الكنسي الذي كان يُذكر به في الكنيسة عامة كان لقب "**بابا**" أو "**باباس**". وأول مَنْ أُطلق عليه هذا اللقب هو هيراكلاس البابا الثالث عشر، وهو لقب روحي صرف يفيد معنى الأبوَّة العزيزة.

وقد قال عنه القديس غريغوريوس النزينزي: [إن رأس كنيسة الإسكندرية **هو رأس العالم**.](٧)

أمَّا القديس باسيليوس الكبير فكان يعتبر القديس أثناسيوس "أسقف الأساقفة". وقد أرسل إليه مستغيثاً ليتدخَّل في مشكلة أنطاكية ويستميل إليه مناصرة الغرب، وخاطب أثناسيوس بقوله: [إن

(7) Dean Stanley, *op. cit.*, p. 231.

حسم النزاع في مشكلة أسقف كنيسة أنطاكية منوط بك وحدك بوصفك **أسقف الأساقفة**].

الأيام الأولى في أسقفية البابا أثناسيوس:

يلزمنا منذ الآن أن نعلم أن حياة القديس أثناسيوس في أسقفيته انقسمت بصورة واضحة جدًّا إلى فترات هدوء واستقرار، وفترات عنف ونفي. وسوف نوضِّحها في نهاية سيرته في جدول عام. أمَّا الآن فنكتفي بالقول إن بداية أسقفية القديس أثناسيوس كانت فترة هدوء واستقرار استمرت من ٨ يونيو سنة ٣٢٨م إلى ١١ يوليو سنة ٣٣٥م وهي فترة زمنية تبلغ سبع سنوات وشهراً واحداً وثلاثة أيام.

فأعمال القديس أثناسيوس في هذه الفترة الهادئة قليلة، أو على وجه أصح لم يبلغنا عنها شيء يُذكر إلاَّ خبرين، أولهما هذا الخبر الهام جدًّا وهو: اضطلاع أثناسيوس برسامة فرومنتيوس أسقفاً على كرسي أكسوم في الحبشة أي أثيوبيا، وهذه كانت بداية تأسيس كنيسة رسمية على هذه الديار المباركة، والقصة كالآتي:

كان البابا أثناسيوس يوماً جالساً وسط الأساقفة في مجمع ملتئم بالإسكندرية، عندما حضر شخص قال إنه قادم من بلاد أثيوبيا يتوسَّل لمقابلة القديس أثناسيوس في أمر هام، وأبلغ الرسول أن اسمه "فرومنتيوس". وقص على القديس أثناسيوس قصته هو وأخاه "إيديسيوس"؛ كيف أنهما مسيحيان وكيف كانا وهما شابان ضمن رفقة قريب لهما يُدعى "ميروبيوس" وهو رجل فيلسوف، في رحلة إلى بلاد أثيوبيا. وفي العودة عندما رست السفينة في إحدى موانئ البحر الأحمر في حدود أثيوبيا داهمها بعض القبائل المتوحِّشة، ونجا "فرومنتيوس" وأخوه بأعجوبة، وبيعا كعبدين للملك، ولكن الملك أحبهما واستأمنهما على خدمته. وكان "إيديسيوس" ساقياً للملك وكان ذا إيمان طاهر ونفس صاحية.

وبعد موت الملك عيَّنوا فرومنتيوس حارساً ورائداً لابنه، فانتهز فرصة وظيفته وبدأ يشيِّد أماكن للعبادة لزملائه المسيحيين المتغرِّبين في هذه البلاد للتجارة. كما بدأ ينشر التعاليم المسيحية بين المقرَّبين إليهما من الشعب الأثيوبي. وقد تأثَّرت الملكة بأخلاقهما وتعاليمهما وقبلت الإيمان المسيحي هي وبعض أشراف المملكة. فلما استولى ابن الملك على الحكم سنة ٣٢٨م استعفى فرومنتيوس وأخوه من خدمة الملك بالرغم من الإلحاحات الكثيرة التي قدَّمها لهما الملك وأُمه، وعادا مرَّة أخرى إلى "العالم الروماني".

أمَّا "إيديسيوس" فقد انطلق إلى صور حيث رُسم هناك قساً، وأمَّا فرومنتيوس فقد رأى [أنه

ليس من اللائق أن يُخفَى عمل الرب هكذا]. ومن أجل هذا أسرع إلى الإسكندرية متوسِّلاً لكي يقوم القديس أثناسيوس بتعيين أسقف لكي يبني كنيسة لهذه الديار التي أحبها وعاش فيها.

فكان جواب البابا أثناسيوس: [ومَنْ ذا يكون أصلح منك لهذه المهمة؟]. وبعد موافقة الأساقفة المجتمعين رُسم فرومنتيوس أول أسقف إسكندري على أثيوبيا. وانطلق الأسقف فرومنتيوس عائداً إلى أثيوبيا حاملاً بركة الإنجيل، وأسَّس كرسيه في أكسوم وخدم هناك خدمة محبوبة، لأن اسم فرومنتيوس ظل محبوباً في كل ديار أثيوبيا حتى هذا اليوم. وقد لقَّبوه "آبَّا سلامة" بصفته "أول مَنْ فجَّر نور المسيح الباهر في أثيوبيا". وتعيِّد له الكنيسة في ١٨ كيهك ـ ١٤ ديسمبر من كل عام.

أمَّا هذه القصة الممتعة فقد نقلها إلينا المؤرِّخ روفينوس إذ قد سمعها من فرومنتيوس بعد سنين كثيرة من بداية وقائعها، وقد تناقلها عن روفينوس كل من المؤرِّخين سقراط وسوزومين(٨).

أمَّا من جهة تاريخ رسامة فرومنتيوس أسقفاً على أكسوم بأثيوبيا فقد كان مرجَّحاً إلى عهد قريب أن ذلك حدث في بداية خدمة البابا أثناسيوس ـ أي حوالي سنة ٣٣٠م. ولكن قام حديثاً المؤرِّخ أرشيبالد روبرتسون Archibald Robertson بتحقيق زمن هذه الرسامة فأخَّرها كثيراً جدًّا عن هذا التاريخ، إذ جعلها مرتبطة بقيام الإمبراطور قسطنطيوس وتعيين الأسقف الأريوسي الدخيل على الإسكندرية سنة ٣٥٧م مستعيناً في ذلك بروح ونص الخطاب الذي أرسله الإمبراطور قسطنطيوس إلى بلاد الحبشة أي أثيوبيا "ضد فرومنتيوس أسقف أكسوم"، وقد وجَّهه الإمبراطور إلى أمراء وحكام أكسوم عاصمة أثيوبيا هكذا:

[قسطنطيوس فيكتور مكسيموس أغسطس إلى إيزانس وسازانس ... أرسلوا سريعاً الأسقف فرومنتيوس إلى مصر عائداً لمقابلة الأسقف جورج (الأسقف الأريوسي الدخيل على كرسي الإسكندرية) ... ليعيِّن له مسئولياته ... لأن هذا الأسقف فرومنتيوس قدَّمه إلى هذه الرتبة أثناسيوس (هكذا بدون لقب) رجل متهم بعشرة آلاف جريمة ... وقد حُرم من كرسيه ... وإن هو (فرمنتيوس) تأخَّر عن طاعة هذا الأمر فهذا سيكون بيِّنة على أنه متواطئ مع أثناسيوس الشرير، وهكذا يسيء إلى عبادة الله، مختاراً طريق أثناسيوس الذي أصبح شرّه واضحاً ... وإن خوفنا شديد لئلاَّ يعبر أثناسيوس إليكم ويُفسد شعبكم ... ولكني أثق أن فرومنتيوس **سيعود إلى وطنه** في الحال ... ليستلم النصائح من الكلِّي الوقار جورج (هكذا)

(8) Ruf., I, 9; Socrat. 1-19; Soz. II, 24.

... وليحفظكم الله دائماً أيها الإخوة الجزيلي الاحترام.](٩)

ومن هذا الخطاب يبدو أن أخبار رسامة فرومنتيوس ووصوله إلى الحبشة حديثة العهد جدًّا ومناسبة للغة هذا الخطاب الذي يرتبط زمنه بزمن وصول الأسقف الأريوسي جورج إلى الإسكندرية في ٢٤ فبراير سنة ٣٥٧م.

كذلك يتضح من هذا الخطاب أن فرومنتيوس إسكندري المولد والجنسية من الجملة الواردة في الخطاب: [يعود إلى وطنه في الحال].

وعلى أي حال يُعتبر هذا الخطاب وثيقة بالغة الأهمية من جهة تاريخ تأسيس الكنيسة الأثيوبية الشقيقة وعلاقتها الوثيقة بالإسكندرية.



أمَّا الخبر الثاني في الفترة الهادئة من حياة القديس أثناسيوس فهو بخصوص جولة رعائية كبيرة قام بها البابا أثناسيوس في بكور خدمته سنة ٣٢٩م. وصل فيها إلى حدود أسوان وقطع فيها كل صعيد مصر عبر مجرى النيل الصاعد، وكان يُدعى آنئذ إقليم طيبة أو طيبايد، حيث اتخذه كثير من أتباع أريوس وميليتس مراكز للتجمُّع والمقاومة. أمَّا غاية البابا أثناسيوس العميقة التي كانت تجيش في قلبه من متابعة هؤلاء المنشقين في عقر دارهم فهو لا أن يُخضِعهم بالعنف؛ بل أن يضمهم إلى الكنيسة بالحب والإقناع، كما يخبرنا القديس إبيفانيوس أسقف قبرس في تسجيلاته التاريخية(١٠).

وإليك أيها القارئ العزيز مقتطف من تاريخ حياة القديس أنبا باخوميوس يكشف لنا بعبارات شيِّقة خبر هذه الرحلة البابوية النشيطة:

[وكان وقتئذ الأب الفاضل أثناسيوس رئيس أساقفة مدينة الإسكندرية **أول ما تقلّد الكرسي**، ولَمَّا أزمع على المضي إلى بلد الصعيد الأعلى وإلى بلد "سين" أو "سينوس" وهي أسوان، ليفتقد البِيَع التي هناك ويوطِّدها ويحكم أمورها، وكان طريقه على طبانسين (منطقة أديرة أنبا باخوم في إيبارشية دندرة)، وهي جزيرة في النيل، ولَمَّا وصل إلى دوناسا (دوفانيس)، خرج أبونا باخوميوس مع جماعة الإخوة في خلق كثير وجمع غفير واستقبله قبولاً

(9) *Apol. ad Constant.* 31.

(10) Epiph., *Haer.* 69, II, 69, 6.

حسناً بالصلوات الكثيرة والتسابيح والأضـواء وبكـل بشاشـة وفـرح لأجـل حضـور رئيـس الأساقفة وراعيهم، وكان أنبا سيرابيون أسـقف تنتـيرون (دنـدرة) المقـدّم ذكـره (كـان أنبـا باخوم يتردَّد على إيبارشيته ليخدم شعبه ويعظهم) موجوداً، فتقدَّم إلى رئيس الأساقفة وعرَّفه أن في بلدته المختصة بكرسيه رجلاً فاضلاً مباركاً ولله عابداً وطلب منـه أن يقدِّمـه قسيسـاً ويرسمه مقدِّماً على سائر الأديرة والرهبان الذين في الصقع، ولمَّا تحقَّق الأب بـاخوميوس هـذا الخبر اختفى من رئيس الأساقفة في وسط الجمع، فلما جلس أنبا أثناسـيوس والجمـع العظيـم الذي معه قال لأنبا سيرابيون: بالحقيقة الرجل الذي قلت لي عنه الذي هو أنبا باخوميوس قد سمعت خبر إيمانه **وأنا في الصعيد من قبل أن يضعـوا علـيَّ اليـد**(١١). ومـن بعـد ذلـك قـام وصلَّى وقال لأولاده: سلِّموا على أبيكم وقولوا له إنك وإن كنت قد اختفيت مـني وهربـت من الأشياء التي بسببها تكون الغيرة والحزن والحسد واخترت لـك العلـو الفـاضل الدائـم إلى الأبد مع المسيح، فربنا يعطيك مثل قلبك. وإن كنت قد هربت من العظمـة الفارغـة الوقتيـة الفانية فليس أنت فقط لا تشاء أن يكون لك هذا الأمر بل وأنـا أيضـاً أمـدُّ يـدي إلى العلـي الأبدي إني لا أغصب رئاستك ولا أُكلِّفك على هذا الأمر، بـل بمشيئة الله إذا عـدت (مـن رحلتي) ليتني أكون مستحقاً أن أرى محبتك للإله.

ثم خرج من عندهم ومضى إلى الصعيد ومعه أساقفة كثيرون وجمـوع لا تُحصى، ومـن بعد ذهابه خرج أبونا باخوميوس من الموضع الذي كان مختفيـاً فيـه، وفي حـال رجـوع أنبـا أثناسيوس في المركب - وكان في زهرة النيل (أيام الفيضـان) - أتـى إليـه أبونـا بـاخوميوس لأخذ بركته لعلمه أنه وليُّ الله وخادمه ولا سيما بسبب ما بلغه عنه من الصبر على صنـوف الاضطهادات وما قاساه من التجارب التي كابدها لأجل نصرة الإنجيل والإيمان القويم.](١٢)

ومن هذا الفصل نستطيع أن نؤكِّد:

أولاً: أن رحلة البابا أثناسيوس الرعائية كانت فعلاً في بداية أسقفيته (أول ما تقلَّد الكرسي).

ثانياً: أن القديس أثناسيوس بلغ إلى حدود منطقة أسوان التي كانت مليئة بالكنائس، ويُقـال إنـه بلغ إلى حدود الحبشة.

---

(١١) واضح من هذه العبارة أن أثناسيوس عاش في صعيد مصر قبل رسامته كاهناً.

(١٢) سيرة أنبا باخوميوس صفحة ٤٣و٤٤ - والمعروف من حيث التحقيق العلمي أن سيرة أنبا باخوميوس وثيقـة غايـة الدقة والأهمية التاريخية بحسب تحقيق العالِم كروجر: Krüger, in *Theol. Ltzg*. 1890, p. 620.

ثالثاً: أن القديس أثناسيوس مواطن صعيدي أصلاً وكان يعيش في الصعيد حتى إلى ما قبل رسامته بقليل: [**وأنا في الصعيد قبل أن يضعوا عليَّ اليد**]. وهذا يؤكِّد ما جاء في ورقة المخطوطة التي اكتشفتها حديثاً المذكورة صفحة ٤٣و٤٤.

رابعاً: أن أثناسيوس البابا استطاع فعلاً أن يضم صفوف أساقفته ويشجِّع كنائسه ورعاياه ويوطِّد إيمانهم، وعاد من هذه الرحلة أكثر إيماناً بقدرته في النضال الطويل.

والأريوسيون أيضاً ينظِّمون صفوفهم، استعداداً للمقاومة:

لم يقبل أريوس ولا الأريوسيون هزيمة نيقية الماحقة، ولا ميليتس المتروبوليت المصري المنشق ارتضى بالحل الذي قرره مجمع الأساقفة بنيقية، وحاول الإمبراطور قسطنطين مرَّة أخرى أن يجري السلام بينهم وبين الكنيسة راغباً أن يحصل على الأمن والسلام من وجهة نظرته السياسية، وذلك بفرض حلول عادلة، ولكن إزاء مراوغتهم وعنادهم انقلب ضدَّهم جميعاً، وقرَّر اتخاذ الإجراءات المدنية الرادعة بواسطة القوة العسكرية التي لم تعرف أيَّة رحمة أو مهادنة مع المعارضين، فنفاهم جميعاً، ولكن للأسف عاد فعفى عنهم الواحد تلو الآخر.

ذهب أريوس إلى منفاه في إلليريكون (المناطق الجبلية شمال اليونان ـ ألبانيا والبلقان الآن). والمعتقد عند بعض المؤرِّخين أنه أُفرج عنه بعد سنة واحدة، ولكن يُظن أنه استمر هناك خمس أو ست سنوات بحسب تحقيق المؤرِّخ جواتكن، خرج بعدها من المنفى ليستأنف نشاطه(١٣)، ولكن بعد أن استطاع أن يتلمذ في هذه النواحي أسقفين صارا عماد الأريوسية بعد ذلك على مدى نصف قرن، وهما:

- الأسقف فالنس: Valense of Mursa
- والأسقف أورساكيوس: Ursacius of Belgrade

كما نشط في هذه المدة اثنان من أكبر أعوان أريوس رضعا منه مرارة حقده وجنونه:

- ثيئوجينيس أسقف صور، خرج من منفاه أيضاً بعد سنة واحدة، وسكوندس أسقف برقة بشمال أفريقيا.

ولكن أصعب من هؤلاء جميعاً وأخطرهم في الحقد والمكائد والسلطان:

- الأسقف يوسابيوس ذئب نيقوميديا الذي خرج من منفاه بعد سنة واحدة ليبدأ نشاطه على

(13) Gwatkin, *op. cit.*, 86.

مستوى الإمبراطورية. كان أريوسياً، كان ميليتياً، وكان كل شيء يمكن أن يكون ضد مجمع نيقية وضد البابا أثناسيوس بالذات. وباختصار كان يوسابيوس النيقوميدي قوة مخرِّبة في الكنيسة ليس بذي مبدأ ولا لاهوت بالرغم من تظاهره بذلك، يجمع حوله ويحرِّك من بعيد كل العناصر المقاومة للإيمان الأرثوذكسي في كافة نواحي الإمبراطورية، وبالأخص أساقفة آسيا الصغرى ونواحي فلسطين، عدوٌّ نيقية الذي لم يكف ساعة واحدة عن مقاومة كل مبادئ نيقية حتى مات. وكان البلاط الإمبراطوري هو مسرحه الذي يستمد منه أدواره وعملياته الإرهابية.

• ومن ضمن هذه الزمرة الأريوسية التي كانت ناشطة على المستوى السياسي وليس اللاهوتي: يوسابيوس أسقف قيصرية المؤرِّخ الكنسي المشهور. لم يكن أريوسياً بالمعنى اللاهوتي الكامل ولكنه أعطى لنفسه حرية الحركة بالفكر والكلمة وسط الأريوسيين، ممالأة لهم وللإمبراطور قسطنطين، فلم يخلُ فكره وعمله من الأريوسية.

الميليتيُّون يتحِدون مع الآريوسيين تحت إغراءات ووعود:

وإن كان الميليتيُّون هم شيعة متروبوليت ليكوبوليس، وجملة عددهم ٣٥ أسقفاً، احتلُّوا مراكز حسَّاسة وخطيرة في القطر كله مع عدة مئات من الكهنة والرهبان(١٤)، ظلُّوا بعد مجمع نيقية محافظين في البداية على طاعتهم نوعاً ما على تقليد إيمانهم الأرثوذكسي، إلاَّ أنهم بدأوا شيئاً فشيئاً يتحلَّلون من طاعتهم للكنيسة ومن التقليد الإيماني، وأخيراً وقعوا في شرك الأريوسيين إذ انخدعوا بإغراءات يوسابيوس النيقوميدي ونظَّموا صفوفهم ضد البابا أثناسيوس متحِدين مع الأريوسيين في معاهدة ذات منافع مشتركة، خصوصاً بعد موت ميليتوس وقيام خلفه "يوحنا أركاف" وهو أسقف غير قانوني إذ رسمه ميليتوس قبل أن يموت وعيَّنه خلفاً له سنة ٣٣٠م. وكان من أشد خصوم أثناسيوس عنفاً ودهاءً.

وينبغي أن نلاحظ أن الميليتيين كحزب كنسي منشق ظل قائماً بنشاطه في الكنيسة حتى القرن الخامس(١٥). وقد حزن وبكى عليهم كثيراً إبيفانيوس أسقف قبرس، وهو المؤرِّخ الوحيد الذي اعتنى جدًّا بسرد تاريخ انشقاقهم(١٦). انظر تعليق القديس أثناسيوس عليهم حيث يكشف ترتيب

(14) *Apologia contra Ar.* 71.

(15) Theodoret, *E.H.* I, 9.

(16) Epiph., *Haer.* 68, 6.

المؤامرة بينهم وبين الأريوسيين، إذ كان على الأريوسيين أن يقدِّموا التهم وعلى الميليتيين بصفتهم داخل الكنيسة (بأمر مجمع نيقية) أن يجلسوا ويحكموا على البابا أثناسيوس: [لقد قسَّموا المؤامرة بينهم، فالفريق الأول (الأريوسيون) أعطوا لأنفسهم الحق في تقديم الاتهامات ضدِّي، والفريق الآخر (الميليتيُّون) كان عليهم أن يجلسوا ويحكموا في الموضوع.](١٧)

• ولكن ليس الجانب الكنسي فقط بزعامة الأريوسيين والميليتيين هو الذي كان موضع خطر ومصدر الصراع بالنسبة للقديس أثناسيوس وبالتالي للأرثوذكسية كلها، بل الإمبراطور قسطنطين نفسه الذي لم يستطع أن يحفظ حزمه ويحترم كلمته في ضبط الخارجين على قوانين المجمع الذي ظلَّ يفتخر به كل أيام حياته. ففي ظرف ثلاث سنين كان قد بدأ يتذبذب هو نفسه بين الأريوسية والمسيحية الحقة وبدأ يسهِّل للأريوسيين استعادة كراسيهم وسلطانهم، مشدوداً بفكرة وحدة الكنيسة وبالتالي وحدة الإمبراطورية وسلامتها، بالإضافة إلى شعور دفين بالحقد على البابا أثناسيوس بسبب بروز شخصيته.

• بل وأخت الإمبراطور قسطنطين، وكانت تُدعى "قسطنطيا" وهي أرملة الأمير ليسينيوس الذي قتله قسطنطين، استغلَّ إشبينها الكاهن يوستاثيوس علاقته بها، وهو أريوسي، وأقنعها بأن تطلب من أخيها الإمبراطور أن يُفرج عن الأريوسيين ويعاملهم بلطف، وقد نجحت بالفعل في التأثير عليه تأثيراً جديًّا لأنها كانت على فراش الموت سنة ٣٢٨م(١٨).

• وعلى هذه الصورة أصبح الإمبراطور والبلاط الإمبراطوري كله غير مؤهَّل على الإطلاق لأي مُثُل عليا دينية أو أخلاقية أو حتى قضائية؛ بل مكاناً للوشايات الدنيئة واصطياد المواقف والمبارزة في الخفاء بواسطة جماعات ذات أهداف دنيئة(١٩). وكانت المصائب تُحاك والخطط والمؤامرات تُدبَّر في نيقوميديا عاصمة الإمبراطورية لتظهر انفجاراتها في مصر وأنطاكية وكل المناطق الأخرى التي أظهرت ولاءها لإيمان نيقية.

الأعداء غير المباشرين يمثّلون خطراً ليس بقليل:

اليهود: لقد انتهز اليهود فرصة هذا النزاع الأريوسي وبدأوا يساعدون الأريوسيين ضد الكنيسة.

(17) *Apologia contra Ar.* 59, 71.
(18) Soc. I, 25.
(19) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 60, 100, 234.

وكان اليهود في الإسكندرية يمثّلون قطاعاً خطيراً مسلّحاً بالمال والدهاء والجواسيس والخطط والحقد الذي لا يهدأ ضد المسيح، ولم يكن التعاطف بين اليهود والأريوسيين على مستوى الحقد والخسّة في انتهاز الفرص لإضعاف المسيحيين فقط، بل وعلى مستوى الإيمان المشترك الذي يجحد ألوهية المسيح بالدرجة الأُولى. وكان أثناسيوس هو الهدف المباشر الذي تركّزت عليه كل الخطط والمؤامرات(٢٠). ومما جعل حماس اليهود في مشاركتهم للأريوسيين ضد البابا أثناسيوس يبلغ إلى درجة العداء السافر والمواجهة، علمهم أن هذا يزيدهم تقرُّباً من الإمبراطور ومن السلطات الحاكمة المحلية(٢١).

الوثنيُّون: وهؤلاء أيضاً شكّلوا عبئاً على البابا أثناسيوس لا يُستهان به، لأنهم كانوا خصماً رسمياً له وذلك من جهة العقيدة الوثنية التي كان البابا أثناسيوس قد كرَّس نفسه لهدمها من الأساس، وبدأ يعمِّد الراجعين منهم بالألوف، مما أثار حفيظتهم وجعلهم على نقطة الاشتعال، فكانوا دائماً كمية عداء خطيرة موضوعة موضع الاحتياط يمكن أن تنضم لأية حركة ضد البابا أثناسيوس، علماً بأنهم كانوا يمثّلون أغلبية في الجيش وبين موظفي الدولة والفلاسفة وطبقة المتعلّمين والمثقّفين والتجّار وجزء كبير من الشعب والطبقة العاملة(٢٢).

بداية تحرُّك الأريوسيين، ورسم الخطة ضد أثناسيوس:

كان في ذهن الأريوسيين معركة حقيقية جنّدوا لها كل أعوانهم في الخارج والداخل، وكان يوسابيوس أسقف نيقوميديا هو الرأس المدبِّر والمحرِّك. ففي ظرف سنة واحدة من رسامة البابا أثناسيوس كان يوسابيوس قد نجح في نَيْل العفو والرجوع من المنفى؛ بل وصار صديقاً حميماً للإمبراطور قسطنطين، وفي الحال لم يؤخّر جهده ولا لحظة واحدة منذ خروجه من المنفى في الهجوم على مجمع نيقية، لا علانية ولكن في شخص الأساقفة الذين أيّدوه وتصدّروه، وذلك علماً منه أن الإمبراطور قسطنطين بالرغم من تذبذبه بين الأريوسية والأرثوذكسية إلاّ أنه ظل أميناً لكل مقررات مجمع نيقية ككل وظل يدافع عنه ويؤيِّده.

---

(20) *Epist. encyclica* 4.

(21) *Hist. Arian.* 71.

(22) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 53-59.

عملية كماشة للإطباق على أثناسيوس:

العجيب والمذهل للعقل أن يخطّط يوسابيوس النيقوميدي بهذا الذكاء والدهاء، فإنه لم يبدأ بأثناسيوس بل بدأ بأساقفة آسيا، حيث الموالون لمجمع نيقية بالحق كانوا قلة وكانوا ضعفاء، فابتدأ بأسقف مدينة أنطاكية وكان يدعى يوستاثيوس وكان أرثوذكسياً أميناً في عقيدته مخلصاً للمسيح لأقصى حد.

هذا عقدوا عليه مجمعاً أريوسياً محلياً بأنطاكية ولفّقوا عليه تهمة الجنوح إلى السابيلية في تعليمه، مع عدة تهم أخلاقية، وأنه أساء إلى سمعة الإمبراطور قسطنطين. فأسقطوه من كرسيه نهائياً بقوة البوليس المدني سنة ٣٣٠م. وظل عائشاً بعيداً عن كرسيه حتى مات سنة ٣٥٨م(٢٣). ولكن الذي يُدهَش له، أن الشعب لم يقبل بهذا الحكم وثار ثورة عارمة في وجه هؤلاء الملفّقين ولم يقبل أي أسقف آخر يُرسم على مدينتهم طوال حياة يوستاثيوس، وظلّوا أمناء له إلى آخر نسمة!! بل وبعد أن مات ظلّوا في حداد وحزن عليه مدة ليست بقليلة(٢٤).

أمّا لماذا وقع الاختيار على يوستاثيوس أسقف أنطاكية ليكون أول ضحية للأريوسيين، فلأنه كان أوفى الأصدقاء للقديس أثناسيوس، ليس هو فقط بل وكل شعبه، حتى أن أثناسيوس عند ذهابه لأنطاكية سنة ٣٤٦م لم يقبل أن يشترك في الصلاة إلاّ مع شعب يوستاثيوس فقط مما أقام المدينة وأقعدها(٢٥).

أمّا الضحية الثانية فكانت يوتروبيوس أسقف أدريانوبل، وهو رجل كامل في الإيمان وذلك بشهادة القديس أثناسيوس ـ هذا أيضاً أسقطوه ونفوه. فلمّا رأوا أنهم قد نجحوا في خطتهم وليس من يتصدّى لهم، نشطوا بصورة جنونية في تلفيق التهم والإطاحة بالأساقفة الأرثوذكسيين مؤيدي نيقية الواحد تلو الآخر!! يوفراتيون أسقف بالانيا، كيماتيوس أسقف بالتوس، كارتيروس أسقف انترادوس، اسكليباس أسقف غزة، كيريوس أسقف بيريا بإقليم سوريا، ديودوروس أسقف آسيا، دومينون أسقف سيرميم، هلانيكوس أسقف تريبوليس.

هؤلاء جميعاً لفّقت ضدّهم التهم وأُسقطوا من كراسيهم بمجامع محلية أو حتى بمجرّد استصدار

(23) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 73, 74.
(24) *Hist. Arian.* 4.
(25) NPNF, vol. IV, p. 481.

خطاب من الإمبراطور!! وعُيِّن خلفاً لكل واحد منهم أسقف أريوسي موالٍ.

ثم انقضُّوا على أسقف آخر له وزنه العالي، وكان من المتصدِّين لكفر يوسابيوس النيقوميدي، وهو مارسيللوس أسقف إقليم غلاطية، هذا أحاطوا به بكل جراءة بالرغم من علوِّ مقامه وذيوع صيته.

وأخيراً واتتهم الفرصة والجرأة وانقضُّوا على بولس أسقف القسطنطينية واستطاعوا بمعونة الإمبراطور أن يسقطوه وينفوه عدة مرَّات إلى عدة مدن، حتى أنه في آخر منفى له مات في جبل القوقاز والسلسلة في يديه!!(٢٦)

والآن جاء دور أثناسيوس:

اتُّخذت كل الوسائل من قريب ومن بعيد للبدء بإثارة الجو في مصر. اتصل يوسابيوس النيقوميدي بأتباعه الأريوسيين في مصر ونصحهم لكي يضمُّوا إلى صفوفهم الميليتيين، ووعدهم كثيراً بإغراءات كبيرة، وكانت الخطة التي رسمها يوسابيوس تنقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأُولى: بذل كل الجهد باللين وباللطف وإلاَّ فبالتهديد والعنف، لقبول أريوس في شركة الكنيسة في مصر، في هذا سيكون ليس نصرة للأريوسيين فقط بل وردّ شرف من الدرجة الأُولى.

المرحلة الثانية: إسقاط القديس أثناسيوس عن كرسيه، وهو العقبة الوحيدة المتبقية أمامهم، ثم نفيه، حتى يخلو الجو نهائياً للأريوسية كمنهج لاهوتي ومبدأ فكري ورسالة تبشيرية للكنيسة في العالم كله!!

محاولة تحقيق المرحلة الأُولى:

اتحد الأريوسيون بالفعل مع الميليتيين مبكِّراً جدًّا ـ حسب تحقيق المؤرِّخ سوزومين(٢٧). وفي سنة ٣٣٠م كان يوحنا أركاف بطل الموقف كله. وفي هذه السنة (والتاريخ هنا غير مقطوع به)، استطاع يوسابيوس النيقوميدي أن يأخذ أمراً من الإمبراطور بخروج أريوس من المنفى، بعد ادعاء توبته وكتابته قانون إيمانه بصيغة ملتوية جازت على الإمبراطور. وفي الحال أرسل يوسابيوس خطاباً مع رسول خاص إلى أثناسيوس يطلب منه برجاء أن يقبل أريوس وكل أعوانه في الشركة، أمَّا شفاهاً فقد هدده يوسابيوس إذا لم يقبل رجاءه المكتوب. وقد نجح يوسابيوس فعلاً في إثبات قدرته على

(26) *Hist. Arian.* 4, 5, 6, 7.

(27) Soz. II, 21,22.

التهديد، لأنه عندما رفض أثناسيوس "رجاءه" وتهديده، إذا برسول من الإمبراطور وخطاب بتهديد شخصي من الإمبراطور نفسه أن يفتح القديس أثناسيوس الكنيسة لا لأريوس فقط بل ولكل مَنْ يريد أن يدخل الكنيسة بلا أي شرط.

وهنا ننبه ذهن القارئ حتى يستخلص من مجريات الأمور مقدار الصلة المريبة التي ظهرت هنا بين يوسابيوس والإمبراطور، والتي استخدمها الشيطان بذكاء أوفر لتعذيب الكنيسة والتنكيل بالإيمان في شخص البابا أثناسيوس.

وكان رفض القديس أثناسيوس القاطع لرجاء الإمبراطور وتهديده معاً، أول وأقوى ضربة قاصمة في وجه الشيطان: [إن هرطقة تقاوم المسيح لا يمكن أن يكون لها شركة مع الكنيسة الجامعة!].

وهنا فشلت المحاولة الأُولى ليوسابيوس ...
ولكنه لم ييأس، إلاَّ أنه غيَّر أسلوبه السياسي وبدأ في أسلوب الانقضاض السافر.

محاولة تحقيق المرحلة الثانية:

وهنا في الحقيقة يبدأ تاريخ الصراع المرّ الذي جازه القديس أثناسيوس، أو بالحري الذي عاشه كل أيام حياته، فقد آل يوسابيوس النيقوميدي أن لا يذوق أثناسيوس يوماً من أيام الراحة طالما هو حيّ – وذلك بحسب تعبير المؤرِّخ "هوكر"(٢٨).

فمنذ بداية سنة ٣٣٠م، والعواصف لم تفارق سماء القديس أثناسيوس حتى أشرقت الشمس فجأة على روحه في السماء بعد جهاد دام أكثر من أربعين سنة!!

أمَّا اليد التي بدأ يستخدمها يوسابيوس في إثارة القلاقل والعواصف والمصائب في سماء مصر، فكانت هي يد الإمبراطور العظيم قسطنطين، الذي لم يكن عظيماً حقًّا إلاَّ في سرعة انفعاله وتذبذبه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، وقد استطاع يوسابيوس النيقوميدي أن يجعله لا يبالي كثيراً بألفاظ وعبارات العقيدة المستقيمة(٢٩). وقد حسَّن وزخرف له العقيدة الأريوسية(٣٠) حتى بدت لائقة له وجميلة بعد أن أخفى السمّ الذي فيها، كما فعلت الحية بحواء.

(28) Hooker, *Eccl. pol.* 42, 2.
(29) Socr., *Eccl. Hist.* 1, 7.
(30) Newman's *Arians of the Forth Century*, c. 3, ch. 2.

الميليتيُّون يدخلون المعركة بوجه سافر:

بترتيبات تمّت في الخفاء، من صنع يوسابيوس والأعوان المتفقون على المؤامرة بين نيقوميديا ومصر، أبحر ثلاثة أساقفة ميليتيُّون سرًّا من الإسكندرية إلى عاصمة الإمبراطورية نيقوميديا، ومعهم عريضة اتهام ضد البابا أثناسيوس. أمَّا هؤلاء الثعالب الثلاثة فهم: إيسيون أسقف أتريب، وإيدامون أسقف تانيس، وغاللينيكوس أسقف بيلوزيوم (الفرما قديماً، شرق بورفؤاد، وتسمَّى الآن بالوطة). أمَّا اتهاماتهم فيصفها القديس أثناسيوس بنفسه:

[فلمَّا كتبت للإمبراطور وأقنعته أن هرطقة ضد المسيح لا يُمكن أن يُسمح لها بشركة مع الكنيسة الجامعة، عاد يوسابيوس من اتجاه آخر مغتنماً فرصة الاتفاق المبرم مع الميليتيين فكتب وأقنعهم أن يخترعوا ادعاءات وتهماً ضدِّي مثل التي حبكوها سابقاً ضد بطرس وأخيلاس وألكسندر (الباباوات السابقين)، وبعد البحث والمشورة إذ لم يجدوا شيئاً، اتفقوا معاً بنصيحة من يوسابيوس وأتباعه ودبَّروا أول اتهام بواسطة "إيسيون" و"إيدامون" و"غاللينيكوس"، بخصوص ملابس الكتان الخاصة بالكهنة στιχάριον (الاستيخارة)(٣١) مدعياً أني وضعت قانوناً على المصريين يلزمهم بتقديمها كفريضة (وهذا معناه أن القديس أثناسيوس اغتصب حقًّا من حقوق الحكومة الرومانية وحدها وهي فرض القوانين والضرائب).](٣٢)

وبتدبير من العناية الإلهية كان يوجد في هذه اللحظة اثنان من الكهنة تابعين للقديس أثناسيوس هما: "أبيس" و"مكاريوس"، هذان تقدَّما للإمبراطور وفنَّدا افتراء هؤلاء الأساقفة، فتحقَّق الإمبراطور فعلاً من كذب هؤلاء وأدانهم. وكتب الإمبراطور للبابا أثناسيوس للحضور إلى نيقوميديا. وإليك كلام القديس أثناسيوس:

[ولكن كان بعض الكهنة الذين لي حاضرين "أبيس ومكاريوس" وتحقَّق الإمبراطور من الأمر فأدان الأساقفة، وكتب لي الإمبراطور بنفسه وأدان "إيسيون" (زعيم البعثة) وأمرني أن أحضر أمامه وكان خطابه كالآتي: (للأسف فُقد هذا الخطاب).](٣٣)

يوسابيوس يستعد لملاقاة أثناسيوس في نيقوميديا:

خاف يوسابيوس من حضور القديس أثناسيوس وعلم أن في ذلك خطراً عليه، فألحَّ على

---

(٣١) وهي "التونية" البيضاء التي يلبسها الكاهن في الخدمة.

(32) *Apologia contra Ar.* 60.

(33) Ibid.

الأساقفة الميليتيِّين الثلاثة بالبقاء في نيقوميديا ورتَّب معهم اتهامات جديدة، ولفَّقوا تهمة لمكاريوس الكاهن الذي فضحهم أمام الإمبراطور. وإليك كلام القديس أثناسيوس:

[وإذ كان يوسابيوس منتبهاً لهذا الأمر (حضور القديس أثناسيوس) أقنع الأساقفة الثلاثة، فلمَّا وصلت اتهموا مكاريوس بكسر الكأس (سنروي هذه القصة بعد ذلك - ومؤدَّاها أن مكاريوس اقتحم كنيسة للميليتيِّين وضرب الكاهن المدعو "إسخيراس" وهو كاهن غير قانوني وكسر كأس الإفخارستيا - الكأس كان من الزجاج). أمَّا بخصوص التهمة التي قدَّموها ضدِّي فكانت أفظع تهمة يمكن أن تكون وهي: أني بصفتي عدواً للإمبراطور قد أرسلت كيساً من الذهب لأحد أعداء الإمبراطور (الثائرين عليه) ويُدعى "فيلومينوس"، فسمع الإمبراطور لدفاعي في هذا الاتهام، وأدانهم - كما هي العادة - وطردهم من حضرته، وعندما عدت أرسل خطاباً إلى الشعب (المصري) يقول فيه: "(بعد مهاجمة عنيفة على الأساقفة المخادعين الملفِّقين للتهم والحاسدين الحاقدين على القديس أثناسيوس والمقلقين للكنيسة والمحبة والإيمان) ... لقد استقبلت بفرح أسقفكم أثناسيوس وتكلَّمت معه بخصوص هذه الأمور لأني مقتنع أنه رجل الله، وينبغي أن تعلموا أنتم هذا وليس لي أنا أن أحكم فيها، وإني أرى أنه من اللائق أن أثناسيوس الكلِّي الاحترام يقدِّم لكم بنفسه تحيَّاتي إليكم، وإني أعلم مقدار عنايته الرحيمة بكم التي هي حقًّا تتفق مع الإيمان المملوء سلاماً الذي أنا أيضاً أعترف به، كما أعلم أنه دائب العمل في إعلان معرفة الخلاص لكم وأنه قادر أن يعظكم كما يليق. ليت الله يحفظكم يا إخوتي المحبوبين" - هذا هو خطاب قسطنطين.](٣٤)

ملاحظة هامة: على القارئ النبيه أن يدرك كيف أصبحت الاتهامات الموجَّهة ضد القديس أثناسيوس خارجة عن مضمون الإيمان والعقيدة والمسيح نهائياً. ولماذا؟

يوسابيوس يعلم تماماً أن الإمبراطور يتمسَّك تمسُّكاً لا هوادة فيه بمجمع نيقية ككل، فأي اتهام للقديس أثناسيوس بخصوص العقيدة أو الإيمان يعني مهاجمة صريحة وعلنية لمجمع نيقية. إذاً فينبغي عليه بحسب دهاء الشيطان أن يتجنَّب نهائياً أي مساس بالعقيدة، وليكتف بهذه التهم الصغيرة الحقيرة المخجلة، التي صارت بسبب جنونهم وشرهم ونميمتهم سبب قلاقل وتمزق في الخدمة والرسالة والعبادة على مستوى العالم كله ومصر بصفة خاصة!! كما تسببت في جروح نافذة عميقة

(34) *Apologia contra Ar.* 60-63.

في نفس القديس أثناسيوس!!

القديس أثناسيوس يتعوّق في العودة إلى الإسكندرية:

لقد وصل القديس أثناسيوس إلى نيقوميديا في أواخر سنة ٣٣٠م. ولكن بالرغم من نجاح زيارته وحفاوة الإمبراطور، إلاّ أن الأمور سارت ببطء بعد ذلك، إذ أقعده مرض طويل عن العودة إلى الوطن. فلمَّا تعافى، كان قد حلَّ الشتاء وبدأ موسم العواصف التي تعرقل الملاحة وتجعلها أحياناً مستحيلة، ومضى الوقت ثقيلاً مملاً. وبحسب التحقيق التاريخي كان قد اتفق العلماء على أن بقاءه في نيقوميديا قارب السنة، وكان معروفاً أنها المدة بين سنة ٣٣٠م - ٣٣١م؛ ولكن التحقيق الحديث يكشف من واقع الخطابات الفصحية (الخطابين الثالث والرابع) أنه حضر إلى الإسكندرية سنة ٣٣٢م بعد أن عبر أكثر من نصف صوم الفصح المقدَّس، وهذا ينكشف جدًّا من صيغة وزمن الخطاب الفصحي الرابع سنة ٣٣٢م حيث اضطر أن يرسله من نيقوميديا بيد أحد الجنود بعد بدء الصوم بمدة طويلة، مع أنه كان يتحتَّم بحسب العادة أن يرسل الخطاب الفصحي قبل موسم الصوم بفترة مناسبة حتى يُعلِم الشعب وأساقفة العالم كله موعد بدء الصوم!!

وإليك جانباً من هذا الخطاب الفصحي التاريخي:

[إني أرسل لكم يا أحبائي متأخِّراً وبعد فوات الوقت المعتاد، ولكني أثق أنكم ستعذرونني في التأخير بسبب رحلتي الطويلة، ولأني قد امتُحنت بمرض، وبسبب هذين السببين وأيضاً بسبب العواصف الشديدة التي حدثت على غير العادة فقد تأخَّرت في الكتابة إليكم. ولكن بالرغم من رحلاتي الطويلة ومرضي الخطير لم أنسَ أن أخطركم بموعد العيد بحسب واجبي، فلو أن زمن الخطاب أصبح متأخِّراً (عن ميعاد بدء الصوم) عن المعتاد وغير مناسب لهذا الإعلان، إلاّ أنه لا يزال يعتبر في حينه الحسن لأن أعداءنا قد صاروا في خزي ووقع عليهم اللوم من الكنيسة لأنهم اضطهدونا بلا سبب. إذاً، فلنسبح للرب تسبحة العيد بالمديح.][٣٥]

مزيد من الاتهامات والافتراءات التي لا علاقة لها بالإيمان أو العقيدة:

لم يهدأ يوسابيوس لأن شيطان الحقد كان قد أرضعه مرارة السخط الذي لا يمكن أن ينتهي إلاّ بنهاية العمر ... فمهما أصابه من هزائم أحياناً إلى حدّ الخزي إلاّ أنه لم يكف عن العداء لحظة واحدة: فعلى مدى سنة كان قد استطاع أن يحبك مع الميليتيين في مصر اتهامين جديدين على درجة

(35) *Letter IV, Festal Letters of Athanasius.*

من الخطورة يمكن أن يُدخِلا القديس أثناسيوس تحت الفحص والمسئولية الكنسية:

أولاً: موضوع إسخيراس:

إسخيراس هذا قس غير قانوني رسمه كودلوتوس الأسقف الميليتي لمدينة "سينوبوليس العلا" - وقد اجتمع في الإسكندرية مجمع سنة ٣٢٤م برئاسة البابا ألكسندروس وأوقف هذه الرسامة واعتبرها باطلة.

وبالرغم من ذلك فقد ظلَّ هذا الرجل المأجور في ممارسة الكهنوت في قريته التي تُدعى "إيرين" وهي في منطقة مريوط[٣٦]. وهذا أرسل له أنبا أثناسيوس كاهناً سكرتيراً من قِبَلِهِ يُدعى "مكاريوس" ينذره أن لا يمارس خدمة الكهنوت بحسب أمر المجمع. ولكن إسخيراس التجأ إلى الميليتيين يحتمي فيهم، وهؤلاء استكتبوه عريضة ادَّعى فيها أن الكاهن مكاريوس سكرتير البابا اقتحم كنيسته وكسر كأس الإفخارستيا (من زجاج) وحطَّم المائدة (من الخشب). وأُرسلت العريضة مُمضاة إلى يوسابيوس في نيقوميديا، وهذا بدوره رفعها إلى الإمبراطور.

ثانياً: موضوع أرسانيوس:

أرسانيوس هذا أسقف ميليتي رُسم حديثاً بعد تسجيل الكشف بأسماء الأساقفة الميليتيين الخمسة والثلاثين، الذين قُدِّمت أسماؤهم سنة ٣٢٧م بعد مجمع نيقية لقبولهم في الكنيسة، على شرط أن لا يُرسم بعد ذلك أي أسقف أو كاهن أو شماس جديد بمعرفة الميليتيين. إذاً فهو أسقف غير قانوني بالمرَّة. هذا كانوا قد أقاموه على مدينة تُدعى "إبسيله". هذا المأجور كان قد أخذ من يد يوحنا أركاف - رأس شيعة الميليتيين بعد وفاة ميليتوس - رشوة كبيرة على أن يختبئ وسط الرهبان الميليتيين في الصعيد، ثم أشاعوا في كل مكان أن القديس أثناسيوس بسبب حقده على الميليتيين، قتل الأسقف أرسانيوس!! وقطَّع أعضاءه لأعمال السحر الخاصة التي يقوم بها، وللتدليل على صدق دعواهم احتفظوا بذراع ميت داخل صندوق خشبي وأخذوا يقيمون عليها مناحة على أنها إحدى بقايا جثته.

وفي الحال أرسل الميليتيون عريضة مُمضاة بحادثة أرسانيوس ومعها حادثة إسخيراس. وللأسف فقد صدَّق الإمبراطور على هاتين التهمتين وأرسل في الحال إلى أخٍ له (أو ربما ابن أخت) المدعو دالماتيوس، أحد الحكام في الشرق، وهو من الضباط العظام في أنطاكية، ليقوم بتحقيق هذه التهم

(36) *Apologia contra Ar.* 63.

واقترح عقد مجمع في قيصرية وبرئاسة يوسابيوس القيصري (المؤرِّخ الكنسي المشهور) على أن يلتئم المجمع في سنة ٣٣٤م(٣٧). أمَّا القديس أثناسيوس فقدَّم احتجاجه لدى الإمبراطور وأصرَّ على عدم امتثاله أمام محكمة قاضيها معتبرٌ أنه متحيِّز. فكان رفض القديس أثناسيوس ذا وقع مُرٍّ على نفسية المؤرِّخ العجوز.

احتجاج أثناسيوس لدى الإمبراطور وإلغاء اقتراح مجمع قيصرية

جمع الوثائق:

الوثيقة الأُولى: بخصوص ادعاء إسخيراس:

بمجرَّد أن علم القديس أثناسيوس بالمؤامرة التي دبَّرها الميليتيون بخصوص إسخيراس القس المزيَّف وبخصوص أرسانيوس الأسقف غير القانوني المقتول كذباً والمختفي وسط الرهبان الميليتيين في الصعيد، بدأ البابا أثناسيوس يستقصي هذه الأمور ويرتِّب دفاعه. وإليك كلماته:

[وبعد هذه الحوادث (التي سافر من أجلها القديس أثناسيوس إلى نيقوميديا وأبطل مؤامرة يوسابيوس مع الميليتيين ضدَّه من جهة فرض ضريبة قماش التيل الأبيض)، لزم الميليتيون الهدوء قليلاً ولكنهم عادوا يدبِّرون مكائد أخرى. فإن مريوط المُعتبرة ضاحية للإسكندرية لم يستطع الميليتيون أن يبثُّوا فيها انشقاقهم، وكانت كل الكنائس هناك محتفظة بحدودها الرسمية وكان الكهنة يسهرون على رعاياهم، وكان كل الشعب يعيش بسلام. ولكن ظهر شخص يُدعى إسخيراس لم يكن من الإكليروس وكانوا قد رسموه خارجاً عن القانون، فلم يكن بذي اعتبار. هذا ابتدأ يضلِّل شعب قريته معلناً نفسه أنه كاهن، وفي الحال أعلمني بذلك كاهن هذه الناحية عندما كنت أقوم بزياراتي لكنائس هذه النواحي، فأرسلت كاهني الخاص مكاريوس ليستدعيه للمحاكمة، فوجدوه مريضاً راقداً في قلايته فأخبروا أباه أن يمنع ابنه من التمادي في أعماله التي وصلت ضده إلى علم الكنيسة.

(37) Gwatkin, *op. cit.*, p. 84.

ولكنه لمّا تعافى من مرضه وابتدأ أقاربه وأصدقاؤه يمنعونه من التمادي في خطته قام وهرب إلى الميليتيين، وهؤلاء اتصلوا بيوسابيوس وأتباعه وأخيراً دبّروا هذه المؤامرة أن مكاريوس (كاهن البابا أثناسيوس الخصوصي) كسر الكأس (كأس الإفخارستيا)، وأضافوا إليها مسألة المدعو أرسانيوس الأسقف أني قتلته، وأخفوا هذا الأرسانيوس حتى يظهر أنه قد انتهى فعلاً عندما يبحث عنه الناس فلا يجدونه، واحتفظوا بذراع ميتٍ توكيداً لادعائهم أنه قد تمزَّق إلى قطع.

أمَّا إسخيراس، فلمَّا راجعه أصدقاؤه ولاموه جاء إليَّ باكياً واعترف لي أنه لم يحصل له قط شيء من هذا الذي أخبروا به أن الكاهن مكاريوس فعله. ولكن الميليتيين "أغروه برشوة لهذه الشهادة الزور" حتى يخترعوا هذه الوشاية، وكتب هذا الخطاب:

خطاب إسخيراس إلى أثناسيوس يعترف فيه بجريمته:

إلى البابا المطوَّب أثناسيوس، يرسل إسخيراس دعاءه للرب بالصحة: لمَّا جئت إليك يا سيِّدي الأسقف طالباً أن أُقبَل في الكنيسة راجعتني بملامة عمَّا سبق أن قلته وكأنني تطاولت عليك في هذا بحرية إرادتي، ولذلك أقدِّم لك اعتذاري هذا مكتوباً ليكون تحت يدكم حتى تعلموا أنهم قد استخدموا العنف معي وقد ضربني إسحق وهيراكليدس وجماعتهم(٣٨). وأني أُعلن وأُشهد الله على نفسي في هذا الأمر أن لا شيء صحيح على الإطلاق في كل ما قالوه عنكم واتهموكم به، فلا كأس انكسر ولا مائدة مقدَّسة انقلبت، ولكنهم أجبروني بالقوة أن أدَّعي هذا. وهذا الدفاع عن نفسي أُقدِّمه لكم مكتوباً طالباً أن أُقبل ضمن شعبكم سائلاً ومتوسِّلاً لدى الرب أن يعطيكم الصحة. وإني أضع هذا أمامكم أيها الأسقف أثناسيوس في حضرة الكهنة أموناس هيراكليدس ... إلخ إلخ (وعدَّتهم ثلاثة عشر كاهناً.)(٣٩)

ويُلاحَظ أن هذه الوثيقة الاعتذارية التي قدَّمها إسخيراس صاحب مؤامرة الكأس المكسور كُتبت وقُدِّمت للبابا أثناسيوس بعد عودته من نيقوميديا منتصراً، بعد إقناع الإمبراطور ببطلانها وبعد أن تحقَّق الإمبراطور من مكاريوس الكاهن نفسه بعدم صحتها. وبالرغم من ذلك عاد الإمبراطور وقبلها وجعلها إحدى الدعائم التي قام عليها الاتهام في محاكمات مجمع صور! ...

(٣٨) ثلاثة أساقفة ميليتيُّون وهم: الأسقف إسحق على مدينة كليوباتريس (بالفيوم والآن هي سرسنة)، والأسقف إسحق (آخر) على مدينة لاتوبوليس (إسنا)، والأسقف هيراكليدس على نيقيوس.

(39) *Apologia contra Ar.* 63, 64.

الوثيقة الثانية: بخصوص أرسانيوس المقتول كذباً:

ولمّا وصلت للقديس أثناسيوس الدعوى المرفوعة ضدّه من الميليتيين والمصدّق عليها ضدّه من الإمبراطور لحضور المحاكمة في أنطاكية بمعرفة "دالماتيوس"، قام البابا أثناسيوس في الحال بتقصّي بنود الاتهام. وإليك كلماته:

[فلمّا استلمت هذا الخطاب (الذي به الدعوى) ولو أني لم أهتم كثيراً بالموضوع لأني أعلم أن الأمر كله عارٍ من الحقيقة، ولكن لمّا وجدت الإمبراطور قد اهتمّ هكذا وانشغل بالموضوع كتبت(٤٠) إلى زملائي في الخدمة (الأساقفة والكهنة) في مصر. وأرسلت شماساً، راغباً في تقصّي الحقائق عن أرسانيوس، لأني لم أكن قد رأيت هذا الرجل منذ خمس أو ست سنوات، ... ووجدوا أرسانيوس في مخبئه - وجدوه في دير عند بلدة بتيمن سركيس التابعة للعاصمة أنتيوبوليس على الشاطئ الشرقي للنيل - والذين كانوا مع أرسانيوس شهدوا بذلك وأنه كان مختبئاً لهذا الغرض حتى يحبكوا الادعاء بموته، أمّا الشخص الذي كان متولياً حراسته في مخبئه فكان يُدعى بنيس وهو كاهن هذا الدير. وهذا الكاهن بنيس أرسل خطاباً إلى يوحنا (أركاف) مؤدّاه هكذا(٤١):

[... بنيس كاهن دير بتيمن سركيس بإقليم أنتيوبوليس يكتب إلى أخيه المحبوب يوحنا مرسلاً تحياته. أود أن تعلم أن أثناسيوس أرسل شماسه إلى الصعيد ليبحث عن أرسانيوس في كل مكان، وقد تصادف مقابلته أولاً مع الكاهن بسيسيوس وسلوانس أخي إلياس وتابيناسيراميوس وبول راهب إبسيله (مدينة شطب الآن). وهؤلاء اعترفوا له بأن أرسانيوس كان موجوداً معنا بالفعل. فلما سمعنا بهذا وضعنا أرسانيوس في الحال في مركب أقلعت نحو الجنوب مع إلياس الراهب. وفجأة عاد إلينا هذا الشماس مع آخرين ودخلوا ديرنا باحثين عن أرسانيوس فلم يجدوه، لأنه كما قلت لك كنا قد أرسلناه جنوباً. ولكنهم قبضوا علينا أنا وإيلياس الراهب وأبحروا بنا إلى الإسكندرية، وقدّمونا أمام الدوق، ولمّا وجدت أني غير قادر على الإنكار اعترفت بأنه حيٌّ وأنه لم يُقتل واعترف أيضاً كذلك الراهب الذي أخذوه معي، ومن أجل هذا أردت أن أعرِّفك بهذه

(٤٠) كان القديس أثناسيوس في ذلك الوقت يستجم في إحدى قلاع أمونياكا بالمدن الخمس على شاطئ البحر وذلك سنة ٣٣٢م.

(٤١) بطريقة لا نعلمها وقع في يد البابا أثناسيوس هذا الخطاب المُرسل من رئيس الدير المدعو الكاهن بنيس إلى يوحنا أركاف رأس جماعة الميليتيين. وهنا تظهر براعة أثناسيوس وتدبير الله معه في كشف الحقائق في وقتها.

الأمور أيها الأب حتى لا ترتب اتهامك لأثناسيوس معتمداً على هذا، لأني قلت إنه حيٌّ وأنه قد أُجري إخفاؤه بيننا، وكل هذا أصبح معروفاً في مصر و لم يعد الأمر سرًّا ...](٤٢)

وبعد ذلك وجدناه (أي أرسانيوس) للمرة الثانية مختبئاً في مدينة صور. والمدهش جدًّا أنه حتى بعد أن اكتشفوا(٤٣) أمره هناك، لم يشأ أن يعترف أنه هو أرسانيوس حتى جرَّموه وشهدوا عليه أمام "بول" أسقف صور (الذي كان يعرفه بنفسه منذ القديم). وأخيراً ومن شدة الخجل اعترف بغير إرادته.](٤٤)

رفع التقرير مع الوثائق إلى الإمبراطور، وإيقاف إجراءات المحاكمة:

[فكتبت للإمبراطور بهذا أن أرسانيوس حيٌّ، وقد اكتُشف مخبأه. وذكَّرته بموضوع إسخيراس وما كان قد سمعه سابقاً من كاهني مكاريوس في نيقوميديا. فأوقف الإمبراطور كل إجراءات محاكمتي، وكتب شاجباً كل الاتهامات الموجَّهة ضدِّي حاكماً ببطلانها. وأرسل إلى يوسابيوس (أسقف قيصرية المؤرِّخ الكنسي المشهور) وكل مرافقيه الذين قد صدر لهم الأمر بالتوجُّه إلى الشرق لإجراء المواجهات معي أن يعودوا!](٤٥)

الإمبراطور قسطنطين يعتذر للبابا أثناسيوس ويمتدح حكمته:

[قسطنطين فيكتور مكسيموس، أغسطس، إلى البابا أثناسيوس: لقد قرأت خطابات "حكمتكم"، وشعرت بدافع أن أكتب بالتالي إليكم لكي تتشدَّدوا ... أمَّا بخصوص هؤلاء الأشخاص المستحقين كل لعنة، وأقصد بذلك الميليتيين المتمرِّدين الجاحدين الذين أثبتوا حماقتهم بأعمالهم المجنونة، الذين رفعوا هذا الشغب ولفَّقوا هذه الفتنة بسبب حقدهم ليكشفوا بالأكثر جحودهم. أقول إن هذا يكفيهم، فالذين ادَّعوا عليه أنه ذُبح بالسيف ها هوذا موجود وحيٌّ بعد.

وفيما تمادى فيه هؤلاء الميليتيُّون من اتهامكم مؤكِّدين أنكم تهجَّمتم بعنف ووضاعة ومسكتم الكأس وكسرتموه في المكان المقدَّس (الهيكل)، مع أنه لا صدق لهذا الاتهام ولا وجود لمثل هذا العنف وإن هذا كله مُلفَّق ... **أمور أصبحت حقيقتها واضحة أكثر من**

(42) *Apologia contra Ar.* 67.

(٤٣) بلغ مسامع خدَّام القنصل أرشيلاوس، بينما كانوا في أحد الحانات أن أرسانيوس مختبئ في أحد البيوت فعملوا له كميناً.

(44) *Apologia contra Ar.* 65, 67.

(45) Ibid.

النور أنهم يخطِّطون مؤامرة ضد حكمتكم. وبعد ذلك مَنْ ذا الذي يرضى أن يتبعهم بعد ذلك؟ (مع الأسف أنه هو نفسه بعد ذلك أجاز كل اتهاماتهم للمرَّة الثالثة وأمر أن يُحقَّق فيها في مجمع صور الآتي ذكره). هؤلاء الناس الذين لفَّقوا مثل هذه التهم للإيذاء بالآخرين ... يتهمونكم بجرائم كاذبة ... وأخيراً أحب أن أضيف أنني أرغب في أن يُقرأ هذا الخطاب مراراً بواسطة "حكمتكم" علناً حتى يصير معروفاً لجميع الناس، وبالأخص لكي يصل إلى آذان هؤلاء الناس الذين يعملون هذه الأمور ... وليعلموا أنهم إذا أثاروا شيئاً من هذا الشغب مرَّة أخرى فسأحقِّق بنفسي معهم وليس بعد بحسب القوانين الكنسية، ولكن بحسب القوانين المدنية ... لأنهم لصوص ليس إزاء الناس فقط بل وإزاء التعاليم الإلهية. ليت الله يحفظكم دائماً أيها الأخ المحبوب.](٤٦)

اعتراف الأسقف أرسانيوس المقتول "كذباً":

وإزاء هذا الانتصار لم يجد أرسانيوس مفرًّا من كتابة اعتذار للبابا أثناسيوس يعترف فيه بكل شيء:

[إلى المطوَّب البابا أثناسيوس، يكتب أرسانيوس أسقف على الذين كانوا "سابقاً" تحت ميليتيوس في مدينة الإبسيليين (إبسيله وهي مدينة "شطب" الآن) مع الكهنة والشمامسة يطلبون الصحة لكم من الرب. إذ أصبحت في غاية الاشتياق إلى السلام والاتحاد مع الكنيسة الجامعة التي تترأسونها بنعمة الله، راغباً في أن أخضع أنا نفسي ومَنْ معي لقانون الكنيسة بحسب التقليد القديم (تبادل خطابات الشركة) نكتب إليك أيها البابا العزيز والمحبوب، معلناً باسم الرب أننا لن نجري شركة في المستقبل مع الذين يستمرون في انشقاقهم وكل مَنْ هم ليسوا في سلام مع الكنيسة الجامعة، سواء كانوا أساقفة أو كهنة أو شمامسة ...]

وأخيراً يوحنا أركاف ينسحب:

[وليس أدل من انسحاب يوحنا أركاف دليلاً على نوع المؤامرات التي كانت تُحاك ضدّنا، التي أصبح الإمبراطور قسطنطين المحبوب لدى الله والمطوَّب الذكر شاهداً عليها بنفسه عندما أرسل يوحنا خطابات إلى الإمبراطور هكذا: ... لقد سررت غاية السرور بخطاباتك، إذ علمت منها ما كنت أشتاق طويلاً أن أسمعه أنك تركت جانباً كل مشاعرك الصغيرة وأنك

(46) *Apologia contra Ar.* 68.

صرت في اتصال الشركة مع الكنيسة كما يليق بك، وأنك صرت في اتفاق كامل مع الكلّي الوقار الأسقف أثناسيوس ...](٤٧)

ولكن ظلّت اعترافات أرسانيوس التي كتبها للقديس أثناسيوس مخفية لا يعلم بها خصوم أثناسيوس، وقد استخدمها القديس أثناسيوس في الوقت المناسب.

وهكذا ظهر وكأن الميليتيين انتهى أمرهم، ولكن للأسف لم ينتهوا لأنهم لم يكونوا هم أصحاب أية غنيمة من هذا كله ولا كانوا يتحرَّكون بمشيئتهم بل برأي الأريوسيين يفكِّرون وبتدبير الأريوسيين يتحرَّكون، ومن أجل زعزعة الإيمان المسيحي يتحرَّك هؤلاء وهؤلاء بيد الشيطان الذي تملَّك على قلب يوسابيوس النيقوميدي!

ملاحظة هامة:

لا تسأم أيها القارئ العزيز من متابعة هذه الافتراءات والصغائر التي تهبط بمستوى التفكير إلى الحضيض، فالأمر ليس في حقيقته صغيراً أبداً ولا الافتراءات هينة في هدفها، إنها ضربات موجَّهة بإحكام للشخص الوحيد في العالم الذي تبقّى في وجه الأريوسيين. أثناسيوس كان في هذه اللحظات هو اللسان الوحيد القادر أن يحكم على الأريوسيين، فلو استطاعوا أن يسكتوه بأية طريقة مهما كانت دنيئة (وسوف ترى كيف تبلغ الدناءة إلى مستوى الدناءة حقًّا)، يكونون قد انتهوا نهائياً من كل خصومهم مرَّة واحدة، ويحكم أريوس العالم، ... أو بالحري الشيطان!! ...

مجمع صور

(يوليو – سبتمبر سنة ٣٣٥م)

الغيوم تتكاثف بشدة وبسرعة، مهاترات أكثر منها محاكمات:

هنا نقدِّم موجزاً للظروف المحزنة والعصيبة حقًّا في تاريخ القديس البابا أثناسيوس؛ وبعد أن كشف كل هذه المؤامرات وفضح كل أساليبهم وأوقعهم في الفخاخ التي نصبوها وكتبوا بأيديهم اعترافات جرمهم وفشلهم واعتذروا، دخلوا الكنيسة ... ولكن ماذا تنفع الحجة في لسان الأعزل وأمامه سلطان الخبث يستمد قوته من سلطان الإمبراطور؟ لقد ضاعت كل جهود القديس

(47) *Apologia contra Ar.* 70.

أثناسيوس، ولمدة ثلاث أو أربع سنوات، في تعقُّب خصومه والتدليل على جنونهم وشرِّهم ونميمتهم، ببراهين دامغة قال عنها نفس الإمبراطور قسطنطين: [أمور أصبحت حقيقتها واضحة أكثر من النور، **إنهم يخطِّطون مؤامرة ضد حكمتكم ومَنْ ذا الذي بعد ذلك يرضى أن يتبعهم؟**]

ولكن لو علم هذا الإمبراطور أن المؤامرة كانت حقًّا وبالفعل ضد الحكمة نفسها، ضد المسيح؛ لما استهان هكذا وسلَّم سلطانه لينفِّذ به الأريوسيون كل ما أرادوا.

بداية تُنبئ بالنهاية:

وإليك البيان من مذكرات البابا أثناسيوس نفسه:

[وهكذا وكأن المؤامرة انتهت وكأن الميليتيين قد ارتدوا يغطيهم الخجل، إلاَّ يوسابيوس النيقوميدي وأتباعه، لأن الأمر لم يكن يخصّ الميليتيين ولكن **أريوس** والأريوسيين، وهذا كان نصب أعينهم؛ وكان كل خوفهم هو إبطال حركة الميليتيين (في مصر) لأن هذا معناه أنه لن يتوفَّر لهم بعد أشخاص يلعبون بواسطتهم الأدوار لكي بواسطتهم ينفُذون بهرطقتهم إلى الداخل ... ومن أجل هذا بدأوا مرَّة أخرى يحرِّكون الميليتيين، وأقنعوا الإمبراطور أن يصدر أمره بعقد مجمع جديد في صور، وكان الكونت ديونيسيوس قد أنفذوه إلى هناك على وجه السرعة ووفَّروا الحماية العسكرية ليوسابيوس وأتباعه.

وأرسلوا الكاهن مكاريوس (سكرتير البابا أثناسيوس) مقبوضاً عليه، والسلسلة في يده، إلى صور بصفته سجيناً تحت حراسة الجنود، وأرسل إليَّ الإمبراطور أمراً لا يقبل الأخذ والردّ بمعنى أنه حتى ولو كنت غير راغب فلابد عليَّ أن أقلع.](٤٨)

في المجمع:

اجتمع في هذا المجمع ١٥٠ أسقفاً، في ١١ يوليو الموافق ١٧ أبيب سنة ٣٣٥م، وكان للبابا أثناسيوس نسبة ١:٢ من مجموع المقاعد، وبالتحديد كان أساقفة مصر خمسين ومن بينهم الأسقف المعترف بوتامون والأسقف المعترف بافنوتيوس، وكانا عضويْن سابقين في مجمع نيقية.

وبنظرة واحدة من القديس أثناسيوس لوجوههم أدرك أنه في وسط خصوم مائة بالمائة، معظمهم أريوسيون متحمِّسون لأريوس وخاضعون خضوعاً موجَّهاً ليوسابيوس النيقوميدي.

---

(48) Apol. c. Ar. 71.

ترأّس المجمع يوسابيوس القيصري، ومن ورائه يوسابيوس النيقوميدي يوجّه ويحرّك، مع بعض أسماء أخرى معروفة مثل ناركيسوس ومارس وثيئوجيونس، باتروفيلوس وجورج المصري أصلاً أسقف لاوديكا، كما تصدَّر أيضاً أسقفان صغيران في السن والعقل، بحسب تعبير "جواتكن" المؤرِّخ المشهور(٤٩).

وقد أبدى الأساقفة المصريون سخطهم حال وصولهم المجمع ... لأنه لم تُتخذ الأصول في تقديمهم إلى المجمع بواسطة شمامسة كالمعتاد، وإنما بواسطة "مسجِّل الدعاوي والاتهامات" (حاجب المحكمة).

كما احتج القديس أثناسيوس على بعض الأساقفة أنهم غير أهل أن يكونوا قضاة له:

[يتدخلون في قضية لم يشاهدوا شيئاً منها ولا فحصوها ولا حتى من أجلها اجتمعوا أصلاً(٥٠) ... وأي مجمع للأساقفة هذا؟ أليست مهاجمات يوسابيوس وأتباعه ضدَّنا تنبع أصلاً من تحمُّسهم لأريوس المجنون ... ألم تُكتب دائماً ضدَّهم بصفتهم مفسِّرين لتعاليم أريوس، ألم يشهد جميع المعترفين (الذين تألَّموا وقت الاضطهاد) ضد الأسقف يوسابيوس القيصري في فلسطين أنه قدَّم ذبيحة للأوثان؟ ألم يُسقِط البابا ألكسندروس "جورج" من كرسيه؟](٥١)

وقد قام الأسقف بوتامون - وهو قديس مصري معترف، فَقَدَ إحدى عينيه وقت الاضطهاد - ووجَّه الكلام ليوسابيوس القيصري في وسط المجمع يسأله عمَّا حدث معه داخل السجن أثناء الاضطهاد؟ ثم يسأله كيف يجلس بعد ذلك قاضياً ليحاكم البابا أثناسيوس!!!

وكان بوتامون زميلاً ليوسابيوس القيصري في السجن، مشيراً إلى حنثه وتقديمه ذبيحة للأوثان!(٥٢)، وبذلك يُسقط حقه في جلوسه لرئاسة مجمع يحكم في الإيمان!!

وإليك ملخَّصاً لوصف المؤرِّخ ثيئودوريت لإحدى جلسات مجمع صور (كتاب ١: ٣٠):

[وفي الصباح الباكر حضر أثناسيوس إلى المجمع، وفي هذا اليوم كانت أول قضية قُدِّمت (ضد أثناسيوس) قضية امرأة فاسدة بدأت بوقاحة وتهوُّر وصوتٍ عالٍ تقول إنها كانت قد نذرت بتوليتها ولكن أثناسيوس جاء إلى منزلها وأفسد عفتها، وبعدما انتهت من اتهامها تقدَّم

(49) Gwatkin's note, p. 85; Hefele II:17.

(٥٠) اجتماع الأساقفة في صور جاء عرضاً ضمن اجتماع لهم لتدشين كنيسة القبر المقدَّس.

(51) *Apol. contr. Ar.*

(52) Epiph., *Haer.* 68, 7.

أثناسيوس وبجانبه شماسه المدعو تيموثاوس وهو يستحق المديح حقًّا، فلما طلبت المحكمة من أثناسيوس أن يرد الاتهام، صَمَتَ أثناسيوس، وبدأ تيموثاوس يتكلّم وكأنه هو أثناسيوس وخاطب المرأة قائلاً: "وهل أنا تحدَّثت معك يا امرأة أبداً؟ وهل دخلت قط بيتكِ؟" فأجابت بوقاحة أكثر وصراخ وهي تشير إليه بإصبعها: "نعم أنت هو الذي سلبتني بتوليتي وأفقدتني عفتي"، مع ألفاظ أخرى نابية مما يستخدمها النساء اللائي فَقَدن حياءهن. وهكذا وقع مدبرو هذه المؤامرة في خزي، أمَّا الأساقفة المطلعون على سر المؤامرة فأصابهم الخجل بصورة واضحة.

وبينما هم يُخرجون المرأة من المحكمة، وإذ بأثناسيوس يحتج أنه ليس من العدل أن يُخلَى سبيلها هكذا بل يتحتّم أن تُسأل هذه المرأة عن الذي دبَّر معها هذه المؤامرة؟ وهنا أخذ المُتهمون لأثناسيوس بالصياح - كعملية تغطية - أنه لا تزال جرائم أخرى أنكى وأشد وسوف يستحيل عليه مهما كانت مهارته أن يبرِّئ نفسه منها. وسوف تشترك العين وليس الأذن فقط في التصديق على جريمته.

وفي الحال قدَّموا صندوقاً خشبياً وفتحوه، وإذا به ذراع محنَّطة، فصرخ الأساقفة (بافتعال كاذب) حتى أن البعض صدَّق أن الاتهام حقيقي. ولكن كثيرين أدركوا المكيدة (بخصوص مقتل أرسانيوس وتقطيع جثته).

وبعد فترة وجيزة بدأ أثناسيوس (المتهم) يسأل قضاته هل يوجد أحدٌ بينهم كان قد رأى أرسانيوس؟ فأجاب كثيرون معا أنهم يعرفونه جيداً. وفي الحال أمر أثناسيوس أتباعه أن يُحضروا أرسانيوس أمامهم. ثم سألهم: هل هذا هو أرسانيوس؟ الرجل الذي قتلته؟ هل هذا هو صاحب الجثة التي قطعوا ذراعها هؤلاء المشتكون عليَّ؟ فلما اعترفوا اضطراراً أنه هو أرسانيوس بالفعل مدَّ أثناسيوس يده ورفع عنه رداءه الخارجي وكشف عن كلتا ذراعيه اليمنى واليسرى (وبدأ يتهكّم على مشتكيه): لا تبحثوا عن موضوع الذراع الثالثة المقطوعة لأن الإنسان لم يُوهَب من الخالق إلاَّ ذراعين فقط!...

ولكن بدلاً من أن يخزى هؤلاء الأساقفة الملفّقون، بدأوا يصيحون ويضجُّون قائلين: هذا سحر، إن أثناسيوس ساحر!!

أمَّا الأساقفة المدبِّرون للعبة مع أرسانيوس المقتول كذباً، فهالهم الأمر وأخذوا يحرقون أسنانهم عليه يريدون قتله بالفعل! بل ويتمنون أن يقطِّعوه قطعاً قطعاً بأيديهم هم ...]

ملاحظة:

يلزم هنا أن نوضِّح للقارئ كيف أتى أرسانيوس هكذا ليصبح شاهداً للقديس أثناسيوس وليس شاهداً عليه باعتباره "جسم الجريمة" حسبما دبَّرها يوحنا أركاف:

نعلم أن أرسانيوس انكشف أمره في الصعيد (انظر صفحة ٨٥-٨٨)، ثم انكشف أمره أيضاً في صور بواسطة أسقفها "بول"، وهنا يبدو أن أتباع البابا أثناسيوس قبضوا عليه وأرسلوه إلى أثناسيوس في الإسكندرية بمعرفة "بول" أسقف صور. فلمَّا قابل أرسانيوس البابا أثناسيوس في الإسكندرية اعتذر وكتب في خطاب اعترافه بيده، وقبله أثناسيوس بالفعل في شركة الكنيسة سرًّا، ولكنه اتفق معه أن يظلَّ مختفياً حتى زمان انعقاد المجمع في صور، وأن يحضر معه المجمع ويكشف أمامهم مؤامرة الميليتيين، فوافق. وهكذا حضر بالفعل وتمَّم دوره الذي طلبه منه البابا أثناسيوس، ومعروف أن القديس أثناسيوس جعله بعد ذلك أسقفاً رسمياً على "إبسيلة" وهي مدينة "شطب" الآن.

والمعروف أيضاً أن الأسقف الميليتي يوحنا أركاف، وهو الذي دبَّر بكل جهد وإحكام مؤامرة أرسانيوس، كان حاضراً المجمع إلى وقت كشف فضيحة أرسانيوس وظهوره وسط المجمع وبعدها لم يستطع البقاء، إذ قد انسحب في الحال وأقلع إلى مصر مع لجنة تقصِّي الحقائق (اللجنة المزوَّرة المغرضة) الخاصة بقضية إسخيراس والتي عيَّنها الخصوم، مع أنه بحسب القانون كان ينبغي أن تكون بالانتخاب.

أمَّا بقية جلسات المجمع فبدأت تزداد عنفاً وتحدِّياً، وتبادلوا الاتهامات. أمَّا أبرز الاتهامات التي وُجِّهت لأثناسيوس فكانت طريقته العنيفة مع خصومه وقسوته في معاملة معارضيه الذين احتجوا على رسامته، فقد اتُّهم بضرب وسجن بعض الأساقفة الميليتيين الذين احتجوا على عدم قانونية رسامته، وأنه أسقط "غالليني كوس" أسقف بيلوزيوم (الفرما قديماً، شرق بور فؤاد، تسمَّى الآن بالوظة) عن كرسيه، لأنه ساند إسخيراس، وأنه أقام بدلاً منه مرقس بقوة الشرطة.

وقد حشدوا عدداً ضخماً من شهود الزور، ولكن أصعب ما كان على نفسية القديس البابا أثناسيوس هو سرعة تصديق الأساقفة لكل تهمة مهما كانت فظيعة وغير معقولة، مما جعله يفقد أي رجاء في سيادة القانون أو العدل.

وقد ضاعت كل احتجاجاته على تحيُّز القضاة، كما ضاعت كل احتجاجات الأساقفة المصريين لدى المجمع ولدى ديونيسيوس القنصل العام المسئول عن المحاكمات والعدل والنظام، كما ضاعت احتجاجات ونصائح الأسقف الوقور ألكسندروس أسقف تسالونيكي للكونت ديونيسيوس وكشفه

لخطوط التآمر الحادث بين الأريوسيين والميليتيين.

وللأسف كان صوت الأريوسيين أقوى وأكثر سلطاناً وسيادة من صوت الكونت ديونيسيوس(٥٣).

أمَّا بخصوص قضية إسخيراس التي شبعت فحصاً وتحقيقاً واقتنع الإمبراطور بكذبها وتسجَّلت على إسخيراس اعترافاته وتوبته مكتوبة، فبالرغم من كل ذلك قدَّمها الخصوم تحدياً لكل منطق وإمعاناً في الاستهزاء بالحقيقة والتنكيل بنفسية القديس أثناسيوس الحسَّاسة. أمَّا "الخص" الذي كان يسكنه إسخيراس في قريته الحقيرة "إيرين" على بركة مريوط فقد صوَّروه للمجمع على أنه "بازيليكا" ـ على مستوى كاتدرائية ـ وأن أثناسيوس اعتدى بنفسه على حرمة الكنيسة وكسر كأس الإفخارستيا وقلب المائدة المقدَّسة الخشبية وأحرق الكتب الطقسية.

وقد ضُربت بعرض الحائط كل إثباتات القديس أثناسيوس وحججه الدامغة أن إسخيراس ليس كاهناً قانونياً، ولا توجد له كنيسة على الإطلاق في قرية "إيرين" ولا توجد كنائس للميليتيين في مريوط بالمرَّة، وأنه كان مريضاً وراقداً في خصِّه وقت أن ذهب الكاهن مكاريوس لمقابلته، وأنه لم يكن يوماً للرب (الأحد) وهو اليوم الوحيد الذي كانت تُقام فيه الذبيحة حسب التقليد الكنسي وقتئذ، **وقد اعترف بخط يده أنه كذب وتواطأ مع الميليتيين وأقرَّ بذنبه.** نعم كل هذه الوقائع رفضها الأساقفة القضاة وارتأوا بحسب خبثهم في تدعيم الكذب وإتاحة فرصة لمزيد من الاتهامات والشغب، أن يرسلوا لجنة (مكوَّنة من ستة من الأريوسيين والميليتيين ومعهم إسخيراس واستبقوا مكاريوس!!) لتقصِّي الحقائق، يعيِّنها الخصوم بأنفسهم، مع أنه كان ينبغي أن تكون منتخَبة. وضغطوا على الكونت ديونيسيوس فرضخ لأنه كان موالياً لهم بالرغم من عدم استحسانه لهذا الإجراء بسبب مقاومة البابا أثناسيوس لشرعية الموضوع قانونياً، لأنه كان ممكناً أن يكتفي بأقوال كل من الكاهن مكاريوس وإسخيراس نفسه لأنهما كانا حاضرين أمام المجمع، خصوصاً وأن الموضوع كان قد مضى عليه عدة سنوات.

ولكن اللجنة ذهبت بخطابات توصية مغرِضة، وفي الإسكندرية استقبلتها فرقة من الجند رافقتهم مع فيلارجيوس الوالي ومع جماعة من اليهود والوثنيين إلى مريوط حيث كان قد سبقهم إلى هناك سرًّا رسلٌ من الميليتيين قبل قيام البعثة بأربعة أيام، واستحضروا عدة أساقفة وكهنة ورهبان من الميليتيين وتجمهروا هناك في قرية "إيرين" عند وصول اللجنة، حتى يثبتوا للجنة أن للميليتيين مكانة

(53) NPNF, vol. IV, p. XXXIX.

كبيرة وكنائس كثيرة هناك.

وهناك زوَّروا الحقائق وأتوا بشهود زور من اليهود، ادَّعوا أنهم جماعة من الموعوظين الجدد كانوا حاضرين في الكنيسة وقت القداس وأنهم شاهدوا كسر الكأس، وأقرُّوا كل التهم الملفَّقة، كل ذلك تحت التهديد لأن التحقيق كان يجري والجنود شاهرون السيوف ...

وفات على المحققين الملفّقين أنه بحسب قانون الكنيسة يستحيل إقامة الذبيحة المقدَّسة والموعوظون موجودون، فكيف شاهد هؤلاء تحطيم الكأس وقلب المائدة؟(٥٤)

وقد احتجَّ أساقفة وقسوس إقليم مريوط بشدة وشجبوا هذا التحقيق واعتبروه باطلاً، لأن مكاريوس القس المتهم لم يحضر التحقيق، ولأنه لم يُسمح لهم بدخوله بل ظلُّوا محبوسين حتى انتهوا من أخذ أقوال الشهود الذين سخَّروهم لهذا الأمر، ولمَّا خرجوا تركوا عليهم الجنود والوثنيين فأهانوهم بشدة، وكان اليوم يوماً من أيام الصوم. والخطاب الذي يحمل احتجاجهم جاء بتاريخ ١٠ توت الموافق ٨ سبتمبر سنة ٣٣٥م.

ولكن وقبل أن تصل هذه اللجنة إلى صور عائدة من الإسكندرية وقبل أن يقطعوا بعزل القديس أثناسيوس عن كرسيه، كان أثناسيوس قد ترك صور صاعداً إلى القسطنطينية ووصلها في ٣٠ أكتوبر الموافق ٢ هاتور سنة ٣٣٥م:

[فلما رأينا أن الأمور تجري هكذا انسحبنا من وسطهم كما من وسط "جماعة خائنين"(٥٥) لأن كل ما كان يحلو لهم كانوا يعملونه ...](٥٦)

[فإسخيراس الذي لم يكن له أصلاً كنيسة ولا شعب يتبعه، فإنهم استطاعوا بعد ذلك أن يقنعوا الإمبراطور أن يرسل أمراً إلى الحارس القضائي في مصر أن تُبنى له كنيسة (على حساب خزينة الدولة) ... وأسرعوا في الحال وجعلوه أسقفاً أيضاً (وهذا ضد القانون الكنسي أن تصبح قرية مركزاً لأسقفية)].

وهذا هو نص خطاب الحارس القضائي بالإسكندرية إلى مأمور ضرائب منطقة مريوط (أمين خزينة الدولة):

(54) *Apologia contra Ar.* 11-14.

(٥٥) إرميا ٩:٢.

(56) Ibid. 84.

[... فلافيوس هميريوس يرسل السلام إلى مأمور ضرائب مريوط. القس إسخيراس إذ قد تظلَّم لدى شفقة أسيادنا أصحاب الفخامة القياصرة لكي تُبنى له كنيسة في منطقة "إيرين" بلدة سيكونداروروس، وجلالتهم قد أمروا أن يجرى ذلك بأقصى سرعة، فيلزم أنه بمجرَّد أن يصللك هذا المكتوب بالمرسوم المقدَّس المرفق بكل احترام أعلاه الذي قد صار ترتيبه بمعرفتي، أن تسرع وتوقعه في دفتر السجلات حتى يصبح الأمر المقدَّس نافذ المفعول.][٥٧]

وبالرغم من أن التحقيق الذي أجرته لجنة تقصِّي "الحقائق" في مريوط ظلَّ في طيِّ الكتمان بسبب فضائح الغش الذي فيه، حيث سُلِّم ليوسابيوس رئيس المجمع حال وصول اللجنة إلى "صور"، وكان ذلك في غيبة البابا أثناسيوس الذي كان قد أقلع إلى القسطنطينية - إلاَّ أن نسخة منه وصلت ليد "يوليوس" أسقف روما، وهذا سلَّمها بدوره لأثناسيوس سنة ٣٣٩م بعد عودته من المنفى[٥٨].

أثناسيوس يقلع سرّاً ومعه أربعة أساقفة إلى القسطنطينية لرفع دعواه إلى الإمبراطور، وذلك في ٣٠ أكتوبر سنة ٣٣٥م ويمكث ثمانية أيام يتحيَّن الفرصة لملاقاة الإمبراطور[٥٩]:

وهاك نص القصة بخط يده:

[فبينما هُم منهمكون في تدبير المؤامرات والخطط، أقلعتُ. واستعدتُ أمام الإمبراطور صورة من السلوك غير العادل الذي سلكه يوسابيوس وأعوانه، لأنه هو الذي أمر بتشكيل المجمع وترأسه مندوبه الكونت ديونيسيوس. فلما سمع الإمبراطور تقريري، انفعل (كالعادة) وكتب إلى الأساقفة المجتمعين بصور كالآتي:

قسطنطين فيكتور مكسيموس أُغسطس، إلى الأساقفة المجتمعين في صور:

لست أعلم ما هي القرارات التي وصلتم إليها وسط هذه الضجَّة والشغب، ولكن يبدو أن الحق قد انحرف بسبب هذه الفوضى والإخلال بالنظام ... إن السبب الذي كتبت إليكم من أجله أدعوكم للحضور بهذه الرسالة ستعلمونه من الآتي:

(57) Ibid. 85 تاريخ هذا الخطاب بحسب تحقيق المؤرِّخ "فيليب شاف" هو ٣٣٧م.
(58) Ibid. 83.
(59) NPNF, vol. IV, p. 503.

بينما أنا عائد متأخِّراً إلى مدينتنا السعيدة "القسطنطينية" ممتطياً جوادي، إذا فجأة يعترض طريقي الأسقف أثناسيوس ومَنْ معه، ولأني كنت لا أتوقَّع هذا اندهشت جدًّا، الله الذي يعلم كل شيء هو شاهد لي إني لم أستطع أن أتعرَّف عليه في بادئ الأمر، لولا أن المرافقين لي أعلموني مَنْ هو، كما أعلموني أيضاً بأي ظلم كان يعاني. إلاَّ أني لم أدخل معه في أي حوار في ذلك الوقت ولا سمحت له بالمقابلة، ولَمَّا ألحَّ عليَّ أن أستمع له كنت رافضاً، بل وأعطيت أمراً أن يُستبعد من أمامي، ولكنه بجرأة متزايدة أصرَّ في طلب هذا المعروف الواحد أن أستدعيكم أمامي حتى يتسنَّى له فرصة أن يعرض عليَّ شكواه في حضوركم بخصوص المعاملة التي لاقاها.

وقد تراءى لي أن هذا الطلب معقول، وأن الوقت موافق، فأمرت بمسرَّتي أن يُكتب هذا الخطاب إليكم حتى تحضروا جميعاً بكل أعضاء المجمع المنعقد في صور وتسرعوا جميعاً إلى البلاط بلا أي تأخير ...](٦٠)

اختلاق مؤامرة جديدة أتت بنتيجتها فوراً:

[وكان حكّام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التي فرضوها على شعبهم، ولم يدركوا أن هذا الخُلُق السلبي يُضعف كل ملكات العقل ويورِّثها الانحطاط.] (جيبون)

والكلام هنا أيضاً من مذكرات البابا القديس أثناسيوس:

[فلمَّا قرأ يوسابيوس وأعوانه هذا الخطاب وأحسوا بخطورة ما صنعوه، منعوا بقية الأساقفة من الإقلاع واقتصروا الذهاب على أنفسهم فقط وهم يوسابيوس وثيئوجنيوس وباتروفيلوس ويوسابيوس الآخر وأرساكيوس وفالنس. وهناك لم يفتحوا سيرة الكأس ولا موضوع أرسانيوس ـ لأنه لم تكن لديهم الشجاعة أن يُقْدموا على هذا ـ ولكنهم اخترعوا اتهاماً آخر يهم الإمبراطور نفسه، فأعلنوا أمامه أن أثناسيوس هدَّد أنه يستطيع أن يمنع القمح الذي يُرسَل من الإسكندرية إلى القسطنطينية. وكان الأساقفة أدامنتيوس وأنوبيوس وأغاثامون وأربيثيون وبيتر حاضرين وسمعوا هذا، وقد تحقَّق لديهم أن الإمبراطور صدَّق هذا بسبب الغضب الذي ظهر عليه؛ فبالرغم من أنه أرسل الخطاب السابق وأدان عدم عدالتهم، إلاَّ أنه

(60) *Apologia contra Ar.* 86.

بمجرَّد أن سمع هذه التهمة تهيَّج.] [٦١]

النفي الحزين إلى تريف:

[وبدل أن يعطيني فرصة ويسمع مني أرسلني بعيداً إلى الغال] [٦٢] إلى مدينة تريف.

ومدينة تريف كانت عاصمة الغال (فرنسا) واسمها بالكامل أوجوستا تريفوروم، وتُختصر تريفري أو ترير أو تريفس، وهي على نهر الموزل على حدود ألمانيا.

وأبحر القديس أثناسيوس إلى تريف في ١٠ أمشير الموافق ٥ فبراير ٣٣٦م [٦٣].

حقيقة نفي تريف من الوجهة الكنسية:

أولاً: أمَّا هذا النفي فهو من الوجهة الكنسية إجراء لا يقع في دائرة الروح أو الإيمان عمومًا، إنما هو عمل إداري محض قام به إمبراطور منفعل لوشاية واحدة لا علاقة لها بالكنيسة أو الإيمان. وهو أيضاً عمل غير عادل وغير قانوني من الوجهة المدنية الصرف، لأنه لم يتم فيه أي تحقيق بخصوص هذه الوشاية الوحيدة التي قُدِّمت شفاهاً وبدون شهود من شخص لا علاقة له بمصر أو بالشئون الإدارية التي تخص الإمبراطور، فهو أسقف وليس ضابط مباحث.

ثانياً: أمَّا قرارات مجمع صور من جهة عزل أثناسيوس من كرسيه فقد طعن فيها كل أساقفة مصر، وهم الأعضاء الرسميون في المجمع ويبلغ عددهم أكثر من الثلث من مجموع الحاضرين، ولم تُفحص هذه الشكوى أو يُنظر إليها، كما طعن في إجراءات المجمع الأسقف الوقور ألكسندروس أسقف تسالونيكي ولم تُنظر شكواه.

وكانت الشكاوي مترِكِّزة على أساس أن الخصوم صاروا قضاة وصاروا محقِّقين في لجنة تقصِّي الحقائق في مريوط، وهذا غير جائز، علماً بأن تشكيل المجمع من الوجهة الكنسية الشكلية جاء غير قانوني، لأن الأغلبية كانوا من الأريوسيين المحكوم عليهم في مجمع نيقية بالمروق من الإيمان المستقيم، ولم يتم قبولهم أو شركتهم في الكنيسة بعد.

على أن هذه الأحكام التي أصدرها المجمع قد تجاوزت كل حدود العقل والمنطق بالنسبة لمستوى

(61) Ibid. 87.
(62) Ibid.
(63) NPNF, vol. IV, p. 503.

الشكاوى والاتهامات. فالشكاوى انحصرت في مستوى كسر كأس وقلب مائدة قام بها كاهن، وقتل أسقف ظهر حيًّا في وسط المجمع، والأحكام بلغت في عنفها إلى عزل رئيس أساقفة من كرسيه!! وهكذا يبدو هذا الحكم تهورياً ومبالغاً فيه مبالغة تكشف عن النية التي على أساسها انعقد المجمع أصلاً. فقد وضعوا في ذهنهم الحكم قبل أن يفحصوا الاتهامات، وأيضاً لجهلهم وعدم رزانتهم لم يوفّقوا في تلفيق الاتهامات التي تساوي الحكم الذي أصدروه.

نيَّة الإمبراطور قسطنطين من جهة نفي القديس أثناسيوس:

كثرت تكهنات المؤرِّخين بخصوص نيَّة الإمبراطور قسطنطين في نفي أثناسيوس إلى تريف. وقد رأى معظمهم أنه اتخذ هذا الإجراء للحفاظ على حياة أثناسيوس من حقد خصومه، واستندوا في ذلك على خطاب قسطنطين الابن الذي أشار فيه إلى أن هذا كان إبعاداً لخير حياته وليس نفياً للإيذاء به. وإليك نص الخطاب الذي أرسله قسطنطين قيصر ابن الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى أهل الإسكندرية في مدينة تريف بحضور أثناسيوس، وذلك قبل عودة أثناسيوس إلى الوطن مباشرة في ١٧ يونيو سنة ٣٣٧م(٦٤)، والكلام هنا بقلم أثناسيوس نفسه:

[ولكن لمَّا تذكَّر قسطنطين الابن المطوَّب، أعادني إلى الوطن متذكِّراً ما كان قد كتبه أبوه، وكتب هو أيضاً هذا:

قسطنطين قيصر، إلى شعب الكنيسة الجامعة لمدينة الإسكندرية.

إني أعتقد أنه لم يَفُتْ على ذهنكم التقي أن أثناسيوس مفسِّر ناموس العبادة كان قد أُرسل إلى الغال (فرنسا) مؤقَّتاً، وذلك عن قصد بسبب وحشية أعدائه المتعطِّشين لسفك الدماء المتأصِّلين في عداوتهم، الذين تعقَّبوه باضطهادهم إلى درجة المخاطرة للقضاء على حياته المقدَّسة، وهكذا خلُص من مؤامرة لم يكن ممكناً علاجها بسبب سلوك هؤلاء الأشرار المتمرِّدين. فلكي يجنِّبه (الإمبراطور) هذا كله، اقتلعه من بين فكَّي خصومه، وكلَّفه أن يقضي بعض الوقت تحت حكومتي، وهكذا كنَّا نمده بكل احتياجاته بوفرة في هذه المدينة (تريف العاصمة) حيث عاش (في وسطنا). غير أنه بقداسته المشهورة كان في الحقيقة يعتمد على المعونة السمائية تماماً غير عابئ على الإطلاق بالضيقات التي ألَّمت به.

والآن وإذ أعلم أنه كان في عزم إرادة أبي الإمبراطور قسطنطين قيصر أن يعيد الأسقف

(64) Gwatkin (Stud. 136).

أثناسيوس إلى مكانه وإليكم، أيها الأتقياء المحبوبون، ولكن وقد أُخذ بغتة إلى نصيبه الذي هو نصيب كل بشر، وذهب إلى راحته قبل أن ينفِّذ هذه الرغبة، رأيت أنه من اللائق أن أُحقِّق هذه النية التي كانت لأبي الإمبراطور صاحب الذكرى المقدَّسة، هذه النيَّة التي ورثتها أنا أيضاً منه.

وحينما يأتيكم ستعلمون منه بأي احترام كنا نعامله. وفي الحقيقة ليس هو أمر فائق كل ما قدَّمتُه له بالنسبة لما تكنونه أنتم من شوق إليه، لأن رؤية هذا الإنسان العظيم حرَّكت نفسي وحثَّتني أن أعمل هذا. فلتحفظكم العناية الإلهية أيها الإخوة المحبوبون.

كُتبت في تريفري ١٧ يونيو سنة ٣٣٧م.](٦٥)

تعليق القديس أثناسيوس على هذا الخطاب مؤيِّداً ما جاء به:

[هذا هو السبب الذي من أجله أُرسلتُ إلى الغال (فرنسا)، فمَنْ ذا الذي لا يدرك - من ذلك - وبوضوح نيَّة الإمبراطور؟ وروح يوسابيوس السفَّاك مع أتباعه، وأن الإمبراطور عمل هذا ليوقف نشاط مؤامراتهم اليائسة.](٦٦)

وهكذا طاش السهم الأول للأريوسيين في صور بعد أن أصاب منه جرحاً وليس مقتلاً؛ ثم يتبقَّى له بعد ذلك أربعة أسهم، حتى يكمل خمسة جروح كخمسة جروح الرب!!

ولكن وبالرغم من هذا التسامح الذي بلغ إليه تفكير القديس أثناسيوس من جهة نيَّة الإمبراطور، وبالرغم أيضاً من الكلمات المعسولة التي خاطب بها قسطنطين الثاني (الابن) شعب الإسكندرية عند عودة أسقفهم إليهم، فالحقيقة لديَّ أنا، كمؤرِّخ، هي غير ذلك تماماً.

أولاً: لأن أثناسيوس لم يكن في الوضع الذي يمكِّنه أن ينتقد عمل الإمبراطور قسطنطين لا بالتلميح ولا بالتصريح، بل على العكس يتحتَّم عليه أن يمتدحه لكي لا يعطي فرصة له أو لغيره، من بعده - وهم أولاده - أن ينظروا إليه كمقاوم لمشيئة الإمبراطور الذي كان يتظاهر بالإيمان المستقيم، لأنه إذا صحَّ ذلك فإنه يدعِّم ادعاءات الأريوسيين.

ثانياً: لأنه لا يمكن أن نعتبر نفي أثناسيوس هو الوسيلة الوحيدة التي تبقَّت أمام الإمبراطور

(65) *Apologia contra Ar.* 87.
(66) Ibid. 88.

لإنقاذه من أيدي يوسابيوس والحاقدين عليه ظلمًا، فمعلوم ما هي سلطة الإمبراطور، وكان عليه بالحري بل وبالدرجة الأُولى أن يعاقب وينفي هؤلاء المفسدين والمشاغبين بعد أن ثبت لديه بالدليل القاطع ومن فمه هو نفسه أنهم أشرار.

ثالثاً: ولأن الإمبراطور أصدر أمراً شفعه بالتوكيد والاستعجال الفوري أن ينتقل مجمع صور إلى القسطنطينية؛ ولكن يوسابيوس ضرب بأمر الإمبراطور عرض الحائط وسرَّح معظم الأساقفة(٦٧) إلى بلادهم، وأرسل بعضهم لتدشين كنيسة القيامة، ولم يذهب إلى الإمبراطور إلاَّ ستة أساقفة فقط! فماذا كان موقف الإمبراطور إزاء هذا التحدِّي والعصيان؟ علماً بأنه صادق بنفسه على الظلم الذي لحق أثناسيوس في خطابه إلى أساقفة مجمع صور، كما صادق على هذا الظلم حاشيته أيضاً التي كانت راكبة معه عند ظهور أثناسيوس أمامه في الطريق مستعطفين أن يصغي إلى شكواه، وذلك باعتراف الإمبراطور نفسه في خطابه المذكور.

رابعاً: لأنه لا يزال يقف ضد نيَّة الإمبراطور خطاب خطير يقدِّم الدليل المادي القاطع أنه كان متحيِّزاً للأريوسيين، وأنه كان حاقداً على أثناسيوس بسبب ذيوع شهرته وتفوُّق شخصيته، ولذلك كان يقصد تماماً معاقبة أثناسيوس بالنفي. وأمَّا الإحساس الدفين بالتنافس بين شخصية البابا أثناسيوس وشخصية الإمبراطور قسطنطين فقد كشفه القديس غريغوريوس الثيئولوغوس عندما عمل هذه المقارنة: إن شخصية أثناسيوس حجبت ἔκλειψις شخصية قسطنطين.

أمَّا هذا الدليل، فهو خطاب هام أرسله الإمبراطور إلى أهل الإسكندرية ردًّا على استعطافات كثيرة أرسلها له القديس أنطونيوس الكبير مع شعب الإسكندرية. وقد احتفظ لنا بمضمونه المؤرِّخ سوزومين في سجلات تاريخه الكنسي:

[وقد رفع شعب الإسكندرية صوتهم عالياً محتجين على نفي أثناسيوس وقدَّموا تشفعات من أجل عودته، وأنطونيوس الراهب المشهور كتب مراراً كثيرة إلى الإمبراطور يترجَّاه أن لا يصدِّق ادعاءات الميليتيين بل ويرفض كل اتهاماتهم باعتبارها مجرَّد مؤامرة. إلاَّ أن الإمبراطور لم يكن مقتنعاً بهذه الحجج، وكتب إلى الإسكندريين يتهمهم بالتهور والفوضى، وأمر الإكليروس والعذارى أن يلزموا الهدوء، وأعلن أنه لن يغيِّر رأيه ولن يستدعي أثناسيوس الذي وصفه بأنه مثير للشغب، كما حكم عليه قضاة الكنيسة (هكذا) بحق (هكذا).

(67) Möhler G.A., Athanasius pref. (1840).

وردَّ على أنطونيوس أنه لا يستطيع أن يتجاوز القوانين التي أصدرها المجمع (في صور)، لأنه حتى وإن كان هناك قلة من الأساقفة (في مجمع صور) سلكوا بإرادة خبيثة وبرغبة في إرغام الآخرين، فإنه لا يُعقل ولا يُصدَّق أن البقية، وهي الكثيرة، من الأساقفة الحكماء الممتازين (هكذا) تكون قد انساقت أيضاً بمثل هذه الدوافع. وأضاف: إن أثناسيوس هذا متمرِّد غير مطيع ومتكبِّر وهو السبب في كل هذا النزاع والشغب.

(وهنا يضيف المؤرِّخ سوزومين من عنده قائلاً): ولأن أعداء أثناسيوس كانوا يعلمون أن الإمبراطور يمقت هذه الصفات بصورة خاصة، لذلك كانوا يتمادون بالأكثر في اتهامه أمامه بهذه الجرائم.](٦٨)

هذا هو الشعور الحقيقي الذي كان يحمله الإمبراطور قسطنطين ضد أثناسيوس، وقد ظهر واضحاً تمام الوضوح الحقد والتحامل والبغضة الشخصية التي لا ترتكز على أسباب حقيقية. ومنه يتبيَّن مقدار عمق وخطورة التيارات العدائية التي كانت تعصف بأثناسيوس والتي كان يحسها ويدركها تمام الإدراك، ويحاول جاهداً أن يحد من سطوتها وعنفها بالحجة والإقناع كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، ثم بالمواجهة والاتهام عندما يتلاعب خصومه بالحق والدليل؛ وأخيراً بهذا الأسلوب الفريد في تقريظ عداء الإمبراطور وحقده وكأنه تلطُّف ورحمة!!

يا للمعاناة التي احتملها هذا القديس!! ويا للحزن الذي كان يملأ قلبه ويعصف بتفكيره حينما كان يحس أن الأريوسيين كسبوا الموقف، وأصبح الإيمان بلاهوت المسيح على مرمى مكشوف!!

ولكن، وفي آخر لحظة، سجَّل التاريخ للإمبراطور قسطنطين على يد المؤرِّخ ثيئوذوريت فضيلة الرجوع إلى الحق. فبينما هو على فراش الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعلى مسمع من يوسابيوس، أصدر أمره بعودة أثناسيوس الكبير(٦٩)، وما ذلك إلاَّ لأن الشعور بالموت ألغى الشعور بالحقد.

وفي ختام هذا الفصل من سيرة القديس أثناسيوس نرى كيف طاش السهم الأول للأريوسيين في مجمع صور بعد أن أصاب من القديس جرحاً وليس مقتلاً ... وبعد ذلك يتبقَّى لهم أربعة سهام ليكمِّلوا بها جروحاً خمسة في حياة هذا القديس كخمسة جروح الرب! يبقى بعدها أثناسيوس هو أثناسيوس، "الصخرة التي لم تقوَ عليها أبواب الجحيم" كقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات.

(68) Soz., II, XXXI.

(69) Theodoret, I, XXX.

الفصل الثالث

جهاد البابا أثناسيوس حتى منفاه الثاني

[وهكذا بتدبير فائق الوصف أرسل الله أثناسيوس (وإن كان بصورة شكلية حزينة) إلى تريف على الحدود بين فرنسا وألمانيا لتكون أول وأقوى إرسالية تبشير بالروحانية الشرقية إلى كل أوروبا وإيطاليا، وقد حفرت خطوطها الأولى العميقة في المجال الرهباني حيث ألقى أثناسيوس أول بذرة لطقس الرهبنة في كل العالم الغربي، كما أرسى قواعد بعض تقاليد الليتورجيا الشرقية، كطقس السهر الليلي وبقية مميزات إفخارستية الإسكندرية، هذه التي ظلّت حتى اليوم الخيط الذهبي الإلهي الذي لا يزال يلح على ضمائرنا بحتمية العودة إلى ألفة المحبة في وحدانية الإيمان والكلمة والكأس الواحد]!

المؤلّف

الحوادث التي جرت أثناء وجود أثناسيوس في تريف ببلاد الغال(١)

مدة النفي في تريف:

كانت المدة التي قضاها القديس أثناسيوس في تريف مقر منفاه الأول بحسب تحقيق العلماء، ومن واقع تاريخ خطاباته الفصحية هي: من ٨ فبراير سنة ٣٣٦م – وهو تاريخ بدء تنفيذه أمر النفي – حتى ١٧ يونيو سنة ٣٣٧م – وهو تاريخ صدور خطاب قسطنطيوس قيصر من تريف نفسها بعودة أثناسيوس إلى وطنه. أي أنه أمضى موسمين متتاليين لعيد الفصح في مدينة تريف بالمنفى على حدود ألمانيا، في الكاتدرائية التي كان يجلس على عرشها الأسقف الوقور ماكسيميانوس، ولم تكن آنئذ قد تكامل بناؤها، فصلّى فيها أثناسيوس العيد قبل تدشينها. وهو يذكر هذه الأمور في دفاعه لدى قسطنطيوس (الفصل ١٥)(٢). أمَّا كاتدرائية تريف أو ترير الآن فهي التي كانت أصلاً قصراً للإمبراطور. ولا يزال يوجد بجوارها الحمامات الرومانية الأثرية التي كانت ملحقة بالقصر(٣).

ولكن يلزم التنبيه أن اختلاف المؤرِّخين في تحديد مدة منفى أثناسيوس يرجع إلى أن بعضهم يحسب مدة النفي منذ لحظة مغادرة أثناسيوس الإسكندرية في طريقه إلى مجمع صور في ١٧ أبيب – ١١ يوليو سنة ٣٣٥م. وبينما يحسب الآخرون نهاية النفي عند لحظة وصوله إلى الإسكندرية عائداً في نوفمبر سنة ٣٣٧م – ٢٧ هاتور. ولذلك نجد المؤرِّخ ثيئودوريت مثلاً يعتبر مدة النفي سنتين وأربعة أشهر(٤)، وهو في ذلك يأخذ بتقديرات سجلات التاريخ المعروف بـ"تاريخ أسيفالا Acephala"(٥) الذي يحدِّدها بالتدقيق بسنتين وأربعة أشهر وأحد عشر يوماً.

---

(١) بلاد الغال تشمل الآن فرنسا الحديثة وبلجيكا وسهل لمبارديا وجزيرة سردينيا.

ومدينة تريف أو ترير هي على حدود ألمانيا الجنوبية مع فرنسا (الغال)، وهي المدينة التعيسة التي وُلد فيها وتربّى كارل ماركس أبو الشيوعية الإلحادية في العالم.

(2) *Apologia ad Constant.* 15.

(3) NPNF, IV, xli.

(4) Theodoret, *H.E.* ii, 1.

(٥) مخطوطة اكتشفها المركيز مافاي سنة ١٧٣٨م باللغة اللاتينية في مكتبة فيرونا، وأصل المخطوطة باللغة اليونانية كُتبت بعد نياحة أنبا أثناسيوس وفي زمان باباوية ثاوفيلس البابا الـ ٢٣ (في عداد باباوات الإسكندرية).

حالة البابا أثناسيوس وهو في المنفى بمدينة تريف:

حاول بعض المؤرِّخين التهوين من حالة النفي التي عاناها أثناسيوس، حتى أن بعضهم أخذ يمتدحها كفترة راحة وسلام وتأليف، والبعض الآخر رآها فرصة هامة لإنقاذ حياته، وبالغ آخرون في وصف الحفاوة والترحيب الذي استُقبِل به أثناسيوس في تريف.

ولكن نسي هؤلاء المؤرِّخون ما هي حقيقة المنفى بالنسبة لإنسان كارز ومعلِّم نشيط ورئيس أساقفة حرٍّ مثل القديس أثناسيوس. لذلك رأيت أن أنقل للقارئ صورة صادقة لما خطَّته أيام المنفى في ذاكرة أثناسيوس وما تركته من آلام ومرارة في نفسيته الحسَّاسة، وذلك من واقع رسالته الفصحية التي بدأ بكتابتها في النفي، ويُظن أنه أكملها بعد رجوعه في ٣٠ برمهات سنة ٣٣٨م. وهي الرسالة المعروفة بالرسالة العاشرة، وإليك مقتطفات منها:

[ولو أني قد رحلت عنكم هذه المسافة الطويلة يا إخوة إلاَّ أني لم أنسَ العادة التي اعتدتها بينكم التي تُسلِّمت إلينا من الآباء(٦) ... **لأنه بالرغم من أني تعوَّقت بسبب هذه المحن التي بلا شك قد سمعتم عنها مع التجارب القاسية التي وُضعت عليَّ، وقد فصلتنا هذه المسافات الطويلة، وقد تعقبنا أعداء الحق في كل طريق ناصبين الفخاخ لكي يصطادوا أي خطاب منا إليكم بقصد أن يضيفوا باتهاماتهم آلاماً أخرى على جروحنا.** ولكن الله قوَّانا وعزَّانا في كل ضيقاتنا، فلم نخف البتة، حتى أننا ونحن في وسط هذه المكايد والمؤامرات تمسَّكنا بضرورة أن نرسل إليكم لنعرِّفكم عن ميعاد عيد القيامة الخلاصي حتى **ولو كنا في أقصى الأرض.**

كما أني أوصيت كهنة الإسكندرية أن يقوموا بإطلاعكم على رسائلي التي كنت أبعثها إليهم، ولو أني أعلم مقدار الخوف الذي كان يحيط بهم من المقاومين ...

لقد احتملت ضيقات بهذا الوصف وهذه التجارب كلها التي ذكرتها لكم كما كتبت إليكم ...

ولكن ليس لكي أحزنكم، أكتب إليكم هذا باختصار مذكِّراً إياكم بهذه الأمور، **بل إنه**

(٦) منذ أيام البابا ديونيسيوس الكبير. وعادة إرسال الخطابات الفصحية قائمة في مصر حيث توجد بقايا من خطاباته، ولكن منذ مجمع نيقية صارت الإسكندرية مسئولة عن إعلان ميعاد الفصح لأساقفة العالم كله، وأصبح الخطاب الفصحي الذي يكتبه بابا الإسكندرية يُرسَل أيضاً لروما وللأقطار النائية. Euseb., *E.H.* vii. 20, *Ad Afros.* 2.

ليس من اللائق للإنسان أن ينسى عندما يبلغ الراحة مقدار الألم والمعاناة التي كابدها في الضيقة، لئلاَّ يفقد الفرصة على الشكر كشخص ينسى فيصير غير لائق للشركة الإلهية ... وما هو واجبنا الآن يا إخوتي بالنسبة لهذه الأمور إلاَّ أن نقدِّم الشكر والتسبيح لله الضابط الكل مبتدئين بالاعتراف بكلمات المزمور: «مبارك الله الذي لم يُسْلِمنا فريسة لأسنانهم» (مز ١٢٤: ٦).[(٧)

كذلك ظل يتعقَّبه الأريوسيون دائماً أبداً حتى وفي منفاه في تريف وفي إيطاليا بعد ذلك، يرصدون حركاته وكلماته، واستطاعوا أن يقدِّموا إلى قسطنطيوس إمبراطور الشرق وشاية خطيرة ملفَّقة ضد أثناسيوس، إذ اتهموه أنه كان يتكلَّم ضدَّه ويسبه علناً في جلساته مع أخيه الأكبر قسطنطين الثاني إمبراطور الغرب، ومع قسطانس أخيه الأصغر الذي تولَّى إمبراطورية الغرب من بعده.

وإليك نفس كلمات الاتهام التي صدَّقها قسطنطيوس وأخذ يوجِّهها إلى ليبريوس أسقف روما بصفته صديق أثناسيوس والمدافع عنه، وسوف يشعر منها القارئ بمقدار التعبئة الحقودة التي امتلأ بها قلب الإمبراطور ضد أثناسيوس:

[لقد أساء هذا (أثناسيوس) إلى الجميع بلا استثناء، ولكن إساءته إليَّ كانت أعمق من كل الإساءات، فهو لم يكتفِ بموت أخي الأكبر (قسطنطين الثاني)، بل لم يكف عن إثارة قسطانس المطوَّب الذكر (خليفة قسطنطين الثاني على الغرب)، ولكني بصبرٍ تحمَّلت حدتهما معاً، المهيِّج وفريسته (أي أثناسيوس وقسطانس). والآن إن كل الانتصارات حتى والتي انتصرتها ضد ماجننتيوس وسلوانس لا تساوي في نظري الآن طرد هذا الرجل الدنيء (أثناسيوس) وتجريده من سلطان الكنيسة.](٨)

أمَّا البابا القديس أثناسيوس فقدَّم دفاعه عن هذه التهمة إلى قسطنطيوس في وقت لاحق(٩) وفيه يقول:

[إلى تقواكم أرفع صوتي عالياً وواضحاً، مادًّا يديَّ، كما تعلَّمت من الرسول لكي «أستشهد الله على نفسي» (٢كو ١: ٢٣) ... أني لم أتكلَّم رديًّا عليكم قط في حضرة

(7) *Letter x.* 338.

(8) Theodoret, *E.H.* II, 13.

(٩) ٢٤ فبراير سنة ٣٥٧م.

أخيكم قسطانس صاحب العظمة ... على أن أحاكم المتأصِّل في المسيحية لم يكن بالرجل الذي يوصَف بالخفة، ولا كنت أنا أيضاً بمثل هذه الأخلاق حتى نتحد معاً على أمر مثل هذا، أو أتجرَّأ أن أُوقع أخاً بأخيه!! أو أتسقَّه بكلام رديء على إمبراطور في حضرة إمبراطور. فأنا لست بمختل العقل يا سيِّدي ولا نسيت قط القول الإلهي: «لا تلعن الملك أبداً حتى ولا في فكرك. ولا تسبّ غنياً حتى وإن كنت في مخدعك، لأن الطير في السماء يحمل صوتك وذو الجناح يخبر بالأمر» (جا ١٠: ٢٠)...

على أني لم أحظَ قط بالمثول في حضرة أخيكم منفردًا، ولا هو تكلَّم معي في خلوة، بل كانوا يقدِّمونني إليه مع أسقف المدينة التي يتصادف أن أكون فيها ومع آخرين أيضاً. ندخل إلى حضرته معاً ونخرج أيضاً معاً. وفرتوناتيان أسقف أكيلايا يشهد بذلك، والأب هوسيوس يشهد، كذلك أيضاً كرسبينوس أسقف بادوا ولوسيللوس أسقف فيرونا وديونيسيوس أسقف لاييس وفنستيوس أسقف كمبانيا، **ولو أن ماكسيمينس أسقف تريف**(١٠) وبروتاسيوس أسقف ميلان قد تنيَّحا، إلاَّ أن أوجينوس رئيس القصر يمكن أن يشهد لي، لأنه كان دائماً يقف أمام الستارة ويسمع كل ما نتوسَّل به لدى الإمبراطور وكل ما يجيب به ويمنحه لنا.](١١)

الحوادث التي جرت بينما كان البابا أثناسيوس في تريف:

يقول بولس الرسول: «حتى أننا نحن أنفسنا نفتخر بكم في كنائس الله من أجل صبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم، والضيقات التي تحتملونها بيِّنة على قضاء الله العادل أنكم تُؤهَّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألَّمون أيضاً، إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً ...» (٢تس ١: ٤-٦)

ينقل لنا المؤرِّخ إبيفانيوس أسقف قبرس صورة من الصور الرائعة لشخصية البابا أثناسيوس في إحدى مواقفه الحازمة مع الإمبراطور قسطنطين ناقلاً لنا آخر جملة نطقها أثناسيوس في وجه الإمبراطور قسطنطين **بعد أن فقد كل أمل في العدالة على الأرض: «الرب يحكم بيني وبينك»!!**، وذلك عندما أصدر الإمبراطور حكمه بالنفي رافضاً أن يصغي لدفاع أثناسيوس. نعم وقد حكم الرب، فلم يعشْ الملك بعد ذلك طويلاً، وما عاشه فقد عاشه عليلاً ...، أمَّا أريوس فمات ميتة

(١٠) ماكسيمينس أسقف تريف اعتبرته الكنيسة الرومانية أحد قديسيها العظام.

(11) *Apolog. ad. Constant.* 3.

شنيعة، كل ذلك قبل أن يخرج أثناسيوس من منفاه الأول.

قرارات مجمع صور في غيبة أثناسيوس:

الوصف هنا للمؤرِّخ سوزومين:

[كان المجمع قد اتخذ قراره بإسقاط أثناسيوس من كرسيه منتهزاً فرصة غياب أثناسيوس في القسطنطينية، وأضافوا مطالبين بإبعاده من الإسكندرية بحجة خوفهم من إثارته للقلاقل والاضطرابات، ضاربين بذلك على الوتر الحساس الذي يهم قسطنطين.

وفي نفس الوقت أمر المجمع بإعادة يوحنا أسقف الميليتيين مع كل أعوانه إلى الشركة، وكأنهم كانوا قد أُهينوا ظلماً. واستلم كل واحد منصبه الكهنوتي كما شاءوا. وكتب الأساقفة المجتمعون في مجمع صور خطابات إلى جميع أساقفة العالم بذلك، محذِّرينهم من قبول أثناسيوس في شركتهم، أو قبول أية خطابات منه أو إرسال خطابات إليه بصفته مقترفاً لجرائم سجَّلها عليه المجمع وأثبتوها كما شاءوا.

كما اعتبروا ذهابه إلى القسطنطينية هروباً من مواجهة الاتهامات وتحدياً لسلطة المجمع ومحاولة لإثارة الشغب داخل المجمع. كما اعتبروا امتناع أثناسيوس عن حضور مجمع قيصرية الذي كان الإمبراطور قد دعا الأساقفة إليه سابقاً، تحدياً لأوامر الرؤساء واحتقاراً للأساقفة الذين ظلوا هناك ينتظرون قدومه بلا جدوى.

كما سجَّلوا عليه مخالفات داخل مجمع صور، منها عدم ردِّه على كثير من الأسئلة والاتهامات التي كانت توجَّه إليه، كما بدر منه كثير من الإهانات كان يوجِّهها شخصياً لبعض الأساقفة الذين كانوا يوجِّهون إليه الاتهامات. وأنه كذلك كان يرفض قبول أية محاكمة.](١٢)

وكل هذه القرارات اتخذت على عجل بعد سفر أثناسيوس إلى القسطنطينية بيوم واحد، وانفضَّ المجمع بغاية السرعة واتجهوا جميعاً بتدبير يوسابيوس إلى أورشليم لتدشين كنيسة القبر المقدَّس.

تدشين كنيسة القبر المقدَّس وقبول أريوس في الشركة:

لَمّا كمُل بناء الكنيسة الكبرى التي كان الإمبراطور قسطنطين قد أمر بإقامتها في مكان الجمجمة

(12) Sozom. II, 25.

بأورشليم ـ والكلام هنا للمؤرِّخ سوزومين[١٣] ـ كان ذلك في السنة الثلاثين من حكم قسطنطين سنة ٣٣٥م.

وظل الإمبراطور يترقَّب فرصة مواتية ليقوم بتدشين هذا "الهيكل الكبير"، فوجد في اجتماع الأساقفة في مدينة صور الفرصة المناسبة، وذلك باعتبار أن اجتماعهم معاً هو أنسب فرصة لتصفية الخلافات والأحقاد والوصول إلى حالة الصفاء اللازم للقيام بتدشين هذه الكنيسة الكبرى ـ فأرسل إليهم موظفه الخاص ماريانوس المختص بالكتابة المختزلة يأمرهم بالتوجُّه إلى "أورشليم الجديدة" ليدشِّنوا الكنيسة الكبرى على وجه السرعة.

وفعلاً قاموا بتدشين الكنيسة في ١٣ سبتمبر، ولا تزال الكنيسة اليونانية تعيِّد رسمياً لتدشين كنيسة القيامة في هذا اليوم.

ولكن الأساقفة وغالبيتهم العظمى من الأريوسيين وجدوها أيضاً فرصة مناسبة بالأكثر فيما يختص بمصالحهم الشخصية أن يعيدوا أريوس وزميله أوزيوس إلى شركة الكنيسة. والكلام هنا أيضاً للمؤرِّخ سوزومين[١٤] ـ فأخذتهم الغيرة أن يعقدوا مجمعاً في أُورشليم لهذا الغرض. كل هذا وأثناسيوس في منفاه طبعاً.

مجمع أُورشليم وقصة قبول أريوس، على أساس خداعه السابق للإمبراطور قسطنطين:

كانت قسطنطيا أخت الإمبراطور قد أوصت الإمبراطور خيراً بأريوس وهي على فراش الموت، وذلك بتأثير كاهنها الخاص الأريوسي المدعو يوستاثيوس.

وفعلاً أرسل الإمبراطور خطاباً إلى أريوس وهو في المنفى يستدعيه للحضور للتحقيق في مدى الظلم الذي أحاق به في مجمع نيقية ـ هكذا كما تصوَّره الإمبراطور ـ ولمَّا جاء أريوس كتب بخط يده بناءً على طلب الإمبراطور اعترافه، فجاء مشابهاً لاعتراف نيقية، ولكن في اختزال يتحاشى فيه كل التعبيرات الحاسمة. وكل ذلك كان بتدبير الأريوسيين في وقت سابق لمجمع صور بعدة سنوات[١٥].

فلما اجتمع أساقفة مجمع صور في أُورشليم، وبعد أن قاموا بتدشين كنيسة القبر المقدَّس، طرحوا

(13) Ibid. II, 26.
(14) Sozom. 11.27.
(15) N.P.N.F., vol. IV, p. xl.

قضية أريوس وزميله أوزيوس الشماس، فقبلهما المجمع وأدخلهما في شركة الكنيسة، وكتبوا خطاباً عاماً لكافة أساقفة العالم وللإسكندرية بنوع خاص، وقد أورد أثناسيوس نص هذا الخطاب في دفاعه ضد الأريوسيين(١٦)، وهو خطاب مملوء غشاً ـ بحد قول البابا أثناسيوس: حيث يقولون فيه بوقاحة سافرة: [إذ قد أنهينا على الحسد والحقد من كنيسة الله وطردنا من وسطنا كل المكر والخداع (يشيرون هنا إلى نفي البابا أثناسيوس وإسقاطه عن كرسيه) الذي تسبَّب في تمزيق أعضاء الله من وقت لآخر (يشيرون إلى طرد أريوس كأنه تمزيق لأعضاء الله!!)، وهكذا تسنَّى لنا بعقل مسالم قبول أريوس وزملائه الذين حُرموا مدة طويلة من الكنيسة في وقت سابق بسبب الحسد والحقد اللذين هما عدوان لكل خير.](١٧)

ومن كلام القديس أثناسيوس بعد ذلك يتضح تماماً أن كل هذا الإجراء الخطير الذي عملوه بالنسبة لقبول أريوس وأتباعه في شركة الكنيسة حدث أثناء غياب أثناسيوس في منفاه الأول بمدينة تريف، إذ يجري حديثه هكذا:

[وإن كل مَنْ يسمع هذه الأمور يتحقَّق من خداعهم وخيانتهم، لأنهم لم يحترسوا أن يغطوا أعمالهم، فظهروا وكأنهم يعترفون بغير اختيارهم: لأنه إذا كنت أنا العائق الوحيد في قبول أريوس وأتباعه في الكنيسة، ثم حدث أن **قبلوهم هم في أثناء غيابي بينما كنت أعاني من نتائج مؤامراتهم**، فماذا يمكن أن نستنتج من هذا إلاَّ أن كل ما عملوه (فيَّ) كان بقصد الوصول إلى هدفهم هذا؟ وأن كل تصرفاتهم ضدِّي مع قصة الكأس المكسور التي اختلقوها وقتل أرسانيوس كانت كلها لغرض واحد وحيد وهو إدخال هؤلاء الملحدين الكفرة إلى الكنيسة والحيلولة دون الحكم عليهم كهراطقة؟

وهذا بعينه هو ما كان الإمبراطور يطلبه مني سابقاً في خطاباته بتهديد، وبالرغم من ذلك لم يخجلوا أخيراً أن يكتبوا هكذا ويؤكِّدوا أن هؤلاء الأشخاص ـ أريوس وزملائه ـ هم أرثوذكس مع أنهم محرومون بواسطة مجمع مسكوني، ولذلك لمَّا أرادوا أن يقولوا هذا ويعملوا ـ بدون خوف ـ اجتمعوا معاً "في زاوية" (أثناسيوس يريد أن يقول إن اجتماع أُورشليم في نظره هو اجتماع جبان). وهناك طرحوا أرضاً، على قدر ما واتتهم قوتهم،

(16) *Apol. contra. Ar.* 83,84.

(17) Ibid.

مقررات مجمع نيقية العظيم.][18]

إرسال أريوس إلى الإسكندرية وطرده منها:

توجد إشارتان واضحتان غاية الوضوح، نعلم منهما أن أريوس انحدر إلى الإسكندرية بعد مجمع أُورشليم (الذي أعقب مجمع صور) والذي حصل فيه أريوس على حِلٍّ من الأساقفة الأريوسيين المجتمعين، هذا الحِل الذي به قُبِلَ في الشركة وأُرسل إلى الإسكندرية بموكب الظافرين وبحراسة مشدَّدة من الجنود ليصول ويجول في مصر منتهزين فرصة غياب أثناسيوس في منفاه في تريف.

أمَّا الإشارة الأُولى فهي في كتابات أثناسيوس في الفصل الأول من تاريخ الأريوسية، وفيه يقول أثناسيوس متكلِّماً عن نفسه بصيغة الغائب حسب عادته هكذا:

[وفي الحال قبلوا أريوس وأتباعه في الشركة (في مجمع أُورشليم) وضربوا بعرض الحائط كل الإدانات التي ثبتت عليهم مراراً وتكراراً، ولكنهم كالعادة استندوا في ادعائهم على السلطة الإمبراطورية، و لم يحتشموا أن يقولوا في خطاباتهم (لأساقفة العالم ومصر): "وبما أن أثناسيوس الذي يعاني من الحقد قد أُوقف، فعلينا الآن أن نقبل أريوس وأتباعه"، ولكي يشيعوا الرعب في قلوب السامعين أضافوا: "وأن هذا هو أمر الإمبراطور"، بل و لم يخجلوا من قولهم: "إن أريوس وأتباعه يعترفون بالإيمان الأرثوذكسي" ...

فالرجل (أريوس) الذي وجدوه شريكاً لهم في كفرهم هذا الذي تلاحقه عشرة آلاف من الاتهامات الشنيعة من جهة الأمور التي اقترفها، وقد ثبتت عليه بالبراهين الواضحة، استحسنوه وقبلوه ومدحوه وجعلوه صديقاً للإمبراطور، وكأن كفره قد صار له واسطة لهذا القبول، وبالادعاءات الخادعة المتعددة جدًّا استطاع أن يحصل على ثقة الولاة لكي يعمل كما يشاء.

أمَّا (أثناسيوس) الذي فضح كفرهم، وبدأ يدافع عن حق المسيح بأمانة، فبالرغم من طهارة مسلكه في كل شيء، وهو لم يقصر أو يأثم بشهادة ضميره و لم يستطع أن يقف أمامه أي اتهام، **هذا لَفَّقوا عليه التهم وحبكوها ضدَّه وأمسكوه حالاً وأرسلوه إلى المنفى بمجرَّد نطق إمبراطوري!** وكأنه اقترف فعلاً هذه الجرائم التي اشتهوا أن يضعوها عليه، أو كأنه مثل "نابوت اليزرعيلي" قد أهان الملك!! **وفي أثناء ذلك بحثوا بأقصى سرعة عن (أريوس) الذي حامى عن كفرهم وأرسلوه ليملك على كنيسة غيره (أثناسيوس). وهناك**

(18) Ibid. 85.

(في الإسكندرية) حدث ما حدث من المصادرات والإهانات وكل أعمال القسوة ضد الذين رفضوا قبوله (كهنة الإسكندرية).

وهذا هو ما يُتعجَّب له جدًّا أن الذي أراده الشعب (أثناسيوس) وعلموا يقيناً أنه بلا لوم، يطرده الإمبراطور وينفيه بعيداً! أمَّا الذي لا يريده الشعب ولا يعرفه، هذا يرسله إليهم من الأقطار البعيدة مع عساكر وخطابات توصية خاصة منه!

وهكذا وُضع على الشعب هذه الضرورة القاسية إمَّا أن يبغضوا الإنسان الذي أحبوه (أثناسيوس) وهو معلِّمهم وأبوهم في الصلاح والتقوى؛ ويرحِّبوا (بأريوس) الذي يبغضونه، بل ويستأمنوا على أولادهم إنساناً لا يعلمون عن حياته وأخلاقه شيئاً، وإلاَّ فالعقاب يترصَّدهم إن هم خالفوا، فهذا هو أمر الإمبراطور.](١٩)

الإشارة الثانية: وقد أوردها سقراط المؤرِّخ في كتابه الأول هكذا:

[وفي السنة الثلاثين من حكم قسطنطين (٣٣٥م) عاد أريوس وأتباعه إلى الإسكندرية فأحدث اضطراباً في المدينة كلها، لأن شعب الإسكندرية كان في أشد حالات السخط بسبب عودة هذا الهراطيقي العنيد الذي لا يريد أن ينصلح مع مشايعيه، وبسبب نفي القديس أثناسيوس أسقفهم.

فلمَّا أخبروا الإمبراطور بموقف أريوس المتمرِّد أرسل يستدعيه إلى القسطنطينية ليعطي جواباً عن سبب هذه الفتنة التي أحدثها في الإسكندرية.]

وهكذا يتضح لنا مقدار اليقظة العنيدة التي كان يتحرَّك بها الأريوسيون في تدبير خططهم، والتي كان القديس أثناسيوس يتتبعها في منفاه بمنتهى الحساسية والذكاء، فإسقاط أثناسيوس من كرسيه لم يكن هدفهم النهائي. لذلك بمجرَّد أن اتخذوا قرارهم بذلك في مجمع صور إلتأموا بغاية السرعة مرَّة أخرى في أورشليم وعقدوا مجمعهم بقصد واحد وحيد هو إعادة أريوس إلى الشركة. لأنه لو تمَّ ذلك يكون قد اطمأنوا على أنفسهم وعلى عقيدتهم. ولكن إعادة أريوس إلى الشركة لا يكفي، فلابد أن يمارس كهنوته في المدينة التابع لها. لذلك أرسلوه إلى الإسكندرية بأقصى سرعة بتدبير يوسابيوس النيقوميدي وبرسائل خاصة من الإمبراطور وبحراسة مسلَّحة!!

(19) *Hist. of the Arians*, Part 1, 1,2.

ولكن شعب الإسكندرية فوّت عليهم الفرصة وقلب لهم كل المؤامرات والتدابير رأساً على عقب، فلم يجعلوا أريوس يهدأ يوماً واحداً، وأغلقوا أبواب الكنائس في وجهه، وصارت الإسكندرية في ثورة حقيقية، مما اضطر الوالي أن يسحبه من المدينة ويرتّب عودته في الحال إلى القسطنطينية. وهنا تتجلّى عظمة هذا الشعب الذي استطاع أن يحمي الإيمان في غيبة أسقفه. وفي الواقع تعتبر هذه الواقعة الرائعة غاية في الأهمية، تسجِّل لشعب مصر دوره الخاص في الحفاظ على الإيمان.

ويقص علينا المؤرِّخ سوزومين هذه القصة بمنتهى الاختصار هكذا:

[بعد مجمع أُورشليم ذهب أريوس إلى مصر، ولكنه لم يستطع أن يحصل على إذن لكي يقيم الشركة مع كنيسة الإسكندرية، فعاد إلى القسطنطينية. فاجتمع في القسطنطينية مع كل الذين تعاطفوا معه وكل زمرة يوساب النيقوميدي بقصد خبيث هو إقامة مجمع في القسطنطينية. فانبرى لهم ألكسندر الأسقف المسئول عن المدينة وجاهد بكل قواه لكي يبدِّد مشورة إقامة هذا المجمع رافضاً علناً إقامة أي عهد مع أريوس.](٢٠)

كما يقص علينا إبيفانيوس أسقف قبرس أن الأريوسيين نجحوا فعلاً في إقامة هذا المجمع:

[وفي سنة ٣٣٦م عقد الأريوسيون مجمعاً في القسطنطينية حكموا فيه بوجوب اعتبار أريوس أرثوذكسياً وبعزل الأساقفة الذين يخالفون هذا الحكم.](٢١)

عودة أريوس إلى القسطنطينية وموته هناك:

لقد استدعى الإمبراطور أريوس من الإسكندرية على عجل عندما سمع بالثورة التي قامت في المدينة بسببه، وهنا يبدو أن الإمبراطور راجع نفسه، فليس أثناسيوس بعد هو الذي يقاوم أريوس وأتباعه، وليس أثناسيوس الذي يثير الشعب ضد أريوس، فها هوذا الشعب بمفرده يؤدِّي واجب الأمانة من نحو العقيدة التي عاشها من قبل نيقية وسيعيشها بعد نيقية، من قبل أثناسيوس ومن بعد أثناسيوس أيضاً. إذن، لم يكن أثناسيوس إلاّ ممثّلاً لإيمان الشعب أي الكنيسة وحافظاً للعهد المقدَّس الذي تسلّمته الكنيسة من الرسل والمسيح! ...

ولكن بالرغم من كل ذلك لم يكُف يوسابيوس النيقوميدي عن محاولاته الشريرة لإعادة أريوس إلى

(20) Sozom., *E. H.* II, 29.
(21) Epiphan., *Haer.* 97. 10.

الكنيسة بأية طريقة. فتوسَّط لدى الإمبراطور ليتراءى أمامه أريوس مرَّة أخرى ليدافع عن نفسه وعقيدته.

وإليك كلام أثناسيوس نفسه:

[وهكذا حينما استُدعي أريوس مبتدع الهرطقة وشريك وزميل يوسابيوس النيقوميدي للمثول أمام الإمبراطور، حسب رغبة يوسابيوس الخاصة، وطُلب منه أن يعلن عن إيمانه كتابة، فكتب المحتال إيمانه ولكنه أخفى منه العبارات الخاصة بكفره، وادَّعى كالشيطان تمسُّكه بالآيات التي في الإنجيل ذات الكلمات البسيطة كما هي مكتوبة. ولمَّا استفسر منه قسطنطين المطوَّب الذكر "وهل لديك أفكار أخرى تتمسَّك بها في عقلك خلاف هذا؟ قل الحق ليكون شاهداً عليك!! والرب ينتقم منك إذا أقسمت كذباً". أمَّا هذا الرجل التعس فأقسم أنه لا يتمسَّك بشيء آخر وأنه قط لم يتكلَّم أو يفتكر بخلاف ما قد كتبه الآن، ولكن حالما خرج سقط وكأنه يدفع ثمن جريمته: «وإذ سقط على وجهه انشقَّ من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها.» (أع ١:١٨)

أمَّا الموت بحد ذاته فهو النهاية المحتَّمة لكل بشر، ونحن لا نتشفَّى من ميت، مع أنه عدو، لأننا كلنا نموت أيضاً وربما بنفس الميتة. لكن نهاية أريوس لم تكن ميتة عادية بحسب ظروفها، لذلك فهي جديرة بأن تُحكى للعبرة. والقصة كالآتي:

كان يوسابيوس وأعوانه يهدِّدون بأنهم سيدخلونه عنوة إلى الكنيسة، فقاومهم ألكسندر أسقف القسطنطينية، أمَّا أريوس فقد اعتمد على القوة والعنف متكلاً على مناصرة يوسابيوس، وكان اليوم سبتاً، وكان يتوقَّع أن يدخل ليشترك في يوم الأحد، فكانت هناك مشادة كبيرة بينهم، هؤلاء يهدِّدون وهؤلاء مع ألكسندر يصلُّون! ووقف الرب قاضياً في الأمر وحكم ضد الأثيم. فلم تغرب الشمس إلاَّ وأحسَّ بحاجة الطبيعة تلحُّ عليه، فذهب حيث سقط في المرحاض ميتاً، فحُرم من الشركة والحياة معاً.

وعندما سمع بذلك قسطنطين البار، في الحال أُخذ بالدهش إذ كيف حلَّ عليه العقاب بهذه النقمة السريعة بسبب القسم الذي قسمه حنثاً وزورًا. وقد صار معلوماً بالبرهان الإلهي لدى الجميع أن كل تهديدات يوسابيوس هي بلا قيمة، وقد ذهب رجاء أريوس باطلاً، كما أنه صار ظاهراً أن جنون أريوس قد انتهى به إلى القطع من الشركة لا بفم المجمع فقط بل

وبواسطة مخلّصنا الرب نفسه، فالكنيسة حرمته هنا والرب حرمه في السماء ...](٢٢)

دموع ألكسندر وصومه وصلاته تُسمع لدى الله:

وجدير بالذكر أن أثناسيوس لم يكن موجوداً في القسطنطينية بل كان في تريف آنئذ، وهو إنما ينقل لنا شهادة رؤيا العيان بحسب قوله هكذا:

[أنا لم أكن في القسطنطينية لمّا مات وإنما كان هناك مكاريوس القس وقد سمعت منه تفاصيل الحادث:

... لمّا خرج أريوس من حضرة الإمبراطور، أراد يوسابيوس وأعوانه أن يدخلوا أريوس في الكنيسة بالقوة والعنف حسب عادتهم، فوقف أمامهم ألكسندر أسقف القسطنطينية المطوَّب الذكر وقاومهم قائلاً: إن مبتدع هرطقة لا يمكن دخوله في الشركة، فهدَّده يوسابيوس وأعوانه قائلين: كما استطعنا أن ندخله في حضرة الإمبراطور رغماً عن إرادتك هكذا سيكون غدًا، فبالرغم عن إرادتك سوف يدخل أريوس معنا الشركة في الكنيسة، وكان هذا اليوم سبتاً. فلمَّا سمع الأسقف ألكسندر هذا تضايقت نفسه إلى أقصى حد، ودخل الكنيسة ورفع يديه نحو الله معطياً الويل لنفسه، وانطرح في الهيكل على رصيف المذبح (كان يحيط بالمذبح درجة عريضة)(٢٣) وصلّى وهو منبطح على وجهه. **وكان مكاريوس (سكرتير أثناسيوس) حاضراً أيضاً وصلّى معه وسمع صلوات ألكسندر** وهو يتوسَّل من جهة أمرين: "إن كان أريوس سيدخل الشركة باكراً فاطلق عبدك ولا تُهلك البار مع الأثيم، أمَّا إذا عزمت أن تُبقي على كنيستك - وأنا أعلم أنك ستُبقي عليها - فانظر إلى كلمات يوسابيوس وأتباعه ولا تسلِّم ميراثك إلى الفساد والملامة، وانزع أريوس واقطعه لئلاً إن هو دخل الكنيسة دخلت هرطقته معه، وحينئذ سيحل الكفر محل التقوى".

ولَّما صلّى هكذا اعتكف الأسقف وهو في ضيق عظيم، وقد حدثت بعد ذلك أمور عجيبة وغير عادية. فبينما يوسابيوس يهدِّد، كان ألكسندر يصلّي، أمَّا أريوس وقد وثق جدًّا من يوسابيوس وزملائه فأخذ يتكلّم بشراسة؛ ولكنه إذ أحس بحاجة الطبيعة انسحب. وفجأة وبحسب لغة الكتاب: «سقط على وجهه وانشقَّ من الوسط وانسكبت أحشاؤه

(22) *Ad. Episc. Aegypt.* 18,19.

(٢٣) مثل التي اكتُشفت عام ١٩٧٦ في آثار كنيسة القديس أنبا مقار حول المذبح الرئيسي بديره في شيهيت.

كلها». فمات في الحال وهو ساقط، وحُرم من الشركة والحياة كليهما.](٢٤)

ويعطينا المؤرِّخ سقراط وصفاً كاملاً لهذا المشهد المؤثِّر:

[وكان ألكسندر أسقف القسطنطينية الذي خلف متروفانس رجلاً ذا تقوى صادقة، ... هذا لَّما واجه هذه الأعمال دخلت نفسه في ضيقة وخصوصاً لَّما هدَّده يوسابيوس النيقوميدي بعنف أنه سيسقطه من كرسيه إن لم يقبل أريوس وكل شيعته في شركة الكنيسة.

أمَّا ألكسندر فلم يرعبه التهديد بخلعه من كرسيه بقدر ما أرعبه الخوف على الخراب الذي سيحل بمبادئ الإيمان، الأمر الذي كان يسعى إليه هؤلاء الأريوسيون باجتهاد، فاعتبر نفسه - إزاء هذا الموقف - أنه معيَّن ليكون حارساً للعقيدة المسلَّمة إليه بكل مقررات مجمع نيقية، فبدأ يجتهد بكل قوته ليمنع عن الإيمان أي تحريف أو إفساد. وعندما حصر نفسه في هذا الهدف اعتزل كل محاجاة ومنطق وجعل الله ملجأه وكرَّس نفسه للصوم المتواصل ولم يكف قط عن الصلاة. وأغلق على نفسه في الكنيسة المدعوَّة "إيريني" وصعد على (رصيف) المذبح وانطرح على أرضه أمام المائدة المقدَّسة وسكب دموعاً حارة بصلوات وبكاء، وبقي على هذا الحال عدة أيام وليالٍ متوالية ...](٢٥)

وصول خبر موت أريوس إلى أثناسيوس وهو في المنفى:

يحتفظ لنا كتاب تاريخ البطاركة بجملة تفيد أن ألكسندر أسقف القسطنطينية أرسل في الحال إلى البابا أثناسيوس في تريف يخبره بموت أريوس هكذا: [نحن نمجِّد الله ونعلمك أيها الأخ الحبيب أن أريوس مات ميتة شنيعة وانقطعت مقالته وتبدَّدت شيعته.](٢٦)

أمَّا المؤرِّخ سقراط فيعطينا تفصيلات أكثر عن موت أريوس إذ يقول:

[كان الوقت يوم سبت، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالكنيسة (دخوله الشركة) في اليوم الثاني، ولكن النقمة الإلهية أخذت حقها تجاه جرائمه، لأنه حالما خرج من قصر الإمبراطور تحيط به زمرة من شركاء يوسابيوس كحراس، صار يستعرض نفسه بعظمة وسط المدينة وهو يجتذب أنظار الشعب كله، فلمَّا اقترب من القصر المسمَّى "محكمة قسطنطين" أخذته

---

(24) *Letters of Athanas. ad Serap.* LIV.

(25) Socrates, *E. H.*, I, 37.

(٢٦) تاريخ البطاركة ١٣ - مكتبة البطريركية، صفحة ٥٤و٥٥.

رعدة وفزع من الضمير فأصابه إسهال عنيف، فطلب مكاناً يقضي فيه حاجته، فاقتادوه إلى (مرحاض) خلف "المحكمة"، وفي الحال أفرغ أحشاءه فخرجت أمعاؤه مع نزيف حاد وأصابه إغماء ومات. ولا يزال موقع هذه المصيبة يُرى إلى هذا اليوم في القسطنطينية ... وبسبب هذا الحادث المرعب امتلأ يوسابيوس النيقوميدي وكل شيعته من الخوف والرعب، وخرجت الأخبار بسرعة لتملأ المدينة كلها وفي كل العالم.](٢٧)

وقفة قصيرة:

كنا نتوقع بعد هذا الذي حدث لأريوس والذي اندهش له الجميع لما فيه من إشارة واضحة إلى تدخُّل الله المباشر لكشف خطورة أريوس وفساد عقيدته، وبالتالي إلى إظهار حق أثناسيوس واستقامة عقيدته، كنا نتوقَّع أن يحصل عفو سريع لأثناسيوس. ولكن يظهر أن الأمر كان عند قسطنطين أو يوسابيوس ليس أمر إيمان وعقيدة وإله بقدر ما كان مصالح ذاتية وسياسية وأخلاق! ...

احتجاج شعب الإسكندرية:

ولَّما سمع شعب الإسكندرية بموت أريوس، اعتبروا ذلك إشارة واضحة للمطالبة بأسقفهم، فرفعوا صوتهم عالياً لدى الإمبراطور وطالبوا بعودة أثناسيوس، **وأرسل القديس أنطونيوس إلى الإمبراطور ملحًّا في العفو عن أثناسيوس**، ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاتهم لدى البشر (انظر صفحة ٨١ أو ١٠٥)، لأن موت أريوس لم يكن يعني عند الإمبراطور أو عند يوسابيوس النيقوميدي ما كان يعنيه عند الله والكنيسة.

موت الإمبراطور قسطنطين، وعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية:

الرواية هنا لسقراط المؤرِّخ:

[مضى على حادث موت أريوس سنة كاملة كان بعدها قد بلغ قسطنطين الخامسة والستين من عمره، حيث انتابه المرض فترك القسطنطينية وسافر إلى هيلينوبوليس(٢٨) ليتطبب بمياهها الطبيعية الساخنة، ولكن ازدادت عليه علته فتركها وسافر إلى نيقوميدية واستقر في إحدى ضواحيها حيث تقبَّل هناك المعمودية المسيحية. وكتب وصيته وسلَّمها ليد الكاهن الذي

(27) Socr., *op. cit.*, 1.38.

(٢٨) وهي مدينة أسماها قسطنطين الملك على اسم أُمه الملكة هيلانة وهي في إقليم بيثينية بآسيا الصغرى.

كان قد استدعى أريوس[٢٩]، وأوصاه أن لا يسلِّمها ليد أحد آخر سوى ابنه قسطنطيوس الذي أعطاه الولاية على الإمبراطورية الشرقية[٣٠].

ومات قسطنطين في قصره المعروف باسم "أشيريون Achyrion" وحنَّطوا الجسد (وألبسوه الحلة الملوكية والتاج) واستودعوه تابوتاً من ذهب ... وشيَّعوه إلى القسطنطينية ووضعوه على منصة عالية في ردهة القصر وأقاموا حوله الحراس وأولوه الكرامة اللائقة به التي كانت له وهو حي، ... إلى أن وصل قسطنطيوس من الشرق (وهو أكثر أبنائه قدرة وموهبة)، فأقاموا له قبراً إمبراطورياً داخل **"كنيسة الرسل"** التي كان قد أمر الإمبراطور ببنائها لهذا الغرض قبل موته، وقد عاش قسطنطين خمسة وستين عاماً أمضى منها واحداً وثلاثين سنة في الحكم ومات في ٢٢ مايو سنة ٣٣٧م - وكان موافقاً ليوم عيد العنصرة (الخمسين).][٣١]

وصية الإمبراطور الأخيرة بالنسبة للقديس أثناسيوس:

ترك لنا ثيئودوريت المؤرِّخ هذه اللمحة التاريخية المختصرة:

[وأمر الإمبراطور أن يعود أثناسيوس الكبير إلى الإسكندرية. وأفصح عن تصميمه هذا في حضور يوسابيوس الذي حاول ما أمكن أن يثني الإمبراطور عن تصميمه هذا.][٣٢]

وهكذا وإلى آخر لحظة لم يكف يوسابيوس عن محاولاته الشريرة للتنكيل بالقديس أثناسيوس، والحقيقة أن هذا الإنسان الشرير استطاع أن يثير أعصاب كل مؤرِّخ اضطلع بتأريخ سيرة

---

(٢٩) وهو يوستاثيوس الكاهن الأريوسي أب اعتراف قسطنطيا أخت الإمبراطور، ولكن كثيرين يشكُّون في صدق هذه الرواية. ويُقال أن يوسابيوس النيقوميدي نفسه الذي عمَّد الإمبراطور هو الذي حفظ الوصية.

(٣٠) قسَّم قسطنطين مملكته وهو حي على أولاده الثلاثة وترك لهم وصية مكتوبة بذلك:

أ - قسطنطين الابن الأكبر ودُعي بقسطنطين الثاني، تولَّى إقليم الغال (فرنسا الآن وبلجيكا ولمبارديا وسردينيا) وبريطانيا وأسبانيا وجزءًا من أفريقيا.

ب - قسطنطيوس وتولَّى الإمبراطورية الشرقية وهي الجزء الأكبر من العالم آنئذ.

ج - وقسطانس وتولَّى إقليم إلليريكون وإيطاليا وبقية أفريقيا.

وللأسف قام قسطنطين الثاني سنة ٣٤٠م على أخيه قسطانس في معركة آكويلا وتقابل الجيشان، ولكن جنرالات قسطنطين الثاني قاموا على إمبراطورهم وذبحوه فتولَّى قسطانس إمبراطورية الغرب أيضاً - انظر سوزومين ٣: ٢.

(31) Socrates, *op. cit.*, I. 39,40.

(32) Theodoret, *op. cit.*, I. 30.

أثناسيوس، حتى أن تيمون وبارونيوس وهما أهدأ مَنْ كتب في التاريخ لم يستطيعا أن يلقبا يوسابيوس النيقوميدي إلاّ بلقب "**المستشار الشرير الشيطان يوسابيوس**".

محاولات يوسابيوس المستميتة لنشر الأريوسية في غيبة أثناسيوس:

يعطينا المؤرِّخ سقراط لمحة تاريخية مبدعة عما كان يجري في الخفاء ضد أثناسيوس في قصر الإمبراطور الجديد، في وسط حاشيته بين الحريم والخصيان، ثم عند قسطنطين نفسه، ثم في أنحاء العاصمة والمدن المتاخمة، ثم في الإسكندرية بأكثر اجتهاد. وإليك هذا الفصل الخطير:

[بعد موت الإمبراطور قسطنطين قام يوسابيوس النيقوميدي مع زميله ثيوغنيس أسقف نيقية، بأعظم محاولة لمحو عقيدة الهوموؤوسيوس (أي وحدة الجوهر في الابن والآب) من الوجود ونشر الأريوسية عوضاً عنها. وكان أملهم متعلِّقاً بعدم عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية وإلاّ فالإخفاق سيحالفهم. فلكي يتمِّموا خططهم، طلبوا مساعدة الكاهن الذي استأمنه الإمبراطور سابقاً على عودة أريوس (يوستاثيوس الأريوسي) - (وذلك لِمَا كان لهذا الكاهن من قدرة ودهاء في معالجة الأمور داخل القصور) - أمَّا كيف حدث ذلك فسنشرحه الآن كالآتي:

إن هذا الكاهن (يوستاثيوس) كان يحمل الوثيقة التي فيها نصَّت إرادة الإمبراطور المتوفَّي من نحو ابنه قسطنطيوس، فلمَّا اطَّلع عليها وجد فيها ما كان يتمنَّاه بشدة وهو أن إمبراطورية الشرق قد آلت إليه حسب رغبة والده. ولذلك أخذ يعامل هذا الكاهن باعتبار خاص، وحمَّله بالعطايا وأمر له بحرية الدخول إلى القصر وإلى حضرته شخصياً.

وهو لم يؤخِّر جهداً في استخدام هذا التصريح للتقرُّب من الإمبراطورة التي أصبحت معه في مودَّة، وكذلك أيضاً صار مع خصيانها، وكان في القصر رئيسٌ للخصيان مكلَّف بغرفة نوم الإمبراطور، هذا استماله الكاهن إلى العقيدة الأريوسية فسهل من بعده بطبيعة الحال نشر الأريوسية بين كافة الخصيان، ومن بعدهم انتقل الأمر إلى الإمبراطورة أيضاً بتأثير الخصيان والكاهن. فصارت الإمبراطورة تتقبَّل كل مذهب أريوس بسرور، ولم يدم الوقت طويلاً حتى قبل الإمبراطور أيضاً هذا الأمر، وهكذا انتشرت الأريوسية بالتدريج داخل القصر الإمبراطوري بأكمله في البلاط وبين الضباط والحراس.

واستمر هذا المد الأريوسي حتى غطَّى المدينة بكل شعبها. وصارت الأريوسية حديث

أمناء القصر وموضوع مباحثات حتى مع النساء، وفي كل بيت في المدينة، وهكذا انتقلت هذه المصيبة بسرعة مذهلة إلى كل الولايات والمدن كالشرارة، تبدأ في الأول غير ملحوظة، وكأنها أمر غير ذي بال، ولكنها سرعان ما تثير في السامع روح اقتناع، وبسرعة يدخل المناقشة ويجادل ... وقد انتشرت هذه البلبلة في كل مدن الشرق، أمَّا الغرب من إلليريكون وبقية الأقاليم الغربية من الإمبراطورية فظلّت هادئة تماماً، لأنهم تمسَّكوا بعزم شديد أن لا يغيِّروا شيئاً من مقررات مجمع نيقية.

وبينما هذا الخطر ينمو ويزداد ويذهب من سيء إلى أسوأ، كان في نظر يوسابيوس النيقوميدي وأعوانه بمثابة خميرة شعبية تمثّل لهم حظًّا سعيدًا، لأنهم بهذا اعتقدوا أنهم قادرون الآن على تعيين أسقف آخر (غير أثناسيوس) على الإسكندرية، من الذين يتعاطفون معهم ويحملون أفكارهم.

ولكن عودة أثناسيوس في ذلك الوقت حطَّمت كل ظنونهم، خصوصاً وأنه عاد متشدِّداً بخطاب من أغسطس قسطنطين الثاني الذي يحمل اسم أبيه، موجَّهاً إلى شعب الإسكندرية من تريف.](٣٣)

عودة أثناسيوس:

بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين الكبير، اتفق الإخوة الثلاثة قسطنطين الابن وقسطنطيوس وقسطانس، على تحديد موعد للمقابلة معاً في مدينة فيميناسيم Viminacium وهي مدينة مشهورة في إقليم موزيا على نهر الدانوب على الطريق الرئيسي نحو القسطنطينية، (وهي الآن مدينة باساروفيتز Passarovitez). وكان قسطنطين الابن إمبراطور الغرب قد أخذ موافقة أخيه الأصغر قسطنطيوس إمبراطور الشرق في استحضار أثناسيوس معه، وبالفعل أخذ أثناسيوس معه في رحلته إلى مدينة فيميناسيم.

ولمَّا اجتمع الأباطرة الثلاثة وافقوا جميعاً على عودة أثناسيوس إلى كرسيه بالإسكندرية، وإليك أيها القارئ بعض التسجيلات بقلم القديس أثناسيوس نفسه، والتي تلقي أضواءً على اجتماع الأباطرة الثلاثة وعلى عودة أثناسيوس:

[وقد اتفق الإخوة الثلاثة قسطنطين وقسطنطيوس وقسطانس بعد موت أبيهم أن يعود

(33) Socrates, II:2.

الجميع (المنفيون من الأساقفة) إلى أوطانهم وإلى كنائسهم. وبينما هم يكتبون رسائل إلى بقية الكنائس التابعة لهم، كتبوا أيضاً فيما يختص بأثناسيوس.](٣٤)

وأيضاً نقرأ للقديس أثناسيوس فيما يختص بمقابلته لقسطنطيوس أثناء عودته من تريف، وهو يذكّر قسطنطيوس بهذه المقابلة في معرض دفاعه ضد يوسابيوس والأريوسيين الذين اتهموه بأنه كان يشي في حق قسطنطيوس عند أخيه الأكبر قسطنطين وأخيه الأصغر قسطانس أثناء منفاه:

[وإني أتوسَّل إليك عالماً أنك شخص ذو ذاكرة قوية، مستعيداً إلى ذاكرتك الحديث الذي دار بيني وبينك **عندما تفضَّلتم ووافقتم على مقابلتي أولاً في مدينة فيميناسيم**(٣٥)، **وبعدها في قيصرية كبادوكيا، وللمرَّة الثالثة في أنطاكية**(٣٦)، فهل تكلَّمت ردياً أمامك بخصوص يوسابيوس وأتباعه الذين اضطهدوني؟ هل تقدَّمت بأي اتهام لأيٍّ من الذين أساءوا إليَّ؟ فإن كنت لم أتهم أحداً من الذين يحق لي فعلاً أن أتكلَّم ضدَّهم، فكيف أسلب حق إمبراطور في حضرة إمبراطور إلاَّ إذا كنت مختل العقل! ...](٣٧)

ومن هذا يتبيَّن أن أثناسيوس انحدر إلى الإسكندرية من تريف عابراً القارة الأوروبية على نهر الدانوب ماراً بالقسطنطينية(٣٨)، ثم قيصرية الكبادوك، ثم أنطاكية.

الإسكندرية تستقبل البابا أثناسيوس:

وفي يوم ٢٣ نوفمبر سنة ٣٣٧م. رست مركب أثناسيوس في ميناء الإسكندرية بعد غيبة سنتين وأربعة أشهر وأحد عشر يوماً، واستقبلته المدينة بل ومصر كلها، لا كإنسان آتٍ من المنفى بل كرسول أو كملاك انحدر من السماء بعد صراع مرير مع الشيطان.

وإليك أيها القارئ وصفٌ لأساقفة مصر عن استقبال البابا أثناسيوس في الإسكندرية يوم قدومه من تريف:

---

(34) *Hist. of the Arians*. 8.

(٣٥) وذلك في الاجتماع الثلاثي بين الأباطرة بعد موت أبيهم.

(٣٦) وذلك قبل سفر قسطنطيوس إلى بلاد فارس للحرب. وهذه المقابلات الثلاث كانت أثناء عودة أثناسيوس من منفاه بتريف.

(37) *Apolog. Ad Constant*. 5.

(٣٨) ويُلاحَظ أن فترة وجود أثناسيوس في القسطنطينية كانت مشحونة بتحديات الأريوسيين ضدَّه، فقد شاهد بنفسه محاكمة أسقفها الأرثوذكسي بولس الذي أسقطوه من كرسيه ونفوه وعذَّبوه وقتلوه خنقاً في منفاه بسبب موالاته لأثناسيوس ولمجمع نيقية. ويقول البابا أثناسيوس: [وكنت حاضراً بنفسي أثناء محاكمته] **Hist. Arian. I: 7.**

[فرح وتهليل في كل مكان، جماهير الشعب تجري معاً لتكون في الموضع الذي منه تراه بوضوح، الكنائس امتلأت بأصوات الفرح والتسبيح، والشكر للرب في كل مكان وعلى كل لسان، الخدّام وكل الإكليروس يتقاطرون لرؤياه ومشاعر البهجة والسعادة ملكت على قلوبهم، واعتبروا أن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتهم، أمَّا نحن الأساقفة فلا داعي أن نشرح ما لا يمكن شرحه من جهة السرور الذي عمَّ في وسطنا، لأننا كما قلنا كنّا نحسب أنفسنا شركاء في آلامه.](٣٩)

الأريوسيون يثيرون الشغب ويخطّطون لمؤامرة جديدة:

لم تخلُ فرحة الشعب والإكليروس بعودة أثناسيوس من إثارات مفتعلة من الأريوسيين الذين كانوا قد استعدوا هم أيضاً لملاقاته بالعداوة السافرة وتدبير المؤامرات. فالاتصالات بيوسابيوس النيقوميدي كانت قد توطّدت بصورة أقوى في غيبة أثناسيوس، وانتظمت الاتصالات بين الرئاسة الأريوسية في البلاط الإمبراطوري والأتباع في الإسكندرية، ودبَّروا الخطط معاً في كيفية مقاتلة أثناسيوس عند رجوعه ليستخلصوا منها دعوى جديدة ضدَّه. ومما زاد الموقف حرجاً أن الوالي في ذلك الوقت المدعو ثيئوذوروس، كان على وفاق كبير مع البابا أثناسيوس مما جعل بطشه بالأريوسيين المتمرِّدين المثيرين للشغب فرصة لإثارة أحقاد يوسابيوس النيقوميدي وإضافة مزيد من الاتهامات بسبب الحوادث التي حدثت والتي بلغ بعضها إلى إراقة الدماء، مما اضطرَّ الإمبراطور بإلحاح يوسابيوس أن يرسل بسرعة إلى الإسكندرية ويستدعي ثيئوذوروس ويرسل عوضاً عنه الوالي فيلاجريوس الكبادوكي الذي حكم المدينة سابقاً (من سنة ٣٣٥م - سنة ٣٣٧م). وكان هذا عدوًّا متشدِّداً ضد أثناسيوس، وهو الذي أجرى تحقيقات بعثة مريوط الموفدة من قِبَل مجمع صور(٤٠)، ولكنه كان محبوباً من الأريوسيين واليهود والوثنيين إلى درجة جنونية، لأنه كان بليغاً في خطبه شعبياً إلى أقصى حد(٤١)، وقد استُقبل في الإسكندرية عند عودته في أغسطس سنة ٣٣٨م بمظاهرات شعبية وفرح من الأريوسيين فاق حدود استقبال الأباطرة(٤٢)، وذلك نكاية في أثناسيوس، إذ قد حسبوا أن رجوع فيلاجريوس (الذي كان أيضاً بناءً على طلب من الأريوسيين في الإسكندرية)

(39) *Apolog. Contra Arian.*, 7.
(40) *Apolog. Contra Arian.*, 14.
(41) Tillem. viii. 664.
(42) Greg. Nazianz., *Orat.* xxi. 28.

هو بمثابة نصرة لهم!

وإليك تقرير واضح من المؤرِّخ سقراط:

[ولمَّا وصل أثناسيوس إلى الإسكندرية استُقبل بترحاب فائق من شعب المدينـة. إلاَّ أن الكثير من الشعب وقد اعتنقوا الأريوسية اتحـدوا معاً ودخلـوا ضـدَّ أثناسـيوس في تحدٍّ ومقاومـات سافرة. وهكذا استطاعوا بذلك أن يثيروا في المدينة نوعاً من العصيان والثورة، وبذلك هيَّـأوا ليوسابيوس (حسب الخطة الموضوعة) تقديم الاتهام ضد أثناسيوس لدى الإمبراطور أنه أخـذ كنيسة الإسكندرية لحسابه الخاص بالرغم من الحكم الصـادر ضـدَّه مـن أسـاقفة مجمـع عـام (مجمع صور)، وقد نجحوا في إثارة حفيظة الإمبراطور إلى أقصى حد وإلى الدرجـة الـتي فيهـا أمر بنفيه من الإسكندرية.](٤٣)

أمَّا المؤرِّخ سوزومين فيعطينا صورة أوضح لبنـود الاتهـام الـتي قدَّمهـا يوسـابيوس ضـدَّ القديـس أثناسيوس:

[أمَّا الذين كانوا قد التحقوا بالأريوسية، فهؤلاء دُفعوا إلى أعمال الشغب لينزعوا السلام من المدينة، وبدأوا يثيرون نوعاً من العصيان واستأنفوا المؤامرات ضـد أثناسـيوس، وبذلـك توفَّـر لأتباع يوسابيوس أن يقدِّموا الاتهامات لـدى الإمـبراطور، موضِّحـين (مـن واقـع الحـال) أن أثناسيوس شخص ثوري، يتحدَّى قانون النفي، مقاوماً لقوانين الكنيسة (مجمع صور) لأنه لم يأخذ موافقة الأساقفة (لكي يستعيد رئاسته الكهنوتية).](٤٤)

كذلك يوضِّح لنا المؤرِّخ ثيئودوريت عن قرب صورة المؤامرة التي اضطلع بها الأريوسـيون لـدى الإمبراطور:

[ولمَّا عاد أثناسيوس قوبل بالترحاب الفائق من الأغنياء والفقـراء مـن مواطـني المـدن الكـبرى ومن الأقاليم النائية. ولكن الذين اتبعوا جنون أريـوس كـانوا هـم الوحيـدون الذيـن شـعروا بالمرارة بسبب عودة أثناسيوس. أمَّا يوسابيوس النيقوميدي وثيئوغنيس أسقف نيقيـة والذيـن على شاكلتهم فقد استعادوا نشاطهم السابق في تدبير المؤامرات وجاهدوا لكي يكسبوا تحيُّز

(43) Socrates, *E. H.* II. 3.

(44) Sozom., *opcit.* III. 2.

الإمبراطور الصغير (قسطنطيوس) ضد أثناسيوس.](٤٥)

[وكانت عقلية قسطنطيوس كالقصبة التي تحرِّكها الريح كيفما شاءت، وشيئاً فشيئاً شجَّعوه لكي يعلن الحرب على مبادئ الإنجيل، وتراءى وكأنه يبكي على حال الكنائس التي صارت وكأنها في عاصفة، وأقنعوه أن ذلك حدث بسبب الأشخاص (مجمع نيقية وأثناسيوس) الذين أدخلوا على قانون الاعتراف الإصطلاح "هوموؤوسيوس" الذي لم يرد في الإنجيل "مساو للآب في الجوهر". وأن هذا هو السبب الأساسي في كل المنازعات القائمة بين الإكليروس والعلمانيين. وهكذا ابتدأ الإمبراطور يتحامل على أثناسيوس ويطعن فيه مع كل الذين يوافقونه في آرائه، وابتدأ يخطِّط لإهلاكهم، وهكذا نجح يوسابيوس في استخدام الإمبراطور وضمّه إلى صفه مع ثيئوغنيس وثيئوذوروس أسقف هيراكليا.

لأن هؤلاء الأساقفة رابطوا بجوار الإمبراطور، وأخذوا يتوافدون عليه باستمرار، مؤكِّدين له أن عودة أثناسيوس من المنفى قد تسبَّبت في شرور كثيرة وأثارت عاصفة لم تهز مصر وحدها بل امتدَّت إلى فلسطين وفينيقيا (لبنان) والبلاد المجاورة.](٤٦)

وهكذا تتضح لنا خطوات المؤامرة بصورتها الخفية والظاهرة وبنودها في الاتهام من واقع نجاح التخطيط، كالآتي:

١ - استمالة أكبر عدد من الشعب في الإسكندرية للأريوسية أثناء غياب أثناسيوس في المنفى، ودُفع في ذلك ما دُفع، مع وعود وأماني، مع اعتبار أن كل مَنْ يدخل الأريوسية يصير بالتالي من حزب الإمبراطور! ...

٢ - إحكام الخطط بإقامة المظاهرات والشغب والتخريب والقتل عند عودة أثناسيوس بالاتفاق حتى مع اليهود والوثنيين، حتى يبدو أثناسيوس وكأنه سبب أساسي في الثورات والقلاقل وسفك الدماء، وأنه ليس على مستوى الزعامة القادرة على إعطاء الكنيسة حالة سلام. وبالتالي تكون مبادئه الإيمانية غير صحيحة كونها السبب في هذه النزاعات التي لا تنتهي وبالأخص اصطلاح "الهوموؤوسيوس" الذي لم يرد في الأسفار المقدَّسة!!

٣ - وهذا البند هو الأساس - أن رجوع أثناسيوس من المنفى ليتقلّد رئاسة الكنيسة مخالف

(45) Theodoret, *op. cit.*, II. 1.

(46) Theodoret, *op. cit.*, II. 2.

لقرارات مجمع مسكوني عـام (صـور)، لأن مجمـع صـور أسـقطه عـن كرسـيه! فـلا يجـوز رجوعه إلى رئاسته إلاَّ بمجمع مسكوني آخر. ولا يكفي مجرَّد أمر إمبراطوري بذلك.
٤ ـ أنه استولى لنفسه على القمح الممنوح سابقاً بواسطة الإمبراطور قسـطنطين الكبـير لفقـراء مصر وليبيا. وقد صدق قسطنطيوس هذا الاتهام وأرسل له خطاباً معنفاً ومتهماً سلوكه هذا.

والآن نعود للقديس البابا أثناسيوس لنرى ماذا كان شعوره وموقفـه مـن هـذه الاتهامـات ومـن موقف هذا الإمبراطور الذي نصب نفسه عدوًّا لأثناسيوس منذ اللحظة الأُولى في حكمه.

مقتطفات من الخطاب الفصحي الحادي عشر سنة ٣٣٩م ـ وفيه نحس بمقدار الهموم التي بـدأت سريعاً تتكاثف على قلب أثناسيوس:

[والآن هلم نهلِّل بأصوات التسبيح مع القديسين ولا ينبغي أن يخفق أحد من ذلـك الواجـب في مثل هذه الأمور، حاسبين كل التجارب والضيقات التي يسوقها علينـا حـزب يوسـابيوس في هذه الأيام بالذات كأنها لا شيء. (لقد ركَّز يوسابيوس مؤامراته واضطهاداتـه في موسـم هذا الفصح بصورة شديدة حتى يفوِّت على أثناسيوس فرصة إقامة أول عيد بعـد رجوعـه). لأنـه حتـى في هـذا الوقـت (وقـت الصـوم وأسـبوع الآلام والعيـد) يريـدون الإسـاءة إلينـا وباتهاماتهم يحبكون الخطة لقتلي!! (وأنا) إنسان علته الوحيدة هي تقواه ومعينه الوحيد هـو الله!

ولكن كخدام أمناء لله عالمين أنه هو خلاصنا في وقـت الضيـق، لأن الـرب وعـد سـابقاً قائلاً: «طوبى لكـم إذا طردوكـم وعـيَّروكم وقـالوا عليكـم كـل كلمـة شـريرة مـن أجلـي كاذبين، افرحوا وتهلَّلوا لأن أجركم عظيم في السموات.» (مت ٥:١١و١٢)

وأيضاً إنها كلمة الفادي نفسه أن الاضطهادات لا تقع على كل إنسان في هذا العـالم إلاَّ الذين عندهم مخافة مقدَّسة لله فقط ... وبناءً على ذلك فإنـه بقـدر مـا يحـدق بنـا الأعـداء، بقدر ما ينبغي أن نكون في ملء حريتنا، وبقدر ما يهينوننا بقـدر مـا ينبغـي أن نتحـد معـاً، وبقدر ما يجهدون أنفسهم لتعكير صفو عبادتنا وتقوانا بقدر ما ينبغي أن نعظ ونعلِّـم بذلـك قائلين: «هذا كله جاء علينا وما نسيناك» (مز ٤٤:١٧) ... فعلينا أن نحفظ العيد يـا إخـوة معيِّدين بسبب هذا لا بالحزن والبكاء، كذلك لا ينبغي أن نلتحم مع الهراطقـة في مثـل هـذه

التجارب الوقتية التي إنما أتت علينا بسبب تقوانا ...][٤٧]

القديس أنطونيوس ينزل من الجبل إلى الإسكندرية، لمعونة أثناسيوس:

وإذ كان الأريوسيون قد ادعوا أن كثيرين من الرهبان بل والقديس أنطونيوس نفسه يؤمن بكل ما يقولونه من جهة المسيح، أرسل بعض الأساقفة وأراخنة الشعب يلحون عليه في الحضور، فاستجاب لدعوتهم ونزل من الجبل ودخل الإسكندرية وهي في قمة اضطرابها! ... وظهر فجأة في وسط الشعب وفي الكنيسة بمظهره المهيب وشهرته في القداسة وإتيان المعجزات، مما جذب إليه جموع الوثنيين والمسيحيين على السواء يتلهّفون لسماعه ورؤيته ويتزاحمون للمس ثوبه. أمَّا أنطونيوس فكان همه الوحيد أن يفضح الأريوسية كأرداً هرطقة خرجت ضد الكنيسة، وقد أتم مهمته على مدى يومين، وغادر الإسكندرية في ٣ مسرى الموافق ٢٧ يوليو سنة ٣٣٨م. وخرج من المدينة بصحبة القديس أثناسيوس ووسط جموع المشيعين[٤٨].

وإليك تقرير أثناسيوس نفسه كشاهد عيان ومسجّل لأقوال أنطونيوس:

[ومرَّة أيضاً ادعى الأريوسيون بتأكيد أن آراء أنطونيوس مثل آرائهم، فلم يرتاح إلى ذلك وغضب عليهم، فلمَّا دعاه الأساقفة وكافة الإخوة نزل من الجبل، ولمَّا دخل الإسكندرية فضح الأريوسيين قائلاً إن هرطقتهم هي آخر الكل والسابقة لمجيء المسيح الكاذب. وعلَّم الشعب أن ابن الله ليس هو مخلوقاً ولم يجيء إلى الوجود من عدم، ولكنه كان الكلمة والحكمة الأزلي من جوهر الآب، لذلك هو كُفر أن يُقال: "إنه كان يوجد وقت لم يكن فيه موجودًا" لأن الكلمة كان دائماً مساوياً للآب في الوجود. ولهذا لا يكن لكم شركة مع الأريوسيين الكفرة، لأنه ليست شركة بين النور والظلمة، وأنتم مسيحيُّون صالحون، وأمَّا هم فلأنهم يقولون إن ابن الآب كلمة الله هو مخلوق لا يفترقون شيئاً عن الوثنيين لأنهم يعبدون شيئاً مخلوقاً وليس الله الخالق.

وصدِّقوني إن الخليقة نفسها في سخط عليهم لأنهم يحسبون الخالق سيد الكل الذي به كان كل شيء، مع الأشياء التي خُلقت.

(47) Athan., *Lett.* XI.

(٤٨) هذا التاريخ تركه لنا أحد المؤرِّخين المجهولين الذي كتب تاريخ أثناسيوس بدقة وإسهاب وترتيب يُدهش له، وذلك في نهاية القرن الرابع أي بعد نياحة أثناسيوس بفترة وجيزة جدًّا، وفي أيام باباوية ثاوفيلس ٢٣، وتعتبر هذه الوثيقة من أهم الوثائق التاريخية في تاريخ الكنيسة قاطبة، وهي تنطبق على ما جاء في سيرة أنطونيوس بقلم أثناسيوس تمام الانطباق.

وتهلّل كل الشعب لمّا سمعوا أن الهرطقة التي هي ضد المسيح قد حرمها مثل هذا الإنسان. وكل شعب المدينة كان يتدافع ليرى أنطونيوس، حتى اليونانيون (الوثنيون) مع مَنْ يسمُّونهم كهنتهم، حضروا في كنيسة طالبين هكذا: "نحن نسأل أن نرى رجل الله" لأنهم كانوا يدعونه هكذا. وحدث في ذلك المكان أن الرب طهَّر كثيرين من الذين عليهم شياطين وشفى مجانين. وكثير من اليونانيين (الوثنيين) سألوا حتى يُسمح لهم أن يلمسوا الشيخ فقط لأنهم كانوا يؤمنون أنهم ينتفعون.

ونؤكّد لكم أن كثيرين صاروا مسيحيين في هذه الأيام القليلة (هنا يبدو أن أنطونيوس مكث في الإسكندرية أكثر من يومين؟) بما يساوي ما يراه الإنسان يحدث في سنة كاملة. وعندما ظن البعض أن الازدحام الكثير قد أزعجه وحاولوا أن يفضُّوا الجموع عنه قال لهم بدون انزعاج إن هذا الجمع ليس هو بأكثر من الشياطين الذين صارعهم في الجبل.

ولمّا كان يغادر المدينة (هنا أثناسيوس يذكر نفسه أنه كان حاضراً وشاهداً وسامعاً ومسجِّلاً) كنّا معه نهديه الطريق، وبينما نحن نقترب من الباب (باب المدينة المعروف "بباب الشرق") وإذا بامرأة تصرخ خلفنا: "انتظر يا رجل الله فابنتي تتعذَّب مصروعة بشيطان، انتظر أتوسَّل إليك لئلاً أنا أيضاً تصاب نفسي من الجري". فلمّا سمعها الشيخ، وسألناه في ذلك، وقف بسرور. فلمّا اقتربت المرأة انطرحت الطفلة معافاة، لأن الروح النجس كان قد خرج منها. فباركت الأُم الله ونحن كلنا قدَّمنا الشكر، وأنطونيوس نفسه خرج أيضاً، وانطلق إلى الجبل وكأنه ذاهب إلى بيته الخاص!](٤٩)

(49) *Life of Antony* 69-71.

الاضطهاد الأول على يد الإمبراطور قسطنطيوس بتدبير الأريوسيين

اليوسابيون يدبِّرون الخطط مع الإمبراطور قسطنطيوس في الخفاء:

خلال عام ٣٣٨م كان يوسابيوس النيقوميدي منهمكاً يجاهد لنقل نفسه من أسقفية نيقوميديا إلى أسقفية القسطنطينية(٥٠)، لأن العاصمة كانت قد انتقلت رسمياً من نيقوميديا إلى القسطنطينية، وفي سبيل ذلك أطاح بأسقفها بولس بعد أن نفاه وعذَّبه في المنفى حتى مات مختنقاً بحسب تحقيق أثناسيوس نفسه(٥١). وبعد أن خلا له الجو نهائياً في القسطنطينية بدأ يُحكِم الخطة ضد أثناسيوس.

و لم تأتِ نهاية عام ٣٣٨م إلاَّ ويوسابيوس النيقوميدي كان قد نجح في إقناع الإمبراطور بعقد مجمع للأساقفة في أنطاكية بعيداً عن القسطنطينية، حتى يعطي المجمع صبغة كنسية بعيداً عن شبهة السلطة الحكومية، وفيه استصدر قراراً بعزل البابا أثناسيوس(٥٢)؛ وذلك بعد أن أقنع الإمبراطور الجديد أن عودة الأساقفة من منفاهم سنة ٣٣٧م، وبالأخص أثناسيوس، قد أضرَّ بقضية السلام في العالم وفي الكنيسة معاً، هذا فضلاً عن كونه عملاً غير قانوني من الوجهة الكنسية. لأنه كما أن النفي يحتاج إلى مجمع عام، كذلك العودة لاستئناف الرئاسة الكهنوتية يحتاج كذلك إلى مجمع عام. و لم يكن الإمبراطور يحتاج إلى اقتناع في ذلك الأمر، لأنه كان يضمر الحقد والكراهية لأثناسيوس بسبب ذيوع شهرته وبأس سلطانه الشعبي، وبالأكثر بسبب الوشايات الكثيرة التي كانت تتجدَّد كل يوم ضدَّه.

ولكن يُلاحَظ أن يوسابيوس النيقوميدي كان في طلبه هذا يناقض نفسه بنفسه، لأنه هو شخصياً كان قد نُفي بأمر الإمبراطور قسطنطين، ثم عاد من منفاه وباشر سلطانه الكنسي بدون أمر عودة من مجمع!

كنَّا قد سبق وألمحنا إلى دور الوالي ثيئوذوروس في ضبط جماح الأريوسيين المشاغبين عند عودة

(٥٠) يُلاحَظ أنه سبق ونقل نفسه من أسقفية بيروت إلى أسقفية نيقوميديا.

(51) *Hist. Arian.* I: 7.

(52) NPNF, 2nd ser., vol. IV, p. 97.

أثناسيوس من المنفى في ٢٣ نوفمبر سنة ٣٣٧م. الأمر الذي أثار حفيظة الأريوسيين والإمبراطور والإمبراطورة معاً، مما جعل الإمبراطور يسرع في استدعاء ثيئوذوروس ويرسل عوضاً عنه فيلاجريوس الوالي المستبد الذي كان يناصب أثناسيوس العداء، وهو الذي تولّى - كما سبق وقلنا - حماية لجنة تقصّي الحقائق التي عيّنها مجمع صور لبحث قضية إسخيراس القس الأريوسي المزيّف في ناحية مريوط - وقد استخدم فيلاجريوس كل سلطانه الحكومي لإثبات القضبة ضد أثناسيوس باستخدام شهود زور واستعمال العنف. وبطبيعة الحال لم يأتِ فيلاجريوس في هذه المرَّة إلى الإسكندرية دون توصيات خاصة سواء من الإمبراطور أو يوسابيوس النيقوميدي لعمل كل ما يمكن عمله للإطاحة بأثناسيوس بعد جمع كل ما يمكن من التهم الكفيلة بزعزعة مركزه.

وبحضور فيلاجريوس في أغسطس سنة ٣٣٨م (وهي أول السنة الحكومية في التقويم القبطي) بدأت القلاقل تزداد، وقدَّم فيلاجريوس التهمة المناسبة التي طالما تمنّاها يوسابيوس، وهي أن أثناسيوس اختلس لنفسه كميات القمح الممنوحة من الإمبراطور للأرامل والفقراء في مصر وليبيا وباعها لحسابه وقبض الربح لنفسه.

أمَّا بخصوص خطورة هذه التهمة فيعلمها أثناسيوس جيداً، وقد قال عنها هكذا:

[ولم يكتفِ غريغوريوس بالدماء التي سكبها، بل أقنع زميله في الافتراس والتوحُّش، فيلاجريوس الوالي، أن يرفع دعوى اتهام ضدِّي وكأنها بأسماء الشعب أمام الإمبراطور قسطنطيوس، تحمل اتهامات شنيعة لا يمكن أن ينتظر الإنسان منها النفي فقط بل عشرة آلاف من الميتات.](٥٣)

وفي الحال أرسل الإمبراطور خطاباً (هذا الخطاب فُقد ولم نعثر له على أثر) معنِّفاً سلوكه، كما أرسل يوسابيوس رسالة إلى يوليوس أسقف روما يعلنه فيه بعزل أثناسيوس معدِّداً الاتهامات المنسوبة إليه.

ولكن إزاء هذه التحديات، ولكي يرد أثناسيوس على يوليوس أسقف روما الذي كتب يستفسر عن صحة التهم المنسوبة لأثناسيوس، جمع أثناسيوس مجمعه المحلي في الإسكندرية في أواخر سنة ٣٣٨م وأوائل سنة ٣٣٩م من جميع أساقفة مصر والصعيد وليبيا والخمس مدن الغربية. وكان عدتهم مائة أسقف بتحديد أثناسيوس نفسه هكذا:

(53) *Epist. Encycl.* 5.

[لأن أمر قضيتي لا يحتاج إلى مزيد من محاكمات، لأن حكماً صدر في هذا الأمر لا مرَّة واحدة ولا مرتين بل مرَّات كثيرة، فأولاً وقبل الكل فقد تمَّ في بلدي في مجمع يضم مائة أسقف ...](٥٤)

وإليك مقتطفٌ من خطاب الأساقفة المصريين مُرسَلاً لأساقفة العالم كله، إثر تهديد قسطنطيوس الإمبراطور، كتبوه للدفاع عن أسقفهم أثناسيوس، وفيه يفنّدون جميع التهم التي وجِّهت ضد أثناسيوس، ومن ضمنها يذكرون الاتهام بخصوص اختلاس أثناسيوس قمح الأرامل:

[وإنه من الضروري أن تعلموا حقيقة التقرير الذي قُدِّم ضد أثناسيوس شريكنا في الخدمة، الذي إذ تفحصونه جيِّداً تدركون مدى خبث هؤلاء الأشرار وتتبيَّنون نيتهم التي بيَّتوها للحكم بقتله:

حدث أن وهب الإمبراطور قسطنطين الكبير كمية من القمح لإعالة عدد معيَّن من الأرامل، جزء منهم في ليبيا وجزء في مصر، وهؤلاء جميعاً قد استلموا هذه الحصة بأكملها حتى هذه اللحظة، و لم يأخذ أثناسيوس شيئاً من ذلك قط إلاَّ تعبه وجهاده (في توزيعها) ومساعدتهن.

والآن وبينما أصحاب هذه العطية لم يشتكوا بل يؤكّدون جميعاً أنهم قد حصلوا على نصيبهنَّ، إذ نجد الشكوى تقول إن أثناسيوس قد باع كل كمية القمح واستحوز على المكسب لنفسه. وقد كتب الإمبراطور بخصوص هذا الأمر غاضباً ومتهماً إيَّاه بالتسبب في هذه الشكاوى التي قُدِّمت في حقِّهِ.

ومَنْ هؤلاء أصحاب الشكاوى؟ أليسوا هم أنفسهم المتهمون باضطهاده الذين لم يحتشموا أن يضيفوا على ذلك اتهاماً آخر؟

ومَنْ هم المسئولون الحقيقيون عن الخطابات المُرسَلة من الإمبراطور؟ أليسوا هم الأريوسيون أنفسهم الذين أخذهم الحماس والغيرة ضد أثناسيوس و لم يحتشموا قط أن يتكلَّموا ويكتبوا كل شيء ممكن ضدَّه؟

وليس من الصعب أن يدرك الإنسان نيَّة هؤلاء في إثارة الشكوك هكذا من نحو الآخرين في هذا الموضوع. نعم، فالعلة في تقديمهم لهذه الشكوى تظهر لنا غاية في الوضوح إذ أنهم

(54) *Apol. contra Arian.* 1.

يتحرَّقون شوقاً - وإنما بصورة مغطَّاة - لكي يستولوا هم على القمح الممنوح للكنيسة ويعطوه للأريوسيين. وهكذا يتضح من واقع الحال أساس الشكوك التي يفكّر فيها هؤلاء الذين لا يتورَّعون عن اختلاق الاتهامات الموجبة لقتل أثناسيوس وذلك بإثارة أحقاد الإمبراطور لدفعه للتحامل عليه، ولا عن تدبير الاتهامات التي تمكّنهم من انتزاع قوت الفقراء المسلَّم لإكليروس الكنيسة، وهذا كله في الواقع يهدف أن يربح الهراطقة الموقف كله.](٥٥)

لقد تشجَّع يوسابيوس بسلطة الإمبراطور واستطاع أن يرسل أعواناً له خصوصيين إلى الإسكندرية، ولكن ليسوا من مواطنيها، ليكونوا حلقة اتصال مع القسطنطينية بصفة مستمرة. وقد اختارهم من أعوانه الشمامسة ومن أهل بلده، فصاروا مركزاً خطيراً لتدبير الخطط والمؤامرات والثورات. وقد تقوَّى حزب الأريوسيين على أيديهم جدًّا من أساقفة وكهنة ورهبان، حتى أتى وقت استطاعوا فيه بالفعل أن يستولوا على كافة السلطات في المدينة سواء المدنية منها أو الكنسية، وهي اللحظة التي فيها رأى أثناسيوس ضرورة مغادرة الإسكندرية قاصداً إلى روما، حيث صديقه أسقفها وحيث الإمبراطور قسطنطين الثاني وقسطانس أخوه، وهما من المعجبين بإيمانه ونشاطه، ليعرض عليهم جميعاً الخطورة المحدقة بالكنيسة وبالإيمان - وإليك مقتطفات توضّح هذه المراحل:

[وأكثر من هذا **فقد أرسلوا شمامسة لجماعة الأريوسيين المختلين الذين اشتركوا معهم في اجتماعاتهم علناً، وبدأوا يكتبون خطابات إليهم** (أي إلى القسطنطينية) **ويتلقّون الردود منهم، وهكذا أحدثوا بالفعل انشقاقاً في الكنيسة، وكانوا يواظبون معهم على الشركة** (الصلاة والتناول)، **وهؤلاء أرسلوا خطابات إلى كل مكان يمتدحون هرطقتهم ويذمُّون الكنيسة.** وكل هذا يمكنكم أن تلاحظوه من صيغة الخطابات التي أرسلوها إلى أسقف روما، بل وربما يكونون قد أرسلوا لكم أنتم أيضاً بذلك.

وهكذا تدركون أيها الأحباء أن هذه الأمور تستوجب النقمة والغضب، فهي في الحقيقة خطيرة وغريبة عن منهج المسيح ...

ونحن ندعوكم أن تقتصُّوا من أصحاب هذا الظلم مذكّرين إياكم بقول الرسول: «اعزلوا الخبيث من بينكم». وبالحقيقة إن كل طرقهم خبيثة ولا تستحق شركتكم، فلا تلتفتوا إليهم مهما كتبوا إليكم ضد الأسقف أثناسيوس، لأن كل ما يخرج من تحت أيديهم هو كذب

(55) *Apol. contra Ar.* 18.

حتى ولو أمضوا خطاباتهم بأسماء أساقفة مصريين.](٥٦)

أمَّا النية المبيَّتة لقتل أثناسيوس والتي أحكموا حلقاتها فيمكن أن يستشفها القارئ من هذه الفقرات:

[وكيف أن الذين كانوا يتباكون على كسر الكأس (الإفخارستيا) يطلبون الآن بنشاط كيف يقتلون الأسقف الذي يقيم به الأسرار؟ لأنهم لو كان في استطاعتهم الآن أن يقتلوه لقتلوه.

أو كيف أن الذين كانوا يتباكون على كرسي الأسقف المغطَّى بالحرير لأنه انطرح على الأرض، يطلبون الآن بنشاط أن يحطِّموا الأسقف الذي كان يجلس عليه؟ أليس ذلك لغرض واحد وهو أن يظل الكرسي بلا أسقف وأن يبقى الشعب محروماً من العقيدة الإلهية؟](٥٧)

[لقد جاهدوا ليجعلوا الإمبراطور يتحامل عليه، وكم مرَّة هدَّدوه بالمجامع، وأخيراً وبعدما اجتمعوا في صور، وإلى هذا اليوم(٥٨) (سنة ٣٣٨م) لم يكفُّوا عن الكتابة ضدّه.](٥٩)

[أيها الإخوة الأحباء (الأساقفة في كل أنحاء العالم) كنَّا نود أن نقدِّم لكم دفاعاً عن أخينا أثناسيوس بخصوص المؤامرات التي يحيكها يوسابيوس وأعوانه ضد أثناسيوس، ونشتكي إليكم من جهة العذابات التي جازها على أيدي هؤلاء الناس. كنَّا نود أن نشرح لكم كل اتهاماتهم الباطلة سواء التي كانت منذ البداية **أو التي حدثت عند عودته إلى الإسكندرية** (من منفاه بتريف). ولكن الظروف لم تكن تسمح آنئذ كما تعلمون. **وأخيراً وبعد عودة أثناسيوس كنَّا نظن أن الأريوسيين يكفُّون، وقد غطَّاهم الخجل بسبب افتضاح ظلمهم علناً، وإلى ذلك كنا متحكمين في أنفسنا وظللنا صامتين.**

ولكن وبعد هذه العذابات المريعة التي عاناها، ونفيه في بلاد الغال واغترابه بعيداً جدًّا في هذه البلاد، وبعد أن ضيَّق عليه الأعداء الخناق لقتله حتى أنه استطاع أن يفلت من أيديهم وشكاياتهم بصعوبة (ذهابه من صور إلى القسطنطينية) ... هذه الأحزان التي لو حدثت من أقسى الأعداء لاكتفوا بها وارعووا - **إلاَّ أنهم لم يكفُّوا ولم يحسُّوا بالخجل، وها هم إلى الآن يخطِّطون ضد الكنيسة وضد أثناسيوس بلا أي حياء. فبمجرَّد حصوله على العفو**

(56) *Apol. contra Ar.* 19.
(57) Ibid. 17.
(58) N.P.N.F. IV, xlii.
(59) *Apol. contra Ar.* 6.

بدأوا بلا أي خوف يدبِّرون خططاً جديدة أكثر شناعة! ...

إزاء ذلك لم نستطع السكوت أبداً، ...

انظروا كيف لم يهدأوا قط عن الهمس في أُذن الإمبراطور بالوشايات الجديدة والإيعاز بكتابة الخطابات (من مصر) التي تحوي الاتهامات الموجبة للموت!! كل ذلك للإنهاء على أثناسيوس وإهلاكه، وذلك لأنه عدو لكفرهم. وها هم قد كتبوا أخيراً إلى الإمبراطور ضدَّه متهمين إيَّاه بالمجزرة التي يدَّعون أنها حدثت (في الإسكندرية في يوم استقباله) وهي لم تحدث قط، **وأخيراً يطالبون بدمه جزاء قتل ارتكبه وهو بريء كلية.**](٦٠)

تحركات الأريوسيين:

ولكن وبالرغم من كل هذه الدفوع والمحاماة عن أثناسيوس بكل وسائل المنطق والقانون، فإن الأريوسيين ويوسابيوس بالذات، لم يشغلوا أنفسهم بالمناظرات أو بالمحاجاة والإقناع المنطقي، لأنهم كانوا محصورين في هدف واحد معيَّن هو القضاء على أثناسيوس بأية طريقة مشروعة أو غير مشروعة، وبالتالي كانوا محصورين في تدبير خطط، أيّ خطط تتناسب مع الهدف الذي يجاهدون نحوه!!

أول خطوة في المؤامرة، تعيين بستوس بدلاً من أثناسيوس أسقفاً على الإسكندرية:

أمَّا بستوس هذا، فيذكره أثناسيوس أنه قد تعيَّن على الورق فقط بقرار من الإمبراطور وبإيعاز من يوسابيوس، وذلك في شتاء سنة ٣٣٨م، قبل أن يستقروا على تعيين مناوئ آخر أقوى وهو غريغوريوس الأريوسي الذي وصل بعد ذلك إلى الإسكندرية واغتصب الكرسي الرسولي بالفعل، وغريغوريوس هذا جاء إلى الإسكندرية وباشر سلطاته الحكومية على الكنيسة بالقوة في موسم الفصح لسنة ٣٣٩م. ويتبيَّن من هذا أن تعيين بستوس حدث سنة ٣٣٨م، إلاَّ أنهم عدلوا عن إرساله إلى الإسكندرية بعد تعيينه بسبب احتجاج أثناسيوس السريع، الذي بمجرَّد أن علم بالقرار أرسل في الحال خطابات الاحتجاج لدى جميع أساقفة العالم، وإلى يوليوس أسقف روما على وجه الخصوص، وهؤلاء أسرعوا بالاستجابة وحرموا بستوس الأريوسي وقطعوه من الشركة قبل وصوله إلى الإسكندرية. وهذا يتضح جدًّا من كلام أثناسيوس نفسه الذي يبدأ هكذا:

[وغريغوريوس هذا أريوسي، وقد أرسله لحساب الجماعة الأريوسية (بالإسكندرية)، لأن أحداً قط لم يطلبه إلاَّ هؤلاء الأريوسيون وحدهم،

(60) *Apol. contra Ar.* 3.

وعليه، وكونه "**أجيراً وغريباً**"، استخدم السلطان الحكومي متسبباً في هذه المصائب المرعبة التي تنم عن قسوة تجاه الشعب والكنيسة وكأنها ليست كنيسة.

أمَّا لماذا أرسلوا غريغوريوس، فلأن بستوس الذي عيَّنه يوسابيوس وأتباعه على الأريوسيين، هذا قد تمَّ حرمه وقطعه من الشركة بالعدل جزاء كفره بواسطتكم يا أساقفة الكنيسة الجامعة، وهذا تعلمونه جميعكم مما كتبت إليكم بخصوصه. وها هم الآن وبنفس الطريقة قد أرسلوا غريغوريوس **إليهم** (أي إلى أريوسيي الإسكندرية فقط، وهنا أيضاً يرفض أثناسيوس بإباء أرثوذكسي أن يقول إن غريغوريوس تعيَّن على كرسي الإسكندرية عامة).](٦١)

ومعروف أن بستوس هذا لم يدخل الكنيسة قط، وذلك نعلمه من احتجاج الأساقفة المصريين في خطابهم لأساقفة العالم:

[**ونحن نشكركم من أجل تقواكم أيها الأعزاء المحبوبون لأنكم حكمتم بالحرمان دائماً على الأريوسيين في خطاباتكم، ولم تعطوهم الفرصة إطلاقاً أن يدخلوا الكنيسة** ... أمَّا الآن فهم يثيرون الرجال الأريوسيين المختلين ليقاوموا الكنيسة علناً، فبالرغم من أن كل الكنيسة الجامعة قد حرمتهم (سابقاً) إذ بهم يعيِّنون أسقفاً عليهم (بستوس) ليشوشروا على الكنيسة ويزعجوها حتى يكسبوا لأنفسهم أعواناً لكفرهم في كل مكان.](٦٢)

ولكن المدهش حقًّا أن يتعجَّل يوسابيوس ويكوِّن لجنة من مكاريوس القس الأريوسي واثنين من الشمامسة الأريوسيين مارتيريوس وحزقيوس، ويرسلهم إلى يوليوس أسقف روما وينبئه بعزل أثناسيوس وبتعيين بستوس على كرسي الإسكندرية بدلاً من أثناسيوس، وذلك قبل أن يصل بستوس نفسه إلى الإسكندرية، وهذا نعلمه من خطاب يوليوس أسقف روما هكذا:

[وقبل أن يصل إليَّ كهنة أثناسيوس، كتبوا (يوسابيوس وجماعته) إليَّ ملحِّين بالسرعة في إرسال خطابات (تهنئة) لرجل يُدعى بستوس على الإسكندرية، مع أنه في نفس الوقت (كما أعلم) كان أثناسيوس الأسقف هناك. فلمَّا وصل كهنة الأسقف أثناسيوس، أبلغوني أن هذا الرجل بستوس أريوسي وأنه قد تمَّ فيما سبق قطعه من الشركة بواسطة ألكسندر الأسقف ومجمع نيقية أيضاً، وأنه أجريت له رسامة على يد سكوندوس وهذا أيضاً بدوره

(61) Athanas., *Epist. Encyc.* 6.
(62) *Apol. contra Arian.* 19.

كان المجمع الكبير في نيقية قد حرمه كأريوسي، وهذه الحقائق لم يستطع مرتيريوس وأتباعه (رسل يوسابيوس الذين أرسلهم إلى أسقف روما لينبئه بعزل أثناسيوس ويحضه على إرسال خطابات تهنئة لبستوس) – أن يناقضوها، ولم يستطيعوا أن ينكروا أن بستوس هذا قد رسمه سكوندوس.

فانظروا الآن وقرِّروا بعد هذا كله مَنْ يكون المستحق للملامة بالعدل؟ هل أنا؟ الذي لم يستطيعوا أن يحملوني على الإذعان لطلباتهم بأن أكتب لبستوس الأريوسي، أم هؤلاء الذين نصحوني أن أُسيء إلى المجمع الكبير وأمتهنه بأن أكتب لهؤلاء الكفرة وكأنهم رجال دين؟](٦٣)

وهكذا استطاع أثناسيوس بسرعة حركته وذكائه أن يحبط مساعي يوسابيوس في روما ويكشف لدى يوليوس أسقفها خبث الأريوسيين ومؤامراتهم بغاية الوضوح وبصورة ملموسة، حتى أن يوليوس نفسه يقرِّر أن بعثة يوسابيوس أصابها الخذلان والفشل إزاء وصول رسل أثناسيوس، فيقول يوليوس في خطابه:

[والأكثر من ذلك أن القس مكاريوس (رئيس بعثة يوسابيوس) الذي كان قد أرسله إلينا يوسابيوس مع مرتيريوس والباقين، عندما سمع باعتراض كهنة أثناسيوس (الذين كشفوا فيه كل شيء) – غادر في الليل فجأة مع أنه كان مريضاً ومع أننا كنا نتوقع حضوره مع مرتيريوس وحزقيوس – في الصباح – مما جعلنا نعتقد أن رحيله كان بسبب افتضاح موضوع بستوس، لأنه من المستحيل أن تجيز الكنيسة الجامعة رسامة يقوم بها سكوندوس الأريوسي، باعتبار أن هذا يكون في الواقع امتهاناً للمجمع (نيقية) وللأساقفة الذين عقدوه، وتكون بمثابة رفض صريح للقرارات التي صاغوها في حضرة الله بكل احتهاد وعناية، وكأنها بلا قيمة.](٦٤)

وهنا يلزمنا أن ننبِّه ذهن القارئ أن الأمور بدأت تجري في ميدانين معاً وفي نفس الوقت بسبب دهاء وخبث يوسابيوس.

أما الميدان الأول فهو في روما حيث تزعَّم يوليوس أسقفها، مدعَّماً بموافقة الإمبراطورين قسطانس وقسطنطين الثاني، تزعَّم حركة الدفاع عن أثناسيوس باقتناع شديد وغيرة شديدة، إذ دعا

(63) *Apolog. contra Ar.* 24.

(64) *Apol. contra Ar.* 24.

الطرفين أثناسيوس ويوسابيوس وأتباعهما إلى مجمع مسكوني ترك لأثناسيوس حرية اختيار مكانه - فاختار روما - بل وإن بقية أعضاء بعثة يوسابيوس إلى روما (بعد هروب مكاريوس رئيسها) اشتركوا في فكرة عقد هذا المجمع وحبَّذوها. وهذا لم يكن من اقتراحهم الخاص وإنما يوسابيوس وجماعته كانوا قد سبقوا وأرسلوا خطاباً اقترحوا على يوليوس بعقد مجمع يكون هو القاضي فيه إن كان هذا يرضيه. وإليك كلمات أثناسيوس في هذا الموضوع:

[ويوسابيوس وأتباعه كتبوا إلى يوليوس ظانين أنهم يخيفونني بهذا - وطلبوا منه أن يدعو إلى مجمع يكون هو الحَكَم فيه، إن كان هذا يرضيه.](٦٥)

فبدأ يوليوس بتعيين ميعاد الانعقاد وجعله في ديسمبر سنة ٣٣٩م. ثم بادر بالتحضير له، وأرسل بالفعل إلى يوسابيوس يدعوه مع كل الأساقفة بواسطة كاهنين من طرفه هما هيلبيذيوس وفيلوكسينوس الرومانيين.

أمَّا **الميدان الثاني**: فكان مسرحه في الإسكندرية، ولكن خططه كانت تُصنع في أنطاكية والقسطنطينية ويتزعمه يوسابيوس الذي لا يهدأ، إذ لمَّا علم بنيات يوليوس أسقف روما وتحقَّق من مكاريوس القس الأريوسي حال وصوله (هارباً من روما) بفشل مهمة البعثة التي أرسلها إلى روما لتثبيت بستوس على الإسكندرية، وعلم بانحياز يوليوس الصريح إلى موقف أثناسيوس، بدأ يخطِّط لمؤامرة جديدة اختار أن يكون عنصرها الأساسي المفاجأة والإرهاب. فدعا هو الآخر إلى مجمع في أنطاكية بمؤازرة قسطنطيوس، وذلك في الشتاء في سنة ٣٣٩م.

هذا المجمع خلاف مجمع أنطاكية الثاني المسمَّى بمجمع التدشين الذي التأم في أنطاكية سنة ٣٤٠- ٣٤١م لتدشين الكنيسة المذهَّبة، والذي هدموا فيه من ناحية أخرى كل قرارات مجمع نيقية التي تخص الأومووسيوس وصاغوا فيه قانوناً آخر للإيمان، وكرروا حرم أثناسيوس وثبَّتوا تعيين غريغوريوس على الإسكندرية بدلاً من أثناسيوس.

أمَّا في المجمع الأول فقد اتُخذت قرارات أريوسية محدَّدة بعزل أثناسيوس عن كرسيه وإقامة غريغوريوس الكبادوكي أسقفاً على كرسي الإسكندرية عوضاً عن أثناسيوس، وأُرسل غريغوريوس بسرعة وفي سرية تامة إلى الإسكندرية، مدعَّماً بقوة عسكرية قوامها ٥٠٠ فارس وبتوصيات من الإمبراطور.

(65) *Apol. contra Ar.* 20.

وقد أسرع يوسابيوس في اتخاذ هذه القرارات قبل وصول رسولي يوليوس وهما الكاهنان هلبيذيوس وفيلوكسينوس لدعوة الأساقفة اليوسابيين لحضور المجمع الذي دعا إليه يوليوس أسقف روما، والذي تحدَّد ميعاده في ديسمبر سنة ٣٣٩م.

فلمَّا وصل رسولا يوليوس إلى أنطاكية وهما هلبيذيوس وفيلوكسينوس الرومانيان، احتجزهما يوسابيوس عنده حتى إلى ما بعد زمان عقد مجمع يوليوس، فبقيا في أنطاكية حتى يناير سنة ٣٤٠م. وغادرا أنطاكية ومعهما خطاب من يوسابيوس، كله مراوغة، اتهم فيه يوليوس بالتحيُّز ولامه على تصرفاته وقبوله أثناسيوس في الشركة. ولكن يوليوس ردَّ عليه بخطاب مفحم فاضحاً فيه كل تصرفات يوسابيوس وهاجم الأريوسيين بعنف ووضوح مع حكمة ورزانة، وفنّد كل ادعاءات يوسابيوس واتهاماته وملاماته الكاذبة واضعاً عليه كل اللوم. وسوف نقدِّم للقارئ مقتطفات من هذا الخطاب الهام في المكان المناسب.

والآن يمكننا أن نسير بالقارئ خطوة خطوة لنكشف دقائق ما حدث في كلا الميدانين في أنطاكية وفي روما. ولنبدأ بالإسكندرية أولاً.

أولاً: ما حدث في الإسكندرية: وحوادث هذه المرحلة تمّت في موسم الصوم الكبير وأسبوع الآلام وعيد الفصح سنة ٣٣٩م:

وإليك كلمات البابا أثناسيوس:

[ولمَّا رأى يوسابيوس وأتباعه اضمحلال هرطقتهم كتبوا إلى روما كما كتبوا إلى أباطرة الغرب قسطنطين وقسطانس متهمين أثناسيوس، ولكن لمَّا فنّد مبعوثو أثناسيوس هذه الافتراءات وكشفوا حقيقتها، صاروا في خجل أمام الأباطرة وأمام يوليوس أسقف روما الذي كتب يدعو إلى مجمع يلزم أن ينعقد في المكان الذي نختاره نحن (أثناسيوس يتكلَّم بصيغة الجمع)، حتى يستطيعوا أن يعرضوا اتهاماتهم التي صنعوها ولكي يستطيعوا أيضاً أن يدافعوا عن أنفسهم بحرية فيما يختص بالأمور التي هم أيضاً متهمون فيها! على أن الكهنة الذين أرسلوهم (كهنة يوسابيوس) لمَّا رأوا أنفسهم قد افتضحوا ترجوا هم أيضاً أن يُقام هذا المجمع.

ولكن هؤلاء الأشخاص (اليوسابيين) الذين يُشك دائماً في سلوكهم، حينما رأوا أنهم لن يفوزوا بشيء أفضل من إقامة هذه المحاولة الكنسية، اتجهوا بجملتهم إلى قسطنطيوس وحده متباكين ومستغيثين به كحامي حمى هرطقتهم، فرأوا أن يكتبوا خطابات، ويرسلوا فيلاجريوس للمرة الثانية ليكون والياً على مصر، لأنه قادر أن يقوم بعمليات الاضطهاد كما

ينبغي وكما أثبت هو ذلك سابقاً بجدارة، وبالأكثر لأنه هو نفسه زنديق ومارق عن الديـن، كما فكّروا أيضاً أن يرسلوا غريغوريوس ليكـون أسـقفاً علـى الإسـكندرية، لأن هـذا أيضـاً يستطيع أن ينصر هرطقتهم.

وبناءً عليه، أرسل قسطنطيوس في الحال رسائله تحمل بداية اضطهاد جديد ضـد الجميـع، وذلك على يـد فيلاجريـوس الـوالي يلازمـه أحـد خصيـان الإمـبراطور المدعـو أرسـاكيوس، وبعدها أرسل غريغوريوس مدعَّماً بقوة عسكرية.](٦٦)

يوسابيوس يستخدم عنصر المفاجأة والإرهاب في مؤامرته الجديدة:

لقد تعلّم يوسابيوس من فشله في تخطيط مؤامرة بستوس السابقة أن لا يستخدم بعد ذلك سياسة التمهيد للضرب، أو استخدام إشاعة الأخبار مسبقاً، أو مسـاندة الخطـة بوسـائل الإعـلام والتوعيـة وإرسال الرسل والخطابات، كما فعل في إرساله لبعثته إلى يوليوس أسقف روما وإلى أباطرة الغرب، بل استنَّ أسلوباً جديداً في المؤامرة وهو السرية المطلقة والمباغتة والإرهاب، حتى وإذا لـزم الأمـر إلى سفك الدماء، في الصوم الكبير وفي أسبوع الآلام بالذات وأيضاً في يوم عيد الفصح!!

وإليك كلمات أثناسيوس نفسه:

[فبينما نحن مواظبون على اجتماعاتنا في سلام كالمعتـاد، وبينمـا الشـعب في ابتهـاج بسـبب اجتماعاتنا هذه يتقدَّمون بواسطة الأحاديث الإلهية، وبينما زملاؤنا في الخدمة في كل نواحـي مصر وطيبة وليبيا في وئام ومحبة وسـلام كـلٌّ مـع الآخـر ومعنـا، إذ فجـأة يعلـن والي مصـر منشوراً يحمل صورة مرسوم بإعلان أن واحداً يسمَّى غريغوريوس مـن كبادوكيـا في طريقـه إلينا من البلاط الإمبراطوري لكي يحل محلي.

وبمجرَّد إعلان هذا المنشور على الشعب صار الكـل في ارتبـاك، لأن هـذا الإجـراء كـان غريباً كلية ولأول مـرَّة يُسـمع بـه. وبنـاءً عليـه أخـذ الشـعب يتجمَّـع في الكنـائس بصـورة مستمرة لأنهم كانوا واثقين أنه لا هم أنفسهم ولا أي أسقف أو كاهن ولا أي واحـد علـى وجه العموم اشتكى ضدِّي، إلاَّ الأريوسيين فقط كانوا يُحسبون في صفِّه، كمـا أدركـوا أنـه (غريغوريوس) أريوسي وأن يوسابيوس هو الذي أرسله ليكون على الأريوسيين.](٦٧)

(66) *Hist. Arian.* 9, 10.

(67) *Epist. Encyc.* 2.

ويعطينا ذلك المؤرِّخ المجهول الذي كتب تاريخ أثناسيوس بالتفصيل بعد نياحته بقليل، في زمان باباوية ثاوفيلس الـ ٢٣، تفصيلات قليلة إنما دقيقة عن كيفية الشروع في قتل أثناسيوس ودخول غريغوريوس الإسكندرية هكذا:

[وفي الثاني والعشرين من برمهات الموافق ١٨ مارس سنة ٣٣٩م، وفي يوم الأحد مساءً أخذ يبحث عنه المطاردون ويتعقّبونه بالليل، وفي صباح اليوم التالي هرب أثناسيوس من كنيسة ثيئوناس بعد أن عمَّد كثيرين. وبعد أربعة أيام من هذا الحادث أي في ٢٢ مارس، دخل غريغوريوس الكبادوكي مدينة الإسكندرية بوصفه الأسقف.](٦٨)

[وبدخوله الإسكندرية (٢٢ مارس سنة ٣٣٩م)، بدأت الاعتداءات على الشعب وانتهاك الحرمات، فكان حدثاً جلب على المدينة شروراً جسيمة، وحاول الشعب أن يعتصم في الكنائس في اجتماعات دائمة لكي يصدَّ كفر الأريوسيين ويمنعهم من الاختلاط بالمؤمنين، وفيلاجريوس الذي صار والياً على مصر له تاريخ سابق في مباشرة الاضطهاد على الكنيسة وعلى العذارى، وهو أيضاً كافر وزنديق، وهو من نفس المدينة التي منها جريجوري (غريغوريوس) الكبادوكي(٦٩)، فهم أهل مواطنة واحدة. وغريغوريوس هذا هو أيضاً لا أخلاق له مملوء حقداً على الكنيسة، وقد استطاع **أن يجمع في صفّه جماعة الوثنيين وجماعة اليهود وخصوصاً المتشرِّدين منهم، وذلك بواسطة وعود كثيرة حققها لهم بالفعل فيما بعد،** هؤلاء أثار حفيظتهم (ضد المسيحيين) وأرسلهم جماعات بسيوف وعصي ليقتحموا الكنائس وليفتكوا بالشعب.](٧٠)

[وقد جمع جماعة كبيرة من الرعاع وتجّار المواشي وكثيراً من الشبان المتشردين من الإسكندرانيين وسلّحهم بالسيوف والعصي، واجتمعوا معاً **وهجموا على كنيسة كيرينيوس** فذبحوا بعضاً وداسوا بعضاً، وضربوا بعضاً وألقوهم في السجن، ونفوا آخرين، وجرُّوا النساء من شعورهن وألقوهن في السجن ... كل ذلك بدون أي سبب إنما لإجبار الشعب على

(68) Fest. Index., N.P.N.F., IV, p. 503.

(٦٩) هناك مثل قديم يقول إن هناك ثلاثة أصول للشر تبدأ بحرف "كبا" اليوناني، الكبادوكيين والكريتيين والكيليكيين، ولكن أشرهم الكبادوكيون. غير أن هذا المَثَل القديم ألغاه آباء كبدوكيا العظام الثلاثة باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا ذهبي الفم.

(70) *Epist. Encyc.* 3.

الانضمام للأريوسيين وليخضعوا لغريغوريوس الذي أرسله الإمبراطور.](٧١)

[الكنيسة والمعمودية المقدَّسة أشعلوا فيهما النار وارتفعت أصوات الشعب بالصراخ والعويل في كل المدينة ...

عرُّوا العذارى وضربوهن بالسياط، وداسوا الرهبان، وبعضهم مات بالسيف وبالعصي، وبعضهم جُرح ... ونجَّسوا المائدة المقدَّسة ... وجدَّفوا على المسيح وأحرقوا الكتب المقدَّسة ... ودخل اليهود إلى المعمودية وخلعوا ملابسهم وصنعوا قباحات يخجل الإنسان أن يذكرها ... كل ذلك على مرأى ومسمع من الأساقفة "الأريوسيين".](٧٢)

[ولمَّا حازت هذه الأعمال رضى غريغوريوس وأشبعت غريزة الحقد والنقمة فيه، أراد أن يجازي هؤلاء اليهود الوثنيين على ما أبدوه من شرور نحونا، فأعطاهم التصريح أن ينهبوا الكنيسة (كنيسة كيرينيوس)، وبمجرَّد أن أعطاهم هذا التصريح بدأت أعمال النهب والسلب، كل ما وقع في أيديهم، فذخائر الكنيسة من الزيت والشمع والخمر نهبوها، وخلعوا أبواب الهيكل وقضبانه الحديدية ... ونزعوا الشمعدانات من الحائط ... وهجموا على الكهنة والعلمانيين (الذين يخدمون في الكنيسة) ومزَّقوا لحمهم ... وكل هذه الأمور حدثت في الصوم الكبير(٧٣) وعيد القيامة على الأبواب.

وفي يوم الجمعة الكبيرة (الموافق ١٣ أبريل سنة ٣٣٩م) ذهب غريغوريوس هذا مع الوالي فيلاجريوس ودخل الكنائس (كمن يفتقدها) فاعتبره الشعب كمن يقتحم كنائسهم عنوة، وواجهوه باحتقار شديد وبغضة، فما كان منه إلاَّ أن أوعز إلى الوالي أن يستخدم القوة، فجلد منهم في ساعة واحدة ٣٤ بين عذراء وسيدة ورجال من علية القوم، وألقاهم في السجن. وبينهم كانت عذراء تحمل كتاب التسبحة أثناء ما كانوا يجلدونها علناً، فأمسكوا بالكتاب أيضاً ومزَّقوه قطعاً وألقوها في السجن.](٧٤)

---

(71) Ibid.

(72) Ibid.

(٧٣) يلاحَظ أن معظم الاضطهادات على أولاد الله وقعت في هذا الموسم، وعلى سبيل المثال اضطهاد يوستينا التي أخبر عنها أمبروسيوس، وكذلك اضطهاد يوحنا ذهبي الفم في القسطنطينية.

(74) *Epist. Encyc.* 4.

[وعندما عملوا كل هذا، لم يكفُّوا أيضاً بل فكَّروا كيف يعملون نفس الشيء في الكنيسة الأخرى (المسمَّاة ثيئوناس)(٧٥) التي كنت دائماً أقضي فيها هذه الأيام، لأنهم كانوا يتحرَّقون شوقاً كيف يمتدون بجنونهم إلى هذه الكنيسة أيضاً حتى أقع في أيديهم ويقتلونني، وهذا ما كان سينتهي إليه أمري حتماً لولا أن نعمة المسيح ساعدتني، حتى ولو بنجاتي أستطيع فقط أن أقصَّ هذه الأمور التي اقترفوها.

لأنني لمَّا رأيت جنونهم ضدِّي بهذه الصورة غير المعقولة، ولمَّا كنت حريصاً للغاية أن لا يُساء للكنيسة أو إلى عذاراها متجنباً أن لا تراق دماء جديدة ولا ينزعج الشعب، سحبت نفسي من وسطهم متذكراً كلمة المخلِّص: «إذا طردوكم من مدينة فاهربوا إلى أخرى». لأني رأيت من سلوكهم الشرير تجاه الكنيسة الأُولى أنهم لن يؤخِّروا جهداً في الضرر بالكنيسة الأخرى. وفي هذه الكنيسة أيضاً لم يوقِّروا حتى يوم الرب الذي للعيد المقدَّس (وقع في تلك السنة في يوم ٢٠ برمودة سنة ٣٣٩م)، لأنهم قبضوا على مَنْ في الكنيسة وسجنوهم في اليوم الذي نعيِّد فيه لذكرى المناداة للمأسورين بالإطلاق من قيود الموت، الذي أكمله الرب بقيامته من الأموات، هذا بينما غريغوريوس وأتباعه وكأنهم يحاربون ضد مخلِّصنا معتمدين في قوتهم على الوالي، وقلبوا يوم الفكاك والحرية إلى بكاء وعويل لخدام المسيح.

وما كان أعظم سرور الوثنيين لهذا العمل لأنهم يبغضون هذا اليوم (عيد القيامة)، ولكن غريغوريوس إنما كان ينفذ أوامر يوسابيوس وأتباعه. **وبأعمال العنف هذه استولى الوالي على الكنائس وأعطاها لغريغوريوس وللأريوسيين مختلِّي العقل.**](٧٦)

وهكذا استخدم يوسابيوس عنصر السرية والمفاجأة والإرهاب ونجح!! ولكن إذ يلحظ ذلك أثناسيوس الذكي يرد - في نفسه - على أسلوبهم هذا بثقته الكاملة في الشعب، إذ هو صاحب النصيب الأعظم في هذه المعركة كلها.

[وبهذه الطريقة أرسلوا غريغوريوس إلى الإسكندرية وهم في حرص شديد لئلاَّ يصيبهم الخجل مرَّة أخرى (كما في مؤامرة إرسال بستوس) إذا نحن أسرعنا بالكتابة ضدَّهم، لذلك استخدموا هذه المرَّة العنف والقوة ضدِّي بصورة غير عادية، حتى إذا ما تيسَّر لهم الاستيلاء

(75) Festal Index., N.P.N.F. IV, p. 503.

(76) *Epist. Encyc.* 5.

على الكنائس بسرعة يتخلَّصون من ريبة الشعب فيهم كونهم أريوسيين.

ولكنهم وفي ذلك أيضاً هم مخطئون! لأن ليس واحد من شعب الكنيسة انضم إليهم إلاَّ الهراطقة والمحرومون من الشركة بسبب إدانتهم بتهم مختلفة والذين تظاهروا بالانضمام تحت إرغام وتهديد الوالي.

هذه هي مأساة يوسابيوس وأتباعه التي طالما خطَّطوا لها منذ زمن بعيد، لقد صمَّموها ونجحوا في تنفيذها على أساس الاتهامات الكاذبة التي قدَّموها للإمبراطور ضدِّي، ويا ليتهم اكتفوا بهذا وهدأوا، ولكنهم وبعد هذا كله يطلبون نفسي!!](٧٧)

أثناسيوس يعتكف ويكتب خطابه العام:

واضح من تتابع الحوادث كما يصفها القديس أثناسيوس أن غريغوريوس مع فيلاجريوس الوالي بدأوا انتهاكاتهم للكنائس في أسبوع الآلام بصورة مركَّزة، وبدأوها بكنيسة "**كيرينيوس**" التي أحرقوا معموديتها ونهبوا ذخائرها ونجَّسوا هيكلها ومذابحها بواسطة اليهود والوثنيين، وكان ذلك في يوم الجمعة الكبيرة، ثم اتجهوا لكنيسة "ثيئوناس" التي كانت مقراً مناسباً للبابا أثناسيوس خصوصاً في أيام الصوم واحتفالات الأعياد، وبدأوا بالقبض على الشعب في يوم العيد. ولكن أثناسيوس نجا من هجومهم، لأنه كان قد أحسَّ بالخطة المرسومة لقتله التي بدأوا بتنفيذها بالفعل منذ قبل دخول غريغوريوس بأربعة أيام، ففي يوم ١٩ مارس غادر أثناسيوس كنيسة ثيئوناس على أثر الأخبار السرية التي وردت إليه أن مطارديه سيهجمون على مقر سكناه ليلاً للقبض عليه بناءً على تعليمات الإمبراطور ويوسابيوس للوالي فيلاجريوس، وذلك قبل وصول غريغوريوس الكبادوكي الأسقف الدخيل حتى يتهيَّأ له الجو للاستيلاء على الكرسي الرسولي.

وقد أعادوا الكرة مرة أخرى بعد عيد القيامة على كنيسة ثيئوناس نفسها لعلمهم أنه يقيم فيها بصفة اعتيادية في هذا الموسم. ولكنه كان قد غادرها أيضاً قبل هجومهم عليها.

ثم اعتكف أثناسيوس بضعة أيام بعد العيد (٢٠ برمودة سنة ٣٣٩م) وكتب رسالته العامة لجميع أساقفة العالم يصف فيها كل هذه الحوادث كما ذكرناها في مواضعها بالترتيب، وهو خطاب جامع يطلق فيه صيحة استغاثة، يهز ضمير العالم المسيحي لما يتهدَّد الإيمان والكنائس في العالم

(77) *Epist. Encyc.* 6.

وبالأخص كنيسة الإسكندرية، التي اعتبرها أثناسيوس بالنسبة له بمثابة زوجته الطاهرة العفيفة التي اقتناها بالأسقفية من عند الرب. معتبراً غريغوريوس الدخيل كمن اعتدى على امرأة ليست له وفضحها، مستعيراً - في ذلك التشبيه - بالواقعة الحقيقية التي جاءت في سفر القضاة بالعهد القديم.

والقارئ سيتعجَّب من حبك التشبيه ومن صدق الشعور ومن حرارة الغيرة التي كان قد ارتبط بها البابا أثناسيوس في علاقته السرية والإلهية بكنيسة الإسكندرية.

ثم يطلق أثناسيوس صيحته الإنجيلية في جميع أساقفة العالم باعتبارهم رؤساء أسباط الكنيسة، كمسئولين مباشرة عمَّا حدث لأخ لهم في امرأته العذراء العفيفة، كنيسة الإسكندرية، التي لا غش فيها، الأُم المجاهدة حافظة الإيمان في المسكونة كلها! ...

وإليك أيها القارئ مقتطفات من هذا الخطاب الرائع:

[إلى شركائه في الخدمة في كل مكان، السادة المحبوبين، يرسل أثناسيوس تمنيات العافية في الرب.

إن آلامنا المريعة التي نعانيها قد صارت فوق الطاقة، ومن العسير أن نصفها لكم بما يناسبها من التعبير، ولكن لكي تدركوا بصورة واضحة طبيعة هذه الحوادث المريعة التي حدثت، رأيت أنه من الخير أن أذكركم بما يماثلها بما جاء في تاريخ الأسفار المقدَّسة:

لقد حدث لرجل لاوي أن أُسيء إليه في شخص زوجته، فلمَّا رأى الرجل عظم المصيبة التي تنجس بها - لأن امرأته كانت عبرانية (لا غش فيها) ومن سبط يهوذا - أفزعته الفضيحة التي اقترفت ضدَّه، فما كان منه إلاَّ أن قام بتقسيم جسد امرأته - كما يقص الكتاب المقدَّس في سفر القضاة - مرسلاً جزءًا لكل سبط في إسرائيل لكي يُعلَم لدى الجميع أن إساءة مثل هذه لا يمكن أن تخصه وحده فقط، ولكنها تعم الجميع على السواء. فإن تعاطف الشعب معه فيما حلَّ به من آلام يقوموا ويثأروا له، وإن هموا أهملوا النداء و لم يصنعوا، يتحمَّلون اللعنة كونهم قد صاروا بالضرورة شركاء ومتهمين في ذات الجريمة!!

أمَّا الرسل الذين أرسلهم إلى كل مكان فقد أذاعوا الخبر كما حدث، وكل الذين رأوا وسمعوا الحادث قالوا إنه لم يحدث شيء قط مثل هذا منذ اليوم الذي خرج فيه إسرائيل من أرض مصر. وهكذا أخذت الغيرة كل سبط في إسرائيل وقاموا جميعاً معاً وكأنهم قد اعتُدي عليهم وصاروا شركاء في الآلام، وجاءوا إلى المعتدين، وأقاموا حرباً أهلكوا فيها المتسببين في هذه الخطية وجعلوهم لعنة على كل فم.

على أن الشعب لمّا اجتمع معاً لم يقيموا وزناً لرابطة الدم (لأن المعتدي والمعتدَى عليه كانوا جميعاً من بني إسرائيل) ولكنهم وضعوا في اعتبارهم نوع الجريمة التي اقترفت.

وأنتم أيها الإخوة تعلمون التاريخ ودقائق الموضوع والظروف التي أوردها الكتاب، لذلك أرى أن لا أقص عليكم أكثر من هذا لأني إنما أكتب إلى أشخاص على علم بكل هذه الأمور، ولكني مهتم بالأكثر أن أقدِّم لكم أيها الأتقياء ما يختص بأحوالنا التي هي أسوأ مما استشهدت به. وكل غايتي من تذكيركم بما حدث في التاريخ قديماً هو أن تقارنوا ما حدث قديماً بما هو حادث لنا الآن، ولكي تدركوا أن ما حدث أخيراً لنا يفوق ذاك الذي حدث قديماً في القسوة، فإن أدركتم هذا ينبغي بالتالي أن تمتلئوا من الغيظ بل من السخط، بما يفوق ما امتلأ به ذاك الشعب قديماً ضد هؤلاء المعتدين! ... لأن ما حدث لنا يفوق بالعقل كل ما حدث، ولأن مصيبة هذا اللاوي على أي حال صغيرة إذا قورنت بشناعة ما اقترف ضد الكنيسة الآن، لأنه لم يحدث مثل ذلك قط ولا سُمع به في كل العالم. لأن في أمر اللاوي لم يُصَب بسوء أكثر من امرأة واحدة ولم يتألَّم بالظلم أكثر من لاوي واحد، أمَّا الآن فها كنيسة بأكملها يُساء إليها، وكهنوتها يُهان، وما هو أشنع من الكل تُضطهد التقوى وتُطارَد الاستقامة من الذين لا تقوى لهم ولا استقامة.

في أمر اللاوي تهيَّجت الأسباط وامتلأت سخطاً من منظر قطعة من جثة وُضعت أمامهم لامرأة انتُهكت، ولكن الآن أعضاء الكنيسة كلها ممزَّقة بعضها عن بعض، وها نحن مرسلوها إليكم (في أشخاص الكهنة والأساقفة المُرسَلين) هنا وهناك، لكم ولغيركم، حاملين إليكم صورة الإهانات والإساءات التي حلَّت بهم. عساكم تتحرَّكون بالغيرة، أرجوكم، معتبرين أن هذه الإساءات إنما حدثت لكم كما لنا، وليس أقل، عسى كل واحد منكم يقدِّم معونة كمن يشعر في نفسه بنفس الألم، لئلاَّ بعد قليل تتلوَّث الكنيسة في إيمانها، وقوانينها تُنتهك! لأن الكل في خطر إذا لم يتدارك الله الأمر بواسطتكم وبأيديكم يصلح ما فسد! ...

... أتوسَّل إليكم لا تستهينوا بهذه الحوادث،

ولا تسمحوا أن تُداس كنيسة الإسكندرية العظيمة تحت أرجل الهراطقة! ...](٧٨)

(78) *Epist. Encyc.* 1,7.

وأمام هذه المصائب المرَّة، وأثناسيوس يرى بعينيه كيف استولى غريغوريوس الأريوسي على جميع كنائس الإسكندرية بقوة السلاح والجند كقوله هو هكذا: [وبأعمال العنف هذه استولى الوالي على الكنائس وأعطاها لغريغوريوس وللأريوسيين مختلّي العقل].(٧٩) وهكذا وبسقوط كنيسة الإسكندرية في أيدي الأريوسيين وهي معقل الأرثوذكسية الوحيد والأخير في كل الشرق آنئذ؛ دخلت الأرثوذكسية في مراحلها الخطيرة لأن كل إيبارشيات آسيا وفلسطين وشرق أوروبا كانت قد وقعت تحت قبضة الأريوسيين. أمَّا الأساقفة الأرثوذكس فالأقوياء المجاهرون منهم كانوا في المنفى، والضعفاء كانوا مغلوبين على أمرهم لا يُسمع لهم صوت.

وهكذا التفت أثناسيوس فلم يجد أمامه إلاَّ الاستغاثة بأباطرة وأساقفة الغرب، لأن الغرب كان لا يزال حتى هذه اللحظة بعيداً كل البعد عن الجدل الأريوسي، أو كما يقول جيبون المؤرِّخ:

[كانت لغتهم الوطنية (اللاتينية والفرنسية والألمانية) جامدة لم تستطع أن تسعفهم بمصطلحات مناسبة تقابل المصطلحات اليونانية والكلمات الروحية العميقة التي كانت موضع تقديس من الإنجيل والكنيسة ـ بحيث تمكِّنهم من جهة هذا الحوار أن يعبِّروا بلغتهم هذه عن أسرار الإيمان المسيحي ... لذلك وقد استقوا عقيدتهم من مصدر صحيح (مجمع نيقية) ومن ثم حافظوا في ثبات على المذهب الذي تقبَّلوه بسهولة، فلمَّا اقترب وباء الأريوسية من حدودهم كان لديهم في ذلك الوقت ما يقيهم من شره وهو إيمانهم الشديد "بالأموؤوسيون" وحدة الجوهر مع الآب ...](٨٠)

وهكذا لم يجد أثناسيوس أمامه إلاَّ الذهاب إلى روما خصوصاً وقد أرسل أسقفها يوليوس رسالة لأثناسيوس يدعوه لحضور المجمع الذي حَضَّرَ له من جميع أساقفة العالم لفحص شكاوى يوسابيوس واتهاماته...

وإليك ما سجَّله أثناسيوس من جهة ذهابه إلى روما في كتابه عن تاريخ الأريوسيين:

[وبعد عيد الفصح ـ وأثناسيوس قد بلغه أخبار هذه الأعمال في مبتدئها، أبحر إلى روما، عالماً مقدار جنون الأريوسيين، وكذلك من أجل المجمع الذي سبق أن تحدَّد ميعاده (في

(79) Ibid. 5.

(٨٠) جيبون: اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الجزء الأول، الفصل الحادي والعشرون: الأباطرة والجدل حول مذهب أريوس.

صيف سنة ٣٣٩م)، لأن يوليوس كتب رسائل بذلك لأثناسيوس.][٨١]

وإلى هنا نكون قد استكملنا تاريخ صراع أثناسيوس في الميدان الأول القسطنطينية / الإسكندرية.

ثانياً: ما جرى في روما، والنفي الثاني بسنينه الطويلة:

غادر أثناسيوس شاطئ الإسكندرية ميمماً شطر روما، ولم يكن يدري أنه هكذا ستطول غربته وبعده عن كنيسته المحبوبة، لأن في هذه المرَّة طالت جدًّا غربته التي حسبت له بمثابة منفى إرادي مدة تسعين شهراً وثلاثة أيام!!

فبحسب التاريخ الدقيق المسمَّى أسيفالوس (أي الذي بلا عنوان)، نعلم أن أثناسيوس رحل من الإسكندرية في يوم الاثنين ٢١ برمودة الموافق ١٦ أبريل سنة ٣٣٩م، ولم يعد أثناسيوس إليها إلاَّ في يوم ٢٤ بابة الموافق ٢١ أكتوبر سنة ٣٤٦م!! وهذه المدة الطويلة المحسوبة في تاريخه أنها مدة نفي تُقسَّم حسب الأصول التاريخية إلى فترتين:

الفترة الأُولى: ومدتها أربع سنوات (من سنة ٣٣٩-٣٤٣م) وتنتهي بمجمع سرديكا الذي استمر التحضير له وانعقاده وانصراف أساقفته مدة ستة أشهر.

الفترة الثانية: ثلاث سنوات وتنتهي بعودته إلى الإسكندرية في ٢١ أكتوبر سنة ٣٤٦م.

أعمال أثناسيوس في الفترة الأُولى من النفي الثاني:

وبعد عيد الفصح مباشرة وفي يوم الاثنين ١٦ أبريل غادر أثناسيوس الإسكندرية برفقة جماعة قليلة من الإكليروس (كهنة وأساقفة ورهبان)، ويضيف المؤرِّخ سقراط[٨٢] اسم "أمونيوس باروتيس" (أي ذو الأذن الواحدة)[٨٣] الراهب القديس الذي كان أصلاً من أديرة باخوم، وانتقل إلى برية نتريا تحت أبوَّة المعلِّم الكبير آمون، هذا كان أيضاً من الرفقة الذين رافقوا أثناسيوس في منفاه بروما، ومن أقوال هذا الراهب الناسك القديس أنه لم يعجبه شيء في روما إلاَّ كنيسة بطرس وبولس[٨٤].

---

(81) N.P.N.F., vol. IV, p. 503.

(82) Socrat. *op. cit.*, IV. 23.

(٨٣) لمَّا أمسكوه بالقوة ليرسموه أسقفاً، استأذن منهم قليلاً ودخل قلايته وقطع أذنه اليمنى حتى بهذا التشوُّه الجسدي يمنع نفسه من استحقاق هذه الرتبة.

(84) Socrat. *op. cit.*, IV., 23.

وهنا ينبغي أن نذكر أهمية هذه الرحلة التي دبَّرها الله للبابا أثناسيوس والرهبان الذين كانوا برفقته (أمونيوس وثيئوذوروس[٨٥] الذي كان معروفاً لدى السناتو) بالنسبة لروما والغرب عموماً، لأن منظر هؤلاء النساك وتقواهم ونسكهم وصلواتهم وعبادتهم التي لم ينقطعوا عن ممارستها في روما وكل المدن الكبرى في الغرب مثل أكويلا، وبادوا، وفيرونا، ولاييس، وكمبانيا، وتريف، وميلان[٨٦]، بالإضافة إلى روما، كان لها أبلغ الأثر على الحياة الروحية عامة وعلى أفكار الشباب والشابات بصورة خاصة، لأنه معروف من تحقيقات القديس جيروم أن هذه الرحلة أثرت في كل الغرب ومهدت لأول مرَّة لقيام الرهبنة بصورتها المصرية الأصيلة وبطقسها الباخومي الذي بهر الفكر الغربي عموماً.

إذ يقول جيروم في رسالته المرقومة ١٢٧ ما مضمونه: "إن الرهبنة المصرية عُرفت لأول مرَّة في روما من زيارة أثناسيوس وبطرس خليفته". أمَّا تأثير القديس أنطونيوس فكان غير مباشر عن طريق كتابة سيرته بقلم القديس أثناسيوس الذي وضعه خصيصاً للأشخاص الذين تعلَّقوا بالحياة الرهبانية هناك، وأرسلوا للبابا أثناسيوس بعد عودته إلى الإسكندرية يطلبون المزيد من حياة أنطونيوس الذي كان يقص لهم أخباره وهو في المنفى عندهم.

ومعروف أيضاً أن البابا أثناسيوس كان يمارس الخدمة في كنيسة روما وكل المدن الغربية الهامة مع أساقفتها، ومن هنا يلزم جدًّا التنبيه أن مميزات طقس الإفخارستيا بالليتورجيا القبطية في عصر أثناسيوس التقطته كنائس الغرب وتأثَّرت به روما إلى أقصى حد، بل واحتفظت روما بملامح ليتورجية أثناسيوس حتى اليوم، فيما يختص بموضوع "الإبيكليسيس Epiclesis"، أي "حلول الكلمة" على الخبز والخمر بدلاً من حلول الروح القدس الساري الآن.

وبعد ثلاثة شهور من وصوله روما لحق به كثير من الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا قد رجعوا من منفاهم الأول سنة ٣٣٧م. مثلما حدث لأثناسيوس، ولكن استطاع الأريوسيون بعد ذلك بسلطان قسطنطيوس أن يعزلهم عن كراسيهم في مجمع أنطاكية مثلما حدث لأثناسيوس أيضاً، ومنهم بولس أسقف القسطنطينية واسكلباس أسقف غزة، ومارسيللوس أسقف أنقرة بإقليم غلاطية بآسيا الصغرى، ولوقيوس (لوسيوس) أسقف أدرينوبل.

---

(85) Pallad., *Hist. Lausiac., vita patr.* 1. 8.

(86) *Apol. Ad Const.*, 3.

وبعد وصول البابا أثناسيوس ظهر في روما قس أريوسي مبعوثاً من غريغوريوس الكبادوكي الأسقف المغتصب للكرسي الرسولي الإسكندري، يُدعى كاربونس وهو مقطوع من الشركة على يد ألكسندروس البابا الـ ١٩. هذا اعترف أمام يوليوس أسقف روما مقرًّا بكل الاتهامات المتهم بها بستوس، ولمّا ناقشه يوليوس بخصوص أريوسية غريغوريوس أيضاً لم يستطع أن ينفي التهمة.



مصباح أثري من أخميم وفيه يظهر المسيح دائساً
على الحية التي تمثل الشيطان

الحوادث التي جرت في الإسكندرية
في غياب البابا أثناسيوس

الخطابات الفصحية[٨٧]:

تحديد الفصح لسنة ٣٤٠م:

آخر خطاب فصحي كتبه البابا أثناسيوس في الإسكندرية كان لسنة ٣٣٩م، لأنه بعد فصح هذه السنة أقلع إلى روما. أمَّا خطاب الفصح لسنة ٣٤٠م فلم يكتبه البابا أثناسيوس، بل عوضاً عنه أرسل رسالة مختصرة إلى كهنة الإسكندرية حدَّد فيها ميعاد الفصح الذي وقع في هذه السنة في ٤ برمودة. وقد كلَّف القديس سيرابيون بالإعلان عن ميعاد الفصح، وسيرابيون هو أسقف مدينة تمويس أو تِمِيّ (تمي الأمديد الآن)، وهو من تلاميذ القديس أنطونيوس أصلاً. وقد اتخذه أثناسيوس نائباً عنه في أثناء غيابه، فكان له بمثابة اليد اليمنى.

ولسوء حظ غريغوريوس الكبادوكي الأسقف الأريوسي المغتصِب للكرسي أنه تجرَّأ وأجهد نفسه ثم أعلن عن ميعاد الفصح في ٢٧ برمهات، وحدَّد بدء الصوم بناءً على ذلك متقدِّماً أسبوعاً عن ميعاده. وصام بالفعل الأريوسيون قبل ميعاد الصوم بأسبوع كامل. أمَّا الأرثوذكس فتركوهم على عماهم حتى إلى منتصف الصوم، ثم كشفوا لهم عن الخطأ، فأُسقط الأريوسيون في فضيحة، واضطر غريغوريوس أن يصحِّح ميعاد الفصح في منتصف الصوم، فنقله إلى ٤ برمودة. وبذلك صام الأريوسيون في هذه السنة أسبوعاً زائداً. وقد صغرت نفس غريغوريوس بسبب هذه العثرة، فلم يعد يتدخَّل في تحديد ميعاد الفصح بعد ذلك.

تحديد الفصح لسنة ٣٤١م:

لم يرسل البابا أثناسيوس خطاباً فصحياً لهذه السنة، وأغلب الظن أنه كلَّف سيرابيون أسقف تمويس بذلك.

(87) N.P.N.F., vol. IV, pp. 503, 504.

تحديد الفصح لسنة ٣٤٢م:

لم يرسل البابا أثناسيوس خطاباً فصحياً أيضاً، وأغلب الظن أنه كلّف سيرابيون بذلك.

تحديد الفصح لسنة ٣٤٣م:

تمّت الموافقة في مجمع سرديكا وصدر قرار يجعل تحديد الفصح من اختصاص روما والإسكندرية، وذلك لمدة خمسين سنة قادمة. وفي هذه السنة كتب البابا أثناسيوس خطابه الفصحي العام كالمعتاد، وذكر فيه كل ما تمّ في مجمعي روما وسرديكا.

تحديد الفصح لسنة ٣٤٤م:

كتب البابا أثناسيوس رسالة مختصرة من مدينة نيسا (أونايبس) بإقليم الصرب، أعلن فيها الفصح لكهنة مدينة الإسكندرية، ولكن لم يستطع أن يرسل خطابات لبقية الأقاليم.

تحديد الفصح لسنة ٣٤٥م:

كتب البابا أثناسيوس رسالة مختصرة من أكويلا حيث أمضى الفصح هناك، وذلك لكهنة الإسكندرية معلناً ميعاد الفصح، ولكن لم يستطع أن يرسل لبقية الأقاليم.

تحديد الفصح لسنة ٣٤٦م:

أرسل البابا أثناسيوس سطوراً قليلة لكهنة الإسكندرية معلناً عن ميعاد الفصح.

اضطهاد غريغوريوس الكبادوكي لعائلة أثناسيوس:

ويصف لنا القديس أثناسيوس نفسه هذه الحادثة هكذا:

[وغريغوريوس اضطهد عمة الأسقف (يتكلّم عن نفسه) حتى إنه وبعد موتها لم يسمح بدفنها، وكان يمكن أن تُطرح بدون دفن، لولا أن الذين كانوا متولين حمل جسدها قاموا بالواجب، وهكذا أظهر حتى في مثل هذه الأمور سلوكه الرديء.](٨٨)

القديس أنطونيوس يشعر بمسئوليته تجاه الكنيسة في غيبة رئيسها:

ويورد القديس أثناسيوس ضمناً أثناء عرضه لأعمال العنف والجهالة التي قام بها غريغوريوس الأريوسي في الإسكندرية، حادثة تخص القديس أنطونيوس، وقد ذكرها في موضعين: الموضع الأول في تاريخ الأريوسية، والثاني في سيرة حياة أنبا أنطونيوس.

---

(88) *Hist. Arian.* 13.

فيقول البابا أثناسيوس هكذا:

[وكان غريغوريوس يفتخر بالأكثر أنه صديق الحكّام وليس الأساقفة والرهبان، وقد ظهر ذلك لما كتب إليه أبونا أنطونيوس من الجبل، ولكن إذ أن الإلهيات دائماً تكون مكروهة من الخطاة ـ اشمأزّ هذا من خطاب الرجل القديس، أمّا خطابات الإمبراطور أو القائد أو أي ضابط فإنه كان لا يتمالك نفسه من الفرح عندما تأتيه، ويكرِم حامليها ويعطيهم الهدايا. ولكن لّما أرسل إليه أنطونيوس فإنه جعل الدوق بالاكيوس يبصق على الرسالة ويقذفها من يده، ولكن العدل الإلهي لم يتجاوز هذا؛ لأنه بينما الدوق على جواده في طريقه لأول محطة بعد الإسكندرية (وقد ذكرها أثناسيوس بالاسم Chaereau في كتابه عن حياة أنطونيوس، وهي على النيل على بعد مائة ميل من الإسكندرية شرقاً) وإذا بالحصان دار برأسه وعضّه في فخذه وألقاه من على ظهره فمات بعد ثلاثة أيام.][٨٩]

ويضيف أثناسيوس في وصف هذه الحادثة في كتابه "حياة أنطونيوس" هكذا:

[وكان يوجد ضابط كبير (جنرال) يُدعى بالاكيوس، هذا كان يضطهد المسيحيين بشدة بسبب ميله واعتباره الكثير للأريوسيين المكروهي الاسم. ولأن قساوة قلب هذا الرجل كانت كبيرة حتى أنه كان يضرب العذارى (الراهبات) ويجلد الرهبان، كتب إليه أنطونيوس هكذا: "إني أرى غضباً قادماً عليك، فكُفّ عن اضطهاد المسيحيين لئلاً يصادفك الغضب ويتملّك عليك لأنه الآن قد صار قريباً منك".

ولكن بالاكيوس (بالاق) سخر من الرسالة وألقاها على الأرض وبصق عليها وأهان حامليها (من الرهبان طبعاً) قائلاً لهم: قولوا لأنطونيوس **بما أنك تهتم بالرهبان،** فلذلك سوف آتيك حالاً لأتعقّبك أنت أيضاً. ولم يمضِ خمسة أيام حتى وقع عليه غضب الله.][٩٠]

ومن هذا نستدل أن القديس أنطونيوس كان يشعر في غيبة القديس أثناسيوس بمسئوليته الروحية بالنسبة للكنيسة والشعب والعذارى والرهبان، واستطاع أن يؤدِّي دوره في الحدود التي يحتِّم بها طقسه الرهباني، إذ بكل شجاعة روحية وغيرة كنسية كتب ينبِّه وينذر المخالفين لأوامر الله وتقليد الرسل، ولم يعتبر قط سلطانهم أو بطشهم، بل اعتبر فقط واجبه الإلهي الذي تحتِّمه الظروف

(89) Ibid. 14.
(90) *Vita. Ant.* 86.

والمسئولية الروحية، وذلك في غيبة أثناسيوس رئيس الكنيسة والمسئول الأول عنها...

وبحسب التحقيق من واقع التاريخ الفصحي يلزم أن تكون رسالة أنطونيوس لبالاكيوس قد كُتبت في سنة ٣٤٥م. لأنه ذكر فيها اسم الوالي نسطور. وهذا بدأت ولايته في سنة ٣٤٤م. واستمرت حتى سنة ٣٥٢م. ولكن لأن غريغوريوس الكبادوكي الأريوسي قد مات في ٢٦ يونيو سنة ٣٤٥م. والرسالة مذكور فيها اسم غريغوريوس أيضاً، لذلك تحدَّد أن يكون تاريخ الرسالة بين سنة ٣٤٤ـ٣٤٥م.

القديس باخوميوس يرسل وفداً للاستفسار عن حال الكنيسة في غيبة رئيسها:

نقدِّم هنا وثيقة غاية في الدقة تكشف عن مدى اهتمام القديس باخوميوس بحال الكنيسة وهمه وقلقه من جهة الاضطهاد الحاصل عليها، وصلاته ودعائه من أجل عودة القديس أثناسيوس ونصرته. ويلاحَظ في هذا التسجيل التاريخي أنه تمَّ قبل نياحة القديس باخوميوس مباشرة، ومعروف أن القديس باخوميوس تنيَّح في ١٤ بشنس (مايو) سنة ٣٤٦م، أي قبل عودة البابا أثناسيوس بشهور قليلة:

[وفيما بعد رجع الأب زكّاوس وتادرس من الإسكندرية في المركب الصغير، وذلك أنه كان للكنونيون مركبان، الأكبر منهما كان برسم حمل الحصير وبيعها في المدينة (الإسكندرية) (يُلاحَظ هنا أن الحصير الذي يصنعه الرهبان كان يصدَّر إلى الخارج، فكان يُحمل بالمراكب من أقصى الصعيد ليُباع لتجّار الإسكندرية) ونقل ما يحتاجونه من الأمور الضرورية، والمركب الأصغر كان برسم نقل الثياب لكسوتهم وغطائهم وما ضاهى ذلك. ولمّا سلّما على الأب وعلى جماعة الإخوة **قال لهما الأب (باخوميوس): كيف سلامة الكنيسة؟ وذلك لأنه كان حزيناً لأجلها. لأن الأريوسية وزعيمهم غريغوريوس الكافر (البطريرك الدخيل) مثلهم كانوا وقتئذ قد وثبوا على الكنيسة عنوة كاللصوص وأخذوها، وكان الأب يصلّي من أجلها على الدوام، إذ كان في قلبه وَجعاً على شعب الله المظلوم ظلماً بيِّناً، وقد عُدموا راعيهم الأب أثناسيوس رأس الأساقفة الرجل المتوشِّح بالمسيح. فأجابوه قائلين: إن الأمور بعد مضطربة وأحوال الأسقف والبيعة مختلة،** فأجابهما قائلاً: ثقتي بالله الذي تسامح بأن تصير هذه الأشياء لامتحان المؤمنين أنه سينتقم.

ثم قصَّ القديس باخوم عليهما الحزن الصائر له في كنيسة الملاطيين (دعاه الأساقفة الملاطيون إلى كمين داخل كنيسة لهم وأهانوه وضربوه حتى قارب الموت لولا أولاده الذين تكاثروا عليهم وحملوه وهربوا)، وكيف خلَّصه الله من القتل، وشكره لله على الدوام.

وقال: سبيلنا أن نصطبر على كل تجربة توافينا بحماسة نفس وشجاعة قلب، لأن مفاجأة المحن أيًا كانت لا تضرنا بل تنفعنا جدًّا إذا قبلناها بالشكر، لأنها تكون لغسل الذنوب، فأمَّا هؤلاء (الأريوسيون) الفاحصون عن أمورنا، الناكثون العهد معنا، فهم كانوا آباءً وأخوة لنا، وعلى الرأي القديم كانوا مثلنا، فإن كان العدو قد زرع شره في أرضهم الآن، ونفخ في قلوع مركبهم ريحاً مكرهة، واستعملهم أداة لخبثه علينا ومضرَّة بنا، وابتعدوا عن الحق بعداً شاسعاً وعدلوا عن الناموس القويم وجنحوا عن الرأي المستقيم وخرجوا عن السور الحريز السليم، لكن عفو الله وغزير صلاحه يعمنا وإياهم متى طلبناه وعدنا إليه. وأمَّا هذا البابا أثناسيوس الفائق قدسه الذي قد حاربه العدو مدة زمان طويلة، فلسعيد هو حقًّا ويقيناً ولن يستعلي عليه أعداؤه لأن الله حافظه وناصر إيمانه وسيتم فيه المكتوب القائل: "صوت يقوم عليك، ومعونة الرب توافي إليك، تقهر شانئيك وتسود على مَنْ يعاديك".](٩١)

ومن هذا السرد التاريخي المبدع يتكشف لنا كيف كان حال الكنيسة مضطرباً والأمور مختلة بسبب غيبة البابا أثناسيوس هذه المدة الطويلة. لأن هذا الكلام الذي قاله زكاوس وتادرس بخصوص الكنيسة أنها مضطربة ومختلة كان بعد مضي ست سنوات من مغادرة أثناسيوس لمصر.

أمَّا بعثة باخوميوس هذه التي كانت بقيادة زكاوس وتادرس وهما أفضل رهبان أنبا باخوميوس وقتئذ، فكان لها قيمتها في الإسكندرية في وسط هذه المحن، لأنه يبدو أنها كانت بمثابة شهادة عن لسان باخوميوس وكافة الرهبان الباخوميين بخصوص الإيمان القويم وعدم الانحياز للميليتيين أو الأريوسيين. وقد لمَّح القديس باخوميوس عن قيمة كل من المحنة التي أصابته من الميليتيين وهذه البعثة باعتبار أنها شهادة صادرة منه شخصياً. وذلك واضح من كلامه عندما استطرد بعد الكلام السالف قائلاً:

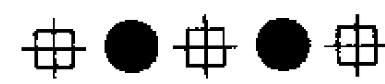
[وبعد ذلك قال أبونا باخوميوس لتادرس: **هوذا قد كمل اعتراف الشهادة التي قيل لي عنها (من قبل الرب) أنه قد بقي لك شهادة قليلة من قبل أن يفتقدك الرب. والآن على ما قد كان، فأنا أظن أن يوم افتقادي قد قرب.** ومن بعد عيد الفصح المقدَّس (وقع في هذه السنة في ٤ برمودة) أطلق الله مرضاً في الإخوة عامة، ومرض في كل دير من الأديرة زهاء مائة أخ وأكثر، وكان الأب باخوميوس من جملتهم وساءت حالته... وأسلم روحه الطاهرة في الرابع

(٩١) سيرة باخوميوس (مطبوعة)، صفحة ١٣٧و١٣٨. ويُلاحَظ أن الناسخ يضيف من عنده جملة في آخر الكلام فيقول إنه: (كذلك صار، وعاد أثناسيوس الباباس بمجد ووقار). وهذه الجملة لم يقلها باخوميوس لأن باخوميوس مات قبل أن يعود أثناسيوس.

عشر من بشنس سنة ٣٥٨م (وصحتها سنة ٣٤٦م)[٩٢]. (بعد عيد الفصح بأربعين يوماً أي ربما في عيد الصعود). وكان له من العمر سبعة وثمانون سنة وله منذ دخوله الرهبنة ٦٤ سنة.][٩٣]

ملاحظة هامة:

لم يرد في الأخبار التي أوردها زكاوس وتادرس عن أمور البيعة في الإسكندرية أي إشارة عن موت غريغوريوس الكبادوكي الأسقف الدخيل الذي مات في ٢ أبيب - ٢٦ يونيو سنة ٣٤٥م. مما يرجِّح أن موت غريغوريوس حدث بعد رحيلهم. وهذا يجعل تاريخ هذه الرحلة تتقدَّم سنة كاملة عن ميعادها، فتكون سنة ٣٤٥م. وكذلك يلزم أن تكون نياحة باخوميوس قد تمَّت في هذه السنة أي في بشنس سنة ٣٤٥م. لأنه تنيَّح بعد عودة زكاوس وتادرس من رحلة الإسكندرية مباشرة، وهذا هو الأرجح، ويكون باخوميوس بذلك قد تنيَّح قبل عودة أثناسيوس بسنة كاملة. ويشترك معي في هذا التعديل المؤرِّخ الألماني كروجر[٩٤] إنما على إثباتات أخرى.



انتهى صيف سنة ٣٣٩م[٩٥]، ويوليوس أسقف روما والبابا أثناسيوس ينتظران عبثاً أي رد أو خبر من يوسابيوس وجماعة الأريوسيين بخصوص استجابتهم لحضور مجمع روما، الذي سبق وأن دعاهم إليه على يد رسوليه هلبيذيوس وفيلوكسينوس، بل وقد أظهر هؤلاء الأريوسيون خبثهم وتحديهم ليوليوس أسقف روما، عندما احتجزوا هذين الكاهنين الرومانيين حتى إلى يناير، كما يتضح من خطاب يوليوس نفسه، وذلك بقصد أن يفوِّتوا على يوليوس الميعاد (ديسمبر) الذي حدَّده لعقد المجمع، وبذلك تأجَّل ميعاد المجمع إلى خريف سنة ٣٤٠م كما هو وارد في خطاب يوليوس أيضاً.

وعاد مارتيريوس وحزقيوس في أوائل الربيع بخطاب من أساقفة الشرق وبه توقيعات القادة اليوسابيين الذين اجتمعوا في أنطاكية في يناير سنة ٣٤٠م. أمَّا لهجة الخطاب فكانت تنم عن المشاكسة. فقد عنَّفوا يوليوس بشدة على قبوله أثناسيوس في الشركة ولاموه على لهجة خطابه التي

---

(92) Quasten, *Patrol*. III, p. 154.

(٩٣) سيرة أنبا باخوميوس، مطبوع صفحة ١٣٨و١٣٩.

(94) Kruger, *Theolog. Lizg*., 1890. p. 600.

(٩٥) يوليوس أرسل هلبيذيوس وفيلوكسينوس في بداية الصيف (مايو).

بدت لهم على مستوى مَنْ يكتب باعتباره كأنه أكبر منهم، وأنه كتب لدعوة بعض الأساقفة بصفته الشخصية، وأنه حصر الدعوة في شخص يوسابيوس فقط.

ولشدة لهجة الخطاب وخروجه عن اللياقة احتفظ به يوليوس سرًّا مترجياً فوق ما يمكن أن يُرجى، لعل بعضاً منهم يحضر إلى روما وحينئذ يمكن أن يحفظ الخطاب نهائياً ولا يُعرض ولا يُقرأ لئلاَّ يثير حفيظة الآخرين، ولكن عبثاً كان يوليوس يترجَّى في أشخاص تعاهدوا مع الحقد واتخذوا العنف والمراوغة أسلوباً للحياة!!

وقد اجتمع مجمع روما في خريف سنة ٣٤٠م. وكلَّف يوليوس أسقف روما بكتابة خطاب ردًّا على الخطاب المشاكس الذي أرسله يوسابيوس وجماعته، فتولَّى يوليوس كتابة الخطاب التاريخي الذي فنَّد فيه كل ادعاءاتهم. وكما يقول أحد المؤرِّخين إن يوليوس شرَّح فيه خطاب يوسابيوس تشريحاً، إنما برزانة ووقار يثيران الإعجاب حقًّا، فبالرغم من الحدة الظاهرة فيه إلاَّ أن روح المحبة لم تخونه قط ولا المنطق السليم!! بل يكاد الإنسان أن يقول إن طابع السياسة والرسميات فيه لم يؤثِّر إطلاقاً في روح الاتضاع التي أمْلته ونمَّقته.

وسوف نقدِّم ترجمة كاملة لهذا الخطاب الذي يعتبر من أهم الوثائق التي كُتبت لنصرة أثناسيوس وبقيت بحرفيتها وطلاوتها كما كُتبت. ويُلاحَظ أن يوليوس قَبِلَ أثناسيوس، حال وصوله إلى روما، في الشركة معه، وانعكف البابا الإسكندري على ممارسة الخدمة والصلاة في الكنيسة، ولمَّا انعقد المجمع صادق على قبول أثناسيوس في الشركة.

مجمع روما
خريف سنة ٣٤٠م

وأخيراً، وبعد ١٨ شهراً من وصول أثناسيوس إلى روما، انعقد المجمع، وهذا علمناه من خطاب يوليوس إلى يوسابيوس وجماعته:

[وقد ظل أثناسيوس مقيماً هنا سنة وستة شهور مترقباً وصولكم ومَنْ تختارونه للمجيء معكم. وبحضوره إلى هنا قد وضع كل إنسان موضع الخجل، لأنه لا يمكن أن يحضر بنفسه إلى هنا إلاَّ لكونه واثقاً من قضيته! ولكنه أيضاً لم يأتِ من ذاته وإنما بدعوة منا في خطاب كما سبق وكتبت إليكم.](٩٦)

لأنه لمَّا أُعيي يوليوس من الانتظار بغير جدوى، قام بدعوة أساقفة كل إيطاليا إلى المجمع، فاجتمع أكثر من خمسين أسقفاً(٩٧).

وطُرحت قضية أثناسيوس أمام الأساقفة بكل الاتهامات، القديم منها والحديث، موضوع الكأس المكسور، وإسخيراس المُهان، والأسقف أرسانيوس المقتول كذباً وهو حيٌّ، واللجنة المربوطية لتقصِّي الحقائق، المتحيِّزة، التي حقَّقت ولفَّقت مع طرف واحد دون الآخر، واستخدمت السيوف المسلولة لإرهاب الشهود، وكذلك أعمال مجمع صور التهريجية وأحكامه الباطلة. ولم يجد المجلس أية صعوبة في فحص هذه الاتهامات بدقة قضائية تامة وتبرئة أثناسيوس من جميعها!

ثم عرض المجمع لعدم قانونية تعيين غريغوريوس الكبادوكي على كرسي الإسكندرية، واعتبروا هذا التعيين انتهاكاً لقانون مجمع نيقية ونقضاً لأحكامه. ثم برَّأ المجمع جميع الأساقفة الذين نفاهم الأريوسيون باعتبارهم أبرياءً من كافة التهم، وأعادهم إلى الشركة بكامل كرامتهم.

وإليك بعض التعليقات على مجمع روما بقلم أثناسيوس:

[فلما ذهبت إلى روما، وكتب يوليوس إلى يوسابيوس وأتباعه كما هو متَّبع، وأرسل أيضاً

(96) *Apolog. Contra Ar.* 29.
(97) Ibid. I.

اثنين من كهنته هلبيذيوس وفيلوكسينوس. فهؤلاء (اليوسابيون) لَمَّا سمعوا بخبر وصولي إلى روما وقعوا في حيرة وارتباك لأنهم لم يكونوا يتوقَّعون ذهابي إلى روما، فاستعفوا رافضين المجيء إلى هذا المجمع، وأعطوا أعذاراً واهية لامتناعهم؛ ولكنهم في الحقيقة كانوا خائفين لئلاً تدور الأمور عليهم، وهذا بالضبط ما اعترف به أورساكيوس وفالنس(٩٨).

وبالرغم من ذلك، اجتمع أكثر من خمسين أسقفاً في روما في الكنيسة التي تُدعى كنيسة "الكاهن فيتو"، وتولُّوا الدفاع عني وأعطوني التأييد، تأييد الشركة معهم وتأييد المحبة.

ومن الناحية الأخرى أفصح المجمع عن سخط بالغ تجاه يوسابيوس وأتباعه.

وترجَّى المجلس يوليوس لكي يكتب خطابات لكل الذين كتبوا إليه لتكون قرارات المجمع معروفة ونافذة المفعول - وقد كتب يوليوس ذلك بالفعل بناءً على توصيات المجمع وأرسل الخطابات بيد الكونت جابيانوس].

وإليك أيها القارئ، نصاً لخطاب(٩٩) يوليوس أسقف روما الذي كتبه بناءً على توصيات مجمع روما:

[يوليوس يهدي التمنيات بالعافية في الرب، إلى الإخوة الأعزاء المحبوبين دانيوس، فلاسيللوس، نارسيسوس، يوسابيوس، ماريس، ماكدونيوس، ثيئوذوروس وكل أصدقائهم الذين سبقوا وكتبوا إليَّ من أنطاكية.

لقد قرأت خطابكم الذي بعثتم به إليَّ مع كاهنيَّ هلبيذيوس وفيلوكسينوس، ودُهشت لَمَّا وجدت أنه بينما كتبت أنا إليكم بمحبة وإعزاز صادق، رددتم أنتم بغير لياقة وبأسلوب الخصام، حتى إن كبرياء وعجرفة الكاتب تُطلُّ من الخطاب بوضوح. ولكن مثل هذه المشاعر لا تتناسب مع الإيمان المسيحي؛ لأن ما كُتب بأسلوب المحبة ينبغي بالمثل أن يُجاب عليه بالمحبة وليس بالخصام؟

ثم ألم يكن دليلاً لمحبتي أني أرسلت كهنتي للمتألمين (أثناسيوس) تعاطفاً معهم، وللذين كتبوا إليَّ (يوسابيوس وجماعته) أدعوهم للمجيء إلى هنا؟ حتى يتسنَّى طرح المواضيع المعلَّقة لنأخذ حلها سريعاً، وتُرتَّب كل الأمور بلياقة، وحينئذ لا يتعرَّض إخوة لنا لمزيد من الألم،

(98) *Apol. contra Ar.* 56.

(٩٩) لقد حذفنا بعض السطور القليلة التي يعمد فيها يوليوس إلى التكرار كما حذفنا فقرة من الخطاب لا تخص أثناسيوس.

وتُعتَقوا أنتم من الشكايات في حقكم؟

ولكن يبدو أن هذا شيء في طبعكم مما دفعنا أن نستخلص حتى من محاولاتكم للظهور بالإطراء علينا ـ شعوراً خفياً بالتهكم والاستخفاف لا تزال ترزح تحته نفوسكم، كما أفصَحَت عنه عباراتكم.

وحتى الكاهنان اللذان أرسلناهما إليكم، بينما كان ينبغي أن يعودا مسرورين، عادا مغمومين مما لقياه من معاملتكم.

وأنا نفسي لمَّا قرأت خطابكم تفكَّرت طويلاً ثم احتفظت به لنفسي، ظناً مني أنه بعد هذا كله ربما يحضر بعض منكم، وحينئذ لا تعود هناك ضرورة أن يظهر هذا الخطاب لئلاَّ إذا عُرض على المكشوف فإنه حتماً سيتسبب في تكدير الكثير من إخوتنا.

ولكن لمَّا لم يحضر أحدٌ أصبح من المحتم أن يُعلَن الخطاب، وأصارحكم أن الكل اندهشوا ولم يستطيعوا أن يصدِّقوا قط أنكم أنتم الذين كتبتم هذا الخطاب، لأنه يعبِّر عن خصام وليس عن محبة.

والآن إن كان كاتب هذا الخطاب أراد أن يستعرض قدراته في اللغة، فهذه المهارات تتناسب بالتأكيد مع مواضيع أخرى. أمَّا الأمور الكنسية فهي ليست ميداناً للبلاغة، وإنما تحتاج بالحقيقة إلى مراعاة القوانين الرسولية والحذر منتهى الحذر أن لا يحدث منها عثرة لأحد من الصغار في الكنيسة. لأنه بحسب الكلمة التي تتمسك بها الكنيسة: «خيرٌ للرجل أن يُعلَّق في عنقه حجر رَحَى ويُلقى في البحر من أن يُعثر أحد هؤلاء الصغار».

ولكن إن كان مثل هذا الخطاب قد كُتب بسبب أن بعض الأشخاص منكم ـ ولا أقول كلكم ـ قد تكدَّر بسبب صغر نفسه تجاه أحد آخر، فكان من الأفضل أن لا يستسلم بأي حال من الأحوال لمثل هذه المشاعر التي تنم عن الغضب، وبالأقل لا يجعل الشمس تغرب على غيظه، وبالتأكيد لا يعطيها مكاناً يستعرضها فيه كتابة!!؟

ولكن ما الذي حدث هكذا ليكون سبباً في الغضب؟ أو بأي كيفية يمكن أن يكون خطابي إليكم قد تسبب في هذا؟ ألأني دعوتكم لتحضروا مجمعاً؟ وأيضاً وعند هذا كان ينبغي أن تتقبَّلوا الدعوة بسرور! فالذين لهم ثقة بأعمالهم ـ أو كما يسمونها ـ قراراتهم، لا

يلزمهم أن يغضبوا إن هم طُلب إليهم أن تُفحص قراراتهم هذه عند الآخرين، بل بالحري تكون لديهم الشجاعة على هذا، لأنهم يرون أن قراراتهم إنما صاغوها بالعدل، ولا يمكن أن يؤول فحصها إلى العكس!

وغير خافٍ عليكم أن الأساقفة الذين اجتمعوا في المجمع الكبير بنيقية، اتفقوا ـ ليس بدون مشيئة الله ـ أن قرارات أي مجمع ينبغي أن تُفحص أولاً عند اجتماع أي مجمعٍ آخر، وذلك لغاية هي أن تكون الأحكام التي عُمل بها أمام أعينهم باستمرار، حتى عندما تُعرض أية قضية لاحقة يكون فحصها بمنتهى الحذر، ويصبح الطرفان المختصان بها مقتنعين أن الحكم الذي يتلقيانه إنما يكون صادراً عن عدالة وليس عن عداوة يحملها القضاة لهم. فالآن إن كنتم غير راغبين أن تُجرى الأمور هكذا في قضيتكم، مع أنها أمور ثابتة منذ القدم وروعيت وامتُدِحَت في مجمع نيقية الكبير، فرفضكم هذا غير لائق، لأنه من غير المعقول أن عادة مرعية في الكنيسة وتثبَّتت في مجامع، يمكن لأفراد قلائل أن يلغوها أو يتجاهلوها.

ثم هناك سبب آخر يقطع الفرصة على إمكانية الغضب في هذا الأمر. فالأشخاص الذين أرسلتموهم ومعهم الخطابات، أقصد مكاريوس القس ومرتيريوس وحزقيوس الشماسين، عندما وصلوا هنا ووجدوا أنهم غير قادرين على مواجهة حجج الكهنة الذين أرسلهم أثناسيوس، بل ولأنهم ارتبكوا وانكشفوا من كل جانب، ترجُّوني هم أنفسهم أن أدعو إلى مجمع يضم الجميع معاً، وأن أكتب إلى أثناسيوس أسقف الإسكندرية وإلى يوسابيوس وجماعته حتى تُجرى محاكمة عادلة في حضور كلا الطرفين، حتى يتسنَّى لهم أيضاً أن يبرهنوا على كل التهم التي أُقيمت ضد أثناسيوس.

لأن مرتيريوس وحزقيوس ناقضناهما نحن علناً، وواجههما كهنة أثناسيوس بثقة وثبات عظيم، وإن كنا نريد أن نقول الحق فمرتيريوس وحزقيوس أصابهما الفشل والخذلان الكامل، وهذا مما ساقهما إلى الرغبة في عقد مجمع. ولكن حتى ولو فرضنا أنهما لم يوافقا على عقد مجمع، وكنت أنا وحدي الشخص الذي أقترحه ـ معارضاً في ذلك الذين كتبوا إليَّ ـ ولكن فقط من أجل إخوتنا الذين يشتكون من ظلم وقع عليهم، فهنا أيضاً وفي هذه الحالة يكون اقتراحي معقولاً وعادلاً، وموافقاً للكنيسة وأيضاً حسب مسرَّة الله!

ولكن وإذ طلب مني الأشخاص (مرتيروس وحزقيوس) اللذين وثقتم أنتم فيهما،

وأرسلتموهما (من طرف يوسابيوس وأتباعه)، لكي أدعو الإخوة معاً (في مجمع)، أصبح هذا في الواقع مناقضاً للهجوم الذي أبديتموه عندما دعوتكم، في حين أنه كان ينبغي أن تُظهروا كل الاستعداد للحضور.

وكل هذه الاعتبارات توضِّح أن إظهار هذا الغضب من جهة الأشخاص الذين أرادوا أن يعلنوا استياءهم هو نوع من النزق، أمَّا رفض الآخرين الذين امتنعوا عن حضور المجمع، فهو غير مقبول بل ويثير الشكوك بحسب ظواهره.

وإن كان ـ كما كتبتم ـ أن كل مجمع له قوته التي لا تُنقض، وأن أي شخص صدر ضدَّه حكم بسبب أمر ما يصير مرفوضاً، خصوصاً أن قضيته قد فُحصت بواسطة آخرين، فالآن افحصوا أيها الأحبَّة الأعزاء مَنْ هو الذي يهين قوة المجامع؟ ومَنْ هم الذين استهانوا بأحكام القضاة السابقين؟

وإن كان ليس لنا الآن أن نسأل ونفتِّش فيما يختص بحالة كل واحد، لئلاَّ أبدو كمَنْ يضيِّق الخناق على طرف معيَّن، ولكني أكتفي بهذه الحالة الأخيرة التي حدثت (قبول الأريوسيين في الشركة وتعيين غريغوريوس بدل أثناسيوس) التي كل مَنْ يسمعها يقشعر، فهي تكفي كبرهان يدل على غيرها مما لا أريد أن أخوض فيه.

فالأريوسيون الذين بسبب كفرهم وقعت عليهم أحكام الحرمان من الشركة، بواسطة ألكسندروس المطوَّب الذكر، الأسقف السابق للإسكندرية؛ هؤلاء لم تُمنع شركتهم فقط من الإخوة (الأساقفة) في كل مكان وحسب، ولكن أوقع عليهم الحرمان كل هيئة المجمع الكبير الذي اجتمع في نيقية. لأن الذنب الذي اقترفوه لم يكن ذنباً عادياً، ولا هم أخطأوا في حق إنسان، بل ضد ربنا يسوع المسيح نفسه ابن الله الحي. ولكن بالرغم من هذا، فإن هؤلاء الأشخاص الذين صادرهم كل العالم وصاروا وصمة عار في كل كنيسة، يُقال الآن أنهم قبلوهم في الشركة ثانية؟ هذا أمرٌ ما أظنكم تطيقون سماعه بغير سخط (المؤرِّخ: هيهات يا أسقف روما الطيب! فهم أريوسيون دماً ولحماً)! فمن من الطرفين إذن الذي يهين قوة المجمع؟ أليسوا أُولئك الذين ألغوا أصوات الثلاثمائة والثمانية عشر (٣١٨ عضواً في مجمع نيقية) وقدَّموا الكفر على التقوى؟

إن هرطقة أريوس المجنون قد أُدينت وحُكم عليها ورُفضت من كل هيئة الأساقفة في كل

مكان، أمَّا الأسقفان أثناسيوس ومارسيللوس فلا يزال لهما أنصار كثيرون يدعمونهما قولاً وكتابة!! ... وفيما يختص بأثناسيوس، ففي "**صور**" لم يثبت عليه شيء قط؛ وفي "**مريوط**" حيث قيل إن التقارير كُتبت هناك ضدَّه، لم يكن هو حاضراً، وأنتم تعلمون أيها الأحبة الأعزاء أن الإجراءات التي تتم من طرف واحد ليس لها أي وزن أو اعتبار (في القضاء) بل تحمل في ذاتها صورة الشك ضدَّها!!

وعلى أي حال والأمور كما هي، فلكي نكون مدقِّقين وغير متحيزين لصفِّكم ولا للطرف الآخر، كتبنا ندعو هذا وذاك حتى تُفحص الأمور كلها في مجمع، حتى لا يُدان البريء ولا يُبرَّأ المُدان. فنحن إذن لسنا الطرف الذي يستهين بالمجمع بل هم الذين فجأة وبلا تعقُّل، قبلوا الأريوسيين الذين أُدينوا إدانة جماعية. وهذا كان تحدياً لقرارات القضاة. وإن كان الجزء الأعظم من هؤلاء القضاة قد رحلوا وصاروا مع المسيح إلاَّ أن بعضهم لا يزال يعيش في حياة التجارب ساخطين على الذين استهانوا بأحكامهم.

كما أن الأمور التي حدثت بعد ذلك في الإسكندرية أخبرنا بها رجل يُدعى "كاربونس"، كان قد قُطع من الشركة بواسطة ألكسندر بسبب الأريوسية، أرسله غريغوريوس مع آخرين محرومين أيضاً من الشركة بسبب نفس الهرطقة، على أني علمت أيضاً بالموضوع من الكاهن مكاريوس والشماسين مرتيريوس وحزقيوس. هؤلاء - وقبل أن يحضر كهنة أثناسيوس - استحثوني أن أرسل خطابات لواحد يُدعى بستوس في الإسكندرية، مع أنه في نفس الوقت كان الأسقف أثناسيوس هناك. فلمَّا حضر كهنة أثناسيوس الأسقف، أخبروني أن بستوس أريوسي وأنه مقطوع من الشركة بواسطة الأسقف ألكسندروس ومن مجمع نيقية أيضاً، وأنه رُسم بعد ذلك بواسطة واحد يُدعى سكوندوس، كان المجمع الكبير قد قطعه من الشركة لكونه أريوسياً أيضاً، هذه الحقيقة لم يستطع مرتيريوس وزملاؤه أن يناقضوها، ولا استطاعوا أن ينكروا أن بستوس أخذ رسامته من سكوندوس.

الآن وبعد هذا، انظروا مَنْ يكون هو المُلام بالعدل، هل أنا الذي لم يستطيعوا أن يحملوني على الكتابة لبستوس الأريوسي، أم هؤلاء الذين قدَّموا لي نصيحة لكي أُهين المجمع الكبير فأخاطب الكفرة وكأنهم أتقياء؟

ثم وأكثر من هذا، لمَّا سمع مكاريوس القس الذي أرسله يوسابيوس إلى هنا مع مرتيريوس

والباقين بالمقاومة التي أبداها كهنة أثناسيوس، انصرف ليلاً بالرغم من مرضه، مع أننا كنا نتوقّع ظهوره (في الصباح) مع مرتيريوس وحزقيوس مما جعلنا نعتقد أن رحيله كان بسبب الخجل الذي أصابه بسبب افتضاح أمر بستوس. لأنه مستحيل أن تُقبل الرسامة التي أجراها سكوندوس الأريوسي من وجهة نظر الكنيسة الجامعة، لأن هذا يُحسب امتهاناً للمجمع وللأساقفة الذين عقدوه. إن كانت القرارات التي صاغوها في حضرة الله باجتهاد بالغ وعناية، تُنحّى هكذا جانباً كأنها بلا قيمة.

فإن كان – كما كتبتم – أن قرارات كل المجامع يتحتّم أن تكون لها نفس القوة، طبقاً للسابقة التي حدثت في حالة نوفاتيان وبولس السموساطي، فبالأَولى جدًّا أن أحكام الثلاثمائة لا يُعمل بخلافها!! ويقيناً أنه لا يجوز لأفراد قلائل أن يلغوا مجمعاً عاماً! لأن الأريوسيين هراطقة، وقد صدرت ضدّهم الأحكام (كبولس السموساطي ونوفاتيان) هذا مثل ذاك. لذلك وبعد هذه التصرُّفات الجريئة (قبول الأريوسيين في الشركة) مَنْ هو الذي يكون قد أشعل نار الفُرقة؟ لأنكم في خطابكم تلوموننا أننا أشعلنا نار الفُرقة! هل نحن؟ الذين تعاطفنا بكل شعورنا مع آلام الإخوة وتصرفنا في كل شيء بحسب القانون، أم أُولئك الذين بروح الخصام والنزاع وبمخالفة القانون طرحوا جانباً أحكام الثلاثمائة؟ وامتهنوا المجمع من كل ناحية؟ لأن الأريوسيين لم يُقبلوا فقط في الشركة بل وأساقفة منهم أيضاً صار شغلهم الشاغل الانتقال من مكان لمكان (يقصد هنا يوسابيوس الذي انتقل من أسقفية بريتوس إلى نيقوميديا ثم إلى القسطنطينية).

فالآن إن كنتم حقًّا تؤمنون أن كل الأساقفة لهم نفس السلطان بالتساوي، وأنكم لا تعتبرونهم بمقتضى عظم مدنهم – كما تؤكّدون – فكان ينبغي أن الذي استؤمن على مدينة صغيرة أن يبقى في المكان الذي استُودِع إليه، وليس بازدراء للأمانة ينتقل إلى مكان آخر لم يوضع قط تحت سلطانه، محتقراً ما أعطاه له الله وناظراً بالأكثر إلى الاستحسان (المجد) الباطل الذي للناس.

كان ينبغي إذن أيها الأحباء الأعزاء أن تحضروا ولا تتمنّعوا حتى نصل إلى نهاية للموضوع، لأن هذا هو ما يتطلّبه التعقّل. ولكن ربما كان المانع من مجيئكم هو الميعاد الذي كان قد تحدّد لعقد المجمع، لأنكم في خطابكم تَشْكُون أن المدة التي تبقّت بعد تحديد الميعاد

قصيرة جداً؟(١٠٠)

ولكن هذا يا أحباء مجرَّد اعتذار لأن اليوم المحدد لـو كـان اقتطع شيئاً مـن فـترة الرحلـة لكانت الفترة المتبقية تعتبر فعلاً قصيرة. ولكن لأنه كان هناك نية لعدم المجيء ظهـرت بحجـز حتى كهنتي إلى شهر يناير، من هنا أصبح الأمر مجرَّد اعتذار وذلك بسبب عدم الوثـوق مـن قضيتهم ذاتها، وإلاَّ ـ كما سبق وقلـت ـ لكـانوا أسـرعوا في المجـيء، غـير مهتمـين بطـول الرحلة أو بقصرها، إن كانوا واثقين من عدالة ومعقولية قضيتهم.

ثم ربما كان أيضاً المانع من مجيئكم هو الظروف، لأنكم أيضاً تعلنون ذلـك في خطـابكم أنه ينبغي علينا أن نضع في الاعتبار حالة الشرق (بداية حـرب الفـرس)، فكـان الواجـب ألاَّ نستحثكم هكذا للحضور!

ولكن إن كنتم ـ كما تقولون ـ لم تحضروا بسبب هذه الظروف، ألم يكن من الواجـب عليكم أنتم أن تضعوا هذه الظروف في اعتباركم مسبقاً وأن لا تصنعوا هذا الانقسـام وهـذه الأحزان والويلات في الكنائس؟

ولكن، وبما أن الأمر قد وقـع، فالأشـخاص الذيـن تسـبَّبوا في هـذه الأمـور ليـس لهـم أن يلوموا الظروف، بل الملامة تقع عليهم من جهة تصميمهم على رفض حضور المجمع!

وأنا متعجِّب كيف استطعتم أن تكتبوا هذه الفقرة من خطابكم التي تقولون فيها: "إن ما كتبته كتبتـه بمفـردي، وكتبتـه ليـس لجميعكـم وإنمـا ليوسـابيوس وجماعتـه فقـط"؟ إن هـذه الشكوى تكشف عن أن الأمر هو استعداد لالتقاط أخطاء أكثر منـه اعتبـاراً للحـق. فأنـا لم أتلقَّ خطابات ضد أثناسيوس إلاَّ من مرتـيريوس وحزقيـوس وزملائهمـا، فكـان علـيَّ بحكـم الضرورة أن أكتب إلى الذين اشتكوا ضد أثناسيوس. وبناءً عليه، فإمَّا كان علـى يوسـابيوس وزملائه أن لا يكتبوا إليَّ وحدهم من دونكم جميعاً؛ وإمَّا أصبح عليكم أنتم الذين لم أكتـب إليكم أن لا تغضبوا إن كنت كتبت فقط إلى الذين كتبوا إليَّ.

فإذا كنتم ترون أنه كان من الواجب أن أوجِّه خطابي إليكم جميعاً، كان الواجب عليكم أنتم قبلاً أن تكتبوا معهم: فالآن بحسب العقل كتبت إلى الذين كتبوا إليَّ يخبرونني بالأمور.

---

(١٠٠) من بداية الصيف (مايو) حتى بداية الشتاء (ديسمبر).

وإن كنتم تكدَّرتم أيضاً بسبب أني بمفردي كتبت لهم - (أي أن أسقف روما كتب يدعو بصفته الشخصية) - فمن المناسب بالأَولى أن تغضبوا لأنهم كتبوا بمفردهم إليَّ!

ولكن في هذا الأمر أيضاً يا أحباء، يوجد سبب حسن وليس بدون تعقُّل تمَّ هذا، غير أنه يلزم أن تعلموا أنه بالرغم من أني أنا الذي كتبت، إلاَّ أن الآراء التي عرضتها لم تكن لي وحدي بل آراء أساقفة كل إيطاليا وكل النواحي هنا. وفي الواقع أنا الذي لم أجعلهم يكتبون جميعاً، لئلاَّ يرى الآخرون أن المزيد من القوة هي في العدد.

وعلى أي حال فقد اجتمع جميع الأساقفة في اليوم المحدَّد واتفقوا على هذه الآراء التي كتبتها بالتالي إليكم لأخبركم بها؛ وهكذا أيها الأحباء الأعزاء، فبالرغم من أني كتبت بمفردي إلاَّ أنه يلزم أن تتأكَّدوا أن هذا هو رأي الكل، وأي اعتذارات أكثر من هذا تصبح بلا أي معنى بل وضد العدل وتثير الشك الذي يزعمه بعضكم بسلوكه.

والآن وإن كان ما قلناه يكفي للتدليل على أننا لم نقبل أخوينا أثناسيوس ومرسيللوس، لا باستعجال ولا كأنه بغير وجه حق، غير أننا نجد من اللائق أن نعرض الأمر أمامكم باختصار:

كان يوسابيوس وأتباعه قد كتبوا في السابق ضد أثناسيوس وجماعته كما كتبتم أنتم الآن بعد ذلك، ولكن عدداً كبيراً من أساقفة مصر (مائة أسقف) والأقاليم الأخرى كتبوا لصالحه.

أمَّا من جهة ما كتبتموه أنتم من خطابات ضد أثناسيوس، فهو أولاً يتعارض بعضه مع بعض، وثانياً إن ما كتبتموه في البداية لا يتفق مع ما كتبتموه أخيراً، بل وفي كثير من النقاط نجد أن الكتابات الأخيرة ترد على الكتابات الأُولى، والكتابات الأُولى توقع الكتابات الأخيرة في الاتهام! فهنا تعارض حادث في الخطابات ولا يوجد فيها أي إثبات يبرهن على صدق الوقائع المذكورة. لذلك وبالتالي إن كنتم تريدون أن نصدِّق ما كتبتموه ضد أثناسيوس، فهذا إنما يتفق مع حقنا أن لا نرفض تصديق ما كتبه الآخرون لصالح أثناسيوس أيضاً! وبالأخص إذا أخذنا في الاعتبار أنكم تكتبون عن الأمور من بعيد، وأمَّا هم فيكتبون من نفس الموقع، وأنهم عارفون بأثناسيوس وكل الحوادث الحادثة عندهم ومختبرون لسلوك هذا الإنسان يؤكِّدون بإيجابية أنه كان فريسة للادعاءات والأكاذيب على طول المدى.

فمثلاً قيل في أول الأمر أن أسقفاً يُدعى أرسانيوس قد أنهى أثناسيوس على حياته. ولكننا علمنا أخيراً أنه حيٌّ، وليس هذا فقط، بل وإنه على حُسْن علاقة وصداقة مع أثناسيوس!

كذلك يؤكّد أثناسيوس أيضاً أن التقارير التي كُتبت في مريوط كانت من طرف واحد فقط، لأنه لا الكاهن مكاريوس كان موجوداً، وهو الطرف المتهم، ولا أسقفه نفسه أي أثناسيوس، هذا علمناه ليس من فم أثناسيوس نفسه فقط بل ومن التقارير التي حملها إلينا مرتيريوس وحزقيوس، إذ لمّا قرأناها وجدنا أن إسخيراس صاحب الاتهام كان حاضراً هناك، أمّا مكاريوس وأثناسيوس فلم يكونا حاضرين، وحتى لمّا أراد كهنة أثناسيوس أن يرافقوهم لم يُسمح لهم! فالآن أيها الأحباء إذا كان التحقيق أُريد له أن يسير بأمانة، كان يستلزم أن لا يكون صاحب الاتهام حاضراً وحده، ولكن كان يستدعي حتماً وبالضرورة أن يكون المتهم حاضراً أيضاً، خصوصاً وأن كلا الطرفين مكاريوس وإسخيراس كانا في "صور" معاً قبل التحقيق، فكان يلزم أن لا يذهب صاحب الاتهام وحده إلى المريوطيين بل ومعه المتهم أيضاً، حتى إمّا تثبت التهمة عليه شخصياً وهو موجود، وإلاّ في حالة عدم ثبوت التهمة عليه يكون له الحق في إثبات بطلان الاتهام!

فالآن وإذ لم يكن سير الأمور كذلك، بل ذهب صاحب الاتهام وحده هناك، يرافقه جماعة طعن أثناسيوس في لياقتهم، أصبحت الإجراءات بحسب الشكل متلبّسة بالشك! ...

هذا وقد اشتكى أثناسيوس من جهة الأشخاص الذين اُختيروا للذهاب إلى المريوطيين أنهم ذهبوا ضد رغبته، لأن ثيئوجونيوس وماريس وثيئوذوروس وأورساكيوس وفالنس ومكدونيوس الذين أُرسلوا، هم أصحاب سلوك مشكوك فيه، وهذا أوضحه ليس بتأكيدات من عنده فقط ولكن من خطاب ألكسندر الذي كان أسقفاً على تسالونيكي، الذي أرسل خطاباً إلى ديونيسيوس الكونت الذي تعيَّن لرئاسة المجمع، والذي فيه أوضح بكل بيان أن هناك مؤامرة تُدبَّر على قدم وساق ضد أثناسيوس.

وقد قدَّم لنا أثناسيوس أيضاً وثيقة أصيلة، كلها بخط يد صاحب الاتهام إسخيراس نفسه، التي فيها يستشهد الله العظيم على نفسه أنه ليس هناك أي كأس كُسر ولا مائدة قُلبت، ولكن الحقيقة أن بعض الأشخاص حرَّضوه ليخترع هذه الاتهامات. والأكثر من ذلك أنه عندما وصل كهنة المريوطيين، هؤلاء أكّدوا بالفعل أن إسخيراس لم يكن كاهناً في الكنيسة الجامعة، وأن مكاريوس الكاهن لم يقترف مثل هذه الإساءة التي اتهموه بها. وكذلك فإن الكهنة والشمامسة الذين حضروا إلينا شهدوا بتحقيق كامل في صالح أثناسيوس مؤكّدين بإصرار أن شيئاً من كل هذه الأمور التي أقاموها ضد أثناسيوس لم يكن صحيحاً أو صادقاً،

ولكنه كان فريسة المؤامرات.

أمَّا بخصوص موضوع رسامة أثناسيوس، فكل أساقفة مصر وليبيا كتبوا خطاباً (إلى الأساقفة في جميع أنحاء العالم) محتجين على هذا الادِّعاء موضِّحين أن رسامة أثناسيوس كانت قانونية وبمقتضى الأصول الكنسية الدقيقة، وأن كل ادعاءاتكم ضدَّه كانت باطلة، فلا قتل اقتُرف ولا أيِّ كأس كُسر، بل كل هذا محض افتراء. وقد أوضح لنا أثناسيوس من التحقيقات التي تمَّت من طرف واحد، وكُتبت في مريوط، أن أحد الموعوظين بسؤاله قال إنه كان موجوداً مع إسخيراس أثناء اقتحام مكاريوس الذي أرسله أثناسيوس للمكان! وآخرون بسؤالهم قال أحدهم إن إسخيراس كان موجوداً في غرفة صغيرة، والآخر قال إنه كان راقداً خلف الباب إذ كان مريضاً في هذا الوقت، أي عند مجيء مكاريوس هناك.

فمن هذه المحاضر المتعلِّقة به تسوقنا مجريات الحوادث لهذا السؤال: كيف يتسنَّى لرجل مريض راقد خلف الباب أن يقوم ويقود الخدمة والتقدمة؟ ثم كيف يمكن أن تكون هناك صعيدة تُقدَّم في وجود موعوظين؟ لأنه إذا كان هناك موعوظون حاضرون، فهذا يعني أنه لم يكن وقت تقدمة صعيدة.

هذه التوضيحات أوضحها لنا الأسقف أثناسيوس كما سبق وقلت، الذي أوضح لنا من هذه التقارير أيضاً التأكيدات بأن إسخيراس لم يكن كاهناً في الكنيسة الجامعة إطلاقاً، ولم يظهر قط ككاهن وسط اجتماعات الكنيسة. لأن إسخيراس هذا لم يأتِ ذكر اسمه بين قسوس ميليتيوس المعزولين، حتى بين الكشوف التي تسجَّلت بأسماء الميليتيين المنشقين الذين سمح لهم ألكسندر بالعودة بناء على صفح المجمع الكبير عنهم. وهذا بحد ذاته يعتبر أقوى حجة على كون إسخيراس ليس كاهناً حتى بين الميليتيين وإلاَّ كان ذكر اسمه معهم.

وبجوار هذا قد أوضح أثناسيوس أن إسخيراس اتخذ الكذب وسيلة له في نواحٍ أخرى، فقد ادَّعى أيضاً أن بعض الكتب أُحرقت عندما اقتحم مكاريوس المكان - كما يقولون - ولكنه أُفحم بواسطة نفس الشهود الذين استحضرهم هو ليشهدوا له، الذين أثبتوا عليه الكذب.

والآن لمَّا تكشَّفت لنا هذه الأمور وظهر شهود كثيرون في صالحنا (أي أثناسيوس)، كما أثبت هو براءته أكثر فأكثر، فما الذي كان ينبغي علينا أن نعمله؟ وما الذي كان يتطلَّبه منا قانون الكنيسة إلاَّ أن نبرِّئه وبالأكثر نقبله ونعامله كأسقف كما عملنا؟

وأكثر من هذا، وبعد هذا كله، ها هو لا يزال مقيماً هنا سنة وستة أشهر مترقباً وصولكم وكل مَنْ تختارونه للمجيء، وبحضوره هذا يكون قد وضع كل واحد موضع الخجل لأنه كان لا يمكن أن يحضر إذا لم يكن واثقاً من قضيته، **على أنه لم يأتِ من نفسه بل بدعوة منا في خطاب، كما كتبنا إليكم**، ثم بعد ذلك كله لا زلتم تتذمَّرون أننا تعدينا القوانين.

والآن انظروا مَنْ يكون منا الذي تعدَّى القوانين؟ هل نحن الذين قبلنا هذا الإنسان بناءً على برهان براءته الواضح، أم أُولئك الذين وهم في أنطاكية على بعد ٣٦ محطاً يعيِّنون رجلاً غريباً ليكون أسقفاً ويرسلونه إلى الإسكندرية بقوة عسكرية، الأمر الذي لم يحدث حتى عندما أرادوا أن ينفوا أثناسيوس إلى بلاد الغال، وهم لم يصنعوا ذلك آنئذ لأنه لم تثبت إدانته في شيء، لذلك لمَّا عاد وجد بطبيعة الحال كرسي كنيسته في انتظاره لم يشغله أحد.

وإلى الآن أنا لا أفهم تحت أي بند أو علة يمكن أن نضع هذه التصرُّفات التي حدثت؟

ففي المقام الأول - إن كان يلزم أن نتكلَّم الحق - لم يكن من الصواب عندما كتبنا ندعو لعقد المجمع أن يشترك أي شخص في قراراته، وبالتالي لم يكن من المناسب أن مثل هذه التصرُّفات غير العادية تُنسب أصلاً للكنيسة. لأنه أي قانون في الكنيسة أو أي تقليد رسولي يُجيز هذا: أن تكون كنيسة كالإسكندرية في سلام وأساقفة كثيرون في اتحاد مع أسقفها أثناسيوس، ثم يرسَل إلى مدينتهم رجل مثل غريغوريوس، غريبٌ عن المدينة لم يعتمد فيها، غير معروف لديهم، لم يطلبه لا كهنة المدينة ولا أساقفتها ولا علمانيوها، يختارونه في أنطاكية ليرسَل إلى الإسكندرية، يرافقه لا كهنة ولا شمامسة من الإسكندرية ولا أساقفة من مصر ولكن عساكر؟ هكذا أخبرونا الذين حضروا إلينا مشتكين مما حدث!!

وحتى ولو فرضنا أن أثناسيوس كان قد وُضع في موضع الاتهام كمجرم بواسطة المجمع، فهذا التعيين الذي حدث (تعيين غريغوريوس) ليس صحيحاً أيضاً ولا ينبغي أن يكون، لأنه غير جائز شرعاً وضد القانون الكنسي، لأن أساقفة الكنيسة ذاتها هم الذين ينبغي أن يرسموا واحداً على هذه الكنيسة نفسها من نفس كهنتها ومن ذات الإكليروس الذي للكنيسة، وهكذا لا تُطرح جانباً القوانين المسلَّمة من الرسل.

وأنا أسأل لو كانت هذه الإساءة قد اقترفت ضدّ أي واحد فيكم، أما كنتم تتعجَّبون منها وتستنكرونها مطالبين بالعدالة ضد مرتكبي هذا التعدِّي على القوانين؟

أيها الأحباء الأعزاء، نحن نتكلّم بالصدق أمام الله معلنين أن هذا الإجراء لا هو ديني ولا قانوني ولا كنسي!

ثم أيضاً إن التقارير التي وردت بخصوص سلوك غريغوريوس أثناء دخوله المدينة تُظهر بوضوح الدوافع الأخلاقية وراء تعيينه. فبينما الوقت وقت سلام كما أخبرنا الذين أتوا من الإسكندرية، وأيضاً كما وصف الأساقفة الحال في خطابهم، وإذا بالنار تشتعل في الكنيسة، والعذارى يتعرين، والرهبان يُداسون تحت الأقدام، والكهنة وكثير من الشعب يُجلَدون ويُعذَّبون، والأساقفة يُطرحون في السجن(١٠١)، وجماعات من الشعب ينقَلون من مكان لمكان، والأسرار المقدَّسة ـ التي اتهموا مكاريوس سابقاً بخصوصها ـ اختطفها الوثنيون وألقوها على الأرض. وهذا كله ليجبروا بعض الناس على قبول غريغوريوس. أليس مثل هذا السلوك يُظهر بوضوح حقيقة أُولئك الناس الذي يتعدَّون القوانين؟

لأنه لو كان هذا التعيين (تعيين غريغوريوس) قانونياً لما احتاج غريغوريوس إلى استخدام أعمال غير قانونية ليجبر هؤلاء على الخضوع له، الذين يقاومونه بمقتضى القانون! وأنتم وبالرغم من كل هذا الذي حدث تكتبون قائلين إن كل شيء هادئ في الإسكندرية والسلام يعمُّ مصر. والحقيقة تماماً عكس ذلك، إلاَّ إذا كان السلام قد تغيَّر معناه كلية عندكم وصار عكس ما هو، حتى إنكم تدعون هذه الأعمال سلاماً؟ ...

(نقتطع هنا من خطاب يوليوس بعض السطور الخاصة بموضوع الأسقف مارسيللوس وبعض البلاد الأخرى. لأننا إنما نركِّز على تاريخ حياة أثناسيوس بنوع خاص).

والآن وأنتم ذوو أحشاء رحمة، انتبهوا لتصحِّحوا ـ كما قلت لكم سابقاً ـ هذه المتناقضات التي اقتُرفت ضد القوانين. حتى يمكن لكل انحراف حدث أن يتصحَّح بغيرتكم. ولا تكتبوا أني فضلت الشركة مع مارسيللوس وأثناسيوس عليكم. لأن مثل هذه الشكوى لا تُفصح عن سلام بل تشير إلى الحسد والخصام بين الإخوة، ومن أجل هذا أنا كتبت ما كتبته إليكم حتى تعلموا أننا تصرَّفنا ليس بدون عدل عندما قبلناهما في الشركة حتى ننهي

---

(١٠١) هذه الأخبار حديثة، وقد أتى بها جماعة من الكهنة وصلوا إلى روما قبل انعقاد المجمع مباشرة. أمَّا صرابامون وبوتامون فهما أسقفان معترفان من أساقفة مصر اللذين كانا أعضاء في مجمع نيقية، وقد حضرا مجمع صور للدفاع عن أثناسيوس، الأول عاني من المنفى، والثاني ضُرب حتى الموت على يد غريغوريوس (أنظر *Hist. Arian.* 12).

على هذا النزاع ـ لأنكم لو كنتم حضرتم إلى هنا وأثبتُّم هذه التهم ضدهم و لم يستطيعوا هم أن يقيموا الدليل المعقول لبراءة قضيتهم، لكان يحق لكم أن تكتبوا ما كتبتموه. ولكن إذ نرى أننا تصرَّفنا بحسب القانون وليس بدون عدل ـ كما قلت سابقاً ـ في قبولنا الشركة معهم، فإني أتوسَّل إليكم بحق المسيح ألا تتسبَّبوا في تمزيق أعضاء المسيح إلى نصفين ولا تركنوا إلى المحاباة، ولكن جدُّوا في إثر سلام الرب. لأنه ليس مقدَّساً ولا عادلاً، أنه لكي نرضي مشاعر صغيرة لقلة من الأشخاص، نطرح آخرين لا لوم عليهم، وبذلك نحزن الروح.

ولكن إذا كنتم تعتقدون أنكم قادرون أن تثبتوا شيئاً ضدَّهم وتواجهوهم بالخطأ وجهاً لوجه، فليحضر منكم مَنْ يشاء، لأنهم هم أيضاً قد وعدوا أنهم على استعداد أن يقيموا الحجة على كل ما قدَّموه من التقارير إلينا.

لذلك أرجو أن تعطونا رأياً في هذا أيها الأحباء الأعزاء حتى نستطيع أن نكتب إليهم وللأساقفة الذين سيجتمعون، حتى يمكن إدانة المتهمين في حضرة الجميع ولا يسود الارتباك على الكنيسة هكذا، ويكفي ما قد حدث، نعم يكفي بالتأكيد أن تصدر أوامر نفي لأساقفة في حضرة أساقفة، الأمر الذي لا يليق لي أن أتكلَّم عنه أكثر من ذلك، لئلاَّ أظهر كأني أُضيِّق الخناق على الذين حضروا في هذه المناسبات. ولكن إن كان ينبغي أن نقول الحق، فالأمور ما كان ينبغي أن تشط هكذا بعيداً، وما كان يليق أن يُسمح لمثل هذه المشاعر الصغيرة أن تصل إلى هذا الحضيض.

أيها الأحباء، إن قرارات الكنيسة لم تعد بعد بحسب الإنجيل ولكنها تميل فقط إلى النفي والموت. ولنفترض ـ كما تؤكِّدون ـ أن هناك أخطاءً ثابتة على هؤلاء الأشخاص، فالأمر كان يقتضي أن لا تُدار هذه القضية ضدَّهم بخلاف القانون، وإنما بمقتضى قانون الكنيسة. فكان ينبغي أن تُكتب عريضة وتُرسَل لنا جميعاً، حتى يتسنَّى للجميع أن يصدروا حكماً عادلاً. لأن الذين كابدوا الألم هم أساقفة وكنائس ذات شهرة ليست عادية، فقد قادها الرسل وحكموا فيها بأشخاصهم.

ولماذا لم تخبرونا بشيء فيما يختص بكنيسة الإسكندرية على الخصوص؟ أم تجهلون أن العادة جرت أن يُكتب لنا أولاً، وبعد ذلك يمكن أن نمرِّر من هنا قراراً عادلاً. فإن كان أي شك مثل هذا قد استقر على الأسقف هناك (الإسكندرية)، كان يلزم أن تُرسل إشارة إلى

الكنيسة هنا (روما)؛ لأنه بعدما أهملتم في أن تخبرونا وتصرَّفتم بمقتضى سلطانكم كما أردتم، الآن تريدون أن تحصلوا على موافقتنا فيما قررتموه، مع أننا لم نتهمه في شيء على الإطلاق. لم تكن قوانين بولس هكذا، ولا كانت هكذا تقاليد الآباء تسير؛ هذا إجراء مخالف وممارسة غريبة. أتوسَّل إليكم ليكن استعدادكم للاحتمال معي. فما أكتبه أكتبه للصالح العام، لأن ما استلمناه من بطرس الرسول هذا أفيدكم به. على أني لم أكن أكتب لكم هذا لولا أنها أمور تقلقنا. فالأساقفة يُنزعون من كراسيهم ويُطرحون في النفي بعيداً، وغيرهم من نواحي غريبة يحتلون أماكنهم، وآخرون بالغدر والخيانة هوجموا، والشعب يبكي ويكتئب من أجل الذين انتُزعوا منهم بالقوة ...

أسألكم أن تكفُّوا عن هذا، بل أن تعلنوا الأشخاص الذين يأتون هذه الأمور، تعلنوهم كتابة، حتى لا تُمتهن الكنيسة هكذا، ولا يعود أسقف أو كاهن يُهان، ولا يُرغَم أحد على أن يعمل شيئاً لا يقره لئلاَّ نصير أُضحوكة بين الوثنيين، بل وفوق هذا لئلاَّ نثير غضب الله علينا.

لأن كل واحد منا سوف يعطي حساباً في يوم الدينونة عن الأشياء التي صنع في حياته. فليتنا جميعاً نكون مأسورين لفكر الله حتى تستعيد الكنائس أساقفتها الخصوصيين وتُسرَّ بالأكثر في المسيح يسوع ربنا الذي به يليق المجد للآب إلى الأبد آمين.

إني أُصلِّي أن تكونوا معافين في الرب أيها الإخوة الأعزاء المحبوبين والمشتاق جدًّا إليهم].



أمَّا تعليقنا على ما جاء في هذا الخطاب التاريخي الحافل فهو كالآتي:

١ - إن عرض الحقائق التي جاءت في هذا الخطاب تكشف عن مدى الانسجام الذي حدث بين يوليوس وأثناسيوس، لأنها كلها من تلقين أثناسيوس وبأسلوبه التحقيقي الدقيق، وقد صاغها يوليوس في رزانة كأنها مسلَّمة من الرسل.

٢ - استطاع البابا أثناسيوس أن يضم إليه يوليوس وكل أساقفة إيطاليا لا كمجرَّد أصوات تشهد لجانبه، ولكن كأشخاص تشرَّبوا كل مفاهيم أثناسيوس وفكره التقليدي؛ وهذا يزداد وضوحاً وأهمية إزاء تكرار يوليوس بالتمسُّك بقوانين الرسل والكنيسة والتقليد، فكل هذا وغيره مما سبق أن قاله أثناسيوس في خطابه العام أو في دفاعه ضد الهراطقة

تسجَّل في خطاب يوليوس بألفاظ يوليوس وبحماسه وبغيرة رومانيـة تبـدو مسـتقلة، وهـي بذلك تكشف عن مدى التأثير الذي استطاع أثناسيوس أن يسكبه في الشعور واللاشـعور الروماني، والغربي بوجه عام.

ونحن هنا لسنا بصدد التفاخر، ولكن نريد أن نكشف عن الخطوات الأُولى التي انتقل بها التقليد الإسكندري الأرثوذكسي إلى روما والغرب من حيـث الأمـور الكنسـية بوجـه عـام، والأسرار والتقاليد الطقسية والرهبنة بوجه خاص.

وفي ذلك يقول المؤرِّخ المشهور ميلمان: [**إن نتائج هذه الزيارة التي قام بهـا أثناسـيوس لروما أسفرت عن تشبُّع مسيحية الفكر اللاتيني بأرثوذكسية الإسكندرية.**](١٠٢)

بل يقول هذا المؤرِّخ أيضاً: [**إن الكنيسة اللاتينيـة تتلمـذت لـه، ولكنهـا لم تسـتطع أن تمتص لاهوته كما ينبغي.**](١٠٣)

كما يقول روبرتسون: [ومن هذه الزيارة دخلت الرهبنة إلى الغرب.](١٠٤)

٣ - إن مهاجمة اليوسابيين الحمقاء التي بلا مبرر ولا سند لها ضد يوليوس، كشفت ليوليوس عن مدى انحراف يوسابيوس وجماعته، وفتحت أذهـان أسـاقفة الغـرب وروما بوجـه عـام إلى خطورة هؤلاء القوم وإلى خبث وسائلهم وعنفهم الإجرامي ودسائسهم، وبالتالي كشـفت عمَّا في العقيدة الأريوسية من أخلاقيات منحطة، وبذلك فإن زيارة أثناسيوس لروما ولكل مدن الغرب تُعتبر أنها جاءت بمثابة تطعيم واقي مبكِّر ضد الأريوسيين والأريوسية بوجـه عـام، حتى وإن ظهر فيما بعد أنها لم تأتِ بالتطعيم الكافي أو بالقدر الذي يعطي المناعة الكاملة.

٤ - لم يتخذ يوليوس أي أسـلوب يُستشـف منـه أنـه يحكـم الكنيسـة بـروح الخلافـة الرسـولية كبطرس، فلم يصدر حكماً شخصياً في الموضوع كله، مع أنه هـو نفسـه قـال إن القضيـة برمتها لا تستوجب مجمعاً عاماً ولا أخذ آراء، لأن أعمال الأريوسيين خارجة عـن الـروح الكنسية والقوانين والتقاليد بوجه عام - كذلك لم يرد يوليـوس بـالنفي علـى المبـدأ الـذي أكَّده أساقفة الشرق ليوليوس بخصوص السلطان المتساوي للأساقفة جميعـاً، مهمـا كـانت

(102) Milman., *Hist. of Lat. Christ.*, vol. I, p. 78.

(103) Idim.

(104) Vede Robertson's, *Christ. Hist.*, ii, 6.

أهمية المدن التي يحكمون عليها. بل إن يوليوس رد على ذلك بالموافقة تقريباً مضيفاً إلى ذلك أنه لا يكتب ولا يقرِّر من نفسه، وإنما ينقل رأي جميع أساقفة إيطاليا وتلك النواحي. ويؤكِّد أن أي إجراء يمس الأساقفة لا يمكن أن يكون له أي وزن أو فاعلية إذا لم يأخذ موافقة إجماعية. و لم يقدِّم نفسه في هذه الموافقة الإجماعية أو يجعل نفسه فوقها.

٥ - بخصوص علاقته الخاصة بكرسي الإسكندرية، يحاول يوليوس أن يستمد هذه العلاقة من تقاليد قديمة في الكنيسة، كمجرَّد علاقة مضمونها أن يؤخذ رأيه فقط فيما يختص بأي إجراء ضد أسقفها، وهنا أيضاً لا يريد يوليوس أن ينفي المبدأ الأول أن سلطان الأساقفة متساوٍ بين الأساقفة عموماً - دون النظر إلى عظم المدينة التي يحكم عليها أيٌّ منهم، ولكنه يريد أن يجعل من نفسه نصيراً قانونياً لأثناسيوس.

ويلاحظ أن يوليوس يتكلَّم في نهاية الخطاب عن كرسي وكنائس الأساقفة، بأنها كراسي وكنائس رسولية حَكَمَها الرسل بأنفسهم، و لم يميِّزوا بين رسول ورسول، فبولس كبطرس كمرقس.

وقع خطاب يوليوس على اليوسابيين:

ما أن وصل خطاب يوليوس إلى أساقفة الشرق الذين سبقوا وكتبوا له حتى قرَّروا أمرين:

الأول: انتهاز فرصة تدشين الكنيسة "المذهَّبة" لعقد مجمع يُطرح فيه أمر يوليوس أسقف روما، والرد عليه بخطاب شديد.

الثاني: إرسال بعثة من قِبَل مجمع أنطاكية إلى قسطانس إمبراطور الغرب، يشكون أثناسيوس ويوغرون صدره من جهته.

مجمع أنطاكية المشهور بمجمع التدشين

لَّما انتهى مجمع روما في نهاية سنة ٣٤٠م، لأن المجمع عُقد في ديسمبر، وكلَّف المجمع يوليوس بكتابة خطاب لأساقفة الشرق الذي وصلهم في بداية سنة ٣٤١م، أثار الخطاب حفيظة اليوسابيين إلى درجة كبيرة وصمَّموا على مناوأة يوليوس، وانتهزوا فرصة تكريس الكنيسة المذهَّبة بأنطاكية وعقدوا مجمعاً وجمعوا إليه سبعة وتسعين أسقفاً معظمهم من المتحفظين، ولكن ترأسه الأريوسيون. وكان يوسابيوس النيقوميدي حاضراً، ولكن لم يكن قد تبقَّى على نهاية حياته إلاَّ بضعة شهور. أمَّا يوسابيوس بامفيليوس القيصري، فكان قد مات منذ سنتين وخلفه أكاكيوس على قيصرية فلسطين وهو تلميذ يوسابيوس بامفيليوس، وترأَّس المجمع المدعو ديانيوس أسقف قيصرية كبادوكيا.

ويقدِّم لنا سقراط صورة للانفعال الذي قابل به المجمع خطاب يوليوس الذي برَّأ فيه أثناسيوس وبقية الأساقفة الذين اضطهدهم ونفاهم الأريوسيون:

[ولَّما اعتبر هؤلاء الأشخاص (الأساقفة الأريوسيون) أن توبيخات يوليوس أهانت كرامتهم، دعوا إلى مجمع في أنطاكية اجتمعوا معاً فيه وأملوا خطاباً ردًّا على خطابات يوليوس كتعبير عام عن الشعور الواحد المتضامن للمجمع بأكمله. فلم يكن من اختصاصه - كما قالوا - أن يقاضي قراراتهم بخصوص أيٍّ من الذين يريدون طرده من كنائسهم، بالمثل كما أنهم لم يعرِّضوا أنفسهم ضدَّه عندما طُرد نوفاتس من الكنيسة. هذه الأمور أبلغها أساقفة الشرق إلى يوليوس أسقف روما.](١٠٥)

أمَّا سوزومين المؤرِّخ فيعطينا صورة أكثر تفصيلاً:

[واجتمع الأساقفة (الشرقيون) في أنطاكية وصاغوا ردًّا على يوليوس نمَّقوه بحذق ومهارة قانونية فائقة، غير أنهم ملأوه بالتهكُّم والتهديدات، واعترفوا في هذا الخطاب أن كنيسة روما تقلَّدت بكرامة مسكونية، لأنها كانت مدرسة الرسل وصارت أُم التقوى منذ البدء، غير أن الذين جلبوا لها العقيدة واستقروا فيها جاءوا من الشرق. ولكنهم أضافوا أن الدرجة التالية من الكرامة لا ينبغي أن تكون من نصيبهم بسبب كونهم لم يحوزوا على مدن أكبر أو

(105) Socrates, *E. H.* II. 15.

عـدد أكـثر في كنائسـهم، لأنهـم يفوقـون الرومـانيين في الفضيلـة وفي القـدرة علـى الفصـل والحكم! ثم دعوا يوليوس لتقديم حساب عن قبوله أثناسيوس وأتباعه في الشركة، وأفصحوا له عن سخطهم ضدَّه لأنه أهان مجمعهم وأبطـل قوانينهـم، وهـاجموا أعمالـه باعتبارهـا غـير عادلة ومتعارضة مع الحق الكنسي.

وبعد هذه التوبيخات والاحتجاجات بدأوا يهدِّدون أنه إذا اعترف بعزل الأسـاقفة الذيـن طردوهم وبالآخرين الذين حلُّوا محلهم، فإنهم يعدونه بالسلام والزمالة، وإلاَّ فإنهم سـيعلنون مقاومتهم له علناً.](١٠٦)

وتكاد تكون صيغة هذا الخطاب مماثلة لصيغة الخطاب الذي سبق أن أرسلوه أيضاً ليوليـوس ردًّا على دعوته لعقد مجمع في روما. ويقول كل من سقراط وسوزومين أنه بعد انفضاض المجمع حـدث زلزال مروِّع في منطقة أنطاكية(١٠٧).

بعثة الأريوسيين إلى الإمبراطور قسطانس في الغرب:

وهنا نعطي الكلمة للقديس أثناسيوس نفسه حيث يصف التئام مجمع أنطاكية لثاني مرَّة بعد عدة شهور قليلة من انعقاد "مجمع أنطاكية التدشيني"، وذلك في خريف سنة ٣٤١م، بغرض إرسال بعثـة وشاية لقسطانس إمبراطور الغرب:

[اجتمع تسعون أسقفاً تحت رعاية القنصلين مارسللينوس وبروبينـوس في سـنة ٣٤١م(١٠٨)، وكان قسطنطيوس اللاديني حاضرًا في هذا المجمـع، وكمـا دبَّـروا الأمـور هكـذا في أنطاكيـة وقت التدشين (الاجتماع الأول)، رأوا أيضاً (في هذا الاجتماع) أن تركيباتهم لصيغ الإيمـان لا تزال ناقصة فبدأوا مرَّة أخرى يصيغون منطوقاً آخر للإيمان، وهكذا لم يكفُّوا عن تقلبهـم، وأرسلوا بعثة من الأساقفة نارسيسوس ومارس وثيئوذوروس وماركوس إلى بلاد الغـال (تريـف)، مرسَلين من قِبَل المجمع ليقدِّموا هذه الصيغة إلى قسطانس أغسطس المطوَّب الذكر.](١٠٩)

ولكن يبدو أن الإمبراطور قسطانس نفسه هو الذي طلـب هـذه البعثـة (بمقتضـى توصيـات مـن

(106) Sozom., *E.H.* 3:8.

(107) Socrat., II.10; Sozom., III.6.

(١٠٨) هذا التاريخ محقّق على التاريخ الروماني القديم الذي سجَّله القديس أثناسيوس وبذلك يُعتبر مركز تحقيق هـام في مجريات الحوادث.

(109) *De Synod.* 25.

يوليوس أسقف روما)، وهذا يتبيَّن لنا أكثر من تسجيلات المؤرِّخ سوزومين:

[ولمَّا أدرك يوليوس - أسقف روما - أن ما كتبه لذوي الكرامة الكهنوتية في الشرق أصبح بلا فائدة، أَطلع الإمبراطور قسطانس على الأمر (قسطانس إمبراطور على كل الغرب بعد موت أخيه قسطنطين الثاني)، وبناءً على ذلك كتب قسطانس لأخيه قسطنطيوس يرجوه إرسال بعض الأساقفة من الشرق ليقدِّموا الأسباب التي من أجلها أصدروا قانون عزل الأساقفة. وهؤلاء اختاروا ثلاثة أساقفة لهذا الغرض، وبالاسم: نارسيسوس أسقف ايرينوبوليس في كيليكيا، وثيئوذور أسقف هيراكليا في تراس، ومارك أسقف أريثوسا بسوريا. وبوصولهم إلى إيطاليا (ومنها إلى تريف) جاهدوا ليبرروا أعمالهم، ويقنعوا الإمبراطور أن الحكم الذي صدر من مجمع الشرق كان عادلاً، ولمَّا طلب منهم أن يقدِّموا منطوقاً مكتوباً لإيمانهم **أخفوا الصيغة التي وضعوها في أنطاكية** (وهكذا ينبغي أن يكون الإيمان وإلاَّ فلا!!)، وقدَّموا اعترافاً آخر مكتوباً (وهذا ما قرَّره أثناسيوس أيضاً)(١١٠). وكان هذا أيضاً مخالفاً لاعتراف نيقية. وأدرك قسطانس أنهم بغير حق تصيَّدوا بول (أسقف القسطنطينية) وأثناسيوس (أسقف الإسكندرية) وأنهم عزلوهما من الشركة، لا بسبب اتهامات تخص السلوك كما هو ثابت في قرار العزل وإنما بسبب اختلاف العقيدة، وبذلك طردهم دون أن يعطيهم أي تصديق على صور الإيمان (التي أحضروها وحضروا من أجلها).](١١١)

ويعطينا المؤرِّخ هيلاري أسقف بواتييه السبب المباشر في انتباهة الإمبراطور قسطانس لغش هذه البعثة وخروجها عن الإيمان الصحيح، إذ يذكر أن مكسيمينوس أسقف تريف الرجل الصالح صديق أثناسيوس، كان حاضراً هذه المقابلة، وهو الذي نبَّه الإمبراطور إلى خطورة مقاصد هذه البعثة(١١٢).

كما يذكر المؤرِّخ سوزومين أن مكسيمينوس أسقف تريف رفض السماح لأعضاء هذه البعثة في الاشتراك معه في الصلاة معتبراً إياهم مقطوعين من الشركة لأنهم أريوسيون، الأمر الذي انتقم له أساقفة الشرق بعد ذلك وحكموا بعزل مكسيمينوس وقطعه من الشركة(١١٣).

(110) Ibid.

(111) Sozom. *E.H.* III.10.

(112) Hil., *Frag.* III. 27.

(113) Sozom. *E.H.* III. 11.

مقابلة أثناسيوس للإمبراطور قسطانس وفكرة عقد مجمع عام (خريف سنة ٣٤٢م):

يقول بعض المؤرِّخين ومن ضمنهم ثيئوذوريت إن أثناسيوس ترجَّى الإمبراطور قسطانس أن يدعو إلى مجمع عام يضم أساقفة الشرق والغرب، ولكن الحقيقة يعرضها أثناسيوس نفسه بمنتهى الوضوح في دفاعه لدى قسطنطيوس، باعتبار أنه استُدعي لمقابلة الإمبراطور في ميلان عاصمة شمال إيطاليا، ليُعلمه الإمبراطور بنيته في عقد مجمع، الأمر الذي لم يشترك أثناسيوس في الاقتراح بشأنه:

[وأنا لم أكتب إلى أخيك (الإمبراطور قسطانس) إلاَّ عندما كتب إليه يوسابيوس، وأتباعه سبقوا وكتبوا إليه يتهمونني، فكنت مضطراً وأنا مقيم في الإسكندرية آنئذ أن أدافع عن نفسي، ثم كتبت إليه مرَّة أخرى عندما أرسلت إليه المجلَّدات (πυκτία = طرد كتب) التي تحوي الأسفار المقدَّسة، (وكان إقليم البهنسا مركز توزيع عالمي)، التي كان قد سبق وطلب مني أن أعدها له، وإنه يليق لي وأنا بصدد الدفاع عن نفسي أن أقول الحق "لتقواكم": إنه بعد مضي ثلاث سنوات منذ إقامته في روما كتب إليَّ في السنة الرابعة (صيف سنة ٣٤٢م) يأمرني بالمثول أمامه ـ وقد كان وقتها في ميلان ـ وأنا عندما استفسرت عن السبب ـ لأني كنت أجهل ذلك والرب شاهد لي ـ علمت أن بعض الأساقفة ذهبوا إليه يترجُّونه في الكتابة لكم راغبين أن يُعقد مجمع. وصدقني يا سيِّدي أن هذا هو حقيقة الأمر وأنا لا أكذب. وبناءً عليه ذهبت إلى ميلان واستُقبلت منه بلطف كثير لأنه تنازل لرؤيتي، وأخبروني أنه أرسل خطابات إليك يرجو فيها أن يدعو إلى مجمع. ولمَّا كنت في المدينة (ميلان) أرسل إليَّ لأذهب إلى الغال، لأن الأب هوسيوس كان سيذهب إلى هناك، حتى نرحل معاً من هناك إلى سرديكا (صوفيا عاصمة بلغاريا الآن على نهر الدانوب).][(١١٤)]

وبخصوص المقابلة التي تمَّت في ميلان، فيعتقد المؤرِّخ جواتكن أنها تمت في مايو سنة ٣٤٢م. بحضور بروتاسيوس أسقف ميلان[(١١٥)]. أمَّا رحلة البابا أثناسيوس من ميلان إلى تريف بفرنسا، فكانت في خريف عام ٣٤٢م، وأمَّا انتقال قسطانس السريع من ميلان عاصمة شمال إيطاليا إلى تريف عاصمة فرنسا، فبسبب ثورة الفرنسيين (الفرنك) التي أراد أن يخمدها بنفسه، وبعدها رحل قسطانس إلى بريطانيا، ولم يعد منها إلاَّ قبيل ميعاد انعقاد مجمع سرديكا.

(114) *Apol. ad Const.*, 14.
(115) Gwatkin, *op. cit.*, p. 122.

مجمع سرديكا (صوفيا) صيف عام ٣٤٣م

أمَّا سرديكا هذه، فهي "صوفيا" الآن عاصمة بلغاريا. وكانت تقع على الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية، وهي على نهر الدانوب، وفي مقابلها وفي تخوم إمبراطورية الشرق تقع مدينة فيلوبوليس. فإذا كانت آخر رحلة للبابا أثناسيوس هي التي قام بها من ميلان إلى تريف في خريف سنة ٣٤٢م، فالمعروف أن أثناسيوس بقي في تريف إلى أن أمضى عيد الفصح هناك لسنة ٣٤٣م. وأرسل خطابه الفصحي لهذه السنة إلى الإسكندرية ولكن هذا الخطاب فُقد للأسف.

والآن نأتي إلى التسجيلات التي حفظها لنا التاريخ لكي نعيش مع البابا أثناسيوس هذه الفترة المملوءة بالأحزان والقلاقل، والتي حتى اليوم لا يزال المؤرِّخون في حيرة من ثبت تواريخها.

أمَّا أساقفة الغرب فبلغ عددهم ٩٥، أمَّا أثناسيوس ومارسيللوس واسكليباس فقد وصلوا بصحبة هوسيوس من تريف، أمَّا بول أسقف القسطنطينية فكان غائباً وأناب عنه اسكليباس أسقف غزة، الذي كان قد عُزل من كرسيه منذ سبع سنوات.

أمَّا الشرقيون فحضروا كجماعة واحدة متحدة، وقد انضم إليهم عشرة من أساقفة مصر الأريوسيين ومن ضمنهم إسخيراس، لأنهم رسموه أسقفاً، ومعهم ضابط - ومن بينهم فيلاجريوس - لحماية الأساقفة. ونزلوا في أحد قصور صوفيا (سرديكا) وكان عددهم حوالي ٧٦ أسقفاً. والمعروف أن المجموع الكلي لأساقفة سرديكا كان حوالي ١٧٠ (أكثر أو أقل)، الغربيون اجتمعوا في سرديكا على الحدود بين الإمبراطوريتين، والشرقيون هربوا واجتمعوا في مدينة فيلوبوليس المقابلة لسرديكا داخل حدود إمبراطورية الشرق (لقسطنطيوس)، حيث كتبوا خطابات احتجاج شديدة اللهجة برفضهم دخول المجمع إذا دخله أثناسيوس وجماعته وباقي الأساقفة الذين حكموا عليهم زوراً وبهتاناً بالعزل والنفي. وإزاء إصرار الغالبية المطلقة على وجوب حضور المتهمين المعزولين ليدافعوا عن أنفسهم، انسحب الأساقفة الشرقيون وهربوا ليلاً بعد أن تركوا خطاباً بيد يوستاثيوس كاهن كنيسة سرديكا يعتذرون فيه أن الإمبراطور دعاهم للرجوع بمناسبة عودته منتصراً من حرب الفرس! بعد أن حرموا في خطابهم كل الرؤوس من هوسيوس إلى يوليوس إلى أثناسيوس فما دون ...

وإليك كلام القديس أثناسيوس فيما يختص بمجمع سرديكا:

[فلمَّا رأى الإمبراطور قسطنطيوس وقسطانس الاضطرابات الحادثة في الكنائس من جراء أعمال يوسابيوس وأتباعه وتدبير المؤامرات لتحطيم الكثيرين، أمروا أن يجتمع الأساقفة من الغرب والشرق، أن يجتمعوا معاً في سرديكا. وفي هذا الوقت مات يوسابيوس النيقوميدي.

واجتمع عدد كبير من جميع النواحي، وتوسمنا أن يوسابيوس وأتباعه سوف يخضعون للمحاكمة، ولكنهم وهم عالمون بما صنعت أيديهم ورأوا أن خصومهم قد حضروا إلى المجمع، خافوا. وبينما الكل أتى بنية طيبة إذا بهم يُحضرون معهم الكونت ميوزونيانوس (الذي كان سابقاً والياً على الشرق) والكونت حزقيوس (رئيس ضباط القصر)، كما جرت معهم العادة سابقاً حتى ينالوا أغراضهم بقوة سلطانهم.

ولكن لمَّا اجتمع المجمع بدون ضباط على الإطلاق و لم يسمح حتى للعساكر بالحضور، بدأوا يرتبكون وبدأت أفكارهم تضطرب لأنهم رأوا أن أمر الأحكام التي يرغبون في الحصول عليها قد امتنع عليهم، إلاَّ ما سيمليه الحق والتعقُّل فقط.

(ولَّما أحجموا عن الحضور) بدأنا نتحدَّاهم وبدأ الأساقفة يدعونهم - ملحِّين - للحضور قائلين لهم: لقد حضرتم للمحاكمة فلماذا تنسحبون، كان عليكم إمَّا أن لا تحضروا كلية وإمَّا وقد حضرتم فلا تختبئوا؛ لأنكم بسلوككم هذا تثبتون التهمة على أنفسكم. انظروا ها هو أثناسيوس وجماعته قد حضروا، هؤلاء الذين اتهمتموهم غيابياً، فإذا كنتم تعتقدون أن لكم ضدَّهم شيئاً فعليكم أن تتهموهم وجهاً لوجه، ولكن إن كنتم تدَّعون أنكم لا تريدون ذلك مع أنكم بالحقيقة غير قادرين على ذلك، فأنتم تكشفون أنفسكم بوضوح أنكم مشاغبون ومدَّعون، وهذا ما سيقرره المجمع عليكم. (فلمَّا سمعوا ذلك أُدينوا من جهة الضمير لأنهم كانوا يعلمون ما اقترفوه من مؤامرات وتلفيقات ضدَّنا). فاستحوا أن يظهروا، ووضح أنهم مدانون.

أمَّا المجمع "**المقدَّس**" فقد أدان هروبهم غير المتزن والمشكوك فيه، وسمح أن نقدِّم دفاعنا. فلمَّا سردنا وقائع سلوكهم ضدَّنا وبرهنَّا على أقوالنا بالحق وبالشهود وبأدلة أخرى، امتلأ الأساقفة بالدهشة، ورأوا أن هروب خصومنا بسبب خوفهم من مواجهة المجمع كان أمراً واضحاً لئلاَّ تصير إدانتهم أمام وجوههم. كما اعتقدوا أن هروبهم كان بسبب ظنهم أنهم بحضورهم من الشرق إلى المجمع ربما لا يجدون أثناسيوس وجماعته، فلمَّا رأوهم واثقين من قضيتهم ومتحدِّين المحاكمة هربوا.

وبناءً على ذلك قبلونا كأشخاص أُسيء إلينا واتُّهمنا باطلاً، وأكّدوا لنا أُخوّتهم ومحبتهم.

وعزلوا أتباع يوسابيوس في الشر، الذين أصبحوا بلا حياء أكثر من يوسابيوس نفسه: وهم ثيئوذوروس أسقف هيراكليا، نارسيس أسقف نيرونيا، أكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين، اسطفانوس أسقف أنطاكية، أرساكيوس وفالنس أسقف بانونيا، مينوفانتوس أسقف أفسس، وجورج أسقف لاوديكا، وكتبوا لأساقفة العالم وإلى كرسي الأساقفة المشار إليهم هكذا:

المجمع المقدَّس المجتمع في سرديكا بنعمة الله:

من روما وأسبانيا والغال وإيطاليا وكمبانيا وكلابريا وآبيوليا وأفريقيا وسردينيا وبانونيا وموسيا وداسيا ونوريكم وسيسيا وداردانيا ومكدونية وتسّالي وأخائية وأبيرس وتراس ورودوب وفلسطين وأرابيا (العرب) وكريت ومصر: (ويقول أثناسيوس إن عدد الأساقفة بلغ أكثر من ٤٠٠ أسقفاً).(١١٦)

إلى إخوتهم المحبوبين كهنة وشمامسة وكل كنيسة الله المقدَّسة الكائنة بالإسكندرية، يرسلون تمنيات العافية في الرب.

لم تكن الأمور مجهولة لدينا ولكنها كانت معروفة جيداً وقبل أن تصلنا الخطابات المرسلة من الأتقياء الذين عندكم أن المدافعين عن هرطقة أريوس الكريهة كانوا يمارسون المؤامرات الخطيرة التي هي بالأكثر لهلاك أنفسهم دون المساس بالكنيسة...

لقد حاولوا جاهدين بالقوة والطغيان أن يباغتوا براءة **أخينا وزميلنا الأسقف أثناسيوس** وسلكوا تجاهه مسلكاً بلا روية وبلا إيمان، وبلا أي نوع من العدالة، ومع أنهم لا يملكون الثقة في إجراءاتهم التي يتلاعبون بها ولا في تقاريرهم التي أجروها ضدَّه، بل وكانوا يرون أنهم غير قادرين على تقديم أي دليل لما يخطّطون، فلمَّا جاءوا إلى مدينة سرديكا أبدوا عدم رغبتهم في الاجتماع بالمجمع الذي يضم الأساقفة القديسين. ومن هنا صار واضحاً أن تصميم **أخينا وزميلنا الأسقف يوليوس** كان تصميماً عادلاً، لأنه بعد حرص وتروٍّ ودقة، صمَّم أنه لا ينبغي أن نتردَّد أبداً بخصوص إقامة الشركة مع أخينا أثناسيوس، لأنه يملك

(116) Athan., *Hist. of the Arians*, part IV & *Apol, Arian.* 50, note 10.

شهادة تصديق من ثمانين أسقفاً، كما استطاع أن يخوض هذه الاحتجاجات المقبولة لصفّه، كذلك وبواسطة كهنته ورسائله حطَّم كل تخطيطات يوسابيوس وأتباعه الذين كل اعتمادهم كان على العنف دون المحاجاة القانونية.

لذلك صمَّم جميع الأساقفة في جميع الأنحاء على إقامة الشركة مع أثناسيوس على أساس براءته(١١٧) ...

على أننا أيها الإخوة الأعزاء نحثّكم ونذكّركم فوق كل شيء أن تحفظوا الإيمان الصحيح مع الكنيسة الجامعة، أنتم الذين جُزتم هذه التجارب القاسية المريعة، لأنه ما أكثر الإهانات والإساءات التي عانتها الكنيسة الجامعة «ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» ...](١١٨)

أمَّا بخصوص تعيين غريغوريوس على كرسي الإسكندرية فقد قرَّر المجمع الآتي:

[أمَّا بخصوص غريغوريوس الذي أرسلوه إلى الإسكندرية بواسطة الإمبراطور فقد أعلنوا أنه ليس أسقفاً على الإطلاق ولا ينبغي أن يُدعى مسيحياً. وأن جميع الرسامات التي أجراها في الإسكندرية باطلة وليست بذات فعل، والذين رسمهم لا تُذكر أسماؤهم في الكنيسة بسبب خروجهم على القانون.](١١٩)

وقد حضر هوسيوس أسقف قرطبة الأسباني، وكان قد بلغ سن الشيخوخة، وترأَّس المجمع وكان أول مَنْ وقَّع بإمضائه وختم على قرارات المجمع، وذلك بحسب تحقيق وتسجيل البابا أثناسيوس نفسه، ومن بعده يوليوس بيد مندوبيه، ثم أرخيداميوس أسقف سرديكا. ولكن يحاول بعض المؤرِّخين المتأخّرين أن يثبتوا أن ممثّلي يوليوس كانوا هم أصحاب الأولوية.

ولكن الذي يقطع في الأمر، هو قول أثناسيوس في الموضوع:

[ولكن هروبهم لم ينجح بحسب رغبتهم، لأن المجمع المقدَّس، الذي كان مترئساً عليه هوسيوس الكبير، كتب إليهم قائلاً: إمَّا أن تحضروا وتجاوبوا عن التهم الموجَّهة ضدَّكم بخصوص اتهاماتكم الكاذبة التي قدَّمتموها ضد الآخرين، وإلاَّ فاعلموا أن المجمع سيحكم

(117) Hilar., *Fragm.*, III, 14.

(118) *Apol. contra Ar.* 36-38 ff.

(119) *Hist. Ar.* 17.

ضدَّكم كمدانين، معلناً براءة أثناسيوس من أي لوم.](١٢٠)

ومعروف أن مجمع سرديكا استمر منعقداً كل شهر أغسطس وشهر سبتمبر، وفي نهاية المجمع أعلن الإمبراطور قسطانس قرارات المجمع وأرسلها بيد الأسقفين الجليلين إفراتس أسقف كابوا، وفنسنت أسقف كولونيا وهما على درجة "متروبوليت" إلى أخيه في أنطاكية. ولكن أخطر ما كان في خطاب قسطانس إلى أخيه هو العبارة المشهورة أنه في **حالة رفض قسطنطيوس لعودة أثناسيوس إلى كرسيه يكون ذلك بمثابة Casus belli أي بمثابة إعلان حرب.**

أمَّا نص الفقرة الخاصة بعودة أثناسيوس كما جاءت في الخطاب فيوردها سقراط هكذا:

[أثناسيوس وبول موجودان هنا معي، وأنا مقتنع تماماً بعد الفحص أنهما مضطهدان بسبب تقواهما، فإذا تكفَّلت أنت بإرجاعهما إلى كرسيهما وعاقبت الذين بدون وجه حق أساءوا إليهما، فإني أرسلهما إليك. أمَّا إذا رفضت أن تعمل ذلك فتأكَّد أني سآتي بنفسي وأعيدهما إلى كرسيهما (لاحظ أن بول هو أسقف القسطنطينية عاصمة إمبراطورية قسطنطيوس) بالرغم من معارضتك.](١٢١)

وانطلق الرسولان في الميعاد المناسب، وكان ذلك بعد اعتدال الطقس لإمكانية السفر، ويرجح أنهما وصلا في موسم الفصح وذلك في بداية ربيع سنة ٣٤٤م.

حرومات مجمع سرديكا:

وقد وقَّع مجمع سرديكا الحرم والفصل من الكنيسة على أحد عشر أسقفاً أريوسياً، وكتبوا هكذا: "وكما فصلوا الابن عن الآب، هكذا استحقوا أن يُفصلوا من الكنيسة الجامعة". ثم قام المجمع بتثبيت كل قوانين مجمع نيقية **واتفقوا على أن تتبادل روما والإسكندرية مواعيد الفصح وثبَّتوها لمدة خمسين سنة.**

حرومات مجمع فيليبوبوليس الأريوسية:

أمَّا خطاب الأساقفة الشرقيين الذين حرموا فيه هوسيوس أسقف قرطبة ويوليوس أسقف روما وأثناسيوس أسقف الإسكندرية ومكسيمينوس أسقف تريف وبروتوجينيوس أسقف سرديكا، فقد ختموه بصورة عقيدتهم الجديدة التي صاغوها على ثلاث مراحل في مجامع أنطاكية الثلاثة المتعاقبة

(120) *Hist. of the Arian.*, 16.

(121) Socrates, *E.H.* II, 22.

سنة ٣٣٩، سنة ٣٤٠، سنة ٣٤١. وأرسلوا صوراً من خطابهم هذا إلى نواحي عديدة كما أرسلوه لجماعة الدوناتيين في أفريقيا(١٢٢).

وهكذا لوَّثوا المسكونة كلها بأعمالهم وأفكارهم الشيطانية، التي قلبت الكنيسة منذ اليوم المشئوم الذي ظهر فيه اسم أريوس في الكنيسة، فإن كان الأشرار كالعُصافة التي تذريها الريح؛ إلاَّ أنها سريعة الانتشار، تؤذي الأبصار وتطمس معالم الطريق وتسد أنفاس الأتقياء. وابن الأفعى لا يكون إلاَّ أفعواناً.

الآثار المباشرة التي ترتّبت على مجمع سرديكا:

استطاع الأساقفة الشرقيون أن يبطلوا إلى حد ما النتائج التي وصل إليها المجمع من حيث إمكانية عودة الأساقفة المعزولين إلى كراسيهم.

وقد استخدم الأريوسيون الإجراءات الحاسمة الشديدة في مظهرها التي اتخذها أساقفة الغرب وخصوصاً الحرم الذي أوقعوه على أحد عشر أسقفاً من رؤوس الأريوسيين المحركين للأحداث والمقرَّبين من الإمبراطور قسطنطيوس، واستخدموا هذا لإثارة قسطنطيوس وتحريضه لمزيد من القسوة والبطش برجال أثناسيوس وبقية الأساقفة الأرثوذكس، إذ أصدر قسطنطيوس أوامره لولاة الإسكندرية بقتل أثناسيوس حال ظهوره في المدينة أو أيٍّ من كهنته المرافقين له، وقد ذكرهم بالاسم، إذا هم اقتربوا من الإسكندرية. وأصدر أمره بنفي خمسة من أئمة الإكليروس بالإسكندرية إلى أرمينيا.

[وربطوا لوقيوس أسقف أدرينوبل بسلسلة من الحديد في رقبته وفي يديه وقادوه إلى المنفى حيث مات، أمَّا بقية الشعب في أدرينوبل الذين رفضوا الشركة مع الأريوسيين تطبيقاً لقرارات مجمع سرديكا، فقد انتخبوا عشرة من أئمة الشعب واستصدروا أمراً من قسطنطيوس بذبحهم، وكان فيلاجريوس هو الوالي على هذه المنطقة، وقد قام بتنفيذ الإعدام واستودعوا جثثهم قبوراً بجوار المدينة يراها المسافرون على جانب الطريق.](١٢٣)

أمَّا ما جرى لشعب الإسكندرية فيصفه أثناسيوس، بناءً على التقارير التي وصلته هكذا:

[أمَّا في الإسكندرية فقد أرادوا أن يثبتوا هيبتهم ورعبهم كما فعل آباؤهم في "تراس"

(122) Hefele., p. 171.

(123) *History of the Arians,* 18.

(تراقيا)، فقد استصدروا أمراً مكتوباً أن تُحرس الموانئ وأبواب المدينة لئلاً يعود المنفيون بحسب قرار سرديكا إلى كراسيهم، كما أرسلوا الأوامر إلى الولاة في الإسكندرية بخصوص أثناسيوس وبعض الكهنة وقد ذكروهم بالاسم، أنه إذا رئي الأسقف أو أيٌّ من الآخرين مقترباً من حدود المدينة يكون لهم السلطان لذبحهم، كل مَنْ يكتشفونه.](١٢٤)

ثم يعود أثناسيوس أيضاً يصف حال بلبلة الشعب وهرب المختارين منهم إلى الصحاري والبراري؟

[وحتى بعد ذلك لم يهدأوا أبداً. فكما كان أبو هرطقتهم يوسابيوس كالأسد يجول زائراً يريد مَنْ يبتلعه، هكذا هؤلاء (الأريوسيون)، الذين تملَّكوا الوظائف العامة، كانوا يتربصون بأي شخص يعيِّرهم بهروبهم ـ الذي هربوه في سرديكا ـ أو أيّ من الذين يظهرون بغضتهم للهرطقة الأريوسية فإنهم كانوا يأمرون بضربه بالسياط ويربطونه بالسلاسل وينفونه إلى أماكن بعيدة، وبذلك جعلوا من أنفسهم رعباً وفزعاً للناس وعلَّموهم المراءاة ودفعوا بالآخرين للهرب إلى الصحاري أفضل من أن يتعاملوا معهم.](١٢٥)

محاولة شيطانية للإيقاع بشرف أساقفة قسطانس، فكانت هي النهاية:

يصف هنا أثناسيوس بنفسه هذه الواقعة المخجلة للغاية. ولكن مَنْ يريد التفاصيل أكثر فليراجع: "**تاريخ الكنيسة** لثيئودوريت ٢: ٧"، حيث يذكر هذه الواقعة بدقة بالغة مع كل الأسماء التي اشتركت فيها:

[معروف أن الإمبراطور قسطانس أرسل وفداً من قبله بناءً على توصيات المجمع المقدَّس في سرديكا، قوامه أسقفان شيخان هما فنسنتيوس أسقف كابوا وهو متروبوليت منطقة كمبانيا، وأيوفراتس أسقف أجربينا وهو متروبوليت كل شمال فرنسا، حتى يستطيعا أن يحصلا على موافقة قسطنطيوس على قرارات المجمع بخصوص رجوع الأساقفة إلى كراسيهم، نظراً لأن قسطنطيوس هو في الأصل المتسبِّب في نفيهم بعيداً عن كراسيهم. وقد كتب الإمبراطور التقي قسطانس موصياً أخاه من جهة هذين الأسقفين.

ولكن هؤلاء الرجال المحترمين، الذين كانوا دائماً على مستوى الأعمال القذرة والدنيئة، عندما رأوا هذين المندوبين في أنطاكية تشاوروا معاً في أمرهما، واهتدوا إلى مؤامرة جديدة

(124) Ibid. 19.
(125) Ibid. 20.

- بل جريمة - قام اسطفانوس أسقف أنطاكية بتنفيذها بنفسه، إذ رأى أنه جدير بهذه المهمة، فقد استأجروا امرأة عاهرة عمومية - ونحن للعلم في موسم عيد القيامة المقدَّس سنة ٣٤٤م. - وعرُّوها وأدخلوها بالليل في مسكن الأسقف إيوفراتس. وقد ظنَّت العاهرة أنه شاب فرافقتهم عن رضى. ولكن عندما أدخلوها ورأت الرجل نائماً وغير واعٍ لما يحدث حوله وتطلَّعت إليه فوجدته رجلاً شيخاً وبهيئة أسقف، صرخت في الحال بأعلى صوتها معلنة أنهم أدخلوها بالقوة، وحاولوا إسكاتها وتفهيمها أن تلفِّق التهمة معهم ضد الأسقف، ولكن عبثاً، فقد شاع الأمر في كل مكان، ولمَّا لاح الصباح تدافعت المدينة كلها وجاء قوم من قصر الإمبراطور وهم في غاية الاضطراب منذهلين من الخبر الذي بلغهم آمرين أن لا يُترك هذا الأمر ليعبر بسكوت.

وأُجري تحقيق في الأمر فقدَّم متولي قيادة هذه العاهرة بيانات عن الأشخاص الذين جاءوا إليه طالبين منه هذه العاهرة، ثم حقَّقوا مع هؤلاء الأشخاص - وكانوا من الإكليروس - واستجوبوهم، فأرشدوا إلى اسطفانوس أسقف أنطاكية لأنهم كهنته!! وهكذا عزلوا اسطفانوس (الأريوسي) عن كرسيه.](١٢٦)

الإمبراطور قسطنطيوس يجوز انتفاضة إيمانية وأخلاقية:

أثَّرت جريمة اسطفانوس أسقف أنطاكية (بدرجة بطريرك) في نفسية قسطنطيوس أيَّما تأثير، إذ جعلته ينتفض (ولو إلى حين) انتفاضة جديدة في إيمانه وأخلاقه ويشعر بمدى الضلال والتضليل الأخلاقي الذي عاشه الأريوسيون وعايشوه فيه معهم! وأمر في الحال بعقد مجمع في أنطاكية، وهو المجمع الرابع لهؤلاء الأريوسيين، في نفس المدينة التي اتخذوها مركزاً لمؤامراتهم على الإيمان وعلى حفظة الإيمان سواء بسواء ... ويأتي هذا المجمع بعد ثلاث سنوات تماماً من مجمع أنطاكية المعروف بمجمع التدشين، وذلك بحسب تسجيل أثناسيوس، فلو علمنا أن مجمع التدشين كان في منتصف صيف سنة ٣٤١م. يصبح تحديد هذا المجمع بحسب تسجيلات أثناسيوس في منتصف سنة ٣٤٤م وهذا ينطبق تماماً مع مجريات أزمنة الحوادث أمامنا حتى الآن.

وقد حكم المجمع أول ما حكم، بعزل استفانوس عزلاً فاضحاً وأُقيم عوضاً عنه لاونديوس

(126) *Hist. of the Arians*. 20.

الخصي، وهو رجل رزين هادئ محب للتعقُّل وإن كان لا يخلو إيمانه من تلوُّث الأريوسية(١٢٧).

ولكن انتهز الأريوسيون فرصة التئام هذا المجمع وأخذوا يضيفون ويشرحون الأريوسية حتى تطابق ولو من جهة الشكل إيمان نيقية، ولكن عبثاً، إذ جاءت الصيغة مطوَّلة إلى أقصى حد. ثم ذيَّلوها بحرمانات على الصيغ الأريوسية القديمة إمعاناً في التضليل. وجدَّدوا حرم مارسيللوس وفوتينوس.

وأرسل هذا المجمع الأخير المنعقد في أنطاكية بأمر قسطنطيوس وفداً إلى روما يحمل التلطيفات المناسبة لجريمة استفانوس مع صيغ العقيدة الجديدة. وكان الوفد مكوَّناً من إفدوخيوس أسقف جرمانيكا ومعه ثلاثة آخرون. ولمَّا وصلوا ميلان سنة ٣٤٥م. وجدوا أساقفة الغرب مجتمعين في مجمع هناك (ميلان)، فطلب منهم أساقفة الغرب بادئ ذي بدء أن يعلنوا أولاً حرمهم للعقيدة الأريوسية فرفضوا وعادوا غاضبين.

الإمبراطور قسطنطيوس يتودَّد إلى أثناسيوس
ويرجو مقابلته قبل موت غريغوريوس الكبادوكي:

حينما تنهزم النفس البشرية إزاء اكتشاف خِسَّتها وضلالها، لا يسعها إلاَّ أن تنظر بعين الإكبار والتعظيم إلى النفوس الأخرى التي لم تنحط إلى مستواها في الخسة والضلال، ولم تجارِها في أساليب الخداع والتفريط في الإيمان، فتتودَّد إليها. ولكن سرعان ما يصرعها الكبرياء وتعود إلى أشد مما كانت عليه من الخسة والضلال.

هذه كانت حال قسطنطيوس مع أثناسيوس.

ولنبدأ الآن مرحلة التودُّد. وإليك كلام أثناسيوس في الموضوع:

[والآن وقد أحسَّ الإمبراطور قسطنطيوس بوخز الضمير عاد إلى نفسه، وقد استدلَّ من سلوك الأريوسيين تجاه إيوفراتس أن هجومهم تجاه الآخرين كان على نفس المستوى والنوع. فأعطى أوامره أنَّ كل الكهنة والشمامسة الذين سبق أن صدرت أوامر بنفيهم من الإسكندرية إلى أرمينيا، يعودون في الحال. ثم كتب إلى الإسكندرية مرسوماً علنياً (أغسطس سنة ٣٤٤م) يأمر فيه بأن تكُف كل أعمال العنف والاضطهاد إزاء كل الكهنة والعلمانيين الموالين لأثناسيوس.

(127) Gwatkin, *op. cit.*, p. 125.

وحدث أن مات غريغوريوس بعد مرض دام معه أربعة سنوات، في ٢٦ يونيو سنة ٣٤٥م بعد أن **أرسل الإمبراطور إلى أثناسيوس بعشرة شهور** خطابات مودة تحمل كل دلائل الإكرام ليس أقل من ثلاث مرات. (يلزم هنا أن يكون أول خطاب وصل أثناسيوس في أغسطس سنة ٣٤٤م. وهذا هو المنطق السليم بمعنى أنه في الوقت الذي أرسل فيه الإمبراطور إلى الإسكندرية في أغسطس سنة ٣٤٤م مرسوماً يوقف فيه كل العداء ضد أثناسيوس يكون هو نفسه الوقت الذي أرسل فيه أول خطاب إلى أثناسيوس وهو في أكويلا). وفي هذه الخطابات يدعو أثناسيوس أن يتشجَّع ويحضر لمقابلته.

ثم عاد وأرسل كاهناً وشماساً من قِبَله (إلى أكويلا) حتى يتشجَّع بالأكثر ويحضر لمقابلته. لأن الإمبراطور كان يظن أن ما حدث في الماضي قد أزعجني وجعلني لا أعتني بالعودة (هنا أثناسيوس يتكلّم بصيغة المتكلّم فجأة، ومن هنا يلزم جدًّا أن ننتبه أن أسلوبه في الكتابة هو أن يتكلّم عن نفسه بصيغة الغائب دائماً إلاَّ إذا اضطرَّ اضطراراً أن يعبِّر عن نفسه بالتأكيد).

ثم وأكثر من هذا ـ أرسل إلى أخيه الإمبراطور قسطانس سنة ٣٤٥م ليحثّني على العودة، مؤكِّداً لأخيه أنه لا يزال سنة بأكملها وهو منتظر حضور أثناسيوس إليه، (هذا معناه الأكيد أنه سبق وأرسل خطاباً له منذ سنة كاملة)، وأنه لن يسمح بأي تغيير في الوضع أو بأي رسامة أخرى إذ أنه محتفظ بكنائس أثناسيوس (بعد موت غريغوريوس) لتكون لأسقفها.](١٢٨)

الخطابات الثلاثة التي أرسلها الإمبراطور قسطنطيوس إلى أثناسيوس:

ولأهمية هذه الخطابات ليس لنا فقط ولا للتاريخ وحسب، ولكن لأثناسيوس نفسه إذ جاءته بعد جروحه النازفة كضمادات ملطِّفة في أوانها الحسن، رأيت أن أسجِّلها للقارئ لعلّه يلتقط فيها أنفاسه وهو يتابع هذا الأسقف الطريد على مدى هذه الحوادث الجسام. وهذه الخطابات إن كانت تكشف عن الجانب الإنساني لهذا الإمبراطور المتقلّب إلاَّ أنه بعد أن نقضها بنفسه بعد ذلك، تُحسب عليه أنها لا تمثّل شيئاً من طبيعته الفظة الجبانة، ولكنها الظروف هي التي كانت تكيِّف سلوك هذا الإمبراطور.

(128) *Hist. of the Arian*, 21.

الخطاب الأول:

[أغسطس قسطنطيوس المنتصر إلى أثناسيوس

إن مراحمنا المترأفة لم تعد تحتمل وقوفكم وسط أمواج البحر المستوحشة تلاطمون العواصف. وإن تقوانا لم تكِل أبداً عن ملاحظتكم عن قرب، لمّا حُرمتم من وطنكم، وجُرِّدتم من كل ممتلكاتكم، وجُلْتم تائهين هكذا في البراري المستوحشة. وبالرغم من أنني منذ مدة طويلة وأنا أُؤجِّل فكرة كتابة خطاب إليكم أشرح فيه نية قلبي بخصوصك، لأنني كنت أترقَّب ظهوركم أمامي بمحض مسرتكم، طالباً خلاصك من الآلام التي تعانيها، ولكن يبدو أن الخوف قد منعك من تتميم هذه الفكرة، لذلك أرسلنا لكم خطاباتنا المشدِّدة لعزمكم المملوءة من كرمنا، بغرض الإسراع للظهور أمام حضرتنا بلا خوف حتى تحصل بسرور على كل رغباتك. ولكي إذا ما اختبرتم لطفنا تعودون مطمئنين إلى بلدكم. ولأجل هذا الأمر أرسل مترجياً سيدي وأخي أغسطس قسطانس المنتصر بخصوصك حتى يأذن لك بالحضور حتى تعود إلى بلادك بموافقتنا جميعاً. اقبلوا هذا كعهد هبة منا.](١٢٩)

الخطاب الثاني:

[ولو أننا أوضحنا لكم تماماً في خطاب سابق لكي لا تتردَّدوا في الحضور إلى البلاط، لأننا نرغب بشدة في عودتكم إلى الوطن، إلاَّ أننا نضيف أيضاً إلى ذلك خطابنا هذا لتقوية عزمكم، نستحثكم بلا أي خوف أو مظنَّة أن تستخدموا وسائل مواصلاتنا الخاصة مسرعين إلينا حتى تنالوا ملء رغباتكم.](١٣٠)

الخطاب الثالث:

[ولسرورنا بينما كنا في بلاد الرها (أوديسا) أننا صادفنا كهنة لك هناك، فرأينا أن نرسل واحداً منهم إليك لكي تسرع إلى بلاطنا لكي تتشرَّفوا برؤيتنا، وحينئذ تتجهون مباشرة إلى الإسكندرية. ولكن وقد مضت مدة طويلة جدًّا منذ أن تسلَّمتم خطاباتنا و لم تحضروا إلى الآن، فنحن نسرع بتذكيركم أيضاً لكي تحاول الآن جاهداً في الحضور إلينا سريعاً حتى تعود إلى بلادك **وتنال تحقيق صلواتك**، وليكن في علمك أننا أرسلنا أخياس الشماس إليكم

(129) *Apolog. contra Arian*. 51.
(130) *Ibid.*

الذي منه يمكنكم أن تعلموا غرض نفسنا وهو أن تحصل على موضوع صلواتك.](١٣١)

وداع الأصدقاء وخطاب يوليوس الطيب القلب المملوء رقة:

ولكن أثناسيوس لم يشأ أن يتوجَّه إلى الإمبراطور قسطنطيوس والبدء في العودة إلى الإسكندرية، قبل أن يستودع من أصدقائه الأوفياء الذين ساندوه في محنته بكل ثقلهم، وهل ينسى يوليوس أسقف روما الوقور الذي أكرم وفادته كل أيام تعبه، الذي دعاه لمشاركة الأسرار الإلهية منذ أول يوم، الذي جمع كل أساقفته وأوقفهم إلى جانبه صفاً واحداً متراصاً، الذي تبنَّى قضيته وتبنَّى حججه وبراهينه ودفاعاته وختم عليها، وأخيراً عانى المهزأة من هؤلاء الأريوسيين وإهانة العزل من مجامعهم بسببه؟

أم ينسى قسطانس الذي أحبه واحترمه وأكرم وفادته ودعاه إلى مجالسه من مدينة إلى مدينة، وأخيراً وضع نفسه في أحرج المواقف لنصرة قضيته وضمان عودته إلى كرسيه، بأن هدَّد أخاه ليختار بين إعادة أثناسيوس أو إعلان الحرب!! جاعلاً قضية أثناسيوس على مستوى شرف التاج الذي يلبسه!!

وإليك كلمات أثناسيوس في الموضوع ونص الخطاب الذي أرسله يوليوس أسقف روما إلى أهل الإسكندرية الذي ظل في حوزة أثناسيوس:

[وهكذا كانت لهجة خطابات الإمبراطور التي حالما تسلَّمتها، ذهبت إلى روما لأستودع الكنيسة ويوليوس أسقف روما، لأني كنت في أكويلا عندما وصلني الخطاب الأخير – فوجدت الكنيسة (في روما) مملوءة بالفرح، وتهلَّل الأسقف يوليوس معي لعودتي، وكتب إلى الكنيسة (في الإسكندرية). وبينما كنا نعبر على المدن خرج أساقفة تلك النواحي يشيعوننا بسلام، أمَّا خطاب يوليوس فأنقله إليكم كالآتي بنصه (كُتب في بداية سنة ٣٤٦م):

من يوليوس إلى كهنة وشمامسة وشعب الإسكندرية:

أهنئكم أيها الإخوة لأنكم الآن ترون بأعينكم ثمرة إيمانكم، لأن هذه هي حقيقة قضية أثناسيوس الأسقف الزميل التي يمكن أن يراها الآن كل واحد، الذي من أجل طهارة حياته ومن أجل صلواتكم أعاده الله إليكم مرَّة ثانية. وهذا بيِّنة على أنكم كنتم بلا انقطاع تقدِّمون لله تضرُّعات نقية مملوءة بالمحبة عالمين بالمواعيد الإلهية والمحبة المؤدِّية إليها. هذه التي

(131) *Ibid.*

تعلّمتموها من أخي، واثقين بكل تأكيد عن معرفة وإيمان صادق أن هذا الذي احتفظتم به حاضراً دائماً في قلوبكم بالتقوى لن ينفصل عنكم إلى الأبد.

وإني أعتقد أنه ليست هناك حاجة أن أستخدم عبارات كثيرة في الكتابة إليكم، لأن إيمانكم قد سبق وفاق كل ما يمكن أن أقوله لكم، وبهذا الإيمان نلتم كل الرجاء المنتظر كثمرة لصلواتكم العامة.

ولهذا فإني أفرح أيضاً معكم لأنكم حفظتم أنفسكم بالإيمان غير منهزمين، كما إني بالمثل أفرح مع أخي أثناسيوس كونه وقد احتمل محناً هذا عددها لم يوجد في أي وقت ناسياً محبتكم وشوقكم نحوه. فبالرغم من أنه ظهر وكأنه قد انتُزع منكم بالجسد إلى فترة، إلاّ أنه كان يحيا كحاضر معكم بالروح على الدوام.

وبالأكثر فإني مقتنع يا أحباء أن كل تجربة عاناها لم تكن بدون مجد، إذ بها جاز إيمانكم وإيمانه الامتحان ثم استعلن للجميع. فلولا هذه الضيقات كلها التي عاناها، من كان يصدِّق هذا التوقير وهذه المحبة وبهذا المستوى العالي من نحو أسقفكم الجليل، أو من كان يعرف أنه موهوب بهذه الفضائل الممتازة التي على أساسها قد يتثبَّت رجاؤه أيضاً في السموات؟ فهو بهذه الضيقات حصل على شهادة واعتراف حُسبا له بالمجد هنا في هذا الدهر وفي الآتي. وعندما جاز هذه المحن كلها المتعدِّدة الأشكال في البر وفي البحر عابراً على كل دسائس الأريوسيين، كان يتعرَّض دائماً للخطر بسبب الأحقاد، ولكنه كان يستهين بالموت عالماً أنه في حمى الله القدير والرب يسوع المسيح، واثقاً أنه ليس فقط سينجو من مؤامرات مضطهديه بل وإنه سيعود إليكم من أجل تعزيتكم ومعه شهادات انتصار، هي أصلاً من صنع ضميركم، التي بها صار معروفاً وممجَّداً حتى وإلى أطراف الأرض! وإنه مستحق لهذا باستحقاق نقاوة حياته وحزم عزيمته، وتشبُّثه الذي لا يتزعزع بالعقيدة الإلهية، هذه التي شهدتم أنتم لها وأثبتموها له بتوقيركم وحبكم الذي لم يتزعزع.

فها هوذا يعود إليكم وهو أكثر تألقاً مما كان يوم غادركم!! لأن النار إن كانت تجعل الذهب والفضة أكثر نقاوة بعد الاختبار، فكم بالحري ما يُقال بالنسبة لإنسان عظيم مثل هذا يليق به كل استحقاق، الذي بعد أن جاز النار بغلبة مرات عديدة وبمخاطر، يعود إليكم الآن وبراءته مُعلنة أمامه، ليس من جهتي بل والمجمع كله!

فالآن أيها الإخوة الأحباء استلموا أسقفكم أثناسيوس بكرامة وفرح إلهيين مع كل الذين رافقوه في الضيقات، وتهلّلوا لأنكم نلتم رجاء صلواتكم، أنتم الذين كنتم بالطعام والشراب تعضِّدونه وبالخطابات كنتم تساندونه، أمَّا راعيكم هذا، فكان جائعاً دائماً وعطشاناً إلى تقدمكم الروحي.

وفي الحقيقة أنتم كنتم عزاء نفسه عندما كان متغرِّباً في الأرض البعيدة فصرتم إنعاشاً لروحه بعواطفكم الصادقة وهو في أعماق المحن والاضطهاد.

أمَّا أنا فإنه يسعدني، حتى ولمجرد تصوُّري فرحة كل واحد منكم عند عودته إليكم، وتحيَّات التقوى الصادرة من كل الشعب وأعياد اللُّقيا المجيدة التي تتهيَّأ لها الجماعات، وعجبي على تلك الصورة الكاملة لذلك اليوم الذي فيه يلتقي أخي هذا بكم مرَّة أخرى، عند نهاية الضيقات كلها، عندما تلتحم القلوب جميعاً الملتاعة بالشوق للعودة المبتغاة بأحرٍّ ما تكون عليه تعبيرات الفرح. وإن هذا الشعور عينه ليمتد إلينا في أعلى درجاته، **نحن الذين نعتبره بيِّنة على فضل الله علينا أنه جعلنا أهلاً لهذا الامتياز أن نتعرَّف على هذا الإنسان الجليل الشأن.**

وإنه ليليق بنا أن نختم هذه الرسالة بصلاة:

ليت الله القادر على كل شيء وابنه ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح يمدكم بهذه النعمة على الدوام، وهكذا يعوِّضكم عن الإيمان العجيب الذي أظهرتموه بشهادة عجيبة فيما يختص بأسقفكم، بأن يجعل لكم وللذين معكم «ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه»، بالمسيح يسوع ربنا، الذي به المجد لله القادر على كل شيء إلى الأبد آمين. وإني أصلِّي لكي تتشدَّدوا أيها الإخوة المحبون.](١٣٢)

انتهى خطاب يوليوس إلى أهل الإسكندرية
كما سجَّله أثناسيوس بنفسه

تعليقنا على رسالة يوليوس أسقف روما لكنيسة الإسكندرية:

تعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق في تاريخ العلاقات بين أساقفة الإسكندرية وروما، وهي نموذج، أعلى نموذج، لما ينبغي أن تكون عليه الصلات بين الكنائس وبين رجال الدين عموماً وتمتاز

(132) *Apolog. contra Arian.* 52 & Socrates II 23.

هذه الرسالة بالعناصر الآتية:

(أ) الروح المسيحية تنطلق في هذه الرسالة لتعبِّر عن المشاعر الإيمانية والإنسانية معاً في أُلفة منقطعة النظير، فليست القناعة وحدها بصحَّة العقيدة والإيمان هي التي أمْلَت هذه الرسالة، بل والمشاعر الإنسانية الصادقة التي قيَّمت الظلم والعسف والجور الواقع على إنسان بريء. وما أحوج الكنيسة اليوم لهذا التناسق بين اللاهوت والإنسانية.

(ب) لقد نأى هذا الأسقف الطيب القلب في عبارات هذه الرسالة عن كل أساليب السياسة التي تنبع أصلاً من الإحساس بالذات وتعظيم الامتيازات العنصرية بأي وجه من وجوهها: فقد قرَّظ أثناسيوس كشخص أفضل، وقرَّظ شعب الإسكندرية كشعب أقدس باتضاع مذهل، وهو بذلك رفع نفسه دون أن يدري فوق كل مستوى بشري!!

(ج) لذلك نجد في هذه الرسالة أن هذا الأسقف يوليوس الجليل الشأن حقًّا قد ترك روحه ومشاعره تتكلَّم عمَّا تحسه وتؤمن به، في إخلاص وصدق وبساطة ملفتة جدًّا للنظر، فتكلَّم كلاماً إذا وُزن بموازين العزة والأنفة الرومانية، وُجد ناقصاً معيباً، ولكنه إذا وُزن بميزان المسيح لوُجد كاملاً كمال المسيح ذاته!!

أثناسيوس يقابل الإمبراطور قسطنطيوس:

وأخيراً وبعد هذه الإلحاحات سواء بالخطابات المباشرة لأثناسيوس، أو بإرسال وفود رسمية إليه، أو بترجِّي أخيه ليتوسَّط في الأمر، سافر أثناسيوس مع وفد من الإكليروس المصري وقد كان مقيماً وقتها في أكويلا ـ ليقابل قسطنطيوس، وهو في أشد الريبة من نيات هذا الإمبراطور المتقلّب، ولأنه كان يشك في إمكانياته وحرية إرادته أكثر مما كان يشك في نياته، طلب منه أن يستوثق أولاً أساقفته ورجاله ويستحضرهم ليحاججهم أثناسيوس ليكشف كذبهم أمام الإمبراطور حتى لا يعودوا إلى ما كانوا يعملون، ولكنه رفض وكأنه واثق من نفسه، مع أنه كان دون ذلك بكثير.

وإليك كلام البابا أثناسيوس في الموضوع، ويلاحظ أن أثناسيوس يتكلَّم عن نفسه بصيغة الغائب دائماً:

[ولمَّا ضغط عليه هكذا بكتاباته وأرسل يستحثه ويشجِّعه بواسطة كثيرين، لأنه جعل جماعة من أشرف الولاة الذين يثق فيهم أثناسيوس يكتبون إليه مثل بوليميوس وداتيانوس وبارديون وثالاسسوس وتوروس وفلورنتيوس، سلَّم أثناسيوس الأمر كله لله الذي حرَّك ضمير قسطنطيوس ليصنع هذا، وحضر إليه مع أصدقائه، وقد أصغى إليه الإمبراطور بكل قبول،

وشيَّعه إلى وطنه وإلى كنائسه، وكتب إلى الولاة في كل مكان، الذين سبق وأن أمرهم أن يحرسوا الطرق، بأن يعطوه الآن حرية المسير والعبور.

ولمَّا اشتكى الأسقف (أثناسيوس هنا يتكلَّم عن نفسه) مما أصابه سابقاً من الآلام التي عاناها ومن الخطابات التي وجهها الإمبراطور ضدَّه، متوسِّلاً إليه أن لا تعود الاتهامات الباطلة وتتجدَّد بواسطة أعدائه بعد رحيله قائلاً: "إن حَسُن في عينيك أرجوك أن تدعو هؤلاء الأشخاص لكي تكشف سلوكهم فيما يختص بنا، وهم لهم الحرية فيما يواجهوننا"، فلم يشأ الإمبراطور ذلك، ولكنه أمر أن كل ما كُتب من وشاية وافتراء في حقِّه يُمزَّق ويُلغى، مؤكِّداً أنه لن يصغي مرَّة أخرى لمثل هذه الاتهامات وأن فكره ثابت ولن يتزحزح. وهو لم يقل هذا بمجرَّد الكلام فقط، وإنما ختم أقواله هذه بقسم مستشهداً الله فيما قال وأقسم (ولكن للأسف فقد حنث في كل ما قال وكل ما أقسم) وشيَّعه بكلام تشجيع، ولكي يثق في ذلك أرسل هذه الخطابات للأساقفة والولاة.](١٣٣)

وقد حاول الإمبراطور بإيعاز من الأريوسيين أن يقتطع من أثناسيوس كنيسة خاصة في الإسكندرية للأريوسيين، وكأنما قد عزَّ على هؤلاء الشياطين أن يفقدوا الإسكندرية كلها مرَّة واحدة، فحاولوا لتكون لهم بقية ليستأنفوا منها عملياتهم الشيطانية، ولكن كان رد أثناسيوس حاضراً وسريعاً بدرجة مذهلة مما أسكت الإمبراطور وأنهى على هذه المحاولة الأخيرة اليائسة.

وإليك تسجيل، للمؤرِّخ سقراط، لهذا الحوار الخطير الذي جرى بين الإمبراطور والبابا أثناسيوس:

[وصل أثناسيوس إلى الشرق ومعه خطابات الدعوة الثلاثة، ولم يقابله الإمبراطور بعداء - (كالعادة) - إلاَّ أنه بتحريض الأريوسيين حاول الإمبراطور أن يلفَّ عليه ويخدعه قائلاً: "هوذا أنت تعود إلى كرسيك بمقتضى قرار المجمع وموافقتنا، ولكن وبما أن بعض الشعب في الإسكندرية يرفض أن يقيم الشركة معك، فاسمح أن يكون لهم كنيسة خاصة بهم في الإسكندرية".

وإزاء هذا الطلب أجاب أثناسيوس في الحال بقوله: "يا صاحب السلطان أنت لك القوة أن تأمر وتنفِّذ أيضاً كما تشاء، وأنا أيضاً بناء على ذلك أستأذنك أن تمنحني من فضلك شيئاً". فأجاب الإمبراطور على الفور بالقبول، فاستطرد أثناسيوس في الحال أنه يرغب في أن

(133) *Hist. of the Arians* 22.

يُمنح هو أيضاً نفس الشيء الذي طلبه الإمبراطور منه: أي أن في كل مدينة تُمنح كنيسة للذين يرفضون إقامة الشركة مع الأريوسيين! ولكن الأريوسيين سرعان ما لمحوا من غرض أثناسيوس الأذية والضرر الذي سيحيق بهم هم(١٣٤)، فأجَّلوا طلبهم وانسحبوا معطين التصرُّف للإمبراطور.

وقد منح الإمبراطور لأثناسيوس وبول ومارسيللوس واسكلباس ولوقيوس العودة إلى كراسيهم، لأن هؤلاء جميعاً قبلهم مجمع سرديكا ... ولكن من جهة أثناسيوس كتب الإمبراطور خطابات توصية للأساقفة والكهنة والشعب لتصير مقابلته بسرور، على أن تُسترد جميع الخطابات التي كانت تحمل أوامر ضدَّه وتُلغى.](١٣٥)

ويضيف المؤرِّخ سوزومين أن الإمبراطور قسطنطيوس أمر بأن تكون رحلة أثناسيوس في العودة سريعة وعلى وسائل مواصلاته الخاصة(١٣٦).

ونحن لا نستطيع أن نعبر على هذه المحاولة المستميتة واليائسة من جهة الأريوسيين للحفاظ على وجودهم في الإسكندرية دون أن نشعر بأن الجانب الأريوسي لا يزال متحفِّزاً للحفاظ على وجوده في الإسكندرية بالذات، لأن في ذلك ضماناً لوجودهم في بقية أنحاء العالم كله! لأنهم يعلمون تماماً أن الإنهاء عليهم في الإسكندرية معناه الإنهاء عليهم جميعاً في جميع أنحاء العالم، مع أن الإسكندرية ليست عاصمة للإمبراطورية والشرق كالقسطنطينية أو أنطاكية، وذلك معناه الوحيد أن ثِقَل الإسكندرية اللاهوتي والفكري كان يوازن العالم كله، وهذا ما برهنته الحوادث السالفة جميعاً وما سوف تؤكِّده بشدة الحوادث القادمة أيضاً! ...

أمَّا خضوع قسطنطيوس لاقتراح هؤلاء الأريوسيين حتى إلى آخر لحظة، فهو ينبِّئ بأنه لا تزال في أخلاق الرجل بقية من الخداع والتحيُّز وميل إلى الضلال.

العودة إلى الإسكندرية: ٢٤ بابة ـ ٢١ أكتوبر سنة ٣٤٦م:

ومن أنطاكية انحدر أثناسيوس جنوباً ماراً بسوريا وفلسطين ثم إلى مصر عن الطريق البري، لأن

(١٣٤) ينبغي أن ينتبه القارئ جدًّا أن الحزب الأريوسي في جميع كنائس الشرق كان يمثله الأساقفة وبعض الكهنة وقلة قليلة من الشعب، أمَّا غالبية الشعب الساحقة فظلت قويمة الرأي والإيمان (انظر: سوزومين ٣:٢٠).

(135) Socrates, *Eccl. H.* II 23.

(136) Sozom., *Ecc. H.* III 20.

أثناسيوس لم يستخدم البحر في رحلات العودة، ويضيف "تاريخ أسِفالوس" بحسب التحقيق على الخطابات الفصحية ـ أن جموعاً غفيرة من الشعب والرؤساء خرجوا لملاقاته في الطريق من فلسطين إلى الإسكندرية على بعد مائة ميل من الإسكندرية في المنطقة التي تُدعى Chaereau (وهذا الاسم وارد في كتاب حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس فصل ٨٦).

وقد أفرد القديس غريغوريوس النزينزي في العظة رقم ٢١ وصفاً بليغاً لدخول أثناسيوس إلى الإسكندرية بعبارات المديح الكثير، وقد ارتأينا أن نكتفي بوصف أثناسيوس نفسه لأنه أكثر واقعية.

ويصف لنا أثناسيوس بنفسه دقائق هذه الرحلة المفرحة والمثيرة هكذا:

[وأخيراً وتحت هذه الظروف وبعد أن أخذوا الإذن بالمغادرة بدأت الرحلة، أمَّا الأصدقاء الذين قابلونا ففرحوا إذ وجدوا صديقاً، أمَّا الحزب الآخر فبعضهم انتابه الارتباك عند رؤيته (أثناسيوس يتكلَّم عن نفسه)، وآخرون لم توافِهم الشجاعة للظهور فاختبأوا، وآخرون ندموا واعتذروا عمَّا كتبوه ضد الأسقف.

وهكذا كل أساقفة فلسطين استقبلوا أثناسيوس بسرور ـ ما عدا اثنين أو ثلاثة من ذوي **الأخلاق** المشكوك فيها ـ وأقاموا الشركة معه معتذرين ـ كتابة ـ على أساس أن ما سبق وكتبوه (ضد أثناسيوس) إنما قاموا به ليس بدافع من إرادتهم وإنما بالإرغام.](١٣٧)

وفي موضع آخر يصف أثناسيوس مقدار حماس أساقفة فلسطين ويذكر أنهم عقدوا مجمعاً في أُورشليم برئاسة مكسيموس أسقفها لاستقباله بمنتهى الحرارة وشيَّعوه بعد أن كتبوا رسالة رقيقة إلى أساقفة مصر، وإليك تسجيلات أثناسيوس في هذا الموضوع:

[ولمَّا مررت على سوريا(١٣٨) قابلت أساقفة فلسطين الذين عقدوا مجمعاً في أُورشليم استقبلوني فيه بحرارة قلبية وكتبوا هذا الخطاب إلى الكنيسة (الإسكندرية) والأساقفة:

المجمع المقدَّس المنعقد في أُورشليم، إلى زملائنا في الخدمة في مصر وليبيا، وإلى كهنة وشمامسة وشعب الإسكندرية، الإخوة المحبوبين الذين نشتاق إليهم جدًّا، يرسل تمنيات العافية

(137) *Hist. Arian.* 25.

(١٣٨) وكان لاونديوس الخصي أسقفاً على أنطاكية، وهذا تحاشاه أثناسيوس ر لم يشترك معه، ولكنه اجتمع هناك مع جماعة يوستاثيوس الأسقف القديم الذي عزله الأريوسيون قديماً (انظر صفحة ٧٦)، وكانوا يمثِّلون أغلبية الشعب، وأقاموا الشركة معاً في منزل خاص (انظر: سوزومين ٣: ٢٠).

في الرب.

لا نستطيع إلاَّ أن نقدِّم الشكر اللائق إلى الله من أجل الأمور العجيبة التي يعملها دائماً وبالأخص الآن من جهة كنيستكم بإرجاع راعيكم وسيدكم إليكم، زميلنا في الخدمة أثناسيوس. لأنه مَنْ كان يصدِّق أن عينيه ستريان ما قد صار لكم الآن. حقًّا إن الله الذي يعتني هكذا بكنيسته، قد سمع صلواتكم ونظر إلى دموعكم وأنينكم واستجاب لتوسلاتكم ...](١٣٩)

ويعود أثناسيوس ليستأنف وصف الرحلة من فلسطين إلى مصر:

[أمَّا من جهة أساقفة مصر ونواحي ليبيا وشعبيهما وشعب الإسكندرية، فلا داعي للاسترسال في الوصف، لأنهم تقاطروا جميعاً وقد تملَّكت عليهم فرحة لا يمكن التعبير عنها، ليس لأنهم استقبلوا أصدقاءهم أحياءً، الأمر الذي لم يكونوا قط يتوقَّعونه، بل وبالأكثر لأنهم تخلصوا من الهراطقة الذين كانوا كالسفَّاحين أو كالكلاب المسعورة نحوهم، ولذلك تعاظم سرورهم (باستجابة تقوية)، فكان الشعب يحمس بعضه البعض لمزيد من الفضيلة.

كم من عذارى نذرن أنفسهن للمسيح بعد أن كن يطلبن الزواج!

كم من شباب تغايروا بسبب رؤيتهم لنماذج الآخرين فخرجوا للحياة الرهبانية.

كم من آباء قد أقنعوا أولادهم، وكم من أولاد أقنعوا آباءهم لمزيد من النسك المسيحي.

كم من زوجات أقنعن أزواجهن، وأزواج أقنعوا زوجاتهم وتفرَّغوا للدخول في عهد الصلاة كما أوصى الرسول.

كم من أرامل، كم من يتامى، كانوا جياعاً عرايا وبحماس الشعب امتلأوا شبعاً واكتسوا.

وفي كلمة، كم كانت غيرة الشعب ومنافسته في الفضيلة حتى لتكاد تظن أن كل عائلة وكل بيت قد صار كنيسة! من أجل صلاح الساكنين فيه والصلاة التي يرفعونها أمام الله.

أمَّا في الكنائس فكانت هناك موجة سلام عميقة وعجيبة، والأساقفة كتبوا من كل ناحية - في العالم - لأثناسيوس، وأثناسيوس كتب لهم الرسائل السلامية كالمعتاد ...

ومَنْ كان يرى هذه الأمور ولا يمتلئ عجباً، والسلام يرفرف على الكنائس!

مَنْ ذا الذي لا يتهلَّل بسبب رؤيته لأُلفة الأساقفة واتفاقهم في كل مكان!

مَنْ ذا الذي يرى سرور الشعب في كل اجتماعاتهم ولا يعطي المجد لله!

(139) *Apolog. contra Arian.* 57.

كم من أعداء تابوا،
كم من أشخاص اعتذروا عما بدر منهم نحوه من ظلم أو اتهام بالزور!
كم من أشخاص كانوا معه في عداوة، فصاروا في تعاطف وحب!
كم من الأشخاص الذين انحازوا تحت الضغط والإرهاب جاءوا ليلاً وقدَّموا توبتهم! معلنين حرمهم للهراطقة، متوسِّلين منه العفو لأنهم وإن كانوا قد انغمروا في المؤامرات والمكايد وظهروا كأنهم في انحياز شخصي للأريوسيين، إلاَّ أنهم اعترفوا أن قلوبهم كانت دائماً في شركة صادقة معه ...
صدِّقوني هذا صدق! (أثناسيوس في النهاية يكشف عن نفسه متكلِّماً بصيغة الحاضر).][140]

رهبان باخوميوس يهنِّئون أثناسيوس بالعودة حاملين له رسالة من القديس أنطونيوس:

لم يعش باخوميوس ليسمع خبر عودة أثناسيوس من منفاه الثاني، لأنه بحسب التحقيق التاريخي كانت نياحة القديس باخوميوس في ١٤ بشنس (٩ مايو)، وكانت عودة أثناسيوس في ٢٤ بابة (٢١ أكتوبر) من نفس السنة الميلادية ٣٤٦م.

أمَّا القديس أنطونيوس فكان يتبقَّى على نياحته عشر سنوات لأنه تنيَّح سنة ٣٥٦م. وقصة إرسال أنطونيوس خطاب تحية وتهنئة للقديس أثناسيوس عند عودته من المنفى الثاني، وردت في سيرة القديس باخوميوس هكذا:

[وعرض فيما بعد من الأمور المباركة أن الأب الفائق قدسه أثناسيوس المتوشِّح بالمسيح رأس أساقفة الإسكندرية عاد من القسطنطينية (صحتها من أنطاكية) وتسلَّم كرسيه وصار الأكثرون يقصدونه للسلام عليه وللمفاوضة معه وأخذ صلاته وبركته.

ووافق ذلك أن إخوة من الدير "بافو" توجَّهوا وقتئذ إلى الإسكندرية في مركبهم الخصيص لأسباب تختص بمصالح الدير، وفي حال مسيرهم وقد حصلوا عند الجبل الذي كان فيه الأب الكبير أنطونيوس تذاكروه، وآثروا أن يبصروه ويأخذوا بركته، فخرجوا من المركب وصعدوا في الجبل وعندما اقتربوا من مغارته، اقتسر ذاته لأنه كان شيخاً هرماً (٩٥ سنة) ونهض للقائهم. ولمَّا سلَّموا عليه سألهم عن أخبار الأب باخوميوس (كان قد تنيَّح منذ

(140) *Hist. Arian.*, 25, 27.

فترة قصيرة جدًّا ولم يكن قد شاع الخبر بعد) فبكوا بشجْو كثير. حينئذ علم أنه قد انتقل إلى الرب، فقال لهم: لا تبكوا لأنكم كلكم بصلواته قد صرتم باخوميين كثيرين. وبالحقيقة أقول لكم: إنه قد خدم الرب خدمة كبيرة في جمعه هذه الجماعات الوافرة وجعلهم على رأي واحد عابدين الإله، وسلك منهج الرسل واقتدى بهم، وصار مصباحاً منيراً ...

ولمَّا عرف أن قصدهم المضي إلى الإسكندرية للسلام على أنبا أثناسيوس ولأسباب أخر، كتب لهم كتاباً إلى المذكور رئيس الأساقفة يهنّئه بقدومه معافى إلى كرسيه ويقول له عن الإخوة حاملين كتابه تأمل أولاد الإسرائيلي حقًّا. ثم صلَّى عليهم وباركهم وسرَّح سبيلهم، ولمَّا وصلوا إلى الإسكندرية قبلهم الأب أثناسيوس الأسقف أحسن قبول وزاد في كرامتهم لاسيما لأجل كتاب المغبوط أنطونيوس لأنه كان عارفاً بفضيلته وسمو سيرته. ولمَّا قضوا أشغالهم عادوا إلى ديرهم.][١٤١]



كورنيش من الحجر المنحوت بشكل أوراق الشجر الغنية بالتفاصيل الدقيقة تخرج من فرع متماوج
[من دير باويط (القرن السابع) معروضة في متحف اللوفر بباريس]

(١٤١) سيرة أنبا باخوميوس المطبوعة صفحة ١٤٤–١٤٦.

الفصل الرابع
جهاد أثناسيوس حتى النفي الثالث

(أ) فترة هدوء وسلام طويلة: الحلقة الذهبية في حياة أثناسيوس

(ب) بدء الاضطرابات للمرة الثالثة

(ج) فترة النفي الثالث

(د) العودة إلى الإسكندرية

فترة هدوء وسلام طويلة

من ٢٤ بابة – ٢١ أكتوبر سنة ٣٤٦ حتى ١٣ أمشير – ٨ فبراير سنة ٣٥٦م
تسع سنوات وثلاثة شهور وتسعة عشر يوماً

وتعتبر هذه الفترة السلامية أطول مدة قضاها أثناسيوس على كرسي الإسكندرية بدون اضطرابات أو قلاقل، كما أنها جاءت في أنسب سن من حياته إذ كان قد بلغ آنئذ الثامنة والأربعين من عمره المبارك. وكانت له فترة سعادة وغبطة روحية داخلية، لذلك سُميت بالحلقة الذهبية في سلسلة حياته.

الحلقة الذهبية في حياة أثناسيوس
٣٤٦م – ٣٥٦م

وتنقسم هذه الفترة إلى مرحلتين بسبب موت الإمبراطور قسطانس صديق أثناسيوس:

المرحلة الأولى: ٣٤٦م – ٣٥١م. وتنتهي بموت قسطانس وتولّي قسطنطيوس عرش الإمبراطوريتين معاً الغربية والشرقية، وذلك في يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٣٥١م في اليوم المعروف بيوم مورسا.

والمرحلة الثانية: ٣٥١م – ٣٥٦م. وهي وإن كانت قد بدأت فيها حركات المقاومة، ولكن كانت تتميَّز بعمل إيجابي وتوطيد الحياة الروحية والكنسيَّة بوجه عام وفي كل ربوع مصر، وبالأخص الأقاليم البعيدة وطيبة (الأقصر). ولذلك نستطيع أن نعتبر كل هذه المدة أي العشر سنوات كفترة واحدة هيَّأها الله للعمل والبناء والتعليم والرعاية.

نهضة رعائية عامة وشعبية في كل النواحي الروحية:

إن عودة أثناسيوس إلى كرسيه بعد غياب طال أمده (تسعون شهراً)، وبعد المعاناة القاسية التي عاناها كل من أثناسيوس والشعب تحت وطأة اضطهاد الأريوسيين والميليتيين، كانت بمثابة نجدة سماوية غير مرتقبة، جعلت الشعب في حالة تحفُّز روحي شديد واستعداد إيجابي لكل دعوة روحية

ولكل خدمة ولكل عمل يمكن أن يعبِّر فيه الشعب عن امتنانه لله وحبه وخضوعه المطلق لراعيه الأمين، الذي قدَّم حياته عنهم للموت مراراً. وأثناسيوس نفسه هو الذي يكشف لنا سبب إيجابية الانفعال الذي تملَّك على الشعب وظهر في صورة أعمال ونسك وجهادات وتقوى هكذا:

[وقد تملَّكت عليهم فرحة لا يمكن التعبير عنها ليس لأنهم استقبلوا أصدقاءهم أحياءً، الأمر الذي لم يكونوا يتوقَّعونه، بل وبالأكثر لأنهم تخلَّصوا من الهراطقة الذين كانوا كالسفَّاحين أو كالكلاب المسعورة نحوهم. ولذلك تعاظم سرورهم، فكان الشعب يحمِّس بعضه البعض لمزيد من الفضيلة.](1)

ولقد أجمل لنا أثناسيوس كل الأعمال الإيجابية التي قام بها الشعب على كل مستوياته بعد عودته من المنفى الثاني، سواء التي قدَّمها الشعب بتلقائية فرحته بعودة راعيه أو التي امتثل لها بناءً على توجيهات من البابا أثناسيوس نفسه. ويمكن تقسيمها بحسب التسلسل الذي اتبعه أثناسيوس كالآتي:

أولاً: نشاط متزايد جدًّا في الخروج من العالم
لتقبُّل الحياة الرهبانية بالنسبة للفتيات والشبان:

(أ) **بالنسبة للشابات:** "كم من عذارى نذرن أنفسهن للمسيح بعد أن كُنَّ يطلبن الزواج".

(ب) **بالنسبة للشبان:** "كم من شباب تغايروا بالغيرة الحسنة بسبب رؤيتهم لنماذج الآخرين، فخرجوا من العالم للحياة الرهبانية".

ثانياً: إقبال الأسر على أعمال النسك والتدقيق في الحياة،
من صوم وصلاة وصدقة وحضور الاجتماعات الكنسية:

"كم من آباء أقنعوا أولادهم وكم من أولاد أقنعوا آباءهم لمزيد من النسك المسيحي".

ثالثاً: دخول المتزوِّجين في تنافس مع النُسَّاك والرهبان، للقداسة بروح إنجيلية:

"كم من زوجات أقنعن أزواجهن وأزواج أقنعوا زوجاتهم وتفرَّغوا للدخول في عهد الصلاة".

رابعاً: تكوين منظَّمات شعبية بسبب انفعال المحبة الروحية العملية،
لخدمة الأرامل والأيتام من جهة الأعواز الجسدية:

"كم من أرامل وكم من أيتام كانوا جيَاعاً عرايا، وبحماس الشعب امتلأوا شبعاً واكتسوا".

---

(1) *Hist. Arian.* 25, 27.

خامساً: تكوين اجتماعات روحية في البيوت في حدود الأسرة للصلاة والتسبيح والشكر، حتى صار كل بيت كأنه كنيسة:

"كانت غيرة الشعب ومنافسته في الفضيلة شديدة حتى يكاد يُظن أن كل عائلة وكل بيت قد صار كنيسة، بسبب صلاح الساكنين فيه والصلوات التي يرفعونها أمام الله".

"سرور وسط الشعب في كل اجتماعاتهم".

سادساً: نشاط الخدمة داخل الكنائس والصلوات وعلاقات الأساقفة والكهنة كان يعمُّها السلام العميق، وهنا إشارة ضمنية إلى عمليات تنظيم وتوجيه من أثناسيوس نفسه لابد شملت مجامع محلية واجتماعات وزيارات افتقاد:

"أمَّا في الكنائس فكانت هناك موجة من السلام العجيب والعميق، والأساقفة كتبوا من كل النواحي واستلموا من أثناسيوس الرسائل السلامية كالمعتاد"، "والسلام هكذا كان يرفرف على الكنائس".

"أُلفة بين الأساقفة واتفاقهم في كل مكان".

سابعاً: نشاط ملحوظ في الوعظ والنشرات الدورية لإقناع الأريوسيين والميليتيين بالعودة إلى الكنيسة، وإظهار روح الصفح والقبول:

"كم من أعداء تابوا".

"كم من أشخاص اعتذروا له عمَّا بدر منهم نحوه من ظلم أو اتهام بالزور".

"كم من أشخاص كانوا معه في عداوة فصاروا في تعاطف وحب".

"كم من أشخاص انحازوا تحت الضغط والإرهاب جاءوا ليلاً وقدَّموا توبتهم".

القديس أثناسيوس والحياة الرهبانية
(في الفترة من سنة ٣٤٦م – ٣٥٦م)

تعتبر هذه الفترة من أهم الفترات في تاريخ الكنيسة وفي تاريخ الحياة الرهبانية معاً، إذ توطَّدت فيها العلاقة بين الاثنين إلى درجة الالتحام الشديد، فبالرغم من أن الحياة الرهبانية ظلَّت حتى هذا التاريخ تؤدِّي خدماتها الروحية بتحفُّظ شديد، باعتبار الرهبنة عزلة وانقطاعاً كلياً عن العالم، تستمد وجودها من عزلتها وتستمد نشاطها من صمتها، وتؤدِّي واجبها الإيماني والكنسي إزاء مشاكل الرؤساء ومحنة الكنيسة بالصلاة من على بُعد أو بزيارات خاطفة، إلاَّ أنه لم يدم هذا التحفُّظ و لم يدم هذا الاستقلال بصورته الحاسمة هذه، وذلك بعد أن أدرك أثناسيوس مركز الرهبنة الهام والدور الخطير الذي قام به الرهبان في محنة الكنيسة أثناء اضطهاد الأريوسيين، وفي فترة نفيه الثاني بالذات التي دامت تسعين شهراً.

ولقد خرج أثناسيوس من نفيه الثاني وله في ذهنه صورة للرهبنة وضحت معالمها من خلال هذه المحنة، استطاع أن يستوعبها وصمَّم أن يمتد بها لتؤدِّي أقصى ما يمكن من نشاطها تجاه الكنيسة عامة.

١ – فقد ثبت لديه بالدليل القاطع أن التجمُّعات الرهبانية في نتريا في أقصى الشمال بقيادة آمون، وفي وسط الوادي بقيادة أنطونيوس، وفي طبنسين في أقصى الجنوب بقيادة باخوم، كانت أثناء الحرب الأريوسية – حرب التضليل وزعزعة الإيمان ومسخ التقليد – عبارة عن مراكز ثابتة وحصون لتجمُّع إيماني ضخم، كانت بمثابة رصيد ثابت للكنيسة على أعلى درجة من المعرفة الكنسية والإيمانية والاستنارة العملية لا يمكن أن تُقهر بأي حال من الأحوال!!

حاول الأريوسيون استخدام بعض الرهبان والأساقفة المنحازين لهم أن يقتحموا هذه الحصون المنيعة فباءت كل جهودهم بالفشل وذابت العناصر الدخيلة الضعيفة في وسط هذا البحر الخضم من الروحانية! (انظر خطاب أثناسيوس للرهبان رقم ٥٢، ٥٣).

٢ – كانت هذه التجمعات الرهبانية الثلاثة بمثابة نقط انطلاق فعَّالة لتغذية المناطق الشعبية التي

ضعف فيها الإيمان. إذ انطلق كثير من الرهبان لمساندة الكنائس في أثناء محنة الاضطهاد فكسروا حدة الموجة الأريوسية التي أعدَّ الأريوسيون لها وخطَّطوا بالسياسة والقوة العسكرية والتزييف الديني (انظر زيارة أنطونيوس نفسه للإسكندرية كنموذج أعلى لما قام به كثيرون من الرهبان).

٣ ـ كما أدرك أثناسيوس مقدار الأثر الروحي الذي ساند الكنيسة وسانده هو شخصياً في محنته بصلوات الرهبان ومجرَّد ظهورهم في وسط الشعب بمنظرهم وسلوكهم الروحاني.

٤ ـ لقد استعان أثناسيوس بالرهبان في قضاء الكثير من المهام الخطيرة التي كانت على مستوى البذل للموت، فتكشَّفت لديه الطبيعة الفدائية التي يكتسبها الرهبان في حياتهم.

٥ ـ وفوق هذا كله كان أثناسيوس يعتقد بإيمان جازم أن طقس البتولية وخاصة للعذارى هو طقس ملائكي، كرامته في الكنيسة تفوق الوصف وله عمله السري لدرجة أنه كان يقول إن المدينة إذا كان يوجد فيها عذراء تقية متبتلة للمسيح، فإن الله يحفظ هذه المدينة بلا سوء بسبب هذه العذراء (انظر قوانين أثناسيوس).

وانطلاقاً من هذه الأسباب والدوافع، بدأ أثناسيوس يشجِّع الحياة الرهبانية في مواعظه ومؤلفاته ويكتب مقالات عن النسك والرهبنة والبتولية بحماس شديد، حتى ألهب الروح النسكية عند الشبان والشابات، فبدأت موجة التكريس تأخذ اندفاعها وقوتها بصورة ملفتة للنظر جدًّا.

وإليك أيها القارئ نقدِّم تسجيلاً من تاريخ حياة باخوميوس يثبت هذه الحقيقة بالدليل القاطع:

[واتصلت أخبار الأب باخوميوس برجل اسمه تادرس **من ذوي مراتب الكنيسة** العظمى بمدينة الإسكندرية، وكان فاضلاً في سيرته متقشِّفاً في عيشته يلازم النسك، ... مستقيم الديانة صحيح الأمانة لأنه كان قريباً وملازماً لينبوع الحياة الأب أثناسيوس رئيس أساقفة الإسكندرية، ومنه سقى أرضه ورواها وأتى بأثمار الفضائل. فقبله الأب في الحين بفرح كثير وأحصاه في جملة الإخوة، ورسم له المقام عند شيخ من القدماء الأفاضل يحسن اللغتين اليونانية والقبطية، لأن تادرس هذا كان لا يحسن إلاَّ اليونانية، فكان الشيخ يعلِّمه القبطية ... وهذا كان بكر الإسكندرانيين في هذا الدير، لأنه قدم منهم جماعة واقتدوا بسيرته، من جملتهم أكسونيوس، وناون، والروميان فيرمي ورروميلس والعجيب دومنوس الملقَّب بالأرمني وبقية القديسين الكواكب الزاهرة. بعضهم أدرك باخوميوس في حياته وبعضهم لم يدركه

(قبل عام ٣٤٦م. وبعد ٣٤٦م).][٢]

كذلك نقرأ في سيرة القديس أمونيوس الذي ترهَّب في أديرة الباخوميين على يدي تادرس تلميذ باخوم (١٥ مارس سنة ٣٥١م) بعد نياحة باخوم بست سنوات وأكمل رهبنته في نتريـا، أنـه تقبَّـل الفكرة الرهبانية على أثر موعظة من عظات القديس أثناسيوس، وكان عمره آنئذ ١٧ سنة[٣].

ويخبرنا القديس جيروم أن أثناسيوس عالج موضوع البتولية مرَّات كثيرة ولا تزال كثير من عظاته ومؤلَّفاته عن البتولية موجودة، بعضها تحقَّـق بصفـة مؤكَّـدة أنهـا بقلـم القديـس أثناسـيوس أو مـن أقواله، وبعضها لا يزال العلماء متردِّدين في صحة نسبتها إليه[٤].

ومن كتابات أثناسيوس الموثوق بها نقـرأ الكثـير عـن قوانـين للعـذارى وصلـوات لهـن تُقـال في مناسبات كثيرة وعلى الأغابي التي تصنعهـا العـذارى، وعمـا يجـب في سـلوكهن وأكلهـن ولبسـهن وسهرهن.

كذلك من الاصطلاحات المأخوذة عن أثناسيوس القول بأن الرهبنة هي: "**طقس ملائكـي**" وأن "**العذارى هنَّ عرائس للمسيح**" و"**إنهن ختمن عقداً مع المسـيح يـدوم حتـى المـوت**"، "**يمارسـن الصمت والقراءة في الأسفار المقدَّسة ويرتِّلن المزامير ويعملن بأيديهن ولكن يعشن عيشـة الفقـر الإرادي**"[٥].

وقد عثر العالم لوفور في الدير الأبيض على مخطوطات فيها أجزاء من عظات القديس أثناسـيوس كان يستخدمها الأنبا شنودة في تثقيف الرهبان، وفيها يسمِّي أثناسيوس الرهبنة أو البتوليـة "موهبـة إلهية" ويسميها: "**غنى الكنيسة**"، "**عطية البذل المحفوظة لله**"، "**العذراء تعيش حياة غـير مائتـة في جسد مائت**"[٦].

ومن خطاب أثناسيوس لأمون أب رهبان إقليم نتريا نستطيع أن نكوِّن فكـرة غايـة في الوضـوح عن منهج أثناسيوس الفكري بخصوص الزواج والبتولية، وعن تقييمه الفائق للحياة الرهبانية هكذا:

---

(٢) سيرة باخوميوس (مطبوع) صفحة ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) كتاب: "الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار" للأب متى المسكين، صفحة ١٩٤ ـ ٢٦٠.

(4) Quastin, *Patrology*, vol. III, pp. 45, 49.

(5) Ibid. pp. 46, 47.

(6) Ibid. p. 49.

[لأنه يوجد طريقان في الحياة بخصوص هذا الأمر: واحد، الأكثر اعتدالاً والعادي، أقصد الزواج؛ والآخر ملائكي ولا يفوق عليه شيء، وهو البتولية. والآن إذا اختار الإنسان طريق العالم أي الزواج فلا يُلام، غير أنه لا يستطيع أن يحصل على مواهب كبيرة كالآخر، فهو سيحصل على ثمر **بمقدار ثلاثين**، ولكن إذا تقبَّل الرجل الطريق المقدَّس غير الأرضي، فبموازنته مع الأول - فهو وإن كان خشناً وشاقاً في تكميله، إلاَّ أن ثماره أكثر وأعجب، لأن فيه تنمو الثمار الكاملة **بمقدار المائة** ... فقوِّي أيها الأب قطيعك الذين تحت تدبيرك، عظهم بالكتابات الرسولية (الرسائل) وقُدهم بالإنجيل وأرشدهم بالمزامير.](٧)

هكذا كان أثناسيوس يعيش بروح أنطونيوس معلِّمه الذي كان قد تلقَّى منه الروح النسكية في شبابه. وهكذا استمر أثناسيوس يبث هذه الروح عينها، روح النسك والرهبنة، في الشباب حتى صارت جموع الرهبان تعد بعشرات الألوف، في نتريا والقلالي وشيهيت وطيبة - أي في كل صعيد مصر - من منف حتى أسوان. وقد أحس أثناسيوس أنه يُمتّ إلى هذه الطغمة بصلة وثيقة فوضع نفسه على رأسها يهتم بها ويعتمد عليها، حتى صارت جزءاً لا يتجزَّأ من الكنيسة وسلاحاً من أقوى الأسلحة التي استخدمها ضد الأريوسيين.

وقد كان لصداقة أثناسيوس برؤساء الجماعات الرهبانية سواء كان مع أمونيوس في نتريا أو أنطونيوس في بسبير أو باخوم في طبنسين، أثرٌ عميقٌ على توجيه الحياة الرهبانية وحفظها على مستوى النسك السليم وتطهيرها من الانحرافات الفكرية وإمدادها بالمعرفة اللاهوتية الصحيحة. وهذا واضح غاية الوضوح من الخطابات القليلة التي احتفظ لنا بها التاريخ سواء التي أرسلها لأمون رئيس نتريا أو لأمونيوس تلميذ تادرس الباخومي الذي عاش في نتريا أو لأورسيزيوس في طبنسين أو لجماعات الرهبان بدون ذكر أسماء، والمعروف أن رؤساء الجماعات كانوا يزورونه ويراسلونه على الدوام ويسألونه عن كل شيء حتى عن دقائق الأمور النسكية التي كان يصعب عليهم إعطاء تعليم قاطع بشأنها، كما حدث مع أمون عندما أرسل يسأله بشأن الاحتلام الليلي والأفكار والمناظر الليلية الخارجة عن حدود الطهارة التي كانت تعثر كثيراً من الرهبان.

ولم يكن اهتمام أثناسيوس بالحياة الرهبانية مقتصراً على مصر فقط بل امتد حتى شمل كل إيطاليا وفرنسا وبقية النواحي الغربية. وما كتاب "حياة أنطونيوس" الذي كتبه أثناسيوس في أصله

(7) Athanas., *Letter xlviii.*

إلاَّ رسالة من الرسائل التي كان يَرُد بها على استفسارات رؤساء الرهبنات التي أنشأها في الغرب أثناء نفيه الثاني الذي امتد إلى تسعين شهراً.

أثناسيوس يرسم أساقفة على الكراسي الشاغرة من الرهبان:

معروف أنه حتى إلى زمان أثناسيوس (منتصف القرن الرابع) كانت الصفة الغالبة في تعيين الأساقفة من العلمانيين ومن المتزوجين أيضاً، لأن الرهبنة حتى إلى ذلك الحين كانت متحفظة أشد التحفظ ومنعزلة أشد العزلة وعازفة عن النزول إلى العالم حتى وبأية حجة فاضلة.

ولكن قد أصبح أثناسيوس ناسكاً ورئيس النسَّاك وقد دفع بأولاد كثيرين لينخرطوا في الحياة الرهبانية متأثرين بعظاته وتعاليمه وسيرته النسكية، بدأ أثناسيوس يقنعهم ليرسم منهم أساقفة بالجملة على الكراسي التي شغرت بطرد الأريوسيين - عندما قويت يده وتشدَّدت بعد عودته من النفي الثاني - وكان عددهم كبيراً جدًّا.

ومن الحوار الذي سنورده هنا بين أثناسيوس وأحد الرهبان الذين رسمهم أثناسيوس أساقفة، الذي أراد بعد فترة أن يترك الأسقفية ويعود إلى رهبنته بسبب اكتشافه خطورة الحياة وسط العالم، يتضح لنا حداثة فكرة إقامة الأساقفة من طغمة الرهبان في ذلك الوقت.

يقول أثناسيوس في خطابه للأسقف دراكونتيوس (كتبه سنة ٣٥٤م):

[أسرع إذن أيها الحبيب ولا تتأخَّر ولا تبالي بهؤلاء الذين يعوقونك ... **لأنك لست وحدك فقط الذي اختير من الرهبان ولا أنت وحدك فقط الذي كنت رئيساً على دير أو كنت محبوباً وحدك من الرهبان. فأنت تعلم** "سيرابيون"(٨). هذا كان أيضاً راهباً وكان رئيساً على عدد كبير من الرهبان، وليس سيرابيون فقط فأنت تعلم أيضاً رهباناً كثيرين - صاروا أساقفة - **أبوللوس** كان أباً، وأغاثون، وأريستون، وتذكر أيضاً أمونيوس الذي سافر مع سيرابيون (أرسلهما أثناسيوس مع آخرين لمقابلة قسطنطيوس في ميلان سنة ٣٥٣م) وأظنك سمعت أيضاً عن **مويتس (مويس)** الذي على أعلى الصعيد، ويمكنك أن تعرف أيضاً **بول أسقف لاتوبوليس**، وآخرون كثيرين، وهؤلاء لما اختيروا لم يستعفوا أو تخلُّوا ...

فلا تجعل الرهبان بعد ذلك يمنعونك، وكأنما أنت وحدك الذي اختير من بين الرهبان،

---

(٨) المعتقد أن سيرابيون رسمه أثناسيوس أسقفاً على تمويس ربما في سنة ٣٣٧-٣٣٩م. ويعتقد أنه تنيَّح بعد سنة ٣٦٨م. والمعروف بتحقيق أنه تلميذ لأنبا أنطونيوس. وقد ظلَّت علاقاته برهبان أنطونيوس قوية.

ولا تقدم الأعذار لكي تثبت أنك ستخسر (في الأسقفية) أو تنحل، لأنك بالعكس يمكنك أن تنمو لو تمثلت ببولس واقتفيت أثر جهادات القديسين ... لا تصدِّق الذين يقولون لك إن عمل الأسقفية هو فرصة للخطية أو أنه يثير التجارب التي تؤدِّي إلى الخطية.](٩)

من هذا الحوار الشيق يتضح تماماً أن رسامة الأساقفة قد بدأت بالفعل في أيام أثناسيوس تأخذ طريقها من طغمة الرهبان، ولكن في حذر وخوف وتمنُّع بل ونكوص واستعفاء أحياناً. كما يظهر الرهبان هنا يشيرون على أخ لهم قد رُسم بالفعل أسقفاً أن يترك الأسقفية ويعود إلى رهبانيته حفاظاً على خلاصه! ولا يصعب أن يدرك القارئ أن غالبية الأساقفة كانوا من العلمانيين وليس من طغمة الرهبان، فالأمثلة التي قدَّمها أثناسيوس للرهبان الأساقفة تزيد عن سبعة قليلاً، في حين أن عدد الأساقفة آنئذ كان يربو على المائة!

أثر ارتباط الأساقفة الرهبان بأديرتهم وزملائهم الرهبان:

ودون أن يدري أو يخطِّط، استطاع أثناسيوس أن يربط لأول مرَّة المؤسَّسات الرهبانية بالكنيسة بهذه الرسامات الجديدة والكثيرة جدًّا - رباطاً قوياً ظل مستمراً حتى اليوم، وجعل من الأديرة ظهيراً صلباً للكنيسة. وكأنما بهذه الرسامات جنَّد الأديرة والرهبان جميعاً لخدمة الكنيسة خصوصاً في الأوقات العصيبة التي كانت وشيكة الوقوع. فكل أسقف كان يشايعه ديره، وكل دير كان يشايعه إقليمه، فلو علمنا أن الأديرة كانت في ذلك الزمان على أعلى مستوى من الأُلفة والمحبة والتعاون وتبادل الرهبان بعضهم مع بعض، لأدركنا مقدار الترابط والقوة الروحية التي آلت للكنيسة بهذا التدبير الجديد، وهذه هي القوة ذاتها التي خدمت أثناسيوس في هروبه الثالث حيث صارت له الأديرة وجماعات الرهبان بمثابة أعوان وأهل وجنود فدائيين في صمت وإخلاص وحب وبذل حتى الموت!

تطهير الأقاليم والأديرة من الأريوسية:

لقد بذل أثناسيوس في هذه السنوات العشر كل ما يستطيع لاقتلاع جذور الأريوسية التي كانت قد تغلغلت - أثناء غيابه - في كل الأقاليم حتى أقاصي الصعيد، فقام بكتابة الرسائل الخاصة للأساقفة المؤتمنين، وفيها قدَّم كل ما يمكن تقديمه من التوعية اللاهوتية والإنجيلية والتحذير من التهاون في مواجهة هذه الهرطقات الخطيرة، واصفاً إيَّاها بأشنع الأوصاف حتى يربي في قلوب

(9) *Letter of Athanas. ad Dracontius.*

الأساقفة والكهنة والرهبان الجزع من سماع تعاليمها والحقد على مبتدعيها. وسوف نرى نموذجاً لهذه الرسائل احتفظه التاريخ لنا، ومنه ندرك مقدار التعب والجهد والمعاناة التي بذلها أثناسيوس في كتابة هذه الرسائل وتوزيعها سرًّا، إذ كان محظوراً على الأسقف أن يسلِّمها لأحد أو ينسخها حتى لنفسه، ثم يعيدها كما هي إلى أثناسيوس مرَّة أخرى. وبسبب هذا فُقد معظمها. كما أرسل خطابات تحذير لكل الأديرة حتى لا يقبلوا أريوسياً على وجه الإطلاق، كما حذرهم من إقامة الصلاة مع أي أريوسي أو حتى الصلاة عليه، وذلك لكي يحفظ للأديرة وحدتها وقوتها وسلامتها من الداخل. وقد احتفظ لنا التاريخ برسالتين عامتين أرسلهما أثناسيوس لجميع الرهبان بالأديرة التي يتجمَّع حولها المتوحدون، ومنها ندرك دأب هذا الراعي الأمين الساهر على رعيته وكيف جاهد بحزن ودقة لمطاردة الأريوسيين في كل مكان.

نموذج لرسائل الأساقفة:

ملخَّص رسالة أثناسيوس لسيرابيون:

[لقد كتبت إلى الرهبان ومرسل إلى قداستكم صورة منها، التي منها تعلم تاريخ الحوادث التي مررت بها، وكذلك فيما يختص بهذه الهرطقة (تاريخ الأريوسية) ... لا تدع أسئلة بخصوص هذه الأمور تثار بينكم بل ألقوها جانباً - كما سبق واتفقت معكم - ولا تعطِ فرصة لأحد أن يتصل بهذه الهرطقة بل سهِّل التوبة أمام الذين انخدعوا فيما سبق. أمَّا الذين أدانهم الرب، فمَنْ يقدر أن يقبلهم؟ لأن كل مَنْ يتعاون مع مَنْ أدانه الله وقطعه يكون مداناً ومخالفاً بشدة بل ومُظهراً نفسه عدواً للمسيح!

يكفي هذا لإخجال الذين يثيرون المنازعات، لذلك اقرأ هذا أمام الذين أثاروا مثل هذه الأسئلة، كذلك اقرأ الذي سبق أن وجهته باختصار للرهبان ضد هذه الهرطقة، حتى يستطيع السامعون أن يحكموا بالكفر على الأريوسيين ويدركوا مدى شر هؤلاء المجانين.

لا تُجزْ إطلاقاً إعطاء أية نسخة من هذه الخطابات لأي إنسان ولا تنسخها حتى لنفسك، وقد أوصيت بهذا أيضاً بالنسبة للرهبان.

ولكن باعتبارك صديقاً ومخلصاً أرجو **إذا كانت هناك أمور غامضة أو ناقصة فيما كتبت، أضفها ثم أعد الرسالة كلها لي في الحال!!**

وسوف تدرك من الخطاب الذي كتبته "للإخوة" أية معاناة ومشقة تكبَّدتها في كتابته

(ربما يكون هذا الخطاب هو "**تاريخ الأريوسية**" المدوَّن بقلمه في ٣٠ صفحة من الحجم الكبير، وهو ٨١ فصلاً؟) كما تدرك منه أيضاً أنه ليس مأموناً لمثل هذه الكتابات التي تخص شخصاً خاصاً (أثناسيوس نفسه) أن يُنسخ منها شيء – وخاصة أنها تشرح، على أعلى مستوى، العقائد الرئيسية. **كذلك أيضاً لئلا الأمور التي وردت ناقصة في شرحها بسبب عجز أو بسبب غموض اللغة تسبب ضرراً للقارئ** (أي إذا قرأها القارئ مباشرة بدون شرح الأسقف سيرابيون، وغيره) – **لأن غالبية الناس لا يقيِّمون الإيمان نفسه أو يعتبرون نية وغرض الكاتب، ولكنهم إمَّا بعوامل الحسد والحقد أو بروح الخصام والنزاع يفسِّرون المكتوب كما تشاء أهواء نفوسهم بحسب فكرة معينة وضعوها سابقاً في أذهانهم وبمقتضاها يحرِّفون المعنى دائماً ليتوافق مع غرضهم. ولكن الرب يعطي الحق والإيمان الصحيح بيسوع المسيح أن يسود بين الجميع وخاصة بين الذين ستقرأ لهم هذا. آمين.**](١٠)

ومن هذا الخطاب ندرك الكثير من نفسية أثناسيوس ومن الظروف التي أحاطت بكتاباته، فيا لحساسية هذا القديس أثناسيوس!! ويا لعمق إدراكه لنفوس الناس وخاصة الذين ناصبوه العداء مجَّاناً، كم كلفته هذه الحساسية من آلام نفسية مُرَّة، وكم تسبب حذره الشديد من مهاجمة خصومه لكتاباته في أنه أحجم عن الاسترسال في الكتابة!

وما أعظم ما خسرته الكنيسة بسبب هذه السرية المحكمة التي فرضها على كيفية تداول خطاباته وكتاباته وإعادتها إليه، خوفاً من مزيد من المهاجمة والمهاترة، لأنه إذ كان محظوراً على أي إنسان أن ينسخها حتى لنفسه أو يحتفظ بها بعد قراءتها بل يعيدها، لذلك تعرَّضت الأصول التي كانت محفوظة لدى أثناسيوس نفسه للتلف والضياع، دون أن يكون منها نسخ إحتياطية!

نموذج لخطابات الرهبان:

خطاب للرهبان: بنصه الكامل:

[إلى العائشين في الحياة الرهبانية في كل مكان المؤسَّسين على الإيمان بالله والمقدَّسين في المسيح القائلين: «هوذا قد تركنا كل شيء وتبعناك».

الإخوة الأعزاء المحبوبون، المشتاق إليهم، تحية قلبية في الرب.

(10) *Letter of Athanas., LIX. ad Serapion.*

١ - استجابة لسؤالكم المخلص الذي طالما ألححتم عليَّ به، قمت بكتابة تقرير مختصر عن المعاناة التي مررت بها شخصياً والتي جازتها الكنيسة، ناقضاً ومفنِّداً هذه الهرطقة الملعونة التي قام بها الأريوسيون المجانين وذلك على قدر استطاعتي، مبرهناً كيف أنها غريبة كلية عن الحق.

وقد رأيت أنه من الضروري أن أستحضر أمام ذهنكم النقي مقدار ما كلفتني كتابة هذه الأمور من مشقة، وذلك لكي تدركوا مقدار الحق فيما قاله الرسول: «يا لعمق غنى الله في حكمته وعلمه»، ولكي تسمحوا بلطفكم أن تساندوا إنساناً ضعيفاً بالطبيعة مثلي!

لأنه بمقدار ما كنت أرغب في مزيد من الكتابة محاولاً أن أدفع نفسي دفعاً لفهم لاهوت الكلمة، بمقدار ما كانت المعرفة تنسحب مني بالأكثر! وبقدر ما كنت أتصوَّر أني قد أدركت، بقدر ما كنت أعود وأدرك أني قد أخفقت.

وأكثر من هذا أيضاً أني كنت أعجز عن أن أشرح بالكتابة حتى ما تراءى لنفسي أني قد فهمته! فكنت أجد أن ما كتبته لا يتناسب حتى مع ظل الحقيقة الذي تراءى في إدراكي - ولو ناقصاً!

٢ - فلو فحصنا ما قيل في سفر الجامعة: «أنا قلت أني أصير حكيماً، ولكن الحكمة كانت بعيدة عني، فهذا الذي هو بعيد وعميق من ذا الذي يكتشفه» (جا ٧: ٢٣و٢٤)، وما قيل في المزمور: «معرفتك عجيبة لي، هي عالية لا أستطيع أن أبلغها» (مز ١٣٩: ٦)، وما قاله سليمان: «إنه لمجد الله أخفى الأمر.» (أم ٢٥: ٢)

كم مرَّة صمَّمت أن أتوقَّف عن الكتابة، صدِّقوني عملت هذا. ولكن لئلاَّ أوجد مخيباً لآمالكم، وخوفاً من أن صمتي يؤول إلى كفر أُولئك الذين يسألونكم الذين استسلموا للجدال، تحاملت على نفسي لكي أكتب باختصار هذا الذي أرسله الآن إليكم. (ربما فُقد هذا المؤلَّف).

على أنه يلزم أن ندرك أن المعرفة الكاملة للحق هي بعيدة عنا بسبب عجز وقصور البشرية، إلاَّ أنه ممكن كما قال الجامعة أن ندرك جنون الكفر، فإذا أدركنا ذلك نقول: «إنه أكثر مرارة من الموت.» (جا ٧: ٢٦)

ولأني أدركت ذلك فعلاً وتحققت منه، بدأت أكتب عالماً أنه بالنسبة للمؤمن يكون اكتشاف الكفر - في حد ذاته - كافياً لمعرفة كنه التقوى.

لأنه بالرغم من استحالة معرفة ما هو الله، إلاّ أنه من الممكن أن نقرِّر ما ليس هو الله. فنحن نعلم أنه ليس مثل البشر، وأنه ليس جائزاً أن يكون فيه أي شيء من الطبيعة المخلوقة. وهكذا أيضاً فيما يختص بابن الله. فبالرغم من أننا بعيدون جدًّا عن إدراكه، إلاّ أنه من الممكن والسهل أن ندين تصريحات الهراطقة فيما يختص به ونقول إن ابن الله ليس هو كما يقولون! ولا هو جائز أيضاً حتى أن نفتكر بأذهاننا بمثل هذا الذي يقولونه فيما يختص بلاهوته وبالأقل جدًّا أن ننطق هذا بشفاهنا.

وعلى هذا كتبت بقدر استطاعتي، وأنتم أيها الأعزاء المحبوبون، عليكم أن تتقبَّلوا هذه المراسلات ليس أنها تحوي شرحاً كاملاً للاهوت الكلمة، بل كونها مجرَّد مناقضة وتفنيد لكفر أعداء المسيح، على أنها تحوي أيضاً اقتراحات للوصول إلى إيمان تقي وصحيح بالمسيح بالنسبة للذين يرغبون في ذلك.

أمَّا إذا كان في الكتابة قصور وعجز - وأظن أنها كلها قصور وعجز - فأرجو السماح من ضميركم النقي، فقط اقبلوا باتفاق، جرأتي في مقاصدي التي قدَّمتها دفاعاً عن التقوى بحسن نيتي.

أمَّا فيما يختص بالإدانة المطلقة التي صارت لهرطقة أريوس فيكفي أن تعلموا الحكم الذي أجراه الرب بموت أريوس، الأمر الذي عرفتموه من آخرين. إذ بعد هذه الآية والعلامة من ذا الذي لا يقطع بأن هذه الهرطقة مكرهة لله، حتى ومهما كان لها من الأعوان؟

والآن، عندما تقرأون هذا التقرير، صلُّوا من أجلي ثم أعيدوا هذه النسخة إليَّ مرَّة أخرى في الحال. ولا تسمحوا لأي إنسان أن ينسخ أية صورة منها، ولا حتى تنسخوها لأنفسكم. بل اكتفوا بقراءتها فقط، وأعيدوا قراءتها كما تشاءون. لأن ليس مأموناً لكتابات أشخاص أخصاء أن تقع في أيدي آخرين.

سلِّموا على بعضكم البعض بالمحبة مع كل الذين يأتون إليكم في تقوى وإيمان. لأنه كما قال الرسول: «كل مَنْ لا يحب الرب ليكن محروماً».

نعمة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم. آمين.](١١)

ومن هذا الخطاب الرقيق جدًّا نستطيع أن نلمح الأمور الآتية:

١ ـ تقدير أثناسيوس للحياة الرهبانية وللرهبان عموماً بصورة رزينة وكريمة للغاية. فهو يدعوهم أعزاء ومحبوبين وقديسين، ويخاطبهم بنفس الاصطلاحات التي يخاطب بها الأساقفة الزملاء، ويطلب صلواتهم بإلحاح.

٢ ـ يُلاحَظ أنه لم يرسل هذا البحث اللاهوتي للأساقفة، ولكنه اعتنى جدًّا أن يقوم به خاصة للرهبان تقديراً منه لطلبهم ولحاجتهم أيضاً.

٣ ـ من أغرب الأمور أن يستسمح البابا أثناسيوس جماعة الرهبان في قبول منهجه الفكري اللاهوتي في إطار من الألفاظ الرقيقة للغاية واصفاً نفسه "**بالشخص الضعيف بحسب الطبيعة**" وواصفاً عمله اللاهوتي أنه جاء "**بقدر استطاعته**"، وأنه يتوسَّل أن **يقبلوه ويسندوا ضعفه!** وأن يقبلوا عذره في أن لاهوت الكلمة أصعب من أن **يُسجَّل في الفكر** كاملاً، فكم بالحري يكون نقله **من الفكر إلى القلم والورقة**. ثم يصوِّر لهم أن كل ما استطاع أن يتبيَّنه من لاهوت الكلمة في فكْره كان عبارة عن **ظل ناقص للحقيقة**، وحتى هذا الظل الناقص لم يستطع أن يسجِّله بالكتابة كما هو. لذلك فكر أن يتوقَّف عن الكتابة بسبب عجزه!

ومن هذا الاعتذار الرقيق واللطيف المنمَّق بالمنطق والحجة؛ المسنود بالاعتراف بالعجز إذ ينعت عمله كله بأنه مجرَّد "اقتراحات" جاءت "**عاجزة وناقصة من كل جهة**"، ندرك مقدار دقة أثناسيوس ولطفه وحلاوة نفسه وحساسيته الروحية الشديدة، خصوصاً وأنه يخاطب جماعة من الرهبان المتوحدين البسطاء الذين ليست لهم أية رتب كنسية.

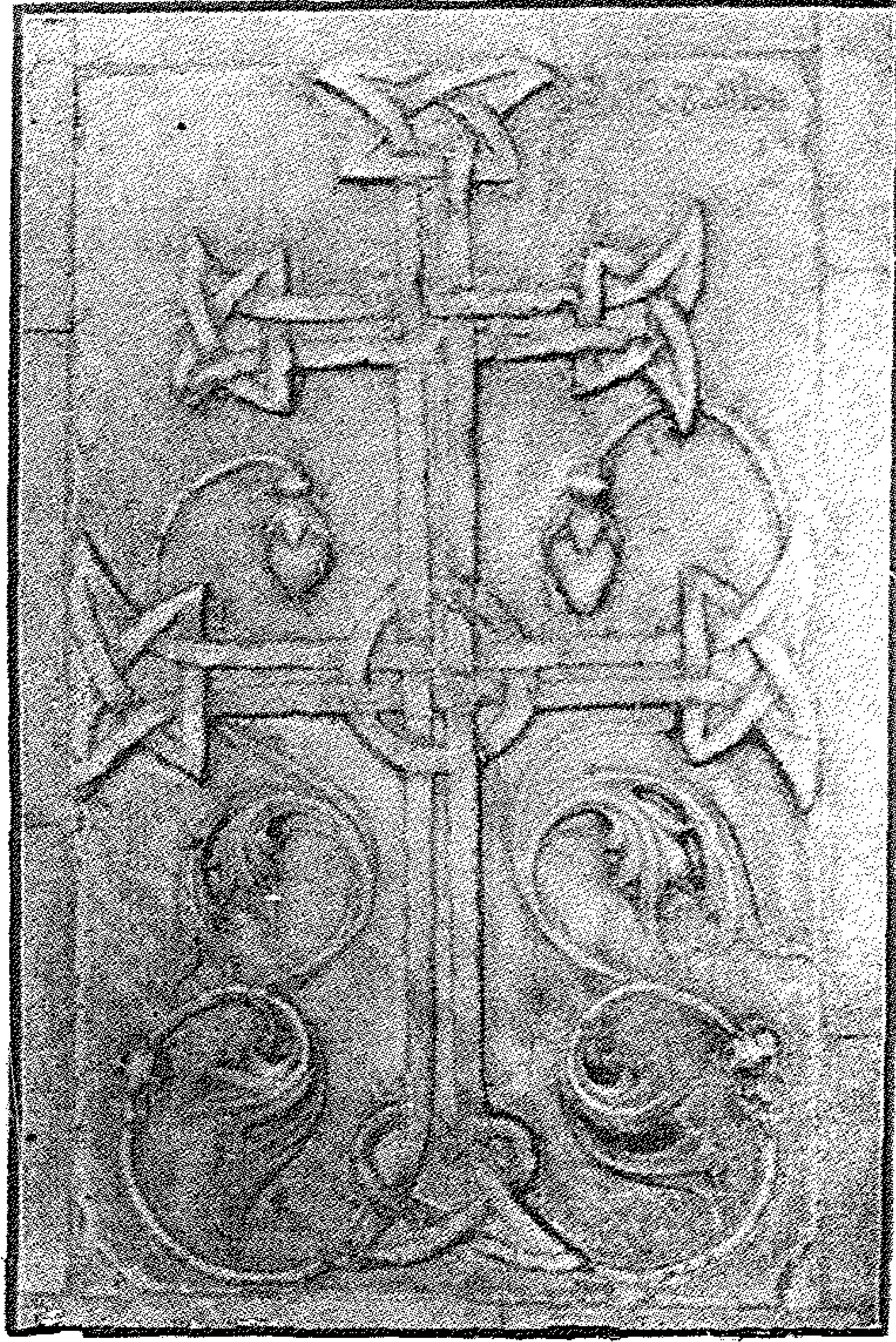
٤ ـ وأخيراً ندرك مقدار اهتمام أثناسيوس البالغ في أن تعود إليه مرة أخرى رسالته التي ضمَّنها بحثه اللاهوتي، حيث يبدو هنا حذره الشديد وانتباه فكره الحاد الذي كان صفة مميّزة لشخصيته، وذلك حتى يقطع على أعدائه الخط لمزيد من تصيُّد حججه وتحويلها إلى مهاترات.

ومن هذه الخطابات التي تحمل حججه وبراهينه وأبحاثه اللاهوتية ضد هرطقة أريوس، والتي أرسلها للأساقفة والرهبان في كل مكان يتضح لنا مقدار الجهد والسهر والمعاناة التي بذلها أثناسيوس

(11) *Letters of Athanas. Lii.*

ليطهِّر البلاد من وباء الأريوسية.

ونتيجة لهذا الجهد المتواصل (عشر سنوات)، سوف نجد أثناء هجوم الأريوسيين عليه في فترة نفيه الثالث، أن الأريوسيين انحصروا فقط في مدينة الإسكندرية، وانحصرت بذلك مؤامراتهم وأعمالهم العنيفة في حدود هذه المدينة فقط، أمَّا باقي البلاد فكان يتنقَّل فيها أثناسيوس متخفِّياً بلا أي مقاومة.



حشوة من الخشب المحفور يظهر فيها الصليب وكأنه يخرج من خلفية نباتية متشابكة على هيئة منحنيات رشيقة تضفي على المنظر العام حيوية صادقة ـــ من حجاب أثري بإحدى كنائس منطقة دير أبو سيفين بمصر القديمة يرجع تاريخه للقرن الحادي عشر.

تكاثر عدد المؤمنين في الإسكندرية بصورة سريعة، وقصة كنيسة سيزار

كان من نتيجة النشاط الروحي والخدمة الرعائية التي قام بها أثناسيوس، وملء الكراسي الشاغرة، ورسامة الكهنة في الكنائس التي كان قد احتلها الأريوسيون في هذه المدة، أن تكاثر عدد المؤمنين، وخاصة بسبب الهدوء و"السلام العميق" الذي كان يرفرف على الكنيسة، أمَّا الدليل المادي على هذا النمو السريع والنشاط الروحي بين المؤمنين فنجده واضحاً في حادثة استخدام الكنيسة الجديدة المسمَّاة "كنيسة سيزار"، أو كنيسة قيصر، أو القيصرية، في عيد الفصح سنة ٣٥٥م. وذلك قبل أن يتم بناؤها وقبل أن تُدشَّن رسمياً.

والمعروف أن في زمان القديس أثناسيوس كان يوجد بمدينة الإسكندرية تسع كنائس، من ضمنها الكنيسة العظيمة التي بناها البابا ألكسندروس باسم ثيئوناس، وذلك بشهادة إبيفانيوس أسقف قبرص(١٢). ولكن القديس أثناسيوس يذكر، بالإضافة، كنيسة عاشرة لم يذكرها إبيفانيوس وهي كنيسة "**كيرينيوس**"(١٣).

أمَّا قصة كنيسة سيزار فتبدأ هكذا:

كان قد أمر الإمبراطور قسطنطيوس ببناء كنيسة على نفقته الخاصة في زمان غريغوريوس الكبادوكي الدخيل، هذا الذي بدأ في بنائها، ولكن عاجلته المنية ولم يستطع أن يكمِّلها، وذلك على أرض خاصة للإمبراطور وبجوار قصره في الإسكندرية حيث كان يوجد في هذا المكان في السابق بازيليكا باسم "هادريان" وتغيَّر اسمها إلى ليسينيوس(١٤)، وعلى مكانها قام "السيزاريوم" وهو معبد رائع باسم أغسطس والذي فيه قامت أخيراً كنيسة سيزار في مدخل الميناء(١٥).

ويصف لنا أثناسيوس نفسه حادثة استخدام الجموع الهائلة لهذه الكنيسة الكبيرة قبل تكميل

(12) Epiph., *Haer*. 69. 2.

(13) *Hist. of Arians* 10.

(14) Epiph., *Haer*. 69. 2.

(15) N.P.N.F., vol., IV, p. 243, note 6.

بنائها وتكريسها كالآتي:

[كان هذا في عيد الفصح لسنة ٣٥٥م. والجموع التي احتشدت للعيد كان عددها كبيراً للغاية يفوق الحصر - كما يشتهي الملوك المسيحيون أن يروا ذلك دائماً في مدنهم - فلمّا وجد الشعب أن الكنائس (العشر) قليلة جدًّا وأصغر من أن تسع هذه الأعداد، صار هرج كثير بين الشعب الذي رغب أن يُسمح له في أن يجتمع في هذه الكنيسة العظمى حتى يستطيعوا أن يقدِّموا صلواتهم ...][(١٦)]

[وصدِّقني يا سيدي والحق شاهد لي في هذا الأمر أيضاً أن من بين الجموع الهائلة التي احتشدت في موسم الصوم بسبب ضيق الأمكنة عانى عدد كبير من الأطفال وكذلك كثير جدًّا من الشيوخ رجالاً ونساءً من ازدحام الشعب مما اضطرنا لحملهم إلى بيوتهم، ولكن بعناية الله لم يمت أحد.][(١٧)]

(ملاحظة: سوف نعود إلى ذكر هذه الحادثة بالتفصيل، فالذي دعانا إلى سردها باختصار هنا هو موضوع تكاثر المؤمنين بسبب رعاية القديس أثناسيوس في هذه الفترة).

تآليف أثناسيوس في هذه الفترة:

(١) "الدفاع عن مجمع نيقية":

ويُلاحَظ أنه لم يذكر في هذه الرسالة اسم يوسابيوس النيقوميدي مما يدل على أنه كتب هذا الدفاع بعد سنة ٣٤٢م، وهي السنة التي مات فيها يوسابيوس النيقوميدي، ويرجِّح المؤرِّخون تاريخ كتابتها بين سنة ٣٥١-٣٥٥م.

وقد كتب أثناسيوس هذه الرسالة لشخص أعثرته اعتراضات بعض الأريوسيين لاستخدام مجمع نيقية اصطلاحاً غير إنجيلي وهو "الهوموؤسيون".

وتعتبر هذه الرسالة ذات أهمية خاصة لأنها الأثر الوحيد المتبقِّي من أيام مجمع نيقية الذي يحمل لنا صورة لما جرى داخل المجمع من شاهد عيان. كذلك فإنها تحوي اقتباسات لاهوتية ذات أهمية تاريخية من آباء الإسكندرية السابقين لأثناسيوس مثل البابا ديونيسيوس الكبير. وكذلك تحمل لنا

(16) *Apol. ad Constant.* 14.
(17) Ibid. 15.

هذه الرسالة شرحاً دقيقاً للغاية للاصطلاح اللاهوتي الذي سجَّله مجمع نيقية واصفاً الابن أنه "مولود غير مخلوق".

(٢) "على أفكار ديونيسيوس":

كذلك تحمل لنا هذه الفترة الذهبية المؤلَّف المعروف باسم **"على أفكار ديونيسيوس"**، وهو دفاع عن وجهة نظر البابا ديونيسيوس الكبير، الذي أراد الأريوسيون أن يستخدموا بعض اصطلاحاته عن "ناسوت المسيح" التي كان يقاوم بها الهرطقة السابيليانية لكي يثبتوا بها آراءهم الأريوسية.

(٣) "الدفاع ضد الأريوسيين":

كما كتب أثناسيوس أيضاً في هذه الفترة **"الدفاع ضد الأريوسيين"**، على أنه أضاف إليه بعد ذلك ما استجد بعد هذه الفترة.

ولكن بحسب تحقيق جماعة "البولاندست"، فإن هذا المؤلَّف التاريخي اللاهوتي بدأ بالفعل منذ سنة ٣٤٢م، واستمرت الإضافات بحسب تتابع الحوادث.

مدرسة الإسكندرية اللاهوتية:

كانت المدرسة اللاهوتية تقوم بدورها الطليعي في تثقيف الشعب ومساندة الدفاع عن الإيمان وسط كل هذه العواصف، وقد ألقى القديس أثناسيوس مسؤولية إدارتها في هذه الفترة على اللاهوتي الضرير ديديموس الذي طبقت شهرته الآفاق، فكان الثاني عشر في تعداد مديريها السابقين - بحسب تحقيق فيلبُّس الذي من صيدا الذي عاش في أوائل القرن الخامس. وقد وُلد ديديموس سنة ٣١٣م. وتنيَّح سنة ٣٩٨م عن ٨٥ عاماً، عاصر كل حياة أثناسيوس منذ توليه البابوية حتى نياحته.

لم يتردَّد أثناسيوس في إسناد مسؤولية المدرسة اللاهوتية له كما يخبرنا روفينوس(١٨) بسبب ذكائه وقدرته على الاستيعاب ودقة ملاحظته وعلو حجته. وقد كان ديديموس آخر مشاهير معلميها، فقد أقفرت مدرسة الإسكندرية من بعده ولم تستعْد مجدها قط. وكان من أكثر تلاميذ ديديموس شهرة القديس جيروم وروفينوس. وقد أطنب جيروم كثيراً في مدح ديديموس(١٩) وأكَّد علو شأنه في قدرته على التعليم ومقدار الأثر الذي تركه في لاهوت الغرب والشرق معاً. أمَّا

(18) Rufin., *Hist. Ecc.*, 2, 7.

(19) St. Jerome, *Epist 50*, 1; 84, 3 etc.

روفينوس فيسميه: "**النبي**" و"**الرجل الرسولي**"[٢٠].

والذي زكّى شهرة ديديموس ليس الذكاء والعلم وحسب بل تقواه ونسكه، فقد عاش عيشة النُسَّاك، وقد زاره القديس أنطونيوس عدة مرَّات في قلايته[٢١].

كما زاره بالليديوس المؤرِّخ الرهباني المشهور أربع مرَّات على مدى عشر سنوات. ويُقال إن القديس أنطونيوس لمَّا زاره أثناء وجوده في الإسكندرية لأول مرَّة دفاعاً عن الإيمان المستقيم ضد الأريوسية، دخل قلاية ديديموس وطلب منه أن يصلّي ووقف يسمعه باتضاع[٢٢]. ثم جلسا وبدأ يسأله إن كان يحس بأسف على فقدان بصره (ديديموس فقد قوة الإبصار وهو في الرابعة من عمره إثر مرض أودى بعينيه تماماً). فلمَّا صمت ديديموس أعاد أنطونيوس السؤال عليه مرَّة ثانية، فأجاب مضطراً وقال لأنطونيوس إنه يحس بحزن شديد بسبب هذه المحنة!! فأجاب أنطونيوس: "لا تكتئب يا صديقي بسبب فقدان موهبة يشاركنا فيها الذباب والبعوض، في حين أن الرب حباك بموهبة البصيرة الداخلية التي لا ينعم بها إلاَّ القديسون"[٢٣]. وقد سمع هذه القصة جيروم بنفسه من فم ديديموس سنة ٣٦٨م حينما زاره ومكث عنده شهراً كاملاً كما يخبرنا في مقدِّمة شرحه لرسالة أفسس[٢٤].

ويخبرنا المؤرِّخ سوزومين أن تأثير ديديموس في إقناع الشعب بصحة تعاليم مجمع نيقية ضد الأريوسيين كانت لا تُضارَع، إذ استطاع أن يجعل كل مَنْ يسمعه قادراً أن يكوِّن حكماً بنفسه في هذا الموضوع[٢٥].

ويشهد لقدرة ديديموس في المعرفة والمحاجاة والإقناع كثيرون، وأهمهم إيسيذور البيلوزومي الذي كان يكتب له باعتباره "بحاثة مدقِّقاً لا يمكن أن يفوته شيء"[٢٦].

كما يشهد له ليبانيوس[٢٧] في إحدى رسائله التي أرسلها إلى الدوق سباستيان، وهو من

(20) Rufinus *Apology,* Book 2, 25.
(21) Pallad., *Hist. Lausiaca* 4.
(22) Rosweyed, *Vit. Patr.*, 944, 539.
(23) Jerome, *Epist. 68*, Socrate IV: 29.
(24) Ibid. *Eph.*
(25) Sozom. III. 15.
(26) Isidore of Pelusium, *Ep.* I, 331.
(27) Libanius, *Ep.* 321.

الهراطقة المانيين الذين اضطهدوا الإسكندرانيين أثناء نفي أثناسيوس الرابع، يقول فيها:

[إذا لم تكن قد تعرَّفت على ديديموس فأنت لم تعرف هذه المدينة العظمى الإسكندرية بعد، لأنه هو الذي يسكب عليها من تعاليمه لتثقيف الشعب ليل نهار].

وهذه الشهادة هي في غاية الأهمية بالنسبة لتأريخنا لأثناسيوس لأن هذا يوضِّح مدى اهتمام أثناسيوس بتعليم الشعب ومدى توفيقه في اختيار ديديموس لهذه الرسالة الخطيرة في هذا الوقت الخطير.

وقد اشتهر ديديموس أيضاً في هذه الفترة بتآليفه، فقد كتب كتاباً عن الروح القدس، ترجمه جيروم إلى اللاتينية وقدَّمه بقوله:

[إن ديديموس له عينان كعينيّ عروس نشيد الأنشاد. وإن كان أُميًّا في التكلُّم فليس في العلم، فهو في معرفته يحمل صفات الإنسان **الرسولي**، له فكرٌ نيِّر وكلمات ذات بساطة].

أمَّا مؤلفاته فهي كثيرة جدًّا، منها شرح إشعياء، وهوشع، وزكريا، وأيوب، وسفر الأمثال، والرسالة الأُولى إلى كورنثوس، ورسالة غلاطية، وكل الرسائل الجامعة، وعلى النسخة العبرية للعهد القديم، وعلى موت الأطفال، وثلاثة كتب عن الثالوث، وتعليق على مؤلفات أوريجانوس، وضد المانيين. وغير ذلك الكثير جدًّا، وقد تأثَّر تفكيره وأسلوبه كثيراً بالقديس أثناسيوس. وقد أعلن إيمانه بالثيئوتوكس ورؤساء الملائكة وبشفاعة القديسين، ورفضه للحكم الألفي.

وتكلَّم عن الإفخارستيا وحضور الرب الفعلي، وذلك في مؤلّفه الذي فسَّر فيه سفر الأمثال.

ويقول بالليديوس إنه [فسَّر العهد القديم والجديد كلمة كلمة!! وقد بذل اهتماماً كبيراً بالعقيدة وشرحها بدقة وحكمة، حتى إنه فاق على جميع القدامى في المعرفة].

وفي نهاية تعليق جيروم على مؤلفات ديديموس يقول:

[وكتب أخرى كثيرة، إذا أردنا أن نعدِّدها احتاج منا ذلك عملاً كاملاً بحد ذاته.](٢٨)

العوامل التي أدَّت إلى تجدُّد الاضطرابات للمرَّة الثالثة:

لم تكن فترة الهدوء والسلام العميق الذي رآه أثناسيوس واطمأن إليه في بداية هذه الحلقة الذهبية إلاَّ مجرَّد فترة راحة لالتقاط الأنفاس فقط، لأن عوامل النزاع وجذور الأحقاد عند الأريوسيين لم تكن قد اقتُلعت. فعلى ضفاف نهر الدانوب، وفي "سيرميم"، كانت بذرة الأريوسية قد تأصَّلت.

(28) Jerome., *De Vir. Ill.*, 109.

وكان يرعاها وينفث فيها أسقف سيرميم نفسه ومَنْ يتبعه حواليه. ولو أن علامات النزاع والفُرقة كانت منذ البدء سمة من سمات تجمُّع الأريوسيين، ولكن كان يربض هناك أورساكيوس وفالنس رأسا الحية اللذان اتحدا مع جرمينيوس أسقف سيرميم الذي خلف سكونديوس الذي طرده الإمبراطور بعد أن حاوره أساقفة الشرق وألصقوا به الخروج عن جادة الإيمان(٢٩).

أمَّا الغالبية العظمى من أساقفة الشرق الذين ظلوا أريوسيين فقد ظلوا حاقدين على أساقفة الغرب عامة، ما عدا كنيسة فلسطين التي انحازت إلى التحفظ الأرثوذكسي.

وقسطنطيوس نفسه لم يتخلَّ عن مناصرته للأريوسية ضد أثناسيوس إلاَّ تحت تهديد قسطانس أخيه وبدافع الخوف من موقف الفرس الذي كان لا يزال ينذر بالخطر، ثم يقظة ضمير مؤقَّتة زالت بمرور الزمن ... وحتى جبهات الشعب الأرثوذكسية بزعامة بعض الأساقفة الأرثوذكس والتي كانت أخطر ما يهدِّد مركز الأساقفة الأريوسيين في الشرق، بدأت تذوب تحت ضغط السياسة الأريوسية وأساليب خداعهم ودهائهم(٣٠).

أمَّا في الإسكندرية فقد نجح أثناسيوس في هذه الفترة في تدعيم الأرثوذكسية بصورة لم يسبق لها مثيل، وبالرغم أن مصر كانت منعكفة على نفسها في ذلك الوقت تمسح جراحها، إلاَّ أن بعض الخطوات قد اتخذت في هذه الفترة للوحدة بين الأرثوذكس، فقد اتحد أساقفة فلسطين مع أساقفة قبرس واستعادوا شركتهم مع أثناسيوس. ولكن كان يلزم لبقاء هذا التعاون لبناء سلام واحد أن تبقى السياسة الإمبراطورية في اتزانها، وهذا لم يتوفَّر(٣١).

أمَّا داخل مصر فقد دانت له كافة الأسقفيات بالولاء وضعفت شوكة الأريوسية والميليتيين إلى أقصى حد. وكأن الله بتدبيره الخفي أعطى هذه الفرصة لمصر وأثناسيوس على رأسها، حتى تجمع نفسها وتوحِّد جهودها لتتابع دفاعها بقوة وتماسك أمام أعنف مصادمة إيمانية عرفتها الكنيسة على وجه الأرض منذ اليوم الذي صُلب فيه ربنا! حيث وقفت مصر وحدها دون جميع أقطار العالم، ومن ورائها أثناسيوس بمفرده دون جميع أساقفة العالم، تشهد للاهوت المسيح وتتحمَّل في سبيل ذلك أعنف الضربات بعدما انهارت أكبر قوتين مساندتين لمصر ولأثناسيوس، بل قُلْ للمسيح،

(29) ABBE Duchesne, *Earl. Hist. A ch.* pp. 196-201.

(30) Gwatkin., pp. 133 sqq.

(31) Ibid.

وهما قوة الإمبراطور في الغرب إذ مات قسطانس، وقوة الكنيسة في الغرب عندما انحاز أسقف روما للأريوسيين وأمضى وختم ضد لاهوت المسيح بمحض إرادته وأقر حرمان أثناسيوس!! نفس الأمر الذي حدث مع هوسيوس أسقف قرطبة بعد أن انهارت قواه الإيمانية فأمضى وختم ضد مجمع نيقية الذي ترأَّسه سابقاً.

وهذه هي اللحظة التي قال عنها كل مؤرِّخي الكنيسة أن العالم بدا كله أريوسياً مجدفاً على المسيح، ولولا مصر وحدها وأثناسيوس الذي أبقاه الله لهذه اللحظة ليحامي عن الإنجيل ضد العالم كله، لصار العالم كله أريوسياً ... وقد قيلت هذه الجملة المشهورة *Athanasius contra mondum* أي عندما قالوا لأثناسيوس بنوع من اليأس "إن العالم كله أصبح ضدَّك"، فأجاب في قوة لا تُقهر: "وأثناسيوس ضد العالم"!!

الموقف المتأرجح في كنيسة أُورشليم في ذلك الوقت:

لاحظنا كيف استقبل أساقفة أُورشليم القديس أثناسيوس عند عودته من النفي الثاني ماراً عليهم في طريقه من أنطاكية إلى الإسكندرية، وكيف عقدوا مجمعاً أشادوا فيه بأرثوذكسية أثناسيوس، وكيف أرسلوا خطاباً إلى إكليروس وشعب الإسكندرية يهنِّئونه بعودة أثناسيوس ... وهكذا بدا الجو في أُورشليم متحفِّظاً نوعاً ما منحازاً إلى الأرثوذكسية بقدرٍ ما، وكان ذلك في سنة ٣٤٦م.

وظل الجو كذلك حتى سنة ٣٤٨م عندما بدأ كيرلس الأورشليمي - قبل أن يُرسم أسقفاً - في تعليم الموعوظين. ومن مجموع عظاته التي ألقاها في السنتين التاليتين سنة ٣٤٨م-٣٥٠م قبل رسامته (لأنه رُسم أسقفاً سنة ٣٥٠م)، يمكن بوضوح اكتشاف بداية ونمو ما يسمَّى بالنصف أريوسية في أُورشليم على يد هذا المعلِّم العملاق قبل أن يصير أسقفاً، إذ المعروف عنه أنه كان من جماعة الأوريجانيين ومن المقاومين لإيمان نيقية فيما يخص "الهوموؤسيوس"(٣٢)، أي مساواة الابن مع الآب في الجوهر، وكان يستعيض عنها "بالمماثلة" فقط مستخدماً الألفاظ الإنجيلية.

موت قسطانس:

يعطينا المؤرِّخ جيبون تاريخاً مختصراً لحكم قسطانس وموته هكذا:

[في سنة ٣٤٠م انهزم قسطنطين الصغير (الثاني) في معركة أكويلا على يد أخيه قسطانس

(32) a- Cyril of Jerusal, *Cat.* V. 12.
b- Caspare IV, pp. 146-162.

الذي أصبح حاكماً على الغرب، واضطر قسطنطيوس حاكم الشرق إلى مواجهة هجمات الفرس بقيادة شابور الثاني. وكان غزو الفرس لأرمينيا تهديداً لنمو المسيحية في الشرق، وانقلب النصر الذي أحرزه قسطنطيوس سابقاً في مدينة سنجار سنة ٣٤٨م إلى هزيمة ساحقة نتيجة الإهمال والغفلة، وقاومت نصيبين الحصار ثلاث مرَّات، وتمَّ الصلح سنة ٣٥٠م. ولكن في نفس هذا العام تمكَّن أحد القواد في الغرب المدعو ماجننتيوس من قتل قسطانس وإزاحته عن العرش، ولكن تغلَّب قسطنطيوس أخيراً سنة ٣٥١م على ماجننتيوس في مدينة مورسا في وادي نهر الساف وانتهى الأمر في سنة ٣٥٣م بتولِّي قسطنطيوس حكم الإمبراطورية كلها موحَّدة شرقاً وغرباً.](٣٣)

مات قسطانس تحت الأقدام في فبراير سنة ٣٥٠م وكان خبر موته صدمة أليمة لأثناسيوس، لدرجة أنه لم يحتمل الخبر عند حضور مبعوثي قسطنطيوس، فبكى.

وكان أثناسيوس في البداية يتوجَّس خيفة من ماجننتيوس، ولكنه سرعان ما تحقَّق أن الخطر الأعظم لا يزال يكمن بالأكثر في حاشية قسطنطيوس ونصائحه من الأريوسيين.

فبمجرَّد موت قسطانس نفض أساقفة الغرب الأريوسيون جحدهم للأريوسية، الذي أُرغموا عليه في مجمع سرديكا عندما كانوا تحت سلطان قسطانس، الذي كان موالياً لأثناسيوس ولأساقفة نيقية آنذاك، ولكن الآن وقد مات قسطانس لم يجدوا ما يمنعهم من خلع جلد الحمل والظهور مرَّة أخرى على طبيعتهم الذئبية، وعلى رأس هؤلاء وقف الأسقفان فالنس وأورساكيوس وهما من أساقفة الغرب، وشاهِدا الزور في قضية إسخيراس، وبدآ في تدبير المؤامرات.

وعندما نصَّب ماجننتيوس نفسه على إمبراطورية الغرب، ولعلمه بالعداوة القائمة بين قسطنطيوس وأثناسيوس، أسرع في طلب مساعدة مصر!

وفي نفس الوقت أرسل الإمبراطور قسطنطيوس وفداً من كل من كلمنديوس وفالنس، وهما من رجاله، ليتأكَّد من موقف مصر وبالأخص أسقفها!! فاستقبلهما أثناسيوس بالبكاء على قسطانس! وبسبب خوفه من مهاجمة ماجننتيوس لإمبراطورية الشرق أيضاً، استدعى الكنيسة كلها وطلب من رعيته أن تصلِّي بحرارة من أجل قسطنطيوس!! فكان رد الشعب بصوت واحد: [يا مسيح أرسل

(٣٣) جيبون ـ الجزء الأول صفحة ٣٥٣.

معونة لقسطنطيوس!!] (ونحن الآن في سنة ٣٥٠م).

وإليك كلام أثناسيوس الذي كتبه في دفاعه لدى قسطنطيوس لما اتهمه بعد ذلك، زوراً وبتلفيق الأريوسيين، أنه راسل ماجننتيوس في ذلك الوقت وتعاهد معه ضد قسطنطيوس:

[كيف أكتب لإنسان لا أعرفه؟ اسأل كلمنديوس وفالنس اللذين أرسلتهما إليَّ، كيف قابلت كلمنديوس وتطرَّق الحديث إلى ذكر قسطانس صاحب الذكرى المطوَّبة، كيف - وبلغة الكتاب - بللت ثيابي بالدموع (مز ٦:٦) عندما تذكَّرت لطفه وحنانه وروحه المسيحية. اسألهم كيف كنت قلقاً ومضطرباً وخصوصاً لما وجدت فالنس قد حضر والوفد المرافق له عن طريق ليبيا إذ كنت خائفاً عليهم لئلاَّ يبطش بهم ذلك الوحش لعلمي بقسوته، وهو لا يتورَّع عن ذلك بالنسبة لكل الذين يحفظون الودّ للإمبراطور الراحل، والذين أعتبر نفسي الأول بينهم.

فكيف بعد إدراكي لخططهم وتدابيرهم هذه أن لا أصلِّي من أجل نعمتكم؟ وهل يمكن أن أتعاطف مع قاتل أخيكم؟ وأحمل البغضة لكم وأنتم أخوة وقد ثأرتم لقتله؟ وهل أتذكَّر جريمته هو وأنسى عطفكم أنتم الذي أكَّدتموه بخطابكم ووعدتم أنكم تبقون على سماحتكم بعد موت أخيكم كما كنتم في حياته؟ كيف ألتفت ناحية القاتل؟ أفلا كنت أتذكَّر أن روح أخيكم المطوَّب الذكر تراني عندما صلَّيت من أجل سلامتكم؟ ...

وإن شهودي على ذلك: الرب أولاً الذي سمع والذي سمح أن يعطيكم كل أجزاء المملكة معاً التي كانت لآبائكم، ثم ثانياً الأشخاص الذين حضروا هذه الظروف فيليسيسيموس دوق مصر، وروفينوس واسطفانوس والكونت استريوس وبالليديوس وأنطيوخس وإيفاجريوس. لقد قلتُ (للشعب): هلم نصلِّي من أجل سلامة الإمبراطور الكثير التعبُّد قسطنطيوس العظيم. فصرخ الشعب في الحال بصوت واحد: (يا مسيح أرسل معونة لقسطنطيوس)، وظلُّوا يردِّدون هذا مدة.][٣٤]

ومن هذا الكلام تتكشَّف أمامنا رقة أثناسيوس الذي لم يحتمل ذكرى صديق وفيّ له دون أن يذرف الدموع الكثيرة، ثم تتضح أيضاً شجاعته كونه لم يخجل من أن يذكر بكاءه!!

(34) *Apol. Ad Constant.* 9, 10.

كذلك نلفت النظر كيف رفع أثناسيوس قضية تهديد الإمبراطور بالخطر إلى الكنيسة كلها لتكون موضع صلاة، وكيف استجاب الشعب بتلقائية تكشف عن مدى استجابة الشعب لمشاعر أسقفه.

وعندما شعر قسطنطيوس بحرج موقفه بعد موت قسطانس ولخوفه من ماجننتيوس، أراد أن يضمن موقف أثناسيوس في جانبه، فأرسل بالفعل خطاباً لأثناسيوس يطمئنه فيه أنه سيظل وفياً له بعد موت أخيه الذي كان يحب أثناسيوس والذي كان السبب المباشر في رجوعه من النفي الثاني. وبالفعل فقد حافظ قسطنطيوس على وعده هذا ولكن ليس إلى النهاية، إذ بمجرَّد ما تغلَّب على ماجننتيوس وقتله، بدأ يتنمَّر لأثناسيوس ويظهر له حقده الدفين الذي لم تخمده كل هذه المحن والسنين! ...

وإليك من كلام أثناسيوس خطاب قسطنطيوس المعسول: في ربيع سنة ٣٥٠م:

[من قسطنطيوس المنتصر المعظَّم إلى أثناسيوس:

لا يخفى على تقواكم كيف كنت أُصلّي على الدوام أن يبقى النجاح حليفاً لأخي قسطانس في كل أعماله، وإنه ليسهل عليكم بسبب حكمتكم أن تقدِّروا عظم المحنة التي أصابتني عندما بلغني أنه قد قُطع بواسطة خيانة هؤلاء الأنذال.

والآن إذ يحاول بعض الأشخاص في هذا الوقت بالذات أن يزعجوك بالأكثر، وذلك بأن يضعوا أمامك هذه المأساة المبكية، رأيت أنه من الصالح أن أكتب لقداستكم هذا الخطاب لأستحثك كما يليق بأسقف أن تعلِّم الشعب أن يلتصق بالإيمان الثابت، وبحسب عادتكم أعطوا أنفسكم للصلاة مع شعبكم، لأن هذا موافق لمشيئتكم، ورغبتنا أن تبقى دائماً أسقفاً في كل الظروف في مكانكم الخاص.

(وهنا يختلف خط الكاتب مما يشير إلى أنه بخط الإمبراطور نفسه) ولتحفظكم العناية الإلهية أيها المحبوب إلى سنين كثيرة.][٣٥]

موت ماجننتيوس وبداية الاضطهاد العلني ضد أثناسيوس:

يقدِّم المؤرِّخ جيبون هذه الحقبة الزمنية بحسب وقائعها بترتيب تاريخي لا بأس به، رأينا أن نقدِّمه

(35) *Apologia ad Constantium Arian* 23.

توجد ترجمة أخرى لهذا الخطاب من اللاتينية إلى اليونانية ذكرها أثناسيوس في كتاب تاريخ الأريوسية، وباطلاعنا عليها اندهشنا لكثرة الفوارق اللفظية.

للقارئ قبل أن نخوض في دقائق الهجوم الذي مارسه سيريانوس والي مصر على كنيسة ثيئوناس للقبض على أثناسيوس:

[إن التابع (الأسقف أثناسيوس) الذي أجبر مليكه على المراءاة والتظاهر، لا يمكن أن يتوقّع منه تسامحاً مخلصاً قط، فعندما حلّ المصير المحزن بالإمبراطور قسطانس وحُرم أثناسيوس من هذا الظهير القوي الكريم، ونشبت الحرب الأهلية بين قاتل قسطانس (ماجننتيوس) وقسطنطيوس التي شغلت الإمبراطورية كلها أكثر من ثلاث سنوات، أصبح الفريقان المتنازعان راغبين في كسب صداقة الأسقف أثناسيوس الذي كان يستطيع بقوة سلطانه الشخصي أن يقرِّر المصير بالقرارات التي تصدرها ولاية لها أهميتها، وقد استقبل أثناسيوس سفراء الطاغية ماجننتيوس الذي قتل قسطانس واتُّهم من جراء ذلك فيما بعد بأنه كان على اتصال سرِّي به.

غير أن الإمبراطور قسطنطيوس أكَّد مراراً "لأبيه الروحي" أثناسيوس أنه أجلُّ الآباء وأقربهم إلى قلبه؟! (هكذا) مؤكِّداً أنه بالرغم من الإشاعات الخبيثة الحقودة التي كان يروِّجها أعداؤه فإنه قد ورث عن أخيه الراحل عواطفه نحو أثناسيوس كما ورث عرشه!؟ (هكذا)

(غير أن أثناسيوس كان يدرك أن مخاوف الإمبراطور هي التي كانت تدفعه لمثل هذه المشاعر).

فبمجرَّد أن ظفر بالطاغية ماجننتيوس وقتله، **اعتزم قسطنطيوس أمراً طالما كبته في نفسه، وأخفاه، وهو الانتقام لما لحق بشخصه من تصاغر إزاء هذا الأسقف العنيد** - وقد كان، فبعد أن تخلَّص من ماجننتيوس (سنة ٣٥١م) وانتهى من كل مشاغله في الغرب التي استغرقت أكثر من سنة بعد ذلك (أغسطس سنة ٣٥٣م)، وفي أول شتاء سنة ٣٥٣م الذي أمضاه في آرل بعد انتصاره، **أخذ يستغل الوقت في مناهضة عدوه (أثناسيوس) الذي أضمر له في نفسه كراهية أشد وأقسى من تلك التي كان يضمرها لماجننتيوس طاغية إقليم الغال الذي قهره.**]

مجمع في آرل وآخر في ميلان ضد أثناسيوس:

يقول المؤرِّخ جيبون:

[إنه لو أن هذا الإمبراطور أوحى له مزاجه أن يقرِّر قتل أعظم شخصية في الإمبراطورية مهما كان مقامه ونبله، لما تردَّد وزراؤه من أنصار العنف السافر أو الظلم المستهتر في تنفيذ مثل

هذا القرار. ولكن مقدار الصعوبة البالغة التي لقيها الإمبراطور في مجرَّد إدانة وعقاب الأسقف المحبوب أثناسيوس وما كلفه ذلك من حذر وتمهُّل، **كل هذا أظهر للعالم أن حقوق الكنيسة قد أحيت في الحكومة الرومانية الشعور بالنظام واحترام الحريات!!**

وبالرغم من أنه كان لدى الإمبراطور حكم من مجمع صور أيَّده أغلبية أساقفة الشرق بإنزال أثناسيوس من مقامه الأسقفي، إلاَّ أن التأييد القوي الفعَّال الذي لاقيه أسقف مصر من جراء اتصاله بالكنيسة الغربية أجبر قسطنطيوس على إيقاف تنفيذ حكم مجمع صور حتى يحصل على موافقة أساقفة اللاتين. وانقضى عامان في تفاوض مع الكنيسة، نوقشت فيه قضية أثناسيوس حيث تولَّى دفعها الإمبراطور بنفسه في مجمع آرل أولاً سنة ٣٥٣م، ثم مجمع ميلان ثانياً سنة ٣٥٥م الذي التأم فيه ٣٠٠ أسقفٍ، حيث تداعت نزاهة هذا العدد الضخم من الأساقفة شيئاً فشيئاً أمام ادعاءات وأكاذيب أنصار أريوس ومهارة الخصيان، ووسائل الإغراء والضغط التي مارسها الإمبراطور، **الذي روى ظمأ حقده على حساب كرامته، وأفصح عن أهوائه الشخصية بالطريقة التي اتبعها في التأثير على أحاسيس رجال الدين، حتى التجأ إلى أسلوب إفساد الضمائر ونجح، بعرضه الهدايا والكرامات والحصانات ثمناً للحصول على أصوات الأساقفة.**] (يا للذلة)

وهنا ينقل إلينا جيبون صراخ هيلاري أسقف بواتييه ضد هذه الخساسة الأخلاقية بقوله: [إننا نقاوم قسطنطيوس عدو المسيح، الذي يداعب البطون قبل أن يلهب الظهور بالسياط].

[غير أن أثناسيوس لم يعدم الأصدقاء الذين وقفوا بجانبه، الذين أبت عليهم كبرياؤهم أو نقاوتهم أن يتنازلوا عن قضيته التي هي قضيتهم، فثبتوا في المناقشات العامة وفي أحاديثهم الخاصة مع الإمبراطور على الالتزام الأبدي بالدين والعدالة! وكانت تدفعهم إلى ذلك نخوة الرجولة والقداسة. فأعلنوا أنه لا الرجاء في حظوة صداقة الإمبراطور ولا الخوف من غضبه يمكن أن يرغمهم على الاشتراك في إدانة أخ غائب بريء، له احترامه!! وأكَّدوا أن القرارات الباطلة غير القانونية التي أصدرها مجمع صور أصبحت في حكم الملغاة ضمناً بفعل المراسيم الإمبراطورية التي جاءت بعدها، والتي نصَّت على إعادة كبير الأساقفة إلى كرسيه بالإسكندرية بصورة مشرفة مع سكوت أكثر أعدائه على ذلك، بل وبإنكارهم أقوالهم السابقة عنه! ...

واستشهدوا بتأييد أساقفة مصر جميعاً لبراءته وما أقره مجمع روما ومجمع سرديكا (صوفيا) بمقتضى حكم الكنيسة اللاتينية غير المتحيِّزة ... **ولكن صوت الحق أسكتته الأكثرية المغرضة التي باعت ضمائرها!! وانتهت مجامع آرل وميلان بحكم اشترك فيه أساقفة الشرق والغرب معاً وعلى السواء بإدانة أثناسيوس أسقف الإسكندرية وعزله من منصبه!**

أمَّا الأساقفة الذين تغيَّروا فوقَّعوا في أماكنهم ...

أمَّا الأساقفة الذين رفضوا التنازل عن آرائهم أو الخضوع للقرارات التي أصدرها مجمعا آرل وميلان فقد أصدر الإمبراطور أمراً بنفيهم وهم:

ليباريوس أسقف روما، هوسيوس أسقف قرطبة (أسبانيا)، بولينوس أسقف تريف، ديونيسيوس أسقف ميلان، يوسابيوس أسقف فرشيللي، لوسيفر أسقف كالياري، هيلاري أسقف بواتييه.

وقد حاول الإمبراطور بالإغراء ثم بالإرهاب أن يثني كلاًّ من أسقف روما وأسقف قرطبة، لِمَا يعلمه من تأثيرهما القوي على بقية أساقفة العالم، ولكن ظلَّت محاولاته عديمة الجدوى فترة من الزمن ... إذ أعلن هوسيوس وكان قد ناهز المائة عام من عمره أنه على استعداد لتحمل الآلام تحت حكم قسطنطيوس كما تحمَّلها منذ ستين عاماً تحت حكم جده مكسيميان!! أمَّا أسقف روما فأكَّد في حضرة الإمبراطور أن أثناسيوس بريء!! وعندما حاول الإمبراطور وفي آخر لحظة أن يهبه مبلغاً كبيراً من المال وهو في طريقه إلى المنفى في بيرية Berea في تراقيا (وهي الآن الإقليم الذي يقع بين بلغاريا ورومانيا)، أعاد المال قائلاً للرسول الذي جاء به من بلاط ميلان: "إن الإمبراطور وخصيانه قد يكونون في حاجة إلى ذلك الذهب للإنفاق على جنودهم وأساقفتهم"!!

... ولكن وللأسف أثرت محنة الأسر ومحنة الشعور بالنفي على هذين الأسقفين بالذات: ليباريوس أسقف روما وهوسيوس أسقف قرطبة، وأرغمتهما في نهاية الأمر على التخلِّي عن موقفهما وعزمهما (بعد سنتين من الصمود)، فاشترى أسقف روما عودته بشتى صنوف الامتثال المشين وبتوقيع الحرم على أثناسيوس، أمَّا أسقف قرطبة وهو الشيخ المتداعي فقد استخدم معه الإمبراطور كل وسائل الإغراء والعنف حتى أكرهه على التوقيع بالموافقة على الشركة مع الأريوسيين فقط - (وهكذا سقط الغرب بكل كنائسه من الإيمان الأرثوذكسي وبقي أثناسيوس وحده يناضل ذلك الوحش الكاسر).

أمَّا بقية الأساقفة المعارضين فظلُّوا متمسِّكين في ولاء لا يلين ولا يتزعزع بقضية أثناسيوس وبالحق الإلهي. ولكن دفعوا ثمناً لذلك مرارة النفي في ولايات نائية في صحراء بلاد العرب وليبيا وصعيد مصر، وجبال طوروس وقفار فريجية. ولكن كانت لهم هذه الصحاري والقفار أكثر راحة من المقام في مدينة مع أسقف أريوسي! ... وقد هالهم انهيار ليباريوس وتوقيعه الحرم على أثناسيوس (ولكن "العصمة" لله وحده!).]

[وكان القصد الأساسي من نفي الأساقفة أصحاب المذهب المستقيم وإلحاق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه!]

[وكان قد انقضى ٢٦ شهراً جاهد فيها البلاط الإمبراطوري كله سرًّا وبأخبث أنواع الحيل لخلع أثناسيوس من الإسكندرية وحرمانه من المنحة التي كان ينفق منها بسخاء على الشعب.

فلمَّا تخلَّت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر وأقرَّت إبعاده وأصبح بذلك محروماً من أي سند خارجي، أرسل قسطنطيوس اثنين من أمناء سرِّه بتكليف شفوي أن يعلناه بأمر الإمبراطور بنفيه ويقوما بتنفيذ ذلك.

وبالرغم من أن الإمبراطور كانت لديه أحكام موقَّعة من جميع الأساقفة بالحكم على أثناسيوس إلاَّ أنه لم يعطِ رسله تفويضاً كتابياً بتنفيذ الحكم، خوفاً مما قد ينشأ عن ذلك من الخطر في الإسكندرية، إذا تعرَّضت المدينة إلى دفاع الشعب بقوة السلاح عن براءة أبيهم الروحي.

وهذا الحرص الزائد من جانب الإمبراطور أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بأنه - وبكثير من الاحترام - يشك في صحة هذا الأمر الشفوي الصادر بنفيه، والذي يتنافى مع عدالة الإمبراطور الكريم ومع تصريحاته السابقة!

وإزاء ذلك، فإن السلطات المدنية في المدينة وجدت نفسها عاجزة عن القيام بمهمة إرغام الأسقف على التخلِّي عن كرسيه، واضطرت إلى عقد معاهدة مع زعماء شعب الإسكندرية اتفقت فيها على إيقاف كل الإجراءات العدوانية حتى تتأكَّد لهم مشيئة الإمبراطور بوضوح ...

وفي نفس الوقت صدرت الأوامر سرًّا إلى جيوش مصر العليا وليبيا بالتقدُّم على عجل لمحاصرة ثم مباغتة العاصمة التي كانت مشتعلة بالحماس الديني، بل وقد درجت على ذلك دائماً! (حتى اليوم)!!

وكان موقع الإسكندرية بين البحر وبحيرة مريوط عاملاً سهلاً على الجيوش أن تقترب منها وتدخل قلب المدينة من جهة الغرب، قبل أن تُتخذ أية خطوات لغلق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة.

وفي منتصف اليوم الثالث والعشرين من عقد المعاهدة الكاذبة، شنَّ سيريانوس أمير مصر على رأس خمسة آلاف جندي من الجنود المسلَّحين هجوماً فجائياً على كنيسة القديس ثيئوناس(٣٦)، حيث كان أثناسيوس مع الشعب والإكليروس يؤدُّون صلاة العشية ...](٣٧)

وهنا يلزمنا أن نوضِّح بعض النقاط التاريخية الهامة التي أغفلها جيبون.

وهذه النقاط بالتتابع الزمني يمكن ترتيبها كالآتي:

١ ـ بعثة ذات أغراض سلامية من أثناسيوس إلى قسطنطيوس برئاسة سيرابيون أسقف تمويس في ١٨ مايو سنة ٣٥٣م.

٢ ـ بعثة ذات أغراض خبيثة من قسطنطيوس إلى الإسكندرية لدعوة أثناسيوس للحضور إلى ميلان ٢٣ مايو ٣٥٣م.

٣ ـ القضاء على ثورة ماجنتيوس في الغرب وإخماد الحرب الأهلية في نهاية أغسطس سنة ٣٥٣م.

٤ ـ وصول قسطنطيوس إلى مدينة آرل بفرنسا وبداية عقد مجمع آرل في شتاء سنة ٣٥٣م.

٥ ـ استخدام أثناسيوس الكنيسة القيصرية قبل تدشينها بدون أمر الإمبراطور في موسم الصوم والفصح سنة ٣٥٤م، والخطاب الفصحي الذي يتنبَّأ فيه أثناسيوس بالآلام القادمة وتشجيع الشعب على الصبر والاحتمال.

٦ ـ اجتماع مجمع ميلان الكبير في ربيع سنة ٣٥٥م حسب رجاء ليباريوس أسقف روما.

٧ ـ وصول ديوجنيتس مبعوث الإمبراطور بدون رسائل مكتوبة لمحاولة خلع أثناسيوس من كرسيه ونفيه باستخدام السلطة الحكومية وذلك في أواخر يوليو سنة ٣٥٥م. وإزاء عجزه وفشله التام بسبب مقاومة الشعب بصلابة، غادر الإسكندرية في ديسمبر سنة ٣٥٥م.

٨ ـ وصول الجنرال سيريانوس مع أحد أمناء سر الإمبراطور المدعو إيلاريوس ودخولهما

---

(٣٦) كنيسة ثيئوناس هي الآن مقام على أنقاضها الكنيسة الكاثوليكية المسمَّاة كنيسة القديسة ريتا وهي بجوار باب ١٤ جمرك ميناء الإسكندرية.

(٣٧) جيبون – الجزء الأول صفحة ٦٤٥-٦٥٣.

الإسكندرية في ٥ يناير سنة ٣٥٦م بأوامر شفوية لنفي أثناسيوس.

٩ ـ شعب الإسكندرية وأراخنة الشعب والإكليروس يهدِّدون بإعلان العصيان واستخدام السلاح، ويجبرون سيريانوس بحضور الوالي على **توقيع معاهدة** عدم اعتداء، والقسم بحياة الإمبراطور، حتى تصل أوامر صريحة من الإمبراطور وذلك في ١٨ يناير سنة ٣٥٦م.

١٠ ـ هجوم الجيش بقوة قوامها ٥ آلاف جندي على الإسكندرية واقتحام أبواب كنيسة ثيئوناس في مساء الخميس قرب منتصف الليل ٨ فبراير سنة ٣٥٦م بقيادة جورجونيوس رئيس البوليس وسيريانوس الجنرال وإيلاريوس، ونجاة أثناسيوس.

١١ ـ دخول جورج (جورجيوس) الكبادوكي (مغتصب كرسي الإسكندرية) إلى المدينة في موسم صوم الفصح سنة ٣٥٦م.

١٢ ـ الهجوم على الكنيسة الكبرى (القيصرية) ورجم الشعب المجتمع بالحجارة وضربهم بالعصي بواسطة الرعاع، وذلك في سهرة الخميس ١٣ يونيو سنة ٣٥٦م بقيادة هيراكليوس وكتافرونيوس الوالي الجديد (بعد وصوله بثلاثة أيام) ومعهم فوستينوس الجنرال العام.

١٣ ـ تسليم جميع الكنائس ليد الأريوسيين في يوم السبت ١٥ يونيو سنة ٣٥٦م.

١٤ ـ امتداد أعمال العنف إلى أكثر من ٩٠ مدينة أسقفية من مدائن مصر على غرار ما حدث في الإسكندرية(٣٨).

مجريات الحوادث بالتدقيق

أولاً: بعثة أثناسيوس السلامية إلى قسطنطيوس برئاسة سيرابيون:

عندما بلغ أثناسيوس أخبار الانتصار الذي أحرزه قسطنطيوس في ولايات الغرب الذي به دانت الإمبراطورية بأكملها شرقاً وغرباً لحكمه، كما وقد بلغته أيضاً أخبار الوشايات التي بدأ يخطِّط لها الأريوسيون بقيادة الأسقفين الخائنين أورساكيوس وفالنس في الغرب، منتهزين فرصة حقد الإمبراطور نفسه على أثناسيوس بسبب الكرامة التي كان يكنُّها أساقفة إيطاليا وبقية البلاد الغربية

(٣٨) جيبون ـ الجزء الأول صفحة ٦٥٤.

لأثناسيوس؛ أسرع أثناسيوس ورتّب بعثة من خمسة أساقفة وثلاثة كهنة بقيادة سيرابيون أسقف تمويس، الذي يصفه المؤرِّخ سوزومين بقوله: [أسقف يمتاز بقداسة عجيبة وقوة منطق وحكمة بليغة](٣٩). وكذلك يذكر لنا أثناسيوس نفسه أنه كان يرافقه أسقف آخر هو أمونيوس(٤٠). ويذكر لنا مؤلِّف تاريخ الجدول الفصحي أن بين هذه البعثة أيضاً كان تريادلفوس أسقف نيقيوس، والكاهنان بتروس واستريكيوس(٤١). وأبحرت هذه البعثة في ١٨ مايو سنة ٣٥٣م.

وكان الغرض من هذه البعثة هو للسلام وتصحيح أفكار الإمبراطور والرد على وشايات الأريوسيين ولخير الكنيسة على وجه عام، ولكن للأسف يقول صاحب التاريخ الفصحي أنها عادت دون أن توفَّق لعمل أي شيء(٤٢).

ويقول عن هذه البعثة المؤرِّخ دوشسن:

[اتجهت هذه البعثة لإيطاليا لمقابلة الإمبراطور هناك.

وكان يوليوس أسقف روما الوديع المحبوب قد تنيَّح في ١٢ أبريل سنة ٣٥٢م وحل مكانه ليباريوس شماسه الخاص في ١٧ مايو من السنة نفسها، أي بعد شهر واحد من رحيل يوليوس، وقد استقبل ليباريوس البعثة وتفحَّص رسائل أثناسيوس بكل دقة واهتمام وكان قد وصله أيضاً رسائل معاكسة من أساقفة الشرق تتهم أثناسيوس وتحرمه وكان من ضمن هذه الرسائل ما أرسله أساقفة مصر الميليتيون.

وقد ردَّ عليهم يدحض ادعاءاتهم في المجمع السنوي الذي كان يعقده أسقف روما في ١٧ مايو من كل سنة، أي كان ذلك سنة ٣٥٣م.

أمَّا بعثة القديس سيرابيون أسقف تمويس فكان معها عريضة موقَّعة من ثمانين من أساقفة مصر لتأييد أثناسيوس. ولمَّا رفض الإمبراطور مقابلتهم قفلوا راجعين(٤٣).

بعد هذا أرسل ليباريوس أسقف روما باسم أكبر عدد من أساقفة روما طلباً للإمبراطور

(39) Sozom., *E.H.* IV. 9.
(40) Athanas., *Lett.* 49.
(41) N.P.N.F., IV, p. 504.
(42) Ibid.
(43) Duchesne *op. cit.*, p. 203.

بعقد مجمع لفحص هذه الأمور في أكويليا، وأرسل إليه نائبين فنسنت أسقف كابوا ومارسيللوس أسقف كمبانا اللذين انضما للأريوسيين في آرل ووقّعا ضد أثناسيوس تحت ضغط الإمبراطور والأساقفة الملتفين حوله.](٤٤)

ثانياً: بعثة قسطنطيوس الخبيثة لدعوة أثناسيوس لمقابلة الإمبراطور في ميلان ٢٣ مايو سنة ٣٥٣م:

بعد إبحار البعثة بأيام قليلة وبينما بعثة أثناسيوس في طريقها، وصل إلى أثناسيوس، بيد مبعوث الإمبراطور المدعو مونتانوس، رسائل من الإمبراطور يدعوه للحضور للقصر. فالبعثة أبحرت في ١٨ مايو سنة ٣٥٣م ووافت الرسائل في ٢٣ مايو سنة ٣٥٣م. وبالرغم من أن الإمبراطور لم يُفصح في رسالته عن أمره الصريح لأثناسيوس بالحضور للتحقيق أو للمراجعة عن أي شيء صدر من أثناسيوس، بل وبالرغم من أن منطوق الرسالة يبدو وكأنه أُرسل ردًّا على رسالة طيِّبة سبق أن بعثها أثناسيوس للإمبراطور، بل وأكثر من هذا أيضاً إذ بالرغم من أنه كان في الرسالة نوع من الاحتيال للتظاهر بأن الدعوة للمثول لديه هي للنظر في سد احتياجات كنائس الإسكندرية، وهذا كله وارد في خطاب أثناسيوس الدفاعي للإمبراطور والمسمَّى: "الدفاع لدى قسطنطيوس"(٤٥)، إلاَّ أن أثناسيوس بحاسته التي لم تَخُنْه قط أدرك في الحال أن في الأمر خطراً داهماً، وأبلغ الشعب وكل الإكليروس، فاضطربوا اضطراباً عظيماً إذ كانوا يعلمون تماماً أنه لا سلام ولا أمان سواء في الطاعة والإذعان للذهاب أو في عدم الطاعة ورفض الذهاب لمقابلة إمبراطور مثل هذا متقلّب في كل أفكاره ومشاعره.

وأخيراً استقر الرأي بالإجماع أن يبقى أثناسيوس في الإسكندرية: [وأجاب أثناسيوس بقوله: بما أنه لم يطلب شيئاً من الإمبراطور، فهو لا يستطيع أن يجازف بالسفر، إذ من غير اللائق أن يستجيب لدعوة غير واضح مقصدها، فإذا أرسل الإمبراطور أمراً صريحاً له بالذهاب فيمكنه آنئذ أن يلبِّي الدعوة في الحال](٤٦)، مما اضطرَّ حاملي الرسائل الإمبراطورية للعودة من حيث أتوا بلا ردّ!! ..

(أ) ثورة ماجننتيوس الطاغية وسلوانس المرتد والقضاء عليهما.

(ب) تمرُّد اليهود في فلسطين.

(44) Ibid. p. 204.
(45) N.P.N.F. vol. IV pp. 245, 246.
(46) *Apol. Ad Const.* 19-21.

(ج) ذبح القيصر غاللوس.

(د) التفرُّغ لمناوأة أثناسيوس والبدء بأساقفة الغرب أولاً.

(أ) ثورة ماجننتيوس الطاغية وسلوانس المرتد عن الإيمان والقضاء عليهما:

كان بعد عودة الإمبراطور قسطنطيوس من حرب الفُرس التي لم تنته بواقعة حاسمة، بل وعلى ما يبدو كسب الفرس شيئاً من النصرة في معركة ليلية غير حاسمة(٤٧)، عاد الإمبراطور منهوك القوى وكان في سيرميوم بعيداً عن مركز سلطانه.

وفي هذه الأثناء قام في الغرب رجل طاغية طموح ومتعصِّب يُدعى ماجننتيوس، وقد كان حاكماً على مقاطعة في الغرب تسمَّى روتيا Rhoetia، قام وقتل إمبراطور الغرب قسطانس أخا الإمبراطور قسطنطيوس، قتله ذبحاً(٤٨) بينما كان يستحم في إقليم فرنسا (الغال)، وعيَّن ماجننتيوس نفسه إمبراطوراً على كل إيطاليا وقتل ابن أخت الإمبراطور، وفي الحال استشاط غضباً أخوه الإمبراطور قسطنطيوس إمبراطور الشرق وجهَّز جيشاً ليزحف على روما. وفي نفس الوقت أعلن العصيان ضابط آخر مرتد عن المسيحية اسمه فترانيو Vetranio في مدينة سيرميوم Sirmium في بلاد إيلليريكوم Illyricum (وهي الآن المعروفة باسم ألبانيا أي الشاطئ المتاخم لشرق إيطاليا)، وهكذا دخلت إيطاليا وكل تخومها في اضطرابات سياسية ودينية وقلاقل ومذابح، وذلك كله حدث في مدة وجيزة للغاية كما يحكي لنا المؤرِّخ سقراط، وذلك في السنة الرابعة لانتهاء مجمع سرديكا، أي حوالي سنة ٣٥٠م، بحسب تحقيق المؤرِّخ سوزيموس (في كتابه الثاني ٤٣-٤٨)، وذلك في زمان قنصلية نيجرينان وسرجيوس. وهكذا حكمت الأقدار أن يتحمَّل قسطنطيوس عبء تعبئة جيشه بنفسه للزحف نحو إيطاليا. والذي يُذهل القارئ أن ينبري في هذه اللحظة أعداء أثناسيوس ويقدِّموا للإمبراطور وهو في أقصى محنته وشاية ضد أثناسيوس، كنهها أن أثناسيوس في رحلة عودته من النفي مروراً بفلسطين حرَّض الشعب والأساقفة ضد الإمبراطور، وقام برسامة كهنة في الإيبارشيات التي مرَّ عليها والتي ليست من اختصاصه، وأن أثناسيوس قلَّب عليه كل ليبيا ومصر. وأنه جمع مجمعاً من غير علم الإمبراطور وذلك في فلسطين بقيادة مكسيموس أسقف أُورشليم الذي ثبَّت مقرَّرات مجمع سرديكا مع إعطاء أثناسيوس يمين الشركة.

---

(47) Socrat. *E.H.* II: XXV.

(48) Sozimus 11. 45 cited by Socrate. Ibid.

ويقال إنه مات تحت أرجل الجند في فبراير سنة ٣٥٠م. *Dict. of Chr. Ant.* p. 192.

وسرعان ما هاجت نفس الإمبراطور ضد الأرثوذكس مرَّة واحدة لأن روح الأريوسية كان قد تغلغل إلى أعماقه، فأمر في ثورة غضبه بنفي "بول" أسقف القسطنطينية، مع توصية خاصة للذين اصطحبوه إلى منفاه في جبال القوقاز في كبادوكية، أن يقتلوه خنقاً قبل أن يصل إلى منفاه، وقد تمَّ كل ذلك.

"سلام لروحك يا "بول" ملاك القسطنطينية الشهيد يا مَنْ أسلمت الوديعة الطاهرة في الغُربة الموحشة وحيداً بلا رفيق ولا مُعزِّي!!..."

وأقاموا عوض "بول" القديس أسقفاً آخر مجرماً قتَّالاً محتالاً، قَلَبَ القسطنطينية بل كل بلاد آسيا إلى أعمال وحشية وألقى في السجون كهنة وأساقفة وأراخنة بلا عدد(٤٩)، وطرد الأسقف مارسيللوس وجعلوا باسيل أسقفاً على أنقرة عوضاً عنه، أمَّا لوسيوس أسقف أدرينوبل فعلَّقوا في عنقه سلسلة ثقيلة وألقوه في السجن، فلم يحتمل جسده الرهيف التعذيب فمات في الحال!!

"وسلام لروحك أيضاً يا "لوسيوس"، ومَنْ لي بسلسلتك الثقيلة أضعها على عنقي كأسهل وأجمل وأحلى طريق يوصِّلنا للسماء!!"

أمَّا أثناسيوس فقد وضع الإمبراطور بنفسه خطة قتله بلا رحمة وبأي ثمن، ولكن كيف؟ وأثناسيوس له شعب؛ بل له مصر كلها، ومصر لا يُستهان بها قط منذ فجر التاريخ، شعب مترابط يستطيع لو شاء أن يقف في وجه الدنيا كلها بل في وجه الجحيم!! وتخاذل إمبراطور الشرق والغرب أمام كتابة أي أمر، ولم يجرؤ أن يضع خاتمه على كلمة واحدة ضد أثناسيوس فزعاً ورعبة من أثناسيوس القديس ومصر الحرة الثائرة، فارتأى أخيراً أن يرسل ضبَّاطه لقتله بتوصيات شفاهية ولكن بدون أمر مكتوب!! أمَّا هو فذهب في طريقه إلى إيطاليا لمواجهة ماجننتيوس.

اتجه قسطنطيوس صوب روما، وانضم إليه في الطريق كثير من جنرالات إيطاليا، وترك ماجننتيوس روما والتجأ إلى فرنسا. ولكن قسطنطيوس تقدَّم، وبدأت الحرب سجالاً، ولكن فجأة انضم معظم الضباط الذين في جيش ماجننتيوس إلى جيوش قسطنطيوس، وفي إحدى قلاع فرنسا المدعوة مورسا Mursa بينما كان ماجننتيوس يخطب في ضباطه وجيوشه ليثير فيهم روح الشجاعة، وبعدما أنهى خطبته وكان ينتظر هتافاً بحياته ونصرته إذ بالقواد يهتفون بحياة قسطنطيوس، فأدرك

(49) Socrates *Ecc. H*.E. II. XXVII.

الطاغية أن الزمام قد فلت من يديه، فما كان منه إلاّ أن انسحب وهرب إلى أقصى فرنسا وهناك وقع على سيفه ومات منتحراً.

ولكن في وسط هذه الاضطرابات قام طاغية آخر، ضابط يُدعى سلوانس وأراد أن يغتصب الإمبراطورية، ولكن سرعان ما أحاط به قسطنطيوس وهو في طريق عودته من فرنسا وقضى عليه وعاد منتصراً، وكان هذا في سنة ٣٥٣م بحسب تاريخ سقراط(٥٠).

(ب) تمرُّد اليهود في فلسطين:

وفي هذه الأيام وحول هذا التاريخ تجمَّع يهود فلسطين، تشبُّثاً وراء وعد مفقود، ورجاءً في سراب العودة إلى مُلك داود وأرض الموعد كالعادة، وأرادوا الإطاحة بحكم الرومان، تراودهم أحلامهم الذهبية، مرتكنين على نبوات أنبياء كانت قد تخطَّت زمانهم وتحقَّقت لغير أجيالهم الذين قبلوا النور وآمنوا بالوعد، وبقي هؤلاء في ظلام الدهور، يترجُّون ما لا يُرجى.

تجمَّع جيش اليهود في ديوقيصرية وجهَّزوا أنفسهم بالسلاح واستعدُّوا للحرب، وبدأوا يغيرون على البلاد المجاورة كبادئين في الهجوم، وكان والي الشرق في هذا الزمان يُدعى غاللوس Gallus قيصر، فتقدَّم هذا بغاية السرعة وحاصر جيوش اليهود وقضى عليهم قضاءً ساحقاً. وكما يقول المؤرِّخ سقراط إنه أمر أن تُهدم ديوقيصرية حتى الأساسات، أو بالتعبير الإنجليزي، أن تُزال من الوجود.

(ج) ذبح غاللوس قيصر:

وهو نفس القيصر الذي أخمد ثورة يهود فلسطين في ديوقيصرية ويبدو أن الزهو أخذه و لم يحتمل هذه النصرة الساحقة بتعقُّل، فبدأ يطغى على حكام المنطقة التابعة له راغباً في تهيئة الجو لنفسه ليكون حاكماً منفرداً على الشرق، وسرعان ما بلغ الإمبراطور أخبار طموح هذا الوالي الذي هو في الحقيقة صنيعة الإمبراطور فهو الذي رقَّاه وجعله قيصراً على بلاد المشرق. فاستدعاه، وبينما هو في الطريق إليه وفي جزيرة تُدعى فلانونيا Flanonia بالقرب من إيطاليا أمر الإمبراطور بذبحه هناك. [والعجيب أنه بعد فترة من الزمان أقام أخاه والياً على أحد أقاليم فرنسا، وكان يُدعى جوليان، ورقَّاه ليكون قيصراً بعد أن أخمد ثورة البربر في فرنسا، وذلك في ٦ نوفمبر سنة ٣٥٥م.](٥١)

وبعد أن استراح قسطنطيوس من مشاكل السياسة والحروب في حوالي سنة ٣٥٣م مزهواً

---

(50) Socrates *E.H.* II, XXXII.

(51) Ibid, II, XXXIV.

بسلطان النصر، عاد ليتسلّى بأمور الكنيسة وبدأ يخطِّط لقتل أثناسيوس!

مجمع آرل وقصة اضطهاد أثناسيوس الثاني، على يد الإمبراطور قسطنطيوس:

لم يستطع أحد من المؤرِّخين أن يصف لنا بدقة ظروف هذا المجمع أكثر من أثناسيوس نفسه في سرده لتاريخ الأريوسية المدعو بكتاب "تاريخ الأريوسية". وسوف نلخِّصه للقارئ حتى يكون على بينة مما قاسته الكنيسة القبطية بل والأرثوذكسية في العالم كله حتى صارت الأرثوذكسية هي الأرثوذكسية التي نعيشها الآن. ويُلاحَظ أن أثناسيوس يسرد لنا التفاصيل بغاية الدقة ويركِّز على أساليب الإمبراطور الخداعية، وكيف أن الإمبراطورية كان يسوسها جماعة من الخصيان داخل القصر، وجماعة من ذئاب الأريوسية خارج القصر، وقد تعاهدت هاتان الجماعتان على محو شيئين من الوجود: أولاً: أثناسيوس، وثانياً: المسيح. وهذا الترتيب بحسب كمية الكراهية التي كان يكنُّها الإمبراطور والأريوسيون لهما. يقول أثناسيوس في كتابه عن تاريخ الأريوسية الجزء الرابع(٥٢):

حنث أورساكيوس وفالنس:

[لم يستطع ورثة أفكار يوسابيوس وأتباعه في التخطيط والخِطَّة الأخلاقية أن يحتملوا السلام الذي بدأ يستتب بين أثناسيوس (هنا أثناسيوس يقول عن نفسه) وبين الأساقفة الذين بلغ عددهم أكثر من أربعمائة أسقف - بحسب تجمعهم في مجمع سرديكا(٥٣) - من روما العظمى وكل إيطاليا وكالابريا وأبيوليا وكامبانيا وبروتيا وسردينيا وقورسيكا وكل إفريقيا، مع أساقفة الغال (فرنسا) وبريطانيا وأسبانيا وعلى رأسهم المعترف العظيم هوسيوس مع أساقفة بانونيا ونوريكم وسيسكيا، ودالماطية وداردانيا وداسيا وموسيا ومكدونية وتساليا وأخائية وكريت وقبرص وليكيا، ومعظم أساقفة فلسطين وإيشوريا ومصر وطيبة وكل ليبيا والخمس مدن.

وهكذا لم يَطقْ هؤلاء المارقون هذا التجمُّع السلامي الكبير، فامتلأوا حسداً وحقداً وخوفاً لئلاَّ يفلت من مصيدتهم الذين وقعوا في غوايتهم، وتبدأ ضلالة هرطقتهم تنفضح وتقاوَم في كل مكان.

وفي سنة ٣٥١م استطاع هؤلاء المارقون أن يستميلوا أورساكيوس وفالنس، فعادوا إلى

(52) Athanas., *Hist. of the Arians*. IV, p. 279.
(53) Athanas., *Apol. contra Arianos*. 50, note 10.

قيئهم الأول وتمرَّغوا في حمأة سلوكهم غير الشريف. وكانوا يحتجُّون لخيانتهم المعيبة هذه بخوفهم من الإمبراطور قسطانس الكلي القداسة!! ولكن وإن أخذنا بعذرهم هذا فما الذي أجبرهم على أن يخونوا زملاءهم؟ ولكن لم يكن من سبب للخوف بل هو الكذب والغش، هذا بحد ذاته يجعلهم بالحق تحت الدينونة! لأنه ما من جند ذهبوا إليهم ولا أمراء ولا كتيبة ولا حتى الإمبراطور مرَّ بهم ولا أحد دعاهم لكي يكتبوا هذا الخبث بأيديهم، ولكنهم بمحض إرادتهم ذهبوا إلى روما وسجَّلوا على أنفسهم في وثائق الكنيسة دون أي عوامل تخويف أو ضغط، حيث لم يكن من داعٍ للخوف إلاَّ الخوف من الله وحده ولا ضاغط إلاَّ من حرية الضمير، وبالرغم من أنهم عادوا مرَّة ثانية إلى الأريوسية ولكن للأسف، فإن عذر الخوف الذي قدَّموه ـ وهذا عذر غير شريف بحد ذاته ـ ليسلكوا هذا السلوك المعيب لم يكن داعياً لهم للخجل.](٥٤)

ولا زلنا نتابع كلام القديس أثناسيوس، واصفاً بنفسه هذه الفترة المفجعة من انهيار القيم الأخلاقية لدى أساقفة كثيرين، ممالأة للإمبراطور في الإيمان والتفريط في التقليد واستقامة الرأي؛ يقول أثناسيوس:

حنث الإمبراطور في أقسامه:

[لقد جمع هؤلاء الأساقفة المارقون (الأريوسيون) أنفسهم وذهبوا إلى الإمبراطور قسطنطيوس وتوسَّلوا إليه ضدِّي (أثناسيوس) قائلين إن أثناسيوس أرسل رسائل ضد هؤلاء الأساقفة إلى جميع أنحاء العالم، وإن الغالبية العظمى من الناس قبلوا الشركة معه (أي معي). وحتى الذين كانوا معنا استمال معظمهم والباقون على وشك أن ينضموا إليه. وهكذا سنبقى وحدنا، وليس نحن فقط بل وأنت أيضاً سيُلصَق بنا تهمة أننا هراطقة، فالآن يتحتَّم أن تقمع هذا الرجل وتناصر عقيدتنا (هرطقتنا)، لأن هذا يعينك كَمَلِك! هكذا كانت وسائلهم الأثيمة غير الشريفة. ولمَّا كان الإمبراطور في طريقه لمحاربة ماجننتيوس (سنة ٣٥١م) لاحظ مقدار ترابط شركة الأساقفة جميعاً مع أثناسيوس، فطار صوابه واشتعلت نيران الحقد في قلبه، وفي الحال غيَّر رأيه وصمَّم على الحنث في قسمه، وتناسى كل ما كتبه (لي) بخط يده، واستهان بالواجبات التي قطعها على نفسه تجاه ذكرى أخيه. لأن قسطنطيوس في خطاباته لأخيه وفي مقابلته لأثناسيوس أقسم أنه **لن يتصرَّف إلاَّ بحسب رغبات الشعب وما يوافق عليه**

(54) Hist. of the Arians, IV, p. 279.

الأساقفة، ولكن لأنه إذ كان ذا أخلاق دنيئة أخذته غيرته لكي يتناسى كل وعوده وأقسامه ورسائله، كما صنع فرعون قديماً مع شعب إسرائيل حتى هلك مع كل مشيريه.](٥٥)



شاهد حجري من إدفو منقوش بالحفر الخفيف يرجع إلى القرن الخامس/السابع
[محفوظ بالمتحف البريطاني]

(55) Ibid. p. 280.

مجمعا آرل وميلان
(٣٥٣-٣٥٥م)

قسطنطيوس يبدأ الاضطهاد من بعيد استعداداً للانقضاض على الإسكندرية:

[ابتدأ الإمبراطور يرسل دعاته لإرغام الشعب في كل مدينة ليغيِّروا ولاءهم (لأثناسيوس)، وعند وصوله إلى آرل سنة ٣٥٣م وميلان سنة ٣٥٥م، بدأ ينادي ويعمل بحسب مبادئ وخطط الأريوسيين بكل وضوح وعلانية، كما بدأ الأريوسيون أيضاً يتصرَّفون بسلطانه وينقضُّون بكل وحشية وصرامة ضد كل إنسان.

وابتدأت الخطابات والأوامر تُرسل باسم الإمبراطور إلى مصر، لكي يرفع سلطان أثناسيوس من الوصاية على قمح مصر، ويسلِّمه للأريوسيين ليتصرَّفوا فيه، **وتعطَى الحرية لكل مَنْ يشاء لمقاومة ومهاجمة كل مَنْ يتبع الشركة مع أثناسيوس. وأعلن تهديده لكل الرؤساء إذا هم لم يقيموا الشركة مع الأريوسيين**، فكانت هذه الأمور مقدِّمة لما سيحدث بعد ذلك على يدي الوالي سيريانوس.

كما أُرسلت الأوامر إلى كل الجهات للرؤساء والولاة لكي يبلِّغوا الأساقفة، أنهم إذا لم يوقِّعوا بإمضاءاتهم ضد أثناسيوس ويقيموا الشركة مع الأريوسيين فيصير معاقبتهم في الحال بالنفي، وكل مَنْ يتعرَّض لذلك من عامة الشعب يقبض عليه ويوضع في السلاسل ويجري تعذيبه وجلده وتجريده من كل ممتلكاته.

ولقد نُفذت هذه الأحكام والأوامر، إذ صار لها جواسيس من الكهنة مثل أورساكيوس وفالنس يشجِّعون الاضطهاد بغيرة ونشاط، ويبلغون في الحال عن أي تباطؤ في تنفيذ العقوبات للإمبراطور مباشرة ...

وقد تمَّ قول المسيح في كثير من الأساقفة: «ستقفون أمام ولاة وملوك من أجل اسمي»، وقبلوا التهديد بالقضية هكذا: "وقِّع بإمضائك وإلاَّ فانسحب من كنيستك لأن الإمبراطور يأمرك بالاستقالة".

وملأ الحزن كل البلاد وملأ الخوف والارتباك كل القلوب بينما هم يجرُّون الأساقفة أمام عيون الشعب للمحاكمة، والشعب ينوح ويولول.](٥٦)

قسطنطيوس يباشر الاضطهاد بنفسه وهو في آرل وميلان (٣٥٣-٣٥٥م):

والمعروف أن في آرل انعقد المجمع الأول سنة ٣٥٣م، وتقرَّر فيه حرم أثناسيوس بعد خلعه من كرسيه، وقد وقَّع على هذا القرار كل الأساقفة الحاضرين، ما عدا بولينوس أسقف تريف بفرنسا، فنُفي في الحال إلى فريجية بآسيا الصغرى حيث عُذِّب في الطريق حتى مات. ويقول القديس أثناسيوس إنهم ربطوه بسلسلة كانت أثقل من وزنه.

والعجيب أيضاً أن نائبي ليباريوس أسقف روما وهما فنسنت أسقف كابوا ومارسيل أسقف كمبانيا بإيطاليا وقَّعا أيضاً على الحرم، مما أثار كل أساقفة روما وليباريوس نفسه وقال آنئذ قولته المشهورة لزميله هوسيوس والتي يحافظ عليها: [إني لو خُيِّرت بين الموت واختصام أثناسيوس لفضَّلت الأول على الثاني.](٥٧)

وفي هذا يقول القديس أثناسيوس بالتفصيل:

[وبعد أن أخذتْ إجراءات رجال البلاط حدَّها بواسطة الخطابات والأوامر المكتوبة، لم يكن بدٌّ من إرغام بعض الأساقفة الذين تمسَّكوا بمواقفهم للمثول أمام الإمبراطور باتهامات مختلفة ملفَّقة حتى يلينوا أمام هيبة الإمبراطور، وهكذا وبطرق أخرى باشر الإمبراطور بنفسه إرغام عدد كبير من الأساقفة تارة بالتهديد وتارة بالوعود حتى ينطقوا اعترافهم: "أنهم لن يعودوا إلى الشركة مع أثناسيوس".

ومعظم الذين دُعوا لمقابلة الإمبراطور لم يقابلوه، بل حُبسوا في الأماكن التي أنزلوهم فيها ولم يُسمح لهم بالمقابلة أو حتى الخروج من مساكنهم إلاَّ بعد التوقيع بالإمضاء وإلاَّ أُرسلوا مباشرة إلى النفي!!

وواضح أنه لجأ إلى هذه الطرق لأنه وجد أن هذه الهرطقة الأريوسية مكروهة لدى كل الناس، لذلك كان يجبر الكثيرين لكي يضعوا إمضاءاتهم بجوار إمضاءات الأريوسيين لأن عددهم كان قليلاً، وكانت رغبته الشديدة في أن يكرِّس عدداً كبيراً من أسماء المنتمين لحزب

(56) Ibid. p. 280.

(57) Hilary of Poitiers., *Frag. Hist.* 6.3.

الأريوسيين لأنه اعتبر نفسه نصيراً لهم!! ظاناً أنه يقدر أن يغيِّر الحق بالسهولة التي يغيِّر بها عقول هؤلاء المنخدعين. و لم يعلم أن محاولات الصدوقيين (الموالين للولاة) والهيروديين (أتباع الملك علانية) في ضمهم الفريسيِّين إليهم، لم تقوَ على طمس الحق، بل أصبح الحق أكثر تألقاً ولمعاناً عندما نادوا: «ليس لنا ملك إلاَّ قيصر!!»، وحتى بعد أن نالوا حكم بيلاطس لصفهم تُركوا بعد ذلك في عزلتهم ينتظرون خيبة أملهم بعد موت نصيرهم!!](٥٨)

أساقفة الغرب يلقنون الإمبراطور درساً في شجاعة الإيمان:

[وبينما الإمبراطور ومَنْ معه (من وزراء وخصيان وأساقفة أريوسيين) يظنون أنهم يباشرون انتصارهم على الأساقفة المجتمعين بآرل وميلان بهذه الوسائل، لم يَدُرْ بخلدهم أنهم بهذا أيضاً يقدِّمون للمسيح معترفين، الذين من بينهم مَنْ اعترفوا اعترافاً مجيداً، رجال أتقياء وأساقفة ممتازون مثل باولينوس أسقف تريف وهو رئيس أساقفة الغال (فرنسا)، لوسيفر مطران سردينيا، يوسابيوس أسقف فرشللي بإيطاليا وديوناسيوس أسقف ميلان وهو مطران كل إيطاليا. هؤلاء استحضرهم الإمبراطور، وأمرهم أن يوقِّعوا بإمضاءاتهم ضد أثناسيوس ويقبلوا الشركة مع الأريوسيين، فلمَّا أبدوا للإمبراطور دهشتهم من هذا الإجراء الغريب **وواجهوه أنه لا يوجد قانون كنسي يبيح هذا الإجراء!!** ردَّ عليهم الإمبراطور بقوله **لقد قال لي أساقفة سوريا إن كل ما أريده يُحسب قانوناً!! فإما أن تخضعوا وإما أن تذهبوا إلى المنفى!!**](٥٩)

نتيجة مجمعي آرل سنة ٣٥٣م وميلان سنة ٣٥٥م:

أساقفة الغرب الأرثوذكس يواجهون النفي فينشرون هناك معرفة الحق:

[لم يقف هؤلاء الأساقفة أمام الإمبراطور مكتوفين (في مجمعي آرل وميلان) بل رفعوا أيديهم نحو السماء، وبجرأة وشجاعة تحدُّوا الإمبراطور مواجهة قائلين إن المملكة لله وليست له، وإن الله هو الذي أعطاه المُلك، وينبغي عليه أن يخشاه لئلاَّ ينزع المملكة من يديه وذكَّروه بتهديد يوم الدينونة العتيد، وحذَّروه من أن يكسر النظام الكنسي، وألاَّ يخلط بين السلطان الروماني والسلطان الكنسي، وحذَّروه من إقحام الهرطقة الأريوسية على كنيسة الله.

(58) Athanas. Ibid. 281.

(59) Ibid.

ولكنه لم يُصغِ لهم ومنعهم من الاسترسال في الكلام، وثار وهدَّدهم شاهراً السيف عليهم ثم أمر بإرسالهم للإعدام، ولكنه عاد - كفرعون في زمانه - ورجع عن عزمه وأرسلهم للنفي، أمَّا هم فرفعوا عيونهم نحو السماء و لم يعبأوا بكلامه و لم يخافوا البتة من سيفه المرفوع بل نفضوا الغبار عن أرجلهم وذهبوا إلى النفي حاسبينه خدمة تتعلَّق بكرازتهم.

وكانوا يبشِّرون بالإنجيل أينما ذهبوا، مع أنهم كانوا مقيَّدين بالسلاسل، وكانوا يجحدون التعاليم الأريوسية ويحرمون القائلين بها كقتلى وصانعي شر، أمَّا هم فكانوا موضع إعجاب كل مَنْ سمعهم ورآهم وكان يكرِّمهم الشعب كمعترفين!!]

وينقل ثيئودوريت عن القديس أثناسيوس بخصوص ما تمَّ في مجمع ميلان سنة ٣٥٥م وهو ما ورد في اعتذاره عن هروبه:

[والقديس أثناسيوس العجيب يذكر هذه الأحوال في اعتذاره هكذا:

وبينما كانت الكنائس تعيش وتستمتع بالسلام والجموع محتشدة للصلاة، أخذوا ليباريوس أسقف روما وباولينوس أسقف الغال (فرنسا) وديونيسيوس أسقف كل إيطاليا وليسيفوروس أسقف كل سردينيا ويوسابيوس أسقف إحدى مدن إيطاليا - وهم أساقفة جميعهم على أعلى مستوى يُحتذى به، وشهودٌ للحق، أخذوهم إلى النفي لا لسبب إلاَّ لأنهم لم يوافقوا الهرطقة الأريوسية وامتنعوا أن يمضوا على اتهامات باطلة ضدِّي.

ومن بين جميع الأساقفة العظماء وأكثرهم شهرة هوسيوس أسقف قرطبة وهو ابن مائة عام، أخذوه هو الآخر إلى المنفى لأنه لم يوقع ضدِّي.](٦٠)

قضية ليباريوس أسقف روما(٦١)

استمرار اضطهاد ليباريوس أسقف روما حتى زلَّ في النهاية صاغراً ووقَّع على وثيقة الأريوسيين:

(أ) [ومنذ البدء (قبل الاجتماع في آرل وميلان) لم يستثنوا ليباريوس أسقف روما بل امتد جموحهم إلى تلك النواحي، و لم يحترموا أسقفيته بصفته كرسياً رسولياً، و لم يعتدُّوا بروما

(60) Theodoret. *Ecc. Hist.* II p. 76.

(٦١) ظل المغبوط يوليوس أسقفاً على روما منذ سنة ٣٣٧م - سنة ٣٥٢م وقدخلفه ليباريوس في الأسقفية.

بصفتها متروبوليس كل رومانيا (إيطاليا)، ... قالوا في أنفسهم: "إذا استطعنا أن نقنع ليباريوس فنحن نسود سريعاً على الجميع"، فابتدأوا يتهمونه غشاً أمام الإمبراطور، فاقتنع هذا أنه يستطيع فعلاً أن يضم كل الناس ليكونوا في جانبه بواسطة ليباريوس، فكتب إليه رسائل ودفعها بيد خصي يُدعى يوسابيوس مع هدايا يتملّقه بها ولكن مع تهديدات ووعيد يتضمّنها خطابه. فذهب الخصي إلى روما واقترح على ليباريوس أولاً بالتوقيع بإمضائه ضد أثناسيوس وأن يصنع الشركة مع الأريوسيين قائلاً: "إن هذه هي رغبة الإمبراطور وهو يأمر بذلك"، وابتدأ يستعرض الهدايا المرسلة إليه، وكرّر عليه الرجاء أن يطيع ويقبل الهدايا ممسكاً إياها بيديه"](٦٢)

(ب) **ليباريوس في أعلى حالة من الوعي الإيماني، وعبثاً يحاول الخصي:**

[فابتدأ الأسقف ليباريوس يقنعه بالمنطق، "**كيف أصنع هذا ضد أثناسيوس؟ كيف ندين إنساناً لم يُدِنْه مجمع واحد، بل وآخر في (سرديكا) اجتمع فيه أساقفة من كل أقطار العالم وكل كنائس روما شيَّعته (إلى بلده) بسلام!! فمَنْ الذي يوافقنا على مثل هذا السلوك الذي تريده إذا نحن عزلنا إنساناً في غيبته سبق أن رحبنا به في حضوره بالفرح وقبلناه في شركتنا، هذا ينافي القانون الكنسي ولا انحدر إلينا مثل هذا التقليد من الآباء الذين هم بدورهم استلموه من الرسول العظيم المطوَّب بطرس (كذا).** ولكن إن كان الإمبراطور معنياً حقًّا بسلام الكنيسة ويريدنا أن نوقّع ضد رسائلنا لأثناسيوس، فاجعلوا كل الإجراءات التي اتخذت ضد أثناسيوس تكون ضد الآخرين أيضاً. وليُدعَ إلى ذلك مجمع كنسي ولكن بعيداً عن البلاط الإمبراطوري، ولا يحضره الإمبراطور، ولا يُسمح لأي كونت آخر بالحضور ولا أي قاضٍ يهدِّدنا، **بل يكون خوف الله والقانون الرسولي هو الذي يسود، وهكذا نضع في المقام الأول أن إيمان الكنيسة يكون في أمان كما حدَّده الآباء في مجمع نيقية**، ويُخرَج جميع المناصرين للمبادئ الأريوسية ويُقطع بالحرم عليها، وبعد ذلك يمكن فحص الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس وضد أي إنسان آخر معه، كما تُفحص الاتهامات الموجَّهة ضد الحزب الآخر أيضاً، وهكذا يُقطع المذنب، ويُسند البريء ويتشجَّع. لأنه من المستحيل على قوم ينادون بقانون إيمان ملحدٍ وكافرٍ أن يُسمح لهم ليكونوا أعضاءً في مجمع. ولا هو مقبول أو لائق أن تفحص أمور تختص

(62) Athanas. Ibid. p. 282.

بالسلوك قبل أن تُفحص الأمور المختصة بالإيمان ذاته. إنما اللائق هو أن تُستأصل أولاً كل الأفكار المخالفة للإيمان، ثم بعد ذلك تجيء أمور السلوك"](٦٣)

(ج) ليباريوس ينتفض انتفاضة الشرف ويرفض الهدايا، والإمبراطور يثور:

[لم يغضب الخصي بسبب عدم حصوله على إمضاء ليباريوس بقدر ما استشاط غضباً **عندما وجد ليباريوس عدواً لدوداً للأريوسيين.** ودون أن يعتبر أنه واقف أمام أسقف، أخذ يهدِّد ليباريوس بعنف وانصرف ومعه هداياه ... ولكن اتجه صوب "**المارتيريا**" = (مكان الاحتفاظ بجسد القديس الشهيد) لبطرس الرسول ووضع هناك هدايا الإمبراطور، ولكن عندما انتبه ليباريوس إلى هذا غضب جدًّا من حارس المكان كيف لم يمنعه، وألقى بالهدايا خارجاً باعتبارها تقدمة غير قانونية، مما زاد من سخط الخصي الواقف أمامه ...

ولمّا عاد إلى الإمبراطور أثار حفيظته بقوله: "إن الأمور التي تهمنا الآن ليس أن نحصل على إمضاء ليباريوس ولكن الذي يهمنا إصراره على مقاومة عقيدتنا (الهرطقة الأريوسية) لأنه يحرم الأريوسيين بالاسم".

وقد أثار حفيظة كل حاشية الإمبراطور التي تتألف معظمها من الخصيان الذين بدونهم لا يمكن أن يتم عمل، والذين أخذوا يهولون الأمر على الإمبراطور بتأثيراتهم الخاصة.

وبناءً عليه كتب الإمبراطور رسائله إلى روما وأخذها الوزراء والمسجِّلون والكونتات إلى حاكم البلاد بتوصيات، لكي إمَّا يغروه بالحيلة والخداع ويأخذوه بعيداً عن روما ويرسلوه إلى البلاد ليَمْثُل أمامه، أو يعذبوه بعنف.](٦٤)

حتى روما لم تفلت من مصائب الأريوسيين للضغط على ليباريوس:

[امتلأت كل روما بالخوف والذعر والإشاعات والخيانة، عائلات وصلها التهديد، وعائلات مُنيت بالوعود البرَّاقة إن هي وقفت ضد ليباريوس، كم من الأساقفة اختبأوا، كم من سيدات نبيلات لجأن إلى أقصى الريف خوفاً من أعداء المسيح! كم من النُّسَّاك والعُبَّاد صاروا هدفاً لمؤامراتهم، وكم من سواح غرباء لاقوا الاضطهاد والتعذيب.

(63) Ibid. p. 282.
(64) Ibid. p. 283.

لقد حاصروا الميناء (أوستيا) ومداخل الأبواب حتى لا يدخل أي أرثوذكسي ليزور ليباريوس!!

وهكذا دخلت روما نفسها في التجربة وعانت من أعداء المسيح كبقية الكنائس بعد أن كانت لا تصدِّق أن كنائس أخرى في مدن أخرى قد جُرِّبت وأُتلفت بواسطة الأريوسيين.](٦٥)

ويليق بنا هنا أن نأتي بمقتطفات من رواية ثيئودوريت عن المصائب التي حلَّت بالكنائس الأخرى، ينقلها عن القديس أثناسيوس:

[أي مكان لم يحمل شناعة وفظاعة سلوكهم، لأن كل مَنْ كان يخالفهم في عقيدتهم (الأريوسية) كانوا يتهمونه زوراً ويضطهدونه كما كانت تفعل إيزابل قديماً، فلم توجد كنيسة لم تُحَكْ المؤامرات ضد أسقفها، فسادها الحزن والأسى. فأنطاكية كانت تنوح على أسقفها الأرثوذكسي الأمين يوستاثيوس، وبالانيا (الآن بانياس على ساحل سوريا) تبكي على أسقفها يوفراتيون، وبالتوس (الآن بولدو بجوار بانياس) وأنتارادوس (الآن تورتوزا في فينيقية) تبكيان على أسقفيهما كيماتيوس وكارتيريوس، وأدريانوبل (على ساحل الدردنيل) حزينة على أسقفها المحبوب أيوتروبيوس وعلى لوسيوس خَلَفَه الذي عاش في السلاسل وقضى نحبه تحت ثقل وزنها.

وكذلك أنكيرا وبيرية وغزة تبكي على أساقفتها مارسللوس، وكيروس، واسكليباس الذين بعدما عُذبوا طُرحوا في المنفى.](٦٦)

(د) ليباريوس أمام الإمبراطور:

قوة هائلة ورباطة جأش منعدمة النظير، حبذا لو استمرت، ولكن للأسف!

[وبعد أن عاود الإمبراطور الكتابة إلى روما عدة مرَّات مهدِّداً، عاد وأرسل نوَّابه الخصوصيين مع خطط مرسومة خصوصاً بعد أن أشعل حركة اضطهاد عنيفة موازية في الإسكندرية! وذلك كان في سنة ٣٥٤م.

فجرُّوا ليباريوس وأوقفوه أمامه عنوة، لكن ليباريوس كان رابط الجأش عنيفاً في

(65) Ibid. p. 283.

(66) Theodoret, *The Ecc. Hist.* II, 12; Athanas. *Ap. de Fug*. ch. 4,5.

مجاوبته للإمبراطور قائلاً: "كفاك اضطهاداً للمسيحيين، ولا تحاول أن تستخدمني لتسيطر بالكفر على الكنيسة، نحن مستعدون أن نتحمَّل كل صنوف العذاب ولا يُضم اسمنا إلى الأريوسيين، ونحن مسيحيون ولا تحاول أن ترغمنا لنكون أعداءً للمسيح! ونحن نشير عليك أن لا تحارب المسيح الذي أعطاك هذه المملكة ولا تعلن كفرك به عوض الشكر له، لا تضطهد الذين يؤمنون بالمسيح «لأنه صعب عليك أن ترفس مناخس»! فليتكَ تسمع صوته كما سمعه بولس وأطاعه، وها أنا أمامك، وقد أتيت وأنا عالم أن النفي ينتظرني على يديك، وسوف نتألَّم دون أن نُحاكَم كما تألَّم آخرون أيضاً وحُوكموا زوراً وبهتاناً وتلفيقاً من أعدائهم!"](٦٧)

(هـ) ليباريوس يتجه إلى المنفى مثل باقي أساقفة الغرب:

[كان المتبع قديماً في المنفى (كما سمعته من أجدادي) في أيام اضطهاد الإمبراطور مكسيميانوس سنة ٣٠٣م (وكان وثنياً) جد قسطنطيوس، أن المعترفين المنفيين كانوا يُرسَلون إلى النفي جماعات حتى يكون لهم شيء من التعزية، ولكن في أيام قسطنطيوس (الذي يدَّعي المسيحية)، أمعن في تعذيب المنفيين بأن فرَّقهم كل واحد بمفرده لأنه كان أكثر وحشية، وحتى لا يأتلفوا معاً (من جهة إيمانهم الواحد)، غير عالم أنه مهما كان انفراد كل واحد (من هؤلاء المعترفين) عن الآخرين فإن الرب الذي اعترفوا باسمه معاً بنفس واحدة يكون معهم، وهو القادر أن يمدهم بجيش من الملائكة المعزين، أكثر ممن هم حول قسطنطيوس نفسه، كما صنع مع النبي أليشع!؟

ولكن الكفر يعمي الناس، لأنهم لمَّا فرَّقوهم بقصد تعذيبهم أكثر، صاروا شهادة في أماكن عديدة على كفر الأريوسيين وذاع خبرهم في كل مكان! ..]

وقد استاقوا ليباريوس إلى بيرية في إقليم تراس "تراقيا" ليمكث هناك وحيداً سنتين، لم يحتمل فيهما النفي، فانهارت نفسه وتذلَّل بخطابات اعتذار للإمبراطور، ووقَّع ضد أثناسيوس ودخل الشركة مع الأريوسيين!!

(67) Athanas, Hist. of the Arians, p. 284.

أثناسيوس يلتمس العذر لسقوط ليباريوس
وتوقيعه بالحرم على أثناسيوس والشركة مع الأريوسيين:

[ولكن ليباريوس بعد أن أمضى في النفي سنتين، انهار، ومن رعبة التهديد بالموت وقَّع على الوثيقة!

ولكن هذا يشير إلى مدى العنف الذي سلكوه مع هذا الإنسان الذي كان يبغض الأريوسيين، وقد ظل يناصرنا (أثناسيوس) طالما بقيت له حرية في الاختيار، لأن ما يُجبَر عليه الإنسان بالتعذيب لكي يرغموه أن يعمل ضد ما حكم به أولاً لا ينبغي أن يُحسب عليه كأنه من حرية إرادته طالما كان تحت الخوف.](٦٨)

ولكن تعليقنا على ذلك بمجرَّد مقارنة بين ليباريوس أسقف روما العظمى صاحب العصمة وأثناسيوس أسقف الإسكندرية وهو تحت تهديد الموت عينه وبأعنف صوره، لا سنتين بل ثلاثين سنة وحيداً هارباً من جبل إلى صحراء إلى بحر إلى كهف إلى مقبرة إلى بئر، لم تُبْلِ السنين الطوال عزيمة هذا العملاق حتى هزم جحافل الأريوسيين وأذلَّ عظمة أربعة أباطرة من أعظم أباطرة التاريخ: قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس، واضعاً أنوفهم في التراب حتى أخرج الحق إلى النصرة بعد أن طمس الأريوسيون الإيمان بالمسيح في كل الكنائس العظمى والصغرى في كل أنحاء الدنيا. فالرعب والخوف واليأس تملَّك كلية على جميع أساقفة العالم، إلاَّ هذا المصري الذي أدخل الرعب والخوف واليأس كلية في قلوب مضطهديه، حتى أرداهم الندامة ثم التراب.

ثم بعد ذلك، أيُّ مديونية يدين بها العالم اليوم إلى مصر!! وأي إيمان صحيح بالمسيح يمكن أن ينادي به أيُّ منادٍ في العالم كله دون أن يجعل هذا التقليد الذي دفعت ثمنه الإسكندرية أساساً وتاجاً؟

رواية المؤرِّخ ثيئودوريت عن الحوار التاريخي المنقطع النظير
بين ليباريوس والإمبراطور قسطنطيوس:

(ننقله للقارئ كنموذج لما ينبغي أن يكون عليه إيمان الأسقف بحق المسيح ثم النطق بهذا الحق كما هو، دون اعتبار للسيف أو النفي).

وقد تمَّت هذه المواجهة في ميلان سنة ٣٥٥م بعد أن عاد الخصي يوسابيوس مخذولاً ومرفوضاً،

(68) Athanas. *Hist. Arian.* 41, p. 284.

وذلك بعد انتهاء أعمال مجمع ميلان مباشرة، الذي لم يوقّع على وثيقته ليباريوس وبقية الأساقفة الأرثوذكس.(٦٩)

الإمبراطور قسطنطيوس:

لقد حكمنا أنه يحق لنا استدعاءك كمسيحي وأسقف لمدينتنا لكي نوبِّخك لكي تقلع عن ارتباطك بأي علاقة مع حماقة أثناسيوس الكافر. لأنه لمّا صار قطعه من شركة الكنيسة بواسطة المجمع (مجمع صور) وافق العالم كله على هذا القرار واستحسنه.

ليباريوس أسقف روما:

أيها الإمبراطور إن النطق بأحكام القضاء الكنسي يستوجب أن يحدوه أقصى حدود العدالة. لذلك إذا كان مقبولاً لدى تقواكم أصدر أمرك للمجمع بالاجتماع؛ فإذا رُئِيَ أن أثناسيوس يستحق الدينونة فلتخرج عليه القضية بمقتضى الأوضاع الكنسية، لأنه من غير الممكن لدينا أن ندين إنساناً دون أن نسمع له ودون أن نقاضيه.

الإمبراطور: العالم كله قد دان كُفره ـ ولكنه ـ كما يعمل دائماً منذ البدء ـ يسخر من الخطر.

ليباريوس: إن الذين وقّعوا على دينونة أثناسيوس لم يكونوا شهود عيان لأي من الحوادث التي حدثت، ولكن كانت تحرِّكهم رغبة في المجد (الدنيوي) والخوف من الحرمان من نعمة يديك!

الإمبراطور: ماذا تقصد بالمجد والخوف والحرمان من النعمة؟

ليباريوس: أقصد أن الذين لا يحبون مجد الله، بل يتطلّعون بالأكثر لهداياك، قد أدانوا رجلاً لم يروه ولم يفحصوا معه قضيته، وهذا يخالف مبادئ المسيحيين!

الإمبراطور: ولكن أثناسيوس حوكم شخصياً في مجمع صور، وكل أساقفة العالم في هذا المجمع أدانوه!

ليباريوس: لم تحدث أيّة محاكمة لأثناسيوس في حضوره الشخصي، بل إن كل الذين اجتمعوا هناك أصدروا إدانتهم بعد خروجه من المجمع!

الخصي يوسابيوس يتدخّل بحماقة في الحديث ويقول:

إنه اتضح في مجمع نيقية أن أثناسيوس كان يبدي آراءً مخالفة تماماً لقانون الإيمان العام.

ليباريوس: (يكمِّل حديثه كأنه لم يسمع ذلك الأحمق):

إن من كل الذين أبحروا إلى مريوط بالإسكندرية ـ الذين أُرسلوا لكي ينقلوا للمجمع

---

(69) *Hist. Ar.*, ch. 86.

صورة واقعية للاتهامات الصادرة ضد أثناسيوس، خمسة منهم فقط قدَّموا اتهامهم. ومن هؤلاء الخمسة مات اثنان وهما بالاسم ثيئوجنيس وثيئوذوروس، أمَّا الثلاثة الآخرون ماريس وفالنس وأورساكيوس فهم الذين بقوا حتى الآن على قيد الحياة.

وفي مجمع سرديكا صدر قرار بالإجماع يدين جميع المندوبين الذين أُرسلوا إلى مريوط من أجل هذه المهمة.

وأمام هذا، قدَّم هؤلاء اعتذاراً رسمياً إلى المجمع يطلبون الصفح إزاء ما أجروه في تحقيقات مريوط ضد أثناسيوس باعتبارها اتهامات باطلة وشهادة من جانب واحد. وتوسلاتهم الكتابية واعتذارهم لا يزال تحت أيدينا. فإلى مَنْ من الطرفين نقدِّم تأييدنا أيها الإمبراطور ومع مَنْ نقدِّم اتفاقنا ونقيم شركتنا؟ مع الذين اتهموا أثناسيوس وأدانوه ثم توسَّلوا العفو عن كونهم أدانوه (خطأ) أو نقيم الشركة مع الذين أدانوا مثل هؤلاء الحانثين؟

الأسقف إبيكتاتوس(٧٠) يتدخّل:

أيها الإمبراطور إن دفاع ليباريوس ليس هو لحساب الإيمان ولا دفاعاً عن الأحكام الكنسية، ولكنه فقط لكي يظهر أمام السناتو (شيوخ روما) بصفته قد هزم الإمبراطور في المحاجاة!!

الإمبراطور موجِّهاً الكلام إلى ليباريوس:

أي جزء من العالم تمتلكه أنت حتى تقف بمفردك لتناصر إنساناً كافراً، وتحطِّم سلام الإمبراطورية وكل العالم؟

ليباريوس: إن وقوفي وحدي وبمفردي لا ينقص الحقيقة أو الإيمان شيئاً قط أو يضعفها، فكما نقرأ في العهد القديم أنه وُجد ثلاثة يعارضون القانون. (يقصد الثلاثة فتية الذين ألقوهم في النار فلم يحترقوا وحفظوا الإيمان، وحُفظ الإيمان بشجاعتهم).

الخصي يوسابيوس مرَّة أخرى:

إنكَ بهذا تجعل إمبراطورنا نبوخذنصَّر.

---

(٧٠) وهو أسقف سنتيومسلاً **Centumcellae** وهو شاب جريء مستعد لكل تزييف، وهو ذو أهمية بالنسبة لتاريخ كنيسة مصر لأنه صنيعة جورجيوس الكبادوكي المزمع إرساله لمصر ليحل محل أثناسيوس، وكان أريوسياً على أسوأ سلوك، وهو الذي تدخَّل لتعيين الأسقف فيلكس ليحل محل ليباريوس على كرسي روما بطرق غير شريفة. Theodoret, *op. cit*, II. 13

ليباريوس: أبداً، ولكنكم تهاجمون إنساناً لتدينوه بدون محاكمة.

وإن ما أريده هو أولاً أن يجري التوقيع على صيغة إيمان عام يكون مطابقاً لما نص عليه مجمع نيقية. وثانياً أن يُستدعى جميع إخوتنا الذين في النفي ويعودوا إلى أسقفياتهم (يتضح من هذا أن هذا الحوار تمَّ بعد انفضاض المجمع). فإذا تمَّ إنجاز ذلك كله فحينئذ سوف يتضح أن العقائد التي هي سبب كل هذا الاضطراب الآن، مطابقة للإيمان الرسولي، وبعد ذلك نجتمع في الإسكندرية ونواجه (أثناسيوس) المتهم بالمتهمين له ويترافع المدافعون لهما، وبعد فحص القضية نصدر حكمنا فيه.

إبيكتاتوس الأسقف:

لا توجد وسائل مواصلات كافية لتحمل كل هؤلاء الأساقفة.

ليباريوس: إن شئون الكنيسة لا تعوِّل كثيراً على وسائل مواصلات عامة في إنجازها، فالكنائس قادرة أن توفِّر لنفسها وسائل المواصلات الخاصة لأساقفتها لتبلغ بهم حتى الشاطئ (الإسكندرية).

الإمبراطور: إن الحكم الذي صدر مرَّة لا ينبغي أن يُنقض، فإن تصميم غالبية الأساقفة في القضية يلزم أن يؤخذ به، فأنت وحدك الذي تحتفظ بصداقة نحو ذلك الإنسان الكافر.

ليباريوس: أيها الإمبراطور، هذا شيء لم يُسمع به قط: **أن قاضياً يتهم إنساناً غائباً بالكفر، معنى هذا أنه صار غريماً شخصياً له!**

الإمبراطور: إن الجميع بدون استثناء قد أصابهم الضرر من هذا الإنسان، **ولكن كنتُ وحدي أكثر من جميع الناس تضرُّراً بواسطته، فهو لم يكتف بموت أخي الأكبر** (قسطنطين الثاني)، **بل عاد يهيِّج عداوة أخي قسطانس ضدِّي بلا هوادة،** ولكني بصبر كثير غضيت الطرف عن الثائر (أي أخيه وهو الفريسة) والمثير (وهو المتجنِّي عليه أثناسيوس). **لقد صار أمامي الآن كل انتصاراتي السابقة التي حزتها حتى على ماجننتيوس وسلوانس لا تساوي عندي شيئاً قدر الإطاحة بهذا الإنسان الشرير من الحكم داخل الكنيسة!**

ليباريوس: أيها الإمبراطور، لا تُذكي انتقامك وتؤيِّده باستخدامك الأساقفة كأداة لذلك، لأن أيديهم ينبغي أن تُرفع فقط للبركة والتقديس.

فإذا شاءت إرادتك ووافقت، فأْمُر الأساقفة ليعودوا إلى مواضعهم، وإن ظهر أنهم متفقون في الرأي مع أثناسيوس الذي يحمل اليوم العقيدة الصادقة للاعتراف الصحيح للإيمان الموقَّع عليه في نيقية، فدعهم يجتمعون وينظرون في أمر سلامة العالم حتى لا

يُستخدم إنسان بريء مثل هذا كهدف للنزاع.

الإمبراطور: إنه سؤال واحد فقط مطلوب تنفيذه، أنا أريدك أن تدخل في الشركة مع الكنائس وتعود إلى روما، فاخضع للسلام ووقّع على موافقتك وحينئذ ستعود إلى روما.

ليباريوس: لقد تركت الإخوة في المدينة هناك مستودعاً، **وإن قوانين الكنيسة عندي هي أهم من عودتي إلى روما.**

الإمبراطور: عندك ثلاثة أيام لتقرِّر إن كنت توقّع على الوثيقة وتعود إلى روما، وإلاَّ فعليك أن تختار مكان منفاك!!

ليباريوس: لا ثلاثة أيام ولا ثلاثة شهور تستطيع أن تغيِّر يقيني؛ أرسلني الآن أينما شئت.

وبعد يومين أرسل الإمبراطور قسطنطيوس[٧١] خصيانه وخصيان زوجته يوسابيا الأريوسية بكمية من الذهب إلى ليباريوس وهو في طريقه إلى المنفى في بيرية Beroea في إقليم تراس، وقد رفضها جميعاً[٧٢] (بكلمات لاذعة). وقد وُضع ليباريوس تحت حراسة أحد رؤوس الأريوسيين وهو الأسقف ديموفيليوس!!

أثناسيوس يلتمس العذر لسقوط هوسيوس أيضاً في التوقيع على الشركة مع الأريوسيين:

[لم يشعروا بالخجل أن هذا هو أب الأساقفة (عمره مائة عام) ولا اعتبروا أنه في درجة معترف (على أيام اضطهاد مكسيميانوس سنة ٣٠٣م)، ولا وقَّروا طول أيامه في الأسقفية التي زادت عن ستين سنة، ولكنهم كانوا مشغولين فقط بهرطقتهم حتى أنهم لم يكونوا يخافون الله أو يخشون إنساناً.

... فأرسل إليه الإمبراطور يستدعيه- بعد نفي ليباريوس مباشرة - ولمَّا حضر بدأ الإمبراطور يلاطفه ثم أخذ يستحثه بنفس الخداع الذي أسقط به غيره حتى يوقّع ضدَّنا ويقيم الشركة مع الأريوسيين.

ولكن هذا الشيخ لم يطق حتى سماع هذه الكلمات ... وبدأ يعنِّف الإمبراطور بشدة ... وانسحب إلى كنيسته في قرطبة بأسبانيا ... ولكن الهراطقة لم يهدأ لهم بال وأخذوا

(٧١) تزوَّج قسطنطيوس ثلاث زوجات!! تزوَّج قسطنطيا سنة ٣٣٦م وهي أخت يوليان الجاحد، وفي سنة ٣٥٢م تزوَّج أيضاً أوريليا يوسابيا وهي أريوسية، وفي سنة ٣٦٠ تزوَّج فوستينا.

(72) Theodoret, *Ecc. Hist*. II. 13.

يشتكون على هوسيوس بالأكثر، فكتب له الإمبراطور مرَّة أخرى يهدِّده ويستدعيه، وكرَّر الكتابة إليه مراراً، فأرسل هوسيوس خطاباً ضافياً للإمبراطور يفنِّد فيه كل الادعاءات ضد أثناسيوس ويحرم الأريوسيين دون هوادة. وقد أورده القديس أثناسيوس في كتابه عن تاريخ الأريوسية (القسم السادس مقطع ٤٤) بدأه بقوله:

"إني بدرجة معترف بالتعذيب للشهادة التي قدَّمتها في الاضطهاد الذي جرى على يد جدك مكسيميانوس، فإذا أردت أن تضطهدني فأنا على أتم الاستعداد الآن أيضاً لاحتمال أي شيء دون أن أريق دم بريء (الحكم على أثناسيوس حَسِبَه حكماً بالذبح) أو أخون الحق. وأنا لا أوافق على سلوكك بالكتابة بالتهديد لي بهذه اللهجة، فأوقف كتابتك بالتهديد ولا تختر لنفسك نصيب أريوس ..."(٧٣)

وقد استبقاه الإمبراطور في "سيرميم" سنة كاملة (كنوع من التعذيب)، ... إذ استخدم معه العنف وهو رجل شيخ (مائة عام) **وحبسه وضيَّق عليه، حتى أنه في النهاية انهار من التعذيب، وأرغموه بصعوبة على إقامة الشركة مع الأريوسيين** فالنس وأورساكيوس ورفاقهم، **إلاَّ أنه لم يوقع على حرم أثناسيوس.**](٧٤)

ويقول المؤرِّخ سوزومين بخصوص تعذيب هوسيوس أسقف قرطبة:

[وقد أحضروه بالقوة ورغماً عنه، ولمَّا رفض الإذعان لمطالبهم ضربوه بالسياط وعذَّبوه وهو

(73) Athanas. *Hist. Ar.* Part. VI § 42-44.

ملاحظة هامة:

١ - وردت فقرة في هذا الخطاب في غاية الأهمية بالنسبة للطقس الكنسي، إذ يذكر هوسيوس أن الأساقفة يقدِّمون البخور في العبادة. ويلاحَظ أن زمن الخطاب هو ٣٥٧م، حيث يقول: [إن الله وضع في يديك المملكة أمَّا نحن فقد ائتمنا على مهام كنيسته، فكما أن الذي يحاول أن يسرق المملكة من يديك فإنه يُحسب مقاوماً لأمر الله ولوصيته، هكذا بالمثل ينبغي **أن تخشى أنت أيضاً لئلاً بأخذك أحكام وقضايا الكنيسة لنفسك تصير متهماً بذنب عظيم، فإنه مكتوب: «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فلا هو مسموح لنا أن نمارس قوانين الدولة ولا أنت يا سيِّدي تملك السلطان لتحرق البخور، وهذا أكتبه من أجل خلاصك].**

٢ - **تعليق:**

إذن فالبخور كان يُقدَّم ويُحرَق بيد الأساقفة كعمل رسمي مميز للكهنوت في ذلك الزمان بعكس ما يدعيه المؤرِّخون أنه لم يبدأ استخدامه في الكنيسة إلاَّ سنة ٥٠٠م. هذا وقد ذكر البخور أيضاً القديس أثناسيوس مرَّة أخرى في خطابه الذي سيأتي ذكره عندما يروي قصة هجوم الوالي سيريانوس على كنيسة ثيوناس.

(74) Ibid § 45. p. 287.

شيخ، وأُجبرَ بالقوة أن يرضخ ويوقِّع على وثيقة إيمانهم.](٧٥)

ويلخِّص لنا أثناسيوس مجموع عدد الأساقفة الذين وقَّعوا تحت التعذيب والنفي، في خطابه الاعتذاري لقسطنطيوس هكذا:

[وعندما لاحظت كل هذه الأمور كيف تجري لم أحاول من نفسي أن أصدر حكماً ضدها بل أسرعت في التحضير للسفر لمقابلتكم ... ولكن بعدما بدأت رحلتي عبر الصحراء (لأن الإمبراطور كان في إيطاليا فأراد أثناسيوس أن يعبر البحر من برقة مقابل صقلية مباشرة)، جاءني تقرير فاجأني، إذ كان لا يصدَّق مني، ولكني تحقَّقت من صدقه. وهو يفيد بأن ليباريوس أسقف روما وهوسيوس الكبير أسقف أسبانيا وباولينوس أسقف الغال (فرنسا) وديونيسيوس ويوسابيوس أساقفة إيطاليا ولوسيفر أسقف سردينيا وغيرهم من أساقفة وكهنة وشمامسة تمَّ نفيهم بحجة رفضهم التوقيع على إدانتي، أمَّا فنسنتيوس أسقف كابوا وفورتوناتيان أسقف أكويلا وهيرميون أسقف تسالونيكا مع كل أساقفة الغرب، فقد عوملوا بعنف غير عادي وتحمَّلوا أقصى أنواع العذاب وأُصيبوا بإصابات خطيرة حتى يرغَموا على رفض الشركة معي (أخبار مجمع ميلان)، وبينما أنا مضطرب وحائر من سماع هذا إذا بخبر آخر يداهمني مؤدَّاه أنه قد صار تحت التعذيب والنفي من مصر وليبيا تسعون أسقفاً، وقد سُلِّمت كنائسهم للأريوسيين، وأن ستة عشر أسقفاً منهم أُرسلوا إلى المنفى ...](٧٦)

الإمبراطور ينفي جميع الأساقفة الأرثوذكس في الغرب والشرق ويلتفت صوب الإسكندرية حيث يبقى أثناسيوس وحده ليواجه الاضطهاد الثاني من يد قسطنطيوس

ما جاء صيف سنة ٣٥٥م (يوليو) حتى كان الإمبراطور قد أنهى على جميع الأساقفة أنصار أثناسيوس، أو بالحري أيضاً مجمع نيقية والإيمان الأرثوذكسي القويم وبالأخص في بلاد الغرب، في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وكل البلاد المحيطة ودخلوا جميعاً المنفى، في صحراء بلاد العرب وليبيا

(75) Socrates, *Ecc. Hist.* II, ch XXXI, p. 58.

(76) Athanas., *Apol. Ad Const.* 27.

وصعيد مصر وجبال طوروس وبراري فيريجيا، وقد اهتم الإمبراطور وكذلك الأريوسيون بأن يكونوا في أماكن يدير الكنائس فيها أساقفة وكهنة أريوسيون، ويقول المؤرِّخ جيبون:

[وكان القصد الأساسي من نفي الأساقفة أصحاب المذهب المستقيم (أي الأرثوذكس) وإلحاق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه.]

ولكن طوال الفترة من بدء حوادث مجمع آرل سنة ٣٥٣ إلى نهاية حوادث ميلان سنة ٣٥٥م وهي تزيد على ٢٦ شهراً لم يكف الإمبراطور عن المحاولات لخلع أثناسيوس من الإسكندرية، وقد أصدر في هذه الفترة مرسوماً بحرمان أثناسيوس من المنحة (القمح) التي كان ينفق منها على فقراء الشعب وسُلِّمت للأريوسيين!

ويقول المؤرِّخ جيبون أيضاً:

[فلمَّا تخلَّت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر (أو بالحري مناصرتها للإيمان المسيحي المستقيم) وأقرَّت إبعاد أثناسيوس، فأصبح محروماً بذلك من أي سند خارجي، أرسل قسطنطيوس اثنين من أمناء سره بتكليف شفوي أن يعلناه بأمر الإمبراطور بنفيه ويقوما بتنفيذ ذلك. وبالرغم من أن الإمبراطور كانت لديه أحكام موقَّعة من جميع الأساقفة بالحكم على أثناسيوس (سواء في صور أو آرل أو ميلان)، **إلاَّ أنه لم يعطِ رسله تفويضاً كتابياً بتنفيذ الحكم خوفاً مما قد ينشأ عن ذلك من الخطر في الإسكندرية إذا تعرَّضت الحامية إلى دفاع الشعب بقوة السلاح للدفاع عن براءة أبيهم الروحي.**]

هذا التقرير الذي بناه المؤرِّخ جيبون من واقع سجلات الحوادث يوضِّح لنا مدى قوة الشعب المصري وبأي حساب كانت تحسب الإمبراطورية الرومانية عوامل إثارته، ثم مدى ارتباط الشعب بالكنيسة وبالأب الروحي لها حينما يكون أميناً لتقليدها وإيمانها.

وبهذه المقدِّمة نستطيع الآن أن نسترسل فيما جرى لأثناسيوس وما سرده من الوقائع التي حدثت إبَّان هذا الاضطهاد المرير الذي لم يكن له مثيل قط على مدى التاريخ، ونحن نتوسَّل لدى القارئ أن يقرأ هذا التاريخ بإمعان لأن كل المحن التي نزلت بالشعب وبأثناسيوس وبالكنائس لم تكن مجرَّد اضطهادات كبقية الاضطهادات، **بل كانت هي الثمن الأخير والوحيد الذي دفعته الكنيسة في مصر فدية عن العالم كله ليعود له إيمانه الأرثوذكسي في كل أنحاء البلاد بعد أن خُذل فيها هذا الإيمان.**

الفصل الخامس

بداية المعركة السافرة ضد أثناسيوس

قصة الاضطهاد في الإسكندرية واقتحام الكنائس

وقتل المؤمنين واختفاء أثناسيوس في البراري

ودخوله المنفى الثالث الطويل

[لقد تألّبت كل القوى ضد أثناسيوس وانهارت كل القيم تحت ثقل اضطهاد لم يعرف التاريخ البشري له مثيلاً في التزييف، ولكن ظل أثناسيوس وحده صامداً أمام كل هذه القوى مجتمعة، ولمّا قالوا له إن العالم كله ضدّك قال قولته المشهورة: وأثناسيوس ضد العالم!!

وفي النهاية انتصر أثناسيوس، وانحنى العالم تحت الإرادة التي لم تنحنِ!] **المؤلّف**

تمهيـد:

حينما علم قسطنطيوس بموت غريمه ماجننتيوس في أغسطس سنة ٣٥٣م، قرَّر الذهاب إلى روما ليعلن انتصاره، وفي نيته عقد مجمع في (آرل - ميلان) ليجمع كلمة الأساقفة ضد أثناسيوس، ووصل قسطنطيوس إلى آرل في شتاء سنة ٣٥٣م، حيث أقنعه الأريوسيون بعقد المجمع الذي كان مزمعاً عقده في أكويلا، وبناء على طلب ليبريوس أيضاً أسقف روما وبقية أساقفة إيطاليا(١).

في هذه الأثناء أحس أثناسيوس بالنية المبيَّتة ضدَّه من الأريوسيين، ومن الإمبراطور نفسه، بسبب وشايات عديدة أهمها إثارة أخيه قسطانس ضدَّه حتى بلغت درجة التلويح بإعلان الحرب إن لم يقبل عودة أثناسيوس إلى كرسيه، ثم خبر اتصال أثناسيوس بماجننتيوس عدو الإمبراطور المغتصب، فأسرع أثناسيوس وأرسل بعثة الخمسة أساقفة السلامية بقيادة الأسقف سيرابيون كما سبق وأوضحنا، وكان ذلك في ١٨ مايو سنة ٣٥٣م أي قبل انعقاد مجمع آرل.

ولكن كان مونتانوس مندوب الإمبراطور قد بلغ شواطئ الإسكندرية بعد إقلاع هذه البعثة السلامية بخمسة أيام أي في ٢٣ مايو حاملاً إلى أثناسيوس أمراً بعدم إرسال البعثة وأمراً بالحضور إلى مقر الحكومة في ميلان. لم يذعن أثناسيوس لإدراكه مدى الخطورة المبيَّتة ضدَّه، فقفل مونتانوس راجعاً إلى الإمبراطور. فأُضيفت هذه الحادثة إلى ما سبقها من المواقف المعادية للإمبراطور والتي برع الأريوسيون في عرضها لتشويه موقف أثناسيوس من الإمبراطور.

وتشاء إرادة الله أن تضيف أيضاً واقعة أخرى لتُستغل ضد سمعة أثناسيوس وهي تصميم الشعب - وكان هذا ضد رغبة أثناسيوس - لحضور صلوات الأربعين المقدَّسة (التي تنتهي بأسبوع الآلام وعيد القيامة) سنة ٣٥٤م في كنيسة السيزاريوم أي كنيسة القيصر الجديدة، وهي على اسم

---

(1) Sozom. *op. cit.*, IV. 9; *Dict. of Chr. Biogr.* p. 192.

الإمبراطور وعلى نفقته الخاصة، والتي لم يتم بناؤها ولم تدشَّن بعد[٢] ـ بسبب ازدحام كنائس المدينة بالمؤمنين ـ وكان هذا أمراً خارجاً على الأصول المتبعة قانونياً في العلاقات مع الإمبراطور ومن الوجهة الكنسية أيضاً!!

كل هذا جعل أثناسيوس يستشعر الخطر، ومما يوضِّح ذلك ما جاء عرضاً في رسالة كتبها لأحد الرهبان وهو دراكونتيوس يستحثه لقبول الأسقفية في هذه السنة، وفيها يذكر بهدوءٍ الاستعداد لما هو عتيد أن يأتي من تجارب الصوم الأربعيني في تلك السنة ٣٥٤ـ٣٥٥م.

ولكن الذي أكمل كل علامات الثورة العارمة القادمة على مصر، نتائج مجمع ميلان الذي فيه استطاع الإمبراطور أن يرغم ٣٠٠ أسقفاً على التوقيع ضد أثناسيوس لقطعه من شركة الكنيسة، ولم يقف مع أثناسيوس إلاَّ قلة من الأساقفة الذين بقوا في كنائسهم لأن المرض أسعفهم لعدم الحضور، والذين لم يوقِّعوا وهم قلة أيضاً. فذهبوا إلى المنفى وجُرِّدوا من كراسيهم، وباستثناء صحوة هيلاري أسقف بواتييه ومجمع بيزيه لم يعد لأثناسيوس نصيرٌ واحدٌ ـ وذلك بحسب قول أثناسيوس:

[وبعد أن أكمل الإمبراطور كل شهوته ضد كنائس إيطاليا والبلاد الأخرى، وبعد أن نفى بعضهم وضيَّق وعذَّب الآخرين حتى ملأ الذعر كل مكان، اتجه أخيراً في ثورة غضبه ليُجري نفس الفوضى السابقة المؤذية ضد الإسكندرية! وهذا كله أحكمه بمكرٍ أعداء المسيح، **لكيما يستعرضوا كثرة أسماء الأساقفة الذين أرغموهم على التوقيع حتى لا يعود لأثناسيوس حتى ولا أسقفٌ واحد يبادله الشكوى في الاضطهاد (المزمع أن يحكموه عليه).**][٣]

ويطلعنا تاريخ سلبيسيوس ساويرس وتاريخ القديس هيلاري أسقف بواتييه في شذراته عن الهرطقات، كما ينقله إلينا المؤرِّخ دوشسن، عن صحوة وشجاعة نادرة لجماعة أساقفة فرنسا:

[انعقد في فرنسا مجمعٌ في بيزيه Beziers في السنة نفسها سنة ٣٥٦م وكان من بينهم هيلاري نفسه أسقف بواتييه، وذلك بعد انفضاض مجمع ميلان مباشرة، وكتبوا احتجاجاً عمَّ كل فرنسا ضد الحكم بالنفي الذي وقع على الأساقفة!! وبالأخص على تدخل السلطات المدنية في أمور الدين والشركة! وقدَّم هذا مشفوعاً بالدفاع الأول للإمبراطور، وكان يُحسَب في مضمونه أنه وثيقة معارضة علنية!! وفيه أَسْقَطَ هيلاري وجماعته أورساكيوس

(2) Athanas., *Apol. ad Const.* 15; Epiphan., *Hear.* 69-2.

(3) Athanas., *Hist. Arian*, 7, 47.

وفالنس وساتورنينوس من شركتهم، ودعوا كل الأساقفة الذين انحازوا إليهم إلى التوبة.](٤)

بداية المعركة السافرة ضد أثناسيوس:

أول محاولة سافرة بدأت حسب تقرير أثناسيوس كانت على يد مونتانوس، الذي وصل إلى الإسكندرية ومعه أوامر إمبراطورية بالمثول أمام بلاط ميلان وذلك كان في ٢٣ مايو ٣٥٣م، الأمر الذي رفضه أثناسيوس وظل يباشر رئاسة الكنيسة، ولكن تحت عوامل المؤامرات التي لم تهدأ سواء من رجال البلاط أو من الأريوسيين.

ثم تأتي المحاولة الثانية السافرة بعد ٢٦ شهراً من إقلاع مونتانوس حاملاً للإمبراطور رفض أثناسيوس بالمثول أمامه. وذلك حينما وصل الإسكندرية وفد آخر من قِبَل الإمبراطور لا يحمل أي رسائل أو تعليمات مكتوبة. وبعد أربعة أشهر من المحاولات اليائسة عاد ديوجنيس تاركاً الإسكندرية كما دخلها(٥).

يقول أثناسيوس في خطابه الدفاعي لدى الإمبراطور قسطنطيوس:

[بعد ٢٦ شهراً من مغادرة مونتانوس وصل ديوجنيس كاتم السر في أغسطس سنة ٣٥٥م(٦)، ولكنه لم يحضر لي معه رسائل ولا رأى أحدنا الآخر ولا أعطاني أي أوامر منكم.](٧)

ولكن أثناسيوس في موضع آخر يذكر: أنه لم يكن ديوجنيس وحده بل كان معه هيلاريوس وبعض أمراء من البلاط الإمبراطوري، **وكانوا حاملين رسائل سريَّة إلى دوق مصر وجنوده، وبمجرَّد وصولهم اقتُرفت إهانات وإساءات مرعبة وبلا رحمة ضد الكنائس وهي كلها معروفة لدى الجميع بسبب خطاب الاحتجاج الذي أرسله الشعب للإمبراطور.**(٨)

ويعلِّق المؤرِّخ جيبون على هذه الحقبة الزمنية المليئة بالخداع والرعب واستخدام الجيش ضد شعب أعزل هكذا(٩):

[وكان القصد من نفي الأساقفة أصحاب المذهب الصحيح وإلحاق العار بهم أن يكون هذا

(4) Duchesen, *op. cit.*, p. 207; Sulpic. Sev., *Chron.* ii, 39.

(5) Duchesne, *op. cit.*, p. 210.

(6) See *Hist. Aceph.*, iii, Fest. Index, XXV, XXVII.

(7) Athanas., *Apol. ad Const.*, 22.

(8) Hist. Ar. 48.

(٩) العناوين الجانبية والتعليق الذي بين الأقواس والهوامش هي من عندنا.

كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه، وعندما تخلّت الكنيسة اللاتينية عن أسقف الإسكندرية ووقّع الأساقفة على عزله ـ في ميلان ـ وأصبح بذلك محروماً من أي سند خارجي، أرسل قسطنطيوس اثنين من أمناء سرّه بتكليف شفوي لإعلان (السلطات المحلية) بأمر نفيه وليقوما بتنفيذ الحكم ...

إمبراطور جبان:

وكان الدافع الوحيد الذي منع قسطنطيوس من إعطاء رسله تفويضاً كتابياً لتنفيذ الحكم هو خوفه مما قد يحدث، إذ استشعر الخطر الذي قد يحيق بالإسكندرية، وهي ثاني مدينة في الإمبراطورية وأكثر ولاياتها خصباً، إذا أصر الشعب على الدفاع بقوة السلاح عن براءة أبيهم الروحي.

أثناسيوس يستغل ضعف الإمبراطور:

وهذا الحرص الزائد من الإمبراطور هو الذي أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بكثير من الاحترام أنه يشك في صحة هذا الأمر الصادر بنفيه بدون قرار مكتوب، مما يتنافى مع عدالة الإمبراطور الكريم وتصريحاته السابقة له (في ثلاثة خطابات متوالية)(١٠).

السلطات تصطنع الحكمة وتدبِّر الخطّة مع رُسل الإمبراطور:

أمَّا السلطات المدنية في مصر فوجدت نفسها عاجزة عن القيام بمهمة حث أو إرغام الأسقف على التخلّي عن كرسيه، واضطرَّت إلى عقد معاهدة مع زعماء شعب الإسكندرية اتُفِق فيها على إيقاف كل الإجراءات والأعمال العدوانية حتى تتأكّد لهم مشيئة الإمبراطور في وضوح أكثر.

انخداع الشعب وقبوله الأمان المزيَّف:

وقد انخدع الأرثوذكس بهذا الاعتدال الظاهري(١١) وأحسوا خطأً بأمان لم يكن إلاَّ أماناً زائفاً مميتاً، لأنه في نفس الوقت صدرت الأوامر سرًّا إلى جيوش مصر العليا وليبيا للتقدُّم على عجل لمحاصرة أو قُل مباغتة الإسكندرية ... التي كانت قد اشتعلت بالحماس

---

(١٠) انظر الخطابات الثلاثة صفحة ١٨٧ التي تعطي أثناسيوس حق التصرُّف على هذا المنوال بالفعل.

(١١) الشعب القبطي دائماً يميل بطبيعته لحب الرؤساء وطاعتهم، ولكن يا ويل مثل هذا الشعب إذا تسلط عليه رئيس يستغل هذه الشمائل لغير حساب الله.

الديني، وكان موقع الإسكندرية بين البحر وبحيرة مريوط عاملاً سهَّل على الجيوش أن تقترب وتدخل قلب المدينة (من جهة الغرب) قبل أن تُتخذ أي خطوات لغلق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة.

الهجوم الغادر على قوم يؤدُّون الصلاة داخل الكنيسة:

وفي منتصف اليوم الثالث والعشرين من توقيع المعاهدة الكاذبة، شنَّ سيريانوس أمير مصر على رأس خمسة آلاف جندي مسلَّحين للقتال هجوماً فجائياً على كنيسة القديس ثيئوناس (موضعها الآن كنيسة القديسة ريتا بجوار باب ١٤ جمرك الإسكندرية)، حيث كان أثناسيوس والكهنة والشعب يؤدُّون صلاة السهر الليلية (استعداداً لقداس الصباح).

وتداعت الأبواب المغلقة تحت وطأة **الهجوم الذي اقترن بكل فظائع الشغب وإراقة الدماء وبقيت جثث القتلى وبقايا الأسلحة الحربية إلى اليوم التالي** (احتفظ بها الشعب بالقوة)(١٢) لتبقى دليلاً قاطعاً في حوزتهم.](١٣)

وهنا يلزمنا أن نوضِّح للقارئ دقائق ما جرى بحسب الوثائق التي احتفظ بها لنا التاريخ بقلم أثناسيوس نفسه في خطابه الدفاعي لدى قسطنطيوس بعد ذلك، ليوضِّح للإمبراطور أنه كان محقاً في رفض أوامر رسل الإمبراطورية الشفاهية وفي كل تصرفاته وأنه لم يهرب أو يترك الكنيسة. يقول أثناسيوس:

أثناسيوس يستغل تناقضات الإمبراطور أقصى استغلال:

[وحينما حضر إلى الإسكندرية ديوجنيس أمين أسرار الإمبراطور (كان ذلك بالتحديد في أغسطس سنة ٣٥٥م) لم يُحضر معه لي أي خطابات ...

ولمَّا دخل الجنرال سيريانوس الإسكندرية بعد ذلك (كان بالتحديد في ٥ يناير سنة ٣٥٦م) وصارت هناك شائعات يقولها الأريوسيون أن الأمور الآن تسير كما يرغبون تماماً، سألت سيريانوس هل أحضر معه أي رسائل بهذا الخصوص؟ وإني أعترف أني كنت أسأل عن رسائل تحمل أوامركم، فلمَّا ردَّ بالنفي، طلبت من سيريانوس نفسه أو من مكسيموس والي مصر أن يكتبوا إليَّ في ما يخص هذا الأمر، وأنا لمَّا طلبت هذا كنت أعتمد على

---

(١٢) انظر خطاب الشعب في الصفحات القادمة.

(١٣) جيبون، تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية الجزء الأول الفصل ٢١.

خطاباتكم السابقة لي أن لا أنزعج من أي شخص ولا أهتم بأي إنسان يحاول أن يخيفني وأن أبقى في رئاستي على الكنائس دون خوف، وهذا هو مضمون خطاباتكم (الثلاثة) التي حملها لي – في حينها – بالليديوس رئيس القصر الإمبراطوري ... فهل لم أكن محقاً وأنا أحتفظ بهذه الرسائل منكم أن أسأل القادمين (لطردي من الإسكندرية) عن أي رسائل معهم، أو لم أكن محقاً عندما رفضت أن أستجيب لادعاءاتهم (الشفوية)؟ أوَليس تصرُّفهم هذا يخالف تماماً روح تعليماتكم لي، خصوصاً وأنهم لم يحملوا أي أوامر رسمية منكم؟ ... لقد تصرَّفت تصرُّفاً سليماً، سيِّدي الأغسطس الكلِّي الوقار ... لأنه كما عدت إلى وطني بأوامر منكم فلا ينبغي أن أتركها إلاَّ بالأمر منكم، حتى لا أُتَّهم بعد ذلك أني هجرت الكنيسة ... بل وهذا ما ألح عليَّ شعبي أن أفعله، الذين ذهبوا إلى سيريانوس مع الكهنة وجمع كبير من شعب المدينة حتى يثبتوا (للوالي) أن ليس سوى الأقلية الضئيلة معهم (أي الأريوسيين)، وكان مكسيموس والي مصر حاضراً وطلبوا منه إمَّا أن يكتب طلباته مني رسمياً وإلاَّ فعليه أن يتحمل اضطرابات كل الكنائس، ... ووافق سيريانوس على ذلك في حضور هيلاري واعداً برفع الأمر إلى تقواكم؛ ... والذي جعلني أشك في تصرُّفات (سيريانوس) أنه لم يعلن صراحة أن لديه أوامر منكم، بل والأكثر من ذلك أن جمعاً من الأريوسيين كان يرافقهم وكانوا يجلسون على المائدة معهم ويستشيرونهم، وكانوا يخطِّطون بخداع لاغتيالي، ولم يكن سلوكهم سلوك مرسلين من لدن الإمبراطور يعملون بمقتضى سلطانه!! ولكن كانت تحرِّكهم أهواؤهم كأعداء ...

وبعدما أعطى سيريانوس وعده، سَرَت فرحة لدى كل الشعب واجتمعوا في الكنائس بأمان، ولكن بعد ٢٣ يوماً (وبالتحديد ٨–٩ فبراير سنة ٣٥٦م) اقتحم الكنيسة بجنوده بينما كنا منشغلين بالسهر في الصلاة ... وهذا بالضبط ما كان قد سبق الأريوسيون وتوعدونا به!](١٤)

ولكي نعطي للقارئ صورة حية لما حدث للشعب، نقدِّم هذه الوثيقة أيضاً، وهي نص عريضة الاحتجاج التي كتبها شعب الإسكندرية – الذي جرت هذه الأحداث عليه وأمامه – وأرسلوها إلى الإمبراطور.

---

(14) Athanas., *Apol. ad Const.*, 22, 23, 24, 25.

[... ولهذا نقدِّم احتجاجنا هذا ...

وفي يوم الأربعاء في ليل ٨ من فبراير الموافق ١٣ من أمشير (سنة ٣٥٦ - سنة كبيسة) بينما كنَّا نقيم صلاة السهر في بيت الرب ونحن مشغولون بالصلاة (لأنه كان استعداد للقداس)، فجأة وبعد منتصف الليل قام سيريانوس الدوق الكلِّي العظمة بالهجوم علينا داخل الكنيسة مع فرق كثيرة من الجند (٥٠٠٠ جندي)، رافعين سيوفهم مشهورة ورماحهم وسهامهم وبقية الأدوات المستخدمة في الحروب وعلى رؤوسهم الخوذات!! وبينما نحن نقرأ فصول الإنجيل اقتحموا الأبواب التي تداعت بالقوة من شدة الاقتحام العنيف، أعطى سيريانوس أوامره (وكان معه هيلاريوس وجورجونيوس رئيس الشرطة)، فأخذ الجند يقذفون السهام وبدأت الأسلحة الأخرى تعمل والسيوف تلمع على ضوء المصابيح، وذبحوا العذارى (وهن اللاتي كن أمامهم إذ لم تسعفهن أرجلهن للجري والهرب)، وكثير من الشعب سقط ومات تحت أرجل الجند حينما أوقعوهم تحتهم، والذين غرسوا فيهم السهام وقعوا وماتوا، وأعطى الجند لأنفسهم حق السلب والنهب، فعرُّوا العذارى ...]

[وبقي أسقفنا (أثناسيوس) على كرسيه وطلب منَّا أن نصلِّي ... بينما الهجوم مستمر، وأُمسك بالأسقف الذي لو لم يكن قد نجا لكانوا مزَّقوه قطعاً. وقد أُغشي عليه وصار كميت واختفى من بينهم ... وكانوا يتحرَّقون لقتله ... ولمَّا وجدوا كثرة جثث القتلى أعطوا أوامر للجند لرفع الأجساد من الموقع، أمَّا أجساد العذارى التي تُركت فأخذناها ودفنَّاها كشهيدات نلن مجد الشهادة في زمن كلِّي التقوى قسطنطيوس!!

أمَّا الأسلحة التي سقطت من أيدي الجند والسهام والسيوف فقد احتفظنا بها في الكنيسة وعلقناها (على الجدران) وبقيت حتى هذه الساعة حتى لا ينكروا الواقعة؛ وبالرغم من أنهم أرسلوا رئيس البوليس المدعو ديناميوس ومأمور بوليس المدينة لأخذ الأسلحة إلاَّ أننا لم نسمح لهم بذلك حتى يعلم الجميع ما قد حدث!

والآن إذا كان الأمر قد صدر لاضطهادنا فنحن جميعاً على أتم الاستعداد للاستشهاد ... ونحن نطلب أن لا يأتي إلينا أي أسقف آخر لأننا سنقاومه حتى الموت محتفظين بأسقفنا الكلي الاحترام أثناسيوس الذي أعطاه لنا الله بتسلسل الآباء، والذي أرسله لنا الأغسطس كلي التقوى بنفسه مع رسائل وأقسام ...

كُتبت في ١٧ أمشير (١٢ فبراير).][١٥]

مصير القديس العظيم أثناسيوس:

[إذا أمكن أن أقتل هذا الإنسان (أثناسيوس) عشر مرّات فلن يكون هذا كافياً ولا مساوياً لما عانيته من أتباعه المحتالين المنافقين الذين يشمتون فينا.][١٦]

الإمبراطور قسطنطيوس

يصف لنا المؤرِّخ جيبون في تأثُّر بالغ ما جمعه من كل المصادر عن اختفاء أثناسيوس هكذا: [وفي الحق أن أثناسيوس نجا من أشد الأخطار إحداقاً به، ولا شك أن مغامراته تسترعي انتباهنا وتستحق اهتمامنا، ففي تلك الليلة المشهودة التي هاجمت فيها قوات سيريانوس كنيسة القديس ثيئوناس، كان رئيس الأساقفة جالساً على كرسيه ينتظر مجيء الموت في وقار هادئ جريء، وعندما قطعت صيحات الغضب وصرخات الفزع حبل الصلاة العامة وارتعدت فرائص المصلِّين، طلب منهم إنشاد أحد مزامير داود التي يذكر فيها انتصار إله إسرائيل على طاغية مصر الضال المتشامخ، وأخيراً حطَّم العدو الأبواب وأطلق سيلاً من السهام على الناس واندفع الجنود بسيوفهم المسلولة نحو الهيكل المقدَّس، وكانت المصابيح المقدَّسة المشتعلة حول المذبح تعكس بريق دروعهم المخيف، وظل أثناسيوس يرفض لجاجة الرهبان والقسوس المحيطين به الذين ألحوا عليه في ورع وتقوى أن يغادر المكان، وأبى عليه نبله أن يترك مكانه الأسقفي حتى يخرج آخر فرد من المصلين، ثم واتته فرصة الظلام والجلبة ومكَّنته من الانسحاب. ومع أن الجمهور المرتبك المضطرب كاد يدهمه ويدوس عليه، ورغم أنه وقع على الأرض وفقد الحس والحركة، إلاَّ أنه استرد شجاعته التي لا تُقهر وتسلَّل من وسط الجنود الذين كانوا يجدُّون في البحث عنه، والذين كان أتباع أريوس قد أوحوا إليهم بأن رأس أثناسيوس سوف تكون أحب هدية للإمبراطور ...

ومنذ تلك اللحظة غاب أسقف مصر عن عيون أعدائه وظل أكثر من ست سنوات يحف به ظلام دامس لا تنفذ إليه الأبصار.

ولقد كان عدو أثناسيوس الحقود قسطنطيوس الذي لا يرحم، يتمتَّع بسلطان ملأ ربوع

(15) Athanas., *Hist. of the Arians*, 81.

(16) *The Letter of Constant against Athanas.*, N.P.N.F., p. 249.

العالم الروماني كله، وقد حاول الملك الغاضب الحانق في رسالة عاجلة ملحّة بعث بها إلى أمراء أثيوبيا، وهي من أكثر بقاع الأرض بعداً وعزلة، أن يطردوا أثناسيوس (إذا جاء إليهم)، واستخدم الإمبراطور الأمراء والولاة والقضاة وجيوشاً بأكملها لمطاردة الأسقف الهارب، ولقد أثارت المراسيم الإمبراطورية يقظة السلطات المدنية والعسكرية، كما خصّصت مكافآت سخية وعد بها لأي رجل يجيء بالأسقف حيًّا أو ميتاً!!

وأُنذر كل مَنْ يجرؤ على حماية هذا العدو بأشد العقوبات.

ولكن كانت صحراوات طيبة - في صعيد مصر - موطناً للرهبان الذين استقبلوه بالطاعة الفطرية، كما استقبله عديد من أتباع أنطون(١٧) وباخوم باعتباره أبيهم الروحي.

ولكنهم (بالرغم من بأسهم)، عندما كانت أماكنهم النائية تتعرَّض لغزو قوة عسكرية كانوا لا يقاومونها، بل يقدِّمون رقابهم في سكوت وصمت للجلاد، مظهرين بذلك طابعهم القومي وهو أن التعذيب لا يستطيع أن ينتزع من مصري أي اعتراف بسرٍّ، عند العزم على عدم إفشائه.

وقد كرَّسوا حياتهم في غيرة وحماس لسلام أسقف الإسكندرية، الذي غاب عن الأنظار وسط جمهور منظَّم متحد، وعندما كان يقترب منه الخطر كانت أيديهم الرحيمة تبادر إلى إبعاده من مخبأ إلى مخبأ ...

وظل أثناسيوس في عزلته هذه حتى انتهت حياة قسطنطيوس.

وقد كان على صلة وثيقة بأساقفة الأرثوذكس وكان يتقابل معهم كلما كانت تخف حدة المطاردة، وكان يذهب إلى الإسكندرية ويلجأ إلى فطنة أصدقائه ويأتمنهم على شخصه.

ومرَّة التجأ هناك إلى خزان مياه جاف(١٨).

ومرَّة أخرى التجأ إلى منزل عذراء - من بناته - وخبَّأته في منزلها، وكانت تزوده بالمؤن والكتب، وتدير حركة مراسلاته(١٩).

---

(١٧) لقد تنيَّح القديس أنطونيوس في هذه السنة عينها.

(١٨) لا يزال هذا الخزان الجاف موجوداً حتى اليوم، وقد عاينته بنفسي أثناء وجودي بالإسكندرية وهو تحت مبنى البطريركية الآن.

(١٩) الذي روى هذه الرواية هو بالليديوس كاتب سيرة الرهبان، ويقول إنه قابل هذه العذراء بعد أن تقدَّم بها العمر وكانت لا تزال تذكر في غبطة وسرور تلك الأيام.

ومن أغرب ما رواه أثناسيوس أنه وهو في أثناء اختفائه هذه السنوات الست، ذهب سرًّا وحضر مجمعي ريمني وسلوقيا، ولا بد لنا أن نعتقد أنه كان موجوداً بطريقة سريَّة في مكان انعقادهما وزمانه ... لمراقبة حركة الانقسامات القائمة، مما كان يبرِّر في نظر رجل سياسي حصيف كهذا الأسقف مثل تلك المغامرة الجريئة الخطرة.

ولقد كان أثناسيوس لا يكف عن شن حربه الهجومية بلا توقُّف ضد الإمبراطور بصفته حامياً للأريوسيين، وحاكماً خبيثاً ضعيفاً وطاغية الجمهورية وعدو المسيحية، وكان يتحيَّن الفرص المناسبة ويكتب رسائله ويروِّجها له أصدقاؤه في مهارة فيطالعها الناس في شغف، وقد أسهمت كتاباته هذه في توحيد الفريق الأرثوذكسي وتقويته.

أمَّا هذا الملك المنتصر الذي عاقب غاللوس، وقمع ثورة سلوانس، وانتزع التاج من فوق رأس فترانيوس، وقهر جحافل الطاغية ماجننتيوس، هذا الملك بعينه تلقَّى بيد خفية هي يد الأسقف أثناسيوس جرحاً بليغاً لم يستطع البرء منه ولا الانتقام له!!

وكان ابن قسطنطين هذا، أول ملك مسيحي يحس بقوة تلك المبادئ التي استطاعت في سبيل القضية الدينية أن تقاوم أشد وأقسى أعمال السلطة المدنية!!](٢٠)

الفظائع التي حدثت للكنائس والأساقفة بعد اختفاء أثناسيوس:

يحكي لنا أيضاً المؤرِّخ جيبون ماذا حدث بعد غارة سيريانوس على كنيسة القديس ثيئوناس:

[إن مغامرة سيريانوس يمكن أن تُعتبر غارة ناجحة - بالنسبة لمهمته - فقد انتُهكت حرمة الكنائس الأخرى في المدينة باعتداءات مماثلة، وتعرَّضت مدينة الإسكندرية خلال أربعة شهور - على الأقل - إلى إهانات جيش إباحي خليع يلقى تشجيعاً من رجال دين حزب الأريوسيين - وقُتل في هذه الأحداث كثير من المؤمنين الذين يمكن أن يكونوا أهلاً لاسم الشهداء، على أساس أن موتهم لم يحدث نتيجة إثارة ولا انتُقم لهم، وعومل الأساقفة والكهنة بقسوة مهينة، والعذارى العفيفات جُرِّدن من ملابسهن وضُربن بالسياط واعتُدي عليهن، وكذلك نُهبت منازل المواطنين الأثرياء، وأشبع الجنود شهواتهم وأطماعهم وكراهيتهم الشخصية دون أن ينالوا عقاباً بل كانت أفعالهم موضع استحسان.

(٢٠) جيبون، نفس المرجع السابق.

أمَّا وثنيو الإسكندرية الذين كانوا فريقاً كبيراً متذمراً، فقد أمكن إغراؤهم بسهولة للتخلّي عن الأسقف أثناسيوس الذي كانوا يخشونه ويقدِّرونه، وقد وعدوهم بالحصول على مزايا خاصة، وبتأييد جورج الكبادوكي خليفة أثناسيوس المنتظر!

وبعد أن رسموا هذا الكبادوكي المغتصب بمعرفة مجلس ديني أريوسي، أقامه على كرسي الأسقفية الوالي سباستيان الذي كان قد عُيِّن أميراً على مصر لتنفيذ تلك الخطة الهامة. وفي استحواز هذا الطاغية جورج الكبادوكي على السلطة وفي استخدامه لها لم يأبه بقوانين الدين ومبادئ العدالة والإنسانية.

فتكرَّرت في أكثر من تسعين مدينة ذات أسقفية من مدائن مصر (عدد الأسقفيات في زمن أثناسيوس هو مائة) نفس المناظر والفضائح وأعمال العنف التي شهدتها العاصمة الإسكندرية.

وقد كان لنجاح هذه الخطة، أن أرسل قسطنطيوس رسالة تهنئة لوزرائه ... وأطنب في مديح الأب الأقدس والأسقف المنتخب (كذا) جورج الكبادوكي من فضائل وتقوى وأعرب عن أمله في أن يبزّ شهرة الإسكندر نفسه!!

وأعلن في حزم عن عزمه على تتبع المتمرِّدين بالسيف والنار من أنصار أثناسيوس!!](٢١)

ويلزمنا هنا أن نقدِّم للقارئ بعض الوثائق ذات التاريخ المتقن حتى يتابع الأحداث عن قرب ...

كان هجوم سيريانوس على كنيسة القديس ثيئوناس في ٩ فبراير سنة ٣٥٦م، وفي يوم الخميس ١٣ يونيو سنة ٣٥٦م، أي بعد ثلاثة أيام من وصول الكونت هيراكليوس وكتافرونيوس والي مصر الجديد وقبل تسليم كل كنائس الإسكندرية إلى الأريوسيين وذلك يوم السبت ١٥ يونيو سنة ٣٥٦م، حصل هجوم مرتَّب من قِبَل رسل الإمبراطور يصفه القديس أثناسيوس هكذا:
[وقد اشتروا ذمة الوثنيين بتأمين عبادتهم لأوثانهم!! وتأمين بعض متاجراتهم فوقَّعوا تحت الضغط ... ليرضوا الإمبراطور!

وبينما كان المؤمنون مجتمعين في الكنيسة الكبرى ثيئوناس، وكان يوم الأربعاء، توجَّه الكونت هيراكليوس ومعه والي مصر كتافرونيوس، وكان قد وصل الإسكندرية منذ أربعة

(٢١) جيبون، نفس المرجع.

أيام، وفوستينوس النائب العام، وشخص يُدعى بثيانيوس زعيم الوثنيين، وهيَّجوا بعض شباب أهل السوق الوثنيين ليهجموا على الكنيسة ويرجموا المؤمنين بالحجارة مدَّعين لهم أن هذا هو أمر الإمبراطور!!

وكان وقت انصراف المؤمنين (في الساعات الأُولى من فجر يوم ١٣ يونيو) أن هجم الغوغاء على الكنيسة بالعصي والحجارة ورجموهم وضربوهم، فبعض النساء وقع ومات، وضربوا الرجال والعذارى (الراهبات) بالسياط ومزَّقوا ملابسهن وكانوا يضربونهن بالأقدام ويشتمونهن بألفاظ قبيحة.

ولكي يكمِّلوا كل الأوامر والتعليمات التي صدرت إليهم من الكونت والوالي، مسكوا بالمقاعد والكرسي الأسقفي وبالمائدة الخشبية (المذبح) وبالستائر (الحجاب) وألقوا الكل خارج باب الكنيسة في الشارع الكبير وأحرقوا كل شيء، **ثم ألقوا البخور على النار المتقدة!** وأخذوا ينشدون النشيد الوثني ويردِّدون أن الإمبراطور صار وثنياً، والأريوسيين صاروا موافقين لنا.](٢٢)

وبخصوص اضطهاد الكهنة والشمامسة يقول أثناسيوس:

[وقد أرسلوا كهنة المدينة والشمامسة إلى المنفى وذلك بناء على أحكام أصدرها الدوق والحاكم العام، وأمروا العساكر بإحضار ذويهم من البيوت، وأمام جورجونيوس رئيس البوليس ضربوهم بالعصي.](٢٣)

وبخصوص اضطهاد الأساقفة التابعين لأثناسيوس في مصر وليبيا يقول أثناسيوس:

[وبينما أنا حائر ومضطرب من سماع هذه الأخبار، إذا بخبر آخر يداهمني أنه قد صار تحت النفي والتعذيب من مصر وليبيا (التابعة لمصر) تسعون أسقفاً قد سُلِّمت كنائسهم للأريوسيين وأن ستة عشر منهم أُرسلوا إلى النفي!!](٢٤)

[أمَّا الجنرال سباستيان فإنه كتب إلى حُكَّام الأقاليم وإلى رؤساء الحاميات في كل مكان ليضطهدوا الأساقفة الأرثوذكس (الحقيقيين)، أمَّا أصحاب العقيدة الكافرة من الأريوسيين

(22) Athanas., *Hist. Ar.* 54-56.

(23) Ibid. 63.

(24) Athanas., *Apol. Ad Const.*, 27.

فأُعطوا أن يحلوا محلهم.

وقد نفوا أساقفة شيوخاً كباراً في السن وفي الدرجات، ولهم في أسقفياتهم سنين كثيرة، لأنهم رُسموا على يد الأسقف ألكسندر، وهم: أمونيوس، وهرمس، وأناجامفوس، ومرقس، هؤلاء أُرسلوا إلى الواحة الفوقانية (الخارجة)؛ وموريس، وبسينواوزوريس، ونيلامون، وبلنيس، وماركوس، وأثينودورس أُرسلوا إلى أمونياكا (واحة أخرى - سيوة)، لا لشيء إلاّ لكي يستشهدوا هناك وهم في طريقهم عبر الصحراء، و لم تأخذهم شفقة عليهم مع أنهم شيوخ مرضى، وبصعوبة بالغة استطاعوا أن يسيروا بسبب ضعفهم حتى اضطروا أن ينقلوهم على نقّالات (محفات). ومن احتمال موتهم في الطريق حملوا معهم أكفانهم!!

وواحد منهم مات بالفعل وهو في الطريق.

أمَّا الأسقف دراكونتيوس فنُفي في كليزما، وفيلو إلى بابلون، وأدلفيوس إلى السينابلا في ثيبايس (الصعيد).

أمَّا الكاهنان هيراكس وديوسقورس فنفيا إلى سين (أسوان) كما أرسلوا إلى المنفى أيضاً كلاً من الأساقفة القدامى أمونيوس وأغاثوس، وأغاثوديمون، وأبولونيوس، أولوجيوس، وأبولوس، وبافنوتيوس، وغايس، وفلافيوس.

كما أرسلوا الأساقفة ديسقوروس، وأمونيوس، هيراكليدس، وبسايس؛ وقد حكموا على بعضهم بالأشغال الشاقة في قطع الأحجار، وضيَّقوا على بعضهم الخناق بقصد قتلهم.

وأرسلوا أربعين من الرؤساء العلمانيين إلى المنفى مع بعض العذارى بعد أن عرَّضوهم للحريق بالنار، وضربوهم بقساوة بجريد النخيل فمات بعضهم بعد خمسة أيام، والبعض الآخر اضطروا لعمل جراحات لهم لإخراج السِل (شوك النخيل) من أجسامهم.

و لم يسمحوا لأحد بأخذ أجساد الشهداء ولا سمحوا بدفنهم بل أخفوا الأجساد حتى لا تُحسب عليهم جريمة قتل.

وقد هاجموا الأديرة وألقوا الرهبان في النار، وضربوا الأرامل اللاتي ذهبن لأخذ الحسنات

كعادتهن وجلدوهن على باطن أقدامهن.](٢٥)

الإمبراطور يقدِّم جورج الكبادوكي "الأقدس" الأسقف اللص المغتصب لشعب الإسكندرية:

خطاب الإمبراطور ضد أثناسيوس:

[فيكتور قسطنطيوس مكسيموس أغسطس إلى أهل الإسكندرية.

إن مدينتكم وهي تحتفظ بخصالها الوطنية متذكِّرة حق مَنْ أنشأوها (يقصد الإسكندر) فقد أظهرت طاعتها لنا دائماً.

اسمحوا لي أن أقول بما هو لائق بكم أني أشملكم بمحبتي أكثر من الكل، أنتم الذين كنتم أول معلِّمين للحكمة، وأنتم كنتم أول مَنْ اعترف بالله ... (شتيمة في أثناسيوس بصيغة البلاغة)، والآن وقد اخترتم أفضل وأكمل مَنْ يقودكم بالقول والعمل، ولم تتردَّدوا لحظة، ولكن برجولة، تحوَّلت مشاعركم وسلَّمتم أنفسكم إلى الجانب الآخر (يقصد الأريوسيين) تاركين المعلِّمين ذوي الخسة الأرضية، وممتدِّين نحو الأمور السمائية تحت قيادة كلِّي القداسة جورج ... إلخ (مديح في قالب بلاغة مملوءة مذلة) ...

وإني إذا استطعت أن أقتله (أثناسيوس) عشر مرَّات فلن يكون ذلك كافياً أو مساوياً لما عانيته من أتباعه المحتالين المنافقين الذين يشمتون فينا ...](٢٦)

الإمبراطور يُرسل إلى أثيوبيا يحذِّر من قبول أثناسيوس وليستدعي فرومنتيوس لإعادة تعليمه:

[إلى آزانس وسازانس الأمراء المسيحيين في أثيوبيا (وهما إبراها الأول المعروف قبل توليه باسم إيزان، وأتزيا الأول وهو شقيق إبراها وكان اسمه سازان) ... أرسلوا بسرعة إلى مصر الأسقف فرومنتيوس إلى الكلي القداسة الأسقف جورج وباقي مَنْ معه المنوط بهم خدمة الأسقفية، لتدبير الأمور المختصة بهم، لأنكم تعلمون أن فرومنتيوس تقدَّم إلى رتبة الأسقفية بواسطة أثناسيوس الذي هو متهم بعشرة آلاف جريمة، ولم يستطع أن يبرِّئ نفسه من أي منها، ولذلك أُقصي عن كرسيه في الحال، وهو الآن يجول من بلد إلى أخرى ... إلخ ...

(25) Athanas., *Hist. Ar.* 72.

(26) N.P.N.F., II, 30, pp. 249, 250.

وإني أخشى أن يذهب أثناسيوس هذا إليكم في أكسوم ويُفسد شعبكم، وإني أعتقد أن فرومنتيوس سيعود إلى الوطن وقد اكتملت معرفته، مزوَّداً بكل الأمور التي تخص الكنيسة، وقد اكتسب تعليماً أكثر، وسيكون له نفع أعم وذلك على يدي الكلي القداسة جورج وبقية الأساقفة المهيَّئين بالعلم لتسليم هذه المعرفة. ليت الرب يحفظكم دائماً أيها الإخوة المكرَّمون.](٢٧)

وقد علَّق القديس غريغوريوس النزينزي على ذلك أن الملكين لم يعبآ بهذا الافتراء لثقتهما بأرثوذكسية القديس أثناسيوس(٢٨).

الإمبراطور يسلِّم الكنائس في مصر رسمياً إلى الأريوسيين:

يذكر ذلك القديس أثناسيوس هكذا:

[وبعد أن نفى الأساقفة الحقيقيين لكي لا يعلنوا عن المبادئ الكفرية (التي اعتنقها الإمبراطور والأريوسيون) والتي تناسب مسرَّته، أرسل الكونت هيراكليوس ليبدأ عمله ضدِّي (أثناسيوس)، وبالفعل أعلن أحكام الإمبراطور وأوامره وأنَّ مَنْ لا يخضع للتعليمات الواردة في خطاباته سيُقطع عيشهم وتُهدم أصنامهم وحتى رؤساء المدينة والشعب سوف يدخلون تحت نظام العبيد.

وبعد تهديدهم لم يخجل من الإعلان بصوت جهوري: "إن الإمبراطور أنزل أثناسيوس عن كرسيه وأمر بتسليم الكنائس للأريوسيين".

وكان رد الواقفين بتعجُّب هل صار الإمبراطور هراطيقياً؟ (وكان ذلك اليوم المشئوم هو ١٤ يونيو سنة ٣٥٦م.)](٢٩)

(أ) دخول المغتصب جورج الكبادوكي إلى الإسكندرية:

[وأخيراً وبعد تأخير بلغ ثمانية أشهر وأحَدَ عشر يوماً في ٢٤ فبراير سنة ٣٥٧م وصل الدخيل الذي عيَّنه الإمبراطور وجماعة الأريوسيين إلى الإسكندرية، (وكان يوم الجمعة الثالث في الصوم الكبير)، قادماً من إيطاليا حيث عيَّنه مجمع من الأساقفة من حوالي ٣٠

(27) N.P.N.F., II, 31, p. 250.

(٢٨) *"تاريخ أثناسيوس الرسولي حامي الإيمان القويم"*، للمؤرِّخ كامل صالح نخلة، صفحة ٨٣.

(29) Athanas., *Hist. Ar.* 54.

أسقفاً من سوريا وتراقيا وآسيا الصغرى(٣٠)، وكان اسمه جورج من كبادوكيا وكان صاحب وظيفة في الدولة في القسطنطينية كأمين خزانة مالية(٣١) (يدعوه القديس أثناسيوس سارق خزائن)(٣٢) ... وكان له صيت ذائع بحبه للمال!! وكان إنساناً قاسياً لا رحمة في قلبه يستطيع أن يذهب إلى أبعد الحدود (المنافية للحق والأدب) بلا حياء بوجه من نحاس!! وكانت هذه الأخلاق تتناسب مع مطالب مهمته في الإسكندرية كما بدا للإمبراطور.

ولكن بقي أن نرى مَنْ الذي سيقوى على هذا الموقف.](٣٣)

(ب) هرب جورج الدخيل المغتصب:

[كان حكم هذا الطاغية كله فزعاً ولكنه لم يدم أكثر من ١٨ شهراً، ففي نهاية شهر أغسطس سنة ٣٥٨م قامت ثورة عارمة في الإسكندرية بعد أن أعيتهم الحيَل في معاملة هذا الدخيل، وقد هجموا عليه في كنيسة القديس ديوناسيوس وبصعوبة استطاع معاونوه أن ينقذوه من أيدي الثوار. فغادر الإسكندرية بعد أيام قليلة وبقي خارج الإسكندرية أكثر من ثلاث سنوات.](٣٤)

(ج) قتل جورج الدخيل بلا رحمة:

[وقد انشغل جورج هذا في التحضير لمجمعي سلوقيا والقسطنطينية للأريوسيين، وأخيراً وبعد موت قسطنطيوس جازف بالعودة إلى الإسكندرية في ٢٦ نوفمبر سنة ٣٦١م، ولكن بإعلان تولي يوليان في ٣٠ نوفمبر، قام عليه الشعب ومسكوه وقيَّدوه بالسلاسل وألقوه في السجن، ولمَّا استبطأ الشعب (عامة الشعب) إجراءات محاكمته جرَّه الشعب من السجن وقتلوه وشنَّعوا به أقصى تشنيع بلا أي رحمة في ٢٤ ديسمبر سنة ٣٦١م.](٣٥)

(30) Sozom., IV. 8.

(٣١) يقول أرشيبلد روبرتسن واضع كتاب مؤلّفات أثناسيوس في مجموعة N.P.N.F. إنه كان مورِّد خنازير!!

(32) Athanas., *Hist. Ar.* 51.

(33) Duchesne, *op. cit.*, p. 213.

(34) Ibid. p. 214.

(35) N.P.N.F., Athanas., *Prolog* LIII. - LXXXIII.

أثناسيوس في منفاه الاختياري الثالث
مؤلفاته ودفاعه أثناء ترحاله

بعد أن سقط كل جبابرة الإيمان في الشرق والغرب ووقَّعوا، راضين أو صاغرين، على هرطقة أريوس وعلى حرم أثناسيوس وخلعه من كرسيه، ولم يعد أسقف واحد في كرسيه يؤمن بأن الآب والابن مساوٍ في الجوهر للآب، وبدا أن العالم كله صار أريوسياً، لم يعترِ هذا الأسقف الوطيد الصلة بالمسيح أي شعور بالانهزام أو الحرمان أو النفي أو العزل، فلم تصغر نفسه قط ولم ينطوِ تحت مشاعر الحزن بالاضطهاد قط، فقد ظلَّ يحمل في قلبه وعقله وكل كيانه الإيمان الكامل بالمسيح، بإحساس رئيس الأساقفة المسئول عن رعيته طول مدة احتجابه عن كرسيه، كما ظل يمارس إيمانه الأرثوذكسي وصلواته وأسرار كنيسته وكتابة مؤلفاته في كل مكان التجأ إليه بكل ثقة مَنْ هو لا يزال يمارس معركته دون هوادة ضد الأريوسيين، كل الأريوسيين، رؤساء أساقفة وأساقفة وكهنة - كل العالم تقريباً وعلى رأسهم إمبراطور المملكة الرومانية بأجمعها وبكل سلطانه، وضد كل المجامع التي عُقدت في غيابه بكل كثافتها.

صحيح أنها كانت أخباراً مفجعة لنفسه حينما بلغه بعد سنة واحدة من هروبه أخبار انهيار إيمان هوسيوس أسقف قرطبة العظيم أكبر أساقفة العالم، وتوقيعه المهين سنة ٣٥٧م على أسوأ قانون إيمان أخرجه الأريوسيون باسم قانون "سيرميم الثاني" المسمَّى عند العامة في العالم كله آنذاك بقانون "التجديف" أو "الكفران" Blasphemia الذي حشاه بالتجديف **الأسقف بوتاميوس أسقف لشبونة بأسبانيا،** غير أن هوسيوس العجوز جدًّا بقي أميناً للأشخاص الأمناء بعد أن فقد قدرة الأمانة على الأمانة ذاتها، **فلم يقبل التوقيع ضد أثناسيوس بأي حال من الأحوال حتى بعد أن تهرَّأ جسده من الضرب!!** ولعل هذا الامتناع يتشفَّع له لأنه يحمل بصفة علنية أمانة لمن ظلُّوا على الأمانة!!

وبعد خبر هوسيوس الحزين، وفي أقل من سنة واحدة أي سنة ٣٥٨م جاء إلى أثناسيوس مَنْ يخبره بأن ليبريوس أسقف روما الشجاع المغوار، هذا أيضاً قد سقط من إيمانه القويم ووقَّع على قانون إيمان للأريوسيين، هيأوه له ليكون أخف وطأة في التجديف من الذي وقَّع عليه هوسيوس،

ولكل شجاع درجة يمكن أن يوقف عندها عن عزمه وصلابته لحظة التهديد بالموت!! إلاَّ مَنْ قد استمد شجاعته منذ البدء من موت المسيح وقيامته!!

ولكن يقول المؤرِّخ وليم برايت أستاذ التاريخ الكنسي في أكسفورد (سنة ١٩٠٠م) في قاموس سيرة الآباء المسيحيين:

[ولكن الكنيسة الرومانية في شخص رئيسها حصلت بهذا التوقيع على احتقار شنيع - وإن كان مؤقَّتاً - ولكن وفي السنة التي تلتها سنة ٣٥٩م حدث أيضاً أن كل هيئة أساقفة الغرب في مجمع أريمنم نُكبوا وغُرِّرَ بهم أيضاً عندما ثبَّتوا قانوناً للاعتراف مبهماً ولكنه كله أريوسي تماماً، وهو الذي تبنّاه أيضاً أساقفة الشرق سنة ٣٦٠م في مجمع سلوقيا.][1]

وظل أثناسيوس هارباً من مضطهديه في منفاه الاختياري والجيوش تلاحقه مع الجواسيس، حكوميين وأريوسيين وميليتيين من كل أقطار العالم، ومن مصر نفسها تلاحقه في كل مكان. ولكن لا نستطيع إلاَّ أن نقول إنها العناية الإلهية والبصيرة النيرة التي جعلته في أمان، بل وحرًّا في تنقلاته على مدى ست سنوات لم يخُنه واحد من كل الذين التجأ إليهم!!

كما يذكر تاريخ حياة باخوميوس بالعربية أن الدوق أرتاميوس (للدولة الرومانية عشرة دوقات منهم ثلاثة مخصَّصون لمصر وحدها)، كان يقتفي أثر أثناسيوس على طول الصعيد كله حتى وصل دير بافو، وهناك ردَّ عليه الرئيس بسارفي المسئول عن الدير أن أثناسيوس أبونا كلنا، ولكني حتى الآن لم أرَ وجهه، فدخل الدوق - وكان بصحبته أسقف أريوسي - إلى الدير وظل يفتّش عنه في كل مكان، ولمَّا أُعيي قال لبسارفي (أب الدير) وهو خارج: [صلِّ من أجلي]، ولكن بسارفي نظر إلى الأسقف الأريوسي الذي يرافقه وقال لهما: [إن "الأب" يقصد (البابا) أثناسيوس قد أوفد وصية للرهبان أن لا يصلُّوا مع الأجانب الذين لهم شركة مع الأريوسيين].هنا إشارة واضحة أنه قد وصل إلى الدير أمر من البابا أثناسيوس (أب الكنيسة) في رسالة خاصة بذلك!!

[وعرض من الأمور غير المُسرَّة أن الملك وقتئذ قسطنطيوس ابن قسطنطين الملك الكبير مال إلى اعتقاد أريوس الكافر بابن الله وحُرِّك من الأريوسيين الحاضرين الذين كانوا عنده يومئذ في القسطنطينية، بتحريك أبيهم الشيطان إيَّاهم، أن يرسل ليستحضر أثناسيوس أسقف الإسكندرية إلى عنده ويصيِّره أن يضبط اعتقاد أريوس، فإن هو أجاب ثبَّته على كرسيه،

(1) *Dict. of Chr. Biogr.*, I, pp. 196, 197.

وإن عصاه وخالفه نفاه ورتّب في موضعه غيره. وإن الملك أصدر منشوراً إلى أرتاميوس والي الإسكندرية، وهذا كان أريوسياً أيضاً، يقول له عند وقوفك على كتابنا هذا للوقت والحين تقبض على أثناسيوس الأسقف وترسله إلينا مع مَنْ تثق فيه.

ولمّا وصل الكتاب إلى الوالي أهمل جميع أشغاله وطلب الأسقف وبحث عنه في مواضع كثيرة، فلم يجده، وكان يتقصّى عليه من كل أحد، فقيل له إنه قد كان يُكثر من ذكر رهبان طبانسين ويميل إليهم ويودهم فلعله يكون قد اختفى عندهم، وأن الوالي نهض بذاته وأخذ معه جنده وأصحابه وركب في البحر وتوجّه إلى هناك. وكان يومئذ الطوباوي تادرس قد أخذ قوماً من إخوة بافو وركبوا في مركب بحرية وقصد افتقاد الأديرة، فصادف الدوقس وهو صائر إلى دوناسه، وسلّم عليه وجاز من حيث لم يعلم تادرس إلى أين هو متوجِّه، ولا الوالي قال له شيئاً، فلمّا حصل تادرس بقرب الدير الفوقاني المعروف بكابور ورأى من بُعدٍ نازح الوالي أيضاً وهو سائر في البحر، فعلم وقتئذ بالنعمة الساكنة فيه ما قد حدث، وأن الوالي متوجِّه إلى دير طبانسين يطلب الأسقف. فخبَّر الإخوة الذين معه بالأمر، فقالوا له: يجب أن نرجع إلى ديرنا في بافو لئلاَّ يجيء الوالي هناك ويزعج الإخوة ولنسرع لكي نسبقه. فأجابهم تادرس قائلاً: قد قطعنا هذه المسافة البعيدة وجئنا إلى هنا وقربنا من الإخوة الذين كانوا قصدنا فلنتمِّم بمعونة الله خدمتنا ولا نرجع من طريقنا، والله هو المدبِّر والحافظ لنا ولإخوتنا الذين في بافو والذين في كل موضع، وساروا في طريقهم. فأمَّا الوالي أرتاميوس فوصل طبانسين ليلاً ونزل بظاهر الدير ورتّب الجند رماة القسيّ أن يحتاطوا به ويحرسوه لئلاَّ ينزل من كواه إنسان. وجلس هو مع أصحابه الخصِّيصين به بمعزل، فأمَّا الإخوة الذين داخل الدير فإنهم جبنوا كثيراً إذ لم يعلموا ما هو الحادث، ولمّا أضاء النهار استدعى الوالي بقوم من الرهبان المقدمين فيهم وقال لهم بواسطة ترجمان: أين هو أبوكم، فأجابه الأب باكسيوس ـ الذي كان قد شجَّع الرهبان قبل خروجه من الدير عندما عاين جبنهم وقال لهم: تقوَّوا بالرب ولا تخافوا ـ وقال له أيها السيد: أبونا غائب في بقية الأديرة لافتقاد الإخوة، فقال له الوالي وأين الثاني منه، فأورده الأب بصرفتين الأقنوم الكبير، فقال له الدوقس بمعزل: قد وصلني أمر ملكي بأن أقبض على الأسقف أثناسيوس وأرسله إليه وطلبته فلم أجده وقد قيل لي إنه عندكم فأعطوني إياه وكونوا معافين، فأجابه الأب بصرفتين قائلاً: أمَّا أثناسيوس الأسقف فهو أبونا ومقدِّمنا لكنني ما أبصرت له وجهاً ولا

أعرفه ولا جاء إلى عندنا، وها الدير بين يديك فتّشه لتعلم صحة قولي. فأمر الوالي بتفتيش الدير مهلاً مهلاً فلم يجده، وعندما أراد الخروج قال للرهبان: هلموا كلكم واعملوا عليَّ صلاة، وكان معه أسقف أريوسي عرفه بعض الإخوة، ومن الأسقف استدلوا أن الوالي أيضاً أريوسي، فأجابوه قائلين: لا يمكننا ذلك لأن معنا وصية من أبينا أن لا نصلّي مع مَنْ كان أريوسياً. ثم انفصلوا عنه. فعمل الأسقف وحده صلاة ثم جلس الوالي والأسقف وأصحابه، وفيما هم جلوس طفر الوالي وحده بين الجماعة كهارب مكدود وَجِل فزع ومنخره يُجري الدم وهو يقول: بالكاد أفلتُّ من الموت لأجل الرؤيا التي ظهرت لي الآن إلاَّ أن يشاء الله حياتي، وعلى هذه الحال انفصل من الدير ورحل عنه. فأمَّا الأب تادرس فلمَّا رجع إلى الدير وسمع بما كان مجّد الله.](٢)

وهذا النفي الثالث الطويل يُحسب لأثناسيوس قمة ما بلغ إليه من منجزات فقد كتب في هذه الحقبة أكثر من نصف مؤلفاته جميعاً!! بل ونشرها في مصر وفي خارج مصر، حتى أضجَّ مضجع الإمبراطور نفسه والأريوسيين وكل مَنْ عيَّنهم لمناوأته!!

بدأ نفي أثناسيوس الثالث وكأنه انتصار للإمبراطور وكل الشامتين وتحدٍّ من كل أريوسيي العالم.

وانتهى نفي أثناسيوس الثالث بعلامات انهزام القوة الأريوسية وأفول نجمها الأسود!!

صحيح أنه دام الصراع مع الأريوسيين بعد عودة أثناسيوس ما يقرب من عشرين سنة بعد ذلك، ولكن بعد أن هدَّهم الضعف والوهن.

ومنذ سنة ٣٦٢م والأريوسيون بدأوا يعانون من التفكُّك والانقسام بصورة ملحوظة للعالم، زادها مطاردة أثناسيوس لهم بلا هوادة، ولكن تحطُّم الأريوسية في النهاية لم يكن لشيء إلاَّ لأنها كانت لا تقوم على الحق، وكانت تستمد قوتها الضاربة من السلطة الحكومية، في حين كانت ضربات أثناسيوس من الإنجيل والحق والإيمان الوثيق.

ففي اللحظة التي خرجت فيها الأريوسية من ظل رعاية السلاح وتكتيك الغش والخداع والخيانة والتجمُّعات المفتعلة وقعت على الأرض وتناثرت كتمثال مزيَّف من الخزف.

وعلى مدى الست سنوات التي اختفى فيها أثناسيوس عن أعين أعدائه، لم يكُف الأريوسيون

(٢) *"سيرة القديس باخوميوس وتعليمه"*، طبعة سنة ١٨٩١م، صفحة ١٥٧–١٥٨.

عن عقد المجامع وإصدار القوانين والبيانات والتحذيرات. وكانت عين أثناسيوس، وهي في الظل، صاحية تراقب عن كثب وترد بسرعة خاطفة على كل إجراء في وقته المتقن.

فقد فتحت له الأديرة الأمينة أبوابها وهلّل لرؤياه المتوحدون في أعماق الصحاري: نتريا، والقلالي، وشيهيت أيضاً، وحتى أقصى صعيد مصر، وحتى العذارى (الراهبات) استقبلنه في بيوتهن الخاصة التي كان قد أنشأها هو لهن بنفسه. وتعاون كل ذوي النفوس الشهمة الأمينة وخاصة رجال نتريا والقلالي من الرهبان المثقّفين ليكونوا تحت إمرته، يحملون الرسائل منه وإليه في كل أنحاء البلاد وحتى إلى أقصى الأقطار النائية، فالمركب تخوض البحر الكبير تحمل إليه الأخبار، فتصله في أيام معدودات؛ والقوارب تجول في النيل من منبعه إلى مصبه تحمل الرسائل لتشجيع الأساقفة(٣) والكهنة الذين بقوا على أمانتهم للأمانة سواء كانوا في المنفى أو تحت رئاسة الهراطقة!!

فكان أثناسيوس يدير شئون الكنيسة ويقبض على زمام الحركة فيها، وهو مقيَّد الحركة، مشابهاً لبولس في السجن!!

ولم يُرَ أثناسيوس في هذه الأسفار والتنقلات إلاَّ ومعه الكتب والرقوق وحزم صحائف البردي وأقلام البوص للكتابة ... كم جلس على حصير راهب فقير، وكم استظل بسقف المغائر النائية وظل يكتب ويكتب، فإن جفَّ الحبر في قلمه غمسه في المحبرة، وإن جفَّ الفكر غمسه في قلبه ليخرج الكلمات المنيرة بالروح المتقدة بالأمانة للمسيح الذي أحبَّه.

كان قلمه قلم كاتب سريع الكتابة، وكانت عزيمته تصلب الجسد لمشيئة الروح، فلم يكن يكل أو يمل وهو واقف قبالة أساقفة العالم كله يعلن الإيمان المستقيم الذي استلمه من أبيه ألكسندر بل من بولس بل من المسيح.

وفي كتاباته استطاع أثناسيوس أن يفرِّق دائماً وبدقة بالغة بين وقت المهاجمة ووقت الدفاع، وبين خصومة لا تهادن قط وخصومة تقبل المهادنة، وفرَّق بين أعداء الإيمان وبين الأغبياء في الإيمان وبين الضعفاء في الإيمان، فعلى الأولين أعلن حرباً لا رحمة فيها، وللمتوسطين أفاض وأسهب وشرح

(٣) [حدث أن بلغ إلى مسامع أثناسيوس وهو مختفي أن ثيودور أسقف أوكسيرينكوس (البهنسا) وهي من كبريات مدن الصعيد قد انضم إلى الشركة مع جورج الأريوسي، (كان ذلك بالقوة وقام بإعادة سيامته!!) (N.P.N.F., IV, Athanas., *Prolog*. Liii)، فأرسل أثناسيوس خطاباً إلى شعب أوكسيرينكوس (البهنسا) ألهب فيه مشاعرهم الكنسية والروحية، فطردوا أسقفهم وجاءوا برئيس كهنة يخدمهم حسب الإيمان الأرثوذكسي] (*Dict. of Ch. Biog*. Athanas. 194 n, n).

وأطنب، وللآخرين شجَّع وتنازل وسار حتى إلى منتصف الطريق!! عجيب أثناسيوس وعجيبة هي مؤلَّفاته كلها، ولكن ليس كل مَنْ يقرأها يدرك أغوارها أو يقدر أن يفرِّق بين مظهرها وجوهرها والظروف التي أَمْلَت عليه كتابتها ...

وهذه الأجازة الإجبارية من حمل مسؤولية الشئون الإدارية لأعمال الكنيسة كانت لأثناسيوس من أخصب فترات حياته في الإنتاج الروحي والتأليف الكنسي. وكما قلنا فقد استطاع أثناسيوس أن يؤلِّف ويكتب فيها أكثر من نصف ما ألَّف وما كتب طول حياته، أرادوها الأعداء فترة نقمة وقمع وهدم له وللكنيسة الأرثوذكسية الأمينة الوفية لمسيحها، فأرادها الله أن تكون هي بعينها الفترة الذهبية المضيئة، لا من جهة التأليف والإنتاج فحسب، بل ومن جهة جمع شمل الأُمة كلها تحت لواء الأمانة لأثناسيوس، أو كما يحلو لي أن أقول الأمانة للأمانة، والتحدِّي السافر لسلطان الدولة الأجنبية المحتلة.

والأمر المذهل حقًّا أن الوثنيين في مصر كلها كانوا يكنون لأثناسيوس التقدير والمحبة إلاَّ الذين طوتهم المواعيد والأموال ... فالوثنيون هم الذين هجموا على كنيسة ديوناسيوس بقصد الفتك بجورج الأسقف المغتصب الدخيل، وذلك بشعور العداء الوطني الذي أذكاه أثناسيوس بمواقفه الصلبة المقاومة للسلطان الروماني الغاشم.

أعمال أثناسيوس خلال فترة منفاه الثالث
سنة ٣٥٦-٣٦٢م
- وهي عبارة عن كتاباته -

(لاحظ أن أثناسيوس قد ناهز الستين من عمره)

١ - كتاب الدفاع لدى قسطنطيوس:

أول ما فكَّر فيه أثناسيوس كان إيجابياً، فقد ارتجى أن يقابل الإمبراطور ويشرح له كل الظروف التي أحاطت بقضيته ويكشف المؤامرات والوشايات ويقدِّم للإمبراطور الأدلة المقنعة أنه لم يكن ضد الإمبراطور أو مخالفاً لأوامره قط. وكان يستبعد في رجائه وثقته بالحق أنه من المستحيل على الإمبراطور أن يرجع في أقسامه أو يسيء إلى احترام ذكرى أخيه قسطانس الذي بسببه ارتضى قسطنطيوس أن يفي بأمانة العهد!

لذلك أجهد أثناسيوس نفسه ليقدِّم دفاعاً صادقاً مخلصاً رتيباً مقنعاً بكل دقة، عالج فيه الاتهامات الأربعة المعروفة والتي سبق أن ذكرناها، والتي اتخذها خصومه وقيداً يشعلون به نار حقد الإمبراطور كلما هدأت نفسه.

بل إنه بعد أن أكمل كتاب دفاعه (٢٦ فصلاً) قام وأعد العدة للسفر لمقابلة الإمبراطور في ميلان، عن طريق ليبيا (المدن الخمس)، لكي يعبر البحر مباشرة صوب إيطاليا (وهو نفس الطريق الذي سلكه رسل ماجننتيوس من إيطاليا إلى مصر عبر الصحراء الليبية سنة ٣٥٠-٣٥١م).

ولكن كما سبق وشرحنا، بلغته أخبار مجمع ميلان ونفي الأساقفة وحرم أثناسيوس وإرسال وفد إمبراطوري لنفي أثناسيوس أو القبض عليه حيًّا أو ميتاً، مما اضطره للعدول عن السفر، غير أنه لم يفقد الأمل قط في مقابلة الإمبراطور لتقديم احتجاجه وإقناعه ببراءته، وهذه تكشف عن إحدى صفات أثناسيوس العجيبة كونه لا يفقد الرجاء في الحق ولا يقعد عن المطالبة به مهما كان!!

ولَمَّا اقتنع بعدم جدوى الذهاب في هذه المناسبة عاد إلى صحرائه وبدأ يكمل فصولاً جديدة في كتاب دفاعه لدى قسطنطيوس تتناسب مع الحوادث الجديدة. فصار مجموع فصول الكتاب ٣٣ فصلاً.

٢ - الخطاب إلى الأساقفة في مصر وليبيا:

كان لا يزال أثناسيوس في صحراء ليبيا حينما حلّ عيد القيامة سنة ٣٥٦م[٤]، وقد أمضاه هناك. ومن هناك أيضاً كتب أثناسيوس خطابه للأساقفة - الذين تحت رعايته في مصر وليبيا - وهو في القيروان وبعدها عاد في حوالي شهر أبريل، حينما شاعت لدى الإمبراطور أخبار تبدو متعمَّدة (من أعوان أثناسيوس) أن أثناسيوس انطلق نحو أثيوبيا.

وكانت قد وصلت أثناسيوس أخبار تفيد قرب وصول جورج الكبادوكي (أصلاً متعهد توريد الخنازير في الحكومة). ولكن لم تكن وصلته أخبار الاضطهادات بعد. وهذا يوضّح أن الخطاب كُتب في عيد القيامة سنة ٣٥٦م.

ويذكر أثناسيوس في الخطاب تسلسل حوادث الأريوسيين وأعمالهم منذ ابتداء المنفى الثالث. ويحض الأساقفة على الاحتراس من منشور دوري كانت الحكومة بصدد إصداره لتهديد الأساقفة بالنفي إذا لم يوقّعوا على قانون الإيمان الجديد، وهو في الغالب قانون مجمع "سيرميم" الذي صدر سنة ٣٥١م[٥] ولم تكن له بعد الصيغة الأريوسية الزاعقة، ولكن كان يهدف نحو التملُّص من نقطة الامتحان في قانون نيقية كما يتضح من الفصل ١٠ في الخطاب.

ولذلك يبدأ (من فصل ١-٤) بتحذير من جهة هذا الأمر أن ينتبهوا حتى لا يغرَّر بهم بالكلام أو التوضيحات (فصل ٥)، فيتمسَّكوا بقانون نيقية ولا يتزحزحوا عنه لمماحكات المخالفين (٦-٨)، ولا يقبلوا أي قوانين مختصرة أو يغترُّوا بتجديف الأريوسيين الواضح (٩-١١).

وفي الجزء الثاني من الخطاب يشير إلى العقيدة، فهو في فصل (١٢) يوضّح موقف الأريوسيين الأساسي من الإيمان، ويوضّحه في فصل (١٣) بأدلة من الكتاب. ثم يتحدَّى الأريوسيين في فصل (١٤) إن كانوا يستطيعون أن يقدِّموا اعتقاداً واضحاً صريحاً عن "طبيعة الكلمة" ليمكن التوفيق بين اقتراحاتهم وفروضهم وبين الكتب المقدَّسة (١٥-١٦)، ثم يشرح سفر الأمثال ٨:٢٢ في التجسُّد ويتهم الأريوسيين أنهم يشرحون هذه الحقيقة كالوثنيين (١٧)، كما يتهمهم جميعاً وبالأخص أريوس بالنفاق ومداهنة الإمبراطور (١٨).

ثم يصف موت أريوس ويدفع بالقضية باعتبارها جريمة إنسان تمَّ عليه قضاء الله (١٩)، ويحض

(4) N.P.N.F., IV, Athanas. *Prolog*. Li.

(5) Athanas., *De Synod*. 27.

الأساقفة (٢٠-٢١) على الثبات والاستعداد للاعتراف موبِّخاً تذبذب الميليتيين (٢٢) والأريوسيين، ويشرح أخيراً قناعته (٢٣) أن الإمبراطور قسطنطيوس سوف يضع في النهاية حداً لمهاتراتهم حينما تصله المعلومات الصادقة عن حقيقة الأمر. (وهذا الأمل ظل يداعب فكر أثناسيوس حتى يئس تماماً من الإمبراطور بعد مضي سنتين من كتابة هذا الخطاب).

(انظر مقتطفات من هذه الرسالة صفحة ٤٩و٥٠)

ومن كتابات أثناسيوس المتفرِّقة نستطيع أن نحدِّد أنه وصل إلى الإسكندرية أثناء فترة اختفائه ومكث بها جزءاً من سنة ٣٥٧-٣٥٨م، ويُعتقد أنه عاد إليها مباشرة ليمكث فيها بعد ذلك قرابة السنتين (الجدول الفصحي ٣٠-٣٢).

ويذكر كل من سوزومين المؤرِّخ(٦) وبالليديوس أنه كان أثناء هذه المدة مختبئاً في بيت عذراء. ولكن للأسف لم يفهم كل المؤرِّخين الغربيين معنى عذراء، وأعطوها أوصاف الجمال الفاتن ...إلخ. ولكن الحقيقة بحسب تقليد التاريخ الكنسي القبطي أن كلمة عذراء هنا تفيد راهبة مكرَّسة، فقد بدأ في أيام القديس أثناسيوس أن تنتشر حركة التكريس بين العذارى وسمحت الكنيسة (أثناسيوس) بأن يقمن في بيوت عائلاتهن في أماكن خاصة داخل البيت أو يعشن في بيوت خاصة لهن، حيث يشرف عليهن كاهن معيَّن أو الأسقف نفسه، وكان القديس أثناسيوس يكتب لهن توجيهات خاصة، وواضح أن هذه العذراء هي إحدى المكرَّسات اللاتي كرَّسهنَّ أثناسيوس بنفسه وأنها كانت تتردَّد عليه قبل نفيه وكان يتردَّد على البيت الذي تقطنه - ربما مع زميلات لها - وأن أثناسيوس طرق باب هذا البيت الذي كان يتحتَّم أنه على علم جيد بمكانه كأكثر الأماكن أمناً التي يمكن أن يلجأ إليها من كافة الوجوه، وأن هذه العذراء بالذات هي الراهبة التي كُلِّفت بخدمة أثناسيوس وتأدية المهام التي كان يوفدها إليها.

أمَّا التجاؤه أيضاً إلى خزان جاف للمياه في هذه المدة، كما يرويه المؤرِّخ روفينوس(٧)، فهذه أيضاً حقيقة. وبحسب معرفتي الشخصية لا يزال، كما سبق وقلنا، هذا الخزَّان موجوداً إلى اليوم، وهو تحت أرضية الدور الأرضي لبطريركية الإسكندرية، ويمكن النزول إليه بفتح الأرضية في الغرفة الشرقية البحرية من الجناح الشرقي.

(6) Sozom, V. 6.
(7) Rufin. I. 18.

وربما هذا المكان الذي فيه البطريركية الآن هو بالذات الذي كانت تسكن فيه جماعة العذارى اللاتي خدمن أثناسيوس أثناء اختفائه، وكان في وقت الخطر ينزل إلى الدور الأرضي ويختبئ في هذا الخزان بجوار المسلة.

وفي هاتين السنتين ٣٥٧-٣٥٩م أتمّ أثناسيوس كلاً من:

٣ - كتاب سيرة القديس أنبا أنطونيوس:

يمكن بحسب ملابسات مقدِّمة كتاب سيرة القديس أنطونيوس الذي ألَّفه أثناسيوس أن نستدل أنه كتبه في السنة الأُولى بعد نياحة أنبا أنطونيوس، ومعروف بالتحديد أن القديس أنطونيوس تنيَّح سنة ٣٥٦م.

كذلك فإن أبحاثاً كثيرة للغاية قُدِّمت لإثبات صحة كتابة أثناسيوس لسيرة أنبا أنطونيوس، وفي هذه الفترة بالذات، ولكن سوف نرجئها للباب الأخير من الكتاب، الذي سنخصِّص فيه عرضاً لمؤلّفات أثناسيوس ومدى أهميتها وتأثيرها في الحياة العامة وفي اللاهوت الكنسي في مصر والعالم.

٤ - كتاب دفاعه عن هروبه:

والمعروف بحسب الدراسة التاريخية أن هذا الدفاع كُتب في المدة بين حنث هوسيوس أسقف قرطبة وتوقيعه على إيمان الأريوسيين، وبين حنث ليبريوس أسقف روما وتوقيعه هو الآخر على إيمان الأريوسيين، وبذلك يكون أثناسيوس قد كتب دفاعه هذا في نهاية عام ٣٥٧م.

وقد تمسَّك فيه أثناسيوس بموقفه من الهروب بحسب أقوال الرب وسلوكه وسلوك القديسين، واعتبر أن الفرصة التي أتاحها له الله في هروبه من كنيسة ثيئوناس يوم أن دهمها سيريانوس بالجيش وأعمل القتل في المؤمنين كانت تشابه نجاة بطرس من السجن أو نجاة بولس من أيدي اليهود.

والدفاع كما يصفه كل علماء التاريخ واللاهوت يعتبر نموذجاً لما يجب أن يسلكه أي إنسان مسيحي وقت الاضطهاد Locus Classicus.

وتمتاز لغة الدفاع وأسلوبه بالسهولة والقوة والأنفة وقد أخذ به قديسون كثيرون (انظر أغسطينوس في رسالة ٢٢٨ وكبريانوس رسالة ٢٠).

وقد أطنب فيه كل من المؤرِّخ سقراط[٨] وثيئودوريت[٩]. وسوف نعود إلى توضيح ما فيه من التعاليم النافعة في الباب الأخير من هذا الكتاب.

٥ – خطابات إلى لوسيفر:

لوسيفر أسقف كالاريس (كاجلياري في جزيرة سردينيا جنوب غرب إيطاليا)، وهو الأسقف الذي نفاه قسطنطيوس بعد أسقف ميلان، وقد كان مكان نفيه في البداية إقليم جرمانيسيا ثم اليوثيروبوليس بفلسطين وقد أُسيء معاملته هناك وأخيراً نقلوه إلى إقليم طيبة في صعيد مصر.

زمان الكتابة إلى لوسيفر يحصره العلماء في سنة ٣٥٦م، ويعتبر الخطاب الثاني رقم ٥١ الوثيقة الفريدة من نوعها التي تشير إلى علاقة القديس أثناسيوس بوالديه باعتبارهما لا يزالان على قيد الحياة.

وفي الخطاب الأول يخاطب لوسيفر باعتباره "معترفاً" – أي إنساناً يشهد للمسيح تحت آلام التعذيب!! وهو خطاب تشجيعي مبدع سنأتي على أهم ما فيه في الباب الأخير من الكتاب.

أمَّا **الخطاب الثاني** وفيه يذكر اقتحام القوات للأديرة وتعذيب الرهبان وقتل المتوحدين، الأمر الذي جعل أثناسيوس يغادر الأديرة والصحاري! ويذكر القديس أثناسيوس النصيب الحسن الذي ينتظره مع جميع المعترفين بهذا الترتيب، نصيب "**البطاركة والأنبياء والرسل والشهداء**". ويلاحظ القارئ أن هذه العبارة واردة بتسلسلها في مطلع المجمع في القدَّاس الإلهي، فهي اقتباس ليتورجي، ويذكر أثناسيوس أن رد لوسيفر وصله مع الأخ المراسلة – حامل الرسائل وردَّها – (وهو عبارة عن عدة كتب) وفيه يذكر أنه لم يستطع رؤية والديه بسبب مراقبة الجواسيس.

ومن الطريف أنه بعد صدور أمر الإمبراطور يوليان بعودة الأساقفة المنفيين ظهر أثناسيوس في الإسكندرية لأول مرَّة في ٢١ فبراير سنة ٣٦٢م في المساء، بعد غيابه ست سنوات بصحبة لوسيفر أسقف كالاريس وزميله يوسابيوس أسقف فرشللي بإيطاليا اللذين كانا منفيين في صعيد مصر، فكانت مفاجأة مفرحة للشعب.

وقد حضر يوسابيوس أسقف فرشللي المجمع الذي عقده أثناسيوس حال عودته إلى الإسكندرية، وكان مكوَّناً من ٢١ أسقفاً، أمَّا لوسيفر فترك شماسه وبقية معاونيه ليحضروا المجمع، أمَّا هو فذهب

(8) Socrates, II, 28, III, 8.

(9) Theodoret, *H. E.* II, 15.

إلى أنطاكية ليرى ماذا حدث(١٠)، كما حضره مندوبو الأسقف أبوليناريوس أسقف اللاذقية بسوريا الذي جنح عن الإيمان في ما بعد، مما اضطر أثناسيوس لكتابة كتابين ضد مبادئه سنة ٣٧٢م.

٦ ـ خطابات إلى الرهبان المصريين ٥٣ و٥٢ و٥٤:

(أ) الخطاب رقم ٥٣:

وهو خطاب مُرسل إلى المتوحدين بعنوان: [أثناسيوس "رئيس أساقفة" الإسكندرية إلى المتوحدين]، وهنا إشارة إلى أن استخدام اصطلاح رئيس أساقفة بدأ مبكّراً في مصر، كما أن الاسم الشائع للرهبان في ذلك العصر كان هو "المتوحدين".

تحديد زمان كتابة هذا الخطاب يتعلّق بالقصة التي سبق أن رويناها ـ وهي في كتاب حياة باخوم ـ عن وصول "أرتاميوس" الدوق مع الأسقف الأريوسي إلى دير بافو بحثاً عن أثناسيوس، وأن رئيس الدير أبلغهم أن "الأب أثناسيوس أرسل أمراً للرهبان أن لا يصلُّوا مع غرباء لهم شركة مع الأريوسيين".

إذن فوصول أرتاميوس الدوق إلى دير بافو **كان بعد أن وصلهم خطاب أثناسيوس وبه هذا الأمر** ـ أمَّا الدوق أرتاميوس فمعروف من التحقيق التاريخي أنه قام برحلة البحث عن أثناسيوس في سنة ٣٥٩ـ٣٦٠م، من واقع تسجيلات الجدول الفصحي.

وإليك مقتطف من الخطاب يثبت صحة ارتباط هذه القصة بزمن الخطاب:

[ولكن إذ يوجد أشخاص أريوسيون يجولون في الأديرة ليس لغرض إلاَّ أن يستغلوا زياراتهم لكم ثم يعودوا (من الأديرة) ليضلوا عقول البسطاء، كذلك فإنه يوجد آخرون بينما يؤكّدون أنهم لا يقيمون علاقة (إيمانية) مع أريوس، إلاَّ أنهم يعطون لأنفسهم حلاً وسطاً بأن يقيموا الصلاة مع هذه الجماعة. لذلك اضطررت تحت إلحاح إخوة أعزاء لأكتب لكم في الحال أن تحفظوا الأمانة المستقيمة بكل إخلاص وبلا أي غش التي يقيمها الرب بنعمته فيكم حتى لا تعطوا للإخوة أي فرصة للعثرة ... ونحن مرتبطون على وجه الخصوص بالإمتناع قطعياً من إقامة أي شركة مع أناس قد لعنَّا مبادئهم!](١١)

(10) Sozom., *Ecc. Hist.* V. 12.

(11) Athanas., *Letter 53.*

(ب) الخطاب رقم ٥٢: مكتوب ما بين ٣٥٨-٣٦٠م

[إلى الذين في كل مكان يعيشون الحياة الرهبانية المؤسسين في الإيمان بالله والمقدّسين في المسيح، الذين يقولون هوذا قد تركنا كل شيء وتبعناك، الإخوة المحبوبين والذين أشتاق إليهم: أهديهم تحيّاتي القلبية في الرب.]

خطاب يقول عنه العلماء إنه من أجمل خطاباته ومثير للقارئ، وهو وارد في مجموعة الآباء اللاتين(١٢):

[استجابة لسؤال محبتكم التي طالما ألحتم عليَّ، كتبت تقريراً مختصراً عن المعاناة التي جزتها بنفسي والتي جازتها الكنيسة، شاجباً بقدر استطاعتي الهرطقة الملعونة التي خرج بها أريوس المجنون، مبرهناً كيف أنها غريبة كلية عن الحق.]

وسنعود لهذا الخطاب أيضاً في الباب الأخير من هذا الكتاب.

(ج) الخطاب رقم ٥٤: "إلى سيرابيون بخصوص موت أريوس"

من هذا الخطاب يبدو أن سيرابيون كان اليد اليمنى لأثناسيوس بين جميع أساقفة مصر، ولكن لا يُعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ رسامته ولا تاريخ نياحته، ومن لغة الخطاب يتضح أنه أصغر سناً من أثناسيوس.

ويُلاحَظ أن اسم سيرابيون غير وارد في أساقفة مصر الذين حضروا مجمع صور سنة ٣٣٥م، ولكن اسمه وارد في قائمة الكهنة في نفس المدة! بينما نجد أسقفين لهما نفس الإمضاء سيرابيون عن مصر في مجمع سرديقا(؟) لذلك ليس من المستبعد أن يكون أثناسيوس قد رسمه على مدينة تمويس الهامة بين ٣٣٧-٣٣٩م.

ومعلوم أنه أُختير رئيساً للبعثة السلامية الخطيرة التي أرسلها أثناسيوس سنة ٣٥٣م لمقابلة قسطنطيوس في ميلان لتوضيح مجريات الأمور في مصر، ولكن البعثة عادت دون تأدية رسالتها.

ولسبب ما مجهول لدينا لا نجد اسمه مدوَّناً ضمن أسماء الأساقفة الذين واجهوا النفي سنة ٣٥٦-٣٥٧م. ولا بين أسماء الأساقفة المعتبرين "معترفين" في اجتماعهم بقيادة أثناسيوس سنة ٣٦٢م بالإسكندرية، ولكن من المسجَّل بكل تأكيد أن أثناسيوس ظل يراسل سيرابيون مدة نفيه الثالث

(12) Migne XXV. 691.

وكتب له عدة خطابات عقائدية على أعلى درجة من الأهمية سيأتي ذكرها.

ومعروف أيضاً أن سيرابيون كان صديقاً وسفيراً للقديس أنطونيوس وقد أمر تلميذيه عند موته أن يسلّما سيرابيون جلد الغنم الآخر الذي كان يلبسه بعد أن أوصى بإعطاء البابا أثناسيوس جلد الغنم والثوب اللذين كان يلبسهما.

والمعروف أيضاً أن سيرابيون ظل حيًّا يُسمع له حتى سنة ٣٦٨م(١٣).

والخطاب يقص خبر موت أريوس الذي أوردناه في حينه. وقد استقاه أثناسيوس من الكاهن مكاريوس الذي كان موفداً إلى القسطنطينية آنذاك، ورأى الحوادث وشارك فيها بينما كان أثناسيوس في تريف في المنفى.

ومن الأمور الهامة جدًّا في هذا الخطاب هو الغرض الذي من أجله كتب أثناسيوس هذا الخطاب. لأن ذلك له صلة أساسية بالكتاب المعروف باسم: "تاريخ الأريوسية".

ففي مقدِّمة الخطاب يقول أثناسيوس:

[قرأت رسائل قداستكم التي فيها ترجوني أن أعرِّفك عن الحوادث التي تجري حالياً في ما يخصني، كذلك تسألني عن أن أعطيك تفصيلات عن هذه الهرطقة المتناهية في الكُفر التي للأريوسيين التي من أجلها قد عانيت أنا هذه الآلام، كذلك تسألني عن الكيفية التي مات بها أريوس.]

وقد اقتصر أثناسيوس في الرد على ذكر موت أريوس فقط، أمَّا السؤالان الآخران فإنه كتب رسالة مطوَّلة إلى الرهبان بعثها إليه يشرح فيها الإجابة عن السؤالين الباقيين وسمَّاها: "**الرسالة إلى الرهبان**"، أو "**تاريخ الأريوسية إلى الرهبان**"، أو كما تُسمَّى حتى اليوم: "**إلى الرهبان**"، وهذه سيأتي الكلام عنها حالاً.

٧ ــ تاريخ الأريوسية أو الرسالة إلى الرهبان:

وهذا الكتاب يبدأ الرواية من أول قبول أريوس في الشركة في مجمع "التدشين" في أُورشليم (وهو الذي قام على أثر انفضاض مجمع صور سنة ٣٣٥م)، كما هو مذكور في (دفاع أثناسيوس ضد الأريوسيين ٨٤).

(13) *Leont. adv. fraud. Apoll.* in Galland XII. 701, cited by N.P.N.F. IV, Athanas. p. 364

وقد قصد منه القديس أثناسيوس أن يكون مكمِّلاً لكتابه في دفاعه ضد الأريوسيين الذي أصدره قبله مباشرة ليكون عملاً كاملاً ضد قسطنطيوس، ولو أنه يبدأ القصة قبل أن يدخل فيها قسطنطيوس كمناصر للأريوسيين، فيبدأها منذ أيام قسطنطين. وقد كتبه أثناسيوس وهو في مخابئه متنقِّلاً من مغارة إلى مغارة، جالساً القرفصاء، منكبًّا على صفحاته كالكاتب المصري الفرعوني القديم.

ولكن بلا أي جدال، فالكتاب يعكس حالة أثناسيوس النفسية وضيقه من نذالة مضطهديه جميعاً، إمبراطوراً وخصياناً وأساقفة يحركهم جنونهم ضد الحق، فخرجت بعض العبارات شديدة المرارة، أخذها عليه رجال التاريخ. ولكن مهلاً ـ فالذي يكتب في المنفى، وهو مطارَد للموت، مهاناً مذلولاً بعيداً عن مأوى يرتاح إليه، ليس كمن يكتب وهو يحيط به الأمان والسلام ووسائل الراحة كيفما شاء!

أمَّا زمن الكتابة فيمكن تحديده بآخر فصوله حيث يذكر سقوط ليبريوس فهو لا يتعدَّى سنة ٣٥٧م، ولكنه بدأه مباشرة بعد أن انتهى من دفاعه عن هروبه.

والكتاب يقدح ناراً ضد قسطنطيوس، ولا يمكن لأي إنسان يقرأه إلاَّ ويدرك مدى عظم المؤامرة وخطورتها هذه التي يدبِّرها أساقفة اجتمعوا معاً ضد الإيمان، وضد الأسقف الذي يحمي هذا الإيمان، وضد البلد التي تناصر أسقفها وذلك في مصوغ من القانون الكنسي وبمجامع هذا عددها، ثم يختم عليها إمبراطور الدنيا آنئذ وينفِّذها عشرة كونتات بكل لوازمهم من ولاة ومفتِّشي بوليس وقضاة وجيوش!!

فلا تلوموا أثناسيوس إن كان قد خرج عن وقاره مرَّات كثيرة، إنما ليس في مهاترات بل في حبك بلاغي مدعَّم بالآيات، فيصف الإمبراطور بأشنع الأوصاف، يصفه بعبد خصيانه، عديم الإنسانية حتى بالمقربين إليه، رجل مزيَّف الشخصية، غشاش في معاملاته، أقسى من بيلاطس في حكمه على البريء، رأشنع من أخآب في مناصرته للأنبياء الكذبة، وأعتى من فرعون في إذلاله لشعب إسرائيل، جاهل بالكتاب المقدَّس، نصير الهراطقة الذين خرجوا عن مقررات مجمع نيقية، عدو المسيح لمهاجمته للإيمان الصحيح. ولكن ما ذنب أثناسيوس في أن ينطق بهذا السب المنطقي واللعن الشريف وهو يرى بعينيه انحدار لا الإيمان فحسب بل كل القيم والمعايير الأخلاقية، فالخصيان يحكمون القصر ويسيطرون على مجامع الأساقفة!! وانقلبت موازين العدالة الرومانية تحت يد العبيد وزيف القضاء الروماني، وباتت مصائر الشعوب تلعب بها المجانين، بل والأخلاق والسلام

والتمدين، صار الكل في خطر وليس الدين فحسب!!

إن أثناسيوس في هجومه العنيف ضد الإمبراطور كان يمثل تماماً ثورة ناضجة لشعب أعوزته الحيلة في تقرير مصيره من جهة الإيمان والحرية الدينية، فقام يذود لا عن مصر بل عن كرامة المدنية الرومانية والأخلاق والعدالة أينما وُجِدَت!!

وظلَّ هذا الأسقف المصري الأعزل يزأر بالنقمة على ثلثمائة من الأساقفة المتلاعبين بالإمبراطور، الذين يمثلون أدنأ حركة من حركات البورجوازية رآها العالم منذ أن خلق العالم.

وصدِّقني أيها القارئ العزيز إن هجوم أثناسيوس هذا، الضعيف في ذاته، على الإمبراطور المرعب الذي يسوس العالم الروماني بأسره، كان يساوي في حجمه ثورة مسلحة استطاعت تماماً أن تهد كيانه وتلغي هيبته من قلوب رعيته في كل أنحاء الدنيا، بل تهد كيان ثلثمائة من الأريوسيين بين رئيس أساقفة وأسقف، وألوف من الكهنة من كل أقطار العالم شرقاً وغرباً.

فقد تُرجمت دفاعات أثناسيوس من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، فتداولها العالم سريعاً من أقصاه إلى أقصاه! ... وما أن بزغ فجر سنة ٣٦٢م إلاَّ والأريوسية تعاني التصدُّع الذي انتهى بها أخيراً إلى الاضمحلال إثر ضربات أثناسيوس المتقنة التي كالها لهم جميعاً وبمفرده، والتي لم يعتمد فيها على ذراع إنسان واحد، بل كان يستمد قوته من الكتب المقدَّسة وتقليد آبائه ومجمع نيقية وثقة الشعب به!! إنها نعمة الله التي تتسيطر على مصير العالم وحضارات الشعوب، وهي التي أقامت أثناسيوس في زمانه الحسن لتهد به كيان قوى الشر التي تحالفت آنئذ معاً، والتي دائماً أبداً وفي كل العصور تجد أقوى تحالف لها بين سلطة رجال الدين الطامحين الأغبياء وسلطة الحكام المستبدين الضعفاء.

أمَّا هذه المواقف التاريخية التي وقفها أثناسيوس ضد الإمبراطور في كتابه هذا فتسجَّلت تحت الفصول (٩ و٣٠ و٣٤ و٤٠ و٤٦ و٥١ و٥٣ و٦٧ـ٧٠ و٧٤ و٨٠).

أمَّا الوجه الآخر المملوء جمالاً ودعة وسلاماً فلا نعدمه في فصول كثيرة أيضاً من هذا الكتاب، خاصة في استقبال أثناسيوس في عودته من المنفى الثاني واستقبال الشعب الرائع له، وما لازمه من تأثير أخلاقي وحماس روحي في أوساط الشعب!! (فصل ٢٥) وتوعية الشعب والأساقفة والحكام سواء بسواء بأن الاضطهاد في جوهره ــ مهما كان ــ هو غريب عن الإنسانية الشريفة وعن روح الكنيسة (فصول ٢٩ و٣٣ و٦٧).

ثم الانعطاف الواعي الأخلاقي والاجتماعي النيِّر نحو مناصرة الفقراء وخدمتهم بروح التعاطف، والتركيز على هذا السلوك باعتباره لازمة من لوازم الغريزة الإنسانية الشريفة (فصل ٦٣).

وتسجيل المحاورة الجريئة الشجاعة العارية من كل خوف أو جبن أو رياء التي دارت بين أسقف روما أو أسقف قرطبة والإمبراطور المتحكِّم المتسلِّط في شئون ليست له، والتي تُحسب أنها نموذج من أروع النماذج لما ينبغي أن تكون عليه المواجهة لا بالنسبة للأسقف فقط تجاه إمبراطور، بل نموذج لكل محكوم في مواجهة حاكمه في ما يختص بحد الاختصاص لكل منهما فلا يتعدَّاه الواحد نحو الآخر!!

هوسيوس أسقف قرطبة للإمبراطور:

[فإن أردت أن تضطهدني (أسقف قرطبة عمره ١٠٠ سنة) فأنا على أتم الاستعداد لاحتمال كل شيء دون أن أريق دماً بريئاً (الحكم على أثناسيوس بالنفي اعتبره بمثابة قتل) أو أخون الحق! وأنا لا أوافق على سلوكك بالكتابة لي بالتهديد وبهذه اللهجة، فأوقف كتابتك بالتهديد لي! ... إن الله وضع في يدك المملكة أمَّا نحن فقد أُتمنَّا على القيام بمهام شئون الكنيسة، فكما أن الذي يحاول أن يسرق المملكة من بين يديك يُحسب مقاوماً لتدبير الله، هكذا بالمثل يلزم أن تخشى أيضاً مثل هذا التعدي، لأن بأخذك أحكام وقضايا الكنيسة لنفسك تصير متهماً بذنب عظيم، فإنه مكتوب: «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فكما أنه غير مسموح لنا أن نمارس قوانين الدولة كذلك أنت يا سيِّدي لا تملك السلطان أن تحرق البخور.] (فصل ٤٥)، (كذلك أيضاً الفصول ٣٤ وما بعدها، فصل ٧٦).

ولا يعدم أثناسيوس التماس العذر حتى لمن خانوه وخانوا الحق ووقَّعوا على الوثيقة ضد الإيمان وضد أثناسيوس برقة وحياء وأدب (فصل ٤١و٤٥). ويمعن أثناسيوس في وصف روعة اتحاد النفوس في أُلفة الحق الواحد ومرارة ابتعاد النفوس (بالنفي) التي تعاهدت بالحب في ظل الإيمان المستقيم (فصل ٤٠)، ثم عزاء الله ومناصرته لخدَّامه الذين أُجبروا على البقاء في النفي مبتعدين (٤٧).

كما يصف أثناسيوس بإحساسه الميتافيزيقي تقابل الأرواح معاً في السماء، بعد أن تكون قد عانت وعبرت الضيقة العظمى في الدفاع عن الحق، وكأنهم بلغوا معاً شاطئ السلام ودخلوا الفرحة العظمى بعد رحلة نوء في بحر العالم المضطرب (٧٩).

هكذا يجول أثناسيوس في كتابه هذا بالقارئ عبر الزمان الذي جازه منذ شبابه حتى كهول أيامه

فوق قمم جبال التاريخ من خلال عواصف ورعود وبروق ورخّات من مطر عنيف، ثم إلى صبح بهيج وأشجار وأثمار وشعب يجلس آمناً يفرِّح أطفاله بأعياده ...

وأخيراً بالنسبة لهذا الكتاب وحسب رأي أحكم العلماء، فإنه لم يأتِ فيه شيء قط في غير موضعه أو مجافياً للحق.

غريغوريوس النزينزي يصف كتابات الأريوسيين – في المقابل – بلهجة لاذعة:

[طُعم محلّى للبسطاء يخفي شص التجديف!
وجه جذّاب يتلفت يميناً ويساراً ليوقع بالعابرين!
حذاء لائق لكل قدم!
بذور تُبذر في كل ريح!
كتابات اكتسبت قوتها من دناءتها وتحايلها ضد الحق،
كانوا حكماء في صنع الشر، ولكن في الصالح لم يكن لهم معرفة أو نصيب.](١٤)

وأخيراً وبعد أن طرحنا نظرتنا على كتاب "تاريخ الأريوسية" لأثناسيوس، وصار القارئ في شوق لمزيد من النصوص، نقول إننا أوردنا - تقريباً - إن لم يكن كل نصوصه فأهمها على مدى صفحات هذا الكتاب كله، لأنها كانت المورد العذب لجميع الوثائق التي سجَّلناها على مدى صفحات كتابنا هذا، ولكن وفي الباب الأخير من كتابنا سوف نعود لنلقي نظرة مختصرة على مجمل المبادئ اللاهوتية التي وردت في تاريخ الأريوسية.

والآن لا يزال أمامنا ثلاثة "أعمال كبرى" لأثناسيوس أكملها في منفاه الثالث ذي الست سنوات الطويلة:

الأول: بعنوان **"أربع مقالات ضد الأريوسيين"**.

الثاني: خمسة خطابات عقائدية أرسلها أثناسيوس لسيرابيون أسقف تمي.

الثالث: وهو أكثرهم أهمية، وجاء بعنوان **"على المجامع"**، لأنه كُتب سنة ٣٥٩م، وكان يحمل عرضاً سلامياً لجذب المعتدلين من الأريوسيين، والذي كان له استجابة قوية على مدى العالم كله،

(14) Greg. Naz., *Orat. 21* ch. 22.

أعادت الأسقف إلوسيوس وبعض رفقائه في "**الأقاليم العشرة**"(١٥) إلى شركة أثناسيوس!!

٨ - كتاب "أربع مقالات ضد الأريوسيين":

وقد توفر أثناسيوس على تأليفها على مدى حوالي أربع سنوات أو يزيد ٣٥٦-٣٦٠م، كان يشعر أثناسيوس دائماً بضرورة وضع كل اعتراضاته وجحده لهرطقة أريوس في منهج واحد منسَّق يضمه كتاب يمكن تداوله، وهذا ما استطاع أن ينجزه أثناء نفيه الثالث المثمر.

وقد صار هذا العمل مُلحًّا خاصة بعد مجمع "سيرميم التجديفي" سنة ٣٥٧م. بعد أن دخل الشرق المتحفِّظ في صراع ونقاش حاد بين ما استلمه من مقررات مجمع نيقية، وما استجد على أيدي هؤلاء الأريوسيين المقاومين بكل عنف لأهم ما جاء في مقررات مجمع نيقية.

والآن رأى أثناسيوس أنه قد حان الوقت ليضرب ضربته القاضية، فيضع هذه المبادرة الأريوسية بكل دقائقها وتفاصيلها الإيمانية، أو قُل الكفرية، أمام مقررات مجمع نيقية وجهاً لوجه في كتاب واحد يقارن هذه بتلك!! ليكون في متناول يدي كل باحث عن الحق.

وقد كان من دواعي فاعلية هذا الكتاب ظهور فئة من الأريوسيين المتشكِّكين والقلقين الراغبين في العودة من هذه المجازفة، وهم فئة أنصاف الأريوسيين، بزعامة **باسيليوس أسقف أنقرة** الذي كانت تشير الأحداث إلى اقترابه شيئاً فشيئاً من صف أثناسيوس. وهذا ما حدا بأثناسيوس أن يخاطبهم بلغتهم - بطريق غير مباشر - حتى يسهل جذبهم إلى صفه.

لذلك يتعمَّد أثناسيوس أن لا يركز على كلمة الأوموؤوسيون ὁμοούσιον التي تعثَّر فيها باسيليوس أسقف أنقرة مع النصف أريوسيين، فهي تغيب تقريباً في جميع المقالات الثلاثة الأُولى إلاَّ مرَّة واحدة في المقالة الأُولى فصل ٣:٩، ١٢ (باستثناء المقالة الرابعة)، ولكن لا يُحسب هذا على أثناسيوس كأنه يتراجع عن كلمة المحك الأساسية في الإيمان الأرثوذكسي: (أوموؤوسيون) "**مساوٍ للآب في الجوهر**"، ولكن يحاول أن يشرح نفس الكلمة وإنما بمفردات أخرى أوضح وأعم.

وقد نجح في هذا بالفعل في استمالة الفريق المحافظ من أساقفة الشرق وفصلهم عن الأريوسيين المتطرِّفين أمثال فالنس وأفدوكيوس، وكانت هذه هي أول ضربة ظهرت في ما بعد أنها كانت القاضية على تماسُك الصف الأريوسي، ولكن بعد أن أخذت مسارها بحذر على مر بضع سنين.

(15) Hilary of Poitiers, *On the Counils* 63.

ويستمر أثناسيوس بحذق ومهارة يتلقَّط أخبار الأريوسيين في الخارج ويطرح مبادئهم واحداً بعد الآخر، وكل النقاط التي تجري عليها المشاحنات، والجدل خاصة من المشمئزين من التطرُّف، ويشجبها بقوة موضِّحاً تعارضها الصارخ مع الأسفار المقدَّسة.

وكان أثناسيوس دون أن يدري يضع هذه المساجلات التاريخية التي ملأت القرن الرابع كله في ما يختص بأقوى وأخطر نزاع عقائدي ظهر في تاريخ المسيحية، ويقدِّمها في صورة قضية مسلَّم بها ومقطوع فيها بالحق، إلى كل عصور الكنيسة القادمة، لتكون نوراً يهدي أقدام المسيرة الإيمانية حتى مدى الدهور.

وكما يقول العالِم مونفاكون Montfaucon "قد صارت هذه المقالات الأربع بمثابة المصادر التي ظل يستخرج منها كل الذين كتبوا عن لاهوت الفادي بعد ذلك براهين دفاعهم."(١٦)

والقارئ المنصف لهذه المقالات الأربع ليذهل من غزارة الاستشهادات بالكتاب المقدَّس وكثافة الحجج التي يحيط بها أثناسيوس حول كل مبدأ أريوسي مختلَف عليه حتى يخنقه بين يدي القارئ!!

ثم لا يمكن أن يصدِّق أحد أن إنساناً بمفرده وفي موقف أثناسيوس المطارَد يستطيع أن يغطِّي هذا النزاع العقائدي بدقائقه الكثيرة جدًّا بهذه التغطية التي شملت كل الوسائل الممكنة المعروفة اليوم لدى كل اللاهوتيين معاً!!

ويسترعي انتباه العلاَّمة برايت(١٧) مقدار الغنى والملء والسهولة في استخدام أثناسيوس للأسفار المقدَّسة لإثبات لاهوت "الكلمة"، وقدرته المتزنة على التقاط الحقائق والإمساك بها، وخاصة ما يتعلَّق بالبنوَّة الحقيقية الإلهية لله التي وردت في المقالات (١:١٥، ٢:٢-٥و٢٢و٢٣و٧٣، ٣:٦٢).

كذلك يسترعي انتباه هذا اللاهوتي، الحذق الذي أبداه أثناسيوس في النفاذ إلى اعتراضات الأريوسيين وقدرته على تحليلها وتفنيدها كما ورد في (١:١٤و٢٧و٢٩، ٢:٢٦، ٣:٧٩).

وكيف استطاع أثناسيوس في هذه المقالات أن يفنِّد كل اتهامات الأريوسيين ويعرِّيها من ادعاءاتها ثم كيف - وبحذق مذهل - يقارن أثناسيوس بين إقرارات الأريوسيين ويضع القديم فيها بجوار المستجد ويظهر المفارقة ويضرب الاثنين بعضهما بالبعض فيلغي قوة الواحد بالآخر، كما

(16) D.C.B., p. 195, N.P.N.F. IV, Athan., p. 503.
(17) Bright., Introd., p. Lxviii, cited by N.P.N.F. IV p. 303.

يضع المبادئ المجترئة بجوار المبادئ الحذرة ليسخر من هذا بذاك،
يكشف مراوغاتهم كما خطَّطوا لها تماماً وكأنه كان بينهم!
يتعقَّب منطقهم المخادع حتى ينتهي إلى ما وصلوا إليه من نتائج!!
حتى [في النهاية أظهر بدون أي التباس أن الأريوسية عقيدة متناقضة وقحة غير جديرة بالاحترام!].

وفي تقديمه هذه المقالات الأربع في مجموعة الآباء، يقول روبرتسون:

[فوق كل شيء نحن نرى في هذه المقالات امتداداً لما يبهرنا في كل ما كتبه أثناسيوس من بداية *"تجسُّد الكلمة"* حتى آخر ما كتب؛ ألا وهو تمسُّكه الشديد بعقيدة الخلاص التي كانت مطروحة للسؤال في ذلك العصر وارتباطها الحيوي بحقيقة الفداء والنعمة، كذلك معرفة الله كحقيقة موهوبة للإنسان الخاطئ في المسيح، وذلك في المقالات (٢:٦٩و٧٠، ١:٣٥و٤٩، ٢:٦٧ إلخ)

فاللاهوت والمسيحية حقيقة متجذِّرة في فكرة الفداء!:

فدعوتنا للاتحاد بالله وقبولنا التبني كأولاد لله لا يمكن اكتمالها إذا لم يكن المسيح في استطاعته أن يمنحنا **"ما هو له خاصة"** ليعطيه!! فصل (١:١٢و١٦ إلخ)، كما يتعجَّب برايت أيضاً من الردود المبكِّرة لبدعة بولس السموساطي (١:٢٨، ٢:١٣)، ولبدعة مقدونيوس (١:٤٨، ٣:٢٤)، وبدعة نسطور (٢:٨ هامش ٣) وكثرة استخدام أثناسيوس كلمة الثيئوتوكس كصفة للعذراء القديسة مريم (٣:١٤و٢٩ وما بعدها)، ورده على بدعة أوطاخي (٢:١٠ هامش ٦)، وتشديده المستميت على أن العبادة هي الامتياز الوحيد لله (أي أنه طالما نؤمن بعبادة المسيح فالمسيح إله)، (٢:٢٣، ٣:٣٢) **(فنحن لا نبتهل أو نتضرع إلى مخلوق).**

وأثناسيوس يتمسَّك بالإدراك الإيماني أن المسيح بلا خطية (٣:٣٣) وأخيراً يتمسَّك أثناسيوس في بحث متزن حذر بامتلاك المسيح لكل معرفة بشرية مثلنا (٣:٤٢ إلخ).][(١٨)]

ولقد قام كثير من العلماء بفحص وتحليل هذه المقالات الأربع على أعلى مستوى من التدقيق العلمي أمثال الأسقف كاييه Kaye في كتابه عن "مجمع نيقية ـ المجلَّد الخامس".

كذلك قام بتحليلها العالِم سيليه Ceillier في المجلَّد الخامس وكذلك دورنر في كتابه عن

(18) N.P.N.F. IV pp. 303, 304.

"العقائد الخاصة بالمسيح ـ الجزء الأول".

أمَّا الكاردينال نيومان فهو الذي قام بالترجمة ووضع العناوين للفصول، وذيَّل الترجمة بملاحظات ثمينة للغاية كما يقول روبرتسون، وتُعتبر بحد ذاتها ركناً فنياً على أعلى مستوى من الاستفاضة والدقة.

وسوف نرجيء تقديم نماذج هذه المقالات إلى الباب الأخير راجين أن نقوم بترجمة هذه المقالات وإصدارها كملحق لهذا الكتاب نظراً لأهميتها اللاهوتية.

٩ ـ خمس رسائل عقائدية لسيرابيون أسقف تمي:

أمَّا الخطاب الثاني منها فهو يختص بالدفاع ضد الأريوسيين، وقد جاء ذكره، أمَّا الثلاثة خطابات الباقية فهي عن الروح القدس:

في البداية يلزم لدارس التاريخ أن ينظر إلى الأمور المحيطة القريبة والبعيدة التي تدفع الحوادث خفية فتبدو وكأنها تحدث بلا سبب، في حين أن كل حركة في الكنيسة خاصة في هذه الحقبة الزمنية كانت تتحكَّم فيها عوامل عديدة:

مقدونيوس أسقف القسطنطينية وتعاليمه عن الروح القدس:

لم يذكر كلٌّ من سيرابيون أسقف تمي في أسئلته التي بعث بها لأثناسيوس، ولا أثناسيوس ذكر في إجابته على مدى الثلاث رسائل أي إشارة إلى مقدونيوس.

ولكن شكوى سيرابيون كانت من أنه قد انتشر بسرعة تعليمٌ ضد الروح القدس يقول إنه مخلوق ولكن أعلى من رتبة الملائكة. وأثناسيوس يرد في منفاه من على بُعد، غير فاحص عن المثيرين لهذه التعاليم ومتغاضياً عن أسمائهم لأنه كان يرجو عودتهم، لأن مقدونيوس كان من جماعة النصف أريوسيين مع كل من باسيليوس أسقف أنقرة وكيرلس أسقف أُورشليم، وهؤلاء كان يخاطبهم أثناسيوس بكل ود لعلهم يعودون إلى الأرثوذكسية.

غير أن مقدونيوس بسبب خلافه مع الأريوسيين المتطرِّفين بزعامة أكاكيوس أُنزل عن كرسيه في القسطنطينية، في مجمع القسطنطينية نفسها، وبتحريض من الإمبراطور قسطنطيوس ـ بسبب نقله رفات والده قسطنطين من كنيسة إلى كنيسة أخرى ـ مما اعتبره الشعب تعدياً على التقاليد. ولأن الإمبراطور قسطنطين كان مشاركاً لمجمع نيقية كبقية الأساقفة، فاعتبروا ذلك أيضاً تحدياً لمجمع نيقية، وكانت مذبحة داخل الكنيسة، هذا بالإضافة أنه تسبَّب في قتل مجموعة كبيرة من قوة الحرس الإمبراطوري

بسبب عدم سياسته الحكيمة التي هيَّجت الشعب ضد الحرس عندما استخدم القوة ضد الشعب(١٩).

وعندما أُقيل مقدونيوس سنة ٣٦٠م بدأ يثير القلاقل وينشر تعليمه عن الروح القدس باعتباره خادماً كبقية الملائكة، وهذا كان في الحقيقة هو نفس تعاليم الأريوسيين ولكنه تبنّاها هو مركّزاً على شخص الروح القدس: [إن الممثل الرئيسي لتعاليم الأريوسيين بالنسبة للروح القدس هو مقدونيوس.](٢٠)

هذا هو في الحقيقة السر وراء كتابة أثناسيوس ثلاث رسائل عن الروح القدس يدحض فيها "بدعة أريوس المقدونية" كونه خادماً مخلوقاً كبقية الملائكة. ويُلاحَظ أن بداية تعاليم مقدونيوس بدأت رسمياً في سنة ٣٦٠م، ولكنها كانت قد انتشرت قبل ذلك التاريخ بواسطة الأريوسيين.

كما يُلاحَظ أن أثناسيوس بمجرَّد عودته من المنفى أقام مجمعاً في الإسكندرية سنة ٣٦٢م، وطرح فيه قضية التجديف على الروح القدس موضِّحاً صلتها بالأريوسية، باعتبار أن أصل هذا التجديف منشأه الأريوسية نفسها، هكذا:

> [لأن هؤلاء الذين يدَّعون أنهم يعترفون بإيمان مجمع نيقية ويتجرَّأون على التجديف على الروح القدس، فإنهم بينما يدَّعون إنكارهم لهرطقة الأريوسيين يكونون قد احتفظوا بهذه الهرطقة في أفكارهم.](٢١)

خطابات أثناسيوس عن الروح القدس:

يوضِّح فيها النقاط الآتية:

أن علاقة الابن بالآب توضَّحت ضمن قانون مجمع نيقية، أمَّا علاقة الروح القدس بالابن فهي قائمة بوضوح في الأسفار المقدَّسة، هاتان هما المقدّمتان المنطقيتان اللتان بنى عليهما أثناسيوس دفاعه عن ألوهية الروح القدس، معتبراً أن التساوي في الجوهر "الهوموؤوسيا" بالنسبة للروح القدس أيضاً هو نتيجة حتمية.

فالروح القدس هو روح الابن وله نفس الاتحاد والوحدة معه كما للابن مع الآب، فإذا كان الابن غير مخلوق يصبح من المستحيل أن يكون الروح القدس مخلوقاً.

---

(19) Sozom., *Early Hist. of Ch. Doctrine.*, Beth. Bak., pp. 212 f.

(20) *Early Hist. of Ch. Doctine*, Beth. Bak., pp. 212, 213.

(21) Idem.

وبما أنه مستحيل أن نفصل الروح القدس عن الابن، لذلك يكون اعتبارهم الروح القدس مخلوقاً بمثابة إدخال طبيعة غريبة على الثالوث، وبهذا يهدمون عقيدة الثالوث المتحد.

وخطأهم بخصوص الروح القدس هو نابع من خطأهم بالنسبة للابن، وهذا بالتالي يُنشئ خطأً تجاه الآب (١:٢، ١:٩و٢١).

"فالثالوث الله واحد" (١:١٧) غير منقسم بل منسجم ومتحد.

وإن الحياة وكل المواهب التي يمنحها الروح القدس تجعله غير مخلوق بل إلهاً (١:٢٢و٢٣).

ولا يوجد أي سند في كل الأسفار المقدَّسة يشير - بأي طريقة - أنه ملاك (١:١٠- ١٤).

والروح القدس ليس ابناً، ولكنه "**منبثق**" من الآب (١:١٦)، فالآب يُسمَّى **دائماً** آب، والابن هو **دائماً** ابن، والروح القدس يُدعى **دائماً** الروح القدس (٤:٦).

فحينما نستقبل الحياة من **الروح القدس، فالمسيح** نفسه يسكن فينا، والأعمال التي يعملها فينا هي أيضاً أعمال **الآب!!** (١:١٩).

وكل الأشياء التي للآب هي أيضاً للابن، لذلك فالأمور التي يهبها الابن في الروح القدس هي عطايا الآب، **وهي معطاة من الآب بالابن في الروح القدس** (١:٣٠). (يُلاحَظ أن هذه هي العبارة التقليدية المميِّزة للذكصا الأخيرة لكنيسة الإسكندرية منذ بداية المسيحية!!)، والكل يأتي من الله الواحد (٣:٥).

والروح القدس هو صورة الابن، وقيل في الكتاب إنه ينبثق من الآب، لأنه يُشرق ويُرسَل ويُعطَى بواسطة اللوغس (الكلمة) الذي هو من الآب (١:٢٠)، فالروح القدس ليس غريباً عن الله (١:٢٥).

وقد قيل إنه في الله نفسه ومن الله نفسه.

فلأن الابن من الآب، لذلك فهو مساوٍ له في الجوهر. لذلك يكون بالتالي الروح القدس هو مساوٍ للآب في الجوهر ...، وهو من ذات لاهوت الآب، وفيه يكمل الثالوث (١:٢٥).

هذا هو التقليد القديم وتعاليم وإيمان الكنيسة الجامعة المسلَّمة من الرب: «عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت ٢٨:١٩)

١٠ ـ كتاب المجامع De Synodis كتبه في نهاية سنة ٣٥٩م:

ويعتبر هذا الكتاب آخر وأهم كتاب في مجموعة الكتابات التي كُتبت أثناء النفي الثالث في اعتبار العلماء، إذ يُحسب أنه مبادرة سلامية من أثناسيوس للجماعة الذين يسمُّون بأصحاب عقيدة (التشابه) "هومويون" وليس التساوي، أي ليس هوموؤوسيون: ὁμοούσιον بل أومويون ὅμοιον ومبادرة أثناسيوس تجيء متقاربة لكتاب هيلاري أسقف بواتييه عن "المصالحة"، وهيلاري كان حاضراً في مجمع سلوقيا في جانب الأغلبية، وقد أحدث كتابه الإيرينيكون Eirenicon المسمَّى أيضاً De Synodis أثراً سريعاً وخاصة لدى باسيليوس الصغير (أسقف أنقرة) الذي أردفه بخطابات مماثلة.

وهذا الكتاب (الإيرينيكون) المسمَّى أيضاً De Synodis ألَّفه هيلاريون أسقف بواتييه (رُسم سنة ٣٥٣م) أثناء وجوده في المنفى من سنة ٣٥٦م ـ سنة ٣٥٩م في فريجيا بآسيا الصغرى على أثر رفضه التوقيع على مجمع ميلان، وقطعه لشركة أورساكيوس وفالنس، ولم يكُفْ هذا اللاهوتي التقليدي البارع عن شرح كل الاصطلاحات الواردة في قانون مجمع نيقية والتي كانت غامضة على الأساقفة، بكل ما أُوتي من قوة حتى كسب في الغرب (فرنسا) كل الذين أضرَّ بهم التذبذب الإيماني الحادث في البلاد بسبب الأريوسية. ويكاد هيلاري أن يكون هو العامل الأساسي في فرنسا لإضعاف شوكة الأريوسيين وإنقاص عددهم إلى قلة غير مذكورة، وظل هذا الأرثوذكسي الصميم يجاهد حتى تنيَّح سنة ٣٦٠م قبل أن يرى رجعة العالم كله إلى حظيرة الإيمان المستقيم(٢٢).

ولكن مما لا شك فيه أن "الأثر الكلِّي" في عملية المصالحة التي بدأها هيلاريون وامتد بها باسيليوس الصغير، كان ما أحدثته خطابات ورسائل واحتجاجات أثناسيوس على الجماعة الأرثوذكسية الجديدة التي أعادت "عشرة أقاليم" إلى حظيرة "معرفة الله الحقيقية."(٢٣)

والكتاب تمَّت كتابته في أول أكتوبر سنة ٣٥٩م ما عدا الفصلين ٣٠و٣١ اللذين أُضيفا بعد موت قسطنطيوس، ويذكر أثناسيوس في الفصل ٥٥ أنه إنما يسجِّل الآن ما قد وصله للتو بعد أن كان قد أنهى كتابته، وهكذا بدأ يضيف أحدث ما يصله حتى يستكمل كتابة كل ما حدث في هذه المجامع، ولكن فاته ما تمَّ في ١٠ أكتوبر من هذه السنة ـ بعد أن ختم على رسالته "المجامع"

(22) - J.G. Gazenove (Hilarius Pictav.)
- *D.C.B.*, Under "Hilary of Poit."
- *Early Hist. of Christ. Doctrine.*, p. 180.

(23) Hilar., *De Synod.* 63.

ونشرها، وكيف استسلم كل المندوبين الذين حضروا المجمع سواء في نيقيا بأريمينم أو سلوقيا ووقّعوا بإمضاءاتهم ما عدا قلة صغيرة ذهبت إلى المنفى، هذه هي الكارثة التي انتهى بها المجمعان.

فقد كان الهوميان، وهم الوسط الملتزمون بالتشابه: ὁμοίον، في غاية القلق والكآبة من نمو خطر جماعة الرافضين كلية لوحدة الجوهر ὁμοούσιον، الذين سموا أنفسهم الأنوميان anomaean أي الرافضين لمجرَّد التشابه بين الآب والابن، ولم يكن أثناسيوس يعلم وهو يكتب كتابه آنئذاك أن التشابهيين = الهوميان Homaean قد انفصلوا عن النصف أريوسيين، الرافضين أو الأنوميان Anomaean، وقد تقرَّب بالفعل النصف أريوسيون من الإمبراطور، وابتدأ الإمبراطور يعطيهم في البداية أذناً صاغية ـ ضد الأريوسيين المتطرِّفين ـ ولكنه عدل بعد ذلك في آخر سنتين من حياته، وكانوا في غاية الشوق إلى تقرير عقائدي سليم عند ذهابهم إلى أريمينم ونيس أو نيقا بتراقيا، وكانت هذه في اعتبارهم آخر محاولة لهم في هذا المجمع، ولكن لمَّا أخفقوا في تحقيق آمالهم، ولمَّا رفضهم الإمبراطور بل وأهانهم، كانت الضربة محزنة ومشينة لنفوسهم جدًّا، ولكنها كانت البداية التي فتحت طريقاً للنهاية، وصار هذا الإخفاق عينه هو العامل الأول لسقوط الأريوسية في النهاية كقوة في الكنيسة.

ويحدِّثنا الكاردينال نيومان Newman **عن ذلك:** إن السبب في إخفاق النصف أريوسيين في توحيد صفوفهم في هذا المجمع لإملاء مبادئهم هي الدسائس والمكايد التي كان يحبكها **أورساكيوس وفالنس**(٢٤) في الغرب من جهة، ومن جهة أخرى إفدوكيوس وأكاكيوس في الشرق!!

والعجيب أن الإمبراطور اختار أولاً مدينة نيقية Nicaea القديمة لكي يقف المجمع في التاريخ

---

(٢٤) أورساكيوس وفالنس:

يأتي ذكرهما كثيراً كزعماء حركة الأريوسية في الغرب، وهي الحركة التي سميت بالأريوسية المتطرِّفة وباللاشبهية **Ultra Anomoeans** يقابلها في الشرق أكاكيوس الذي تزعَّم حركة الهوميان أيضاً، وهما كانا تلميذين لأريوس أثناء نفيه في الليريكوم (ألبانيا الآن) وهما اللذان تزعَّما اتهام أثناسيوس في بعثة مريوط، وكذلك هما اللذان تزعَّما حركة اتهام أثناسيوس في مجمع ميلان سنة ٣٤٧م، وقد تزعما حركة الهوميان في الغرب، أي أصحاب عقيدة "التشابه" عوض "التساوي" في الجوهر وذلك للتضليل، وقد كانا سريعا الحركة، فقد قادا الحركة السلبية في مجمع أريمينم وبمجرَّد انفضاضه أسرعا للانضمام في مجمع نيقا (نيس).

أمَّا فالنس فكان أصلاً أسقف مورسا في بانونيا ومات سنة ٣٧٥م.

أمَّا أورساكيوس فكان أسقف سنجيدونم (بلغراد). وكانا هذان الاثنان هما قلب الأريوسية من بعد أريوس.

N.P.N.F. IV. p. LIV, *Early Hist. of Chr. Doctrine* Beth. Bak. p. 179.

شبيهاً بمجمع نيقية الكبير، ولكن تحمَّس باسيليوس (الصغير) واقترح على الإمبراطور أن يكون مكان الاجتماع في "**نيقوميديا**" - تيمُّناً بالمقطع الأول من الكلمة نيقية - وذهب الأساقفة فعلاً إلى هناك، ولكن الأمر المذهل أنه قبل أن يتم اجتماعهم حدث زلزال مروِّع هدم المدينة وخرَّبها في ٢٨ أغسطس سنة ٣٥٨م(٢٥)، فرجعوا مرَّة أخرى ونقلوا اجتماعهم إلى نيقية!! ولكنهم عدلوا عنها أيضاً وذهبوا إلى **سلوقيا** وتجمَّعوا فيها في بلدة تسمَّى أسبيرا Aspera وهي مدينة في إيشوريا.

وقد خطَّط (الهومويان) - أي أصحاب عقيدة التشابه - بحذق وقسَّموا المجمع إلى مجمعين حتى يضعفوا النصف أريوسيين، قسم غربي يجتمع في أريمينم ونصف شرقي يجتمع في **سلوقيا** بكيليكيا، و لم يكن اختيارهم لسلوقيا إلاَّ لعلمهم أن هناك قوة جيش كبيرة سوف تسندهم في مخادعاتهم وإرغامهم الأساقفة للتوقيع بالقوة والإرهاب.

كما اجتمع في سيرميم جماعة النصف الأريوسيين مع جماعة الهومويان (أصحاب عقيدة التشابه) الذين قرَّروا "**نصوص مجمع سيرميم الثالث**" بحضور الإمبراطور قسطنطيوس، وهو الذي قدَّموه إلى مجمع إريمينم، هذا المجمع سمُّوه "المجمع التاريخي Dated" لأنه أصدر نتائجه في عشية عيد حلول الروح القدس، وكان نص العقيدة هكذا: "مشابه في كل شيء ὁμοίον κατὰ πάντα"، وكان هذا إشارة إلى تفوُّق النصف أريوسيين بالرغم من محاولة فالنس للتخلُّص نهائياً من كلمة المَحَكّ المزعجة لهم ὁμοίον والتي صمَّم عليها الإمبراطور، إذ كانت قد بدأت تفتر العلاقات مع المتطرِّفين من الأريوسيين.

وقد أصدر باسيليوس أسقف أنقرة مذكِّرة يشرح فيها سبب إمضائه على مقرَّرات "مجمع سيرميم الثالث" "**التاريخي**"، موضِّحاً أن التشابه هو "تشابه **مطلق**" بين الابن والآب(٢٦) معلناً قبوله لمقرَّرات مجمع نيقية الكبير ما عدا اللفظ.

وعلى العموم يقول باسيليوس أسقف أنقرة إن "**قانون المجمع التاريخي**" باستخدامه كلمة "التشابه ὁμοίον" قد فتح باب المراوغة والتحايل، فالأريوسيون يرغبون في هذه الكلمة لتكون وصفاً نسبياً يسمح بوجود درجات في هذا التشابه، فإن ما هو "**شبيه**" هو كقضية مسلَّمة أو بديهياً "**غير مشابه**" إلى حد ما!! (فصل ٦٣).

---

(٢٥) وقد مات في هذا الزلزال أسقف نيقوميديا سيكروبيوس وتهدَّمت الكاتدرائية العظمى.

(26) Newman citing (Bright Introduction lxxxiii, Gwatkin p. 168).

لهذا فإن جماعة باسيليوس اضطروا أن يدخلوا في تحديد النص المشار إليه "**مشابه في كل شيء**" فخُذلوا، لأن مجمع أريمينم Ariminum رفض رأي النيقاويين ومجمع سلوقيا، كما رفض رأي النصف أريوسيين، أمَّا الحوادث التي حدثت بعد ذلك فيشرحها أثناسيوس في الفصول (٨-١٢).

وهكذا وفي نهاية هذه المجامع حدث الانشقاق الذي بشَّر بالانهيار بين النصف أريوسيين وبين الهومويان أي أصحاب عقيدة "**التشابه**".

ومن هنا بالذات بدأ أثناسيوس يعمل عمله ويعد ضربته القادمة في كتابه "**المجامع**"، مستخدماً قدرته في تحطيم الوصلة الاصطناعية التي كانت تربط بين متحفّظي الشرق وبين جماعة الأريوسيين الذين صاروا خليطاً متبايناً بين أريوسيين متأصِّلين مثل إيزوبيوس وفالنس، وأريوسيين متطرِّفين مثل إتيوس وإيونوميوس، وأريوسيين انتهازيين (بلا مبدأ) مثل أكاكيوس (أسقف قيصرية) وإيفدوكيوس ومن على شاكلتهم، وهؤلاء بالذات كان يعتبرهم أثناسيوس أعداءً ألدَّاء ينبغي كشفهم ودحرهم بلا أي فرصة للتقابل أو التفاهم. أمَّا المتحفِّظون فكان يرى فيهم إخوة لم يعرفوا بعد أين يضعون أرجلهم، ولهؤلاء يكون الشرح والتوضيح لازماً حتى يعود بهم إلى الدرب المستقيم الأصلي.

تعليق للقديس أثناسيوس:

[أمَّا الذين ينكرون مقررات مجمع نيقية جملة فهذه الملاحظات كافية لكشفهم وفضحهم!

أمَّا الذين يقبلون كل مقررات مجمع نيقية ويتشكَّكون فقط في معنى التساوي في الجوهر Coessential فلا ينبغي أن نعاملهم كأعداء ولا نقصد أن نهاجمهم هنا كبقية الأريوسيين المجانين، فنحن لا نعتبرهم مقاومين لتقليد الآباء.

ولكننا نشرح الأمور لهم كإخوة لإخوة لأنهم يعنون ما نعني ولكن النزاع بيننا هو حول كلمة، مثل باسيليوس الذي كتب عن ذلك.][٢٧]

وهكذا قسَّم أثناسيوس فكره وعمله في كتاب المجامع إلى اتجاهين حاسمين نحو هذين الهدفين، كما حدث تماماً عند كتابة "الأربع مقالات" ضد الأريوسيين.

(27) Athanas. *De Synod.* III, 41.
باسيليوس أسقف أنقرة وزميله كيرلس الأورشليمي كانا بمثابة الجناح الأيمن الأكثر علماً ورزانة في مجموعة النصف أريوسيين، وكانا يميلان إلى الرجوع إلى مجمع نيقية. N.P.N.F. IV, Athanas. p. LV

ولكن هنا في كتاب المجامع صوَّب أثناسيوس عينه ناحية نقطة الضعف الجديدة ليضرب فيها سهمه:

أ ـ أمَّا الهدف الأول عند أثناسيوس في كتابه "المجامع" فيختص بموقف الأريوسيين المتعنِّت، ولهؤلاء قدَّم حججه اللاهوتية مشيراً بسخط واضح إلى مكائدهم، ودسائسهم، وتخوّفهم، وافتقارهم إلى وحدة الرأي والمبدأ التي ظهرت بفضيحة مجامعهم التي لا تنتهي، وصيغهم اللاهوتية المتعدِّدة (فصل ٢١-٣٢).

وفي اختصار فضح موقفهم الأجوف تجاه معارضة صيغة مجمع نيقية (٣٣ـ ٤٠).

تعليق للقديس أثناسيوس:

[يقولون عن مقررات مجمع نيقية "لأنها كلمة غير مكتوبة في الأسفار فنحن نرفضها"، ولكن من أين أتوا هم باصطلاحاتهم التي اخترعوها من غير الأسفار؟ **فهم يقولون عن المسيح: "إنه من العدم"، "وأنه لم يكن موجوداً قبل أن يولد"، "وأنه قابل للتغيير"، "وأن الآب غير مدرك وغير منظور للابن"، "وأن الابن لا يعرف حتى طبيعته هو" ... "وأنه يوجد ثلاث طبائع"، "وأن المسيح ليس إلهاً"، "وأنه واحد ضمن المائة خروف"، "وأن حكمة الله لا تولد وليس لها بداية أمَّا القوى المخلوقة فهي كثيرة ومنها المسيح" ... "وأنه من طبيعة أخرى غير طبيعة الآب"، "أمَّا بخصوص أن الابن واحد مع الآب في الوحدانية، وأن من رأى الابن فقد رأى الآب (التشابه) فذلك ليس بحسب الجوهر وإنما هو مجرَّد توافق المبادئ والتعاليم"** هذا وغيره قد تقيَّأه أريوس والأريوسيون.][28]

ب ـ أمَّا الهدف الثاني في كتاب "المجامع" فكان النصف أريوسيين. فقد اعتنى أن يحقِّق ويؤيِّد ويبرِّر معنى الهوموؤوسيون أي "التساوي في الجوهر"، فقد حان الوقت لكي يدفعهم نحوها باعتبارها التعبير الوحيد الذي في الحقيقة يقصدونه هم في أنفسهم والسد المنيع الذي يقف في وجه هجوم الأريوسيين.

تعليق للقديس أثناسيوس:

[وهذا يكفي لكي نوضِّح أن المعنى الذي يقصده **الإخوة المحبوبون**، ليس غريباً ولا هو بعيد عن معنى التساوي في الجوهر Coessential.

(28) Cf. Athanas. *De Synod.* III, 36, 40, 45.

فهم يعترفون أن "الابن من جوهر الآب" "وليس هو من طبيعة أخرى"، "وأنه ليس مخلوقاً"، "ولا هو مصنوعاً"، "ولكنه ابنه أصلاً وطبعاً" "وأنه أزلي مع الآب لأنه كلمته وحكمته".

إذن فهم ليسوا بعيدين مطلقاً حتى عن أن يقبلوا التساوي.](٢٩)

وهكذا يأتي الجزء الأخير من رسالة "المجامع" كنهاية منطقية لسعي أثناسيوس المتواصل من جهة استرجاع الأرثوذكس. أمَّا القصد الأساسي من رسالة "المجامع" فهو فضح مبادئ الأريوسيين وتعريتها من كل أقنعة الخداع وكذلك فضح تذبذبهم، وهذا بطبيعة الحال يخدم في النهاية خلع النصف أريوسيين الذين أصبح أثناسيوس شديد الأمل في عودتهم إليه.

ولكن كان رجاء أثناسيوس من جهة هذا الأمر أكثر من سرعتهم في التحرُّك والاقتناع، فالمستقبل كان لا يزال يحمل الأعاصير. لأن ما حصل في هذه المجامع وما انتهت إليه كان انتصاراً للأريوسيين من كافة الوجوه. لأن قبول الغالبية العظمى للأساقفة المجتمعين في مجمع سلوقيا لمقررات الأريوسيين التي أصدروها في مجمع نيقية بأريمنم وانتصار أكاكيوس وأفدوكيوس بانضمام الإمبراطور أكثر فأكثر نحوهم (فصل ٣٠-٣١)، وانفصال باسيليوس أسقف أنقرة عن الإمبراطور(٣٠) وسطوة وانتصار الأريوسية بقيادة فالنس، كل هذا ولأول وهلة يعتبر موقفاً مؤسفاً حزيناً تجاه تطلُّعات رسالة "المجامع" في فكر أثناسيوس وأمله!

ولكن بالرغم من أن هذا كله قد حدث فعلاً، إلاَّ أن أثناسيوس كان على حق في أمله وتطلُّعاته، فقد كان يؤدِّي دوراً نبيلاً!! ففي رسالة "المجامع" ارتفع أثناسيوس فوق نفسه!! وكانت النتيجة أن استجاب الله في لحظة وأوقف هذا الشغب، فالمحبة التي ترجو كل شيء لا بد أن تتبرَّر في كل ما تعمله وتتزكَّى(٣١).

وقد حدث أن ليس معظم النصف أريوسيين فحسب (٥٩ أسقفاً مرَّة واحدة انضموا إلى شركة أثناسيوس سنة ٣٦٥م) قبلوا "**الهوموؤوسيون**" مرَّة أخرى، بل وآخرون كثيرون حملوا لواء المناداة برفع قضية مقرَّرات مجمع نيقية إلى منتهى انتصارها في كل الشرق.

(29) Ibid. 43, 41.

(30) Theodoret. ii, 27.

(31) Gwatkin (*Studies*, p. 176, *Ar. Controv*. p. 98).

وحدث أيضاً أن رافق باسيليوس (الأصغر) أسقف أنقرة من مجمع سلوقيا إلى القسطنطينية شابٌ شماسٌ ناسكٌ، كان يقرأ كثيراً لأثناسيوس ويتحمَّس لكل أفكاره ويحفظها، وكان هذا الشاب الصغير هو بحكم المستقبل اللاهوتي الكبير باسيليوس الكبير أسقف قيصرية!!

وهذا الشاب نفسه وهو في حماسه لرسالة أثناسيوس "المجامع" يكتب مقتبساً نفس ألفاظ رسالة "المجامع" (٣:٥٢).

[نحن نعترف بإله واحد، واحد **في طبيعته** وليس بالعدد، لأن العدد يرتبط بمرتبة **الكمية**، وهو ليس يشبه أو لا يشبه لأن هذين الاصطلاحين يتبعان مرتبة **الصفة** (فصل ٦٥) .. والذي هو إله "**بجوهره**" فهو يكون "**مساوياً في الجوهر**" لله الذي هو إله جوهرياً، فإن كان لي أن أقرِّر رأيي فأنا أقبل اصطلاح "مشابه في الجوهر" بإضافة كلمة "تماماً" كمماثل في المعنى لكلمة مساوي في الجوهر Coessential ولكن كلمة "مشابه تماماً" **بدون كلمة "الجوهر Essence" أنا أشك فيها!!**

وبناءً عليه فإن كلمة Coessential "مساوٍ في الجوهر" كونها اصطلاحاً غير قابل لسوء الاستخدام فأنا أيضاً أقبلها!](٣٢)

ولم يكن باسيليوس الكبير يعبِّر عن مجرَّد رأيه ولكن كان بانفتاح وعي ووضوح يبرِّر ويزكِّي نظرة الكثيرين من نحو أثناسيوس في رسالة "المجامع".

وأخيراً كان ينبغي على روبرتسون ـ الذي قدَّم للطبعات الحديثة لأثناسيوس ـ أن لا يأخذ على أثناسيوس عدم دقته في سرد أخبار المجامع أو في تعليقه السريع العنيف(٣٣)، وهل ينسى ما ذكره أثناسيوس بنفسه أنه إنما كان يكتب الأخبار ويصفها وينقدها بسرعة لحظة وصولها، ثم يصحِّح أخباراً قد سردها على أخبار أدق تكون قد بلغته بعد الكتابة؟

كل هذا لا يدع مجالاً للناقدين أبداً أن يسترسلوا في ما كان ينبغي وما كان لا ينبغي، لأن أثناسيوس كان يحارب كفتى ابن العشرين مع أنه قد ناهز الآن الستين من عمره!! وقد حان له أن يكسب المعركة بالفعل، وكانت رسالة "المجامع" هذه هي الإسفين الأخير الضاري الذي أودى

(32) Basil *Epp*. 8,9 (The Greek in Gwatkin, *Studies*, p. 242).

(33) Robertson NPNF, IV, p. 449.

بهرطقة الأريوسيين، التي كانت قد طغت على الإمبراطورية الرومانية كلها وعلى كراسي أساقفة الدنيا بأسرها، وأملت شروطها على العالم باستثناء أثناسيوس!! ومعه مصر!!

وإلى هنا تنتهي كتابات أثناسيوس التي ألفها أثناء منفاه الثالث.

وفي الحقيقة إن كل أعمال أثناسيوس أثناء هذا المنفى هي كتاباته وكتاباته وحسب!! ولذلك تعتبر رسالة "المجامع" نهاية أعمال أثناسيوس التي بها أيضاً أنهى زمان منفاه.

ولكن أثناء ما كان أثناسيوس منعكفاً في مغائر الرهبان ومخابئ العلمانيين يكتب كتبه ورسائله، كان العالم يموج بحركات الأريوسية كما سمعنا في رسالة "المجامع" التي أوصلتنا بدورها إلى الالتحام مرَّة أخرى بالأريوسيين على مسرح التاريخ.

ماذا كانوا يعملون في الخفاء والعلن؟
وكم من المجامع عقدوا؟
وكيف انتهى أمرهم إلى التمزُّق ثم الانهيار؟
هذا ما نقدِّمه للقارئ في الصفحات القادمة.

⊆ ✞ ⊇

العالم المسيحي في غياب أثناسيوس غرباً وشرقاً:

أحزاب ضد أحزاب، مجامع على مجامع، وقوانين تلغي قوانين

دسائس وقتل ونفي بحثاً عن الإيمان!

ماذا بعد نفي جميع الأساقفة الأرثوذكس؟

أولاً: بعد مجمع أريمينم Ariminum وسلوقيا: "عن سقراط"

تعليق للقديس أثناسيوس:
[يدعون لمجمع عام ويحدّدون ميعاده والكل يتطلّع إليه!!
وفجأة ينقسم إلى مجمعين هذا يجتمع هنا وذاك هناك! .. الذي يقلقنا هو عدم اللياقة التي تقود هذا المجمع الكبير!!
وما الذي دهاهم حتى يجرُّوا العالم كله معهم في هذا الاضطراب؟؟
رجال الكهنوت الذين يحملون العقيدة والإيمان يجرون هنا وهناك!
يبحثون من جديد عمَّا يمكن أن يؤمنوا به في ربنا يسوع المسيح!
قطعاً لو كانوا مؤمنين حقًّا ما ذهبوا يفحصون عمَّا يؤمنون به! فأظهروا أنفسهم وكأنهم غير مؤمنين!
يا لعثرة الموعوظين، ويا لشماتة الوثنيين!!](٣٤)

كان عقد مجمعي أريمينم وسلوقيا هو خطة للإقرار والموافقة على قوانين مجمع سيرميم. وقد أُقيما معاً لنفس الغرض وفي نفس السنة، ولكن حقيقة ما انتهى إليه مجمع أريمينم هو معارضة صارخة لقوانين سيرميم وذلك من أغلبية الأساقفة، وتمسُّكهم بقرارات مجمع نيقية الكبير، أمَّا مجمع سلوقيا فقد انتهى بمعارضة صارخة أيضاً لقوانين مجمع سيرميم وتمسُّكهم بقرارات مجمع التدشين (بأنطاكية).

بمجرَّد أن اطمأن الإمبراطور على نتيجة مجمع ميلان (الذي لم يضم من أساقفة الشرق إلاَّ عدداً ضئيلاً جداً)، وتخلَّص من الأساقفة المناوئين، قرَّر عقد مجمع عام يستدعي فيه أساقفة الشرق إلى إيطاليا حتى يستطيع أن يجمعهم في وحدة ووفاق معاً على نصوص جديدة للإيمان.

(34) Athanas. *De Synod.* 1,2.

ولكن بسبب بُعد المسافة وطول الرحلة قامت صعوبات وعراقيل، أشار الإمبراطور إلى تقسيم المجمع إلى قسمين، قسم غربي وهم الأساقفة الذين في ميلان (حالياً)، هؤلاء يجتمعون في أريمينم Ariminum في إيطاليا أيضاً، أمَّا أساقفة الشرق فأمر أن يجتمعوا في نيقوميديا في بيثينية بآسيا الصغرى.

وكان قصد الإمبراطور من هذا التقسيم أن يسهِّل عملية توحيد الكلمة، ولكن مجريات الأمور أثبتت العكس، لأن كلاً من المجمعين لم يكن في وفاق حتى مع نفسه.

فالذين اجتمعوا في أريمينم اختلفوا معاً، والذين اجتمعوا في سلوقيا (نيقوميديا أصابها زلزال قتل أسقفها وهدم كاتدرائيتها قبل اجتماع الأساقفة مباشرة، فاضطروا للانتقال إلى سلوقيا عاصمة إيشوريا)، وهؤلاء أيضاً انقسموا على أنفسهم.

مجمع أريمينم:

انعقد في ٢٢ مايو سنة ٣٥٩م(٣٥)، وهو التالي بعد المدعو سيرميم الثالث أو "**المجمع التاريخي**" بسبب وقوعه في يوم عيد الخمسين.

لما التأم شمل الأساقفة في أريمينم (٤٠٠ أسقفاً) قام أساقفة الشرق وأعلنوا أنهم عازمون على أن لا يثيروا موضوع أثناسيوس وسيعبرون عليه في صمت، والعجيب أن هذه الغيرة والحماس وجدت قبولاً من أورساكيوس وفالنس اللذين كانا مناصرين لأريوس، ولكن معروف أنهما قدَّما للأساقفة في روما نص إقرار، وسحبا نفسيهما من جانب الأريوسيين، وأعلنا قبولهما للهوموؤوسيون "المساواة في الجوهر" علناً، وهذان الأسقفان معروفان أنهما انتهازيان، ودائماً مع صف الأغلبية، وانضم لهما بنفس الحماس جرمينيوس وأوكسنتيوس وديموفيليوس وغايس مؤيدين أثناسيوس.

ولكن لمَّا بدأ الانقسام في وسط الأساقفة وابتدأ كل فريق يقول رأياً مخالفاً الآخر، انتهز الفرصة كل من أورساكيوس وفالنس وأعلنا أن كل التسويدات المتتابعة التي تمت لمحاضر القانون الإيماني يلزم أن تلغى كلها ويبقى الأخير فقط الذي أقروه في "**سيرميم** "، وأن يعتبروه أنه هو الصيغة القانونية الوحيدة، وبدآ يقرآن من ورقة في أيديهما قانوناً آخر تماماً أجازوه **في** "**سيرميم**" وأبقياه سرًّا حتى أعلناه فجأة في "**أريمينم**" وترجماه من اللاتينية إلى اليونانية ـ **وينطوي أساساً على حذف كلمة المحكّ القانونية "الهوموؤوسيون" ولا يؤكّدون إلاَّ على التشابه بين الابن والآب!**

(35) *D.C.B.* p. 197 n.m.

وبمجرَّد أن سمع الأساقفة الأرثوذكس هذه القرارات قاموا في الحال غير راضين وقالوا للمجمع: "نحن لم نأتِ إلى هنا لأننا كنا في حاجة إلى قانون إيمان، فنحن نحتفظ بما تسلَّمناه منذ البدء بدون أي تحريف، ولكننا جئنا هنا لكي نوقف ونقمع كل بدعة أُضيفت على الإيمان. فإذا كان الذي تُلي الآن علينا لا يحوي أي شيء مبتدَع، فليصر في الحال حرمٌ علنيٌّ للهرطقة الأريوسية! بنفس الوضع الذي سبق القانون الكنسي أن رفض به جميع الهرطقات باعتبارها تجديفاً. لأنه قد صار واضحاً لدى كل العالم أن العقيدة الكفرية التي لأريوس قد تسبَّبت في اضطراب الكنائس وكل المتاعب حتى اليوم".

ولكن انبرى كل من أورساكيوس وفالنس وجرمينيوس أسقف سيرميم وأوكسنتيوس أسقف ميلان (الذي جلس على كرسيه من بعده الأسقف أمبروسيوس) وديموفيليوس وغايس ورفضوا هذا الكلام ومزَّقوا وحدة صف الأساقفة تماماً!

في حين أن الباقين أكَّدوا قانون مجمع نيقية، وهزأوا من التوقيع على القانون الذي قُرىء عليهم، وقرأوا على المجمع خطاب أثناسيوس الذي ألَّفه عن المجامع وما حدث أمامهم في مجمع أريمنم!

تعليق للقديس أثناسيوس:

[من ذا الذي لا يهلِّل لأمانة ضمير هؤلاء الأساقفة الذين تحمَّلوا مشاق السفر وأخطار البحر وهم في غاية الرضى، لكي بعزيمة مقدَّسة وتصرُّف قانوني يُسقطون الأريوسيين ويحرسون تحديدات إيمان الآباء دون أن تُمس، لأنهم أدركوا إذا ما هم هدموا أعمال الآباء فسوف يأتي بعدهم مَنْ يهدم أعمالهم.](٣٦)

ملاحظات هامة:

والعجيب لنا جدًّا أن المؤرِّخ سقراط يروي مباشرة أن هؤلاء الآباء الأرثوذكس قرأوا في المجمع علناً خطاباً وصل من أثناسيوس لهم يدحض أعمالهم ويعلِّق على ما جرى بالفعل داخل المجمع بكل حوادثه، وهو رسالة "**المجامع**" فصل ٨! وهذا مما يذهل العقل.

فرسالة المجامع كُتبت فعلاً في سنة ٣٥٩م، ومجمع أريمنم اجتمع في نفس السنة ٢٢ مايو سنة ٣٥٩م، فهل بهذه السرعة بلغت أثناسيوس أخبار انعقاد المجمع وما جرى فيه، فأرسل في الحال رسالته لتقرأ في ميعادها ردًّا على ما حدث وكأنه واحد منهم، وما هذه الغيرة العجيبة لهذا الأسقف

(36) Athanas. *De Synod.* I, 13.

ذي الستين عاماً؟ ولكن يقولون إن أثناسيوس ذهب إلى هناك بالفعل وحضر عن كثب هذه المجامع سواء في أريمنم أو سلوقيا، ويلمِّح هو عن هذا بالفعل عندما يقول في أول الكتاب: "وقد عزمت أن أعطيكم تقريراً عمَّا رأيت بنفسي".

وبعض المؤرِّخين يعتقد أنه كان يرحل إلى أي مكان محمولاً بقوة إلهية إعجازية!!

وبناءً عليه، فقد قرَّر المجمع إسقاط كل من أورساكيوس وفالنس وأوكسنتيوس وجرمينيوس وغايس وديموفيليوس لرفضهم توقيع الحرم على عقيدة أريوس، ولكن هؤلاء عادوا فاعتذروا وسحبوا تأييدهم للأريوسيين فقبلوهم في الشركة - ولشدة سخطهم بسبب إسقاطهم أسرعوا إلى الإمبراطور مباشرة حاملين معهم عرضاً لقانون الإيمان الذي قُرِىء في المجمع(٣٧).

تعليق للقديس أثناسيوس:

[أي ثقة من بعد ذلك يمكن أن توضع في أعمال هؤلاء الأساقفة!! بعد أن نقضوا أعمال آبائهم، فكيف يُدعون بعد آباء!!
وماذا سيعلّمون شعبهم، بعد أن أقروا أن آباءهم كانوا مخطئين!!
ومَنْ ذا الذي سيطيعهم، بعد أن عصوا هم معلّميهم!!
وكيف يُدعَون أساقفة، بعد أن أقروا هرطقة مَنْ رسموهم!!](٣٨)

ملاحظة:

يقول العالِم وليم برايت إن هذا القانون الذي أسموه "القانون الكاثوليكي" غشًّا يحوي أن ابن الله مخلوق(٣٩) مع مخالفات أخرى.

عشرون من الأساقفة يحملون توصيات المجمع إلى الإمبراطور:

وقد أرسل الأساقفة خطاباً إلى الإمبراطور يوضِّحون فيه تمسُّكهم بإيمان مجمع نيقية وتقاليد الآباء، كما يوضحون ألاعيب جماعة أورساكيوس وفالنس، وكيف أنهم بعد أن أسقطوهم من رتبهم بسبب رفضهم لحرم بدعة أريوس، عادوا فاعتذروا وتابوا وقدَّموا موافقتهم على الإيمان الأرثوذكسي، ثم بعد ذلك ارتدوا بأسرع مما اعتذروا، لذلك رفع الأساقفة صوتهم للإمبراطور

(37) Socrates, *Ecc. Hist.* II, 37.
(38) Athanas. *De Synod.* 1:18.
(39) *D.C.B.* Athanas p. 197.

بأنهم يقطعون هؤلاء المنافقين من شركتهم، ويطلبون سرعة العودة إلى بلادهم لأسباب ضعفهم ومرضهم وحاجة كنائسهم إليهم(٤٠).

ولكن للأسف أسرع أورساكيوس وفالنس قبل أن يصل العشرون من الأساقفة المندوبين عن مجمع أريمينم وأوغروا صدر الإمبراطور.

رد الإمبراطور على رسالة الأساقفة:

فكتب الإمبراطور خطاباً تهجمياً يرفض رأيهم ويطلب أن المندوبين العشرين عليهم أن ينتظروا ذهابه إلى أدرينوبل وعودته من هناك، وعليهم هم جميعاً أن ينتظروا أيضاً في أريمينم حتى عودته ليملي عليهم ما يختص بأمر (الإيمان).

وقد احتمع الإمبراطور في أدرينوبل في بلدة نيقا أو نيس Nicaea في تراس مع أورساكيوس وفالنس ووفد من أساقفة آخرين من أتباعهم وأعادوا صياغة قانون "المجمع التاريخي" وحذفوا كلمة "كل شيء" من "يشبهه في كل شيء".

رد أساقفة مجمع أريمينم على الإمبراطور:

وفي الحال أسرع الأساقفة برسالة احتجاج لحجزهم، يؤكِّدون فيها عزمهم على التمسُّك بالإيمان المسلَّم إليهم من الآباء حسب التقليد، وأنهم لن يتزحزحوا عن موقفهم، ويطالبون مرَّة أخرى بسرعة العودة قبل حلول الشتاء!(٤١)

رحيل الأساقفة بدون إذن الإمبراطور:

وبعد عشرة أيام ولمَّا لم يصلهم الرد، سافر الأساقفة كلٌّ إلى بلده!(٤٢)

الإمبراطور يختلق الاتهام للأساقفة بسبب رحيلهم:

وإذ كان معروفاً لدى الأساقفة أن الإمبراطور قد صمَّم منذ زمن أنه ينوي نشر العقيدة الأريوسية في جميع الكنائس، وكان قلقاً من جهة ضرورة تفوُّقها، لذلك وجد في رحيلهم بدون أن يعطيهم إذناً بذلك أنه بمثابة إهانة، مدَّعياً أنهم عاملوه باحتقار خاصة أنهم فضوا المجمع دون أن

(40) Socrates, *Ecc. Hist.* II, 37.

(41) Socrates, *Ecc. Hist.* II, 37.

(42) Idem.

يكمِّلوا رغباته!(٤٣)

أورساكيوس ورفقاؤه يحصلون من الإمبراطور على تفويضات فوق العادة:

وبسبب ذلك فقد أعطى الإمبراطور صنيعته أورساكيوس وفريقه تفويضاً غير محدود! أن يصنعوا كما يشاءون في ما يختص بأمور الكنائس.

كما أمر الإمبراطور أن قانون الإيمان المعدَّل والمقروء في أريمنم ينبغي أن يسلَّم لجميع كنائس إيطاليا، مهدِّداً أن كل مَنْ لا يوقِّع عليه يُخلع من كرسيه ويحل محله آخر(٤٤).

الزمن الحقيقي لنفي ليبريوس:

وهنا في هذه الفترة الزمنية بالذات، رفض ليبريوس التوقيع على قانون أريمنم المعدَّل (سيرميم الثالث)، الذي يقول فيه إن الابن مخلوق، فأُرسل إلى المنفى.

فيلكس يخلف ليبريوس في الحال:

فقام أورساكيوس بتنصيب فيلكس (شماس أصلاً في نفس الكنيسة) أسقفاً على روما بسبب أنه اعتنق المذهب الأريوسي علناً.

وهكذا نفى كثيرين من الأساقفة واستخدم العنف ضدَّهم وصار اضطراب عظيم في كل كنائس الغرب(٤٥).

مجمع سلوقيا في إيشوريا في الشرق(٤٦):

وكان هذا المجمع أيضاً بأمر الإمبراطور ليكون مماثلاً نظيره في أريمنم في الغرب. وقد ترتَّب أولاً أن يُعقد في نيقوميديا في بيثينية، ولكن زلزالاً مروعاً خرَّب المدينة وهدم الكاتدرائية ومات أسقفها، فتحوَّلوا إلى "نيقية" القريبة، ولكن بدت أيضاً هذه الفكرة غير مريحة فتحوَّلوا إلى طرسوس في كيليكيا، ولمَّا لم تكن مناسبة هي الأخرى اجتمعوا أخيراً في سلوقيا في مدينة أسبيرا Aspera وهي عاصمة إيشوريا، وكان هذا في ٢٧ سبتمبر سنة ٣٥٩م/ ١٦ توت، في نفس السنة التي اجتمع فيها مجمع أريمنم، وكان عدد الأساقفة الحاضرين ١٦٠ أسقفاً.

(43) Theodoret, *Ecc. Hist.* II, 16.

(44) Ibid.

(45) Ibid.

(46) Socrates, *Ecc. Hist.* II, 39.

ويضيف لنا المؤرِّخ سلبيسيوس ساويرس (٣٦٣-٤٢٠م):

[وكان هيلاري أسقف بواتييه لا يزال موجوداً في بيثينية مبتدئاً السنة الرابعة في منفاه، وقد أُجبر على الحضور بأمر اللفتنانت (أحد اثنين من رؤساء فريجيا) وأمر الحاكم العام - مع أن الإمبراطور لم يكن قد أعطى تعليمات تختص به، ولكن كان القضاة يعملون بالأمر الصادر من الإمبراطور لجمع جميع الأساقفة بسلطة القانون لحضور المجمع، ولكن كان هذا بتدبير من الله لكي يكون حاضراً في المجمع الذي سيناقش أمور الإيمان رجل مثل هذا متضلعٌ في أمور الإيمان. وحينما وصل إلى سلوقيا قوبل من الأساقفة بحفاوة عظيمة وكان محط أنظار جميع الأساقفة ... وقد كان نصيراً وشاهداً لإيمان نيقية، ودحض بدعة سابيليوس التي تقول بمجرَّد ثلاث أسماء في الثالوث لكي يضمن الوحدة في الله، وكان مندوباً من الغرب شاهداً لصحة الإيمان.](٤٧)

وابتدأ بعض الأساقفة في حضور ليوناس ضابط البلاط ولوريكوس رئيس فرق الجيش يطلبون معرفة أسباب الاتهامات التي وُجِّهت لبعض الأساقفة مثل كيرلس الأُورشليمي ويوستاثيوس أسقف سبسطية وباسيليوس أسقف أنقرة ومقدونيوس أسقف القسطنطينية، وهم الذين لم يحضروا أيضاً المجمع، كذلك الشكاوى المقدَّمة ضد بعض الأساقفة (الأريوسيين وعلى رأسهم أكاكيوس نفسه). ولكن أوامر الإمبراطور جاءت بالبدء في فحص أمور اللاهوت، خوفاً من إلقاء التهم على الأساقفة الأريوسيين الذين أحضروا مشتكيهم معهم من كنائسهم. وهنا انقسم المجمع إلى فريقين، واحد أريوسي متطرِّف يريد الدخول في فحص أمور الإيمان مباشرة بقيادة أكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين ومعه جورج (المغتصب) أسقف الإسكندرية، ويورانيوس أسقف صور وأفدوكيوس أسقف أنطاكية، وكان يناصرهم ٣٢ أسقفاً! أمَّا الفريق المضاد وهو الأغلبية، وهو نصف أريوسي (يتقرَّب إلى الأرثوذكسية) ويرأسه جورج أسقف اللاذقية بسوريا، وهذا كان يلح على البدء بالمحاكمات. وبدأ فريق الأقلية بقيادة أكاكيوس يهاجم قانون مجمع نيقية علناً، ويطالب بإصدار قانون آخر كامل يلغي كلمة "الهوموؤوسيون" و"الهومويسيون" أي كلمة "المساوي" و"الشبيه" كلية، وكلمة "الأوسيا" أي الجوهر. ووقف مقابله فريق الأغلبية يطالب بالحفاظ على كل ما جاء في مجمع نيقية ما عدا اللفظ الشكلي لكلمة "**الهوموؤوسيون**" على أن يُوضَع بديلٌ لها.

(47) Sulp. Sever. *Sacr. Hist.* Book II, ch 42.

وظلوا يتفاوضون بعنف حتى المساء حينما وقف سلفانوس أسقف طرسوس وأعلن بحماس أنه ينبغي العودة إلى قانون مجمع التدشين الذي تمَّ بأنطاكية سنة ٣٤١م.

وعند هذا انسحب أكاكيوس ومَنْ معه سرًّا، وفي اليوم الثاني قرَّر الأساقفة الباقون قانون مجمع التدشين ووقَّعوا عليه، ووقَّع الشمامسة الحاضرون موضع الأساقفة الغائبين!!(٤٨)

أكاكيوس أسقف قيصرية يضع قانوناً جديداً للإيمان في مجمع سلوقيا:

وفي ثالث يوم اجتمع ثانية أساقفة أكاكيوس وانتقدوا تصرُّف وأعمال الأساقفة الآخرين، وأخذوا عليهم أنهم قفلوا على أنفسهم الأبواب! وأمضوا بأسمائهم عوضاً عنهم، واعتبروا أن هذا كله تعدِّي على قانون المجمع، وأن ما تمَّ في غيابهم يُعتبر عملاً مشبوهاً.

وقد تعمَّد أكاكيوس هذه الإثارات لكي يستطيع أن يملي بعد ذلك قانونه الذي كان قد أعدَّه بنفسه وعرضه على ليوناس ولوريكوس ضابط الإمبراطور، وطلب معاونته على إقراره والتوقيع عليه عوض القانون الذي وقَّع عليه أساقفة الأغلبية في غيابهم.

وفي هذه الأثناء حضر باسيليوس أسقف أنقرة ومقدونيوس أسقف القسطنطينية. ولمَّا رأى أكاكيوس أن هؤلاء أيضاً قد انضموا لحزب الأغلبية، أعلن أكاكيوس أنه لا ينبغي أن يحضر المجمع أساقفة يكونون تحت الاتهام قاصداً باسيليوس ومقدونيوس. وبعد عراك طويل استقر الرأي على إبعادهما.

وانتهز ليوناس الضابط فرصة هدوء المجمع وبدأ فجأة يقرأ لهم مسوَّدة أكاكيوس الكاملة لقانون الإيمان الجديد!

وحصل نقاش واضطراب، انتهى بإسقاط أكاكيوس وتسعة أساقفة ممن معه، كما قطعوا من الشركة تسعة آخرين لأسباب تختص بسلوكهم.

وانفض المجمع، على أن الأساقفة الذين أُضيروا في المجمع اتجهوا إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور للشكوى عند عودته من الغرب(٤٩)، وتبعهم وفد من الحزب المعتدل.

(48) Socrates, *Ecc. H.* II. 39.

(49) Socrates, *Ecc. Hist.* 40.

ثانياً: مجمع القسطنطينية
ديسمبر سنة ٣٥٩–٣٦٠م

برجوع الإمبراطور من الغرب تجمَّع حوله أكاكيوس وأتباعه أساقفة بيثينية، فبلغ عددهم حوالي ٥٠ أسقفاً، وكان بينهم ماريس أسقف خلقيدونيا وكذلك هيلاري.

وذهب هيلاري مع الوفد المعتدل إلى القسطنطينية وطلب مقابلة الإمبراطور ليتحاجج أمامه مع الأريوسيين، ولكن الإمبراطور وجبهة الأريوسيين رفضوا ذلك، وأعاده الإمبراطور إلى فرنسا خوفاً من تأثيره على الأساقفة باعتباره مثيراً للفتن ومزعجاً للشرق – غير أن القضية التي حُكم بها ضده لم تُلغَ، وقد حاول في فرنسا مراراً كثيرة أن يجمع شمل الأساقفة إلى عودة صحيحة وتوبة عن الماضي وتجديد بواسطة اجتماعات كثيرة عقدها هناك، وقد قاومه في ذلك كثيراً ساتورنينوس أسقف آرل، ولكن هذا عُزل أخيراً بسبب جرائمه الكثيرة .. وأخيراً استتب السلام في فرنسا وضعفت شوكة الأريوسية هناك بفضل جهود هيلاري بمفرده .. وقد تنيَّح في السنة السادسة من رجوعه إلى فرنسا!(٥٠)

وعندما قوي الأريوسيون على الحزب الآخر، لأن معظمهم لم يذهب إلى القسطنطينية، أعادوا تثبيت قانون إيمان أريمينم التاريخي مع إضافات جديدة خطرة كانوا قد بيَّتوا لها من سنين، وهكذا تمَّ انتصار الأريوسيين!!

تعليق للقديس أثناسيوس:

[في كل مجمع نصوصٌ تُحذف ونصوصٌ تُضاف!
مَنْ يتتبَّع هذا ولا يتيقَّن أن عقولهم مبتعدة عن المسيح بل له خائنة!
دسُّوا عقيدتهم في ثنايات قرارات مطوَّلة، وأجهدوا أنفسهم حتى يُضلُّوا عقول البسطاء!
وفي زحمة الكلمات وكثرتها خبأوا هرطقتهم .. فأطالوا الكلام باطلاً!

(50) Sulp. Sever. *Sacr. Hist.* ch, 45

ومن كثرة مجامعهم وتخالف قراراتهم أثبتوا أنهم أضعف من أن يسيئوا إلى الحق!](٥١)

ولكن كانت كل البلاد تتطلّع إلى اليوم الذي فيه تنزاح عنها الأريوسية، ويعود للكنيسة أساقفتها الأمناء.

وقد حدث بعد إسقاط أفدوكيوس أسقف القسطنطينية أن اختاروا على كرسيها أسقفاً عالماً ضليعاً معتدلاً اسمه ميليتيوس، وكان أرمنياً. فلمَّا جلس على الكرسي ألقى أول عظة كلها حماس ووقار للأرثوذكسية مما أذهل أتباعه ومرافقيه، فاجتمعوا عليه وأسقطوه(٥٢)، وقد احتفظ القديس إبيفانيوس بنص هذه العظة.

ولمَّا أسقطوه جاء بعده إيوزويوس الأريوسي الذي عمَّد قسطنطيوس قبل موته.

[وبينما كان أساقفة الشرق في نقاش وحماس ودفاع مع الإمبراطور حضر "فالنس" ومعه توقيعات جميع أساقفة الغرب على قانون إيمان أريمينم، وهكذا كان في مجمع القسطنطينية كل الفئات ممثَّلة: الشرق المتحفِّظ بزعامة باسيليوس أسقف أنقرة، والشرق المتطرِّف (أكاكيوس) والغرب يجمعه "**فالنس**" كله في يده! ولكن على الورق فقط، لأن قلب الغرب كله كان ضد الإمبراطور وكل مقرراته، بل وكانوا في طريقهم للمناداة بيوليانوس إمبراطوراً على الغرب.

ولكن على كل حال لم يكن التوقيع النهائي من الجميع أمراً سهلاً، إلاَّ تحت تأثير تهديدات الإمبراطور ووعوده المعسولة بالكراسي الجديدة التي أُطيح بأصحابها!!

وأخيراً وفي آخر ليل في آخر ديسمبر سنة ٣٥٩ـ٣٦٠م أُخذت الموافقة النهائية.](٥٣)

وبمجمع القسطنطينية هذا تكون عدد المجامع التي تمَّ الإعداد لها بعد مجمع نيقية، وأخرجت قوانين وقوانين معدَّلة هي كالآتي:

١ ـ مجمعان في أنطاكية عند تدشين الكنيسة آنذاك(٥٤).

(51) Athanas. *De Synodis* II 32.

(52) *D.C.B.* Athanas p. 197; Epiphan. *Hear.* 73. 29.

(53) N.P.N.F. IV Athanas. p. lvi.

(54) Socrates II, 10.

٢ ـ مجمع ثالث عقده قسطانس في الغال (فرنسا) بواسطة الأسقف نارسيس(٥٥).

٣ – المجمع الرابع عقده أساقفة الشرق لتوضيح إيمانهم وكتبوا نسخة من قانون إيمان مطوَّل أعدوه، وسلّموه لأساقفة إيطاليا بقيادة أفدوكيوس(٥٦).

٤ – مجمع خامس وسادس وسابع في "**سيرميم**"(٥٧) ثم أُعيد السابع في **أريمينم** وصار اسمه "**سيرميم الرابع**".

٥ – مجمع ثامن بقيادة أكاكيوس في سلوقيا(٥٨).

٦ ـ مجمع تاسع وهو الأخير في القسطنطينية(٥٩). وهو الذي حُرِّم فيه كل مَنْ يقول بالطبيعة أو الجوهر عامة.

ويقول القديس جيروم عن منجزات الأريوسيين في سنة ٣٦٠م خاصة بمجمعي أريمينم وسلوقيا هكذا:

[وكان العالم كله يئن ويتوجَّع ويتعجَّب كيف (ولماذا) وجد نفسه قد صار كله أريوسياً؟](٦٠)

ويخبرنا المؤرِّخ سلبيسيوس ساويرس، وهو يتكلّم كمعاصر لِما رأى من حوادث، أنه في هذا الجو المملوء بالفوضى والتعدِّي وضياع هيبة الإيمان وامتلاء الكنيسة بالشرور، وجدت الغنوسية فرصة سانحة وجواً خصيباً لتدخل هي الأخرى ميدان التسابق في تحديد المفهومات الإيمانية والشروحات الإنجيلية، وبدأت في مصر. ولكنها استشرت أول ما استشرت في أسبانيا مختبئة تحت الممارسات والطقوس الروحية السرية على يد مارقوس المارق الذي كان من مواليد ممفيس، ولقد أغوى عُلية القوم من أغنياء وعلماء وطغى على بعض أساقفة أسبانيا ـ لأن أسبانيا بعد سقوط هوسيوس وقعت كلها تحت الأريوسية (على يد الأسقف بوتاميوس أسقف لشبونة ـ انظر تحت عنوان

(55) Ibid. II, 18.
(56) Ibid. II, 19.
(57) Ibid. II, ch. 30, 37.
(58) Ibid. II, ch. 41.
(59) Ibid.
(60) Jerome. *Dial. adv. Lucif.* 19. (Migne LXXII p. 172).

أثناسيوس في منفاه الاختياري الثالث، مؤلفاته ودفاعه أثناء ترحاله)(٦١).

ولكن وفي هذه السنة بالذات، كما سبق وأوضحنا في صفحات ٢٩٥-٣٠٢ صدرت رسائل أثناسيوس بعنوان "المجامع"، ويقصد بها مواجهة ما تمَّ في أريمينم وما تمَّ في سلوقيا، وقد بذل أقصى جهده ليخاطب ضمائر الأساقفة والخائفين الحائرين والنصف أريوسيين الذين ضلّلهم الأريوسيون الضالعون، وأخذ يشرح كل ما غمض عليهم في قانون مجمع نيقية الكبير، ويفضح كفر الأريوسيين وضلالة تفكيرهم، وكان استخدامه للأسفار المقدَّسة متقناً للغاية مع منطق سليم وحماس إيماني مخلص وشعور بالمسئولية جعل رجوع الأساقفة سهلاً وبالجملة، وكانت توبة شاملة واعية غطَّت العالم كله، ولكن بطيئة في حركتها! .. استغرقت عشرين سنة، فآخر مجمع عُقد وكان فيه الإعلان النهائي لانتصار الإيمان النيقاوي كان سنة ٣٨١م في القسطنطينية أيضاً(٦٢).



حلية ملونة على شكل ضفيرة في القاعة رقم ١٩ بدير باويط
ترجع إلى القرن السادس/السابع

(61) Sulp. Sev. *Sac. Hist.* 46.
(62) Beth. Bak., *op. cit.,* p. 187.

صلاة لأثناسيوس

[وما تعلّمته أنا شخصياً وسمعته من رجال فتوى وقضاء كتبته إليكم في كلمات قليلة،
وأنتم الذين بقيتم ثابتين على أساس الرسل
متمسّكين بشدة بتقاليد الآباء؛ هل أسألكم الصلاة!
لكي بعد هذا المشوار الطويل يتوقّف النزاع، وتتوقّف الخصومة،
ويُقضى على كثرة تساؤلات الهراطقة الباطلة مع حرب الكلام!
ويمنّ الله علينا بأن تختفي هرطقة أريوس أساس كل هذا القتال والإثم!
ويشرق الحق في القلوب مرَّة أخرى،
ويقول كل واحد في كل مكان **قولاً واحداً! ويفتكر شيئاً واحداً** (١كو ١٠:١).
وعندما لا يبقى بعد عار الأريوسية،
حينئذ نقول ونعترف في كل كنيسة «رب واحد إيمان واحد معمودية واحدة.» (أف ٤:٥)
في المسيح يسوع ربنا الذي به للآب المجد والقوة إلى دهر الدهور آمين.](٦٣)

عودة مؤقَّتة من المنفى:
موت قسطنطيوس وظهور أثناسيوس في الإسكندرية:

والآن يكون قد انقضى على بدء نزاع الأريوسية ٣٠ سنة! تحمَّل عبئها الأكبر ودفع ثمن جنونها وشذوذها وإرهابها القتّال، أثناسيوس حتى النهاية ولا يزال أمامها أيضاً عشرون سنة!!

ولكن نحن نهنِّئ أنفسنا إذ قد بلغنا "نهاية المتاهة"(٦٤) وقد رأينا كيف قد بلغنا إلى اليقين عوض التذبذب والارتباك، وإلى الرتابة والنظام عوض الفوضى والغموض.

(63) Athanas. 2 de *Synod.* III: 54.
(64) Socrates II, 41.

ولا يتبقّى أمامنا الآن من أعمال النفي الثالث لأثناسيوس في سبيل قضية الإيمان بالمسيح سوى ختام المأساة الثالثة التي تنتهي برجوع مؤقت.

بينما كان الإمبراطور قسطنطيوس مقيماً في أنطاكية، دخل يوليانوس (ابن أخت قسطنطيوس) في حرب مع البرابرة (إقليم الشمال)، ودحر جيشاً عظيماً منهم، فأحبه الفرنسيون وأقاموه إمبراطوراً عليهم، فأعلن نفسه قيصراً على الغرب يؤيِّده كل الشعب، فلمَّا علم بهذا قسطنطيوس (خاله) تألَّم غاية الألم وعزم على محاربته بغاية السرعة، وقبل سفره تقبَّل المعمودية المؤجَّلة على يد الأريوسي إيزويوس وانطلق بعدها لقيادة الحملة ضد يوليانس، ولكن بينما هو يعبر جبال طوروس بدت عليه علامات القلق الفكري والإنهاك العقلي، أصيب بعدها بالشلل (بانفجار شريان المخ) فوقع ومات في ٣ نوفمبر سنة ٣٦١م، بعد أن عاش ٤٥ سنة(٦٥).

وبموت قسطنطيوس صار يوليانس إمبراطوراً على الغرب والشرق، وكان مسيحياً ولكنه أنكرها منذ شبابه خفية وعاد إلى الوثنية.

وقد أُعلن في الإسكندرية رسمياً خبر تولِّي يوليانس الإمبراطورية في ٣٠ نوفمبر سنة ٣٦١م، وقد هلَّل الوثنيون واعتبروها فرصتهم، فكان أول عمل عملوه أن قاموا على جورج الكبادوكي الأسقف الدخيل الذي لم يمضِ على وصوله الإسكندرية أكثر من شهر، وأخرجوه خارج الكنيسة وقتلوه في ٢٤ ديسمبر سنة ٣٦١م، ما جاء بيانه في صفحة ٢٧٠.

ولقد أصدر يوليانس إثر توليه أمراً بإرجاع كل الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس **إلى بلادهم** (لم يقل إلى كراسيهم). ولم يكن ذلك منه توقيراً للكنيسة التي كان يكنُّ لها أشد البغضة، ولكن إظهاراً منه لاحتقار المناقشات التي دارت بين هؤلاء الأساقفة (الجليليين حسب تعبيره) وإمعاناً في الاستهزاء بقرارات الإمبراطور سلفه(٦٦).

انتهز أثناسيوس هذه الفرصة، ولأول مرَّة بعد ست سنوات ظهر ليلاً في الإسكندرية بصحبة لوسيفر أسقف كلاريس بسردينيا ويوسابيوس أسقف فرشللي بإيطاليا اللذين كانا منفيين في الصعيد بمصر، وكان ذلك في ٢٢ فبراير سنة ٣٦٢م، فكان فرح الشعب لا يمكن التعبير عنه!!

(65) Socrates II, 47.
(66) *D.C.B.* Athanas p. 197.

الفصل السادس

الجهاد حتى المنفى الرابع والخامس

مجمع الإسكندرية صيف سنة ٣٦٢م
(ملخَّص من خطاب أثناسيوس للأنطاكيين)
"المسمَّى بطومس أنطاكية"(١)

لقد قضى أثناسيوس على كرسيه زمناً سلامياً قصيراً للغاية، ثمانية أشهر قبل أن يأتيه الأمر الصارم بالنفي الرابع.

ولكن أثناسيوس اشتغل هذه الفترة بأقصى جهد لاستتباب أمور الكنيسة ليس في مصر فقط بل امتد عمله وبسرعة إلى خارج مصر، فأرسل خطاباً مجمعياً (صادراً من مجمع الإسكندرية) هاماً للغاية إلى أسقف وشعب أنطاكية بخصوص الاضطراب الحادث هناك.

وأول عمل قام به أثناسيوس هو إقامة مجمع في الإسكندرية لترتيب وتوضيح أمور كثيرة في الكنيسة، وبذل مجهودات سلامية أصبحت الكنائس في أشد الحاجة إليها.

وقد سُمِّي مجمع الإسكندرية هذا الذي حضره ٢١ أسقفاً **"بمجمع القديسين والمعترفين"** لأن كلهم حضروا إمَّا من نفي أو تعذيب!!

ولكن للأسف الشديد لم نعثر في جدول أسماء الأساقفة الذين حضروه على اسم سيرابيون (فهل كان مريضاً؟).

وكان من الحاضرين استريوس أسقف بترا (البطراء الآن) ببلاد العرب، أبوليناريوس أسقف اللاذقية، الكاهن بولينوس الذي كان يرعى رعية يوستاثيوس الأسقف الأنطاكي في أثناء نفيه، كذلك يوسابيوس أسقف فرشللي، ووفد يمثِّل لوسيفر أسقف كلاريس، مع أساقفة مصر المشاهير مثل دراكونتيوس (صاحب الرسالة) أسقف هرموبوليس الصغرى (Hermopolis)، وأدلفيوس أسقف أونوفيس، وهؤلاء الأساقفة جميعاً كانوا رسلاً لأثناسيوس في كل مكان أثناء نفيه، وكان معهم ثلاثة أساقفة من آسيا الصغرى.

---

(١) كلمة طومس Τόμος تعني مختصر جلسة أو ملخَّص حقيقة عامة، وهي صارت مستخدمة عامة في جميع الخطابات الناتجة عن المجامع.

وكانت أهم الأمور التي عُرضت على المجمع:

١ ـ مشكلة أساقفة مجمع أريمنم الذين يريدون العودة إلى الإيمان المستقيم:

أصبح يوجد الآن عددٌ كبيرٌ من الأساقفة الذين يتأسَّفون من أعماق قلوبهم على ضعفهم وعلى اللامبالاة التي سلكوا بها في مجمع أريمنم، فما هو الوضع الصحيح للتعامل معهم كمبدأ عام يكون من السهل تطبيقه في جميع كنائس العالم؟ (فصل ٣و٨).

٢ – مشكلة انقسامات أنطاكية:

لأنطاكية ارتباطات عقائدية وودية مع الإسكندرية، ومع أثناسيوس بالذات، تجاه "اليوستاثيوسيين"، والآن قد أصبح من الضروري إعطاء نصائح لبولينوس ورعيته في أنطاكية، ثم تقرير وضع سلامي بين الفريقين المتنازعين هناك خاصة بعد تدخُّل لوسيفر لغير صالح السلام.

ولأن عودة ميليتس قد خلقت مشكلة، فبولينوس **بسبب احترام** إيوزويوس له لأنه كان ذا **أخلاق عالية**(٢)، قد أُعطي له ـ أو رضي ـ أن يخدم في كنيسة صغيرة في حدود "المدينة الجديدة"، مع أن ميليتس يحتل كنيسة الرسل في المدينة العتيقة على نهر أورونتس Orontes.

٣ ـ اصطلاح الهيبوستاسس (الأقنوم) Hypostasis:

الآن أصبح هناك فريقان يتنازعان على معنى كلمة "هيبوستاسس"(٣)، فعدد كبير وخاصة الذين تخرَّجوا من جماعة "النصف أريوسية" تعوَّدوا أن يؤيِّدوا بها المعنى: " **ثلاثة هيبوستاسس" في ا لله.**

ولكن الأغلبية لا تزال متمسِّكة بالمعنى القديم الذي يؤكِّد أن في الله "هيبوستاسس واحد".

---

(٢) أ – انظر Socrate *E.H.* iii, 6

ب – يُلاحَظ أن الكاهن بولينوس هو الذي اختارته جماعة المعارضين لنفي أسقفهم يوستاثيوس سنة ٣٣٠م، وظلوا متعصبين لأسقفهم طيلة هذه المدة بلا هوادة، وقد تحولوا جميعاً إلى الأرثوذكسية ولمصادقة الغرب والولاء لأثناسيوس الذي صلّى معهم وحدهم سنة ٣٤٦م، انظر صفحة ١٩٤.

(٣) يقول العلاَّمة نيومان في كتابه عن الأريوسية [**Arians e. 5. s. 1**] أن معاني كلمة هيبوستاسس يمكن تلخيصها كالآتي:

(أ) حقيقة ثابتة.

(ب) جوهر كما جاء في عب ١:٣.

(ج) شخصية.

وأن حرومات مجمع نيقية وُضعت على أساس أن معنى هيبوستاسس يفيد الجوهر.

فالجماعة الأخيرة صاحبة "**الهيبوستاسس الواحد**"(٤) تتهم السابقين بالأريوسية، والسابقون يتهمون الآخرين بالسابيلية.

فهل من عملٍ يُعمل لكي يمنع الانقسام؟

٤ – ظهرت جماعة تريد التقليل من مفهوم التجسُّد إلى اتحاد بين الكلمة وبين فرد ذي بشرية مقدَّسة(٥):

في حين أراد آخرون أن يختزلوا العنصر البشري في سر التجسُّد وذلك بأن يختزلوا من بشرية المسيح "**النفس العاقلة**".

والعمل المطروح الآن أمام المجمع هو التوفيق والمصالحة، وهو عمل على غاية من المناسبة كما يقول غريغوريوس النزينزي في خطابه لأثناسيوس ولأساقفة الغرب.

وقد تقرَّر في المجمع:

أ – إن كل مَنْ خسروا حقوقهم في شركتهم في الكنيسة الجامعة يمكنهم استعادتها وذلك بالاعتراف بقانون إيمان نيقية. وبجحد كل هرطقة ظهرت في تلك الأيام (الفصل ٣و٨)، وأن يعترفوا بالروح القدس أنه غير مخلوق وأنه من جوهر الآب والابن ضمن الثالوث (فصل ٣).

ب – أمَّا بخصوص الجماعات التي تسكن في المدينة القديمة في أنطاكية أتباع ميليتس الأسقف، فهي عليها أن تتحد مع الجماعات الأخرى (تتصالح بالمعنى الأوضح) (فصل ٣) المحسوبين أنهم أتباع يوستاثيوس بقيادة بولينوس.

[ولكن للأسف الشديد لقد تسرَّع لوسيفر وبدون تروِّي، وبالرغم من نصائح أثناسيوس ونصائح يوسابيوس زميله في النفي، أن لا يتدخَّل في شئون أنطاكية، فقد ذهب إلى هناك متحمِّساً للفريق الأرثوذكسي بقيادة الكاهن بولينوس وأخذه ورسمه أسقفاً فأشعل نيران الفُرقة بينه وبين الأسقف ميليتس وإيوزويوس (الأريوسي سابقاً)، فجاء عمل أثناسيوس وتحكيمه الحكيم بعد فوات الوقت!! بسبب حماقة أسقف قليل الدراية بسلامة النفوس وراحتها، سريع المدِّ ليده بالرسامة دون مشورة الروح.](٦)

(4) Theodorel *Ecc. Hist.* ii, 8.

(٥) بدعة نسطور المستقبلة!!

(6) Socrates III, 6.

ج ـ أمَّا بخصوص اصطلاح الهيبوستاسس، فالإيضاحات والاستفسارات المتبادلة (خاصة بين فئات أنطاكية المتنازعة) أقرَّت أن الفارق في المعنى هو نتيجة عدم فهم، فالذين يقولون "بالهيبوستاسات الثلاثة" كانوا يقصدون [الثلاثة "أقانيم" الموجودة حقًّا]، والذين قالوا بالهيبوستاسس الواحد كانوا يستخدمون الاصطلاح الخاص بالجوهر Essence(٧) οὔσια، والمجمع يقترح ببساطة ضرورة استخدام لغة مجمع نيقية (الهيبوستاسس = الجوهر)(٨) لكلا الجماعتين، فإن الابن مساوٍ للآب في الجوهر، وإن الروح القدس غير مفترق من جوهر الآب والابن، والاعتراف بالثالوث الأقدس ووحدانية جوهر الله.

د ـ أمَّا بخصوص التجسُّد، فبعد الفحص وجدنا أنه لا يوجد تدبير خاص لإنكار التجسُّد الحقيقي للكلمة عند أي فريق، ولا هناك أي اتجاه يقلّل من كمال وتمام الناسوت الذي اتخذه المسيح كما ذهب إليه الأريوسيون (فصل ٧).

كذلك تحقّقنا من اعترافهم أن **المخلّص لم يأخذ جسداً خالياً من نفس أو حواس وعقل**، لأنه لا يمكن عندما صار الرب إنساناً من أجلنا أن جسده يكون بدون عقل، والخلاص الذي حدث بواسطة الكلمة ذاته لم يكن خلاصاً للجسد فقط بل خلاصاً للنفس أيضاً!!

فهو "ابن الله" حقًّا، وصار "ابن الإنسان"،

وهو ابن الله "الوحيد"، صار "**بكراً**" بين إخوة كثيرين.

٥ ـ بخصوص الروح القدس:

كان مجمع نيقية قد اكتفى بالإيمان بالروح القدس بعد ذكر الآب والابن، باعتبار أن لاهوته أمر مفروغ منه لأن العماد المقدَّس يتم باسم ثالوث واحد آب وابن وروح قدس، ولم ينشغل مجمع نيقية بتفصيلات ذلك كما يقول أثناسيوس، لأن الكتاب المقدَّس يشهد بوضوح عن لاهوت الروح القدس.

---

(7) Epiphan. *Haer.* 73-17.

(٨) وأيضاً يقول نيومان وستكوت إن أثناسيوس في شرحه للكتاب المقدَّس كان يستخدم هذا المعنى، أي أن الهيبوستاسس = الجوهر، وهذا في الواقع بخلاف ما درجت عليه الكنيسة القبطية وكل كنائس الشرق التي تؤكِّد أن الهيبوستاسس هو الشخص أو "الموضوع"، وهذا أدق في المفهوم اللاهوتي من تعبير "البروسوبون Prosopon". وقد استخدمها كل من أوريجانوس وديونيسيوس الإسكندري وألكسندر الإسكندري وأثناسيوس نفسه في كتاباته الأُولى حيث تفيد معنى **"وجود ذاتي محدَّد"**، فهي أفضل ما يعبَّر به عن الأقنوم.

Theodoret (*Ecc. H.* I, 4,1,19); Newman (*Arians* app. 4); Socrates (*Ecc. H.* iii, 7). Zahn (*Marell.* p. 87. sq.).

كما لم يحدث أي نزاع أو إنكار بهذا الخصوص، إلى أن قام مقدونيوس أسقف القسطنطينية كصوت جديد من أصوات الأريوسيين وأذاع هذا الغضب الجديد. ولذلك قرَّر مجمع الإسكندرية لاهوت الروح القدس ضمن وحدة جوهر الآب والابن موضِّحاً الثالوث لأول مرَّة بصورة قاطعة.

ويقول العالِم وليم برايت:

[إن الخطاب المجمعي Synodical Letter هذا، والمسمَّى: بـ**"طومس الأنطاكيين"** الذي أرسله أثناسيوس إلى أنطاكية، أي للأسقف بولينوس ورعيته، يعتبر من أنبل الوثائق التي خرجت من المجامع طرًّا.](٩)

كذلك يقول القديس جيروم عن هذا المجمع:

[إنه بأسلوبه السلامي الحكيم انتشل العالم كله من فك الشيطان.](١٠)

ويعود روبرتسون مقرظاً أيضاً هذا المجمع ويقول:

[نعم إذا كان حدث هذا حقًّا ولو بأي مقياس، وأنه فعلاً ألغى الذلة والحقارة التي تسبَّب فيها المجمعان التوأمان في الشرق (سلوقيا) وفي الغرب (أريمينم) سنة ٣٥٩م، فالكرامة لهذا الإنجاز العظيم هي لأثناسيوس وحده.

لقد أدرك أثناسيوس فعلاً أن الانتصار لا يُستحوذ عليه بالعنوة ولا بضرب الناس على وجوههم، الذين صاروا على استعداد للمصالحة والسلام، حتى لا تفرُّ من أيدينا قضية المسيح وتتباعد بسبب قصفنا للقصبة المرضوضة؛ وكتم الفتيلة المدخِّنة بدل إشعالها! ...](١١)

ويُلاحِظ الإنسان من هذا الخطاب الحكيم، ومن شدة الاتزان والهدوء اللذين صيغ بهما، أن أثناسيوس ليس هو المحارب الذي يشغف بالحرب بغية الانتصار وحسب، بل هو محارب يمهِّد الحقل للانتصار ليزرع فيه الوفاق والسلام في حينه الحسن!!

وهذا المجمع السلامي هو في الحقيقة أُولى ثمرات **"رسالة المجامع"** التي تُعتبر الخطوة الحاسمة التي وضعت أثناسيوس على قمة القوى العاملة لوحدة الشرق المسيحي، هذه القوى التي بعد أن وُهبت

(9) *D.C.B*, Athanas., 198.

(10) Jerome, *adv. Lucif.*, 20.

(11) N.P.N.F., 2nd ser, Athanas., lviii; Gwatkin, p. 205 ff, Newman, *Arians*, v. 1.

رئاسة متميِّزة في "أب الأرثوذكسية"، صارت قادرة بنجاح أن تقاوم فلول الأريوسية التي عادت وانتعشت تحت سياسة الإمبراطور فالنس، إلى أن طرحتها نهائياً بعيداً عن الكنيسة!!

وإن هذا المجمع بحكم العدل يعتبر تاجاً لأعمال أثناسيوس من جهة قراراته ومن جهة رسالته إلى أنطاكية، التي لا نخطئ إذا أكّدنا أنها صادرة منه، ومنه وحده!!

وكان لا يستطيع أحد في الوجود غير أثناسيوس أن يسوس ويلطِّف النار المتقدة في صدور جماعة الأساقفة المجتمعين الذين جاءوا من مرارة النفي والتعذيب، حتى يستطيعوا أن يفرِّقوا في قراراتهم بين متطلّبات زمان الحرب ومتطلّبات زمان السلم.



تاج لعمود، يمثل أغصان متشابكة لشجرة كروم و يظهر فيها عنقود العنب مع الورقة الخضراء بالتبادل
[ترجع إلى القرن السادس/السابع — واردة من دير أبَا إرميا بسقارة ومعروضة بالمتحف القبطي]

أثناسيوس في النفي الرابع والخامس

٢١ فبراير سنة ٣٦٢م - أول فبراير سنة ٣٦٦م

[النفي ٣٦٢-٣٦٣ الإمبراطور يوليان، ٣٦٣- ٣٦٦ الإمبراطور فالنس]

حدث قبل أن يعقد القديس أثناسيوس مجمعه في الإسكندرية، أن كان قد وصل إلى ولاة الإسكندرية رسالة الإمبراطور يوليان الجاحد (رسالة ٢٦) ينبِّههم فيها أنه أمر برجوع الأساقفة إلى بلادهم وليس إلى كراسيهم!! (حجَّة)، وأن أثناسيوس هذا الذي حُكم عليه عدة مرَّات كان ينبغي له أن يستأذن في العودة، وعليه في الحال أن يغادر لا المدينة فقط بل مصر كلها، وإلاَّ ستوقع عليه الغرامات.

ولكن عندما سمع كبار رجال الإسكندرية هذا أرسلوا رجوات كثيرة للإمبراطور دون جدوى - وبناءً على هذا الأخذ والعطاء بين أهل الإسكندرية والإمبراطور استمر أثناسيوس مطمئناً، وعقد مجمعه المشار إليه، وبقي مختبئاً في قبر أبيه ستة شهور.

وفي شهر أكتوبر - على ما يبدو - وصل من الإمبراطور خطابٌ آخر يعنِّف فيه الوالي أكريكوس أوليمبوس، مهدِّداً بغرامة شديدة إذا لم يغادر أثناسيوس (عدو الآلهة) لا الإسكندرية بل مصر كلها، هذا الذي تجرَّأ في عهدي وعمَّد سيدات شريفات، أي رجعن من الوثنية إلى الإيمان بالله (رسالة ٦).

ثم عاد وأرسل الإمبراطور رسالة أخرى (رسالة ٥١) إلى شعب الإسكندرية ممتدحاً الإله أبيس (هكذا) ومعنِّفاً العبادة المسيحية وآمراً بطرد أثناسيوس في موعد أقصاه أول ديسمبر[١٢]! ناعتاً أثناسيوس "**بهذا الزميل القصير الحقير**"، معبِّراً بذلك عن شعوره المتعض نحو أثناسيوس "**أنه وقف ضد قسطنطيوس كملك يحارب ملكاً!**"[١٣]، وأنه أصبح في مصر قوة أعظم من قوته وصاحب سلطان يفوق سلطانه!

---

(١٢) وصلنا أمر مشابه أن نغادر القاهرة في ظرف ٢٤ ساعة على يد اثنين من المطارنة هما أنبا بنيامين مطران المنوفية السابق وأنبا مينا مطران جرجا الحالي فغادرناها إلى وادي الريان، ظللنا نعبد ونصلِّي ١٠ سنوات حتى وصلنا أمر بالعودة فعدنا، ولله الأمر أولاً وآخراً.

(13) Greg. Nazianzy.

مع أنه في الحقيقة لم يُواتَ أحد هذه الفرصة السياسية و لم يستغلها قط كما فعل أثناسيوس. فبالرغم من هذا الاعتراف المغري على الثورة فعلاً، إلاَّ أن أثناسيوس، في هدوء، أحنى رأسه للعاصفة وانسحب من الإسكندرية أيضاً في الوقت المناسب (٢٣ أكتوبر سنة ٣٦٢م) قبل أن يقتحمها الوالي بجنوده كما فعلوا في الماضي، ولكنهم لم ينتصحوا أبداً...

ووقف أصدقاؤه يتوسَّلون إليه أن لا ينثني أمام هذا الطغيان، ولكنهم كانوا مخطئين، فأثناسيوس يرى ما وراء الغيوم، ورد عليهم "إنها سحابة وسوف تنقشع"(١٤).

وركب قاربه النيلي الخفيف واتجه مسرعاً نحو أعالي الصعيد، هذا الطير الرشيق ابن الخمسة والستين عاماً! ولكن كان الجواسيس يتتبَّعون! فلمَّا أحس هو بذلك وكان في عمق النيل قفل راجعاً فقابلهم في النيل وهم يسعون خلفه مُجدِّين مُجدِّفين! فلمَّا سألوه عن أثناسيوس رد عليهم بنفسه "أسرعوا وراءه هو لا يزال أمامكم ليس بعيداً عنكم"، وترك كلاب الصيد تجري وتجري بلا طائل، وهذا المشهد الساحر يصفه أثناسيوس بنفسه(١٥)، أمَّا هو فقفل راجعاً ونزل في مدينة قرب ممفيس تُدعى كايرو Chaereau(١٦).

وبعد أن توقَّف الخطر ورآهم وقد عادوا مخذولين وبات سعيهم عبثاً كالمعتاد، انطلق هو أيضاً في قاربه السحري بقيادة الرهبان الباخوميين الأشداء والأتقياء إلى أعالي النيل مرَّة أخرى ... إلى مدينة هرموبوليس ومدينة أنتينوبوليس (أنصنا).

وبينما هو هناك حدثت هذه القصة المملوءة حقيقة كالخيال، ولكن إبداعها فطري منسجم يتوافق تماماً مع ما نعلمه عن بعض فئات الرهبان الموهوبين.

(14) Sozom. V, 14.

(15) Theodoret, *Ecc. Hist*, iii, 9, Socrates, iii, 14.

(16) *Vita Anton.*, 86.

كيف عاد أثناسيوس من منفاه بناءً على رؤيا

قصة الراهبين ثيئوذوروس وبامون بخصوص عودة أثناسيوس مع تحقيقاتها وتفرعاتها:

[هذه قصاصة من مخطوطة تحتوي على تقرير مثير لقصة رواها أثناسيوس لآمون أسقف باخنيمونيس Pachnemunis (مدينة عاصمة لمقاطعة فرع النيل المسمَّى سابي نيتيك أي: فرع شبين - وهي المنوفية غالباً)(١٧)، وهو من الأساقفة الذين حضروا مجمع الإسكندرية الأخير، ونحن نضعها هنا - في قصة هروب أثناسيوس أثناء منفاه الرابع - لأهميتها بالنسبة لتنقلات أثناسيوس سنة ٣٦٣م.

وقد اقتبسها العالِم "مون فاكون" عن تقرير مُرسل من الرئيس (أبا) ثيئودور إلى ثاوفيلس أسقف الإسكندرية (٣٨٥-٤١٢م) بواسطة شخص اسمه "**آمون**"، وهذا كان أثناء الكتابة أسقفاً (وُلِدَ سنة ٣٣٥، ترهَّب ابن ١٧ سنة، وأثناء مطاردة أثناسيوس بواسطة سيريانوس نزل واستقر في نتريا - ثم عاد بعد زمن كثير إلى الإسكندرية وصار كاهناً ورُسم أسقفاً حوالي ٣٥٦م(١٨) أو سنة ٣٦٢ حيث كان عمره آنئذ ٢٨ سنة).

والقصة رويت كما يذكرها آمون عن أثناسيوس بعد حوالي ١٥ سنة من كتابتها. (وهذه واحدة من التنبؤات الكبيرة التي يحملها التاريخ بخصوص موت يوليان الجاحد).

وهذا الخطاب أو التذكار (الميمر) المأخوذ منه هذه القصة كان قد سجَّله الإخوة البولاندست من مخطوطة تحمل في داخلها كل أسباب الأصالة والصحة.]

القصة:

[إني أعتقد أن قداستكم كنت حاضراً وسمعت بنفسك البابا الطوباني أثناسيوس في حضور إكليروس الإسكندرية وحقارتي في الكنيسة الكبرى، كيف أخذ يقص علينا خبر ثيئوذوروس لأمونيوس المطوَّب أسقف إليأرخيا وحرمون أسقف بوباسطيس.

(17) N.P.N.F., 2nd Ser., Athanas, p. 486, note 10.
(18) *D.C.B.*, I, 102.

وأنا الآن أكتب فقط لأذكركم بأهمية ما قيل.

فحينما كان الأساقفة المشهورون مجتمعين عند المطوَّب أنطونيوس كيف قال لهم أثناسيوس بحضور أنطونيوس - لأن أنطونيوس كان كثيراً ما يلازم أثناسيوس:]

حديث أثناسيوس:

[لقد رأيت أيضاً في هذه الأيام (أيام الهروب والنفي) رجال الله - الذين تنيَّحوا أخيراً - ثيئوذوروس الذي كان رئيس رهبان طبنسيا، وكذلك أب رهبان الجهات المحيطة بأنتينوا واسمه أبا بامون، لأني بينما أنا مُطارَد بواسطة رجال يوليان الذي كان يتوقَّع ذبحي، لأن أخباره بلغتني بواسطة أصدقاء أمناء، وإذ قد جاء إليَّ هذان الراهبان في ذلك اليوم نفسه في أنتينوا وقد خطَّطوا أن أختبئ مع ثيئودور، فنزلت في مركبه الذي كان كله مغطَّى من الداخل، بينما كان أبا آمون مرافقاً لنا.

فلمَّا صار الريح معاكساً صرت قلقاً وبدأت أصلِّي، واضطر الرهبان الذين مع ثيئودور أن يرسوا المركب على الشاطئ ويربطوه (الريح المعاكس في النزول إلى الصعيد يجعل الإبحار جنوباً من المستحيل لأن تيار مياه النيل يكون ذا قوة شديدة بالإضافة إلى الريح ..).

وبينما أبا آمون يشجِّعني أن لا أقلق قلت له: "صدِّقني كما أقول لك إن قلبي دائماً يكون في هدوء واثق في أوقات الاضطهاد أكثر من أيام السلام، لأني أثق ثقة حسنة أني باحتمالي الآلام من أجل المسيح وأنا متشدِّد برحمته حتى ولو ذبحت، فإني سأجد رحمة عنده ..."

وبينما أنا أقول ذلك لاحظت ثيئودور يثبت عينه على أبا آمون وابتسم، وإذا بالآخر أيضاً يكاد يضحك! فقلت لهما لماذا تضحكان على كلامي، هل تريدان إقناعي بالجبن؟ فقال ثيئودور لأبا آمون: "قل له لماذا ابتسمنا"، وإذا بالآخر يقول له: "يلزم أن تقول له أنت".

فقال ثيئودور: "إن في هذه الساعة مات يوليان ذبحاً في فارس"!! ... (٢٦ يونيو سنة ٣٦٣م) "لأنه هكذا أعلن الله مسبقاً بخصوصه: "الإنسان المستعلي والمحتقر والمنتفخ سوف لا ينجز شيئاً" (حبقوق ٢:٥ سبعينية)، وسوف يقوم إمبراطور مسيحي مشهور ولكنه لن يعيش طويلاً".

فلا تزعج نفسك بالنزول إلى الصعيد، ولكن اذهب سرًّا إلى بلاط الإمبراطور لأنك

ستقابله في الطريق، وهو سيقابلك ببشاشة ورفق، وحينئذ تعود إلى كنيستك! أمَّا هو فسيأخذه الله سريعاً.]

وهكذا قد تمَّ .. ثم يستطرد أثناسيوس قائلاً:

[ومن هذا أنا أعتقد أن كثيرين بالرغم من أنهم يعيشون غير مذكورين - من الناس - ولكن يعيشون في رضا الله خاصة بين الرهبان! ومن هؤلاء الرجال آمون المطوَّب والقديس ثيئوذوروس الذي من جبل نتريا، وهذا الرجل العجوز السعيد بامون (كان وقتها لا يزال حيًّا).](١٩)

انتهت الرواية

وإليك أيها القارئ العزيز نص أخبار رحلة البابا أثناسيوس (أثناء هروبه) إلى صعيد مصر وتواجده في كل الأديرة هناك، واستقبال الأساقفة له على شاطئ النيل، بالتفصيل كما وردت في كتاب تاريخ باخوميوس المطبوع صفحة ١٦٤-١٦٥:

[وفي عروض ذلك وفد الأب أثناسيوس الباباس إلى مدينتي أنتينوا وأرموبوليس اللتين كانتا صقب (بجوار) أديرة الكنونيون لافتقاد الشعب بهما، وسمع أثناسيوس النبأ الطيِّب الساير عن الأب تادرس وكيف وهو حار بالروح نشيطاً في الاهتمام بما عاد بمصالح إخوة الأديرة وبخلاص أنفسهم وأنه يُكثر من تعليمهم من غير ملل ولا كلل، فسُرَّ بذلك كثيراً وابتهجت نفسه وقال للأساقفة الذين معه: ألا ترون أب هؤلاء الإخوة الكثيرين الملتئمين في هذه الديارة من أماكن شاسعة كيف يجاهد عنهم ويعظهم ويحرص في خلاص أنفسهم أكثر من حرصه على خلاص نفسه. أمَّا نحن آباء الشعب فمن منا يحرص على خلاص شعبه كحرصه هذا أو يجاهد جهاده، لقد فاز الشعب الذي هو أبوهم، الحاملون صليب المسيح طوعاً، المهتمون بخلاص أنفسهم، الذين تعبهم يفضي إلى راحة تكون لهم إذ يتوجون من الإله باريهم. ثم أنه شاء أن يبصر أديرة الكنونيون وترتيبها ونظامها لأنه لم يكن أبصرها نظراً بل سمع عنها خبراً، ولمَّا فرغ من افتقاد شعب المدينتين المذكورتين بارك عليهم وانفصل عنهم وتوجَّه إلى زيارة الديارة ولمَّا حصل فيها وطاف جميعها وأبصر الكنائس التي فيها وبيوت الموائد والمخابز وبيوت الضيافات والبيمارستانات (أماكن استشفاء المرضى) حتى وبيوت الماء التي للحاجة الضرورية (دورات مياه صحية) فأعجبه حسن ترتيبهم واختبر اعتقادهم

(19) NPNF, 2nd Ser., Athanas, p. 487, *Hist. Aceph.*

فوجدهم على الاعتقاد المستقيم فسُرَّ بذلك جدًّا ومضى إلى الدير الكبير "**بافو**" حيث كان الأب تادرس، وطافه بجملته وأبصر الهياكل التي فيه وسائر قلاليه وبيوت الصنائع، وعاين زي الإخوة وتمسُّكهم واتضاعهم ووداعتهم وأُعجب من كل شيء وبالأخص اتفاق أخلاقهم، وأبصر سيرتهم وترتيبهم و لم يكن ظهر في العالم بعد أُناس أرضيون كملائكة سمائيين، فقال لتادرس: قد كانت تصل إلى مسامعي أخباركم وحميد سيرتكم وجميل تصرُّفكم والآن قد شاهدت بالبصر ما ينيف ويعلو على الخبر، **بالحقيقة أقول لك لقد اخترع الأب باخوميوس هذا الإبداع الحميد واستنَّ هذا التصرُّف السديد والمذهب الرشيد ما قد ضاهى به أعمال الرسل الأماثل والتلاميذ الأفاضل إذ جعل النفوس مسكناً لروح الله**(٢٠)، وها أنت قد صرت بعده سالكاً آثاره مقتفياً نظامه لأنني عاينت كافة الآباء الإخوة الذين هم اليوم تحت أمرك وطاعتك وهم عجيبون جدًّا في سائر أمورهم ورسومهم ونعمة الله حالة فيهم بواسطة الكبير أبيهم وسفارتك أيها الأخ تادرس وحسن اهتمامك بهم والكل يبصرونك مثل المسيح، فثق إذاً وتأيَّد بالله وجاهد ولا تمل، ثم أنهم عملوا "أغابي" واستعملوا غدا وقال البابا لتادرس: الفصح المقدَّس قرب وأشاء أن أكون عند أصحابي وأنت فكن معافى مع رهبانك واذكرني في صلواتك ثم رام الانفصال عنه. وأمَّا تادرس فلم يفارقه بل سار معه مشيعاً إيَّاه إلى البحر، ولمَّا أبصر أن المركب الذي كان معه مثقَّل أعطاه مركب الدير لمسيره وراحته، ووصَّى الإخوة خدَّام المركب قائلاً أينما شاء امضوا معه لأن له سلطة على أجسادكم أيضاً فضلاً عن السفينة.

ولمَّا كان الوداع قال البابا لتادرس: أنا حزين إذ لم أبصر الأب أورسسيوس لأن على ما سمعت أنه في دير منخوسين، وإذ كان هذا الدير منفرداً عن باقي الديارة وبمعزل عن طريقنا لا أمضي إليه بل خذ كتابي **وأوصله إلى قدسه** والإخوة المقيمين معه، ثم أنه جلس وكتب ما هذا فحواه: **لا يحزن قدسك وقدس الجماعة ــ حرسكم الله ــ عليَّ إذ لم أجيء إلى عندكم لأبصركم وآخذ صلواتكم التي أنا أسأل الله أن يمنحني إياها أينما كنت لأن ديركم بعيد جدًّا** وعيد الفصح المقدَّس قد قرب، لكنني تمتَّعت برؤية الأخ تادرس خليفتك أيها الأب أورسسيوس ومساعدك والنائب عن أبوَّتك، وبنظري إليه كأني رأيت الأب باخوميوس وسررت حقًّا عند مشاهدتي بقية الإخوة أولاد البيعة الطاهرة، الله يبارك عليهم

(٢٠) البابا أثناسيوس هو أول أسقف يسبغ على الطقس الرهباني الصفة الكنسية رسمياً.

ويجزل ثوابهم، وعند وداع الأخ تادرس إياي قال لي اذكرني في صلواتـك ولجماعـة الإخـوة ولا تخلينا منها فأجبته أنا بما قال الروح في المزمور إن نسيتك يا أُورشليم أنسى يميني ويلصـق لساني بحنكي إن لم أذكرك، فاذكرنا أنت والجماعـة في صلواتكـم. وانكفـى تـادرس بعـد مسـير الأسقف إلى عند الأب أورسسيوس وأوصل كتاب الأسقف إليه وتلا جميع ما جرى له معـه مـن الخطاب عليه.]



(أ) وحيث أن البابا أثناسيوس يذكر للأب ثـاؤذوروس أنـه **قـد قـرب الفصـح وأنـه يـود أن يكون في الإسكندرية في هذا الميعاد.**

(ب) ثم حيث أن القديس ثاؤذوروس تنيَّح أثناء هذا الفصح بالذات سنة ٣٦٣م(٢١)، إذن يبدو لنا أن القصتين ـ قصة أثناسيوس ورؤيا بامون وقصة زيارة أديرة بـافو وملاقـاة تـادرس ـ لابـد أن يكونا في ذات السنة بل وفي نفس الموسم.

ثورة أنطاكية وموت يوليانوس الجاحد

١ – يوليانوس الجاحد في أنطاكية وأُورشليم:

جمع هذا الإمبراطور المبتز كثيراً من أموال المسيحيين بحجة إعداد حملة ضد الفرس، وإمعاناً في الابـتزاز فقد أصدر قانوناً أثناء وجوده في أنطاكية بتخفيـض أسـعار المعيشـة لكـي يسـتطيع أن يمـوِّن جيشـه قبـل الارتحال بأرخص التكاليف. ولكن هذا أدى إلى كساد البلاد، لأن كثيراً من التجار تركوا تجارتهم. لأنـه ليس فقط أن هبوط الأسعار أثر في القدرة الشرائية للمموِّلين، بـل وجـود الجيـش وابتـلاع البضـائع والأغذية مرَّة واحدة وبكثافة كبيرة أورد جميع الأسواق في المدينة وخارجها موارد البطالة والإفلاس!

فقام الأنطاكيون بمظاهرات صاخبة لأنه شعب لا يحتمل الإثارة، وعملوا صورة لذقن الإمبراطور (وكانت طويلة جدًّا بحسب الوصف) وأخذوا يصرخون بضرورة جَزِّهـا لعمـل حبـال للمدينـة لأن الحبال أخذها الجيش!

(21) Krüger (in Theology. Litrg. 2g) p. 620.

وكان الإمبراطور قد صك نقوداً تحمل صورة ثور بقر (عجل أبيس رمز الإله الذي نادى الإمبراطور بعبادته)، فأخذوا يصرخون أن هذه علامة شؤم أن الثيران سوف تختفي من العالم - لأن الجيش لم يُبقِ طبعاً على عجل أو ثور - بالإضافة إلى الذبائح الكثيرة التي أصبح يقدِّمها الإمبراطور على مذبح الإله أبيس!



العملة النقدية التي سكّها الإمبراطور يوليانوس الجاحد

الوجه الأول: صورة يوليانوس (القسطنطينية ٣٦١-٣٦٣)

الوجه الثاني: عجل أبيس

وأراد الإمبراطور أن يُظهر أمام الشعب أن ذبائح الثيران للآلهة ليست أمراً غريباً، فاليهود كانوا يقدِّمون الثيران إلى الله الذي هو إله المسيحيين أيضاً، وهكذا استدعى اليهود وطلب منهم ضرورة بناء هيكل سليمان وإصلاح المذبح القديم لتقديم الذبائح، وحالما سمع اليهود ذلك أسرعوا بكل غيرة وحماس وقوة لتنفيذ أمر الإمبراطور الذي هو منتهى شهوتهم، خاصة وأن الإمبراطور أمر بأن جميع مصاريف إعادة بناء الهيكل تكون على حساب الخزانة العامة للدولة. وهكذا استطاع اليهود بمعونة الدولة في تجهيز كل أدوات البناء.

ولكن ما أن بدأوا البناء إلاَّ وقد حدثت زلزلة هدمت ما كان قد بقي من أسوار عالية سواء للمدينة أو الهيكل، فارتعب اليهود حول الركام المتهدِّم وإذا بنار تخرج وتحرق كل الأدوات والأخشاب التي أُعدَّت للبناء وظلَّت النيران مشتعلة يوماً كاملاً(٢٢).

وقد عزا اليهود ذلك إلى وجود مقابر للمسيحيين بجوار الهيكل ملاصقة لجدرانه، فأشاروا على مندوبي الإمبراطور بإزالة المقابر وحرق الجثث. ولعلم المسيحيين بأهمية هذا التراث أعطوا نقوداً لرجال الإمبراطور وحملوا أجساد القديسين ومنها أليشع النبي ويوحنا المعمدان وكانا في قبر واحد

(22) Socrates *Ecc. Hist.* III, 20.

وحملوها إلى الإسكندرية وقدَّموها لأثناسيوس(٢٣)، وليس صحيحاً بالمرَّة ما يدَّعيه البعض أن الأجساد لحقتها آثار النيران.

٢ – موت يوليانوس الجاحد بسهم في جنبه في ٢٦ يونية سنة ٣٦٣م:

وقبل الربيع أتم يوليانوس الحملة واتجه نحو الفرس واجتاح جزءاً كبيراً منها أمامه هادماً القلاع والحصون واستولى على مدن كثيرة، ولمَّا طلب ملك الفرس الهدنة والتسليم رفض لأن حكماءه أوحوا إليه أن روح الإسكندر الأكبر حلَّت عليه، مما دعاه للكبرياء والصلف، فتقدَّم هو بجيشه راكباً على حصانه بدون دروع، وإذا بسهم يصيبه في ذراعه وينغرس في جنبه، فأخذ ينزف حتى مات!! ولكن من سخرية النفس الجاحدة وشعورها بالانغلاب، لا بيدٍ ولا برمح، بل بقوة الرب الذي طالما شتمه وعيَّره، أخذ يوليانوس قبل أن يموت مباشرة حفنة من دمه وقذفها ناحية السماء قائلاً: "قد غلبتَ أيها الجليلي."(٢٤)

تعيين الإمبراطور جوفيان

[إمبراطوراً لمدة ثمانية أشهر فقط]

اجتمع ضبَّاط الجيش وهم في ارتباك عظيم بسبب المعركة الدائرة وأسرعوا في انتخاب "جوفيان"، وكان برتبة جنرال، ونادوا به إمبراطوراً لروما. وهو رجل نبيل موطناً وميلاداً.

وإزاء هذه الحالة الخطرة التي كان يواجهها جيش روما، اضطرَّ جوفيان لعقد معاهدة صلح ـ مدتها ٣٠ سنة ـ فَقَدَت فيها الإمبراطورية الرومانية كل حدودها شرق نهر دجلة مع مدينة نصيبين، وانسحب من بلاد فارس دون فقدان مُذلٍّ للشرف العسكري(٢٥).

الأمر بعودة الأساقفة المنفيين وخطاب خاص لأثناسيوس:

كان معروفاً عن جوفيان منذ البدء أنه أمين لعقيدة نيقية، موقِّر للإيمان بالمسيح في ضوء مفهوم "الهوموؤوسيون"، فبمجرَّد عودته إلى أنطاكية أصدر أمراً بعودة الأساقفة المنفيين في أيام يوليانس أو

(٢٣) التاريخ النيقوسي صفحة ٤٣٧، تاريخ البطاركة لابن المقفَّع، ولاروس القرن العشرين الجزء الرابع صفحة ٢٠٩.

(24) Socrates, *Ecc. Hist.*, III, 21., Theodoret., *Ecc. Hist.* III, 25.

(25) Socrates III, 22, IV 2.

قسطنطيوس، وأمر بإلغاء مراسيم الدولة للعبادة الوثنية، كما أرسل خطاباً خاصاً ودياً وتشجيعياً للقديس أثناسيوس يدعوه فيه للعودة إلى كرسيه وتدبير شئون الكنيسة(٢٦).

أثناسيوس يعود إلى الإسكندرية فوراً(٢٧):

دخل أثناسيوس إلى الإسكندرية ليلاً وبقي فيها سرًّا، ووصله على وجه السرعة خطاب من الإمبراطور الجديد جوفيان يطلب منه أن يباشر خدمته ويكتب قانون الإيمان في صورة كاملة ليكون هو "**الإيمان العام**" أو الإيمان الجامع "الكاثوليكي".

فعقد أثناسيوس مجمعه في الإسكندرية في الحال وحرَّر خطاباً مجمعياً أي "سينوديقيا" فيه كل الإيمان النيقاوي بالتفصيل، مؤيَّداً من الأسفار المقدَّسة، وهو لا يزال حتى اليوم يُتلى في كثير من كنائس العالم عامة ومنها بريطانيا بوجه خاص، وأخذه معه وسافر.

أثناسيوس يسافر إلى أنطاكية:

وأخذ أثناسيوس طريقه عبر هيرابوليس إلى إدسا ليقابل جوفيان الإمبراطور الجديد حاملاً معه خطابه المجمعي (٦ سبتمبر سنة ٣٦٣م الجدول الفصحي)، وقابله الإمبراطور هناك بترحاب كثير وعاد معه إلى أنطاكية التي غادرها الإمبراطور في ٢١ ديسمبر سنة ٣٦٣م، وواصل أثناسيوس السفر إلى الإسكندرية بعد ذلك، فوصلها في ١٤ فبراير سنة ٣٦٤م (حسب الجدول الفصحي)، حاملاً معه خطابات الإمبراطور ليضع يده على كل الكنائس.

وهكذا نجد أن نفيه الرابع استغرق ١٥ شهراً واثنين وعشرين يوماً(٢٨).

أعمال أثناسيوس في أنطاكية:

من مجريات الحوادث يتبيَّن لنا أنه مكث في أنطاكية ما يقرب من أربعة شهور ونصف - كل الشتاء - ويبدو أن زيارته لأنطاكية كانت هامة، ونجد في سرد هذا الخبر من الجدول الفصحي والتاريخ غير المعنون (*Hist. Aceph.*) ومن وصية بامون الراهب، أن أثناسيوس كان في سباق مع الزمن (أسرع وقابل الإمبراطور الجديد)، لذلك نجده يعبر على الإسكندرية، ولا يمكث بها بل يضطر أن يدخلها متخفياً تحاشياً للتعويق، كما اتخذ الاحتياط الكافي بأخذه عدداً من الأساقفة

(26) Socrates III, 24.
(27) *D.C.B.* Athanas. p. 199.
(28) *Hist. Aceph.*

المعيَّنين وآخرين يمثلون الأغلبية القائمة في كنيسة مصر - أمَّا سر هذا كله فلأن الأريوسيين لمَّا سمعوا بخبر الإمبراطور الجديد، أسرعوا هم الآخرون لإرسال وفد كبير يمثّلهم (من مصر) للشكوى أيضاً ضد أثناسيوس، ويطلبون لأنفسهم أسقفاً (على الإسكندرية)، وقد رافقهم الأسقف النصير لهم لوقيوس، فكانت رحلة أثناسيوس النشطة مباراة ناجحة جاءت في سرعتها في وقتها الحسن. فقد حاز أثناسيوس احتراماً وترحاباً فوق العادة، كما يقول سوزومين(٢٩)، وعلى خطاب موجز من جوفيان يأمره فيه بالعودة إلى كرسيه ليباشر جميع اختصاصاته، كما سلَّم أثناسيوس بدوره إلى الإمبراطور الرسالة السينوديقية التي يشرح فيها موقفه الثابت من قرارات مجمع نيقية، كما رتبها في المجمع في الإسكندرية، وخاصة في ما يتعلّق بلاهوت الروح القدس(٣٠).

لماذا تأخر أثناسيوس في أنطاكية:

لمَّا تأكَّد أثناسيوس أن الأريوسيين يحاولون تغيير وجهة الإمبراطور جوفيان الجديد، ارتضى أن يمكث أكثر في أنطاكية لتكميل مصالحة يرجوها، وبالأكثر لمراقبة الأريوسيين وإفساد مساعيهم عن كثب.

لقد حاول الأريوسيون باستماتة الضغط على الإمبراطور جوفيان، ولكن على حد تعبير "جواتكن" استخدم معهم الإمبراطور الخشونة العسكرية، كما كان بادِيَ الإزدراء من جهتهم!

الأريوسيون يلحُّون:

يا سيادة الإمبراطور "**أي إنسان آخر غير أثناسيوس**"!!

الإمبراطور جوفيان:

"لقد قلت لكم إن موضوع أثناسيوس قد انتهيت منه نهائياً"!

إلحاح الأريوسيين ...

الإمبراطور جوفيان للعساكر الواقفين:

"استخدموا العصي"!

وقد هزأ الأنطاكيون من لوقيوس في مرأى من الإمبراطور(٣١)!

(29) Sozom. VI, 5.

(30) Athanas. *Letter no. 56*, p. 567.

(31) NPNF, 2nd Ser., Athanas., p. 586. sq.

ولقد انتهز أثناسيوس فرصة وجوده في أنطاكية وحاول ما أمكن لعمل مصالحة بين الفريقين المتنازعين، كما ذكرنا عنهما سابقاً، كما عمل كثيراً في تنظيم شئون الكنيسة(٣٢). وهنا لا يفوتنا أن ننبّه أن أثناسيوس كان له تأثير ليتورجي على كنيسة أنطاكية كما حدث في روما أيضاً، لأنه ظل يصلّي بالقداس القبطي (باللغة اليونانية) مدة أربعة شهور في أنطاكية مع أساقفته.

موت الإمبراطور جوفيان المفاجئ:

لم يمكث هذا الإمبراطور الطيب القلب الذي أحبه جميع ضباطه وكل الهيئات المدنية والسياسية بالإضافة إلى الكنيسة التي توسّمت فيه حكماً سلامياً يهيئ الفرصة لتضميد الجراح.

ولكن للأسف بعد سفر جوفيان من أنطاكية في ٢١ ديسمبر ٣٦٣م وصل إلى طرسوس، وهناك أدّى مراسيم التجنيز اللازمة نحو يوليان سلفه بحسب الأصول الرومانية لأباطرتها المتوفين، ومن طرسوس صوّب ناحية آسيا الصغرى، واستراح في مدينة داداستانا على الحدود بين غلاطية وبيثينية، وهناك تقدم ولاقاه فيلسوف الإمبراطور مع السناتو أي الشيوخ المرابطين في القسطنطينية، وقرأوا أمامه خطبة التنصيب، والتي أُعيد قراءتها في القسطنطينية بعد ذلك. ولكن قبل أن يصل الإمبراطور إلى القسطنطينية، وهو لا يزال في داداستان، داهمه مرض مفاجئ يُقال إنه انسداد في الأوردة مباشرة، ويُقال إنه نام في غرفة حديثة البياض بالجير وأن مواقد الفحم كانت كثيرة فتشبّعت الجدران بأول أكسيد الكربون، ومات في يوم ١٧ فبراير ٣٦٤م(٣٣).

تنصيب فالانتينيان Valentinian إمبراطوراً على الغرب وتعيين أخيه فالنس على الشرق

بعد موت جوفيان غادرت الحامية التي ترافقه إقليم غلاطية ووصلت إلى مدينة نيقية العتيقة في بيثينية حالاً، واستغرقت مسيرتها سبعة أيام مشياً على الأقدام، وهناك أعلن الضباط بصوت واحد فالانتينيان إمبراطوراً في ٢٥ فبراير سنة ٣٦٤م.

(32) *Hist. Aceph.* Sozom., VI. 5.

(33) Socrates III, 26, Sozom., VI, 6.

وكان مولده في بانونيا (ما بين يوغوسلافيا والنمسا) من مدينة سيباليس، وهو ضابط ماهر وكان راجح العقل جدًّا، يبدو عظيماً بل أعظم من أي تكريم كان يقدَّم إليه، وكان وفياً بالإيمان الأرثوذكسي، موقِّراً لمقررات مجمع نيقية، وبمجرَّد تنصيبه تقدَّم إلى القسطنطينية مع فرقته.

وبعد ثلاثين يوماً من تنصيبه إمبراطوراً عيَّن أخاه فالنس زميلاً في الحكم وكان أريوسياً، وذلك لأنه كان قد تعمَّد على يدي إفدوكسيوس أسقف القسطنطينية الأريوسي، وكان كلٌّ منهما ـ الإمبراطور وأخوه ـ يناصر فريقه بشيء من الحماس الزائد.

وانطلق فالنتينيان نحو الغرب، واستقر فالنس في القسطنطينية يدير شئون الإمبراطورية في الشرق.

بدء الاضطهاد على أيام فالنس:

بمجرَّد توليه الحكم في الشرق أصدر فالنس أمره إلى المقدونيين أتباع الهرطقة الأريوسية ليقيموا مجمعاً ويصحِّحوا فيه العقيدة، ظاناً بذلك أنه يستطيع أن يوحِّد صفوف الأريوسيين مع أكاكيوس وإفدوكسيوس.

وفي نفس الوقت أسرع إلى أنطاكية ليطمئن على حدود البلاد إزاء معاهدة الصلح مع الفرس، وهناك بدأ يضطهد أصحاب عقيدة نيقية، فنفى ميليتس وكل أتباعه، وكل مَنْ رفض الشركة مع إيوزويوس وأخرجهم من كنائسهم وعاقبهم وسلبهم أموالهم، وأمر بإغراق بعض منهم في نهر الأورونتس(٣٤).

(34) Socrates IV, II.

اضطهاد فالنس لأثناسيوس والنفي الخامس والأخير

٥ مايو سنة ٣٦٥م - ١ فبراير سنة ٣٦٦م

[أقل وأهدأ فترة نفي في تاريخ أثناسيوس]

لم يكد يجلس أثناسيوس على كرسيه ليلتقط أنفاسه ويتراءى وسط شعبه الذي أحبه، من ١٤ فبراير سنة ٣٦٤ إلى ٥ مايو سنة ٣٦٥م، حتى وصل الإسكندرية منشور من الإمبراطور الجديد فالنس الأريوسي يأمر جميع الأساقفة الذين أصابهم النفي في حكم يوليان بأن يعودوا إلى منفاهم مع التهديد بالغرامة الثقيلة.

ولم يرحموا هذا الأسقف الذي وإن لم تكن قد أضنته الاضطهادات فقد أضنته السنون، فأثناسيوس الآن عمره ٦٧ سنة! - لعن الله الأريوسية واليوم الذي اشتغل فيه الأباطرة بالدين!!

هبَّ الشعب غاضباً ومهدِّداً، وأمام كثافة التجمُّع والتهديد وعدهم الحاكم برفع مظلمة سريعة للإمبراطور(٣٥) في يوم ٨ مايو سنة ٣٦٥م.

ولكن في اليوم الخامس من أكتوبر وصل الأمر الإمبراطوري سرًّا. وكالعادة الدنيئة لسلوك الحكومات العاجزة، هجمت فرقة كاملة من الحرس على كنيسة القديس ديونيسيوس ليلاً بحثاً عن الأسقف "إيَّاه"، ولكن أثناسيوس بحسه المرهف وروحه الشفافة وخبرة الدهر في تنسُّم رائحة الصيَّادين من بُعد، كان قد غادر الإسكندرية في الميعاد المناسب بل في تلك الليلة عينها! والتجأ إلى بيت ريفي له على "النهر الجديد"(٣٦)، في حين أن سقراط يقول إنه اختبأ أربعة أشهر في مقبرة أبيه(٣٧)، ويقول إن هذا "النهر الجديد" يفصل الإسكندرية عن ضواحيها في الغرب (ربما موقع ترعة المحمودية الآن).

ولكن الشعب لم يحتمل هذا العسف المريع، فقامت في الخريف ثورة في كل الشرق، ولكن

(35) *Hist. Aceph.* X, followed by Sozom. IV, 12.

(36) Ibid. First Index.

(37) Sacrates IV, 13.

كانت ثورة الإسكندرية عارمة لا تُضبط، ولم تستطع قوات الإمبراطورية التصدِّي لها، وبلغت المدينة حالة الخطر، وفي أول فبراير سنة ٣٦٦م وقف براسيداس مسجِّل الإمبراطورية على المنصة وأعلن للشعب أمر الإمبراطور بعودة أثناسيوس!! وذهب براسيداس بنفسه مع قوة من رجال الإدارة إلى ضاحية الإسكندرية وأحضروا أثناسيوس بكل كرامة حتى كنيسة ديونيسيوس(٣٨).

وكان في ذلك اليوم (أول فبراير / ٧ أمشير سنة ٣٦٦م) فرح عظيم لدى كل الشعب.



نحت قبطي من القرن السادس

(38) Socrates IV, 12.

سنين أثناسيوس السلامية الأخيرة
أول فبراير سنة ٣٦٦م - ٢ مايو سنة ٣٧٣م

دخل أثناسيوس في السبعينات من عمره، ولم يكدر صفو هذه السبع سنوات الأخيرة منها إلاَّ حادثان صغيران:

الأول: سنة ٣٦٧م، قام لوقيوس - الأسقف الدخيل الأريوسي الذي رسموه في أنطاكية ليكون على الإسكندرية - بمحاولة مستميتة ليدخل الإسكندرية، وليستولي على إحدى الكنائس فيها ليروِّج للأريوسيين.

وصل هذا اللص بالليل في العتمة يوم ٢٤ سبتمبر، ولكن ما كاد يصبح الصباح حتى اشتمَّ شعب الإسكندرية صاحب المزاج الانفعالي الحار رائحة هذا الذئب من خلف الجدران، وفي الحال رتَّب الإسكندرانيون ومن تلقاء أنفسهم ثورة انتقامية على غرار ما عملوه مع جورج منذ قليل من السنين!

وعلى آخر لحظة استطاعت القوة الحربية بكاملها أن تطوِّق مكانه وتنتشله بالقوة من وسط هذا المشهد الخطير، وفي يوم ٢٦ سبتمبر كان قد وُضع في مركب لترحل به بعيداً عن البلاد(٣٩).

أمَّا الثاني: فقد حدث في السنة السالفة لخروج لوقيوس من الإسكندرية مطروداً أن قام الوثنيون بإحراق كنيسة السيزاريوم (القيصرية)، ولكن صدرت الأوامر الإمبراطورية في الحال بمعاقبة المعتدين وإعادة بناء الكنيسة على حساب الدولة والتي تمَّ بناؤها في مايو سنة ٣٦٨م(٤٠).

وفي ٢٢ سبتمبر سنة ٣٦٨ أيضاً ابتدأ أثناسيوس ببناء كنيسة في حي "Mendidium". وقد

(39) NPNF, 2nd ser, Athanas. p. lxii.
(40) Ibid.

يكون بمناسبة بلوغه ٤٠ عاماً على كرسي الأسقفية(٤١)، والتي تمَّ تدشينها في ٧ أغسطس ٣٧٠م، وتسميت بعد ذلك باسم أثناسيوس.

مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٩م:

ويبدو فيه أثناسيوس حارس مجمع نيقية العجوز ابن الواحد والسبعين عاماً، لا يزال ديدباناً لا ينام ولا يغمض له جفن، طالما بقي في الإسكندرية إصبع واحد للشيطان باسم الأريوسيين.

فحينما نما إلى علمه اعتلاء داماسوس سنة ٣٦٦م لأسقفية روما خلفاً لليبريوس، وتأكَّد بعد مضي ثلاثة أعوام أنه متباطئ في تأمين كاثوليكية الكنيسة في إيطاليا ذاتها، متخاذلاً أمام أوكسنتيوس(٤٢) أحد زعماء مجمع أريمينم الكفري، مبقياً عليه متربِّعاً على أهم كنيسة في إيطاليا **"ميلان"!!** وينفث في وسط الإكليروس والشعب سموم الأريوسية مجدَّداً؛ لم يطِقْ أثناسيوس ذلك أبداً، وهو مدرك تماماً كما أدرك المؤرِّخ تيمون (٨: ٤٠٠)، أن داماسوس لا حول له ولا سلطان، فمَنْ ذا الذي يقدر على خلع هذا النمر الكبادوكي من كرسيه، ولكن هذا المنطق الانهزامي لا يفهمه أثناسيوس ولا يجيزه، ولا يخضع لقهره قط، فالإيمان الأرثوذكسي لا يعرف الخوف ولا القهر ولا الأمر الواقع.

لذلك، فقد جمع تسعين أسقفاً من مصر وليبيا (فصل ١٠)، وأرسلوا احتجاجاً وتحذيراً وشرحاً مفصلاً لجميع أساقفة مصر وأفريقيا **(يقصد جميع الأجزاء الشمالية التابعة لإقليم قرطاجنة)**(٤٣)، كما أرسلوا رسالة تشجيعية لداماسوس كي يتحرَّك فلم يتحرَّك .. وبقي هذا الأريوسي على كرسيه إلى أن مات سنة ٣٧٤م.

هذا كان الغرض الأول من مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٩م، ولكن انتهزه أثناسيوس كعادته لكي ينشر الوعي النيقاوي بالإيمان المسيحي الأرثوذكسي في كل أنحاء الغرب سواء شمالاً في إيطاليا

---

(41) *Hist. Aceph.* VII.

(٤٢) "أوكسنتيوس": هذا أصلاً مواطن كبادوكي وليس إيطالياً، بل وكما يقول أثناسيوس، لا يعرف أن يتكلَّم اللاتينية (انظر تاريخ الأريوسيين: ٧٥) وقد رسمه قساً في الإسكندرية الأسقف الدخيل الأريوسي جريجوري (٣٣٩-٣٤٦م) لأنه "بلدياته" وبعد طرد ديونيسيوس من كرسي ميلان سنة ٣٥٥م عيَّنه قسطنطيوس على هذا الكرسي، وقد تزعَّم حركة الأريوسيين في أريمينم مع أورساكيوس وفالنس، وقد تمسَّك بكرسيه في ميلان بتشجيع الإمبراطور إرغاماً. وقد مات سنة ٣٧٤م وحل محله أمبروسيوس العظيم.

(43) *D.C.B.*, Athanas. p. 200.

وأسبانيا أو في الجنوب على شوطئ إفريقيا الشمالية، لأن أخشى ما كان يخشاه أثناسيوس أن يبقى مجمع أريمينم ومقرراته عالقاً في أذهان الإكليروس، لأنه كان آخر مجمع كفري نشره الإمبراطور قسطنطيوس بالسلاح والقهر الأدبي - أو التصفية الجسدية - كما يقولون الآن!!

لذلك نجده في الفصول من (١-٣) يقارن بين قوانين مجمع نيقية مع قوانين مجمع أريمينم، كمعلّم لا يمل من الشرح والتوضيح.

ثم يعود كمن يتباهى بعظمة نيقية ومجمعها الإلهي يستطنب في مفهوماته الإلهية ويحقّقها على أصولها من الأسفار المقدَّسة، كمعلِّم حاذق يعرف كيف يرد الفروع إلى الأصول وكيف يتعمَّق حتى الجذور (فصل ٤:٨).

ثم ينعكف مرَّة أخرى (فصل ٥و٦) على براهين ومماحكات الأريوسيين ويخليها من معانيها ويجرِّدها ويعرِّيها من الإلهام ومن أي سند لاهوتي. ثم يعود في الفصل (٦و٩) يدافع بقوة ونعمة أن مجمع نيقية لم يخترع شيئاً لا اصطلاحات ولا مفهومات كما يدَّعي يوسابيوس، بل أنه تحصيلٌ واقعٍ إنجيلي مسلَّم من الرسل والآباء.

ثم يعود في فصل (٧) يحاصر جماعة الهومويان - أصحاب عقيدة التشابه - بمجرَّد التشابه بين الآب والابن، ويصفها بفكرة "**التذبذب**"، وكأن اللاهوت فيه حلٌّ وسط بين التساوي وعدم التساوي في الجوهر!!

وأكثر المواضيع حداثة والتي لم يطرقها أثناسيوس سابقاً بهذا العمق هو موضوع الأوسيا οὐσία والهيبوستاسس ὑπόστασις، الذي جاء في مجمع الأريوسيين في بلدة Nike أو نيس بإقليم تراقيا، وهذا في الفصل (٤) حيث عاد إلى الأسفار المقدَّسة مبتدئاً من الخروج ٣:١٤ (كما سبق وأشار في كتاباته السابقة "على القوانين": ٢٢ و"على المجامع": ٢٩). ثم عاد وطبق على المفهوم المقابل لهما في الاصطلاحين، والحقيقة أنه كان أشد قرباً من المفهوم الغربي لمفهوم الاصطلاحين مما تعودنا أن نسمعه في التفسير الشرقي.

ومن تباشير الفرح ما ذكر في نهاية هذا المجمع أن كل مصر صار يجمعها مرَّة أخرى الإيمان الواحد، وقد أشار إلى ذلك في فصل (١٠) أن جميع الأساقفة صاروا فكراً واحداً وروحاً واحداً، إلى الدرجة التي يمكن أن يوقع فيها أي أسقف عوض أسقف آخر اطمئناناً إلى مدى الثقة التي

صارت لدى الجميع في الروح الواحدة التي جمعت شمل الأساقفة في مصر وليبيا(٤٤).

بقية أعمال أثناسيوس الأخيرة:

أمَّا بقية أعمال أثناسيوس فلم يستطع المؤرِّخون أن يجدوا لها مصدراً واضحاً حتى الآن، فكان اعتمادهم على الخطابات الهامة الستة (٥٩ـ٦٤).

ومن الأخبار القليلة الواردة عرضاً في كتاباته الأخيرة، مثل الخطابات إلى سينيسيوس الليبي (خطاب ٧٧)، التي تكشف لنا عن مدى وداعة وحكمة أثناسيوس في ربحه للنفوس الضعيفة، ومدى قدرته على سرعة مداواة المواقف التي يمكن أن ينجم عنها نزاعات خطيرة دون المساس بالإيمان.

قصة سيداريوس:

ضابط شاب يتبع قوة الجيش المرابط في ليبيا في مأمورية مدنية، وكان أسقف المنطقة (أريترم) ويُدعى أوريون في شيخوخة مضمحلة، وكان سكان القريتين الكبيرتين في الإيبارشية في حزن ولهفة بسبب عدم الرعاية، وكانوا يضجُّون في طلب أسقف لهم ويطلبون رسامة سيداريوس.

وبناء على ذلك قام أحد الأساقفة برسامته بمفرده، وكان يُدعى فيلو، غير مراعٍ قانون الرسامة الذي ينص على حتمية وجود اثنين آخرين للمساعدة، بل وبدون إخطار أثناسيوس وهو رئيس الأساقفة.

ولكن بنظرة ثاقبة أدخل أثناسيوس في اعتباره الضرورة الملحة التي أجبرت الأسقف على الرسامة، فتغاضى أثناسيوس عن المخالفة، بل ولكفاءة سيداريوس رقّاه إلى رتبة متروبوليتيس بتولمايس، وأضاف القريتين المذكورتين إلى أبروشيته بعد نياحة أوريون(٤٥).

والعجيب أن أثناسيوس الذي أجاز مثل هذا التعدِّي على قوانين الكنيسة، إذ لم يكن عبداً للقوانين، هو نفسه وفي نفس البلد والمدة حكم على أحد حكّام ليبيا بالحرم الكنسي بسبب سوء أخلاقه، وصار هذا أمراً معلوماً في طول الدنيا وعرضها!

صداقة باسيليوس أسقف قيصرية:

رُسم باسيليوس سنة ٣٧٠م على قيصرية الكبادوك وهي مسقط رأسه، (وهي الآن باسم

(44) NPNF, 2nd ser, Athanas., p. 488.

(45) *D.C.B.* Fuller. IV, p. 777.

قيصرية في وسط تركيا)، ومنذ رسامته لم يكُف عن مراسلة القديس أثناسيوس، ولشدة الأسف فُقدت جميع رسائل أثناسيوس لباسيليوس وبقيت رسائل باسيليوس فقط!

وكانت معظم الرسائل تدور حول الانقسام القديم الحاصل في أنطاكية، وكان باسيليوس يسأل بإلحاح أن يتدخّل أثناسيوس، وإن كان يتعذّر على أثناسيوس أن يؤثّر على ميليتس وأساقفته، فليس أقل من أن يستخدم نفوذه على بولينوس ويأمره بالتراجع. لأن ميليتس كان يشعر بالمرارة بسبب مناصرة أثناسيوس الشديدة لبولينوس، ولكن بولينوس كان ضعيف الاستجابة(٤٦).

ولكن حصل أثناسيوس على مؤازرة ضخمة لباسيليوس وذلك بتوسُّطه عند أساقفة روما والغرب بخصوص قضايا الشرق تجاه الأريوسيين، ولكن للأسف لم يكن أساقفة الغرب على مستوى المسؤولية أبداً(٤٧).

تبادل الاحترامات:

كثيراً ما عبَّر باسيليوس عن شعوره تجاه أثناسيوس بقوله:

[**له الاحترام الكلّي والمديح بغير حدود!** صاحب الوعي العميق والمبادرة العملية والرقة الإنجيلية، رأس الكنيسة، الرجل صاحب النفس الكبيرة الرسولية، الأب الروحي.]

كما عبَّر أثناسيوس عن احترامه لباسيليوس تجاه مقاوميه الذين يحاولون التشكيك في أرثوذكسيته، فكان يعنّفهم بقوله داعياً إيَّاه: [أسقف تتمنَّى كل كنيسة أن يكون أسقفها.](٤٨)

نشاط حتى النفس الأخير ضد أبوليناريوس أسقف اللاذقية:

وفي سنة ٣٧٢م كتب أثناسيوس كتابين ضد أخطاء أبوليناريوس في غاية الحذق والعمق والغنى اللاهوتي، وهي الصفات التي ميَّزت كتبه منذ أن كتب إلى آخر ما كتب!

ولكنه تحاشى أن يذكر اسم أبوليناريوس لأنه كان الصديق القديم!(٤٩)، بل وكان ممثلاً مع

(46) Basil, *ep*. 60, 66, 63, 80, 82, 89. Theodoret, *Ecc. Hist.* V, 23.

(47) Basil, *ep*. 61, 67, 69, 80, 82. *D.C.B.*, p. 200.

(48) Ibid.

(49) Epiphan. *Hear.*, 77.2.

أثناسيوس في مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢م بواسطة وفد رسمـي مـن قِبلِه، وختـم ووقَّـع علـى كـل مقررات المجمع، ولكن للأسف زاغت روح أبوليناريوس بعيداً عن روح الإنجيل.

ولأثناسيوس ضد أبوليناريوس في هذين الكتابين عبارات لاهوتية جديدة وعميقة وشاملة وقاطعة كما جاء في حديثه المطوَّل عن الأريوسية: أن المسيح: "**إله حقيقي في الجسـد، وجسـد حقيقـي في الكلمة!!**"(٥٠)

وظل أثناسيوس يكتب ويشرح ويرد على رسائل ويتصرَّف كمستشار لكافة كنائس العالم، وكعون لكل أسقف مضطهد، وكانت رسائله وتوسطاته ذات احترام بالغ لـدى كافـة أسـاقفة العالم.

وظل بكامل صحته لم تكلّ عيناه ولا شاخ عقلـه قـط، وببلوغـه الخامسـة والسـبعين مـن عمـره يكون أثناسيوس قد قطع خمس وأربعين سنة في خدمة أسقفيته التي ـ بحـق ـ لا نسـتطيع أن نقـول إنها كانت الإسكندرية أو مصر بل كانت العالم المسيحي!

لقد تداعى أثناسيوس تحت ثقل السنين لتتلألأ عقيدة نيقية على ممر الدهور. لقد مات أثناسـيوس وبقيت "الهوموؤوسيون" حيَّة إلى الأبد.

ومما قاله العلماء عنه:

[إن حياة أثناسيوس كانت استشهاداً متواصلاً.] تيمون

[إن سرد تفاصيل حياة أثناسيوس هو بحد ذاته مديح تعز الألفاظ عن أن تصوِّرها.] موللر

[إن الإنسان عندما يقرأ حياة أثناسيوس يتمنَّى لو لم يمت.] موللر

[توافق المواهب: اتفاق مع معرفة مع تمييز.] نيومان

[عمق الحق الذي يضيء كل كتاباته بإحساس من له علاقة بالمسيح فاديه،

الإصرار الفائق، مع أن طبيعته أصلاً شديدة الحساسية!

التعاطف الذي جعل منه صديقاً، وصانع سلام حتى كسب الولاء الحار!

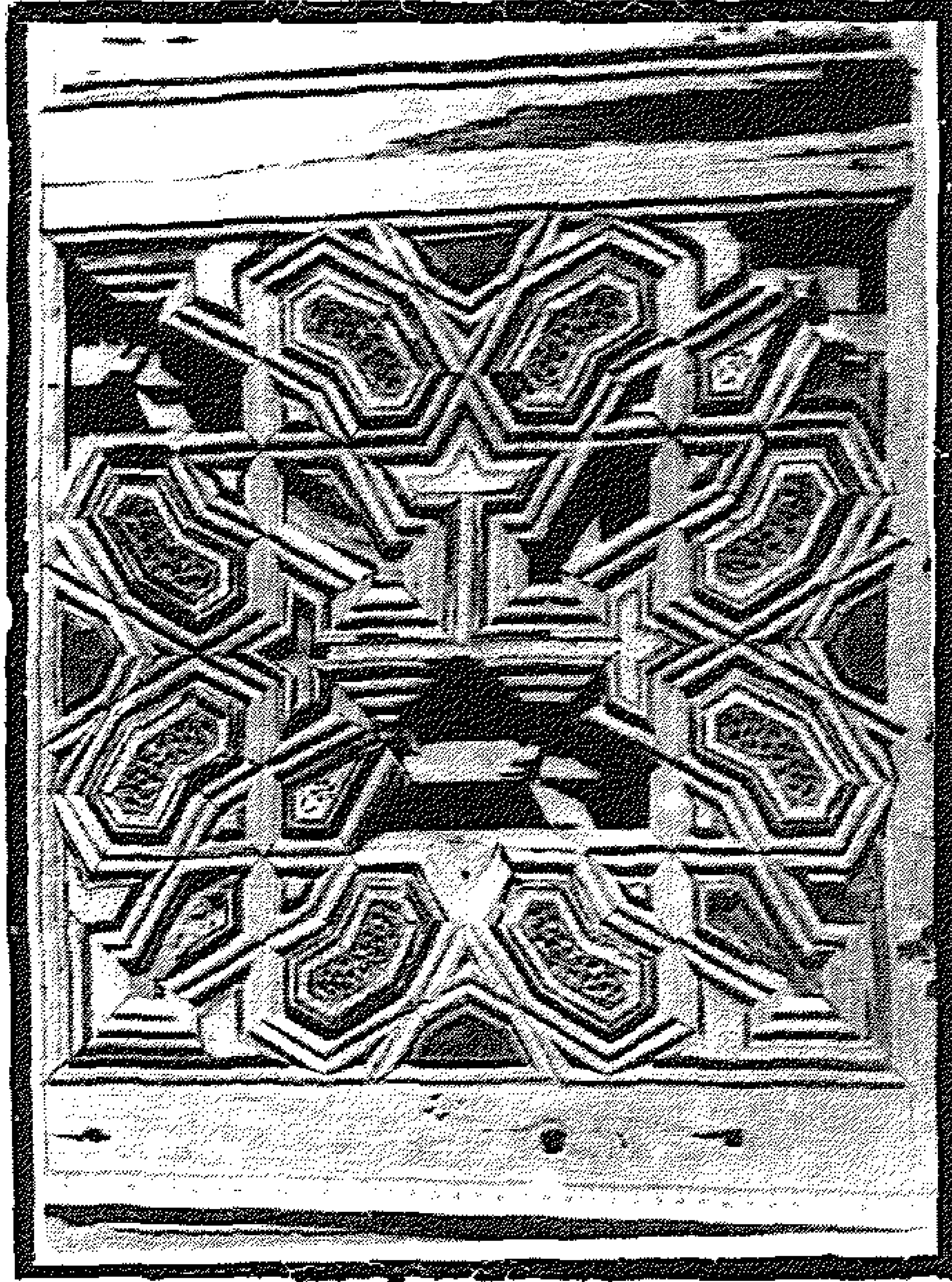
أغنى ـ بكتاباته ـ كبار اللاهوتيين ورؤساء الكنيسة بقوة تفوق عطاء البشر!

(50) *Oration* III. 41.

فلا نغالي إذا قلنا إنه صاحب أكبر اسم في كنيسة ما بعد الرسل.] ستانلي

[إن أثناسيوس عاش في الحق الذي لا يموت.](٥١)

[ظل أثناسيوس يزرع أشجاراً طوال حياته حتى تتمكَّن الأجيال القادمة أن تستظل تحتها.](٥٢)



صليب مطعم بالعاج
موجود حالياً بمكتبة دير أنبا مقار
و يبدو أنه مأخوذ من حجاب هيكل كنيسة الملاك ميخائيل بالحصن
يرجع إلى القرن الثالث عشر

(51) *D.C.B.*, p. 202., (Christ. Rememb. 37-206).
(52) Ibid.

عظة للقديس غريغوريوس النزينزي يمدح أثناسيوس الكبير

[حينما أمدح أثناسيوس فأنا أمدح الفضيلة!
فالكلام عن أثناسيوس ومديح الفضيلة هما عملان مترادفان!
فأثناسيوس حاز الفضيلة بل واقتناها بل واحتواها،
ولا نحزن فالذين عاشوا بوفاق الله مهما ارتحلوا عنّا فهم لا يزالون يعيشون في الله!
من أجل هذا يُسمَّى الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب لأنه ليس إله أموات بل إله أحياء.
ومرَّة أخرى أقول إني عندما أمدح أثناسيوس فأنا أمدح الله! الواهب الفضيلة للبشر.]

[أمَّا كل مَنْ استطاع أن يفلت من طوق المادة وحجاب هذا الجسد بواسطة نظرة العقل والتأمُّل، وبلغ الشركة مع الله ورافقه قدر ما تحتمل أن تبلغ طبيعة الإنسان، عن طريق "النور" الفائق الطهر، فطوبى لذلك الإنسان ولسعيد هو، سواء في ارتقائه من هنا أو في تقبُّله التبني لله هناك، هذه هي هبات الفلسفة الحقة حينما يسمو الإنسان فوق المادة عن طريق إدراك الوحدة القائمة في الثالوث!

أمَّا كل الذين حُرموا من هذا بارتباطهم باللحم والدم وطغيان التراب عليهم، حتى أن الواحد لا يستطيع بمجرَّد التطلُّع نحو أشعة الحق أو يسمو فوق الأرضيات مع أنه مولود من فوق ومدعو أيضاً لميراث العلا، فيا لبؤس هؤلاء مَنْ أصابهم العمى حتى ولو كانوا على أعلى شهرة في ما يختص بأمور هذا العالم، والأدهى من هذا أنهم يدرِّبون أنفسهم على المزيد - من هذا الوهم - باقتناع أن هذا شيء جميل عوض الجمال الحقيقي، ويحصدون بذلك الفقر من فقر تدبيرهم، ويُخرجون على أنفسهم حكم البقاء في الظلام، وفي النهاية يرونه لهيب نار عوض أن يروه نوراً.

هذه هي فلسفة بعض الناس قديماً وحديثاً.]

[ومع أن الجميع هم صنعة يديه، فقليلون هم رجال الله، الذين بينهم المشترعون والكهنة والأنبياء، والإنجيليون والرسل، والرعاة، والمعلّمون، وكل زمرة الروحيين والذين بينهم جميعاً مَنْ جئنا اليوم نمدحه!

مع هؤلاء حُسب أثناسيوس مناظراً، فإزاء بعضهم يُحسب ممتازاً وتجاه آخرين ـ أقول متجرِّئاً ـ يُحسب متفوِّقاً.

وبعض من هؤلاء أخذهم أثناسيوس نماذج لتفتُّحه الذهني، وآخرين معياراً لنشاطه والبعض مثالاً لاتضاعه، وآخرين في الغيرة المتقدة أو لمواجهة المخاطر أو للارتقاء إلى مستوى الأدب الجم، جامعاً من هذا وذاك كل أشكال الجمال الخلقي، وأخذهم جميعاً معاً في نفسه، فخرج لنا من هذا كله نموذجاً متكاملاً في الفضيلة، متفوِّقاً **بالفعل** على كل **أقرانه** في الامتياز الفكري ...

هذا الذي من أجل منفعتنا صار مثالاً لكل الآتين بعده!]

[ولكي نتكلَّم عن أثناسيوس ونعطيه حقه تماماً من الكرامة سيكون عملاً أكثر مما يحتمله الموقف الآن في حديثي معكم، لأن هذا يكون عملاً تاريخياً أكثر منه مديحاً كنسياً للذكرى، ولكنني أشتهي بالفعل أن يكون موضوع اهتمامي مستقبلاً كتابة تاريخ له، لمسرة ومنفعة الآتين بعدنا، كما كتب هو تاريخ أنطونيوس ذلك الرجل الإلهي الذي فيه رسم قوانين الرهبنة على مستوى الرواية كقصة.

فأثناسيوس شب منذ حداثته على ممارسة الحياة الدينية وسيرة التقوى، بعد دراسة مختصرة للآداب والفلسفة، الأمور التي لا ينبغي أن يكون جاهلاً بها أو غير متمهِّر فيها، وهو سينقدها مستقبلاً!

أمَّا بخصوص نفسه الوثَّابة التوَّاقة للعلا، فأبت أن تبقى منحصرة في الأباطيل، بل ظل يهذ في كافة الأسفار للعهد القديم والعهد الجديد بعمق لم يبلغه أحد نظيره، **فشبَّ غزير التأمُّل والتفكير رصين السلوك وجمع هذا بذاك كما برباط ذهبي، قلَّما استطاع أحد أن يجمع بينهما، مستخدماً السلوك في الحياة كمدخل للتأمُّل، والتأمُّل جعله ختماً على الحياة كلها**، لأن مخافة الله بدء الحكمة، أي أن الخوف هو قماط الحكمة الأول، ولكن متى قطعت الحكمة أقمطة الخوف الأُولى فإنها تنبثق إلى أعلى في جو المحبة، فتجعلنا الحكمة أحباءً لله وأبناءً عوض عبيد.]

[وهكذا شبَّ أثناسيوس متمرِّناً، كما ينبغي لكل مَنْ أراد الآن أن يرأس على شعب ويأخذ لنفسه مهمة قيادة جسد المسيح (الكنيسة) بمقتضى مشيئة الله وعلمه السابق الذي هو قائم في الأساس قبل كل أعمال الله العُظمَى!

لقد سكب الله عليه هذه الخدمة الجليلة فجعلته واحداً من القريبين إلى الله، فاستأهل الخدمة المقدَّسة وكرامتها، وبعد أن أكمل درجات التدبير بكل إخلاص (شماس وكاهن بدرجاتهما) **استؤمن على الرئاسة العليا للشعب أو بالحري مسؤولية العالم كله!**

ولست أعلم هل أخذ الكهنوت مكافأة للفضيلة التي حاز عليها، أو أخذ الكهنوت ليكون نبعاً وحياة للكنيسة؟

فالكنيسة صارت كإسماعيل على صدر أمه، فأُغمي على إسماعيل من العطش، وأمَّا الكنيسة فإلى الحق! أو صارت كإيليا عندما احتاج إلى خرير نهر خابور عندما جفَّت الأرض من الجدب فارتوى، لكي تبقى بذرة للصلاح حيَّة في إسرائيل وحتى لا نبقى نحن أيضاً مثل سادوم ونشابه عمورة.

لذلك فنحن حينما انطرحنا أرضاً، ارتفع أثناسيوس كقرن خلاص لنا وكحجر زاوية أبقى الله عليه ليربطنا معاً وبنفسه، أظهره الله في حينه الحسن، أو قُل (أثناسيوس) هو النار التي أرسلها الله ليطهِّر به الشر الذي بيننا، أو هو (أثناسيوس) المذراة التي جاء بها الله لينقِّي أصحاب العقيدة الهشَّة المزعزعة من أصحاب العقيدة الراسخة الثابتة!

لذلك وجده المسيح الكلمة طريقاً له،

والروح القدس وجد فيه مَنْ سيتنفَّس لحسابه!

وهكذا ولهذا كله بصوت جميع الشعب وليس على طريقة الشر والغش التي ابتدعوها بعدئذ (الهراطقة)، ولا بسفك الدماء والقهر، ولكن بأسلوب رسولي روحاني قادوه إلى الكرسي الرسولي الذي للقديس مرقس ليخلفه في التقوى وليس أقل منه في الإدارة والخدمة!!]

غريغوريوس اللاهوتي

تكملة عظة للقديس غريغوريوس النزينزي في مدح أثناسيوس

عظة في القسطنطينية في عيد نياحته سنة ٣٨٠م

[▪ كان أثناسيوس في أعماله متسامياً وفي عقله وتفكيره متواضعاً،
▪ لا يُضَارَع في الفضيلة، ومنفتحاً لكل مقارع ومحاجج،
▪ لطيفاً، متحرِّراً من روح الغضب، مترفِّقاً،
▪ حلواً في الحديث، وحلواً أكثر في التدبير، ملائكي الطلعة، وملائكياً أكثر في الفعل،
▪ هادئاً عند التعنيف والمراجعة، مقنعاً في المديح، هذا وذاك دون أن يكون مُسفاً في المزيد من الكيل،
▪ سواء للذي يعنِّفه، فهو يعنِّفه كأب، أو الذي يمدحه فهو يمدحه كرئيس ذي وقار،
وكان في ترفُّقه غير مأخوذ بعواطفه، وفي تعنيفه غير مَسوق بمرارة القسوة. فكان في هذا ذا وقار، وفي ذاك حكيماً متبصِّراً بالعواقب!
وفي الاثنين حقًّا على مستوى التعقُّل!
▪ وكان تدبيره كافياً لتمرين أولاده الروحيين بأقل حاجة إلى الكلمات!
▪ وكانت كلماته تغني كثيراً عن العصا!
▪ وكان استخدامه للعصا يغني عن السكِّين (الحرم).]

[والله وحده الذي أنا واقف أمامه أتكلَّم لحسابه قادر أن يعطيني ما يستحق أن يُقال في حق نفس مثل أثناسيوس التي وُهبت قدراً كبيراً من النبالة وقدراً أقوى من سلطان الكلمة ...]

[هذا هو أثناسيوس. عندما كان في وسطنا، كان عمود الكنيسة.]
[لقد كان قسطنطيوس يرى أن قمع كل مسيحيي الأرض شيء سهل!!
ولكن أمام قمع أثناسيوس أو قمع تعاليمه لنا وجد الأمر جدَّ خطير!

وقنع الإمبراطور في نفسه أخيراً أنه لا فائدة من تدبير خطط لانتصاره علينا جميعاً طالما هذا ـ أي أثناسيوس ـ له هذه القدرة على المقاومة والمعارضة!!]

الباب الثاني

القسم اللاهوتي

صراع أثناسيوس اللاهوتي ضد الهرطقة الأريوسية

مع عرض مختصر للأصول اللاهوتية

قبل قيام الأريوسية

مقدّمة

شخصية القديس أثناسيوس الروحية واللاهوتية

[لقد صار أثناسيوس معيار الأرثوذكسية الحي.] بوييه(1)

لكي نقدِّم للقارئ منهج أثناسيوس اللاهوتي يجدر بنا أن نعطي لمحة عن الخلفية الروحية التي كان يتحرَّك فيها هذا القديس، أو بالحري المنابع الروحية التي كان يستمد منها هذا العملاق اللاهوتي الطاقة الروحية الجبَّارة التي كفَّلت له هذه الأصالة اللاهوتية وهذا الصمود إزاء كافة المقاومات والاضطهادات والأجواء المعاكسة.

ومن أهم هذه المقوِّمات الروحية:

أولاً: علاقته الشخصية بالمسيح.

ثانياً: تمسُّكه بوسائط النعمة:

(أ) الأسرار (وعلى الخصوص الإفخارستيا).

(ب) الكتاب المقدَّس.

ثالثاً: تمسُّكه الشديد بالتقليد الكنسي.

رابعاً: اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية منذ شبابه المبكِّر.

وقد أثَّر ذلك فيه من عدة نواحي:

(أ) تقواه ونسكه الشخصي.

(ب) ربطه الدائم بين العقيدة والتقوى في كتاباته.

(ج) امتلاكه حاسة روحية خاصة كان يستشف بها الجانب الروحي من كل عقيدة.

(د) استقراؤه لصحة العقيدة من واقع ممارسات الرهبان العملية.

خامساً: إدراكه الواضح لمحدودية العقل في المعرفة اللاهوتية.

سادساً: تأكيده أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة كيانية أي علاقة ثبات متبادل.

سابعاً: روحه الكنسية العالية جداً.

***

---

(1) Bouyer, *L'Incarnation et l'Eglise - Corps du Christ dans la Théologie de St. Athanase*, 1943, p. 22.

أولاً: علاقته الشخصية بالمسيح

لقد كان قلب أثناسيوس يجيش بمحبة شديدة للمسيح. لقد كتب عنه أحد المعاصرين:

[إن أثناسيوس كان مشتعلاً بنار الحب للمسيح، ونحن نحتسب أن ما خاطب به أثناسيوس أحد أصدقائه يصلح أن يُقال عنه هو: "إني واثق أنك تقيم في معرفة المسيح وحبه فوق أي شيء آخر"(٢). كما أنه يصلح أن يُلقَّب أثناسيوس بما لقب به هذا الصديق "فيلوخريستو φιλοχρίστῳ"(٣) كلقب يُعبِّر عن الحب نحو المسيح. فمحبة أثناسيوس للمسيح هي المفتاح لفهم كل حياة أثناسيوس وكل كتاباته.](٤)

لقد كان مثل بولس الرسول في اعتباره أن **محبة المسيح هي نبراس الإيمان الصحيح**. فبدون هذا الحب لا يمكن أن نبلغ الإيمان الصحيح. ولذلك كتب في نهاية رسالته للرهبان:

[**إن كان أحد لا يحب ربنا يسوع المسيح - كما يقول الرسول** (١كو ١٦:٢٢) **فليكن أناثيما.**](٥)

وفي نهاية رسالته إلى أدلفيوس:

[**سلّم على جميع الذين يحبون ربنا يسوع المسيح.**](٦)

لقد كان اللقب المعتاد الذي يشير به إلى الأريوسيين هو "أعداء المسيح Χριστομάχοι"، وكان يدعو هرطقتهم بالهرطقة المعادية للمسيح:

[لا يمكن أن تكون أي شركة بين الهرطقة المعادية للمسيح Χριστομάχῳ αἱρέσει وبين الكنيسة الجامعة.](٧)

وهذا في الواقع يكشف لنا حقيقة الصراع بين أثناسيوس والأريوسيين، فهو كان يحب المسيح

(٢) ضد الوثنيين ١.

(٣) وفي "تجسُّد الكلمة: ٥٦" يخاطب القارئ "أيها الرجل محب المسيح" ὦ φιλόχριστε ἄνθρωπε

(4) Ungar, in Fransiscan Studies, March 1946, vol. 6, No. I, p. 30.

(٥) رسالة ٥٢ للرهبان N.P.N.F., 2nd Series, vol. 4, p. 564

(٦) رسالة ٦٠ إلى أدلفيوس N.P.N.F., 2nd Series, vol. 4, p. 578

(٧) الدفاع ضد الأريوسيين ٦٠ N.P.N.F., 2nd Series, vol. 4, p. 132

فوق كل شيء وهم كانوا يعادون ذلك المسيح بعينه، إذ يريدون أن يجرِّدوه من لاهوته. فلو كان الأمر مقتصراً على عداء الأريوسيين لأثناسيوس شخصياً وما يقع عليه من اضطهادات وافتراءات، لكان الأمر هيناً عليه وأقل من أن ينتبه إليه أو يرد عليهم، إذ لم يكن محباً لنفسه على الإطلاق، بل كانت كل محبته مركَّزة في المسيح فاديه الحبيب. فمحبته الشديدة للمسيح هي التي تفسِّر لنا مقاومته المستميتة للأريوسيين حتى شهد له يوليوس أسقف روما أنه كان يستهين بالموت نفسه في سبيل ذلك(٨). فنحن نصدِّق على قول أونجار: "إن محبة أثناسيوس للمسيح هي المفتاح لفهم كل حياة أثناسيوس وكل كتاباته".

لقد كان أثناسيوس يثبِّت نظره في المسيح في كل حين ويجتهد أن يتمثَّل به في كل تصرُّفاته:

[**لم يكتفِ المخلِّص بأن يعلِّم الفضيلة بل قد مارسها هو أيضاً بنفسه، حتى إذا ما سمعناه ونظرنا إليه وجدنا فيه المثال الحي العملي لما يجب أن نفعله. فنحن نسمعه يقول: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب»** (مت ١١: ٢٩). فلا يمكن أن نجد تعليماً عن الفضيلة أكمل من الذي قدَّمه المخلِّص بشخصه في حياته الخاصة. فنحن نجد فيه المثال الأعلى في الاحتمال ومحبة البشر والصلاح والقوة والرحمة والبر. فالذي يتأمَّل حياة الرب البشرية لا يعوزه شيء من الفضيلة. وقد أدرك بولس ذلك جيِّداً إذ قال: «كونوا متمثِّلين بي كما أني أنا أيضاً بالمسيح» (١كو ١١: ١). **إن مشرِّعي الأُمم لا يعرفون إلاَّ أن يضعوا التشريعات فقط. وأمَّا الرب الذي هو سيد الكون كله، فبسبب عنايته بخليقته لم يكتفِ بأن يضع لها النواميس، بل قدَّم نفسه أيضاً مثالاً لها**، حتى يتعلَّم منه طالبو الفضيلة كيف ينبغي أن يسلكوا.](٩)

وكان أثناسيوس يضع باستمرار نصب عينيه الآيات الرئيسية التي عبَّر بها الرسول عن علاقته العميقة بالرب يسوع:

+ «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل ٢: ٢٠)
+ «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع ..» (٢كو ٤: ١٠)
+ «وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام.» (٢كو ٥: ١٥)

---

(٨) انظر رسالة يوليوس إلى شعب الإسكندرية بمناسبة عودة أثناسيوس صفحة ١٨٨.

(٩) الرسالة إلى مرسللينوس عن المزامير: ١٣.

فأثناسيوس يكرِّر هذه الآيات بلا ملل ويوصي بها المؤمنين بتكرار ملحوظ على مدى رسائله الفصحية:

[فلننكر ذواتنا بالتمام ونقدِّم نفوسنا للرب كما فعل القديسون، فلا نعيش بعد لنفوسنا بل للرب الذي مات من أجلنا. وهكذا كان يفعل بولس الطوباوي قائلاً: «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» .. فإننا نتشبَّه بالقديسين حينما نعترف بذاك الذي مات من أجلنا فلا نعود نعيش لنفوسنا بل المسيح هو الذي يحيا فينا.](١٠)

[لقد كتب بولس الطوباوي إلى أهل كورنثوس أنه كان دائماً يحمل في جسده إماتة يسوع، ليس كأنه هو وحده له أن يفتخر بهذا بل كأن هذا يحق لهم، بل ولنا أيضاً يا إخوتي، فيا ليتنا نتشبَّه به في ذلك! يا ليتنا نفتخر بذلك في كل حين! فإن داود أيضاً يقول: «مِنْ أجلك نُمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح» فالذي يتحد بالرب بشبه موته يصير نشيطاً في كل فضيلة إذ يكون قد أمات أعضاءه التي على الأرض (كو ٣:٥)، وصلب الجسد مع الأهواء والشهوات، فهو بذلك يعيش بالروح ويسلك بحسب الروح (غل ٥: ٢٤و٢٥)، وهو يذكر الله في كل حين ولا ينساه أبداً ولا يعمل الأعمال المائتة. والآن لكي نستطيع أن نحمل في الجسد إماتة يسوع يرشدنا بولس إلى الوسيلة قائلاً: «إذ لنا روح الإيمان عينه ... عالمين أن الذي أقام ربنا يسوع سيقيمنا نحن أيضاً بيسوع ويحضرنا معكم!» (٢كو ٤: ١٣و١٤).](١١)

[إن القديسين الذين ماتوا عن العالم ورفضوا إغراءات العالم وبذلك ربحوا ميتة كريمة بحسب المكتوب: «كريم أمام الرب موت قديسيه» (مز ١١٥:٥ السبعينية)، هؤلاء يستطيعون أن يقولوا مثل الرسول: «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢:٢٠). فإن الحياة الحقَّة هي هذه، أعني الحياة التي يحياها الإنسان في المسيح. فمع أنهم قد ماتوا عن العالم، إلاَّ أنهم يسكنون السماء بنوع ما، ويتفكَّرون بالأمور العلوية. كما قال أيضاً أحد محبي هذه الأمور: "مع أننا نسلك على الأرض إلاَّ أن مسكننا في السموات".](١٢)

[لقد وعد الرب قائلاً: «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقبل إليَّ فلا يجوع ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش

---

(١٠) رسالة فصحية ٥:٣و٤ N.P.N.F. 518

(١١) رسالة فصحية ٧:١ N.P.N.F. 523

(١٢) رسالة فصحية ٧:٣ N.P.N.F. 524

أبداً» (يو ٦: ٣٥). فإننا نحن أيضاً نستحق هذه الأمور **إن كنا في كل حين نلتصق بمخلّصنا** ... وإن كنا ندوم بقربه ولا نبتعد منه أبداً قائلين له: «إلى مَنْ نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك» (يو ٦: ٦٨) ...

وهكذا إذ تقتات نفوسنا منه ههنا نشترك مع الملائكة في تلك المائدة السمائية الروحانية، ولن نكون قارعين مرفوضين مثل الخمس عذارى الجاهلات، بل بالحري ندخل مع الرب مثل الحكيمات اللواتي أحببن العريس. لأننا حينما **نُظهِر إماتة يسوع في أجسادنا** فحينئذ ننال منه الحياة والملكوت!](١٣)

إننا نلاحظ في هذا القول الأخير عبارة: "**إن كنا في كل حين نلتصق بمخلّصنا**". نعم لقد كان أثناسيوس بالحق في كل حين يلتصق بالمخلّص؛ بل كان هذا هو سر قوته الروحية غير العادية.

ومع أنه لم يكن يميل إلى أن يتكلّم عن نفسه أو يفصح عن حياته الداخلية(١٤)، إلاّ أننا نستطيع أن نستشفها مما يقوله هو نفسه عن الآخرين. فقد كتب في مقدِّمة رسالته إلى أورسيزيوس (تلميذ باخوميوس الذي خلفه):

[أيها الأب .. يا مَنْ ترتقي في السلم الروحاني **وتلتصق بالجوهر الإلهي**.](١٥)

نعم لقد كان أثناسيوس في كل حين يتحد بالمسيح ويلتصق بالجوهر الإلهي، وهذه كانت أعظم قوة ضمنت له استقامة الرأي مع الصمود أمام كافة الاضطهادات والتيارات المضادة!

ثانياً: تمسُّكه بوسائط النعمة

(أ) الأسرار (الإفخارستيا):

سبق أن عرضنا في كتاب "الإفخارستيا والقداس"(١٦) أقوالاً عديدة للقديس أثناسيوس بخصوص الإفخارستيا والطقوس الكنسية عامة، وسنورد في ما يلي أهم ما جاء فيها بالإضافة

(١٣) رسالة فصحية ١٠: ٩ N.P.N.F. 527

(١٤) مثل آباء كبادوكية أو مثل أغسطينوس الذي كتب اعترافاته.

(15) Amélineau, *ADMG* xvii, 705.

(١٦) كتاب: "الإفخارستيا عشاء الرب" للمؤلّف الجزء الأول طبعة ٢٠٠١ صفحة ٤٤٧ – ٤٨٩.

إلى بعض الأقوال الجديدة؛ وسيتبيَّن منها القارئ مدى روحانية أثناسيوس في ممارسة هذا السر:

+ [**مأكل فائق سماوي .. طعام روحاني** .. يناله كل واحد روحياً فيصير في الجميع حافظاً لقيامة الحياة الأبدية.][١٧]

+ [**نحن نتألّه باشتراكنا ليس في مجرَّد جسد إنسان بل بتناولنا من جسد الكلمة نفسه.**][١٨]

+ [إننا نحن جميعاً إذ نتناول من الرب الواحد بعينه

ἐκ τοῦ αὐτοῦ μεταλαμβάνοντες

نصير جسداً واحداً إذ يكون لنا في أنفسنا الرب الواحد

τὸν ἕνα Κύριον ἔχοντες ἐν ἑαυτοῖς][١٩]

+ [(الإفخارستيا) "**طعام سماوي**" .. **لذلك علينا أن نستعد لكي نقترب من الحمل الإلهي ونلمس الطعام السمائي.**][٢٠]

+ [كما دعا تلاميذه إلى العلية هكذا يدعونا "الكلمة" معهم إلى الوليمة الإلهية غير الفاسدة.][٢١]

+ [أمَّا هم ـ اليهود ـ فكانوا يحفظون العيد بأن يمتلئوا بلحم خروف غير ناطق، أمَّا الآن **فنحن نأكل من "كلمة الآب"!**][٢٢]

+ [إننا نغتذي من "طعام الحياة" فبينما نعطش إليه على الدوام تتلذّذ نفوسنا في كل حين إذ ترتوي من دمه الكريم كما من ينبوع.][٢٣]

+ [الذي يشترك في "الخبز الإلهي" يشتاق ويجوع دائماً إليه .. فجيد للقديسين والذين يحبون الحياة في المسيح أن يُنهضوا نفوسهم بالاشتياق إلى هذا الطعام قائلين: «كما يشتاق الأُيَّل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله الإله الحي.

(١٧) إلى سيرابيون ٤ :١٩ P.G. 26, 668

(١٨) إلى مكسيموس رسالة ٦١ :٢ N.P.N.F. 579

(١٩) ضد الأريوسيين ٣ :٢٢ N.P.N.F. 406 والفعل μεταλαμβάνω هو الاصطلاح الكنسي والآبائي للتعبير عن "التناول" من الإفخارستيا.

(٢٠) رسالة فصحية ٥ :٥ N.P.N.F. 519

(٢١) رسالة فصحية ٢٨ N.P.N.F. 550

(٢٢) رسالة فصحية ٥ :٣ N.P.N.F. 516

(٢٣) رسالة فصحية ٥ :١ N.P.N.F. 517

متى أجيء وأتراءى قدَّام الله» (مز ٤٢: ١و٢).][٢٤]

وفي رسائل أخرى يدعو الإفخارستيا:

+ [العشاء العظيم السماوي τὸ δεῖπνον τὸ μέγα καὶ οὐράνιον.][٢٥]

+ [ذلك العشاء العظيم الذي يفوق العالم τὸ δεῖπνον ἐκεῖνο τὸ μέγα τὸ ὑπερκόσμιον][٢٦]

+ [«إن المسيح فصحنا قد ذُبح لأجلنا» إذن فليأكل منه كل واحد منا وليشترك **بفرح واشتياق** في هذا المأكل، فإن الرب يعطي نفسه بالتساوي للجميع ويصير في كل واحد «ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية».][٢٧]

+ [**يا إخوتي، إن هذا الخبز لا يكون ههنا فقط طعاماً للأبرار، فليس القديسون على الأرض فقط يتذوَّقون هذا الخبز وهذا الدم، بل إننا سنتناولهما أيضاً في السماء حيث يكون الرب نفسه هو طعام الأرواح العليا والملائكة، فهو الفرح الحقيقي لجميع الأرواح السمائية .. فمنذ الآن قد أعطانا الرب "خبز الملائكة"** (مز ٧٨:٢٥).

وقد وعد الذين يصبرون معه في تجاربه قائلاً: «أنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ..» (لو ٢٢: ٢٩و٣٠). **فيا لها من وليمة عظيمة يا إخوتي، وما أعظم توافق الذين يأكلون من المائدة السمائية وما أعظم تهليلهم! لأنهم يتلذَّذون ليس بالطعام البائد الذي يندفع إلى الخارج بل بالطعام الذي يعطي الحياة الأبدية. فمن يُحسب أهلاً لهذا المحفل؟ ومَنْ يسعد بأن يُدعى ويُحسب أهلاً لهذا العيد الإلهي؟ بالحق «طوبى لِمَنْ يأكل خبزاً في ملكوت الله»!** (لو ١٤:١٥).][٢٨]

فهذا الوصف الحي الشيِّق للأبدية بصفتها عيداً سماوياً سنسعد فيه على الدوام بالتناول المستمر من الحمل المذبوح، يعكس لنا في الحقيقة مقدار الحرارة الروحية التي كان يعيشها أثناسيوس، وعلى

---

(٢٤) رسالة فصحية ٦:٧ N.P.N.F 525

(٢٥) رسالة فصحية ٤٠ P.G. 26, 1440, N.P.N.F 552

(٢٦) رسالة فصحية ٤٢ P.G. 26, 1440, N.P.N.F 552

(٢٧) رسالة فصحية ١٤:١١ N.P.N.F 538

(٢٨) رسالة فصحية ٨:٩ N.P.NF. 526

الأخص محبته الشديدة لسر الإفخارستيا وتطلُّعه المستمر للعالم الآخر.

(ب) الكتاب المقدَّس:

يقول غريغوريوس النزينزي في عظته عن أثناسيوس:

[إنه ظل يهذّ في كافة أسفار العهد القديم والعهد الجديد بعمق لم يبلغه أحد نظيره، فشبَّ غزير **التأمُّل**، رصين **السلوك**، وجمع هذا بذاك كما برباط ذهبي قلَّما استطاع أحد أن يجمع بينهما، مستخدماً السلوك في الحياة كمدخل للتأمُّل، والتأمُّل جعله ختماً على الحياة كلها.](٢٩)

إذن، فقد تربَّى أثناسيوس منذ شبابه المبكِّر على الهذيذ في الكتاب المقدَّس بعهديه: "بعمق لم يبلغه أحد نظيره"، بل إن قراءة الكتاب المقدَّس ظلَّت هي شهوته المفضَّلة كل أيام حياته. نستنتج ذلك مما يقوله هو بنفسه في رسالته لصديقه مرسللينوس:

[عرفت من حامل الرسالة أنك تصرف وقتك في قراءة الكتاب المقدَّس كله ولا سيما سفر المزامير. وإني أمتدحك لأني أنا أيضاً مثلك **أجد لذّتي العظمى في قراءة المزامير بل والكتاب كله أيضاً.**](٣٠)

فكان يعتز بهذه القراءة أفضل من أي شيء آخر:

[إن الكتاب المقدَّس يكفينا عوضاً عن أي شيء آخر.](٣١)

[إن الكتب المقدَّسة الملهمة كافية لإعلان الحق.](٣٢)

ويقول عنه الأب بوييه:

"إن أثناسيوس هو الذي أمسك بدفة الكنيسة لينقذ تعليمها اللاهوتي من الانحراف وراء النظريات الفلسفية اليونانية عن اللوغس إلى الالتزام بالأمانة المطلقة للوحي الكتابي عن الله."(٣٣)

وفي ذلك يقول أثناسيوس نفسه:

---

(٢٩) عظة ٢١ ـ انظر صفحة ٣٤٧.

(٣٠) الرسالة إلى مرسللينوس: ١.

(٣١) الرسالة إلى أساقفة مصر: ٤ N.P.N.F. 225 انظر أيضاً كتاب المجامع: ٦ N.P.N.F. 453

(٣٢) ضد الوثنيين: ١ N.P.N.F. 4

ولا شك أن أثناسيوس قد تلقَّن هذا المبدأ منذ شبابه المبكِّر من معلِّمه أنطونيوس الذي يقول بالحرف الواحد: [إن الأسفار المقدَّسة كافية للتعليم.] (حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس ١٦)

(33) Bouyer, *Histoire de la Spiritualité Chrétienne*, 1966, t. I, p. 498.

[إن تعليم الحق يكون أدق ما يمكن حينما نستمده من الكتاب المقدَّس وليس من مصادر أخرى.](٣٤)

وكان دائماً يقرن العهد القديم بالجديد:

[إن العهد الجديد يقوم على العهد القديم ويشهد له. فإن كانوا يرفضون القديم فكيف يستطيعون أن يقبلوا الجديد؟ لذلك قال ربنا: «فتّشوا الكتب لأنها هي التي تشهد لي»، فكيف يستطيعون أن يعترفوا بالرب بدون أن يفتّشوا الكتب المكتوبة عنه؟](٣٥)

لذلك لم يكن أثناسيوس يكف عن أن ينصح رعيته بقراءة الكتاب المقدَّس بعهديه، ويظهر ذلك على الخصوص من رسائله الفصحية:

[إن عبيد الرب الصالحين والأمناء الذين صاروا «متعلّمين في ملكوت السموات ويخرجون من كنوزهم جدداً وعتقاء» (مت ١٣: ٥٢)، الذين **يلهجون بكلام الله** «حين يجلسون في البيت وحين يمشون في الطريق وحين ينامون وحين يقومون» (تث ٦: ٧)، يصيرون ثابتين في الإيمان، فرحين في الرجاء، حارين في الروح ... **فبالتأمُّل في الوصية** يثبتون أمام ما يقع عليهم من الضيق ويُرضون الله ويقولون بثقة: «ضيق وشدة أدركاني ولكن **وصاياك هي درسي**» (مز ١١٩: ١٤٣) ... إذن فتأمُّل الوصية ضروري يا أحبائي مع اللهج المستمر بالفضيلة «لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهِّباً لكل عمل صالح» (٢تي ٣: ١٧). فبهذه الأمور نربح موعد الحياة الأبدية كما كتب بولس إلى تيموثاوس داعياً التأمل رياضة روحية قائلاً: «روِّض نفسك للتقوى لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة» (١تي ٤: ٧و٨).](٣٦)

ويعلِّق العالِم Resch على هذا النص من أثناسيوس قائلاً: "إذن فالتقوى التي تشمل ممارسة جميع دروب الفضيلة يعتبرها أثناسيوس مرادفة للتأمُّل في الكتاب المقدَّس. فمن هذا يظهر أن التأمُّل ليس في رأي أثناسيوس مجرَّد دراسة فكرية نظرية، ولكنه يؤول بالضرورة إلى **الممارسة** العملية التقوية لجميع أوجه الفضيلة "(٣٧). وهذا يعود بنا إلى ما سمعناه من غريغوريوس النزينزي عن منهج

(٣٤) الدفاع عن قانون الإيمان النيقاوي ٣٢ N.P.N.F. 172

(٣٥) الرسالة إلى أساقفة مصر ٤ N.P.N.F 224

(٣٦) رسالة فصحية ١١: ٦و٧ N.P.N.F. 535

(37) Resch, *La doctrine ascétique des premiers maîtres égyptiens*, 1931, p. 150.

أثناسيوس **العملي** في دراسة الكتاب المقدَّس: [إنه جمع **التأمُّل بالسلوك** كما برباط ذهبي]. وهذا المنهج العملي نجده على الخصوص في تفسير أثناسيوس للمزامير وفي رسالته إلى مرسللينوس عن المزامير، وقد كتبهما ليساعد النُسَّاك على الاستفادة العملية من تلاوة المزامير(٣٨):

[اعكف على قراءة المزامير بحكمة وسيرشدك الروح إلى فهم معانيها، وحينئذ تتمثَّل بحياة القديسين الذين كتبوا هذا السفر بإرشاد الله.](٣٩)

ويعلِّق العالِم Resch على هذه الرسالة إلى مارسللينوس قائلاً: "إنه يظهر منها أن أثناسيوس كان له الفضل الأعظم في نشر الوعي الكتابي في الأوساط الرهبانية بمصر، وأنه كان أكثر من اهتم بذلك بغيرة وبقدرة على الإقناع."(٤٠)

ونقدِّم في ما يلي بعض الأمثلة لتفسير أثناسيوس للمزامير:

+ تفسير مزمور ٧٠:٢٢ حسب السبعينية «أُسبحك بالقيثارة يا الله»:

[إن النفس حينما لا تصنع شيئاً باطلاً وتخلو من الأحاسيس الضارة لإيمانها ولحياتها، فإنها تُدعى بحق قيثارة روحية νοητὴ κιθάρα].

ويكمِّل هذا المعنى في رسالته إلى مرسللينوس (٢٧) قائلاً:

[إن النفس التي لها فكر المسيح ـ بحسب قول الرسول في ١كو ٢:١٦ ـ ينبغي أن تتوافق مع هذا الفكر كتوافق القيثارة مع مَنْ يحرِّك أوتارها ... هكذا يجب أن يكون في القيثارة الروحية التي هي الإنسان، يجب أن تخضع الأعضاء والحواس جميعاً لفكر المسيح وتصير طيِّعة لمشيئة الله.]

+ تفسير مزمور ١٠٠:٨ حسب السبعينية «في أوقات الغدوات كنت أقتل جميع خطاة الأرض»:

[إن المزمِّر (داود) يشير بكلمة "الخطاة" إلى الأفكار الشريرة التي يبيدها حينما يقوم في الغدوات ليصلِّي ويحفظ فكره في حضرة الله.]

+ تفسير مزمور ١١٨:٩٦ حسب السبعينية «لكل تمام رأيت منتهى أمَّا وصاياك فواسعة جدًّا»، يقول إن الحياة الروحية نمو متواصل:

---

(38) Ibid. p. 149.

(٣٩) الرسالة إلى مارسللينوس: ٣٣.

(40) Resch, *op. cit.*, p. 164.

[حتى أن اكتمال الدرجة السابقة هو بعينه بداية للدرجة اللاحقة، فالإنسان حينما ينتهي يكون في نفس الوقت مبتدئاً بحسب قول الكتاب (سيراخ ١٨:٦).]

ثالثاً: تمسُّكه الشديد بالتقليد الكنسي

لقد نشأ أثناسيوس داخل الكنيسة متمسِّكاً بتقليدها، وكان يعتز بأنه يفهم الأسفار المقدَّسة [فهماً كنسياً διάνοιαν ἐκκλησιαστικήν](٤١)، أي فهماً يتوافق مع تقليد الكنيسة الأُولى الذي استلمته من الرب نفسه:

[لنتأمَّل إذن في **تقليد** الكنيسة الجامعة منذ البدء τὴν ἐξ ἀρχῆς παράδοσιν وتعاليمها وإيمانها **التي أعطاها الرب وكرز بها الرسل وحفظها الآباء**، على هذه تأسَّست الكنيسة، ومَنْ يسقط من هذه لا يعتبر بل ولا يكون مسيحياً.](٤٢)

ويقرِّر العالِم Quasten:

"إن أعظم فضل لأثناسيوس يتركَّز في أنه دافع عن المسيحية التقليدية وحفظها من خطر التلوُّث بالفكر اليوناني Hellenization الكامن في هرطقة أريوس وأتباعه."(٤٣)

بل إن أثناسيوس نفسه يقرِّر هذه الحقيقة: إن سبب انحراف أريوس بل وجميع الهرطقات هو أنهم لم يلتزموا بالتقليد الكنسي المسلَّم من الرسل:

[إن جميع الذين اخترعوا الهرطقات الخبيثة، وإن كانوا يستشهدون بالأسفار المقدَّسة إلاَّ أنهم لا يتمسَّكون بالآراء (التفاسير) التي سلَّمها القديسون، بل يعتبرونها مجرَّد تقاليد للناس، ولذلك يضلون إذ لا يعرفونها بالحق ولا يدركون قوتها، ولهذا السبب يمدح بولس أهل كورنثوس لأن آراءهم كانت موافقة لآرائه (١كو ١١:٢).](٤٤)

---

(٤١) ضد الأريوسيين ١:٤٤ P.G. 26, 101. N.P.N.F. 331
انظر أيضاً قول (٨٤) حيث يتكلّم أثناسيوس أيضاً عن "النظرة الكنسية" τὸν σκοπὸν τὸν ἐκκλησιαστικόν لكل أعمال الرب.

(٤٢) إلى سيرابيون ١:٢٨ P.G. 26, 593,506

(43) Quasten, *Patrology*, vol. III, p. 66.

(٤٤) رسالة فصحية ٢:٦ N.P.N.F. 511

[إن الرسول يمدح أهل كورنثوس قائلاً: «فأمدحكم أيها الإخوة لأنكم تذكرونني في كل شيء وتحفظون التقاليد كما سلّمتها إليكم» (١كو ١١: ٢). وأمّا هؤلاء (الأريوسيون) الذين يحتقرون آراء الذين سبقوهم يليق بهم حقّاً أن يقولوا بلا حياء عكس ذلك لرعاياهم أي "إننا نمدحكم لأنكم لا تذكرون الآباء ونزيدكم مدحاً حينما تحتقرون تقاليدهم".](٤٥)

[هذا هو جنون وشطط هؤلاء الناس ـ بحسب ما وصفناه ـ وأمّا إيماننا نحن فمستقيم ونابع من تعليم الرسل وتقليد الآباء ومشهود له من العهدين الجديد والقديم كليهما.] (٤٦)

[إن أساقفة نيقية لم يخترعوا هذه العبارات من أنفسهم بل كانت لهم شهادات من الآباء لما سجّلوها. فإن أساقفة العصور السالفة في رومية العظمى وفي مدينتنا (الإسكندرية) قد كتبوا منذ أكثر من ١٣٠ عاماً وحرموا كل مَنْ يقول إن الابن مخلوق أو أنه ليس من جوهر الآب.](٤٧)

رابعاً: اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية

لقد تعرّف أثناسيوس على أنطونيوس منذ شبابه المبكّر في الصعيد وعاش بجواره فترة، وهو نفسه يخبرنا بذلك ويعتز بأنه سكب ماءً على يديه كعلامة للتلمذة له(٤٨): [لقد رأيت أنطونيوس مراراً وتعلّمت منه لأنني **لازمته زمناً طويلاً وسكبت ماءً على يديه**.] (حياة أنطونيوس، المقدِّمة)

وقد وصفنا للقارئ شدَّة تأثر أثناسيوس بشخصية أنطونيوس الروحية (انظر صفحة ٥٢ـ٥٤). وقد سمع كذلك أخبار باخوميوس وهو لم يزل شاباً في الصعيد (انظر صفحة ٧١)، وظلّت اتصالاته مستمرة بالأوساط الرهبانية بعد رسامته سواء كان بالأديرة الباخومية بالصعيد أو بأنطونيوس وتلاميذه في بسبير أو بآمون في نتريا، أحياناً بالزيارات الرعوية وأحياناً أخرى بالرسائل، وقد أسهبنا في شرح ذلك (انظر صفحة ٢٠٢ـ٢١٣).

(٤٥) عن المجامع ١٤ N.P.N.F. 457
(٤٦) رسالة ٦٠: ٦ N.P.N.F. 576
(٤٧) إلى أساقفة إفريقيا ٦ N.P.N.F. 492
(٤٨) لقد كان سكب الماء على يدي المعلِّم على غرار ما فعله أليشع بمعلّمه إيليا (٢مل ٣: ١١) علامة للخضوع لأبوته.

وقد سانده أنطونيوس في عدة مناسبات في جهاده ضد الأريوسيين (صفحة ١٢٥-١٢٧ وصفحة ١٥٠-١٥٢) وكذلك أيضاً باخوميوس ورهبانه (صفحة ١٥٢-١٥٤، ١٩٦-١٩٧) وفي نفيه الثالث والرابع تعاونت جميع براري مصر المملوءة بالرهبان في إيوائه وإخفائه من مطارديه (صفحة ٢٧٢-٢٧٥ وصفحة ٣٢٨-٣٣٢). وفي هذه الفترة التي قضاها أثناسيوس بين أصدقائه الرهبان وهو ينتقل متخفياً بين أديرتهم وقلاليهم ومغايرهم، وضع أعظم مؤلفاته اللاهوتية، وهذا يدلنا بلا شك على مقدار الراحة الروحية والنفسية التي كان يشعر بها بين الرهبان، حتى كان ذلك ينعكس على إنتاجه الفكري.

لذلك فبسبب اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية منذ صبوته بالصعيد وحتى إلى آخر أيامه، لا نعجب أن نرى روحانية الرهبان قد أثرت في صميم شخصيته الروحية واللاهوتية بعدة تأثيرات إيجابية نذكر منها ما يلي:

(أ) تقواه ونسكه:

لقد أجمع كل شعب الإسكندرية على اختياره ليكون رئيس أساقفة للإسكندرية قائلين:

[إنه مسيحي تقي وواحد من النُّسَّاك(٤٩)

εὐλαβῆ χριστιανὸν καὶ ἕνα τῶν ἀσκητῶν.]

وبالفعل كان يتميَّز أثناسيوس بالتقوى وكان محباً للصلاة، حتى نجده يرأس بنفسه بصفة عادية صلاة السهر التي كانت تدوم طول الليل استعداداً للقدَّاس في الصباح، وهو نفسه يخبرنا بذلك عفواً أثناء وصفه للاضطهاد الذي وقع عليه.

[لقد هجم سيريانوس على الكنيسة بعساكره بينما كنا مشغولين في الخدمة .. لأنه كان **سهرٌ** تحضيراً للشركة في الغد ..](٥٠)

[... بينما **كنا نقيم السهر في بيت الرب** ومهتمين بالصلوات ...](٥١)

كذلك يخبرنا عفواً في إحدى رسائله إلى سيرابيون أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الصلاة أثناء تأليفه الكتب اللاهوتية، فكان كلما وجد صعوبة في شيء يقوم ويصلِّي حتى يأخذ الإلهام من الله:

(٤٩) الدفاع ضد الأريوسيين ٦ N.P.N.F. 103

(٥٠) الدفاع لدى قسطنطيوس ٢٥ N.P.N.F. 247

(٥١) تاريخ الأريوسيين إلى الرهبان ٨١ N.P.N.F. 301

[وبينما أنا متفكّر في هذه الأمور بدا لي أن المعنى المخفي في هذه الكلمات ذو عمق كبير، **فبدأت أولاً أُصلّي كثيراً للرب** الذي جلس على البئر ومشى على المياه، ثم عدت أيضاً أتأمّل في التدبير الحادث فيه من أجلنا **لعلّي أتلمّس منه معنى هذه الكلمات.**](٥٢)

(ب) ربطه الدائم بين العقيدة والتقوى أي بين المعرفة والحياة العملية:

[إن العقيدة والتقوى مرتبطتين كمثل أختين: فالذي يؤمن بالله يصير تقياً وكذلك الإنسان التقي يكون له إيمان أقوى. لذلك فالذي يصنع الإثم يضل أيضاً بلا شك من جهة الإيمان والذي يترك التقوى يفقد أيضاً الإيمان القويم.](٥٣)

[إن دراسة الكتب ومعرفتها بالحقيقة تتطلّب حياة صالحة ونفساً نقية وفضيلة لائقة بالمسيح، حتى إذا ما استرشد بها العقل استطاع أن يدرك الله الكلمة، على قدر ما تستطيع الطبيعة البشرية ذلك. فإنه بدون ذهن نقي ومماثلة **سيرة** القديسين لا يستطيع أحد أن يدرك **أقوال** القديسين ... **فمن أراد أن يدرك فكر الناطقين بالإلهيات** θεολόγων **يجب عليه أولاً أن يغسل نفسه ويقوِّم حياته ويقترب إلى القديسين بالتشبُّه بأعمالهم حتى إذا ما اشترك في سيرتهم استطاع أيضاً أن يفهم ما أعلنه الله لهم.**](٥٤)

فعلم اللاهوت θεολογία عند أثناسيوس مرتبط أشد الارتباط بالقداسة، فهو يقوم أساساً على قداسة السيرة مع إلهام وإعلان من الله! فبدون القداسة لا نستطيع أن نفهم ما أعلنه الله للقديسين!

[فحينما تنزع النفس عنها وسخ الخطية ولا تبقي في ذاتها إلاّ ما هو طاهر وموافق للصورة الأصلية، فحينئذ حينما تصير هذه الصورة مصقولة فيها، ترى النفس فيها ـ كما في مرآة ـ "الكلمة" صورة الآب بل إنها فيه تتمثّل الآب نفسه لأن المخلّص هو صورة الآب.](٥٥)

أي أن نقاوة النفس تؤهِّلها لتتأمل "الكلمة" على حقيقته:

[وهكذا فإن نقاوة النفس تؤهِّلها لتتأمل الله داخلها، كما يقول الرب: «طوبى لأنقياء

(٥٢) إلى سيرابيون ٤: ١٤ P.G. 26, 656
(٥٣) رسالة فصحية ١١: ٩ N.P.N.F. 536
(٥٤) تجسُّد الكلمة ٥٧ N.P.N.F. 67
(٥٥) ضد الوثنيين ٣٤: ٣ N.P.N.F. 22

القلب لأنهم يعاينون الله».](٥٦)

[وقد أكّد الرب ذلك وثبّته قائلاً: «إن ملكوت الله داخلكم».](٥٧)

(ج) صارت له حاسة روحية يستشف بها الجانب الروحي من كل عقيدة:

يقول العالِم Cavallera:

"لقد كان أثناسيوس متمكّناً في العقيدة حتى لم يكن له مثيل في ذلك. فإني لا أجد أحداً في القرن الرابع يضاهيه ... **ولا سيما في عمق حاسته المسيحية التي كانت تدفعه تلقائياً إلى أن يكشف في كل عقيدة عن الجانب الذي يجعلها متصلة بصميم الحياة الروحية لإحياء النفوس وإنعاشها وتجديد حياتها الروحية** واندفاعها نحو الخير. فإننا لن نتعلّم من أحد آخر أفضل منه كيف يمكن أن تنبع من العقائد – حتى من أصعبها على الإدراك البشري – ينابيع مياه حيّة ودفقات روحية عالية. فالثالوث ليس عند أثناسيوس مجرّد حقيقة نظرية يُلزمنا الإيمان بأن نقبلها بعقولنا دون أن يكون لها أثر فعّال في سلوكنا العملي، بل إن الثالوث عنده هو كل شيء في الحياة الروحية كما في العقيدة المسيحية على حد سواء."(٥٨)

وبنفس المعنى يقول الأب Bouyer:

"إن كل كتابات أثناسيوس تؤكّد باستمرار الحقيقة التالية: إنه قد صار في مقدور الإنسان أن يحيا حياة إلهية بسبب أن كلمة الله تأنّس وأنه صار يُحيي جميع الذين ينتمون إليه، بمجرّد أن يكونوا مستعدين أن يتخلّوا عن كل شيء من أجله ... **فإن كنّا نتساءل عن أكثر شيء تحمّس له أثناسيوس لدرجة أنه كرّس حياته من أجله نستطيع أن نقول إنه الحياة المسيحية المعاشة بكل عمقها.** فأثناسيوس قبل أن يصير اللاهوتي البارع (مع أنه كان كذلك) وقبل أن يكون الأسقف الذائع الصيت حتى صار ينافس في ذلك أبطال الأساطير، أثناسيوس من قبل كل ذلك كان إنساناً يريد **أن يحيا الحياة الإلهية التي أحضرها الكلمة المتجسِّد إلى عالم الإنسان**، وذلك بالسلوك في الطريق النسكي الذي صار مزدهراً (في الرهبنة) في نفس الفترة

(٥٦) ضد الوثنيين ٤:٢ N.P.N.F. 5

(٥٧) ضد الوثنيين ١:٣٠ N.P.N.F. 20

(58) Cavallera, *Saint Athanase*, Paris 1908, pp. 34-36.

الزمنية. **هذه كانت شهوته الأولى التي لا نراه قد حاد عنها قط!**"(٥٩)

وأمَّا العالِم Resch فيقول في ختام كتابه المذكور عن النسك في القرن الرابع بمصر، ما ملخَّصه:

"إن أثناسيوس قد عبَّر بأسلوب لاهوتي عمَّا كان يختبره شخصياً وعمَّا كان الرهبان المعاصرون له يعيشونه دون أن يُعبِّروا عنه، فقد زوَّد العقيدة العامة بأسرار حياة التألُّه في المسيح التي كان يلذ له أن يتكلَّم عنها، تلك الأسرار التي تعلَّمها من خبرته الروحية الخاصة التي كانت بلا شك غنية جدًّا، كما أيضاً من اتصاله المستمر بالرهبان القديسين المعاصرين له."(٦٠)

ويعود العالِم Bouyer ويكمِّل هذا المعنى قائلاً:

"ونعتقد أن هذا المنهج في فهم النُّسك الرهباني (على أنه ممارسة الحياة الإلهية التي أحضرها الكلمة المتجسِّد إلى عالم الناس) قد نال استحسان مؤسِّسي الرهبنة الأوائل مثل أنطونيوس وباخوميوس، لأنهم لم يكفُّوا عن مساندة أثناسيوس سواء كان بالتأييد العلني أو بالمودة الشخصية. فنحن نعلم كيف عبَّر أنطونيوس عن مودته الخاصة للبابا أثناسيوس بأن ترك له ثوبه وجلد الغنم الخاص به."(٦١)

(د) صار يبرهن على صحة العقيدة من واقع ممارسة الرهبان العملية:

لقد كتب عنه هارناك:

"إنه استطاع أن يربط قضية الهوموؤوسيون ربطاً وثيقاً محكماً بالنسك والعبادة التقوية".

ففي نهاية سيرة أنطونيوس ينصح أثناسيوس بأن يُقرأ على الوثنيين:

[لكي يعرفوا أن ربنا يسوع المسيح هو الله وابن الله، وأن المسيحيين الذين يخدمونه بالحق ويؤمنون به يبرهنون على عدم ألوهية الشياطين آلهتهم بل يدوسونها بأقدامهم ويطردونها.](٦٢)

وفي كتاب "تجسُّد الكلمة" يقول:

[على أن هذه البراهين التي قدَّمناها لا تستند إلى مجرَّد حجج كلامية، ولكن هناك **اختبارات عملية** تشهد لصحتها. فليذهب من أراد ويعاين دليل العفة في عذارى المسيح (الراهبات)

---

(59) Bouyer, *L'Incarnation et L'Eglise - Corps du Christ* ... pp. 25-26.

(60) Resch, *op. cit.*, pp. 266-267.

(61) Bouyer, *loc. cit.*

(٦٢) حياة أنطونيوس ٩٤ N.P.N.F. 221

والشبان الذين يمارسون حياة العفة المقدَّسة (الرهبان).][٦٣]

وفي حياة أنطونيوس يبيِّن كيف أخذ أنطونيوس يقنع الوثنيين أولاً بالكلام النظري، ثم قام وقدَّم الدليل على صحة كلامه بأن رشم بعلامة الصليب بعض المرضى فقاموا معافين (حياة أنطونيوس ٧٩).

وكثيراً ما يعود أثناسيوس ويبيِّن **قوة علامة الصليب كدليل على ألوهية المسيح:**

[بمجرَّد علامة الصليب يستطيع الإنسان أن يفضح خداعات الشياطين.][٦٤]

[وليأتِ مَنْ أراد أن يختبر أقوالنا السابقة عملياً وليستعمل وسط خداع الشياطين وخزعبلات المنجِّمين وأعاجيب السحر، علامة الصليب، فيرى كيف تهرب الشياطين بواسطته ويبطل التنجيم ويُباد السحر والعرافة، فمَنْ هو المسيح هذا؟ وما أعظمه؟!!][٦٥]

[فإن كان المخلِّص يعمل الآن مثل هذه الأعمال العظيمة بين الناس ... فهل يشك أحد بعد ذلك أن المسيح حي؛ بل أنه بالحري هو نفسه "الحياة"؟!][٦٦]

خامساً: إدراكه الواضح لحدود العقل في المعرفة اللاهوتية

يقول العالِم Quasten:

"إن تعليم أريوس كان نتاجاً مميّزاً للاهوتية العقلانية

a typical product of theological rationalism

وقد أرضى لدرجة كبيرة ذوي التفكير السطحي لأنه أعطاهم حلاً رخيصاً ومبسَّطاً (تبسيطاً مخلاًّ) لأصعب مشكلة لاهوتية، ألا وهي نوع العلاقة بين الله الآب والابن."[٦٧]

"وإزاء هذا الاتجاه العقلاني كان أثناسيوس يؤكِّد **أولوية الإيمان على العقل**، فالعقل لا يجوز

(٦٣) تجسُّد الكلمة ٤٨: ١و٢ N.P.N.F. 62
(٦٤) تجسُّد الكلمة ٤٧: ٢ N.P.N.F. 62
(٦٥) تجسُّد الكلمة ٤٨: ٣و٤ N.P.N.F. 62
(٦٦) تجسُّد الكلمة ٣٠: ٤ N.P.N.F. 52

(67) Quasten, *op. cit.*, p. 8.

أن يُحتكم إليه في الأمور الفائقة الطبيعة، لأن الإنسان بعقله يعجز حتى عن أن يفحص طبيعته الخاصة، فكم بالحري أن يتكلّم عن طبيعة الله الفائقة."(٦٨)

وهذا هو ما يقوله أثناسيوس في ذلك:

[كيف يتجاسر غير الأتقياء ويتكلّمون بجهالة على غير ما يجب، إذ أنهم مجرَّد بشر وغير قادرين حتى على وصف ما على الأرض. ولماذا أقول ما على الأرض؟ بل لعلّهم يقولون لنا ما هي طبيعتهم الخاصة إن كانوا قادرين على فحصها! ولكنهم بجسارة واعتداد بالذات لا يرتعدون من أن يخترعوا النظريات عن الأمور التي تشتهي الملائكة أن تطّلع عليها (١بط ١:١٢)، التي تفوقهم بمثل هذا المقدار، سواء كان من جهة طبيعتها أو قدرها السامي. لأنه أي كائن أقرب إلى الله من الشاروبيم والسارافيم؟ ومع ذلك فإنهم لا يشخصون إليه ولا يمسون الأرض بأرجلهم أمامه ولا يكشفون وجوههم بل يغطّونها ويقدِّمون التسابيح بشفاه لا تفتر، ولا يفعلون شيئاً آخر غير تمجيد الطبيعة الإلهية الفائقة بتسبحة الثلاثة تقديسات.](٦٩)

بهذا الوصف يحدِّد لنا أثناسيوس - ولو بطريق غير مباشر - ما يجب أن يتميَّز به اللاهوتي الحقيقي إزاء حقيقة الله: فهو يجب أولاً أن لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي، ثم أن يُنهض روحه بمشاعر التقوى والعبادة والوقار أمام الحضرة الإلهية الفائقة متمثلاً بالشاروبيم والسارافيم الذين يغطّون وجوههم أمام الطبيعة الإلهية الفائقة ولا يكفون عن التسبيح المتواصل. فالمعرفة اللاهوتية الحقة تمتزج بالضرورة بروح التسبيح والتمجيد وتقديم العبادة اللائقة للثالوث:

[**إزاء هذه الأمور يستتر الشاروبيم بأجنحتهم.** فمَنْ يُريد أن يفحصها بزيادة فليسمع القائل: «لا تكن حكيماً بزيادة لئلاّ تَخْرب نفسك» (جا ٧:١٦)، **فإن ما سُلّم بالإيمان لا ينبغي أن يُفحص بالحكمة البشرية** بل أن يُقبل بخبر الإيمان.](٧٠)

[إن تسليم اللاهوت (المعرفة اللاهوتية) لا يمكن أن يكون بالبراهين الكلامية بل بالإيمان وبأفكار **التقوى مع الوقار.**](٧١)

(68) Ibid. p. 66.

(٦٩) مقالة في تفسير لو ١٠:٢٢ - فقرة ٦ N.P.N.F. 90

(٧٠) إلى سيرابيون ١:١٧ P.G. 26, 569

(٧١) إلى سيرابيون ١:٢٠ P.G. 26, 577

وهذه بالذات ـ التقوى مع الوقار ـ هي التي كانت تعوز تعليم الأريوسيين، فأساس نكبة أريوس اللاهوتية هو كما سبق أن قلنا: "أنه كان يملك معرفة دينية ولكن لم يكن يملك أخلاقاً دينية ... فالتقوى غائبة في الفكر اللاهوتي لأريوس، فالذي يدرس تعليم أريوس يُصدم بحقيقة الانفصال الواضح بين التقوى والمعرفة." (انظر صفحة ٥٧ و٤٥٥-٤٥٦).

سادساً: إدراكه أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة كيانية، أي علاقة ثبات متبادل

إننا نلمس هنا الإلهام الأساسي الذي وجَّه كل تفكير أثناسيوس اللاهوتي في ردوده العقائدية على الأريوسيين. هذه الفكرة الملهمة الأساسية تتلخَّص في أنه يوجد اتصال كياني أساسي وعميق بين المسيح في حال تجسُّده وبين سائر أعضاء الجنس البشري. فكل ما صنعه المسيح بجسده الخاص قد صار له رنين أو أثر فعَّال في سائر أعضاء الجنس البشري.

لقد كان الأريوسيون يعثرون في جميع الآيات التي تصف المسيح بالضعف ويستدلون منها أنه أقل من الآب في الجوهر، والسبب في ذلك أن منهجهم كان منهجاً نظرياً يريد أن يفحص كيان المسيح في ذاته بمعزل عن عمله الخلاصي. ولكن أثناسيوس يجيب: هذا مستحيل، لأن كيان المسيح المتجسِّد مرتبط أساساً بعمله الخلاصي:

[فالناس جميعاً لهم جسد ليعيشوا به ويوجدوا به، وأمَّا كلمة الله فقد تأنَّس لكي يقدِّس الجسد.](٧٢)

[فكل ما كُتب في ما يختص بناسوت مخلِّصنا ينبغي أن يُعتبر لكل جنس البشرية لأنه أخذ جسدنا نحن وعرض في نفسه ضعف البشرية.](٧٣)

[فلمَّا اغتسل الرب في الأُردن كإنسان كنَّا نحن الذين فيه وبواسطته نغتسل، وحينما

---

(٧٢) ضد الأريوسيين ٢: ١٠ N.P.N.F. 353

(٧٣) الدفاع عن هروبه ١٣ N.P.N.F. 259

اقتبل الروح نحن الذين كنّا بواسطته مقتبلين هذا الروح.](٧٤)

[**فحينما يُقال عنه بشرياً أن ا لله قد "مسحه"** (أع ١٠:٣٨)، **نكون نحن في الواقع الذين ننال فيه المسحة. وهكذا أيضاً حينما يُقال عنه إنه اعتمد نكون نحن الذين فيه نعتمد.**](٧٥)

[فهو نفسه الذي يقدِّس كل شيء يقول للآب: «لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي» (يو ١٧:١٩)، ليس بمعنى أن "الكلمة" يمكن أن يزداد في القداسة، بل بمعنى أنه **هو نفسه يقدِّسنا نحن جميعاً في ذاته.**](٧٦)

[وبنفس المعنى ينبغي أن نفهم الآية التي نحن بصددها: «لذلك رفَّعه الله» (في ٢:٩)، ليس بمعنى أنه هو نفسه (الكلمة) يمكن أن يزداد في الرفعة إذ أنه هو العلي، بل لكي يصير لنا برًّا ونصير **نحن الذين نرتفع فيه!**](٧٧)

[إذن فقد قيل عنه بشرياً من أجلنا وبسببنا أن الله "رفَّعه" حتى **كما أننا بموته قد مُتنا جميعاً في المسيح، هكذا في المسيح عينه نرتفع نحن أيضاً** (برفعته) **ونقوم من الموت ونصعد إلى السموات.**](٧٨)

فمعمودية الرب هي معموديتنا فيه، ومسحة الرب هي مسحتنا نحن فيه، وقداسته هي قداستنا نحن فيه، وموته هو موتنا نحن فيه، وقيامته ورفعته وصعوده إلى السموات هذه كلها هي لنا نحن فيه. هذا هو منهج أثناسيوس العام في تفسير الأسفار، وهو نفسه يؤكِّد بثقة أن هذا هو المنهج الكنسي العام في فهم الأسفار "فهماً كنسياً."(٧٩)

[لقد فتح الرب طريقاً جديداً للصعود إلى السماء قائلاً: «ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية»، لأنه لم يكن "الكلمة" نفسه هو المحتاج لانفتاح الأبواب إذ هو رب الكل ... بل نحن الذين كنا في حاجة إلى ذلك، **نحن الذين كان يُصعدنا بواسطة**

(٧٤) ضد الأريوسيين ١:٤٧ N.P.N.F. 333
(٧٥) ضد الأريوسيين ١:٤٨ N.P.N.F. 335
(٧٦) ضد الأريوسيين ١:٤١ N.P.N.F. 330
(٧٧) ضد الأريوسيين ١:٤١ N.P.N.F. 330
(٧٨) ضد الأريوسيين ١:٤١ N.P.N.F. 330
(٧٩) ضد الأريوسيين ١:٤٤ N.P.N.F. 331

جسده الخاص οὓς ἀνέφερεν αὐτὸς διὰ τοῦ ἰδίου σώματος αὐτοῦ .][٨٠]

[وهكذا أيضاً الآية القائلة: «وأعطاه اسماً فوق كل اسم» لم تُكتب من أجل "الكلمة" نفسه، إذ كان معبوداً في كل حين قبل تجسُّده ... **بل من أجلنا وبسببنا نحن قد كُتب هذا أيضاً ... حتى تدركنا نحن أيضاً هذه النعمة** (أي نعمة التبني بأن نُدعى فيه أولاد الله).][٨١]

[أخذ ضعفنا عليه وهو غير ضعيف، وجاع وهو الذي لا يجوع، لكي يرفع ما هو لخاصتنا حتى يبطله عنَّا ... فحينما يُقال عنه إنه جاع وبكى وضعف وصرخ «إيلوي إيلوي» التي هي جميعاً انفعالاتنا البشرية، **فهو قد استلمها منَّا لكي يرفعها إلى الآب متشفّعاً فينا حتى يُبطلها عنَّا في ذاته.**][٨٢]

وكثيراً ما يشير أثناسيوس في عبارة واحدة متصلة إلى جسد المسيح الخاص وإلى أجسادنا نحن كأنها حقيقة واحدة متصلة. من مثل ذلك قوله:

[فالآن بعد أن صار الكلمة إنساناً وقد اقتنى لنفسه كل ما يخص الجسد، **لا تعود هذه الأضرار تصيب الجسد بسبب "الكلمة" الذي حل فيه**، ولكنها قد أُبطلت بواسطته ولذلك لا يعود الناس بعد خطاة وأمواتاً بحسب شهواتهم الخاصة ولكنهم قد قاموا بقوة "الكلمة" وصاروا غير مائتين وغير فاسدين!][٨٣]

وهنا في عبارة: [لا تعود هذه الأضرار تصيب الجسد بسبب "الكلمة" الذي حل فيه] واضح أن أثناسيوس يشير بكلمة "الجسد" إلى جسد المسيح الخاص (بسبب الكلمة الذي حل فيه)، ولكن في نفس الوقت أيضاً إلى جسد كل إنسان بصفة عامة بسبب الرباط السرِّي الذي يربطه بجسد المسيح الخاص، كحقيقة واحدة متصلة!

[لذلك قد جاء ـ كما قلت سابقاً ـ لكي يتألَّم بالجسد فيصير بالتالي الجسد فائقاً للألم وللموت. لقد جاء ـ كما قلنا مراراً ـ لكي يأخذ على نفسه المذلَّة وبقية الشرور لئلاَّ تقع على الناس في ما بعد بل تبطل نهائياً بواسطته، وأيضاً لكي يدوم الناس في ما بعد غير

(٨٠) تجسُّد الكلمة ٦:٢٥ P.G. 25, 140; N.P.N.F. 50

(٨١) ضد الأريوسيين ٤٢:١ N.P.N.F. 330

(٨٢) ضد الأريوسيين ٥٧:٣ N.P.N.F. 424

(٨٣) ضد الأريوسيين ٣٣:٣ N.P.N.F. 441-412

فاسدين إلى الأبد إذ قد صاروا هياكل للكلمة. **لو كان أعداء المسيح** Χριστομάχοι **(أي الأريوسيون) قد أدركوا ذلك وتمسَّكوا بهذه "النظرة الكنسية** τὸν σκοπὸν τὸν ἐκκλησιαστικόν" **كأنها مرساة للإيمان لَما ضلوا أبداً من جهة الإيمان!**](٨٤)

فسبب فساد نظرية الأريوسيين من الأساس هو أنهم فشلوا في إدراك هذه "النظرة الكنسية" إلى المسيح، باعتباره متصلاً اتصالاً كيانياً بكل واحد منَّا، حتى أن كل ما فعله الرب من جهة بشريته ينبغي أن يُعتبر لنا جميعاً. ويتابع أثناسيوس الأريوسيين في منطقهم الفاسد ويتدرَّج معهم من خطوة إلى خطوة بالمنطق ليكشف كيف أن عقيدتهم المنحرفة يترتَّب عليها أيضاً نتائج روحية معيبة:

[وإن كنَّا لسنا نحن "المخلوقين فيه" فنحن بالتالي لا نقتنيه داخلنا بل خارجاً عنَّا، **وبذلك يكون لنا كمجرَّد معلِّم نتعلَّم منه من خارج!!**](٨٥)

لا يستطيع أثناسيوس أن يقبل مثل هذا الفكر! أن يكون المسيح مجرَّد معلِّم للدين والأخلاقيات نتعلَّم منه من خارج كمثل أساتذة المدارس اليونانية! لا يكون هذا هو مسيحنا! إمَّا أن يكون المسيح هو حياتنا وهو قيامتنا أو نكون نحن أشقى جميع الناس. لذلك، فالأريوسية التي تنكر هذه الحقيقة هي أشر الضلالات، ولذلك يستطرد أثناسيوس قائلاً:

[لو كان الأمر كذلك - لو كان المسيح مجرَّد معلِّم يعلِّمنا من الخارج - لكانت إذن الخطية لا تزال تملك على الجسد كما كانت من قبل! ولكن الرسول يعارض مثل هذه الأفكار قائلاً: «نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع» (أف ٢: ١٠). فإن كنا في المسيح قد خُلقنا فليس إذن هو في ذاته المخلوق بل نحن المخلوقين فيه.](٨٦)

من كل هذه الأقوال يظهر جلياً أن علاقتنا الكيانية بالمسيح، أي تداخلنا في المسيح وتداخل المسيح فينا، ليست أمراً ثانوياً في التعليم اللاهوتي للقديس أثناسيوس، بل هي حجر الأساس الذي بدونه ينهدم صرح الإيمان كله ويبطل خلاصنا. فعلاقتنا بالمسيح لا يمكن أن تكون مجرَّد علاقة تلاميذ بمعلِّم "يعلِّمنا من خارج" بل لابد أن تكون علاقة تداخل وثبات متبادل.

---

(٨٤) ضد الأريوسيين ٣: ٥٨ P.G. 26, 445 N.P.N.F. 425

(٨٥) ضد الأريوسيين ٢: ٥٦ N.P.N.F. 378 والتعليق الذي يلي هذا القول هو للعالِم مرش:
Mersch, *The Whole Christ*, pp. 280, 281.

(٨٦) نفس المرجع السابق.

لذلك يؤكِّد أثناسيوس أنه بمجرَّد تجسُّد الكلمة، صار الكلمة بنوع ما **فينا** وصرنا نحن بنـوع مـا "محمولين فيه":

[**فمن الواضح أن الكلمة قد صار فينا لأنه قد لبس جسدنا نحن**
(٨٧)[ἐν ἡμῖν γέγονεν ὁ Λόγος τὸ γὰρ ἡμέτερον ἐνεδύσατο σῶμα

وفي تفسيره لصلاة المسيح الكهنوتية (يو ١٧) يقول:

[**أنا فيهم بسبب الجسد** ἐγὼ δὲ ἐν αὐτοῖς διὰ τὸ σῶμα
فأسأل أن يصيروا واحداً بحسب الجسد الذي فيَّ ...
حتى كما أن الجميع محمولون فيَّ ... φορεσθέντες παρ' ἐμοῦ
يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً.](٨٨)

[**لقد تأهَّلنا بالكلمة لأننا صرنا منضمـين إليـه بواسـطة جسـده** προσληφθέντες διὰ τῆς σαρκὸς αὐτοῦ وبذلك ورثنا الحياة الأبدية.](٨٩)

وقـد عرضنـا أقـوال القديـس أثناسـيوس بخصـوص "الاتحـاد بـا لله" أو بحسـب تعبـيره "التألُّـه θεοποίησις" في الفصل الخامس من الجزء اللاهوتي تحت عنوان: "نتيجـة غلبـة المـوت والفسـاد: اشتراك الإنسان في الطبيعة الإلهية" (انظر صفحة ٥٠١–٥١٤)، وسيتبيَّن منها القارئ أهمية مفهـوم التألُّه في الفكر اللاهوتي لأثناسيوس، إذ نرى أنه يقع موقع القلـب مـن التعليـم اللاهوتـي بـل ومـن مفهوم المسيحية كلها عند قديسنا الكبير (صفحـة ٥١٣). ويوافقنـا في ذلـك العـالِم Gross الـذي عمل دراسة مقارنة لمفهوم "التألُّه" عند جميع آباء العصور الأُولى، إذ يقول:

"إن اتحادنا بالله أي "التألُّه" ليس في تعليم أثناسيوس مجرَّد فكـرة ثانويـة تكميليـة كمـا كـان عند الآباء السابقين له، بل قد صار بالحق محوراً لكل تفكيره اللاهوتي."(٩٠)

وبنفس المعنى يقول العالِم Bouyer:

"إن الذي يمكننا أن ندعوه بحق معلّم لاهوت لعقيدة "الاتحاد بالله" هو بلا شـك القديـس

---

(٨٧) ضد الأريوسيين ٣:٢٢ P.G. 26, 369, N.P.N.F. 405
(٨٨) ضد الأريوسيين ٣:٢٢ P.G. 26, 369, N.P.N.F. 405, 406
(٨٩) ضد الأريوسيين ٣:٣٤ P.G. 26, 397 N.P.N.F. 413
(90) J. Gross, *La divinisation du chrétien d'après les Pères grecs*, 1938, p. 202.

أثناسيوس. ومن الجدير بالملاحظة أنه هو نفسه الذي أمسك بدفة الكنيسة لإرجاع تعليمها من التأثُّر بالفلسفات اليونانية عن اللوغس إلى الأمانة الكاملة للمفهوم الكتابي عن ا لله."(٩١)

أي أنه لم يستقِ هذا التعليم عن "التألُّه" من الفلسفات اليونانية المعاصرة له بل من صميم الكتاب المقدَّس، مما يقوله بطرس الرسول: «**لكي تصيروا شركاء الطبيعة الإلهية**» (٢بط ١: ٤)، ويوحنا الرسول: «إن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم **لكي نحيا به**» (١يو ٤: ٩)، «**سنكون مثله** لأننا سنراه كما هو» (١يو ٣: ٢). وبولس الرسول: «لكي تمتلئوا إلى **كل ملء الله.**» (أف ٣: ١٩)

وطبعاً لا يقصد القديس أثناسيوس من "التألُّه" أننا سنخرج به من حدود طبيعتنا البشرية المخلوقة، أو نتحوَّل إلى طبيعة الله، حاشا! ولكن ما يعنيه هو أننا سننال بالتأكيد انسكاباً حقيقياً من حياة ا لله نفسه داخلنا لتجديد خلقتنا. وهذه هي الغاية النهائية التي من أجلها قد جاء ابن ا لله إلينا:

[من أجل ذلك قد صار الكلمة جسداً: **لكي يجعل الإنسان قادراً أن يتقبَّل اللاهوت** ἵνα τὸν ἄνθρωπον δεκτικὸν θεότητος ποιήσῃ.](٩٢)

سابعاً: روحه الكنسية العالية جدًّا

يقول العالِم Bouyer:

"**لقد كان لأثناسيوس روح كنسية عالية جدًّا** ... وهذا أفضل ما يُفسِّر لنا تصرفاته ... فإن كان لم يرتضِ بأن يكف ولا لحظة واحدة عن الجهاد من أجل العقيدة، ولم يرضَ أن يحتفظ بإيمانه لذاته - تاركاً الآخرين يتوحَّلون كما يشاءون في اللاهوت الأنطاكي الشائك، فالسبب في ذلك أن الحياة المسيحية كانت بالأساس في نظره "حياة كنسية"، فكان من العبث في نظره أن يدَّعي أحد بأنه يُنمِّي حياته الروحية الفردية ويترك بقية الكنيسة تتعثَّر، كما يكون من العبث الاحتفاظ بالحياة الطبيعية داخل إحدى خلايا جسم يؤول إلى الانحلال! فإن كنَّا نجد عنده الحياة الروحية الداخلية تتوافق بالتمام مع "الاهتمام بجميع

(91) Bouyer, *Histoire de la spiritualité chrétienne*, 1966, t. I, p. 498.

(٩٢) ضد الأريوسيين ٢: ٥٩ P.G. 26, 273; N.P.N.F. 380

الكنائس"، فالسبب في ذلك هو اقتناعه العميق بأن حياة الكنيسة ليست شيئاً خارجياً بالنسبة لحياة الإنسان المسيحي الخاصة."(٩٣)

"فأول ما تقلّد المهام الأسقفية صار يبذل نفسه بلا حساب في كنيسته المصرية المتسعة، وفي فترة وجيزة وضع الله عليه "الاهتمام بجميع الكنائس"، بحسب قول بولس الرسول. فالحق الذي كان يعيشه كان يدفعه بقوة جارفة إلى أن يسلّمه لغيره ويجعل الآخرين يتمتّعون به معه. كان لا يحتمل أن تكون النفوس الموكولة إليه محرومة من هذا الحق. وكلما كان يتقدّم في الحياة، كلما كانت تزداد فيه هذه الغيرة المُلحة لأن يسلّم إيمانه بالكامل لكل مَنْ دُعي باسم المسيح ... بل إننا نعلم بأي قدر من الاهتمام استقبل فرومنتيوس أول رسول للحبشة، وكيف رسمه أسقفاً وعضّده بكل وسيلة حتى تصير خدمته ناجحة."

"غير أن هذا العمل الخارجي الدائب لم يكن عند أثناسيوس متعارضاً مع حياته النسكية الداخلية. فلا نجد لديه أي أثر للتعارض بين هذين الاتجاهين."(٩٤)

والسبب في هذا التوافق الداخلي بين هذين الاتجاهين أنه لم يكن يفرّق قط بين المسيح وبين كنيسته. فعلاقته بالمسيح كانت هي نفسها علاقته بالكنيسة التي هي جسده، وفي ذلك يقول العالِم Möehler:

"لقد ضرب أثناسيوس جذوره عميقاً عميقاً جدًّا في تربة الكنيسة، وقد كان أثناسيوس لا يعرف نفسه إلاّ فيها، فكان ماضيها حاضراً دائماً أمامه، وقد أخذ على عاتقه أن لا يُقدِّم المسيح يسوع إلاّ متحداً بكنيسته من الداخل، وفي كلمة واحدة **كان المسيح هو نفسه الكنيسة!**"(٩٥)

وهذا الإحساس الواضح بحقيقة الكنيسة كجسد للمسيح يظهر عند أثناسيوس منذ شبابه حينما كتب كتابه الأول "ضد الوثنيين"، وفي "تجسُّد الكلمة":

[لهذا لم يمت (المسيح) ميتة يوحنا بقطع رأسه وفصلها عن جسده، ولا مات ميتة إشعياء بنشر جسده وفصله إلى نصفين، وذلك لكي يحفظ جسده سليماً غير منقسم حتى أثناء

(93) Bouyer, *L'Incarnation et l'Eglise - Corps du Christ* ..., p. 29.

(94) Ibid. p. 27.

(95) Möehler, *Athanasius der Grosse und die Kirche seiner Zeit,* 1827, p. 122, cited by Mersch, *op. cit.,* p. 285.

موته، حتى لا تكون فرصة للذين يريدون تقسيم الكنيسة وتجزئتها.](٩٦)

فالكنيسة في نظر أثناسيوس هي جسد المسيح. ولو مات المسيح بتقسيم جسده إلى أجزاء لأمكن الآن أيضاً أن ينجح الأريوسيون والميليتيون في تقسيم الكنيسة. ولكنهم لن ينجحوا في ذلك طالما أن المسيح واحد وغير قابل للانقسام ...

ونستطيع أن نتبيَّن في بعض أقوال القديس أثناسيوس البذرة الأُولى للتعليم الذي بلوره في ما بعد وأفاض في شرحه القديس كيرلس الكبير، والذي مؤدَّاه أن الوحدة الكنسية تقوم أساساً على سر **الإفخارستيا** وعلى شركة **الروح القدس**.

فعن سر الإفخارستيا كأساس للوحدة الكنسية يقول أثناسيوس مفسِّراً صلاة الرب (يو ١٧):
[ليصيروا هم أيضاً كاملين إذ تكون لهم الوحدة لهذا السبب وليصيروا كياناً واحداً بعينه. حتى كما أن الجميع محمولون فيَّ، يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً ويجتمعوا إلى إنسان كامل. **فإننا نحن جميعاً إذ نتناول من (الرب) الواحد بعينه** ἐκ τοῦ αὐτοῦ μεταλαμβάνοντες **نصير جسداً واحداً إذ يكون لنا في أنفسنا الرب الواحد.**](٩٧)

وفي نص مشابه للسابق يقول عن شركة الروح القدس كأساس للوحدة الكنسية:
[المخلص يقول: «كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»، وهو لا يقصد بذلك أننا يمكن أن نصير مساوين له، ولكنه يطلب من الآب أن يُعطَى الروح بواسطته للمؤمنين كما كتب يوحنا (يو ١٤:١٦). **فإننا بالروح نصير في الله وبالتالي نصير متحدين بعضنا مع بعض في الله.**](٩٨)

وأمَّا بؤرة الوحدة ومحورها فكان أثناسيوس يراها في صليب الرب:
[**لقد نقض بموته حائط السياج المتوسِّط** (أف ٢:١٤) وصارت الدعوة لجميع الأُمم، فكيف كان ممكناً أن يدعونا إليه لو لم يصلب؟ **لأنه لا يمكن أن يموت إنسان وهو باسط ذراعيه إلاَّ على الصليب، لذلك لاقَ بالرب أن يحتمل هذا الموت ويبسط يديه حتى باليد**

---

(٩٦) تجسُّد الكلمة ٢٤:٤.

(٩٧) ضد الأريوسيين ٣:٢٢ P.G. 26, 369; N.P.N.F. 405, 406. والفعل μεταλαμβάνω كما سبق أن قلنا هو الاصطلاح الكنسي والآبائي للتعبير عن "التناول" الإفخارستي.

(٩٨) ضد الأريوسيين ٣:٢٥ P.G. 26, 376; N.P.N.F. 407

الواحدة يجتذب الشعب القديم وبالأخرى يجتذب الذين من الأمم ويتحد الاثنان في شخصه، فإن هذا هو ما قاله أيضاً بنفسه مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعاً أن يفدي بها الجميع: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع».](٩٩)

ومن الوجهة العملية قد صار أثناسيوس بلاهوته الرصين وروحانيته العميقة "رباطاً" أساسياً وقوياً في جسد الرب «الرأس الذي منه كل الجسد بمفاصل **ورُبُط** متوازراً ومقترنا ينمو نمواً من الله.» (كو ٢:١٩)

فنحن نعلم كيف استخدم الله شخصيته الروحية العميقة ليجعل منه - أثناء نفيه الأول والثاني - خير ممثِّل للكنيسة القبطية بين كنائس الغرب، حتى انعقدت بذلك أول وأقوى صلة روحية عميقة وأصيلة بين كنائس الشرق والغرب كما سبق أن أوضحنا في الجزء التاريخي صفحة ١٠٣.

لقد كانت أخلاق أثناسيوس النبيلة وتقواه وأمانته الشديدة للحق تسبي قلوب جميع الذين عرفوه عن كثب. من أمثال هؤلاء مكسيميانوس أسقف تريف الذي أُرسل إليه أثناسيوس أصلاً ليوضع تحت مراقبته. ولكن ذلك الأسقف الوقور وكل شعبه انغلبوا منذ أول لحظة لشخصية أثناسيوس الروحية، وصاروا يتشرَّبون منه مفاهيمه الروحية واللاهوتية، وظلَّت تريف حتى بعد موت مكسيميانوس من أوفى المدن لأثناسيوس وللإيمان النيقاوي بصفة عامة.

أمَّا يوليوس أسقف روما فقد دعاه لمشاركة الأسرار الإلهية منذ أول يوم (انظر صفحة ١٨٨)، وتشرَّب على قدر ما استطاع كل مفاهيمه وفكره. وتدلنا رسالة يوليوس إلى أساقفة الشرق على "مدى التأثير الذي استطاع أثناسيوس أن يسكبه في الشعور واللاشعور الروماني والغربي بوجه عام" (صفحة ١٧١).

وذلك إنما يدلنا على أصالة الروح الكنسية التي كانت تنبض في قلب أثناسيوس، حتى أنه لمَّا صار في المنفى لم ينعزل في صومعته بل استمر يعمل دائباً لبناء جسد الرب، وظل يتفاعل كعضو حي يؤثِّر في بقية أعضاء الجسد الواحد.

والعجيب أنه حتى حينما خانه أعز أصدقائه في الغرب وهما ليباريوس أسقف روما وهوسيوس الشيخ الوقور، صديق العمر، حتى حينما خانه هذان، بقي أثناسيوس يلتمس لهما الأعذار ويدافع

(٩٩) تجسُّد الكلمة ٢٥:٣و٤.

عنهما! عجيب هو هذا الإنسان الذي يظل وفياً في صداقته حتى حينما يخونه أعز الأحباء!

هذا من جهة أصدقائه، أمَّا من جهة خصومه، أو بالحري على حد تعبيره "أعداء المسيح"، فقد كان صارماً، كاشفاً للأخطاء، ثابتاً كالصخر لا يتزعزع! غير أنه في ذلك أيضاً لم يكن يعرف أن يحقد. كان احترامه الشديد للنفس البشرية مهما تمادت في شرها يمنعه أن يهينها. وفي ذلك يقول العالِم Bouyer في وصفه لشخصية أثناسيوس:

"إن أثناسيوس في كل كتاباته الجدلية والدفاعية يُظهر سخطه بشدة على خصومه، ولكنه في ثورته عليهم يخلو تماماً من مشاعر البغضة أو الحقد. إنه يندفع بشهامة ليظهر استياءه الشديد، غير أنه في ذلك أيضاً لا يتخلَّى تماماً عن وداعته الطبيعية، بل سرعان ما تعود وتكون هي السائدة. إنه يفضح أريوس ويوسابيوس وقسطنطيوس ويصفهم بما لا يشرِّفهم، غير أننا لا نراه قط يطأهم بقدميه، فنحن لا نجد في كتاباته أثراً لعداوة شخصية تسُود صفحاتها كمثل شبح روفينوس في كتابات جيروم."(١٠٠)

والسبب في ذلك أن أثناسيوس لم يكن يقاوم عدواً شخصياً له بل كان يقاوم أعداء الإيمان، وكان مستعداً في أي وقت يرجعون فيه إلى الحق أن يقبلهم بسعة صدر.

أمَّا العالِم Quasten فيقول بخصوص حزم أثناسيوس وسماحته:

"على الرغم من مناهضته الشديدة للأخطاء بدون أية مساومة معها، ومن تصديه لها بكل حزم، إلاَّ أنه كان يتميَّز بفضيلة يندر أن تنجمع مع مثل هذا الطبع الحازم، وهي أنه كان قادراً حتى في حمية الجهاد أن يصير سموحاً ومتسعاً إزاء الذين ضلوا الطريق بنية صادقة."(١٠١)

وهذا هو في الحقيقة رأي المؤلِّف الواضح، إذ أن أثناسيوس في كتاباته استطاع أن يفرِّق دائماً وبدقة بالغة بين وقت المهاجمة ووقت الدفاع، وبين خصومة لا تهادن قط وخصومة تقبل المهادنة، وفرَّق بين أعداء الإيمان وبين الأغبياء في الإيمان وبين الضعفاء في الإيمان، فعلى الأولين أعلن حرباً لا رحمة فيها، وللمتوسطين أفاض وأسهب وشرح وأطنب، وللآخرين شجَّع وتنازل وسار حتى إلى منتصف الطريق!! (انظر صفحة ٢٧٥).

وقد ظهرت هذه القدرة العجيبة في التمييز والإفراز بين الخارجين عن الإيمان وبين الذين لا

(100) Bouyer, *op. cit.*, pp. 31-32.

(101) Quasten, *op. cit.*, p. 20.

يختلفون إلاّ في التعبير عن هذا الإيمان الواحد، ظهر هذا الإفراز مع حكمة أثناسيوس ورزانته على الخصوص في موقفين: الأول في علاقته مع أنصاف الأريوسيين الذين تجمَّعوا حول باسيليوس أسقف أنقرة، والثاني في علاقته مع الفريقين المتنازعين في أنطاكية.

ففي الموقف الأول كتب أثناسيوس في كتابه: "عن المجامع" بخصوص باسيليوس (أسقف أنقرة والذين معه:

[أمَّا الذين يقبلون كل مقررات مجمع نيقية ويتشكَّكون فقط في عبارة "الهوموؤوسيون" فلا ينبغي أن يعامَلوا معاملة الأعداء، ولا نقصد هنا أن نهاجمهم بوصفهم مصابين بالأريوسية، ولا نحن نعتبرهم مقاومين لتقليد الآباء، ولكن نناقش الأمر معهم **كإخوة مع إخوة لأنهم يقصدون ما نقصده نحن، وليس النزاع بيننا إلاّ حول اللفظ فقط** ... ومن أمثال هؤلاء باسيليوس الذي كتب من أنقرة بخصوص الإيمان.](١٠٢)

وبعد ذلك يعود أثناسيوس ويعبِّر أيضاً عن محبته نحو هؤلاء الأساقفة ويقينه أنهم لم ينحرفوا عن الإيمان الصحيح:

[إن المعنى الذي يقصده **هؤلاء الأحباء** ليس غريباً ولا هو بعيداً عن معنى التساوي في الجوهر.](١٠٣)

وكان نتيجة ذلك الإفراز أن زال سوء التفاهم وأعلن ٥٩ أسقفاً من أنصاف الأريوسيين سنة ٣٦٥ أنهم يقبلون قانون الإيمان النيقاوي بدون قيد ولا شرط. "إن أثناسيوس كان على حق في أمله وتطلعاته فقد كان يؤدِّي دوراً نبيلاً!! ففي رسالة "المجامع" ارتفع أثناسيوس فوق نفسه!! وكانت النتيجة أن استجاب الله في لحظة وأوقف هذا الشغب، فالمحبة التي ترجو كل شيء لابد أن تتبرَّر في كل ما تعلمه وتتزكَّى." (انظر صفحة ٣٠٠)

أمَّا بخصوص الفريقين المتنازعين في أنطاكية فقد كان كل منهما يتهم الآخر بالهرطقة، ولكن أثناسيوس بعد أن استجوب مندوبين من كلا الفريقين جاءوا إلى الإسكندرية واستفهم منهم بتدقيق عمَّا يعنيه كل منهما من وراء المصطلحات اللاهوتية المختلفة، تيقَّن أن إيمانهما واحد وصحيح وأن الخلاف بينهما خلاف لفظي فقط. فأخذ ينصحهم في الرسالة التي أرسلها إلى أنطاكية قائلاً:

(١٠٢) في المجامع ٤١ N.P.N.F. 472
(١٠٣) في المجامع ٤٣ N.P.N.F. 473

[لا تتعاركوا بخصوص كلمات لا فائدة لها ولا تتخاصموا بخصوص العبارات المشار إليها، بل اتفقوا في مشاعر التقوى ... واعتبروا فوق كل شيء قيمة ذلك السلام الذي في حدود صحة الإيمان، لعل الله يتراءف علينا ويوحِّد ما قد انقسم، فلا يكون بعد سوى رعية واحدة لراعٍ واحد الذي هو ربنا يسوع المسيح نفسه.](١٠٤)

وأول ما تهيَّأت له الفرصة للذهاب إلى أنطاكية (سنة ٣٦٣ لمقابلة الإمبراطور جوفيان)، اجتمع هناك بالفريقين المتنازعين ليكمِّل الصلح بينهما. وقصد أن يتأخَّر في أنطاكية عدة شهور حتى يبذل أقصى ما في وسعه لإقامة الصلح والسلام في هذه الكنيسة الشقيقة.

فكل ذلك ـ سواء كان تأثيره العميق على أساقفة الغرب أثناء نفيه هناك، أو نجاحه في ربح باسيليوس أسقف أنقرة مع الأساقفة الذين معه، أو توسطه الحكيم بين الأحزاب المتنازعة في أنطاكية ـ كل ذلك إنما يدلنا على امتياز روح أثناسيوس من الوجهة الكنسية، وعلى شدة إحساسه العميق بحقيقة الكنيسة كجسد للرب. فكل جهاده الكنسي على مدى هذه السنين الطويلة كان يؤول إلى غاية واحدة: أن يجمع في وحدانية الإيمان كل الذين صاروا أعضاء في جسد المسيح: **[ليت الله يتراءف علينا ويوحِّد ما قد انقسم، فلا يكون بعد سوى رعية واحدة لراعٍ واحد الذي هو ربنا يسوع المسيح نفسه.]**

وقد ظلَّت شخصية أثناسيوس حتى بعد موته ـ وهو بالحق لم يمت بحسب مدلول اسمه(١٠٥) ـ ظلَّت شخصيته الروحية تستقطب قلوب الكثيرين من الشرق والغرب على مدى الأجيال، حتى اعتُبر أثناسيوس عند الكثيرين شعاراً متجسِّداً حيًّا لإيمان كنيسة المسيح الواحدة. وفي ذلك يقول أحد المعاصرين:

"لقد صارت الأرثوذكسية الجامعة متجسِّدة في شخص أثناسيوس."(١٠٦) (مِرش)

(١٠٤) الطومس إلى أنطاكية ٨ N.P.N.F. 485

(١٠٥) كلمة "أثناسيوس" باليونانية تعني: "عديم الموت".

(106) Mersch, *op. cit.*, p. 285.

الفصل الأول

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة قبل قيام الأريوسية

الصراع اللاهوتي ضد الأريوسية
كيف ابتدأ وكيف انتهى

مقدِّمة:

احتل النزاع الأريوسي كل الحقبة الزمنية الواقعة بين المجمعين المسكونيين الأول والثاني، مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م. ففي المجمع الأول اكتشفت الكنيسة هذه الهرطقة بكل أعماقها وأخطارها، وأدانها ٣١٨ أسقفاً من جميع أنحاء العالم، وحُرم وقُطع مقدِّمها أريوس. ولكنها لم ترتدع بل ظلَّت تعمل من داخل الكنيسة كورم في جسمها يلاحقها، إنما على أطوار وأشكال متعدِّدة من المد والجذر، إلى أن انعقد بخصوصها أيضاً مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني وكانت قد استنفدت كل نشاطها وطاقتها ونضبت ينابيعها التي كانت تغذيها، فقُطعت الأريوسية من الكنيسة وعُزلت وصارت شيعة خارجة عن الكنيسة ومنفصلة عنها بعد أن كانت متداخلة في جسم الكنيسة، تعمل من داخل كيانها، تقنِّن وتصدر المنشورات والتفسيرات وتجمع المجامع وتشعل نيران الاضطهاد والفوضى والانقسامات.

لذلك، فإن الأمر الذي يُتعجَّب له أن تاريخ هذه البدعة قد يسمَّى أحياناً بتاريخ الكنيسة، وتاريخ المجامع، وتاريخ أساقفة الكراسي الكبرى، وتاريخ أثناسيوس، لأنه إلى هذا الحد استطاعت هذه البدعة أن تتغلغل في جسم الكنيسة.

والذي يتتبع **"التقليد"، وأهميته بالنسبة للإيمان المسيحي،** يُدرك كيف أسَّس الرب قانون الإيمان المسيحي على الصخر، عندما أوصى تلاميذه قبل صعوده مباشرة قائلاً: «**عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس**».

وقد ظلَّت الكنيسة تعيش على هذا القانون وتسلِّمه للمولودين الجدد في البداية دون أي صعوبة، لأن قوة الإيمان وفاعليته كانت تسري في المؤمنين وتعطي القناعة الكاملة بأصالة الحياة الجديدة.

ولكن بدخول اليهود المتعصِّبين للمفهومات اللاهوتية ـ حتى منذ عصر الرسل ـ بدأ عنصر المقاومة والتشكيك في جوهر الإيمان المسيحي بشخص المسيح، بالإضافة إلى محاولة التحرُّر من الناموس القديم، مما اضطر الآباء الرسل أنفسهم لعقد أول مجمع في تاريخ الكنيسة (سنة ٤٩م)

بأُورشليم لتوضيح وتقنين حدود الإيمان المسيحي. ولكن سيل المقاومات من المبتدعين اليهود لم ينقطع قط بسبب تغلغلهم في جسم الكنيسة، مما أنشأ في الكنيسة يقظة خاصة للحفاظ على التقليد الرسولي والتشدُّد ضد انحرافات الفكر اليهودي المتنصِّر.

وعلى نفس النمط، ولكن في أزمنة لاحقة، حدثت المقاومات من المبتدعين الوثنيين الذين دخلوا في الإيمان المسيحي وهم متشبِّعون بالفلسفة الوثنية، ولكن ازداد خطرهم وتأثيرهم على الفكر الكنسي على مر الزمن بالأكثر عندما توقَّف الاضطهاد في بداية القرن الرابع، وتخلَّت الدولة عن حماية الوثنية وساندت الكنيسة رسمياً، وبدأ يزداد دخول أفواج الوثنيين إلى الإيمان المسيحي حاملين معهم ثقافتهم الفلسفية الوثنية ونشاطهم الذهني الذي لا يكفّ عن اختراع أنماط من المناهج والحلول في الأمور اللاهوتية لإشباع تصوراتهم الميتافيزيقية.

وأمام هذين الخطرين، خطر العنصر اليهودي وخطر العنصر الوثني على الإيمان المسيحي، نشأ خطر ثالث من داخل الكنيسة ذاتها، وهو خطر انحراف قادة الكنيسة عن التقليد الأرثوذكسي عند الرد على المقاومين والمبتدعين.

من هذا يتبيَّن مدى الضرورة الملحَّة التي كانت تعانيها الكنيسة كلها في كل أنحاء العالم، لتوضِّح تقليدها المسلَّم إليها محدَّداً بقوانين لا تقبل التأويل.

ولكن حتى بداية القرن الرابع، وقبل أن ينفجر الانشقاق الأريوسي وتحدث هذه الهزات العنيفة، ويبدِّد هدوء الكنيسة وسلامها؛ كانت الكنيسة قد نجحت بالفعل في رد كل تهجُّم أو اعتداء بكل حزم سواء كان نابعاً من أصل يهودي أو وثني، وكان سلاحها ضد هذا وذاك هو التقليد المسلَّم من الرسل والآباء الرسوليين من جهة شرح قانون الإيمان على ضوء الإنجيل والأسفار المقدَّسة عموماً، وبالأكثر توضيح واستعلان لاهوت المسيح من كافة الكتب وشرح علاقة الابن بالآب ومفهوم التجسُّد الصحيح، إنما في قالب إيماني مختصر وبحاسة إيمانية أصيلة وعميقة وعامة ومتساوية تقريباً في جميع الكنائس.

وحينما بدأ أريوس يذيع مفهوماته الإيمانية الجديدة بدت وكأنها تصوراته الشخصية عن اللاهوت المسيحي، مع حلول منطقية لشرح علاقة الآب بالابن وسر التجسُّد وشخصية المسيح، ولكن وضح في الحال أن هناك تكتُّلاً هائلاً من الخارجين على الإيمان الأرثوذكسي لمساندته في جميع كنائس الشرق، إذ استقطب أريوس كل الهرطقات التي قامت لمناوأة المسيحية، سواء كانت من

أصول يهودية أو من أصول وثنية وكل المنحازين إليهم من الأساقفة غير التقليديين.

لذلك نجد العلماء والمؤرِّخين الذين أرَّخوا للانشقاق الأريوسي يرجعون بهذه الهرطقة الأريوسية إمَّا إلى أصول يهودية وإمَّا إلى أصول وثنية، كما يرى البعض الآخر أنها خليط من الهرطقات اليهودية المتنصِّرة والهرطقات الوثنية المتنصِّرة.

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة قبل قيام الأريوسية

أولاً: ذخيرة الإيمان بالمسيح كقوة فعَّالة بحسب التقليد الرسولي، وليس هو برنامج فلسفة:

ونخص بالذات الإيمان المتعلّق بشخص المسيح.

١ ـ فالمسيحية ورثت ـ بادئ ذي بدء ـ أساس عقيدة "**الوحدانية**" أو "**التوحيد**" من جهة الله سواء عن التقليد اليهودي أو الأسفار المقدَّسة للعهد القديم.

٢ ـ كذلك ورثت التفريق الكامل بين لانهائية اللاهوت ومحدودية المادة أو العالم، والتحذير من أي خلط بينهما كما كان حادثاً في الوثنية.

وهكذا جاءت كل تعاليم الإنجيل مطابقة من جهة هذين الأمرين لما جاء في أسفار العهد القديم.

٣ ـ لاهوت المسيح الفعَّال في الطبيعة البشرية:

ولكن بجوار الإيمان الكامل بوحدانية الله، قدَّمت المسيحية تعاليمها الأساسية المبنية على مجيء الرب، أي من جهة التجسُّد والقيامة بكل ما يتبعها من قوة دفع فائقة استطاعت أن تغيِّر في صميم الطبيعة البشرية بالفعل والعمل والسلوك على مستوى كل الأُمم! بحيث تمَّ بالفعل استعلان شخصية المسيح الفائقة للزمان والمكان من داخل الطبيعة البشرية وخبرة البسطاء والحكماء على السواء، فاحتل المسيح مكانته الإلهية على العالمين، إذ بعد أن غطَّى كل التاريخ تجاوز التاريخ بالقيامة من الأموات إلى عمق المجال الإلهي، فجلس عن يمين العظمة في الأعالي.

وقد تجاوز الإيمان بالمسيح أثره في المؤمنين وانتقل بصورة طاغية إلى الوثنيين، ليس بسبب المنطق المسيحي أو الدفاع المتقن عن الإيمان كما يتراءى لكثيرين، بل بسبب التغيير الجوهري الذي كان يظهر على المسيحيين بمجرَّد قبولهم الروح القدس بالإيمان والعماد، حيث كان يحل المسيح بالإيمان في قلوب المؤمنين ويؤيِّدهم بقوة روحية فعَّالة على مستوى العلاقة بالآخرين والمحبة مع فرح وسرور لا يُحدّ.

وهكذا تأيَّد إيمان الكنيسة بالخبرة العملية أن قامة المسيح أعلى من مجرَّد ملء بشري، وأن الحياة التي تنبع منه ليست مجرَّد حياة بشرية، وبالتالي وضح أن الفداء الذي صنعه بالصليب والكفَّارة التي أكملها بدمه عن كل ذي جسد ليست هي مجرَّد نصوص إيمان ولاهوت، بل هي حقيقة فاعلة في عمق كيان الإنسان كغفران خطايا وتجديد خلقة يستشعرها الخاطئ ويمسكها بقلبه قبل أن يمسكها بعقله، ويشهد لها سلوك الإنسان وتغيير حياته، ومنها يدرك مباشرة بدون واسطة أو شرح لاهوت المسيح وصلته بالآب كمخلِّص يستطيع أن يجتذب من عمق الخطية قديسين يصنعون الآيات والمعجزات.

وهكذا كان لاهوت المسيح الفعَّال في الطبيعة البشرية من البدء قاعدة المسيحية الأُولى، جنباً إلى جنب وعلى نفس المستوى من الرسوخ مع الإيمان بوحدانية الله.

الانسجام الباطني بالإحساس الروحي بين لاهوت المسيح ووحدانية الله:

واستمرت الكنيسة توضِّح وتكشف السر الذي يربط بين هاتين الحقيقتين على مدى السنين والأجيال. والعجيب أن آباء الكنيسة الأُولى لم يستشعروا قط بأنهم كانوا أمام حقيقتين تتطلبان الربط أو المصالحة. أمَّا السر في ذلك فكان يكمن في حياتهم، لأنهم كانوا يعيشون في حقيقة هذا السر الإلهي كل يوم حياة ملؤها الاستمتاع بقوة المسيح في تقوى وسلوك يكفي لكي يعلن عن هذه الحقيقة دون سؤال، فكان لاهوتهم عبارة عن تسبيح وإنشاد ومديح واعتراف بعظمة كل أسرار الفداء والخلاص والغفران وبشخص المسيح الفادي مع الله كإله واحد.

وكانت الأمانة التي يشعرون أنهم يحملونها بالنسبة للأجيال القادمة تتلخَّص في توصيل الإيمان الرسولي كحقيقة حيَّة وفعَّالة وتسليمه كما هو وليس تحليله أو شرحه، وتوصيل الحقائق التاريخية بدقائقها والقضايا التي حكم فيها الرسل وتناقلها الآباء كما هي كإيمان مسلَّم، تسند السلوك دون استخلاص عقائدي أو تحليل مدرسي لمضمونها الإيماني.

حيث كان كل التركيز الإيماني يدور حول "لاهوت المسيح" من كل الزوايا وبالأخص من كل الأسفار المقدَّسة، الأمر الذي باعد إلى الأبد بين المسيحية واليهودية ووضع الحدود الفاصلة بين المسيحيين والوثنيين.

اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح صالح الألم بالألوهة:

كذلك لم يكن الآباء يجدون أي نشاز في أن يكون المسيح قد تألَّم على الصليب ومات مع كونه هو الإله، بل لم ينشغلوا قط في التوفيق بين هذا وذاك كأنه تناقض، لماذا؟ لأنهم كانوا يعيشون في

حقيقة التجسُّد كاتحاد كامل ومطلق بين اللاهوت والناسوت بكل عمقها ومفهومها الإنساني، بل وفي قوة الخلاص الكامن في الإيمان بها.

فالألم هو العنصر الذي أكمل به المسيح - كإله - الفداء والكفَّارة؛ والفداء والكفَّارة هما هدف التجسُّد الأوحد. فإن كانوا يتمتَّعون بالفداء ويتلذَّذون بالغفران فكيف يستغربون التألُّم على المسيح الإله المتجسِّد؟

ولكن إذا فحصنا جماعة أخرى "**كالإيبيونيم**" **(فلسفة يهودية وثنية)**، فلأنهم كانوا يفحصون اللاهوت عقلياً و لم يكونوا يعيشون في مفهوم الخلاص والغفران الذي تمَّ بالدم على الصليب، لم يقبلوا قط أن يجمعوا بين لاهوت المسيح وإمكانية تألُّمه، ووضعوها كقاعدة فكرية "**المسيح تألَّم إذن فهو ليس إلهاً**"!!

ويقابلهم جماعة الدوسيتيين من الناحية الأخرى "**المسيح إله لذلك فالآلام التي جازها كانت شبهاً وليست حقيقة**".

أمَّا الآباء الرسوليون والجيل الذي جاء بعدهم فلأنهم قبلوا مسحة الدم، دم المسيح على الصليب، فنالوا الفداء والغفران والخلاص وقبول الروح القدس للحياة الأبدية، لذلك ربطوا ربطاً محكماً أبدياً عن وعي وإصرار بين آلام المسيح ولاهوته، وقالوا لولا إنه إله لَمَا صارت آلامه الجسدية للفداء والخلاص، ولم يستصعبوا أبداً أن يعبدوه متألِّماً، دون الدخول في فلسفة التحليل المنطقي، لأنهم كانوا في البداية يعيشون الحقيقة دون أن يفلسفوها.

الكنيسة تشرح إيمانها بالألفاظ كما كانت تعيشه بالروح:

ولكن أصبح بعد ذلك لزاماً على الكنيسة، وقد صارت في مواجهة المتشكِّكين والمقاومين، أن تبرهن على إيمانها بلاهوت المسيح الذي تسلَّمته كحقيقة كانت تعيشها عن وعي، وأن تواجه صعوبة التفسير بالكلمات عن حقائق إيمانية فائقة لقوم لم يذوقوا الخلاص بعد ولا اختبروا قوة الإيمان بالمسيح وفعل الخلاص بالدم الإلهي! ويا لها من صعوبة.

وهكذا خرجت الكنيسة مرغمة بحكم الواقع من دور التسليم السرِّي الرسولي التقليدي الهادئ للداخلين كقانون لا يُناقَش وإنما يُعاش وحسب، إلى دور ضرورة تقديم تفسير علني منطقي لإيمانها بالمسيح وتقديم دفاع عام عن الإيمان الأرثوذكسي في مواجهة المتشكِّكين والمقاومين.

الكنيسة اعتمدت في شرحها للإيمان على حقيقة الخلاص الذي تعيشه كما تلقنته بالإضافة إلى الإنجيل وإلى إلهام الروح:

ولكن نجحت الكنيسة في مهمتها الصعبة جداً منذ بدأ أول الآباء بالتفسير والشرح، **إذ اعتمدت على صدق وأصالة الحق الإلهي المبني عليه إيمانها، فأسعفها الإلهام واتكلت على الروح القدس الذي أملى ووجَّه كل ما كتبه الآباء والأنبياء والرسل فاضطلع الروح القدس بمهمته حسب الوعد، فشرحت الكنيسة ودقَّقت وفسَّرت ودافعت عن أصالة إيمانها بلاهوت المسيح بقوة دفع لا يُجارى**، ولم تنحصر هذه القوة الدافعة حتى اليوم! ... منذ كوادراتوس وأرستيدس ويوستين وثاوفيلس (الأنطاكي) وأثيناغوراس كما سجَّلها هيجيسيبوس، وأجريبا كاستور، ومليتو، وميلثيادس وكلوديوس وأبوليناريوس وديونيسيوس الكورنثي. ولا تزال كتابات كليمندس الروماني تشهد بهذه القوة في بكور دفعاتها، كذلك إيرينيئوس، حتى تلقَّفت هذه المهمة الخطيرة ـ مهمة الشرح والدفاع عن الإيمان ـ مدرسة الإسكندرية من بنتينوس إلى أوريجانوس إلى كليمندس إلى أن بلغت **أثناسيوس وكيرلس** الإسكندري اللذين أرسيا الأُسس الثابتة **في ما يختص بلاهوت المسيح!!**

وفي كل هذا الشوط الطويل كان المحكُّ ليس هو التقليد فحسب، بل بالتحكيم إلى الصوت الحي في الأسفار المقدَّسة الذي لم يخطئ قط في الحكم على كل مقالة لقائل أو اجتهاد لشارح أو سلوك لمبتدع، فإذا توافق القول والسلوك مع روح الأسفار المقدَّسة والتقليد قُبل القول بكل ارتياح. وإذا لم تسنده الأسفار المقدَّسة وشهادة السلوك ولم يكن يطابق التسليم الرسولي رُفض بكل عنف كما حدث في أمر مقالة كل أصحاب البدع الغنوسية وسابيليوس وأريوس! ...

ولقد بدأت المهاجمة للاهوت المسيح من جماعة الإيبيونيم كما قلنا، إنما في صور مزيَّفة لمفهوم اللاهوت **وكأنه مجرَّد قوة مؤثِّرة على شخص المسيح.**

وتلقَّفت هذا التزييف جماعة الدوسيتيين (فلسفة يهودية وثنية) من جهة أخرى، فأخلت المسيح من بشريته، **وقالت بأن التجسُّد كان خيالاً وليس حقيقة، واستدارت على لاهوت المسيح وجعلته مجرَّد ظهور أو تشكيل لله الواحد.**

ونجد في هذين الاتجاهين آثار الفلسفة الوثنية واضحة، إمَّا في نظرية تعدُّد الآلهة أو نظرية التأليه الكلِّي، حيث الأُولى أخلت المسيح من لاهوته والثانية أخلت المسيح من مساواته للآب(١).

(1) Gwatkin, *op. cit.*, p. 8.

ويُلاحَظ أن الصعوبة كانت في الجمع بين هذين النقيضين في نظر هاتين الجماعتين، أي الجمع بين لاهوت المسيح ومساواته للآب.

وفي كل من هاتين الفلسفتين مهاجمة للاهوت المسيح وتشويه للثالوث(٢).

ولَمَّا قامت فلسفة سابيليوس ذات الأصول الرواقية الوثنية الذي يُعتبر أخطر من قاوم الثالوث لأنه جعل الآب والابن والروح القدس ثلاث ظهورات متعاقبة لله الواحد، انبرى له آباء القرن الرابع ودحضوا هرطقته، ومن بعده جاء أريوس الذي جعل الثالوث مجرَّد صورة وهمية كاذبة إذ رفع منه الابن كلية وكذلك الروح القدس، فبدأت الكنيسة كلها تنتبه إلى أهمية تثبيت حقيقة الثالوث بصورة واضحة وقاطعة(٣).

وما أن جاء القرن الرابع وانفجرت الهرطقة الأريوسية التي جمعت شمل كل الهرطقات السابقة، حتى وجدت الكنيسة نفسها - كما قلنا - مضطرة لكي توضِّح التمايز داخل وحدة اللاهوت، أي توضِّح وتؤكِّد أن استعلان لاهوت المسيح كشف الحقيقة الأزلية المستترة: أن الله واحد بذاته متعدِّد بصفاته الجوهرية الذاتية. الأمر الذي أوضحه المسيح بنفسه عندما سلَّم التلاميذ مضمون اللاهوت السرِّي كله قبل صعوده مباشرة بقوله: «**عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». الأمر الذي يتضح منه أن الله الواحد قائم في هذه الصفات الذاتية الجوهرية - "آب وابن وروح قدس" - العاملة معاً في تجديد** خلقة **الإنسان ليكون مرَّة أخرى على صورة الله!**

وهكذا بينما كانت الكنيسة تعيش لاهوتها الحي وتستمد من شخص المسيح المخلِّص القوة والحياة والتجديد لتمتد وتنمو على أساس التوبة والعماد باسم الثالوث الآب والابن والروح القدس الإله الواحد، والشركة مع الصلاة والتسبيح لله كاستجابة إيمان واعية حرَّة لعمل الله العظيم من نحو الإنسان، نجد أريوس ينعق نعقة الخراب فيمزِّق هدوء الكنيسة وسلامها ويطرح سؤاله الاستنكاري والكُفري الذي لا يقوم على عبادة ولا على تقوى، ولا يستمد إلحاحه من رغبة في مزيد من عبادة أو تقوى، بل كان القصد والرغبة منصبَّين على الحط من قيمة المسيح والإنهاء على قوته في الخلاص والفداء، فكان مضمون سؤاله هكذا:

[هل هذا الشخص الإلهي الذي ظهر على الأرض ليعيد وحدة الإنسان بالله مماثل للإله

(٢) كتاب: "التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي" للمؤلِّف صفحة ١٠٨.

(٣) كتاب: "التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي" للمؤلِّف صفحة ١١١.

الأعلى الذي يحكم السماء والأرض أو أنه مجرَّد نصف إله؟][(٤)]

وهكذا يتضح أمام القارئ كيف تنشأ الهرطقات وكيف يبدأ الانقسام والبلبلة، وبالتالي يتضح أيضاً لماذا تضطر الكنيسة في النهاية للحكم بالحرم والقطع.

ثانياً: لاهوت المسيح وصلة الابن بالآب في الكنيسة قبل أريوس:

اعتمدت الكنيسة منذ البدء بواسطة آبائها الرسوليين ومَنْ جاء بعدهم على التقليد الشفاهي والكتابي المسلَّم إليهم، كما جاء في إنجيل يوحنا، في توضيح لاهوت المسيح وتميز شخصه عن شخص الله الآب على أساس حقيقتين أساسيتين لم تُناقَشا قط لأنهما مسلَّمتان منذ البدء من مصدر فائق.

الحقيقة الأُولى: أن المسيح هو ابن الله وأن الابن والآب هما الله الواحد.

الحقيقة الثانية: أن شخص المسيح كابن الله متميِّز عن شخص الآب ولكن الابن والآب ذوو جوهر واحد.

وقد صارت هاتان الحقيقتان أساساً للعقيدة المسيحية كلها.

ولكن الإنجيل أعطى للمسيح صفة الابن كما أعطى لله صفة الآب، وأوضح أن الواحدة منهما تكمِّل الأخرى: «أنا والآب واحد»، وقد صارت هاتان الصفتان سبباً في كثير من النزاع اللاهوتي على طول الزمن. في حين أن الآب والابن في الله لم يُقصد قط أن يكونا كما هما في الإنسان نتيجة حتمية لتزاوج وميلاد، بل **هما ذات واحدة أزلية باقية كما هي، تحمل ملء الأبوَّة وملء البنوَّة في جوهر واحد دون استحداث تغيير زمني أو جوهري من أي نوع. ولكن بحكم التفكير الإنساني وعلى قدر التصوُّر البشري تكون علاقة الآب بالابن علاقة كيانية داخلية غير مدركة لأنها غير خاضعة للزمن أو التغيير.**

ثم على ضوء صفة أخرى جوهرية نُسبت إلى الابن في الإنجيل وهي صفة الكلمة "**كلمة الله**"، ابتدأت تأخذ صفة الابن المفهوم الذي يصف كيفية قيام الابن بالنسبة للآب على نمط قيام "**الكلمة**" بالنسبة "**للعقل**". فكما أن العقل لا يوجد بدون كلمة كذلك لا توجد كلمة بدون عقل، فالعقل والكلمة هما واحد بسبب الجوهر الواحد، إلاَّ أن العقل ليس هو الكلمة ولا الكلمة هي العقل، بل كلٌّ منهما مميَّز عن الآخر بالرغم من أنهما واحد.

(4) A. Harnack, *Outlines of the Hist. of Dog*., p. 242.

وكما أن الكلمة هي صورة جوهر العقل غير المدرك وغير المرئي كذلك الابن بالنسبة للآب، فالكلمة هي مجد العقل وهي استعلانه وتبقى في البداية وفي النهاية هي والعقل واحداً، قبل أن تُنطق وبعد أن تُنطق.

هكذا رأت الكنيسة المسيح تماماً. فهو والآب في وحدة أو اتحاد أزلي غير مفترق. وبالرغم من أن المسيح وُلد في بيت لحم من العذراء وظهر للعالم كابن الإنسان ولمسته أيدي الناس وسمع العالم صوته، إلاَّ أنه بقي كما هو قبل أن يتجسَّد، الابن القائم في الآب بغير افتراق، واحدٌ مع الآب غير المدرك وغير المرئي وغير المسموع: «**الله لم يره أحد قط الابن وحده هو خبَّر**» (قارن يو ١:١٨)، وذلك كسماع الكلمة المنطوقة من العقل حينما ننطق بها فتعلن عن مصدرها وهي خارجاً عنه كمرسلة من العقل مع أنها متحدة به وغير مفترقة عنه.

فالقديس أثناسيوس يقول:

[إن الابن هو "**كلمة**" الآب و"**حكمة**" الآب، ومن هذين اللقبين نحن نستدل على نوع الصلة ومستوى الاشتقاق غير المنقسم وغير المتألِّم الكائن بين الابن والآب، وهذا ندركه بصورة ما على مستوى كلمة الإنسان، فهي ليست جزءًا من الإنسان ولا هي تخرج من الإنسان بالألم فكم بالحري كلمة الله تكون؟

كذلك فإن الله يدعوه ابنه، لئلاَّ حينما يُكتفى بالقول إنه كلمة الله نظن أنه مثل كلمة الإنسان المجرَّدة غير الشخصية. في حين أن لقب الابن يوضِّح أنه "الكلمة" ذو الكيان والوجود الشخصي وأنه حكمة ذاتية.](٥)

(5) Athanas. *De Synod.* 41.

١ - تسمية المسيح "بالابن" عند الآباء

واضح لكل مَنْ يدرس الإنجيل أن تسمية المسيح بابن الله تغطِّي الإنجيل كله، ليس من واقع تجسُّده وتأنسه وظهوره كإنسان، ولكن من جهة وجوده السابق على تجسُّده وبنوع أعمق.

وأول ما يثيره لقب "**ابن الله**" بالنسبة للمسيح في إحساسنا هو تَفرُّده من جهة عدم التشابه بينه وبين بقية كل البشر، بل ويثير فينا الإحساس بالانفصال والتميُّز الفائق عن كل كائن آخر في السماء وفي الأرض، ما خلا الله أبيه!

فهذا اللقب "ابن الله" يحدِّد في الحال تفرُّده المطلق عن كل خليقة وكل كيان آخر غير الله، كما يشير بقوة إلى نوع الطبيعة الإلهية التي له، في تفرُّدها، غير المنطوق بها ولا مقترب إليها، غير المخلوقة وغير الزائلة.

وإمعاناً في تخصُّص لقب "**الابن**" لله، أعطت الأسفار المقدَّسة(٦) صفة أخرى مزادة بالوحي الإلهي للأهمية الفائقة وللتأكيد والتخصيص والشرح العميق لمدى تفرُّد صفة الابن لله واختلافها اختلافاً جذرياً عن استخداماتها الأخرى بالنسبة للمخلوقات عامة، وهي صفة "**وحيد الجنس** Μονογένης"، التي تفيد "**البنوَّة الوحيدة**" أو "**الابن الوحيد التخصص**" وهي تشير مباشرة إلى طبيعته الإلهية، وهكذا تعطي صفة المونوجينيس للقب الابن التخصُّص والتفرُّد المطلق (only-begotten)، لتبعد مفهوم البنوَّة في الله عن كل مفهوم آخر لكلمة البنوَّة العامة في كافة الخليقة.

كذلك وبسبب ذكر صفة "الابن" للمسيح في مواقف كثيرة في الأسفار:

+ «هذا هو **ابني** الحبيب الذي به سررت.» (مت ٣:١٧)
+ «تعيَّن **ابن الله** بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (رو ١:٤)
+ «أنت **ابني** أنا اليوم ولدتُكَ.» (عب ٥:٥، أع ١٣:٣٣، مز ٢:٧)

لذلك جاءت صفة "**وحيد الجنس**" لترفع مفهوم لقب "ابن الله" فوق هذه الحوادث كلها، وهذه المواقف الزمانية كلها، بكل عظمتها وثقلها الروحي ومنفعتها.

---

(٦) يو ١: ١٤و١٨، ٣:١٦، ٥:١٨، رو ٨:٣٢، عب ١:١-١٤.

فالمسيح ليس "ابناً لله" لأنه وُلد من العذراء ومن الروح القدس، ولا لأنه قام من الأموات بقوة الله، ولا لأنه فدى كل الجنس البشري، ولا لأي سبب أو علة أخرى؛ بل هو "ابن الله" لأنه "ابن الله" في بنوَّة فريدة من نوعها، إلهية فائقة وذات طبيعة إلهية فائقة. كما جاءت صفة "المونوجينيس" لتفيد أن كل ما للآب هو للابن بسبب تخصُّص علاقة الابن بالآب تخصُّصاً جوهريًّا يفيد التساوي الجوهري بين الآب والابن، وهكذا ينتهي هذا التساوي بحتمية وحدة التكريم والعبادة، أي لكي يُعبَد الابن والآب معاً بغير افتراق ولا تفضيل.

والإنجيل يؤكِّد لنا هذا في معرض شرح مدلول لقب ابن الله عملياً، ويستطرد من هذا ليكشف لنا الأعماق السرية القائمة بين الآب والابن، ويخرج من هذا ليؤكِّد ألوهة الابن ومساواته للآب في الكرامة وبالتالي العبادة هكذا:

+ «فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله. فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك. لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله، وسيريه أعمالاً أعظم من هذه لتتعجَّبوا أنتم، لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يحيي مَنْ يشاء. لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن، لكي يُكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. مَنْ لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.

الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون. لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان.» (يو ٥: ١٨-٢٧)

هذه الآيات القوية الواضحة المتلاحقة في إنجيل القديس يوحنا كانت هي حجر الأساس الذي بنت عليه الكنيسة الأُولى، وبالأخص كنيسة الإسكندرية، كل مفهومها اللاهوتي من جهة **علاقة الآب بالابن في وحدة الكرامة والمجد والعبادة**. وليعلم القارئ أن كنيسة الإسكندرية كان محور لاهوتها وأساسه إنجيل يوحنا، فنشأت كنيسة البتولية والنسك والحب والأسرار والهيام المطلق بعبادة الآب والابن والروح القدس على مستوى التسبيح والتمجيد وسهر الليالي. فكنيسة الإسكندرية هي

أول من مَارَس وأول مَنْ أذاع سهر الليل كله(٧) في تسبيح الثالوث وتحويل اللاهوت إلى مديح مطرب على مستوى الشعب كله والعذارى!

وقد أدرك آباء الكنيسة الأوائل مدى إمكانية الشطط في فهم مدلول كلمة الابن والآب في اللاهوت، لذلك لم يتركوا الشعب دون توجيه وتحذير. فالقديس غريغوريوس الثيئولوغوس يحذر:

[لا تنشغل في تأملك في كيفية ميلاد (تولُّد) (الابن من الآب)، لأن هذا ليس أمراً في جانب الأمان، فتكريم هذه الحقائق التعليمية ينبغي أن يكون في صمت، لأنه أمر عظيم وفائق أن تُدرَك الحقيقة والكيفية، فنحن لا نعرف إن كانت الملائكة نفسها تدرك هذا، فكم بالأقل نحن؟](٨)

والقديس باسيليوس يقول:

[لا تجروا وراء فحص غير المفحوص، فأنت لن تبلغ كشفه ... فإذا لم ترعوِ واخترت العناد فسوف يسخر الناس منك أو بالحري يبكون على جسارتك ... آمن فقط بالمكتوب ولا تجرِ وراء ما لم يُكتب لك.](٩)

وكثيراً ما حذَّر القديس أثناسيوس طريقة الحوار والملاججة في شئون اللاهوت:

[إن هؤلاء الذين يناظرون ويتباحثون في أين يكون الله وكيف يكون الله وبأي طبيعة يقوم الآب؟ مثل هذه التساؤلات تُعتبر لا دينية ولن تزيد الإنسان إلاَّ جهالة في ما يختص بالله، كذلك فإنه يخرج على القانون كلُّ مَنْ يجازف في فحص كيفية ولادة ابن الله.](١٠)

ولكن ليس هذا معناه أن نكف عن دراسة الكتاب وأقوال الآباء وفهم هذه الحقائق التي كانت شغل الآباء الشاغل وموضوع تأملات القديسين وهذيذهم وتسبيحهم وأشعارهم. ولكن المحظور هو الفحص العقلي للأمور اللاهوتية التي لم يكشف الوحي عن تفاصيلها.

ولنا شهادات مبكِّرة جدًّا من آباء الكنيسة الأوائل عن إيمانهم وإدراكهم لابن الله:

[إن الابن **الكلي الكمال** مولود من الآب **الكلي الكمال**.](١١) (كليمندس الإسكندري)

---

(٧) ارجع إلى سيرة القديس أثناسيوس (حادثة سهر الليل واقتحام كنيسة ثيوناس ...) صفحة ٢٦١.

(8) Greg. Naz., *Orat.* 35:29,30-29:8.

(9) Petav., 5:6 ch 2. Cited by Newman, *op. cit.*, p. 160.

(10) Newman, *op. cit.*, p. 160.

(11) Newman, *op. cit.*, p. 161 notes.

[إن كان الرب يقول: «**كل ما للآب فهو لي**» فإن كان الأمر كذلك **فلماذا لا يكون للابن كل صفات الآب**؟ فعندما نقرأ أن الله كلي القدرة والعلو وأنه إله القوات وملك إسرائيل ويهوه، فانظر أيضاً في هذه الصفات لماذا لا تكون أيضاً للابن؟ **لأنه يكون من حق الابن أن يُدعى الإله الكلي القدرة إذ هو كلمة الإله الكلي القدرة.**](١٢) (ترتليان)

وقد قدم الآباء تفاسيرهم بكل خشوع ووقار في ما يختص بالعلاقة الكلية التساوي في اللاهوت بين الابن والآب. وبعضهم التزم بالاصطلاحات التي جاءت في الأسفار، وبعضهم أضاف اصطلاحات أخرى للتوضيح، ولكنهم لم يركّزوا على كيفية **وجود الابن في الآب.**

وفي هذا يقدّم لنا القديس أثناسيوس صورة واضحة عن الفكر اللاهوتي الناضج والمتكامل في الكنيسة في القرن الرابع هكذا:

[وإن كانت **توجد في الثالوث هذه المساواة وهذا الاتحاد فمن الذي يستطيع أن يفصل الابن عن الآب**؟ أو يفصل الروح القدس عن الابن؟ أو عن الآب نفسه؟ أو مَنْ ذا الذي تبلغ به الدرجة أن يقول إن الثالوث غير متماثل أو أن **جوهر الابن غريب عن جوهر الآب**؟ أو أن الروح القدس غريب عن الابن، أو يسأل كيف يمكن أن تكون هذه الأمور؟

... أو كيف يُقال إن الابن فينا عندما يكون الروح القدس فينا؟ ... **فليفصل أولاً شعاع النور عن النور أو فليفصل الحكمة عن الحكيم ويدلُّنا أولاً كيف يكون هذا؟**

فإن كان لا يمكن إتمام هذا لكان بالأولى من عدم **التقوى أن يوجِّه هؤلاء مثل هذه الأسئلة عن الله. لأن التقليد لا يعلن لنا اللاهوت بإيضاحات كلامية بل بالإيمان. واستخدام العقل يلزم أن يكون بروح التقوى والوقار، لأن بولس الرسول قد أذاع إنجيل صليب المخلّص كما قال: «لا بكلام الحكمة، بل ببرهان الروح والقوة»** (١كو ٢: ٤).](١٣)

ولقد قدَّم سفر العبرانيين أول محاولة لتفسير وشرح علاقة الآب بالابن: «الذي هو بهاء مجده ورسم جوهره.» (عب ١: ٣)

ومن هنا انطلق جميع الآباء منذ البدء في وصف علاقة الابن بالآب على أساس علاقة البهاء

(12) Newman, *op. cit.*, p. 161 notes.

(13) Athanas, *To Serap.* 1:20.

(الشعاع) **بالمجد** الذي يوحي بصلة مماثلة هي صلة **الشعاع بالنور**. وإليك كلام العلاّمة ترتليان (سنة ١٦٠-٢٢٠م):

[وكما أن الشعاع ينطلق من الشمس ... إلاّ أن **الشمس تكون قائمة في الشعاع بمقتضى** أن الشعاع هو شعاع الشمس، **والشعاع لا يُعتبر مادة منفصلة عن الشمس بل خارجاً منها. وهكذا دائماً تكون علاقة الروح من الروح، والإله من الإله، وكما أن النور حينما يشتعل من النور فإن النور الأصلي يبقى كاملاً ولا ينقص، هكذا ما يخرج من — طبيعة — الله فإنه يسمَّى في الحال "إله" و"ابن الله" وأنهما كليهما واحد**.][14]

وهكذا سار التقليد على هذا الطريق، فنحن نسمع من القديس أثناسيوس (سنة ٢٩٦-٣٧٣م) نفس هذه التعبيرات: [وكما ذُكر عن المسيح أنه "هو شعاع مجده ورسم جوهره" (عب ١:٣)، **إذن فحيث أن الآب نور والابن شعاعه وجب أن لا نُحجم عن ترديد هذه العبارات كثيراً**.][15]

مخاطر التحليل المنطقي لتفسير علاقة الابن بالآب،
والوقوع في هرطقة التدنّي في الدرجات داخل الثالوث Subordinationism:[16]

كان التقليد اللاهوتي في ما قبل نيقية يقدِّم المبادئ الإنجيلية في بساطة الإيمان ووقار العبادة، ولم يكن هناك خوف البتة من مواجهة الحقائق اللاهوتية وخاصة في ما يتعلّق بالصلة بين الآب والابن. ولكن بسبب قيام الهراطقة، ابتدأ الآباء أن يكونوا حذرين جدًّا في تعبيراتهم وتفسيراتهم.

فكلمة الابن بالنسبة للآب أوحت إلى الفلاسفة والهراطقة فكرة الأعظم والأصغر، والأعلى

(14) Newman, *op. cit.*, p. 162.

(15) Athanas, *To Serap.* 1:19.

(١٦) وهي تعتبر الثغرة المسمومة التي دخلت منها الأريوسية لتبدِّد وحدة الثالوث، إذ جعلوا بين الآب والابن والروح القدس تدرُّجاً في الطبقة والكرامة والمجد. وقد بدأت هذه الفكرة مبكِّرة جدًّا منذ أيام يوستين الشهيد والقديس إيرينيئوس وكليمندس الإسكندري وأوريجانوس بالدرجة الأولى. وهي لوثة أصابت الفكر الفلسفي اللاهوتي المسيحي المبتدئ، وذلك عن الغنوسية التي أرادت بها أصلاً أن تغطِّي الفجوة القائمة في الفلسفة بين الله غير المخلوق والعالم المخلوق، معتمدة نوعاً ما على تفسير منحرف لما جاء في سفر الأمثال ٢٢:٨، وإنجيل القديس يوحنا ٢٨:١٤. وقد التقطها أريوس من أفواه الآباء الأرثوذكس، وتمادى بها حتى فصل الابن نهائياً عن الآب، وكذلك الروح القدس، فحطَّم الوحدة الجوهرية القائمة في الثالوث.

راجع: Cross, *Dict. of Christ. Church*, p. 1301

والأدنى، والسابق واللاحق، والأصل والمستحدث، بل والسيد والخادم. ووقف الآباء فترة زمانية طويلة في حيرة وبلبلة بسبب الخلط بين ما توحي إليه هذه المفارقات من اختلاف في الجوهر، حيث ينشأ في الحال ثنائية إلهية وبالتالي تعدُّد الألوهة بالمعنى الوثني؛ وبين ما توحي إليه هذه المفارقات في العمل والوظيفة - بين الآب والابن - أو بمعنى آخر في السلطات فقط (وهذا أيضاً انحراف)، حيث يبدو الابن هو الثاني في الترتيب (τάξις) بالنسبة للآب!! ولكنهم كانوا على جانب الأمان إذ اعتبروا ذلك دون المساس بالمساواة الكاملة والمطلقة في الجوهر والعبادة، الأمر الذي أجازه - بنوع من التساهل - كثير من الآباء الأولين مثل يوستين، أوريجانوس، إيرينيئوس، كليمندس، ثيئوغنسطس ومَنْ جاء بعدهم، دون أن تعتبر إجازتهم لهذه التعبيرات خارجة عن الإيمان الأرثوذكسي(١٧).

وكان هذا الانحراف في التفسير يسمَّى التدرُّج في المستويات Subordinationism.

وإليك ما كان يتصوَّره يوستين نفسه بهذا المعنى (Subordination):

[الابن هو الثاني في الترتيب (τάξις) بالنسبة للآب لأن الابن من الآب، كذلك أيضاً في المجد بالقدر الذي فيه الآب هو أصل وعلة وجود الابن.](١٨)

أمَّا إيرينيئوس فقد بنى (خطأ) على هذا التدرُّج نوعاً من السلوك هكذا:

[أن الآب كان يخدمه في كل شيء ابنه وروحه القدوس، كلمته وحكمته - اللذان كانت الملائكة تخدمهما وتخضع لهما (بالتالي).](١٩)

وإزاء خطورة الانحراف بهذه المبادئ نشأت توضيحات قوية لبعض الآباء، لدحض أي ثنائية لاهوتية بين الآب والابن تأتي خلسة، كنتيجة للفصل في السلطان، مثل ما قدَّمه ترتليان مبكِّراً جداً:

[نحن نعلم أن اثنين حقًّا قد استُعلنا في الله في الكتاب المقدَّس، ولكننا نقدِّم الشرح على هذا بأنفسنا لئلاَّ تحدث عثرة، فهما ليسا اثنين من حيث كونهما إلهاً أو ربًّا، ولكن في ما يخص كونهما "آب" و"ابن" فقط، وهذا لا يكون قط بسبب انقسام في الجوهر، ولكن من حيث

(17) Bull, *Defens*, IV. 2 Ch I, 6, 9; Justin, *Apol.*, I, 13. 60; Cudworth, *Intell. Syst.*, 4, ch. 36; Petav., II. 2, I. 3. ch. 7; All cited by Newman, *op. cit.*, pp. 164-167.

(18) Newman, *op. cit.*, p. 166.

(19) Justin, *Apol.* I, 13. 60.

علاقتهما المتبادلة معاً، ومن هذا نحن ندعو الابن واحداً غير منفصل عن الآب.](٢٠)

ومثل ما قدَّمه ثيئوغنسطس (مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية بعد البابا ديونيسيوس، تُوفِّي سنة ٢٨٢م)، وكان يتبع الخط الأوريجاني الخاطئ في الاعتقاد بثانوية الابن وتبعيته في الرئاسة للآب، ولكن لكي ينفي أي ثنائية يعود فيعلّق (والكلام هنا يسرده عنه القديس أثناسيوس):

[إن طبيعة الابن ليست خارجة عن الآب أو مخلوقة، ولكنها من طبيعة الآب، كما يخرج الشعاع من النور (عب ١: ٣). وهنا الشعاع ليس هو الشمس غير أنه ليس غريباً عنها، وهكذا وعلى نفس النمط يكون الانبثاق (خطأ) من طبيعة الآب دون انفصال. لأنه كما أن الشمس تبقى كما هي بطبيعتها دون أي نقص أو انتقاص بالرغم من أنها تسكب على الدوام أشعتها، هكذا طبيعة الآب تبقى دون أي تغيير بالرغم من أن الابن هو صورتها.](٢١)

ولكننا نجد أنه بعد مجمع نيقية تبدأ تصفية وتوضيح هذه المفهومات التي كانت عند الآباء الأرثوذكس، حتى لا تُستغل لدى الهراطقة. وإليك ما يقدِّمه لنا غريغوريوس النزينزي في تفسير موضوع التدني في الدرجات والخدمة داخل الثالوث، وإنما بصورة هزيلة لا تخلو من مؤاخذة:

[إنه واضح أن الأشياء التي يخطِّطها الآب في نفسه ينفِّذها الابن وينجزها، لا باعتباره خادماً ولا كأنه بدون حذق وتصرُّف، ولكن بإدراكه الكامل وبقوة السيد - ونقول بأوضح لياقة - كأنه هو الآب.](٢٢)

ونلاحظ في كلام القديس غريغوريوس أن هذا الشرح لا يجوز إلاَّ في حالة المسيح متجسِّداً، وهو ينفِّذ كابن الإنسان مشورة الآب الخلاصية، ولكن يصعب جدًّا أن نجيز هذا الشرح في ما يختص "الآب وكلمته" في موضوع خلق العالم، لأن روحانية الله المطلقة لا تحتمل حتى حوار الآمر والمأمور.

ولكن هذا الشرح يهمنا جدًّا لأنه يوضِّح لنا مدى يقظة الآباء بعد نيقية لتصفية كل الثغرات التي نفذت منها البدع خاصة الأريوسية.

(20) Newman, *op. cit.*, p. 167.

(21) Theognostos, cited by Athanas., *De Dec. Nic.* 25.

(22) Newman, *op. cit.*, pp. 166,167.

٢ – استخدام لقب "اللوغس" (الكلمة) كمقابل للقب الابن، عند آباء ما قبل نيقية

كان لقب "اللوغس"، وهو اللقب الرئيسي الوارد في الأسفار المختص بالرب، يُعتبر المقابل الذي كان يلجأ إليه الآباء لتصحيح أي التباس في مفهوم لقب الابن.

و**"اللوغس"** أو **"الحكمة"** أو **"الكلمة"** استخدمها يوحنا الرسول بوضوح بالنسبة للمسيح أكثر من الرسل والإنجيليين السابقين والمعاصرين، لأنه جعلها ألقاباً ذاتية، أي تعبِّر في الحال عن شخص الرب، في حين أن بولس الرسول مثلاً استخدم **"كلمة الله"** في تعبير يصعب التفريق فيه بين **"قانون الله"** الصارم وبين **"شخص الرب"** باعتباره **كلمة الله!** حينما قال: «لأن كلمة الله حيَّةٌ وفعَّالةٌ وأمضى من كل سيفٍ ذي حدين، وخارقةٌ إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميِّزةٌ أفكار القلب ونياته.» (عب ٤:١٢)

ولكن من مفهوم اللقب **"كلمة الله"** و**"حكمة الله"** ـ بالنسبة للمسيح ـ باعتباره اصطلاحاً لاهوتياً، واضح أن الوحي يقصد اتجاهين:

الأول: يكشف لنا ويركِّز على وجود الرب الجوهري في صميم طبيعة وذات الله الاب ككلمته وحكمته الخاصة، التي يستحيل أن يوجد الله بدونها كصفة **"ذاتية"** و**"جوهرية"** بآنٍ واحد، وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم جيِّداً ما يقوله المسيح: «أنا والآب **واحد**» = **ذات**، «أنا في الآب والآب فيَّ» = **جوهر**.

الثاني: أن المسيح بصفته كلمة الله أصبح هو الوسيط الوحيد الذي يستطيع أن يبلِّغنا قصد الآب ويشرح لنا مشيئته الخاصة: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر (تكلَّم).» (يو ١:١٨)

لذلك لم يكن هناك أقوى وأوضح من لقب "الكلمة" بالنسبة للمسيح لكي يواجه الآباء بها أي انحراف مادي في تفسير مفهوم الابن بالنسبة للآب، أو الشرود بمعنى الابن لكي يكون خارجاً أو منفصلاً عن كيان الآب.

"**فكلمة الله**" صفة الله الذاتية وصفته الجوهرية بآن واحد، وبناءً عليه يكون الابن باعتباره صفة ذاتية لله - والله ذات واحدة - فهو غير منفصل عنه، وباعتباره صفة جوهرية فيه - والله جوهر واحد - فهو فيه وغير خارج عنه. وبناءً عليه لا يمكن أن يكون له ابتداءٌ لوجود خاص. ويستحيل أن نتصوَّر أن هناك زمناً ما ولا حتى قبل الزمن كان فيه الابن غير موجود لأنه "**كلمة**" الله، والله يستحيل أن يكون بدون كلمة لا في الزمن ولا في الأزلية ...

هكذا وقف لقب اللوغس أي "**كلمة الله**" بالنسبة للمسيح "ضابط الأمان" الكلِّي لتوجيه مفهوم لقب "**الابن**" في معناه الصحيح.

هذا الترابط القوي والبديع حقًّا بين "**اللوغس**" و"**الابن**" في ما يخص توضيح شخصية المسيح يقول فيه أوريجانوس:

[**وكما تخرج الكلمة من العقل دون أن تمزِّق العقل، أو تُحسب الكلمة منفصلة أو منقسمة من طبيعة العقل؛ هكذا وعلى هذا النمط ينبغي أن ندرك - علاقة - الابن بالآب الذي هو صورته.**](٢٣)

ويعود أوريجانوس ليوضِّح هذه العلاقة:

[وإنه لمن الخطورة وعدم التقوى بمكان - وبسبب ضعف فهمنا - أن نجرِّد الله من **ابنه الوحيد** - (**في زمان ما**) - **وهو الكلمة الأزلي مع الله، أي حكمته التي هي موضع مسرَّته**، وكأنما بذلك نقول إن الله لم يكن دائماً في مسرَّته!؟](٢٤)

وهكذا تمسَّك الآباء الأوائل بصورة عامة بأن أية محاولة لإنكار أزلية الرب يسوع تساوي تماماً أن نقول إن الله القادر على كل شيء كان في وقت ما بدون إدراك أو نطق (ἄλογος).

وعلى هذا الأساس يقول أثيناغوراس:

[**إن الابن وحيد الآب** لا يُحسب (ظهوره) أنه خلقة، لأن الله هو العقل الأزلي **وله منطقه في ذاته** (الكلمة). فالله مُدركٌ، أزليٌّ، أزلي في إدراكه، ولكنه يُحسب كفكر - نطق - الله كوسيط الخلق عندما كانت الأرض خربة وخالية.](٢٥)

(23) Newman, *op. cit.*, p. 170.
(24) Ibid.
(25) Ibid.

هذا الفكر الآبائي الذي أدرك عظمة الرب بين لقب "الابن" ولقب "اللوغس" في المسيح، استمر بنفس الدفع والقوة بعد نيقية كتقليد لاهوتي. وإليك تعبير باسيليوس الكبير:

[إن كان المسيح هو قوة الله وحكمة الله وأن ـ هاتين (الصفتين الجوهريتين) ـ هما بالطبع غير مخلوقتين، بل هما أزليتان مع الله، لأن الله لم يكن قط بدون حكمة أو بدون قوة، فالمسيح غير مخلوق وهو أزلي مع الله.](٢٦)

كل هذا التحديد والربط لم يَخْلُ من ثغرات حاول الهراطقة النفاذ منها، لأن تصوير الرب في الكتاب بالصفة الجوهرية "ككلمة" الله أمكن الابتعاد بهذه الصورة عن المعنى الكياني والذاتي المميز للرب ككلمة الله القائمة بذاتها المشخَّصة في المسيح المميَّزة عن "العقل" أو "الآب" المتحدة به، كما حدث في فلسفة سابيليوس إذ ألغى شخص الابن، وكما حدث في هرطقة بولس الساموساطي ومارسيللوس اللذين اعتبرا أن "**كلمة ا لله**" **مجرَّد ظهور مؤقَّت لمجد ا لله** حلَّ في شخص المسيح الإنسان.

ومن هنا ابتدأ التأكيد على أن "**كلمة ا لله**" هو أقنوم (شخص) مميَّز ثابت ودائم، وحيٌّ في ذات ا لله.

٣ ـ الاصطلاحان الحارسان لمفهوم الوحدة الإلهية

أولاً: "في ا لله ἐν θεῷ" ثانياً: "من الله ἐκ θεοῦ"

لقد أنشأ لقب "ابن الله" و"كلمة الله" للمسيح حتمية الدخول في معرفة الصلة الكيانية بين هذه الألقاب وبين طبيعة الله وذاته. والكتاب المقدَّس لم يترك هذا الموضوع دون أن يشير إليه في مواضع عديدة جدًّا، باصطلاحين يترددان دائماً، وهما: "**في ا لله** ἐν θεῷ"، "**من الله** ἐκ θεοῦ".

أمَّا الاصطلاح الأول فيوضِّح في بساطة أن الرب بالرغم من ظهوره واستعلانه "كخارج من عند الآب" إلاَّ أنه **قائم في وحدة الله** غير منقسم أو منفصل عن هذه الوحدة ولا ممتد أو خارج عنها، بل قائم كبسيط في البسيط دون أي تركيب أو انقسام عددي في الله الواحد، لأن هذه هي صفة جوهر الله.

وهذا المعنى العميق الرائع يوضِّحه القديس أثناسيوس في بساطة واختصار إعجازي هكذا:

---

(26) Ibid.

[الابن والكلمة من الله وفي الله، كلٌّ منهما يتضمَّن الآخر، فإذا لم يكن هو "ابن" فهو ليس "كلمة"، وإذا لم يكن "كلمة" فهو ليس "ابناً".](٢٧)

[فكيان الابن لأنه "من الآب" لذلك فهو "في الآب".](٢٨)

لذلك وبهذين الاصطلاحين "**من الله**" و"**في الله**" استطاع الآباء أن يوازنوا بين "**لاهوت المسيح**" و"**وحدانية الله**"، وخاصة في دفاعهم ضد الوثنيين، لرفع أي التباس من جهة تعدد الآلهة بسبب القيام الذاتي للآب والابن معاً في الثالوث.

وإليك دفاع أثيناغوراس في هذا الشأن:

[لا يسخر أحد من القول بأن الله له ابن، لأنه ليست لنا مثل تلك الأفكار التي لدى شعرائكم، في الميثولوجيات، التي لا تجعل الآلهة أفضل من البشر في شيء، ولكن "**ابن الله**" هو "**كلمة الآب**"، وهو كخالق إنما يجمع بين الفكر والقوة. فالآب والابن واحد، فالابن كائن "**في الآب**" والآب كائن "**في الابن**"، في الوحدانية والقوة بالروح. فابن الله هو فكر وكلمة الآب.](٢٩)

وهكذا حينما بلغ الآباء في دفاعهم إلى يقين لاهوت الابن، عادوا في الحال ليحموا وحدانية الله من أي شائبة مادية تجنح بالفكر إلى التقسيم والتفريق في اللاهوت. ومن الناحية المقابلة ليتحفَّظوا من خطر الفكر الوثني الذي يحاول الفصل بين الابن والروح من الآب ليصنع من الثالوث تعدُّد آلهة.

ولهذا استخدم الآباء كلاً من الاصطلاحين "**في الله**" و"**من الله**" بالتتابع، للحفاظ على تساوي اللاهوت في الثالوث من جهة، ومن جهة أخرى للتأكيد على وحدانية الله المطلقة ذاتاً وكياناً.

أولاً: في الله ἐν θεῷ

من واقع إعلان الكتاب المقدَّس الذي ينبغي أن يُقبل دون أي مناقشة، أن الابن والروح القدس هما "في الله الواحد"، والله الواحد فيهما، لا مجرَّد الوجود الكياني بل الوجود الحي الفعَّال، لتكميل صفات الذات الإلهية الواحدة: أبوَّة وبنوَّة وروحانية، ثلاث صفات جوهرية مشخَّصة.

(27) Athanas., *Orat.* IV. 24.

(28) Ibid. III. 3.

(29) Newman, *op. cit.*, p. 172.

ويوضِّح الرب نفسه أن "الابن في الآب والآب في الابن" (انظر: يو ١٤: ١١)، «والآب الحال (الساكن) فيَّ» (يو ١٤: ١٠)، «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب ... » (يو ١: ١٨)

هذه الآيات تعبِّر عن نوع وجود **"الابن في الآب"**، فهو ليس وجوداً مجرَّداً بل وجوداً مشخَّصاً حيًّا فعَّالاً متبادل العلاقات الكاملة الذاتية التي تقوم بين البنوَّة والأبوَّة، لتكمُل الأبوَّة في البنوَّة وتكمُل البنوَّة في الأبوَّة، وتنتهي إلى كمال **"الذات الإلهية"** من حيث كونها مصدر كل "أبوَّة" في السماء والأرض «الذي منه تسمَّى كل عشيرة (أُبوَّة) في السموات وعلى الأرض.» (أف ٣: ١٥)

ولكي يزيد الكتاب توضيحاً لمدى شدة وعمق العلاقة القائمة بين الآب والابن في الروح القدس، أعطى المثل على مستوى إدراكنا، من إحساسنا ومشاعرنا: «**الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله**، لأن مَنْ مِنَ الناس يعرف أمور الإنسان إلاَّ روح الإنسان؟ الذي فيه. هكذا أيضاً **أمور الله** لا يعرفها أحد إلاَّ **روح الله**.» (١كو ٢: ١٠و١١)

هذا الوجود المتبادل في الأقانيم (الثالوث) مع بقائهم في غير انفصال، أي في وحدة ذاتية كاملة، يعبَّر عنه في اللاهوت باصطلاح "الاحتواء περιχώρησις"، وهي كلمة مشتقة من الأصل χωρεῖν التي تفيد "التحرُّك والاحتواء" معاً. ويقابلها في الإنجليزية Coinherence، أمَّا المقابل اللاتيني للكلمة فهو يزيد المعنى وضوحاً circuminsesso، وتفيد أن الأقانيم تحتوي أو "ترتاح" في بعضها البعض، وهنا كلمة **"الارتياح"** تفيد نفس الكلام الذي سبق وقلناه أن وجود الأقانيم في بعضها ليس كمجرد تواجد بل هو **"إرتياح"** أي **انسجام مطلق**، وهذا الانسجام المطلق هو **التساوي المطلق**، ومن هنا تبرز معنى "الوحدة" ومعنى عدم الانقسام أو الانفصال في الأقانيم بالرغم من تمايز كل منها في عمله. فالتعبير هنا ليس فلسفة بل واقع لاهوتي حي.

فالثالوث متواجد معاً ودائماً في كل من الأقانيم بدون انقسام أو انفصال.

وقد استخدم القديس أثناسيوس هذا الاصطلاح ضد الأريوسيين كتقليد كنسي وصل إليه بالتسليم(٣٠)، وقد سبقه في استخدام هذا الاصطلاح ديونيسيوس بابا روما: [لأنه يتحتَّم أن يكون "الكلمة" الإلهي متحداً مع إله الكون كما يتحتَّم أن يرتاح الروح القدس ويسكن في الله.](٣١)

(30) Athanas., Discourses Against the Arians, II, 33, 41; III, 1-6.

(31) Dionysius of Rome, *De Decretis*, ch. 26; Beth. Bak., *op. cit.*, p. 226.

وقد سبق ديونيسيوس في توضيح هذا المعنى أثيناغوراس:

[نؤمن بـا لله الآب والله الابـن وبـالروح القـدس، ونعلـن قوتهـم في الوحدانيـة وتمـايزهم في الترتيب، فالابن في الآب والآب في الابن بالروح القدس العامل في الوحدة والقوة.](٣٢)

وهكذا نرى أن الآباء منذ البدء كانوا مهتمين جدًّا بالتأكيد على هذا الاصطلاح أو على ما يفيد معناه لإثبات الوحدانية في الثالوث بحسب ما جاء في الكتاب المقدَّس؛ بل وحرصوا جـدًّا أن تكـون الخاتمة التي يختمون بها عظاتهم وتآليفهم، أي الذُكصا، تحتوي على هذا المعنى: أي التمايز الأقنومي في وحدة الإله الواحد. فنسمع كليمندس الإسكندري في خاتمة كتابه عن المعلِّم هكذا:

[وإلى الواحد الوحيـد، **الآب والابـن، والابـن والآب**، الابـن قائدنـا ومعلِّمنـا، مـع الـروح القدس أيضاً واحداً في الكل والكل في الواحد ... له المجد إلخ.](٣٣)

وهكذا كانت الإسكندرية منذ البدء صاحبة هذا التقليد بالتسليم الرسولي.

وقد كان هذا الاصطلاح الراسخ في اللاهوت الآبائي، أي ارتفـاق الثـالوث وتسـاويه المطلـق في ا لله الواحد، هو القوة العظمى التي كانت كسلاح في يد أثناسيوس في دفاعه ضد الأريوسية. وإليك نموذجاً رائعاً لدفاعه.

[لأنه حيثما ذُكر الآب ذُكر ضمناً كلمته والروح القدس الذي هو في الابن، وإذا ذُكر الابن فإن الآب في الابن والروح القدس ليس خارج الكلمة، لأن من الآب نعمة واحدة تتم بالابن في الروح القدس. وهناك طبيعة إلهية واحدة وإله واحد «على الكل وبالكل وفي الكل» (أف ٤:٦).](٣٤)

[وإن كانت توجد في الثالوث المقدس المساواة وهذا الاتحاد، فمن الـذي يسـتطيع أن يفصـل الابن عن الآب أو يفصل الروح القدس عن الابن أو عن الآب نفسه؟](٣٥)

[لنتأمَّل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء التي أعطاها الـرب وكـرز بهـا الرسل وحفظها الآباء. على هذه تأسَّست الكنيسة، ومَنْ يسقط منها لا يُعتـبر مسـيحياً. إن

(32) Athenagoras, *Leg.*, 12, *Leg.* 10.

(33) Clement of Alex., The *Instructor,* ch. 12.

(34) Athanas, To *Serap.*, I:14.

(35) Ibid. I.20.

هناك ثالوثاً مقدَّساً وكاملاً ومعتَرفاً به أنه الله الآب والابن والروح القدس، لا يتكوَّن من واحد يخلق وآخر يبدع بل الكل يخلقون، وهو متماثل (متساوي)، وفي الطبيعة غير قابل للتجزئة، ونشاطه واحد. الآب يعمل كل الأشياء بالكلمة في الروح القدس، وهكذا تُحفظ الوحدة في الثالوث المقدَّس، وهكذا يُنادى بإله واحد في الكنيسة «الذي على الكل، وبالكل، وفي الكل» (هنا الكل يعني الثالوث) **"فعلى"** الكل **كآب**، "وبالكل" أي **بالكلمة "وفي"** الكل **أي في الروح القدس**، هو ثالوث ليس فقط بالاسم وبالكلام بل بالحق والفعل، لأنه كما أن الآب واحد وإله على الكل هكذا أيضاً كلمته واحد وإله على الكل. والروح القدس ليس بدون وجود فعلي بل هو كائن وله وجود فعلي.](٣٦)

[لأن كل ما للآب هو للابن أيضاً. إذن فتلك التي تُمنح من الابن في الروح القدس هي مواهب الآب، **وعندما يكون الروح القدس فينا يكون أيضاً فينا الكلمة الذي يمنح الروح القدس والآب الذي هو في الكلمة**. وهذا يتفق مع ما قيل: «إليه نأتي أنا والآب وعنده نصنع منزلاً» (قارن: يو ١٤:٢٣). لأنه حيث وُجد النور وُجد أيضاً شعاعه، وحيث وُجد الشعاع وُجد أيضاً نشاطه، ووجِدَت نعمته الخالقة.](٣٧)

ثانياً: "من الله = ἐκ θεοῦ":

وهذا الاصطلاح الإنجيلي والمتكرِّر في كل أسفار العهد الجديد، اتخذه الآباء في شرح علاقة الابن والروح القدس بالآب، أي أنهما **"من الآب"**، للحفاظ على وحدة الأصل ἀρχία أو السلطان أو الملوكية في الثالوث. ومن ذلك تكوَّنت عقيدة Monarchia عند الآباء لحراسة مفهوم "وحدانية الله" ضد أي انحراف في مفهوم الثالوث ناحية الوثنية وتعدُّد الآلهة أو تعدُّد الأصول في الفلسفة. فكما يقول أثناسيوس سابقاً: [حيثما ذُكر الآب ذُكر ضمناً كلمته والروح القدس]، وهذا يُعتبر مفتاح فهم الثالوث وفهم لغة الكتاب المقدَّس من جهة الآب والابن والروح القدس.

فمثلاً نقرأ أن الآب هو **"الإله وحده"**، ثم يذكر بعد ذلك اسم الرب يسوع المسيح: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوكَ **أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح** الذي أرسلته» (يو ١٧:٣)، حيث يقع هنا اسم يسوع المسيح موقع التكميل للتوضيح حسب عادة الكتاب المقدَّس في تفسير

(36) Ibid. I.28
(37) Athanas., *To Serap*. I.30.

المعاني الصعبة. فالآب هو الإله الحقيقي الوحيد **مع** ابنه يسوع المسيح الذي أرسله لإعلان أبوّته ووحدانيته والحق الإلهي الذي فيه.

وفي هذا يقول أثناسيوس:

[فإن كان الآب يسمَّى "**الإله الحقيقي الوحيد**" فهذا قيل ليس بغرض نفي حقيقة المسيح الذي قال عن نفسه: "**أنا الحق**"، ولكن بقصد إقصاء (الآلهة) التي ليست هي "**الحق**" عن الآب وكلمته اللذين هما الحق. ومن أجل هذا فإن الرب أضاف حالاً: «ويسوع المسيح الذي أرسلته» ... وهكذا بإضافة نفسه إلى الآب أوضح أنه من جوهر الآب، وأعطانا أن نعرف **أنه من الآب الحقيقي كابن حقيقي**، ويوحنا نفسه كما تعلّم (من الوحي في الإنجيل) هكذا كان يعلِّم (بالروح) في رسالته: «ونحن في الحق في ابنه **يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية**» (١يو ٥:٢٠).]

ولهذا يشرح الآباء العلاقة السرية بين لاهوت الابن ولاهوت الآب أنه: [نور **من** نور، إله حق **من** إله حق]. فهنا ذِكرُ الواحد يشمل الآخر بالضرورة الحتمية. لأنه ليس منه فقط بل **وفيه!** وهذا في نفس الوقت لا ينفي التميُّز كما يقول هيبوليتس:

[**حينما أقول أن الابن متميِّز عن الآب، فأنا لا أتكلّم عن إلهين ولكن كنور من نور وكنهر من نبع وكشعاع من الشمس.**](38)

كما ويتضح هذا مرَّة أخرى في رسالة بولس الرسول الأُولى إلى تيموثاوس حينما يصف الله الآب هكذا: «وملك الدهور الذي لا يفنى ولا يُرى **الإله الحكيم وحده** له الكرامة والمجد» (١تي ١:١٧). هنا يقول الكتاب إن الله هو «الإله الحكيم وحده»، ولكن معروف أن المسيح الكلمة هو «حكمة الله»، فالله لا يمكن أن ينفصل عن حكمته. **فإن كان الله يُدعى «الحكيم وحده»، فهو واحد مع حكمته أي هو والمسيح الكلمة الإله الواحد الحكيم.**

وعلى هذا الأساس من مفهوم الـ Monarchia، سجل الآباء مطلع قانون الإيمان الرسولي النيقاوي الذي لم يكن إلاَّ تسجيلاً لتقليد الرسل، هكذا:

[نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب،

(38) Newman, *op. cit.,* 178.

نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب.]

هنا الله الآب أُعطي صفة "**الإله الواحد**"، ثم ذُكر الابن والروح القدس في صميم الإله الواحد (منه وفيه) كمكمِّلين للثالوث المتساوي، فالإله يشمل الآب والابن والروح القدس.

هذا التفسير قديم جدًّا في الكنيسة، وهو تقليد محفوظ، ونقرأه لترتليان:

[إنه من الخطأ أن نتصوَّر أن العدد والترتيب في (ذكر) الثالوث هو انقسام في وحدانيته أو أن الوحدة تنفي الثالوث.](٣٩)

[إن تنازل الثالوث ابتداءً من الآب باتصال وثيق على درجات يتفق مع الـ Monarchia **أي وحدة الأصل** وفي نفس الوقت يحمي التدبير.](٤٠)

ويوضِّح البابا ديونيسيوس الإسكندري هذه الحقيقة في اختصار شديد هكذا:

[نحن نمتد بالوحدة غير المنقسمة إلى الثالوث، ثم نركِّز على الثالوث غير المفترق لنبلغ الوحدة.](٤١)

ومن هذا يتضح أنه يستحيل أن نعبد أحد الأقانيم الإلهية دون أن نعبد الكل معاً، وحينما نصلِّي إلى الآب فنحن نتقدَّم إلى حضرته السرية الفائقة في شخص ابنه وفي الروح القدس، كما تعوَّدنا دائماً أن نبدأ الصلاة أو نختمها في اسم الثالوث المتحد.

وهكذا وجدنا أن مبدأ "وحدة الأصل مونارخيا Monarchia" بدأ كعقيدة أرثوذكسية للحفاظ على حقيقة الوحدة في الثالوث. وسارت كتقليد مبكِّر جدًّا في الكنيسة، ولكن سرعان ما اختطفها الهراطقة من فم آباء الكنيسة ليستخدموها ضد العقيدة والإيمان كله. كما **يقول ترتليان:**

[إن الشيطان الذي ينافس ويناقض الحق بكل الطرق جعل نفسه بطلاً على أساس عقيدة أن الله واحد حتى يصنع أكبر هرطقة من كلمة "واحد".](٤٢)

لقد تصَّوروا أن عقيدة لاهوت المسيح لا يمكن توافقها مع الإيمان بوحدة الله، أي أنها تتعارض

(39) Newman, *op. cit.*, p. 176.

(40) Ibid.

(41) Athanas., *ap. Dion. adv. Prax.* 1 cited by Beth. Bax. p. 96.

(42) Tertulian, *adv, Prax.*, 1, cited by Beth. Back., p. 96.

مع الإيمان "بالله الواحد". وهكذا تجمع كثير من الهراطقة الذين كانوا مختلفين في كل شيء ليتفقوا ويتحدوا في شيء واحد ضد الثالوث، وهو المناداة بوحدة الله ضد لاهوت المسيح. وفي هذا يقول ترتليان أيضاً:

[هؤلاء السذج، إن لم نَقُلْ - قصيرو البصر والجهلاء - الذين يكوِّنون السواد الأعظم من المؤمنين الذين بواسطة قانون الإيمان الرسولي عادوا من عبادة آلهة العالم الوثني إلى عبادة الله الحقيقي **غير عالمين أن الإيمان بوحدانية الله إنما هو على أساس تدبيره المتعدِّد** (أي الثلاثي: **الخلقة، الفداء، التقديس**). ولكن هؤلاء بسبب قصورهم يظهرون كخائفين من هذا التدبير الإلهي عينه، ويقولون عنَّا إننا نعبد ثلاثة آلهة، أمَّا هم ففي نظر أنفسهم يعبدون إلهاً واحداً ولذلك يقولون إنهم متمسِّكون بشدة بالمونارخيا = الوحدانية.](٤٣)

ومن ضمن الذين وقعوا في هذه المونارخيا (الوحدانية) الصورية زفرينوس بابا روما، على أساس تخوُّفه من عبادة ثلاثة آلهة، ولذلك يقول عنه هيبوليتس:

[رجل جاهل غير مدرَّب على فهم اصطلاحات الكنيسة.](٤٤)

ويعود أوريجانوس يصف هذه الهرطقة هكذا:

[هذه البدعة التي أقلقت إيمان الكثيرين الذين يفتخرون بتعبُّدهم لله (الواحد) لأنهم كانوا قلقين وحذرين من عبادة إلهين.](٤٥)

وهكذا أطلقت الكنيسة على هؤلاء الذين انحرفوا بمفهوم المونارخيا (الوحدة) اسم المونارخيين (الموحِّدين). وظلت الكنيسة على مدى القرن الثالث توضِّح إيمانها بلاهوت المسيح على أساس وحدانية الله.

أمَّا هؤلاء المونارخيون **فنصفهم الأول كان ينكر لاهوت المسيح** جملة وتفصيلاً، **والنصف الآخر كان يعتبر المسيح مجرَّد قوة أو صفة مُنحت له من ا لله**؛ وذلك لكي يدافعوا عن وحدانية ا لله.

أمَّا النصف الأول فلم يعطوا المسيح شخصية إلهية مستقلة، وهم براكسياس ونوئيتوس وكالليستس (بابا روما) **وبيريللوس (أسقف بوسطرة ببلاد العرب)، وعلى رأسهم سابيليوس**

(43) Tertullian, *adv. Prax.*, 3, cited by Beth. Back., p. 97.

(44) Beth. Back., *op. cit.*, p. 97.

(45) Ibid. Origen, *on John* 2:2.

الذي يُظن أنه ليبي الأصل(٤٦) وكان متضلّعاً في اللاتينية.

أمّا النصف الثاني فهو ألوجي وثيئودوتس وأرتمون وعلى رأسهم بولس الساموساطي.

٤ – الاصطلاحات اللاهوتية التي استخدمها الآباء لشرح العقيدة ودخلت في صميم الصراع مع الأريوسيين

(أ) طبيعة	Substantia	
(ب) الشخص	Persona	πρόσωπον
(ج) الجوهر	Essence	οὐσία
(د) الأقنوم	Hypostasis	‛Υπόστασις

(أ) طبيعة Substantia Substance:

أصل الكلمة Subsito = **"الموجود أو الكائن تحت الشيء"، أو "الذي بواسطته يستقر الشيء ويوجد"، أو "الجوهر أو العامل الأساسي الذي عليه يقوم الشيء."**(٤٧)

من هذا ينتج أن الشيء الذي له طبيعة (Substantia)، إنما يقابل الأمر أو الشيء الذي يوجد في التصوُّر أو الخيال الذي يأخذ شكله خداعاً أو على غير حقيقة مثل الجِّنية أو الغول أو عروس البحر ... إلخ.

وهكذا تصبح كلمة الطبيعة Substantia **"تفيد الوجود الحقيقي"**. وأيضاً يُقال في المنطق إنه قبل أن يمكنك السؤال عن إنسان ما **"مَنْ هو"** يلزم أن يكون حاضراً أمامك طبيعته Substantia، أي يكون موجوداً **وجوداً حقيقياً** (res) يفيد أنه **كائن بالفعل**، في **شكل معيَّن** أو **صفات معلومة** يمكن أن تُفحص، أو **خواص** أو **ممتلكات** تعطي الشيء كيانه.

لذلك فكلمة طبيعة بالمعنى اللاتيني Substantia وكلمة صفة Qualitas يعتبران الموضوعين

(46) Cross, *Dict, of Chr. Church*, p. 1197.

(47) Beth. Bak., *op. cit.*, 231.

الأساسين للبحث والفحص في الشيء.

وقد استخدمت هذه الكلمة كاصطلاح ليفيد غرضاً عقائدياً في وصف اللاهوت.

+ وقد تُرجمت كلمة (جوهر οὐσία) وكلمة (أقنوم ὑπόστασις) كليهما في مؤلفات إيرينيئوس باللغة اللاتينية إلى Substantia.

ومن هنا جاء الخلط في التعبير والالتباس في فهم الشرق للغرب والغرب للشرق، بل وأدى إلى نزاع وفُرقة لا تزال آثارها باقية إلى الآن بين الغرب اللاتيني والشرق عامة والإسكندرية خاصة.

فقد قام أول نزاع خطير كاد يؤدِّي إلى صدام بين ديونيسيوس الكبير بابا الإسكندرية وبين ديونيسيوس بابا روما، حينما اتهم الأخير الأول بأنه يقول بثلاثة آلهة لأنه قال بثلاثة أقانيم hypostasis، فردَّ عليه بابا الإسكندرية وأسكته حينما شرح له معنى الثلاثة هيبوستاسيس في جوهر واحد وسيأتي الكلام على ذلك.

+ أمَّا المعنى الفلسفي اللاتيني السائد لهذا الاصطلاح فهو يتضح في مؤلَّف ترتليان الذي يعبِّر به عن **"وجود"** أو **"كيان"** الله أو **اللاهوت في ذاته ككيان واضح.**

وهكذا يصف ترتليان وجود الله هكذا: [طبيعة واحدة Substantia لثلاثة أشخاص Personae في حالة واحدة (دون انفصال Una Substantia tres Personae in = status uno Statu.] كذلك نجح ترتليان في التعبير القانوني المحكم عن طبيعة المسيح في ما معناه من جهة: [الطبيعتين اللتين احتواهما المسيح معاً الإلهية والإنسانية مع تمتعه بكل حقوق (يُلاحَظ أن ترتليان كان محامياً) وامتيازات كلٍّ منهما بآن واحد لنفس شخصه الواحد. وأنه لا يوجد أي تعارض بين أن يكون الله واحداً بطبيعته Substantia (بالمعنى اللاتيني) في ثلاثة.]

يُلاحَظ أن ترتليان كان يتحاشى ما أمكن أن يذكر كلمة Personae بعد كلمة ثلاثة مكتفياً بكلمة ثلاثة tres فقط، وقد حذا حذوه القديس أغسطينوس ـ متضجراً من ضعف اللغة اللاتينية عند الغرب التي لا تسعف في التعبير عن "الأقنوم".

كذلك يوضح لنا ترتليان مفهوم الطبيعة والشخص هكذا:

[إن سر التدبير في العناية الإلهية الذي ظهر في الثالوث القائم في الوحدانية، الآب والابن والروح القدس، هؤلاء الثلاثة ليسوا في ثلاثة أوضاع أو حالات status ولكن ثلاثة من جهة العلاقة

gradus. وليسوا ثلاثة طبائع، ولكن ثلاثة من جهة تواجدهم في الهيأة forma = τρόπους وليسوا ثلاثة قوات (أي من جهة القوة)، ولكن ثلاثة من جهة الخـواص (species)، ولكـن على أنهم الله واحد الذي له هذه العلاقات والهيئات والخواص الذاتية مدرَكة في اسـم الآب والابن والروح القدس.](٤٨)

هذا من جهة كلمة Substantia بالمعنى اللاتيني (الطبيعة أو الجوهر)، واسـتخدامها عنـد الآبـاء اللاتين الأفارقة ترتليان ومن بعده أغسطين التي أخذها الإيطاليون عنهم. وقد خرج بهـا ترتليـان في النهاية عن الماهية الحقيقية لمفهوم الجوهر عندنا ـ في أحيان كثيرة ـ حينما جزَّأها بين الآب والابن: [الآب هو الجوهر الكلي بينما الابن متحصِّل منه جزئياً على جوهره، فهو جـزءٌ مـن كـلٍّ](٤٩)، في حين أن الجوهر في مفهومه اللاهوتي لدى الإسكندرية لا يتجزَّأ قط. وهذا طبعاً يكشـف لنـا بغايـة الوضوح أن كلمة Substantia عند اللاتين كانت لا تساوي في معناها ومبناها مفهوم الجوهر تماماً.

وقد تحوَّرت وتطوَّرت كلمة Substantia من ترتليان حتى إلى زمان البابا اللاتيني "ليـو" أي في المجمع الخلقيدوني، مع ملاحظة أن كلمة Substantia شيء وكلمة Natura شيء آخر.

فالطبيعـة بـالمعنى اللاتيـني Substantia تـأخذ المفهـوم الواقعـي الكيـاني المـدرك، ولكـن Natura = φύσις لا تفيد أكثر من مجموعـة صفـات نظريـة. فـالحديد لـه طبيعـة Substantia والحجـر لـه طبيعـة Substantia ولا يمكن الجمع بينهما، ولكـن مـن الصفـات الطبيعيـة Natura للحديـد أنـه جـامد ومـن الصفات الطبيعية Natura للحجر أنه جامد، فهما يشـتركان معـاً (يتحـدان) في Natura وليـس في Substantia.

وفي تحديدات مجمع خلقيدونية ـ المرفوض والمحروم من الأرثوذكس ـ نقرأ ما معناه:
[في شخص المسيح يسوع (Persona) توجد طبيعتان للاهـوت والناسـوت، فهـو واحـد في الطبيعة مع الآب بحسب اللاهوت وواحد في طبيعتنا بحسب الناسوت:

Unius substantiae secundum deitatum

Unius substantiae secundum humanitatum].

ولكن العجيب في التعبـيرات اللاتينيـة أنـه يعـود فيقـول إن شـخص المسـيح قـائم في **(صفـات)**

---

(48) Beth. Bak., *op. cit.*, pp. 138, 139: *Adv. Prax.* 7.

(49) Ibid. pp. 141, 232, 233.

الطبيعتين، لأن الكلمة المستخدمة للدلالة على الطبيعة هي Natura وليست Substantia.

وعلى العموم فإن اللاهوتيين اللاتين يجزعون حتى الآن من القول حتى بوجود **اتحاد بين الطبيعتين بمعنى الـ Naturae**(٥٠) **حيث "الناتورا Naturae"** لا تعني أكثر من مجموعة الصفات التابعة للطبيعة الإلهية والصفات التابعة للطبيعة البشرية.

ويجدر بنا أن نشير إلى عقيدة القديس أثناسيوس من جهة الاتحاد البالغ حد الوحدانية بين طبيعة **"الكلمة"** وطبيعة **"الإنسان"، وإرادة** "الكلمة" **وإرادة** "الإنسان".

ولكن لأن هرطقة القول بانفصال الطبيعتين لم تكن قد ظهرت بعد لأن نسطور لم يكن قد وُجد بعد، وقال قولته التي اجتمع ضدها مجمع روما (أغسطس ٤٣٠م)، فإن أثناسيوس لم يدخل في تفاصيل دقيقة من جهة الطبيعة الواحدة للكلمة المتجسِّد كما تعرَّض لها القديس كيرلس الكبير. ونكتفي هنا بأقوال القديس أثناسيوس التي تعتبر التمهيد الكبير لتحديد العقيدة الأرثوذكسية القائمة على **"طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسِّد"**:

[ليتنا ننظر إلى المسيح من كلا الناحيتين، **"فالكلمة الإلهي" صار واحداً مع الذي صار له من مريم في مريم**؛ لأن في رحمها أقام الكلمة لنفسه بيته كما أقام آدم منذ البدء من الأرض.](٥١)

[إن بطرس الرسول بقوله: «يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس»، **فهو هنا** يعلن في نقاء لاهوت الابن الوحيد **دون أن يفصل طبيعة الله الكلمة Substance من الإنسان الذي من مريم** (فليهلك مثل هذا القول).](٥٢)

[وإن ذكر إرسالية **"الكلمة" يوضِّح الاتحاد الذي تمَّ في يسوع المولود من العذراء الذي اسمه "المخلِّص"، ليس بأي واسطة كانت وإنما بسبب أن الإنسان (أي بشرية المسيح) صار واحداً مع الله الكلمة.**](٥٣)

[لأنه أعطى تعبير **"الإرسالية" ليعبِّر عن الاتحاد بالإنسان** (التجسُّد) الذي بواسطته يتسنَّى

(50) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 233.
(51) Athanas. *C. Ar.* IV. 34, NPNF, 2nd Series, vol. 4, p. 446.
(52) Athanas. *C. Ar.* IV. 35, NPNF, 2nd Series, vol. 4, p. 447.
(53) Ibid.,*C. Ar.* IV. 36, NPNF, 2nd Series, vol. 4, p. 447.

للطبيعة غير المنظورة أن تصير مدركة للبشرية من خلال الطبيعة المنظورة.]

[**كذلك فالله الكلمة نفسه هو المسيح الذي من مريم، "إله وإنسان"**، الذي هو من الآب قبل كل الدهور السالفة **وهو نفسه في الأزمنة الأخيرة من العذراء، الذي كان قبلاً غير منظور حتى من القوات السمائية، والمنظور الآن بسبب وجوده (كيانه) واحداً مع الإنسان (ناسوته) المنظور؛ ليس في لاهوته وإنما في عمل اللاهوت في الجسد** الإنساني أي بشريته الكاملة التي جدَّدها عندما اتخذها خاصة لنفسه.][٥٤]

[إن الجسد الذي وُلد به مملوء من كمال اللاهوت.][٥٥]

(ب) الشخص πρόσωπον = Persona

لكي نصل إلى تحديد جيد لمعنى الـ Persona يلزم أن نعرف تاريخها قبل دخولها في التعبيرات الكنسية:

فكانت تعني عند جماعة الممثلين "**القناع**" الذي يلبسه الممثِّل ليمثِّل "**شخصية**" أخرى[٥٦]. (ولذلك كان رجال التمثيل في مصر يسمون باللغة القديمة جماعة "**المشخصاتية**"). ثم انتقل التعبير من حدود "القناع" إلى حدود "**الدور**" الذي يقوم به الممثِّل ليعبِّر عن الشخصية الأخرى، ثم انتقل المعنى إلى التعبير عن "**الحالة** Status" التي يعيشها أي إنسان بين الآخرين في الحياة المدنية، ثم انتقل للتعبير عن الشخصية التي يمتلكها ويعيشها أي إنسان في المجتمع.

فإنسان عنده Persona أي له شخصية معنوية تقوم على أهمية الدور الذي يؤديه في الحياة. لذلك فالعبيد ـ عند الرومان ـ لأنه لم يكن لهم حق المواطنة، كانوا معتَبَرين بحكم القانون الروماني أنه ليس لهم Persona أي ليس لهم شخصية اجتماعية، وكان يُطلق عليهم عديمي الشخصية ἀπρόσωποι أو persona carentes ومنها يأتي اصطلاح العقاب الروماني بالتجريد من حق الشخصية أي الكرامة أو الرتبة، أي يفقد كرامته أو رتبته personam amittere.

وهكذا نأتي إلى معنى البرسُونا persona في المفهوم الكنسي، وهنا يلزم جداً أن يفهم القارئ

(54) Ibid. IV. 36.

(55) Athanas. *Letter LIX, To Epictetus.*

(٥٦) يقول القديس كليمندس الإسكندري في كتابه المعلِّم ٣:٢، ١١:٢ إن النساء اللاتي يصبغن وجوههن يحوِّلن وجوههن إلى أقنعة prosopa.

أن كلمة persona لا تعني قط ما تعنيه كلمة person "الشخص" الآن، فهي لا يوجد لها شبيه أو مماثل في اللغة الإنجليزية حتى الآن، ومن هنا يأتي الخطأ والالتباس عند ترجمة persona بالمفهوم اللاتيني الكنسي بكلمة person في اللغة الإنجليزية الشائعة الآن "كذات فرد".

فكلمة "برْسُونا" أو "بروسوبون"، في أصلها اللغوي، تعني "الحالة" أو "العمل" أو "الدور" أو "الأسلوب" أو "التشخيص" الذي يقوم به. **فهي لا تُفهم بدون الذات المعينة التي تمثلها ولكنها لا تعني - بالتركيز - الذات نفسها**، وإنما تجذب الانتباه ليتركَّز على عمل الشخص أو **أسلوبه أو حاله أو الدور** الذي يقوم به **في حالة معيَّنة أو من جهة نظرة معيَّنة من نحو عمله**، وهنا تقترب جدًّا من معنى الهيبوستاسيس ὑπόστασις.

وتاريخ كلمة πρόσωπον يتمشَّى مع تاريخ كلمة persona في معناها الأول.

وفي الكتاب المقدَّس نجدها تأتي عادة بمعنى **"وجه"** حرفياً مثل **"وجه"** الأرض. واستخدمت أيضاً في العهد القديم للتعبير عن **"وجه"** الله. واستخدمها كليمندس الإسكندري للتعبير عن **"المسيح" بصفته "اللوغس وجه الله"**(٥٧)، الذي بواسطته ظهر الله وصار معروفاً. وكذلك كيرلس الكبير أعطى الروح القدس نفس التعبير باعتباره "وجه الله الآب"، لأن الروح القدس بقوته الفاعلة يستطيع أن يصوِّر ماهية الله غير المنظور!(٥٨)

أمَّا ترتليان فيوضِّح الثلاثة أوجه prosopa في الثالوث هكذا:

[ولأن الآب كان إلى جانبه الوجه الثاني كلمته والثالث روحه القدوس، لذلك قيل في سفر التكوين: «لنصنع الإنسان على صورتنا»، مستخدماً صيغة الجمع.](٥٩)

ويبدو أن أول مَنْ استخدم لفظة البروسوبون في الآباء للتعبير عن الثالوث هو هيبوليتس الذي يقول: [إن استخدام هذه الكلمة يظهر من قول الرب: «أنا والآب واحد»، فهذا لابد أن يعني وجهين **"لقوة"** واحدة - فالله واحد ولكن يوجد وجهان بسبب الابن كما يوجد ثالث أيضاً أي نعمة الروح القدس.](٦٠)

(57) Clement of Alex., *Paed.* 1:7, 57:2.

(58) Cyril. *Thes.*, 34, 340 C. Cited by Prestige, *God in Patr. Th.* p. 159.

(59) Tertullian, *Against Praxeas* ch. 12, cited by Prestige.

(60) Hippolytus, *C. Noel.*, 7, 14, cited by Prestige, pp. 159, 160.

ويقول هيبوليتس أيضاً في مهاجمته لكالليستوس:

[هذا هو الابن وجه واحد يُدرك ويتميَّز بالاسم ولكن ليس بجوهر خاص (أي أنه من نفس جوهر الآب الواحد).](٦١)

ولكن لعل أوضح تعبير عن الثلاثة أوجه التي للثالوث قد جاءت على لسان أوريجانوس هكذا:

[وإن (الله) الكائن بذاته الذي يُدعى ثالوثاً Triad بسبب التمييز القائم في وجوهه (أشخاصه personae) ويُدعى الله الواحد بسبب وحدة الجوهر.](٦٢)

ثم تأتي بمعنى "الحضرة"، وأيضاً تأتي بمعنى πρόσωπον λαμβάνειν أي "يَقْبل وجه" أي يَقْبَل الشخص، وهنا تفيد بوضوح معنى "الحالة"، ويستخدمها بولس الرسول هكذا: «وأمَّا نحن أيها الإخوة فإذ قد فقدناكم زمان ساعة "**بالوجه**" لا بالقلب اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى **وجوهكم**» (١تس ٢:١٧). وهنا تفيد الحضرة أو "**الحضور الشخصي**". وفي مكان آخر تأتي هكذا: «ليكون لكم جواب على الذين يفتخرون **بالوجه** لا بالقلب» (٢كو ٥:١٢). وهنا تفيد **المظهر الخارجي** في مقابل التحكيم بالشعور الحقيقي!!

وبمعنى آخر تأتي هكذا: «والذي تسامحونه بشيء فأنا أيضاً لأني أنا ما سامحت به إن كنت قد سامحت بشيء فمن أجلكم بحضرة προσώπῳ المسيح.» (٢كو ٢:١٠)

«الذي قال أنْ يُشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه (προσώπῳ) يسوع المسيح» (٢كو ٤:٦). هنا تأتي كلمة وجه (بروسوبو) بمعنى في أعمال أو صفات أو أخلاق.

كذلك في موضع آخر تأتي هكذا: «وأنتم أيضاً مساعدون بالصلاة لأجلنا لكي يؤدَّى شكر لأجلنا من (**أشخاص** **προσώπων**) كثيرين على ما وُهب لنا بواسطة كثيرين» (٢كو ١:١١). وهنا تأتي واضحة جدًّا بمعنى شخص معيَّن، وهو المعنى الذي استخدمه ترتليان دائماً.

وهنا نأتي إلى الثغرة والمسرب الذي نفذ منه رأس الهراطقة سابيليوس ليخرج بمعنى البروسوبون عن مفهوم "**الشخص**"، إذ فصل نهائياً بين "**الشخص**" و"**الحالة**" أو "الصفة" التي لا يمكن فصلها

(61) Hip., *Ref.* 10. 27. 4.

(62) Origen, *Cant.* 3; cited by Prestige, pp. 159, 160.

من الشخص في المفهوم الأصيل والمتوارث لاصطلاح "البروسوبون" كما أوضحنا.

فقال إن الثالوث عبارة عن ثلاث **"حالات** πρόσωπα" لله الواحد ظهر فيها بالتتابع كآب ثم ابن ثم روح قدس (هنا أسقط الصلة بين الشخص والحالة واستخدم الحالة منفصلة عن الشخص وأسماها πρόσωπα).

وهكذا بخبث واضح استخدم ضعف اللغة في البِرْسُونا وفي أصل البروسوبا وعدم دراية الشرقيين بمفهومها اللاتيني، ولكنها أُخذت عليه سريعاً من الآباء العلماء المدقّقين وكانت هي القاضية عليه.

ومن الأشخاص الذين لم تحسبهم الكنيسة هراطقة بالرغم من جنوحهم عن جادة الفكر اللاهوتي السليم مارسللوس أسقف أنقرة "أنجورا" بإقليم غلاطية (صديق أثناسيوس) الذي ارتطم بعقيدة "البروسوبون"، إذ أنكر شخصية "الكلمة"، إذ لم يستطع قط أن يفهم كيف يتقبَّل اللوغس وهو الطاقة العظمى أن يكون له شخصية؟ حتى زلَّ وقال إنه تقبَّل الشخصية منذ أن تجسَّد فقط، ولولا دفاع أثناسيوس عنه حتى آخر لحظة لسقط عن كرسيه(٦٣).

ولكن حدث أن سابيليوس سرق هذا الاصطلاح العزيز من الكنيسة προσώπων وأفسده باستخدامه الخاطئ لمعناه، وهكذا ترك اللاهوتيين المتكلّمين باليونانية حيارى بلا كلمة واضحة لتحل محلها حتى استقروا على الكلمة المماثلة ὑπόστασις.

وقد برزت كلمة "البروسوبون" و"البِرْسُونا" إلى قمة الصدام مع الأريوسيين، وبعدها لم يعد هذا الاصطلاح حيًّا في التعبيرات اللاهوتية.

(ج) **الجوهر** οὐσία = Essentia

اصطلاح يوناني قديم يفيد **"الوجود الحقيقي"**، **"الكيان الواقعي"**، **"Being"** **أو الشيء الذي هو كائن بالحقيقة.** وكان هذا التعبير مُستخدماً عند أفلاطون قديماً ليفيد الخواص النوعية "للمُثُل Ideas" العليا أو "الحقائق Realities = τά ὄντα" في مقارنتها **بالمظاهر التي نراها على الأرض τὰ φαινόμενα** حيث المُثُل هي وحدها الحقائق، أمَّا المظاهر المادية للحقائق فهي تقليد أو مجرَّد اشتراك يجعل الأشياء منظورة لنا.

(63) NPNF., Athanas., XXXVI.

ولمّا جاء أرسطو أضاف إليها معاني جديدة وثبّتها في المحيط الفلسفي الإغريقي، (فصارت قريبة من مفهوم كلمة substantia عند اللاتين = كخاصية الشيء أو ممتلكاته التي تعطيه كيانه). وهي عنده تفيد: "**الكائن**" أو "**الذي يكون**" τὸ ὄν، وبالأكثر "**الوجود البسيط غير المحدود**" τὸ ἁπλῶς ὄν حيث ἁπλῶς كما جاءت في (يع ١:٥) تفيد "**عدم المحدودية أو القيود**" وتُرجمت خطأ **بسخاء** (يعطي **بسخاء** ولا يعيِّر). ويعتبرها أرسطو أول سلسلة درجات الوجود! حيث من الأوسيا أو بالاتصال بها تتميَّز جميع المدركات سواء في النوع أو الكمية وكذلك جميع الخواص والصفات والمميزات.

وهكذا بالمعنى الذي أقره أرسطو تكون الأوسيا (الجوهر) هي المسئولة عن وصف أي وجود "فردي" معين (ذاتي). وهنا تسمَّى الأُوسيا بالأوسيا الأولية، أو من الدرجة الأُولى πρώτη οὐσία . فإذا تعدَّدت المُثُل في الأُوسيا الواحدة اعتُبِرت الأُوسيا أوسيا (أي جوهر) من الدرجة الثانية[٦٤] δευτέρο οὐσία حيث الأُوسيا أو الجوهر هنا يشمل أصنافاً أو درجات متعدِّدة.

ملاحظة هامة: لاحِظ أيها القارئ أننا لا نستطرد في بحث أصول الكلمات اليونانية التي استخدمها الآباء العظماء العلماء عبثاً:

١ ـ فأنت ترى الآن أن أرسطو ـ دون أن يدري ـ أعطى النور الأخضر بتعدُّد الدرجات في الجوهر، لكي يستخدمه الهراطقة المسيحيون بعد ذلك في الخروج بحقيقة الجوهر الواحد لله الواحد لذات واحدة أو لمثل ذاتي واحد، فقالوا خطأ بتعدُّد الجواهر عندما تعدَّدت في نظرهم الذات الواحدة إلى ذوات في الثالوث فقسَّموا الله الواحد إلى آلهة متعدِّدة.

٢ ـ كما يظهر بوضوح أن تعدُّد "**الصفات الجوهرية**" لجوهر الله الواحد للذات الواحدة لله لا يقسِّم الله الواحد إلى آلهة أو ذوات بل يبقى هو الإله الواحد بالجوهر الواحد صاحب الذات الواحدة **إنما في صفات جوهرية عاملة هي الآب والابن والروح القدس في الجوهر الواحد والذات الواحدة**، وهنا أُعطي للصفات الجوهرية (الآب والابن والروح القدس) في الذات الواحدة (الله) اصطلاح "**الشخص**" (لا بمعنى **الفرد** كما سبق وقلنا = persona) أو ـ أخيراً ـ باليونانية ὑπόστασις أي شخص الآب وشخص الابن وشخص الروح القدس لذات واحدة وجوهر واحد.

٣ ـ كما يتضح صحة قول الآباء باستحالة وجود درجات أو طبقات (τάξις) في المجد أو الكرامة بين الثالوث، وإلاَّ خرج الجوهر عن بساطته الأصيلة التي لا تعبِّر إلاَّ عن ذات واحدة وصار

(64) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 235.

جوهراً من الدرجة الثانية تتعدَّد فيها الذوات.

ومن الأمور الهامة التي يجب ملاحظتها أن كلمة الجوهر = (أُوسيا) باليونانية οὐσία يقابلها إلى حد ما في اللاتينية Substantia ، ولكن لا يقابلها على مستوى التحليل اللغوي الفلسفي ما يفيده الاصطلاح φύσις = Nature ، فكلمة الجوهر "أُوسيا" تحوي في مضمون معناها "الفيزيس φύσις" ولكن لا تساويها تماماً(٦٥). ولكن بالرغم من ذلك كانت تعتبر لدى لاهوتيي الإسكندرية مساوية لها، فقد جاء في كتابات أثناسيوس: [One is the divine nature = φύσις](٦٦).

كما جاء أيضاً في كتابات كيرلس الكبير الاصطلاح اللاهوتي الشهير **"طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسِّد"**، حيث الطبيعة هنا هي كلمة φύσις، كذلك فإن الجوهر أي "الأُوسيا" شائعة الاستخدام وذات أصالة متفق عليها على مستوى جميع الآباء أكثر من Substantia أو φύσις أو ὑπόστασις.

وقد استخدمها القديس أثناسيوس في جميع مؤلفاته، ولكنه ذكر أن "الأُوسيَّا οὐσία" كانت ترادف **في البدء** كلمة "هيبوستاسيس ὑπόστασις" بغير حرج. ويشاركه في هذا القديس جيروم، وهذان يمكن أن يؤخذ تقريرهما هذا حجة في الفحص عن أصول هاتين الكلمتين(٦٧).

بل ونجد أثناسيوس يستخدم نفس الاصطلاحين الأوسيا والهيبوستاسيس في الخطاب الرابع ضد الأريوسيين مترادفين معاً بحيث أن كلاًّ منهما تحل محل الأخرى بدون تفريق.

وكما قلنا إن "الأوسيا" الجوهر يفيد "الكيان Being". لذلك فبالنسبة لله - وكما يقول القديس أثناسيوس - هو ذو جوهر غير مدرك وفوق كل إدراك(٦٨)، والله حينما نصفه بحسب مفهوم الجوهر نسميه "الكائن ὁ ὤν" وهذا عين الاسم الذي أعطاه الله نفسه لموسى باعتباره **"اسم الله الخصوصي"** الذي يحوي ضمناً كل صفاته الجوهرية (الآب والابن والروح القدس) في ذاته Being, personality.

ولكن ينبغي أن ندرك أن كلمة الجوهر "أُوسيَّا" هي التي كانت المحور الرئيسي في الصراع اللاهوتي بين القديس أثناسيوس والأريوسية على طول ٥٠ سنة في ما يخص **"لاهوت الكلمة"**، فهو دائماً أبداً يذكر ويؤكِّد بلا كلل أن الابن واحد مع الآب في الجوهر ὁμοούσιος هومووسيوس.

(65) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 235

(66) Athanas., *Contr. Apoll.*, II. 13; *Incar.* V fin.

(67) Newman, *op. cit.*, 442.

(68) Athanas., *Contra Gent.* 2.

كما يُلاحَظ من كلام أثناسيوس عن مقررات مجمع نيقية أن الآباء قالوا بأن الابن ليس **فقط من الآب** بل **"من جوهر"** الآب لكي نؤمن أنه هو وحده - أو الوحيد - الذي من الآب، لأن كل المخلوقات يمكن أن يُقال إنها من الله!! لأنها من صنعة يديه، ولكنها ليست من جوهره(٦٩). كما أن الآباء قالوا إن الابن هو من جوهر الآب.

وأوريجانوس يسبق فيصف "حكمة الله" أنها "جوهر" = أُوسيًّا وأنها موجودة قبل الدهور وقبل الخليقة وهي أزلية(٧٠).

كذلك يصف الروح القدس أنه بالحقيقة "جوهر" = أُوسيا وأنه يستحيل أن يكون نشاطاً أو طاقة أو قوة إلهية مجرَّدة بدون شخصية ذات وجود(٧١).

كما يحاجج أيضاً من جهة الأقانيم هكذا: إن الأقانيم personae في الآب والابن والروح القدس متميِّزة في طبيعة واحدة substantia و"ناتورا" واحدة Natura φύσις للثالوث(٧٢).

كما يستقرئ من سفر اللاويين ٢٤: ٥و٦ بخصوص خبز الوجوه، أن الله له إرادة واحدة وطبيعة واحدة substantia.

واللطيف جدًّا أنه يستقرئ من وضع خبز الوجوه في صفين أنه مقدَّم لشخصين personae (للآب والابن)!!(٧٣)

(د) **"الأقنوم": الهيبوستاسيس** ὑπόστασις

دخل هذا الاصطلاح في اللاهوت الكنسي متأخّراً عن سابقه الجوهر **"الأُوسيا"**، وفي تحليله اللغوي يعني ὑπο تحت، stacis قائم، أي بمعنى الشيء الذي "يقوم تحت"(٧٤) أو **القائم الذي يتوقَّف عليه** (الوجود) **أو الذي يعبِّر عن الوجود.**

ولعل كلمة "الأقنوم" السريانية الأصل مشتقة من نفس هذا المعنى وهو **"القيام الأساسي"**، وهو

(69) Athanas., *de Decret.* 19; cited by Prestige, p. 194.
(70) Origen, *on Proverbs*, viii, 22; cited by Prestige, *op. cit.*, p. 191.
(71) Ibid. *on St. John.*, frag. 37.
(72) Ibid. *on Numbers*, 12. 1.
(73) Ibid. *on Leviticus*, 13. 4.
(74) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 335.

بهذا يقترب جدًّا من مفهوم الأُوسيا οὐσία التي تفيد الوجود أو الكيان المحيط.

وإذا عدنا إلى الاصطلاح اللاتيني substantia substratum وجدنا التوازي أو التساوي بين الاصطلاحين واضحاً الذي يفيد القيام الأساسي أو الجوهري Essential and Substratum الذي يقوم عليه الشيء، بمعنى الأساس أو الأصل foundation الذي يحمل كل الصفات.

وفي الفلسفة اليونانية وُجد الاصطلاحان: "هيبوستاسيس" و"الأُوسيّا" يتبادلان نفس المعنى ويحل كل منهما محل الآخر.

وهذا ما حدث في بدء الاستخدام الكنسي حيث تقابلت كلمة الهيبوستاسيس في اليونانية مع substantia[٧٥].

ولكن كان كل استخدام اللاتين لكلمة Substantia في حدود مفهومنا الآن عن الأُوسيا.

وكلمة هيبوستاسيس بمعنى "**الأساس**" جاءت بوضوح في العهد القديم في الترجمة السبعينية إنما بمعنى "**أساس** الرجاء"[٧٦].

وقد استخدمها بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين (١: ٣) بمعنى: **جوهر حامل** "الذي وهو بهاء مجده (شعاع مجده) ورسم **جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته** Χαρακτὴρ τῆς ὑποστάσεως αὐτοῦ" هنا جاءت كلمة **هيبوستاسيس** بمعنى: "جوهر حامل كل شيء" وهو المعنى المنصب الآن في الاستخدام اللاهوتي على كلمة οὐσία أو (Essentia).

ولكن لمّا جاء اللاهوتيون المتأخّرون استخدموا الأُوسيّا في المعنى السابق، وخصّصوا كلمة هيبوستاسيس لتوضيح الصفات المميِّزة لهذا الوجود أو الكيان أي الأقانيم (الأشخاص Personae) في الثالوث!

ومن التعبيرات الكتابية التي توضّح لنا أعمق وأعمق معنى الهيبوستاسيس ما جاء في سفر العبرانيين (١١: ١): «الإيمان هو الثقة (هيبوستاسيس) بما يُرجى»!!

«ἐλπιζομένων ὑπόστασις πραγμάτων».

(75) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 117.

(76) Ibid. p. 336.

وهنا كلمة الهيبوستاسيس تُرجمت "**الثقة**" إنما في اختصار مُخِل، فهي تعني تماماً: "**جوهر أو أساس**" الأشياء التي تُرجى! لذلك ينبغي أن تعدَّل الترجمة لتحمل هذا المعنى الرائع: (**الإيمان هو جوهر أو أساس الأمور التي تُرجى**). أي الإيمان هو الشيء الذي يقف أو يقوم تحت الرجاء ويحمله.

وهنا ضمناً يتضح لنا جدًّا المعنى العميق لكلمة "هيبوستاسيس" عند الرسول نفسه! فالرسول يحدِّد مفهوم "**هيبوستاسيس**": أنه القوَّام (أو الأقنوم) الذي فيه تصير الأمور غير الحاصلة الآن والتي نترجاها، حاصلة كحقائق ونتعامل معها كأنها واقعة.

ونفس المعنى هيبوستاسيس = "**ثقة**" تتكرَّر في عب ٣:١٤، ٢كو ٩:٤، ١١:١٧.

وكان أوريجانوس أول مَنْ بدأ يميِّز المعنى بين (الأقنوم) الهيبوستاسيس و(الجوهر) الأُوسيا بغاية الوضوح في العالم كله[٧٧]. وبينما كان استعمال "**الهيبوستاسيس**" بمعنى "**الأُوسيا**" (خطأ) في كنائس العالم وبالأخص في روما راسخاً حتى إلى بعد القرن الخامس، كانت مدرسة الإسكندرية واللاهوت الإسكندري بوجه عام يفرِّق بقوة ووضوح بين الاصطلاحين. فالأجزاء المتبقية من كتابات البابا ديونيسيوس الإسكندري في رسائله لسميِّه بابا روما توضِّح أنه كان يستخدم الثلاثة أقانيم (هيبوستاسيس τρεῖς ὑπόστασις) لا كأنه يستحدثها بل كتقليد لاهوتي راسخ[٧٨]، حيث كان مفهوم الهيبوستاسيس هو نفس البرسونا Personae عند اللاتين وتفيد الهيأة form = εἶδος «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيأته εἶδος» (يو ٥:٣٧). وقد جاءت هذه الكلمة مرادفة تماماً للبروسوبون.

وقد استخدم أثناسيوس كلمة εἶδος بمعنى الأقنوم هيبوستاسيس[٧٩] وذلك في شرحه على سفر التكوين ٣٢:٣٠ (السبعينية): «فدعا يعقوب اسم المكان **فنيئيل** أي = **وجه الرب** εἶδος θεοῦ قائلاً: لأني **نظرت الله** "وجهاً لوجه θεὸν πρόσωπον πρὸς πρόσωπον"».

وهذا التعبير "**وجه الرب**" اعتبره القديس أثناسيوس من ظهورات "**الابن**"[٨٠] وهكذا استخدمها أثناسيوس كاصطلاح مساوي لكلمة εἰκών.

(77) Origen, *in John* ii. 6, 10-75.
(78) Quoted by St. Basil, *de Sp. Sanct.*, 72.
(79) Athanas., *Or.* 1. 20, cited by Newman, 444.
(80) Ibid.

ومن الآباء اللاهوتيين الإسكندريين الذين أوضحوا بكل دقة مفهوم الثلاثة أقانيم في الجوهر الواحد ديديموس الضرير العلاّمة اللاهوتي المشهور(٨١).

ونجد في كتابات البابا ألكسندروس ما يؤكِّد رسوخ عقيدة الثلاثة أقانيم الهيبوستاسيس في الله الواحد في رده على الأريوسيين، وذلك في خطابه إلى ألكسندروس بطريرك القسطنطينية حيث ذكر في خطابه الأقانيم الثلاثة بمعنى الهيبوستاسيس أكثر من خمس مرَّات.

ولكن لاهوت الإسكندرية القائم على التفريق بين الهيبوستاسيس والأُوسيا لم يكن قد نضج في خارج الإسكندرية قط، إذ بقيت كلمة الهيبوستاسيس (أقنوم) محصورة عند لاهوتيي آسيا الصغرى وروما في معنى فلسفي ضيِّق لا يخرج عن مفهوم الأُوسيا (جوهر). وهذا الاتجاه الضعيف نجده يسود على مقررات مجمع نيقية نفسه، حيث يقرِّر المجمع بحروم قاطعة أن الأُوسيا οὐσία (جوهر) تساوي الهيبوستاسيس ὑπόστασις (أقنوم) كمرادف بدون أي تفريق، وبلعها الإسكندريون على أشد المضض(٨٢).

ولكن الأمر الذي ارتبك فيه العلماء اللاهوتيون السابقون والمعاصرون، والذين كان يتحتَّم عليهم أن يدركوه، هو أن الإسكندرية لما أدركت خبث الأريوسيين في الانتفاع باصطلاح الثلاثة أقانيم لمحاولات الفصل في اللاهوت - هذا من جهة - ومن جهة أخرى لما أدركت عدم فهم اللاهوتيين خاصة في الغرب وبالأخص في روما لمعنى الهيبوستاسيس الصحيح إذ جعلوه مرادفاً للأوسيا (الجوهر)، بدأوا في كتاباتهم الموجَّهة إليهم أن يتمشُّوا مع هؤلاء ويساووا الأوسيا بالهيبوستاسيس حسب إدراك الغرب وفهمهم وهذا أمر تحتِّمه الظروف فقط.

وهذه الحقيقة تبدو في غاية الوضوح في كتابات أثناسيوس، إذ بينما في جميع كتاباته الخاصة(٨٣) يؤكِّد وبصورة قاطعة ودائمة على وجود ثلاثة أقانيم "هيبوستاسيس" وجوهر واحد "أُوسيا" حسب تقليد اللاهوت الإسكندري، يعود في كتاباته العامة الموجَّهة ضد الأريوسيين والموجَّهة للغرب يقول بالهيبوستاسيس الواحد كمرادف لاصطلاح الأُوسيا دون تفريق، لأن الأريوسيين انتهزوا فرصة تعبير اصطلاح الأقنوم = **الهيبوستاسيس** للتمييز بين الآب والابن والروح القدس في الجوهر الواحد كلٌ

(81) Didymus, *De Trin.*, 1. 18 etc., cited by Newman, 436.

(82) Hahn, *The Creed,* p. 209, cited by Beth Bak. p. 237.

(83) Ibid. *De Virginitate* (1) *De incarn.*

منهم على حدة (من جهة العمل أو الاختصاص: الآب في الأبوَّة والابن في البنوَّة والروح القدس في التقديس)، وامتدوا بالاصطلاح ليخرج عن مفهوم الجوهر الواحد أي بتقسيم الجوهر إلى جوهر أوَّلي غير مخلوق للآب وآخر مخلوق للابن، فأفسدوا **مفهوم الهيبوستاسيس الأصيل كونه تعبيراً عن تمييز في صفات الجوهر الواحد دون الخروج عليه أو الخروج منه أو الانفصال عنه.**

فالهيبوستاسيس والجوهر لا ينفصلان قط، لذلك فإن الثلاثة أقانيم (الهيبوستاسيس) لا تنفصل قط عن بعضها ولا عن الجوهر الواحد الذي لها.

وهكذا بسبب خبث الأريوسيين أحجم أثناسيوس في كتاباته الدفاعية ضد الأريوسيين عن ذكر الهيبوستاسيس، وإن ذكره فهو يردفه مباشرة بالأُوسيا أي الجوهر، حتى لا يعطي فرصة للأريوسيين لإساءة استخدام الهيبوستاسيس في غير معناه الأرثوذكسي. إلى أن جاء مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢م، وأعلن أثناسيوس صراحة على العالم كله أنه يصح الأخذ **بلفظ** الثلاثة أقانيم **هيبوستاسيس بمعنى:** «البِرْسُونا personae»، أو **بلفظ الهيبوستاسيس بمعنى الجوهر الواحد لله** حسب الرأي اللاتيني دون أي تفريق أو الخروج على العقيدة الأرثوذكسية اعتماداً على المعنى دون اللفظ، أي طالما يكون المعنى المقصود واضحاً أن **الهيبوستاسيس هو الجوهر** أو اللاهوت أي أن الهيبوستاسيس الواحد يحمل معنى جوهر الآب والابن والروح القدس هم الثلاثة كثلاثة بِرْسُونون أو ثلاثة هيآت εἶδον في واحد والثلاثة يتحتَّم أن يكونوا بآن واحد متميِّزين ومتساوين ولكن غير منفصلين - الله الواحد بجوهر واحد(٨٤).

وكل ذلك معروف جيداً أن أثناسيوس إنما صنعه لكي يستميل جماعة **"النصف أريوسيين"** وكل الذين أُعثروا من كلمة "الهوموؤوسيوس" إلى حظيرة الأرثوذكسية، وقد نجح بالفعل في ذلك وعادوا جميعاً.

---

(٨٤) وقد بلغ الاختلاف في فهم الشرق للغرب أقصاه بسبب استخدام الإسكندرية لفظة "الهيبوستاسيس" للدلالة على ثلاثة أقانيم في اللاهوت واستخدام اللاتين الثلاثة أشخاص personae أن هاجم الشرق الغرب واتهم اللاتين بالسابيلية إذ اشتمُّوا من كلمة ثلاثة "وجوه personae" للجوهر الواحد ما قصده سابيليوس من أن الله الواحد ظهر في ثلاثة "أسماء" أو ظهورات متتابعة.

كما هاجم الغرب الشرق واتهم (الإسكندرية) إذ اشتمُّوا من كلمة ثلاثة هيبوستاسيس (أقانيم) رائحة الأريوسية أي فصل الجوهر. وهكذا أصبح لزاماً على الكنيسة كلها أن تتعقَّل في الأحكام على إيمان ومعتقدات بعضها البعض لأن المعنى والشرح هو الذي يعوَّل عليه في النهاية وليس اللفظ أو الاصطلاح. See Prestige, *op. cit.*, pp. 185-197.

وماذا تمَّ بعد ذلك في الهيبوستاسيس؟ **لقد اتفق العالم كله غرباً وشرقاً على الأخذ بلاهوت الإسكندرية الأصيل، وقالوا بما قاله آباء الإسكندرية الأوَّلون ديونيسيوس وأوريجانوس وديديموس وألكسندروس وأثناسيوس بالثلاثة هيبوستاسيس، وهكذا سادت عقيدة الثلاثة أقانيم والجوهر الواحد في الكنيسة كلها، وقد بدأ هذا الزحف من خارج الإسكندرية بواسطة آباء كبادوكيا وبالأخص باسيليوس لتدعيم لاهوت الإسكندرية الرصين في ما يخص أعقد مفهوم لاهوتي أربك العقلية الغربية آنذاك، وصار القول بالجوهر الواحد** μία οὐσία **وثلاثة أقانيم** τρεῖς ὑπόστασις **أو ثلاثة أقانيم في (ἐν) جوهر واحد، هو قول الكنيسة الجامعة كلها من مشارق الشمس إلى مغاربها: الله الواحد الكائن في ثلاثة أقانيم أزلية!!** وهذا أثبت بالدليل القاطع أن رؤية اللاهوتيين الإسكندريين كانت واضحة وكانت أصيلة وسليمة في ما يختص بالهيبوستاسيس والأُوسيا أي الثلاثة أقانيم في جوهر واحد ـ منذ القرن الثاني ـ وهي التي بالنهاية وفي أواخر القرن الخامس غلبت وسادت!!

٥ ـ الصفات الذاتية الخاصة بعلاقة الابن بالآب والابن بالخليقة

(أ) علاقة الابن بالآب:

١ ـ مولود غير مخلوق γέννητος ἀγένητος

٢ ـ الابن الوحيد μονογενής

(ب) علاقة الابن بالخليقة:

البكر πρωτότοκος

لقد وضعنا الصفتين أعلاه مشروحتين باختصار وجاهزتين أمام القارئ، ليدرك بسرعة ووضوح الفارق الكبير بين الصفتين، أي الأُولى تختص بجوهر الآب والثانية تختص بجوهر البشرية. هذا الفارق لم يكن مفهوماً ولا موجوداً لدى كثير من اللاهوتيين. وغياب هذا الفارق هو الذي أعثر البعض وأخذه الأريوسيون حجة للتدليل على أن الابن مخلوق.

ولكن شكراً للاهوت الإسكندري، ولأثناسيوس بصورة خاصة، لأنه هو الذي أوضح هذا الفارق بسهولة ويُسْر شديدين حسب التقليد الإسكندري الذي استلمه والذي لم يَحِد عنه.

ولكن يلزم على دارس اللاهوت أن ينتبه أن علماء الكنيسة الأولين سواء في الشرق (يوستين، تاتيان، ثيئوفيلس، ميثوديوس)، أو في الغرب (هيبوليتس، ترتليان، نوفاتيان، لكتانتيوس، زينو، فكتورينوس)، قد انحرفوا في فهم معنى كلمة الميلاد أي كلمة: "**مولود من الآب**"، وبالتالي كلمة: **الابن الوحيد**، إذ ربطوا بين ميلاد الابن جوهرياً genesis وبين عملية الخلق التي اضطلع بها الابن. ومثال لذلك الخطأ نقرأ ليوستينوس: [لقد وُلد الابن **عندما** خلق الله الأشياء وزيَّنها بواسطته](٨٥). وهكذا اختل مفهوم الميلاد الجوهري عندما ربطه يوستينوس زمنياً بضرورة الخلق.

كما أخطأ ترتليان جدًّا ومهَّد للأريوسية بقوله: [لقد كان هناك زمن كان فيه الابن غير موجود!؟](٨٦). وهذا الشطط الخطير في تفكير ترتليان كان سببه فهم الميلاد genesis على مستوى شيء عادي أو زمني حسب المنطق البشري، باعتبار أن كلمة "الابن" تستلزم في الحال فعل ميلاد، وفعل الميلاد بالتالي هو فعل زمني بحسب سذاجة المنطق البشري، وهذه تُعتبر زلَّة عقلية لا تُغفر لترتليان، فالابن والآب في الله هما ذات واحدة وجوهر واحد لا دخل للزمن ولا لأفعال الزمن فيهما. أمَّا الولادة الجوهرية التي نُسبت للابن فهي تعبير لاهوتي لتأمين صلة مفهوم البنوَّة التي للابن أنها ليست بالنعمة أو الانتساب أو القوة أو الإرادة، بل بنوَّة جوهرية، أي الابن من جوهر الآب، لا يشارك المسيح فيها بنوَّةٌ أخرى من أي نوع، لذلك قيل إن "الابن مولود من الآب" مجازاً بحسب اللفظ، فاللاهوت لا يجوز فيه الولودة على الإطلاق بالمفهوم البشري الزمني، فالله لا يلد ولا يولد بحسب المفهوم المادي أو الزمني أو البشري، بل هو كما قلنا استخدام مجازي للكلمة كميلاد النور من النور وميلاد الكلمة من العقل.

واللاهوتيون التجأوا اضطراراً لهذا اللفظ (الميلاد)، أي الابن مولود من جوهر الآب، لا ليصفوا عملية ميلاد تمَّت في الزمن ولا حتى قبل الزمن، ولا حتى قبل كل الدهور كما قال أوريجانوس، بل ليدافعوا أولاً وأساساً عن الصلة الجوهرية التي بين الابن والآب ويدافعوا عن بنوَّة المسيح للآب أنها خاصة جدًّا، ذاتية جدًّا وجوهرية تماماً لا تدانيه فيها أي بنوَّة أخرى. وهذا الدفاع أو هذه الحقيقة قائمة أصلاً وأساساً على تعريف الإنجيل بماهية طبيعة الابن بالنسبة للآب:

+ «ورأينا مجده مجدًا كما "**لوحيد**" Only begotten μονογενοῦς من الآب.» (يو ١: ١٤)

+ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه "**الوحيد**" μονογενῆ.» (يو ٣: ١٦)

---

(85) Justin, *Ap.* ii, 6, cited by Newman, *op. cit.,* p. 417.

(86) Tertullian, *Adv. Herm.* 3, cited by Newman, *op. cit.,* p. 417.

+ «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن **باسم ابن الله "الوحيد"** μονογενοῦς.» (يو ٣:١٨)

+ «أرسل ابنه **"الوحيد"** μονογενῆ إلى العالم.» (١يو ٤:٩)

ومن الأخطاء والشطط الذي وقع فيه كثير من العلماء الأولين هو عدم القدرة على التوفيق بين واقع "اللوغس" الكلمة باعتباره أزلياً وبين **"الابن"**، عندما دخل في روعهم أن البنوَّة تستدعي ميلاداً، والميلاد يستدعي فعلاً، والفعل حدثاً، والحدث لا وجود له قبل أن يقع، ولهذا حاولوا التوفيق بين وصف المسيح باعتباره "اللوغس" كلمة الله والمسيح باعتباره ابن الله، فقالوا خطأ إنه كلوغس هو أزلي كامل وكابن ليس كذلك!؟

فيقول هيبوليتس متورِّطاً في هذا الخطأ: [بدون الجسد لم يكن الابن كاملاً، ولكن كلوغس (كلمته) فهو كامل، ... فهو كابن وحيد ... دعاه الله "ابناً" باعتبار أنه سيصير كذلك!؟](٨٧)، ولكن دون أن يتطرَّق إلى ذهن هيبوليتس قط أن الابن مخلوق كما توقَّح الأريوسيون.

ولكن هذا الشطط أيضاً كان من الأمور التي مهَّدت للأريوسية وأعطتها فرصة للقول بأن الابن مخلوق!! ثم تدَّعي في ذلك، بكل تصلُّب ووقاحة أنها تعتمد على التقليد!

من أجل هذا التفت آباء نيقية إلى هذا المنفذ الخطير ووضعوا اصطلاحاً لاهوتياً ليحكم العلاقة بين الآب والابن في حدود البنوَّة القائمة في صميم الجوهر الواحد والذات الواحدة الكاملة لله الواحد، فقالوا إن **"الابن مولود غير مخلوق"**.

ونعود ونكرِّر للقارئ أن كلمة "مولود" اصطلاح لاهوتي، بحسب أقصى الإدراك البشري، يصف القيام الدائم للآب في الابن والابن في الآب، دون أي زمن سابق أو لاحق لوجود أيهما في الآخر. فالآب لم يكن قط بدون ابن ولا الابن كان قط بدون آب، كما أن الآب لم يكن سابقاً على الابن ولا الابن لاحقاً للآب قط بل "كيان واحد للآب والابن معاً، في جوهر اللاهوت الواحد"؛ فقال الآباء إن الابن غير مخلوق ἀγένητος.

ويُلاحَظ في اللغة اليونانية أن مولود هي γέννητος وغير مخلوق ἀγένητος فتكرار حرف ν هو الذي يفرِّق بين الولادة والخلقة، في أصل الكلمة اليونانية. وبسبب هذا حصل التباس كثير جدًّا

(87) Hippolytus, *Contra noet.* 15, cited by Newman, *op. cit.*, p. 417.

في النساخة لأقوال الآباء، ومن هنا حدث التضارب الكبير في الشرح والتعليق على مبادئ الآباء اللاهوتيين، وهذا أمر يؤسف له ولا حيلة فيه(٨٨).

بل وكثير من الآباء لم يفرِّقوا أصلاً بين γένητος و γέννητος. فمعظم الآباء قبل نيقية استخدموا ἀγέννητος على معنيين معاً، فقالوا إن الآب ἀγέννητος بمعنى أنه **غير مولود**، وفي نفس الوقت استخدموا نفس اللفظ للدلالة على صفة الابن أنه **غير مخلوق**(٨٩)!!

ولكن المعنى الصحيح لكلمة ἀγένητος هي **"غير مخلوق" بمعنى: "أزلي ليس له علة ولا ابتداء"، وهي تصلح تماماً للآب والابن**. كذلك المعنى الصحيح لكلمة ἀγέννητος **هي "غير مولود" وهي تصح للآب فقط.**

ولقد كان لهذه الكلمة دور كبير في النزاع الأريوسي، لأنهم قالوا بالقول الخطأ لبعض الآباء السابقين بأن الكلمتين بمعنى واحد، وعليه قالوا ما لم يقله هؤلاء الآباء بأن الابن مولود ومخلوق(٩٠)، ولهذا لم يشأ الآباء المجتمعون في نيقية أن يدخلوا في تفاصيل تحليل هاتين الكلمتين آنذاك، إلى أن انكسرت حدة الأريوسية، فبدأ القديس أثناسيوس يوضِّح ويفسِّر ويشرح(٩١).

٦ - الفارق الكبير والخطير بين:

وحيد الجنس: Μονογενής
والبكر: Πρωτότοκος

لم تكن هاتان الصفتان اللتان للمسيح موضع نزاع إلاَّ عند الأريوسيين. فواضح غاية الوضوح أن الصفة الأُولى تفيد العلاقة الداخلية الجوهرية للابن مع الآب، أمَّا الثانية فواضح أيضاً أنها تخص أولاً ميلاده من العذراء؛ وثانياً دخوله إلى الخليقة حاملاً جسد إنسان ليتمِّم فيه الفداء، ليرفع الخليقة كلها من حالة العبودية والفساد إلى حرية أولاد الله، جاعلاً للخليقة ميلاداً جديداً **فيه** وبواسطته،

(88) Lightfoot, *Ignatius,* vol. ii, p. 90, cited by Beth. Bak., p. 122.
(89) Athanas., in year 359 (*de Syn.* 46, 47) cited by Beth. Bak. p.122, note 1.
(90) Epiphan., *Adv. Haer.*, lxiv, 8, cited by Beth. Bak., *op. cit.,* note 1.
(91) Epiphan., *Adv. Haer.*, lxxiii, 19.

كآدم الجديد الثاني، صائراً هو الأول - البكر - بالقيامة (الميلاد الثاني) من الأموات. لهذا اعتُبر **بكر الخليقة كلها، وبكر كل خليقة، وبكر الخليقة الجديدة!**

فكلمة بكر Πρωτότοκος تفيد هنا العلاقة الخارجية للابن مع الخليقة، فالبكر صفة لا علاقة لها بالآب، ولكن علاقتها مقصورة مع الخليقة والزمن.

وهذا يوضِّحه القديس أثناسيوس هكذا:

[لم يُكتب قط في الأسفار أن الابن "**بكر من الله**" أو "**خليقة من الله**" ولكن كُتب فقط أنه: "**الوحيد**" و"**الابن**" و"**الكلمة**" و"**الحكمة**"، وهي الصفات التي توضِّح علاقته الخاصة بالآب، ...

وأيضاً من المستحيل أن تكون هاتان الصفتان "بكر، ووحيد" إلاَّ للتعبير عن علاقتين مختلفتين، فابن "**وحيد**" من جهة الجنس (القائم والدائم فيه)، أمَّا "**بكر**" **فصفة (عارضة) تختص بتنازله وتفضُّله**.](٩٢)

ويشدِّد القديس أثناسيوس أن صفة "**الوحيد**" هي كاملة في ذاتها ومطلقة، وهي ما كان يحلو لجميع لاهوتيي الإسكندرية الأوائل أن يُكنُّوا بها عن المسيح مباشرة دون ذكر كلمة "ابن"، فكانوا يكتفون بالتعبير عن المسيح بكلمة "**الوحيد**"، حتى صار هذا مميِّزاً للفكر الإسكندري وخاصة في الكتابات الليتورجية مثل "قدَّاس سيرابيون".

وإليك تعبير القديس أثناسيوس عن مفهوم الإسكندرية عن صفة الوحيد:

[**إن صفة الوحيد تعتبر هي المثلى في التعبير عن "اللوغس" الكلمة بمعنى أنه لا يوجد "لوغس" آخر وحكمة آخر بل هو وحده الابن الخاص للآب، ليست بنوَّته (للآب) ذات أي صلة أو أساس أو علة أخرى، ولكن بنوَّته هي صفة مطلقة** (– absolutely ἀπολελυμένος) **لأنه كُتب عنها «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب»**.](٩٣)

والقديس أثناسيوس يعني بكلامه هذا أن البنوَّة هنا هي حالة قائمة ودائمة وثابتة في الآب والآب فيها، ذات واحدة، حيث البنوَّة ليست مجرَّد اصطلاح لاهوتي بل هي حالة في صميم عمق الكيان

(92) Athanas., *Disourse against the Ar.* II, chapter 21 (62).

(93) Ibid.

لا غنى عنها، تتعلّق بكيان الذات الإلهية وجوهرها، تقوم على أساس الحب المطلق الشديد والمتبادل، وهذا الأمر الذي يُستشف بسهولة من كلمة «**في حضن الآب**» كما يقول الرب نفسه بلغتنا أن «الآب يحب الابن»، «والابن يحب الآب»(٩٤).

ويعود أثناسيوس يفرِّق بين "الوحيد" و"البكر" هكذا:

[أمَّا كلمة "البكر" فهي ذات علاقة متصلة بالخليقة التي يعبِّر عنها بولس الرسول قائلاً: «الذي هو صورة الله غير المنظور "**بكر كل الخليقة**" **فإنه فيه خُلِقَ الكل ما في السموات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين (سمائية كلها) الكل به وله قد خُلق**، الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل.» (كو ١:١٥-١٧)

فإذا كانت كل خليقة خُلقت **فيه** وهو قبل كل خليقة، إذن فهو ليس مخلوقاً بل الخالق لكل الخلائق.

إذن فليس لكونه في الآب قيل عنه إنه "بكر"، ولكن قيل ذلك لأن كل الخليقة به ظهرت للوجود، كما أنه لم ينقص عمَّا كان قبل الخلق إذ كان هو الابن الوحيد، وكان هو الكلمة مع الله وكان الكلمة الله (إلهاً) ...

ولكن هذا لا يريد أن يفهمه الأريوسيون الكفرة إذ يقولون: (فإذا كان هو بكر كل خليقة فواضح أنه هو أيضاً يكون واحداً من هذه الخليقة). هذا هراء وكلام بلا منطق ولا معنى لأنه إذ هو ببساطة بكر كل خليقة يتحتَّم أن يكون هو غير كل هذه الخليقة ... فمثلاً قيل إنه هو «بكر من الأموات»، هذا يعني أن القيامة من الأموات بدأت فيه هو وتمَّت بعده.](٩٥)

ويقصد أثناسيوس بهذا أن «بكر من الأموات» لا تعني أنه كان كأي واحد من الذين ماتوا بل أنه لبس الموت كاستعارة ليزيل الموت ويُبيده، فلمَّا قام من الموت حُسب بكراً أي أول القائمين من الموت، مع أن الموت لم يَسُدْ عليه ولا انصبغ بصبغة الموت التي هي الفساد. كذلك تماماً يريد أثناسيوس أن يقول إنه «**بكر كل خليقة**» لأنه حمل الخليقة كلها في نفسه ولبسها كما يلبس الإنسان الرداء دون أن يكون هو رداء، وكما لبس الموت دون أن ينفذ الموت إلى جوهره ليفسده.

(94) Ibid.
(95) Ibid, 63.

هكذا كان **الابن يحمل الخليقة في نفسه "فيه خلق الكل"**، فصار هو بكر كل خليقة لأنها تصوَّرت أول ما تصوَّرت فيه ـ «مخلوقين فيه قبل تأسيس العالم» ـ فصار هو حاملها؛ بل وفي النهاية كشف عن مدى ارتباطه بها وارتباطها به، إذ أخذ منها هيئة وصورة لنفسه ليظهر بها: «صار في الهيئة كإنسان»، بل وأخذ منها جسداً يتراءى فيه ويحيا ويموت ويقوم به: «إذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما» (عب ٢: ١٤)، ليوضِّح مدى حبه وتعلُّقه بخليقته: «هكذا أحب الله العالم» (يو ٣: ١٦)، لذلك حُسب بكراً للخليقة كأعظم تعبير يمكن أن يعبَّر به عن تنازل الله لينوب شخصياً عن الخليقة، حاملاً كل ضعفها في نفسه، بدافع الحب الفائق للعقل، وكأعمق وأخطر وسيلة يمكن أن يقترب بها نحو الخليقة حتى الالتحام ليرتفع بها دون أن يصير مخلوقاً!!

فكما صار بكراً من الأموات ليبيد الموت ويرفع الأموات ليبلغوا الحياة الأبدية مع الله ـ فيه ـ ولا يسود عليهم الموت قط، هكذا صار منذ البدء بكر كل خليقة في السماء والأرض عندما تصوَّرت فيه، قبل أن تستمد الخليقة منه كيانها وقيامها فيه!! وهذه الحقيقة العظمى صارت هي الضمان الفائق الحد الذي يؤهِّلها حتماً لكي ترتفع بواسطته فوق مستوى عجزها لتتأهَّل للوجود الدائم مع الله ـ فيه ـ هذا الأمر الذي أكمله بالفعل بالقيامة من الأموات، إذ رفع كل الخليقة البشرية مرَّة واحدة من حال العبودية والفساد والموت والتراب إلى خليقة جديدة سماوية تحيا حياة أبدية فيه.

إذن فحينما نسمع عن الابن أنه صار بكر كل خليقة في السماء والأرض، وعلى وجه خصوصي "بكر الإنسان"، ينبغي أن ندرك في الحال أن هذه هي وسيلة التنازل منذ البدء حسب التدبير الإلهي من قبل إنشاء العالم، التي بها ضمن الله دوام ارتفاع الخليقة وامتدادها المستمر إلى فوق ونموها الدائم في الحق لبلوغ منتهى قصد الله من نحوها؛ بل ونفهم تماماً أننا قد ضمنا نحن أيضاً، بسبب أن المسيح صار بكراً لنا، أي حاملاً خليقتنا الجديدة في نفسه، أننا لن نفقد كياننا ونمونا وتغييرنا المستمر حسب قصد الله من نحو خلاصنا وتبنِّينا مهما كانت الظروف والمعاكسات، لأننا مصوَّرون **فيه** وهو قائم أمام الله كبكر لنا يمثِّلنا ويتشفَّع عنا، وهو متصوِّر فينا كنموذج حيّ يملأنا فرحاً وعزاءً وسروراً ورجاءً ودالة أمام الله الآب بلا خوف. لذلك قيل: «كل مَنْ اعتمد قد لبس المسيح»، لماذا؟ لأن المسيح بكر لنا ونموذج قداسة وتقديس، فكما لبس المسيح بشريتنا لبسنا نحن صفاته اللاهوتية، لا من جهة الشكل بل في عمق كياننا ووجودنا وحركتنا في كل حياتنا بل وفي موتنا. لذلك معلوم لنا جيِّداً وبكل تأكيد أننا غلبنا الموت به فصرنا أبناء قيامة فيه. هذا هو المعنى العميق السرِّي المخفي في صفة المسيح أنه هو **«بكر كل خليقة»** أي الذي تجد فيه كل خليقة

أقصى ما يمكن أن تناله أو تترجّاه بلا حدود وبلا نهاية كنموذج أعلى حي إلى عمق الله: «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله، **ولبستم الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة حسب صورة خالقه ... المسيح الكل في الكل**» (كو ٣: ٩-١١)، «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة **نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح.**» (٢كو ٣:١٨)

أمَّا كل هذه القدرات الهائلة التي للابن فهي بسبب أنه **من جهة** هو الابن الوحيد صورة ا لله غير المنظور ورسم جوهره، الواحد مع الآب في القوة والمجد والكرامة والسلطان، **ومن جهة** أخرى: هو بكر كل الخليقة الحامل لصورتها بكل ضعفها وعوزها وكل كيانها وغايتها: «الكل به وله قد خُلق» (كو ١: ١٦)، من أجل هذا صار كل تنازل لابن ا لله من نحو الخليقة هو نفسه ضمان أكيد للسمو بها.

وهكذا كان أثناسيوس واضحاً كل الوضوح كأول لاهوتي في العالم يفرِّق بكل حكمة وفطنة بين صفة "**الوحيد**" وصفة "**البكر**" بحسب التقليد الإسكندري، ويربط بينهما ليخرج بتوضيح أكثر وأكثر لكل منهما.

٧ - "الهومووسيوس"
- مساوٍ للآب في الجوهر -

كان الآباء الأساقفة في مجمع نيقية على استعداد تام أن يستجيبوا لنداء خاص نودي به في وسطهم بأن لا يستخدموا في التحديدات الوصفية غير آيات من الأسفار المقدَّسة.

ولكن، وبعد محاولات عديدة، لاحظوا أنه أمكن للأريوسيين أن يأوِّلوا معاني كل الآيات لتخدم أغراضهم - كما جاء على لسان القديس أثناسيوس في صفحة ٢٠٩.

وعلى هذا الأساس اضطر الآباء إلى استخدام تحديد وصفي لا يمكن تأويله ليخدم أغراض الأريوسيين، فكان الاصطلاح ὁμοούσιος.

والمعنى المحدَّد الذي قصده المجمع من هذا الاصطلاح، جاء واضحاً في كلام أثناسيوس:

[فالابن ليس فقط يشبه الآب ولكنه إذ هو صورة الآب فهو مساوٍ للآب وأنه من الآب، على أن "التشابه" في معنى الهومووسيوس وكذلك عدم التغيير immutability تختلف تماماً عمَّا يمكن أن ينسب لأي بشر، لأن كل هذه الصفات في البشرية تُكتسب وتوجد تبعاً

لتكميلنا وصايا الله، كذلك أراد المجمع أن يوضِّح بهذا الاصطلاح أن هذا الميلاد يختلف تماماً عمَّا للبشر، فالابن ليس هو مشابه للآب فقط ولكن غير مفترق عن طبيعة الآب، فالابن والآب واحد مساوي كما قال المسيح نفسه. فالكلمة قائم دائم في الآب والآب قائم ودائم في الابن كالشمس وضيائها وهما غير منفصلين.](٩٦)

ولقد اختار آباء نيقية هذا الاصطلاح وهو غير إنجيلي اضطراراً لدرء خطرين:

الأول بطبيعة الحال موجَّه ضد الأريوسيين، ويقصد به الآباء توضيح لاهوت المسيح مباشرة وبمنتهى الاختصار - **لأن الذي هو من جوهر الله الآب ومتساوي معه يتحتَّم أن يكون هو والآب: الله الواحد** وليس متشابهاً معه وحسب.

الثاني موجَّه ضد بدعة السابيليين الذين ينكرون شخص الابن متميِّزاً عن شخص الآب لأنهم ينكرون وجود الأقانيم جملة، وهنا أراد الآباء بكلمة الهوموؤوسيوس للابن بالنسبة للآب أن تفيد التساوي في الجوهر، وهذا يحتِّم الإيمان بوجود أقنومين متميِّزين **لأن التساوي لا يتم إلاَّ بين شخصين**. وقد استخدم أثناسيوس هذا الاصطلاح الهوموؤوسيوس للتعبير عن وحدة الروح القدس مع الآب والابن أيضاً (الرسالة إلى سيرابيون ١ :٢٧).

وكلمة الهوموؤوسيوس لها تاريخ قديم من جهة استخدامها، فقد استخدمها القديس إيرينيئوس في أربعة مواضع في الكتابات التي وصلتنا عنه، والشهيد بامفيليوس استشهد بها موضِّحاً أن أوريجانوس استخدمها في نفس المعنى الذي استخدمه فيها مجمع نيقية، فقد استشهد بامفيليوس بما قاله أوريجانوس في شرحه للرسالة إلى العبرانيين بذات الكلمة "هوموؤوسيوس"، موضِّحاً أنها تختص بكيان الآب والابن هكذا:

[وهذا التشابه يوضِّح بكل صفاء أن الابن مشترك مع الآب في الجوهر، لأن ما ينبثق (أو يولد) من الجوهر هو مساوي له وواحد معه "**هوموؤوسيوس**" بكل تأكيد!! (كالبخار من الماء).](٩٧)

[لا توجد أي فوارق البتة أو أي عدم تشابه من أي نوع بين الابن والآب.](٩٨)

(96) Athanas. *De Decretis,* chapter 5, 20.

(97) Pamphil., *Apclogy for Origen*, C. 5, tr. Rufinus 8 & (Migne 14-1308); quoted by Beth. Bak., *op. cit.*, p. 147 n. 4.

(98) Origen, *De Princip*. I. 212. Ibid.

وترتليان استخدم اصطلاحاً موازياً لها تماماً باللاتينية (Unius Substantiae).

وقد صارت الهوموؤوسيوس اصطلاحاً متداولاً بين الأرثوذكس على مدى خمسين سنة في ما قبل نيقية، ولكن الذي جعل أساقفة آسيا الصغرى يجزعون من هذا الاصطلاح في ما بعد هو أن سابيليوس كان قد استخدمه في معنى منحرف.

ملخّص الفصل الأول

١ ـ الصراع اللاهوتي ضد الأريوسية

- النزاع الأريوسي: كان يدور حول لاهوت المسيح ووحدة الثالوث. اكتُشفت هذه الهرطقة وأُدينت سنة ٣٢٥ في مجمع نيقية، وعُزلت وصارت شيعة خارجة عن الكنيسة بوضوح سنة ٣٨١ في مجمع القسطنطينية.
- الإيمان الأرثوذكسي بالثالوث يقوم على وصية الرب: «عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». وظلّت الكنيسة تعيش على هذا القانون وتسلّمه للمسيحيين الجدد دون صعوبة، بسبب حرارة الإيمان وفاعليته في حياة المؤمنين الجدد.
- يُرجع العلماء والمؤرِّخون الذين أرَّخوا للانشقاق الأريوسي، الهرطقة الأريوسية إمَّا إلى أصول يهودية، وإمَّا إلى أصول وثنية، أو إلى خليط منهما.

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة الأُولى

١ ـ المسيحية تقوم على عقيدة وحدانية الله ولاهوت المسيح ككلمة الله، فالله واحد أزلي بكلمته وروحه.

٢ ـ الإيمان بلاهوت المسيح يتبرهن من واقع التغيير الجوهري الذي كان يظهر على المسيحيين الجدد بمجرَّد قبولهم الروح القدس بالإيمان والعماد لغفران الخطايا وتجديد الخلقة الداخلية، التي يحسها الإنسان بقلبه فيؤمن بلاهوت المسيح بالروح القدس الساكن فيه، بدون واسطة أو شرح.

٣ ـ كان لاهوت آباء الكنيسة الأُولى لاهوت تسبيح وإنشاد ومديح واعتراف، وكانت

رسالتهم فقط تتلخص في توصيل هـذا الإيمان الرسولي، كحياة وكحقيقة حيَّة وفعَّالة للأجيال اللاحقة، وليس تحليله أو شرحه.

٤ ـ لا يوجد أي تعارض بين تألُّم المسيح على الصليب وبين حقيقة لاهوته، فالألم هو العنصر الذي أكمل به المسيح المتجسِّد الفداء والكفَّارة، ولولا أنه إله لما صارت آلامه الجسدية للفداء والخلاص.

٥ ـ ولكن في مواجهة المتشكِّكين والمقاومين، خرجت الكنيسة مرغمة من دور التسليم السرِّي إلى دور ضرورة تقديم تفسير علني منطقي.

+ ونجحت الكنيسة، معتمدة على صدق وأصالة الحق الإلهي المبني عليه إيمانها، فأملى الروح القدس ووجَّه كل ما كتبه الآباء على مدى العصور.

وفي كل هذا كان المحكّ ليس هو التقليد فحسب، بل الأسفار المقدَّسة التي كانت هي المقياس الذي عليه يُقاس كل مقالة لقائل أو شرح لشارح أو سلوك لمبتدع.

٦ ـ لقد بدأت مهاجمة لاهوت المسيح من جماعة "الإبيونيم" التي قالت بأن اللاهوت في المسيح كان مجرَّد قوة مؤثِّرة.

بينما قامت جماعة "الدوسيتيين" وقالت إن التجسُّد كان خيالاً وليس حقيقة.

ثم قامت فلسفة سابيليوس (ذات أصول وثنية) وجعلت الآب والابن والروح القدس ثلاثة ظهورات متعاقبة لله الواحد.

ثم أتى أريوس أخيراً ورفع من الثالوث: الابن، والروح القدس.

+ ونجد في كل هذه البدع اتجاهات ثلاثة تحمل آثار الفلسفة الوثنية: إمَّا في نظرية تعدُّد الآلهة، أو نظرية التأليه الكلِّي للكون، أو نظرية نصف الإله، الوسيط بين الله والمادة.

٢ ـ لاهوت المسيح وصلة الابن بالآب

حقيقتان آمنت بهما الكنيسة ولم تناقشهما قط:

١ ـ المسيح هو ابن الله، والابن والآب هما ذات واحدة لله الواحد.

٢ ـ شخص المسيح كابن الله المتجسِّد، متميِّز بالبنوَّة عن شخص الآب المتميِّز بالأبوَّة، ولكنهما ذا جوهر متساوٍ.

+ صفة "كلمة الله" هي على مستوى صفة الابن، فالكلمة حينما تعمل هي استعلان العقل، وهي في العقل قبل أن تُنطق وبعد أن تُنطق. والابن هو استعلان الآب قبل التجسد وبعد التجسد.

تسمية المسيح بالابن:

- تسمية المسيح بابن الله تغطِّي الإنجيل كله.
- هذه التسمية ليست بسبب ميلاده من العذراء وتجسُّده وتأنُّسه وظهوره كإنسان، ولكن لأنه ابن الله من جهة وجوده الأزلي كواحد مع الآب، لأن الذات الكاملة يستحيل أن تكمل إلاَّ بالأبوَّة والبنوَّة معاً.
- ثم جاءت صفة "المونوجينيس" (البنوَّة الوحيدة ـ الابن الوحيد للآب) لتفيد تخصُّص علاقة الابن بالآب تخصُّصاً جوهرياً، يفيد التساوي الجوهري بين الآب والابن.
- تمَّت تصفية كل التصوُّرات عن "التدرُّج في المستويات" بين الآب والابن، كما بين الأعلى والأدنى، والسابق واللاحق، والأول والثاني، فأوضح الآباء أنهما ليسا إلهيْن بل الابن مساوٍ غير منفصل عن الآب.
- المسيح بصفته "كلمة" الله، هو الوحيد الذي يستطيع أن يبلِّغنا قصد الآب، ويشرح لنا مكنونات مشيئته الخاصة.
- "كلمة الله" هو أقنوم (شخص) مميَّز، ثابت، دائم، وحي في ذات الله.

٣ ـ الاصطلاحان الحارسان لمفهوم الوحدة الإلهية في الثالوث

"في الله"، "من الله"

- الاصطلاح الأول "في الله" يوضِّح أن الابن الأزلي قائم في وحدة الله، غير منقسم أو منفصل ولا ممتد أو خارج عن هذه الوحدة.
- أو بمعنى آخر: الأبوَّة تكمُل وترتاح في البنوَّة، والبنوَّة تكمُل وترتاح في الأبوَّة.
- لفظ "الارتياح" يعني الاحتواء في انسجام مطلق، وهذا الانسجام المطلق يعني التساوي المطلق.

فالثالوث متواجد معاً ودائماً، في تساوي وفي وحدة.

- وقد شبَّه أثناسيوس هذه العلاقة السريَّة بمَثَل النور والشعاع. فحيث وُجِدَ النور وُجِدَ أيضاً شعاعه، وحيث وُجِدَ الشعاع وُجِدَ أيضاً نشاطه ونعمته الخالقة. ولا يمكن أن يوجد النور بدون شعاعه أو الشعاع بدون نوره.
- الاصطلاح الثاني "من الله" ـ أن الابن والروح القدس هما من الآب، في مفهوم "وحدانية الله" وهذا ضد أي انحراف بمفهوم الثالوث تجاه "تعدُّد الآلهة".
- العلاقة السرية بين لاهوت الابن ولاهوت الآب تتضح في اعترافنا أن الابن "نور من نور، إله حق من إله حق".
- حينما نصلِّي إلى الآب، فنحن نتقدم إلى حضرته الفائقة في شخص ابنه وفي الروح القدس.
- وهكذا يُطلق على الآب صفة "الإله الواحد" باعتبار أن أقنومي الابن والروح القدس هما في صميم الآب أو الإله الواحد (منه وفيه).

هذه العقيدة تسمَّى "المونارخيا" أي وحدة الأصل للابن والروح القدس. وقد أُسيء استخدام هذا الاصطلاح في ما بعد.

٤ ـ الاصطلاحات اللاهوتية التي استخدمها الآباء لشرح عقيدة "وحدة الثالوث"

(أ) **طبيعة** Substantia:

- وهي كلمة لاتينية تفيد "الوجود الحقيقي" وبالتالي "الخواص والممتلكات التي تعطي الشيء كيانه".
- ثم عُني بها في الفكر اللاتيني الغربي ما عُني به لفظ "الجوهر" و"الأقنوم"؛ مما أحدث ارتباكاً في التعبير ـ وكان ذلك بسبب ضعف اللغة اللاتينية في التعبير اللاهوتي ـ (ومن هنا بدأت بذور الخلاف الذي سيظهر في ما بعد في مجمع خلقيدونية حول "طبيعة" المسيح).
- مع أن كلمة "طبيعة" لها لفظ لاتيني آخر وهو Natura، ولكنها لا تفيد أكثر من مجموعة صفات نظرية، مثل طبيعة الحديد وطبيعة الحجر، فلا يمكن الجمع بينهما في "الطبيعة" بمعنى Substantia، أي في الصفات الجوهرية الكيانية. ولكن يمكن الجمع بينهما من جهة صفة "الجمود" المشتركة

بينهما، فهنا الاتفاق يكون في الطبيعة بمعنى الـ Natura (أي الصفات الطبيعية الثانوية).

(ب) الشخص Persona πρόσωπον:

وهي كلمة غير كلمة Person الإنجليزية.

وقد تطوَّر استعمالها منذ القديم، فكانت تعني أولاً الممثلين (لابسي القناع) ليمثِّل شخصية أخرى، ثم انتقل المعنى ليعبِّر عن الحالة التي يعيشها إنسان بين الآخرين، ثم انتقل للتعبير عن الشخصية التي يمتلكها أو يعيشها أي إنسان، ثم زادت الكلمة في معناها لتصل إلى كرامة ورتبة الشخصية.

- وفي المفهوم الكنسي، تعني الوجه (الوجاهة ـ الحضرة) من جهة عمل الشخص أو أسلوبه أو حاله.
- وهكذا استخدمها الآباء للتعبير عن المسيح باعتباره "وجه الله"، أي الذي بواسطته ظهر الله وصار معروفاً، وأتت في موضع آخر بمعنى "الشخص".
- ولكن استغل "سابيليوس" مفهوم الشخص، ففصل بين الشخص والحالة. فقال: إن الثالوث ثلاث حالات لله الواحد ظهر بالتتابع على مدى التاريخ.

(ج) الجوهر οὐσία:

- وتفيد الذات، أو الوجود الذاتي، أو الكيان.
- وقد كانت هذه الكلمة هي محور الصراع اللاهوتي بين القديس أثناسيوس والأريوسية على مدى ٥٠ سنة.
- كان القديس أثناسيوس يؤكِّد دائماً أن الابن مساوٍ للآب "في الجوهر". وهذا مضمون معنى لفظ "هوموؤوسيوس ὁμοούσιος".
- والفرق بين المخلوقات وبين ابن الله، من جهة علاقة كلٍّ منهما بالآب، أن المخلوقات جميعاً هي من صنعة الله، بينما هو من وفي جوهر الآب.

(د) الأقنوم (سريانية) ὑπόστασις:

- تعني "القيام الأساسي" أو "القوام".
- والآباء الإسكندريون فرَّقوا بين الأقنوم والجوهر، فالله ثلاثة أقانيم وجوهر اللاهوت واحد. هذا في الوقت الذي خلط فيه الغربيون كلمة "أقنوم" وكلمة "جوهر" وجعلوهما بذات المعنى الواحد.
- القديس أثناسيوس كان يتمسَّك دائماً بتعليم الكنيسة الجامعة كلها ـ أن الله واحد في الجوهر، كائن في ثلاثة أقانيم أزلية.

٥ ــ الصفات الذاتية الخاصة بعلاقة الابن بالآب، والابن بالخليقة

- الصفة الأُولى: "مولود غير مخلوق" ــ أي مولود ميلاداً جوهرياً من الآب كميلاد النور من النور.
- كلمة "ميلاد" أو "ولادة" التجأ إليها اللاهوتيون اضطراراً، ليعبِّروا مجازاً عن علاقة الابن بالآب.
- ومن هذا التعبير أتى تعبير "المونوجينيس" ليعبِّر عن أن بنوة المسيح للآب خاصة جدًّا، ذاتية وجوهرية، لا تدانيها أي بنوة أخرى.
- يلزم التفريق بين اصطلاحين هامين جدًّا استغلهما الهراطقة استغلالاً سيئاً: غير مخلوق ἀγέννητος وغير مولود ἀγένητος. الأولى تعود على المسيح، والثانية تعود على الآب. والفرق بين اللفظين حرف ν فقط. وقد بادل الهراطقة بين اللفظين ليفصلوا بين الابن والآب.

٦ ــ الفارق الكبير والخطير بين: وحيد الجنس ــ والبكر

- فالصفة الأُولى "وحيد الجنس" تتصل بعلاقة الابن الداخلية ــ الجوهرية ــ مع الآب، وهي علاقة فريدة أزلية.
- أمَّا الصفة الثانية "بكر (مبدأ) كل خليقة" فهي تفيد العلاقة الخارجية للابن مع الخليقة كخالق (على صورته). وهو تجسد ليرفع الخليقة كلها مرَّة أخرى من حالة العبودية والفساد إلى حرية أولاد الله، جاعلاً للإنسان ميلاداً جديداً فيه وأعاد له صورته الخاصة، فصار آدم الثاني أصل الخليقة الجديدة كما صار بنفسه هو البكر ــ بالقيامة من الأموات (الميلاد الثاني).

٧ ــ الهوموؤوسيوس

- اصطلاح استخدمه الآباء لتوضيح مساواة الابن للآب في الجوهر وفي نفس الوقت غير مفترق عن طبيعة الآب، مفيداً أن الكلمة قائم دائم في الآب، والآب قائم دائم في الابن دون انفصال.
- وبالرغم من أن هذه الكلمة (هوموؤوسيوس) غير واردة في الإنجيل، إلاَّ أن الآباء استخدموها لتوضيح العلاقة الجوهرية بين الآب والابن.

الفصل الثاني

ظهور أريوس وبدعتِهِ

أولاً: العوامل والظروف التي ساعدت على انتشار بدعة أريوس

(أ) لم يكن ظهور أريوس مفاجأة تاريخية، بل كان يمثِّل تطوُّراً مستمراً ناشطاً للفلسفة الوثنية في صراعها الدؤوب ضد الحقائق المسيحية الإلهية عن الله منذ القرن الأول.

(ب) أمَّا تركيز كل البدع الوثنية واليهودية المتنصِّرة في الشرق خاصة، فذلك معروف قطعاً أنه بسبب النشاط الروحي والوجداني الفلسفي عند الشرق.

(ج) أمَّا سبب شدَّة التآلف وكذلك التنافر بين الأفراد والجماعات فهو لزيادة ميول التداخل الشخصي في الأمور الخاصة عند الآخرين، وبالذات في الديانة والعقيدة عند أهل الشرق دون الغرب. لذلك نجد التكتُّل والصراع في الأمور الدينية عند أهل الشرق عنيفاً لا يطاق.

(د) كذلك نجد في الشرق ظاهرة لا توجد في الغرب بصورتها العنيفة كما هي في الشرق، وهي التداخل الطاغي للمعتقد الديني في الحياة الدنيوية العادية. فالدين يؤثِّر في السلوك والكلام والعادات وكل شيء حتى الأكل والشرب.

(هـ) لذلك عندما كان ينفذ الفكر الوثني المبسَّط عن الله واللاهوت إلى صفوف العامة كان يسري كالنار في الهشيم، وخاصة إذا كان يسانده اضطهاد أو تهديد أو عنف أو وعود وحظوة ومنفعة، لذلك كانت كل بدعة تترك وراءها، حتى بعد أن تُهزم، خطوطاً عميقة لا يمكن محوها من الأفكار والعادات والأوهام المنحرفة!

(و) كذلك لم يكن انتصار الإيمان المسيحي الأرثوذكسي في أي موقعة يُحسب كنهاية للصراع، لأن قطاعاً هائلاً من الشعب البسيط يكون قد فقد اتزانه الإيماني وفكره الروحي السليم، فكان ذلك يتراكم من بدعة لبدعة ليهيِّئ الجو لبدع جديدة ويكون بذلك عبئاً هائلاً على الكنيسة. وكثيراً ما تسرَّعت الكنيسة في الحكم على الذين أغوتهم الظروف وسقطوا عن الإيمان، وحرمت بالجملة، فكانت الطامة الكبرى حيث لم يكن أمام المحرومين خيار إلاَّ أن يعودوا مرَّة أخرى ليخضعوا تحت ألوية المبتدعين، هذا خلاف ما كان يتركه في النفوس من حزازات وأحقاد واعتداءات، وهذا ما حدث بالفعل بعد اضطهاد ديسيوس ودقلديانوس، مما كان له أكبر الأثر في سرعة انتشار الأريوسية بين المحرومين من الكنيسة الذين سقطوا أيام الاضطهاد ولم يُسمح لهم بالرجوع للإيمان الأرثوذكسي.

(ز) كذلك لم يكن مفاجأة أن تنفجر بدعة أريوس في الإسكندرية بالذات وتكتسح قطاعاً ليس صغيراً من رعية البابا ألكسندروس، بالرغم من أن أريوس وبدعته نبتت وترعرعت في أنطاكية تحت لواء مدرسة أنطاكية وبالذات لوسيان الذي يقول عنه **"هارناك"**: [إن لوسيان كان هو أريوس قبل أن يأتي أريوس.](١)

فالإسكندرية كانت مرتعاً خصباً لبدعة أريوس، لأن الإسكندرية ورثت من أثينا النشاط الفكري وقدرة الشعب على استيعاب الفلسفات والانشغال بها بصورة طاغية.

(ح) كما كان لليهود في الإسكندرية أقوى جالية نشطة من جهة تطوير الفكر اللاهوتي العبري على أصول الفلسفة الوثنية كما ظهر عند فيلو.

(ط) كذلك كانت الإسكندرية لا تزال تموج بفلاسفة الفكر الوثني، وكانت بقايا مدرسة الإسكندرية الوثنية لا تزال ناشطة (حتى أيام كيرلس الكبير المتهم بالتخطيط لقتل هيباتشيا الفيلسوفة الوثنية الشهيرة، حقداً وغيرة من شهرتها ومن تشهيرها باللاهوت المسيحي). وقد قام الوثنيون بعدة نهضات لإحياء تراثهم الفلسفي في مواجهة النشاط المسيحي، ولم تخلُ نهضاتهم من ثورات واعتداءات حتى إلى حرق كنيسة السيزاريوم في أيام أثناسيوس الرسولي. بل وظلّت تُقدَّم الذبائح الوثنية للأوثان في روما وفي الإسكندرية حتى أيام ثيئودوسيوس سنة ٤٥٠م(٢).

كذلك ينبغي أن لا يغيب عن بالنا مناصرة الوثنيين وفلاسفتهم لبدعة أريوس مما يكشف عن مدى التعاطف الفكري بينهما، ولكن لا يؤخذ من هذا أن صبغة الإسكندرية كانت هي الوثنية أكثر من أنطاكية أو سوريا في جملتها. فالمعروف أن صبغة الإسكندرية العامة هي الأرثوذكسية وخصوصاً في نهاية الصراع، أمَّا صبغة أنطاكية منذ البداية حتى نهاية الصراع فكانت وثنية زاعقة(٣).

وكل هذه العوامل السالف ذكرها ساعدت على انتشار بدعة أريوس بين طبقات الشعب حال ظهورها بصورة ملفتة للنظر، فلم تبقِ من أعلى طبقة في الأساقفة أنفسهم الذين استمالتهم وبهرتهم

(1) Harnack, *D. G.*, ii, 184. Beth. Bak., *op. cit.*, p. 101.

(٢) ثيئودوسيوس الثاني (٤٠١ - ٤٥٠م) حفيد ثيئودوسيوس الأول الكبير، وهو الذي عقد مجمع أفسس سنة ٤٣١م.
Libanus or pro. Templis, II. 180 sq cited by Gwatkin p. 18.

(3) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 18,19.

فلسفة أريوس العقلانية، حتى إلى أدنى طبقة من عامة الشعب الذين يعملون في الشوارع، أو البحَّارة، أو في الحقول من رجال وسيدات، الذين كانوا يردِّدون أبياتاً شعرية موزونة ألَّفها أريوس وأسماها "ثاليا" أي "**الوليمة**".

(ي) كذلك وبالإضافة إلى كل العوامل الخارجية التي ذكرناها كانت توجد عوامل أخرى شخصية أضافت إلى أريوس مميزات كبيرة ساعدت على انتشار بدعته في الأوساط المحترمة، فأريوس نفسه كان رجلاً كبير السن يناهز السبعين من عمره مديد القامة بصورة ملحوظة، ناسكاً متقشِّفاً، مهيب المنظر، طلق اللسان، شاعراً موهوباً صاحب منطق عقلاني فذ. كل هذا وافق جدًّا أن يصنع منه الشعب صنماً جديداً تُستعبد له العقول والمشاعر المخدوعة. ويكفي أن نرى مقدار المصيبة التي ألَّمت بالإكليروس، إذا عرفنا حسب تحقيقات العالِم جواتكن أن ستة من الكهنة قد انحازوا له من عداد **كهنة الإسكندرية** الذين بحسب تقدير فاليريوس وإبيفانيوس كان يبلغ عددهم في سنة ٣٠٠م اثني عشر كاهناً (**بحسب طقس مار مرقس الرسول**)، والذين زادوا في أواخر أيام البابا ألكسندروس إلى ١٦ كاهناً، وهم الذين وقَّعوا على منشور البابا ألكسندروس، ازداد عددهم بعد ذلك في أيام البابا أثناسيوس إلى ما يقرب من ٢٢ كاهناً بجملة المنحازين لأريوس، لأن ستة عشر كاهناً منهم وقَّعوا على الاحتجاج ضد تحقيقات بعثة مريوط لتقصِّي الحقائق سنة ٣٣٥م. وانحياز ستة كهنة لأريوس من اثني عشر في البداية أو من اثنين وعشرين كاهناً في وسط المعمعة، كان يمثِّل صدعاً خطيراً في كنيسة الإسكندرية آنذاك(٤).

كذلك فإن تردُّد القديس ألكسندروس في اتخاذ موقف قاطع بالنسبة لأريوس مدة طويلة، وأخيراً اضطراره لرفع قضيته إلى مستوى أساقفة العالم في مجمع مسكوني؛ كل هذا يوضِّح مدى الخطورة التي كانت تواجهها الكنيسة بالنسبة لرئيس هذه البدعة الذي كان قد ملك ناصية الموقف وأصبح بالفعل يهدِّد أمن الكنيسة وسلامة إيمانها(٥).

ولكن كل هذا الجبروت الذي ظهر به أريوس الذي ازداد سريعاً فشمل قطاعاً كبيراً في الإسكندرية، وانتشر كالنار ليطوِّح بأعظم أساقفة الشرق والغرب واستمال الإمبراطور والقصر الإمبراطوري بأسره لصفِّه؛ هذا يعطينا صورة واضحة جدًّا لجبروت أثناسيوس الإنسان الحر الذي

(4) Epiphan. *Haer.*, 69.2, 68.4. Soz., 1.15.

(5) Gwatkin, *op. cit.*, p. 18.

وقف وحده وبمفرده في مواجهته يحاربه بالكلمة وحدها دون سيف ولا رمح، وبالإيمان وحده غلب أثناسيوس وهزم جيشاً منظَّماً كان قد ابتلع كل الكنيسة، هذا أثناسيوس الذي أقامه الله في الزمن الموافق جدًّا. ولقد ظلَّت الحرب بينهما سجالاً مدة طويلة ونار الأريوسية مشتعلة تتأجَّج بقوة مرعبة تأكل وتحرق في الإسكندرية ومصر وأنطاكية وكل آسيا الصغرى وروما وفرنسا وكل بلاد شمال أوروبا وأسبانيا وكل أفريقيا، لم تترك مكاناً في العالم إلاَّ وتركت فيه بصمتها في كافة الاتجاهات إلى أن أطفأها الله بنفخة فمه، فلم تأتِ سنة ٣٤٦م حتى انحسرت أولاً ونهائياً عن مصر عندما عاد إليها راعيها بعد المنفى الكبير، في نصرة منقطعة النظير.

وفي المقابل ظلَّت أنطاكية وكل سوريا تحت وطأة غزو الهرطقة الأريوسية، كما يقول المؤرِّخ سوزومين أنه **إن كان أثناسيوس قد حكم كنيسة مصر خمسين سنة، فالأريوسيون حكموا أنطاكية هذه المدة عينها.**

ومعروف أن مدرسة أنطاكية بقيادة أسقفها بولس الساموساطي(٦) ورئيس مدرستها اللاهوتية لوسيان، كانت هي المهد الذي تربَّى فيه أريوس وكل جماعة الأساقفة الأريوسيين الأوائل(٧)، ثم كانت المعقل والحِمَى الذي عسكر فيه الأريوسيون طوال حقبة النزاع الأريوسي.

ونحن نتعجَّب من دفاع العالم جواتكن عن أنطاكية ومدرسة لوسيان، الأمر الذي يدحضه تعاليم هذه المدرسة التي أخرجت بولس الساموساطي الذي نادى بعدم أقنومية الكلمة واستحالة تأنُّس الكلمة وأن ابن الله مجرَّد لقب، كما نادت باستحالة التجسُّد وأن المسيح كان شخصية بشرية محضة، وأن ابن الله لم يأتِ من السماء بل أن ابن الإنسان هو الذي ارتفع إلى السماء ولم يكن له وجود سابق عن الميلاد، وأن الاتحاد بين الابن والآب هو اتحاد المشيئة فقط.

وهكذا يتضح أن أنطاكية مهَّدت للأريوسية إذا لم نقل مع هارناك أن الأريوسية كانت في أنطاكية قبل أن يوجد أريوس.

وإن كان لوسيان مات كشهيد وأكرمته الكنيسة، ولكن لا ننسَ أنه لم يقبل قط أن يعترف بأن يكون المسيح مساوٍ للآب، كما ادَّعى أن اللوغس ككلمة الله الآب غير الكلمة في المسيح، وأن

(٦) عُيِّن أسقفاً سنة ٢٦٠م وأُسقط عن كرسيه في مجمع أنطاكية سنة ٢٦٨م ولم يخضع للحرم، ولكن بسياسة من روما بتخطيط دقيق ومتواصل أمكن إسقاطه وإبعاده.

(7) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 101.

المسيح ابن الله بالإرادة وليس بالجوهر.

وهل يمكن أن نغفل أن أريوس تلميذ لوسيان؟ وأن من ضمن تلاميذ لوسيان أيضاً أستريوس أول كاتب ومؤلّف أريوسي، وكذلك يوسابيوس النيقوميدي، وثيئوجنيس أسقف نيقية وماريس أسقف خلقيدونية؛ وكلهم من أخطر الأريوسيين الذين زلزلوا الكنيسة وزعزعوا إيمانها دون أي طائل؟(٨)

ولقد ظلّت روح وتعاليم بولس الساموساطي ترتع في سماء أنطاكية إلى مائة سنة حتى استلمها ونفخ فيها نسطور.(٩)

ثانياً: الهرطقة الأريوسية

المبادئ اللاهوتية التي قامت عليها

١ ـ بدعة أريوس هي فلسفة مزيّفة أكثر منها ديانة، فهي تتبع الأصول المنطقية السهلة، وهي تحاول أن تعطي أجوبة سهلة على الأسئلة العقلية التي يصطدم بها الفكر المتشكّك في نواحي الإيمان، وقلّما ترتكن في تكوينها على الأسفار المقدّسة لأنها تهرب من الإيمان، وإذا استعانت بالآيات فهي تستخدمها منفصلة عن سياق الموضوع الذي قيلت فيه، بنوع من الاصطياد العقلي، لكي تصل إلى هدف بعيد كل البعد عن هدف الآية المستخدمة والموضوع الذي قيلت فيه.

وتدّعي الأريوسية أنها تنادي وتدافع عن تقليد آبائي سابق، وهذا محض افتراء، فالمعاصرون لأريوس أكّدوا جميعاً أنه مختلق لآرائه، ولم يحدث قط أن قَصَدَ أبٌ واحدٌ من آباء الكنيسة الأرثوذكسية منذ القرن الأول وكل أيام ما قبل نيقية ما قصده أريوس من تحليله لأقوال هؤلاء الآباء بهذه الصورة الكُفرية(١٠).

ويقرِّر سوزومين أن أريوس ابتدع جميع الاصطلاحات التي جعلها حجته التي استند عليها كقوله: (**إن المسيح خُلق من لا شيء** ἐξ οὐκ ὄντος). لذلك كان الأريوسيون يُسَمُّون بالإكسئوكنتيين

(8) Ibid. p. 111.

(9) Ibid. p. 102.

(10) Newman, *op. cit.*, pp. 201, 203.

أي اللاشيئين. **(وأنه لم يكن موجوداً قبل خلقته)** أي أنه **(اتخذ وجوده بعد ظهوره)**، بقصد نفي أزلية الابن ولاهوته[١١].

ولكن هذا لا ينفي أن البدعة الأريوسية كانت موجودة بالفعل قبل زمن أريوس، ولكن خارج الكنيسة وليس داخلها، أي بين المبتدعين.

٢ ـ وتبدأ الأريوسية عقيدتها اعتماداً على وحدانية الله بالمفهوم العددي، لأن هذا هو أسهل تصوُّر لله الذي يريح العقل من عناء فهم الفداء والخلاص. وهي لا تقف عند الوحدانية في مفهومها هذا أيضاً، بل تمتد بالتباعد بالله لتجعله بسيطاً كلياً معتزلاً في ذاته ومنفصلاً انفصالاً طبيعياً وذاتياً عن عالم الموجودات المحدودة، وهي في محاولتها للسمو بالطبيعة الإلهية وتنزيهها عن الاتصال بطبيعة الإنسان، أنهت وقضت على مضمون الفداء واستعلان الله، وتبنّي الإنسان.

٣ ـ ثم تعود وتأخذ من اليهودية ـ وهي تشترك في هذا مع المسيحية ـ مفهومها عن الله باعتباره مخفي عن أعين أي مخلوق في سرية مطلقة أبدية، وأنه وحده غير متغيِّر، ولا متبدِّل بلا بداية، أبدي غير مخلوق، صالح وحده وكلّي القدرة؛ ولكنها تنحرف بهذا المفهوم لكي تنفي إمكانية صلة الله بطبيعة الإنسان كلياً ونهائياً، ليبقى الإنسان في ظلام طبيعته إلى الأبد غير قابل للالتحام بالنور الأبدي.

٤ ـ ثم تستند على الفلسفة فتنفي عن الله باعتباره "**الروح الأعظم**"، أن يكون له أدنى شبه أو علاقة حلول بالإنسان "معاذ الله"!! وهذا ما يردِّده بعض الناس في هذا العصر!! متجاهلة بذلك عمداً للحقيقة الكتابية أن الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله!! وعلى هذا الأساس قيل إن الإنسان هو هيكل الروح القدس وإن الروح القدس يسكن فيه، الذي يفيد حتماً أن الله هو المثل الأصيل والأعلى للإنسان، وينتج عن ذلك بالضرورة أنه لا يمتنع أن يوصف الله بالأوصاف الإنسانية كأن تقول إن الله يرى ويسمع ويحب ويبغض ويرحم، وعين الله وحدقة عين الله ويد الله وأصبع الله وقلب الله وفكر الله وأُذن الله، وأنه يفرح ويحزن ويغضب ويتضايق؛ وذلك من شأنه أن يقرِّب ويوضِّح للإنسان إدراك الله، فإذا ترفَّعنا عن هذه الصفات المشتركة بين البشرية والله امتنع نهائياً على الإنسان أي إدراك لله! إذن فإدراكنا لحقيقة الله يتوقَّف جوهرياً على أساس أن هناك صفات لله مستعلنة لإدراك الإنسان بشرياً في صميم خلقته!!

(11) Sozomen, 1. 15; Theod., Letters 104; Athanas., *De Decrtis* 27, *De sententia Dionys.* 6.

كذلك فالأوصاف البشرية لله حتمية لإيجاد صلة فهم وإدراك ومودة وطاعة بين الإنسان والله.

ينتج عن هذا أنه ليس بمستغرب ولا مستحدث أن الله يتخذ جسداً إنسانياً كامل الصفات طاهراً بلا خطية، ليحل فيه بكلمته الخالقة، ليظهر فيه علناً، حتى يعلن عن قرب محسوس ومُدرَك واقعي، ليُظهر صفات الله ومودَّته وخطة خلاصه وليكمل فيه ـ أي في هذا الجسد ـ فداء الإنسان من عبودية الخطية والشيطان ورفع الطبيعة البشرية إلى مستوى الحياة الدائمة مع الله.

وإن اتخاذ الله لجسد إنسان ليحل فيه لا يتعارض مع حلوله في كل مكان وكيان وزمان بكليته التي لا تُحد ولا تتجزَّأ، ولا يتعارض هذا قط مع صلاح الله ومجده ووحدانيته، "فكلمة" الله المتجسِّد لم يفترق عن الله قط لا جوهراً ولا ذاتاً فالله وكلمته واحد حتماً. لأنه في الأصل وبدء كل ذي بدء **خلق الله الإنسان ـ بكلمته ـ على صورته، حيث كان هذا التشابه الذي سمح الله به بين الخالق والمخلوق، كان هو أعظم مظهر من مظاهر صلاح الله وخيريته وعدم أنانيته، وأعظم رسالة من رسالات الحب الإلهي استعلنت في الله لعالم الخليقة!!**

ولا يغيب عن بالنا قط أن على أساس هذا التشابه الفائق للتصوُّر والمنطق العقلي في الخلقة بين الإنسان وخالقه التزم الله من جهة حبه وصلاحه، كخالق، بإعادة الإنسان ـ صورته المحبوبة ـ إلى الصورة الأصلية بعد سقوطه، فكان تأنُّس كلمة الله الخالق آخذاً صورة الإنسان التي هي أصلاً صورته ليرتقي بها ويفديها!!

ثم على أساس هذا التشابه الأصيل بين الكلمة الخالق والإنسان الذي هو أصلاً على صورة خالقه، أن جاء المسيح يطالبنا لنكون «كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (مت ٥: ٤٨). **هنا كمال الإنسان المطلوب أن يحصِّله بالسعي والجهد ثم بفعل نعمة الله، لا يمكن أن يبلغ إلى كمال الله، ولكن يرتقي فقط ليكون على صورته حسب أصل خلقته.**

كذلك يطالبنا المسيح أن نكون "قديسين كما أن أباكم الذي في السموات هو قدوس" (راجع: ١بط ١: ١٦)، هنا أيضاً **لا تبلغ قداسة الإنسان (تكريس حياته لله) إلى مستوى قداسة الله، ولكن ترتقي إلى صورتها المثلى في المسيح في البر والحق!!**

وموضوع خلقة الله للإنسان على صورة الله في الكمال والقداسة ليس هو في الحقيقة مجرَّد فكرة أو قصة في الكتاب المقدَّس غير معقولة أو غير قابلة للظهور على الواقع المادي، أو هو مجرَّد مشروع عاجز عن التنفيذ، ولكن صدق رواية الخلقة على صورة الله تبرهنت علناً لَّما قدَّم الله

"**كلمته**" أخيراً متجسِّداً ومتأنِّساً ليكون فعلاً وعملاً المثل الأعلى الملموس والمرئـي كصـورة الله للكمـال والقداسة في البر والحق، يسوع المسيح. وكان هذا التجسُّد أصلاً ضمن خطـة الخلـق لـيرفع الإنسـان إلى المستوى عينه الذي قصده الله إنما في المسيح بعد أن عجز الإنسان عن تحقيق هذه الغاية **بمفرده**.

٥ – ثـم يـأتي موضـوع مفهـوم الخلـق أو الابتـداء، وغـير المخلـوق غـير المبتـدئ بالنسـبة لله "ἄναρχον, unoriginate" فتبدأ الأريوسية تؤلِّف فلسفة تجاهد فيهـا جهـاداً عقليـاً مريـراً، لكـي توفق بين الله المترفِّع عن العالم والمادة وبين كيفية خلق هذا العالم والمادة!!

فواجهت فراغاً ومشكلة استطاعت أن تملأها بالعقل، وهـي أنـه علـى قـدر تبـاعد هـذا "الـروح الأعظم" عن العالم والمادة بقدر ما نبتـت الحاجـة إلى وسـيط يتوسَّـط بـين "الـروح الأعظـم" وعـالم السفليات والماديات. ولم تكن الأريوسية أول مَنْ واجه مشكلة الخلـق وعلاقتـه بـا لله، فقـد سـبقها فيلو الفيلسوف اليهودي في القرن الأول المسيحي، وكذلك الغنوسية من بعده.

أمَّا فيلو فقد جعل "القوات" الخالقة نصف شخصية (أقنومية) ونصف لا شـخصية (أقنوميـة) في علاقتها بيهوه!

وهنا يلاحظ القارئ بداية فكرة البدعة التي دخلت الكنيسة في عصور مختلفة آخرهـا في بيزنطـة في القرن الثالث عشر[١٢] عن وجـود شـيء اسمـه "القـوة" أو "الطاقـة" غـير المخلوقـة، والنـور غـير المخلوق Uncreated energy & uncreated light أي شيء ليس هو الله وليس هو مادة مخلوقة، وهنا سقوط لاهوتي خطير إذ يتحتَّم بهذا وجود طبيعة ثالثة غير إلهية وغير مخلوقة وهذا ابتداع. وقد لجأ الفلاسـفة إلى هـذا لسـد خانـات في التسـاؤلات الفلسـفية في الأمـور اللاهوتيـة علـى مسـتوى الغنوسية في كيفية حلول الله في الإنسان!

ويلاحَظ أن جميع فلاسفة الغنوسيين (أصول وثنية) رفضوا كذلك رفضاً باتاً نسبة أو صلة **القوة الخالقة** Demiurge "بالروح الأعظم أي الله". فالقوة الخالقة شـيء والـروح الأعظـم شـيء آخـر، وذلك تنزيهاً لـلروح الأعظـم – كمـا يزعمـون – عـن التنـازل إلى انحطـاط العـالم المخلـوق وكـل الماديات[١٣].

(١٢) انظر كتاب: Loosky, Vladimir, *The Mystical Theology of the Eastern Church*, 1957, pp. 166 ff
(13) Gwatkin, *op. cit.*, p. 21.

وهنا وعلى هذا القياس تبدأ الأريوسية تنسج خيوط فلسفتها، فالآب السماوي هو الروح الأعظم - (عند الفلاسفة) - مضافاً إليه أكبر قدر من الصفات السرية الروحية الخالصة، لتعطيه هالة التنزيه المطلق عن عالم السفليات والماديات وهو وحده غير المبتدئ ἄναρχον, unoriginate ثم تعود الأريوسية تنسب إلى المسيح القوة المتعلّقة بالخلق الكلّي والتي تحتّم أن يكون هو سابقاً لزمن الخلق وللأزمنة المخلوقة كلها، وتهوِّل وتستطرد في ذلك كثيراً حتى تختزل من المسيح عمل الفداء الذي أكمله بقهره لسلطان الموت وغلبة الخطية.

والأريوسية - بقصر عمل الخَلقْ على المسيح وحسب، ثم اللف والدوران في هذا المجال فقط - تقصد أن تنفي أو تلغي الوجود الشخصي الحقيقي للمسيح قبل الخلق متميِّزاً أو منفصلاً عن الخلق!

٦ - ثم تعترض الفلسفة الأريوسية، وهذا أخطر ما يعترضها، مشكلة بنوَّة المسيح لله.

هذا هو الخيط الأول الذي التقطه عقل أريوس لينسج منه كل هرطقته:

[(أ) فإذا كان الآب ولد الابن فالذي وُلد يتحتّم أن يكون له بدء وجود،

(ب) إذن فالابن كان غير موجود في زمن ما،

(ج) إذن فالابن مخلوق من لا شيء.][١٤]

ويُلاحِظ القارئ المدقّق أن هذه الثلاث ركائز التي ارتكز عليها أريوس هي نفسها التي بدأ بها مجمع نيقية بحرمها: (انظر: "تاريخ سقراط" المرجع السابق). جاهد أريوس لكي لا يقلّل من شخصية المسيح، بل ركّز على توضيحها وإثباتها لمقاومة بدعة سابيليوس الذي ألغى شخصية المسيح (وجعله أحد الوجوه الشكلية أو الظهورات لله، فليس في ا لله أقانيم متميِّزة عند سابيليوس).

ثم جاهد أريوس لكي يثبت كل ما يمكن من صفات الكرامة والمجد للمسيح، بشرط أن تتمشَّى مع روحانية وتفرُّد وانعزال الآب (الروح الأعظم).

ولكنه كلما أحس باقترابه من هرطقة تعدُّد الآلهة بسبب إمعانه في فصل الابن عن الآب، عاد وألغى الصلة الجوهرية التي تربط المسيح بالآب كابن من ذات الجوهر، وأنكر بنوية المسيح للآب على مستوى تساوي الآب بالابن في الجوهر. فقال أريوس قولته إنه: **"لا ولادة في اللاهوت"**، و**"أن عدم الولادة هو جوهر اللاهوت"**، و**"أنه لا يمكن أن يوجد ابن لله بتحديد المعنى أو**

(14) Socrates, I,5

المفهوم الكامل، لأن الولادة تعني وحدة الطبيعة بين الآب والابن، وهذا يعني تحطيم وحدانية الله، وبالتالي تضيف إلى الآب صفات الجسدانية والتألُّم التي هي صفات البشرية الخاصة(١٥)، وتُخضع الله إلى العوز وهو القادر على كل شيء!!"(١٦)

وهذه الشناعة الفكرية في فهم الاصطلاحات اللاهوتية ترجع إلى أن أريوس يأخذ لفظة **الابن** ولفظة **الولادة** على مستوى المنطق البشري، غير مدرك أن استخدام الأسفار المقدَّسة لهذه الاصطلاحات هو قائم على حكمة إلهية بدقة وحذق وأصالة تترفع عن هذا الانحطاط في تصوُّر اللاهوت، فهي قيلت لتقريب فهم ذات الله وتدبيره المتعدِّد من نحونا بلغتنا، ولكن لا يمكن الهبوط بهذه المصطلحات إلى التصوُّر المادي للأفعال، فهي قيلت بالروح القدس وسُجِّلت بالوحي كنوع من الاستعلان، أي إدراك المخفيات والمكنونات الإلهية، ببصيرة ونور سماوي يناسبها.

فالقول بالآب وبالابن في الأسفار المقدَّسة هي رؤيا تختص بالكيان الإلهي، أي تختص بعمق جوهر الله وذاته الفائقة على التحديد والوصف، فهي لا تخضع في وجودها وكيانها للأفعال البشرية، فالفعل البشري "يلد ومولود" له بداية وله نهاية وله ماضٍ لأنه حدث زمني، ولكن الأفعال في اللاهوت أي في الله ليست زمنية ولا محدودة ولا أول لها ولا آخر، لا بداية ولا نهاية، لا ماضي ولا تغيير قط.

لذلك فالآب ليس قبل الابن، والابن ليس بعد الآب، فهما معاً كيان واحد أزلي، والولادة في اللاهوت ليست حدثاً، ولا تخضع للحركة، فلا يسبقها شيء ولا يتأتَّى منها مُحدَث في اللاهوت. فالولادة في اللاهوت ليست ناشئة عن فعل، بل هي صفة لعلاقة كيانية جوهرية.

ولكن بسبب المنطق البشري الذي سار عليه أريوس إزاء تسلسله الفلسفي وأمام تصريح المسيح نفسه في الإنجيل (وأريوس كان لا يزال يحترم صورياً أقوال الإنجيل) أنه "**ابن الله**"، اضطر أن يعتبر **"الولادة الإلهية" مسألة محدودة وعملاً خارجياً من "أعمال إرادة الله"، التي بها خُلق الابن من لا شيء.**

وبدأ أريوس يتلاعب بالاصطلاحات الفلسفية ليزوغ من محاصرة الأرثوذكس، فقدَّم سؤاله للإحراج والتوريط عمَّا [إذا ما كان الآب ولد الابن بالإرادة أو بدون إرادة (قهراً)؟ Volens or Nolens]؟ ...

(15) Eusebius of Nicomedia, (Theodoret, 1.6).
(16) Dorner, II. 29; cited by Gwatkin, *op. cit.*, p. 23.

فرد عليه الأرثوذكس بحكمة لقلب نظريته وتوريطه: [إذا ما كان الآب هو الله بالإرادة أو بدون إرادة؟]. ولكن جاء كيرلس الكبير بعد ذلك ورد على هذه الوقاحة هكذا: [هل الله مترفّق ورحيم وقدوس وصالح بالإرادة أو رغماً عن إرادته؟].

أمَّا القديس أثناسيوس فيرد رداً إيجابياً هكذا:

[إن الأريوسيين يتجهون بأفكارهم إلى تعارض الإرادة من عدمه (في اللاهوت)، بدل أن يتجهوا إلى ما هو أهم وأسبق من جهة السؤال، وهو أن الطبيعة (الجوهر) أسبق من الإرادة. والطبيعة هي التي تقود وتفتح الطريق للإرادة - (مشيراً بذلك إلى أن أعمال الله - الولادة - هي عمل جوهري فوق كونه إرادياً).](١٧)

والعجيب أن أريوس لا ينفي أن المسيح "ابن الله"، ويتمشَّى مع الكنيسة في أن البنوَّة هي حقيقية وليست مادية، ولكن هذا الاعتراف بحسب التسلسل الفلسفي المنطقي السابق - أوقع أريوس في نتيجتين حتميتين هما: أن المسيح كابن الله يلزم أن يكون أدنى في الرتبة من الآب، وأنه ليس أزلياً، وهذا ما أكَّده وأصرَّ عليه أريوس، وأنه وُجدَ وقت أو حتى قبل أو يوجد الوقت لم يكن فيه الآب أباً وأن الابن لم يكن موجوداً إلاَّ في مشورة الآب (بالقوة δυνάμει)، وهذا من اختراع أريوس الفلسفي.

وبذلك يكون الآب، عند أريوس، هو الله وحده، وأن الابن إنما يُدعى ابناً بمعنى "متدنٍّ" "وغير طبيعي"(١٨)، وهو ليس من جوهر الآب ولكنه مخلوق كباقي المخلوقات(١٩). غير أنه وحيد الجنس (مونوجينيس) أي "فريد من نوعه" بينهم(٢٠)!

وهكذا خلط أريوس عن عمد بين الولادة غير المادية، والخلقة المادية.

الابن عند أريوس هو الخليقة الوحيدة التي خلقها الله مباشرة(٢١) من لا شيء، وبما أنه لا توجد خليقة يمكن أن تكون ابناً لله بالمعنى اللاهوتي الكامل، فالابن (المسيح) لم يكن قط على مستوى المساواة في الجوهر مع الآب، بل إنه هو ذاته لم يكن يعي جوهر نفسه!! وأنه كان يعتمد - كأي

(17) Newman, *op. cit.*, p. 208.
(18) Arius in Thalia, (Athanas. *Or.*, 1.6).
(19) Alexander's Letter, (in Theod., 1.4).
(20) Arius to Euseb., (Theodoret., 1.5).
(21) Asterius, after Arius, (Athanas. *de Decret.* 8).

مخلوق على معونة النعمة - وبالتالي كان من الوجهة الأخلاقية والطبيعية قابلاً للخطيئة(٢٢).

وهكذا تنتهي الأريوسية إلى القطع والقطيعة بين الله والإنسان، فكل منهما يلزم أن يبقى بعيداً عن الآخر بعداً نهائياً وأبدياً! ...

وهذا في الحقيقة هو القصد الخفي للقوة الجبَّارة الشيطانية التي نفخت في أريوس وعظَّمته وشدَّدته وأثارت من حوله الدنيا كلها وجمعت من حوله القوة والسلطان والمال والمنطق، ليلغي حقيقة المسيح الخلاصية، وعمل الكفَّارة، والتطهير بالدم لفداء الإنسان من سلطان الخطية والموت والشيطان، وتبنّي الله للإنسان الذي أكمله المسيح بصفته الإلهية - كابن الله.

والأريوسية تنفي معنى الحب الإلهي كأحد الصفات الجوهرية في الطبيعة الإلهية، والتي تتجه مباشرة نحو الإنسان وعالم الإنسان بالفعل المباشر الذي يتركز في الفداء، كما تنفي هذا النوع الفائق من الحب لدى الإنسان الذي يعبِّر به عن منتهى حريته في عبادة الله(٢٣).

وفي هذا يقول إيرينيئوس بإبداع فائق:

[لسبب حبه اللانهائي صار إلى ما نحن عليه (تجسَّد)، وذلك لكي يجعلنا إلى ما هو نفسه عليه.](٢٤)

٧ - ولكن لم تتوقَّف الأريوسية عند هذا الشطط الفلسفي الميت، لقد جرَّدت الأريوسية شخص الرب من كل ما يفيد الألوهة، و لم تترك له إلاَّ مجرد الاسم الخالي من أي واقع إلهي فعلي، ثم أرجعته إلى مصاف المخلوقات - وليس المخلوقات الراقية التي هي بمعزل عن الزلل، بل نسبت إليه إمكانية الخطية(٢٥).

وحتى بشرية المسيح لم يتركها أريوس في كمالها الإنساني، بل جعل اللوغس قادراً على الاتحاد المباشر بالجسد البشري دون أي داعٍ لوجود نفس بشرية. وهكذا أنهى على شخصية المسيح كإنسان حقيقي(٢٦).

(22) Eustathius, as quoted by Eulogius in Photinus, (Bibl. Cod., 225).
(23) Dorner, II. 239.
(24) Irenaeus, cited by Beth. Bak, *op. cit.*, p. 131.
(25) Arius ad Alex., in Athanas., *de Syn.* 16; Dorner, II. 235; Hefele, *Councils*, ch. 21.
(26) Mohler, *Athan.*, p. 179; Dorner, II. Note 59, cited by Gwatkin, *op. cit.*, p. 25.

وهكذا أكمل أريوس اختراعه الفلسفي عن تصوُّره للمسيح، وإن كان قد سبق أريوس كثيرون ممن أنكروا لاهوت المسيح، كما سبقه من أنكروا ناسوت المسيح؛ ولكن بدعة أريوس قد فاقت هذا وذاك فألغت ومسخت كلا الاثنين اللاهوت والناسوت في المسيح، حيث بلغ أريوس آخر ما عنده من الوثنية حتى القاع!

علماً بأن هذا القول الخاطئ في اللاهوت بعدم وجود نفس بشرية للمسيح لم يبدأ به أريوس بل كان هو مبدأً لاهوتياً عاماً لدى كل مدرسة "لوسيان" بأنطاكية وجميع المتعلّمين على يديه - ومنهم أريوس ويوسابيوس وكل الأريوسيين، ويسجِّل القديس إبيفانيوس هكذا:

[**إن لوسيان وجميع اللوسيانيين ينكرون أن ابن الله أخذ نفساً بشرية** (ψυχή) فيقولون إنه أخذ جسداً فقط حتى يستطيع أن ينسب الآلام البشرية إلى اللوغس "**كلمة الله**".](٢٧)

ولهذا رد عليهم مجمع نيقية في قانون الإيمان بأنه **تجسَّد وتأنَّس**. ولا يخفى على أي قارئ أو دارس للاهوت أن مقررات مجمع نيقية بكاملها خرجت من تحت يد أثناسيوس، كما اهتمت جميع الليتورجيات في القرن الرابع بإضافة هذا الاعتراف داخل الليتورجية. ويتحتَّم على أي لاهوتي أن يفهم أن كلمة "**تأنَّس**" **تفيد أنه صار إنساناً كاملاً نفساً وجسداً وروحاً.**

غير أن الأريوسيين لم يدفعوا بإنكارهم لاتخاذ المسيح نفساً بشرية في بداية صراعهم ضد الآباء الأرثوذكس، ولهذا السبب لا نجد أيضاً تركيزاً من جهة القديس أثناسيوس على هذا الإنكار في بدء الصراع، فهو من جهته يلتزم بحدود اصطلاح الإنجيل «والكلمة صار جسداً» (يو ١:١٤)، ولكن باعتبار أن كلمة "**جسد**" تعني إنساناً كاملاً بنفس بشرية كاملة وعقل مدرك بشري كامل، ومن جهة أخرى لم يظهر من جميع كتاباته أنه يقلِّل من وجود نفس بشرية للمسيح تحزن وتضطرب وتبكي.

ولكن من الثابت والمحقَّق علمياً أن لاهوت الآباء في ما قبل نيقية كان سليماً في هذا الصدد، فالشهيد يوستينوس يفرِّق بوضوح ويقرِّر:

[**أن ناسوت المسيح كان يشمل جسداً ونفساً.**](٢٨)

ويأتي أوريجانوس ويوضِّح ويؤكِّد ويفسِّر ويعلِّل حتمية وجود نفس بشرية كاملة للمسيح:

(27) Epiphan., *Ancoratus;* 33-4; Ed. K. Holl, cited by Grillmeier, *Christ in Christian Tra*dition, p. 183.

(28) Just. *Dial. C. Trypho*. 102; Beth. Bak. p. 125n.

[لأنه من المستحيل أن تتحد الطبيعة الإلهية بالجسد بدون عامل وسيط وهي النفس البشرية.](٢٩)

ومعروف أيضاً تماماً لدى كل العالم أن أوريجانوس هو أول مَنْ كشف بوضوح عن أصالة التسليم اللاهوتي الإسكندري لمفهوم اتحاد اللوغس بجسد بشري ذي نفس بشرية كاملة، وهو أول مَنْ أعطى لمفهوم هذا الاتحاد كلمة θεάνθρωπος = **إله متأنِّس**، وأول مَنْ شرح هذا الاتحاد بوصف اتحاد النار بالحديد. وهذا التأكيد مع الشرح عينه يسجِّله القديس أثناسيوس:

[كان مستحيلاً عندما تأنَّس الرب (صار إنساناً) من أجلنا أن يكون جسده بدون قوة نفسية عاقلة، وما كان ممكناً أن يتم الخلاص بواسطة الكلمة نفسه ويكون خلاصاً للجسد فقط بل للنفس أيضاً.](٣٠)

ولكن العجيب والأمر المذهل للعقل أن يأتي لاهوتي كاثوليكي راهب يُدعى Aloys Grillmeier ويتهم أثناسيوس بل وكل اللاهوت الإسكندري أنه كان موافقاً لهرطقة أريوس من جهة عدم الإيمان بوجود نفس بشرية للمسيح، وبالرغم من النص السابق يقول بالحرف الواحد: "إن أثناسيوس لم يكن يعلم شيئاً عن وجود نفس بشرية في المسيح"، مع أن أثناسيوس يقول ويكرِّر آلاف المرَّات أن المسيح حمل ضعفاتنا، بل ويقول أثناسيوس ردًّا على الأريوسيين:

[إن الأريوسيين الذين يدَّعون بأنهم يَعْثُرون في المسيح "**الكلمة**" ويضعونه في مرتبة أقل بسبب أنه قيل في الإنجيل أنه اضطرب وبكى (يو ١١: ٣٨و٣٥)، ولكنهم بهذا يُظهرون أنهم فاقدون للإحساس البشري لأنهم أخفقوا في إدراك **الطبيعة البشرية في ضعفها!** والأحرى بهم أن يتعجَّبوا بالأكثر أن "**الكلمة**" **أخذ مثل هذا الجسد الضعيف بالمسرَّة.**](٣١)

أليس هذا كله تعبيراً عن النفس البشرية التي في المسيح؟

ثم إن هذا اللاهوتي المحدث لا يستحي ولا يخاف الله أن يضع القديس أثناسيوس مع أبوليناريوس الهراطيقي على نفس المستوى من الإيمان الخاطئ(٣٢) بل والهراطقة دون حياء.

---

(29) Origen, *de Princip*, ii, 6.3. Beth. Bak p. 150n.

(30) Athanas. *Tomus ad Ant*iochenos 7; Beth. Bak, p. 185n.

(31) Athanas. *Contr. Ar.* 58. *P.G.* 444.

(32) Cf. Grillmeier, *op. cit.*, p. 193 f.

والسؤال الذي نسأله لهذا اللاهوتي الناقد: ماذا تكون عقيدته هو وإيمانه بالمسيح لو لم يكن أثناسيوس؟ وماذا كان يتبقّى له من علمه اللاهوتي وإدراكه الحاذق إذا لم يكن أثناسيوس قد وضع له قانون الإيمان والعقيدة بلاهوت المسيح؟

٨ - **الأريوسية والروح القدس:** لم تكشف الأريوسية في بداية ظهورها عن موقفها من الروح القدس، ولكن في وطيس المعركة أظهرت عقيدتها، فالروح القدس عندهم لا يمتاز عن الابن في علاقته بالآب، **بل إن الروح القدس هو مخلوق أيضاً وبواسطة الابن.** ولم تكن الأريوسية مختارة في تقريرها هذا عن الروح القدس، بل إن واقع تسلسلها يحتِّم أن يصل إلى هذا التقرير.

٩ - وهكذا يتكوَّن الثالوث عند الأريوسيين من ثلاثة أنواع من الأشخاص منفصلين تمام الانفصال، ومتدرِّجين في الكرامة والمجد تدرُّجاً متفاوتاً تفاوتاً لا نهائياً، فلا تجمعهم كرامة واحدة ولا يجمعهم مجد واحد!

١٠ - ولم يفلت أريوس نفسه وكل مَنْ أتى بعده من مواجهة التناقضات التي برزت بصورة واضحة في فلسفتهم المركَّبة أو دينهم المختَرع الجديد!

ولقد وضح هذا التناقض بصورة مخزية في حوارهم عن الابن والبنوَّة في الله، فلكي يتمشُّوا مع الإنجيل وشهادة الرب عن نفسه أنه ابن الله - إذ لا مفر من ذلك لأنهم يريدون أن يظهروا أنهم يلتزمون بالإنجيل - قالوا بوجود البنوَّة ووافقوا على حقيقة الابن، ولكن استخدموا ذلك مبدئياً على مستوى الاستعارة فقط ليبلغوا غايتهم من جحد حقيقة البنوَّة في الله ونفي قيام ابن الله في النهاية. فبالنظرة العامة الشاملة لنظريتهم انكشف مستوى حوارهم أنه مبني على الغش والخداع والتحايل، واتضح مدى النفاق الذي كانوا متعاهدين عليه لا من جهة العبادة الصادقة والتديُّن المخلص فحسب، بل وبالنسبة للأصول المنطقية في الحوار الفلسفي والجدل الفكري الحر.

وهكذا ومن هذا التناقض بالذات يتضح لكل إنسان مدى الضلال الذي كانوا يعيشونه ومدى التضليل الذي كانوا يروِّجون له.

ويمكن أن نكتشف هذا التعارض في كل فقرة من فقرات مبادئهم الجديدة. فمثلاً أرادوا أن يرتفعوا ظاهرياً بمستوى المسيح إلى درجة الألوهة لكي يتمشُّوا في تصريحاتهم مع فكر المتديِّنين، ولكنهم حرصوا في تفسيراتهم وتعقيباتهم أن لا يكون المسيح مساوياً لله أو مشابهاً أو حتى بذي أي صلة من أي نوع. ثم لكي يبقى الآب هو غير المخلوق وحده، اضطروا إلى تلفيق مرتبة يكون

فيها المسيح مخلوقاً، إنما على أعلى مستوى، ولكن أمام حقيقة أن كل مخلوق يكون حتماً قابلاً للتغيير وبالتالي الزلل فلم يستطيعوا أن ينفوا عن المسيح – كونه مخلوقاً من العدم – أن يكون قابلاً للخطية والزلل.

وهكذا وقعت الفلسفة الأريوسية في تناقض مخجل ومزري إذ بدأت بالقول بألوهة المسيح على نوع ما، ثم انتهت بنتيجة حتمية مترتّبة على ذلك أنه قابل للخطيئة والزلل! وليس هذا وحسب، بل في ما يختص بأبدية ابن الله قالت بخلقته قبل الدهور وكل الأزمنة. ولكن لكي تنفي عن المسيح الأزلية كمساوٍ للآب، قالت إنه كان قائماً فقط في فكر الله وحسب قبل خلقة العالم دون أن يكون له كيانٌ أو وجود فعلي، ولم ينتبه أريوس أن الوحوش والبهائم كانت أيضاً قائمة في فكر الله قبل أن توجد. وهكذا بدأت الأريوسية بتأليه المسيح والقول بأبديته على نوع ما مجازاً وانتهت بمساواته بالوحوش والبهائم على الواقع الكياني!

وهكذا فإن الأريوسية **بسبب جحدها للروح القدس ولحقيقة المسيح الروحية** وقعت في تناقضات لا تنتهي! إذ لا يمكن أن يحكم في الروحيات إلاّ الإنسان الروحي، وبدون روح الله يستحيل أن تُستعلن حقائق الله – هذه بديهة اللاهوت!! لأن اللاهوت استعلان وليس منطقاً وجدلاً.

الأريوسية رفضت الاستعلان وأغفلت عمل الروح القدس في الكشف، فكيف ننتظر منها أن ترى في المسيح سوى مخلوق من عدم؟

الأريوسية رفضت إمكانية حلول الله في الجسد، وأنكرت حلول روح الله القدوس في الإنسان، فتوارى عنها مفهوم الفداء وصار لهم موت المسيح باطلاً، وانطفأ في أذهانهم المعنى الكامل للخلاص الذي لا يمكن أن يتم إلاّ بحلول الروح القدس – الرب المحيي – والاتحاد به لتكميل الخليقة الجديدة.

نظرة ختامية

يقول بعض العلماء إنه لم يرتطم بالحياة المسيحية ارتطاماً مباشراً نظامٌ مزيَّفٌ مثل الأريوسية، لأنها رفعت المسيح **"كابن الإنسان"** إلى أقصى ما يمكن من التعظيم كنوع من المجاملة للإنجيل، لكنها في المقابل امتنعت كلية عن أن تعبده كابن الله، حاسبة أن مثل هذه العبادة هي الوثنية عينها باعتبارها عبادة المخلوق(٣٣)، دون أن تدرك أنها تآخت مع الفلسفة الوثنية تمام التآخي في إقصائها لله عن الإنسان هذا الإقصاء الأبدي بهوَّة لا تُعبر، وبذلك حرمت نفسها نهائياً من الحب الإلهي المتدفِّق من الآب إلى البشرية المتبنَّاة في شخص المسيح الابن الحقيقي للآب الحامل لكل ملء اللاهوت جسدياً، بكل عطائه وسخائه، كطريق وحيد تمهَّد بالدم لكي يوصِّل ا لله بالإنسان ويوصِّل الإنسان با لله بلا مانع.

وهكذا ترى أن الأريوسية كانت بإنكارها لبنوَّة المسيح لله وألوهيته، تشكِّل توقُّفاً كاملاً في تسلسل الوحي والنبوَّة وخطة الله الأبدية لخلاص الإنسان عن طريق الفداء الذي أكمله الله في ابنه الوحيد بدمه، لكي إذا تطهَّرنا وتقدَّسنا يرفعنا في نفسه من عبودية الفساد والخطية والموت إلى درجة البنين لله. فالمسيح جاء لكي يكمِّل الناموس والأنبياء **في نفسه هو، فإذا** لم يكن المسيح ابن ا لله لصار الصليب وموت المسيح باطلاً، ولصارت كل النبوَّات السابقة باطلة وتوقَّفت مسيرة البشرية نحو الله توقُّفاً أبدياً.

وهكذا كانت البشرية آنئذ (وحتى الآن) مختارة إمَّا أن تعبد الله مع الأريوسية باعتباره "الروح الأعظم" - بحسب منطق الفلاسفة - غير المبدوء، غير المخلوق، غير المدرك، غير المحوي، غير المقترب إليه، غير المتغيِّر، غير المنظور، الواحد المتفرِّد المنعزل في ذاته وحسب؛ حيث ينتهي الله عند ذاته ولا يمتد أبداً نحو الإنسان. وإمَّا أن البشرية - مع هؤلاء المسيحيين البسطاء - تعبد الله في كل أوصافه السابقة تماماً وبكل تدقيق حسب التقليد المسلَّم من الآباء، مضافاً إليها ما استعلنه لنا العهد الجديد عن الله أنه آب وابن، ذات واحدة وجوهر إلهي واحد، وأنه أرسل ابنه في ملء الزمن ليتجسَّد وليصير إنساناً لنصير نحن فيه أبناء لله وندعوه أباً لنا، **ونتحد به في شخص روحه القدوس.**

(33) Gwatkin, *op. cit.*, p. 27.

وهكذا نؤمن أن الله ظهر لنا متجسِّداً في شخص "الابن" يسوع المسيح، الذي هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، ليعلن لنا الله نفسه جهاراً في المسيح ويوصِّل إلينا حبه غير المحدود، ويقدِّسنا بدم ابنه، ويفدينا ويبرِّرنا من الخطية والموت، ويتبنَّانا لنفسه، لندعوه في المسيح "أبانا" بدالة البنين، لنعيش معه - في ابنه - عن قرب في قداسة، بسرِّ انسكاب الروح القدس في قلوبنا، وفي سر حضور الجسد والدم الدائم معنا منذ أن ذُبح على الصليب وإلى الأبد في حياة أبدية لا تزول، حيث المسيح أصبح هو الطريق والحق والحياة الذي به وفيه تنمو البشرية وتسير كل يوم بقوة دفع الروح القدس لتكميل كل الدهور، لترتقي وترتقي كخليقة تتجاوز عوزها وعجزها بقوة فائقة مجَّانية، لتبلغ حتماً كمالها في الله دون أن تتوقَّف!!



تاج لعمود، يمثل أغصان متشابكة لشجرة كروم و يظهر فيها عنقود العنب مع الورقة الخضراء بالتبادل
[ترجع إلى القرن السادس/السابع — واردة من دير أبَّا إرميا بسقارة ومعروضة بالمتحف القبطي]

ملخّص الفصل الثاني

ظهور أريوس وبدعتِهِ

أولاً: العوامل والظروف التي ساعدت على انتشار بدعة أريوس

(أ) ظهور أريوس تطوُّر طبيعي للفلسفة الوثنية في صراعها ضد المسيحية.

(ب) البدع في الشرق تعود إلى النشاط الوجداني والروحي والفلسفي عند الشرق عموماً.

(ج) ظاهرة التداخل الشخصي في الأمور الخاصة، وبالذات في الديانة والعقيدة عند الشرقيين دون الغربيين.

(د) التأثير الطاغي للدين في الشرق على الحياة اليومية والعادات والسلوك.

(هـ) لذلك كان ينفذ الفكر الوثني المبسَّط عن الله واللاهوت إلى صفوف العامة بسرعة، ويترك آثاراً لا يمكن محوها.

(و) البدع بعد هزيمتها، تترك خطوطاً عميقة من الأفكار المنحرفة تهيِّئ الجو لبدع جديدة. كما أن تسرُّع الكنيسة في الحكم على الذين انخدعوا بآراء المبتدعين وعدم السماح لهم بالرجوع للإيمان الأرثوذكسي، كان سبباً في انتشار الأريوسية بينهم.

(ز) الأريوسية نبتت أساساً في أنطاكية تحت لواء مدرستها ومعلّمها لوسيان ولكنها انتشرت في الإسكندرية بالذات التي ورثت من أثينا النشاط الفكري وقدرة الشعب على استيعاب الفلسفات.

(ح) كما كان يهود الإسكندرية أقوى جالية نشطة من جهة تطوير الفكر اللاهوتي العبري على أصول الفلسفة الوثنية مثل فيلو.

(ط) كما كانت الإسكندرية لا تزال تموج بفلاسفة الفكر الوثني الذين قاموا بمحاولات لإحياء تراثهم لم تخلُ من ثورات واعتداءات. وقد ناصروا بدعة أريوس عند ظهورها.

(ي) شخصية أريوس نفسه الذي جذب الشعب بمظهره المهيب وطلاقة لسانه، حتى أن ستة من كهنة الإسكندرية (البالغ عددهم ١٦ كاهناً ثم زادوا إلى ٢٢) انخدعوا به وانحازوا له.

بل إن هذا الجبروت الذي ظهر به أريوس الذي استمال أساقفة الشرق والغرب واستمال الإمبراطور وكل قصره، يعطينا صورة واضحة لجبروت أثناسيوس، الذي أقامه الله في الزمن الموافق جدًّا، وظل يحارب البدعة بكل قوته حتى انحسرت عن مصر أولاً ونهائياً سنة ٣٤٦م.

أمَّا أنطاكية وكل سوريا فظلَّت تحت وطأة الأريوسية كل مدة حياة أثناسيوس.

وتعاليم بولس الساموساطي استلمها ونفخ فيها نسطور (بطريرك القسطنطينية صاحب البدعة المنسوبة إليه والتي قاومها البابا كيرلس الإسكندري في مجمع أفسس سنة ٤٣١م).

ثانياً: الهرطقة الأريوسية
والمبادئ اللاهوتية التي قامت عليها

تتميَّز الأريوسية بأنها:

١ ـ تتبع الأصول المنطقية السهلة محاولة إعطاء إجابات سهلة على الأسئلة العقلية التي يصطدم بها الفكر المتشكِّك.

+ وقلما ترتكن على الأسفار المقدَّسة.

+ جميع الاصطلاحات التي جعلها أريوس حجته في تدعيم آرائه هي من ابتداعه ولم يقل بها أي من آباء الكنيسة الأرثوذكس.

٢ ـ تبدأ الأريوسية بمبدأ وحدانية الله بالمفهوم العددي. وهذا أسهل تصوُّر لله يريح العقل.

+ تمتد بالوحدانية إلى التباعد با لله لتجعله معتزلاً منفصلاً متعالياً عن عالم الموجودات والمادة.

+ وبهذا قضت على مضمون الفداء واستعلان الله وتبني الإنسان.

٣ ـ تأخذ عن اليهودية مفهوم اختفاء الله عن أعين أي مخلوق ولكنها تنحرف بهذا المفهوم لكي تنفي إمكانية صلة الله بطبيعة الإنسان.

٤ ـ تستند على الفلسفة فتنفي أن يكون لله باعتباره "الروح الأعظم" أي علاقة حلول بالإنسان.

+ تتجاهل أن الإنسان مخلوق على صورة الله، وأن الإنسان هو هيكل الروح القدس، والروح القدس يسكن فيه.

+ وإن إدراكنا لحقيقة الله يتوقَّف جوهرياً على أساس أن هناك صفات لله مستعلنة لإدراك الإنسان بشرياً في صميم خلقته.

٥ ـ مفهوم الأريوسية عن الخلق والابتداء هو محاولة عقلية للتوفيق بين الله المترِّفع عن العالم، وبين خلقة العالم. فبقدر تباعد "الروح الأعظم" عن العالم والمادة بقدر ما نبتت فكرة الحاجة إلى وسيط بين "الروح الأعظم" وعالم السفليات والماديات.

+ تبدأ الأريوسية تنسج خيوط فلسفتها، بقولها إن الآب السماوي هو الروح الأعظم المتنزِّه عن عالم السفليات، والمسيح هو القوة الخالقة السابق لزمن الخلق ولكن ليس أزلياً.

+ تنفي الأريوسية وتلغي الوجود الشخصي الحقيقي للمسيح منذ الأزل.

٦ ـ أريوس لا ينفي أن المسيح "ابن الله"، ويتمشَّى مع الكنيسة في أن البنوَّة حقيقية وليست مادية، ولكنه بحسب التسلسل الفلسفي المنطقي يقول إنه إذا كان الابن مولوداً فله بدء وجود، إذن فلم يكن موجوداً في زمن ما، إذن فالابن مخلوق من لا شيء.

+ يقول أريوس إن المسيح كابن الله يلزم أن يكون أدنى مرتبة من الآب وأنه ليس أزلياً. لأنه نظر إلى الولادة نظرة مادية.

+ وهكذا ألغى الصلة الجوهرية التي تربط المسيح بالآب كابن من ذات الجوهر، معتمداً على أنه "لا ولادة في اللاهوت".

+ أريوس يأخذ لفظة "الولادة" و"الابن" على مستوى المنطق البشري.

+ ولكن بسبب المنطق البشري لدى أريوس وبسبب عدم استطاعته إنكار ما جاء في الإنجيل أن المسيح "ابن الله"، اعتبر "الولادة الإلهية" في الثالوث عملاً خارجياً نابعاً من "إرادة الله"، مثلها في ذلك مثل الخلقة.

+ وبهذا يكون الآب ـ عند أريوس ـ هو الله وحده، وأن الابن "ليس من جوهر الآب"، غير أنه وحيد الجنس (مونوجينيس) أي "فريد من نوعه" بين المخلوقات!

+ وهكذا صار الابن عند أريوس ـ كأي مخلوق ـ معتمداً على معونة النعمة، وبالتالي من الوجهة الأخلاقية والطبيعية قابلاً للخطيئة.

+ وهكذا تنتهي الأريوسية إلى القطع والقطيعة بين الله والإنسان، وينغلق على الإنسان كل رجاء في الخلاص بالمسيح من كفَّارة وتطهير بالدم، لفداء الإنسان من سلطان الخطية

والموت، وتبنّي الله للإنسان.

+ وبالتالي تنفي الأريوسية معنى الحب الإلهي كأحد الصفات الجوهرية في الطبيعة الإلهية، والتي تتجه مباشرة نحو الإنسان.

+ كما تنفي ـ في نفس الوقت ـ هذا النوع الفائق من الحب لدى الإنسان، الذي به يعبِّر عن منتهى حريته في عبادة الله.

٧ـ جرَّدت الأريوسية بشرية المسيح من كمالها الإنساني، فجعلته بلا نفس إنسانية. وهكذا ألغت الأريوسية كل وحدة للمسيح مع البشرية تماماً كما ألغت سابقاً كل وحدة للابن مع الآب من جهة لاهوته.

+ وقد ردَّ مجمع نيقية على تجريد المسيح من بشريته الكاملة بقوله "تجسَّد وتأنَّس". فكلمة "تأنَّس" تفيد أنه صار إنساناً بكل مكوناته من نفس وجسد وروح.

٨ ـ الأريوسية والروح القدس:

أعلنت الأريوسية عن موقفها من الروح القدس متأخِّراً:

+ فالروح القدس لا يمتاز عن الابن في علاقته بالآب (فهو مخلوق، وبواسطة الابن).

+ ولأن الأريوسية رفضت حلول الله في الجسد، لذلك أنكرت حلول روح الله القدوس في الإنسان.

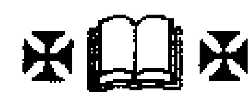
٩ ـ وهكذا يتكوَّن الثالوث عند الأريوسيين من ثلاثة أنواع من الأشخاص منفصلين تمام الانفصال ومتدرِّجين في الكرامة والمجد تدرُّجاً متفاوتاً تفاوتاً لا نهائياً.

١٠ ـ الأريوسية بسبب جحدها للروح القدس ولحقيقة المسيح الروحية وقعت في تناقضات لا تنتهي!

+ وبرفضها الاستعلان أغفلت عمل الروح القدس في الكشف فتوارى عنها مفهوم الفداء وصار للأريوسيين موت المسيح باطلاً، وانطفأ في أذهانهم المعنى الكامل للخلاص الذي لا يمكن أن يتم إلاَّ بحلول الروح القدس ـ الرب المحيي ـ والاتحاد به لتكميل الخليقة الجديدة.

نظرة ختامية

- لقد حرمت الأريوسية أتباعها تماماً من الحب الإلهي المتدفِّق من الآب إلى البشرية المتبنَّاة في شخص المسيح الابن الحقيقي للآب، حتى يوصِّل ا لله بالإنسان ويوصِّل الإنسان با لله بلا مانع.
- والأريوسية بهذا تشكِّل توقُّفاً كاملاً في تسلسل الوحي والنبوَّة وخطة الله الأبدية لخلاص الإنسان عن طريق الفداء بدم الابن الوحيد.
- فإذا لم يكن المسيح ابن الله، لصار الصليب وموت المسيح باطلاً، ولصارت كل النبوَّات السابقة باطلة، ولتوقَّفت مسيرة البشرية نحو الله توقُّفاً أبدياً.
- وهكذا كان على البشرية اختيار أحد طريقين: إمَّا أن تعبد الله بصفته "الروح الأعظم"، حيث ينتهي عند ذاته ولا يمتد أبداً نحو الإنسان، وإمَّا أن البشرية مع هؤلاء المسيحيين البسطاء تعبد الله في كل أوصافه وفي كل ما استعلنه العهد الجديد عنه أنه آب وابن، ذات واحدة وجوهر إلهي واحد، وأنه أرسل ابنه في ملء الزمن ليتجسَّد وليصير إنساناً لنصير نحن فيه أبناءً لله، وندعوه أباً لنا، ونتحد به في شخص روحه القدوس.
- المسيح في الإيمان الأرثوذكسي هو الطريق والحق والحياة الذي به وفيه تنمو البشرية وتسير كل يوم بقوة دفع الروح القدس لتكميل كل الدهور، لترتقي وترتقي كخليقة تتجاوز عوزها وعجزها بقوة فائقة مجَّانية، لتبلغ حتماً كمالها في الله دون أن تتوقَّف!



الفصل الثالث

مضمون العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس

لم تعتمد العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس على أصول فلسفية أو مبادئ عقلية، ولكن يتضح لجميع الدارسين قدرة الاعتماد على الإيمان الذي اعتمد عليه أثناسيوس كحقيقة حيَّة، بأصالة وإصرار. لم يلِن و لم يحِد عن التقليد الذي استلمه من الآباء ومن الرسل عن شخص الرب الحي المعبود، الله الذي ظهر في الجسد.

لذلك احتسب العلماء أن دفاع أثناسيوس هو بالدرجة الأُولى نصرة مؤكَّدة ومصمِّمة للإيمان الأرثوذكسي[1] الحي، وليس مجرَّد نصرة لشخص أثناسيوس، في معركة الصراع الذي بلغ به حدود الموت مرَّات ومرَّات بلا حصر.

ويمكننا أن نلخِّص كل عقيدة أثناسيوس - من كتاباته - التي أسهب في شرحها، حتى إلى منتهى دقائقها، في آلاف الصفحات، وعلى مدى خمسين سنة، وذلك في جملة واحدة:

[**الله نفسه قد دخل بشريتنا.**][2]

وكان فكر أثناسيوس في كل دفاعه مصوَّباً دائماً وبقوة وبلا هوادة على مضمون "**الفداء**". فمن عمل المسيح الذي أكمله لنا وفينا كان أثناسيوس يستمد قوته وتعبيره ووصفه لشخص المسيح.

ومعلوم أن أي دين سواء اليهودية - (التي كان مضمونها الوحيد هو مجرَّد: "**الله يتكلَّم في الأنبياء**")، أو غيرها، لم تستطع أن تُدخل البشرية في شركة حيَّة واقعية مع الله، لماذا؟ لأن الله **وحده هو** الذي يستطيع أن يأتي إلينا ليمحو عبوديتنا ويأخذنا بنفسه ويتبنَّانا كبنين له، وهذه هي حقيقة المسيحية! «الله كان في المسيح مُصالحاً العالم لنفسه» (٢كو ٥: ١٩). فكان رأي أثناسيوس وعقيدته ودفاعه كرأي وعقيدة الإنجيل تماماً، وبالحرف الواحد:

[كل مَنْ ينكر أن المسيح هو ذات الله - الله الحقيقي - فهو لا يزال يهودياً أو وثنياً.]

+ «في البدء كانَ الكلمةُ، والكلمةُ كانَ عند اللهِ، **وكانَ الكلمةُ اللهَ.**» (يو ١: ١)
+ «كل مَنْ ينكر الابن ليس له الآب أيضاً، **ومَنْ يعترف بالابن فله الآب أيضاً.**» (١يو ٢: ٢٣)
+ «لكي يُكْرِمَ الجميع الابنَ كما يُكرمون الآبَ. مَنْ لا يُكرم الابن لا يُكرم الآب.» (يو ٥: ٢٣)
+ «الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية **والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة** بل يمكث عليه غضب الله.» (يو ٣: ٣٦)

---

(1) Harnack, *op. cit.*, p. 248.

(2) Ibid.

+ «لأجل هذا **أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس**.» (١يو ٣:٨)
+ «مَنْ اعترف أن يسوع هو ابن الله فالله يثبت فيه وهو في الله.» (١يو ٤:١٥)
+ «مَنْ هو الذي **يغلب العالم** إلاَّ الذي يؤمن أن يسوع **هو ابن الله**.» (١يو ٥:٥)
+ «وهذه هي الشهادةُ: أن الله أعطانا حياةً أبديةً، **وهذه الحياةُ هي في ابنه**. مَنْ له الابن فله الحياة، **ومَنْ ليس له ابن الله فليست له الحياة**.» (١يو ٥: ١١و١٢)
+ «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرةً لنعرف الحق. **ونحن في الحق في ابنه** يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١يو ٥:٢٠)

و لم يعتمد لاهوت القديس أثناسيوس على "فلسفة عقيدة **اللوغس**" "الكلمة"، التي انشغلت بها أنطاكية جدًّا وقررتها في مجمع سنة ٢٦٨م[٣]، وإنما كان لاهوت أثناسيوس قائماً على شخص المسيح الحي (Christology) فكان في رؤيا واضحة ودائمة لا تنقطع **"في المسيح الذي هو الله"**.

و لم يعبأ أثناسيوس قط بتحديد الاصطلاحات، حتى "الهوموؤوسيوس" لم يتمسَّك بحدودها دائماً[٤]، بل جاء وقت رأى أن ينفض عنها التعصُّب الذي أحاط بها، واكتفى بأن تعبِّر الكنيسة عن مضمونها إذا رأت فيها إعثاراً ما.

وكانت عناصر العقيدة التي حامى عنها أثناسيوس حسب التقليد الذي استلمه كالآتي:
١ ـ إذا كان المسيح هو الله ـ وهو يتحتَّم أن يكون كذلك كفادٍ ـ لأن هذا يحتِّمه عمل الفداء الذي أكمله، لا يكون فيه ما يماثل المخلوق ولا يمت للموجودات المخلوقة بأي حال من الأحوال.

والمسيح جاء «لينقض أعمال إبليس» في مواجهة «العالم الذي وُضع كله في الشرير»، فيستحيل أن يكون المسيح من العالم في شيء، بل هو كلياً من الله وفي الله. والمسيح أعلن ذلك بنفسه جهاراً في إنجيل يوحنا أصحاح ١٧ **«أنا لست من العالم»**، «أنا في الآب والآب فيَّ».

٢ ـ **فأولاً**: بما أن **"اللاهوت في المسيح"** غير مخلوق، فهو يستحيل كقضية مسلَّمة أن يكون من العالم أو من الخليقة التي في العالم. **وثانياً**: إذا كان الله لا يحتاج لوسيط لخلقة العالم ـ كبديهة ـ ينتج من هذا أن المسيح الذي فدى الإنسان يلزم أن يكون منفصلاً تماماً عن كيان العالم المخلوق.

(3) Harnack, *op. cit.*, p. 242.
(4) Ibid. 248.

وهنا يطوِّح أثناسيوس بنظرية "اللوغس" القديمة باعتباره الخالق للعالم كوسيط بين الله غير المخلوق والعالم المخلوق حيث تكون طبيعة اللوغس نصف خالق ونصف مخلوق، أو نصف إله؛ هذه الخرافة التي بدأت بها الغنوسية وطوَّرتها الأريوسية. وعوض هذا الفكر الفلسفي الخرافي الغامض أعطى أثناسيوس الصفة الحقيقية والواقعية للمسيح باعتباره "**اللوغس الابن**"، عامل الفداء، أو جوهر ومبدأ ومصدر الفداء أساساً، وليس مجرَّد جوهر أو مبدأ العالم.

٣ ـ وبما أن اللاهوت وحدة لا تتجزَّأ ولا تنقسم μονάς وقد ثبت أن الابن لا يمتُّ إلى العالم، فهو حتماً يمتُّ إلى هذه الوحدة ذاتها μονάς أي إلى الجوهر الإلهي غير المخلوق، أي الآب.

٤ ـ ولكن تسمية الله بالآب في الكتاب المقدَّس، وهو غير الابن، يكشف عن وجود شخصي للآب في الكيان الإلهي متميِّز عن وجود الابن. وأن الله هو دائماً الآب، فإذا كان الآب دائماً هو الله أصبح كل مَنْ يذكر اسم الآب يعني أنه يوجد ابن معه بنفس الكيان والوجود الدائم والتسمية الدائمة، لأن الله الآب لا يمكن أن يسمَّى "آب" إلاَّ إذا كان اسم الابن قائماً معه دائماً أبداً وعلى نفس المستوى في كل شيء.

ولكن الآب ليس هو أَبَ العالم، لأن العالم مُحدَثٌ مخلوق، فلا يصح بل ويستحيل أن يُنسب الأبدي الخالد إلى المحدث المخلوق الزائل، أي لا يمكن أن الله يُسمَّى "آب" بالنسبة للعالم.

فالآب والابن والروح القدس، هو الكيان الإلهي الأزلي غير المخلوق القائم في وحدة اللاهوت أو الألوهة غير المنفصلة ولا المنقسمة.

٥ ـ ويتحصَّل من هذا أن الابن هو واحد مع كيان الآب وفي كيانه ومن كيانه أي في جوهره ومن جوهره، كوجود الشعاع في الشمس ومن الشمس وجوداً متحداً محتماً ودائماً بصورة عميقة وداخلية.

فالابن هو صورة الوجود الإلهي المخفي، الصورة الخارجية والظاهرة من الكيان الإلهي المخفي غير المنظور.

أمَّا كلمة "مولود" فلا تفيد شيئاً في اللاهوت، إلاَّ أن يكون جوهر الابن من جوهر الآب، أي من طبيعته، وواحداً معه، لا بالاقتسام لأن اللاهوت لايتجزأ ولا ينقسم بل في وحدة الوجود والكيان كشعاع الشمس مع الشمس. وكما أن شعاع الشمس يخرج من الشمس وهو قائم فيها ومتصل بها وواحد معها، دون أن تفقد الشمس شيئاً من كيانها، هكذا الآب لمَّا أرسل ابنه إلى العالم!

٦ ـ ويكون أثناسيوس قد وصل إلى الأساس الذي ينطلق منه ليدحض كل ادعاءات وكفر الأريوسيين:

(أ) فالابن هو أزلي مع الآب.

(ب) أنه من جوهر الآب.

(ج) متساوٍ مع الآب في جميع الصفات التي ننسبها والتي نقدِّمها لله، لأن اللاهوت للآب والابن مساوٍ في الجوهر ὁμοούσιος وفي الوحدانية الإلهية، حيث يقرِّر أثناسيوس ويؤكِّد أن كلمة الجوهر في اللاهوت لا تعني إلاَّ الكيان "أنا الكائن" الذاتي، فالله ليس مجرَّد كيان (جوهر) بل كياناً ذاتياً: "أنا هو الكائن Ego Eimi".

(د) وليس حقيقة ما يدَّعيه الأريوسيون أن الآب له كيان في ذاته والابن له كيان آخر في ذاته، وأن هذين الكيانين متشابهان في الصفات، فهذا كفر لأنه يلغي وحدانية الله.

ولكن الآب، وهو الله الواحد، يحوي في ذاته لاعتبار الاكتفاء أو الكمال الذاتي، "البنوَّة" المعبَّر عنها بكلمة "الميلاد"، التي فيه وله منذ الأزل، أي بنوَّة ليست بالاتصال أو المشاركة(٥)، **فالابن ليس شريك الآب، بل هو والآب ذات واحدة وكيان واحد. وإنما البنوَّة في الله هي بنوع الاكتفاء والفاعلية للذات الواحدة**(٦) (فالذات لا يمكن إلاَّ أن تكون "آب وابن" وهما في الله متميِّزان بالفعل وليس بالجوهر) ـ (ولأننا رأينا الابن متجسِّداً ومذبوحاً على الصليب)، فظهر أن البنوَّة تخرج من الآب لتعلن عن جوهر الآب غير المنظور وعن حبه. فالابن هو صورة الآب ورسم جوهره والمعلن لصفاته (عب ١:٣).

الآب والابن جوهر واحد ـ كيان واحد ـ ذات واحدة تحوي أبوَّة ἀρχή مع بنوَّة γέννημα متميِّزين، كما يحوي جوهر الشمس معاً وفي وحدة واحدة الشمس والشعاع الخارج منها (مولود منها بصورة دائمة). وحينما نقول الشمس أولاً ثم الشعاع، يتراءى للسامع أنه يوجد تدرُّج أو أسبقية، ولكن في الله لا يُفهم من هذا الخروج أو الميلاد أي تدرُّج أو أسبقية بالمفهوم العقلي المكتسب من الرؤيا والتصوُّر بين المخلوقات ـ وهذا هو مفهوم "الهوموؤوسيوس" عند أثناسيوس(٧).

(5) Harnack, *op. cit.*, p. 250.

(6) Ibid.

(7) Ibid.

٧ ـ كل ما نُسب للمسيح، سواء قبل التجسُّد في الأسفار القديمة أو بعد التجسُّد في الأناجيل، من صفات وأعمال منسوبة للمخلوقات فهي إنما **كلها متصلة بطبيعته البشرية التي كان مزمعاً أن يتخذها لنفسه ثم اتخذها لنفسه بالفعل.**

كذلك فإن كل التمجيدات والرفعة التي نُسبت للمسيح بل والتي طلبها لنفسه، لم تكن تعوزه شخصياً أو كان محروماً منها أو فاقداً لها بل **هي أصلاً منسوبة ومطلوبة لطبيعتنا**، لأن الاتحاد الذي أكمله الله الكلمة بالطبيعة البشرية في التجسُّد هو اتحاد كامل أي أقنومي أي شخصي Substantial ـ وكان لحسابنا ليسرِّب لنا عن طريق اتحاده بنا كل ما كان يعوزنا، فظهر كأنه يطلبه لنفسه ـ لذلك تُدعى العذراء والدة الإله θεοτόκος لأن الجسد البشري الذي أخذه من العذراء **صار جسده الخاص** إلى الأبد. لذلك كل ما كان يدَّعيه الأريوسيون بخصوص حصر نسبة "الكلمة" في الخلقة أو للصفات المخلوقة باعتباره "الحكمة" التي نص عنها ذلك في سفر الأمثال ٢٢:٨ وما بعده، فهذا إنما يختص بالكلمة **في حال تجسُّده!!**(٨) **وهو مردود إلينا.**

وبعد صراع مرير عَبْر سنين طويلة جدًّا ومظلمة جدًّا من النفي والتشريد والمطاردة والمؤامرة حتى إلى القتل، وجيوش تحرِّكها أيدي الملوك والأساقفة معاً تجري في كل اتجاه تبحث عن الفريسة الحاملة لجوهر العقيدة الأرثوذكسية في عمق الصحراء، ثم بعد فشل كل أنواع هذا العنف بكل ما كان له من القوة التي كان يناصرها أساقفة العالم كله الذين اجتمعوا على الباطل، وإمبراطور يسلِّم الحقد لإمبراطور ضد الإيمان الأرثوذكسي، بالرغم من كل ذلك غلب أثناسيوس في النهاية، غلب كل هذا وكل هؤلاء ورفع الإيمان المستقيم الحر فوق سماء الدنيا بأسرها، وأمْلى على العالم كله حقيقة الإنجيل مرَّة أخرى بغير انحراف: أن الله فدى البشرية بنفسه في شخص يسوع المسيح، وأحضرنا جميعاً أمامه كأبناء لنكون شركاء معه في المجد، معطياً لنا حياة إلهية لا تزول (٩)!

(8) Ibid., p. 251.
(9) Ibid., pp. 251, 252

ملخّص الفصل الثالث

مضمون العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس

١ ـ لم تعتمد العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس على أية أصول فلسفية أو مبادئ عقلية مسبقة.

٢ ـ التزم بالتقليد الذي استلمه من الآباء ومن الرسل عن شخص الرب الحي المعبود، "الله ظهر في الجسد".

٣ ـ كان دفاع أثناسيوس معتبراً أنه نصرة مؤكّدة للإيمان الأرثوذكسي وليس لشخصه.

٤ ـ كل دفاع أثناسيوس يدور حول حقيقة واحدة هي:

[الله نفسه قد دخل بشريتنا.]

وكان كل دفاعه مصوَّباً دائماً على "مضمون الفداء". فمن عمل المسيح الذي أكمله لنا وفينا كان أثناسيوس يستمد قوته وتعبيره ووصفه لشخص المسيح.

٥ ـ إن كان مضمون اليهودية: "الله يتكلّم في الأنبياء"، إلاَّ أنها لم تستطع أن تُدخل البشرية في شركة حية واقعية مع الله.

٦ ـ ولكن المسيحية بشَّرت بأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يأتي إلينا ليمحو عبوديتنا ويأخذنا لنفسه.

٧ ـ كان لاهوت القديس أثناسيوس قائماً على "شخص المسيح الحي".

▪ لم يعتمد لاهوت القديس أثناسيوس على فلسفة "عقيدة اللوغس" أي "الكلمة" بالمفهوم الغنوسي الفلسفي، وإنما كان أثناسيوس يبشِّر بـ"لوغس" القديس يوحنا اللاهوتي في إنجيله، إذ كان في رؤيا واضحة ودائمة لا تنقطع "في المسيح الذي هو الله"، و«كان الكلمة الله».

٨ ـ عناصر عقيدة المسيح عند أثناسيوس:

أولاً: + المسيح هو الله بسبب الفداء الذي أكمله، فهو لا يمكن أن يكون مخلوقاً.

+ والمسيح جاء لينقض "أعمال إبليس" الذي هو "رئيس هذا العالم"، فمستحيل أن يكون فيه شيء من العالم أو أن يكون من العالم.

+ بل هو من الله وفي الله.

ثانياً: + الله لا يحتاج إلى "وسيط" ليمكنه خلقة العالم، وبالتالي فالمسيح الذي جاء ليفدي الإنسان المخلوق يتحتّم أن يكون جوهره منفصلاً تماماً عن كيان العالم المخلوق.

+ أثناسيوس أعطى الصفة الحقيقية الواقعية للمسيح باعتباره "اللوغس الابن" عامل الفداء، أو جوهر ومبدأ ومصدر الفداء.

+ والابن لا يمتُّ إلى جوهر العالم المخلوق، بل إلى الجوهر الإلهي غير المخلوق، أي إلى الآب.

+ وتسمية الله بالآب في الكتاب المقدس، تحمل ضمناً وجود الابن في الآب ومع الآب، بنفس الكيان والوجود الدائم.

+ وهو آب لا بالنسبة للعالم المخلوق في زمن ما، بل هو آب منذ الأزل بالنسبة للابن الأزلي الكائن فيه ومنه منذ الأزل.

+ وينبغي أن نعلم أن كلمة "ولادة" و"مولود" إذا استخدمت في اللاهوت فهي تفيد وحدة الجوهر الإلهي للآب والابن، كشعاع الشمس الذي يخرج (يتولد) من الشمس وهو قائم فيها ومتصل بها وواحد معها.

+ وهكذا تتحدد عقيدة أثناسيوس:

١ ـ الابن أزلي مع الآب،

٢ ـ هو من جوهر الآب،

٣ ـ متساوي مع الآب في جميع الصفات التي ننسبها والتي نقدمها لله. وهذا هو مضمون لقب "الهوموؤوسيوس".

- وتنفي عقيدة أثناسيوس ادعاء الأريوسيين أن الآب والابن إلهان متشابهان في الصفات، ولكل منهما كيان مستقل، فهذا كفر وتعدد آلهة.

- ولكن وحدانية الله تتحقق في عقيدة "الهوموؤوسيوس": أن الآب وهو الله الواحد، يحوي في ذاته "البنوَّة" المعبَّر عنه بكلمة "الميلاد الأزلي" ويظل واحداً كما هو.

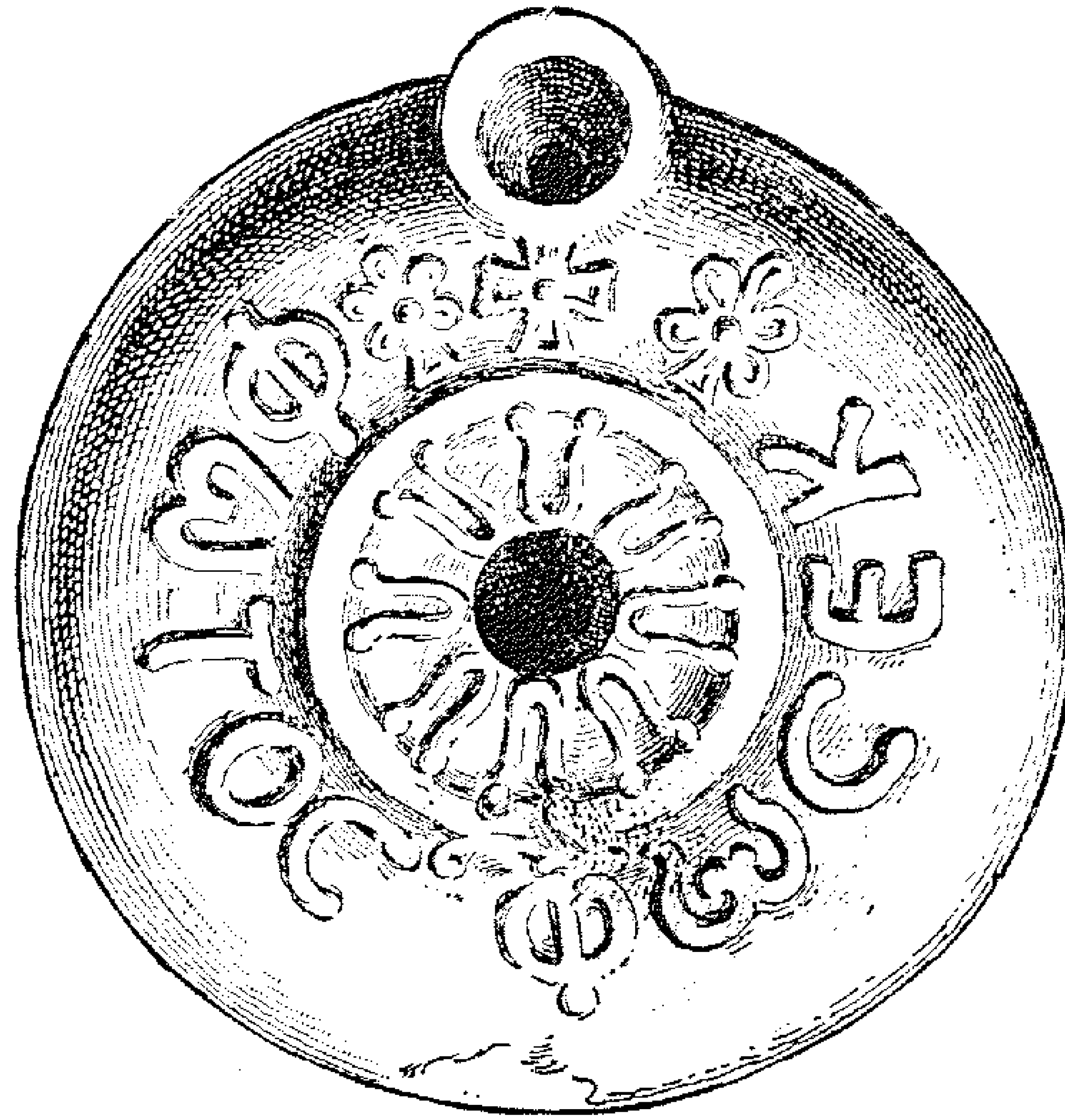
- فالآب لا شريك له، والابن والآب ذات واحدة وكيان واحد. وإنما "البنوَّة" هي حقيقة الاكتفاء والفاعلية للذات الواحدة، وهي تخرج من الآب لتعلن عن جوهر الآب غير المنظور وعن حبه، وهذا اتضح لنا في الصليب.

- أمَّا كل ما نُسب ـ في الأسفار المقدسة ـ للمسيح من صفات وأعمال منسوبة للمخلوقات،

فهي متصلة بطبيعته البشرية التي كان مزمعاً أن يتخذها لنفسه، ثم اتخذها بالتجسُّد.

- وكل ما نُسب للمسيح من تمجيدات ورفعة نالها، حتى التي طلبها لنفسه، لم تكن في الحقيقة تعوزه، أو طلبها كأنه محروم منها أو كان فاقداً لها، بل كانت مطلوبة لطبيعتنا فيه، لأن الاتحاد الذي أكمله الله الكلمة بالطبيعة البشرية في التجسد كان اتحاداً أقنومياً أي شخصياً، وكان لحسابنا، ليسرِّب لنا عن طريق اتحاده بنا كل ما كان يعوزنا.

- وهكذا، غلب أثناسيوس العالم وعلت حقيقة الإنجيل مرة أخرى بغير انحراف: أن الله فدى البشرية بنفسه في شخص يسوع المسيح، وأحضرنا جميعاً أمامه كأبناء لنكون ورثة معه في المجد، وفي حياة إلهية لا تزول.



مصباح أثري مصري محفوظ في متحف ليدن يلاحظ أنه منقوش عليه باليونانية الفقرة الواردة في قانون الإيمان عن « الكلمة » : نور من نور.

الفصل الرابع

فكرة عن المنهج اللاهوتي العام للقديس أثناسيوس

إليك أيها القارئ أُقدِّم مقتطفاً عن أكبر لاهوتيي البروتستانت ونُقّادها "هارناك"، وهو عبارة عن تحليل "للاهوت أثناسيوس".

يقول هارناك عميد اللاهوتيين الألمان البروتستانت عن أثناسيوس:

[رجل ظهر في بكور القرن الرابع، حفظ الكنيسة من انحدارها نحو العالم في أهم أُسس الإيمان ... احتفظ للإيمان المسيحي بأرضيته الخاصة فوق تربة الفكر الإغريقي، وجمع كل شيء وصوَّبه نحو عقيدة الفداء بواسطة الله نفسه، أي بواسطة الإله المتأنِّس ذي الجوهر الواحد مع الله.

لم يكن أثناسيوس مستغرقاً في صياغة الاصطلاحات، ولكنه كان مندفعاً نحو تقرير قاعدة محددة قاطعة للإيمان بالفداء، لضمان حياة إلهية بواسطة هذا الإله المتأنِّس. وعلى هذه القاعدة الأكيدة وحدها التي تقوم على لاهوت المسيح الذي هو من جوهر اللاهوت ذاته، رأى أثناسيوس أنه يمكن فقط أن نرتفع إلى "حياة إلهية"، وحيث يستمد الإيمان من هذه القاعدة قوته وحياته وناموسه ولاهوته وهدفه ...

ولكن بينما يضع أثناسيوس الإيمان كله في الإله المتأنِّس، الذي هو وحده قادر أن يحررنا من الموت والخطية، رافعاً هذا الإيمان فوق كل اعتبار آخر؛ إلاَّ أنه يعود في نفس الوقت ليعطي حياة التقوى العملية التي تتمثل قمتها في النسك والتعبُّد الرهباني، اعتبارها الفائق. وقد استطاع أن يربط قضية الهوموؤوسيوس (مساو الجوهر للمسيح مع الآب) - باعتبارها الضمان الوحيد لتوكيد لاهوت الابن المتأنِّس - ربطاً وثيقاً محكماً بالنسك والعبادة التقوية، رافعاً الحياة النسكية - الرهبنة - من ركودها واختفائها تحت أرضية العالم، ومن الدائرة غير المضمونة التي كانت منحصرة فيها إلى عمق الحياة الكنسية.

وبينما كان يصارع ضد نظرية "اللوغس والخليقة" والأفلاطونية الحديثة بنظريتها في الثالوث المتدرج (غير المتساوي) الذي هو من صميم الوثنية المقاومة لجوهر المسيحية، كان - وفي نفس الوقت - يصارع وبنفس القوة والنشاط ضد ميوعة الحياة الدنيوية، حتى اعتُبر أثناسيوس أبا الأرثوذكسية الكنسية وقديس الرهبنة ونصيرها.][(١)]

---

(1) Harnack, *op. cit.*, pp. 199, 200.

أولاً: أسلوبه العام

من مؤلفات أثناسيوس ومن تاريخ حياته نستطيع أن نعذر هذا العملاق اللاهوتي، كونه لم يترك لنا مؤلفات ذات طابع بنائي أو تثقيفي، فحياته كلها كانت كفاحاً وصراعاً ضد الأريوسية، فخرجت مؤلفاته تحمل صبغة الدفاع عن الإيمان، في ما عدا الكتابين اللذين ألفهما في بكور حياته قبل اندلاع النزاع الأريوسي وهما: "ضد الوثنيين"، و"تجسُّد الكلمة". وهذان أيضاً كان القصد منهما الدفاع عن الإيمان المسيحي ضد الوثنيين. كذلك ما خلفه لنا الزمن من بقايا شرح أثناسيوس لبعض الأسفار وسفر المزامير.

لذلك فكل كتابات أثناسيوس، بالرغم من الكثافة الهائلة على المستوى العقائدي والغنى والخصب في التعبيرات اللاهوتية وشرحها الدقيق، إلاَّ أنه للأسف لا يستطيع أحد أن يتبيَّن منهجاً محدداً يشمل كل كتاباته، لا لشيء إلاَّ لأنه لم يعطَ الفرصة قط ليجلس هادئاً ويؤلف لبناء الفكر الكنسي.

ولكن بالرغم من كل ذلك فكتابات أثناسيوس كلها تحمل طابع العقلية القوية الراجحة والناضجة جدًّا بل والعظيمة حقًّا، كما يحمل أسلوبه شخصية اللاهوتي العميق المتمرِّس الذي لا تقف تعبيراته اللاهوتية عند حد. وفوق هذا يبقى أثناسيوس رجل الحركة السريعة والمبادرة والمباغتة معاً، الأمر الذي جعل من أسلوبه اللاهوتي سلاحاً يضرب في كل جهة وفي المواضع الخفية جدًّا.

وأسلوب أثناسيوس متميِّز، لا يشبهه أي أسلوب آخر مما للاهوتيين قدامى ومحدثين، فهو يختلف كثيراً جدًّا عن باسيليوس وغريغوريوس ويوسابيوس في أصالة تعبيراته غير المصطنعة وغير المنمَّقة، كذلك يتميَّز جدًّا عن ترتليان كون أسلوبه سلساً وسهلاً ويخلو من الخشونة والجفاف، وهو يختلف عن جيروم كونه واقعياً وطبيعياً يخلو من التهويل والتضخيم المصطنع. ويختلف عن هيلاريون كونه **تلقائياً** غير متكلِّف. ويختلف عن أغسطينوس ويوحنا ذهبي الفم كون أسلوبه **بسيطاً** غير مشحون بالاستطرادات والمحسنات والمعاني الفرعية الكثيرة.

وأثناسيوس لم يكتب قط بنية التأثير على القارئ أو احتواء فكر السامع، ولكنه كان يكتب ليشرح الحق، والحق فقط، تاركاً الحق ليؤثِّر بنفسه على السامع والقارئ. فأسلوب أثناسيوس يخلو من الذات، ولكن لا يخلو قط من الحق. وكنتيجة مباشرة لذلك نجده يكرِّر ويكرِّر ما يقول بدون ملل، وهو يعي أنه يرهق السامع والقارئ بهذا التكرار، ويعتذر عن ذلك ويعتذر كثيراً، ولكن يعود إلى التكرار مرَّة أخرى لأنه مشغول دائماً بتوصيل الحق، ولا يريد أن يهدأ حتى يبلغ ذلك. وإن

كان الناقدون لأسلوب أثناسيوس يعتبرون هذا عيباً يؤاخذونه عليه، ولكن في الحقيقة لو أنصف هؤلاء لوضعوا هذا الخطأ كله على المعاندين للحق الذين لم يريدوا أن يخضعوا للحق أبداً، وهم يحاولون بالتحايل والغش والباطل تضليل البسطاء والحكماء على السواء.

كانت اللغة اليونانية التي يكتب بها أثناسيوس - وهو مواطن صعيدي وقبطي صميم - قد تباعدت نحو سبعة قرون عن مصادرها النحوية الأصلية التي كتب بها عمالقة الأدب واللغة عند شعراء وأدباء اليونان، فلا مجال إطلاقاً لمقارنة لغة أثناسيوس بالأولين. كذلك فإن اللغة اليونانية بعد أن استوطنت الإسكندرية كانت قد تغيرت شيئاً ما عن اللهجة الأصلية، لذلك نجد بعض النقاد مثل فيلوستورجيوس Philostorgius يقارنون بانحياز غير شريف ولا عاقل بين أدبيات اللغة عند أثناسيوس الذي بدأ يكتب في سنه الثالثة والعشرين، والذي كان يكتب مؤلفاته وهو يتنقَّل هارباً من مدينة إلى أخرى ومن جبل إلى جبل ومن برية إلى برية ومن كهف إلى كهف، في مقابل الكبادوكيين المنحدرين من أصل بيزنطي، الذين كتبوا وهم جالسون على عروشهم الحريرية وبين أيديهم مئات المؤلفات وبالأخص مؤلفات أثناسيوس نفسه!

ولكن بالرغم من ذلك، فعند المحللين المعاصرين يُعتبر أثناسيوس أعظم من عبَّر باللغة اليونانية عن فكر عصره كله وعن مضمون لاهوت القرن الرابع جميعاً، بل والوحيد الذي يعكس شخصية الرجل المسئول والغيور جدًّا على الكنيسة في كل كتاباته! ...

ويلاحظ اللغويون أنه يتخلل كتابات أثناسيوس ألفاظ لاتينية كثيرة مكتوبة بحروف يونانية، مما يكشف عن درايته وميله الطبيعي إلى اللاتينية التي تعلمها في أيام نفيه في إيطاليا وفرنسا.

وإنها لشهادة عظيمة التي يقدمها أرشيبلد روبرتسن في مقدمته عن كتابات أثناسيوس(٢)، قائلاً إن كل لاتينية ترتليان وكبريان وجيروم وأغسطين وليو (لاون)، وهم فطاحل اللغة اللاتينية بكل أدبياتها وتنميقاتها، تُعتبر في الدرجة الثالثة من جهة فعاليتها كأسلحة لاهوتية إذا ما قورنت بيونانية أثناسيوس الذي يُعتبر بين كل الآباء الذين كتبوا باليونانية أكثرهم جميعاً سهولة ويسراً وفهماً، لأن أسلوبه كان طبيعياً وهادفاً، وفي مضمونه يصوِّر لنا إنسان القرن الرابع بأكمله أكثر مما يصور لنا حقبة زمنية محصورة بحياته.

(2) NPNF, 2nd Series vol. IV, p. lxvi.

ثانياً: الاتجاهات المدرسية للاهوت أثناسيوس

معروف قطعاً أن لاهوت أثناسيوس نابع ومرتبط بمدرسة الإسكندرية، التي كانت ولم تزل إلى أيام أثناسيوس وبعده متأثرة بالفكر الأوريجاني (الجناح الأيمن) في طرق البحث والشرح والتحليل. فهو وريث شرعي للنتاج الفكري والتقوي لعظماء مدرسة الإسكندرية جميعاً: كليمندس وأوريجانوس وديونيسيوس وثيئوغنسطس؛ ولكن من شرح أثناسيوس وتعليقه على الأسفار المقدسة، خاصة رسائل الروح القدس التي أرسلها لسيرابيون أسقف تمي، يتضح أنه لا يأخذ مبادئ الأولين على علاّتها، ولكنه كان - بوعي وعمق شديدين - يصحح ويقوِّم أفكار السابقين على ضوء الوحي المقدس في الإنجيل. بل وفي مواضع كثيرة نجد أثناسيوس ينتقد ويقاوم بشدة أفكار أوريجانوس، كما صنع البابا بطرس الشهيد سلفه[3] في كتابه عن راعوث، وكذلك البابا ألكسندروس وميثوديوس (أسقف صور الشهيد ٣١١م).

ولكي يتضح لنا اتجاه أثناسيوس من نحو أفكار أوريجانوس وكل مَنْ جاء بعده، نقرأ له في الرسالة الخامسة إلى سيرابيون عن الروح القدس:

[لقد قرأت ما كتبه الآباء وبالذات الفيلسوف والمجاهد **أوريجانوس**، والعجيب المجاهد **ثيئوغنستس**، واطّلعت على كتبهم لأرى ماذا قالوا بخصوص هذا الموضوع ... ولكننا نحذِّر كل مَنْ يقرأ هذه الكلمات من عدم فهمها بصورة سليمة ... كما علينا أيضاً أن نحذِّر ... أمَّا عن نفسي فحسب ما تعلَّمت (هنا أثناسيوس يوضِّح أن الفكر الإسكندري كان قد فرز الفكر الأوريجاني وبدأ يكوِّن اتجاهاً أبوياً تقليدياً على أصول الآباء الرسل مبتعداً عن فلسفة أوريجانس)، فأنا أعتقد أن **رأي كل منهما يتطلَّب فحصاً ومراجعة دقيقة** ... وهذا هو التعليم الحقيقي الذي يجب أن نقبله.]

من هذا الكلام يتضح أن أثناسيوس كان يستقي أبحاثه أولاً من علماء مدرسة الإسكندرية السابقين، ولكن بحاسة رسولية لا تخطئ كان يقارن بين هذه الاجتهادات الفلسفية وبين الأصول الآبائية الأخرى البسيطة المسلَّمة من الرسل، ويعطي تعليماً يتناسب مع روح الإنجيل والتقليد.

(3) Fragmion (Ruth Rell. IV. 81) NPNF, 2nd Series vol. IV p. xxvii.

ويساعدنا في هذا التحليل العالم الناقد هارناك، في وصفه للاهوت أثناسيوس بقوله: "**إن لاهوت أثناسيوس لم يتعرَّض قط على مدى حياته إلى أي نوع من التطوُّر، بل كان لاهوت أثناسيوس ثابت الأصول والاتجاه من البداية حتى النهاية.**"(٤)

ومعروف أن مؤلفات أثناسيوس الأُولى ذات الطابع اللاهوتي الحر، أي التي لم تكن موجَّهة ضد الأريوسيين، مثل «الرسالة ضد الوثنيين» و«تجسُّد الكلمة»، تخلو من أي لمسة أوريجانية من قريب أو بعيد ـ بشهادة كل المحلّلين(٥).

ولقد ظل لاهوت أثناسيوس طول حياته ملتزماً بمقررات مجمع نيقية وتعبيراته ودقائق شرحه للإيمان الأرثوذكسي، ومعروف أن لاهوت مجمع نيقية كان يجمع بين دقة التحليل الغربي مع أصالة التقليد اللاهوتي الشرقي القائم على المعارضة الصريحة والشديدة للاتجاه الأوريجاني بوجه عام(٦).

ويقول العالِم أرشيبلد روبرتسن:

[**إن قانون الإيمان الذي وُضع في مجمع نيقية، وجد في أثناسيوس عقلاً سبق وأن تهيَّأ لكي يتعمَّق روح هذا الإيمان، كما وجد فيه المدافع صاحب أغنى وأخصب قدرة على استخدام منابع اللاهوت والإنجيل، بل ووجد في أثناسيوس من العمق والصلابة مع القدرة على الحركة والتكتيك؛ مما كتب لهذا القانون النصرة على يد أثناسيوس وأثناسيوس وحده من بعد الله**](٧)

وقد يبدو لأول وهلة أن أثناسيوس لم يلتزم بمنهج لاهوتي معيَّن، حتى قال عنه خطأ بعض العلماء ومنهم أرشيبلد روبرتسن نفسه، وهو المتخصِّص في أبحاث وكتابات أثناسيوس، إنه لاهوتي غير منهجي لأنه لم يخطِّط منهجاً متعدد الاتجاهات على أصول وفروع، ولأنه لم يلتزم بخط فكري فلسفي مثل أوريجانوس أو أغسطينوس، إذ لم يكن مالكاً لمواهب فكر الرجل المدرسي أو الفيلسوف.

ونحن نعترض على هذا، لأن أثناسيوس بالرغم من الوضع الذي ألزمته به الكنيسة كمدافع عن إيمانها كما التزم هو به من جهة إيمانه وحبه وصلته بالرب يسوع، الوضع الذي جعله كقائد جيش

(4) NPNF, ibid., p. lxviii.
(5) Ibid., p. 3.
(6) Ibid., p. lxix.
(7) Ibid.

لم يغادر غرفة عملياته على مدى خمسين سنة، وعلى عينيه منظاره المكبِّر يرصد به تحركات العدو ليرد عليها في الحال كل حركة بما يناسبها، فكيف يتناسب هذا مع وضع مناهج؟ نقول وبالرغم من هذا الموقف الفريد من نوعه، إلاَّ أنه لا يصعب قط على أي دارس صبور أو أي لاهوتي تقي مفتوح البصيرة أن يستخرج من مجموع كتابات أثناسيوس منهجاً كاملاً ذا أصول وذا فروع، ولا هو أمر صعب أن يعثر الدارس على فكر مدرسي وفلسفي. ولكن ليس كما يفعل التلميذ إزاء محفوظات معلمه، بل كما يكتب النبي والرائي ما يسمعه وما يحسه وما يراه على مدى سفر الحياة الذي استؤمن أثناسيوس أن يكتبه للكنيسة. وأيضاً ليس على مستوى صفحات مرقَّمة وفصول وأبواب ومقدِّمات ونهايات، ولكن كسلَّم تصعد عليه الملائكة وتنزل، حاملة أوامرَ وتوجيهات، يتكرَّر أوله إذا دعى الأمر كما تتكرَّر نهايته للضرورة، ويحل هذا محل ذاك بقدر ما تستدعيه المواقف والدفاعات.

ولكننا لم نعدم في بحثنا هذا من عالم يؤازرنا في رأينا هذا عن أصالة منهج قديسنا العظيم أثناسيوس. إذ قرأت للعالم أونجار(٨) وهو فرنسيسكاني .F.O.M ما يأتي:

[إن أثناسيوس كان مشتعلاً بنار الحب للمسيح، ونحن نحتسب أن ما خاطب به أثناسيوس أحد أصدقائه يصلح أن يُقال عنه هو: "إني واثق أنك تقيم في معرفة المسيح وحبه فوق أي شيء آخر"(٩). كما أنه يصلح أن يلقَّب أثناسيوس ما لُقِّب به هذا الصديق "فيلوخريستو" كلقب يعبِّر عن الحب نحو المسيح.

فمحبة أثناسيوس للمسيح هي المفتاح لفهم كل حياة أثناسيوس وكل كتاباته. "فالمسيح الكلمة المتجسِّد" يحتل مركز المنهج التعليمي لهذا المعلِّم الكنسي الشهير كما يرى هذا جميع مَنْ كتبوا عن أثناسيوس.

صحيح أنه لم يخطِّط منهاجاً يحيط بكل المسيحية أو اللاهوت (Summa theologia)، ولكن من كتاباته نستطيع أن نبني بكل تأكيد منهجاً كاملاً عن كل الفكر الديني في أيامه، وفيه يكون شخص المسيح دائماً في المركز!](١٠)

وعلى أي حال لا يختلف إثنان في كل علماء اللاهوت في الدنيا بأسرها وعلى مدى هذه القرون الطوال على السمة التي ميَّزت أثناسيوس صاحب **"لاهوت الخلاص"** بكل معنى الكلمة وبكل طوله

(8) Franciscan Studies, March. 1946, vol. 6, no. 1, p. 30.

(9) *Contra Gent.*, n. 1, (P.G. 25, 5B).

(10) Ungar, *op. cit.*, p. 30.

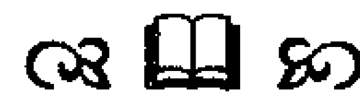
وعمقه، هذه السمة العظمى والنظرة الواحدة الثاقبة التي لم تفارق أثناسيوس في جميع كتاباته. **فلم يجعل أثناسيوس شيئاً قط**، حتى ولا أحب اصطلاح لديه مثل "الهوموؤوسيوس"، **أن يعلو فوق الحقيقة الأساسية وهي الفداء**، جاعلاً من هذه الحقيقة لا نظرية يدور حولها، ولا فكراً يقال ويزداد وضوحاً، بل حقيقة حيَّة شخصية قائمة دائمة: **"في شخص الفادي"**.

وقد جاهد أثناسيوس ليحوِّل نظرة الفلاسفة من لوغس الفلسفة إلى **لوغس إنجيل يوحنا**، ومن "إله الفلاسفة" إلى ا **الله المستعلن في يسوع المسيح لكي يصالح به العالم لنفسه**.

ومن سعد الكنيسة أن كان أثناسيوس هو الحضن المتسع الذي حمل كل التراث الكنسي واللاهوتي بحسب الروح الرسولية الأصيلة، ليسلّمه ـ عبر هذه العواصف المرعبة ـ بكل دقة وأمانة إلى كل أجيال المستقبل الصاعدة مشروحاً ومبرهناً.

ومن اللاهوتيين اليونان المحدثين جدًّا نجد "يوانو كالوتيرو"، بنفس التعبير، يشيد بالدور اللاهوتي الضخم الذي قام به أثناسيوس في الكنيسة، وذلك من مقال له ورد ضمن مجموعة المقالات المطبوعة في تسالونيكي في ذكرى مرور ١٦ قرناً على وفاة أثناسيوس يقول فيه:

[إن المسيحية تقبَّلت على يدي أثناسيوس الكبير بصورة ممتازة تصفية وتعميقاً في ما يختص بتوضيح وتثبيت عقيدة الثالوث من جهة علاقة يسوع المسيح المخلِّص الكلمة الإله الأزلي بالنسبة لجوهر اللاهوت.](١١)



أهم المبادئ الخلاصية التي يقوم عليها لاهوت أثناسيوس

١ ـ الإنسان والخلاص في لاهوت أثناسيوس.

٢ ـ معرفة الله في ذاته ومعرفة الله في الخليقة.

٣ ـ استعلان الثالوث ووحدانية الله عند أثناسيوس.

٤ ـ الإيمان والشهادة للمسيح كفعلين متلازمين مع المعرفة.

٥ ـ استعلان الروح القدس كأقنوم إلهي في الثالوث المتساوي.

٦ ـ عمل الروح القدس في الإعلان عن الآب وعن الابن.

(11) C.F. ΙΩΑΝΝΟΥ ΚΑΛΟΘΗΡΟΥ p. 208.

ملخّص الفصل الرابع

فكرة عن المنهج اللاهوتي العام للقديس أثناسيوس

أولاً: المنهج العام

■ مؤلفاته تحمل صبغة الدفاع عن الإيمان (فيما عدا الكتابين اللذين ألَّفهما قبل اندلاع النزاع الأريوسي – وكان ذلك في بكور حياته، وهما "ضد الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة").

■ يتميَّز أسلوب أثناسيوس عن باقي الآباء:
– في أصالة تعبيراته غير المنمَّقة، عن باسيليوس وغريغوريوس ويوسابيوس،
– في سلاسة أسلوبه وسهولته، عن ترتليان،
– كونه واقعياً وطبيعياً خالياً من المبالغة، عن جيروم،
– كونه تلقائياً غير متكلف، عن هيلاريون،
– بسيطاً غير مشحون بالاستطرادات والمعاني الفرعية الكثيرة، عن أغسطينوس ويوحنا ذهبي الفم.

■ كان أثناسيوس يكتب ليشرح الحق، والحق فقط، تاركاً الحق يؤثِّر بنفسه على السامع والقارئ.

■ لذا كان يعمد إلى التكرار، عن وعي.

■ اللغة اليونانية التي كتب بها أثناسيوس:
– إن أثناسيوس صعيدي قبطي صميم، إلاَّ أنه يُعتبر أعظم مَنْ عبَّر باللغة اليونانية عن فكر عصره وعن مضمون لاهوت القرن الرابع.

■ في كتابات أثناسيوس ألفاظ لاتينية كثيرة مكتوبة بحروف يونانية، مما يكشف عن دراية أثناسيوس وميله الطبيعي إلى اللاتينية.

ثانياً: الاتجاهات المدرسية للاهوت أثناسيوس

- ورث أثناسيوس لاهوت مدرسة الإسكندرية ومنهجها في البحث والشرح والتحليل.
- لم يأخذ مبادئ فلاسفة المدرسة اللاهوتية على علاتها. ففي مواضع كثيرة ينتقد ويقاوم بشدة أفكار أوريجانوس.
- وبالرغم من أنه استقى أبحاثه أولاً من علماء مدرسة الإسكندرية السابقين، لكنه بحاسة رسولية لا تخطئ كان يقارن بين هذه الاجتهادات الفلسفية وبين الأصول الآبائية الأخرى البسيطة المسلّمة من الرسل، ويعطي تعليماً يتناسب مع روح الإنجيل والتقليد.
- أتت مؤلّفات القديس أثناسيوس الأُولى خالية من أية لمسة أوريجانية من قريب أو بعيد.
- أمَّا كتاباته اللاحقة وتعبيراته ودقائق شرحه للإيمان الأرثوذكسي، فأتت ملتزمة بمقررات مجمع نيقية.

وقد كان لاهوت مجمع نيقية يجمع بين دقة التحليل الغربي مع أصالة التقليد اللاهوتي الشرقي، القائم على المعارضة الصريحة والشديدة للاتجاه الأوريجاني بوجه عام.

- لا يصعب على أي دارس صبور أو لاهوتي مفتوح البصيرة أن يستخرج من مجموع كتابات أثناسيوس منهجاً كاملاً لاهوتياً.
- ["**محبة المسيح**" فوق أي شيء آخر] هي مفتاح حياة أثناسيوس وكتاباته، ومنهجه اللاهوتي يتمركز حول شخص المسيح دائماً.
- السمة التي ميَّزت لاهوت أثناسيوس هي أنه صاحب "لاهوت الخلاص". فلم يكن أثناسيوس يترك شيئاً قط يعلو فوق الحقيقة الأساسية وهي "**الفداء**" جاعلاً من هذه الحقيقة حياة شخصية قائمة دائمة "في شخص الفادي".
- لقد حوَّل أثناسيوس نظرة الفلاسفة من "لوغس" الفلسفة إلى "لوغس" إنجيل يوحنا، ومن "إله الفلاسفة" إلى "الله المستعلن في يسوع المسيح"، لكي يصالح به العالم لنفسه.

الفصل الخامس

الإنسان والخلاص في اللاهوت عند أثناسيوس

أولاً: أُسس التقليد الآبائي
التي يقوم عليها الخلاص

أثناسيوس يعتبر أن **تجسُّد ابن الله، وموته على الصليب خاصة، هو مركز الإيمان واللاهـوت،** أو بتعبيره اليوناني: "رأس ومبدأ الإيمان ἴστεωςπκεφάλαιον τῆς"[1] كما يقول:

[لأنه **لأجل خلاصنا، الكلمة** صار **إنساناً ومات.**][2]

ولكن كيف كان أثناسيوس يفهم الخلاص؟ ومـن أي شـيء نحـن نخلـص؟ وإلى أيـة غايـة ينتهـي بنـا الخلاص؟

ثم ماذا كانت تعني حقيقة وفعالية موت المسيح عند أثناسيوس؟

ينبغي لدارس اللاهوت أن يفهم أن موضوع الخلاص لم تستطع الكنيسة على مدى كل العصور أن تستوفيه حقه، لعمقه وتعدُّد وجهات الرؤية لموضوع الفـداء الـذي أكملـه المسيح كمـا كشـفه وأعلنه الله لبولس الرسول[3].

ففي عصر الآباء الرسـوليين، بـدأت الرؤيـا مـن نحـو الخـلاص علـى مستوى أخلاقـي سـلوكي (متأثرين بالعهد القديم)، باعتبار أن **الإنجيل هو الناموس الجديد** والوعد بالحياة الأبدية القائمة على معرفة الله معرفة حقة، على أن يكون قبول الله بالإيمان فيصير الخلاص انتقالاً من حياة الشر - أي التدبير الشمالي بتعبير الليتورجيا، (تدبير الخطية) - إلى حياة البر أي التدبير اليميني بتعبير الليتورجيـا أيضاً (تدبير الصلاح).

ثم جاء آباء آسيا الصغرى من القديس أغسطينوس، ومَنْ بعـده (وهـم متـأثِّرون بـالطب)، فنظـروا الخـلاص مـن وجهـة نظـر طبيعيـة أو واقعيـة - مرضيـة - **فالمسـيح جـاء كطبيـب، والإنسانية في المسيح الطبيب انتقلت من مرض الموت إلى صحة الحيـاة، أي مـن الفسـاد إلى عدم الفساد** ἀπὸ φθόρας εἰς ἀφθαρσίαν، **وأن الطبيعة البشرية تغـيَّرت بالتجسُّـد، فصـار**

---

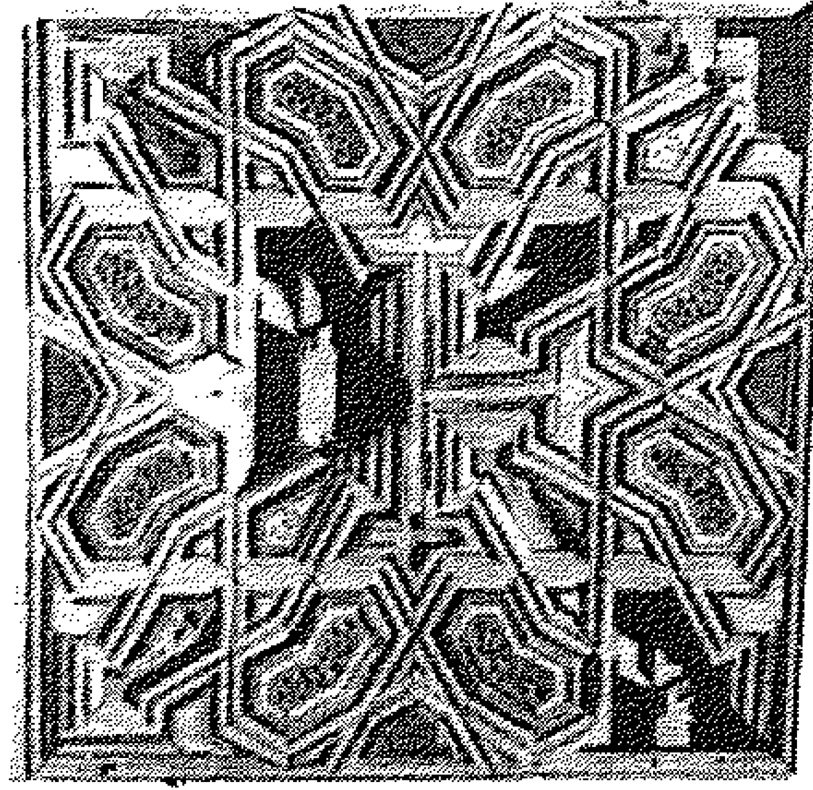
(1) Athanas., *Incar.*, 19.4.

(2) Athanas., I, etc.

(3) N. & P.N.F., Ser. II, vol. IV, p. lxix.

به "**الإنسان إلهاً" أي يحيا مع الله إلى الأبد شريكاً في صفاته وطبيعته الإلهية**. ثم جاء آباء شمال إفريقيا (محامون)، ونظروا إلى **الخلاص كعمل قضائي أو اشتراعي، كحكم صدر بناءً على تعدي وعن ديون ويحتاج إلى محكمة وقضاء وشفاعة وتبرئة من ديون ثقيلة**. فأدخل ترتليان إلى اللاهوت الغربي كله عقيدة الدرجات القضائية التي يمر فيها الإنسان، من حالة التجريم والتغريم إلى حالة الصفح والبراءة، **وطبّقها على المسيح في شخصه هو، وليس من جهة أعماله. أي أنه جاز القضاء وحصل على البراءة. وظل هذا الفكر متجذّراً في لاهوت الغرب وازداد في زمان انشقاق البروتستانت وبقي حتى اليوم كأساس لمفهوم الخلاص عند الغرب عامة.**

أمّا عند أوريجانوس فاتسعت النظرة الفلسفية نحو الخلاص فشملت العالم بأسره. **فالخلاص عمل كوني** Cosmological **تمّ على مستويات شملت العالم بأسره حيث تحوّل الشر كمشكلة العالم الأولى والعظمى إلى "الخير" الكلي (الصلاح)، وانهزمت جنود الشر في هذا الصراع تحت سلطان الله.**



ثانياً: أساس لاهوت الخلاص عند أثناسيوس

ثم جاء أثناسيوس وأمامه هذا التراث المتعدِّد الجوانب لموضوع الخلاص والفداء. والعجيب أنه لم يتجاهل أي وجه من أوجه هذا التراث، ما عدا فكر أوريجانوس بخصوص الصراع مع الشيطان فيكاد يكون أثناسيوس قد تنحَّى عنه تقريباً، ولو أنه مرَّ عليه مروراً.

فالخلاص عند أثناسيوس شمل هذه العناصر، وكان واضحاً في التأكيد على أهمية عامل **القضاء** بمعنى العقوبة والتبرئة على أساس **الدَّينْ** الذي كان يتحتم علينا دفعه، باعتبار أن الموت الذي تمَّ القضاء به علينا **بكلمة الله** (تك ٣) قد ارتبط بالخطية كعقوبة يتحتَّم دفع ثمنها كدين τὸ ὀφειλόμενον(٤):

[والآن نكون قد بيَّنا جزئياً على قدر المستطاع، وعلى قدر ما استطعنا إدراكه، **العلة التي من أجلها ظهر (الرب) جسدياً**،

(أ) وهي أنه لم يكن في مقدور أي أحد آخر أن **يحوِّل الفاسد إلى عدم الفساد إلاَّ المخلِّص بنفسه**، وهو الذي بنفسه ومنذ الابتداء قد خلق كل شيء من لا شيء؛

(ب) لذلك فإنه ليس بمقدور أحد آخر أن يخلق من جديد مثال صورة الله للإنسان سوى الذي هو **صورة الآب!**

(ج) وأنه ليس بمقدور أحد آخر أن **يجعل المائت غير قابل للموت** سوى ربنا يسوع المسيح الذي هو "**الحياة نفسها**".

(د) كما أنه ليس بمقدور أحد **أن يعلِّم الناس شيئاً عن الآب، ويبطل عبادة الأوثان، سوى "الكلمة"**، الذي يدبِّر كل شيء وهو وحده الابن الوحيد الحقيقي للآب.

(هـ) **ولكن نظراً لأنه كان يتحتَّم دفع الدين المطلوب على الجميع، لأنه كما سبق وقلت إنه كان يتحتَّم على الجميع أن يموتوا، فلهذا السبب الخاص بالذات حقًّا، جاء بيننا!**

ومن أجل هذا الغرض نجده بعد أن أكمل كل براهين لاهوته بواسطة الأعمال التي عملها، **قدَّم** نفسه **كذبيحة** عن الجميع **مسلِّماً هيكله للموت** عوضاً عن الجميع وذلك:

---

(4) Athanas., *Incar.* 20, *Orat.* II; 66.

- من أجل أن يخلّص الناس ويجعلهم أحراراً من تعدياتهم وذنوبهم القديمة؛
- ليعلن أنه قوي، وأقوى من الموت ذاته مُظهراً جسده علناً وهو في حالة عدم الفساد كباكورة لقيامة الجميع.

ولكن أود أن لا تستغربوا أني أكرِّر نفس الكلام بخصوص نفس الموضوع (الخلاص)، إذ أننا بصدد الكلام عن مشورة الله وتدبيره، لذلك فنحن **نشرح ذات المعنى على أكثر من وجه، خوفاً من أن نفقد شيئاً (من أوجه التقليد المتعددة في هذا الموضوع). ولئلاّ نُطالب بتهمة التسبب في عدم معالجة الموضوع بالقدر الكافي.** لأنه أفضل لنا أن نقع تحت الملامة من أجل التكرار من أن نترك شيئاً كان ينبغي أن نسجِّله! فالجسد (الذي اتخذه الرب) لأنه يشترك مع الجميع في نفس الطبيعة إذ هو جسد بشري ـ مع كونه مأخوذاً من عذراء فقط بمعجزة فائقة لا تجارى ـ **ولكن لأنه جسد قابل للموت، كان ينبغي أن يموت أيضاً وفق نظرائه. ولكن بمقتضى حقيقة اتحاده "بالكلمة" صار غير خاضع للفساد بحسب طبيعته.**

وهكذا حدث أن اجتمع فيه معجزتان معاً، فالموت الذي على الجميع تمَّ وتحقَّق في جسد الرب ثم أن الموت والفساد انغلبا وزالا معاً بواسطة "الكلمة" المتحد بالجسد!

لأنه كانت هناك حاجة إلى الموت، وكان الموت في حاجة إلى مَنْ يعانيه عن الجميع لكي ما يسدِّد الدين القائم على الجميع!!

وبما أن "**الكلمة**" ـ كما قلت سابقاً ـ ليس في مقدوره أن يموت، لأن "الكلمة" غير قابل للموت، لذلك أخذ جسداً لنفسه له قدرة أن يموت حتى يستطيع أن يقدِّمه كخاصته عوضاً عن الجميع، وإذ تألَّم من خلال اتحاده به (بالجسد) عوضاً عن الجميع استطاع أن يبيد ذاك الذي له سلطان الموت ـ أي الشيطان ـ لكي يخلّص أُولئك الذين بسبب الخوف من الموت كانوا كل أيام حياتهم تحت العبودية.](٥)

والآن يكفي للقارئ أن يعود مرَّة أخرى ليقرأ هذه الصفحة الرائعة عن لاهوت الخلاص لأثناسيوس، ليكتشف كيف استطاع هذا العملاق أن يجمع بالفعل كل أوجه التقليد عن الخلاص كما تسلَّمته الكنيسة، كما رقمناها تحت الحروف (أ ، ب، ج، د، هـ)، ثم عاد وأكد بتكرار جديد بديع للغاية ما جاء سابقاً تحت حرف (هـ)، مشيراً بذلك إشارة بليغة إلى تفضيله أخذ

(5) Athanas., *Inc. of the Word*, 20.

الخلاص في معنى تسديد دين عقوبة الموت!

ولكي يتضح لدى القارئ أهمية فكرة تسديد الدين في مفهوم الخلاص عند أثناسيوس نقرأ له مرَّة أخرى بتوضيح آخر في مقالته الثانية في الدفاع ضد الأريوسية الآتي:

[لأننا **لن نسمع مرة أخرى: «اليوم الذي تأكل منها موتاً تموت»** (الحكم) بل نسمع: «حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (تبرئة).

من أجل هذا فإن "كلمة ا لله" الكامل وضع على نفسه جسد البشرية غير الكامل، وذلك من أجل تكميل الأعمال، حتى يدفع الدين الذي علينا عوضاً عنا حتى يستطيع أن يكمِّل بنفسه ما كان ناقصاً أو مفقوداً من الإنسان.

وأمَّا الإنسان فكان فاقداً عدم الموت وأضاع طريق الفردوس ...][(٦)]

وبالإضافة إلى وجهات الخلاص المتعدِّدة هذه لم يغفل أثناسيوس أيضاً نموذج الخلاص بالتقدمة، ثم بالذبيحة الكهنوتية التي أكملها المسيح في نفسه كفَّارة من أجل الجميع أو عوض الجميع، وهي نظرة العهد القديم العملية والواقعية لتصوير مفهوم الخطية وفعلها القاتل للنفس، والتي لا رجاء من رفع تأثيرها وعقوبتها إلاَّ بالفداء. وقد أفاض في شرحها كالآتي:

١ – التقدمة προσφορά – الكهنوتية – كفعل خلاص:

[وحينما صارت مشيئة الآب السمائي أن تُدفع الفدية – الكفارة – عن الجميع، لكي تُمنح النعمة للجميع، لذلك أخذ الكلمة بالحق ... جسداً ترابياً ... لكي كرئيس كهنة يستطيع أن يقدِّم نفسه (بجسده) إلى الآب ويطهِّرنا من الخطايا جميعاً في دمه.][(٧)]

[لأن **الكلمة** إذ رأى أنه ما من وسيلة لرفع الفساد عن الإنسان إلاَّ بالموت كحالة ضرورية، بينما في نفس الوقت كان مستحيلاً على الكلمة أن يجوز الموت، لأنه غير قابل للموت باعتباره ابن الله، من أجل هذا اتخذ له جسداً قابلاً للموت، حتى بهذا الجسد الذي اشترك فيه الكلمة الذي هو فوق الجميع يستطيع **أن يكون كفواً للموت عن الجميع**، وفي نفس الوقت يرى أنه بسبب "الكلمة" الذي أتى واتحد به **صار الجسد غير قابل للفساد**، ومن ذلك فصاعداً أمكن أن يرفع الفساد عن الجميع بنعمة القيامة.

(6) Athanas., *Discourses against the Ar.* II, 66.
(7) Athanas., *C. Ar.* II, 7.

وهكذا فإن الكلمة بتقديم جسده – الذي أخذه – كتقدمة προσφορά خالية من أي دنس، رفع وأباد في الحال (حكم) الموت عن كل نظرائه بتقديم المعادل والبديل! (مفهوم واقعي بديع **للفداء**).

لأن "كلمة الله" كونه أعلى من الجميع، صار من الطبيعي أن يكون موته بتقديم هيكله الخصوصي كوسيلة جسدية من أجل حياة الجميع، كافياً لتسديد الدين عن الجميع (مفهوم بديع عن **الخلاص بتسديد الدين**).

وبذلك فإن ابن الله غير القابل للفساد، **لما اشترك مع الجميع بذات الطبيعة البشرية، ألبس الجميع عدم الفساد عينه بوعد القيامة!** (مفهوم بديع عن معنى **الخلاص بالخروج من دائرة الفساد**).

لذلك فإن الفساد الحقيقي (الهلاك) القائم في الموت لم يعد له أساس أو علة للوجود ضد الإنسان، بسبب "**الكلمة**" الذي بجسده الواحد جاء وسكن بيننا ... لأن جنس البشر كان سيسير إلى العدم لو لم يأتِ الرب مخلِّص الجميع ابن الله – ويحل بيننا ويواجه الموت ويضع النهاية له. (مفهوم بديع **للخلاص كغلبة الموت**).][8]

٢ – الذبيحة ἡ θυσία – كفعل خلاص[9]:

وهي تساوي فعل التقدمة السابق مضافاً إليه عنصر الألم حتى الموت!

[فالعالم كان في ما سبق مُداناً، وكان تحت القضاء والدينونة من قِبَل الناموس، **وأمَّا الآن فقد وضع "الكلمة" على نفسه عقاب الدينونة هذه، وإذ تألَّم في الجسد** من أجل الجميع منح الخلاص للجميع.][10]

[وبالأكثر جدًّا الإله "الكلمة" الذي للآب الكلي الصلاح لا يمكن أن يهمل الجنس البشري، عمل يديه، ليسير نحو الهلاك والفساد، ولكنه لما محا الموت بواسطة **تقديم جسده الخاص**

(8) Athanas., *Incar. of the Word*, 9.

(٩) يلاحظ القارئ أن هناك فرقاً أو تمييزاً بين "**التقدمة**" و"**الذبيحة**". فالتقدمة تتم أولاً ثم تُرفع كذبيحة أمام الله، هذا ورد في التقليد الليتورجي القديم، فإن القداس يبدأ **بتقديم الحمل**، وهذا عمل ليتورجي قائم بذاته، ثم يليه قداس الذبيحة. في تقديم الحمل يتحوَّل الخبز والخمر إلى حمل مهيَّأ للذبيحة προσφορά في القداس يُذبح الحمل وتُرفع الذبيحة θυσία.

(10) Athanas., *C. Ar.* I, 60.

هكذا، أصلح إهمال الإنسان بتعليمه. فأعاد كل ما كان للإنسان بقوته الخاصة.

وهذا كله يتأكّد لنا بواسطة كلمات بولس الرسول: «لأن محبة المسيح تحصرنا، إذ نحسب هذا أنه **إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا، وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء في ما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام**» (٢كو ٥: ١٤و١٥). كما يقول أيضاً: "ولكن الذي وُضع أقل (بسبب التجسُّد) عن الملائكة قليلاً (زمن)، يسوع، نراه **مكلَّلاً بالمجد والكرامة من أجل "ألم الموت" لكي "يذوق" بنعمة الله الموت لأجل كل واحد.**" (انظر: عب ٢:٩)

ولكن بولس الرسول يعود ويوضِّح السبب الذي من أجله كان يلزم أن لا يتجسَّد أحد آخر سوى الإله الكلمة نفسه هكذا: "**لأنه كان يليق به، ذلك الذي الكل به كان ومن أجله كان الكل**، أن يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد، **أن يكمِّل رئيس خلاصهم بالآلام.**" (انظر: عب ٢:١٠)

وبهذه الكلمات كان بولس الرسول يعني أنه كان لا يخص أحداً آخر قط أن يستعيد الإنسان مرَّة أخرى من حالة الفساد الذي حدث، إلاَّ "كلمة الله" الذي صنع الإنسان منذ البدء!

وأنه لكي تقدَّم ذبيحة عن الأجساد، التي هي مثل جسده، لزم أن "**الكلمة**" نفسه يتخذ جسداً أيضاً، وهذا أيضاً يشير إليه بولس الرسول هكذا: "لأنه كما أن الأولاد متشاركون في اللحم والدم، فإنه هو نفسه أيضاً اشترك مثلهم في نفس الشيء، لكي يبيد بالموت ذلك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، حتى يتسنَّى له أن يخلِّص أُولئك الذين بسبب الخوف من الموت كانوا كل أيام حياتهم تحت العبودية." (انظر: عب ٢: ١٤و١٥)

لأنه بذبيحة جسده الخاص صنع أمرين معاً: الأول: وضع النهاية للناموس الذي كان ضدًّا لنا؛ وثانياً: جعل لنا بداية جديدة للحياة بالرجاء في القيامة التي أعطاها لنا.

لأنه من حيث أن الموت ساد على كل الناس بواسطة إنسان، هكذا حدث العكس، أي كلمة الله، إذ قد صار إنساناً حصل على إبادة الموت وقيامة الحياة، كما قال بولس الإنسان الحامل للمسيح: «فإنه إذ الموت بإنسان بإنسان أيضاً قيامة الأموات.» (١كو ١٥:٢١)

«لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيصير الجميع أحياءً.» (١كو ١٥:٢٢)

... وهذا هو السبب الأول الذي من أجله صار المخلِّص إنساناً.] (١١)

ثم من هذه الاتجاهات التي ركَّز عليها القديس أثناسيوس، نستطيع أن نلخِّص نقط الارتكاز الأساسية في هذه الكلمات: **الموت والحياة، الفساد وعدم الفساد.**

ولكن هناك دقائق هامة جدًّا في عرض أثناسيوس لأفكاره عن الخلاص تستلزم الفهم والتدقيق، وسنعرض لها باختصار:

حالة الإنسان الأُولى وما آلت إليه وما أعوزها

(في إطار معنى الخلاص)

يؤكِّد أثناسيوس أن مجمل حالة الإنسان الأُولى (أي خلقة آدم) لم تكن بحسب عناصر الطبيعة (Nature) فقط، لأن الطبيعة المجرَّدة قابلة للفساد φθορά وبالتالي للزوال، لذلك وهب الله "الكلمة" للإنسان لكي تكون خلقته على صورة الله ـ غير زائلة ـ أي **"غير فاسدة"** (وهذا ينطبق تماماً وبالحرف الواحد على التقليد الليتورجي الوارد في قداس القديس باسيليوس القبطي، الذي يبدأ بقوله: [يا الله العظيم الأبدي **الذي جَبَلَ الإنسان على غير فساد.** (ونصها اليوناني في القداس القبطي الأصيل: **الذي خلق الإنسان على الخلود**).]

وهنا يفترق أثناسيوس عن اللاهوت المعاصر الآن (وخاصة اللاهوت الكاثوليكي) الذي يقول بأن الإنسان بالخلقة الأُولى وُهب ـ كاستثناء ـ عطية فائقة لطبيعته ـ يمكن أن يفقدها فيعود إلى طبيعته (الترابية) الزائلة.

أمَّا أثناسيوس فيقول إن خلقة الإنسان الأُولى كانت **على صورة الله** منذ الخلق أي **بموهبة** "الكلمة". لذلك فالإنسان يستحيل أن يفقد فعل وصورة **"الكلمة"** لأنها من صميم خلقته، ولا يمكن أن تفارقه فيصير الإنسان إلى زوال، إنما **يمكن فقط إن تضعف أو تتلف ولكن لا يمكن أن تُفقد بالكلية!** (١٢) أي صورة الله لا تمحى مطلقاً ـ فيتحوَّل الإنسان إلى الزوال ـ حتى من أشر الناس، ولكنها تتشوَّه (بمعنى أن يفقد الإنسان المعرفة ذات البصيرة النيِّرة التي يعرف بها الحق من الباطل إثر خطية معرفة الخير والشر التي أكلها فترسَّبت في عقله وليس في بطنه)، وبالتالي يفقد

(11) *Incar. of the Word*, ch. 10.

(12) Ibid., ch. 14.

الصفات التي هي أصلاً إلهية ووُهبت له كنعمة مجّانية، مثل الحب الإلهي والتواضع والوداعة والطاعة والسلام والفرح وطول الأناة والشكر والتسبيح الدائم إلخ. ولكن يستحيل أن يفقد صورة الله وأهم مميزاتها الجوهرية ـ الخلود(١٣).

وفي هذا يقول أثناسيوس:

[إن هذا يشبه صورة لإنسان رُسمت على لوحة، ثم حدث أن تشوَّهت بأصباغ خارجية، **هنا يصبح من اللازم حضور صاحب الصورة مرَّة أخرى حتى يتسنَّى تجديد صورة الوجه على ذات الخشب.** كذلك فإنه بسبب كرامة الصورة يصبح من غير اللائق أن تُلغى اللوحة الخشبية المرسوم عليها الصورة ـ حتى ولو تشوَّهت ـ بل يكون من اللائق إعادة تجديد ملامح الصورة عليها.

هكذا، وبنفس المعنى، فإن القدوس ابن الله إذ هو صورة الآب جاء إلى عالمنا ليجدِّد الإنسان المصنوع على صورته ويوجده (يعيده إلى الوجود الإلهي) كواحد قد ضل، ولكن لم يُزل وذلك عن طريق رفع (مغفرة) خطاياه (الصبغة التي شوَّهت الصورة) كما قال الرب نفسه: «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك.» (لو ١٩: ١٠)

من أجل هذا قال لليهود أيضاً: «إذا لم يولد الإنسان **ثانية (من جديد)**» (يو ٣: ٣و٥)، وهو لا يقصد كما ظنوا أنه ميلاد من امرأة ولكن **يتكلَّم عن النفس التي تولد وتُخلق من جديد على شبه صورة الله ...**

فإذا كانت **معرفة الله قد أُخفيت**، فعلى مَنْ تُلقى مسؤولية تعريف العالم بالآب؟ ... والإنسان ليس في مقدوره أن يواجه غش وخداع الأرواح الشريرة المضلَّة؟ أو كيف يتوفَّر للإنسان أن ينتصر على ما هو فوق حدود قدرة نفسه وعقله، في حين أنه لا يستطيع حتى أن يراهما؟ أو كيف يستطيع الإنسان أن يغيِّر في أمور لا يراها (النفس والعقل)؟

فإذا قال قائل إن في الخليقة ما يكفيها للقيام بذلك، **ولكن إن كان في الخليقة حقًّا هذه القدرة لكان من المستحيل على هذه الشرور العظيمة أن تحدث للإنسان.**

لأن **الخليقة بينما كانت بكامل إمكانياتها**، إذا بالإنسان يتدهور ويقع في هذه الأخطاء

---

(١٣) المؤلِّف.

بالنسبة لله.

فإلى مَنْ تكون الحاجة؟ أو فمن ذا يكون المنقذ - إلاَّ **"كلمة الله"** وهو الوحيد الذي **يرى النفس والعقل** والذي يهب الحركة لكل ما في الخليقة؟ **وبواسطتها يعلن الآب؟**

لأنه هو الذي كان - منذ البدء - يعلّم البشر عن الآب بتدبيره لكل شيء وبأعمال عنايته، وهو أيضاً الذي يستطيع أن يجدِّد هذا التعليم عينه.

... ولكن (وبالرغم من ذلك) فالبشر فقدوا الرؤيا نحو السمائيات والتفتوا نحو الأرضيات. لذلك وهو راغب في أن يربح الإنسان لنفسه جاء إلينا متغرِّباً كإنسان، آخذاً لنفسه جسداً كالآخرين ومن الأرضيات، أي بأعمال جسده (إنسانيته) بدأ يعلّمهم حتى إن ما كان قد تعذّر عليهم أن يدركوه من خلال تدبيره وعنايته الفائقة الروحانية وسلطانه على كل شيء، فإنهم لا يخفقون في إدراكه **"ككلمة الله متجسِّداً"** من خلال الأعمال التي قام بها بجسده الحقيقي وبالتالي يدركون الآب أيضاً.](١٤)

ومرَّة أخرى يعود أثناسيوس بعد ذلك بزمان طويل ويؤكِّد ويكرِّر:

[لأنه بالرغم من أننا مخلوقون على صورة الله ومدعوون معاً كصورة الله لمجده، ولكن ليس هذا **كأنه لنا من ذواتنا أو لحسابنا ولكن لحساب الصورة الحقيقية والمجد الحقيقي الذي لله الساكن فينا الذي هو "كلمته"** الذي من أجلنا "صار بعد ذلك جسداً" **هذا الذي صار لنا كنعمة امتيازنا** (عن كل الخلائق الأخرى).](١٥)

على أن التصدُّع الذي حدث في صورة الإنسان بالمخالفة لوصية الله، الأمر الذي انتهى بالإنسان إلى الالتصاق بالأرضيات عِوضاً عن الرؤيا والتأمُّل السمائي θεωρία τῶν θεῖων(١٦)، طوَّح بالإنسان فكرياً نحو فقدان الله الذي هو نفسه عدم الوجود(١٧) (في حضرة الله).

ولكن بحسب الواقع **كان هذا الابتعاد عن صورة الله يتم تدريجياً نحو الفساد** φθορά وهذا كان في حقيقته **عملية خطيرة تسير بالإنسان نحو فقدان الله كلية - وكان أثرها الواضح**

(14) Athanas., *Inc. of the Word,* ch. 14.

(15) *Discourse against Ar.* III. 10, NPNF, Series II, p. 399.

(16) *Contr. Gent.* 3.

(17) *De Incar.* 4.

والمباشر هو ازدياد الجهل بالله الموازي لتشوُّه صورة εἴκων **"الكلمة" أي اللوغس الساكن في الإنسان** (الذي يعطيه الإدراك والمنطق والبصيرة والرؤيا الصحيحة) الذي كان الإنسان بواسطته، وبواسطته فقط، يقرأ ويستعلن الله ذاته في العالم كما في كتاب مفتوح(١٨).

ومن هذا العرض السريع والمختصر، ندرك أن القديس أثناسيوس يركِّز في الأساس - من جهة التغيير إلى أسفل الذي أصاب الإنسان - على الناحية المرضية pathological التي أصابت طبيعة الإنسان، فوق كل الآثار الأخرى الجانبية المترتِّبة على ذلك **مثل النواحي الأخلاقية والسلوكية** - مؤكِّداً أن صورة الله في الإنسان لم تفنَ بل تشوَّهت.

وهو يتبع بذلك الخط الواضح الذي يؤكِّده الإنجيل من أقوال الرب: "فلمَّا سمع يسوع قال لهم: **لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ... لأني لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة.**" (مت ٩: ١٢و١٣).

كذلك أوضح أثناسيوس جدًّا أن هناك تصدعاً أصاب الطبيعة البشرية بسبب الخطية، أوردها موارد الهلاك والفساد، وكان يسير بها نحو فقدان الله نهائياً، وأصبح الحل الوحيد والحاجة الوحيدة متركِّزة في تغيير جذري تجوزه الطبيعة البشرية، لا يمكن أن يتم إلاَّ بتجديد التحام العنصر الإلهي أي الصورة الأصلية "**الكلمة**" في صميم هذه الطبيعة البشرية، كما كان سابقاً، والذي فقدته البشرية (بالموت) تدريجياً، وصارت تسير بدونه نحو الحرمان الكلي من الحياة في الله أو الوجود معه(١٩) الذي هو الهلاك.

وهو يوضِّح ذلك أيضاً هكذا:

[إنه سابقاً لم يكن شيء موجوداً على الإطلاق، فكان المطلوب لخلقة كل شيء هو مجرَّد نطق ملكي، ثم الإرادة الإلهية لإتمام ذلك.

ولكن بعد أن خلق الإنسان، وأصبح الأمر يحتاج بحسب الواقع إلى **علاج ما هو قائم وموجود** وليس ما هو غير موجود؛ دعت الضرورة أن يظهر الطبيب والمخلِّص في الخليقة الموجودة التي وصلت إلى تلك الحال، **لكي يشفي ما حدث**، لهذا السبب بالذات صار هو إنساناً واستخدم جسده كوسيلة بشرية ...

---

(18) *C. Gent.* 34 fin.
(19) *De Incar.* 44.

لأن الخلاص لم يكن مطلوباً لأشياء ليس لها وجود، حتى كان يكفي مجرَّد صدور أمر إلهي به؛ ولكنه (صار) مطلوباً للإنسان، الذي كان موجوداً بالفعل وكان منحدراً إلى الفساد والهلاك، لهذا كان من الطبيعي ومن العدل أن يستخدم "**الكلمة**" وسيلة بشرية ويعلن نفسه جهاراً.

ثم يلزم أن ندرك أن الفساد الذي دخل الطبيعة البشرية لم يكن خارج الجسد، بل صار ضارباً فيه، فصار الجسد في حاجة إلى أنه عوض الفساد والموت تدخل فيه الحياة وتمسك به، حتى كما ملك الموت في الجسد تملك فيه الحياة بالمقابل.

والآن إذا كان الموت عنصراً خارجاً عن الجسد، لكان من اللائق أن تكون الحياة المطلوبة له عنصراً يأتيه من الخارج. ولكن إذا كان الموت ربط الجسد وأصابه في الصميم وصار سائداً عليه وكأنه قد اتحد به، أصبح من الحاجة أن تكون الحياة (الكلمة) مربوطة في صميم الجسد (التجسُّد)، حتى يتسنَّى للجسد وقد لبس الحياة عوض الموت أن يلقي عنه الفساد ويتخلَّص منه.

بل وحتى لو فرضنا أن "كلمة الله" قد جاء بدون جسد (أي خارج الجسد) وليس في الجسد، لكان قادراً أن يهزم الموت تماماً بحسب طبيعة الكلمة، لأن الموت ليس له سلطان البتة على الحياة (مصدر الحياة). ولكن حتى ولو حدث ذلك لظل الفساد عالقاً بالجسد البشري!!

من أجل هذا نجد أنه بحكمة لبس الكلمة جسداً حتى إذا ارتبط الجسد وثيقاً بالحياة لا يعود بعد كمائت يسكن في الموت؛ بل إذ يلبس عدم الموت، يُعطَى له أن يقوم ثانية في القيامة ويبقى غير مائت.

لأن الجسد بمقتضى أنه لبس الفساد، كان يستحيل عليه أن يقوم ثانية من الموت، إلاَّ إذا (نفض عنه الفساد) ولبس الحياة.

ولأن الموت لا يمكن بأي حال من الأحوال بمقتضى طبيعته أن يظهر إلاَّ في جسد، لهذا لبس "كلمة الله" جسداً لكي يواجه الموت بالجسد ويظفر به ويغلبه. أو كيف للرب – على أي حال – أن يُثبت أنه الحياة، إن لم يكن قد أقام ما هو مائت؟][٢٠]

(20) Ibid.

ثالثاً: موت المسيح على الصليب
عند أثناسيوس في إطار معنى الخلاص

كان همُّ أثناسيوس الذي يحرِّك فكره وقلمه في بداية حياته، أن يثبت للوثنيين حتمية تجسُّد "كلمة الله" لتكميل خلاص الإنسان. لذلك فالبؤرة التي كانت تجمع كل أفكار أثناسيوس وتشعُّها لم تكن الصليب، بل التجسُّد. ولكن بطبيعة الحال لم يَغِبْ عن أثناسيوس ولا إلى لحظة واحدة أن التجسُّد غايته الأُولى هي خلاص الإنسان، هذا الخلاص الذي يستحيل أن يتم إلاَّ بموت المسيح.

فالإنسان أقحم نفسه في دائرة الموت متورِّطاً في التعدي، فوقع تحت حكم الموت، ولذلك أصبح تكميل الحكم بالموت على كل إنسان أمراً حتمياً، وهذا أكمله المسيح في نفسه عن كل إنسان!! ويلاحظ القارئ هنا ربط الخطية بالموت والخلاص الذي يقدِّمه أثناسيوس بمنتهى الوضوح والتسلسل اللاهوتي:

[وأرسل ابنه الخاص، وهذا باتخاذه لنفسه جسداً من خليقته صار ابناً للإنسان. وبينما الكل ساقط تحت حكم الموت، إلاَّ أنه كونه غير هؤلاء جميعاً، وقد قدَّم للموت جسده الخاص؛ صار الكل فيه وكأنهم ماتوا جميعاً، وهكذا كملت الكلمة القائلة: «لأن الكل مات في المسيح» (٢كو ٥:١٤)، **والكل أصبح فيه أحراراً من الخطية ومبرَّئين من اللعنة التي أتت على الجسد، يقومون من الموت لابسين عدم الموت في غير فساد ليدوموا إلى الأبد.**

لأن الكلمة لمَّا لبس الجسد صارت كل عضة للحية عديمة الفاعلية، إذ أوقف مفعولها نهائياً منه، بل وكل شر ناتج من حركة الجسد انقطع تيَّاره في الحال، ومع هذا وذاك، أبطل مفعول الموت الذي هو رفيق الخطية، كما قال الرب نفسه: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو ١٤:٣٠)، وأيضاً: «لأجل هذا أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس» (١يو ٣:٨). **ولمَّا أُبطلت ونُقضت هذه من الجسد، تحرَّرنا جميعاً بالتالي بسبب قرابتنا واتصالنا بهذا "الجسد" وصرنا متحدين بالكلمة، خاصة من جهة المستقبل.**][(1)]

(1) Athanas., *Contra Arian, against Ar.* II. 69. NPNF, Series II, vol. 4. p. 386.

وهنا يهمنا جدًّا أن ننبِّه القارئ، أن أثناسيوس وإن كان يركز بشدة على حقيقة الموت ذاته كعلة الهلاك والفساد، ويصوِّب الخلاص الذي أكمله المسيح على إلغاء وإبادة الموت؛ إلاَّ أن أثناسيوس لا يغفل إطلاقاً مفهوم الخطية باعتبارها العلة المؤدِّية للموت.

ونحن نختلف تماماً مع العالِم اللاهوتي أرشيبلد روبرتسن[٢] في قوله إن أثناسيوس لم يتغلغل إلى المعنى العميق الذي وصل إليه بولس الرسول في ربط الخطية بالموت بالخلاص في قوله: «لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه، في ما كان ضعيفاً بالجسد (أي بسبب ضعف الجسد **البشري**)، فالله إذ **أرسل** ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد، لكي يتم حكم الناموس فينا، نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (رو ٨:٣و٤)

لأن القول السابق لأثناسيوس فيه كل الكفاية لرد هذه التهمة عن أثناسيوس، علماً بأن أثناسيوس، ابن الثلاث والعشرين سنة، لم يكتب كتابه هذا "تجسُّد الكلمة" ليعظ المسيحيين ويرشدهم إلى مفهوم الخلاص، بل كتبه إلى الوثنيين ليثبت لهم أهمية التجسُّد باعتباره وسيلة وأداة لإبادة الموت كعقوبة، حيث تأتي الخطية في هذا الحوار في الدرجة الثانية بعد التجسُّد من جهة غرض الكاتب.

وأيضاً نكرِّر ما سبق أن قلناه:

[**ولكن لَّما كان ضرورياً أيضاً أن يُوفي الدين الذي استحق على الجميع، لأن الجميع استحقوا الموت (بسبب الخطية)، الأمر الذي من أجله – وكسبب جوهري حقيقي – أتى المسيح بيننا، لأجل هذا بعد أن قدَّم براهين كثيرة عن لاهوته بواسطة أعماله قدَّم "ذبيحة نفسه" أيضاً عن الجميع، وإذ سلَّم هيكله للموت عوضاً عن الجميع، أولاً لكي يحرِّر البشرية من معصيتهم القديمة،** وثانياً لكي يُظهر أنه أقوى من الموت وذلك بإظهار أن جسده عديم الفساد، صائراً كباكورة لقيامة الجميع ...

وهكذا أكمل عملين عجيبين بآن واحد: **الأول تكميل موت الجميع في جسد الرب، والثاني قضاؤه على الموت والفساد كلية بسبب اتحاد "الكلمة" بالجسد. لأنه كان لابد من الموت وكان لابد أن يتمِّم الموت نيابة عن الجميع لكي يوفي الدين المستحق على**

(2) NPNF., Ser. II, vol. IV. p. lxx.

الجميع.](٣)

وهكذا يوضِّح القديس أثناسيوس ويؤسِّس بقوة ومنطق لا يُجارَى كيف كان لابد أن يموت الإنسان، وكيف أن المسيح كمخلِّص مات عن الجميع ليوفي العقوبة، وإذ وفَّى العقوبة بموته ألغى الموت ذاته كعقاب أو كعَرَض من أعراض الفساد اللاحق أساساً باللعنة:

[والآن إذ مات عنَّا **"مخلِّص الجميع" فإننا نحن الذين نؤمن بالمسيح لا نموت بعد ـ بذات العقاب ـ الذي كانوا يموتون به سابقاً باستحقاق حسب وعيد الناموس، لأن هذا الحكم قد بطل، ولكن إذ بطل الفساد وأُبيد بنعمة القيامة، من أجل ذلك نحن فقط ننحل بالموت الذي بحسب طبيعة أجسادنا المنحلة بالموت في الميعاد الذي يحدِّده الله لكل واحد، حتى نصير قادرين أن نفوز بقيامة أفضل.]**(٤)

وهنا أيضاً يلزمنا أن ننتبه إلى وجهة نظر أثناسيوس في تركيزه الشديد على الموت الذي احتمله بالجسد كوسيلة الخلاص الأُولى والعظمى.

فأثناسيوس يرى أن الموت الذي جازه المسيح بالجسد استنفد كل قوة الموت وسلطانه الذي كان واقعاً ضد الطبيعة البشرية عامة:

[وهكذا إذ أخذ من أجسادنا جسداً من ذات طبيعتها، ولمَّا كان الجميع تحت عقوبة فساد الموت، قدَّم جسده للموت عوضاً عن الجميع وقدَّمه (ذبيحة) للآب، وبهذا قد أبطل **أولاً** الناموس الذي كان يقضي بهلاك الإنسان (المتعدِّي)، وذلك بأن اعتبر أن الجميع ماتوا بموت المسيح لأن سلطان الموت **قد أُكمل (استنفد تماماً) في جسد الرب:**

πληρωθείσης τῆς ἐξουσίας ἐν τῷ κυριακῷ σώματι.

فلم يعد له أساس يمسك فيه داخلنا، نحن الذين صرنا نظراءه، لأنه ناب عنَّا. **وثانياً** ولأن البشرية انحدرت إلى الفساد، استطاع أن يعود بها نحو عدم الفساد ويحييها من الموت بامتلاك جسده وبنعمة القيامة ـ التي فيه ـ ليبطل الموت منهما.](٥)

وبهذا التصوير الذي بلغ غاية الدقة والإبداع، ينتهي أثناسيوس من تأكيد ملاشاة الفساد والموت

(3) *De Incar.*, 20:2,5., NPNF, Ser. II, vol. IV, p. 47.

(4) Ibid. 21:1., N.P.N.F, ser. II, vol. IV, p. 47.

(5) *Incar.*, 8.4., N.P.N.F, ser. II, vol. IV, p. 40.

من طبيعة الإنسان كعدو ترك له العنان مدى الدهر، ليجري وراء الإنسان ويجـري بـلا رادع حتـى يصطدم أخيراً بقوة عظمى تبتلعه وتوقف استمراره!

والخلاص الذي حازه الإنسان من الموت والفساد هو في الحقيقة انتصار ساحق تمّمـه المسـيح لنـا بثمن باهظ وهو قبوله القصاص واللعنة والموت في جسده، وهو القدوس الرقيق اللطيـف الـذي بـلا عيب ولا غش ولا خطيئة قط، حيث كانت القيامة إعلاناً نهائياً عن هذا الانتصار.

لذلك فموت المسيح يعتبره أثناسيوس أصل ورأس ومبدأ الحياة لنا = ἀρχὴν ζωῆς:

[لأنه بذبيحة جسده وضع حدًّا لحكم (الموت) الذي كان قائمـاً ضـدًّا لنـا ووضـع لنـا مبـدأ الحياة = ἀρχὴν ζωῆς برجاء القيامة من الأموات الذي أعطاه لنا.

لأنه إن كان بإنسان (آدم) قد ساد الموت على البشر: لهذا السبب بتأنُّس كلمة الله أبطل الموت وتمّت قيامة الحياة ... «فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان أيضاً قيامة الأموات. لأنه كمـا في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع» (١كو ١٥: ٢١و٢٢). ونحن الآن لا نموت بعد تحت الدينونة بل كأُناس يقومـون مـن المـوت ننتظـر القيامـة العامـة للجميـع الـتي سيعيِّنها في وقتها الله الذي تمّمها والذي وهبنا إيَّاها.][(٦)]

ويبلور القديس أثناسيوس العلاقة بين القيامة وبين نهاية الفساد الذي ألمّ بالإنسان هكذا:

[ويصبحون عديمي الفساد بفضل القيامة = ἀφθαρτοι διὰ τῆς ἀναστάσεως.][(٧)]

أمَّا دور الصليب كسلاح الانتصار على الموت فيقدِّمه لنا القديس أثناسيوس بغاية الوضوح هكذا:

[فإن كان تلاميذ الرب يحتقرون الموت ويتحدُّونه ولا يعودون يخشونه، بل **بعلامة الصليـب وبالإيمان بالمسيح يدوسونه كميت** ... فهذا برهان غير قليل بل هـو بيِّنـة واضحـة علـى أن **الموت قد أُبيد وأن بالصليب صارت النصرة** عليه، **وبالصليب لم يعد للموت سـلطان بـل قد مات موتاً حقيقياً.**

لأن كل الذين يؤمنون بالمسيح يدوسونه كأنه لا شيء؛ بل ويفضِّلـون أن يموتـوا عـن أن ينكروا إيمانهم بالمسيح، لأنهم يعلمون يقيناً أنهم عندما يموتون لا يهلكون **بل يبدأون الحيـاة**

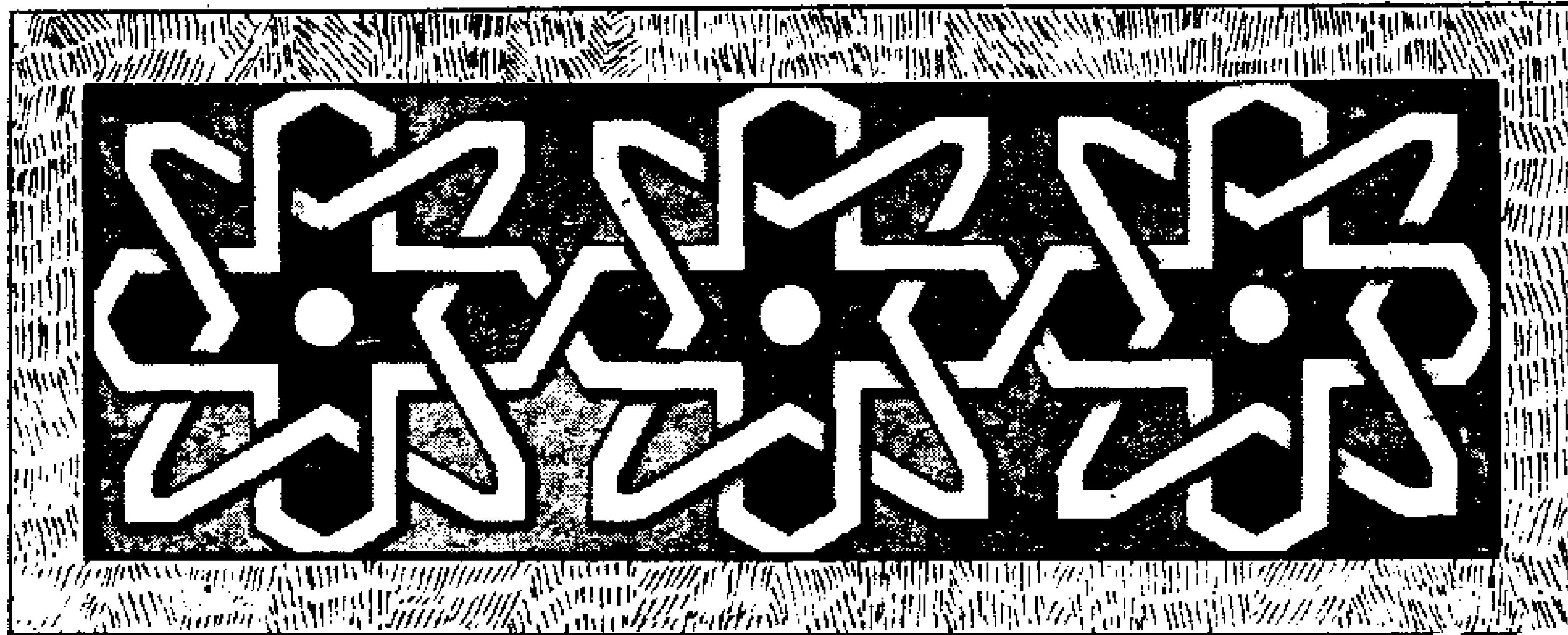
(6) Ibid. 10:5, N.P.N.F, ser. II, vol. IV, p. 41.

(7) Ibid. 27.2.

فعلاً، ويصبحون عديمي الفساد بفضل القيامة ...

كذلك فالموت قد قهره المخلّص وشهَّر به على الصليب وأوثق يديه ورجليه!!](٨)

[فإن كانت الشياطين اعترفت به، وأعماله شهدت له، فلا ينبغي أن يتصلّف أحد ضد الحق ـ **أن المخلّص أقام جسده**، الذي في الأزمنة الأخيرة اتخذ جسداً لخلاص الجميع، وعرَّف العالم عن الآب، وأبطل الموت ووهب الكل عدم الفساد بموعد القيامة **إذ أقام جسده**، كباكورة لهذا (لعدم الفساد)، **وأظهره** (أي أظهر جسده بعد القيامة) كعلامة الظفر على الموت وفساده بواسطة الصليب.](٩)



(8) Ibid. 27, 1,2,4, NPNF., Ser. II, vol. IV, p. 51.
(9) Ibid. 32.6, NPNF., Ser. II, vol. IV, p. 53.

رابعاً: نتيجة غلبة الموت والفساد التي أكملها المسيح لحسابنا – في إطار معنى الخلاص –

اشتراك الإنسان في الطبيعة الإلهية، اتحاد الإنسان بالله، تأليه الإنسان θεοποιηθῶμεν, θεοποιήσις

يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الكنيسة منذ لحظة انطلاقها بأمر الرب العلني وبقوة دفع الروح القدس، وبسلطان إلهي ظهر على لسان بطرس الرسول أنه قادر أن يميت ويحيي بكلمة – كما حدث في حالة حنانيا وسفيرة ـ هكذا وضحت الكنيسة للعالم أنها إلهية منذ أول لحظة، وهكذا استمرت بالتلاميذ ثم الأنبياء ثم الأساقفة والقديسين تنطق باستعلان إلهي في ما يخص رسالة الخلاص في الإنجيل، وكل نطق إلهي في ما يخص عمل المسيح بالإنجيل حُفظ فيها كقضية مسلَّم بها أنها نطق إلهي. وكان هو التقليد: «**وإذ كانوا يجتازون في المدن كانوا يسلّمونهم القضايا = δόγμα التي حكم بها الرسل والكهنة والشيوخ الذين في أورشليم ليحفظوها**» (أع ١٦:٤)، هذه التي على أساسها كان يُبنى الشرح والتعليم، لا كأنه تعليم اجتهادي، بل كان يُنظر إليه بكل هيبة ووقار أنه تعليم الرب، أو بصورة مختصرة: "كلمة" الله ذاتها.

لهذا فإن التعليم بحسب التقليد الرسولي في الكنيسة في ما يخص الإنجيل والخلاص والكلمة، كان هو المرجع النهائي الثابت غير القابل للنقاش، والمُلزم للمؤمنين، ليس من جهة التصديق العقلي، بل من جهة الحياة المنبثقة منه. وكان هذا هو مفهوم الإيمان De fide قبل أن يصبح له قانون ومجامع.

وهذا يوضِّح لنا أن المسيحية **إيمان بالتسليم الحي المنحدر من "الكلمة" الحي**، عَبْر الرسل، أو أن **الإيمان هو هو الكلمة المحيي المذخر بالتقليد وبالإنجيل في الكنيسة**، وليست المسيحية موضوع نقاش لاهوتي أو صراع فكري استقر على صورة ما.

فالإيمان كما تقدِّمه الكنيسة منذ البدء هو تعليم محيي، هو "الكلمة" نفسه "**هو الحق الكلي**"، ولا يمكن أن يؤخذ منه جزءٌ ويُترك الآخر، أو أن يكون قابلاً للتغيير والتعديل، وقد وضعته الكنيسة

من خلال مجمع نيقية في حدود قاطعة مانعة كما يسميها أثناسيوس:
(١٠)ὁρισθέντα, or, ὅροι: definitions

وأثناسيوس يوضِّح أيضاً هذه الحقيقة الهامة جدًّا بقوله:
[إن كلمة الرب التي تُسلِّمت إلينا من خلال المجمع المسكوني في نيقية هي باقية إلى الأبد.](١١)

وهكذا فإن أثناسيوس حينما يركِّز بشدة على الإيمان بتألُّه الإنسان، فهو كان يتمسَّك بقوة بتقليد الكنيسة القديم من جهة النتيجة المباشرة التي آلت إلى الإنسان بسبب تجسُّد ابن الله وتأنُّسه ثم موته على الصليب الذي به تبرّر الإنسان، والقيامة التي نال بها الإنسان الحياة الأبدية، **وهكذا نال الإنسان نصيباً في الطبيعة الإلهية كنتيجة حتمية.**

وهنا يُبرز أثناسيوس الاصطلاح التقليدي الذي أصبح ميراث اللاهوت الشرقي كله(١٢):
"**تألُّه الإنسان**"، وهو التعبير المقابل للتجسُّد؛ "فالتأنُّس" يقابله "التألُّه" الذي يعني في اللاهوت الاتحاد با لله، الذي ابتدأ الإعلان الإلهي عنه بإلهام وبتحديد قاطع من بطرس الرسول في رسالته الثانية ١: ٤ بتعبير **الاشتراك في الطبيعة الإلهية**، ثم التزم به الآباء إيرينيئوس ومن بعده، وامتد عبر هيبوليتس وأُوريجانوس وآباء آسيا الصغرى إلى أثناسيوس الذي بلغ به إلى القمة من جهة البرهان والشرح والتوضيح.

وهنا ينقسم مفهوم "الاتحاد بالله" أي "التألُّه" في اللاهوت الشرقي إلى اتجاهين:

الأول:

أوريجاني، حيث يعتبر أوريجانوس **أن أعلى ما يهدف إليه الإنسان هو أن يعود إلى مصدره الأول بحالته الأُولى التي خُلق عليها.**

---

(10) Athanas., *De Decr.* II.
(11) Ibid. *Ad Afros.*, 1,2.
(12) St. Irenaeus, *Adv. Haer.* IV. 38:4, V. 9: 2.
Origen, Conta *Cels.* iii.28.
St. Greg. Naz., *Poem dogma* X:5-9.
St. Greg. Nyss., *Oratio Catech.* XXV.
St. Cyr. Alex., *in Joan.*
Harnack, *op. cit.*, Dog. II p. 46.

الثاني:

عند إيرينيئوس وآباء آسيا الصغرى، وهو يختلف تماماً عن أوريجانوس. **فإن الإنسان عندهم خُلق لغاية لم يستطع أن يحقّقها إطلاقاً، وإن فترة الاضطراب العظمى التي وقع فيها الإنسان بسبب دخول عنصر الخطية عليه قد أصلحه وشفاه التجسُّد. والتجسُّد هو الذي حمل الإنسان إلى رأس آخر (المسيح) جديد، غير رأسه الأول آدم الذي انحدر منه، وبذلك فإن التجسُّد حمل الإنسان إلى غاية جديدة أخرى كان يستحيل عليه أن يبلغها لو بقي تحت رئاسته الأُولى القديمة.**

وباختصار، نستطيع أن نضع هاتين النظريتين هكذا:

١ ـ عند أوريجانوس كان التجسُّد لعودة الإنسان **"إلى" حالته الأُولى.**

٢ ـ عند إيرينيئوس وأثناسيوس كان التجسُّد **لتقدُّم الإنسان وامتداده فوق حالته الأُولى.**

وهذا التركيز على هذه الرؤية اللاهوتية بالنسبة لأثناسيوس كان مدخلاً ضمن أسلحته الماهرة لتحطيم الفلسفة العقلانية التي للأريوسيين، التي تؤكّد على أن اللاهوت عند أثناسيوس بالذات لا ينحصر في دائرة المعرفة Gnosticism، لكنه يخترقها سريعاً ليبلغ الغاية الحقيقية من الخلقة ومن التجسُّد التي تفوق قامة المعرفة البشرية، بل وكل ما للإنسان، وهي الاتحاد بالله، التي يسمِّيها اللاهوتيون الأوائل ذوو الجراءة في الإيمان والتعبير "بالتألُّه"، التي يُقصد منها بحسب التفسير عامة **"الاتحاد بالله"** أو أحياناً وبصورة خافتة **"التبني"** لله، أو بحسب تعبير بولس الرسول "ورثة مع المسيح **في الله**"؛ **والتألُّه هو المقابل المتحصِّل من التأنُّس.** فكما أن المسيح أخذ بالاتحاد بالجسد البشري كل ما للإنسان (ما عدا الخطية طبعاً ولو أنه حمل عقوبتها)، كذلك فالاتحاد بالمسيح يعطينا كل ما لله أو بحسب تعبير بولس الرسول نأخذ "كل ملء الله"، كما تقول التسبحة السنوية المقدَّسة: [هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له. فلنسبِّحه ونمجِّده ونُزِدْه علواً].

والمسألة في أمر "التألُّه"، أي الاتحاد بالله، ليست هينة، فهي تختص بالإيمان كله وبمنهج العبادة والصلاة والاتصال بالله في الصميم. فلكي نعرف الله لا بد أن نقترب منه، ويستحيل الاقتراب من الله إلاَّ عن طريق "الكلمة" والروح، وهذا هو ـ الاتصال ـ الذي يؤدِّي إلى كشف طرق الحكمة الإلهية والذي عليه يبني الإنسان فكره وسلوكه، وهو "الاتحاد بالله" المعتبر **هبة الكمال التي أُهِّلت لها طبيعة الإنسان بواسطة "الكلمة"**، لما قَبِل أن يتحد بجسد إنسان، أي يتأنَّس. **فتأنُّس الله أعطى فرصة لتألُّه الإنسان،** مع تحفظات في المفهوم اللاهوتي، حيث إن التألُّه لا يُخرج الإنسان عن إنسانيته ولا يستنفد كل ما لله، حيث ما يتحصَّل عليه الإنسان من الاتحاد بالله لا يوصِّله إلاَّ إلى

كمال صورة الله الذي خلقه عليها ليبلغها في النهاية، والتي لا يمكن أن تتم إلاّ بالاشتراك في الحياة الأبدية.

وبحسب أثناسيوس فإن آدم لم يحقّق غاية رسالته وأخفق في الاحتفاظ بمعرفة الله بسبب استخدامه لحريته، **ووقع فريسة لقوة أخرى خارجية، وفقد قوة "الكلمة" لّما انحاز لمعرفة غير معرفة الله، وبالتالي فقد كل أمل في تحقيق الاتحاد بالله وهي غاية خلقته. من أجل هذا تجسَّد "الكلمة" لكي يرفع الإنسان مرّة أخرى إلى معرفة الله الحقة، وبالتالي استرد له ما كان له من قدرة على الاتحاد بالله "التألُّه" ولكن بنعمة عظمى، لأن تجسُّد الكلمة وبقاءه في جسد إنسان الذي يجلس به المسيح الآن عن يمين العظمة في الأعالي، أعطى ضماناً للإنسان لتكميل الاتحاد بالله والثبوت فيه بالفداء**، وإنما على طول المدى، لأنه يستحيل بلوغ كمال نعمة الاتحاد بالله قبل أن **يخلع الإنسان جسد الموت الفاسد ويلبس عدم الموت وعدم الفساد.** «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله ولم يُظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أُظهِر (المسيح) نكون مثله لأننا سنراه كما "هو".» (١يو ٣:٢)

على أن كل ما أخذه كلمة الله من الإنسان بالتجسُّد قدَّمه للإنسان وجعله قابلاً للاتحاد بالله (التألُّه) جسداً ونفساً وعقلاً وروحاً، أي كل طبيعته!! كذلك فإن كل ما استرده المسيح لنا - بصفة عامة وليست فردية - أصبح غير قابل للضياع أو الفقدان الناتج من ضعف طبيعتنا، فالمسيح لا يمكن أن يفقد ما اكتسبه لنا بسبب أخطائنا نحن، وهذه هي صفات الخليقة الجديدة التي هو رأسها والضامن لتحقيقها!!

[**لأنه بالموت الذي (جازه) وصل عدم الموت إلى الجميع**، ولأنه بتأنس الكلمة عرَّفت العناية الإلهية العامة الإنسان بكل شيء، كما عرف الإنسان واهبها وبارئها، أي كلمة الله نفسه، **لأنه صار إنساناً لكي نصير نحن فيه إلهاً**، وأظهر نفسه في جسد لكي يستعلن لنا الآب غير المنظور.](١٣)

[**فالبشرية تكمَّلت فيه – أي بلغت كمالها – فهي استردت ما كانت عليه في خلقتها منذ البدء، ولكن بنعمة أكبر!** لأنه **عندما نقوم من الأموات** فلن نخاف الموت في ما بعد، بل

(13) *De Incar.*, 54. 2,3; NPNF, 2snd Ser, vol. IV, p. 65.

سنملك مع المسيح إلى الأبد في السموات.](١٤)

وواضح جدًّا من تعبيرات أثناسيوس من جهة "**التألُّه**" للطبيعة البشرية أنه يعني الاتحاد بالله، الأمر الذي أوضحه القديس بطرس الرسول بمعنى: "**لتصيروا شركاء الطبيعة الإلهية**"، وهذا يُرجعه أثناسيوس إلى ما أكمله الكلمة في نفسه بالتجسُّد ليضمن خلاصنا.

[الكلمة صار جسداً لكي يقدِّم جسده من أجل الجميع، ولكي إذا ما نحن اشتركنا في روحه القدوس نصير آلهة (شركاء في الطبيعة الإلهية).](١٥)

[إنه لم يكن إنساناً وصار إلهاً بعد ذلك، بل هو إله صار إنساناً لكي يصيِّرنا نحن آلهة (فيه) (شركاء في الطبيعة الإلهية).](١٦)

[هذه هي النعمة التي صارت إلينا والارتفاع الذي حدث لنا، لأنه لمَّا صار إنساناً صار ابن الله يُعبد، فصرنا نحن معه جسداً واحداً، ولكن لم تفزع منَّا القوات السمائية حينما أُدخلنا إلى مجالاتهم.](١٧)

[ومن أجل صِلاتنا بجسده صرنا نحن أيضاً هيكلاً لله، وبالتالي صرنا أبناء الله، حتى أن الرب المعبود محسوب أنه داخلنا أيضاً، والذين ينظروننا يقولون: «إن الله فيهم بالحقيقة».](١٨)

[وبالرغم من أنه لا يوجد إلاَّ ابن واحد لله بالطبيعة، حقيقي ووحيد، إلاَّ أننا نحن أيضاً صرنا أبناءً ... فبالرغم من أننا بشر من الأرض، إلاَّ أننا نُدعى الآن آلهة ... لأن في هذا كانت مسرَّة الله الذي أعطانا هذه النعمة.](١٩)

[ونحن نُحسب أولاد الله وآلهة، بسبب أن "الكلمة" فينا. فإننا نُحسب أيضاً أننا في الابن وفي الآب، لأن الروح القدس فينا.](٢٠)

(14) Athanas., *Contra Arian, against Ar.* II. 67.
(15) Athanas., *De Decr.* 14.
(16) Idem., *C. Ar.* I, 39.
(17) Ibid, 42.
(18) Ibid, 43.
(19) Ibid. *C. Ar.* III, 19.
(20) Ibid, 25.

[نحن البشر جُعلنا آلهة بالكلمة، بسبب أننا اتحدنا به من خلال جسده.](٢١)

[وما هذا السمو والتقدُّم الذي صار لنا إلاَّ التأليه والنعمة التي وُهبت لنا من الحكمة.](٢٢)

[من أجل ذلك اتخذ جسداً إنسانياً حتى إذا ما جدَّده لنفسه (كخالق) له **حينئذ يؤلّهه في ذاته = ἐν ἑαυτῷ θεοποιήσῃ وبهذا يُحضرنا جميعاً إلى ملكوت السموات على مثاله** (أي ما صار له بالجسد جعله لنا أيضاً). لأن الإنسان كان لا يمكن أن يتألَّه (يتحد بالله) إن كان اتحاده يتم بمخلوق، أو أن يكون ابن الله ليس إلهاً، وكذلك لا يمكن أن يأتي "إنسان" إلى حضرة الله إذا لم يكن هو كلمته الحقيقية ومن جوهره وقد لبس جسداً.

وكما أنه كان يستحيل علينا أن نتخلَّص من اللعنة والخطية إن لم يكن الجسد الذي اتخذه الكلمة هو جسد بشري، إذ يستحيل أن تكون لنا شركة بيننا وبين آخر غريب عنا (عن طبيعتنا)، كذلك أيضاً فالإنسان يستحيل أن يتألَّه (يتحد بالله) إن لم يكن الكلمة الذي صار جسداً هو من جوهر الآب. لأن اتحاد الإنسان بالله هو من هذا النوع، حتى يمكنه أن يوحِّد (يُتحِد) ما هو لطبيعة الإنسان بنفسه الذي هو بطبيعة الله (أو هو إله بطبيعته)، **وهكذا يصير خلاص الإنسان وتألُّهه** (أي اتحاده بالله) **مؤكَّداً ومضموناً**.](٢٣)

كذلك من الواضح أن أثناسيوس يؤكِّد **أن تأليه الإنسان لا يتم خارجاً عن المسيح، كما يستحيل أن يكون عملاً قائماً بحد ذاته، بل إن تأليه الإنسان يتم "في المسيح" ـ بالإيمان والأسرار ـ وخارجاً عن المسيح يستحيل أن يتم أي اتحاد أو حتى اقتراب من الله!!** لأن الاتحاد بالله يستلزم أولاً تخلُّص الإنسان من كل أخطائه، وهذا أكمله المسيح بموته على الصليب غاسلاً بدمه كل خطايا الإنسان التي كانت تعوق الاتحاد بالله.

[فإذا كان الله قد أرسل ابنه مولوداً من امرأة، فهذه الحقيقة لا تخجلنا، بل على النقيض تعطينا مجداً ونعمة عظمى **لأنه صار إنساناً حتى يستطيع أن يؤلهنا** (يوحِّدنا بالله) **في ذاته، ووُلد من عذراء حتى يأخذ على نفسه خطأ جنسنا، حتى نصير نحن من الآن فصاعداً**

(21) Ibid, 34.
(22) Ibid, 53.
(23) Athanas., *Contra Arian,* II:70.

جنساً مختاراً و"**شركاء في الطبيعة الإلهية**" كما يقول المغبوط بطرس (٢بط ١: ٤).](٢٤)

ومرة أخرى يوضِّح أثناسيوس أن هذا الاتحاد بالله يتم عن طريق الروح القدس أيضاً:

[وفضلاً عن هذا فإننا **بالروح القدس نشترك كلنا في الله** لأنه يقول: "أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم. إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدَّس الذي أنتم هو" (١كو ٣: ١٦و١٧). ونظراً لأننا دُعينا **شركاء المسيح** - «أمين هو الله الذي به دعيتم إلى شركة ابنه» (١كو ١: ٩) - **وإن كنّا بالاشتراك في الروح القدس نصبح "شركاء الطبيعة الإلهية" فمن الجنون أن نقول إن الروح القدس له طبيعة مخلوقة أو أنه ليس له طبيعة الله، لأن الذين فيهم الروح القدس، هؤلاء يصيرون آلهة**، (أي مشتركون في الطبيعة الإلهية)، **فإن كان الروح القدس يجعل الناس آلهة**، فلا شك أن طبيعته هي طبيعة إلهية.]

ومن أقوال أثناسيوس هذه يتضح لنا أن موضوع اتحاد الإنسان بالله "**التأليه**" هو حقيقة غير منازَع فيها، بل وبالأكثر فإنه يتخذها أساساً وبرهاناً على أن الروح القدس نفسه له طبيعة الله، مما يوضِّح أن موضوع اتحاد الإنسان في الله بواسطة الشركة في المسيح والروح القدس هو حقيقة أساسية في اللاهوت، وتقليد كنسي راسخ منذ الآباء الأوائل يوستينوس وبوليكاربوس وإغناطيوس وإيرينيئوس وهيبوليتس وترتليان، الذين اعتبروا **الخلاص مستحيلاً وغير مضمون إذا لم يبلغ الإنسان هذا الاتحاد بالله** بالروح القدس و"**الكلمة**" والأسرار.

ولئلاً يتوه أحد في معنى "**تأليه الإنسان**" - الذي لا يُفهم منه إلاَّ انتساب الإنسان لله - ولئلاً يظن أحد أن "**تأليه الإنسان**" عمل يُخرج الإنسان عن إنسانيته أو يغيِّر شيئاً من طبيعته الإنسانية، يعود أثناسيوس ويوضِّح جدًّا هذا الأمر هكذا:

[إن الآب بواسطة الابن يؤلِّه ويضيء الجميع ...، فالذي به ينال الجميع الألوهة والحياة كيف يمكن أن يكون هو (الابن) من جوهر مخالف لجوهر الآب؟](٢٥)

[ولكن ليس بحسب الطبيعة نكون أبناء الله، بل بسبب الابن الوحيد الذي يكون فينا. وكذلك أيضاً الآب لا يكون أباً لنا بحسب الطبيعة، بل لأنه أبٌ للكلمة الذي يكون فينا، الذي

(24) *Letter to Adelph.*, 4.

(25) Athan., *De Synod.* 51.

به وفيه نصرخ يا أبا الآب. وهكذا الآب لا يدعو أبناءً له إلاّ الذي يرى فيهم ابنه الوحيد.](٢٦)

[إذن، فالروح هو الذي في ا لله، ولسنا نحن من أنفسنا نكون في ا لله، ولكن كما أننا نصير أبناءً وآلهة بسبب الكلمة الذي يكون فينا، هكذا أيضاً نصير في الابن وفي الآب، ونصير واحداً معهما بسبب الروح الذي فينا، لأن الروح هو في الكلمة والكلمة نفسه هو بالحقيقة في الآب.](٢٧)

[وإذ كان يرغب أن ينهي على الموت الذي ألَمَّ بنا، اتخذ لنفسه جسداً من العذراء مريم، **حتى بتقديمه إلى الآب ذبيحة عن الجميع** يستطيع أن يخلِّصنا - (من لعنة الموت) - نحن الذين كنا بسبب الخوف من الموت تحت العبودية ...

من أجل هذا صار الكلمة جسداً لكي يقدِّم جسده عن الجميع، ولكي **إذا اشتركنا في روحه "نتألَّه"**، وهي العطية التي كان يستحيل علينا الحصول عليها **إذا لم يكن قد لبس هو بنفسه جسدنا المخلوق**، لأنه من ذلك أخذنا اسمنا **"كرجال الله" و"إنسان المسيح"**.

ولكن كما أنه بأخذنا الروح القدس لا نفقد طبيعتنا الخاصة (الإنسانية)، هكذا الرب لمَّا صار إنساناً من أجلنا ولبس جسداً لم يتغيَّر عن لاهوته، لأنه لم ينقص شيئاً عندما تسربل بالجسد، بل بالحري ألَّهه وجعله غير مائت.](٢٨)

وهنا يقول القديس مقاريوس الكبير في عظته ٤٩ في هذا الموضوع مفرِّقاً بين النفس البشرية وا لله هكذا:

[هو الله وهي ليست إلهاً، هو الرب وهي صنعة يديه، هو الخالق وهي المخلوقة، هو الصانع وهي المادة، ولا يوجد شيء مشترك قط بينه وبين طبيعتها.](٢٩)

ويعود أثناسيوس يناقش كيف يتم **"تأليه الإنسان"** أي اتحاده بالله، موضِّحاً أن بواسطة **"جسد المسيح"** والاتحاد به يتم تأليه الإنسان، لأن جسد المسيح صار متألِّهاً بمجرَّد اتحاده بالكلمة:

[وكما أن المسيح مات ثم ارتفع ممجَّداً - كإنسان - كذلك فإنه - كإنسان - قيل عنه إنه أخذ **ما لله (المجد)**، حتى تصير عطية أو هبة هذه النعمة لنا أو تصلنا، لأن **"الكلمة"** لم يكن ضعيفاً أو قليل الشأن عندما قَبِلَ المجد لنفسه كأنه يطلب أو يبحث لنفسه عن **نعمة**، **بل إنه بالحري ألَّه الجسد الذي لبسه. والأكثر من هذا أنه "أعطى" وسلَّم - جسده المؤلَّه هذا**

(26) Athanas., *Contra Arian,* 59:2.
(27) Athanas., *Contra Arian,* 15:3.
(28) *De Decr.* 14.
(29) St. Macarius of Egypt. *Hom.* 49 c.4 *P.G.* xxxiv, c. 816.

- **بنعمة خاصة ومجّاناً إلى الجنس البشري** (الأسرار) ...

وهذه هي نعمتنا وارتفاع مجدنا، لأنه بالرغم من أنه صار إنساناً، فابن الله لا يزال معبوداً؛ وقوات السموات لا تستغرب عندما **ترانا جميعاً نحن المعتبرين جسداً واحداً معه**، داخلين في دائرة مملكتهم.](٣٠)

[ونحن إنما نتألّه (نتحد بالله) ليس باشتراكنا (السرائري) من جسد إنسان ما ولكن بتناولنا من "**جسد**" "**الكلمة**" ذاته!!](٣١)

ثم يعود أثناسيوس ويؤكّد أنه عندما **نأخذ جسد المسيح** هذا المعتبر أنه مؤلّه، نتخلّص من ضعفاتنا ونتحرّر من قيود خطايانا، وبالتالي فنحن نشترك في صفات وأمجاد اللوغس الكلمة!! ونأخذه:

[لأنه ليس بحسب آدميتنا بعد نموت، ولكن من الآن فصاعداً كل ضعفاتنا الجسدية التي هي بحسب أصل جنسنا قد تحوّلت إلى "اللوغس" الكلمة، فنحن نقوم من التراب واللعنة التي بسبب الخطية قد رُفعت، بسبب ذلك الذي هو فينا (أي الكلمة المتجسّد)، والذي صار لعنة من أجلنا.

وهذا تمَّ بحكمة، لأنه كما أننا جميعاً من تراب الأرض ونموت في آدم، هكذا إذ تجدَّدنا ووُلدنا ثانية من فوق من الماء والروح في المسيح، نحيا ونقوم، **لأن الجسد (الإنسان عامة) لم يعد أرضياً بعد بل صار "كلمة"** λογωθείσης τῆς σαρκός **بسبب كلمة الله الذي من أجلنا صار جسداً (إنساناً كاملاً).**](٣٢)

وأثناسيوس هنا يقصد جسد البشرية عامة. وحينما يقول إن الجسد صار كلمة، فهذا لا يفيد أن الجسد البشري تحوَّل عن بشريته أو فقد شيئاً من إنسانيته، ولكنه فقد الموت والفساد وتحوَّل عن الشر الذي استُعبد له وصار من خاصة الكلمة ومناسباً له ومطابقاً لصفاته، "**لأجلهم** أُقدِّس أنا ذاتي" (يو ١٧: ١٩)، أو كما تقول التسبحة السنوية [أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له].

ويستمر أثناسيوس في شرحه وتعليله لقيمة اتخاذ الكلمة جسداً بشرياً كاملاً ليعمل فيه عمله الخلاصي العجيب، موضِّحاً أن **كل ما "للكلمة" صار للجسد البشري الذي اتخذه لنفسه، وهذا بالتالي كله انتقل إلينا لمّا أعطانا جسده**. وبذلك ضمن الله لنا بواسطة التجسُّد وموت المسيح على

(30) Athanas., *Contra Arian,* I, 42.
(31) *Letter to Maximus*, (LXI): 2.
(32) *Contra Arian,* III, 33.

الصليب الخلاص الشامل، ليس من الموت فقط، بل أيضاً من الخطية العاملة بالشهوة!

[لأنه إن لم تكن أعمال لاهوت "اللوغس" **أي أعمال الكلمة بصفته إلهاً - لم تتم من خلال الجسد، فإنه كان يتعذّر تأليه الإنسان (اتحاده بالله).**

كذلك فإنه لو لم تكن خواص وصفات "الجسد" (البشري) نُسبت "للكلمة"، فإنه كان يستحيل على الإنسان أن يتخلّص منها (أي من الصفات المتعارضة مع الحياة الأبدية كالجوع والعطش والتعب والبكاء التي سنتخلّص منها جميعاً بالقيامة).

... ولكن الآن لأن الكلمة صار إنساناً وامتلك "كل ما" يخص الجسد (من موت ولعنة وفساد)، فإن كل هذه لا تستطيع بعد أن تمس الجسد بسبب الكلمة الذي حل فيه، ولكنها أُبيدت تماماً بواسطته، وهكذا لم يعُد الناس بعد خطاة وأمواتاً بحسب شهواتهم، ولكن لأنهم قاموا بقوة الكلمة فإنهم سيبقون إلى الأبد غير مائتين وبلا فساد.](٣٣)

وفي اختصار وروعة يبرز أثناسيوس **حتمية بلوغنا الحرية والخلاص من كل فساد الطبيعة البشرية بالاتحاد بالله، كقضية مرتبطة ارتباطاً جذرياً وبالأساس بالتجسُّد نفسه أي باتحاد الكلمة بجسد الإنسان هكذا:**

[فإذا اعترضتَ على كوني أنا قد تحرَّرت وتخلَّصت من الفساد الذي هو في طبيعتي، فانظر لأنك لا تستطيع أن تعترض على كلمة الله لأنه أخذ هيأتي كعبد! لأنه كما أن الرب لمّا لبس الجسد صار إنساناً، هكذا نحن البشر قد تألّهنا (اتحدنا بالله) بالكلمة لأنه أخذنا وضمنا إليه في جسده، وبذلك ورثنا من الآن فصاعداً الحياة الأبدية.](٣٤)

والقديس أثناسيوس ينبِّه ذهننا أن "**التقديس**" شيء و"**التأليه**" شيء آخر، والأول يمهِّد للثاني.

ثم إن كل ما قيل عن المسيح في ما يخص جسده منذ ميلاده حتى صعوده وجلوسه عن يمين الآب هو في الحقيقة عملية استرداد رسمية خطّط لها الآب ليكمِّلها الابن بالجسد لحساب الإنسان، سواء في نموه في القامة والنعمة، أو طاعته لأبيه وأمه، أو عماده وحلول الروح القدس عليه، أو غلبته للشيطان على جبل التجربة بالصوم والصلاة، أو إتيان المعجزات العديدة، أو طلبه المجد من

(33) Athanas., *Contra Arian,* III, 33.

(34) Ibid. III, 34.

الآب، أو قيامته من الأموات، أو صعوده إلى السموات، أو جلوسه عن يمين الآب؛ فهذه كلها غنائم الإنسان من تجسُّد الكلمة!!

[ولكي يفدي البشرية جاء الكلمة وحلَّ بيننا، ولكي **يقدِّس ويؤلِّه (يوحِّد بـا لله) الإنسان صار الكلمة جسداً.**

ومَن ذا الذي بعد ذلك لا يرى أن كل ما قاله الرب بخصوص ما تقبَّله من ا لله - (النعمة، المجد، الروح القدس، الذهاب إلى الآب) - لمَّا صار جسداً إنما ذكره ليس من أجل نفسه.][٣٥]

ويعتبر القديس أثناسيوس أن "تأليه الإنسان"، أي اتحاده بالله، عملية تتم على مستوى الفرد، وليست عملية صورية تمت لحساب المجموع البشري، فكما يتقدَّس كل إنسان بالروح القدس ليصير عضواً حيًّا قائماً بذاته في الجسد الكلي، كذلك عملية التأليه أي الاتحاد هي عملية فردية تتم بالاتحاد بالابن والآب. لذلك يضعها أثناسيوس بصورتها الواضحة في صيغة الجمع بقوله: **نحن أبناءً وآلهة،** ولم يقل صرنا ابناً وإلهاً. ولكن من هذا التقديس الفردي والتأليه أي الاتحاد الفردي بـا لله تتم الوحدة الكلية الشاملة = "ليصير الكل إلى واحد". ويؤكِّد أن "تأليهنا" أي اتحادنا ووحدتنا مع الآب والابن بواسطة الروح القدس شيء آخر تماماً ويختلف كلية عن اتحاد الآب والابن.

[**وليس كما أن الابن في الآب هكذا نصير نحن في الآب، لأن الابن لا يأخذ مجرَّد شركة في الروح القدس (كما نأخذ نحن) حتى يصير في الآب،** بل ولا يُقال أصلاً إن الابن يأخذ الروح القدس، بل إنه هو الذي يعطيه، **ولا يُقال إن الروح القدس يوحِّد الكلمة في الآب أصلاً** بل إن الروح القدس يأخذ من الكلمة «يأخذ مما لي ويخبركم». فالابن في الآب مثل كلمته الخاصة ومثل شعاعه، **أمَّا نحن فبدون الروح القدس نصير مفترقين وغرباء عن ا لله!! ولكن بشركتنا في الروح القدس نلتحم باللاهوت، لذلك فوجودنا في الآب ليس هو منَّا - بتاتاً - ولكنه من الروح القدس الذي فينا والذي يسكن داخلنا،** الذي باعترافنا الحسن والحق نحتفظ به فينا، كما يقول يوحنا: «مَن اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله.» (١يو ٤:١٥)

... إذن، فالروح القدس الذي هو في الله - الذي لا نستطيع أن نراه نحن في أنفسنا -

(35) Ibid. III, 39.

وكما أننا نحن "أبناء وآلهة" **بسبب الكلمة**(٣٦) **الذي فينا، لذلك نحن سنصير في الابن وفي الآب، وسنُحسب أننا صرنا واحداً في الابن وفي الآب، لأن الروح القدس فينا، الذي هو في الكلمة وفي الآب.**](٣٧)

ثم يرتفع أثناسيوس بمعنى "التأليه" كحقيقة تكميل عمل الابن في الخليقة ليس بالمفهوم اللاهوتي الجامد بل على مستوى تكميل كل شيء في الأخلاق والسلوك والحب، فهو غاية الله من خلقة الإنسان، وغاية الإنسان من عبادته لله؛ وغاية المسيح من كل أعماله أن يبلغ بالإنسان إلى "الكمال المسيحي" أو التكميل في المسيح لحساب الآب، وهكذا يرتفع بمعنى تأليه الإنسان (أي اتحاده بالله) إلى مستوى - التقدُّم في - السلوك والأخلاق **ويصبُّه أخيراً في مفهوم المحبة!** وهذا هو شأن أثناسيوس في كل لاهوته!! وهنا أثناسيوس يشرح بتفصيل صلاة المسيح في يوحنا ١٧:

[أيها الآب **امنحهم روحك حتى يكونوا هم أيضاً واحداً في الروح ويكونوا كاملين (يتكمَّلون فيَّ). لأن كمالهم يعلن أن كلمتك قد نزل إليهم وحلَّ بينهم**، وحينما يراهم العالم **كاملين ومملوئين من الله يؤمنون أنك أرسلتني وأنني حالٌّ هنا**، لأنه من أين يأتيهم الكمال **إلاَّ كوني أنا هو "كلمتك" الذي لبست جسدهم وصرت إنساناً فأكملت العمل الذي أعطيتني؟**

والعمل قد أُكمل لأن بني الإنسان قد أُكمل فداؤهم، ولن يبقوا في الموت بعد، **بل إذ تألَّهوا صار يشدهم رباط الحب كلما تطلَّعوا إليَّ.**](٣٨)

[فإذا كان الكلمة قد نزل **من أجل تقدمنا**، فهو لم يأخذ اسم ابن الله كامتياز أو مكافأة بل إنه هو نفسه قد جعلنا أبناء للآب، وألَّه (وحَّد بالله) الإنسان بأن صار هو نفسه إنساناً، لذلك فالكلمة لم يكن إنساناً ثم صار إلهاً بل على النقيض **فهو كإله صار أخيراً إنساناً لكي بالحري يؤلِّهنا.**](٣٩)

(٣٦) يوضِّحها القديس كيرلس أكثر بقوله: إننا أبناء وآلهة بالنعمة - في شرحه لإنجيل يوحنا في هذا الموضع.

(37) Athanas., *Contra Arian*, III, 24,25.

(38) Athanas., *Contra Arian*, II, 23.

(39) Athanas., *Contr. Arian*, I, 38-39.

[لقد لبس جسداً مخلوقاً مكمَّلاً ... حتى فيه نصير قادرين أن نتجدَّد ونتألَّه.](٤٠)

وبهذا العرض السريع لمفهوم "التألُّه" عند أثناسيوس نرى أنه يقع موقع القلب من اللاهوت بل ومن مفهوم المسيحية كلها عند قديسنا الكبير، وقد صار أسلوبه المفضَّل والمؤكَّد دائماً للتعبير عن اتحاد الإنسان عامة بالمسيح.

وهو لا يقصد قط أن **يعتبرنا الآن في وضعنا الحالي في مفهوم حالة "التألُّه"**، ولكن واضح أنه يقصد دائماً أنها **"غاية" عمل التجسُّد كلياً.**

والعجيب أن أثناسيوس حينما يتكلَّم عن الفداء فإنه بغاية السرعة يرتفع إلى حقيقة "التألُّه"، أي الاتحاد با لله، كغاية هامة جدًّا ينتهي إليها الفداء، حيث يؤكِّد عليها بكل اعتناء وأهمية بكثرة وتكرار.

واتجاه "التألُّه" (الاتحاد بالله) عند أثناسيوس لا ينشأ أصلاً كأنه حاجة الإنسان الخاطئ بنوع خاص، **بل كحاجة الإنسان كمخلوق بنوع عام!** لأن آدم **باعتباره مجرَّد مخلوق لم يكن فيه أساس أمين للنعمة لتقيم فيه بدون خطر الزوال، لأنه حاز نعمة الله كهبة من خارجه وليست من صميم طبيعته الترابية، أي أن آدم لم يكن متحداً بالنعمة** لذلك فقدها، ولذلك أصبح في التجديد من أهم الأمور الأساسية **أن يتحد الإنسان بالنعمة أي بالروح القدس** ليصير للنعمة والقداسة أساسٌ راسخٌ فيه لا يزول.

[وبالأكثر جدًّا ينبغي أن ندرك أن السبب المتقن والصالح الذي من أجله صنع هذا (الفداء بالتجسُّد وليس بمجرد نطق إلهي) أنه إذا كان الله قد أمر أو تكلَّم فقط ـ وهذا كان في سلطانه ـ لكانت اللعنة قد رُفعت في الحال، ولكانت قدرة الله قد استُعلنت بسبب هذا الأمر (النافذ المفعول)، **ولكن الإنسان كان سيظل مثل آدم قبل التعدي، يحوز النعمة من الخارج ولا يحوزها متحدة بجسده.**](٤١)

وهكذا ينفرد أثناسيوس دون جميع الآباء في التأكيد على أن التجسُّد هو بالدرجة الأُولى حاجة ملحة كانت تحتاجها الخليقة لضمان الاتحاد بالله (التألُّه) أسبق وأعمق من مفهوم رفع الخطية، **لأن رفع الخطية** هو عند أثناسيوس درجة في طريق الاتحاد بالله وليست غاية بحد ذاتها.

(40) Ibid. II, 47.

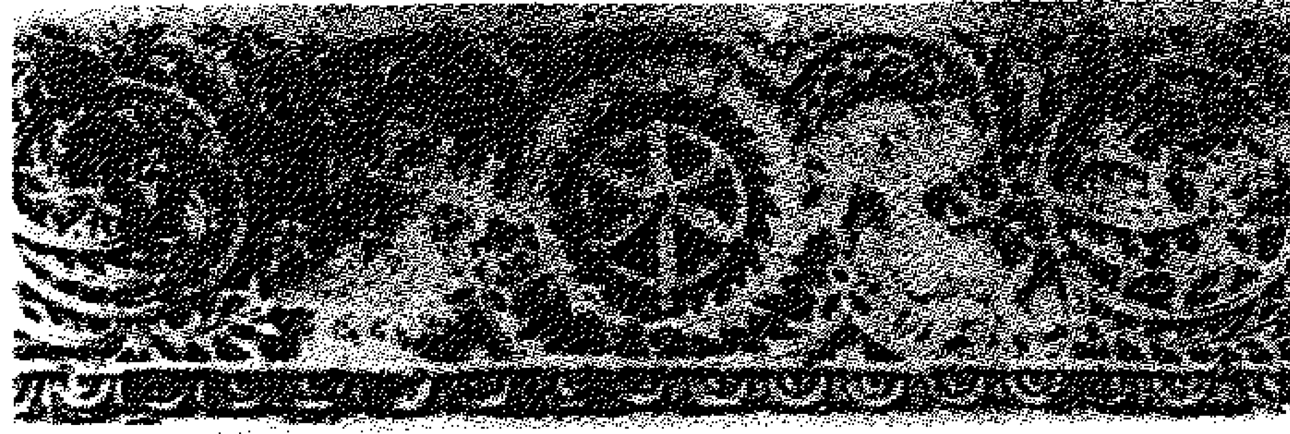
(41) Athanas., *Contra Arian,* II, 68.

[لأن الاتحاد المطلوب هو أن "الكلمة" (المتجسِّد) يصنع اتحاداً بين ما هو إنسان بطبيعته وبين ما هو إله بطبيعته، وهكذا **يصبح خلاص الإنسان وتألُّهه (اتحاده با لله)، ثابتاً ومؤكَّداً.**](٤٢)

[لأن طبيعة الأشياء المخلوقة لا يمكن أن تعطي ضماناً ـ أي لا يمكن ضمانها ـ لأنه حتى الملائكة تعدت وكل البشر خالف، لذلك أصبحت الحاجة إلى الله نفسه ـ أي كلمة الله ـ لكي يحرِّر الذين وقعوا تحت اللعنة.](٤٣)



بهذا يمكن للقارئ أن يفهم فكر أثناسيوس وكيف **يركِّز بشدة على التجسُّد وما أكمله المسيح بالجسد كمدخل للاتحاد بالله كملجأ أخير لا مفر منه للحصول على الخلاص الأبدي، ليبقى الإنسان ويدوم مع الله في حياة أبدية آمنة.**



قطعة من الحجر المنحوت تتوسطها زهرة زخرفية وعلى الطرفين زخرف ورقة العنب يحيط بعناقيده
[من دير أبَّا إرميا بسقارة ـــ معروضة بالمتحف القبطي بالقاهرة]

(42) Ibid. II, 70.
(43) Ibid. I, 49.

خامساً: التبني، وعقيدة وحدة المؤمنين في جسد المسيح
– في إطار معنى الخلاص –

يتجه القديس أثناسيوس في توضيح كيفية حصولنا على التبني بغاية الاختصار والدقة، باعتبار أن عملية التبني لا تعني إطلاقاً دخول شيء جديد على حياتنا من خارجنا وبعيداً عنا، ولكن بواسطة **حصولنا على "الاتحاد"** بالمسيح أي بشخصه هو، **باتصال عضوي** كاتصال الرأس بأعضاء الجسم، وليس كمجرَّد علاقة تحكمها المشيئة أو العواطف أو ارتباط معنوي.

وأهم ما في منهج أثناسيوس من جهة علاقتنا بالمسيح أنه دائماً أبداً يؤكِّد على حقيقة الاتحاد الذي يتم بين المسيح وبيننا، وعلى الحياة الإلهية **التي نحصل عليها فيه**. ويوضِّح دائماً أن هذا الاتحاد وهذه الحياة هما بآن واحد برهان وثمرة مباشرة للاهوت المسيح ومساواته للآب، وأيضاً برهان لقيامته من الأموات التي أكملها في جسم بشريته لحسابنا. فحقيقة لاهوت المسيح وحقيقة اتحادنا به هما الأساس الذي بنى عليه أثناسيوس حقيقة الخلاص وكل ما يتعلَّق بالخلاص، كالتبني وقبول الحياة الأبدية مع الله ونوال صفات المسيح والشركة في مجده كميراث في الآب.

وينتهي من هذا إلى أن بنوَّة البشرية لله بواسطة المسيح صارت أمراً حتمياً بسبب ابن الله، وهو الابن الوحيد الذي صار إنساناً، أي أن التبني هو ثمرة التجسُّد الإلهي.

التبني عقيدة أساسية محبوبة للغاية عند أثناسيوس، وهي جزء أساسي في عملية التألُّه، أو حصيلة وثمرة أساسية للتألُّه أي الاتحاد بالله. فحينما نتحد بالكلمة المتجسِّد (نتألَّه)، نصير أبناء الله بالتبني. بل إن بمجرَّد اتخاذ الله الكلمة أو كلمة الله لجسدنا خاصة له ليظهر فيه كإنسان، صرنا في الحال بمقتضى قرابتنا ونسبنا له أبناءً بالتبعية.

وأثناسيوس يؤكِّد موضِّحاً أن التجسُّد الإلهي تمَّ لكي يمنح الله للإنسان حالة التبني، على أساس أنه **كان يستحيل على الإنسان الحصول على التبني ليس بسبب الخطية في الأساس ولكن بسبب أن طبيعته المخلوقة** غير مؤهَّلة للتبني من تلقاء ذاتها.

صحيح أنه يتحتَّم أن تُرفع الخطية أولاً – التي اقتحمت طبيعته – ويبطل فعلها القاتل للنفس،

قبل أن يحصل الإنسان على التبني، **ولكن إمكانية حصول الإنسان على التبني كان من المستحيل بلوغها بدون تجسُّد الكلمة.** وهذه الحاجة الأساسية للتجسُّد الإلهي تُنسب ـ بحسب أثناسيوس ـ إلى حقيقة أننا مخلوقون عاجزون تماماً بحسب طبيعتنا أن نحصل على بنوَّة الله التي ترفع الخليقة من حالة العبودية والموت إلى حالة الشركة في الطبيعة الإلهية وبلوغ حرية البنين، الأمر الذي أسَّسه ابن الله في جسده أولاً لحسابنا.

لذلك لا يملُّ أثناسيوس مئات المرَّات وهو يكرِّر:

[إن ابن الله صار إنساناً لكي يصير بني البشر أبناءً لله]

[لا يوجد **تبنّي** بدون "**الابن الحقيقي**"، لأنه هو نفسه يقول: «ليس أحد يعرف مَنْ هو الابن إلاَّ الآب، ولا مَنْ هو الآب **إلاَّ الابنُ، ومَنْ أراد الابن أن يُعلن له**» (لو ١٠:٢٢) ... وعلى ذلك فإذا كان كل الذين يُدعون أبناءً لله وآلهة (نالوا الاتحاد بالله) ـ بالنعمة ـ سواء في الأرض أو في السماء (أرواح تكمَّلت في الإيمان) قد نالوا التبني والتألُّه "**في الكلمة**"، ولأن **الكلمة هو ابنٌ، فواضح أنه مصدر كل بنوَّة** لأنه ابن قبل الكل، وأنه حقًّا هو الابن الوحيد، وأنه إله حق من إله حق.](44)

ولكي يوضِّح أثناسيوس أهمية بل خطورة بل حتمية الاتحاد بالله وبلوغ البنوَّة لله كأمر لا مفر منه، إذا أُريد للإنسان أن يغلب الموت والفساد ويحيا إلى الأبد، وفي نفس الوقت وبنفس القوة يوضِّح على هذا التوازي حتمية ألوهة الابن؛ يقول:

[إذا صح أن يكون الابن مخلوقاً لكان قد كُتب على الإنسان البقاء في الموت إلى الأبد كما كان تحت اللعنة ـ لأنه كان يستحيل عليه أن يتحد بالله. إذ من غير المعقول أن مخلوقاً يوحِّد آخرين مخلوقين بالله، لأن هذا المخلوق يحتاج هو أولاً لمن يجعله متحداً بالله، ولتعذَّر على أي فرد من الخليقة أن يوصِّل الخلاص للخليقة، لأن هذا الفرد هو بذاته يحتاج أولاً لمن يخلِّصه (من ربقة الضعف الذي في الخليقة).

من أجل هذا أرسل الله **ابنه الخاص** الذي أخذ لنفسه **جسداً مخلوقاً** صائراً **ابناً للإنسان.** والآن لأن كل البشر حُكم عليهم بالموت، بقي هذا الذي هو مُبرًّا (من الحكم واللعنة)، الذي قدَّم جسده الخاص للموت عن الجميع؛ لذلك اعتُبر أن **الجميع ماتوا عن طريقه لأنهم**

(44) Athanas., *Contra Arian,* I, Chapter II, 39; PG, vol. 26, 93, cited by Mersch.

ماتوا فيه، والنطق بالحكم الذي كان ضدنا أكمله هو. لذلك فنحن فيه نجونا وتحرَّرنا من الخطية ولعنتها، فأُعطينا القيامة من الموت لنبقى إلى الأبد لابسين عدم الموت وعدم الفساد!](٤٥)

ولينتبه القارئ أن أثناسيوس في كلامه أعلاه يصوِّب سهمه إلى الأريوسيين ليضرب في موقعين بسهم واحد هو:

- لكي نخلص ونحيا إلى الأبد يلزم أن يكون المخلِّص إلهاً أزلياً!

وبصورة أخرى:

- لكي نكون أبناءً لله يلزم أن يكون الابن إلهاً!

وبصورة أوضح يقول:

- لكي نتحد بالله يلزم أن يكون الكلمة المتجسِّد من جوهر الله.

وأثناسيوس يضع العقيدة الأرثوذكسية في معادلة ذات حدين كالآتي:

- إن كان لنا الخلاص مطلباً حتمياً: يكون الإيمان بالمخلِّص كإله، إيماناً حتمياً.
- إن كان تحرُّرنا من عبودية الموت والفساد هو صراخ واقعي خارج من عمق طبيعتنا: يتحتَّم أن يكون الإيمان بمن مات عنَّا صراخاً على مستوى أعلى، أنه إله مات بجسد بريء.

ونعود رنكرِّر أمام القارئ أن ينتبه إلى منهج أثناسيوس اللاهوتي في جمع حقائق الإيمان على خط واحد، أو قل في صرَّة واحدة إمَّا تأخذها كلها وإمَّا تتركها كلها، فهو يضع لاهوت المسيح في القمة، ثم الاتحاد الأقنومي الذي تمَّ بين الله الكلمة والطبيعة البشرية، مع حقيقة بشرية المسيح الكاملة كإنسان، مع خلاص الإنسان وتأليهه (اتحاد الإنسان في المسيح)؛ وكلما تكلَّم أثناسيوس عن إحدى هذه الحقائق، فلابد أن يربطها بالحقائق الأخرى سواء في جمل متراصة أو على مدى الحديث بكل حذر وانتباه، حتى يستحيل على القارئ أن يكتشف أي هذه الحقائق أكثر أهمية عند أثناسيوس.

فالإيمان عند أثناسيوس كلٌّ واحد لا يتجزَّأ: التجسُّد، ولاهوت المسيح، وتأليه الإنسان، أي اتحاده بالله! وهذا الإلهام في الحقيقة لم يجاره فيه أي أب من الآباء ولا أي لاهوتي من بدء الكنيسة حتى اليوم. وقد يبدو هذا تكتيكاً موضوعاً لمصارعة الخبث الأريوسي؛ ولكن في الحقيقة الذي

(45) Athanas., *Contra Arian,* II, Chapter 21, 69, 70; PG, vol. 26, 293-6; cited by Mersch.

يدرس روح أثناسيوس يدرك أن هذا كان إيمان أثناسيوس الذي يعيشه في المسيح، وكان هو مضمون خلاصه الذي كان يبشِّر به كما يدافع عنه سواء بسواء.

[إذن،

(أ) فكان يتحتَّم أن يكون الابن هو إله حق، وكان لا يمكن للإنسان أن يقف في حضرة الله، إلاَّ إذا كان

(ب) الكلمة الذي اتَّخذ جسداً له هو حقًّا "كلمة الله". وأنه كما كان

(ج) يستحيل علينا أن نتخلَّص من الخطية والإثم إلاَّ إذا كان الجسد الذي اتخذه الكلمة هو حقًّا جسداً بشرياً، لأنه لا يمكن أن يكون لنا شركة مع غريب، كذلك

(د) فإن الإنسان لا يمكن أن يتألَّه (يتحد بالله) إلاَّ إذا كان ذلك الذي اتخذ جسداً هو بالجوهر كلمة الله حقًّا، لأن الاتحاد المطلوب حدوثه أن الذي بطبيعته إنسان يتَّحد بذلك الذي بطبيعته إله.

(هـ) وهكذا يتحقَّق خلاصنا وتألُّهنا (اتحادنا بالله)، ويدومان لنا بتأكيد.](٤٦)

وفي الحقيقة يتعذَّر علينا بل ويستحيل أن نجد مثيلاً للقديس أثناسيوس بين جميع آباء الكنيسة في إصراره وتكراره للعقيدة الواحدة عشرات بل ومئات من المرَّات بلا ملل ولا كلل، وكل مرَّة يلقي ضوءًا جديداً من زاوية جديدة ليزيد العقيدة ترابطاً وانسجاماً ويرسِّخها في ذهن الكنيسة، وكأنه يشعر نحو المستقبل بمسئولية إرساء الإيمان كله بكل دقائقه، وكأنها ضرورة قد وُضعت عليه.

وهو يبلور الإيمان في هذه الحقائق الحية:

- إن المسيح إله حقيقي وإنسان حقيقي بآن واحد.
- وهو واحد بالحقيقة. أي لا تصدر عنه أي ثنائية. مع أنه إله متأنِّس! وذلك ليوحِّد الإنسان بالله، كما هو واحد في ذاته.
- وفي النهاية يفوز الإنسان بالتبني والحياة الأبدية.

ويلاحظ القارئ أن العقيدة عند أثناسيوس تبدأ بلاهوت المسيح، هذا أمر حتمي، وتنتهي عند التبني أي صيرورة الناس أبناء الله الحي وارثين لأبوَّة الله في المسيح ابن الله! ولكن إرادة الله من نحو تبنِّي الإنسان كانت منذ البدء وقبل إنشاء العالم.

(46) Ibid. PG 29, 296.

وعقيدة التبني عملية عميقة جدًّا في مفهوم أثناسيوس. فهي كما قلنا سابقاً ليست أمراً يكتسبه الإنسان من الخارج، أو هبة تُمنح له؛ بل هي وجود وسكنى واتحاد دائم للروح القدس و"**الكلمة**":

الروح القدس نفسه، لأنه هو نفسه الذي يتكلّم فينا ويخبرنا بأمور المسيح ويمجِّد المسيح فينا وبنا.

وكذلك "الكلمة"، أي الابن، فسكناه واتحاده بنا هو وحده الذي يعطينا حق البنوَّة، وبه نخاطب الله القدير "يا أبانا". وبدون شركة الاتحاد في الروح القدس و"الكلمة"، أي الرب يسوع نفسه، لا يمكن أن نُدعى أولاد الله.

فالإنسان لكي يصير ابن الله يعني أنه قَبِلَ اللاهوت: «أمَّا كل الذين **قبوله فأعطاهم** سلطاناً أن **يصيروا** أولاد الله.» (يو ١٢:١)

[**لأن هذا هو حب الله لبني البشر أنه أراد أن يكون لهم أباً بالنعمة، هؤلاء الذين خلقهم.** وهذا (التبني) إنما يحدث **عندما يتقبَّل الناس** وهم مجرَّد خليقة - **روح الابن في قلوبهم صارخاً «يا أبا الآب»** (غل ٦:٤).

نعم، هؤلاء عندما **يقبلون** "الكلمة" **ينالون به القوة التي يصيرون بها أولاد الله. ولأنهم أصلاً مجرَّد خلائق، فإنهم لا يمكن أن يصيروا أبناءً إلاَّ إذا قبلوا روحه، أي روح ابن الله الذي هو من جوهره.**

ولهذا إن كان الكلمة صار جسداً، فذلك لكي يجعل الإنسان قادراً أو مؤهَّلاً لقبول اللاهوت!...

ونحن لسنا أبناء الله بالطبيعة، **ولكن ابن الله الذي فينا هو ابن الله بالطبيعة**، وكذلك فإن الله ليس أبانا بالطبيعة **ولكنه أبو "الكلمة" الذي فينا، الذي فيه وبه نصرخ: «يا أبا الآب»** (رو ١٥:٨)؛ حتى أن الآب حينما ينظر أُولئك الذين يرى فيهم ابنه يقول الآب: "لقد ولدتكم" (مز ٧:٢) ويدعوهم أولاده.](٤٧)

[لذلك كما اشترك "الكلمة" في ضعفاتنا باتخاذه جسداً بشرياً، هكذا نحن **باتخاذنا (قبولنا) الكلمة نشترك في عدم موته.**](٤٨)

(47) Athanas., *Contra Arian,* II, Chapter 59, P.G. vol. 26, 273, cited by Mersch.
(48) Athanas., *Contra Arian,* III, Chapter 57, P.G. vol. 26, 444, cited by Mersch.

كما يلاحظ أن أثناسيوس حينما يتكلَّم عن اتحاد الإنسان بالله يركز على مفهوم **الاتحاد الفردي والاتحاد العام**. فالمسيحيون يتحدون "بالكلمة" في شخص يسوع المسيح، على أساس أن الكلمة أخذ على نفسه **كل ضعفات طبيعة بني الإنسان**. وفي المقابل، منح الكلمة الطبيعة البشرية بصفة عامة أيضاً **أمجاده الإلهية الخاصة**.

هذا الاتحاد العام، وهذا التحرير العام للطبيعة البشرية من الضعفات، وهذا المنح العام لأمجاد وحياة الكلمة للطبيعة البشرية أيضاً، هو في الحقيقة امتداد لمفهوم الجسد السري العام للمسيح الذي يجمع المسيحيين كأعضاء الجسد الواحد، وهي العقيدة التي يركِّز عليها بولس الرسول جدًّا في كافة الرسائل. وقد استلمها الرسل والآباء الرسوليون ثم آباء الكنيسة عامة في ما قبل أثناسيوس، ولكن الجديد عند أثناسيوس أنه يتعقَّب هذه العقيدة من أصولها حتى فروعها، ويفسِّرها كعقيدة الخلاص على أساس التجسُّد، ويوضِّحها مراراً وتكراراً لتكون أساس الإيمان لمفهوم الخلاص والفداء والتبني في الكنيسة.

[ولأن الكلمة صار إنساناً وجعل ضعفات الجسد له - أي نسبها إلى نفسه - صارت بالتالي هذه الضعفات بلا قوة لإزعاج الجسد، لأن "الكلمة" متحد بالجسد ...

وحينما وُلد الجسد من مريم والدة الإله، قيل عنه أنه وُلد مع أنه هو "الكلمة" الذي خلق كل الأشياء. **ففي الحقيقة هذا هو ميلادنا نحن الذي أخذه لنفسه، وبهذا لم نعد بعد مجرَّد تراب تعيَّن لنا أن نعود إلى التراب، ولكننا صرنا متحدين "باللوغس" الكلمة من السماء، الذي سوف يحضرنا إلى السماء.**

وبالمثل، فإنه ليس بدون سبب قد أخذ كل الضعفات الأخرى التي للجسد، لأنه شاء أن لا نكون بعد مجرَّد بشر بل نصير منتسبين للكلمة، ونشترك في الحياة الأبدية.

أمَّا الموت الذي كان ميراثنا بسبب ميلادنا الأول فقد بطل. فميلادنا وكل ضعفات الجسد قد تحوَّلت عنا، وصارت وحُسبت على "الكلمة"؛ أمَّا نحن فقد ارتفعنا عن التراب وأُزيلت عنَّا لعنة الخطية بواسطته وهو الكائن فينا ومن أجلنا، الذي صار وحُسبَ بسببنا وعنَّا "فاعل شر".

وكما كنا بالحق مخلوقين من تراب، وفي آدم قَبِلْنا الموت جميعاً، هكذا **إذ وُلدنا الآن من الماء والروح قَبِلْنا الحياة من المسيح.**

وجسدنا لم يعد بعد ترابياً، لأنه قد صار كلمة has been made Word (هنا أصل المعنى في اليوناني يفيد الفعل من كلمة "لوغس" أو "تَلَوْغَنَّـا" وهي باليونانية λογωθείης Verbified)، وذلك بسبب "الكلمة" الذي **صار جسداً من أجلنا.**](٤٩)

هنا يكشف أثناسيوس عن الربح الهائل الذي اكتسبته البشرية ككل من التجسُّد، دون أن يفقد الله بسبب التجسُّد شيئاً بالمرة، بل اكتسب وربح خليقته التي كانت في بطن الشيطان والآن صارت مجداً دائماً لاسمه. لأن المسيح لما قَبِل الضعفات التي للطبيعة البشرية - وأخطرها الموت ومسبباته ونتائجه - ألغاها في جسده باتحاد لاهوت الكلمة.

ثم إذ أعطانا التأهُّل للاتحاد به عن طريق الروح القدس والجسد المقدَّس، ألغى من صميم طبيعتنا حكم الموت ولعنة الخطية، وعوض الموت واللعنة والفساد سلَّمنا الاتحادُ بلاهوته قداسةَ الحياة الأبدية وعدم الموت وعدم الفساد معاً.

وحينما يقول أثناسيوس عن "**أن جسدنا اتحد بالكلمة**"، يقصد جسدنا جميعاً، وبحسب النص اليوناني يكون المعنى المقصود أن الجسد البشري أخذ صفات الكلمة، لأن الاصطلاح كما سبق وقلنا يفيد ذلك "verbified".

وأثناسيوس يؤكِّد **المعنى الواقعي من الاتحاد**، وليس الفلسفي أو الرمزي أو التشبيهي، **فنحن نتحد بالابن المتجسِّد اتحاداً واقعياً يُدخلنا في صميم طبيعة الكلمة المتجسِّد** جسداً، ونفساً، وفكراً، وروحاً، وامتيازات لاهوتية تتناسب مع الميراث في المسيح لله، لنصير جسداً واحداً وروحاً واحداً في الروح القدس والكلمة.

[ولأن ضعفات البشر قد رُفعت عنهم وأُبطلت بل أُبيدت في المسيح الكلمة، المنزَّه عن كل ضعف، صار البشر أقوياءً وأحراراً إلى الأبد كما يقول لنا يوحنا بهذه الكلمات: «وتعلمون أن ذاك أُظهر لكي يرفع خطايانا، وليس فيه خطيةٌ.» (١يو ٣:٥)

فإن كان هذا الكلام حقًّا فليس لهراطيقي بعد أن يسأل: لماذا وكيف أن الجسد وهو مائت بطبعه يعود إلى الحياة، وإذا أُعيدت له الحياة فكيف لا يعاني بعد الجوع والعطش والألم والموت؟ (بعد القيامة) أليس هو تراباً؟ فكيف يتخلَّص مما هو له بالطبيعة؟ نقول إنه

(49) Athanas., *Contra Arian,* III, Chapter 33; P.G. vol. 26, 393, cited by Mersch.

إذا كان هذا هو اعتراض الهراطقة، فالجواب يأتي على لسان الجسد نفسه هكذا: نعم أنا مخلوق من تراب وأنا بطبيعتي مائت ولكني صرت جسد الكلمة وقد حمل كل ضعفاتي مع أنه منزَّه عن كل ضعف وقد صرت حرًّا فلست بعد عبداً لضعفاتي، وذلك بسبب الرب الذي خلّصني ونجاني منها. فإذا كنتم تلومونني كيف صرت حرًّا من فساد طبيعتي فاحذروا لئلاً بذلك تعثرون في "**كلمة الله**"، لأنه هو الذي أخذ حالة عبوديتي على نفسه.

لأنه كما أن الرب أخذ جسداً وصار إنساناً، **هكذا نحن البشر إذ قد حُسبنا ضمن جسد الكلمة، صرنا متحدين به أو إلهيين** are deified **وصرنا ورثة للحياة الأبدية (فيه)**.](٥٠)

وقد يتهيَّأ للقارئ أن كلام الجسد على لسان أثناسيوس أعلاه يفيد جسد المسيح، ولكن آخر جملة تلك التي علّق بها أثناسيوس على المعنى كله، تفيد إفادة حاسمة أن أثناسيوس يقصد الجسد البشري عامة الذي يتكلّم هكذا ويقول: "لقد صرت جسد الكلمة وأنه حمل ضعفاتي وصرت حرًّا، و لم أعد بعد عبداً لضعفاتي، وقد خلّصني ونجّاني من ضعفاتي"، هذا المتكلّم هنا بحسب أثناسيوس هو جسدي وجسدك وبشريتنا جميعاً باعتبار أن جسد المسيح قد احتوى جسدنا وتبنّاه وخلّصه ونجّاه، لأنه مات به وقام وحرَّره من الموت والفساد والعبودية، وورَّثه معه ميراث الابن في ما لله من "**مجد**" و"**حب**"، وأننا نحن المؤمنين صرنا في المسيح جسداً واحداً هو الرأس ونحن الأعضاء فيه. لذلك، فإنه في مواضع كثيرة، حينما يقول أثناسيوس "جسد المسيح"، فهو يقصدنا ضمناً(٥١).

[لقد أخذ "الكلمة" ما هو لنا (الجسد) لنفسه، **حتى إذا صرنا نحن جسداً واحداً فيه**، وبعد أن نكون قد اتصلنا تماماً وارتبطنا بواسطة الجسد المتشابه، **يمكن أن نبلغ إلى إنسان كامل وندوم في عدم الموت وعدم الفساد**.](٥٢)

ويظل أثناسيوس متمسِّكاً بكل أمانة وثقة في الجمع بين بشرية المسيح مع بشريتنا على مستوى الواقع والشمول المذهل للعقل حقًّا، لدرجة أنه يعتبرنا مقدَّسين ومتحدين في المسيح إلى الحد الذي يرى أن الوقار اللائق بالله وحده ينسحب على "الكلمة" الموجود فينا والمتحد بنا، أي يشمل بشريتنا المفدية والمخلَّصة والمتحدة بالرب في أشخاص المؤمنين القديسين، فهو يجمع بين بشرية

(50) Athanas., *Contra Arian,* III, Chapter 34, P.G. vol. 26, 379.

(51) See: *The Whole Christ*, by Mersch, p. 275.

(52) Athanas., *Contra Arian,* II, Chapter 22, 74.

المسيح الخاصة أي جسده الإنساني وبشريتنا المفدية والمتحدة معه. وأثناسيوس يرى في قول الكتاب بخصوص ارتفاع المسيح بواسطة الله بعد الموت وأن الملائكة صارت تسجد له، أنه إنما يقصدنا نحن أيضاً في المسيح، أي البشرية المفدية فيه!

[إن حقيقة تجسُّد الرب التي بها صار المسيح مسجوداً له **وقد آمنا أنه ابن الله الذي أعلن لنا الآب**، هذه الحقيقة تُظهر أن التمجيد والارتفاع ليست أموراً ممنوحة "**للكلمة**" في قدرته الخاصة باعتباره "**الكلمة**"، ولكن ممنوحة لنا!! لأنه بسبب قرابتنا لجسده قد صرنا أيضاً هيكلاً لله وصرنا أبناءً لله، حتى أن الرب يمكن أن يُكرم أيضاً (يُعبد adored) فينا. وكل مَنْ يرانا ونحن في حالة السمو الروحي بالروح القدس يصرخ بكلمات الرسول عينها: «يخر على وجهه ويسجد لله منادياً **أن الله بالحقيقة فيكم**» (١كو ١٤:٢٥).](٥٣)

وأثناسيوس يهتم للغاية بتوضيح معنى أننا صرنا واحداً في المسيح، بمعنى أنه يجمعنا كلنا في نفسه جسداً واحداً، حسبما ورد في إنجيل يوحنا الأصحاح ١٧، وهو يضيف على معنى الوحدة ما يؤكِّد وجودها ودوامها على المستوى الأخلاقي والأدبي. فالوحدة مع المسيح عند أثناسيوس ليست فلسفية أو صورية، بل واقعية كيانية أخلاقية - كاملة - لأنها بالروح القدس "وبالكلمة"، أي إلهية!

والأصل في ذلك كله أن جسد المسيح صار ممجَّداً ومكرَّماً جدًّا في عين الآب، بسبب **لاهوته**، وبسبب اتضاع الابن، وطاعته وحبه للآب والخليقة، فصرنا نحن - كل الذين آمنوا وتقدَّسوا في المسيح - حائزين لهذا التكريم عينه.

وأثناسيوس يستنطق "الكلمة المتجسِّد" كلاماً حلواً، مخاطباً الآب فيه هكذا:

[أنا **كلِمتُكَ** (أيها الآب) وأنتَ فيَّ، ولكني أنا فيهم بالجسد، وبك قد أُكمل خلاص البشرية فيَّ، لذلك أسأل أن يكونوا واحداً بحسب الجسد الذي فيَّ وبحسب الكمال الذي لهذا الجسد، **حتى إذ يتحدون بهذا الجسد ويصيرون واحداً فيه، يصيرون أيضاً كاملين**؛ حتى يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، **إنساناً كاملاً**، كأنما أحملهم جميعاً في ذاتي.

لأنه من حيث أننا نشترك في المسيح الواحد، ونملك في داخلنا الرب الواحد، نصير جميعاً جسداً واحداً.](٥٤)

(53) Cf. Athanas., *Contra Arian,* I, Chapter XI, 43.

(54) Athanas., *Contra Arian,* III, 22, P.G. vol. 26, 368, 369 cited by Mersch.

يُلاحِظ القارئ أن "الكمال" الذي يبلغه الإنسان هو نتيجة اتحاد المؤمنين بجسد المسيح، وهذا معتبر أنه إحدى خصائص اللاهوت الأساسية عند أثناسيوس.

وحينما احتدم الصراع مع الأريوسيين – من جهة عدم تساوي الابن مع الآب في الجوهر – واستشهد الأريوسيون تلفيقاً بقول يوحنا الرسول: «ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد (أي الابن والآب)» (يو ١٧:٢٢)، مدَّعين أن الوحدة بين الآب والابن هي مُشَابَهة فقط، لأنها تساوي الوحدة بين المسيحيين التي هي لا تزيد عن كونها وحدة تشابه فقط(٥٥): بادر أثناسيوس ليرد على ذلك ويقول هذا غش وخداع، وفي إجابته تظهر جدًّا وتتضح خصائص الوحدة التي تقوم بين المؤمنين في المسيح؛ فهو يصفها:

(الفصل ٢٥:١٠):

[فبالرغم من أننا خُلقنا على صورة الله، ودُعينا صورة ومجد الله، إلاَّ أنه لم يكن هذا لحسابنا قط بل قد نلنا هذه النعمة **لحساب الصورة الحقيقية والمجد الحقيقي الساكن فينا الذي هو "كلمته" الذي صار جسداً من أجلنا**].

(الفصل ٢٥:١٧):

[ولكن هؤلاء الأريوسيين المحتالين – يحتجون – ويقولون: "إذا كنا نحن نصير واحداً مع الآب (كما يقول إنجيل يوحنا ١٧)، فكذلك وعلى نفس المستوى يكون المسيح (الكلمة) والآب واحداً. وكذلك يكون هو أيضاً في الآب والآب فيه، فكيف تدَّعون أنه بناء على قوله: «أنا والآب واحد» و«أنا في الآب والآب فيَّ» أنه هو من جوهر الآب؟ لأنه ينتج من قولكم هذا إمَّا أننا نحن نكون أيضاً من جوهر الآب، أو أن الابن يكون غريباً عن جوهر الآب كما أننا نحن أيضاً غرباء عن جوهر الآب"!

إنهم بذلك يثرثرون ويخرِّفون، وإني أرى في عنادهم وضلالتهم نوعاً من التزييف والخداع الذي يوقعهم فيه الشيطان، لأنه على منوال كلامهم يقول الكتاب أيضاً عن أمثالهم (الشيطان) «سنصعد إلى السماء ونصير مثل العلي» (انظر: إش ١٤:١٤).

لأن الأريوسيين يريدون أن يجعلوا ما مُنح لنا بالنعمة كأنه يساوي اللاهوت جوهر الله المعطِي (النعمة). وحينما يسمعون من الإنجيل أننا صرنا أبناءً، يعتقدون أنهم صاروا

(55) Athanas., *Contra Arian,* III, 22, P.G. vol. 26, 368.

بأنفسهم مثل "الابن الحقيقي" مساوين له بالجوهر. وحينما يسمعون قول المخلّص: «ليصيروا واحداً كما أننا نحن واحد» يخدعون أنفسهم ويتعجرفون أنهم بذلك يصيرون أيضاً مثل "الابن" في الآب والآب في الابن].

(الفصل ٢٥: ١٩):

[ولكن بالرغم من أنه يوجد ابن واحد بالجوهر - مع الآب - حقيقي ووحيد، إلاَّ أننا **نحن أيضاً نصير أبناء الله، ولكن ليس كالابن الحقيقي الذي هو بالجوهر (في الآب). إنما نحن أبناء بالنعمة، حسب عطية ذلك الذي دعانا لهذا. فبالرغم من أننا بشر من التراب أصبحنا نُدعى آلهة Θεοί ليس كا لله أو كلمته اللذين هما بالحق ἀλήθεια ، وإنما بحسب مسرة الله الذي أعطانا هذه النعمة ...**

ويوحنا لم يقل إنه كما الابن في الآب هكذا ينبغي أن نكون نحن، لأنه كيف يكون لنا ذلك؟ فالابن هو كلمة الله وحكمته، أمَّا نحن **فمخلوقون من التراب، وهو بالطبيعة والجوهر كلمة الله، وإله حق**، كما يقول يوحنا: «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرةً لنعرف الحق. **ونحن في الحق في ابنه** يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١يو ٥: ٢٠). **أمَّا نحن فجعلنا أبناءً فيه بالتبني والنعمة**، باعتبارنا شركاء في روحه، كقول الكتاب: «وأمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً (قوة) أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه.» (يو ١: ١٢)

أمَّا هو فهو "**الحق**"، لأنه قال: «أنا هو الحق». وحينما خاطب الآب عنَّا قال: «قدِّسهم في حقك، كلمتك هو حَقٌّ.» (يو ١٧: ١٧)

أمَّا نحن فبالاقتداء (κατὰ μίμησιν) نصير مجرَّد فضلاء ἐνάρετοι وأبناءً.

أي أننا لن نصير - في مثل وحدته - حينما يقول: «أن يكونوا واحداً كما أننا نحن واحد»، ولكننا **نأخذ منه المثال والنموذج. وإذ ننظر إليه نصير واحداً مع بعضنا البعض في اتفاق ووحدة الروح** ...].

(الفصل ٢٥: ٢٠):

[**ووحدة التدبير**، ولنا في وحدة الابن الجوهرية بالآب مثال ونموذج، كما علَّمنا بقوله: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب»، **لا أن نصير مساويين له، فهذا محال، وإنما**

بالنظر إليه نبقى وندوم في وداعته.

هكذا إذ يرغب المسيح أن يدوم تدبيرنا الصالح في صدق وثبات وبلا انحلال تجاه الآخرين، أراد أن نأخذ منه النموذج، لذلك قال: «ليكونوا واحداً كما نحن»، لأن وحدتهما غير منحلة ولا منقسمة **أي ليتعلَّموا منا هذه الطبيعة غير المنقسمة فيدوموا هم أيضاً في وفاق مع بعضهم**].

(الفصل ٢٥: ٢١):

[كذلك قوله: «ليكونوا **واحداً فينا**»، هذا معناه الصحيح لا أن تكون وحدانيتنا مثل وحدانية الابن في الآب، وإلاَّ كان قد قال: "ليكونوا **واحداً فيك**" مثله! ... فقوله: «ليكونوا واحداً **فينا**» أوضح الفارق والاختلاف كونه هو وحده في الآب كحالة فريدة، باعتباره كلمته الوحيد وحكمته الوحيدة، **ولكننا نحن نكون في الابن، ثم من خلال الابن نصير في الآب.**

وهذا معناه، إذا أردنا توضيح هذه الاية: «واحداً فينا»، يكون هكذا:

إن في قوة الآب والابن يصيرون هم واحداً، لأنه بدون الله يصير هذا مستحيلاً ... لذلك واضح أن **في اسم الآب والابن نصير مؤهَّلين أن نكون واحداً حافظين جدًّا رباط المحبة.**

والرب وهو حافظٌ نفس هذا المعنى في نفسه يستطرد قائلاً: «والمجد الذي أعطيتني **قد أعطيتهم ليكونوا واحداً** كما أننا واحد»].

(هنا أثناسيوس يريد أن يقول إن الوحدانية التي صرنا وسنصير إليها هي "**عطية مجد**" من الابن، وهي أصلاً من الآب لنا عن طريق الابن المتجسِّد، فالوحدة عطية فائقة وقوة ورفعة إلهية فائقة = "المجد" في الابن).

[والآن نلاحظ أن بقوله "كما" في الآية: «يكونوا واحداً كما أننا نحن واحد»، لا يعني التطابق بل التشابه، كنموذج وكمثل مقدَّم لهم].

(الفصل ٢٥: ٢٢):

[**«أنا فيهم وأنتَ فيَّ حتى يُكمَّلوا إلى واحد»، هنا يسأل الرب لنا شيئاً عظيماً وأكثر تكميلاً وكمالاً لنا** (أي الوحدة)، **لأنه واضح أن الكلمة قد أتى ليكون فينا**، لأنه لبس جسدنا.

«وأنت أيها الآب فيَّ» لأني كلمتك ولأنك أنتَ فيَّ، لأني كلمتك **وأنا فيهم بسبب الجسد، قد صار لهم بواسطتك كمال الخلاص فيَّ**، لذلك أنا أسأل **لكي يكونوا هم أيضاً واحداً بحسب الجسد الذي فيَّ وبمقتضى كماله، حتى يكونوا هم أيضاً كاملين إذ يصيرون في وحدانية (متحدين) معه (مع الجسد)، وإذ يصيرون واحداً فيه، وكأنما الجميع قد صاروا محمولين فيَّ؛ يصبحون جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، وينمون معاً حتى إلى إنسان كامل (أف ٤:١٣).**

لأننا إذ نشترك جميعاً في المسيح الواحد نصير جسداً واحداً حائزين على الرب الواحد في داخل ذواتنا].

(الفصل ٢٥:٢٣):

[**ونصير واحداً مثل الآب والابن وذلك بالفكر الواحد، واتفاق الروح** (سيمفونيا) "وعندما يصيرون كاملين حينئذ يعلم العالم أنك أرسلتني"، **لأنه إذا لم أكن قد جئت ولبست جسدهم هذا، ما كان أحد منهم قد كمل، بل لصار جميعهم في الفساد. فاعمل** فيهم أنت أيها الآب. وكما أعطيتني أن أحمل ذلك (الجسد)، **امنحهم روحك حتى يصيروا فيه واحداً ويصيروا كاملين فيَّ ... وكمالهم يتم بالفداء من الخطية ولا يعودون تحت الموت، بل إذ يتألّهون** (يتحدون با لله) **ناظرين إليَّ، يحفظون رباط الحب مع بعضهم البعض!]**.

(الفصل ٢٥:٢٤):

[**وبالاشتراك في الروح نلتحم باللاهوت**، لذلك **فوجودنا في الآب ليس هو منا، بل من الروح الذي فينا الساكن فينا]**.

(الفصل ٢٥:٢٥):

[لأنه من حيث أن "الكلمة في الآب" وأن الروح قد أُعطي بواسطة الكلمة، فقد أراد الله أن نقبل الروح؛ **حتى إذا قبلناه نكون قد قبلنا "روح الكلمة"، الذي هو في الآب، فنصير نحن واحداً في الكلمة بسبب الروح ومن خلال الكلمة نصبح في الآب.]**(٥٦)

والقديس أثناسيوس بهذا العرض المتشعِّب النواحي لمفهوم الوحدة القائمة بين المؤمنين على

(56) Athanas., *Contra Arian,* III, ch. 25:10, 19-25.

أساس الشركة في الروح القدس و"الكلمة" والاتحاد بجسد المسيح، يكون قد وضع أساس إيمان الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة في هذه العقيدة الأساسية: عقيدة الاتحاد بالله والوحدة في جسد المسيح.

والمعروف أن كلاًّ من القديس هيلاريون والقديس كيرلس الكبير قد بنى على هذا الأساس عينه، حتى بلغت عقيدة اتحادنا في الجسد الواحد الذي يضم المؤمنين جميعاً أقصى كمالها ونضوجها اللاهوتي عند كيرلس الكبير(٥٧).

وهكذا ينبغي أن يُعزَى الفضل لأثناسيوس الكبير، الذي استطاع أن ينتزع من الأريوسيين جميع أسلحتهم التي صوَّبوها ضد لاهوت المسيح المساوي للآب، وأن يستخدمها هي بذاتها في وضعها الأصيل الإلهي ليبني بها لاهوت الكنيسة الإيجابي الذي لا ينازَع ولا يُناظَر في ما يختص باتحادنا الوثيق بالمخلِّص.

وأثناسيوس في كافة المواضع لا يغيب عن رؤياه "**اتحاد المخلِّص بخاصته**"، هذه هي الرؤيا العظمى التي لم يهدأ يوماً واحداً على مدى خمسين عاماً من أن يوضِّحها بكافة الطرق، **سواء اتحاد الكلمة بجسده الخاص أو اتحاده هو بنا جميعاً. فأثناسيوس يجمع بين الاثنين معتبراً أن هذا هو الذي جمعه الله ولا يستطيع أحد أن يفرِّقه**(٥٨).

[كل ما كُتب عن المخلِّص بحسب بشريته، يلزم أن ننسبه لجنس البشرية عامة، لأنه أخذ جسدنا وحمل ضعفاتنا.](٥٩)

وأثناسيوس في دفاعه ضد الأريوسيين في حديثه الأول يستمر إلى عشرة فصول، منحصراً في موضوع واحد لا يحيد عنه في ما يختص بجسد المسيح العام الذي يجمع كل المؤمنين (الجسد السري)، موضِّحاً ذلك من قول بولس الرسول: «وضع نفسه وأطاع حتى الموت ... لذلك رفَّعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم.» (في ٢: ٨و٩)

فهذا الارتفاع أو الإعلاء الذي ناله المسيح كان موضوع تهليل الأريوسيين، باعتبار أن "**الكلمة**" كان في حاجة إلى تمجيد أكثر، إذن فهو لم يكن أعلى من كل شيء من البدء!!

(57) See: *The Whole Christ*, by Mersch, p. 277.
(58) Ibid. p. 278.
(59) *Apologia pro fuga*, 13; P.G. 25, 661, cited by Mersch.

ويزمجر أثناسيوس ضد هذا الادعاء، ويكشف غش منطق الأريوسيين. لأن هذا الارتفاع أو الإعلاء إنما يخص بشرية المخلِّص فقط، وذلك من أجلنا نحن!!

[إن الكلمة الأزلي، صورة الآب، أخذ شكل العبد. وكإنسان، عانى الموت بجسده من أجلنا، لكي يتسنَّى له أن **يقدِّم ذاته إلى الآب عنَّا بالموت**، لذلك أيضاً، **كإنسان وبسببنا ومن أجلنا، قيل عنه أيضاً أن الله "رفَّعه".**

لأنه كما بموته مُتنا جميعاً في المسيح، هكذا سنرتفع في المسيح نفسه عندما نرتفع إلى السماء بعد قيامتنا من الأموات «حيث **دخل المسيح كسابق لأجلنا**» (عب ٦: ٢٠)، وهو لم يدخل شيئاً (السماء) كأنه رمز أو صورة للحقيقة، ولكن دخل السماء نفسها «لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية بل إلى السماء عينها ليظهر أمام وجه الله لأجلنا.» (عب ٩: ٢٤)

ولكن إذا كان المسيح الذي هو دائماً رب وخالق السموات قد دخل الآن السموات من أجلنا، **يلزم إذن أن يكون من أجلنا ما قد كتب: أنه ارتفع** (رفَّعه الله).

وكذلك مكتوب أنه، وهو الذي يقدِّس جميع الناس، **يقدِّس نفسه من أجلنا أمام الآب**، هذا بكل تأكيد لا يعني أن الكلمة نفسه يلزمه أن يصير أكثر قداسة بل أنه يقدِّسنا نحن جميعاً في نفسه. وهكذا يلزمنا أن نأخذ نفس هذه الآية بنفس المعنى "قد رفَّعه الله"، لا كأنه يرفعه إلى ما هو أكثر كمالاً فهو الأعلى، ولكن لكي يصير هو برّنا فنرتفع فيه فندخل أبواب السماء التي أعاد فتحها لنا.][٦٠]



وفي ختام هذا الفصل نقدِّم للقارئ شهادة حسنة من أحد لاهوتيي الألمان القدامى، وأكثر من تخصص وتحمَّس للاهوت أثناسيوس الكبير، وهو العالِم موللر:

[لقد ضرب أثناسيوس جذوره عميقاً عميقاً جدًّا في تربة الكنيسة. وقد كان أثناسيوس لا يعرف نفسه إلاَّ فيها، فكان ماضيها حاضراً دائماً أمامه، **وأخذ على عاتقه أن لا يقدِّم المسيح يسوع إلاَّ متحداً بكنيسته من الداخل، وفي كلمة واحدة كان المسيح هو نفسه**

(60) Athanas., Contra Arian, I, shapter 21, P.G. vol 26, 96, cited by Mersch.

الكنيسة!](٦١)

لقد ركّز أثناسيوس كثيراً على "جسد المسيح"، الجسد الذي أخذه الكلمة لخاصته، من العذراء مريم دائمة البتولية والمؤمنين الذين اتحد بهم بروحه، فضمَّهم إلى جسده ونفسه، وحملهم في أحشائه، وفداهم، وتبنَّاهم، وغيَّرهم، فجدَّد خلقتهم، وقدَّسهم، ورفَّعهم، وألَّهَهم (ووحَّدهم بذاته) بنعمته.

وكان كلما تكلَّم أثناسيوس عن **"جسد"** الكلمة ينطلق سريعاً ليكشف فيه سر **"الجسد"** الفائق الذي يجمع المؤمنين:

[وعندما افتقد **"الكلمة"** العذراء القديسة مريم أتى الروح القدس إليها معه **وصاغ الكلمة "الجسد" بالروح القدس وشكَّله لذاته، إذ أراد أن تتحد البشرية بالله ويُحضرها إليه بنفسه**، وبه يصالح الكل عاملاً الصلح ...](٦٢)

وكان لاهوت المسيح هو المفتاح الكبير الهائل، الذي يفتح كل أسرار الخلاص والفداء والحياة الأبدية للكنيسة كلها، فلاهوت المسيح هو الذي يرفعنا من التراب ويقدِّسنا لنفسه ويوحِّدنا بجسده (يؤلِّهنا)، وهو الذي جعل التجسُّد انتصاراً على الموت والهاوية والخطية والفساد، وبه صار التجسُّد القوة الضاربة ضد الشيطان، وصار هو قوة التبني التي بها صرنا نحن الآن أبناءً لله الحي، وصار هو الحياة الأبدية للكنيسة، لأن فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس!!

ولم يكن أثناسيوس في كل هذه الحقائق الإيمانية كمستحدِث، بل كوارث - بالتقليد - جوهرة العقيدة والإيمان الحي من الرسل والآباء، ولكنه صقلها بالنعمة والإلهام تحت ضيق الاضطهاد وعناد الأريوسيين وكفرهم، وجعلها تاجاً على رأس الكنيسة تشعُّ على كل الأجيال لاهوتاً حيًّا يُفرِّح قلب المؤمنين!

---

(61) Möhler, *Athanas. der Grosse und die Kirche*, Mainz 1827, p. 122.

(٦٢) إلى سيرابيون. رسائل الروح القدس ١:٣١.

ملخَّص الفصل الخامس
الإنسان والخلاص
في اللاهوت عند أثناسيوس

أولاً: أُسس التقليد الآبائي

- تجسُّد ابن الله وموته على الصليب، هو رأس ومبدأ الإيمان عند أثناسيوس.
- موضوع الخلاص لم تستطع الكنيسة على مدى العصور أن تستوفي تعدُّد وجهات رؤيته، فكان لكل عصر رؤيته الخاصة له.
- ففي عصر الآباء الرسوليين كانت رؤية الخلاص على مستوى أخلاقي سلوكي، فيكون الخلاص انتقالاً من حياة الشر إلى حياة البر.
- وآباء آسيا الصغرى (القديس إغناطيوس ومَنْ بعده) نظروا الخلاص على مستوى وجهة نظر "مَرَضِيَّة". فالمسيح جاء كطبيب، والخلاص هو انتقال من مرض الموت إلى صحة الحياة، أو من الفساد إلى عدم الفساد. وهنا بدء نظرة الآباء إلى أن الإنسان أُعطي بالتجسُّد أن يحيا مع الله إلى الأبد ويصير شريكاً في صفاته وطبيعته الإلهية على أن يظل هو هو الإنسان.
- ثم جاء آباء شمال إفريقيا (وهم محامون)، ونظروا إلى الخلاص كعمل قضائي، أي كشفاعة وتبرئة من ديون ثقيلة.
- عند أوريجانوس اتسعت نظرته للخلاص واتخذت صبغة فلسفية، فالخلاص عمل كوني، تمَّ على مستويات شملت العالم بأسره، فيه انهزمت جنود الشر في هذا الصراع تحت سلطان الله.

ثانياً: أساس لاهوت الخلاص عند أثناسيوس

- أثناسيوس لم يتجاهل أي وجه من أوجه هذا التراث.
- فأكَّد أثناسيوس على عامل "القضاء" بمعنى العقوبة والتبرئة من الدَّيْن الذي كان يتحتَّم علينا دفعه. ذلك لأن الموت مرتبط بالخطية كعقوبة.

■ ثم في كتاب "تجسُّد الكلمة" يوضِّح أثناسيوس مبررات التجسُّد الحتمية:

(أ) تحويل الفاسد إلى عدم الفساد.

(ب) خلقة الإنسان الجديدة على مثال صورة الله.

(ج) جعل المائت غير قابل للموت.

(د) أدرك البشر حقيقة الآب.

(هـ) دفع الدَّيْن المطلوب بتقديم "الكلمة" نفسه ذبيحة. وهذا يتم بالتقدمة، وبالذبيحة الكهنوتية كفَّارة عن الجميع (وهذه هي نظرة العهد القديم العملية والواقعية لتصوير مفهوم الخطية والخلاص منها بالفداء).

١ ـ التقدمة الكهنوتية كفعل خلاص:

■ ما من وسيلة لرفع الفساد عن الإنسان إلاَّ بالموت.

■ لذا اتخذ الكلمة (غير القابل للموت) جسداً (قابلاً للموت)، ليكون كفؤاً للموت عن الجميع. ولكي باتحاد الكلمة بهذا الجسد يصير غير قابل للفساد.

■ وهكذا حقَّق التجسُّد بالتقدمة الكهنوتية:

(أ) إبادة الموت عن البشر، وقد صاروا نظراء الكلمة المتجسِّد، بتقديم المعادل والبديل (وهذا هو مفهوم الفداء).

(ب) تسديد الدين عن الجميع (مفهوم الخلاص بتسديد الدين).

(ج) ألبس الجميع عدم الفساد بوعد القيامة (الخلاص بالخروج من دائرة الفساد).

(د) وضع نهاية للموت (الخلاص كغلبة للموت).

٢ ـ الذبيحة:

■ وهي تساوي فعل التقدمة السابق مضافاً إليه عنصر الألم حتى الموت.

■ وتمَّت بأن:

- وضع "الكلمة" على نفسه عقاب الدينونة.
- محا الموت بواسطة تقديم جسده الخاص حتى الموت موت الصليب.
- بقيامته استعاد الإنسان مرَّة أخرى من حالة الفساد، لأنه هو وحده الذي يستطيع ذلك بصفته الخالق الذي صنع الإنسان على صورته.

ولكي نفهم بتدقيق لاهوت أثناسيوس عن الإنسان والخلاص لابد من عرض أفكاره باختصار:

حالة الإنسان الأُولى:

- الإنسان بحسب طبيعة التراب فقط يكون قابلاً للفساد وبالتالي للموت، لذلك في الخلقة الأُولى وهب الله للإنسان "الكلمة" ـ غير الزائل ـ لكي تصبح خلقة الإنسان على صورة الله.
- وبهذا أصبح يستحيل أن يفقد الإنسان المخلوق على صورة الله فعل وصورة "الكلمة" لأنها أصبحت من صميم خلقته. قد تضعف أو تتلف أو تتشوَّه، ولكن لا يمكن أن تُفقد بالكلية.
- أي قد يفقد الإنسان الصفات الإلهية التي وُهبت له كنعمة مجانية ولكن يستحيل أن يفقد صورة الله، وأهم ميزاتها الجوهرية: الخلود.
- لذلك فإن القدوس حينما جاء إلى عالمنا، إنما جاء ليجدِّد الإنسان المصنوع على صورته، ويعيده إلى الوجود الإلهي مرَّة أخرى.

ما آل إليه الإنسان بسقوطه:

- إن التصدُّع الذي حدث في صورة الإنسان بالمخالفة، انتهى إلى الالتصاق بالأرضيات، وبدأ الإنسان يسير نحو الفساد، وبالتالي نحو فقدان الله وازدياد الجهل به، وذلك بسبب تشوُّه صورة "الكلمة" الساكن في الإنسان (الذي يعطيه الإدراك والمنطق والبصيرة والرؤية الصحيحة).
- أثناسيوس ـ هنا ـ يركِّز على التغيير الذي أصاب الإنسان، كناحية مَرَضِيَّة ـ ولكن دون أن تفنى صورة الله في الإنسان.

وما أعوز الإنسان:

- لذلك أصبح الحل الوحيد والاحتياج الوحيد هو إلى تغيير جذري تجوزه الطبيعة البشرية لتعود إلى صحتها.
- وهذا لا يمكن أن يتم إلاَّ بتجديد التحام العنصر الإلهي (أي الصورة الإلهية) في صميم هذه الطبيعة البشرية.
- الكلمة المتجسِّد هو الطبيب والمخلِّص الذي أتى ليشفي ما حدث.

حتمية التجسُّد:

- إن الخلاص هو للإنسان، وليس لأشياء ليس لها وجود (لكي يكفي مجرَّد صدور أمر إلهي بالغفران). لذلك لزم أن يستخدم "الكلمة" وسيلة بشرية ويعلن نفسه من خلالها جهاراً.
- ولأن الفساد الذي دخل الطبيعة البشرية لم يكن خارج الجسد بل في داخله، صار الجسد

محتاجاً إلى أن تدخل فيه الحياة وتمسك به من الداخل وتملك عليه ولا تتركه كحالة آدم الأُولى.

- كل هذا يبيِّن أن الخلاص كان لابد أن يكمل من داخل طبيعة الإنسان، ولا يأتي إليها كأمر إلهي خارجي يُفرض عليها من خارجها وإلاَّ فمآلها للفساد والسقوط مرَّة أخرى.

ثالثاً: موت المسيح على الصليب عند أثناسيوس
في إطار معنى الخلاص

- التجسُّد غايته الأُولى خلاص الإنسان، وهذا الخلاص يستحيل أن يتم إلاَّ بموت المسيح.
- حينما قدَّم المسيح جسده الذي اتخذه لنفسه، صار الكل فيه، وكأنهم هم ماتوا جميعاً. وهذا هو معنى القول: «الكل مات في المسيح.» (راجع: ٢كو ٥: ١٤)
- يركِّز أثناسيوس بشدة على حقيقة الموت باعتباره علة الهلاك والفساد، لذلك يصوِّب الخلاص الذي أكمله المسيح على إلغاء وإبادة الموت. ومعروف أن الخطية هي العلة المؤدية للموت، لذلك فهي التي قدَّم عنها المسيح نفسه ذبيحة عن الجميع ليوفي عقوبة الخطية عن الجميع، وبذلك يلغي الموت ذاته الذي هو نتيجة الخطية.
- وهكذا بالخلاص الذي نناله بموت المسيح يتلاشى الموت من طبيعة الإنسان، ولا يعود له أساس داخلنا يمسك فيه، أولاً: لأن المسيح مات نائباً عنَّا جميعاً، ثانياً: بقيامته من الأموات وهب نعمة الحياة الأبدية لكل مَنْ آمن به واعتمد لموته.
- فموت المسيح هو رأس ومبدأ الحياة.
- وبفضل القيامة يصبح البشر عديمي الفساد.

رابعاً: نتيجة غلبة الموت والفساد التي أكملها المسيح لحسابنا
في إطار معنى الخلاص
"اشتراك الإنسان في الطبيعة الإلهية" أو "اتحاد الإنسان بالله" أو "تألُّه الإنسان"

- إن أثناسيوس وهو يتكلَّم عن نتيجة الخلاص، يركِّز بشدة على الإيمان بـ"تألُّه الإنسان"، باعتبار هذه الحقيقة تقليداً قديماً في الكنيسة، كنتيجة مباشرة آلت إلى الإنسان بسبب تجسُّد ابن الله وتأنُّسه، ثم موته على الصليب الذي به تبرَّر الإنسان، والقيامة التي نال بها الإنسان الحياة الأبدية.

- "تألُّه الإنسان" هو التعبير المقابل "لتجسُّد الله (الكلمة)". أي أن "التأنُّس" يقابله "التألُّه". الذي يعني: "الاتحاد بالله"، الذي ابتدأ الوحي الإلهي يعلن عنه على فم بطرس الرسول بتعبير: «الاشتراك في الطبيعة الإلهية».

- التزم بهذا التعليم الآباء القديسون إيرينيئوس ومَنْ بعده، إلى أثناسيوس الذي بلغ القمة في برهانه وشرحه وتوضيحه(٦٣).

- في اللاهوت الشرقي اتجاهان في ما يختص بتألُّه الإنسان:

الأول: أوريجاني: نسبة إلى أوريجانوس الذي يعتبر أن أعلى ما يهدف إليه الإنسان هو أن يعود "إلى" حالته الأُولى التي خُلق عليها.

الثاني: عند إيرينيئوس وآباء آسيا الصغرى: وهم يعتبرون أن الإنسان خُلق لغاية لم يستطع تحقيقها، وأن التجسُّد حمل الإنسان إلى تبعية رأس آخر للبشرية (غير آدم)، وبالتالي حمله إلى غاية أخرى هي: "التألُّه"، كان يستحيل عليه أن يبلغها لو بقي تحت رئاسته الأُولى القديمة.

- ركَّز أثناسيوس على هذه الرؤيا اللاهوتية: التألُّه باعتباره الغاية الحقيقية من الخلقة ومن التجسُّد، تلك الغاية التي تفوق قامة المعرفة البشرية. هذه الرؤية جعلها أثناسيوس مدخلاً ضمن أسلحته الماهرة لتحطيم الفلسفة العقلانية التي للأريوسيين.

- ولتبسيط معنى هذه الكلمة:

كما أن المسيح أخذ ـ بالاتحاد بالجسد البشري ـ كل ما للإنسان (ما عدا الخطية طبعاً)، هكذا الإنسان ـ بالاتحاد بالمسيح ـ أُعطي كل ما لله «كل ملء الله» (أف ٣:١٩)، دون أن يخرج الإنسان عن إنسانيته أو يستنفد كل ما لله.

- فتأنُّس الله أعطى فرصة لتألُّه الإنسان.
- لكي نعرف الله، لابد أن نقترب منه. ويستحيل الاقتراب من الله إلاَّ عن طريق "الكلمة" والروح. وهذا هو "الاتصال" الذي يؤدِّي إلى كشف طريق الحكمة الإلهية والذي عليه يبني الإنسان فكره وسلوكه.

---

(63) Starter; *Die Erlosungslehre des hl. Athanasius,* cited by Gross, *La Divinisation du Chretien d'apres les Peres Grecs*, pp. 201-218.

متى وكيف يبلغ الإنسان إلى كمال نعمة الاتحاد بالله:

- يستحيل بلوغ كمال الاتحاد بالله، قبل أن يخلع الإنسان جسد الموت الفاسد، ويلبس عدم الموت وعدم الفساد. علماً بأن ابن الله تجسَّد لكي يجعل كل ما أخذه كلمة الله من الإنسان قابلاً للاتحاد بالله (التألُّه)، كذلك فإن كل ما استرده المسيح للطبيعة البشرية عامة بالموت والقيامة أصبح غير قابل للضياع أو الفقدان بسبب أخطائنا. وهذا هو ضمان المسيح العجيب للخليقة الجديدة الذي هو رأسها والضامن لتحقيقها.
- وكما يتم الاتحاد بالله (التألُّه) عن طريق كلمة الله المتجسِّد، هكذا يتم عن طريق الروح القدس أيضاً [بالاشتراك في الروح القدس نصبح شركاء الطبيعة الإلهية ... الذين فيهم الروح القدس، هؤلاء يصيرون آلهة (أي مشتركون في الطبيعة الإلهية)].
- عطية الاتحاد بالله هي حقيقة غير منازَع فيها، اتخذها القديس أثناسيوس برهاناً على أن الروح القدس نفسه له طبيعة الله.
- التحفُّظ الهام الذي يضعه القديس أثناسيوس (وسائر آباء الكنيسة) في حقيقة اتحاد الإنسان بالله، هي أن "تأليه الإنسان" هو انتساب الإنسان لله، وهو لا يُخرج الإنسان عن إنسانيته أو يلغي طبيعته الإنسانية، بل يظل الله إلهاً والإنسان إنساناً.

كيف صار التجسُّد واسطة تأليه الإنسان:

- بواسطة الاتحاد بجسد المسيح يتم تأليه الإنسان، لأن جسد المسيح صار "متألِّهاً" بمجرَّد اتحاده بالكلمة: [نحن نتألَّه ليس باشتراكنا في جسد إنسان، بل بتناولنا من "جسد الكلمة" ذاته].
- وحينئذ نتحرَّر من ضعفاتنا ومن قيود خطايانا، وبالتالي نشترك في صفات وأمجاد اللوغس الكلمة.
- تحوُّل الإنسان يعني أنه فقد الموت والفساد وتحوَّل عن الشر الذي استُعبد له.
- كل ما للكلمة صار للجسد البشري الذي اتخذه لنفسه، وهذا بالتالي انتقل إلينا لمَّا أعطانا جسده [كما أن الرب لمَّا لبس الجسد صار إنساناً، هكذا نحن البشر قد تألَّهنا (اتحدنا بالله) بالكلمة، لأنه أخذنا وضمَّنا إليه في جسده، وبذلك ورثنا من الآن فصاعداً الحياة الأبدية].
- كل ما قيل عن المسيح في ما يختص بتجسُّده وأعماله ومعجزاته وصلاته ... إلخ، هذه كلها هي غنائم للإنسان بسبب تجسُّد الكلمة.

- و"تأليه الإنسان" عملية تتم على مستوى الفرد إذا تقدَّس الإنسان بالروح القدس. ومن هذا التقديس الفردي بالله تتم الوحدة الكلية الشاملة "ليصير الكل إلى واحد".

الفرق بين اتحادنا بالله والوحدة بين الآب والابن:

- القديس أثناسيوس يؤكِّد أن اتحادنا ووحدتنا مع الآب بالروح القدس شيء آخر تماماً يختلف عن اتحاد الآب بالابن.

[الابن في الآب مثل كلمته الخاصة ومثل شعاعه، أمَّا نحن فبدون الروح القدس نصير مفترقين وغرباء عن الله، وباعترافنا الحسن نحتفظ به فينا].

- "التأليه" هو تكميل عمل الآب في الخليقة، وتكميل الإنسان للسمو إلى مستوى الأخلاق والسلوك والحب السمائي، فهو غاية المسيح من كل أعماله لخلاص الإنسان، أي يبلغ بالإنسان إلى "الكمال المسيحي" ويصبُّه أخيراً في المحبة.
- التألُّه (الاتحاد بالله) هو حاجة الإنسان كمخلوق بنوع عام، لأن آدم باعتباره مجرَّد مخلوق لم يكن فيه أساس أمين للنعمة لتقيم فيه بدون خطر الزوال، لأنه حاز نعمة الله كهبة من خارجه وليس في صميم طبيعته الترابية. لذلك أصبح من أهم الأمور الأساسية في التجديد أن يتحد الإنسان بالنعمة أي بالروح القدس من داخل، ليصير للنعمة والقداسة أساس راسخ فيه لا يزول.

خامساً: التبني وعقيدة وحدة المؤمنين في جسد المسيح في إطار معنى الخلاص

- التبني عطية إلهية نحصل عليها بالاتحاد بشخص المسيح ابن الله. وهي ليست مجرَّد علاقة تحكمها المشيئة أو العواطف.
- أهم ما في علاقتنا هذه بالمسيح، هو أن هذا الاتحاد هو ثمرة مباشرة للاهوت المسيح ومساواته للآب. هذا هو الأساس الذي يبني عليه حقيقة الخلاص وكل ما يتعلَّق بخلاصنا، من تبنٍّ، وقبول الحياة الأبدية مع الله، ونيل صفات المسيح، والشركة في مجده كميراث في الآب.
- بنوَّة البشرية لله بعد التجسُّد أصبحت أمراً حتمياً بسبب ابن الله، فالتبني هو ثمرة التجسُّد الإلهي.

- والتبني أيضاً هو وجه من أوجه "التألُّه" أي "الاتحاد بالله". فحينما نتحد بالكلمة المتجسِّد، نصير فيه أبناءً بالتبني وأبناءً حقيقيين أي ورثة.
- والحقيقة التي يؤكِّد عليها القديس أثناسيوس: هي أنه ليس بسبب الخطية أساساً كان يستحيل على الإنسان الحصول على التبني، بل لأن طبيعته المخلوقة لم تكن مؤهَّلة للتبني.
- لذلك ما أسَّسه ابن الله في جسده أولاً كان لحسابنا، ومن ثمَّ انتقل إلينا.
- لاهوت المسيح هو ضمان بلوغنا الخلاص، وبالتالي التبني. فلكي نخلص ونحيا إلى الأبد يلزم أن يكون المخلِّص الذي نتحد به إلهاً أزلياً. ولكي نكون أبناءً لله يلزم أن يكون الابن إلهاً.
- ينبغي أن ننتبه إلى أن منهج أثناسيوس اللاهوتي كلٌّ واحد لا يتجزَّأ. فالإيمان بلاهوت المسيح، والاتحاد الأقنومي بين الكلمة والطبيعة البشرية، وكمال بشرية المسيح، وخلاص الإنسان، وتأليهه بالنعمة؛ كل هذه الحقائق الخمس مرتبطة بعضها بالبعض وذات أهمية واحدة؛ إمَّا تؤخذ كلها أو لا تؤخذ على الإطلاق.
- هذه الحقائق الحية يُصرُّ أثناسيوس عليها ويكرِّرها، وكل مرَّة يلقي ضوءًا جديداً عليها من زاوية جديدة.
- ويبلور أثناسيوس الإيمان كله هكذا:
  - المسيح إله حقيقي وإنسان حقيقي بآن واحد.
  - هو واحد بالحقيقة، أي لا تصدر عنه ثنائية، وذلك ليوحِّد الإنسان بالله، كما هو واحد في ذاته.
  - وفي النهاية يفوز الإنسان بالتبني والحياة الأبدية.
- التبني: هو وجود وسكنى واتحاد دائم بالروح القدس والكلمة. والروح القدس هو الذي يتكلَّم فينا ويخبرنا بأمور المسيح، ويمجِّد المسيح فينا وبنا.
- [ابن الله الذي فينا هو ابن الله بالطبيعة. والآب حينما ينظر أُولئك الذين يرى فيهم ابنه، يقول الآب: "لقد ولدتكم" ويدعوهم أولاده].

التبني من خلال الجسد السري للمسيح:

- اتخاذ الكلمة لكل ضعفات طبيعة بني الإنسان، يقابله منح الكلمة أمجاده الإلهية الخاصة للطبيعة

البشرية بصفة عامة.

- على أن هذا الاتحاد العام، وهذا التحرير العام للطبيعة البشـرية مـن الضعفـات، وهـذا العطـاء العام لأمجاد وحيـاة الكلمـة، هـو امتـداد لمفهـوم الجسـد السـري العـام للمسـيح الـذي يجمـع المسيحيين كأعضاء الجسد الواحد.

- فالمسيحيون يتحدون "بالكلمة" في شخص يسوع المسيح على أساس أن الكلمــة سـبق واتخـذ لنفسه الطبيعة البشرية واتحد بها في التجسُّد.

- المسيح لمَّا قَبِلَ الضعفات التي للطبيعة البشرية بالتجسُّد لم يفقد شيئاً بالمرَّة من مجد لاهوته، بـل اكتسب وربح خليقته التي كانت في بطن الشيطان، والآن صارت سبب مجد دائم لاسمه.

- [كما أن الرب أخذ جسداً وصار إنساناً، هكذا نحن البشر إذ قد حُسبنا ضمن جسد الكلمـة، صرنا متحدين به أو إلهيين، وصرنا ورثة للحياة الأبدية (فيه)].

- بصيرورتنا أعضاءً في الجسد الواحد الذي للمسيح، يمكننا أن نبلغ إلى إنسان كامل ونـدوم في عدم الموت وعدم الفساد.

- يتمسَّك القديس أثناسيوس تمسُّكاً شديداً بحقيقة الجمع بين بشرية المسيح مع بشريتنا، لدرجــة أنه يعتبرنا مقدَّسين ومتَّحدين في المسيح إلى الحد الذي يرى فيه أن الوقار اللائـق بـا لله وحـده ينسحب على "الكلمة" الموجود فينا والمتحد بنا، أي يشمل بشريتنا المفدية والمخلَّصة والمتَّحدة بالرب في أشخاص المؤمنين القديسين.

- حتى أنه يرى أن كل مَنْ يرانا، ونحن في حالة السمو الروحي بالروح القدس، يصرخ بكلمات الرسول عينها: «يخرُّ على وجهه ويسجد لله منادياً أن ا لله بالحقيقة فيكم.» (١كو ١٤:٢٥)

- أثناسيوس يوضِّح معنى أننا صرنا واحداً في المسـيح. ذلـك أنـه يجمعنـا كلنـا في نفسـه جسـداً واحداً. ولأن جسد المسيح صار ممجَّداً ومكرَّماً في عين الآب بسبب لاهوته، وبسبب اتضـاع الابن، وطاعته وحبه للآب والخليقة؛ صرنا نحن (كل الذين آمنوا وتقدَّسوا في المسيح) حائزين لهذا التكريم الإلهي عينه: «المجد الذي لي أنا أعطيتهم».

- الكمال الذي يبلغه الإنسان، هو نتيجة اتحاد المؤمنين بجسد المسيح:

[حتى إذ يتحدون بهذا الجسد ويصيرون واحداً فيه، يصـيرون أيضـاً كـاملين؛ حتـى يكونـوا

جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، إنساناً كاملاً، كأنما أحملهم جميعاً في ذاتي].

الفرق بين الوحدة بين الآب والابن، والوحدة بين المسيحيين والآب:

- الأريوسيون وهم يراوغون يدّعون أن أثناسيوس ينادي بتساوي "الوحدة" الحاصلة بين الآب والابن، و"الوحدة" الحاصلة بين المسيحيين والآب؛ حتى يبلغوا من وراء هذا الاتهام المزيَّف إلى التقليل من شأن الرابطة بين الآب والابن.

- وأثناسيوس، وهو يرد عليهم، يحدّد بوضوح الفرق بين طبيعة كل وحدة عن الأخرى: فالوحدة الممنوحة للمسيحيين هي بالنعمة، ووحدانية الابن في الآب هي وحدانية جوهر.

  - هو ابن حقيقي ووحيد بالجوهر، ونحن أبناء الله فعلاً ولكن بالنعمة حسب عطية ذاك الذي دعانا لهذا.
  - بالرغم من كوننا بشراً فقد أصبحنا نُدعى آلهة، ليس كالله أو كلمته اللذين هما بالحق، وإنما بحسب مسرَّة الله الذي أعطانا هذه النعمة.
  - نحن أبناء بالتبني والنعمة، إذ صرنا شركاء في روحه.
  - هو "الحق" ونحن بالاقتداء نصير فضلاء وأبناءً.
  - هو "المثال" و"النموذج" الذي عليه تصير وحدتنا بالآب.
  - بدون الله تصير هذه الوحدة مستحيلة. ولابد أن نحفظها برباط المحبة.
  - وجودنا في الآب هو من الروح الساكن فينا ـ وليس منا.

هذا التعليم هو أساس إيمان الكنيسة:

- القديس أثناسيوس بتعليمه الواضح عن الوحدة القائمة بين المؤمنين والله على أساس الشركة في الروح القدس والكلمة، وبالاتحاد بجسد المسيح، يكون قد وضع أساس إيمان الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة.

- هذه العقيدة بلغت منتهى كمالها ونضوجها اللاهوتي عند القديس كيرلس الكبير في القرن الخامس.

- أثناسيوس في كل جداله مع الأريوسيين، لا يغيب عن رؤيته "اتحاد المخلّص بخاصته"، سواء اتحاد الكلمة بجسده الخاص أو اتحاده هو بنا جميعاً. أثناسيوس يجمع بين الاثنين معتبراً أن هذا هو الذي جمعه الله، ولا يستطيع أحد أن يفرِّقه.

- وهذا الارتفاع والإعلاء الذي ناله المسيح بقيامته وصعوده، وهو ما اعتبره الأريوسيون برهاناً على عدم لاهوت المسيح؛ اعتبره أثناسيوس عكساً لذلك منطلقاً لارتفاع وإعلاء البشرية كلها - إذ من أجلنا نحن كان هذا الارتفاع والإعلاء، لأنه بسبب لاهوته لم يكن محتاجاً لهذا ولا لذاك.
- لاهوت المسيح هو الذي جعل التجسُّد مفتاحاً كبيراً لنا، فتح أمامنا كل أسرار الخلاص والفداء والحياة الأبدية للكنيسة كلها.
- وفي كل هذه الحقائق الإيمانية، كان أثناسيوس كوارث بالتقليد لكنز العقيدة والإيمان الحي من الرسل والأنبياء والآباء، صقلها بالنعمة والإلهام ليجعل منها تاجاً على رأس الكنيسة، تشعُّ على كل الأجيال لاهوتاً حيًّا يُفرِّح قلوب المؤمنين.



كورنيش من الحجر المنحوت بشكل أوراق الشجر الغنية بالتفاصيل الدقيقة تخرج من فرع متماوج
[من دير باويط (القرن السابع) معروضة في متحف اللوفر بباريس]

الفصل السادس

النظرة إلى المسيح كإنسان

أولاً: أثناسيوس والمواقف السلبية التي للأريوسيين من جهة بشرية المسيح(١)

لم يكن أثناسيوس - في شرحه وتوضيحه ودفاعه - متجهاً ناحية الفحص اللاهوتي النظري بحد ذاته، ولكن كان محور كل تفكيره وكتاباته هو لاهوت الخلاص؛ كان همُّ أثناسيوس أن يكشف قوة الخلاص التي دخلت العالم بالتجسُّد. لذلك كان تعرُّضه لبشرية المسيح ملتزماً في البداية بحدود الإنجيل و"الكلمة صار **جسداً**"، فالجسد هو بشرية المسيح، وهو التعبير عن إنسانيته(٢)، وكان يستخدم لفظ "سوما σῶμα" مرادفاً لكلمة "أنثروبوس ἄνθρωπος" بلا أي حرج وبدون تمييز. ولكن من بعد سنة ٣٦٢ نراه يبدأ يوضِّح بدقة مفهوم الكمال الناسوتي، مستخدماً كلمة "ساركس σάρξ"، للتعبير عن الجسد، مضافاً إليها ما يكمِّلها من جهة النفس الناطقة ψυχὴ λογική، وكذلك "الروح" أحياناً πνεῦμα، وذلك لمواجهة شطط نظرية أبوليناريوس(٣).

والنتيجة المترتِّبة على هذه التوضيحات، أن أثناسيوس بالتالي لم يتعرَّض لموضوع عصمة المسيح من الخطأ، باعتبار هذه العصمة بديهية ومذكورة بوضوح في قول المسيح عن نفسه، ولكن لمَّا احتدم الجدل بعد ظهور نظرية أبوليناريوس، والتي سبقها على نفس المستوى ادعاء أريوس "بتغير طبيعة المسيح"؛ بدأ أثناسيوس يؤكِّد **لاهوت المسيح**، حيث يتحتَّم أن يكون دائماً أبداً **بلا تغيير وبلا خطية!!** وإلاَّ فإنه يتحتَّم أن يدخل المسيح تحت الدينونة!! وهو الديَّان!!

[لأنه يلزم أن نعتبر مقدار فظاعة الخطأ، إذا قيل إن "**كلمة الله**" هو مجرَّد "**عمل** من أعمال الله" أو خلقة، لأن سليمان النبي يقول: «لأن الله يُحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن خيراً أو شرًّا» (جا ١٢:١٤). فإن كان الكلمة هو "**عمل**"، فهل تقصدون من هذا أنه سيأتي للدينونة شأنه شأن الآخرين؟ وكيف يبقى معنى للدينونة، إن كان القاضي

---

(١) وفيما يختص بظهور أو استعلان "الكلمة" في العهد القديم بالنسبة لله، فالقديس أثناسيوس ينفرد بشرح مبدع في هذا الموضوع، إذ يعتبر في إرسال الله للملائكة في العهد القديم لتبليغ رسالة الله، أن الملاك كان في حقيقته ومظهره مجرَّد ملاك، ولكن النطق والرسالة كان بواسطة "الكلمة"، أي أن الملاك لم يكن هو "الكلمة" في العهد القديم، ولكن الله كان يتكلَّم "**بالكلمة**" في الملائكة (Athanas., *Orat.* III, 12, 14; *de Synod* 27, 15; *Serap.* 1:14)، لذلك صح أن يُقال، بخصوص ظهور الملائكة وتسليمهم الرسالة، إن الله يقول أو الملاك قال.

(2) Athanas., *De Incar.*, 18.1, 21.7.

(3) Athanas., Letters 59, 60; *C. Apolli.*

والديَّان يدخل تحت الفحص والإدانة؟ ثم كيف ومن ذا الذي سيتولّى بعد ذلك تبرئة البـار؟ أو عقاب غير المستحق؟ ثم بأي قانون أو ناموس يُحاكَمُ ويُدانُ مَنْ شرَّع القانون نفسه، إن هو دخل إلى الفحص والقضاء؟

... إن الابن ليس هو مجرَّد "عمل من أعمال الله" بل "**كلمة الله**" ذاته الـذي فيه تـأتي كل الأعمال إلى الدينونة.](٤)

نظرة أثناسيوس – من جهة بشرية المسيح – نحو معرفة اليوم والساعة الأخيرة، (بخصوص ما جاء في إنجيل مرقس ١٣:٣٢، لوقا ٢:٥٢):

وهي النصوص التي اعتمد عليها الأريوسيون في تدعيم ادعـائهم أن المسيح كـابن الله وكلمتـه، وحتى من جهة لاهوته، كان يجهل تحديد ميعاد اليوم الأخير وبالتالي التاريخ المستقبلي.

وكان رد أثناسيوس في حديثه الثالث ضد الأريوسيين الذي استغرق اثني عشر فصلاً متصـلاً(٥)، والذي كان محور الدفاع فيه أن ما جاء في الإنجيل بهذا الخصوص لم يكن عـائداً علـى "اللوغـس" كلمـة ا لله في ذاته كابن ا لله، فهذا افتراء! ولكن كان منصباً على الابن المتجسِّد في حالة **تجسُّده** كابن الإنسان.

ويمكن تلخيص ما جاء في هذا الدفاع في النقاط الآتية(٦):

١ – قول الرب: «وأمَّا ذلك اليوم وتلـك السـاعة فـلا يعلـم بهمـا أحـد ولا الملائكـة الذيـن في السماء ولا الابن إلاَّ الآب»، لم يذكر الروح القدس؛ فإذا كان الروح القدس يعلـم بـاليوم والساعة، فالابن يعلم بهما باعتباره "الكلمة"، لأن الروح القدس يأخذ مما للمسيح.

٢ – إذا كان الابن يعرف الآب، فحتماً يعرف كل ما يعرفه الآب.

٣ – إذا كان الابن له كل ما للآب، فحتماً يعرف اليوم والساعة.

٤ – الذي خلق كل الأشياء، يعلم متى تنتهي، والذي كان يعلم علامات ما قبل اليوم والسـاعة بدقة، لم تكن تُخفى عليه الساعة نفسها (إلاَّ بإرادته وحده).

٥ – المسيح كان يعلم ولكن ليس بصفته ابن البشر (متى ٢٤:٤٢)، فكان هنا يتكلَّم بشرياً.

٦ – المسيح قال إنه لا يعلم، لأن في ذلك منفعتنا، حتى نكف عن حب استطلاع المواعيد، كما

(4) Athanas., *Discourse* II. 6.
(5) Athanas., *Discourse* III, 42-53.
(6) N.P.N.F. Series II, vol. VI, p. 416.

جاء في سفر الأعمال ١:٧.

٧ ـ كما كان يتقدَّم في القامة والحكمة عند الله والناس، كذلك كان اللاهوت يُستعلن فيه أكثر فأكثر بتقدم الزمن.

ولقد احتدم الجدل اللاهوتي حول هذا الموضوع عند الآباء بعد أثناسيوس، ولكن ظل معظم الآباء اللاهوتيين على رأي أثناسيوس.

لكن يلزمنا هنا أن نوضِّح رأينا في الخلفية اللاهوتية الدقيقة، التي كان يتحرَّك فكر أثناسيوس في إطارها. فالجهل باليوم أو المعرفة به لم تكن متصلة بمفهوم طبيعته، لأن اللاهوت والناسوت في المسيح لم يعتريهما افتراق لا لحظة ولا طرفة عين، في كل ما يختص بشخصه وفكره وقوله وعمله ومعرفته؛ ولكن الذي كان يتغيَّر وينمو هو ما يختص برسالته.

فرسالة التجسُّد التي تختص بالفداء وتنتهي عنده، ليس لها أن تتداخل في رسالة الدينونة، وهذا أوضحه الرب بقوله: «إن ابن الإنسان لم يأتِ ليدين العالم بل ليخلِّص العالم»، مع أنه في موضع آخر قال إن الدينونة أُعطيت للابن: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» (يو ٥:٢٢)، وهنا يتضح أن للخلاص زمناً وعملاً وحدوداً، وأن للدينونة زمناً وعملاً وحدوداً، وأن الابن ـ كما أُرسل للفداء ـ سيُرسَل للدينونة، وكلا الإرساليتين من الآب. فالابن، وهو في حال عمل الفداء، له أن يقول ـ عن حق ـ بمقتضى التدبير إن يوم الدينونة والساعة الأخيرة ليست حالئذ في دائرة عمله، أي لم يُعطَ بعد عملها ـ من الآب ـ وبالتالي ميعادها.

لأن المسيح أوضح جدًّا في مواضع سابقة، أنه لا يعمل إلاَّ كما يريه الآب، وكما يعلِّمه الآب، وكما يقول له الآب، ومن نفسه هو لا يعمل شيئاً! «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يو ٥:١٩). وهذا من صميم مفهوم الإخلاء، حتى يكمل كل حدود الطاعة حتى الموت على الصليب.

وهكذا يتضح تماماً أن المسيح بقوله إن "الابن" لا يعلم ذلك اليوم ولا تلك الساعة إلاَّ الآب، إنما يتمشَّى تماماً مع رسالة الابن وهو لم يكمل بعد رسالة الفداء على الصليب.

أمَّا من جهة القدرة على المعرفة المطلقة بالكليات بحسب طبيعة الابن، فمعلوم يقيناً أن كل ما يعمله الآب يعمله الابن، فجوهر الطبيعة واحد في الآب والابن؛ إنما الذي حجز المعرفة عن الابن هي مشيئة الابن نفسه في التخلي، أو الإخلاء، الذي استخدمه ليظهر في الهيئة كإنسان لتكميل

الطاعة حتى الموت أولاً؛ وبالتالي ليستطيع أن يقول عن حق إنه لا يعلم تلك الساعة!! أي بخصوص أعمال ما بعد الفداء، أي في ما يخص الدينونة، في حين أنه كان عالماً تماماً بساعة موته على الصليب: «قد أتت الساعة ليتمجَّد ابن الإنسان» (يو ١٢:٢٣). وهكذا يظهر تماماً أن معرفة الابن كانت تُستمد من الآب في حدود الرسالة الموضوعة أمامه، وإلاَّ يستحيل فهم طاعة الابن للآب.

ويمكن تلخيص نظرية أثناسيوس من نحو هذه القضية في جملة عقائدية مختصرة وبديعة نضعها هكذا:

إن المسيح، إذا شاء، يعلم كما يعلم الله

وإذا شاء، يجهل كما يجهل الإنسان!!

أو أنه كان يعلم كالله ويجهل كإنسان إنما حسب ضرورة الفداء.

لأنه لمَّا تجسَّد لم يفقد شيئاً مما هو له كإله، ولا أحلَّ بما هو للإنسان. فلمَّا قال: «إن الابن لا يعلم هذا اليوم ولا تلك الساعة»، أثبت كمال ما هو لتجسُّده في حدود رسالة الفداء التي تنتهي عند ساعة الصليب، وليس عند ساعة الدينونة، ولكن جهله بساعة الدينونة باعتباره الذبيحة التي تتهيَّأ للموت على الصليب، يزيد من عظمة إخلائه لذاته، وهو كإله أُعطي كل الدينونة.

ولا يغيب عن بالنا قط، ونحن في هذا المضمار، أنَّ من دوافع التجسُّد الأصيلة قبول الجهالة التي للإنسان: «مولوداً من امرأة **تحت** الناموس»، حتى يستطيع أن يكمِّل الناموس، أي أن اتجاه التجسُّد هو إلى التواضع والتنازل إلى كل ما هو للإنسان، وليس التطلُّع إلى التفوُّق والامتياز الذي "للكلمة"، بالرغم من أنه استخدم هذا التفوُّق والامتياز الإلهي الذي للكلمة، الذي هو لاهوته، عند الضرورة في لحظات المصادرة أو لإثبات شخصيته والإعلان عن رسالته.

ويكرِّر أثناسيوس أنه في كل تصرُّف من هذا القبيل أو ذاك، إنما كان الدافع الوحيد هو: [من أجل منفعتنا](٧) أو كما يضعها أثناسيوس في صيغتها اللاهوتية دائماً هكذا: [من أجل التدبير]، قاصداً تكميل العمل الخلاصي الذي تجسَّد من أجله. فكما أن المسيح تجسَّد من أجل التدبير Economia، كذلك فإن جهله لليوم وللساعة الأخيرة هو من أجل التدبير سواء بسواء، لأن على قياس وغاية التجسُّد يتحتَّم فهم كل عمل وقول وتصرُّف أتاه المسيح، وكل تدبير هو ـ من جهة ـ يقوم على حجب اللاهوت في محدودية الناسوت، ومن جهة أخرى يقوم على استعلانه اللاهوت من داخل محدودية الناسوت، ولكن كلاً في موضعه، بحسب حدود دور الرسالة التي جاء يكمِّلها في طاعة الآب.

(7) Athanas., *Discourse* III, 48.

ثانياً: موقع العذراء من التجسُّد وبالتالي من بشرية المسيح

كان أثناسيوس في كل منهجه اللاهوتي واضحاً غاية الوضوح في تحديد موضع العـذراء بالنسبة للتجسُّد، فهي ليست كأم لبشرية المسيح، وإنما أُماً للإله الكلمة المتجسِّد منها. فهي "الثيئوتوكوس" أي والدة الإله، أو "حاملة الإله"، بكل وضوح وتأكيد وتكرار(٨). كما أكَّد أثناسـيوس علـى دوام بتولية العذراء، تأكيداً لمفهوم الميلاد الفائق الوصف والإعجازي للإله المتجسِّد(٩).

ولكن لم يصدر عن القديس أثناسيوس أيَّة إشارة في جميع كتاباته عن أي دور أو وساطة للعذراء القديسة مريم في عمل الفداء والخلاص، وبالتالي لم يأتِ في تعاليمه على أي ذكر لأي عبـادة يمكـن أن تقدَّم لشخص العذراء مريم، مما يسمَّى الآن بالعلم المريمـي Mariology، فهـذا البنـد مشـجوب برمته في لاهوت القديس أثناسيوس.

(8) Athanas., *Discourse* III, 14, 29, 33; IV, 32; *C. Apollin.*, 1. 11, 12, 21.
(9) Athanas., *C. Apollin.*, 1.4.

ملخص الفصل السادس

أولاً: أثناسيوس والمواقف السلبية للأريوسيين من جهة بشرية المسيح

- لم يكن أثناسيوس في شرحه وتوضيحه ودفاعه يتجه ناحية الفحص اللاهوتي النظري بحد ذاته، ولكن كان كل محور تفكيره وكتاباته هو "الخلاص".
- وكان همُّ أثناسيوس أن يكشف قوة الخلاص التي دخلت العالم بالتجسُّد، ملتزماً بحدود الإنجيل: «والكلمة صار جسداً».
- كان أثناسيوس يستخدم في البداية للتعبير عن بشرية المسيح، لفظ "سوما" = جسد، كمرادف لكلمة "الإنسان". ولكن بعد سنة ٣٦٢م بدأ يستخدم لفظ "ساركس" للتعبير عن الجسد وما يكمِّله من نفس ناطقة وروح، وأحياناً كان يستخدم هذا التعبير لمواجهة نظرية "أبوليناريوس" الذي نادى بابتلاع الناسوت في اللاهوت.
- على أن أثناسيوس في مقابل ذلك كان يؤكِّد لاهوت المسيح حينما احتدم الجدل حول تغيُّر طبيعة المسيح:

[فالابن ليس مجرَّد "عمل من أعمال الله"، بل هو "كلمة الله" ذاته الذي فيه تأتي كل الأعمال إلى الدينونة].

معرفة المسيح لليوم والساعة الأخيرة (مر ١٣:٣٢، لو ٢:٥٢):

- كان أريوس يعتمد في إنكاره لألوهية المسيح على الآية القائلة بجهله لليوم والساعة الأخيرة.
- وكان رد أثناسيوس في ١٢ فصلاً متصلاً في حديثه ضد الأريوسيين يتلخَّص في أن الرب يسوع كان يعلم بهما باعتباره ابن الله الكلمة المساوي للآب في كل شيء، ولكنه قال إنه لا يعلم بهما باعتباره الابن وهو في حال تجسُّده كابن الإنسان، وذلك لمنفعتنا، أو [من أجل التدبير].
- واللاهوت والناسوت لم يعتريهما أي افتراق ولا لحظة واحدة ولا طرفة عين، ولكن الذي كان يتغيَّر وينمو هو ما يختص برسالة التجسُّد وهي المذكورة في لو ٢:٥٢.
- فرسالة التجسُّد كانت تختص بالفداء (وليس بالدينونة) وتنتهي عنده، أمَّا إرسالية المسيح

للدينونة في اليوم الأخير فكانت خارج دائرة عمله وهو في عمل التجسُّد على الأرض.

- والمسيح أوضح بشدة أنه لا يعمل إلاَّ كما يريه الآب، وكما يعلِّمه الآب، وهذا من صميم مفهوم الإخلاء الإرادي من المجد، والطاعة للآب حتى الموت ... فعدم علمه باليوم ولا بالساعة يتمشَّى تماماً مع رسالة الابن وهو لم يكمِّل بعد رسالة الفداء على الصليب.
- فالذي حجز المعرفة عن الابن هو مشيئة الابن نفسه في التخلِّي عن مجده، أو الإخلاء، وهذه هي طاعة الابن للآب.
- ويمكن تلخيص تعليم أثناسيوس من نحو هذه القضية في جملة عقائدية مختصرة:

إن المسيح، إذا شاء، يعلم كما يعلم الله.

وإذا شاء، يجهل كما يجهل الإنسان!!

أو أنه كان يعلم كالله ويجهل كإنسان إنما حسب ضرورة الفداء [من أجل التدبير].

- ولكن لا يُظن أن الابن بالتجسُّد فقد شيئاً مما له كإله، ولا أخلَّ بما هو للإنسان. فبقوله إن الابن لا يعلم الساعة أثبت كمال وحقيقة تجسُّده. بل إن ذلك يزيد من عظمة إخلائه لذاته، فهو كإله أُعطي كل الدينونة حينما صار ذبيحة تتهيَّأ للموت على الصليب.
- وإن من دوافع التجسُّد الأصيلة قبوله "الجهالة" التي للإنسان. و لم يكن اتجاه التجسُّد التطلُّع إلى التفوُّق والامتياز الذي للاهوت الابن، بل إلى الاتضاع والتنازل إلى كل ما هو للإنسان.
- وكل تصرُّف من هذا القبيل كان [من أجل منفعتنا]، أو [من أجل التدبير].
- فكما أن الابن تجسَّد [من أجل التدبير]، فإن قوله بعدم علمه الساعة هو أيضاً: [من أجل التدبير].

ثانياً: موقع العذراء من التجسُّد وبالتالي من بشرية المسيح

العذراء – عند أثناسيوس – هي والدة الإله "ثيئوتوكوس"، والدة الإله الكلمة المتجسِّد منها. وهي دائمة البتولية تأكيداً لمفهوم الميلاد الفائق الوصف للإله المتجسِّد.

ولكن ليس لها أي دور أو وساطة في عمل الفداء والخلاص.

الفصل السابع

معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

أولاً: معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

يعتبر هذا الموضوع من أهم وأخطر المواضيع التي خاضها القديس أثناسيوس، وأرسى فيها قواعد لاهوتية غاية في الأهمية.

وسوف يرى القارئ أن هذا الموضوع هو الأساس الذي يُبنى عليه كل اللاهوت الأرثوذكسي، والذي بمقتضاه وعلى هداه صارع أثناسيوس ضد الأريوسية.

وفي العصور الحديثة أخذ علماء اللاهوت رأي أثناسيوس بتوقير فائق، وحسبوه فريداً بحق، معتبرين أثناسيوس الشاهد الأول وعن جدارة للإيمان بحلول الله في الكون، بالرغم من إصرار كثير من النظريات التي تقول بتفوُّق طبيعة الله وانحجابها وتفرُّدها في البعد عن كل جوهر مخلوق(١).

لم يبدأ أثناسيوس هذا البحث في هذا الموضوع الدقيق الحسَّاس بنوع من الإيجابية الهادئة، ولكن الظروف هي التي أقحمت الكنيسة اضطراراً لخوض هذا الموضوع إزاء خروج الأريوسيين عن حدود الإيمان القويم واتِّباعهم للأصول الفلسفية الوثنية، مما قذفهم لركوب تصورات خاطئة ونظريات منسوجة حسب الفكر البشري عن الله وعن طبيعته، حتى يصلوا إلى غايتهم التي وضعوها مسبقاً.

لقد أصر أريوس على أن طبيعة الله متسامية عن فعل الخلق المادي، لأنها غير قابلة للحلول أو الاتصال بأي خليقة مادية. ولكي يحل مشكلة الخلق، فكَّر أريوس في مخرج وهو أن الله اضطر لكي يخلق العالم المادي أن **يخلق وسيطاً** من لا شيء، الكلمة - اللوغس - المسيَّا، بحيث يكون من طبيعة أعلى من طبيعة المخلوقات المادية، وهذا بدوره يضطلع بخلقة المادة والخلائق الأخرى.

ولكن لا يصعب على أي مفكِّر أن يحس أن نظرية أريوس هذه مجرَّد توليفة عقلية. فالله الفائق الأسمى المنزَّه عن الخلق ماذا يجبره على الخلق؟ بل وكيف يجوز بأن يُقال إنه خلق كلمته؟؟

وقد انبرى له القديس أثناسيوس، ليثبت من واقع الكتاب المقدَّس، ومعاملات الله مع الإنسان، ومن واقع شعور تَقْوى الإنسان وإحساسه العميق بالله؛ أن الله وإن كانت طبيعته يتحتم أن تكون فائقة كل التفوُّق وغير قابلة للإدراك العقلي، لأنها تفوق طبيعة العقل وتسمو عليه جدًّا وبلا أي

---

(1) Fiske, *Idea of God*; cited by NPNF, 2nd Ser., vol. IV, p. lxxii.

قياس؛ إلاَّ أن الله هو بنفسه ـ أي بكلمته ـ خلقنا، وهو بنفسه ـ بكلمته ـ نفخ فينا، ونحن نحس بيد الله الصانعة لكياننا كله، وندرك نسمة القدير التي نتنفسها ونحيا بها.

فالله خلقنا بإرادته وبقوة كلمته، ولكنه **لم يخلقنا من طبيعته، لأنه خلقنا من لا شيء، لقد أراد الله أن نوجَد، فصرنا موجودين**، ولكن **وجودنا ليس مستمداً من جوهر الله، لأننا وُجدنا من العدم!** ولهذا فإن وجودنا قابل للتغيير بل وبدون الله قابل للزوال، **ولا يمنعه من الزوال إلاَّ إرادة ـ ونعمة ـ الله التي أوجدته والتي لا تزال مريدة لبقائه ووجوده، فنحن كخليقة إنما نحيا ونوجد ونتحرَّك ونبقى بإرادة الله!**

لقد ورثت المسيحية من العهد القديم معرفة ربوبية الله الفائقة والفريدة على كل خليقة، فالله عُرف لدينا على مدى كل أسفار العهد القديم أنه وحده هو القادر المقتدر والكلّي القدرة Pantocrator أي الضابط الكل. وجميع المخلوقات إنما خُلقت خلقاً من العدم، فهي لا تقوم ولا توجد إلاَّ اعتماداً على نعمة الله ومسرَّة إرادته.

فالوجود المادي برمَّته هو عطاء من الله، وليس ذلك فقط بل وحتى **النفس البشرية هي قابلة للموت بطبيعتها، لأنها مخلوقة، وهي إنما تعيش وتحيا بنعمة الله.**

والكنيسة كانت حريصة منذ البدء ضد التيار الفلسفي والوثني القائل: "بعدم الموت" بالنسبة للنفس البشرية، فالشهيد يوستينوس قاوم هذا المبدأ الأفلاطوني، مفنِّداً ذلك بقوله: إن **القول بعدم الموت** يعادل تماماً **القول بعدم الخلق، فكل ما هو غير مائت هو غير مخلوق**(٢).

ولكن علاقة الله بالخلق كانت مثار تفكير واجتهاد. ونقطة الصعوبة عند المدافعين عن المسيحية ضد الوثنيين كانت هي العلاقة بين كيان الله، أي جوهره، وبين كيان العالم، أي الخليقة، التي هي الاستعلان الظاهري المدرك لطبيعة الله، التي شرحها بولس الرسول في رسالة رومية هكذا: «مُدرَكَة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته» (رو ١ : ٢٠). ويتضح لنا مدى هذا النزاع الفكري الخفي الذي كان يعتمل في قلب فلاسفة المسيحيين الأوائل، عندما يسأل أوريجانوس: هل يمكن أو هل يُسمح لنا أن نفكِّر في الله دون أن نراه وندركه كخالق؟ كان أوريجانوس يعتبر أن هذا مستحيل، فالتقوى كل التقوى أن يلتزم الفكر بجعل **نسبة الخلق لطبيعة الله** كصفة ملازمة لله، لا

(2) St. Just., *Dialog. with Trypho*, c. 5 & 6.

يمكن إدراكه بدونها كأمر حتمي!! وأن كل تفكير غير ذلك هو تجديف فظيع.

وهنا يقع أوريجانوس في المحظور إذ كان عليه إزاء هذا الشطط في التفكير أن يعترف بأن الخليقة هي أيضاً أزلية بأزلية الله؟

وهنا بدأ أوريجانوس يدافع عن نظريته بحذق وبراعة مذهلة، ولكن بزاوية انحراف لم يلحظها في البداية، كأن يقول: وهل يمكن أن يكون الله على شيء لم يكنه سابقاً؟ أي هل يمكن أن يكون الله غير خالق ثم يصير خالقاً؟

ولكن خطأ أوريجانوس هنا أنه حصر الله في مجرَّد "وجود"، أي في طبيعة موجودة، لا تعمل عملاً غير وجودها، أي من داخل وجودها، وهنا ألغى أوريجانوس إرادة الله وفعله ثم قوله أي "كلمته" المؤثِّر في خلق موجودات أخرى من العدم.

وكان تصوُّر أوريجانوس يبدو بشيء من خداع البصر أنه منطقي، فالله سيد وخالق، وهل يمكن أن يكون الله في وقت من الأوقات لم يمارس قوته كسيِّد وخالق، أي "بانتوكراتور" حيث كلمة παντοκράτωρ تفيد ممارسة فعلية للسلطان والضبط. وهكذا انتهى أوريجانوس إلى أنه لكي يكون الله "بانتوكراتور"، كان يلزم أن تكون كل الأشياء موجودة منذ الأزل لكي يمارس الله سلطانه عليها، وهكذا يصير في عرف أوريجانوس أن وجود الخليقة مرادف مستمر ودائم لوجود الله الأزلي. وكأن العالم يستمد وجوده وأزليته من وجود الله وأزليته، أي يصير بالتالي مساوياً لجوهر الله.

وهذا بحد ذاته كان شططاً فلسفياً، هو التجديف بعينه، **لأن قدرة الله على كل شيء وسلطانه الفائق يتبرهن على أعظم وجه لا بوجود العالم منذ الأزل بل بخلقته من لا شيء!**

وهكذا لم يستطع أوريجانوس أن يتخلَّص من تيار الفكر الفلسفي الوثني، محاولاً أن يمزج قصة الخليقة كما جاءت في الكتاب المقدَّس، التي تقوم على قدرة الله الفائقة للخلقة من العدم، يمزجها بأسس الفلسفة الوثنية التي تقوم على المعلومة الأُولى وهي أزلية العالم وحتمية وجوده وديمومته وثبوت تكوينه الجوهري؛ فلم يوفَّق أوريجانوس، وانحاز إلى الفلسفة الوثنية وسقط عن الفكر المسيحي المستقيم، وابتدأ أوريجانوس يعطي للخليقة أو "للعالم المخلوق" أوصافاً ليست من حقيقة "العالم المخلوق" الذي يعيش فيه، ويعيش فيه المسيحيون إيمانهم المسيحي.

وبسبب هذا المفهوم الذي وقع فيه أوريجانوس من جهة أزلية الخلقة وقع في عقيدة "أزلية النفس"، بل والأخطر من ذلك كله أنه سجَّل على نفسه: [وجود الصلة المنطقية بين "ميلاد الابن" ووجود العالم دون انفصال.](٣)

ومن واقع منطق أوريجانوس هذا، يستحيل التفريق بين "**الخلقة**" و"**الميلاد**"، فكلاهما بالنسبة لله علاقتان أساسيتان أزليتان: فالابن بالنسبة لأوريجانوس [أزلي كشخص وجوهر معاً، ولكن ميلاده الأزلي هو في الحقيقة بالنسبة للعالم المخلوق أزلي أيضاً](٤). [وهكذا لم يستطع أوريجانوس بفلسفته أن يفلت من وضع الابن مع المخلوقات.](٥)

وهكذا أعطى أوريجانوس لأريوس وأتباعه النور الأخضر لاعتبار الابن مخلوقاً، ولكن أوريجانوس كان يختلف في هذا الاعتبار عن الأريوسيين اختلافاً كبيراً جدًّا، مما حدا بالقديس أثناسيوس أن يبرِّئ أوريجانوس من اتهام الأريوسيين له أنه يوافقهم بعقيدته، لأن أوريجانوس وضع أساس مفهومه عن الخلقة أصلاً باعتبارها عملاً إلهياً أزلياً بلا ابتداء، لذلك يقول أثناسيوس مدافعاً عن أوريجانوس: [إن أوريجانوس يجحد بوضوح كل مَنْ يقول **إنه كان هناك زمن لم يكن الابن موجوداً فيه**](٦)، وحيث أن هذه هي الصفة الأساسية لأي مخلوق، فأثناسيوس ينفي بهذا صفة المخلوق عن الابن بالمفهوم الذي أذاعه أريوس.

وهكذا بدأ الخداع الفلسفي في نظر أريوس بسبب نظرية أوريجانوس يتلخَّص في مفهوم الفرق بين الزمن والأزلية، وأصبح الاختيار بين أحد المعطيين حتمياً:

إمَّا اختيار أزلية الخليقة ومعها أزلية الابن، حيث لا زمن بحسب أوريجانوس، وهنا يبقى الله بلا تغيير قط ضابط الكل دائماً لسلطانه الأزلي فوق العالم، وأباً دائماً للابن المولود دائماً في الأزلية دون أي فاصل زمني؛ أو رفض أزلية العالم، ومعها رفض أزلية الابن، بحيث يكون وقت لم يكن فيه العالم ووقت لم يكن فيه ابن أيضاً!

(3) V.V. Bolotov, *Origen's Doct. of the Holy Trinity* cited by Florovsky, *Aspects of Chr. Hist.* p. 43.

(4) Origen, *De princip.*, 1, 2, 10; 41-42, Florovsky, *op. cit.*, pp. 44, 45.

(5) Florovsky, *op. cit.*, p. 46.

(6) Athanas., *De Decr.*, 27.

وهكذا فرَّق أريوس بين جوهر الله الآب عن جوهر الابن، واضعاً الابن مع الخليقة كمخلوق لم يكن موجوداً قبل أن يوجد، ومختلف جوهرياً عن الآب، ولو أنه أعطاه بعض الامتيازات، كأن يقول إنه **جاء إلى الوجود قبل كل الدهور والأزمنة**.

وهنا يصرخ أثناسيوس في وجه أريوس لأنه يتلاعب بكلمة الزمن ويفرغها من مضمونها(٧)، حيث أن **الظهور إلى الوجود من العدم معناه الخضوع الحتمي للزمن**.

كذلك يقول أريوس إن الابن ليس من جوهر الآب، بل خلقه الله بالإرادة؛ وأريوس يستمد مفهومه هذا عن خلقة الله للابن بالإرادة من أوريجانوس الذي قال بهذا القول نفسه في ما يخص **العالم والابن معاً**، حيث أورد أوريجانوس كلمة "الإرادة" بمعنى **المشورة الأزلية** وليس مجرَّد الإرادة الخارجة عن الكيان الإلهي(٨).

وهكذا يتضح أمام القارئ بكل وضوح أن موضوع النزاع اللاهوتي في ما يخص الإيمان بالله بين أريوس والكنيسة الأرثوذكسية ـ ممثَّلة بأثناسيوس ـ كان يدور مبدئياً في **مشكلة الخلق**، وكان هذا النزاع في أصوله الأُولى في الحقيقة ذا طابع ديني إيماني تقوي، ولكن سرعان ما ارتفع إلى مستوى الصراع اللاهوتي الخطر عندما طبَّقه أريوس على الابن. وكان على الكنيسة أن تدافع عن تقواها وإيمانها وخلاصها بالأسلحة اللاهوتية والفلسفية معاً.

وأول من أدخل هذا الصراع الديني إلى الميدان اللاهوتي الفلسفي هو ألكسندروس بابا الإسكندرية، الذي سمَّاه سقراط المؤرِّخ (١:٥) بالفيلسوف اللاهوتي، فألكسندروس كان أول مَنْ حاول فصل "الإيمان بالله" عن المتعلِّقات الأخرى في ما يخص العالم والخليقة(٩).

وألكسندروس إنما كان يعكس فكر مصر التَقَوِي، حيث العبادة هي دائماً مصدر الفهم للاهوت، والعبادة لم تنفصل في مصر قط عن الإيمان، والإيمان يقوم أساساً على أن الله واحد حي قائم بذاته، فهذا هو الميراث الذي سُلِّم مرَّة للقديسين.

ولكن الذي يدرس تعليم أريوس يُصدم بحقيقة الانفصال الواضح بين التقوى والمعرفة، حيث لا يوجد عند أريوس أي إحساس بحياة الله في ذاته، فالتقوى غائبة في لاهوت أريوس، لذلك لا

(7) Athanas, *Contra Arian*, I. 13.

(8) Origen, *De Princip.* 1,2,6; 35; cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 46.

(9) Florovsky, *op. cit.*, p. 47.

يصعب الحكم على تعاليمه بأنها أفكار مركّبة ميتة، بل ومبتذلة، ويكفي أن يدرك القارئ أن الله عند أريوس لا حياة له إلاّ في ما يتصل به بالعالم(١٠)!

ثانياً: أثناسيوس والخلق

قبل أن يبدأ الصراع الأريوسي، كان الخلق أحد المواضيع التي عالجها أثناسيوس في كتاباته المبكّرة.

لأنه، كما سبق ونبّهنا أن عملية الخلق كانت إحدى الأساسيات التي دافعت عنها المسيحية ضد الوثنية كمدخل حتمي للفداء، فالتجسُّد تمّ لفداء الخليقة، **والخليقة الإنسانية سقطت ـ بالرغم من حالتها "الحسنة جداً" التي خُلقت عليها يوم خُلقت ـ وذلك بسبب أنها خُلقت مبدئياً من العدم.**

لذلك يستحيل فهم الفداء وتجسُّد ابن الله، وبالتالي طبيعة ابن الله التي أكمل بها الفداء، إلاّ على أساس فهم واقع الخليقة وطبيعتها.

وبادئ ذي بدء، يضع أثناسيوس نصب عينيه في بحثه الأول، الذي قدّمه في دفاعه ضد الوثنية وتجسُّد الكلمة، **الفارق الهائل والجوهري بين الله والخليقة على أساس الفارق بين طبيعة الله أي كيانه ووجوده في ذاته، وطبيعة العالم المخلوق أي وجوده الذي يستمده من إرادة الله.**

فالله كائن بذاته، موجود قبل كل الوجود، غير متغيِّر، لأنه غير خاضع للزمن، وبالتالي فهو غير قابل للموت أو الفساد، في حين أن العالم المخلوق متغيِّر، ولا يستقر على حال، فهو معرَّض للفساد وقابل للموت.

وعلى أساس الفارق الهائل بين الوجودين: وجود إلهي غير قابل للفساد أو الموت، ووجود مخلوق قابل للفساد والموت، يمكن تفسير سقوط العالم وفداء الله له.

على أن أثناسيوس يضيف إلى ذلك أن أي ترتيب يظهر في العالم المخلوق أو أي نظام أو جمال، إنما هو مُضاف إلى العالم وموضوع عليه وبيد أعلى من مستوى طبيعة العالم المتقلّب، هي بيد خالقه!

---

(10) Florovsky, *op. cit.*, p. 48.

"فالكلمة" يضبط الخليقة كلها معاً، وينظّمها ويرتّبها، ويدبِّرها ويحكمها، لكي يوازن بين ما يريده لها من وجود منسجم مرتّب بحسب مشيئة الله وبين طبيعتها النازعة إلى الانحلال والفساد والعدم.

كذلك يعارض أثناسيوس فكرة الحلول الإلزامي، أي حلول اللوغس الطبيعي أو الغريزي في جوهر الأشياء المادية كعلة لوجودها ودوامها. **فالخليقة إنما تقوم بقوة الانضباط التي يفرضها كلمة الله عليها تلقائياً من الخارج بالإرادة والنعمة وليس كالتزام.**

فأثناسيوس يمتد من عقيدة خلقة الله للعالم من لا شيء بأمر إلهي، إلى استمرار وجود العالم تحت هذا الأمر عينه من الخالق، والإنسان يشارك العالم في هذا الوجود عينه، فهو مخلوق مكوَّن وليس بسيطاً، مخلوق من غير وجود سابق، وهو بطبيعته صار قابلاً للموت والفساد، ويستحيل عليه أن يفلت من هذا المصير إلاَّ بنعمة الله وشركة اللوغس، لأن الإنسان بذاته لا يقدر أن يعيش إلى الأبد(١١).

واللوغس، الذي يعبِّر عنه أثناسيوس بأنه ابن الله الوحيد، لا يوجد بينه وبين المخلوقات أي تشابه طبيعي، فاللوغس موجود في العالم، ولكن ليس هو الوجود الضمني المحدود، بل الوجود المحرِّك الفعال المحيي، أي أنه موجود بقوته وقدراته، أمَّا جوهره (كيانه الذاتي) فهو فائق عن كل ما في العالم المخلوق.

وإليك كلام أثناسيوس نفسه:

[فلا يتوهمن أحد أنه (أي اللوغس الكلمة) أصبح محصوراً في الجسد (الذي حلَّ فيه)، أو أن كل مكان آخر أصبح خالياً منه بسبب حلوله في الجسد، أو أن العالم أصبح محروماً من عنايته وتدبيره طالما كان يحرِّك الجسد؛ ولكن ما يدعو للدهشة أنه مع كونه هو **"الكلمة"** الذي لا يسعه مكان، فإنه يملأ كل مكان، وبينما كان حاضراً في كل الخليقة، فإنه كان يتميَّز (يفوق) عن سائر الكون في الجوهر (الكياني الذاتي) وحاضراً في كل الأشياء بقدرته، ضابطاً كل الأشياء، ومُظهراً عنايته فوق الكل وفي الكل، ومعطياً الحياة لكل شيء، حاوياً كل شيء، دون أن يحتويه شيء، بل كائناً في أبيه كلية وبكل معنى.

(11) Athanas., *Contra Gent.*, 40-43; *De Incar.*, 2,3,5. cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 50.

وهكذا وبينما هو حالٌّ في جسد بشري، محيياً إيَّاه بذاته، فقد كان يمنح الكون كله الحياة أيضاً دون تناقض، **موجوداً في كل عملية من عمليات الطبيعة وفي نفس الوقت خارجاً عنها جميعاً**، وبينما كان يُدرَك بسبب الجسد الذي يعمل فيه، كان - وليس أقل من ذلك - ظاهراً في أعماله التي يعملها في الكون.

... وليس لأنه موجود في العالم معناه أنه يشارك العالم في طبيعته، بل على النقيض فكل الأشياء تستمد منه حياتها وقوامها.](12)

وهكذا كان العلماء كلهم يتخبَّطون في كيفية خلقة الله للعالم ومدى الصلة التي تربط العالم بخالقه، فتارة ينحرفون نحو حلول الكلمة "اللوغس" في العالم جوهرياً، وبهذا يؤلِّهون الكون ويعطونه صفة الأزلية والديمومة، وتارة ينحرفون نحو تنزيه الله وانعزاله المطلق عن العالم المخلوق، الأمر الذي يحرِّم تصور وجوده الشخصي بيننا ويبعده عن الخليقة كلها، منزهين إيَّاه عن المادة والحلول بأي صورة كانت في الخليقة، مما جعلهم يتطلَّعون إلى وسيط للخلقة بين الله المنزَّه عن الخليقة وبين الخليقة المنحطَّة عن مستوى الحلول الإلهي.

وكل هذا الخلط والتشويش وقع فيه أريوس وغيره، بينما أثناسيوس كان قد سبق ووضع أُسس اللاهوت الصحيح في هذا الأمر في كتابيه الصغيرين: "ضد الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة"، ثم أوضح ذلك جدًّا بعد ذلك حيث يمكن تلخيصه في جملة واحدة: **إن الله خلق الكون بكلمته، بالإرادة والقدرة وليس بجوهره، أي ليس من كيانه الذاتي، أي أنه خلقه من لا شيء. فالعالم قائم ومرتَّب ليس من ذاته بل بسلطان الله، فالله موجود في العالم بكلمته وبإرادته حسب مسرَّة مشيئته وسلطانه، ولكنه فائق ومنزَّه عنه بجوهره أي بكيانه الذاتي.**

وهكذا وضع أثناسيوس ولأول مرَّة **المصالحة العظمى في لاهوت الخلقة بين الحلول والتنزيه.**

وفي نفس الوقت وضع أثناسيوس الأصول الأُولى للاهوت الأرثوذكسي في ما يختص بالتمييز المحدد جدًّا بين **جوهر الله الذاتي الداخلي غير المنظور وغير المدرك**، وبين عمله الخِلْقي، وما يتبعه حتماً من إرادة وسلطان وضبط وعناية وتدبير وصلاح وجمال، **وهو المظهر الخارجي المدرَك في**

(12) Athanas., *De Incar.*, 17: 1-6.

العالم والخليقة، المعبَّر عنه: **"بنعمة الله المجانية العامة"** التي تدبِّر الكون(١٣).

ولكن بينما يسقط أريوس ويتعثَّر في العلاقـة الـتي تربـط الآب بـالابن، أي الله بكلمتـه ثـم بالخليقـة، معتبراً أن الله خلق اللوغس ليخلق به العالم، فشوش العلاقة التي تربط الله بكلمته ثم شوش العلاقـة التي تربط الخالق بالخليقـة، فأسـاء بذلـك إلى مفهـوم الله في ذاتـه كـآب وابـن أو كـالله وكلمتـه، وجعلها علاقة معلولة، أي مرتبطة بالخلقة؛ فلولا أن الله أراد أن يخلق العالم ويخلق الإنسان، ما كان أوجد أو ما كان خلق كلمته!! وهكذا أدخل أريـوس بحماقتـه جوهـر الابـن الذاتـي كمعلـول أو كـأداة مؤقّتة للخلقة(١٤)!

نقول بينما يسقط أريوس ويتعثَّر، نجد أثناسيوس يوضِّح أن **"كلمة"** الله الخـالق كـان ولا يـزال علة الخلق الأُولى والمباشرة والفعَّالة، وأن كيان **"الكلمة"** كان قبل الخلق وأثناء الخلـق وبعـد الخلـق حراً ومستقلاً استقلالاً كلياً عن الخلق وعن فعل الخلق، وعن تدبير الخلق للعالم والإنسـان وكـل مـا فيه. يقول الهراطقة:

[نحن لم نُخلق من أجله (الابن) بل هو الذي خُلق من أجلنا، لذلك هو مدين بالشكر لنا!!]

ويعلّق أثناسيوس:

[إن ما يقوله هؤلاء الهراطقة (الابن مخلوق من أجلنا) هو المرض بعينه بل هو التقيُّؤ.](١٥)

[ولكن الحقيقة في هذا الأمر لا ينبغي أن تخفى، بـل يـلزم أن تعلَـن عاليـاً، لأن كلمـة الله لم يُخلق من أجلنا، بل بالحري نحن الذين خُلقنا من أجله "فإنه فيه خُلـق الكـل" (كـو ١:١٦) وليس بسبب كوننا ضعفاءً (بالطبيعة) خُلق هو (الكلمة) قويـاً بواسـطة الآب وحـده؛ حتـى يعيد صياغتنا بواسطته كأداة ـ فليهلك رأيهم هذا ـ ليس هذا حقًّا، لأنه بينمـا ظهـر (مـن سفر التكوين) أن الله لم يجد الأمر حسناً أن يخلق الأشياء إلاَّ بالكلمة مع الله مساوياً كـآب في الابن، هكذا فإن الأشـياء الـتي خُلقـت لم يكـن ممكنـاً أن تظهـر إلى الوجـود إلاَّ بواسـطة "الكلمة" حيث إنها به صارت كما يحق.

(13) A. Gaudel, *La Theolog. du "Verbe" chez St. Athanas.*, pp. 1-26, cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 51.

(14) Athanas., *Against Ar.* II, 30.

(١٥) يقصد القديس أثناسيوس أن الهراطقة بسبب مرض أرواحهـم وعقولهـم وإيمـانهم لم يستطيعوا أن يهضمـوا حقـائق الإيمان العالية، فاضطروا أن يتقيَّأوها بدون نضج.

كذلك فإنه بسبب أن "الكلمة" هو ابن الله بالطبيعة ومساوٍ له بـالجوهر وهـو منـه وفيـه قائم، كما قال هو بنفسه، فإن الخلائق كان يستحيل أن تأتي إلى الوجود إلاَّ بواسطته.](١٦)

كما يستطرد أثناسيوس قائلاً إنه حتى وإذا لم يكن الآب قد خطَّط ليخلق العالم أو شيئاً مما فيـه، فإن "الكلمة" هو مع الله، والآب فيه.

وقد اعتنى أثناسيوس جدًّا في صراعه مع هرطقة أريوس وفي مواضع عدة من كتاباته، أن **يوضِّح أن علاقة الآب بالابن هـي قائمـة بذاتهـا، خلـواً مـن أي تدبـير آخـر للخلـق، أو حتـى خـلاص الإنسان، وهذه النظرة العميقة الفاحصة والمحدَّدة المعالم بالنسـبة لرؤيـة الله في الثـالوث الأقـدس الآب والابن والروح القدس، المستقلة عن أي اعتبار آخـر، جعلـت أثناسـيوس حـراً في نظريتـه اللاهوتية لكل أعمال الله في الخليقـة والخـلاص، دون أي خلـط بـين الله في ذاتـه** Theologia**، وبين تدبير الله** Oikonomia، بالرغم من شدة الالتحام بين الله وتدبـيره؛ واضعـاً نصـب عينـه أن تكون الأولوية دائماً لله في ذاته على الله في عمله وإرادته(١٧)!!

وهذا ردًّا على ابتعاد أريوس عن حقيقة الله، ابتعاداً كان كفيـلاً أن يطمـس معـالم اللاهـوت أو معرفة الله في ذاته، فالله عنـد أريـوس مرتبـط بالخلقـة ارتباطـاً كيانيـاً، أي أن الله لا يُعـرف إلاَّ كخـالق وحسب.

أمَّـا أثناسـيوس فيـبرز أبـوَّة الله، وهـي الصفـة الجوهريـة الذاتيـة لله في ذاتـه، فـوق وقبـل صفـة "الخالق".

فحينما نقول إن الله "آب"، فهنا نعني عن الله في ذاته شيئاً أعلى بكثير مـن علاقاتـه بمخلوقاتـه العامة!!(١٨)، والتجسُّد هو الذي كشف لنا عـن ذات الله الواحـد الآب والابـن والـروح القـدس! فالأبوَّة هي صفة ذات الله الجوهرية بالنسبة لابنه، وهذه **"الأبوَّة"** في ذات الله هي التي انتقلت إلينـا بالتبني في المسيح بواسطة التجسُّد والموت والقيامة ـ بالميلاد في المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس(١٩)، أي أننا **لمَّا ارتفعنا من مستوى المخلوقات** العامة إلى **مستوى البنـين** باتحادنـا بـالابن ـ

(16) Athanas., *Contra Arian,* II, 31.
(17) Florovsky, *op. cit.,* p. 52.
(18) Athanas., *Contra Arian,* I, 33.
(19) Ibid. I, 34.

في موته وقيامته ـ تأهَّلنا أن نرتفع من إدراك الله كخالق بالمستوى الفكري أو الإيمان النظري، إلى إدراك الله كأب، بالمستوى السرِّي كشركة وحياة.

وأثناسيوس يُصرُّ على أن الله قبل أن يخلق العالم كان هو آب. وهو آب خلق العالم **بالكلمة** حسب مسرَّة إرادته؛ وأثناسيوس هنا يوضِّح أن مفهوم كيان الله الذاتي كآب وابن، سابق على مفهوم ظهور إرادة الله للخلق، أي أن ا **لله فوق إرادة الخلق**، بمعنى أن **كيان ذات الله (جوهره) هو فوق الإرادة الفاعلة في الخلق، وفوق الصفة المتأتية من الخلق أي الخالق**(٢٠).

فوجود الله يُنشئ إرادة الخلق، ولكن إرادة الخلق لا تنشئ وجود الله، فالله موجود بذاته أولاً، وذاته هي أبوَّة وبنوَّة وروح قدس.

وهنا أثناسيوس يتكلَّم عن الترتيب بحسب المنطق، وليس بحسب الترتيب الزمني، لأنه لا يوجد ترتيب زمني في كيان الله وصفاته.

وعند أثناسيوس يوجد بالأساس نوعان من الصفات الإلهية:

١ ـ صفات ذاتية كيانية في الله، أي تتعلَّق بكيانه ووجوده الذاتي، وهذه الصفات جوهرية: الآب والابن والروح القدس.

٢ ـ صفات أخرى تتعلَّق بأعمال الله، أي بإرادته ومشيئته الذاتية، أو كما يسميها الكتاب: "مشورة الله" (أع ٢: ٢٣).

وأثناسيوس يصمِّم على الفصل والتحديد والتمييز بين هذين النوعين من الصفات، ولا يعتبر أن هذا التمييز أو الفصل مسألة منطقية أو عقلية، أي فلسفية، بل هي في الحقيقة تختص بصميم الإيمان با لله:

- لأنها تختص أولاً بكيان الله في ذاته، وهذا موضوع العبادة الأول، والحقيقة العظمى التي استعلنت من جهة ذات الله الآب والابن والروح القدس في الأسفار المقدَّسة والتجسُّد وحلول الروح القدس.
- ثم تختص بتوضيح عمل الله بالإرادة في الخلق، حيث هذه الإرادة أو المشيئة أو المشورة متطابقة للآب كما للابن كما للروح القدس.

ويفرِّق أثناسيوس بين إرادة الله في الخلق والصفات الجوهرية لله: الآب والابن والروح القدس،

(20) Ibid. II. 2.

الخاصة بكيان ووجود الله الذاتي. ويعتبر هذه الصفات "**واجبة**" الوجود، أو حتمية من حيث إنها أزلية لا تستمد وجودها من آخر، هذا "**الوجوب**" أو هذه "**الحتمية** necessity" بالنسبة للوجود الإلهي تعطيه الصفة الجوهرية، لأن الله غير مختار في أن يختار أو يريد وجوده(٢١)، لأنه كائن بذاته حسب تعبير الله عن نفسه لموسى "أنا الموجود بذاتي = ἐγώ εἰμι". هنا لا دخل إطلاقاً لأي إرادة في ذلك.

ثم كان لائقاً بالله أن يخلق، فهذا بحد ذاته تعبير عن وجود الله أو إعلان عنه من خارج كيان الله. وهو فعل إرادته أو عمل مشورته، وليس امتداداً لكيانه أو جوهره.

وأثناسيوس يصر على التمييز القاطع بين إرادة الله أو مشورة الله في الخلق وبين علاقة الآب بالابن، واضعاً حداً مميِّزاً بين "**الإرادة**" و"**الجوهر**". وقد ركَّز أثناسيوس على هذه الحقيقة بتأكيد وتكرار كثير جاعلاً إيَّاها أساساً لنقض كل ادعاءات الهرطقة الأريوسية. أن "**يكون الله**"، هذا شيء؛ وأن "**يعمل الله**"، هذا شيء آخر!

فالخلق Creation هو من عمل الإرادة الذاتية، وهو للآب كما للابن كما للروح القدس، ونتيجته مخلوقات، أي أعراض خارج الكيان الذاتي لله. أمَّا أبوَّة الله للابن Generation فهي من كيان وجود (جوهر) الله الذاتي(٢٢). وهذه الأبوَّة هي من ذات كيان الله، في ذات كيان الله.

ولكي يدلِّل أثناسيوس على الفرق والتمييز بين علاقة الله بالعالم المخلوق وبين العلاقة الجوهرية بين الآب والابن الخارجة والبعيدة عن مفهوم الخلقة، يأتي بتشبيهات كثيرة من الأسفار تختص بهذه العلاقة ويكشف منها أسرار الله.

١ - في حديثه ضد الأريوسيين ١: ١٩:

[من صفات الله الهامة في الأسفار المقدَّسة، أنه "**ينبوع الحكمة**". ومن صفات المسيح ابن الله الهامة، أنه "**حكمة الله**".

فالآن إذا نحن أخذنا بقول الأريوسيين أنه كان يوجد وقت لم يكن فيه الابن موجوداً، فهذا يعني بالضرورة أن الينبوع كان في وقت ما فارغاً وجافاً، أو بالحري لم يكن ينبوعاً

(21) Florovsky, *op. cit.*, p. 53.
(22) Ernst Benz, cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 53.

بالمرَّة!؟ لأن الينبوع الذي لا ينبع منه شيء ليس هو ينبوعاً بالمرَّة].

هذا هو التشبيه المحبوب عند أثناسيوس والذي يكرِّره باستمرار في حديثه ضد الأريوسيين.

كذلك في الحديث الثاني الفصل الثاني يقول:

[إذا لم يكن "الكلمة" هو الابن الحقيقي لله، فالله لا يكون أباً قط بل صانع مخلوقات وحسب!!]

وهنا يبدأ أثناسيوس ليُدخل ألفاظاً مستمدة من مفهوم الأوصاف الواردة في الأسفار، إنما جديدة وبرَّاقة ومثيرة في وصف الأهمية العظمى والمطلقة لوجود الآب والابن في الكيان الذاتي الواحد لله. فيقول:

[إذا فرضنا خلو الطبيعة الإلهية من وجود البنوَّة في الله فهذا يطفئ **جذوة** الطبيعة الإلهية، ويجعلها **عقيمة** غير **وهَّاجة** غير **مخصبة**، **مجدبة**، ينبوعاً جافاً].

مجدبة (غير مخصبة)	ἔρημος
غير مثمرة (عقيمة)	μὴ καρπόγόνος
(جذوة مطفأة) نور بدون نور	ὡς φῶς μὴ φώτίζον
ينبوع جاف	πηγὴ ξηρά
شمس بلا شعاع (غير وهَّاجة)(٢٣)	ἥλιος χωρὶς τοῦ ἀπαυγάσματος

هذه الصفات خاصة بذات الله وكيانه وطبيعته - أي جوهره فقط - ولم يستخدمها أثناسيوس قط من جهة عمل الله في الخلقة أو الكون.

٢ - في حديثه ضد الأريوسيين ١: ٢٠:

[الله لا يمكن أن يكون بدون ما هو له في أي لحظة، هذا في ما يخص ذات الله أي الأبوَّة والبنوَّة.

وفي نفس الوقت لا يمكن أن ترقى المخلوقات إلى شيء مما لجوهر الله أو تتواصل بكيانه الذاتي. فهي إنما تبقى دائماً خارج كيان الله ἔξωθεν αὐτοῦ لأنها إنما أخذت وجودها وكيانها بنعمة وإرادة "الكلمة"، "لذلك فهي قابلة أن تتوقَّف عن الوجود إذا رغب خالقها

(23) Athanas., *Contra Arian,* II, 2,1,14, 11,33; cited by Florovsky, *op. cit.,* p. 54.

في ذلك، لأن هذه هي طبيعة الأشياء المخلوقة".](٢٤)

وهنا يقارن ويميِّز أثناسيوس بين "وجوب" أو "حتمية" الكيان الإلهي في ذاته الذي يحمل الآب والابن، وبين "عدم حتمية" كيان العالم المخلوق والمنضبط تحت إرادة وسلطان الله، وبالتالي "وجوب" وحتمية صفة الأبوَّة في الله غير الخاضعة للإرادة أو المشورة، وعدم حتمية الخلقة الخاضعة للإرادة والمشورة.

وهي مقارنة بين كيانين:

أبدي، وزمني،

واجب الوجود، وغير واجب الوجود،

ثابت، ومتغيِّر،

مطلق، ومحدود.

[وكما أنه يمكن أن يُقال عن إنسان ما إنه خالق أو خلاَّق (مبدع) قبل أن يخلق أو يبدع شيئاً، في حين أنه لا يمكن أن يقال عنه إنه "**أب**" قبل أن يكون له ابن،

كذلك فإن الله يمكن أن يوصف بأنه خالق قبل أن يباشر إرادته بالخلق، أي قبل أن يكون العالم، لأنه من فعل إرادته.

فالله بالرغم من أنه كان قادراً أن يخلق العالم منذ الأزل، ولكن الحقيقة أن الأشياء المخلوقة يستحيل عليها أن توجد منذ الأزل لأنها خُلقت من العدم، وتبعاً لذلك وبالضرورة لم توجد قبل أن يوجدها الله من العدم!!

إذن فكيف أن الأشياء التي لم توجد قبل أن يخلقها ا لله يمكن أن تكون أزلية مع ا لله؟](٢٥)

ولكن، في نظر أثناسيوس، هذه المحدودية والضعف في طبيعة المخلوقات لا تحط قط من قدرة خالقها، وإنما هي المقارنة ـ بحد ذاتها ـ بين وحدة الطبيعة الذاتية الأزلية لله ـ وبين التباين والتعدد والتغيير في طبيعة المخلوقات الوقتية هي التي رفعت من عظمة الطبيعة الإلهية وأنزلت من قيمة الطبيعة المخلوقة.

ومن هذا التسلسل يرى القارئ أن الهدف الأساسي من دفاع القديس أثناسيوس على مدى

(24) Ibid. (II, 24, 29).

(25) Ibid. (I, 26).

الثلاث مقالات المطوَّلة ضد الأريوسيين، كان يتركّز بقوة نحو إعطاء المفهوم اللاهوتي الكامل والصحيح عن سر الله في كيانه الذاتي **"كآب وابن وروح قدس"**، باعتباره سر العبادة الأعظم **"الثلاثة في واحد"**، محاولاً كل جهده أن يجعل حقيقة الله هذه واضحة مدركة بحد ذاتها خلواً من أي عمل آخر لله في الخليقة.

والإنسان لا يسعه وهو يدرس دفاع أثناسيوس فصلاً بعد فصل، إلاَّ أن يدخل بالفعل في تأمُّل الحياة الإلهية في الله ذاته، حيث لا يجد الإنسان أي صعوبة في التعرُّف على الفارق الجذري بين الله والمخلوق أو بين صفة الله في ذاته وصفة الخالق بحد ذاتها، حيث يبدو التفوُّق للذات الإلهية مطلقاً بالدرجة التي يبدو فيها الله في غير حاجة إلى خليقته، لا لشيء إلاَّ لأن كيانه الذاتي كامل ومتكامل في ذاته، أمَّا هذا الكيان الذاتي لله فهو نفسه المستعلن لنا في الثالوث(٢٦).

ولكن في كل ذلك لم يغفل أثناسيوس عن أن يعطي أهمية سر الخلق المقترن بسر الكيان الإلهي، باعتباره عمل "التدبير الإلهي"، وهكذا يبتدئ أثناسيوس وينتهي عند التمييز بين سر "اللاهوت Theology" و"التدبير Economy"، وكان هذا التمييز هو الدافع الأساسي وراء تعرُّض أثناسيوس لسر الخلق بالحديث المطوَّل في أول بحث عمله في حياته في كتابه "ضد الوثنيين"، تمهيداً للوصول الصحيح إلى مركز الكلمة المتجسِّد من اللاهوت.

لأن التمييز بين **"الوجود"** و**"الإرادة"**، **"الأبدي"** و**"الزمني"**، **"المطلق"** و**"المحدود"**، الوجود الإلهي في ذاته وبين الإرادة الإلهية في الخليقة الزمنية، ينشئ في الحال تمييزاً وتفريقاً بالتالي بين كيانين، كيان الله الذي فيه الآب والابن وكيان المخلوقات، أي الكيان الثابت الداخلي لله في ذاته، وكيان الخلق غير الثابت المخلوق والمضبوط بالإرادة وبسيادة الله المطلقة ـ الذي له بداية، ويتحرَّك بقوة الله نحو نهاية محسوبة سابقاً ـ حيث يستحيل أن يُنسب الابن للكيان الخارجي.

ثم على هذا الأساس بدأ أثناسيوس يفسِّر عملية الفداء التي بدأت بتجسُّد ابن الله، على أساس تحويل الخليقة (البشرية) من كيان التغير والفساد والتحرُّك ـ بدون الله ـ نحو العدم، إلى الكيان الثابت غير الفاسد غير المائت للحياة الأبدية ـ التأله ـ مع الآب والابن والروح القدس.

وهنا يعترف أعاظم اللاهوتيين(٢٧) أن أثناسيوس كان أول لاهوتي في العالم يميِّز تمييزاً متقناً

(26) Louis Bouyer, *Corps du Christ dans le Theologie de Saint Athanas.*, p. 47.
(27) F.A. Staudenmeier, cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 60.

ومحكماً ومدروساً، ولأول مرَّة في تاريخ الفكر البشري، بين **"الوجود الإلهي الذاتي"** و**"الإرادة الإلهية في الخلق"**، حيث لم يقدِّمه أثناسيوس للعالم كنتاج فكري هادئ منهجي كنظرية، ولكن أطلقه كصيحات دفاع واحتجاج من وسط أتون معركة محتدمة مع هراطقة أشرار، يدفعهم الحقد ويناصرهم إمبراطور وجيش يجري وراءه يطلب حياته، دون أن يكون له فرصة للتأمُّل، مما أضاف إلى هذا الفكر اللاهوتي **صدق وحرارة الإيمان وصفاء الرؤية** دون أي اتقان للمظهر المنهجي في التصنيف.

ولكن في ختام عرض هذا الفكر الزاخر والقدرة اللاهوتية التي وهبها الله لأثناسيوس بنعمة فيَّاضة، معلناً عن سر الثالوث في كيان ذات الله، وكاشفاً عن **حدود فعل إرادة** الخلق في العالم؛ يؤسفنا أن يبدأ اللاهوتيون باستخدام هذا التمييز بين **"الوجود الإلهي"** أي جوهر الله في ذاته وبين **"الإرادة الإلهية في خلق العالم"**، في غير موضعه إطلاقاً، مخترعين اصطلاحات جديدة مثل "الطاقة غير المخلوقة" و"النور غير المخلوق"، وبنوا عليها نظريات ونظريات؛ مع أن هذا التمييز، ما أراد منه أثناسيوس أصلاً إلاَّ دحض ادعاء الأريوسيين الذي يقول بجهالة إن الله خلق الابن بالإرادة، ليكون وسيطاً للخلق، فردَّ عليه أثناسيوس أن **إرادة الخلق** إنما تعمل فقط في غير مجال **الوجود الإلهي** وخارجاً منه، **فإرادة الخلق لا تستمد من جوهر الله عنصراً ما جديداً لخلق العالم أو لخلقة أي مخلوقات كانت**، فكل الخليقة ليست من جوهر ذات الله وبعيدة بعداً لا نهائياً ومطلقاً عن كيان الله الداخلي الذاتي، والله لم يكن محتاجاً إلى وسيط يخلقه أولاً بالإرادة لكي به يخلق العالم، فالابن هو من جوهر الله وكيان ذات الله، والله "كأب وابن" خلق العالم بالإرادة المباشرة، بل وخلق الإنسان الجديد بنفس الإرادة، مستشهداً في موضع ما بيعقوب الرسول: «**شاء فولدنا** بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلائقه» (يع ١ : ٨). فإذا رجعنا إلى النص اليوناني نجده هكذا: **"أراد ذلك أولاً**، βουληθεὶς **فولدنا بكلمة الحق** ἀληθείας λόγῳ" أي أن الآب ولدنا بالكلمة بحسب إرادة سابقة وأن هذه الإرادة واحدة بين الآب والكلمة لأنها سابقة على الزمن **"مخلوقين في المسيح يسوع" "اختارنا فيه قبل تأسيس العالم"**.

ولكن عندما تجسَّد الابن وأكمل فداءنا، فتح أرواحنا على كيان الله وفتح كيان الله علينا، فأدركنا ما لا يُدرك وانكشفت لنا أعماق الله في المسيح بروح الله.

فأصبح الكيان الإلهي والإرادة الإلهية ملتحمين ومستعلنين معاً في المسيح، وبالتالي فينا بواسطة المسيح، فكل إرادة إلهية أو طاقة أو قدرة أو نور إلهي إنما تعمل فينا الآن، من خلال كيان المسيح

الإلهي وبإرادته الإلهية معاً.

وعليه فإنه لا يصح أن يُقال: "قدرة غير مخلوقة" وحسب و"النور غير مخلوق" وحسب، باعتبارها طاقات منفصلة عن كيان الله من جهة وليست من كيان الخليقة من جهة أخرى وبآن واحد، هذا ما لم يقصده أثناسيوس قط وهو لا يمكن أن يكون.

وأثناسيوس يؤكِّد أن حلول الله أو حضوره المحب في صميم العالم لتدبيره المستمر له من داخل الطبيعة لا يتبع "الكلمة" أي الابن من دون الآب، ولكن هو في حقيقته تدبير الله من خلال كلمته، أي بواسطة ابنه، أو بتعبير شامل الله يدبِّر العالم بنفسه(٢٨).

كذلك فإن أثناسيوس يعترض على تنزيه الله عن حلوله في الخليقة، كما فعل الأريوسيون، حيث أعطوا الله من التعظيم والتكريم ما يكفي لِيُبعِده عن العالم المخلوق عن خبث، ليقصوا الله عن الابن المتجسِّد (بجسد مخلوق)، حتى يحرموا أنفسهم وكل مَنْ يتبعهم من الخلاص الأبدي. **ولكن أثناسيوس يعيد تصحيح علاقة الله بالعالم، فالله قريب بالحلول وليس بعيداً بالتنزيه عن أحد قط**(٢٩).

والعالم، وعلى الخصوص النفس البشرية يعكسان صورة خالقهما(٣٠). لذلك فهناك طريقان للإنسان **لكي يبلغ بهما معرفة الله: الأول هو كتاب الكون**(٣١)**، والثاني التأمُّل في معرفة الإنسان لنفسه**(٣٢).

ولكن الطريقين قد تعتَّما معاً أمام رؤية الإنسان بسبب الخطية التي حجبت الإحساس بالله وعتَّمت قوة الإدراك والإبصار، لذلك **تحتم إيجاد طريق آخر حديث يتجاوز عجزنا الفاضح أو يرفعه عنَّا، وهذا تمَّ بالفعل في التجسُّد ـ الله ظهر في الجسد ـ الذي به صار لنا طريقٌ حيٌّ جديدٌ للدخول إلى الله، فائق عن المستوى المعقول للإنسان أو المنظور له،** فلا بالتأمُّل في الخليقة ولا بمعرفة النفس الآن، **ولكن بالإيمان بدم المسيح الذي يقرِّبنا إلى الله بلا أي مانع لقبول نعمة الله وحبه وأبوَّته الصافحة الفائقة، متجاوزاً الخطية ورافعاً عقاب الموت!**

(28) Athanas., *De Decr.*, II; *De Incar.*, 17.

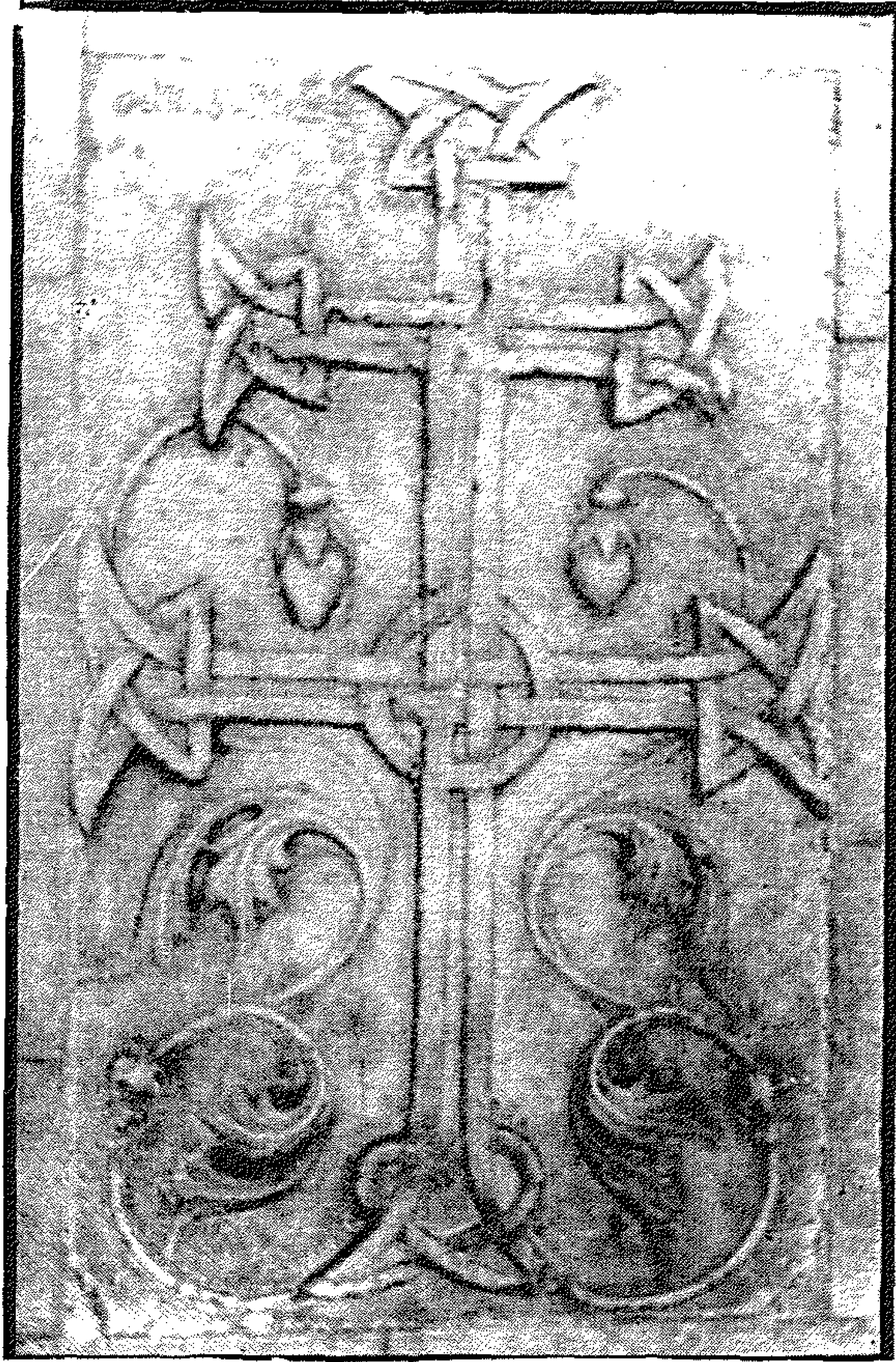
(29) Athanas., *Contra Arian*, II, ch. XVII; NPNF, 2nd Ser., vol. IV, p. 361 sq.

(30) Athanas., *C. Gen.*, passim.

(31) Athanas., *C. Gent.*, 34.

(32) Ibid. 33, 34.

وهكذا يختط أثناسيوس خطاً خلاصياً جديداً في اللاهوت لإدراك الله لا بالمعرفة بأمور الخليقة أو بالفلسفة في ما وراء الطبيعة، **ولكن بالإيمان بالمسيح شخصياً**، مصحِّحاً العلاقة القائمة بين الله والخليقة التي عثر فيها الأريوسيون، وواضعاً أساساً جديداً يربط ربطاً محكماً بين الله والخليقة والتجسُّد والفداء.



ملخّص الفصل السابع

أولاً: معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

- أصرَّ أريوس على أن طبيعة الله غير قابلة للحلول أو الاتصال بأية خليقة مادية. فكيف يتدانى الله ليخلق لأن الخلق يستلزم الاتصال بالخليقة ـ لذلك فإن الله اضطر أن يخلق الكلمة (اللوغس) من لا شيء لكي يكون وسيطاً لله المتعالي، لخلقة العالم المادي.
- كان ردّ أثناسيوس أن الله خلقنا بإرادته وبقوة كلمته، ولكنه لم يخلقنا من طبيعته. فوجودنا ليس مستمداً من جوهر الله، ولكنه بإرادته ونعمته خلقنا من العدم.
  - فالوجود المادي كله يعتمد على نعمة الله ومسرَّة إرادته.
  - كذلك النفس البشرية قابلة للموت بطبيعتها لأنها مخلوقة، ولكنها تعيش وتحيا بنعمة الله.
  - الخليقة هي الاستعلان الظاهري المدرك لطبيعة الله غير المدركة.
- رأي أوريجانوس:
  - يشط أوريجانوس في التفكير فيربط بين أزلية الله والخليقة، فالخليقة لابد أن تكون أزلية مع أزلية الله.
  - وقاده هذا المفهوم الخاطئ إلى القول بأزلية النفس أيضاً (كطبيعة ثابتة فيها)، بل والأخطر من ذلك قوله بوجود الصلة المنطقية بين "ميلاد الابن" الأزلي وبين وجود العالم منذ الأزل، دون انفصال.
  - وهكذا وضع أوريجانوس الابن مع المخلوقات.

ثانياً: أثناسيوس والخلق

يتلخّص فكر أثناسيوس بخصوص هذا الموضوع في ما يأتي:

١ ـ الفارق الهائل والجوهري بين الله والخليقة:

- فالله كائن بذاته، موجود غير متغيِّر، غير خاضع للزمن وبالتالي غير قابل للموت أو الفساد.
- والعالم مخلوق مستمد من إرادة الله، متغيِّر، ومعرَّض للفساد.

٢ ـ أي ترتيب يظهر في العالم المخلوق أو أي نظام أو جمال، هو مضاف إلى العالم بيد خالقه. «فالكلمة» يضبط الخليقة كلها معاً بحسب مشيئة الله.

٣ ـ يعارض أثناسيوس فكرة "الحلول الإلزامي". فكلمة الله لا يحل في جوهر الأشياء المادية كعلة لوجودها ودوامها، ولكنه يضبطها تلقائياً من الخارج بالإرادة والنعمة وليس كالتزام.

٤ ـ العالم مخلوق بأمر الله، من لا شيء، ووجوده مستمر بفضل هذا الأمر عينه، والإنسان يشارك العالم في هذا الوجود، وهو بطبيعته قابل للموت والفساد، ويستحيل عليه أن يفلت من هذا المصير إلاَّ بنعمة الله وشركة اللوغس.

٥ ـ "اللوغس"، الذي هو ابن الله الوحيد ـ لا يوجد بينه وبين المخلوقات أي تشابه طبيعي، فاللوغس موجود في العالم، وجود المحرِّك الفعَّال المحيي، أي أنه موجود بقوته وقدرته، أمَّا جوهره (كيانه الذاتي) فهو فائق عن كل ما في العالم المخلوق. وهكذا صالح أثناسيوس في لاهوته، بين الحلول الفعَّال وبين التنزيه الجوهري.

٦ ـ أثناسيوس أوضح أن "كلمة الله" الخالق كان ولا يزال علَّة الخلق الأُولى والمباشرة والفعَّالة، إلاَّ أن كيان الكلمة يظل مستقلاً كلياً عن الخلق وعن فعل الخلق، قبل الخلق وأثناء الخلق وبعد الخلق.

■ أمَّا علاقة الآب بالابن فهي قائمة بذاتها، خلواً من أي تدبير آخر للخلق أو حتى خلاص الإنسان.

فلا خلط بين الله في ذاته Theologia، وبين تدبير الله في الخلق والخلاص Oikonomia.

هذه العلاقة بين الآب والابن سابقة على مفهوم ظهور إرادة الله للخلق.

٧ ـ وجود الله هو الذي يُنشئ إرادة الخلق، وليس العكس. أي أن إرادة الخلق لا تُنشئ وجود الله. فالله موجود بذاته منذ الأزل، وذاته هي أُبوَّة وبنوَّة وروح قدوس.

٨ ـ هناك نوعان من الصفات الإلهية المتمايزة:
(أ) صفات ذاتية كيانية في الله، وهي الصفات الجوهرية: الآب والابن والروح القدس.
(ب) صفات أخرى تتعلَّق بأعمال الله، أي بإرادته ومشيئته الذاتية، ويسميها الكتاب:

"مشورة الله". وهي تُستعلن في الخلق والتجسُّد وحلول الروح القدس والأسفار المقدَّسة.

والصفات الجوهرية لله واجبة الوجود، أمَّا الأخرى فهي لائقة بالله كإعلان أو تعبير عن وجود الله من خارج كيانه. فالخلق – مثلاً – هو فعل إرادته وليس امتداداً لكيانه أو جوهره.

أدلة أثناسيوس على الفرق بين علاقة الله بالعالم المخلوق
وبين العلاقة الجوهرية بين الآب والابن والروح القدس:

١ – من صفات الله في الأسفار المقدَّسة، أنه "ينبوع الحكمة". ومن صفات المسيح ابن الله أنه "حكمة الله". فإذا كان هناك وقت لم يكن فيه الابن موجوداً، فهذا يعني أن الينبوع كان في وقت ما فارغاً وجافاً!

٢ – لا يمكن أن ترتقي المخلوقات إلى شيء مما لجوهر الله، أو تتواصل بكيانه الذاتي. فهي إنما تبقى دائماً خارج كيان الله، وهي قابلة أن تتوقَّف عن وجودها إذا رغب خالقها في ذلك.

فهناك فرق بين الكيان الإلهي، وكيان العالم المخلوق:

الأول	: أبدي	، والثاني : زمني
	: واجب الوجود	، : غير واجب الوجود
	: ثابت	، : متغيِّر
	: مطلق	، : محدود

٣ – الله خالقٌ حتى قبل أن يباشر إرادته بالخلق، ولكن الخليقة التي خُلقت من العدم يستحيل أن تكون أزلية قبل أن يخلقها الله.

هدف أثناسيوس من دفاعه بالنسبة لعلاقة الله بالخلق:

١ – لإعطاء المفهوم اللاهوتي الكامل عن سرّ الله في كيانه الذاتي "كآب وابن وروح **قدوس**"، باعتباره سر العبادة الأعظم "ثلاثة في واحد".

٢ – لتوضيح الفارق الجذري بين الله في ذاته وبين المخلوق وصفة الخلق بحد ذاتها، حيث يبدو الله كاملاً ومتكاملاً في ذاته، متفوِّقاً على الخليقة.

٣ – لتوضيح أن سرّ الخلق غير سر الكيان الإلهي باعتبار الخلق هو عمل "التدبير الإلهي".

٤ ـ لإثبات أن عملية الفداء التي بدأت بتجسُّد ابن الله، كانت لتحويل الخليقة البشرية ـ وهي متغرِّبة عن الله ـ من كيان التغيُّر والفساد والتحرُّك نحو العدم، إلى الكيان الثابت غير الفاسد غير المائت للحياة الأبدية بالاتحاد با لله ـ (التألُّه) ـ مع الآب والابن والروح القدس.

وأثناسيوس يعيد تصحيح علاقة الله بالعالم وذلك "بالتجسُّد" الذي أكمله في ابنه، إذ صالح به الحلول بالتنزيه، الحلول الإلهي الفعَّال والتنزيه الجوهري، إذ أصبح الكيان الإلهي (الجوهر) والإرادة الإلهية الفعَّالة، ملتحمين ومستعلنين معاً في المسيح. والله بتجسُّده أعدَّ لنا طريقاً حيًّا جديداً للوصول إلى الله، فائقاً عن المستوى المعقول للإنسان أو المنظور له، فلا بالتأمُّل في الخليقة ولا بمعرفة النفس الآن، ولكن بالإيمان بدم المسيح الذي يقرِّبنا إلى الله بل يوحِّدنا به بلا أي مانع، لقبول نعمة الله وحبه وأبوَّته الصافحة الفائقة متجاوزاً الخطية ورافعاً عقاب الموت ومغيِّراً الفاسد إلى عدم الفساد.



إفريز من القاعة رقم ٣ في دير باويط (قرن ٦/٧) يتكون من ٣ أجزاء معروض بمتحف اللوفر بباريس

الفصل الثامن

استعلان الثالوث ووحدانية الله على مستوى المعرفة عند أثناسيوس

أولاً: تجسُّد الكلمة كان واسطة لمعرفة الله، أي لاستعلان الآب والابن والروح القدس(1)

التجسُّد عند أثناسيوس كان من الأسباب الهامة لمعرفة الله في ذاته، لأن الإنسان، بسبب الخطية، انحجبت عنه معرفة الله كخالق حقيقي للعالم وكمخلِّص للإنسان.

فلا ناموس موسى، ولا تعليم الأنبياء، ولا الناموس الطبيعي في ضمير الإنسان، ولا الفلسفة العميقة المعتمدة على العقل الحر؛ استطاعت أن تكشف الله في ذاته لفكر الإنسان وضميره على مستوى "معرفة الله Theognosia". أمَّا عجز الإنسان هذا عن بلوغ "**معرفة الله** في ذاته" بالرغم من هذه الوسائط، أي الناموس والأنبياء والعقل والضمير، فهذا يُعزى بالدرجة الأُولى إلى أن الإنسان تورَّط في التعدِّي، ففقد القدرة على خلاص نفسه أي إدراك النور.

لهذا تمَّ التجسُّد ليُستَعلن كلمة الله، لكي بواسطته يبلغ الإنسان إلى معرفة الله في ذاته - أي الدخول في النور - وهي المعرفة التي فيها بعينها يكمن خلاصه الأبدي.

وحينما أعلن "**الكلمة**" المتجسِّد نفسه أنه ابن الله، موضِّحاً بالأقوال والأعمال أنه يقول ويعمل ما لم يقله أو يعمله إنسان قبله قط، شاهداً بهذا أنها أقوال الله وأعمال الله؛ أعلن صلته بالله كابن، فأعلن بالضرورة صفة الله كآب له. هذا بحد ذاته كان عند أثناسيوس(2) أحد الأسباب الجوهرية للتجسُّد، أي استعلان ذات الله في كيانه، أي ذات جوهر الله أنه آب وابن، بل ولكي يعطي صورة مدركة واقعية محسوسة ومنظورة للآب من خلال حياة الابن المتجسِّد وأعماله وأقواله وسلوكه بالجسد: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). وإليك كلمات أثناسيوس نفسه:

كتاب "تجسُّد الكلمة":

[كلمة الله أخذ لنفسه جسداً، وسلك بين الناس كإنسان، وقابل إحساسات كل البشر في منتصف الطريق؛ حتى يستطيعوا رؤية الله جسدياً، فيدركوا الحق بما يعلنه الرب في جسده، فيدركوا الآب فيه.] (فصل ١٥)

(1) Ger. Zaphiris, Reciprocal Trinit. Revel. 2., *Man's Knowledge of God According to St. Athanas.* τομός έορτίος μεγάλου 'Αθανασίου. 1974, pp. 290-373.

(2) Athanas., *De Incar.*, 43, 16, 54.

[لأنه إذ انحطَّ فكر البشرية نهائياً إلى الأمور الحسية، فقد استتر "الكلمة" بظهوره في الجسد لكي يستطيع كإنسان أن ينقل البشرية إلى ذاته ويركِّز إحساسهم في شخصه، ومن ثم إذ يتطلَّع إليه البشر كإنسان، فإنهم بسبب الأعمال التي يعملها يقتنعون - في نفس الوقت - أنه ليس مجرَّد إنسان، بل هو الإله وكلمة الله الحق وحكمته.

لهذا السبب أيضاً لم يتمِّم ذبيحته عن الكل (الخلاص) بمجرَّد مجيئه مباشرة، بتقديم جسده للموت وقيامته ثانية؛ لأنه لو فعل ذلك لجعل ذاته غير ظاهر، ولكنه صيَّر نفسه ظاهراً جدًّا (أعلن نفسه بالأعمال التي عملها وهو في الجسد) وبهذه الأعمال والآيات لم يعد يُعرف كإنسان بعد، بل **"كالإله الكلمة"**، لأن المخلِّص بتأنُّسه تمَّم عملين من أعماله المحيية:

الأول: رفع الموت عنَّا وجدَّدنا ثانية.

الثاني: إعلان نفسه وتعريف ذاته بأعماله أنه **"كلمة الآب"** ومدبِّر وملك الكون، بعدما كان غير ظاهر.] (فصل١٦)

[لكي يستطيعوا، وهم بشر، أن يعرفوه بأوفر سرعة وهو في جسد مماثل لهم، ويعرفوا أباه مباشرة، وذلك بالأفعال الإلهية التي كان يعملها. إذ كان في مقدورهم - بالمقارنة - أن يحكموا على هذه الأعمال التي يعملها أنها ليست أعمالاً بشرية بل هي أعمال الله.] (فصل ٤٣)

[لأنه تأنَّس - أي صار إنساناً - لكي نصير نحن فيه إلهاً، وأظهر نفسه في جسد لكي يعطينا فكرة عن الآب غير المنظور.

وكما أنه إذا أراد أحد أن يرى الله غير المنظور بالطبيعة، الذي لا يُرى بتاتاً، فإنه يمكنه أن يعرفه ويدركه من أعماله؛ كذلك يجب على من يعجز عن رؤية المسيح وإدراكه بعقله وفهمه أن يدركه على الأقل من **أعماله التي عملها في جسده ويفحص إن كانت هي أعمالاً بشرية أم هي أعمال الله.**

فإن كانت أعمالاً بشرية جاز له الاستهزاء، أمَّا إذا لم تكن بشرية بل أعمال الله فليعرف ذلك ولا يستهزئ، بل بالحري يدهش من أنه بوسائل عادية كهذه أُعلنت لنا الأمور الإلهية، ولأنه بالموت بلغنا عدم الموت، **ولأنه بتأنُّس الكلمة عُرفت العناية الإلهية العامة كما عُرف واهبها وبارئها كلمة الله نفسه.**] (فصل ٥٤)

والقديس أثناسيوس يكشف كيف ملأ **"الكلمة"** كل مكان في السماء والأرض والهاوية بقدرة

الله الكلية قبل تجسُّده، **بحلوله غير المنظور في الخليقة كلها**، كما ملأها بمعرفة الله **بعد تجسُّده، بحلوله في جسد إنسان** (أقنومياً)، وبالنهاية غطَّت معرفة الله الأرض كلها، كما قال إشعياء النبي. لأن المسيح "الكلمة" أسَّس الإنجيل الذي بشَّر به تلاميذه وعلَّموا جميع الأُمم وعمَّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.

فتجسُّد الكلمة كان أول عمل فعَّال استخدمه الله لاستعادة الإنسان معرفته بالله استعادة كاملة على كل الأرض، ولكل الأجيال، وإلى منتهى الدهور(٣).

[وكما أنه معروف في الخليقة بأعماله هكذا يجب أن يعمل في الإنسان أيضاً ويُظهر نفسه في كل مكان، لكي لا يترك شيئاً خالياً من لاهوته ومعرفته. وأعود فأُكرِّر ما سبق أن ذكرته، أن المخلِّص فعل ذلك حتى كما أنه **يملأ كل المخلوقات في كل مكان بوجوده** (كلي الوجود والقدرة)، كذلك أيضاً (تجسّد) لكي **يملأ كل الأشياء من معرفته** كما يقول الكتاب المقدَّس: «لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب» (إش ١١:٩). وهكذا إذ أُغلق على الإنسان من كل ناحية (بإعلان الله في كل شيء)، وإذ يبصر لاهوت الكلمة مبسوطاً في كل مكان أي في السماء والهاوية وفي الإنسان (الرب المتجسِّد) وعلى الأرض، لا يصير بعد معرضاً للخداع والضلال عن (معرفة) الله، بل يعبد المسيح الذي به وحده يأتي مباشرة ليعرف الآب.] (فصل ٤٥)

[أمَّا البشر وحدهم فإذ رفضوا الخير (معرفة الله)، اخترعوا أشياء من العدم عوض الحق، ونسبوا الكرامة والمعرفة المستحقة لله وحده إلى الشيطان والأصنام البشرية في شكل حجارة.

وإذ لم يكن لائقاً بصلاح الله أن يتغاضى عن أمر خطير كهذا، ولأن البشر كانوا لا يزالون عاجزين عن أن يدركوا أنه هو ضابط الكل ومدبِّرهم؛ لذلك كان صواباً أن يتخذ لنفسه (جسداً) أي جزءًا من الكل (العالم)، لكي يكون جسده أداة يتحد به ـ الإنسان ـ حتى لا يعجز البشر عن أن يدركوه في الكل (العالم كله)؛ وحتى بعد أن عجزوا عن إدراك سلطانه غير المنظور (على الكون كله)، يستطيعوا على أي حال أن يدركوه ويتأمَّلوه في (الجزء) الجسد الذي يشبههم.] (فصل٤٣)

(3) Ger. Zaphiris, *op. cit.*, p. 298.

ويعود أثناسيوس ويتعرَّض لأكبر مشكلة اعترضت اللاهوتيين قديماً وحديثاً وهي الحلول الكلي والتنزيه بالنسبة لحضور الله وكلمته في العالم.

فحضور كلمة الله الكلي Omnipresence في الخليقة لا يشكِّل أي صعوبة لاهوتية عند أثناسيوس، فهو لا يفصل بين تنزيه الكلمة أي تفوُّقه Transcendence، وبين حلوله في الخليقة Immanence. فالكلمة عند أثناسيوس هو في كل شيء وفي كل مكان، كلياً وجزئياً، حاضر ومتفوقٌ معاً، حالٌّ في الشيء ومنزَّه عن عجز كل شيء ودناءته وخطيئته بآن واحد(٤).

[ولو كان سخافة ـ كما يدَّعون ـ أن يُعرف الكلمة بأعمال الجسد (بتجسُّده)، لكان سخافة أيضاً أن يُعرف بأعمال الكون كله، لأنه كما أنه موجود في الخليقة ـ (قبل التجسُّد) ـ ومع ذلك لا يشترك في طبيعتها بأي حال من الأحوال، بل بالعكس أن كل الأشياء تشترك في سلطانه؛ كذلك عندما اتخذ جسداً أداة له، لم يشترك في خواصه (الخطية والجهل بالله) الجسدية بل إنه بالعكس هو الذي قدَّس الجسد.] (فصل ٤٣)

[هكذا يجب على مَنْ يسلِّم ويؤمن أن كلمة الله في كل الكون، وأن كل الوجود يستضيء ويتحرَّك ويوجد به، يجب عليه أن لا يحسب سخافة بالتالي أن يحظى منه جسد بشري واحد (جسد المسيح) بالحركة والنور.

أمَّا إن كانوا يتوهَّمون أن ظهور المخلِّص في الإنسان أمر غير لائق لأن الجنس البشري مخلوق ومخلوق من العدم، فإنه يجب عليهم بالتالي أن يخرجوه من الخليقة كلها لأنها هي أيضاً وُجِدَت من العدم "بالكلمة".

وأي شيء يستوجب الاستهزاء في ما نقوله أن "**الكلمة**" استخدم جسد الإنسان الذي حل فيه كأداة ليعلن ذاته فيه؟

لأنه بسلطانه اتحد بكل شيء وبكل الأشياء، وهو يضبط كل الأشياء بقدرة لا حدود لها ... إذ هو ممسك الكل في وقت واحد، وهو في الواقع ليس موجوداً في الكل وحسب بل موجوداً أيضاً في الجزء، ذلك الذي نتحدَّث عنه ـ أي الجسد ـ الذي أظهر فيه ذاته بطريقة غير منظورة **ليعلن فيه الحق ومعرفة الآب**.] (فصل ٤٢)

---

(4) Ger. Zaphiris, *op. cit.*, p. 296.

وقد أعلن المسيح مراراً أن ما يتكلَّم به هو ليس من ذاته بل من الآب، كاشفاً بذلك سر علاقته الشخصية مع الآب باعتباره "**كلمة الآب الذاتي** ὁ ἴδιος λόγος" كما أعلن مراراً وتكراراً أن الله هو "**أبوه الخاص**"، بمعنى "**العلاقة المتحدة**" وليس الصلة التكريمية، معبِّراً عن ذلك بكل وضوح: «أنا في الآب والآب فيَّ»، «**أنا والآب واحد**» (يو ١٤: ١١؛ ١٠: ٣٠)، كاشفاً بذلك سر "**بنوَّته في ذات الله**" "**كابن ذاتي لله** τὸ ἴδιον γέννημα, ὁ ἴδιος υἱός".

ولكن ليس بمفهوم أي ابن لأي أب:

أولاً: لأن أي ابن لأي أب يعني ليس ابناً وحيداً، حتى ولو كان ابناً وحيداً، لأنه كان يمكن أن يكون غير وحيد. فأي أب قابل أن يكون له أبناء أكثر من واحد إذا تهيَّأت الظروف الجسدية الملائمة لذلك. في حين أن "**الكلمة**" هو ابن الله الذاتي الوحيد، بمفهوم أنه الله آب وابن في ذات واحدة، وأن الابن ليس أقل من الآب ولا الآب سابق على الابن أو مترئِّس عليه، بل هما واحد متساوي في كل شيء. أُبوَّة وبنوَّة متحدة في ذات واحدة.

ثانياً: أن أي ابن لأي أب لم ينشأ من الأب فقط بل ومن أُم أيضاً، في حين **أن الكلمة هو ابن في الآب بالجوهر، بدون وسيط ولا حدث ميلاد زمني، فالميلاد أو البنوَّة عند الإنسان وسيلة للوجود، أمَّا في الله فالبنوَّة هي الوجود ذاته، وعلَّة كل موجود آخر.**

[لأنه إن كان الابن على المستوى البشري يأخذ من الآب بداية فقط لوجوده، **فعند الله الآب تُعتبر البنوَّة وجوداً دائماً أزلياً أبدياً معاً.**

فالبنوَّة أو الميلاد لدى البشر وسيلة للوجود، أمَّا عند ابن الله فهو الوجود ذاته، حيث الميلاد لا ينتهي بمجرَّد الوجود (كما هو عند البشر حيث يصبح الابن بعد ذلك أباً)، **بل الميلاد أو الابن هو الكمال في ذاته وهو النهاية** τέλος καὶ τέλειον](٥)

هذا هو المفهوم من معنى "**الابن الذاتي للآب**" عند أثناسيوس، الذي يعني "**الابن الوحيد**" القائم مع الآب وفي الآب بلا افتراق.

كتاب ضد الأريوسية:

[وهوذا نحن نتمسَّك بالأسفار المقدَّسة، وحينئذ نتكلَّم بحرية بإيمان وتقوى، ونقيم الحجة

(5) Petav., *De Trinit.*, ii, 5. n. 7, cited by NPNF, 2md Series, vol. IV, p. 314, n. 4.

كنور على منارة: نقول:

ابن حقيقي للآب، طبيعي وأصيل من جوهره الذاتي، وحيد، حكمته، وهو ذاته الكلمة الحقيقي والوحيد لله، ليس من الخليقة ولا مصنوعاً، **ولكنه ابن لذات جوهر الآب، لذلك فهو إله حقيقي كائن كياناً واحداً مع ذات الآب**، فهو بذلك "رسم جوهره" (التعبير الموضِّح **لذات** الآب) كنور من نور - «بنورك نعاين النور» - وهو قوة الآب ونفس الصورة الحقيقية لجوهر الآب. من أجل ذلك يقول الرب: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، وهو كائن منذ الأبد، ويكون أيضاً، ويستحيل قط أن لا يكون.

لأن الآب إذ هو قائم منذ الأزل وإلى الأبد، هكذا يكون أيضاً **"كلمته"** و**"حكمته"**.](٦) (١: ٩)

[إنجيل يوحنا يقول عنه: «في البدء كان "الكلمة" والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». وسفر الرؤيا يقول: «الكائن الذي كان والذي يأتي»، إذن فمن ذا الذي يستطيع أن يسرق ويسلب شخص "الكائن" "الذي كان" من الأبدية؟ هذا هو الذي قال عنه بولس الرسول مقاوماً اليهود: «ومنهم المسيح حسب الجسد **"الكائن"** على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد آمين.» (رو ٩: ٥)

كما كان يقاوم اليونانيين بقوله عن الكلمة: «المسيح قوة الله وحكمة الله»، ويعود قائلاً: «لأن أموره غير المنظورة - منذ خلقة العالم - تُرى بوضوح! حتى أن قوته الأزلية ولاهوته تُدرك بواسطة الأشياء المخلوقة»، وبولس بكل تأكيد لا يقصد هنا الآب بهذه الكلمات بل يقصد الكلمة ... بقوته المنظورة في الخليقة، لأن الإنجيل يقول: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان.» (يو ١: ٣)

وهنا يتحتّم بالتالي أن الذي يتأمَّل الخليقة تأملاً صادقاً وصحيحاً، فهو سيتأمَّل "الكلمة" الذي صاغها، وبواسطة "الكلمة" يبدأ ليدرك الآب. ولكن:

يقول المخلِّص: «لا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَنْ أراد الابن أن يعلن له» (مت ١١: ٢٧)، ولأن الرب لم يقل لفيلبُّس لمَّا سأله: «أرنا الآب وكفانا»، لم يقل له: "تأمَّل في الخليقة" بل قال له: «الذي رآني فقد رأى الآب»، فإن بولس الرسول - عن حق وأصالة - كان يقصد **"الكلمة**

(6) Athanas., *Contra Arian,* I, 9.

الكائن في الخليقة"، عندما قال: «**قوته الأزلية ولاهوته** تُدرك بواسطة الأشياء المخلوقـة» **مشيراً بذلك إلى الابن** الذي يقول عنه الكتاب: «كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة **في ابنه** الذي جعله وارثـاً لكل شيء **الذي به أيضاً عمل العالمين** (الدهور) ages» (عب ١ :٢).] (١ :١١)

[وحينما قال الرب: «**أنا هو** الحق»، كان دائماً يقول أنا هو (أنا الكائن ἐγώ εἰμι) «**أنـا هو** الراعي»، «**أنا هو** النور»، «تدعونني رباً ومعلّماً حسناً **وأنـا هـو**» ... إذن فـلا تـتردّدوا قط في فهم هذه الحقيقة، لأنه بقوله: «**أنا هو**» = أنا كائن ἐγώ εἰμι يعني أن الابن كـائن منذ البدء ولا بداية له!

وقبل إبراهيم **أنا كائن = أنا هو** ἐγώ εἰμι.] (١ :١٢و١٣)

[إن الآب والابن لم يتولدا من أصل سابق عليهما حتى يمكـن أن نعتبرهمـا أخويـن، ولكـن الآب هو مصدر الابن، والابن متولد منه، والآب هو آب و لم يلد الابن من شيء آخر.] (١ :١٤)

هنا لا يُقصد بالميلاد γέννησις عملية أو حدثاً أو فعلَ ولادة، ولكن حقيقة قائمة غـير متغيِّرة ولا مستحدثة أزلية في جوهر اللاهوت. وهنا يشرح القديس كـيرلس(٧) كلمـة مولـود مـن الآب بقوله: إن الأفعال العملية وتعبيرها اليوناني ἔργα إنما تتم من الخارج ἔξωθεν، ولكن كمـا يقـول أثناسيوس هنا بخصوص الرب إن ميلاده ليس هو فعلاً عملياً يتم من الخارج، وحينئذ ـ كمـا يقـول أثناسيوس أيضاً(٨) ـ بينما أن الناس يكونون آبـاءً أولاً بـالقدرة ثـم بـالفعل، نجـد الله أبـاً بـالقدرة والفعل معاً وبصورة دائمة (لأنه فعل جوهري)(٩) δυνάμει τε ἐνεργείᾳ πατήρ(١٠).

[وحينما نقول: إن الابن أزلي فهو حقًّا كذلك، لأن جوهر الآب لم يكن قط ناقصاً أو غـير كامل حتى يُضاف إليه في ما بعد ما هو من **خاصته الذاتية**.

و لم يولد **"الابن"** كما يولد الإنسان من الإنسان فيكون ابن ا لله متأخراً في وجوده عن الآب، **ولكونه ابن الله والله أزلي، فهو موجود أزلي بوجود الآب الأزلي.**

أمَّا الناس فبسبب عدم الكمال والعجـز في طبيعتهـم (المادية)، كـان مناسـباً لهـم أن يلـدوا في

(7) Cyril, *Thesaur.*, v. p. 41, cited by NPNF, II, p. 314, note 4.

(8) Ibid.

(9) Ibid.

(١٠) المؤلِّف.

حدود الزمن.

هو الابن – كما يقول الآب نفسه وكما تقول الأسفار المقدَّسة، و"الابن" لا يمكن أن يكون إلاَّ مولوداً من "الآب"، ونحن نعلم أن المولود من الآب هو **"كلمته" و"حكمته" و"إشعاع نوره"**. فإذا قالوا إنه **كان وقت لم يوجد فيه ابنٌ**، فهم يسلبون الله كلمته وحكمته، وكأن نوره كان في وقت ما بلا شعاع، أو أن الينبوع كان في وقت ما عقيماً وجافاً ... وكان الله وقتاً ما بلا عقل.

إنه خطأ فظيع أن يكون لديهم هذه التصورات المادية لمن هو غير مادي ...] (١٤:١)

[**وإذ نتأمَّل الابن (المتجسِّد) نرى الآب، لأن الفكر في الابن وإدراكه هو هو المعرفة المختصة بالآب،** لأنه هو ابنه الذاتي الذي من جوهره.] (١٦:١)

[إن الحيوانات والبشر بعد أن خلقهما الله إنما تتوالد بالتتابع، فالابن بعد أن يولد من أب يصير بالتالي أباً لابن، وارثاً من أبيه ما قد صار له، وهنا إن توخَّينا الحقيقة لا يوجد أب أو ابن بالمعنى الدائم فلا الأب ولا الابن يحتفظ كلٌّ منهما بلقبه. فالأب كان ابناً والابن سيصير أباً،

ولكن في اللاهوت ليس الأمر كذلك لأن ليس الإنسان كالله.
فالله الآب ليس له أب لذلك لا يتولد منه ابن يكون أباً،
ولا الابن لأنه بجد الآب يمكن أن يلد.

فقد صار في اللاهوت أن الآب هو بصفة محددة آب، والابن بصفة محدَّدة ابن، ومنهما وحدهما يبقى الآب أباً على الدوام والابن ابناً على الدوام.

كذلك فإنه كما أن الآب هو دائماً أب، ولا يمكن أن يكون ابناً، كذلك الابن هو دائماً ابن ولا يمكن أن يكون أباً.

وفي هذا يتضح بالفعل معنى أن الابن هو صورة جوهر الآب، وهو باقٍ كما هو لا يتغيَّر واحداً مع الآب بالتمام،
فإن كان يمكن للآب أن يتغيَّر، كان ممكناً للصورة أن تتغيَّر،
لأنه هكذا ينبغي أن تبقى الصورة والشعاع بالنسبة لذلك الذي هما له.

لذلك فإن كان الآب غير متغيِّر قط، وإن كان باقياً كائناً كما هو، كان حتماً له (الابن)

وهو الصورة أن يبقى كما هو لا يتغيَّر أيضاً.] (١:٢١)

[وبالرغم من كل ما يقولونه (الأريوسيون)، فإن الكلمة كائن، لأن كل الخليقة بواسطته خرجت إلى الوجود، و"الكلمة" ليس خارجاً عن الله، ولكنه الكلمة الذاتي. لذلك نكرِّر ونقول: إنه إن كان الله له قدرة الإرادة، وإرادته فعَّالة وصانعة، **فإن كلمة الله يتحتَّم بالتأكيد أن يكون هو الإرادة الحية للآب، والقدرة الجوهرية** Essential energy، **والكلمة الحقيقية**، الذي فيه يقوم الكل ويصير تحت الانضباط والحكم.] (٢:٢)

[لأنه بينما المخلوقات كثيرة ولكن "**الكلمة**" واحد، فالابن يختلف عن الجميع، وهو ليس على مستوى المخلوقات (بالنسبة لله)، بل هو ابن لذات الآب، لذلك لا يوجد "**كلمات**" كثيرة ولكن "**كلمة واحد**" **لآب واحد، وصورة** واحدة **لله الواحد**.] (٢:٢٧)

[إن "**الابن**" هو "**كلمة**" الآب، و"حكمة" الآب، ومن هذين اللقبين نحن نستدل على "**نوع الصلة**" والاشتقاق غير المنقسم وغير المتألِّم الكائن بين الابن والآب،

وهذا ندركه بصورة ما على مستوى كلمة الإنسان، فهي ليست جزءًا من الإنسان، ولا هي تخرج (أو تتولد) من الإنسان بالألم، فكم بالحري كلمة الله تكون؟

كذلك فإن الله يدعوه ابنه، لئلاَّ حينما نكتفي بالقول إنه "كلمة الله" نظن أنه مثل كلمة الإنسان المجرَّدة غير الشخصية، في حين أن لقب الابن يوضِّح أنه الكلمة ذو الكيان الشخصي وأنه الحكمة الذاتية.][(١١)]

[لأنه حينما يُقال: «أنا في الآب والآب فيَّ» ... فليس معنى ذلك ـ كما يتوهَّم الأريوسيون ـ أن كل واحد يملأ الآخر كما في الأوعية الفارغة، وكأن الابن يملأ فراغ الآب والآب يملأ فراغ الابن، ويبقى كل واحد منهما غير كامل وناقصاً بذاته، حاشا! لأن هذا يليق فقط بالأجسام ـ ولكن الآب هو كامل والابن كذلك، وهو فيه كل ملء اللاهوت.][(١٢)] (٣:١)

(11) Athanas. *De Synod.*, 41.

(١٢) يقوم القديس كيرلس الكبير بتوضيح هذا المعنى كالآتي:

[إن الآب والابن معاً هما الله الواحد بالرغم من أنهما في الحقيقة ومنذ الأزل متميِّزان، على أن الواحد ممتلئ بالآخر بمعنى أن جوهرهما واحد مع تمايزهما، (شرح إنجيل يوحنا)]

شرح للمؤلِّف: "الآب في الابن، والابن في الآب" هذا تعبير عن كمال الذات الإلهية بمعنى أن الله فيه ملء الأبوَّة وملء البنوَّة معاً، ينشأ عن هذا الاكتمال الداخلي للذات الإلهية، مما يجعل علاقة الله بكافة المخلوقات على أعلى مستوى وأكمل مستوى من التعاطف الذاتي مع كل ذات أخرى، على أساس إدراك أعواز الأبوَّة والبنوَّة.

[إنه بحق قيل: «أنا والآب واحد»، مضيفاً: «وأنا في الآب والآب فيَّ»، لأنه بهذا يُظهر (المسيح) ماهية اللاهوت ووحدة الجوهر (أي أن اللاهوت آب وابن وهما جوهر واحد أي إله واحد).

فهما واحد، ولكن ليس مثل الشيء الواحد المنقسم إلى اثنين ويبقى واحداً، ولا هما شيء واحد ذو اسمين حتى أن الواحد يكون في وقت ما أباً، ثم هو بذاته يصير في وقت آخر ابنه، فهذه هرطقة سابيليوس.

ولكنهما اثنان، لأن الآب هو آب وليس ابناً، ولأن الابن ابن وليس أباً، ولكن الطبيعة واحدة وكل ما للآب فهو للابن.

ولكن ليس أن الابن إله آخر - لأنه ليس خارجاً عن الآب - بل إن الآب والابن هما طبيعة واحدة، وخواص واحدة للطبيعة الواحدة، ولاهوت واحد.

فلاهوت الابن هو بذاته للآب، لذلك فهو غير منقسم **لذلك يوجد إله واحد لا إله إلاّ هو!...**] (٣:٤)

[ولأن اللاهوت واحد في الآب والابن، فإنه نشأ عن ذلك بالضرورة أن كل الصفات التي تُقال على الآب قيلت هي بعينها عن الابن، إلاّ صفة (جوهرية) واحدة وهي أن الآب أب. فمثلاً:

+ عن كون الابن إلهاً يقول إنجيل يوحنا: «وكان "**الكلمة**" الله.» (١:١)
+ وعن كون الابن قادراً على كل شيء (بانتوكراتور)، يقول: «الذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء.» (رؤ ١:٨)
+ وكون الابن رباً: «ورب واحد يسوع المسيح.» (١كو ٨:٦)
+ وكون الابن نوراً: «أنا هو نور العالم.» (يو ٨:١٢)
+ وكون الابن يغفر الخطايا: «إن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا.» (لو ٥:٢٤)

وهكذا بقية الصفات لأن الابن نفسه يقول عن ذاته إن «كل ما للآب هو لي» (يو ١٦:١٥)، «وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي.» (يو ١٧:١٠)

ولكن حينما نسمع من الابن صفات الآب (الخصوصية)، فإننا نكون قد رأينا الآب في الابن، ونعود فنتأمَّل الابن في الآب عندما نجد أن كل ما قيل عن الآب، يُقال عن الابن أيضاً.

ثم لماذا تكون صفات الآب هي بعينها صفات الابن؟ إلاَّ لكون الابن هو من الآب وحاملاً لذات جوهر الآب. وهكذا فبسبب أن الابن هو من ذات جوهر الآب لذلك فإنه ينسب لنفسه كل خواص الآب قائلاً: «حتى تدركوا أني **أنا في الآب والآب فيَّ**»، «**وأني أنا والآب واحد**»، **وأن** «**كل مَنْ رآني فقد رأى الآب**». وفي هذه الثلاث آيات معنى واحد ... **وهكذا بواسطة الابن وفيه يمكن تأمُّل كل لاهوت الآب.**

ونحن أيضاً ندرك هذا من صورة الإمبراطور، لأن في صورة الإمبراطور يوجد شكل وهيئة الإمبراطور، وفي الإمبراطور الشكل والهيئة التي في الصورة، لأننا نفترض أن شَبَه الإمبراطور الذي في الصورة هو بالضبط والتمام، حتى أن كل مَنْ ينظر إلى الصورة يرى الإمبراطور، وبالتالي كل مَنْ يرى الإمبراطور يتذكَّر أنه هو هو الموجود في الصورة، حتى أنه بلسان الصورة يمكن أن يُقال: "أنا والإمبراطور واحد، لأني أنا فيه وهو فيَّ، وكل ما ترون فيه ترون فيَّ وكل ما فيَّ ترونه فيه".

وبالتالي كل مَنْ يعبد الصورة فإنه بالتالي يعبد الإمبراطور.

هكذا أيضاً فإن الابن هو صورة الآب، ويتحتَّم بذلك أن ندرك أن كل لاهوت الآب والصفات والخواص التي للآب هي بذاتها كيان الابن. لذلك قيل عن الابن: «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة (لم يعتبر ذلك امتيازاً) أن يكون معادلاً لله» (في ٢:٦)

وليس يمكن أن تكون هذه الصورة (الهيئة εἶδος) التي للاهوت هي جزئية، بل إن كل ملء اللاهوت الذي للآب هو نفسه كيان الابن، لذلك فالابن هو إله كامل. من أجل هذا قيل إن «ا **لله كان في المسيح** مصالحاً العالم لنفسه» (٢كو ٥:١٩)، فإن كل ما يخص جوهر الآب هو للابن، الذي فيه الخليقة تصالحت مع ا لله. لذلك قال المسيح إن كل الأعمال التي يعملها هي أعمال الآب.] (٣:٤-٦)

[ولكون "الكلمة" هو كلمة الآب الذاتي، فهذا لا يسمح لنا أن نحسب أن إرادة الله تسبق كلمة الله، لأن كلمة الله هي بعينها مشورة الآب الحية وقوته الصانعة لكل ما هو صالح

لدى الآب، كما يقول "الكلمة" عن نفسه في سفر الأمثال: «أنا الحكمة ... لي المشورة والرأي. أنا الفهم لي القدرة» (٨: ١٢و١٤). وهنا بالرغم من كونه هو (الكلمة) الفهم الذي به دبَّر وهيَّأ خلقة السماء، وهو القوة والقدرة (المسيح قوة الله وحكمة الله) (١كو ١: ٢٤)؛ فهو هنا يعود ويقلب موضع الصفات ويقول: «لي المشورة ولي القدرة»، التي منها يتضح تماماً أن الكلمة هو نفسه المشورة الحيَّة التي للآب كما نعرف ذلك من النبي القائل إنه صار «ملاك المشورة العظمى» (انظر: إش ٩: ٦).] (٣: ٦٣)

[وأكثر من هذا فإنهم إذا قالوا إن الآب خلق الابن بالإرادة، فيتحتَّم عليهم أن يقولوا إنه خلقه بالفهم أي بالمعرفة أيضاً، لأني أعتبر أن الإرادة الخالقة والفهم هما واحد، لأن الإنسان عندما يشير بمشورة فذلك يعني أنه يفهم ما يشير به.

ولكن المخلّص يدعوهم أن يعودوا كعاقلين إلى النص القائل: «لي المشورة والرأي أنا الفهم لي القدرة». هذا يعني أن الرب هو هو بنفسه المشورة والرأي والفهم والقدرة (لله الآب).

ولكن هؤلاء الكفرة يريدون ... أن يفصلوا بين الآب والابن، فيدعون الابن مخلوقاً بالإرادة عوض كونه الكلمة الذاتي للآب.

ثم ليت كل واحد يصدِّق ما قاله سليمان سابقاً، إن الكلمة هو الحكمة والفهم و«الرب بالحكمة أسَّس الأرض، أثبت السموات بالفهم.» (أم ٣: ١٩)

هكذا داود النبي أيضاً يعود ويكشف عمل الكلمة لكل هذا: «بكلمة الرب صُنعت السموات.» (مز ٣٣: ٦)

ويعود بولس الرسول يقول: «لأن هذه **هي مشيئة (إرادة) الله في المسيح يسوع.**» (١تس ٥: ١٨)

إذن، فابن الله هو **"الكلمة"** و**"الحكمة"** و**"الفهم"** و**"المشورة الحيَّة"**، وفيه تكمن **"مسرَّة الله الآب"** و**"الحق"** و**"النور"** و**"القدرة"** التي للآب!!

فإذا كانت إرادة الله هي الحكمة والفهم،

والابن هو الحكمة والفهم؛

فالذين يقولون إن الله خلق الكلمة بالإرادة فهذا يعني:
أن الحكمة خُلقت بالحكمة!
وأن الابن خُلق بالابن!
وأن الكلمة خُلقت بالكلمة!
فإن هذا يكون مخالفاً ومضاداً لله وللأسفار المقدَّسة.
لأن الرسول يعلن أن الابن هو رسم وشعاع، ليس لإرادة الله، بل لجوهر الآب!!] (٣:٦٥)

[ولكن إن كان الابن هو ابن بالطبيعة وليس بالإرادة، فهل نفهم من هذا أنه بدون مسرَّة الآب أو على غير الإرادة مع الآب؟

هذا خطأ لأن الابن هو موضوع مسرَّة الآب: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت ٣: ١٧)، أو كما يقول المسيح نفسه: «الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله.» (يو ٥: ٢٠)

إذن فالابن هو موضوع مسرَّة الآب وحبه ... كذلك فالآب هو موضوع مسرَّة الابن وحبه وتكريمه. فالمسرَّة الصالحة التي للآب في الابن، والتي للابن في الآب ...

فكما أن الآب هو صالح بالطبيعة، كذلك هو دائم الأُبوَّة والبنوَّة generative.

(كلمة: Divine γέννησις لا تعني الولادة أو حدثاً زمنياً ولكن حقيقة جوهرية غير مرتبطة إطلاقاً بالمادة ولا بالتصور المادي أو الزمني، فالأُبوَّة والبنوَّة حقيقة ديناميكية وإينارجية δυνάμει τε καί ἐνεργίᾳ، أي **قدرة وتواجد معاً** يكوِّنان حقيقة موجودة بذاتها غير مستحدثة)(١٣) وأن مسرَّة الآب هي الابن! ومسرَّة الابن هي الآب. لا يسبقهما إرادة ما بل طبيعة واحدة ذات خواص متساوية في جوهر واحد.

كالشعاع والنور، لا يصح أن تقول إن الإرادة تسبق الشعاع بالنسبة للنور، ولكن هو انبعاث طبيعي أو جوهري، وهو بحسب توافق النور الذي يبعثه أو يولِّده.] (٣:٦٦)

ومن أقوال أثناسيوس السابقة، يتضح لنا صفاء رؤيته بالنسبة لتساوي الآب والابن في القدرة

(١٣) المؤلِّف.

الكلية والإرادة الكلية بالنسبة لخلقة العالم، فلا يتميَّز الآب عن الابن إلاَّ بالأُبوَّة، ولا يتميَّز الابن عن الآب إلاَّ بالبنوَّة. على أن هذا التمايز الذي يجعلهما اثنين في واحد لا يخرج عن كونه "علاقة" داخلية جوهرية تختص بالله في ذاته الواحدة وجوهره الواحد. ولكن رغم أنها علاقة خاصة وذاتية وجوهرية، إلاَّ أنها تفيض علينا بغنى من جهة انعكاس هذه العلاقة الجوهرية القائمة بين الآب والابن على الخليقة، وبالأخص على الإنسان، لأن علاقة الآب بالابن هي هي الحب والمسرَّة.

فحب الله للعالم ومسرَّته لبني الإنسان هما انعكاس خارجي لصفات جوهرية في الله بين الآب والابن.

ولكن ما فحصه أثناسيوس بوضوح أمامنا من جهة تساوي كلية القدرة وكلية الحضور التي للآب والتي للابن، يعطينا انطباعاً أن الكلمة الأزلي كان في العالم لمَّا خُلق العالم، فكل شيء به كان وظل به يقوم «وبغيره لم يكن شيء مما كان».

وهكذا بدخول "الكلمة" العالم منذ لحظة خلقة العالم، بحضوره الكلي، بدأت في الحال رسالة "الكلمة" لخلاص العالم، بجوار الخلق والتدبير والتقويم؛ فمعروف أن "**الكلمة**" كان منذ البدء الضابط لكل الخليقة.

كتاب: "تجسُّد الكلمة":

[فإن كان كلمة الله في الكون الذي هو جسم، وإن كان قد اتحد - أو سكن - بكل الكون (للتدبير) وبكل أجزائه، فما هو وجه الغرابة إن قلنا إنه قد اتحد بالإنسان أيضاً (للخلاص)؟

لأنه إن كان حلوله في جسد أمراً غير معقول، لكان غير معقول أن يتحد بكل الكون ويعطي ضياءً وحركة لكل الأشياء بعنايته. امَّا إن كان قد لاق به أن يتحد بالكون، وأن يُعرف في الكل، فيجب أن يليق به أيضاً أن يظهر في الجسد البشري وأن يستضيء به ذلك الجسد ويعمل.

ولو كان أمراً غير لائق أن يتخذ جزءًا من الكون كأداة يعلِّم البشر بها عن لاهوته، لكان أمراً في غاية السخافة أن يعرف ذاته بواسطة كل الكون أيضاً.] (فصل ٤١)

[لأنه بسلطانه اتحد بكل شيء وبكل الأشياء، ويضبط كل الأشياء بقدرة لا حد لها. فلو

أراد أن يتحدَّث **ويعلن ذاته ويعلن أباه** بواسطة الشمس أو القمر أو السماء أو الأرض أو المياه أو النار، لما تجرَّأ أحد أن يقول ذلك في غير محله إذ هو ممسك الكل في وقت واحد، وهو في الواقع ليس **موجوداً في الكل** فحسب، بل موجوداً أيضاً في ذلك الجزء الذي نتحدَّث عنه والذي أظهر فيه ذاته بطريقة غير منظورة. هكذا أيضاً لا يمكن أن يكون سَخفاً، إن كان وهو ضابط كل الأشياء ومانحٌ إيَّاها الحياة، ثم أراد أن يعلن نفسه في البشر؛ أن يستخدم جسداً بشرياً كأداة يعلن فيه الحق ومعرفة الآب.] (فصل ٤٢)

هكذا يوجِّه أثناسيوس أنظارنا، أن دخول "**الكلمة**" إلى العالم كان تداخلاً دقيقاً في كل الخليقة، سمَّاه حضوراً أو سكنى أو اتحاداً بالكل والجزء، "بكل شيء وبكل الأشياء". والقصد المباشر **من ذلك أن يكون الخلق متصلاً اتصالاً وثيقاً بمعرفة الله الكلمة والآب في الخليقة كلاً وجزءًا، في الوجود كله وفي الحياة التي تتخلَّل هذا الوجود.**

فالحضور الكلي للكلمة في العالم منذ البدء عند أثناسيوس هو تمهيد لإعلان الله أولاً في الكون كله، وثانياً: إعلان الله في الإنسان، عندما أكمل الحضور فيه باتخاذه جسد إنسان: «الله ظهر في الجسد.» (١تي ٣: ١٦)

ثم بطريقة غير مباشرة يوضِّح أثناسيوس أن معرفة الله من خلال المخلوقات أمرٌ حتميٌّ ومقطوع به، ولا عذر للإنسان في أن يتعامى عن ذلك، لأن "**الكلمة**" يتخلَّل كل شيء وهو على صلة وثيقة بكل الأشياء، وحضوره يكاد ينطق للعقل المتأمِّل، لأنه حضور كلي يشمل: الخلق من العدم، فكل خليقة عليها بصمات الحكمة والتدبير بقوانين غاية في الدقة لمواجهة كل ظروف التغيير والضبط بسلطان يفوق العقل، والتقويم بالتجديد والنماء والتعويض لاستمرار الوجود، وهذه كلها عمليات مترابطة.

ولأن الإنسان جزء من كل، أي جزء طبيعي وأساسي من هذا العالم المخلوق، فهو يحظى بنفس الحضور والوجود اللذين للكلمة، الذي يسميه أثناسيوس "بالشركة". **فمن خلال هذه الشركة بين الخليقة والكلمة عَبْر الإنسان تحدث المعرفة وتنفتح أبوابها**، لذلك لا يوجد عذر لمن يغلق على نفسه دون معرفة الله: «وكما لم يستحسنوا أن يُبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض.» (رو ١:٢٨)

[لأن كل مَنْ يدير ظهره مبتعداً عن "**كلمة**" الله الكائن والموجود (في العالم) ويصيغ لنفسه

معرفة أخرى هي في الحقيقة ليست كائنة، فإنه يسقط حتماً إلى العدم.](١٤)

لذلك فإن تجسُّد الكلمة كان في الحقيقة تكميلاً لعمل حضوره المستمر في الخليقة، ثم كشفاً مفاجئاً لفكر الإنسان عن مدى إمكانية وقدرة "الكلمة" للاتصال والاتحاد بالخليقة الممثَّلة في الإنسان المخلوق على صورة الله. وهكذا يبرز بالتجسُّد عمل الكلمة كمركز لخطة الخلاص العظمى التي تبدأ منذ بدء الخليقة وتُستعلن جهاراً في ملء الزمن، بتقديس الإنسان وتبنّي الله له ورفعه بالقيامة.

ولو تتبعنا بدقة عمل الكلمة في الخليقة، كما سرده أثناسيوس على مدى كتاباته كلها، نرى أن دور "الكلمة" منذ بدء خلقة العالم وفي كل مراحل ظهوره وعمله على مدى الدهور كان مع الآب عاملاً في الخليقة على مستوى التساوي الكلي في الحضور الدائم والفائق: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧)، «**يملأ الكل**» لأنه هو الملء الحقيقي الذي يملأ الكل (أف ٤: ١٠و ١: ٢٣).

فما يقوله بولس الرسول باختصار: «**فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه**» (كو ٢:٩و١٠)، يعود أثناسيوس يشرحه بدقة واستطراد وتكرار متواصل موضِّحاً أن:

(أ) **المسيح الكلمة مساوٍ للآب**: لذلك فهو:

(ب) **يعمل بالتساوي مع الآب**: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، أي منذ بدء الخليقة حتى الآن!

أي لأن المسيح يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً، لأنه الكلمة المساوي للآب في ملء الجوهر، لذلك هو يملأ الكل «وأنتم مملوؤون فيه»!!

لذلك فالتجسُّد عند أثناسيوس هو استعلان لملء اللاهوت الحال في المسيح، وهو هو واسطة لملئنا منه، وما هو ملؤنا من المسيح إلاَّ **معرفة الآب والابن**: «أن **يعرفوك أنت الإله الحقيقي** وحدك **ويسوع المسيح** الذي أرسلته.» (يو ١٧:٣)

وهكذا، بحسب القديس أثناسيوس، فإن التجسُّد هو المدخل الأخير الذي دخل به الله إلى عالمنا هذه المرَّة جهاراً، ليكشف ليس فقط سر الخليقة وسر حضوره الدائم وسر الخلاص الذي أكمله

(14) Athanas., *Contra Arian,* I, 7.

بالمسيح، بل وبالدرجة الأُولى ليكشف لنا سر نفسه، سره الذاتي، سر الآب والابن والروح القدس، الذي هو في الحقيقة وفي الختام سر المجد.

ونلاحظ أن أثناسيوس يوضح بأجلى بيان لماذا أن الكلمة، بحسب الأسفار المقدَّسة، "ملأ كل شيء"؟

+ «**ليجمع كل شيء في المسيح** ما في السموات وما على الأرض في ذاك.» (أف ١:١٠)

+ «مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ... الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويَّات، **فوق كل رياسةٍ وسلطانٍ وقوَّةٍ وسيادةٍ، وكل اسمٍ يُسمَّى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضع كل شيءٍ تحت قدميه، وإيَّاه جعل رأساً فوق كل شيءٍ** للكنيسةِ، التي هي جسده، **ملءُ الذي يملأُ الكلَّ في الكلِّ**.» (أف ١: ١٨-٢٣)

+ «لذلك رفَّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسمٍ لكي تجثو باسم يسوع كل ركبةٍ ممن في السماءِ ومَنْ على الأرضِ ومَنْ تحت الأرضِ (الأموات في الهاوية)، ويعترف كل لسانٍ أن **يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب**.» (في ٢: ٩-١١)

+ «الذي فيه أيضاً (مماتاً في الجسد) ذهب فكرز للأرواح التي في السجن (الهاوية)» (١بط ٣:١٩)

والآن إذا عدنا إلى ما سجَّله أثناسيوس بخصوص منهج الكلمة الذي يجمع كل شيء في ذاته، ويملأ الكل في الكل، نراه يصوِّبه نحو هدف واحد هو معرفة الآب والابن.

[وكما أنه معروف في الخليقة بأعماله، فيجب أن يعمل في الإنسان أيضاً ويُظهر نفسه في كل مكان، لكي لا يترك شيئاً **خالياً من لاهوته ومعرفته!**

وإن المخلِّص فعل ذلك **لكي حتى كما أنه يملأ كل الأشياء في كل مكان بوجوده، كذلك أيضاً يملأ كل الأشياء من معرفته!!**

أمَّا إذا نزل الإنسان حتى إلى الهاوية ... **يستطيع أن يرى قيامة المسيح وغلبته على الموت**، ويتيقَّن أن المسيح نزل بينهم أيضاً **وهو وحده الإله والرب الحق.**

لأن الرب لمس كل أجزاء الخليقة، فأخلاها كلها من كل خداع ... لكي لا يعود الإنسان أن ينخدع بأي حال من الأحوال، **بل يجد في كل مكان كلمة الله الحق.**

وهكذا أُغلق على الإنسان (في دائرة معرفة الله في كل مكان) من كل ناحية. وإذ يبصر لاهوت الكلمة مبسوطاً في كل مكان، أي في السماء، وعلى الأرض، وفي الإنسان، وفي

الهاوية، **لا يصير بعد معرضاً للخداع والضلال عن الله، بل يعبد المسيح** وحده (دون أي آلهة أخرى) = «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبةٍ ممن في السماء ومَنْ على الأرضِ ومَنْ تحت الأرضِ، ويعترف كل لسانٍ أن **يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب**»!] (تجسد الكلمة فصل ٤٥)

وهكذا، في رأي أثناسيوس أيضاً، فإن المسيح تعقَّب خداع الشياطين التي أضلّت العالم وطاردهم حتى ظفر بهم على الصليب، فجرَّدهم من سلطانهم ورئاساتهم، لكي يؤمِّن للإنسان طريق الخلاص الذي وضعه له بالصليب، حتى لا يعود يُستعبد مرَّة أخرى لضلالة الشياطين.

لأن أخطر معوقات الخلاص وأشد عوامل النكوص في الإيمان ومتابعة السير في طريق المعرفة والتقوى والعفة، هي ضلالة الشياطين وغواياتهم.

ومنهج أثناسيوس هذا القائم على مطاردة الشيطان وأعماله وأفكاره وغواياته المنظورة وغير المنظورة يظهر بغاية الوضوح في سيرة القديس أنطونيوس، وهو يحاول في جميع كتاباته أن يبرز أمامنا خطة الله الواضحة في الإنجيل من جهة استعلان يسوع المسيح كابن ذاتي له، الذي «أُعطي كل سلطان مما في السماء وما على الأرض» الذي هو بعينه سلطان الآب، لكي يهب الإنسان الغلبة على كل القوى المعادية لخلاص الإنسان، التي منعت عنه في كل الدهور السابقة معرفة الحق والبصيرة النيِّرة لإدراك الله في ذاته.

ولا شك أن مفهوم حلول كلمة الله في جسد إنسان للاتحاد الكامل به "**لإنارته**" (فصل ٤١و٤٢)، حسب قول أثناسيوس، يتجه اتجاهاً مباشراً نحو إبطال قوى الشياطين الفكرية وكشف "وإنارة طريق الحياة والخلود" أمام الإنسان عامة. على هذا الأساس قال المسيح: «**أنا هو نور** العالم.» (يو ٨: ١٢)

ونخلص من هذا أن **التجسُّد**، الذي استُعلن به الله كآب وابن، بالإضافة إلى معطياته التي لا حد لها، سواء **الفداء أو الخلاص أو القيامة**، أو من جهة بداية **كشف الله في الثالوث الأقدس**، أي في ذاته؛ فالتجسُّد أيضاً عند أثناسيوس **هو لإعطاء "الكلمة" من داخل جسد الإنسان سلطاناً فائقاً على كل أعمال الظلمة التي للشيطان وكسر سلطانه وغواياته وضلالاته**، ولإبطال مفعولها في كل العالم، حتى يستطيع الإنسان من خلال نور المعرفة للحق أن يعبد الله ويدركه في ذاته كآب وابن، حيث تلتحم معاً رسالة الكلمة النظرية هنا كمعلّم للحق برسالة الكلمة العملية كقاهر للباطل.

[متى بدأ البشر يهجرون عبادة الأوثان، إلاَّ عندما حلَّ الله ـ كلمة الله الحقيقي ـ بين البشر؟ ومتى بطلت استشارة الأصنام في كل مكان وصارت باطلة، إلاَّ عندما أظهر المخلِّص نفسه على الأرض؟ ومتى ظهرت حقيقة أُولئك الشعراء الآلهة، واتضح أنهم مجرَّد بشر يفنون، إلاَّ منذ أن أتمَّ الرب نصرته على الموت وحفظ الجسد الذي اتخذه بلا فساد حتى أقامه من بين الأموات؟ ومتى احتُقرت غواية وجنون الشياطين إلاَّ عندما تنازل **"قوة الله"**، **"الكلمة"**، وظهر على الأرض من أجل ضعف البشر؟ ومتى ابتدأت صناعة السحر ومدارسها تُداس، إلاَّ عندما صار ظهور الله **"الكلمة"** بين بني البشر؟ كان البشر لا يعتقدون في أي شيء آخر سوى آلهة الأوثان، أمَّا الآن ففي العالم كله تجد البشر يهجرون خرافة الأوثان ويلتجئون للمسيح. وإذ يعرفونه أنه هو الإله يعبدونه فيعرفون به أيضاً الآب الذي كانوا يجهلونه ...

وهكذا أقنع المسيح كل العالم ليعبدوا رباً واحداً وفيه يعبدون الله أباه.] (فصل ٤٦)

[وبعد أن امتلأ كل مكان في القديم بغواية الجحيم والعرافة وآلهة التنبُّؤات، بطل الآن جنونهم و لم يعد أحد منهم ينجِّم بعد، وذلك **منذ بُشِّر بالمسيح في كل مكان**.

(وهنا يربط أثناسيوس بين قول الإنجيل: "اذهبوا بشِّروا العالم أجمع" وبين إرادة الله في تعقُّب ضلالات الشيطان في كل أنحاء العالم، حتى يتهيَّأ العالم كله لمعرفة الحق وعبادة الله).

وبعد أن أضلَّت الشياطين عقول البشر قديماً، إذ احتلت الينابيع والأنهار والأشجار والحجارة، هكذا أثَّرت على البسطاء بشعوذتها، والآن بطلت غوايتها بعد **الظهور الإلهي "للكلمة"**، لأن **بعلامة الصليب** يستطيع حتى الإنسان العادي أن يفضح ضلالتها.] (فصل ٤٧)

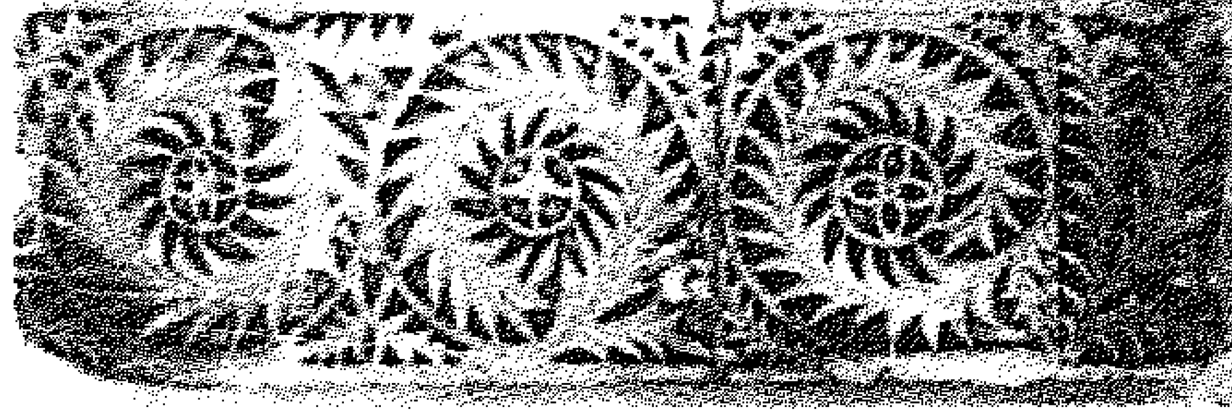
ويبدأ أثناسيوس يدلِّل على صدق إيمانه ورؤيته لأسباب التجسُّد من جهة إبطال ضلالات الشيطان في كل أنحاء العالم وفي كل نواحي النشاط الآدمي، فيستشهد بقيام أنظمة العفة والطهارة والعبادة الجماعية:

[على أن هذه البراهين التي قدَّمناها، لها اختبارات عملية تشهد لصحتها، فليذهب من أراد ويعاين دليل العفة في عذارى المسيح والشبَّان الذين يعيشون الحياة النسكية المقدَّسة، أمَّا دليل الخلود ـ وقيامة الأجساد ـ فيراه في ذلك العدد الضخم من الشهداء.

وليأتِ مَنْ أراد أن يختبر أقوالنا السابقة عملياً، وفي وسط خداع الشياطين وخزعبلات المنجمين وأعاجيب السحر، ليستعمل علامة الصليب الذي يُهزأ به بينهم، فيرى كيف أنه بواسطته تهرب الشياطين ويبطل التنجيم ويُباد السحر والعرافة.

إذن مَنْ هو المسيح هذا؟ وما هي عظمته، الذي بمجرَّد اسمه وحضوره يستطيع أن يطرح كل هذه القوى ويبيدها، والذي ملأ العالم بتعليمه (الحق)؟

إنه هو ابن الله الحقيقي **كلمة** الآب، **وحكمته**، **وقوته** منذ البدء!] (فصل ٤٨)



إفريز من الحجر المحفور مأخوذ من القاعة B في دير باويط (قرن ٦/٧)
[متحف اللوفر بباريس]

ثانياً: المعرفة الكاملة المتبادلة بين الآب والابن

على مدى تعاليم أثناسيوس وحججه ودفاعه، لم يخطئ قط في إبراز التكافؤ الكامل في عملية استعلان ذات الله للإنسان من خلال التجسُّد. "**فالكلمة**" جاء **ليعلن الآب**، ومن أجل ذلك **كان يعلن نفسه** بالأقوال والأعمال، حتى إذا أدركوا حقيقة كونه "كلمة الله"، يدركون في الحال الآب الحالّ فيه.

أمَّا الآب بدوره فهو الذي أرسله إلى العالم معلناً فيه مسرَّته، ومُظهراً به مجده وقوته، حتى يُعرف «**أن يسوع المسيح هو رب، لمجد الله الآب.**» (في ٢: ١١)

ولكن إعلان الابن للآب وإعلان الآب للابن، في منهج أثناسيوس اللاهوتي، لا يشملان مرحلتين، بل هما عمل واحد. فكل استعلان للابن هو نفسه بالتالي وبالضرورة استعلان للآب، وكذلك كل استعلان للآب هو نفسه حتماً استعلان للابن[١٥].

أي أن بالتجسُّد تمَّ استعلان متبادل بين الآب والابن (والروح القدس)[١٦]، ولكن هذا الاستعلان المتبادل لا يقوم أساساً على كرم الابن أو سخاء الآب أو المحبة المتبادلة أو الطاعة، أي أنه لا يقوم على أساس أخلاقي أو مجرَّد صفات شخصية، ولكن أساسه هو وحدة الجوهر الذاتي؛ فالآب والابن جوهر واحد وذات واحدة، وهنا منبع فكر أثناسيوس ومصبُّه بآن واحد، أو أن هذا يشكِّل الأساس الذي يستمد منه أثناسيوس دفاعه والغاية التي ينتهي إليها كل دفاع، وهو أن التساوي المطلق بين الآب والابن ناشئ من وحدة الجوهر، أي وحدة الكيان والوجود الذاتي. ووحدة الجوهر هي التي أنشأت التساوي المطلق بينهما وتبادل المعرفة والاستعلان، كضرورة حتمية.

وهنا يلزم أن نضع في الاعتبار أن أساس منهج أثناسيوس اللاهوتي كان هو التزام الدفاع والصراع، الأمر الذي جعل أثناسيوس يستلهم كل الإنجيل وكل الحق الإلهي، ويكرِّس قلبه وفكره

(15) Ger. Zaphiris, *op. cit.*, p. 299.

(١٦) نحن نكتفي دائماً باستعلان الآب والابن، بحسب تدرُّج الإنجيل وبحسب مراحل الصراع اللاهوتي الذي خاضه أثناسيوس، مرجئين استعلان الروح القدس في النهاية لكمال استعلان الثالوث.

وروحه لإدراك الحق ثم الدفاع عنه.

فأريوس أنكر هذا التساوي المطلق بين الآب والابن، وكان منشأ هرطقته هو أن العلاقة التي تربط الآب بالابن هي علاقة عمل (خلقة) فقط. فالآب - بحسب زعم أريوس - خلق الابن ليخلق به العالم وحسب، وهذه العلاقة تخلّلتها علاقة أخلاقية نشأت في ذهن أريوس من كلمة آب وابن، اعتباطاً، لأنها واردة في الإنجيل. وهكذا جهل أريوس وتجاهل وأنكر، عن عمد، وحدة الجوهر، الأمر الذي أنشأ في الحال منطق عدم التساوي بين الآب والابن إلى الدرجة التي أنكر فيها أريوس أن الابن يعرف الآب، لأنه مخلوق، بل وأن الابن لا يستطيع أن يرى الآب(١٧) بل ولا يستطيع أن يعرف جوهر نفسه(١٨).

وينطلقون من ذلك إلى اعتبار أن الثالوث ذو جواهر ثلاثة، وأن كل أقنوم منفصل عن الآخر، وأن الثلاثة غير متشابهين لا في الطبيعة ولا في المجد(١٩).

أثناسيوس يصمِّم على المعرفة الكاملة والمطلقة التي يتبادلها الابن مع الآب، معتمداً أساساً على الإنجيل:

[+ «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب» (يو ١٠:١٥)
+ «ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن» (مت ١١:٢٧)
+ «ليس أن أحداً رأى الآب إلاَّ الذي من الله» (يو ٦:٤٦)
+ «بالمسيح قوة الله وحكمة الله» (١كو ١:٢٤)
+ «والمسيح المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كو ٢:٢و٣)

ثم بعد ذلك، أليس أن هؤلاء الأريوسيين أعداء الله الذين يقولون إن الابن لا يرى الآب ولا يعرفه تماماً. فإن كان الرب نفسه يقول إنه كما يعرفني الآب، هكذا أيضاً أنا أعرف الآب، رهنا الآب لا يظهر كأنه يعرف الابن جزئياً، فكيف يقولون بجنون إن الابن إنما يعرف الآب جزئياً وحسب وليس كلياً؟]

وأثناسيوس كما قلنا يعزي التكافؤ الكامل في المعرفة أو العمل أو الاستعلان بين الآب والابن

(17) Athanas., *Contra Arian,* I, 9.
(18) Ibid. I, 6.
(19) Athanas., Ibid., *De Synod.* 15, 3. Ad. Episcop. Aegypt., 12.

على أساس الوحدة في الطبيعة والجوهر والإرادة، فمن جهة الإرادة لا توجد إرادتان متساويتان واحدة للآب وأخرى للابن، لأن الابن كما سبق وقلنا هو «**الإرادة الحية للآب**»(٢٠) أنظر صفحة ٥٨٢.

من هنا تنتفي الثنائية بين الآب والابن نهائياً في ذات الله، وذلك بسبب التساوي في الجوهر.

كذلك لا يوجد رأيان أو فكران أو عقلان متساويان، واحد للآب وآخر للابن، بل رأي وفكر وعقل واحد لله، لأن الابن هو "كلمة الآب وحكمة الآب".

كذلك لا توجد قدرتان متساويتان، واحدة للآب وأخرى للابن، بل قدرة واحدة لله، كليَّة، وضابطة للكل، هي للآب وهي للابن، لأن الابن "هو قوة الله".

[إذن فابن الله هو "**الكلمة**"، و"**الحكمة**"، و"**الفهم**"، و"**المشورة الحيَّة**"، و"**المسرَّة**"، و"**الحق**"، و"**القوة**" **التي للآب**.](٢١)

[إذن فليهلك رأي الأريوسيين، فالثالوث ليس فيه مستحدث إنما لاهوت واحد أبدي، ومجد واحد للثالوث المقدَّس، وهو الخالق والصانع.

إن إيمان المسيحيين يعلن أن الثالوث المبارك غير متغيِّر وكامل، وهو كما هو منذ الأزل، لا يُضاف إليه ما هو أكثر، ولا يُنسب إليه نقصان، **وهو غير منقسم، معبود، في وحدانية الله**.](٢٢)

[إن الله أبا يسوع المسيح هو واحد، وهو رب وخالق الخليقة بواسطة "**كلمته**" الذاتي. كذلك فإن "**كلمة**" الله واحد هو، فهو الابن الوحيد من جوهر الآب وله خاصة، **وهو مع أبيه لاهوت واحد غير منقسم** - كما علَّم المخلِّص نفسه - به **خلق الآب الخليقة وفيه يعلن ذاته لمن يريد وينير الجميع.**

واسم الابن يُذكر مع الآب في المعمودية والروح القدس ... وإنه من الضروري أن أقرر وأعلن إيماني، **أن اسم الابن يُذكر مع الآب، ليس لأن الآب غير كافٍ، ولا هو يُذكر بدون معنى أو مصادفة، ولكن لأن الابن هو "كلمة الله" و"حكمته" الخاصة، وهو**

(20) Athanas., *Contra Arian,* II, 2.
(21) Athanas., *Contra Arian,* II, 65.
(22) Ibid., 1, 18.

شعاع مجده، فهو ملازم للآب وحتماً وأبداً معه. لذلك فمن المستحيل، عندما يهب الآب "النعمة"، أن يعطيها إلاَّ "في الابن"، لأن الابن هو في الآب كالشعاع في النور، ولا يُذكر كأنه عن حاجة خلق الآب الأرض بحكمته، وصنع كل الأشياء بكلمته، الذي هو منه، كذلك في الابن ثبَّت المعمودية المقدَّسة.

لأنه حينما يكون الآب يكون الابن، وكل ما يعمله الآب يعمله من خلال الابن "وكل ما أرى أبي يعمله هذا أنا أعمله أيضاً".

هكذا عندما تُمنح المعمودية، فكل من يعمده الآب يعمده الابن، وكل من يعمده الابن فإنه يتقدَّس في الروح القدس.](٢٣)

يخرج أثناسيوس من هذا ضمناً بتأكيده أن عمل الخلاص الكلِّي على مدى التاريخ هو أيضاً وبالضرورة نتيجة لجوهر الاتفاق التام بين الآب والابن، لأن عمل الخلاص مترتِّب أصلاً على عمل الخلق، فإن كان الله الآب خلق كل شيء بكلمته، فهو بالضرورة يخلِّص ما خُلق بكلمته.

أمَّا التجسُّد الإلهي فكان النقطة الحرجة التي برزت إلى الوجود المعلَن في حيِّز التاريخ، والتي فيها استُعلن الله من داخل التدبير الإلهي لعمل "الثالوث المقدَّس"، حيث دخل استعلان اللاهوت في حيِّز المحدود، إذ استُعلنت "حكمة الله" و"قوة الله" و"إرادة الله" و"فكر الله" بصورة واقعية ومفهومة، بل ومحسوسة في شخص يسوع المسيح، بالقدر الذي يكشف حضور الله الفعلي والعملي في الإنسان وفي الوجود المحسوس والمنظور.

ولكن وبالرغم من هذا الاستعلان الواضح، ظلَّ تدبير الله هذا في قياس محدود بالنسبة لفكر الإنسان ومنطقه، وليس استعلاناً مطلقاً، أي ظلَّ مخفياً ومعلناً بآن واحد!! لإعطاء فرصة للإيمان والاختيار!!

(23) Athanas., *Contra Arian*, II, 41.

ثالثاً: الابن "الكلمة" بتجسُّده
أعلن الآب، وسيظل يعلنه إلى الأبد

لقد ورث القديس أثناسيوس عن الآباء، وخاصة القديس إيرينيئوس، التعليم اللاهوتي للدور الذي يضطلع به الابن في إعلان الآب بتجسُّده. ولكن كانت هناك بعض المؤاخذات اللاهوتية لمن سبقه من بعض اللاهوتيين والمعلِّمين، مثل أوريجانوس(٢٤)، الذي كان يرى انتهاء دور الابن بعد أن يخضع كل شيء للآب (١كو ١٥: ٢٤). وكانت هذه أخطر نقطة ضعف في مفهومه للابن بالنسبة للآب، وقد استخدمها الأريوسيون ضد لاهوت الابن المساوي للآب.

أمَّا في تعليم أثناسيوس، "فالكلمة" **هو صورة جوهر الآب، ليس بالنسبة لإرسالية عمله في العالم، ولكن بالنسبة لصميم جوهر الثالوث وصميم ذات الله وحياته.**

لذلك فالابن قائم في الآب قبل إنشاء هذا العالم، وسيظل قائماً في الآب بعد انتهاء هذا العالم. ويقول القديس أثناسيوس تعليقاً على الآية: «وبعد ذلك النهاية متى سلَّم المُلك لله الآب متى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة، لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه ... ومتى أُخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أَخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل» (١كو ١٥: ٢٤و٢٥و٢٨)، حينئذ سيظل الابن، كما هو، الصورة الأزلية لجوهر الآب:

[فالابن غير مفترق عن الآب، ولم يكن زمان قط لم يكن فيه الابن موجوداً، ولكنه دائماً أبداً صورة الآب وشعاعه، **وله أزلية الآب.**](٢٥)

["عرشك يا الله إلى دهر الدهور. قضيب البر هو صولجان مُلكك. لقد أحببت البر وأبغضت الإثم. لذلك مسحك الله إلهك بزيت البهجة أكثر من رفقائك (شركائك)".

انظروا أيها الأريوسيون واعترفوا بالحق، فالمرنِّم (داود) يتكلَّم عنا جميعاً كرفقاء أو شركاء للرب، فلو كان (المسيح) جاء من عدم (كما تدَّعون)، لكان هو أيضاً واحداً من

(24) Origen, *Comm. in Johan.*, 20.7.
(25) Athanas., *Contra Arian,* III, 28.

هؤلاء الرفقاء. **ولكن لأن المزمور يسبِّحه أنه الإله الأبدي بقوله: «عرشك يا الله إلى دهر الدهور»**، لذلك فهو وحده كلمة الآب الحقيقي والشعاع والحكمة الذي يشترك فيه كل ما هو مخلوق حينما يتقدَّس بالروح.](٢٦)

[فإذا كانوا يتصوَّرون أن المخلِّص لم يكن ربًّا **وملكاً** قبل أن يتجسَّد ويصير إنساناً ويحتمل الصليب، فإنهم بذلك يُحيون بدعة بولس الساموساطي. ولكن كما سبق أن أوضحنا بالشواهد أنه رب وملك أبدي كما يقول داود: «مُلكك مُلك كل الدهور» (مز ١٤٥: ١٣)، فإنه واضح أنه، حتى وقبل أن يصير إنساناً، كان ملكاً ورباً أبدياً، لأنه صورة وكلمة الآب، ولأن "الكلمة" هو رب وملك أبدي ... أمَّا قول بطرس أنه صار «ربًّا ومسيحاً» فإنما يتكلَّم عن ربوبيته علينا، حينما صار إنساناً وفدانا على الصليب، فصار ربًّا وملكاً على الكل ... أي اكتسبنا نحن لملكوته وربوبيته.](٢٧)

[فإذا كان قد مُسح (بالروح القدس) فليس لكي يصير إلهاً، لأنه كان إلهاً حقًّا، ولا ليصير ملكاً لأنه إذ هو صورة الله فهو يحكم أبدياً.](٢٨)

وهكذا يضع أثناسيوس الأساس اللاهوتي القوي لعلاقة الابن بـالله الآب، أنها علاقة صميمية أبدية وأزلية، وعلى هذا الأساس يبني مفهوم علاقة المعرفة الذاتية والجوهرية التي بين الابن والآب، ثم يتطرَّق إلى التجسُّد باعتباره مرحلة إعلان وتعريف بالله الآب اضطلع بها الابن من نحو البشرية، من واقع علاقته الجوهرية والذاتية بالآب، وليس من واقع إرساليته أو عمله الزمني المؤقَّت.

وهنا يكشف أثناسيوس عن سر من أسرار التجسُّد الهامة جدًّا، وهو القصد المباشر الذي قصده الله بتجسُّد ابنه، لكي نعرف الله معرفة حقيقية صميمية بواسطة ابنه المتجسِّد، الذي هو وحده القادر أن ينقل لنا صورة حيَّة واقعية للآب، لأنه واحد معه؛ وذلك من واقع تجسُّد الابن نفسه، أي بصورة مدركة ومحسوسة وملموسة للعقل البشري، وفي نفس الوقت هذه الصورة التي ينقلها لنا عن الله هي من صميم جوهر الله غير المدرك وغير المنظور «مَنْ رآني فقد رأى الآب».

على أن عمل الابن في تعريفه وإعلانه للآب لن يتوقَّف أبداً بتوقُّف عملية الخلاص والدينونة،

(26) Athanas., *Contra Arian,* I, 46.
(27) Ibid. II, 13.
(28) Ibid. I, 46.

فحتى بعد أن يُخضع المسيح كل شيء لله وتصير الخليقة كلها خاضعة لله، ويسلّم المسيح غنيمته التي اغتنمها لحساب الآب وهي خلاصنا وإخضاع أعداء الخلاص؛ فإن الابن سيظل صورة الآب الجوهرية وشعاعه المعلن عنه، كما كان كذلك سيكون إلى أبد الآبدين. فالآب والابن والروح القدس الثالوث الأقدس لذات الله حقيقة دائمة قبل إنشاء هذا العالم وبعد انتهاء هذا العالم.



إفريز من القاعة رقم ٣ في دير باويط (قرن ٦/٧) يتكون من ٣ أجزاء معروض بمتحف اللوفر بباريس

رابعاً: العلاقة بين النور وبهاء (شعاع) النور كأساس لإدراك حقيقة الله

كان أثناسيوس كثير الشغف باستخدام العلاقة بين جوهر النور وبين الشعاع الخارج منه في توصيل معرفة حقيقة الله إلينا، بواسطة "الكلمة" كلمة ا لله، الذي هو شعاع «وهو بهاء مجده.» (عب ١ :٣)

[إنه هو وحده الذي يكشف ويعلن الآب.

كما يقول بولس الرسول: «نعمة لكم وسلام من ا لله أبينا والرب يسوع المسيح» (رو ١ :٧)، لأن بهذا تتم البركة وتكون كاملة وفي أمان بسبب عدم انقسام الابن عن الآب، ولأن النعمة المعطاة منهما هي واحدة! إذ بالرغم من أن الآب هو معطيها، إلاَّ أنها تُعطى في الابن وبواسطته توهب، فالآب هو الذي يمدنا بالنعمة من خلال الابن، وهذا يُفصح عنه بولس الرسول أيضاً بقوله في موضع آخر: «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على نعمة ا لله **المعطاة لكم في يسوع المسيح**.» (١كو ١ :٤)

وهذا يمكن للإنسان إدراكه في تشبيه النور والشعاع:

لأن ما يجعله النور مضيئاً هو الذي يقع في دائرة الإشعاع، وإضاءة الإشعاع هي بعينها إضاءة النور ذاته، كذلك تماماً حينما يُرى الابن يُرى الآب، لأن الابن هو شعاع الآب، فالآب والابن هما واحد. (وهكذا يثبت أثناسيوس أن النور والشعاع الصادر منه هما واحد دائماً، ثم يبني على التشبيه أن أتباع يسوع يعرفون الله غير المنظور، على أساس أن ما يكشفه ويعلنه الشعاع هو هو حقيقة النور ذاته)[٢٩].

لذلك، فالإنسان يرى الله حينما يرى **"الكلمة"**، لأن "الكلمة" هو شعاع (بهاء) الله. وهذا حق مطلق لأن **للآب وجود واحد مع الابن**: «أنا والآب واحد» (يو ١٠ :٣٠).][٣٠]

(٢٩) المؤلِّف.

(30) Athanas., *De Synod*, 50, 1-3; *Contra Arian,* I. 9,16.

والقديس أثناسيوس يأخذ معنى "الصورة لجوهر الآب" - أو الشعاع بالنسبة للنور - أخذاً لاهوتياً عميقاً، معتبراً أن صورة الجوهر الإلهي ليست إلاَّ الله ذاته.

فعند أثناسيوس "صورة الله هي الله":

[إن كلمة الله ليست مجرَّد نطق، ولا هي صوت مقاطع تُسمع، ولا ابن الله يعني مجرَّد أمره، ولكنه الشعاع للنور، كامل من كامل، **وهو بكونه صورة الله، فهو الله**؛ كما قيل في الإنجيل: «والكلمة كان الله».

وكلمة الإنسان لا تصلح أن تكون فعلاً أو عملاً، فالإنسان لا يعمل بالقول، بل يعمل بيديه، لأن اليدين لهما وجود فعلي، أمَّا كلمة الإنسان فليس لها كيان وجودي فعلي: «أمَّا كلمة الله - (وهي كائنة) - فتدوم إلى الأبد»، كما يقول بولس الرسول: «حيَّة وفعَّالة وأمضى من كل سيف ذي حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميِّزة أفكار القلب ونياته» (عب ٤:١٢).](٣١)

[و"**الكلمة**" باعتباره صورة الله ليس هو خارج جوهر الآب، ولكنه:

- من ذات جوهر الآب Ἴδιος τῆς οὐσιας
- مساوي مع الآب ὁμοούσιος.](٣٢)

وهكذا يخرج أثناسيوس بمحصِّلة لاهوتية: لأن الكلمة هو شعاع وصورة وبهاء الآب، فإنه يكفي للإنسان أن يتأمَّل في صفات "**الكلمة**"، ليعرف كلاًّ من الكلمة والآب(٣٣).

وحينما نتطلَّع إلى الابن، فنحن نرى الآب، لأن الكلمة لا يختلف عن الآب، فهو صورة ذات الآب أو صورة جوهر الآب(٣٤).

لذلك يعتبر أثناسيوس أن كل إدراك ومعرفة يتحصَّل عليها الإنسان من الكلمة، تصبح هي بعينها المعرفة الأصيلة والإدراك الحقيقي الذي للآب، لأن الكلمة هو الابن الوحيد الذاتي

(31) Athanas., *Contra Arian,* II, 35.
(32) Athanas., *Contra Arian,* III. 8, I.9.
(33) Athanas., *De Incarn.* 12.
(34) Athanas., *Contra Gentes* 41, 46; *Discoure* II. 56; III. 62.

للآب(٣٥).

[لأنه حينما نشترك في الابن ذاته، **يُقال إننا نشترك في الله**، وهذا ما قاله بطرس: «حتى تصيروا شركاء الطبيعة الإلهية»، كما يقول الرسول بولس أيضاً: «ألا تعلمون أنكم هيكل الله» (١كو ٣:١٦)، «أنتم هيكل الله الحي» (٢كو ٦:١٦)، وإذ نتطلّع إلى الابن نرى الآب، لأن فكر ومعرفة الابن هي معرفة الآب، لأنه ابنه الذاتي الذي من جوهره ...

وأنه حكمة الله وكلمته، الذي فيه وبواسطته خُلقت كل الأشياء، وهو بهاء نوره، الذي كل الأشياء تستنير به، والذي يعلن الآب لمن يشاء، وهو رسمه وصورته الذي حينما نتأمَّل فيه نتأمَّل في الآب وندركه: «لأنه هو والآب واحد»، فكل مَنْ يتطلّع إليه يتطلّع إلى الآب، وهو المسيح الذي فيه تمَّ افتداء كل الخليقة، وبه صُنعت الخليقة من جديد (على صورته).](٣٦)

[وهكذا تمتلئ الأرض كلها من معرفته، لأن معرفة الآب تتم من خلال الابن، ومعرفة الابن التي هي من الآب هما معرفة واحدة ومطابقة.

والآب يُسَرُّ بالابن، وكذلك الابن أيضاً يُسرُّ بالآب (أم ٨:٣٠). والآب إنما يُسرُّ بالابن، لأنه يرى فيه صورته الذي هو كلمته.

ولكن وإن كان الله سُرَّ أيضاً بالإنسان عندما خلقه وأكمل خلقة العالم، كما هو أيضاً مكتوب في سفر الأمثال (٣:١٨ السبعينية)، ليس كأن السرور أُضيف إلى الله، ولكن برؤيته الأعمال التي أُكملت على صورته، فسرور الله دائماً يتجه نحو صورته.

وفيما تكون مسرَّة الابن، إلاَّ بأن يرى نفسه في الآب؟ وأليس هذا هو المكتوب: «من رآني فقد رآى الآب»، «وأنا في الآب والآب فيَّ».](٣٧)

وعلى ضوء اللاهوت عند أثناسيوس، الذي يجمع معاً معرفة الآب ومعرفة الابن في وحدانية كيانية، فالمعرفة الواحدة للآب والابن أساسها وحدانية الجوهر والذات؛ والعكس صحيح، أي أن الوحدانية في الجوهر الكياني الذاتي لله يُنشئ حتماً وحدانية في المعرفة(٣٨)، كالنور مع الشعاع،

(35) Athanas., *Contra Arian,* I. 16; II. 16.
(36) Athanas., *Contra Arian,* I. 16.
(37) Athanas., *Contra Arian,* II. 82.
(38) Athanas., *Contra Arian,* I. 61.

والجوهر مع الصورة، والعقل مع الكلمة؛ هذه الوحدانية في المعرفة تنير أمامنا مفهوم بولس الرسول في قوله: «ربٌّ واحِدٌ، إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ، إلهٌ وآبٌ واحِدٌ للكلِّ، الذي على الكل وبالكل وفي كلكم.» (أف ٤: ٥و٦)

فالله في المسيح والمسيح في الله وجود واحد جوهري وذاتي معاً، هذا الوجود الواحد قائم على أساس وحدة الثالوث الذي نؤمن به، إلهاً واحداً، ونعتمد له، وإن كان «باسم الآب والابن والروح القدس» فهي معمودية واحدة لإله واحد لا تتكرر. وهنا ندرك القيمة الهائلة التي نخرج بها من تعليم أثناسيوس عن المعرفة الواحدة المتطابقة بين الابن والآب التي نتلقَّنها من الروح القدس عن الابن، فنبلغ الإيمان الواحد بالإله الواحد الذي يؤهِّلنا للمعمودية الواحدة.

أي أن تشديد أثناسيوس على وحدة التطابق في المعرفة التي نتلقَّنها بالروح القدس من الابن عن الآب ومن الآب عن الابن، التي يؤكِّدها إنجيل يوحنا على مدى أصحاحاته، هي أصلاً قائمة على أساس وحدة الجوهر، أي وحدة الوجود الذاتي لله في أب وابن، وكما أنه لا توجد ثنائية في جوهر الله أو في ذاته المفردة، كونه أباً وابناً، كذلك تماماً لا توجد ثنائية في معرفة الابن وإدراكه وفي معرفة الآب وإدراكه، فالمعرفة الواحدة منبعها الجوهر الواحد والذات الواحدة لله. ولكن كان يستحيل علينا إدراك الآب ومعرفته وهو الإله المحتجب: «حقًّا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلِّص» (إش ٤٥:١٥)، الذي لم يره أحد قط ولا يستطيع أن يعرفه أحد قط، إلاَّ بتجسُّد الابن، الذي هو في الآب ومع الآب وفي حضن الآب، فهو الذي خبَّرنا عن الآب: «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه، قال له فيلبُّس يا سيد أرنا الآب وكفانا (رؤية الآب هي منتهى كمال سرور الإنسان)، قال له يسوع أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ، الكلام (المعرفة) الذي أُكلِّمكم به لست أتكلَّم به من نفسي (المسيح ليست له ذات منفصلة عن ذات الآب)، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال (بي)، صدِّقوني أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو ١٤: ٧-١١)

[كون الابن المتجسِّد جلس عن يمين الآب، فماذا يشير هذا إلاَّ إلى أصالة بنوَّة المسيح لله؟ وأن لاهوت الآب هو لاهوت الابن، فلكون الابن يحكم ويملك في ملكوت أبيه، لذلك يجلس على نفس عرش الآب، ويُرى بلاهوت الآب، لذلك فإن "**الكلمة**" هو الله وكل مَنْ يرى الابن يرى الآب، ولهذا فلا يوجد إلاَّ إله واحد.

والابن – المتجسِّد – إذ يجلس عن اليمين، فليس هذا معناه أنه يضع أباه شماله، ولكن يعني أن كل ما هو للآب هو أيضاً للابن حسب القول: «كل ما هو للآب فهو لي»، وهكذا فالابن رغم أنه قيل إنه يجلس عن اليمين فإنه يُرى أيضاً الآب عن اليمين، هذا يكشف ويوضِّح لنا بالأكثر أن الابن في الآب والآب في الابن، لأنه إذ يكون الآب عن اليمين يكون الابن أيضاً عن اليمين، فالابن حينما يجلس عن يمين الآب يكون الآب في الابن.](٣٩)

يبدو هنا أن معنى كلمة "**اليمين**" هو المساواة في الكرامة والمجد.

وهنا يبلغ أثناسيوس ذروة السمو في توضيح ماهية اللاهوت، فالله مهما تشبَّه بالإنسان، يظل كيانه فائقاً جدًّا عن مفهوم ما للإنسان من جلوس وقيام ويمين وشمال ... وبالتالي كل الأوصاف الجوهرية من أبوَّة وبنوَّة، فالله مُدرك كامل يُدرك ولكن لا يُدرَك كماله ... والآب والابن بالرغم من كونهما أقنومين، إلاَّ أنه بسبب جوهرهما الواحد فلا ثنائية في كيانهما إطلاقاً، فالتساوي المطلق بينهما لا يجعل الثنائية العددية قائمة بينهما على الإطلاق. وهذا هو مفهوم "الصورة الجوهرية" في اللاهوت: "**فالآب هو الجوهر غير المنظور للابن والابن هو الجوهر المنظور للآب**" كقول القديس إيرينيئوس (ضد الهراطقة ٤: ٥).

وهذا القول أعاد أثناسيوس صياغته هكذا:

[لأنه صار إنساناً لكي فيه نصير إلهاً، وظهر في الجسد ليستعلن الآب غير المنظور.](٤٠)

ومرَّة أخرى ننبِّه ذهن القارئ أن التساوي **المطلق** بين شيئين لا يجعلهما اثنين بل يجعلهما واحداً، وهذا مستحيل في الأمور المخلوقة، إذ لا يوجد في الخليقة كلها تساوي مطلق بين اثنين، **أمَّا في الله فالتساوي المطلق صفة جوهرية في الثالوث، ويشمل كلية الوجود، وكلية القدرة (بانتوكراتور)، وكلية المعرفة، وكلية الصلاح، للآب والابن والروح القدس: لذلك نقول: "إله واحد". وهكذا فالتساوي المطلق بهذه الصورة الفائقة هو حقيقة الآب والابن، التي تجعل من الآب والابن ذاتاً واحدة، كياناً واحداً جوهرياً، تتميَّز فيه الأبوَّة والبنوَّة فقط من داخل التساوي المطلق، ليبقى الكيان أي الجوهر واحداً، وفي الذات الواحدة لله المتساوية والمطلقة لا يمكن أن**

(39) Ibid.

(40) Athanas., *De Incarn.* 54. 3.

يُرى اختلاف أو انقسام أو تجزُّء، فإن رئي الابن ولم يُرَ الآب، فلأن البنوَّة الذاتية التي في الله هي التي لبست جسداً ظاهراً دون الآب، فظهر الله الابن متجسِّداً «الله ظهر في الجسد»، وإن رُئي الابن جالساً عن يمين الآب، فهذا بسبب الجسد الذي اتخذه الابن لنفسه، فصار الابن المتجسِّد عن يمين الآب، مع أنه في الآب والآب فيه وهما واحد.

لذلك يشدِّد أثناسيوس في رده على الأريوسيين، كما كان يرد على الوثنيين، أن تجسُّد الابن كان الواسطة الوحيدة لمعرفة الآب، لأن كل ما علَّم به وكل ما قاله المسيح هو هو لمعرفة الآب، وكل قوة وعمل عمله المسيح، كان توضيحاً وتعبيراً عن قوة وعمل الآب(٤١).

في كل تعاليمه، لم يحِدْ أثناسيوس، ولا قيد شعرة، عن التقليد الثابت الذي استلمته الكنيسة من الرب مباشرة، عن الرؤية الثابتة الكاملة لله الواحد في الثالوث المتساوي في كل شيء:

[لنتأمَّل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء، التي أعطاها الرب وكرز بها الرسل وحفظها الآباء، على هذه تأسَّست الكنيسة، ومن يسقط منها لا يُحسب مسيحياً، ولا يُدعى مسيحياً بعد. إذن، فهناك **ثالوث مقدَّس كامل، معترف به أنه الله الواحد، الآب والابن والروح القدس**، لا يختلط معه شيء غريب أو خارجي، لا يتكوَّن من واحد يخلق وواحد يبدع، بل الثالوث (الكل) خالق متساوي، ومن جهة الطبيعة غير قابل للتجزئة، نشاط واحد: فالآب يعمل كل الأشياء بالكلمة في الروح القدس، هكذا تقوم الوحدة في الثالوث، وهكذا يُنادَى بإله واحد في الكنيسة «الذي على الكل وبالكل وفي الكل».](٤٢)

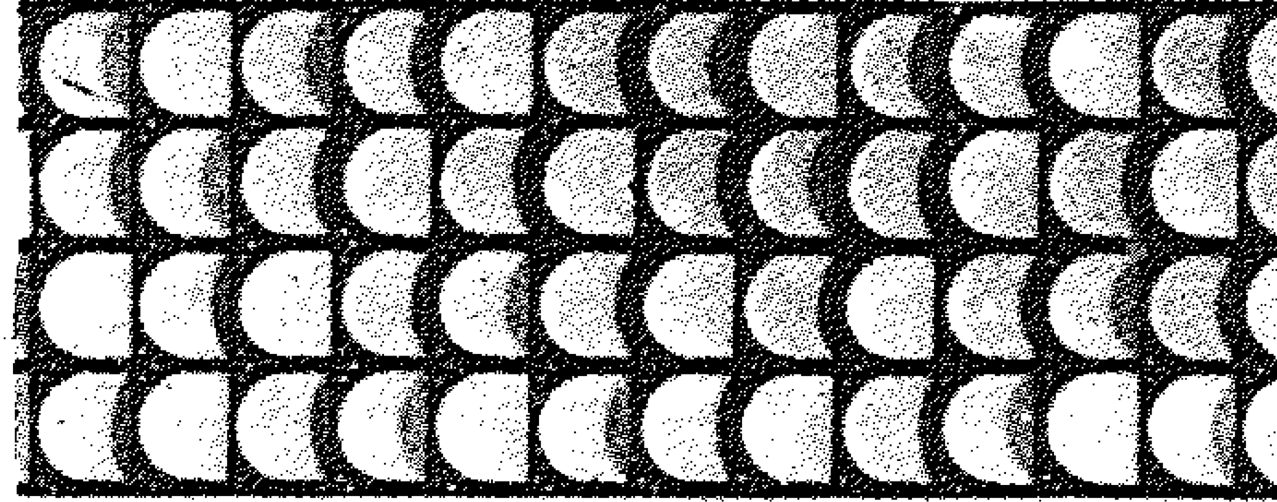
وإذا عاد القارئ الباحث إلى التقليد الكنسي المبكِّر، نجد في دفاع كليمندس الروماني في رسالته ثبتاً لهذه النظرية اللاهوتية الحيَّة التي تحمل في طيَّاتها كل حقيقة لاهوت الكلمة وقيمة التجسُّد، إذ يقول كليمندس: [**إن غياب لاهوت المسيح يقابله بالتالي فقدان كل معرفة عن الآب.**](٤٣)

وأثناسيوس كان حريصاً كل الحرص في تعليمه اللاهوتي الطويل والعريض أن يجمع التقليد الكنسي في اختصار وفي قوة ووضوح، **ليعلن أن سبب التجسُّد ليس هو لاستعلان الآب**

(41) Athanas., *Contra Arian,* I, 16, 28, 33; II. 13.
(42) Athanas., *Ad. Serap.* I. 28.
(43) *Homily of Clement of Rome* 2, 3, 1.

وحسب، بل ولتكميل الخلاص، إنما في رباط واحد محكم، بمعنى أنه يستحيل تكميل رسالة الخلاص إلاَّ باستعلان الآب، كما يستحيل استعلان الآب إلاَّ في عمق الخلاص. وهنا يدخل أقنوم الروح القدس كأقنوم المعرفة الإلهية، أقنوم كشف أسرار اللاهوت «**الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله**»، «**الروح القدس الذي يعرِّفكم بكل شيء**»، «**يعلِّمكم كل شيء.**» (١كو ٢: ١٠؛ يو ١٤: ٢٦)

وهكذا فإن نظرية أثناسيوس في المعرفة الإلهية تبدو مترابطة، وليست لمجرَّد المعرفة، بل لهدف الخلاص. **فالابن تجسَّد ليعلن الآب، والآب يجذب الإنسان سرًّا لمعرفة الخلاص الذي في المسيح، بواسطة الروح القدس. لذلك أصبحت مقولة الإيمان الذي للخلاص، للعماد، هي بعينها خلاصة اللاهوت: «عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.»** (مت ٢٨: ١٩)



شريط حائطي ملون كان يزين الحنيات الحائطية niches
في القاعة رقم ٣٢ في ديرباويط ـــ ترجع إلى القرن السادس/السابع

خامساً: الآب يعلن الابن (اللوغس)

+ «**لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم يُعطَ من أبي**.» (يو ٦:٦٥)
+ «أنا هو الشاهد لنفسي **ويشهد لي الآب الذي أرسلني**.» (يو ٨:١٨)
+ «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم **يجتذبه الآب** الذي أرسلني.» (يو ٦:٤٤)
+ «**أبي هو الذي يمجدني** الذي تقولون أنتم إنه إلهكم.» (يو ٨:٥٤)

يشدِّد أثناسيوس على أن قول المسيح «كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي، **وليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَنْ أراد الابن أن يعلن له**» (مت ١١:٢٧)، هذا يعني أنه قد أُعطي للإنسان أن يعرف الآب بواسطة الابن، ولكن بواسطة الابن وحده وبمحض مشيئته يُعلَن الآب، ولكن لمن؟ يشدِّد أثناسيوس أن كشف سر الآب يستحيل أن يمنحه المسيح للإنسان إلاَّ وهو في حالة تناسب إدراك أسرار اللاهوت، أي يكون مهيَّأً بالروح، مستعداً، وطاهراً نقياً بالقلب. وهذا يقوله أثناسيوس في شرحه على سفر المزامير وخاصة على مزمور ١٤٤:٦.

وعلى هذا الأساس يشرح أثناسيوس قول إنجيل يوحنا "جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله"، **قائلاً: إنهم لم يقبلوه لأنهم لم يجوزوا حالة التطهير الداخلي الضرورية التي تؤهِّلهم إلى حالة الاستعداد الروحي لقبول المسيح!!**

فالمسيح لا يمكن أن يعلن صورة ناقصة أو مشوَّهة للآب، بل لابد أن يعطي ويسلِّم صورة كاملة للآب، يعطيها ويصوِّرها في نفسه بنفسه، لتكون مطابقة تماماً للآب، ولكن يستحيل على الإنسان أن يطَّلع على هذه الصورة الكاملة التي للآب في المسيح، إلاَّ إذا تأهَّل أولاً أن يرى المسيح كما هو فينطبق نور وجه المسيح على قلب الإنسان، فينيره كما تنطبق الصورة على أصلها.

[وبالأكثر يلزم أن يرتفع ويتلاشى من الوسط أي حائل جسدي مادي، إذا بدأنا أن ندخل في هذا الموضوع، بل ويلزم أن نتسامى ونتعالى بأي تصوُّر حسِّي، نعم يتحتَّم علينا هذا **لكي ندرك ونفهم العلاقة الأصيلة بين الابن والآب حتى ندخل إليها بمعرفة طاهرة وبعقل نقي، حتى نبلغ سر العلاقة الخاصة بين الكلمة اللوغس والله، تماماً. كما نتحقَّق من**

التطابق الكلّي غير المتغيِّر بين الشعاع والنور.](٤٤)

ويعود أثناسيوس يستقصي مبدأ تعريف وإعلان الكلمة اللوغس للآب، بل تعريف وإعلان الآب لنفسه بواسطة الكلمة أيضاً، مبيِّناً **أنه كان منذ بدء خلقة الإنسان منذ بدء العهد القديم**، حيث "كلمة الله" كان، ولا يزال، الواسطة لاستعلان الآب بصفة دائمة وأصيلة وطبيعية، لا تتأثر بالعوامل الزمانية، ولا تقل أو تتغيَّر، لأن "الكلمة" هو الصورة الجوهرية الناطقة للآب دائماً منذ الأزل وإلى الأبد، المدرَكة في الخليقة ككل، والمدرَكة في الإنسان بصفة خاصة: «الله، بعد ما كلَّم الآباءِ بالأنبياء قديماً، بأنواعٍ وطُرُق كثيرةٍ، كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عَمِلَ العَالَمِينَ، الذي، وهو بهاءُ مجدِهِ، ورسمُ جوهرِهِ، وحاملٌ كُلَّ الأشياءِ بكلمة قدرتهِ.» (عب ١: ١-٣)

وفي موضع آخر يقول:

[إن "**حكمة**" الله الذي تجسَّد في الخليقة، التي هي صورته، أعلن بذلك نفسه أولاً، ثم من خلال ذاته أعلن أباه، ثم بعد ذلك - إذ هو "كلمة الله" الذي صار جسداً كما يقول يوحنا - فبعد أن أباد الموت (بقيامته) وخلَّص الجنس البشري، فإنه أعلن بذلك نفسه أكثر، ومن خلال إعلانه لنفسه أعلن عن الآب قائلاً: «هب لهم أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»، من أجل هذا امتلأت الأرض بمعرفة الله في المسيح لأن معرفة الآب في الابن، ومعرفة الابن **من** الآب، هي معرفة واحدة بذاتها.

لأن الآب يسرُّ بالابن، وفي نفس هذه المسرَّة يفرح الابن بالآب «**لمَّا ثبَّت السموات كنت هناك أنا، لمَّا رسم دائرة على وجه الغمر. لمَّا أثبت السُّحُبَ من فوق لمَّا تشدَّدت ينابيع الغمر. لمَّا وضع للبحر حدَّه فلا تتعدَّى المياه تُخمهُ، لمَّا رسم أُسس الأرض، كنت عنده صانعاً وكنت كل يومٍ لذَّته فَرِحَةً دائماً قُدَّامه، فَرِحَةً في مسكونةِ أرضِهِ ولذَّاتي مع بني آدم.**» (أم ٨: ٢٧و٣١).](٤٥)

لذلك يستشهد أيضاً أثناسيوس بما يقوله بولس الرسول من جهة أن صورة الابن المطبوعة في الخليقة هي صورة ناطقة عقلياً بوجود الآب نفسه وحضرته وصفاته ولاهوته هكذا: «لأن غضب

(44) Athanas., *De. Decret.*, 24.

(45) Athanas., *Contra Arian,* III. 30, 31.

ا لله معلَن من السماء على جميع فجور النـاس وإثمهـم الذيـن يحجـزون الحـق بـالإثم، **إذ معرفـة الله ظاهرة فيهم**، لأن الله (الآب) أظهرها لهم (في صورة ابنه) لأن أموره غير المنظـورة (جوهـره) تُـرى منذ خلق العالم (في عمل ابنه) مُدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بـلا عـذر.» (رو ١: ١٨-٢٠)

ثم يعود أثناسيوس ويتعرَّض للعلاقة الجوهريـة القائمـة بـين الآب والابـن، علـى مسـتوى الحـب والفرح والمسرَّة بينهما، ليثبت أن الأُبوَّة والبنوَّة في ذات الله الواحد ليست مجرَّد أسماء أو ظهـورات أو وجوه يلغي الواحد منها الآخر، فيقول:

[وهذا يثبت أن الابن ليس غريباً عن ذات جوهر الآب الخاص، لأنه ليـس مـن أجلنـا وُجـد الابن كما يدَّعي عديمو الدين، ولا هو - خُلق - من لا شيء، لأن الله لا يخلق لنفسه مسرَّة خارجاً عن ذاته، ولكن الكلمات (أم ٨: ٢٩و٣٠) تشهد وتوضِّـح أن الابـن كـالآب وهـو خاصته، وهل يمكن أن يكون الآب وقتاً ما بدون مسرَّة خاصة؟ ولكن إن كـان الآب حقـًّا هو دائماً في مسـرَّة، فلابـد إذن أن مصـدر مسـرته كـان دائمـاً في ابنـه الـذي فيـه سـروره، (الاكتفاء في الذات الإلهية).

وفي مَنْ تكون يا تُرى مسرَّة ا لله الآب؟ إلاَّ عندما يرى ذاته تماماً في صورته الـذي هـو - كلمته - (الفعَّالة بإرادته حسب كل مسرَّته)؟

وبالرغم من أن الله سُرَّ أيضاً في بني الإنسان بعد أن أكمـل خلقـة العـالم، إلاَّ أن القـول بهذه المسرَّة أيضاً له أصالته من جهة المعنى، فحتى هذه المسرَّة التي في بني آدم لم تكن مسـرَّة مُضافة إليه، ولكن بسبب أنه رأى الأعمال صُنعت على صورته الخاصة، فحتى هـذه المسـرَّة التي في الإنسان هي بسبب وعلى أساس ما له أي صورته.

وأيضاً فيم تكون مسرَّة الابن إلاَّ حينما يرى نفسـه في الآب؟ لأنـه هكـذا قيـل بـالحرف الواحد «الذي رآني فقد رأى الآب»، «وأنا في الآب والآب فيَّ».](٤٦)

وهنا لا يسعنا إلاَّ أن نكشف سرًّا عميقـاً مـن أسـرار أثناسـيوس هـذا العمـلاق اللاهوتـي، إذ يضمـر أثناسيوس ويكشف معاً أن معرفتنا لله الآب و لله الابن ليست هي المعرفـة الـتي تقـوم علـى النظريـات أو

(46) Athanas., *Contra Arian*, II, 81.

المنطق العقلاني، كمقولات تختص بالفكر وحسب؛ بل هي تقوم على أساس الحب والمسرَّة والفرح والتقوى. فالمعرفة القائمة أصلاً في جوهر الله بين الآب والابن هي معرفة قائمة على أعلى مستوى الذات الكاملة المتكاملة من التعاطف والحب والسرور، هذه الأمور العجيبة التي تفوق كل إدراك الإنسان وهذه كانت قائمة قبل الخلق وأثناء الخلق وبعد الخلق وحتى إلى الآن، وهي التي نستمد لذواتنا منها كل المواهب الإلهية عن طريق الروح القدس: فرح، سلام، لطف، وداعة، تعفف ... إلخ.

هكذا وبالتالي يوحي إلينا هذا القديس العملاق أن معرفتنا لسر العلاقة التي تربط الابن بالآب هي مصدر غنى البشرية الفائق ومصدر تكامل الشخصية الإنسانية من جهة أعلى القيم الأخلاقية والسلوكية، التي لا تتم إلاَّ في هذا المجال عينه، أي مجال الحب الإلهي.

فمن خلال الاستعلان الإلهي بالصلاة وبالسرور المفرط يتم انكشاف **سر الدالة التي تربط الآب بالابن «الآب يحب الابن»، وتعلنه** لنا بسكب هذه المعطيات في أعماق كيان الإنسان بالروح القدس. وهذا يكون بسبب أن "**حكمة**" الله وهو "**كلمته**" الجوهرية تكون قد سكنت فكرنا وضميرنا واتحدت بكل كياننا، فأدخلنا سرًّا داخل دائرة المعرفة الخاصة جدًّا لله: «أمَّا نحن فلنا فكر المسيح» (١كو ٢: ١٦)، التي تقوم بحسب جوهرها على هذا الحب. وهذا هو الذي يقصده بولس الرسول بقوله إن «الروح (الذي أخذناه) يفحص كل شيء (لنا) حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠)، وما هو عمق الله إلاَّ هذه المعرفة القائمة بين الآب والابن على أساس هذا الحب وهذا السرور؟ وما قيمة أن الروح يفحص لنا أعماق الله إلاَّ لكي يعلن في أعماقنا صورة حيَّة لقوة الروابط؟

وأثناسيوس يعتبر **جميع الأسفار المقدسة إنما تقدِّم لنا حلقة متكاملة من استعلانات الله الآب بواسطة ظهورات أو إعلان الابن التي تحمل كل مسرَّة الآب وإعلاناته ثم تجسُّده**، الذي عبَّر عنه يوحنا الرسول أنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، بمعنى أنه لمَّا أراد الله الآب أن يعلن عن حقيقة ذاته وحبه الأبوي من نحو العالم، لم يجد أمامه إلاَّ ابنه لكي يعلن فيه هذا الحب، فتجسُّد الابن كان هنا قمة مشيئة الآب في الإعلان عن نفسه وعن حبه وعن سر ابنه.

وأثناسيوس يستخدم نفس التساوي في الإعلان بين الآب والابن بهذه الصورة الفائقة في الحب المتبادل أساساً وبرهاناً معاً للتساوي الديناميكي المطلق في الجوهر الإلهي، معتمداً اعتماداً قوياً على قول الرب: «**عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس**»، لأنه من خلال اسم الآب يُستعلن لنا ونفوز باسم الابن، وباسم الابن يُستعلن لنا ونفوز باسم الروح القدس: حضرة واحدة للإله الواحد

الكامل في الثالوث المتساوي المطلق. الآب في الابن في الروح القدس: هذا السر الذي كان قائماً في الله منذ الأزل، غير معروف ولا مُدرَك حتى استُعلن لنا بالتجسُّد ونلناه واشتركنا فيه بالإيمان والعماد، أي بالاستنارة، فصار لنا أعظم مصدر للحب والسرور وبهجة الخلاص حيث انتهت معرفتنا لسر الثالوث المقدَّس إلى شركة حب وحياة فرح للآب في ابنه، هذه هي عظمة التعليم اللاهوتي عند أثناسيوس، كيف انتقل بالجدل والمناظرة والمقارنة الجافة إلى الدخول الحقيقي والعملي في سر الشركة المفرحة والحياة الأبدية الدسمة بالثالوث وفي الثالوث.

[لذلك فنحن، **من جهة التقوى** والدقة في التحديد والوصف، علينا أن **نتعرَّف على الله من الابن**، داعين إيَّاه "**الآب**" أكثر جدًّا مما نصفه وندعوه **من جهة أعماله وبالنسبة لصفات الخلق، كأن ندعوه "غير المخلوق"** (مع بقية الأوصاف التجريدية: غير المنظور، غير المحوي، غير المدرك ... إلخ)؛ لأن مثل هذا اللقب لا يزيدنا من معرفة الله (في ذاته) شيئاً بل يدلنا إليه بالنسبة إلى أعماله وحسب. في حين وصف الله بالآب يكشف لنا عن عظمة ما يتضمَّنه من وجود آخر فيه هو "**الكلمة**" الذي يفوق كل المخلوقات.

وهكذا وبما أن كلمة الله يفوق كافة المخلوقات، أصبح وصف الله بـ"الآب" يرتفع بمفهوم الله بوصف يفوق كل الخلائق طُرًّا أكثر كثيراً مما يوصف بأن الله "غير مخلوق" وحسب!! لذلك نبَّه المسيح أذهاننا حينما نصلّي إلى الله لكي نخاطبه: «أبانا الذي في السموات»، وتحدَّدت إرادة الله أن يكون مجمل إيماننا وعقيدتنا ملزَماً أن يحمل نفس هذا الطابع، وذلك عندما أمرنا أن نعتمد لا باسم "**الله غير المخلوق**" بل «باسم الآب والابن والروح القدس»، لأنه بهذا الانفتاح وهذه الاستنارة نحصل أن نكون في الحال **أبناء الله**، مع كوننا من خليقته، مستخدمين كلمة "الآب" لأنفسنا بسبب اعترافنا "**بالكلمة**" الذي هو في الآب نفسه.][٤٧]

لذلك يقوم التعليم اللاهوتي عند أثناسيوس في تبادل المعرفة، أي التعريف بين الأقانيم، على أساس أنه يستحيل التحدُّث عن "الكلمة" بمفرده، أي اللوغس، إذا اقتصرنا في حديثنا على أعمال الله الآب وحسب، لأن كل عمل يعمله المسيح هو وسيلة موجَّهة نحو تعريفنا بالثالوث جملة، وبالأخص الآب، كالأصل والمنبع. وهذا الشرح نجده مئات المرَّات على مدى كل كتابات

(47) Athanas., *Contra Arian,* I, 34.

أثناسيوس حتى صارت العقيدة عبارة عن تسبحة يُختم بها كل حديث ويدور حولها كل تفسير: «كل شيء **يعمله الآب** بالابن في الروح القدس».

نص الفقرة ٣١ من الرسالة الأولى لأثناسيوس عن الروح القدس:

[هذه الحقيقة أيضاً تبيِّن أن عمل الثالوث واحد، فالرسول لا يعني أن ما يُعطَى يُعطى بالتجزئة وعلى حدة من كل أقنوم، بل أن ما يُعطَى يُعطَى في الثالوث، وأن كل ما يُعطَى هو من الله الواحد. إذاً فذاك (الروح القدس) الذي ليس هو بمخلوق، بل هو واحد مع الابن كما أن الابن واحد مع الآب، ذاك الذي هو ممجَّد مع الآب والابن، المعترَف به بأنه إله مع الكلمة، الذي يعمل الأعمال التي يعملها الآب بالابن - ألا يُعتبر الشخص مجرماً إذا دعاه مخلوقاً، وأنه يجدِّف تجديفاً مباشراً على الابن نفسه؟ لأنه لا يوجد شيء لم يُبدَع ولم يُعمَل بالابن في الروح القدس. هذا ما ترنَّم به المزمور: «**بكلمة** الرب صُنعت السماوات، **وبروح** فيه كل جنودها» (مز ٣٣:٦)، وكذلك: «يُرسل **كلمته** فيذيبها. يهب **بروحه** فتسيل المياه» (مز ١٤٧:١٨). «ونحن قد تبرَّرنا» - كما يقول الرسول - «**باسم الرب يسوع وبروح** إلهنا» (١كو ٦:١١)، لأن الروح غير منفصل عن الكلمة. فعندما يقول المسيح: «إليه نأتي (الآب وأنا)» (يو ١٤:٢٣)، فإن الروح يأتي معهما ويسكن فينا بكيفية لا تقل عن الابن، كما كتب بولس إلى أهل أفسس: «لكي يعطيكم بحسب غنى مجده، أن تتأيَّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (٣:١٦و١٧)، وإن كان الابن فينا فالآب فينا أيضاً، كما يقول الابن: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤:١٠)، لذلك فعندما يكون الكلمة في الأنبياء فإنهم يتنبَّأون في الروح القدس، فإذا قال الكتاب: «كانت كلمة الرب» (إر ١:٢، مي ١:١) إلى هذا النبي، كان معنى هذا أنه تنبَّأ في الروح القدس. ورد في زكريا: «لكن اقبلوا كلامي وفرائضي التي أوصيت بها عبيدي الأنبياء بروحي» (١:٦ مترجمة من النص)، وعندما وبَّخ النبي الشعب بعد ذلك بقليل قال: «جعلوا قلبهم ماساً لئلاَّ يسمعوا الشريعة والكلام الذي أرسله رب الجنود بروحه عن يد الأنبياء الأولين» (٧:١٢)، وقال بطرس في سفر الأعمال: «أيها الرجال الإخوة كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذي سبق الروح القدس فقاله» (أع ١:١٦)، وصرخ الرسل معاً قائلين: «أيها السيد أنت هو الإله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، القائل (بالروح القدس) بفم داود فتاك ...» (أع ٤: ٢٤و٢٥)، وعندما كان بولس في رومية

تكلّم بجسارة إلى اليهود الذين أتوا إليه قائلاً: «حسناً كلّم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي» (أع ٢٨: ٢٥)، وورد في الرسالة إلى تيموثاوس: «الروح يقول صريحاً إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلّة.» (١تي ٤: ١)

وهكذا نرى أنه عندما يُقال إن الروح القدس في أي واحد فإن هذا يعني أن الكلمة حالٌّ فيه مانحاً الروح القدس. عندما تمّت النبوّة: «أني أسكب روحي على كل بشر» (يؤ ٢: ٢٨) قال بولس: «بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح» (في ١: ١٩). وكتب إلى أهل كورنثوس قائلاً: «إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلّم فيَّ» (٢كو ١٣: ٣). وإن كان الذي تكلّم فيه هو المسيح، فواضح أن الروح الذي تكلّم فيه هو روح المسيح، لأنه عندما كان المسيح يتكلّم فيه قال مرّة أخرى في سفر الأعمال: «والآن ها أنا ذاهب إلى أُورشليم مقيَّداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفني هناك، غير أن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً إن وُثُقاً وشدائد تنتظرني.» (أع ٢٠: ٢٢و٢٣)

لذلك فإن قال القديسون: «هكذا قال الرب» (انظر مثلاً عاموس ١: ٣) فإنهم إنما يتكلّمون بالروح القدس لا سواه. وإن تكلّموا بالروح القدس تكلّموا بأمور الروح في المسيح. وعندما قال أغابوس في سفر الأعمال: «هذا يقوله الروح القدس» (٢١: ١١)، لم يكن ذلك سوى أن الروح القدس منحه - بالكلمة الذي أتى إليه - القوة ليتكلّم ويشهد، بما كان ينتظر بولس في أُورشليم. وهكذا أيضاً عندما شهد الروح القدس لبولس، كان المسيح يتكلّم فيه كما قدّمنا، وهكذا كانت الشهادة التي أتت من الروح تنتمي إلى الكلمة. وعندما افتقد الكلمة العذراء القديسة مريم، أتى الروح القدس إليها معه، وصاغ الكلمة الجسد بالروح القدس وشكّله لذاته، إذ أراد أن يُتحد كل البشرية با لله ويُحضرها إليه بواسطة نفسه، وأن يصالح به الكل عاملاً الصلح ... سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات. (كو ١: ٢٠)][48]

وهكذا سيظل الآب مستعلناً دائماً "بالكلمة" باعتبار الكلمة - اللوغس - مصدر الإلهام والخلاص المباشر للإنسان. وفي الإنجيل فإن الابن يظهر بوضوح مستعلَناً في الخلق: «به خلق العالمين»، «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان، فيه كانت الحياة والحياة كانت نور

(٤٨) الرسالة الأُولى فقرة ٣١.

الناس»، «الكل به وله قد خُلق.» (كو ١:١٦؛ يو ١:٣و٤؛ عب ١:٢)

كما أن الآب يستعلن بوضوح في الفداء: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣:١٦). «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧:٣)، «عرفتهم اسمك وسأُعرِّفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم.» (يو ١٧:٢٦)

وهكذا يبدو واضحاً جدًّا أنه لا يوجد أي تعارض بين استعلان الابن في الخلق واستعلان الآب في الفداء لأن الخلق والفداء عملان متكاملان، وكل استعلان يوصِّل إلى الآخر، وذلك يعود به دائماً القديس أثناسيوس لسر الوحدة الكيانية الجوهرية بين الآب والابن.

غير أن أثناسيوس - بحسب الإنجيل - يجعل دائماً استعلان الابن هو الواسطة الأُولى - بالدرجة الأُولى - **لمعرفة الآب، بالرغم من أن الآب هو الذي يعلن الابن سرًّا للإنسان: «لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم يجتذبه الآب»** (يو ٦: ٤٤)، **«هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا»** (مر ٩: ٧؛ لو ٩: ٣٥)، **غير أن في إعلان الآب للابن يكمن بالدرجة الأُولى إعلان الآب نفسه، وهذا يتضمَّنه أحد أسرار اللاهوت الدقيقة، إذ في اللحظة التي ينفتح فيها قلب الإنسان على الله (الآب)، فإنه ينجذب في الحال نحو الابن، فيظل استعلان الآب متفوقاً من جهة الآنيَّة الزمنية!!** «قال لهم وأنتم مَنْ تقولون إني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي، فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا **إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات.»** (مت ١٦: ١٥-١٧)

ولكن بإدراك الفداء الذي أكمله الآب في ابنه، يتم الانجذاب إليه، فيبدأ الآب يأخذ تعريفه الكامل لدى أعماق الإنسان من جهة هذا الحب الغامر السبَّاق: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد».

وواضح جدًّا، من كل دفاع أثناسيوس، **أن تجسُّد الابن كان بقصد إعلان الآب**، ولكن تأملنا المستمر في ما أكمله المسيح بالجسد من **فداء وخلاص هو وحده الذي يعطينا الصورة الكاملة عن الآب وعن حبه نحونا وإدراك مشيئته فينا وقصده من خلقتنا**، تلك المشيئة المباركة والقصد المبارك الذي تسجَّلت فيه أسماؤنا، إذ اختارنا في المسيح **من قبل إنشاء العالم**. وهنا يوصِّلنا الوحي المقدَّس إلى أن معرفة الآب لنا هي سابقة ليس فقط على ميلادنا بالجسد أو بالروح بل وعلى خلقة العالم

كله - فهي معرفة الحب - **وهذا بالتالي يوضِّح أن معرفتنا للآب بنفس مضمون هذا الحب يلزم أن تأخذ بالنهاية وضعها المناسب كما هي من نحونا: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به»** (يو ١٧: ٢٦)، حيث تتلاحم **المعرفة بالحب بالاتحاد.**

ويستخدم أثناسيوس هذا التبادل المتصل جدًّا والمتشابك جدًّا بين تعريف الآب للابن في الخليقة وتعريف الابن للآب في الفداء، واسطة لإدراك عمق الاتحاد القائم في الثالوث!! فاستحالة إدراك الابن بدون الآب واستحالة إدراك الآب بدون الابن، هذا الإدراك القائم في صميم اتحاد خلقتنا وفدائنا وخلاصنا وحياتنا يوضِّح مدى استحالة التفريق أو التقسيم في أقانيم الثالوث!!

[**لأن مَنْ يؤمن بالآب فإنه يعرف الابن** في الآب، وهو لا يعرف الروح القدس بدون الابن، لذلك يؤمن أيضاً بالابن والروح القدس، **لأن لاهوت الثالوث واحد وقد أُعلن من واحد، أي من الآب.**](٤٩)

[لأنه كما أن **الإيمان بالثالوث يوحِّدنا بالله**، فكل مَنْ يعتمد باسم الآب وحده أو باسم الابن وحده أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس لا ينال شيئاً بل يظل عديم النفع، ولا يحصل على الانضمام إلى الكنيسة ...

لأنه كما أن المعمودية التي تتم باسم الآب والابن والروح القدس هي واحدة، لأنه يوجد إيمان واحد في الثالوث، هكذا أيضاً الثالوث المقدَّس هو متساوٍ مع ذاته ومتحد بنفسه في وحدة غير متجزِّئة، والإيمان به إيمان واحد.](٥٠)

---

(49) Athanas., *To Serapion* II. 5.
(50) Ibid. I. 30.

ملخّص الفصل الثامن
استعلان الثالوث ووحدانية الله
على مستوى المعرفة عند أثناسيوس

(١) تجسُّد الكلمة كان واسطة لمعرفة الله:

+ فالإنسان بالتعدِّي فقد القدرة على بلوغ «معرفة الله في ذاته»، وبالتالي القدرة على خلاص نفسه.
+ تجسُّد ابن الله كان من أهم أهدافه معرفة الله في ذاته باستعلان الثالوث الأقدس.
+ من أجل هذا أخذ كلمة الله لنفسه جسداً لكي يعطي صورةً مدرَكَةً واقعية ومحسوسة للآب من خلال حياة الابن المتجسِّد وأعماله وأقواله وسلوكه بالجسد «مَنْ رآني فقد رأى الآب».
+ كانت معرفة الله قبل التجسُّد بالتأمُّل في قدرته الإلهية وحكمته الظاهرة في المخلوقات، لأنه ملأ الخليقة كلها في كل مكان بوجوده، ولكن البشر رفضوا هذه المعرفة، وعجزوا عن إدراك الله في خليقته، لذلك تجسَّد ابن الله (كلمة الله وحكمته) لكي يكون جسده أداة يتحد به الإنسان حتى لا يعجز البشر عن أن يدركوه في كل شيء.
+ ولكن حضور الله الكلِّي في الخليقة يشكِّل صعوبة لاهوتية عند اللاهوتيين قديماً وحديثاً، لكون الله منزَّه عن كل عجز في الخليقة. أمَّا عند أثناسيوس فالكلمة هو كل شيء وفي كل مكان، كليًّا وجزئياً، حاضر ومتفوّق معاً، حال في الشيء ومنزَّه عن عجز كل شيء بآنٍ واحد.
+ المسيح هو "ابن الله الذاتي" و"الوحيد"، والله هو "أبوه الخاص" بمعنى "العلاقة المتحدة"، وقد أعلن عنها المسيح مراراً بقوله: «أنا في الآب والآب فيَّ»، «أنا والآب واحد».
+ البنوَّة أو الميلاد لدى البشر وسيلة للوجود، أمَّا عند الله فهو الوجود ذاته. لأن بنوَّة الله لا تحتاج إلى وسيط ولا الميلاد ينتهي بمجرَّد الوجود، مثل البشر.
+ بينما الناس يكونون آباء أولاً بالقدرة ثم بالفعل، نجد الله أباً بالقدرة وبالفعل معاً وبصورة دائمة، لأنه فعل جوهري نابع من جوهر اللاهوت منذ الأزل.
+ لا يوجد في البشر أب وابن بالمعنى الدائم، فالآب كان ابناً والابن سيصير أباً، ولكن في اللاهوت الآب هو آب على الدوام والابن كذلك، لأنهما صفات جوهرية في ذات الله.

+ الابن أزلي في الآب لأن جوهر الآب لا يمكن أن يكون ناقصاً أو غير كامل حتى يُضاف إليه في ما بعد ما هو من خاصته الذاتية.

+ الابن هو الإرادة الحيَّة للآب، والقدرة الجوهرية، والكلمة والحكمة الحقيقية الذي فيه يقوم الكل وتنضبط سائر الأشياء.

+ "الآب في الابن والابن في الآب" بمعنى وحدة الجوهر على الرغم من أنهما أقنومان متمايزان في إله واحد.

+ كل صفات الآب قيلت عن الابن إلاَّ صفة الأُبوَّة، وذلك لأن الابن هو من ذات جوهر الآب وحامل لخواصه، فهو صورة الآب «مَنْ رآني فقد رأى الآب».

+ الأبوَّة والبنوَّة في الله قدرة وتواجد معاً يكوِّنان حقيقة موجودة بذاتها غير مستحدثة كانبعاث الشعاع من النور.

+ الابن هو مسرَّة الآب وموضوع حبه، وحب الله للعالم ومسرَّته لبني الإنسان هما انعكاس خارجي لعلاقة جوهرية في الله بين الآب والابن.

+ الحضور الكلِّي للكلمة في العالم منذ البدء هو تمهيد لإعلان الله عن ذاته من خلال الكون كله أولاً، ثم إعلان الله في الإنسان عندما أكمل الحضور فيه باتخاذه جسد إنسان.

+ لذلك فتجسُّد الكلمة هو تكميل لعمل حضور الله المستمر في الخليقة، وإعلان لقدرة الله واستعداد محبته للاتحاد بالخليقة ممثَّلة في الإنسان المخلوق على صورة الله من أجل تقديسه ورفعه ليصير مثل الله!!

+ بالتجسُّد حل كل ملء اللاهوت جسدياً في المسيح، لأنه كلمة الله المساوي للآب في الجوهر، لذلك فهو واسطة ملئنا نحن أيضاً: «وأنتم مملوؤون فيه».

+ ملؤنا من المسيح هو معرفة الآب والابن: «أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

+ التجسُّد إذن هو المدخل الأخير لمعرفة الله وسر الثالوث الذي هو في الحقيقة سر المجد وسر الحب «الذي يحبني ... أنا أحبه وأُظهر له ذاتي».

+ بالتجسُّد أُزيلت كل معوِّقات المعرفة، إذ أُبطلت كل ضلالات الشيطان، الذي طارده المسيح حتى ظفر به على الصليب، وأُعطي الإنسان سلطاناً على كل أعمال الظلمة والضلال، حتى

يستطيع من خلال نور المعرفة للحق أن يعبد الله ويدركه في ذاته كآب وابن وروح قدس.

+ الدليل العملي على ذلك هو ما نراه في العالم بعد تجسُّد المسيح وموته وقيامته من جهة إبطال ضلالات الشيطان وعبادة الأصنام، وقيام أنظمة العفة والطهارة والعبادة الجماعية، ثم هذا العدد الضخم من الشهداء الذين آمنوا بالخلود وقيامة الأجساد.

(٢) المعرفة الكاملة المتبادلة بين الآب والابن:

+ كل استعلان للابن هو بالضرورة استعلان للآب، كما أن كل استعلان للآب هو نفسه حتماً استعلان للابن، وذلك بسبب الوحدة في الطبيعة والجوهر والإرادة.

+ أثناسيوس يعتمد على الإنجيل في إثبات المعرفة الكاملة والمطلقة والمتبادلة بين الآب والابن.

+ حينما يكون الآب يكون الابن، وكل ما يعمله الآب يعمله من خلال الابن، وكل مَنْ يعمِّده الآب يعمِّده الابن، وكل مَنْ يعمِّده الابن فإنه يتقدَّس في الروح القدس.

+ عمل الخلاص مترتِّب أصلاً على عمل الخلق، فالله الآب الذي خلق كل شيء بكلمته، هو بالضرورة يخلِّص ما قد خلق بكلمته أيضاً.

+ بالرغم من استعلان الله الواضح بالتجسُّد، إلاَّ أنه ليس استعلاناً مطلقاً، بل ظل تدبير الله مخفياً إلى حد ما، لإعطاء الفرصة للإيمان والاختيار.

(٣) الابن "الكلمة" بتجسُّده أعلن الآب، وسيظل يعلنه إلى الأبد:

+ فالابن هو صورة جوهر الآب قبل التجسُّد وبعده وإلى الأبد.

+ التجسُّد مرحلة إعلان وتعريف بالله الآب اضطلع بها الابن من نحو البشرية، من واقع علاقته الجوهرية بالآب.

+ بعد أن يُخضِع المسيح الخليقة كلها للآب سيظل هو صورة جوهر الآب وشعاع مجده الذي لا يعتريه تغيير إلى الأبد.

+ النور والشعاع هما واحد، كذلك الابن الذي هو شعاع مجد الآب، فهو واحد مع الآب.

+ كلمة الله هو فكر الآب وحكمته النابع من ذات جوهر الآب، الذي بواسطته خُلقت كل الأشياء، لذلك فكلمة الله يُعبِّر تعبيراً كاملاً عن كل فكر الآب. فهو الصورة الكاملة للآب.

+ معرفة الآب هي ذاتها معرفة الابن لأنها قائمة على أساس وحدة الجوهر، فالمعرفة الواحدة منبعها الجوهر الواحد والذات الواحدة لله.

+ جلوس الابن عن يمين الآب هو تشبيه مناسب لفهم الإنسان، ولكن معناه هو مساواة الابن في الكرامة والمجد للآب. فالابن حينما يجلس عن يمين الآب يكون دائماً أبداً في الآب والآب فيه.

+ التساوي المطلق صفة جوهرية في الثالوث لا يوجد لها مثيل في الخليقة كلها، و لم يعتريها أي تغيير بتجسُّد الابن الذي هو الواسطة الوحيدة لمعرفة الآب.

+ سبب التجسُّد ليس هو لاستعلان الآب وحسب، بل ولتكميل الخلاص: فالابن تجسَّد ليعلن الآب، والآب يجذب الإنسان سرًّا لمعرفة الخلاص الذي في الابن المتجسِّد يسوع المسيح، بواسطة الروح القدس. لذلك كان عمادنا «باسم الآب والابن والروح القدس».

(٣) كما أن الابن يعلن الآب كذلك الآب أيضاً يعلن الابن، وذلك بسبب العلاقة الجوهرية بينهما القائمة على أساس الحب والتعاطف والسرور، فالابن هو مسرَّة الآب، والآب هو مسرَّة الابن.

+ معرفتنا لسر العلاقة التي تربط الآب بالابن هي مصدر غنى البشرية الفائق من جهة أعلى القيم الأخلاقية والسلوكية عند البشر، التي لا تتم إلاَّ في مجال الحب الإلهي.

+ جميع الأسفار المقدَّسة تقدِّم لنا حلقة متكاملة من استعلانات الله الآب بواسطة ظهورات الابن التي انتهت بتجسُّده، لأنه هكذا أراد الآب أن يعلن عن حبه للعالم حتى انتهى ببذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.

+ دعاؤنا لله باسم "الآب" بقولنا "أبانا"، هو اعتراف ضمني بوجود الابن في الآب، وبأننا أبناء الله، مع كوننا من خليقته، وبهذا الاعتبار صرنا في وضع يفوق كافة الخلائق، وارثين مع المسيح لكل ما للآب.

+ "كل شيء يعمله الآب بالابن في الروح القدس"، هذه هي تسبحة أثناسيوس التي يختم بها كل حديث ويدور حولها كل تفسير، وهي تبيِّن أن عمل الثالوث واحد لا يتجزَّأ.

+ يستحيل إدراك الابن بدون الآب، كما يستحيل إدراك الآب بدون الابن في الروح القدس.

+الآب عرَّفنا بابنه في الخليقة، والابن عرَّفنا بالآب في الفداء.

+ بالرغم من أن الآب هو الذي يعلن الابن سرًّا للإنسان، غير أنه في اللحظة التي ينفتح فيها قلب الإنسان على الله الآب فإنه ينجذب في الحال نحو الابن، فاستعلان الآب سابق لاستعلان الابن ... «لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم يجتذبه الآب».

الفصل التاسع

الإيمان والشهادة للمسيح
كفعلين متلازمين مع المعرفة

عند القديس أثناسيوس

أولاً: الإيمان الصحيح يقود للمعرفة الصحيحة

لقد نشأت مشكلة العلاقة بين الإيمان والمعرفة مبكِّرة في اللاهوت الإسكندري قبل أثناسيوس(١). وقد طُرحت هذه العلاقة مبكِّرة في أيام كليمندس الإسكندري في سؤال مختصر: هل المعرفة تقود إلى الإيمان أو أن الإيمان هو الذي يقود إلى المعرفة؟ حيث المعرفة هنا يقصد بها معرفة الله. وبمعنى آخر كان اللاهوتيون الإسكندريون يطرحون السؤال على أنفسهم كالآتي: هل يتحتَّم عليهم الإيمان قبل المعرفة أم أنه يتحتَّم عليهم المعرفة قبل الإيمان؟

وفي الحقيقة كان كليمندس الإسكندري هو أول مَنْ حسم هذا الأمر في محيط الآباء اللاهوتيين في العالم، **فقد عرَّف الإيمان نفسه كأعلى مستوى للمعرفة، واضعاً الإيمان في كرامة المعرفة، معتبراً أن الإيمان هو الشرط الأساسي والأوَّلي لكل معرفة في ما يختص بـا لله**(٢). بل وإن الإيمان هو القاعدة التي يبني عليها حياته كل مَنْ يريد أن يكون عارفاً (Gnostic) مخلصاً للمسيح.

ولكن بالرغم من صحة هذا الفهم ودقته كتعبير صالح جدًّا للحياة المسيحية، إلاَّ أن القديس أثناسيوس، بحاسته الرسولية وباندفاع الأسقف المسئول عن خلاص الشعب، يضيف على هذا المعنى إضافة غاية في الأهمية، فهو يقول: **إن الذي يقود الإنسان إلى معرفة الله الحقة هو الإيمان فعلاً، ولكن مضافاً إليه حاسة التقوى** ἐν πίστει καὶ εὐσεβεῖ λογισμῷ:

[**لأن التقليد – (ميراث الآباء اللاهوتي) – لا يعلن لنا اللاهوت بإيضاحات كلامية بل بالإيمان، وباستخدام العقل إنما بروح التقوى والوقار**(٣)، لأن بولس قد أذاع إنجيل الخلاص بالصليب: «لا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة» (راجع:

---

(1) G. Zaphiris, *Trinitarian revelation & knowledge of God*, in τομος εορτος, θεσσαλονικη. 1947.

(2) Clement, *Stromata* 1, 9, 45; 5, 12, 82.

(٣) لقد اهتم القديس أثناسيوس جدًّا بعامل التقوى في ما يختص بالإيمان بالله وبالشركة في الروح، معتبراً أن نقاوة القلب أي طهارته هي الأساس الأول الذي يتحتَّم وجوده لكي يكون للإنسان صلة بـا لله: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله». والطهارة أو النقاوة عند أثناسيوس ليست هي المجرَّد الفلسفي الذي كان يفكِّر به أفلاطون أو أفلوطين أو فيلو اليهودي، والذي كان يعتمد على النسك والتقشُّف وجحد الجسديات وحسب، بل الطهارة هي بالانعتاق من سلطان الشيطان، بعمل الروح القدس في المعمودية، وبالاشتراك في أسرار الجسد والدم الإلهي، بجوار حياة النسك. فبهذا تتهيَّأ قوى النفس الداخلية لتتأمَّل في الله وتتحد به. (انظر كتابه: "ضد الوثنيين").

١كو ٢: ٤) ... ومع ذلك فإننا نستطيع مواجهة هذه الصعوبة مبدئياً **بالإيمان، ثم باستخدام الإيضاحات** السابق ذكرها، أقصد:

الصورة = εἰκόνοςἀ والشعاع (البهاء) ἀπαυγάσμος

والينبوع = πηγῆς، ὑποστάσεως ὡήῢῆὡῢὀ

والرسم (التعبير) = χαρακτῆρος[4].[5]]

وهكذا نجد أن من الأمور المسلَّم بها لاهوتياً أن الفكر اللاهوتي الإسكندري هو أول مَنْ اضطلع بكشف العلاقة الصميمية بين الإيمان ومعرفة الله من خلال التقوى، حتى أنه معروف أن جميع لاهوتيي العالم تتلمذوا على هذا الفكر الإسكندري، سواء الذين استقوا العلم مباشرة في مدرسة الإسكندرية أو الذين اكتفوا بالتتلمذ على كتابات آباء الإسكندرية العظام.

والمشكلة قد تبدو بسيطة لأول وهلة أمام القارئ، ولكن الأمر في الحقيقة يحتاج إلى عمق كبير، ليس في الفهم أو التصوُّر أو التفكير، ولكن في اكتشاف العلاقة الحقيقية التي تربط الإيمان بالمعرفة.

صحيح أن الله هو الذي أعلن لنا عن نفسه بواسطة تجسُّد ابنه، فمعرفة ربنا يسوع المسيح هي بالأساس فعل استعلان من أفعال الله المباشرة المؤثِّرة في الفكر الإنساني التي أظهرت الثالوث، ولكن هذا الاستعلان أو هذا الإيمان ـ كفعل من أفعال الله المتجهة نحو الإنسان والمؤثِّرة فيه ـ لا ينشئ من ذاته رد الفعل، أي لا ينشئ بذاته معرفة لدى الإنسان من نحو ابن الله، إذ لابد أن ينفعل الإنسان بهذا الفعل الاستعلاني ويقبل أثره المخلِّص، أي يقبل الخلاص الكامن في معرفة المسيح ابن الله المخلِّص، فينتقل الإنسان من مجرَّد عارف بالمسيح كابن الله إلى شريك في خلاص المسيح الابن الفادي المذبوح على الصليب، أي يصير الإنسان عارفاً مفدياً مخلَّصاً ـ وهذه هي **معرفة الإيمان**.

ولكن حدوث معرفة صادقة للمسيح المخلِّص يصاحبها حتماً تقوى شديدة ووقار، لأن الإيمان بالمسيح المتألِّم والمصلوب يستحيل أن يبقى إيماناً بدون تقوى ووقار، وهكذا نجد أن المعرفة لها شقَّان:

الأول: فعل منحدر من الله لنا كفعل استعلان بوسائط وطرق مختلفة للمعرفة.

الثاني: هو رد فعل من الإنسان نحو الله كمعرفة أيضاً، ولكن محمَّلة بالإيمان والتقوى.

هذا الإدراك العميق للعلاقة بين الإيمان والمعرفة؛ نجده منبثاً في كل أعمال أثناسيوس وبراهينه،

(4) Athanas., *Ad Serap*. 1.20.

(٥) لقد استخدم الآباء اللاهوتيون هذه التعبيرات على نفس النمط الذي استخدم به الرب صوراً عديدة لأمثال ملكوت الله.

فهو لا يغفل أبداً أن الإيمان يتحتَّم أن يسبق المعرفة، بمعنى أنه يستحيل الاقتراب إلى الله عقلياً بدون الإيمان الخاشع التقويّ.

[اتخذوا لكم الرسول معلّماً في هذا الصدد عندما يقول: «يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود، وأنه يجازي الذين يطلبونه» (عب ١١:٦). لم يقل: كيف هو موجود، إنما قال فقط أنه "موجود".](٦)

أثناسيوس هنا يركّز على ثلاثة أُسس للإيمان:
الأول أن **الإيمان** بالله، **يسبق المسير نحوه،**
ثم **الثاني أن الإيمان بمكافأة مَنْ يطلبون الله، يسبق طلب الله.**

أمَّا **الأساس الثالث فهو** أن الإيمان الصحيح بالله والفعَّال، يكون في حدود **الإيمان بالواقع أو بالحال الكائن** ὅτι ἐστίν، وليس الإيمان بكيف كان ويكون πῶς ἐστίν.

ولكن حتى الإيمان ذاته من جهة الإنسان نحو الله، لا يضعه أثناسيوس عارياً من قوة إضافية ممنوحة من الله للإنسان للاستمرار فيه، لأنه يرى استحالة الاتصال بالله بدون الله. فأي فعل إيماني، الذي هو حركة روحية متجهة أو متدافعة من الإنسان نحو الله، يلزم أن يلازمه جذب روحي من الله ليعين ضعف الإنسان المريع في هذا الاتجاه «أومن يا سيد فأعن عدم إيماني.» (مر ٩:٢٤)

وفي شرح أثناسيوس لسفر المزامير، يتعرَّض لهذه الحقيقة، خاصة حينما يستشهد بقول بولس الرسول: «فإذ لنا **روح الإيمان** عينه حسب المكتوب آمنت لذلك تكلّمت، نحن أيضاً نؤمن ولذلك نتكلّم أيضاً.» (٢كو ٤:١٣)

وهنا يقول أثناسيوس إنه يفهم أمرين من قول الرسول:
"روح الإيمان" = πνεύμα πίστεως **إمَّا تدبير من الله في إيمان قادر أن يقود الإنسان نحو الله؛**

أو أن الله يمنح روحاً خاصاً للإنسان الذي يؤمن بالله ليجعله على مستوى المسير نحوه(٧).

ويُلاحظ أن تمسُّك أثناسيوس بقول الرسول: «آمنت لذلك تكلّمت»، إنما يرجع إلى معرفته

(6) Athanas., *ad. Serap.* I, 18.
(7) Athanas., *Exposit. in Psalmos*, 115, 10 (P.G. 27, 473 A).

بالنص على صحته الذي يستشهد به بولس الرسول هنا – كما ورد في إشعياء ٧: ٩ – الترجمة السبعينية – كالآتي: «ولكن إذا لم تؤمنوا فلن تقدروا أبداً أن تفهموا»، ويُلاحَظ أن أوريجانوس استشهد بهذه الآية بالذات في تدليله على أولوية الإيمان على المعرفة[8].

كما أن أثناسيوس بمقابلة هذه الآية الواردة في إشعياء مع ٢كو ٤: ١٣، ومع ما ورد في رومية: «لأن القلب يُؤمَن به للبرِّ (أولاً)، والفم يُعترفُ به للخلاصِ» (رو ١٠: ١٠)، يخرج أثناسيوس بمقولة في علاقة الإيمان بالمعرفة كالآتي:

[في البداية نحن نؤمن وبعد ذلك نعرف – وأخيراً نتكلّم (نشهد) =

πρῶτον πιστεύει τις, εἶτα συνιεί, καὶ μετὰ ταῦτα λαλεῖ][9]

ويعود أثناسيوس – كعادته دائماً – مستشهداً بمنهج المسيح نفسه كما ورد في الإنجيل، ليشدِّد على أن الإيمان، وإن جاء في البداية، فهو لا يقوم من فراغ بل يتأسَّس على قواعد التعليم الصحيح، فالتعليم الصحيح يرافق الإيمان حتى يستطيع الإيمان بعد ذلك أن يعطي معرفة ثم شهادة صحيحة با لله:

[إن المخلِّص لم يأمرهم فقط بالتعميد ولكنه قال: «علِّموهم μαθητεύσατε»، وبعد ذلك فقط «عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»، حتى يصير الإيمان الصحيح عن تعليم، ومع الإيمان الصحيح يأتي التقديس بالمعمودية.][10]

الإيمان فعل نعمة ممتد لمزيد من المعرفة والاستعلان:

الإيمان فعل نعمة، لأنه يفوق في عمله وفي جوهره قدرات الإنسان العقلية. وهو لا يتوقَّف عند حد، إذ أنه بمجرَّد أن يبدأ يستمر في عمله لاكتشاف مزيد من الأمور غير المنظورة.

ويؤكِّد أثناسيوس أنه فعل نعمة يمنحه الله فينا بواسطة يسوع المسيح:

ἵνα τὴν εὐσεβῆ πίστιν, ἣν ἡ τοῦ θεοῦ χάρις ἐν ὑμῖν ἐργάζεται[11]

وإنه لا يكون بالاجتهاد إنما هو تسليم رسولي:

[(في المجمع المقدَّس): "هكذا تؤمن الكنيسة الجامعة" وهكذا اعترف الأساقفة **كيف كانوا**

(8) Origen, *Comment. on Matthew* 16-9.

(9) Athanas., *Exposit. in Psalmos*, 115, 10.

(10) Athanas., *C. Ar.* 2, 42.

(11) Athanas., *Ad. monarchos*, (PG 26, 1188 A).

يؤمنون، مبرهنين على أن إيمانهم ليس هو مجرَّد شعور شخصي مستحدث وإنما هو إيمان الرسل، وأن ما كتبوه ليس هو اكتشافهم الخاص ولكنه هو طبقٌ لما تعلَّموه من الرسل.](١٢)

[والآن اسمح لنا (أيها الإمبراطور) أن نلتزم بما قد تحدَّد لنا مما وضعه آباؤنا الأوَّلون، الذين نتجرَّأ قائلين إننا نثق **في أن كل ما عملوه هو بكل حكمة وفطنة بالروح القدس**.](١٣)

ولأن الإيمان هو فعل نعمة ممنوح من الله بالروح القدس، لذلك فإن الإنسان يستطيع بواسطة نعمة الإيمان أن يستجيب لدعوة الله له، ويقبل شركة الروح القدس، وبالتالي الشركة في الطبيعة الإلهية(١٤).

ولأوريجانوس قول مشهور قريب من هذا المعنى - فيه تظهر النعمة القائمة في الإيمان التي تربط الإنسان بالله - حيث يقول إنه بمجرَّد أن نؤمن بالله نصير أولاد الله(١٥):

[ὅτε δὲ πεπιστεύκαμεν, γεγόναμεν υἱοὶ θεοῦ].

صلاة الإيمان المستقيم – ὀρθή – هي الفعَّالة فقط:

هذا مبدأ هام وضعته الكنيسة وعاشت عليه وتمسَّك به أثناسيوس بوعي لاهوتي، ففي كافة الصلوات الطقسية - حتى في العهد القديم - يبدأ الكاهن حسب التقليد القديم جدًّا ويخاطب الله قائلاً: «**يا رب يا رب**»، ويبدأ يصلِّي - ويلاحظ القارئ الإكليريكي أن هذه البادئة لا تزال قائمة ومعمول بها في بداية صلاة التحليل على التائب:

[نعم «يا رب يا رب» الذي أعطانا السلطان ...] (الخولاجي)

وأثناسيوس يشير بوضوح أن الدعاء باسم "يا رب يا رب" الوارد في إنجيل متى: «ليس كل مَنْ يقول لي **يا رب يا رب** يدخل ملكوت السموات» (مت ٧: ٢١)، هو أصلاً الدعاء الطقسي المتعارف عليه والمعمول به آنئذ.

فأثناسيوس يقصد أن الصلاة بالدعاء باسم الرب حسب طقس الصلاة كما هو في المعمودية مثلاً، يكون ذا أثر فعَّال، ويمنح الميلاد الثاني بغسل الماء وموهبة الروح القدس بوضع اليد

(12) Athanas., *De Synod.* 5, 10: 5b.

(13) Ibid.

(14) Athanas., Fragm. ex. *Comment. in Psalmos*, 46 (P.G. 27. 568 A.C.).

(15) Origen, *Homil. in Jerem.*, 9. 4.

(الميرون)، شريطة أن يكون **الإيمان بالرب بالنسبة لمعطي العماد وآخذ العماد هو إيمان صحيح مستقيم ὀρθή أنه ابن الله المساوي للآب في الجوهر.**

الإيمان الصحيح يأتي مع التعليم الصحيح ليبلغ فعل التقديس بالنعمة:

[حيث أن الجميع يحتاجون إلى النعمة من الله ...،

والبحث إذ يسوقنا الآن أن نذكر المعمودية المقدَّسة، فإنه من الضروري أن نعلن ما نؤمن به: إن اسم الابن يذكر مع الآب ليس لأن الآب غير كافٍ بذاته، أو كأنه ليس بدون معنى، أو كأنه بالصدفة، ولكن لأن الابن هو كلمة الله وحكمته وبهاؤه، وهو بذلك قائم دائم أبداً مع الآب، لذلك **فإنه يستحيل إذا كان الآب يمنح نعمة أن يعطيها بدون الابن،** لأن الابن هو في الآب كبهاء النور أي الشعاع القائم في النور،

ولا كأنه عن حاجة يُذكر الابن مع الآب، ولكن لأن الآب هو دائماً في حكمته الخاصة، هكذا خلق الله العالم وصنع كل شيء بكلمته، كذلك فإنه وهب المعمودية المقدَّسة في ابنه، لأنه أينما وُجدَ الآب وُجدَ الابن، كما أنه يوجد الشعاع أينما يوجد النور، فكل ما يصنعه الآب يصنعه بابنه. كذلك فإنه حينما تُمنح المعمودية، فإن كل مَنْ يعمِّده الآب فإنه يعتمد بالابن، وكل مَنْ يعمِّده الابن فإنه يتقدَّس بالروح القدس،

إذن، فهؤلاء يعرِّضون للخطر كمال وملء هذا السر أعني المعمودية، لأنه إذا كان التقديس يُعطَى لنا باسم الآب والابن، وهم في معموديتهم لا يعترفون بالآب الحقيقي إذ أنهم ينكرون الابن القائم فيه ومن جوهره، منكرين بذلك أنه حقيقي، وبذلك يذكرون اسم ابن آخر من تركيب خيالهم باعتباره مخلوقاً من العدم، أفلا يكون الطقس الذي يجرونه كله بكامله فارغاً وغير نافع لشئ؟ صانعين بذلك مظهراً - للمعمودية - مجرد مظهر، وهو في الحقيقة لا يفيد نفعاً من جهة الدين. لأن الأريوسيين لا يعمِّدون باسم الآب والابن في الحقيقة، بل باسم خالق ومخلوق، أي باسم صانع ومصنوع.

لذلك فليس ببساطة كل مَنْ يقول: "يا رب"، يمنح المعمودية (لفلان) بل الذي، مع الدعاء بالاسم، له أيضاً الإيمان الصحيح.

وعلى هذا الأساس بالذات فإن مخلِّصنا الصالح، عند إعطائه الوصية بالعماد، لم يأمر هكذا ببساطة أن يعمدوا؛ بل قال "علموهم" - أولاً - ثم "عمِّدوهم باسم الآب والابن

والروح القدس" حتى أن الإيمان الصحيح يصير عن تعليم ومع الإيمان الصحيح يأتي التقديس بالمعمودية.](١٦)

الإيمان الصحيح بالمسيح في مفهوم أثناسيوس هو من داخل الثالوث:

[إن الثالوث غير قابل للتجزئة، وإنه متساو، لذلك يلزم أن تكون قداسته واحدة، وأن تكون أبديته واحدة وطبيعته واحدة غير متغيِّرة، لأنه كما أن الثالوث واحد حسب الإيمان المسلَّم إلينا وهو يوحِّدنا بالله، وكما أن مَنْ ينتزع شيئاً من الثالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن دون الروح القدس، **لا ينال شيئاً** بل يظل عديم الجدوى، ولا يُحسب **أنه انضم** إلى الكنيسة (أي صار عضواً في الجسد)، سواء كان الشخص المعتمد أو الذي يدَّعي أنه ضمه (أي كلٌّ من المعمِّد والمعتمد يكونان فاقدين عضويتهما في الكنيسة، أي في جسد المسيح)، هكذا كل مَنْ يفصل الابن عن الآب، أو مَنْ يُدنّي الروح القدس إلى مستوى المخلوقات، بل لا يكون له الابن ولا الآب، وهو بلا إله، ويكون أشر من غير المؤمن، ولا يُحسب أنه مسيحي.](١٧)

وهنا يلاحظ أن أثناسيوس يسرد لنا بالحرف الواحد قانون الرسل رقم ٤٦و٤٧.

كما ويلزمنا جدًّا أن نفهم من قول أثناسيوس هذا أن مسألة الإيمان ليست منطوقاً ولا مجرَّد نظرية فكرية، بل هنا فعل التقديس وأثره في الإنسان للتجديد ولقبول الاتحاد السرِّي بالكنيسة وبالتالي بجسد المسيح بل وبالثالوث نفسه، يتوقَّف أساساً على نية الضمير ومدى انطباق الحق الإلهي المعلن في الإنجيل وقوانين مجمع نيقية على ما يضمره الإنسان، سواء الذي يمنح المعمودية أو الذي يتقبَّلها.

الإيمان، بالإضافة إلى أنه نعمة، فهو يعتمد على حالة أو تدبير النفس الداخلي:

وهنا أثناسيوس ينضم إلى القديس أنطونيوس في الإعلان عن هذه الحقيقة، مقارناً بين معرفة الله الصحيحة التي تنبع من الإيمان العميق بتدبير النفس الداخلي، وبين الإيمان الذي يصدر عن مجرَّد الجدال والمحاجاة العقلية.

[كيف يمكن إدراك الله عن معرفة دقيقة؟ هل يكون بواسطة البرهان بالمحاجاة أو بعمل الإيمان، ثم ما هو الأفضل؟ هل الإيمان المتولد من عمل الله الداخلي أو من البرهان

(16) Athanas., *Contra Arian,* II, 41, 42.

(17) Athanas., *Ad. Serap.*, 1:30.

والمحاجاة؟ فعندما أجابوا أن الإيمان المتولّد من عمل الله الداخلي هو الأفضل والأكثر دقة للحصول على المعرفة، أجابهم أنطونيوس: "**أنتم الآن أجبتم حسناً، لأن الإيمان ينشأ من حالة وتدبير النفس، أمّا الجدل فهو مجرَّد اختراع الأذكياء.**

أمّا الذين لهم عمل الإيمان الداخلي فلا حاجة لهم إلى الجدل والبرهان بالمحاجاة، بل ويكون لهم ذلك نافلة. **لأن الذي نعمله بواسطة عمل الإيمان الداخلي تحاولون أنتم أن تحقّقوه بالكلمات، وغالباً ما تعجزون حتى عن التعبير عمّا ندركه نحن** (باليقين). **لذلك فإن عمل الإيمان الداخلي هو أفضل وأقوى من محاجاتكم التي تحترفونها".**](١٨)

يُلاحَظ هنا أن أثناسيوس لا يضع الإيمان العملي نقيضاً للبرهان العقلي أو الجدل الفكري، بل يجعل من الاتجاهين مجرَّد مفاضلة. وحتى هذه المفاضلة لا يجعلها متعارضة بل يحاول أن يجعل الواحدة مكمِّلة للأخرى، إنما يضع الإيمان في المقدِّمة.

كما يُلاحَظ أن أثناسيوس ينسب معرفة الله بالإيمان إلى عمل الله الفطري في النفس، وكأنها مخلوقة على هذا الاستعداد. أمّا الجدل والمحاجاة في ما يختص بمعرفة الله، فينسبها أثناسيوس إلى حذق الفكر وفي دائرة الاختراع وكأنه صنعة أو احتراف للأذكياء.

كما يحاول أن يصوِّر لنا من بعيد أن الجدل والمحاجاة حول معرفة الله تظل أعمالاً خارجية بالنسبة لأعماق النفس، في حين يصوِّر الإيمان أنه حركة تكاد تكون طبيعية ومن الله في أعماق النفس. وبهذا يعتمد أثناسيوس بشيء من الثقة والتأكيد على المعرفة المتأنِّية من الإيمان، بعكس المعرفة الأخرى المتولِّدة من الجدل والمحاجاة والبرهان، فيجعلها غير موثوق بها.

غير أن أثناسيوس يشير إشارة غير مباشرة إلى نوع من الضرورة نحو استخدام البرهان والمحاجاة، لوضع صيغ من الكلمات تشرح مضمون ذلك الإيمان الذي يدركه المؤمنون بأعماق قلوبهم. ولكن غالباً ما يكون هناك عجز وقصور عن بلوغ التصوير الكامل لحقائق الإيمان بالكلمات.

الإيمان بالمسيح فعَّال، ولكن إيمان البرهان والعقل هو بدون فعل:

ثم يبدأ أثناسيوس ليضع اللمسة الأخيرة والقوية والعملية بين إيمان عملي داخل النفس يكون من الله بواسطة المسيح، يستطيع أن يعلن معرفة الله، ويضبط النفس من الشهوة، ويحفظ البتولية،

(18) Athanas., *St. Antony* 77.

ويخرج الشيطان؛ وبين إيمان فكري ببرهان الحجة والمنطق عاطل من كل هذا هكذا:

[لذلك **فنحن المسيحيين نتمسَّك بالسر، ليس بالحجج الفلسفية، بل في قوة الإيمان المعطى لنا بغنى من الله بواسطة يسوع المسيح ...**

وللتدليل على أن إيماننا فعَّال هوذا نحن الآن مدعَّمون بالإيمان بالمسيح، أمَّا أنتم فتعتمدون على مماحكاتكم الكلامية ... نقول:

متى ازدهر ضياء معرفة الله، أو متى ظهر ضبط شهوات النفس وسمو حياة البتولية؛ أو متى احتقر الموت، إلاَّ عندما ظهر صليب المسيح؟

هذا مما لا يشك فيه أحد، حينما يُرى الشهيد محتقراً الموت من أجل المسيح، وتُرى عذارى الكنيسة حافظات أنفسهنَّ طاهرات وبلا دنس من أجل المسيح ... وعلى أي حال فإننا نقدِّم برهاناً كما كان يفعل معلِّمنا بولس الرسول: «لا بكلام الحكمة الإنسانية **بل ببرهان الروح والقوة**» حتى نُقنع الناس بأن الإيمان يسبق براهين المحاجاة: هوذا هنا بعض المعذَّبين بالشياطين ... فهل تستطيعون تطهيرهم بالحجج ...؟! وإلاَّ كفُّوا عن منازعتنا إن عجزتم لتروا قوة صليب المسيح. قال هذا ودعا المسيح ورشم المرضى مرَّتين أو ثلاثة بعلامة الصليب، وللحال وقف الرجال أصحاء بعقلهم السليم وقدَّموا الشكر للرب في هذه اللحظة.

أمَّا أنطونيوس فقال: «لماذا تتعجَّبون من هذا؟ **لسنا نحن الذين نعمل هذه الأمور، ولكن المسيح هو الذي يعملها بواسطة مَنْ يؤمنون به،** لذلك آمنوا أنتم أيضاً لكي تروا بأنفسكم أنه **ليس لدينا حيل كلامية بل الإيمان عن طريق المحبة** التي وجدت فينا نحو المسيح والتي إن حصلتم عليها أنتم أنفسكم لما طلبتم في ما بعد حججاً منطقية بل اعتبرتم الإيمان بالسيد المسيح كافياً».](١٩)

الإيمان بالمسيح هو الذي يعلن لنا الثالوث، ويؤهِّلنا للاتحاد بالثالوث:

أثناسيوس يضع حجر الأساس في المسيحية الذي يقوم عليه صرح الإيمان كله، وهو أن الإيمان بالمسيح يؤهِّلنا **للاتحاد بالله:** συνάπτει τῷ θεῷ

(19) Athanas., *St. Antony* 78 & 79.

بل إن قصد أثناسيوس هو في الحقيقة أعمق من هذا، إذ يود أن يقول إن الإيمان بالمسيح إذا كان صحيحاً، فهو حالة اتحاد فعلي بالله، وذلك دون أن يتطرَّق الذهن إلى أي احتمال يتجاوز الفرقة الشاسعة بين الله والإنسان.

فاتحاد الإنسان بالله ـ بحسب فكر أثناسيوس ـ لا يُفقِد الإنسانَ هويته، ولا يعطيه هوية الله، ولكن بسكنى الروح القدس بصفة دائمة في الإنسان يصير الإنسان متحداً بالله.

ولكن الله لَمّا منح الإنسان هذه الصلة السرية العميقة القائمة في المسيح، ابنه الوحيد المتجسِّد، **أصبح الإيمان بالمسيح (ونوال الروح القدس) هو القوة الجاذبة للإنسان حول الله، وذلك حسب حرية إرادة الإنسان، وبقدر عمق هذا الإيمان الذي هو سمة من سمات حرية أولاد الله.** لأن الروح القدس الذي يقبله الإنسان بحرية إرادته يظل يعمل في دائرة هذه الحرية.

[إن **الإيمان** بالثالوث المسلَّم إلينا، **يوحِّدنا (يتحدنا) بالله.**](٢٠)

[وحينما قال المخلِّص من نحونا: «كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ١٧:٢١)، فهو لا يعني قط من هذا أننا نصبح مماثلين له أو لنا نفس هويته، ولكن الأمر **لا يتعدَّى ابتهالاً** إلى الآب ـ كما كتب يوحنا ـ **لكي يهب الروح القدس لكل مَنْ يؤمن به ـ هذا الروح الذي من خلاله وبواسطته ـ فقط ـ نوجد في الله. وهكذا وبهذه الكيفية نصبح واحداً فيه ومتحدين به**](٢١) = τὸ Πνεῦμα χαρίσται δι' αὐτοῦ τοῖς πιστεύουσι, δι' οὗ καὶ δοκοῦμεν ἐν τῷ θεῷ γίνεσθαι, καὶ κατὰ τοῦτο συνάπτεσθαι ἐν αὐτῷ.] (PG 26.376A)

الإيمان بالمسيح، عند أثناسيوس، يعني العبادة
حيث تتحوَّل المعرفة إلى خلاص وحياة أبدية:

إن كانت محصِّلة المعرفة عند أثناسيوس هي الإيمان، فالإيمان يعني العبادة.

[حينما نعبد المسيح فنحن لا نعبد مخلوقاً، حاشا أن يكون هذا، لأن هذا الخطأ في احتساب المسيح مخلوقاً هو من صنع الوثنيين والأريوسيين، **أمَّا نحن فنعبد رب الخليقة، كلمة الله، المتجسِّد.** لأنه وإن كان جسد المسيح هو فعلاً جزء من الخليقة إلاَّ أنه صار

(20) Athanas., *Ad. Serap.* I, 30.
(21) Athanas., *Contra Arian,* III, 25.

جسداً لله، ونحن لا نفرِّق الجسد من الكلمة ونعبده كجسد وحسب، ولا نحن حينما نريد أن نعبد الكلمة نفصله بعيداً عن الجسد، ولكن إذ نعلم أن «الكلمة صار جسداً»، فنحن نحتسب **الكلمة إلهاً أيضاً، حتى بعد أن جاء في الجسد.** لأنه مَنْ ذا يكون عديم العقل لدرجة أنه يقول للرب: "أرجوك أن تترك جسدك حتى أستطيع أن أعبدك"؟ أو نكون بوقاحة اليهود عديمي العقل، الذين بسبب الجسد خاطبوه قائلين: فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً (يو ١٠:٣٣).

ولكن حينما نأتي إلى الأبرص نجده ليس من هذا الصنف، إذ نجده **يَعبد الله في الجسد،** مدركاً تماماً أنه الله، قائلاً: «يا سيد إن أردت تقدر أن تطهِّرني» (مت ٨:٢). وبذلك نراه غير متعوِّق في إيمانه بسبب الجسد عن إدراك أنه كلمة الله الخالق كل الخليقة. ولا هو ظن بسبب ازدرائه للجسد أن كلمة الله مخلوق! بل نجده **يعبد الخالق للعالم كساكن في هيكله المخلوق، لذلك وبذلك تطهَّر الأبرص!!**

- كذلك أيضاً في أمر المرأة نازفة الدم، التي لمَّا آمنت اكتفت بلمس أطراف ثوبه فشُفيت (مت ٩:٢٠).
- والبحر بأمواجه المزبدة التي لمَّا سمعت صوت الكلمة المتجسِّد، أوقفت عصفها (مت ٨:٢٦).
- والإنسان المولود أعمى حينما تقبَّل الطين الممزوج ببصاق الكلمة شُفي.
- والأعظم والأكثر إثارة حينما كان الرب **معلَّقاً على الصليب بالجسد والكلمة فيه،** لمَّا أبصرت الشمس هذه الفعلة أخفت نورها وحلَّلها السواد، والأرض تزلزلت والصخور تشقَّقت، وحجاب الهيكل انشق، وكثير من أجساد القديسين النائمين قاموا ... هذه وهي ـ (بحسب الظاهر) ـ أمامها إنسان معلَّق إلاَّ أنها ـ (بحسب الحقيقة) ـ كانت تواجه خالقها!! والصوت الذي كان يُسمع، صوت إنسان، ولكن لم يمنعها أن تستجيب له، ولم تحسِبْ كالأريوسيين أن "الكلمة" مخلوق. هذه كلها ارتعدت.
- ولكن غير الأتقياء لا يخافون (وصدق فيهم قول القائل): «وكما لم يستحسنوا أن يُبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهنٍ مرفوضٍ ليفعلوا ما لا يليق.» (رو ١:٢٨)

إن الخليقة لا تعبد مخلوقاً، **وليس بسبب الجسد نحجم أن نقدِّم السجود، «لأنه لاسم يسوع المسيح تسجد - وستسجد - كل ركبة ما في السموات وما على الأرض وما تحت الأرض (الأموات)، وكل لسان سيعترف - رضي الأريوسيون أو لم يرضوا - أن يسوع هو رب لمجد الله الآب.»** (في ٢: ١٠و١١)

إذن، فالجسد لا يُنقص شيئاً من "مجد الكلمة"، حاشا، بل على العكس، فالجسد يمجِّده، ولا أن الابن الذي هو في الهيئة مساوٍ لله حينما أخذ هيئة العبد يكون قد فقد لاهوته، بل على العكس فإنه صار مخلِّصاً لكلِّ جسد وكل خليقة.

وإن كان الله قد أرسل ابنه مولوداً من امرأة، فهذا الحق لا يسبب لنا خجلاً، بل على النقيض قد سبَّب لنا مجداً ونعمة عظمى. لأنه **صار إنساناً لكي يؤلِّهنا في نفسه، وإن كان قد حُمل به من امرأة ووُلِدَ من عذراء**، فذلك لكي يحمل جيلنا الخاطئ في نفسه، ونصير منذ الآن فصاعداً جنساً مقدَّساً، «وشركاء في الطبيعة الإلهية» كما كتب المغبوط بطرس (٢بط ١: ٤)، «وفيما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان ضعيفاً بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد.» (رو ٨: ٣)

ونحن إذ نرى كيف أن **الجسد قد اتخذه الكلمة ليخلِّص بواسطته كل البشر، مُقيماً الجميع من بين الأموات صانعاً فداءً للخطايا، أفلا** يظهر من هذا كيف أصبح تحت الدينونة أُولئك الذين يحتسبون ابن الله مخلوقاً أو مصنوعاً - من أجل الجسد الذي اتخذه - مستخفين بذلك، فصاروا غير شكورين ومستحقين لكل غضب؟

هؤلاء بلغوا من الشطارة إلى الحد الذي به وكأنهم يخاطبون الله قائلين: "لا ترسل لنا ابنك الوحيد في الجسد، ولا تجعله يأخذ جسداً من العذراء لئلاَّ يفدينا من الموت والخطية. فنحن لا نطيق أن يأتي إلينا في الجسد لئلاَّ يجوز الموت عنَّا، فنحن لا نرغب قط أن يصير الكلمة جسداً لئلاَّ بواسطة الجسد يصير لنا شفيعاً ووسيطاً يوصِّلنا إليك، فنستوطن منازل السموات. بل يا ليته تنقفل أبواب السموات لئلاَّ يستطيع (كلمتك) أن يكرِّس لنا الطريق إلى هناك بواسطة الجسد (الحجاب الموصِّل) (عب ١٠: ٢٠)".

نعم هذه هي صرخاتهم منطلقة بجرأة شيطانية، من جراء الخطية التي يبيتون عليها.

لأن كل من لا يريد أن يعبد الكلمة الذي صار جسداً، فهو يبقى غير شكور بسبب أنه

صار إنساناً.

وأولئك الذين يفرِّقون الكلمة من الجسد، لا يدركون أن (بِهِمَا) صار فداء واحد من الخطية، (وبِهِمَا) صار إلغاء واحد للموت!

وهل أمكن لهؤلاء غير الأتقياء أن يروا ـ مرَّة واحدة ـ المخلِّص بغير جسده الذي اتخذه لنفسه، حتى يتجرَّأوا ويقولوا: "نحن لا نستطيع أن نعبد الرب في الجسد بل نحن نفصل الجسد لنعبد "**الكلمة**" وحده"؟

ولماذا إذن رأى المطوَّب استفانوس السماوات مفتوحة والرب قائماً عن يمين الله؟ (أع ٧:٥٥)، أو أن الملائكة تقول للتلاميذ (وقت الصعود): «سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أع ١:١١)، والرب نفسه يقول مخاطباً الآب: «أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو ١٧:٢٤)

وهكذا وبكل تأكيد، فإن الجسد إذ كان غير منفصل عن الكلمة، فإنه يتحتَّم على هؤلاء، إمَّا أن يقلعوا عن خطئهم **ليعبدوا الآب في اسم الرب يسوع المسيح، وإلاَّ فإن كانوا يحجمون عن عبادة "الكلمة الذي صار جسداً" فإنهم سينطرحون خارجاً**، ولا يُحسبون مسيحيين على أي وجه بل مع اليهود أو الوثنيين يُحسبون.

أمَّا نحن فإيماننا حق ومستقيم، ويبدأ من تعاليم الرسل وتقليد الآباء مثبَّتاً بالعهد الجديد والقديم معاً!

فهكذا يقول الأنبياء:

+ «أرسل نورك (كلمتك) وحقك.» (مز ٤٣:٣)

+ «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (الذي تفسيره الله معنا).» (إش ٧:١٤)،

وماذا يعني هذا، إذا لم يكن الله قد جاء في الجسد؟

والتقليد الرسولي يعلِّم بكلمات بطرس الرسول: «فإذ قد تألَّم المسيح بالجسد»، وبما كتب بولس الرسول أيضاً: «**منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلِّصنا يسوع المسيح**، الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي يفدينا من كُلِّ إثمٍ، ويطهِّر لنفسه شعباً خاصًّا غيوراً في أعمالٍ حسنةٍ.» (تي ٢: ١٣و١٤)

وكيف يكون قد بذل نفسه إذا لم يكن قد لبس جسداً، لأنه لَّما **قدَّم جسده** قيل إنه **بذل نفسه** من أجلنا حتى يكمل الموت فيه: «لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (عب ٢:١٤). من أجل هذا **نحن نقدِّم الشكر باسم ربنا يسوع المسيح ولا نتلف النعمة التي صارت لنا بواسطته، لأن بمجيء المخلّص بالجسد صار الفداء والخلاص لكل الخليقة.**

إذن، ضعوا هذا في أنفسكم أيها الأحباء كل مَنْ يحب الرب، أمَّا الذين يقتفون أثر يهوذا ويجحدون المسيح لينضموا إلى قيافا فليتهم يخزون.

وليعلموا أننا **في عبادتنا للرب، وهو في الجسد**، لا نعبد مخلوقاً، ولكن كما قلنا **نحن نعبد الخالق الذي لبس جسداً مخلوقاً.**

ونحن نطلب من قداستكم أن تسألوهم: حينما أمر الرب شعب إسرائيل ليذهبوا إلى أُورشليم ليعبدوا - الله - في هيكل الرب، أين كان التابوت؟ «الذي كان فوقه شاروبيم المجد مظلِّلاً كرسي الرحمة (غطاء التابوت (Elasterion)» (انظر عب ٩:٥). هل انصاعوا للأمر كما ينبغي أم لا؟ فإذا كانوا هم لم ينصاعوا للأمر، واحتقروه، كم كان العقاب المحتَّم الذي كانوا سيُستهدفون إليه؟ لأنه مكتوب: إن مَنْ استخف بذلك ولم يصعد فإنه يُباد من وسط الجماعة (لا ١٧:٩، عد ٩:١٣).

والآن كم هو مستحق للإبادة مضاعفاً كل مَنْ **لا يعبد الرب في الجسد كما في هيكل؟** مع أن الهيكل الأول شُيِّد من حجارة وذهب وكان ظلاً للحقيقة، أمَّا الآن وقد جاء الحق وتوقَّف المثال منذ لحظة مجيئه حتى أنه حسب قول الرب لا يُترك ههنا حجر على حجر لا يُنقض (مت ٢٤:٢).

فإن كان الإسرائيليون لَّما رأوا هيكل الحجارة لم يقولوا إن الرب الذي تكلَّم فيه كان مخلوقاً، ولا هم نقضوا الهيكل ولغوه وابتعدوا عنه ليعبدوا الرب بعيداً عنه، بل جاءوا إليه حسب الناموس وعبدوا الله الذي نطق بالوصايا من داخله. فإن كان الأمر هكذا، **فكيف لا يكون موافقاً وحقاً أن نعبد جسد الرب، كلّي القداسة، وكلّي الاحترام كما هو حقًّا،** وكما أُعلن عنه بواسطة رئيس الملائكة غبريال: **أنه - أي الجسد - من الروح القدس مصنوعاً مسكناً للكلمة.**

ثم ألم تكن هي، على كل حال، يدٌ جسدية تلك التي مدَّها "الكلمة" وأقام بها حماة سمعان وهي مطروحة مريضة بالحمَّى؟ (مر ١:٣١)، وألم يكن هو صوت بشري ذلك الذي أقام لعازر من الموت؟ (يو ١١:٤٣).

ومرَّة أخرى نراه وقد مدَّ كلتا يديه على الصليب فصرع رئيس سلطان الهواء وأسقطه - الذي لا يزال يعمل الآن في أبناء المعصية (أف ٢:٢) - ومهَّد وأنار لنا الطريق إلى السماء.

ولهذا، فإن كل مَنْ يزدري بالهيكل يزدري بالرب الساكن فيه، تماماً كالذي يفصل الكلمة عن الجسد فإنه بذلك ينهي على النعمة التي وُهِبَتْ لنا فيه.

وليلتفت الأريوسيون المنكرون للاهوت المسيح - لأنه يستحيل أن يكون كلمة الله مخلوقاً، ولكنه اتخذ لنفسه جسداً مخلوقاً، ليحييه، لأنه أي قوة أو أي معونة يمكن لمخلوق أن ينالها من مخلوق هو نفسه يحتاج لمن يخلِّصه؟

ولكن لأن الرب هو الكلمة الخالق وهو الصانع للخليقة، لذلك فإنه عند اكتمال الدهور (عب ٩:٢٧) لبس هذا الجسد المخلوق، لكي وهو الخالق يعود ويقدِّس خليقته وينقذها (من اللعنة والموت والفساد).

ولكن، مخلوقٌ لا يمكن أن ينقذ أو يخلِّص مخلوقاً من الفساد، إن لم يكن هو كلمة الله الخالق. لذلك فليت الجاحدين (للاهوت المسيح) لا يفترون على الكتب المقدَّسة ولا يبلبلون الإخوة البسطاء.

لأن إيمان الكنيسة الجامعة يعلِّم أن "كلمة الله" هو خالق وصانع كل الأشياء، كذلك نحن نعلم أن "الكلمة كان في البدء وكان الكلمة عند الله". **فإن كان قد صار في ملء الزمان أيضاً إنساناً من أجل خلاصنا، فنحن نعبده ليس كأنه لمَّا صار في الجسد تساوى مع الجسد، ولكنه السيد أخذ هيئة العبد، والخالق أتى في مخلوق.** لكي عندما يخلِّص كل شيء يُحضر العالم إلى الآب جاعلاً الكل في سلام ما في السموات وما على الأرض. **ولهذا نحن ندرك لاهوته كالآب تماماً، ونعبد حضوره الجسدي** - ونصر على ذلك - مهما تجنَّن الأريوسيون حتى ولو مزَّقوا أنفسهم! ...][٢٢]

(22) Athanas., *Letter LX to Adelphius.*

الإيمان الصحيح، عند أثناسيوس، لا يقوم على فهم شخصي،
ولا على مشيئة شخصية، ولا على إرادة ومشورة خاصة،
بل على تسليم صحيح للتقليد الكنسي الرسولي، ويؤدِّي إلى معرفة صحيحة:

كان صراع أثناسيوس ضد الأريوسيين وغيرهم من المنشقين يمثِّل في حقيقته وجوهره صراعاً بين نوعين من الإيمان: **إيمان الكنيسة المتحفِّظة الذي يقوم على تسليم حسب تعليم الإنجيل، وهذا يضمن معرفة حقيقية بالله، إيمان عاشه القديسون وتمسَّكوا به**، وإيمان يقوم على المعرفة **الخاصة** والحكم **الشخصي** والإرادة **الخاصة** لدى الخارجين على الكنيسة، وهذا أدَّى إلى كفر.

وأثناسيوس يهاجم بشدة محاولة الهراطقة لوضع قانون للإيمان شخصي، أي من عندهم، فيسميه **قانون عدم التقوى الشخصي، أو الوقاحة الشخصية**. وهو يركِّز دائماً:

(١) على كلمة الشخصي = "τὰ ἴδια"، في مقابل التسليم التقليدي.
(٢) وعلى كلمة المشيئة الخاصة = "ὡς οὗτοι θέλουσι"، في مقابل مناداة أو كرازة الكنيسة = "ὡς ἡ ἐκκλησία κηρύσσει".
(٣) وعلى كلمة الإرادة المنفسمة (المشورة والمؤامرة): ἃ βούλονται (ex parte)، في مقابل القانون الإلهي.

[فإنهم وهم مدفوعون من قبل إدراكاتهم – أو بالحري عدم إدراكاتهم – النابعة من هوى قلوبهم **الخاصة**، يركنون إلى صفحات من الكتب المقدَّسة، ولكن بسبب عجز معرفتهم لا يفهمون معناها بل يقرِّرون كفرهم بمقتضى ما يستقرئونه منها ويعتبرونه "قانوناً" قائماً على الشرح والتفسير. ثم يحشرون كل أقوال الكتب المقدَّسة لكي تسير على المعنى الذي يريدونه، أمَّا هذا المنهج فأقل ما يُقال عنه هو ما قيل لليهود سابقاً: «تخطئون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله» (مت ٢٢:٢٩).][(٢٣)]

ويفضح أثناسيوس إيمان الأريوسيين، أنه تأليف خاص ليوافق مشيئتهم الخاصة، ويشدِّد أيضاً على كلمة **المشيئة الخاصة** "ὡς οὗτοι θέλουσι" في مقابل **قانون إيمان الكنيسة "العام"** (الكاثوليكي: Catholic).

[هنا أيضاً يبرزون **تزييفاتهم الخاصة**، ويقنعون أنفسهم أن الآب والابن ليسا واحداً، كما

(23) Athanas., *Contra Arian,* I, 52.

تعلّم الكنيسة الجامعة، ولكن حسب مشيئتهم هم: ὡς οὗτοι θέλουσι.](٢٤)

أثناسيوس يحذّر من سموم الهراطقة التي زرعوها في حقل الإيمان المسلّم من القديسين:

[لقد جعلوا لغة الكتاب المقدّس مـادة لادعـاءاتهم، **وبـدل المعنـى الحقيقـي الصـادق النقـي زرعوا في وسطه** (مت ١٣: ٢٥) **سُمَّهم الخاص** τὸν ἴδιον **لهرطقتهم.**](٢٥)

[ولكونهم قد انحرفوا بالقضايا الإلهية ودسُّوا عليها تفسيرات خاطئة **بحسب مفهومهم الخاص** κατὰ τὸν ἴδιον νοῦν، أصبـح لزامـاً علينـا أن نواجههـم بـالقدر الـذي يسـمح أن نوضِّح ونفنِّد هذه الروايات الإنجيلية، ونبرهن على **أصالة المفهوم الأرثوذكسـي القـائم فيها**، موضِّحين مدى خطأ هؤلاء المقاومين.](٢٦)

أثناسيوس يؤكّد أن كفر الهراطقة كان كفراً مقصوداً ومتعمّداً بروح العداوة (الشيطانية) للمسيح:

[أيها الأعداء للمسيح واليهود غير الشكورين ... الذين جعلوا الصفـات البشـرية الـتي ظهـر بها المسيح أساساً لانحطاط تصوراتهم الفكرية في ما يخص ابن الله، قائلين بأنه كـان بجملتـه إنساناً مخلوقاً من تراب الأرض وليس من السماء، ولم يعبأوا بأعماله الإلهية ليدركـوا حقيقـة "الكلمة" **القائم في الآب حتى يتوبوا عن كفرهم الإرادي** "τὴν ἴδιαν ἀσέβειαν".](٢٧)

[علماً بأن كل مَنْ يتكلّم من ذاته ἐκ τῶν ἰδίων فإنه إنما يتكلّم كذباً.](٢٨)

ويعود أثناسيوس يوضِّح أن إيمان الهراطقة هو نتيجة مشورة لإرادة منقسمة، ومؤامرة وخيانة متعمَّدة:

[وبينما الأمور تجري هكذا انسحبنا من وسطهم كما من وسط **جماعـة خونـة، لأن كـل مـا كان يخطر على بالهم كانوا يتمِّمونه، ومعلوم قطعاً لدى كل إنسان أن كل مـا يخـرج مـن وسط الانقسامات لا يمكن أن يكون صالحاً** (ex parte)، هذا ما يؤكّده القانون الإلهي (يع ٣: ١٤و١٥و١٦) ...

وهؤلاء حالاً خرجوا خارجاً ـ مثل اليهود ـ **وأخذوا يتشاورون معاً وحدهـم (وليـس**

(24) Ibid. III. 10.
(25) Ibid. I. 53.
(26) Ibid. I. 37.
(27) Ibid. III. 55.
(28) Athanas., *Contr. Apoll.*, I.

مع الله) كيف يحطّموننا ليبثوا هرطقتهم كما سعى اليهود سابقاً لإطلاق باراباس.](٢٩)

ما هو القصد من "قانون الإيمان"، عند أثناسيوس:

كان القصد الأساسي من استخدام أثناسيوس "لقانون الإيمان"، هو مواجهة الإيمان "**الخصوصي**" الذي ألّفه واخترعه أريوس وأعوانه. فكلمة "**قانون**" تقابل عند أثناسيوس كلمة "اختراع".

ولم يكن قصد أثناسيوس في استخدامه لنصوص الكتاب المقدَّس ليبرهن منهجاً معيَّناً للاهوت أو يفسِّر الإنجيل أو حتى يطرح أمام القارئ المؤمن نموذجاً للفهم والبحث في ما يخص الإيمان، **ولكن كان الأساس من التمسُّك الشديد بقانون الإيمان هو الحفاظ على التقليد. كذلك فإن الاستشهاد بكل ما يمكن من الأسفار المقدَّسة، هو لبرهان أن قانون الإيمان قائم بالفعل على تقليد صحيح مسلَّم، ومحدَّد. وهذا التقليد بمنأى عن الإجتهاد للحذف أو للإضافة، وهو ملزِم، وهو بحد ذاته يعطينا المعنى الصحيح للكتاب المقدَّس في ما يتعلَّق بالمسائل اللاهوتية الأساسية.**

وقد نجح أثناسيوس بالفعل في توضيح وتثبيت هذه الحقيقة، وهي أن التقليد كان **ينتقل من جيل إلى جيل بالممارسة التعليمية، وبالممارسة الطقسية العملية داخل الكنيسة.**

ولم يتوسَّع أثناسيوس في شرحه للآيات على مدى الأسفار المقدَّسة لكي يعلِّق على المعاني في حد ذاتها، ولكن كانت كل اهتماماته منصبَّة في أن **يحدِّد، وبصورة قطعية، أن كل معنى يُستقرأ من أية آية ويكون غير منطبق على المفهوم التقليدي لقانون الإيمان العام يصبح غير صحيح، وهرطقة بحد ذاته.** ولماذا؟ لأن المعنى التقليدي بحسب القانون العام هو رسولي ومُلزِم وقاطع.

لذلك تمسَّك بكل **ما تعلمه في المدرسة** (مدرسة الإسكندرية للموعوظين Catechetical school)، **مع ما تلقاه وتعلّمه ومارسه في الكنيسة**، بالإضافة إلى **صوت الكنيسة ومفهومها العام** φρόνημα، وبالإضافة أيضاً إلى **كتابات القديسين التي وصلت إليه.** هذه هي الأُسس الأُولى التي تسند قانون الإيمان، وهو دائماً أبداً مقتنع وقانع بها.

وأثناسيوس لا يدَّعي أبداً أنه بحّاثة يبحث في صحة قانون الإيمان أو يفسِّره بما يتوافق مع رأيه أو فهمه الخاص.

(29) Athanas., *Apol. C. Ar.* 82, 83.

كذلك لا يظهر أثناسيوس في كل مؤلَّفاته أنه مجادل أو محاور لإثبات رأيه ونظريته وإيمانه الخاص، بل يظهر بكل صلابة أنه **إنسان استلم أمانة خطيرة للغاية، وهو مكلَّف بتسليمها كما هي، حتى ولو أدَّى ذلك إلى الموت. هذه الأمانة أو الوديعة** παράδοσις **هي قانون الإيمان، وهي هي التقليد، وهي هي الإنجيل، ليس كأنها آية واحدة بل التقليد هو محصِّلة النظرية الإيمانية الشمولية الواسعة التي تحتضن كل الإنجيل** = τὸν σκόπὸν τῆς καθ' ἡμᾶς πίστεως.

[إن الأريوسيين إذ ينظرون إلى ما هو بشري في المخلِّص يحكمون عليه أنه مخلوق ... ولكن ليتهم يتعلمون – وإن كان هذا التعليم يأتي متأخراً – أن "الكلمة صار جسداً". وليتنا نتمسَّك بالنظرة الشمولية للإيمان = τὸν σκόπὸν τῆς πίστεως، (الإيمان الذي نقيمه نحن المسيحيين ونستخدمه كقانون: ὥσπερ κανόνι ونقرأ به الأسفار الملهَمة كما علَّم الرسل – هذا إذ يفقده أعداء المسيح متجاهلين هذه النظرة الشمولية يضلُّون عن طريق الحق، ويعثرون ويظنون فيه بخلاف ما ينبغي أن يُظن)(٣٠) أمَّا نحن فإذ لنا هذه النظرة الشمولية نؤكد أن هذا هو المعنى الأرثوذكسي الصحيح = ὀρθήν](٣١)

[وبما أنهم يقلبون الأسفار المقدَّسة بمقتضى فكرهم الخاص: ἴδιον، فإنه يتحتَّم علينا بالقدر الكافي أن نرد عليهم في هذه الحدود، لنصحِّح ونبرهن صدق كلمة الإنجيل، ونوضِّح أن معناها هو أرثوذكسي ὀρθήν](٣٢).

علاقة قانون الإيمان والفكر الكنسي بالتقوى والاستقامة والصلاح عند أثناسيوس:

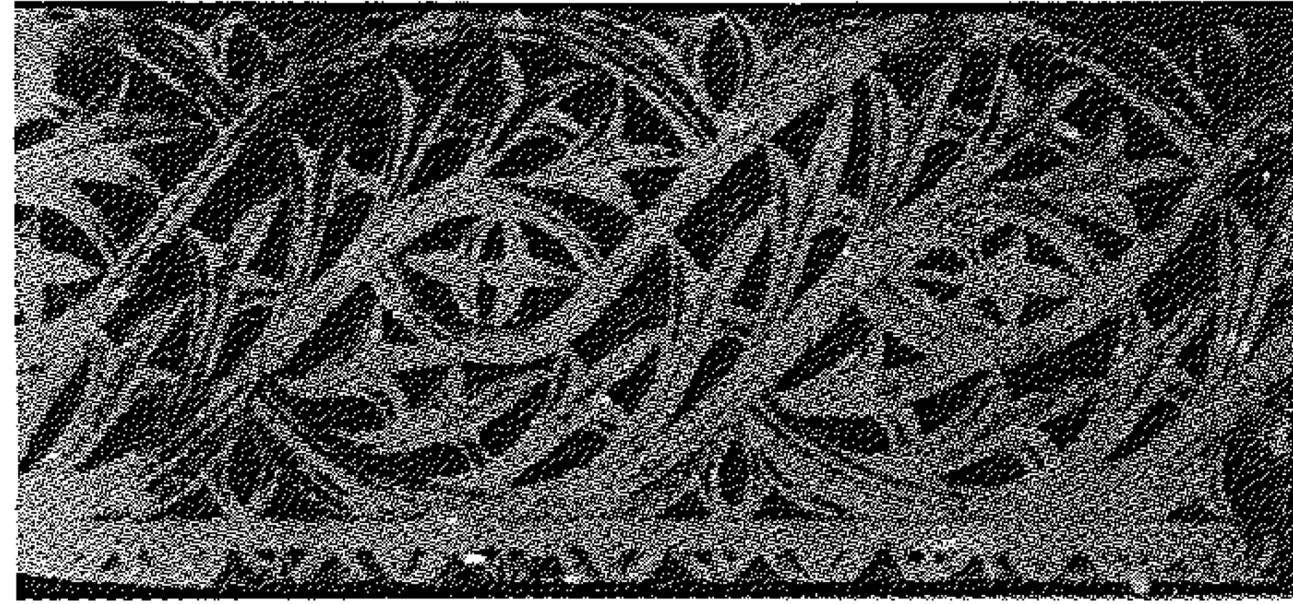
الباحث المدقِّق يُلاحِظ أن أثناسيوس يحصر معنى "التقوى" و"الأرثوذكسية" و"الصلاح" في حدود ما هو متفق وملتزم بقانون الإيمان Regula Fidei وخاصة في ما يخص المبادئ والتفسير، وما هو موافق للفكر الكنسي العام:

[هذا ما أفهمه من هذا الفصل (من الكتاب المقدَّس) وهذا هو المعنى الكنسي تماماً: ἐκκλησιαστικός.](٣٣)

(30) Athanas., *Contra Arian,* III, 28.
(31) Athanas., *Contra Arian,* III, 35.
(32) Athanas., *Contra Arian,* I, 37.
(33) Athanas., *Contra Arian,* I, 44.

[فلو كانوا قد التزموا بهذه المفهومات، وأدركوا نظرة الكنيسة الشمولية وجعلوها - كما هي حقًّا - مرساة الإيمان، لما غرقت مركب إيمانهم.][٣٤]

ومن هنا ندرك السر الذي يقف وراء الألفاظ التي ينعت بها أثناسيوس الأريوسيين بقوله: "غير الأتقياء"، "غير الصالحين (الأردياء)"، و"المنحرفين"، فهي هنا ليست على مستوى الشتيمة، بل بمفهوم الخروج عن قانون الإيمان الذي هو هو قانون التقوى وقانون الصلاح وقانون الاستقامة.



(34) Athanas., *Contra Arian,* III. 58.

ثانياً: الشهادة (الاعتراف) بالمسيح
وعلاقة ذلك بمعرفة الله أو استعلانه

إن أثناسيوس يَعتبر أن الإيمان بالمسيح، حسب قانون الإيمان الصحيح، لا يمكن أن يكمل بدون الشهادة أو الاعتراف العلني بهذا الإيمان.

ثم إن هذا **الاعتراف العلني بالمسيح أي الشهادة بالإيمان باسمه هو الطريق السري للدخول في معرفة الله معرفة شخصية. وبدون هذا الاعتراف العلني يستحيل أن ندخل في شركة مع الله، ولا نُستأمن على الحياة الأبدية.**

[لأنه بدون الاعتراف العلني (الشهادة) بالموت والصلب والقيامة العجيبة التي للرب الإله بحسب الرسل، يمتنع علينا الحصول على قوة معرفة الله.](٣٥)

[لأن الأريوسيين صنعوا هذه الأمور لكي يؤثِّروا على الذين يعترفون بالإيمان الصحيح بالله ويخيفوهم، لكي يسكتوا، وحينئذ ينشرون هرطقتهم الكفرية بدلاً من الإيمان الصحيح.](٣٦)

وأثناسيوس يوضِّح في كل مقالاته ودفاعاته أن الإيمان والاعتراف بالتجسُّد وما تبعه من آلام وموت وقيامة، هو في الحقيقة لغاية واحدة هي أن نصير أبناء الله متحدين بالمسيح بهذا الإيمان والاعتراف. وهذا الاتحاد هو هو الشركة في الطبيعة الإلهية: [كلمة الله تجسَّد لنصير آلهة فيه]، و[ابن الله تجسَّد لكي نصير أبناء الله]، بحيث أن إحجام اليهود عن الشهادة للمسيح كونه ابن الله المتجسِّد، حرمهم من الاتحاد بالله، أي من الشركة الإلهية (أو التألُّه)، حيث المقابل لعدم الشركة (التألُّه) **هو الحرمان من الله**، وهو هو بعينه الكُفر أي الجحود = ungodliness = atheism = ἀθεότητος.

وعدم التألُّه أو الكفر يتبع فكراً مضاداً للحق مع إصرار واعتراف.

فهو سلوك سلبي تجاه طبيعة الله. لذلك إن كان الإيمان والاعتراف العلني بالله هو التقوى

(35) Ps. Athanas., *De Incarn. et. Contr. Ar.* 19.

(36) Athanas., *Defence against Ar.* 19.

εὐσέβεια التي تترجم religion أو godliness وهي هي كلمة " الأرثوذكسية" ، فـإن الخـروج عن الإيمـان يُحسـب عـدم تقـوى ἀσέβεια الـتي تـترجم irreligion أو ungodliness، وهـذه لم يستخدمها أثناسيوس جزافاً، بل هو يأخذ بأسلوب ونمط الإنجيل، فإن بولس الرسـول يعتـبر الإيمـان العلني بتجسُّد الله والكرازة (الشهادة) به هو هو سر التقوى:

+ «عظيم هو **سر التقوى** godliness = εὐσεβίας ، **الله ظهر في الجسد** ... كُرز بـه ... أُومن به ...» (١تي ٣:١٦)

وهو الذي يؤكّده القداس القبطي حينمـا يقـول الكـاهن: "**وأعطانـا هـذا السـر العظيـم الـذي للتقوى**". هنا يقصد الكاهن نفس الآية السابقة **معلناً التجسُّد**، فهو قبلها يعلن معترفـاً: "تجسَّـد" = "آفتشي ساركس ⲁϥϭⲓⲥⲁⲣⲝ".

لهذا، وعلى أساس هذا المعنى، شكا أريوس أن ألكسندروس بابا الإسكندرية طرده (مـع أتباعـه) من الإسكندرية باعتباره إنساناً كافراً = ὡς ἀνθρώπους ἀθέους(٣٧). ولمـاذا؟ لأن مَـنْ ينكـر المسيح فقد أنكر الله، لأن المسيح هو الله ظهر في الجسد، ولأن المسيح هو ابن الله الـذي بتجسُّـده أعلن الآب "**الله المخفي**"، ولأننا بواسطة المسيح ندرك الآب الحقيقي؛ لذلك فـإن أثناسـيوس يضـع الأريوسيين مع اليهود لأنهم بالرغم من أنهم يعترفون باسم الله بأفواههم، إلاَّ أنهم لا يدركون سـر الله الآب الحقيقي: «أبو ربنا يسوع المسيح»؛ وبإنكارهم "الكلمة" المتجسِّد، أي لاهـوت المسـيح، فإنهم يقتطعون من لاهوت الآب كلمته، وهكذا فإن جرأة الأريوسيين وبـالحري تجديفهـم إنمـا هـو موجَّه للاهوت، أي لله في ذاته بصورة جنونية μανικώτερον(٣٨)، منكريـن "الكلمـة" لاهوتيـاً، فصاروا ضد الأسفار المقدّسة سالكين بسلوك يهودي(٣٩) كافرين بالله.

ولهذا يتحقّق أمامنا جيداً أن الإيمان الحقيقي بالكلمة المتجسِّد يتبعه حتماً شهادة واعـتراف علـني بالإيمان، حيث يعتبر هذا هو المنهج الأرثوذكسي للتعريف بالله، بل هو سر التقوى بعينه، الذي من خلاله نعرف الله في ذاته بالحق.

لهذا يتبيَّن أمامنا ومن كل ملابسات مجمع نيقية والصراع المرير الـذي عانتـه الكنيسـة بعـد هـذا

(37) Theodoret, *Hist. Ecc.* I. 4.
(38) Athanas., *Ep. Agypt.* 17 fin.
(39) Ibid. 13.

المجمع وعلى مدى خمسين عاماً، أن الإيمان العلني ضرورة حتمية تسبق المحاولة لفحص الله أو بحث الأسفار أو محاولة المجادلة أو الحوار أو إبداء الرأي، **فالإيمان أمان المعرفة ــ أو الحكمة ــ وهو وإن كان يساويها تماماً، فهو الذي يؤمِّنها!!**

فكل إنسان يعلن نفسه أنه **مسيحي، يتحتَّم عليه أن يكون مؤمناً بالمسيح يسوع، شاهداً أنه كلمة الله المتجسِّد، الذي صُلب عنا ومات ودُفن وفي ثالث يوم قام من بين الأموات!**

[«لأن العالم بالحكمة لم يعرف الله، ولكن سُرَّ الله **يُخلِّص المؤمنين بجهالة الكرازة** (بالتجسُّد والموت والقيامة)» (راجع: ١كو ١:٢١). إذن فلم يعد بعد كالسابق أن الله يُعرف من خلال ظلال الحكمة ومجرَّد تصورها كما هو الحال في الخليقة، ولكن **جعل الحكمة الحقيقية ذاتها تتجسَّد** وتصير بشراً، وهذا يموت على الصليب، حتى بالإيمان به فإن **كل مَنْ يؤمن ينال (حكمة)** الخلاص (الحقيقية).

هذا هو الحكمة الحامل لصورة الله (الآب) الخاصة الذي حينما استُعلن هو في ذاته (متجسِّداً وعاملاً) استَعلن أباه، وإذ هو ذاته "الكلمة" الذي صار جسداً، حينما أباد الموت بموته خلَّص جنسنا (من الموت)، فاستُعلن أكثر فأكثر (أنه هو الحياة الأبدية)، وفيه استعلن الابن أباه (أبو الحياة) قائلاً: «(أعطهم) أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (راجع: يو ١٧:٣). وهكذا امتلأت الأرض كلها من معرفة الله الآب في الابن، والابن في الآب، سيان فهما واحد (لحياة أبدية محيية)(٤٠).](٤١)

وأثناسيوس يشدِّد على أن عدم الإيمان بالمسيح إلهاً آتياً في الجسد ينشئ جهالة بحقيقة الله الآب، وهذه الجهالة مميتة لقدرة الإنسان من نحو الاتصال والمصالحة بالله.

ولهذا يرى أثناسيوس أن اليهود قتلوا المسيح بسبب الجهالة بالله نفسه، لأن معرفة الله حُجزت

---

(٤٠) يُلاحَظ ورود كلمة "حكمة الله" بما يفيد شخص المسيح على فم المسيح نفسه لو قرأنا الآيتين لو ١١:٤٩، مت ٢٣:٣٤ هكذا:

+ «لذلك أيضاً قالت حكمة الله إني أرسل إليهم أنبياء ورسلاً ...» (لو ١١:٤٩)

+ «لذلك ها أنا أُرسل إليكم أنبياءَ وحكماء وكتبة ...» (مت ٢٣:٣٤)

حيث يتكلَّم المسيح عن نفسه أنه هو الذي كان يرسل الأنبياء قَبل مجيئه، بصفته حكمة الله المدبِّر للخلاص العتيد أن يكمله بنفسه.

(41) Athanas., *Contra Arian,* II, 81, 82.

عنهم كلية، عندما رفضوا "كلمته"، أي الإيمان بالمسيح، فأصابهم العمى الروحي و لم يفدهم صراخهم باسم الله ولا تدقيقهم في ناموس موسى بل أقدموا بكل جراءة **على قتل رب المجد:** [«لأنه لو عرفوا (آمنوا به) لما صلبوا ربَّ المجد» (١كو ٢:٨) ... هذا هو التعبير والفهم اليهودي.][٤٢]

هكذا، فإن أثناسيوس يعلن أن معرفة الله هي هي استعلان ونوال قوته، لذلك يؤكِّد أنه بظهور المسيح متجسِّداً ومصلوباً دخلت قوة الله ودخلت معرفة الله إلى عالم الإنسان بصورة عملية. فمعرفة حقيقة وقوة الله التي دخلت العالم هي ثمرة استعلان المسيح ككلمة الله والإيمان به، واستعلان الصليب كقوة خلاص الإنسان وفدائه من خداع الشيطان.

[يظنون أن الإيمان بالمسيح غير معقول، هذا ما يتهمنا به الأُمم ويهزأون بنا من جهته، **ويضحكون علينا جدًّا مركّزين على صليب المسيح، وهنا لا** يسعُ المرء **إلاَّ الإشفاق عليهم لانعدام بصيرة عقلهم (غياب الكلمة)، لأنهم وهم يهزأون بصليب المسيح يتعامون عن قوته التي ملأت العالم، الأمر الذي نتج عنه معرفة ا لله بصورة ظاهرة للجميع** (أي عملية).

لأنه بالصليب قد اندثرت العبادة الوثنية **كما تبدد سلطان الشيطان بعلامة الصليب**، وأصبح الله الآب معروفاً ومعبوداً بالمسيح.][٤٣]

(42) Athanas., *Contra Arian,* III, 39.

(43) Athanas., *Contra Gent.* 1.

ملخّص الفصل التاسع

الإيمان والشهادة للمسيح

كفعلين متلازمين مع المعرفة عند القديس أثناسيوس

+ كليمندس الإسكندري هو أول مَنْ اعتبر الإيمان هو الشرط الأساسي والأوَّلي لكل معرفة في ما يختص بالله، معرّفاً الإيمان كأعلى مستوى للمعرفة.

+ أضاف القديس أثناسيوس عنصر التقوى لكي يكون الإيمان موصِّلاً للمعرفة.

+ المعرفة الصادقة لها شقّان:

١ ـ فعل استعلان من الله يؤثّر في فكر الإنسان لقبول الخلاص الكامن في معرفة المسيح ابن الله المخلّص.

٢ ـ ورد فعل من الإنسان متقبِّلاً فعل الاستعلان وقابلاً للخلاص بمعرفة المسيح في كل تقوى ووقار.

+ هناك ثلاثة أُسس للإيمان في رأي أثناسيوس:

الأول أن الإيمان بالله، يسبق المسير نحوه،

والثاني أن الإيمان بمكافأة مَنْ يطلبون الله، يسبق طلب الله.

والثالث أن الإيمان الصحيح بالله، هو الإيمان بالواقع أو بالحال الكائن.

+ أيّ فعل إيماني من الإنسان نحو الله يسانده في الحال جذب روحي من الله ليعين الإنسان في ضعف إيمانه.

+ الإيمان ـ وإن جاء في البداية ـ إلاّ أنه يقوم أساساً على قواعد التعليم الصحيح، فالمخلّص أمر تلاميذه أن يعلّموا أولاً ثم يعمّدوا، حتى يصير الإيمان الصحيح عن تعليم صحيح وبعد ذلك التقديس بالمعمودية.

+ الإيمان هو فعل نعمة لا يتوقّف عند حد، لاكتشاف مزيد من المعرفة والاستعلان ولا يكون بالاجتهاد وإنما هو تسليم رسولي بالروح القدس.

+ صلاة الإيمان الصحيح المستقيم هي الفعَّالة فقط في كل أسرار الكنيسة بالنسبة لمانح السر ومتقبله.

+ الإيمان المتولِّد من عمل الله الداخلي في النفس هو الأفضل والأكثر دقة للحصول على المعرفة من إيمان الجدل والمحاجاة؛ وهو الفعَّال والقادر على إعلان معرفة الله والشهادة له، بينما إيمان الحجة والمنطق عاطل من كل هذا.

+ الإيمان بالمسيح يؤهِّلنا للاتحاد بالله بسكنى الروح القدس فينا.

+ إيماننا بالمسيح يؤدِّي إلى عبادته مدركين لاهوته كالآب تماماً، عابدين حضوره الجسدي فهو «الله ظهر في الجسد» من أجل خلاصنا.

+ الإيمان الصحيح لا يقوم على فهم شخصي ولا على مشيئة أو إرادة خاصة ولا حسب الهوى الشخصي في تفسير الكتب المقدَّسة، بل يقوم على تسليم الكنيسة الجامعة حسب الإيمان الرسولي، وهو الذي يؤدِّي إلى المعرفة الصحيحة.

+ القصد من قانون الإيمان هو مواجهة الإيمان الخصوصي الذي يخترعه المبتدعون، من أجل الحفاظ على التقليد، لكي يكون مقياساً معتمداً من الكنيسة الجامعة ليحدِّد وبصورة قاطعة كل معنى يُستقرأ من أية آية إن كان منطبقاً على المفهوم التقليدي لقانون الإيمان العام أم لا.

+ فقانون الإيمان هو التقليد، وهو الإنجيل؛ أي محصلة النظرة الإيمانية الشاملة الواسعة التي تحتضن كل الإنجيل.

+ وقانون الإيمان هو قانون التقوى، وقانون الصلاح وقانون الاستقامة.

+ الإيمان الصحيح بالمسيح لا يمكن أن يكمل بدون الشهادة والاعتراف العلني بهذا الإيمان. وهذا هو سر التقوى، وأمان المعرفة الصحيحة.

+ عدم الإيمان بالمسيح إلهاً آتياً في الجسد ينشئ جهالة مميتة لقدرة الإنسان من نحو الاتصال بالله ومصالحته.

+ معرفة الله هي استعلان ونوال قوته التي ظهرت في المسيح كلمة الله متجسِّداً ومصلوباً وقائماً من بين الأموات.



الفصل العاشر

الروح القدس وكمال استعلان الثالوث

عند القديس أثناسيوس

- ماهية الروح القدس كأقنوم إلهي في الثالوث المتساوي (وحدة الثالوث المتساوي).
- أثناسيوس الرسولي وإرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس ووحدة الثالوث.

ماهية الروح القدس كأقنوم إلهي في الثالوث المتساوي

كان أثناسيوس أول مَنْ دافع عن لاهوت الروح القدس، عندما واجه كلاً من جماعة المتقلبين(١) والأريوسيين الذين قالوا بأنه مخلوق.

ودفاع أثناسيوس يقوم أساساً على إثبات الوحدة القائمة بين الثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس أنهم إله واحد. على أن هذه الوحدة الجوهرية القائمة في الثالوث تتضح من وحدة العمل، فكما أن الابن لا يعمل شيئاً من ذاته، كذلك الروح القدس لا يعمل شيئاً من ذاته، وإنما كل عمل هو من الثالوث: "**من** الآب **بالابن** **في** الروح القدس".

وأثناسيوس هو أول مَنْ أوضح هذا التعبير، وقد أخذه عنه القديس كيرلس وجعله أساساً لفهم الثالوث. وقد جاء دفاع القديس أثناسيوس متفرِّقاً في مقالاته ضد الأريوسية، ثم مركَّزاً في أربع رسائل عن "الروح القدس" موجَّهة إلى الأسقف سيرابيون، الذي كان قد بعث إليه أثناء نفيه وهروبه في أعماق الصحاري يشكو فيها من قيام هذه الهرطقة القائلة بمخلوقية الروح القدس ويستفسر عن الرد.

وقد كتب أثناسيوس هذه الرسائل - كما سبق وقلنا - بين سنة ٣٥٨-٣٦١م، وقد خصَّ أثناسيوس كل رسالة بناحية هامة من لاهوت الروح القدس:

ففي الرسالة الأولى: يهتم بلاهوت الروح القدس عامة، مستشهداً بآيات الكتاب المقدَّس ثم بالوحدة الكائنة بين الآب والابن والروح القدس، وهي الرسالة الهامة التي سنركِّز عليها.

الرسالتان الثانية والثالثة وفيهما يشدِّد على لاهوت الروح القدس على نمط الطريقة التي يبرهن بها على لاهوت الابن.

الرسالة الرابعة: وتتركَّز في تفسير قول الرب عن التجديف على الروح القدس.

ولكن ماذا كانت الرؤية العامة في الكنيسة وعند آباء ما قبل نيقية عن الروح القدس؟
ثم كيف سار منهج التعريف بالروح القدس منذ البدء حتى أثناسيوس؟

قبل أن نخوض في هذا الشوط الطويل من الإدراكات والتعبيرات التي صاغت المنهج القانوني

---

(١) τροπικοί ومعناها تصوريون Figurists.

للتعريف بالروح القدس منذ القديم، يلزم بادئ ذي بدء أن نفرِّق بين أفراد طبقة المفكِّرين في الكنيسة الذين حاولوا باجتهاد شخصي وبدون قيادة واضحة من الروح القدس، بل وبدون الاعتماد على التسليم، أن يعرِّفوا الروح القدس ويصفوه حسب تصوُّرهم، سواء بالنسبة للآب أو للابن أو في الثالوث. فخرجوا عن التعريف السليم وجنحوا جنوحاً خطيراً عن الحق الواضح في الكتاب المقدَّس، بل ومتحدِّين معطيات الشرح البسيط الواضح الذي ورثته الكنيسة عن الرسل والآباء وجماعات الملهمين الأوَّلين، حسب التقليد الذي كان يحسه ويعيشه عامة الشعب بدون أي فحص أو برهان.

فتعاليم إنجيل يوحنا الواضحة جدًّا عن شخصية الروح القدس كانت قوية ومُدركة بالنسبة للإنسان الجديد "مولودين من الماء والروح"، ثم ما جاء في أعمال الرسل عن أعمال ومواهب الروح القدس التي تنطق بشخصية الروح القدس وقيادته بصورة حيَّة واقعية وعملية، فهو يقود ويُفهِّم ويتكلَّم ويدعو وينتخب ويرسل ويحكم ويمنع ويصرِّح ويملأ ويقوِّي كإله وكشخص حيّ يتعامل مع الإنسان.

لذلك نجد خطين متوازيين في البحث التاريخي عن منهج التفكير والتقنين في حقيقة الروح القدس:

أولاً: خط الرسل الذي يعطي الإيمان الواضح المحدَّد عن شخصية الروح القدس الإله الكامل في الثالوث المساوي للآب والابن في المجد والكرامة والعمل، حيث ظلَّ هذا الخط هو الذي تعيشه الكنيسة وتمارسه بدون فحص.

وحينما طُلبَ من الكنيسة رسمياً أن تقول رأيها في الروح القدس في كل المواقف الحرجة، قالته بدون تردُّد أو تفكير ولا إلى لحظة واحدة، أنها تعبد إلهاً واحداً في ثلاثة أقانيم: آب وابن وروح قدس في لاهوت واحد.

ثانياً: وأمَّا بعض الآباء المتأخرين عن الرسل الذين عثروا في تحديد ماهية الروح القدس، فالسبب الذي صار منفذاً لهؤلاء المفكِّرين لكي يدخلوا فيه بأفكارهم وتصوراتهم المنحرفة **هو أن الرسل والكنيسة الأُولى لم تحدِّد العلاقة أو الطبيعة التي تربط الأقانيم الثلاثة معاً، ولم تترك قانوناً محدَّداً للتعبير عن الإيمان بكل أقنوم على حدة في ما يخص شخصه**، لأن مثل هذا التحديد كان غريباً جدًّا عن تصوُّر الكنيسة، فا لله واحد والثلاثة أقانيم فيه متساوية والعمل بينهم واحد، كل واحد يعمل بشخصه، والكل يعمل معاً كذات واحدة بآن واحد: «عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». فالعماد عمل واحد يتم باسم الله بواسطة الأقانيم الثلاثة كإله واحد، ولكن كل أقنوم بعمله المتميِّز، كل واحد باسمه.

لذلك حينما نعود إلى المرحلة التاريخية التي عبرها منهج التعريف والتحديد لشخص الروح القدس، لا تكون هذه المراحل للتعبير عن تاريخ مراحل فكر الكنيسة الصحيح البسيط الثابت، بل هي في الواقع دراسة لأفكار أفراد انفردوا في حوارهم عن تقليد الكنيسة البسيط، فخرجوا أحياناً كثيرة عن تسليم وعيها الإيماني وبدأوا يقرِّرون حسب تصوُّرهم ماهية الروح القدس، سواء كانوا من أصحاب البدع اليهودية والغنوسية والوثنية أو من الذين كانوا يدافعون ضدَّهم الذين جاءت أقوالهم بمثابة دراسة للردود على هذه الانحرافات، وهم الآباء اللاهوتيون مستقيمو الرأي مثل كليمندس وبابياس وإغناطيوس وإيرينيئوس وكبريانوس وهيبوليتس.

ولذلك نعتبر فكر العلاَّمة هارناك ـ وهو من مشاهير اللاهوتيين الألمان الذين تعرَّضوا لتاريخ الفكر الكنسي في ما يختص بشخص الروح القدس ـ فكراً خاطئاً إذ تصوَّر أن الكنيسة برمتها مع شعبها وقديسيها عبروا هذه المراحل الخاطئة والناقصة في فهم وتقدير ومعايشة الروح القدس(٢).

وهذا رأي غير مقبول ولا هو منطقي، فكيف أن الكنيسة الأُولى كنيسة الروح القدس والقوة، كنيسة النعمة والكرازة والفم الشاهد بالآلام والقيامة، هذه الكنيسة نفسها كيف نقول إنها كانت تعيش في جهل من الروح القدس لا تعيه ولا تُقيِّمه التقييم الصحيح؟

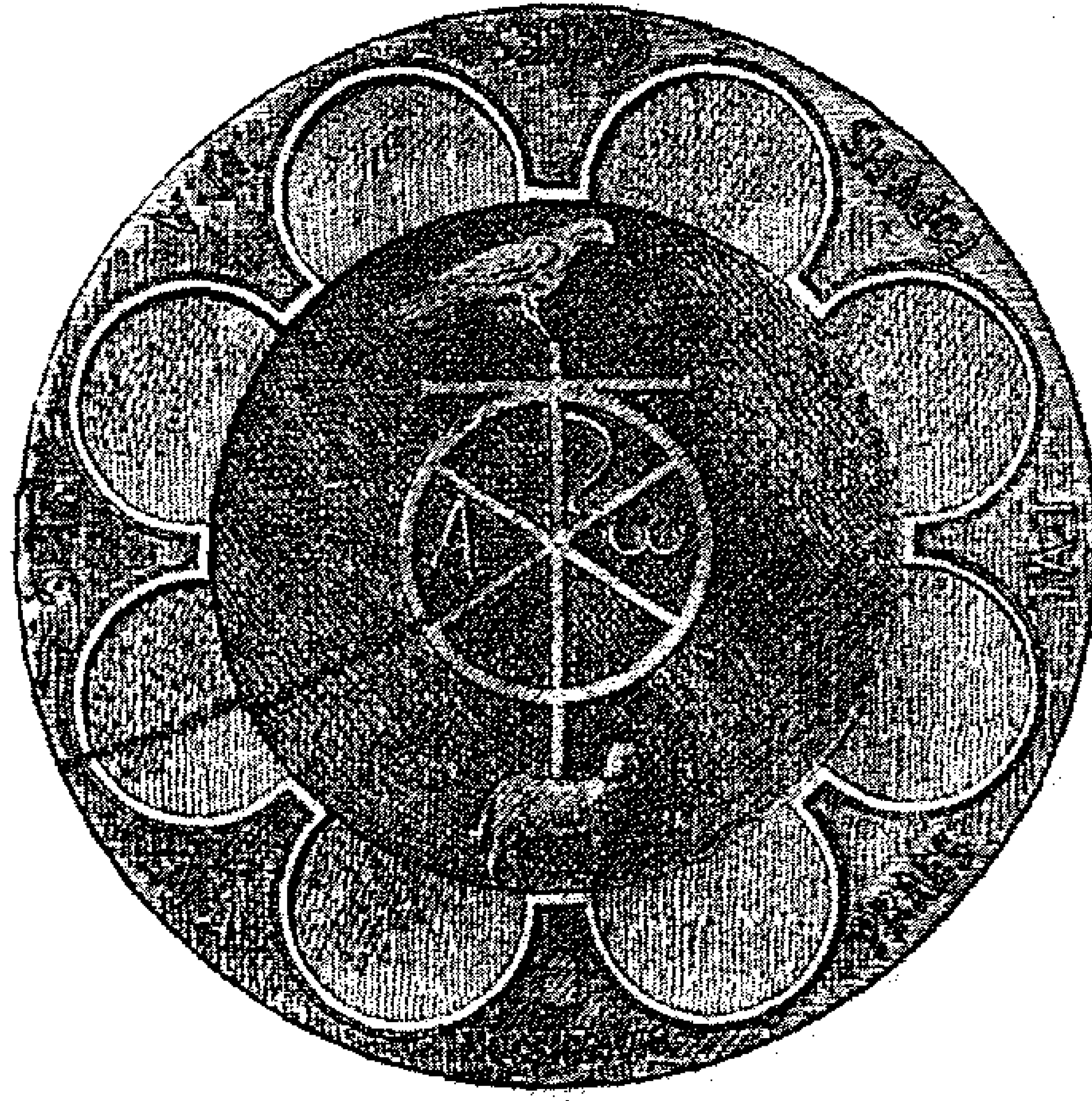
والحقيقة أن خط الكنيسة التي كانت تحيا وتسير بالروح القدس لم يتأثَّر قط بخط العلماء والحكماء(٣) والمفكرين المحاجين، الذين كانوا يعيشون ويتخبَّطون في أجواء البدع والوثنية بإحساس المدافعين عن فكرة معيَّنة ضد فكرة معيَّنة، منفصلين عن واقع الروح القدس الحي القائم والعامل في الكنيسة، الذي يصعب بل ويستحيل حصره في كلمات وجمل يقبلها الهراطقة، دون أن يعيشوا ويحسوا بقوة الروح القدس نفسه، ودون أن يكونوا قد قبلوا المسيح أولاً وولدوا من الماء والروح. لأن كل بحث أو دراسة عن الروح القدس بدون معايشة فعلية تَقَويَّة للروح القدس لابد وأن تأتي بانحرافات.

لذلك حينما نأتي إلى ما قدَّمه القديس أثناسيوس من منهج دراسي لاهوتي مشروح بدقة للروح القدس في منتصف القرن الرابع، لا يمكن أن نعتبر ذلك مرحلة نضوج لفكر الكنيسة، أو أنه كان نهاية لمراحل سابقة من الانحرافات. ولكن الحقيقة وعين الأمر أن أثناسيوس قد استطاع أن يقدِّم بتقواه واستنارته الروحية فكراً لاهوتياً مُبرهَناً ودقيقاً لماهية الروح القدس، في منهج مدرسي، جاء

(2) Adolf Harnack. *Hist. of Dogma: History of the Holy Spirit & of Trinity*, p. 266.

(٣) [لأن ما سُلِّم بالإيمان لا ينبغي أن يُقاس بالحكمة البشرية] (أثناسيوس عن الروح القدس الرسالة الأُولى فصل ١٧).

مساوياً تماماً وبلا أي زيادة أو نقصان لفكر الرسل والإنجيل البسيط المُعاش والحي عن الروح القدس في جسم الكنيسة ووجدانها منذ أن عرفته الكنيسة حتى إلى ذلك الوقت، وكل ما عمله أثناسيوس هو أنه استقطب كل الهرطقات والانحرافات وفنَّدها وشجبها وأنهى عليها إلى الأبد.



تعاليم العهد القديم من نحو الروح القدس
التي ورثها الرسل الأوائل

أولاً: من خلال أسفار العهد القديم العبرية وتعاليم الربيين

١ - كان الروح القدس له صفة دامغة فائقة وهي القداسة "الروح **القدس**".
٢ - والصفة الأخرى التي تساويها وتلتزم بها هي "**روح الله**".
٣ - وبالتالي فإن الروح القدس بناء على الصفتين الأوليين أُعطي صفة "الصلاح" المطلق، وصفة "الوجود في كل مكان Omnipresence".

(أ) «**روحك القدوس** لا تنزعه مني» (مز ٥١ :١١) ... صفة القداسة تُمنح للإنسان بسكنى الروح القدس.

(ب) «وأعطيتهم **روحك الصالح** لتعليمهم» (نح ٩ :٢٠)... صفة الصلاح.

(ج) «أين **أذهب من روحك**، ومن وجهك أين أهرب» (مز ١٣٩ :٧) ... صفة الوجود في كل مكان.

(د) «وكانت الأرض خربة وخالية ... "**وروح الله**" يرف على وجه المياه» (تك ١ :٢) ... نسبة الروح الخاصة لله.

(هـ) «**روحك الصالح يهديني** في أرض مستوية» (مز ١٤٣ :١٠) ... صفة الصلاح تباشر عملها لهداية الإنسان.

(و) «وتكلّم جميع **حكماء القلوب** الذين **ملأتهم روح حكمة**» (خر ٢٨ :٣) ... الحكمة صفة الروح توهب للإنسان بسكنى الروح.

(ز) «وحي داود بن يسى ووحي الرجل القائم في العلا مسيح إله يعقوب ومرنّم إسرائيل الحلو، **روح الرب تكلّم بي وكلمته** على لساني» (٢صم ٢٣: ١و٢) ... الروح القدس الناطق في الأنبياء بالإلهام والنبوّة.

والروح القدس في العهد القديم كانت أعماله الواضحة باختصار كالآتي:

أولاً: القوة الفعَّالة في الأبطال الذين انتخبهم الله للدفاع عن إسرائيل.
ثانياً: كان هو الإلهام الذي يدبِّر حكام إسرائيل.
ثالثاً: كان ينتقل بمفاعيله وقوته وحكمته من شخص إلى شخص بوضع اليد وبوسائل أخرى.
رابعاً: كان هو إلهام الأنبياء للنطق بكلمة الله.
خامساً: كان هو قوة التقديس وقوة الدينونة في القضاء.
سادساً: كان هو البصيرة الكاشفة لأمور أواخر الدهور عند بعض الأنبياء.
سابعاً: كانت علامات حضوره تنبِّئ عن حضور الله شخصياً.
ثامناً: كان عاملاً فعَّالاً في الخلق.
تاسعاً: كان تعبيراً عن كيان الله، أي جوهر الوجود الإلهي، على مدى الأسفار.

ومن كل تعاليم الكتاب المقدَّس في العهد القديم من جهة الطبيعة الأساسية للروح القدس نجدها بلا شك واضحة ومحدَّدة ومتَّفق عليها بالإجماع، أن **للروح القدس جوهراً إلهياً.**

ولكن من حيث فرادة شخصيته أو أقنومه، فمن الوجهة العمومية نفهم ذلك أيضاً على وجه القطع والتحديد، ولكن ليس بالوضوح الكافي سواء كان في الأسفار الأُولى أو الأخيرة. فالعهد القديم ينسب للروح القدس شخصية مفردة قائمة بذاتها **مع الله نفسه.** حاضرة وفعَّالة في العالم أو في الإنسان. أمَّا تعاليم المسيح والرسل، فبالرغم من نسبة الصفات الشخصية للروح القدس، فإنها تمتد **فتميِّز** الروح القدس عن الآب والابن(٤).

كما يُفهم من أسفار العهد القديم عن الروح القدس أنه هو «**الله الفعَّال بالقوة**»، وفي هذا المجال فالروح له شخصية ذات صفات خاصة، كما تنسب إليه أعمال شخصية، فالروح في العهد القديم شخص في نطاق أنه هو الله، وبالإضافة إلى ذلك فإن الروح القدس يظهر بصفات شبه مستقلة أحياناً، التي تقترب من حدود الشخصية المتميِّزة، خصوصاً عندما يُذكر في الأسفار "الكلمة" و"الروح" معاً في مقارنة. ولكن هذا التمايز ينطبق فقط على النشاطات الخارجية "للكلمة والروح" كقوتين، ولكن يبقى الكشف عن التمايز بينهما في ذات الوجود في الله إلى عصر متأخر من العهد القديم.

+ «أرسل **نورك وحقك**، هما يهديانني ويأتيان بي إلى جبل قدسك وإلى مساكنك.» (مز ٤٣: ٣)
+ «يرسل الله **رحمته وحقه.**» (مز ٥٧: ٣)

---

(4) *Dict. of Chr. Biogr.*, vol. III, p. 114, & in Hasting's: *D. B.*, p. 198.

+ «أين أذهب من **روحك** ومن **وجهك** أين أهرب.» (مز ١٣٩: ٧)
+ «تحجب **وجهك** فترتاع. تنزع أرواحها فتموت. وإلى ترابها تعود. تُرسل **روحك فتُخلَق**. وتجدِّد وجه الأرض.» (مز ١٠٤: ٢٩و٣٠)
+ «أرسل **كلمته** فشفاهم ...» (مز ١٠٧: ٢٠)
+ «لم أتكلَّم من البدء في الخفاء. منذ وجوده أنا هناك (الكلمة) والآن السيد الرب أرسلني **وروحه**.» (إش ٤٨: ١٦)
+ «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته (الكلمة) خلَّصهم ... ولكنهم تمرَّدوا وأحزنوا **روح قدسه**.» (إش ٦٣: ٩و١٠)

ثانياً: من خلال الأسفار القانونية الثانية

Duetero-canonical المدعوة بالأبوكريفا

قدَّمت هذه الأسفار فكرة قوية وواضحة عن شخصية الروح القدس معبَّراً عنه دائماً "بحكمة الله"، مما جعل بعض كُتَّاب الكنيسة الأوائل يخلطون بين المسيح "حكمة الله" والروح القدس "حكمة الله"، وحدا ببعضهم إلى القول بأن المسيح هو نفسه الروح القدس قبل تجسُّده.

وهذا نشأ أيضاً بسبب عدم وضوح الفارق بين "الروح" و"الكلمة" من جهة الوحي والرؤيا في مواضع كثيرة من العهد القديم ... فنقرأ أن كلمة الله كانت على نبي فتنبَّأ ... ثم نقرأ بنفس المعنى أن روح الله كان على آخر فتنبَّأ.

وقد ظل الاعتقاد بأن حلول الكلمة، أي كلمة الله، مساوٍ لحلول الروح القدس على الأشخاص للتنبُّوء والوحي، ظل مستمراً في الكنيسة الأُولى، حتى أننا نرى في قدَّاس سيرابيون، والقديس أثناسيوس نفسه في شرحه للإفخارستيا يقول، عند التحوُّل، إن الذي يحل على الخبز فوق المائدة المقدَّسة ليحوِّله إلى جسد الكلمة هو "الكلمة" ذاته، ولم يتحدَّد القول بحلول الروح القدس إلاَّ في أواخر القرن الرابع في سورية(٥) .

(٥) أنظر كتاب: "الإفخارستيا والقداس" للمؤلِّف صفحة ٦٨٠.

بل ونجد صدى هذا التوازي أو التساوي بين حلول الكلمة وحلول الروح القدس وعملهما في بعض الرسائل، فنسمع من بطرس الرسول:

+ «**مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحيَّة الباقية.**» (١بط ١:٢٣)

كذلك في رسالة يعقوب الرسول:

+ «شاء **فولدنا بكلمة الحق** لكي نكون باكورة من خلائقه.» (يع ١:١٨)

ومعروف أن الميلاد الثاني من السماء هو من الماء والروح القدس، فالكلمة هنا (في: يع ١: ١٨) حلَّ محل الروح القدس.

+ «**وكانت كلمة الرب عزيزة في تلك الأيام، لم تكن رؤيا كثيراً.**» (١صم ٣:١)
+ «**فيحل عليك روح الرب فتتنبَّأ** معهم وتتحوَّل إلى رجل آخر.» (١صم ١٠:٦)
+ «**وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً** ...» (١صم ١٥:١٠)
+ «فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته **وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً.**» (١صم ١٦:١٣)
+ «**كان كلام الرب إلى ناثان قائلاً** ...» (٢صم ٧:٤)
+ «**روح الرب** تكلَّم بي **وكلمته** على لساني ... إليَّ تكلَّم صخرة إسرائيل.» (٢صم ٢٣: ٢و٣)
+ «ثم صارت **كلمة الرب** إليَّ قائلاً ...» (إر ١:١١)
+ «**الكلمة** التي صارت إلى إرميا من قِبَلِ الرب قائلاً ...» (إر ٧:١)

تتلخَّص أعمال الروح القدس في الكتب القانونية الثانية بأنه يملأ الكون، ويحب البشرية، ويعلِّم **ويطهِّر أفكار الإنسان وقلبه.** انظر: (Sir. I:7; XII:1; I:4, 5, 6; IX:17) = (سفر يشوع ابن سيراخ).

العصور المتأخِّرة من الفكر اليهودي:

وقد مال الفكر اليهودي في أواخر الأيام - طبعاً من جراء بُعده عن الله وتمسُّكه بالعالم والمال والأرض - إلى التقليل من شأن الروح القدس، حتى إذا ما وصلنا إلى الصدوقيين في أيام المسيح نجدهم يحذفون أصلاً ومن الأساس كل اعتقاد بوجود الروح: «لأن الصدوقيين يقولون إنه ليس قيامة ولا ملاك **ولا روح** وأمَّا الفريسيُّون فيقرُّون بكل ذلك.» (أع ٢٣:٨)

وبدخول المسيحية انهار الفكر اليهودي جملة وتفصيلاً من جهة الروح القدس، حتى أننا نجد

فيلو الفيلسوف اليهودي الذي أراد أن يحيي التراث الروحي اليهودي يقصر مفهوم الروح على مجرَّد حكمة الله الموهوبة للحكماء أو مجرَّد قوة يؤثِّر بها الله على الموحى إليهم(٦). وأصبح هذا المفهوم هو الاعتقاد السائد والثابت في القانون اليهودي.

وقد تسرَّب هذا الفكر اليهودي الخاطئ إلى الفكر المسيحي عند بعض المنحرفين حتى أيام غريغوريوس النزينزي، فنسمعه يتكلَّم عن جماعة في أيامه يعتبرون الروح القدس مجرد "قوة ἐνέργεια"(٧).

ثالثاً: بداية العصر المسيحي

يبدأ العصر المسيحي بتقدُّم هائل في التعرُّف على الروح القدس وأعماله؛ حتى أننا نجد الإنجيل يضع الروح القدس في صدر العهد الجديد، فهو أداة التجسُّد.

«**الروح القدس** يحل عليكِ وقوة العلي تظلّلكِ، فلذلك أيضاً القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو ١: ٣٥). وهنا تجدر الإشارة بأن الوحي الإلهي يفرِّق بين شخص (أقنوم) الروح القدس و"**قوة**" العلي، إمعاناً في الكشف عن الخطأ السائد في الفكر اليهودي آنذاك أن الروح القدس مجرَّد قوة.

وفي إنجيل القديس متى، يقول الملاك صراحة ليوسف: «يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس» (مت ١: ٢٠)، فالروح القدس أداة التجسُّد، فالجسد المولود هو بالتالي جسد إلهي، وقول الملاك **تعقيباً** على أنه **مولود من الروح القدس** أنه يدعى **ابن الله** يوضِّح ماهية الروح القدس بالنسبة لله.

وبعد ذلك نجد الروح القدس في حياة المسيح **فعَّالاً** سواء في المسحة الأُولى على نهر الأُردن لبدء الخدمة: «كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة» (أع ١٠: ٣٨)، أو متمِّماً لكل الأعمال، «إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله.» (مت ١٢: ٢٨)

(6) Philo. *De Gyant*, 5; *De Monarch* 1:9, cited by *D.C.B.*, p. 114.
(7) *D.C.B.*, p. 114; & August., *de Haer.* 1, ii.

وتجدر الإشارة هنا أن المسيح باعتباره التجديف على الروح القدس خطية عُظمى لا تُغفر، يشير بوضوح وتحديد أن الروح القدس "شخص" له هيبته وكرامته الإلهية.

ثم نجد كيف يبني المسيح كنيسته على أساس أنها خلقة جديدة بالروح القدس بالولادة من فوق من الروح القدس والماء، وأنها تعيش وتعمل في العالم بقوة الروح القدس:

ففي تعاليم المسيح يركِّز على الروح القدس (يو ٣:١-٨) باعتباره واسطة دخول ملكوت الله، وباعتباره القياس الوحيد للعبادة بالسجود "**بالروح**" والحق، وأنه المصدر الوحيد لإرتواء الإنسان لكي لا يعطش إلى تراب الأرض بل يصير في الإنسان ينبوع حياة أبدية! وأن قبول الروح القدس بهذا الوصف يتوقَّف على الإيمان بالمسيح أولاً: «مَنْ آمن بي تجري من بطنه أنهار ماء حي، قال هذا عن الروح الذي كان **المؤمنون به** مزمعين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد (الصليب)» (يو ٧: ٣٨و٣٩)، وأنه هو الباراكليت أي المعزِّي والشفيع للإنسان (يو ١٤:١٦).

وأن الروح القدس في التلاميذ وفي أولاد الله سيبكِّت العالم، أي يقف فينا ضد قوى الشر مؤازراً لنا ومحامياً عنَّا (يو ١٦: ٧-١١).

وأنه مصدر قوة البشارة، فمتى حلَّ على المختارين ينالون في الحال قوة من الأعالي للشهادة (أع ١:٨).

رابعاً: عصر الرسل

١ - إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً للرسل.
٢ - استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً.

تمتلئ صفحات أعمال الرسل والرسائل بالإشارات القوية جدًّا والواضحة غاية الوضوح عن شخصية الروح القدس وفاعليته، سواء من الوجهة العقائدية الوصفية لشخصه أو الوجهة العملية لعمله، وأصبح هذا كله تراث الكنيسة الذي يبني عقيدتها في الروح القدس:

١ ـ إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً للرسل

أعمال الرسل

يبتدئ سفر الأعمال بوضع الروح القدس موضعه الجديد وتحديد عمله الشخصي في الكنيسة عوض المسيح تماماً، «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يو ١٤:١٦)، هذا المعزي لا يقول ولا يعمل ولا يرشد إلاَّ بما هو من المسيح ولأجل المسيح فهو «لا يتكلَّم من ذاته بل يأخذ مما لي ويخبركم». فسفر الأعمال يقدِّم الروح القدس لاستمرار عمل المسيح في الكنيسة وبدونه يستحيل على الكنيسة أن تتكلَّم أو تتحرَّك أو تعلن المسيح: **«لا يبرحوا من أُورشليم، بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني ... لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهوداً في أُورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.»** (أع ١: ٤-٨)

المسيح سيبقى في السماء ولكن الروح القدس سيدوم في الكنيسة على الأرض إلى حين انتهاء هذا الدهر والمجيء الثاني للمسيح: «ويُرسِلَ يسوعَ المسيحَ المُبشَّرَ بهِ لكم قبلُ. الذي ينبغي أن السماء تقبلهُ، إلى أزمنة ردِّ كل شيءٍ (تكميل) التي تكلَّم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر» (أع ٣: ٢٠و٢١). فالروح القدس هو في الحقيقة شخص الاتصال الدائم والحي والفعَّال بين المؤمنين وبين المسيح، فإذا كان المسيح واضحاً في القلب وكانت علاقة المؤمن بالمسيح صادقة وقوية وحيَّة وفعَّالة كانت هذه علامة على وجود وعمل الروح القدس فيه.

فالروح القدس يعمل الآن عمل المسيح ويكمِّله فينا أي يمنحنا الخلاص والفداء الذي أكمله المسيح من أجلنا، يهبه لنا ويثبِّتنا فيه.

والروح القدس نفسه يصفه بولس الرسول من جهة هذا بأنه "روح المسيح" إمعاناً في التأكيد أنه يملك كل ما للمسيح ويدرك كل ما للمسيح، وقادر أن يعطينا كل ما للمسيح وما عمله المسيح، لذلك فبدون الروح القدس يستحيل الإيمان بالمسيح ولا معرفة أسرار المسيح ولا نوال قوة الخلاص والفداء اللذين أكملهما المسيح لنا.

بل إن بولس الرسول يقول في ذلك باختصار: «أمَّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح

الله ساكناً فيكم، ولكن **إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك (أي المسيح) ليس له.**» (رو ٨: ٩)

– **(أع ٢: ١–١١و١٦–١٨)**: هبوب الريح العاصف وألسنة النار الحالّة على رؤوس التلاميذ والتي رافقت أول حلول للروح القدس على الكنيسة هي نفس علامات ظهور الحضرة الإلهية على جبل سيناء[٨]؛ ثم موهبة النطق بلغات جديدة التي أعطاها الروح القدس للتلاميذ هي نفس عطية الله قديماً للأنبياء أن ينطقوا بكلمات الله والتنبُّؤ، وإن كان بلغة العبرانيين، ولكن كانت لغة رصينة وبعضها كان بالشعر الموزون مع أن الأنبياء كان منهم الأميون.

وهكذا كان الوعد الذي قيل بيوئيل النبي أن يكون حلول الروح القدس على الجميع "على كل بشر"، وإعطاء موهبة التنبُّؤ والآيات والرؤى والأحلام للبنين والبنات والشباب والشيوخ والعبيد والإماء، كل مَنْ يدعوه الرب ويتوب ويعتمد باسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فإنه يقبل العطية ذاتها لأن الموعد القدوس للجميع للقريبين والبعيدين، أي لكل الأجيال الآتية بدون تفريق زمني.

– **(أع ٤: ٣١)**: «**ولمَّا صلَّوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه وامتلأ الجميع من الروح القدس وكانوا يتكلَّمون بكلام الله بكل مجاهرة**».

هنا تزعزع المكان يذكِّرنا بزعزعة جبل سيناء علامة أكيدة على الحضرة الإلهية، ثم المجاهرة العلنية بالبشارة، والشهادة للمسيح هي القوة الموعود بها من الأعالي، تتم للمرة الثانية.

– **(أع ٤: ٣٣)**: «**بقوة عظيمة كان الرسل يؤدُّون الشهادة** بقيامة الرب يسوع ونعمة عظيمة كانت على جميعهم».

هذه القوة تنتظر الكنيسة في كل أزمنة الضيق، ولقد عاشها أثناسيوس وأثبت صدق الوعد، بل أثبت قوة الروح القدس التي فيه وفي الكنيسة.

– **(أع ٥: ٤و٩)**: «أنت لم تكذب على الناس بل على الله»، «ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب».

يُلاحَظ هنا في كلام بطرس الرسول لحنانيا أنه اعتبره قد كذب **على الله**، وفي مواجهة سفيرة امرأته كرَّر اللوم، أنهما يجرِّبان أو يكذبان على "**روح الرب**"، وهنا يكشف الوحي على فم بطرس

(٨) انظر كتاب العنصرة للأب متى المسكين صفحة ٩و١٠.

عقيدة الكنيسة من جهة الروح القدس أنه هو الله من جهة الكيان أي الجوهر الواحد.

وكان عقاب الكذب على الروح القدس هو أنهما وقعا وماتا في الحال، وهذا يكشف عن عقيدة الكنيسة بالنسبة لخطورة عمل الروح القدس التأديبي، فما تمَّ لحنانيا وسفيرة بالجسد جهاراً يتم بالروح سرًّا للذين يستهينون بسلطان إشراف الروح القدس على تدبير الكنيسة حتى في الأمور المالية.

ثم إن موت أريوس فجأة قبل دخوله الكنيسة للصلاة هو مطابقة عملية لقصة حنانيا وسفيرة.

– (أع ٥:٣٢): «ونحن شهود له بهذه الأمور والروح القدس أيضاً **الذي أعطاه الله للذين يطيعونه**».

هنا يوضِّح الرسل شخصية الروح القدس، التي يحسون بوجودها معهم، قائمة بذاتها حتى أنهم يستطيعون أن يميِّزوا بين شهادتهم وشهادة الروح القدس داخلهم بالرغم من أنها تخرج من أفواههم شهادة واحدة، غير أن شهادة الروح القدس تميِّزها بالإضافة قوة خاصة داخلهم وإجراء معجزات علنية بواسطتهم.

– (أع ٦:١٠): «ولم يقدروا أن يقاوموا **الحكمة والروح الذي كان يتكلَّم به**».

ارتباط الحكمة مع الروح القدس الذي اختبرته الكنيسة في الشهيد استفانوس صار تطبيقاً عملياً للتقليد القديم أن الروح القدس "روح حكمة" لتدبير الكنيسة، ولا يمكن فصل الروح القدس عن الحكمة.

– (أع ٧:٥١): «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان، **أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم كذلك أنتم**»...

قساة الرقاب يعني بها عدم الطاعة لله، عدم ختانة القلب يعني بها الشر والنجاسة المبيَّت عليهما داخل الضمير، وعدم ختانة الآذان يعني بها عدم القدرة على سماع صوت الله ومقاومة الكلمة، مقاومة الروح القدس يعني بها مقاومة الشهادة للمسيح والحق.

– (أع ١٥:١٧): «اللذين لمَّا نزلا **صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس** لأنه لم يكن قد حلَّ على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع، حينئذ **وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس**».

صار هذا في عمق خبرة الكنيسة وتراثها أن الروح القدس يحل مع المعمودية بواسطة وضع الأيادي، الذي تسميه الكنيسة الآن بمسحة الميرون، ووضع يد الأسقف أو الكاهن، حيث يتحتّم الصلاة من أجل قبول الروح القدس.

وفي تسجيلات أعمال الرسل ربما يحل الروح القدس بعلاماته وقوته قبل المعمودية فتتم المعمودية بناء على حلوله، وذلك تشجيعاً لدخول الأُمم أو تشجيعاً للتلاميذ لقبول بولس شاول مضطهد الكنيسة المرعب، كما حدث لبولس الرسول (أع ٩: ١٧و١٨)، وكما حدث لكرنيليوس الأُممي وأهل بيته الذين تكلّموا بألسنة قبل المعمودية (أع ١٠: ٤٤-٤٨).

ولكن معمودية الروح القدس ومواهبه لا تُغني عن معمودية الماء، بل في هذه الأمثلة الاستثنائية كانت معمودية الروح القدس مؤهِّلاً قوياً لإجراء معمودية الماء بدون خوف.

وقد فسَّر بطرس الرسول حلول الروح القدس على كرنيليوس وأهل بيته وموهبة التكلُّم بالألسنة التي نطقوا بها **قبل معمودية الماء بأنها معمودية الروح القدس المباشرة بدون واسطة:**

+ «**فلما ابتدأت أتكلّم حلَّ الروح القدس عليهم كما علينا أيضاً في البداءة، فتذكّرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمَّد بماء وأمَّا أنتم فستعمَّدون بالروح القدس.**» (أع ١١: ١٥و١٦)

ويُلاحَظ كلمة الرب التي يذكرها هنا بطرس الرسول «**ستعمَّدون بالروح القدس**» حيث ستعمَّدون **مبني للمجهول أي المعمودية تتم بواسطة آخر غير الرسل** وغير الإنسان عموماً، وهنا يذكر الرب ويتذكّر بطرس قول الرب أن الشخص الذي سيعمِّد هو الروح القدس نفسه أو الله، أي أن المعمودية ستتم بواسطة الله بالامتلاء من الروح القدس، ولكن يتحتّم تكميل المعمودية بالماء. كما يُلاحَظ أن بحلول الروح القدس كانوا ينطقون بألسنة جديدة تأكيداً أنه هو الروح القدس الناطق في الأنبياء وهذا كشف واضح لشخصيته الإلهية.

- **(أع ١١: ٢٧و٢٨)**: «وفي تلك الأيام انحدر أنبياء من أُورشليم إلى أنطاكية وقام واحد منهم اسمه أغابوس **وأشار بالروح** أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة».

هنا استمرار لعمل الروح القدس الأول منذ القديم أنه ناطق بالنبوَّة في الأنبياء، حيث لا الأنبياء ولا النبوَّة انقطعت بمجيء المسيح وحلول الروح القدس، بل امتدت لتشمل الأمور السمائية المزمعة

وحياة الدهر الآتي، أي البشارة بملكوت السموات والحياة الأبدية، لتصير هي اللون الطاغي لعمل الروح القدس بالنبوَّة في العهد الجديد.

- (أع ١٣: ٢-٤): «**وبينما هم يخدمون الرب ويصومون، قال الروح القدس افرزوا لي برنابا وشاول للعمل** الذي دعوتهما إليه ... فهذان **إذ أُرسلا من الروح القدس** انحدرا إلى سلوكية ...»

الروح القدس يقتحم الخدمة ويتجلَّى هنا كمدبِّر للخدمة، والداعي للخدَّام، والمرسِل للخدام بصورة شخصية واضحة منقطعة النظير، إنما في إطار من الصوم والصلاة والاجتهاد في الخدمة.

وهكذا يتضح أن الروح القدس صار هو **قائد الخدمة، أي البشارة بالمسيح، ومدبِّرها والمتولِّي شئونها في الكنيسة.**

- (أع ١٣: ٩-١١): «وأمَّا شاول الذي هو بولس أيضاً **فامتلأ من الروح القدس وشخص إليه** (إلى عليم الساحر) وقال: أيها الممتلئ كل غش وكل خبث، يا ابن إبليس، يا عدو كل بر، ألا تزال تُفسد سبل الله المستقيمة؟ فالآن هوذا يد الله عليك فتكون أعمى لا تُبصر الشمس إلى حين. ففي الحال سقط عليه ضباب وظلمة فجعل يدور ملتمساً مَنْ يقوده بيده».

هنا الروح القدس يقتحم الموقف، ويتجلَّى في الخدَّام والخدمة كحارس للإيمان وصحة العقيدة، مؤدِّب بقسوة كل محاولة لإفساد طريق المسيح، إنما ببرهان ومعجزة وليس بمجرَّد سطوة الإنسان.

- (أع ٨: ١٨-٢٣): «ولمَّا رأى سيمون أنه **بوضع أيدي الرسل يُعطَى الروح القدس، قدَّم لهما دراهم** قائلاً: أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان حتى أي مَنْ وضعت عليه يديَّ يقبل الروح القدس. فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم. ليس لك نصيبٌ ولا قرعةٌ في هذا الأمر. لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله. فتُبْ من شرِّك هذا واطلب إلى الله عسى أن يُغفَر لك فكر قلبك. لأني أراك **في مرارة المر ورباط الظلم**».

وهذه الحادثة قد رسخت في عمق أعماق اللاشعور بل والشعور أيضاً في الكنيسة كلها وعلى مدى كل العصور، وأسمت هذه المصيبة العظمى أي شراء المواهب بدراهم "بالسيمونية". وهكذا وضع الروح القدس في قانون الكنيسة لوضع اليد بالمال أو بالطرق الأخرى الملتوية لنوال الأسرار الكنسية المختلفة، تحذيراً لا يُمحى وسابقة خطيرة أسماها بطرس الرسول: «مرارة المر ورباط الظلم».

– (**أع ١٣: ٥٢**): «وأمَّا التلاميذ فكانوا **يمتلئون من الفرح والروح القدس**».

علامة مميِّزة لم تفارق خدَّام المسيح الأتقياء المملوئين من الروح القدس حتى وفي أشد الأحزان والأهوال والضيقات، وهذه العلامة هي **الملء من الفرح مع الملء من الروح القدس، فيستحيل أن يحل الروح القدس في الخدَّام الأمناء إلاَّ ومعه الفرح.**

– (**أع ١٥: ٢٨و٢٩**): «**لأنه قد رأى الروح القدس ونحن** أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عمَّا ذُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا ...».

هنا يقف الروح القدس بشخصه محسوساً على رأس مجمع التلاميذ، كمقرِّر أعلى لقانون السلوك المسيحي للأُمم الداخلين في الإيمان، ويبرز الرسل شخصية الروح القدس كما أحسوه كمن يرى ويسمع ويتكلَّم ويقرِّر بمسئولية القاضي والمشرِّع للكنيسة الجديدة.

– (**أع ١٦: ٦و٧**): «وبعدما اجتازوا في فريجية وكورة غلاطية **منعهم الروح القدس** أن يتكلَّموا بالكلمة في أسِيَّا، فلما أتوا إلى ميسيا **حاولوا أن يذهبوا إلى بيثينية فلم يدعهم الروح**».

هنا المنع بلغ حد الحصار إمعاناً في ظهور تدخُّل الروح القدس السافر كمقتحم خطة الخدمة بأكملها.

هنا يبرز الروح القدس بصورة قائد ومشرف أعلى يعطي السماح للخدَّام بالكلام أو يمنعه، ويعطي التصريح للخدَّام بالمسير أو يمنعه. شيء مذهل للعقل! فالروح القدس يضطلع بمهمة لا ترقى إلى العقل البشري، **لأنه إذ يرى الحوادث المستقبلية ويكشف المخبأ في الطريق، يتصدَّر مسيرة الخدَّام كقائد لا مثيل له في البشر، مكمِّلاً عجز الإنسان وفقدانه رؤيته البعيدة، ليحفظ الخدَّام والخدمة من المهالك، ويمنع الخدَّام عن الكلام في غير زمانه أو مكانه حتى لا تُلام الخدمة أو تُحتقر.**

وكل المطلوب من الخدَّام إنما هو شدة الحساسية لطاعة صوته أولاً بأول، وهذه إحدى خصائص الممتلئين من الروح القدس المعيَّنين من الروح وبالروح للخدمة، إذ يكونون محمولين بالروح دائماً يسيرون ويقفون، يتكلَّمون ويصمتون، بتدبير النعمة.

– (أع ١٦: ٩و١٠): «وظهرت لبولس **رؤيا في الليل** رجل مكدوني قائم يطلب إليه ويقول اعبر إلى مكدونية وأعنا. فلما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية **متحقّقين أن الرب قد دعانا لنبشِّرهم**».

كلمة: «متحقّقين» تكشف عن تدخُّل قوي للروح القدس.

الروح القدس يتحوَّل سريعاً من قائد يحرِّك قافلة الخدمة علناً في الصحو بروح النبوَّة الناطق في التلاميذ، إلى قائد يحرِّكها بالرؤيا في الليل أثناء النوم؛ فطرق قيادة الروح القدس لا يمكن حصرها وهو الذي يختار الأنسب بالنسبة للزمان والمكان وحالة الإنسان نفسه، وهكذا انتقلت الرؤيا من العهد القديم إلى العهد الجديد كإحدى وسائط التوجيه والإرشاد للروح القدس.

– (أع ٢٠: ٢٢و٢٣): «والآن ها أنا أذهب إلى أُورشليم **مقيَّداً بالروح** لا أعلم ماذا يصادفني هناك، غير أن **الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً إن وُثقاً وشدائد تنتظرني**».

الروح القدس يقيِّد الخادم كما تُقيَّد الذبيحة ويسوقه إلى إكليل آلامه بحسب الخطة التي يرسمها لمجد المسيح والكنيسة؛ هكذا اقتيد المسيح بالروح بعد الملء والمسحة على الأُردن ليُجرَّب وحيداً على الجبل من إبليس، وهكذا يُجرَّب خدام المسيح لغاية وحيدة «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو ١٤: ٣٠)، أي لتتجلَّى حياة الخادم أنها بلا لوم ولا شكوى أمام الله ـ هنا يبرز الروح القدس كشخص يقتاد بولس بالقوة.

– (أع ٢٠: ٢٨): «احترزوا إذاً **لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس** فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها **بدمه**».

بهذا القول صار راسخاً في إيمان الكنيسة أن الروح القدس هو الذي يقيم الأسقف وإلاَّ فقيامه باطلاً، والروح القدس يقيم الأسقف ليرعى "كنيسة الله" وليس كنيسة الأسقف، والله الذي اقتنى لنفسه الكنيسة واشترى رعيتها بدمه المسفوك على الصليب يَغِيرُ عليها جدًّا، على أسقفها وعلى

رعيتها معاً كما يغير على دمه لأنه يثمنها بدمه أي بحياته.

الروح القدس تسجَّل في القانون الكنسي بحسب منطوق طقس الرسامة **أنه هو المدبِّر للنظام الكنسي، يختار أعضاءه ويقودهم باعتبار أن الكنيسة أسقفاً ورعيةً هي كنيسة الله المقتناة بالدم الإلهي.**

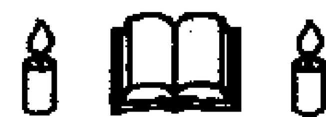
وبولس الرسول يحذِّر الأساقفة أن يحترزوا، أي يخافوا ويرتعبوا، لأنفسهم لئلاَّ يزدروا بالدم الإلهي ويُحسبوا مقاومين للروح القدس إذا ازدروا أو أهملوا واجبات قداسة أنفسهم أو أهملوا واجبات الرعية من جهة التعليم ومعاضدة الضعفاء؛ أو ذهبوا وراء شهوة الذهب والفضة ويذكرهم بقانون المسيح: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع ٢٠: ٣٥)، ونجد كل هذا في الوصايا التي تُتلى على الأسقف عند الرسامة.

– **(أع ٢١: ١٠و١١)**: «... نبي اسمه أغابوس، فجاء إلينا وأخذ منطقة بولس وربط يدي نفسه ورجليه وقال: **هذا يقوله الروح القدس الرجل الذي له هذه المنطقة هكذا سيربطه اليهود** في أُورشليم ويسلمونه إلى أيدي الأُمم».

بنفس طريقة العهد القديم في التنبُّؤ بالحوادث الآتية التي تخص الكنيسة، **كان الروح القدس يعمل باهتمام شديد وبلا هوادة لكي يعلن أن كل شيء في الكنيسة مكشوف وعريان أمام عيني الله، وأن كل الكنيسة وخدَّامها الأمناء إنما يسيرون طبق خطة إلهية سبق فعيَّنها لنكون مشابهين صورة ابنه.** فبولس الرسول يجوز نفس ما جازه المسيح نفسه سواء من جهة التنبُّؤ بما سيحدث في أُورشليم وربما بنفس الكلمات أو في ما تمَّ بالفعل. وصار هذا جزءًا هاماً في تراث الكنيسة ووعيها، فالشهيد أعلى رتبة من القديس.

– **(أع ٢٨:٢٥)**: «حسناً **كلَّم الروح القدس** آباءنا بإشعياء النبي».

هنا اعتقاد الكنيسة الراسخ منذ عهد الرسل حتى اليوم أن كل الأنبياء في القديم إنما كتبوا ونطقوا مسوقين من الروح القدس. فالروح القدس كان يمهِّد للخلاص والفداء الذي بدأ يبني عليه كنيسة المسيح في العهد الجديد.



٢ ـ استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً

في الرسائل

(أ) ـ الروح محيي:

- (رو ١ :٣و٤): «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة **روح القداسة** بالقيامة من الأموات».

هنا يضع بولس الرسول "الروح القدس" الذي في المسيح والعامل فينا بالقوة التي استُعلنت في ذروتها بإقامة يسوع المسيح من الأموات، مقابل الجسد الذي صار للمسيح والذي أخذه من نسل داود. "فالروح القدس" **الذي استُعلن بقوة في المسيح بالقيامة من الأموات، هو استعلان للاهوت المسيح**، تماماً كاستعلان تجسُّده من العذراء من نسل داود.

فإن كان قد تعيَّن ابن داود بتجسُّده من نسل داود **فهو** تعيَّن ابناً لله بقيامته من الأموات بقوة الروح القدس الذي فيه. وسيان أن نقرأ أن الله أقامه «الله الآب الذي أقامه من الأموات» (غل ١:١)، أو أن قيامته كانت بقوة من جهة روح القداسة، أو أنه قام بذاته: «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨)؛ فالقيامة هنا هي إعلان مباشر عن لاهوته، ولاهوت المسيح هو واحد فيه وفي الآب وفي الروح القدس.

وفي موضع آخر يقول بولس الرسول مشيراً إلى الاتحاد والتساوي القائم بين المسيح وبين الروح القدس عند تقديم ذبيحته إلى الله أبيه هكذا: «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي، **قدَّم نفسه لله** بلا عيب يُطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي.» (عب ٩:١٤)

هنا المسيح كرئيس كهنة **يتقدَّم حاملاً دمه بالروح القدس الأزلي** إلى ا لله أبيه لتطهير وتقديس شعبه.

وهنا "**دم المسيح بالروح القدس**" عامل تطهير وتقديس واحد لا ينفصل، ويعمل لتوصيل الحياة الأزلية التي فيه (بروح أزلي) إلى الذين يؤمنون به.

- **(رو ٨:٩)**: «وأمَّا أنتم فلستم في الجسد بل **في الروح**، إن كان روح الله ساكناً فيكم. ولكن إن كان أحدٌ ليس له روح المسيح (روح أزلي) فذلك ليس له».

- (**رو ٨: ١١**): «وإن كان **روح** الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً **بروحه** الساكن فيكم».

هنا ينتقل بولس إلى الإيمان بأن الروح القدس الذي أقام المسيح من الأموات إذا سكن فينا فنحن نصير أحياء "في المسيح" بالروح، ونكون من خاصته، وأننا حتماً سنقوم من الأموات، بل والآن نحسب أننا أموات بالجسد وأحياء بالروح بسبب بر المسيح الذي يُحسب لنا من الآن.

وهكذا يؤمن بولس الرسول، وكل الكنيسة معه، أن المسيح الذي قام من الأموات يكون حاضراً فينا إذا سكن الروح القدس فينا الذي هو أيضاً روح المسيح، فنحن نعيش الآن قيامة المسيح بالروح القدس أفراداً وكنيسة، وهذا هو اتحادنا، وهذا عين ما يقوله بطرس الرسول أيضاً:

+ «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاءٍ حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات.» (١بط ١: ٣)

فقيامتنا من الأموات مع المسيح التي ننالها بسكنى الروح القدس تجعلنا شركاء الآن في حياته، أي شركاء في مجده وفي بنوته للآب بالتبني كهبة، لأننا نصير بواسطة الروح القدس متحدين به كأعضاء في جسده وهو كالرأس لنا، فلا نعود نحيا نحن بل المسيح يحيا فينا بالروح القدس.

(ب) الروح القدس يلد (يخلق ثانية) الإنسان ويتبناه لله:

- (**رو ٨: ١٤-١٧**): «لأن كُلَّ الذين ينقادون بروح الله، فأُولئِكَ هُم أبناءُ اللهِ. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوفِ، بل أخذتم روح التبنّي الذي به نصرخ: يا أَبَا الآبُ! الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنَّا أولاداً فإننا ورثةٌ أيضاً، ورثةُ الله ووارثون مع المسيح. إن كنَّا نتألَّم معه لكي نتمجَّد أيضاً معه».

هنا الاتحاد بالمسيح نشأ من سكنى الروح القدس ونيل حالة القيامة من الأموات، والاتحاد مع المسيح في قيامته يصوِّره بولس الرسول أنه أنشأ حالة تبني لله أيضاً، لأن هبة القيامة من الأموات تعني حالة مصالحة مع الله الآب، أي انتقالاً من عبودية إلى بنوَّة. ليلاحظ القارئ الربط الذي يهدف إليه بولس الرسول وكأنما يقول بولس: "لأن الروح القدس هو الذي أقام يسوع المسيح من الأموات وبالقيامة من الأموات تعيَّن في الحال أن المسيح هو ابن الله أي تبرهن لاهوته".

كذلك فإنه بسكنى الروح القدس فينا ننال حتماً القيامة من الأموات مع المسيح، أي الحياة الأبدية، ونُحسب في الحال أننا أبناء مع المسيح ولكن بالتبني، أي أننا نصير بالنعمة شركاء الطبيعة الإلهية، وهذا ما يسميه الآباء "بالتألُّه"، وفي هذا قال المسيح إن الروح القدس يلدنا لله: «إن كان أحد **لا يولد من الماء والروح** لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو ٣:٥). وبولس الرسول ينتقل من الميلاد إلى المسير فيؤكِّد أن: «**المنقادون** بروح الله أُولئك هم أبناء الله.» (رو ٨:١٤)

+ «ثم بما أنكم أبناءٌ أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أبَا الآبُ. إذاً لستَ بعدُ عبداً بل ابناً. وإن كنتَ ابناً فوارثٌ لله بالمسيح.» (غل ٤: ٦و٧)

(ج) الروح القدس يحرِّرنا ويتدرَّج بنا في الكمال المسيحي بالاستنارة:

- (٢كو ٣:١٧و١٨): «وأمَّا الرب فهو الروح وحيث روح الرب فهناك حرية، ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس) كما في مرآة نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح».

هنا يقارن الرسول بولس بين عمل الناموس وعمل الروح القدس في الإنسان، فالناموس أسماه خدمة الموت، وخدمة الدينونة، خدمة الحرف، والحرف يقتل، خدمة الزائل.

والروح القدس أسماه خدمة المجد بالأولى، وخدمة البر في مجد، خدمة الروح القدس، والروح يحيي، وخدمة الدائم.

فإن كان وجه موسى لمع من جراء خدمة الناموس لدرجة أن الشعب طالبه بوضع برقع حتى ينظروا إلى وجهه، فإن قلوبنا يشرق فيها الروح القدس لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع (٢كو ٤:٦).

وإن كان شعب إسرائيل لم يستطع النظر إلى وجه موسى الزائل بسبب لمعانه من جراء خدمة الناموس فنحن ننظر مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع) كما في مرآة ونتغيَّر إلى تلك الصورة عينها (أي وجه المسيح) من مجد إلى مجد كما من الرب الروح (أي بالروح القدس الساكن فينا). وأننا غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى (وجه موسى) بل إلى التي لا تُرى (وجه المسيح)، لأن التي تُرى وقتية (زائلة) وأمَّا التي لا تُرى فأبدية (٢كو ٤:١٨).

وكما أن موسى كان عليه أن ينزع البرقع حينما يدخل لمقابلة الرب للتكلُّم معه (خر

٣٤:٣٤)، كذلك الآن يسقط البرقع من قلوبنا أي الناموس والحرف عندما يشرق الروح القدس فينا باستنارة معرفة مجد الله الذي في وجه يسوع فنتخاطب معه كبنين «يَا أبا الآب».

نلاحظ هنا أن بولس الرسول يسمّي الرب الذي كان موسى يدخل ويتكلّم معه **بالروح القدس «وأمَّا الرب فهو الروح»** (٢كو ٣: ١٧)، وأنه الآن يعمل ويشرق في قلوبنا لحساب المسيح، وبالتالي لحساب الله الآب: [لإنارة معرفة **"مجد الله"** في **"وجه يسوع المسيح"**].

(د) الروح القدس يوحِّد المؤمنين في جسد المسيح فيصيروا جميعاً أعضاءً فيه كنيسة واحدة بالروح القدس:

- (١كو ١٢:١٣): **«لأننا جميعاً بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحداً».**
- (١كو ١٢:٢٦): «فإن كان عضو واحد يتألّم فجميع الأعضاء تتألّم معه وإن كان عضو واحد يكرَّم فجميع الأعضاء تفرح معه».
- (١كو ١٢:٢٧): **«وأمَّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً».**

كيفية جمع الأعضاء وجوهر هذا الجسد الواحد:

+ «صَعِدَ أيضاً فوق جميع السماواتِ، لكي يملأ الكُلّ. وهو أعطى البعضَ أن يكونوا رُسُلاً ، والبعضَ أنبياءَ، والبعضَ مبشِّرينَ، والبعضَ رُعاةً ومعلِّمينَ، لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمةِ، لبنيانِ جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسانٍ كاملٍ. إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف ٤: ١٠-١٣)

تأمين وحدة الجسد:

+ «كي لا نكون في ما بعد أطفالاً مضطربين ومحمولين بكل ريح تعليم بحيلة الناس بمكر إلى مكيدة الضلال، بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركَّباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل **حسب عمل** (يعمل) **على قياس كل جزء يُحصِّل نمو الجسد لبنيانه في المحبة.»** (أف ٤: ١٤- ١٦)

هنا الروح القدس يوظِّف المواهب في الأفراد لحساب ربط الأعضاء وعملها وبنيانها لتكوين وحدة روحية عضوية للكنيسة كاملة في الإيمان والحب تنمو وتتحرَّك وفق مشيئة الرأس المسيح!

تأمين عمل الروح القدس:

+ «وتتجدَّدوا بروح ذهنكم وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق ... لأننا بعضنا أعضاء البعض. اغضبوا ولا تخطئوا ... ولا تحزنوا روح الله القدوس الذي به خُتمتم ليوم الفداء.» (أف ٤: ٢٣-٢٦و٣٠)

تزييف عمل الروح القدس بالوحدة والفرح على أساس الخمر:

+ «ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، **بل امتلئوا بالروحِ. مكلّمين بعضكم بعضاً** بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب. شاكرين كل حين على كل شيءٍ في اسم ربنا يسوع المسيح، لله والآب. **خاضعين بعضكم لبعض في خوف الله**» (أف ٥: ١٨-٢١) حيث مخافة الله هنا هي خاصية الوحدة كدليل على وجود الروح القدس.

- (أف ٢: ١٦و١٨-٢٢): «ويُصالِحَ الاثنين في جسدٍ واحدٍ مع الله بالصليبِ، قاتلاً العداوةَ به ... لأن به **لنا كلينا قدوماً في روحٍ واحدٍ إلى الآبِ**. فلستم إذاً بعد غُرباءَ ونُزلاً، بل رعيَّةٌ مع القديسين وأهلِ بيتِ الله، مبنيِّين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوعُ المسيح نفسه حجرُ الزاويةِ، الذي فيه كل البناء مركَّباً معاً، ينمو هيكلاً مقدَّساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً **مبنيُّونَ معاً، مسكَناً للهِ في الروحِ**».

- (أف ٤: ٣و٤): «مجتهدين أن **تحفظوا وحدانية الروح** برباط السلام. جسدٌ واحِدٌ، وروحٌ واحِدٌ، كما دعيتم أيضاً في رجاءِ دعوتكم الواحد».

- (١بط ٢: ٥): «كونوا أنتم أيضاً مبنِّيينَ - **كحجارةٍ حيَّةٍ - بيتاً روحيًّا، كهنوتاً مقدَّساً، لتقديم ذبائح روحيَّةٍ** مقبولةٍ عند الله بيسوع المسيح».

- (١كو ٣: ١٦و١٧): «أما تعلمون **أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم**. إن كان أحد يُفسد هيكل الله فسيفسده الله **لأن هيكل الله مقدَّس الذي أنتم هو**».

هذه العقيدة صارت هي الأساس في مفهوم قداسة الكنيسة وهيبتها، وهي السر في أن أبواب الجحيم لن تقوى عليها، لأنها «جسد المسيح السرِّي»، والروح القدس هو الذي يملأها ويجمع ويوحِّد الأعضاء فيها ويضمهم إلى شركة القديسين المعتبرين **«أهل بيت الله»**.

فالروح القدس بعد أن يوحِّد المؤمن في جسد المسيح، يوحِّد المؤمنين معاً في هذا الجسد الواحد

مع جميع القديسين، فالروح القدس **يهب المؤمن شخصيته المسيحية ثم يعود الروح القدس ويهب الكنيسة شخصيتها الإلهية وأخلاقيتها.**

(هـ) الروح القدس يوزِّع المواهب على المؤمنين باعتبارهم أعضاء في جسد واحد، لتصير المواهب جميعاً لخدمة الجسد الواحد (الكنيسة) بمشيئة الروح القدس الواحد، أي لمجد المسيح! «ذاك يمجِّدني»:

- (١كو ١٢: ٤): «فأنواع مواهب موجودةٌ، ولكن الروح واحدٌ».

- (١كو ١٢:٧-١٣): «**ولكنه لكل واحدٍ يُعطَى إظهار الروح للمنفعة.** فإنه لواحدٍ يُعطى بالروح كلام حكمةٍ، ولآخر كلام عِلمٍ بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمانٌ (ينقل الجبال) بالروح الواحد، ولآخر مواهب شفاءٍ بالروح الواحد. ولآخر عمل قوات، ولآخر نبوَّةٌ، ولآخر تمييز الأرواح، ولآخر أنواع ألسنةٍ، ولآخر ترجمة ألسنةٍ. **ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه، قاسماً لكل واحدٍ بمفرده، كما يشاء.** لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة، **هي جسد واحد؛ كذلك المسيح أيضاً، لأننا جميعنا بروحٍ واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد،** وجميعنا سُقينا روحاً واحداً ...».

- (١كو ١٢:٢٧و٢٨): «وأمَّا أنتم فجسد المسيح، وأعضاؤه أفراداً. فوضع الله أُناساً في الكنيسة (جسده) أولاً رُسلاً، ثانياً أنبياءَ، ثالثاً معلِّمين، ثم قوَّات، وبعد ذلك مواهب شفاء، أعواناً تدابير (قوة على التدبير)، وأنواع ألسنة».

وهكذا من مجموع المؤمنين غير المنسجم وغير المؤتلف، يصنع الروح القدس شخصية الكنيسة المنسجمة المؤتلفة العاملة بالروح الواحد والشاهدة بفم واحد. هنا شخصية الروح القدس الفريدة تظهر للوجود.

(و) الروح القدس يضطلع بحفظ الوديعة الصالحة، أي التقليد المسلَّم في الكنيسة بالإيمان، وذلك من خلال سكناه في الأفراد الأمناء له:

- (٢تي ١:١٤): «احفظ الوديعة الصالحة (التقليد παράδοσις) بالروح القدس الساكن فينا».

وهكذا بعد أن يبني الكنيسة بالمواهب المتآزرة من داخل الأفراد وكأنها هيكل روحاني ذو أعضاء مترابطة، يضطلع بحفظ التقليد الإيماني الموحى به للرسل، بواسطة موهبة خاصة يهبها لبعض الأفراد الأمناء الساكن فيهم!! لضمان عمل الكنيسة في وحدة الإيمان لبنيان الخدمة حتى تنتهي الكنيسة إلى ملء قامة المسيح.

(ز) الروح القدس بعد أن يستودع مواهبه في قلوب المؤمنين الساكن فيهم، ينتظر منهم أن يضرموها بالصلاة والأعمال الصالحة لكي تعمل عملها في الكنيسة لأن المواهب الروحية تحتاج إلى الصلاة والأعمال الصالحة لتظل متأجِّجة:

هنا شخصية الروح القدس لا تبتلع شخصية المؤمن ولكن تجلِّيها بالموهبة.

- (١تي ٤:١٤و١٥): «**لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوَّة مع وضع أيدي القسوسية، اهتم بهذا وكن فيه** لكي يكون تقدمك ظاهراً في كل شيء».
- (٢تي ١:٦): «**فلهذا السبب أُذكِّرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ**».
- (تي ٣:٥-٨): «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغُسْلِ الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس، الذي سكبه علينا بغنى بيسوع المسيح مخلِّصنا، حتى إذا تبرَّرنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية. **صادقة هي الكلمة وأريد أن تقرِّر هذه الأمور لكي يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالاً حسنة فإن هذه الأمور هي الحسنة والنافعة للناس**».
- (رو ١٢:١١): «**غير متكاسلين في الاجتهاد، حارِّين (ملتهبين) في الروح**، عابدين الرب».

(ح) الروح القدس يظل يشهد للمسيح في الكنيسة داخل المؤمنين بواسطة المواهب التي يمنحها للأفراد، وبواسطة الآيات والمعجزات التي يجريها بواسطتهم إنما حسب إرادته هو:

- (عب ٢:٤): «شاهِداً الله معهم بآياتٍ وعجائب وقواتٍ متنوِّعةٍ ومواهب الروح القدس حسب إرادته».
- (رو ١٥:١٨و١٩): «لأني لا أجسر أن أتكلَّم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي لأجل

إطاعة الأُمم بالقول والفعل بقوة آيات وعجائب بقوة روح الله».

- (١كو ٢: ٤): «وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المُقنِع، بل ببرهان الروح والقوة».

- (١تس ١: ٥): «إن إنجيلنا لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضاً وبالروح القدس وبيقين شديد».

(ط) التنكر لشركة الروحِ القدس والازدراء بها، تنكرٌ للاهوت المسيح شخصياً وبمثابة صلبه ثانية والتشهير به:

فالشهادة للاهوت المسيح شهادة للروح القدس والازدراء بالدم الإلهي ازدراء بالروح القدس والعكس صحيح، ولا يمكن فصل تكريم أو إنكار المسيح عن الروح القدس. فارتباط الشخصين في ذاتهما وفينا لا يمكن الفصل بينهما، وهذا ما فهمه القديس أثناسيوس تماماً في موضوع التجديف على الروح.

- (عب ١٠: ٢٩): «فكم عقاباً أشر تظنون أنه يُحسب مستحقاً مَنْ داس ابن الله وحَسِبَ **دم العهد الذي قُدِّس به دنساً، وازدرى بروح النعمة**».

- (عب ٦: ٤-٦): «لأن الذين استُنيروا مرَّة (المعمودية) وذاقوا الموهبة السماوية (التجديد والخلقة والميلاد من فوق) **وصاروا شركاء الروح القدس** (قبلوا حلول الروح القدس بالمعمودية) وذاقوا كلمة الله الصالحة (الإنجيل) وقوات الدهر الآتي (معونة الملائكة) وسقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة **إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويُشَهِّرُونَه**».

خامساً عصر ما بعد الرسل

بقيت صحة تعاليم الرسل واضحة في ما يختص بشخص الروح القدس ضمن الكيان أو الجوهر اللاهوتي للثالوث في تسليم قانون التعميد، «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». وقد اكتشفت قوانين التعميد المبكِّرة جدًّا في تقليد القرون الأُولى وهي تحمل طابع الإيمان والتعليم بوحدة الثالوث(١).

كليمندس الروماني:

وبجوار قوانين التعميد المحلية في الكنائس تصلنا من الرسالة الأُولى إلى كورنثوس للقديس كليمندس الروماني - وهو تلميذ الرسل - صورة أصيلة مطابقة لتعليم الرسل من جهة "**انسكاب**" الروح القدس، ومن جهة "**شخص**" الروح القدس، ومن جهة "**الجوهر الإلهي**" للروح القدس:

[لقد وُهبتم جميعاً سلاماً عميقاً وفيراً وشوقاً غير محدود نحو عمل الصلاة بينما **انسكب الروح القدس عليكم بفيض**].

[بهذا نحتمي برحمته من الدينونة القادمة. لأنه أين يهرب كل منا من يده القادرة؟! أي عالم يمكنه أن يختفي هارباً من وجه الله؟! إذ يقول الكتاب: «**أين أذهب من روحك، ومن وجهك أين أهرب؟!** إن صعدتُ إلى السموات فأنت هناك، وإن فرشتُ في الهاوية فها أنت» (مز ١٣٩: ٧و٨). أين يمكن لإنسان أن يهرب ممن يحتضن كل شيء؟!]

[حي هو الله، وحي هو يسوع المسيح **وحي هو الروح القدس وحي هو إيمان ورجاء المختارين**.] (الرسالة الأُولى لكليمندس الروماني ٢و٢٨و٥٨)

كذلك فإن تعاليم كليمندس تأتي في كمال انطباقها على علاقة الروح القدس بقانون الأسفار المقدَّسة (انظر: الرسالة الأُولى لكليمندس الروماني ٤٥و٨و١٣و١٦و٢٢و٤٢).

برناباس:

ونقابل في رسالة برناباس بصورة مميَّزة استمرار التعليق على الإلهام الموجود في الأسفار (٩-١٠)

(1) Hahn, *Bibliothek der Symbole*, pp. 42,66; Geb. hardt, Patr., ap. opp. fasc. 1,2, p. 15 sq.

كذلك موضوع انسكاب الروح القدس على الكنيسة كلها (١).

إغناطيوس الأنطاكي:

في رسائله المختصرة نجده يسمِّي الروح القدس واحداً مع الآب والابن مع تمييز خاص لشخصه (ماغنيزيا: ١٣)، كذلك موضوع انبثاقه من الآب (فيلادلفيا: ٧)، وإرساله بواسطة الابن (أفسس: ١٧)، وعمله في الحَمْل الإلهي الإعجازي للعذراء (أفسس: ١٨)، وفي تقديس (مسحة) أعضاء المسيح (أفسس: ٩، سميرنا: ١٣)، كما نجد في حالة استشهاده ذكره للروح القدس في تمجيده لله، كذلك نجد عين الأمر في استشهاد القديس بوليكارب (استشهاد القديس بوليكارب ١٤-٢٢) (استشهاد القديس إغناطيوس ٧١).

الأسقف "راعي هرماس":

ولكن من بين كل ما وصلنا من كتابات عصر ما بعد الرسل للآباء الرسوليين، فإنه يندرج ما خلفه لنا "راعي هرماس" تحت أكثر الكتابات خصوبة في الإشارات للروح القدس. ولو أن طريقة عرضه لموضوع الروح القدس تجعلنا في حيرة من تحديد صلاحيتها العقائدية، إلاّ أنه أحياناً يشير إلى أرواح كثيرة مرسلة بواسطة الروح القدس منوط بها تعليم وإنارة بصيرة الناس، ونحن نجد إشارة إلى مثل هذا المعنى في رسالة يوحنا الأُولى: «أيها الأحباءُ، لا تصدِّقوا كل روحٍ، **بل امتحنوا الأرواح:** هل هي مِنَ ا للهِ؟ لأن أنبياءَ كذبةً كثيرينَ قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح ا للهِ: **كل روحٍ** يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو مِنَ ا للهِ ... مِنْ هذا نعرف روح الحقِّ وروح الضلال.» (١ íæ 4: ١-٦)

كذلك نجد إشارة إلى هذا المعنى أيضاً في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي: «يوحنا إلى السبع الكنائس التي في أسِيَّا. نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي ومن **السبعة الأرواح التي أمام عرشه.**» (رؤ ١: ٤)

وراعي هرماس يؤمن بشدة أن روح النبوَّة لا يزال مستمراً في عمله في الكنيسة، ويشير إلى أنه حائز لهذه العطية الخاصة بالإلهام.

ويعتقد بعض العلماء مثل "جبهارت" و"هارناك" أن راعي هرماس لم يكن يفرِّق بين الروح القدس وبين المسيح قبل تجسُّده(٢).

(2) Patrol. Ap. Opp. fasc. 3, p. 152 cited by *D.C.B.* p. 115.

القرن الثاني:

ابتدأ الزمن يتباعد عن منبع التقليد الرسولي نوعاً ما، وبظهور جماعة المدافعين عن الإيمان المسيحي بلاهوت الكلمة وبتحقيق أن كلمة الله هو هو المسيَّا يسوع المسيح المتجسِّد في ملء الزمان، بدأ ثقل الحوار والتركيز ينصبُّ على لاهوت الأقنوم الثاني، وبدأت الأنظار والمحاورات تبتعد عن مركز الروح القدس إلى الدرجة التي فيها بدأوا ينسبون "للكلمة" الصفات والأعمال الشخصية التي للروح القدس.

الرسالة إلى ديوجنيتس: وفيها نقرأ أن **"الكلمة هو الذي يختار الأشخاص كيفما يشاء ويتكلّم فيهم"، "وأنه بالكلمة تخصب الكنيسة وتنمو باستمرار".**

أمَّا ثيئوفيلس الأنطاكي: فيمتد ليرى أن **إلهام الأنبياء في العهد القديم هو من عمل الأقنوم الثاني: الكلمة: "الكلمة لأنه هو روح الله الذي كان يحل على الأنبياء ويتكلّم بواسطتهم"**(٣).

أمَّا يوستين، فإنه يحسب أن الحمل الإعجازي للعذراء هو من عمل "الكلمة" نفسه(٤).

ولقد ظل هذا المفهوم عالقاً في فكر الكنيسة عند كثيرين من مستقيمي الرأي حتى منتصف القرن الرابع ويُقرأ بوضوح في المواضع التالية(٥):

١ - إيرينيئوس ١:٥.
٢ - ترتليان: بركسيا: ٢٦.
٣ - كبريانوس: de Idol van.
٤ - إيلاريون: على الثالوث: ٢:٢٤و٢٦.

كذلك نجده عالقاً في تقليد الليتورجية في أنافورا سيرابيون، حيث نجد حلول الكلمة على الخبز والخمر وليس حلول الروح القدس.

ويعزِّز هذا التقليد ما ورد عن القديس أثناسيوس وغيره (انظر كتاب: "الإفخارستيا والقداس" للمؤلّف صفحة ٦٨٠و٦٨١).

ثيؤفيلس الأنطاكي: ولكن من جهة أخرى تُعتبر الكنيسة مدينة لهذا المدافع الشهيد بأول

(3) *Autol,* ii, 32; cited by *D.C.B.*, p. 115.

(4) *Apolog*., I. 33.

(5) *D.C.B.*, p. 115 & Dorner, I, 1, p. 392 *sq.;* Newman, *Tracts*, p. 320; Pref. of Benedict. Edition of St. Hilar., Migne, Patr. Lat. IX, p. 35 *sq.*

تسجيل للإصطلاح اللاهوتي الشهير "الثالوث τριάς"، في ما يختص بـاللاهوت في ذاتـه! [إن الثلاثـة أيام السابقة قبل أن يصير النور هي مثال للثالوث، الله وكلمته وحكمته]، وهذا نصه باليوناني:

[αἱ τρεῖς ἡμέραι πρὸ τῶν φωστήρων γεγονυῖαι τύποι εἰσὶν τῆς τριάδος, τοῦ Θεοῦ καὶ τοῦ λόγου αὐτοῦ καὶ τῆς σοφίας αὐτοῦ.]

وهنا يذكر الثالوث بوضوح مشـيراً إلى الشـخصين الواضحين: "الكلمـة" و"الحكمـة"، باعتبـار الحكمة هي الروح القدس حسب التقليد القديم الموروث. ويستمر هذا الكـاتب الرسـولي الملهـم في توضيح تحديد الأشخاص في الثالوث إنما في وحدة مطلقة.

يوستين: ولكن يخرج يوستين بفكرة جديدة تُعتبر بداية انحراف خطيرة، فهو يقول: "نحـن نضـع روح النبوَّة في المرتبة الثالثة ἐν τρίτῃ τάξις لأننا نكرِّمه مع الكلمة"، ويقصد بروح النبـوَّة نفـس الروح القدس(٦).

وهو صاحب نزعة غير سليمة على الإطلاق في جعل الـروح القـدس خاضعـاً وأدنـى مرتبـة مـن الكلمة، وهو الوحيد الذي يزعم أن الروح القدس "ملاك الله وقـوة الله الـتي أُرسـلت لنـا بواسـطة يسوع المسيح"(٧).

وقد وردت على لســانه في كتاباتـه جملـة مبهمـة خطـيرة بـلا أي معنـى ولا أصـل معطيـاً فيهـا "**الملائكة**" **المخلوقين** درجة من الكرامة ليست أقل من التي يعطيها للروح القدس(٨).

تلميذ يوستين المدعو تاتيان: لقد فاق معلّمه في الخروج عن التقليـد اللاهوتـي الصحيـح المسـلَّم من الرسل فإنه يضع الروح القدس "كخادم" للمسيح(٩).

أثيناغوراس: هنا نبتدئ نقترب مرَّة أخرى من العقيدة الكنسية السليمة التي بدأت تـأخذ قوتهـا وصحتها مرَّة أخرى من جهة الثالوث الأقدس المتساوي.

ولكن أثيناغوراس رأى في الروح القــدس عمـلاً غريبـاً علـى المفهـوم التقليـدي وهـو اضطلاعـه

(6) *Apolog*., I, 13; infra 60.
(7) *Trypho,* 116, cf. Neander, *Hist. of Christ. Dogma*., I. 137.
(8) *Apology*, I. 6; cf. Bull, ii.iv, chap. 8 & Kaye J.M., p. 52.
(9) *Adv. Greec* B. cited by *D.C.B*. p. 115.

بوظيفة رباط الوحدة في اللاهوت[10]. (وهذا الاتجاه رفضته الكنيسة بالرغم من أخذ القديس أغسطينوس به).

والذي رفضه بشدة ووضوح هو القديس أثناسيوس في حديثه الثالث ضد الأريوسية:

[وإن الروح القدس لا يوحِّد الكلمة بالآب، لأن الكلمة لا يشترك في الروح القدس حتى يصير في الآب، ولا الابن يستقبل أو يستلم الروح القدس بل بالحري يعطيه بنفسه للجميع، فالروح لا يوحِّد الكلمة بالآب ... فالابن هو في الآب لأنه كلمته وشعاعه.][11]

كذلك فإن أثيناغوراس صاحب الفضل في توضيح جديد لعقيدة الانبثاق الجوهري للروح القدس من الله فهو يقول:

[إنه منه ينبثق وإليه يعود كشعاع الشمس أو كالنور المنبعث من النار.][12]

أمَّا خارج الكنيسة، أي لدى مجموعات الهراطقة، فكانت هناك قوتان تتصارعان معاً بشدة ضد الكنيسة: جماعة المونتانيين وجماعة الغنوسيين.

أمَّا **جماعة الغنوسيين**، فأخذوا شيئاً ما بما تقوله الكنيسة من جهة الروح القدس، وإنما بصورة مشوَّهة وعلى اتساع تحليلي، وكان زعيمها الأول "سيمون" وهو ساحر سفر الأعمال، وكان قبل عماده يُدعى من جميع الشعب «قوة الله العظيمة» (أع ٨: ١٠)، لِما كان يأتيه من معجزات. وكان قد تلقَّى بعض تعاليم الرسل في ما يختص بأن القوة الإلهية إنما تتصل مباشرة باسم الروح القدس كما هو مدوَّن بوضوح في سفر الأعمال (أع ٨: ٩-١٩)، ولكنه عاد من بعد عماده (من أيدي الرسل) وعزله عن الكنيسة، فادَّعى أن شريكته هيلانة هي "الباراكليت" وأن القوة التي تنبثق من الله هي قوَّة مؤنَّثة.

وجاءت جماعة "أوفيت Ophite" وقالت صراحة إن هذه القوة المؤنَّثة هي الروح القدس، وهي تتميَّز عن فكر الله، يقصدون بذلك "كلمته"[13]، وأن الكلمة مولود منها، وهي التي كلَّمته على الأردن.

(10) Athenagoras, *Legat.* 10; cited by *D.C.B.*, p. 115.

(11) Athanas., *Contra Arian, III against Arians*, ch. XXV; NPNF, 2nd ser., vol. IV, p. 407.

(12) Athenagoras, *Wisd.* vii. 25; *Legat.* 10, 24; cited by *D.C.B.*, p. 115.

(13) Iren., I., 23, 30.

أمَّا في نظام باسيليدس، فقد اعتبروا الروح القدس روحاً خادماً، وليس متحداً جوهرياً بالابن أو مساوياً له، وهكذا صارت بلبلة في الفكر خارج المحيط الكنسي.

أمَّا في نظام فالانتين، فقالوا بانبثاق الروح القدس ولكن ليس بصورة مباشرة من الله(١٤)، وإنه مساوي للمسيح؛ ولكنهم تبنُّوا كل الهرطقات التي ظلَّت متداولة حتى القرن الرابع والتي فنَّدها القديس أثناسيوس(١٥).

أمَّا جماعة المونتانيين، فيُشك أنهم أخذوا بشيء من عقيدة الروح القدس في الكنيسة، لأن العالم الألماني نياندر(١٦) قد أشار إلى أن موقف "مونتانس" و"ماكسيملا" في ما يختص بالروح القدس عندهم كان من وجهة نظر العهد القديم أكثر منه في العهد الجديد، وأنه لم يكن للفكر المونتاني تأثير كبير على الكنيسة، وسرعان ما انحل تحت ضغط الاضطهاد.

أمَّا جماعة اليهود المتنصرين، الذين ظلوا متمسكين بتقاليدهم العتيقة ورفضوا التقليد الرسولي من جهة الإيمان بالثالوث الأقدس، وهم في هذا الموضوع **جماعة الناصريين** Nazarenes، أخذوا برأي الغنوسيين فقالوا إن الروح القدس هو أيضاً قوة مؤنَّثة وأنها هي التي ولدت المسيح على الأُردن وأن الباراكليت هو أم المسيح(١٧).

والعجيب أن هذا الفكر أخذت به أيضاً جماعة هراطقة الإبيونيم اليهودية المتنصِّرة بزعامة كيرنثوس المبتدع، وقال إن الروح القدس قوة مؤنَّثة. وهكذا ظلَّت هذه السفاهة العقلية التحليلية الشيطانية عالقة بالكنيسة حتى القرن السابع - (وكان بعض أئمة هؤلاء الهراطقة قاطنين شبه الجزيرة العربية واليمن. لذلك فقد سمع بها القرآن وسُئل فيها فجحدها وقال فيها إن الله لم يلد ولم يولد **ولم يكن له صاحبة**، والقرآن على ضوء هذه الهرطقات محقٌّ في ما قال).

وجماعة هراطقة المونوأرخيين (أي وحدة الرأس أو الصدر)، وهي قريبة من جماعة الإبيونيم، يهودية متنصِّرة، وكان على رأسها ثيئودوتس المبتدع فكانت أصلاً مشغولة بجحد لاهوت المسيح وإنكار الثالوث، وزعماؤهم براكسياس ونوئيتوس وبيرللوس (بلاد العرب) وسابيليوس، فهؤلاء

(14) Iren., I. 2,4,5.

(15) Athanasius, *Ad Serap.*, 1:10.

(16) Neand., *Ch. H.*, ii. 207; Epiph., *Hear.* 48, II *sq.*

(17) Origen, *in Joann.*, II, 6.

جميعاً جحدوا الثالوث القائم على أقانيم متميِّزة، وقد تزعَّم براكسياس - حسب شرح ترتليان (براكسياس: ٩) - **فكرة أن الروح القدس هو أصل وجود الآب والابن.**

بل في روما ذاتها قام **كاليستوس بابا روما**، وألغى شخصية الروح القدس المتميِّزة في الثالوث، وأعطى اسم **الروح القدس** ليعبِّر عن **جوهر الله** الذي قد يسمَّى الآب أو يسمَّى الابن أو يسمَّى الكلمة(١٨).

ومن هنا نشأت أيضاً بدعة السابيلية التي امتدت وأعطت الروح القدس شخصية. ولكن كان عندهم الروح القدس قادراً أن يظهر نفسه في أي من الأقانيم الأخرى فهو إمَّا يظهر كآب أو كابن أو كالروح القدس(١٩).

بولس الساموساطي المبتدع: وهذا المبتدع يعتبر الروح القدس ليس **استعلاناً** لشخص أو أقنوم وإنما "**خاصية**"...

وبولس الساموساطي لم ينكر انبثاق وإرسال الروح القدس، وإنما حلله إلى **مجرَّد تأثير، وإنما تأثير غير مشخَّص أو غير شخصي. فالروح القدس عند بولس الساموساطي ليس أقنوماً بل مجرَّد نعمة** نزلت على الرسل(٢٠). وكان حذراً في الدخول إلى التفاصيل الخاصة بعقيدة الكنيسة في هذا الموضوع، ففلت من جهة هذا الأمر من ملاحظة المجمع المقدَّس الذي حكم عليه في تعاليمه الأخرى وجرَّم إيمانه وقطعه.

تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية في تلك الحقبة،
أي أواخر القرن الثاني حتى منتصف القرن الثالث:

إيرينيئوس: وهو يمثل معاً تعاليم مدرسة آسيا الصغرى المنحدرة من القديس يوحنا الرسول، بجوار تعاليم جنوب شرق بلاد الغال (فرنسا الآن).

وهو يُعتبر من أوائل معلّمي هذه الفترة الزمنية، وهو يجحد بشدة في كل أقواله أخطاء فالنتينوس المبتدع الذي خلط بين إرسالية الروح القدس المحدَّدة زمنياً بيوم الخمسين وبين انبثاق الروح القدس

(18) Hippolytus, IX. 12.
(19) Athanas., *Or. C. Ar.* IV. 25.
(20) Leontius, *de sect* 3; cited by *D.C.B.*, p. 117.

من الله أزلياً، أي خلط بين عمل الروح القدس في البشرية وعلاقة الروح القدس جوهرياً بالله(٢١).

ولكن إيرينيئوس يرفض أحد التعبيرات عن الاصطلاح بالانبثاق emisso = προβολή(٢٢). إذ تراءى له أن هذا التعبير يحمل ضمناً نوعاً ما من الانفصال في جوهر الله الواحد، ولذلك فإنه فضّل أن يترك كيفية "الانبثاق" الإلهي بدون شرح(٢٣)، مكتفياً بتوضيح ذلك بالتصوير، فيقول عن الابن وعن الروح القدس أنهما يدا الله، الأول ابن progenies أمّا الروح القدس فهو الصورة figuraties للآب، الابن هو "كلمة" الله والروح القدس هو "حكمة" الآب(٢٤)، ليس من خارج الله ولكن من داخله(٢٥). (يُلاحَظ هنا أن إيرينيئوس لا يتبع الخط الفكري الآبائي القديم الذي يشدِّد أن الكلمة هو حكمة الله).

ويبتدئ إيرينيئوس يخترع أوصافاً ومسميات أخرى للتعريف بما لا يقبل التعريف، دون أن يحترس ليمسك بخط التقليد، فينحرف ويضع بدايات خطيرة **لأفكار يمكن أن تكون كُفرية، فيقول إن الابن والروح القدس يخدمان الآب.** ثم يطبِّق تطبيقاً غير منسجم، فيقول: كما تخدم اليدان والفكر في الإنسان، ثم يعود إذ يحس بخطورة الوصف فيصحِّح هكذا: ليس كالفكر المخلوق كأنه خارج عن حياة الله، **لأن روح الله ليس زمنياً، ولكنه روح أزلي كالله نفسه**(٢٦).

ويستشهد إيرينيئوس بما جاء في إشعياء أصحاح ٥٧ آية ١٥و١٦ (الترجمة السبعينية) هكذا: "لأنه هكذا قال العلي الساكن في الأعالي إلى الأبد، القدوس في الأقداس اسمه، العلي المستريح في القديسين المعطي صبراً للمنسحقين وحياة لمنكسري القلوب، لأني لن أنتقم إلى الأبد ولا أغضب عليكم دائماً **لأن روحي التي تنبثق مني تحيي كل نفس.**" (إش ٥٧: ١٥و١٦ سبعينية)

وإيرينيئوس يعطي تصوراً للعلاقة بين الروح القدس والابن هكذا:

[إننا بالروح القدس نرتفع إلى الابن، وبالابن نصعد إلى الآب.](٢٧)

---

(21) Irenaeus, *Ad Haer.* II, 19. 9.
(22) Ibid. II, 13, 5, 6.
(23) Ibid. II, 28.6.
(24) Ibid. IV. 7. 4.
(25) Ibid. IV. 7. 8.
(26) Ibid. V. 12.
(27) Ibid. V. 36.

وبذلك فإن عطية الروح القدس لنا هي إحدى نتائج التجسُّد.
والذي ليس له الروح القدس فليست له شركة في حياة يسوع المسيح(٢٨).

كذلك فإن إيرينيئوس يرى أن نفخ المسيح في تلاميذه وإعطاءهم الروح القدس (يو ٢٠:٢٢) هو برهان على لاهوت المسيح(٢٩).

وبخصوص وظيفة الروح القدس التعليمية كالأقنوم الثالث، فعقيدة إيرينيئوس سليمة وكاملة فهي واضحة في إلهام الأنبياء والرسل(٣٠).

غير أن إيرينيئوس يعود في مواضع أخرى ليثبت أن إلهام الأنبياء كان من عمل الكلمة سواء في العهد القديم أو الجديد(٣١).

كذلك فإن الروح القدس هو الذي يضطلع بعمل استنارة لذهن الكنيسة بصورة مستمرة(٣٢)، ويؤكِّد أنه في حضن الكنيسة فقط يمكن أن يستمتع المسيحي بنور الروح القدس، وأن الروح القدس ينطلق عمله في سري المعمودية والإفخارستيا(٣٣).

ترتليان (١٦٠-٢٤٠م):

صوت مدوي يظهر مبكِّراً من شمال إفريقيا في نهاية القرن الثاني، يمثِّل تعبيراً حراً ومستقلاً، هو صوت ترتليان، وذلك في معرض كتاباته ضد الموحدين Monarchians وكان يمثلهم آنئذ براكسياس.

وترتليان يُحسب كواضع لأساس التعليم الجامعي بخصوص الانبثاق.

ولكن نجد في كتاباته ما يفيد تعبير الكنيسة الرومانية الآن: أن انبثاق الروح القدس هو من الآب والابن(٣٤).

كما نجد في مواضع أخرى بكل وضوح تعبيره الآخر وهو الأرثوذكسي السليم أن: [الروح القدس

(28) Fragment, 36.
(29) Syr. Fragment., *D.C.B.*, p. 117.
(30) Ibid. III, 24. 1.
(31) Ibid. IV, 7. 2; IV, 9, 1; IV, 20. 4; cited by *D.C.B.*, p. 117.
(32) Ibid. III. 24. 1.
(33) Ibid. III, 17, 82 & fragment 38, cited by Neander, *Hist. of Dogma,* 1. 231.
(34) Tert., *Against prax*, 8.

منبثق من الآب في الابن: Spiritum non aliunde pute quam a Patre per Filium.](٣٥)

كما يقول إن الروح القدس يأخذ دائماً من الابن، كما أن الابن يأخذ دائماً من الآب، وهكذا فإن الثلاثة متحدون معاً في حياة إلهية واحدة: [الآب في الابن والابن في الباراكليت ثلاثة متحدون ...]

[Ita connexus Patris in Filio et Filii in Paracleto tres officit cohaerentes alterum ex altero](٣٦)

ولكن يشط ترتليان في فهم العلاقة الأقنومية التي تربط بين الآب والابن والروح القدس. فبالرغم من عقيدته أن جوهر - أو طبيعة - الأقانيم واحد، إلاَّ أنه يقول بخضوع الروح القدس للآب والابن(٣٧) . وكأنما يُفهم مما سبق أن قال به إيرينيئوس من أن الروح القدس والابن يخدمان الآب، أن الخدمة هي تدني في الدرجة الوظيفية بين الأقانيم، والتسلسل في الانحراف واضح، فإيرينيئوس يقول بخدمة الابن والروح القدس للآب، ويقول ترتليان إن الروح القدس هو الذي يخضع للآب والابن.

(الروح هو "اسم ثالث للاهوت"،(٣٨) (There is a "tertium nomen divinitatis"
و"الدرجة الثالثة هي في الباراكليت"(٣٩)). & a "tertium gradus in Paracleto").

ويعود ترتليان فيضع ضوابط لهذا التدرُّج حتى لا ينقسم الجوهر هكذا:

(Yet the persons are "tres non statu sed gradu nec substantia sed forma nec potestat sed specie").

[الأقانيم هم: "ثلاثة ليس في الكيان بل في الدرجة،
ليس في الجوهر بل في الهيأة،
ليس في القدرة بل في النوع".](٤٠)

أمَّا في ما يختص بعمل الروح القدس، فيتكلَّم ترتليان عن يقين كجزء لا يتجزَّأ من الإيمان، إن

(35) Ibid. 4.
(36) Ibid. 25.
(37) Quasten, *Patrology* II, p. 286
(38) Tert. Ibid. 9.
(39) Ibid. 2.
(40) Ibid.

الروح القدس أُرسل ليملأ مكان صعود المسيح، **وذلك لكي يقدِّس الكنيسة.** ففي المعمودية ينزل الروح القدس من السماء ويقدِّس الماء معطياً للماء قوة التقديس(٤١).

ثم إن حضور الروح القدس يُستدعى بالإضافة إلى تقديسه الماء ليحل بوضع الأيادي الذي يتبع طقس العماد(٤٢).

كبريانوس († ٢٥٨م):

يُعتبر كبريانوس أكبر تلاميذ ترتليان. وهو يذكر موضوع أقنوم الروح القدس عبوراً(٤٣)، ولكنه يؤكِّد وحدة الأقانيم الثلاثة: الآب والابن والروح القدس، أي توحيد الله هكذا:

"De unitate Patris et Filii et Spiritus Sancti plebs adunata"

[إن أفضل ذبيحة لدى الله هي سلامنا وتوافقنا الأخوي، (وظهور) **وحدة الآب والابن والروح القدس في تآلف الشعب** (المسيحي).](٤٤)

ولكن يركِّز كبريانوس كثيراً على علاقة الروح القدس بالكنيسة كجسد وكأفراد في الجسد. **أمَّا ما يتبع هذا من نمو أو فقدان في النعمة فهذا يرجع، في عقيدة كبريانوس، إلى سلوك الفرد.**

وعن الروح القدس يقول: Totus infunditur se qualiter sumitur كله يُفاض بقدر ما يُقبل(٤٥).

ولكن لكي تكون المعمودية ذات مفعول يتحتَّم أن تُجرى بواسطة إنسان يكون هو نفسه يملك الروح القدس(٤٦).

والكنيسة الجامعة باعتبارها عروس المسيح الوحيدة هي وحدها التي لها القوة على ميلاد (تجديد) أولاد ا لله(٤٧)، لأنها هي وحدها التي تملك ينابيع المياه الحية (يقصد التعاليم المحيية السليمة)(٤٨).

---

(41) Tert., *De Baptismo*, 4.
(42) Ibid. 8.
(43) Cyprian, *De Domin. orat.* 23.
(44) Ibid. 34.
(45) Cyprian, *Epist.* 69; 14.
(46) Ibid. 79: 9.
(47) Ibid. 75: 14.

ويتبع كبريانوس خط ترتليان في تأكيده أن وضع الأيادي بعد المعمودية يكمل بالضرورة طقس المعمودية لإعطاء الروح القدس(٤٩). كذلك فإن كبريانوس يتبع خط ترتليان في كون الروح القدس هو مصدر الإلهام للأنبياء والرسل وكتابة الأسفار جميعاً(٥٠).

هيبوليتس(٥١) (١٦٠–٢٥٨م):

وإذ كان هيبوليتس أسقفاً على بورتس رومانو (ربما بعد رعاية إيرينيئوس لها فترة من الزمن)(٥٢)، قيل إنه كان أول أساقفة روما ثم ضخّموا الأسقفية – إن كانت هي أسقفية روما – فقالوا بابا روما!! وقد فرح مؤرّخو اللاتين بهذا الإلتباس في النساخة وقالوا إنه فعلاً بابا روما لأنهم اكتشفوا أخيراً جدًّا أن كتاباته في تقليد الرسل عن الليتورجيا يطابق ليتورجية روما، ثم إذ لم يجدوا ما يبرهنون به على صحة تزييف نسبته لروما قالوا إن بورتس رومانو كانت قرية بجوار روما؛ وللأسف أثبتت السجلات أنه لم توجد قط أسقفية بجوار روما بهذا الاسم ولا وُجدَ بابا لروما بهذا الاسم، ولمّا اكتشفوا في آثار روما كرسيًّا حجرياً وتمثالاً لا يحمل اسم هيبوليتس وبدون ذكر أي لقب بابوي عليه ولكن وجد على ظهر الكرسي مؤلّفات هيبوليتس اعتبروا هذا دليلاً على صدق امتلاكهم لشخصية هيبوليتس، وقالوا بلاتينيّتهُ ونسبته لروما. والحقيقة إن هذا العالم إسكندري الجنس وكان أسقفاً على عدن كل أيام حياته. وبسبب صراعه ضد بابا روما، وتصحيحه لهراطقة اثنين من هؤلاء الباباوات وبما أنه كان أيضاً أسقفاً على مدينة تحت الولاية الرومانية، اعتبروه رومانياً. وكان صراعه هذا ضد هرطقة البابا زفرينوس (١٩٩–٢١٧م) والبابا كالليستوس (٢١٧–٢٢٢م)، كما قاوم انحراف البابا فابيانوس. وإن تسمية مؤلّفات هيبوليتس الليتورجية باسم "نظام الإسكندرية في الرسامات القبطية" منذ أقدم العصور لهو دليل كافٍ لتدعيم علاقة

(48) Ibid. 73: 11.

(49) Ibid. 73: 9.

(50) Westcott, *Study of The Gospels*, pp. 429.

(٥١) وهو تلميذ إيرينيئوس، والمسمَّى في المخطوطات القبطية "أبوليدس"، شرقي المولد، إسكندري الجنس وقد نسب خطأً إلى روما وأُعطي خطأً لقب بابا روما في المخطوطات القبطية. وذلك الالتباس أصله كلمة "بورتس رومانو" وترجمتها الحرفية المرفأ الروماني، وهو مرفأ عدن الآن، وكانت المرفأ الروماني الهام في مدخل البحر الأحمر. وقد قرأها النساخ الأقباط بورتس = الأول (خطأ)، رومانو = الروماني، فقرأوها "الأول" في أساقفة روما، ثم بابا روما ومع أن كلمة بورتس هي مرفأ وليس بروتو = الأول وسيصدر الكاتب نبذة تاريخية مفصّلة ومدعّمة بالحقائق التاريخية عن هيبوليتس كأسقف عدن وأصالته كعالم قبطي إسكندري.

(٥٢) انظر كتاب مخطوط مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة لابن كبر في ذكر كتاب اعتراف الآباء.

هيبوليتس بالإسكندرية وليس بروما.

أمَّا كل ما يعرفه تاريخ العقيدة والإيمان عن علاقة هيبوليتس بروما فهو مهاجمة هيبوليتس لهرطقة زفرينوس وكالليستوس وفابيانوس باباوات روما، حيث كانت روما في ذلك الوقت هي مرتع ومهد هرطقة المونوأرخيزم(٥٣)، أي "الموحدين" كما كتب أيضاً هيبوليتس ضد نوئيتس Noetus.

ولكن كتابات هيبوليتس عن الروح القدس جاءت قليلة، ولكنه أكَّد على لاهوت الروح القدس بوضوح حيث يقول:

[إنه يستحيل أن نمجِّد الله دون أن نتجه مباشرة إلى الاعتراف بكل أقنوم في الثالوث الأقدس. διὰ γὰρ τῆς τριάδος ταύτης Πατὴρ δοξάζεται بواسطة هذا الثالوث يتمجَّد الآب].

[ونحن عن طريق تجسُّد الكلمة صرنا نعبد ونكرِّم (προσκυνοῦμεν) الروح القدس، كذلك فإنه يستحيل علينا أن نكوِّن فكرة عن الوحدة أو الوحدانية في الله إلاَّ بالإيمان بالآب والابن والروح القدس (كونهم في اتحاد مطلق).](٥٤)

وهيبوليتس يدحض فكرة خضوع الروح القدس للمسيح بقوله:

[إن الآب أخضع كل شيء للابن المتجسِّد ما خلا الآب والروح القدس.](٥٥)

ولكن للأسف لم يستطع هيبوليتس أن يرقى للتساوي المطلق بين الروح القدس والآب أو الابن، فهو يقصر تسمية الأقنوم أو الشخص أو الوجه πρόσωπον في الثالوث كصفة شخصية على الآب والابن فقط، أمَّا الروح القدس فيقصر عليه صفة النعمة، أمَّا الثالوث فهو متساوي في التدبير:

[πρόσωπα δὲ δύο, οἰκονομίαν τε τρίτην τὴν χάριν τοῦ ἁγίου πνεύματος أقنومان، وبالتدبير نعمة الروح القدس هي الثالثة.](٥٦)

ويهتم هيبوليتس بتحديد الصفة أو الوظيفة الخاصة للروح القدس في التدبير الإلهي بالإنارة أو الاستنارة هكذا:

[Ὁ γὰρ κελεύων Πατήρ, ὁ δὲ ὑπακούων Υἱός, τὸ συνετίζον ἅγιον

(53) Rev. Henry Barcly Swete, *D.C.B.*, p. 118.
(54) *Contra Noetum* 12-14, cited by *D.C.B.*, p. 118.
(55) Ibid. 8.
(56) Ibid. 14

πνεῦμα ... Πατὴρ γὰρ ἠθέλησεν, Υἱὸς ἐποίησεν, πνεῦμα ἐφανέρωσεν.

لأن الآب هو الذي يأمر، والابن هو الذي يطيع، والروح القدس يوحِّد. لأن الآب أراد، والابن صنع، والروح أنار.](٥٧)

كما يقول هيبوليتس أيضاً إن الأنبياء يظهرون دائماً مؤيَّدين بروح النبوَّة ومكرَّمين من جهة الابن الكلمة ذاته(٥٨)، وإن إلهامهم ينبع من قوة الآب:

[τῆς πατρῴας δυνάμεως ἀπόπνοιαν λαβόντες](٥٩)

ديونيسيوس الروماني (٢٦٩م):

في احتجاجه ضد الذين انحرفوا نحو فصل الثلاثة أقانيم وضد مبادئ سابيليوس، أوضح ديونيسيوس الروماني عقيدته عن الروح القدس بالنسبة لعلاقته بأقنومي الآب والابن في الثالوث قائلاً إنه ينبغي أن لا نقسم الوحدة الإلهية القائمة في الثالوث إلى ثلاثة أقانيم منفصلة.

ولكن سقط ديونيسيوس هو الآخر في فهمه الخاطئ لوضع الروح القدس في الثالوث بقوله إن أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس هما، من جهة الأصل والمنبع، خاضعان لله الآب. على أن ديونيسيوس يقول إن الابن متحد بالآب والروح القدس قائم (ساكن) فيه، فالثالوث الأقدس ينجمع في ذات واحدة حيث الآب مصدر ورأس فائق، وفي نفس الوقت يشدِّد أن ننتبه حتى لا نفرِّق الوحدة إلى ثلاثة آلهة، حيث يلزم جدًّا أن نحتفظ بوحدة الأصل وهكذا نحتفظ ونُقيم حقيقة الإيمان بالثالوث في المعمودية الآب والابن والروح القدس؛ أمَّا الذي نقل لنا ذلك عن ديونيسيوس الروماني فهو القديس أثناسيوس(٦٠).

(57) Ibid.
(58) Hippolytus, *De Antichr.* 2, cited by *D.C.B.*, p. 118.
(59) Ibid. *Contra Noetum*, 11, 12.
(60) Athanas., *De Decr.*, cited by *D.C.B.* p. 119.

كنيسة الإسكندرية

والآن نأتي إلى تعليم مدرسة الإسكندرية في ما يتعلّق بالروح القدس:

كليمندس الإسكندري:

بالرغم من أن الكثير من مؤلفات كليمندس الإسكندري قد فُقدت، من بينها كتابان عن كل ما يتعلّق بالتعاليم الخاصة بالروح القدس عن شخصه ومواهبه: الأول "عن النبوَّات"، والثاني "عن النفس"؛ غير أنه قد تبقّى لنا أجزاء هامة قام بفحصها ونشرها العالِم كوتيلييه Cotelier، والتي يُظن أنها تتبع أحد هذين الكتابين المفقودين(٦١)، وتدور حول معنى الانبثاق ἐκπόρευσις بالنسبة للروح القدس:

[مبارك الإنسان الذي عرف عطية الآب من خلال انبثاق الروح كلي القدس.
διὰ ἐκπορεύσεως τοῦ παναγίου πνεύματος](٦٢)

[مبارك الإنسان الذي عرف وتقبَّل الروح القدس الذي هو عطية الآب الذي منحه على هيأة حمامة، الروح الذي بلا شائبة عديم الغضب والمرارة، الكامل المنطلق من ـ قلب ـ (أعماق) الآب. ἀπὸ σπλάγχνων ἴδιων προϊέμενος ليدبر الدهور ويعلن غير المنظور، فهو الروح القدس الحق الآتي من الآب τὸ ἀπ' αὐτοῦ προελθόν الذي هو قدرته وإرادته، المستعلن لتكميل ملء مجده. أمَّا الذين ينالونه فإنهم ينطبعون بطابع الحق بكمال النعمة.](٦٣)

وفي بقية أعمال كليمندس الإسكندري يعلن بوضوح لاهوت الروح القدس(٦٤)، حيث ينتهي كتاب المعلِّم بدعاء النعمة لتمجيد الآب والابن مع الروح القدس، وهو يفرِّق بين وحدانية الروح القدس وبين تعدُّد مواهبه.

كذلك فإن كليمندس يعتبر أن حضور الروح القدس في المؤمنين يشكِّل نوعاً جديداً من

(61) Lightfoot, *On Clement*, pp. 219,220.
(62) *D.C.B.*, p. 119.
(63) Ibid.
(64) Clement of Alex., *Paedagog.*, iii. 12.

الطبيعة البشرية.

كذلك فإنه يصف مواهب الروح القدس الإلهية أنها هي العطر الذكي المكوَّن من الروائح السمائية التي يمنحها المسيح لأحبائه(٦٥).

وكليمندس يقرن أحياناً بين الكلمة والروح حينما يتكلَّم عن إلهام الأنبياء(٦٦).

كذلك فإن كليمندس يؤكِّد على دور الروح القدس في إنارة الكنيسة بصورة مستمرة وكذلك الأفراد فيها(٦٧).

كما يضيف أن كل مَنْ يؤمن "بالكلمة" فإن نفسه تتحد بالروح القدس(٦٨).

والإنسان العارف با لله بالحقيقة true gnostic هو المؤمن حقًّا والتلميذ بالفعل للروح القدس(٦٩)، وهو بهذا يتمكَّن أن يسبر أعماق الكتاب المقدَّس ويطَّلع على أعماق المعنى المخفي فيها **بالإضافة طبعاً إلى اتِّباعه التقليد في ما يخص قانون الإيمان**(٧٠).

وكليمندس يشير إلى عمل الروح القدس في سلوك الكنيسة من نحو الماديات، ويربط بين أعمال الروح القدس وبين سر المعمودية فيقول:

[نحن المعمَّدين إذ قد تخلَّصنا من خطايانا التي كانت بمثابة ضباب يحجب نور الروح الإلهي، أصبحنا نملك عيناً روحية محرَّرة غير منطمسة ممتلئة نوراً، بها نحدِّق في الإلهيات، وصرنا منفتحين على خفايا الأسرار، والروح القدس ينسكب علينا من السماء.](٧١)

ويشرح كليمندس التدرُّج من درجة الموعوظين التي فيها تقود التعاليم المبدئية إلى الإيمان، والإيمان حينما تلحق به المعمودية يتهيَّأ لقبول تعاليم الروح القدس:

[πίστις δὲ ἅμα βαπτίσματι ἁγίῳ παιδεύεται πνεύματι]

(65) *Paedagog.*, 11. 8.
(66) Westcott., *Study of the Gospels*, p. 435.
(67) Clement., *Strom.*, V. 13.
(68) Ibid. II. 1-13.
(69) *Strom.*, V. 24; *Paed.*, 1. 6.
(70) *Strom.*, VI. 15.
(71) *Paedag.*, 1. 6.

أمَّا في ما يختص بالإفخارستيا وعلاقتها بالروح القدس فهو يشير إلى هـذه العلاقـة ولكـن يذكـر أيضاً الكلمة، ولا يتضح تماماً ما إذا كان التقديس يتم بالروح القدس أو بالكلمة:

[ἐν τῷ αἵματι τῷ αὑτοῦ κοσμήσειν λέγει τὸ σῶμα τοῦ λόγου, ὥσπερ ἀμέλει τῷ αὑτοῦ πνεύματι ἐκθρέψει τοὺς πεινῶντας τὸν λόγον.](٧٢)

أوريجـانوس:

كان أوريجانوس من بعد ترتليان أول مَنْ قام بمحاولة دراسة موضوع الروح القدس دراسة علمية.

وقد علَّم أوريجانوس بأن الروح القدس مساوٍ في الكرامة والمجد للآب والابن(٧٣).

وأول مَنْ أكَّد بيقين أن الروح القدس منبثق من الآب انبثاقاً أزلياً، حاله كحال الابن(٧٤).

وأن الروح القدس صالح صلاحاً كلياً ومطلقاً(٧٥).

وأن عمل الروح القدس المميَّز غير عمل الآب والابن، فهو يختص بنفوس المؤمنين(٧٦).

وأنه بالرغم من أن عطاياه متعدِّدة فجوهره واحد غير منقسم(٧٧).

وأن الروح القدس العامل في الأنبياء في العهد القديم هو هو نفسـه العـامل في العهـد الجديـد في القديسين، غير أنه بعد الصعود صارت إرساليته ممتدة وشاملة ومتسعة(٧٨).

والمؤمنون باشتراكهم في الروح القدس يصيرون روحيين وقديسين، والـذي يشـترك في الـروح القدس يشترك في الثالوث، لأن الثالوث غير مفترق لأنه ليس هيولياً أي مادياً(٧٩).

والقدرة على استخلاص المعاني الروحية العميقة بالإلهام يرجع إلى كون الكتب المقدَّسة مكتوبـة

(72) *Paedag.*, 1.6. 47; cited by H.B. Swete, *D.C.B.*, p. 119.
(73) Origen, De principiis 1; praef.
(74) Ibid. II. 2; ch. 1.
(75) Ibid. I. 2; ch. 3.
(76) Ibid. I. 3; ch. 5.
(77) Ibid. I. 1; ch. 3.
(78) Ibid. II. 7; ch. 1, 2.
(79) Ibid. IV. 1, ch. 32; cf. I. 3 ch. 5.

بإلهام الروح القدس(٨٠).

بل وإن كل حرف هو بمقتضى الحال يكشف عن أثر الحكمة الإلهية(٨١).

وللأسف فإنه بعد كل هذه التعبيرات عن لاهوت الروح القدس فإن كلاً من جيروم وإبيفانيوس يتهمان أوريجانوس بأنه قال إن الروح القدس مخلوق(٨٢)، بل والقديس باسيليوس كاد أن يصادق هو أيضاً على هذه التهمة بالنسبة لأوريجانوس(٨٣).

وكل هذا جاء بسبب خطأ في فهم الفرق بين:
"γενητὸς ἢ ἀγένητος & γεννητὸς ἢ ἀγέννητος"(٨٤) (انظر شرح ذلك صفحة ٤٢٧و٤٢٨)

ولكن خروج أوريجانوس عن تقليد الكنيسة ولغتها الملهمة واضح جدًّا في شرحه لإنجيل يوحنا، **فهو يضع الروح القدس في درجة أقل من الابن، لا بالنسبة للكرامة بل بالنسبة للأصل origin، فهو يقرِّر أن الابن وحده هو من الآب فقط، ولكن الروح القدس هو من الآب بواسطة الابن** (هنا بداية خطأ الكاثوليك الآن في **قولهم إن الروح القدس منبثق من الآب والابن – Filioque – الذي يشير مباشرة أن الروح القدس أقل من الابن** والتي أخذوها عن أوغسطين الذي أخذها بدوره عن أوريجانوس).

كذلك عندما بدأ أوريجانوس يشرح قول إنجيل يوحنا (١: ٢): «كل شيء به كان (πάντα δι᾽ αὐτοῦ ἐγένετο)» أي أن الكلمة خلق كل شيء، تساءل أوريجانوس في غفلة قائلاً: أليس يلزم أن يكون الروح القدس أيضاً بين هذه الموجودات أي الخليقة γενητά؟

وهكذا يعتبر أوريجانوس أن الروح القدس، بمفهوم ما، يستمد خلقته أو وجوده Genesis بواسطة الابن، ويعود بلا جدوى يمنح الروح القدس الكرامة فوق كل الخليقة γενητά، ولكن هيهات! فقد أسقط أوريجانوس الروح القدس عن المساواة الكاملة في الثالوث وهو يمعن في هذا

(80) Origen, *Hom. on Num.*, XXVII. 1.
(81) Origen, *Philocal.* 2.
(82) Hieron., *epp. ad. Avit , ad. Pamm.*, *et Ocean*; Epiph., *Haer.* LXIV. 8.
(83) Basil., *De Sp. sanct*, 29.
(84) Origen, *De princip.*, I. praef. ch. 4.

الفكر الخاطئ بقوله:

[وحتى وإن كان الروح القدس فوق كل الخليقة في الكرامة فهو بحسب الفكر **يتحتّم أن يُحسب بين الخليقة، لذلك فهو يُعتبر أقل من الابن الذي بواسطته يستمد وجوده!!**]

وهكذا لم تسعف العبقرية الفكرية هذا المفكّر العملاق، لأنه لم يلتزم بالتقليد واستخدم المنطق الذي أوقعه في الخطأ، ومهَّد دون أن يدري لبدعة أريوس الذي تمادى في إنكاره الكامل للاهوت الروح القدس.

تلاميذ أوريجانوس وامتداد الخطأ:

من بين تلاميذ أوريجانوس الذين تمسَّكوا بهذا المفهوم الخاطئ من جهة درجة الروح القدس بييريوس (Pierius)، الذي يتهمه فوتيوس بأنه وضع الروح القدس أقل في المجد والكرامة من الآب والابن.

وقد وقع ثيئوغنسطس Theognostus في نفس الخطأ(٨٥) باعتماده على تعاليم أوريجانوس.

وقد قام القديس باسيليوس(٨٦) باتهام ديونيسيوس بابا الإسكندرية (سنة ٢٤٧م) بنفس الخطأ من جهة درجة الروح القدس، ولكن العجب أن باسيليوس نفسه يستشهد بكتابات ديونيسيوس الإسكندري نفسه في إثبات تساوي الثالوث، كما يذكره ديونيسيوس في الذكصا أي تمجيد الثالوث في ختام أقواله دائماً "والمجد لله الآب والابن مع (σύν) الروح القدس" حيث σύν تفيد المعية في المساواة.

وفي كتابات ديونيسيوس بابا الإسكندرية إلى سميِّه بابا روما توجد أقوال واضحة تتنافى مع هذا الاتهام - ومع أي مماحكة لأريوس الذي قال إنه يقتبس من ديونيسيوس الإسكندري - وقد أوردها القديس أثناسيوس في دفاعه عن البابا ديونيسيوس لإثبات صحة إيمانه.

[إن كل اسم من الأسماء الآب والابن والروح القدس غير منفصل قط عن ما يليه ... لذلك حينما يُذكر الروح القدس فإني في الحال أتذكَّر انبثاقه من الآب بواسطة الابن πόθεν καὶ διὰ τίνος ἧκεν فإن طبيعة الآب ليست غريبة عن الابن ولا يمكن أن يفترق الابن

(85) Biblioth. codd., 119, 106.

(86) Basil, Ep. *ep*. 41.

عن الآب والروح القدس فيهما (في أيديهما).][٨٧]

ولا تخلو هذه الحقبة ـ نهاية القرن الثالث ـ من شاهد قوي لتقليد الكنيسة اللاهوتي بالنسبة لدرجة الروح القدس ولاهوته معاً، وهو ميثوديوس Methodius أسقف صور، الذي قال صراحة إن الروح القدس مساوي للآب في الجوهر ὁμοούσιον πνεῦμα[٨٨].

القرن الرابع ... قرن المتاعب والتصفيات

أريوس والأريوسية:

لقد تخصَّصت الأريوسية في بادئ الأمر في مهاجمة الابن، ولكنها لم تستثنِ من حين لحين الروح القدس من التنكُّر والمهاجمة، ففي صلب "الثاليا"، وهي أنشودة الكفر التي ألَّفها أريوس وتعني "الوليمة" يقول:

["إن جوهر الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس هي من جهة طبيعتنا منفصلة عن بعضها وغريبة عن بعضها ومتميِّزة" ... "وكل أقنوم في الثالوث أكرم وأمجد من الآخر بالتسلسل وهذا التدرُّج في المجد والكرامة هو إلى ما لا نهاية".][٨٩]

ولكن لم يركِّز مجمع نيقية إلاَّ على لاهوت الابن ومساواته للآب بسبب الخطورة المحدقة بالخلاص والفداء آنئذ، من جراء إنكار لاهوت الابن، واكتفى المجمع بقوله: «ونؤمن بالروح القدس». ولمَّا طُرح هذا التساؤل في ما بعد بخصوص عدم توضيح المجمع لماهية الروح القدس، جاء الرد مفحماً بالعدل والحق حينما قال كل من غريغوريوس اللاهوتي وإبيفانيوس أسقف قبرس أن ذكر المجمع **"ونؤمن بالروح القدس" لم تأتِ منفصلة عن الثالوث، أي عن الله، بل جاءت في معرض تقرير قانون الإيمان بالله الواحد**[٩٠].

أمَّا إحجام المجتمعين في مجمع نيقية ـ أي أساقفة العالم كله ـ من جهة التعرُّض لشرح لاهوت

(87) Athanas., *De sentetentia Dionysü.*, 17. 1.
(88) Migne, *Patr. Gr.*, XVIII 210, 351; cited by *D.C.B.*, p. 120.
(89) Athanas., *Contra Arian*, I. 6; *De Syn.* 15.
(90) Greg. Naz., *Or.* XXXVII; Epiph., *Haer.* LXXIV.

الروح القدس، فكان بسبب انصباب الهجوم كله وبكل كثافة على لاهوت الابن، حيث لم يكن في جميع الكنائس وبين جميع الشعوب حديث آخر في تلك الحقبة الزمنية العصيبة سنة ٣٢٥م إلاَّ عن لاهوت الابن، أمَّا الروح القدس فلم يتعرَّض له الأريوسيون إلاَّ لماماً وبدون تخصيص(٩١). وكما يقول القديس باسيليوس إن الأريوسيين في بدء المعركة بذروا فقط بذور إنكار لاهوت الروح القدس ضمن تعبيراتهم المبهمة عمداً، ولم تنضج هذه البذار ولم تأتِ بحصادها المسموم وبصورة متخصِّصة تجاه الروح القدس إلاَّ بعد خمسين عاماً تقريباً(٩٢).

وهكذا بين سنة ٣٢٥م أي زمن انعقاد المجمع الأول، وسنة ٣٦٠م، واتت فرص كثيرة لدى الأريوسيين، وخاصة جماعة اليوسابيين (يوسابيوس النيقوميدي)، لكي يشرحوا وجهة نظرهم تجاه إنكارهم للاهوت الروح القدس بصورة مستترة ضمن تعبيراتهم وقوانينهم الكثيرة التي خرجوا بها للعالم بعد المجامع التي عقدوها. وهي توضِّح دهاء السياسة التي انتهجوها آنئذ في مقاومتهم لمقررات مجمع نيقية بألفاظ منتخبة ومتقنة ومن الكتاب المقدَّس، إنما مفرَّغة عمداً من أية إشارة لأزلية الروح القدس أو لاهوته بدون تصريح علني، مكتفين بوضع أقنوم الروح القدس في درجة أقل من الآب والابن، موضِّحين فقط ما يختص بإرساليته الزمنية أي إرساله يوم الخمسين، حاذفين ما يخص وجوده السابق (أزليته) ودون ذكر لأي تعبير يُمتُّ إلى كيانه أي لاهوته(٩٣).

وإليك مختصر لتعبيرات الأريوسيين عن الروح القدس:

[ونحن نؤمن بالروح القدس، الباراكليت، روح الحق، الموعود به من الأنبياء ومن الرب، وأُرسل إلى الرسل ليعلِّمهم كل شيء وليعزِّي ويقدِّس ويكمِّل المؤمنين. والابن هو الذي منح الروح القدس للكنيسة **بحسب إرادة الله** (πατρικῷ βουλήματι). **لذلك نحن نحرم كل من يقول إن الروح القدس هو إله غير مخلوق** (واضح هنا الكفر)، ونحرم كل من يخلط بين شخص الروح القدس وشخص الابن أو يقول **إنه من الآب، أو يقول إنه من الابن** الذي - الروح القدس - هو به (وليس منه)، أي أُرسل به إلى العالم δι᾿ υἱοῦ) = per filium est (ἀποσταλεῖν **ونحن نرفض الاصطلاح غير الكتابي "جوهر واحد" للآب والابن**

(91) Basil., *Epp.*, 78, 387.

(92) Ibid. *Ep.* 78.

(93) Hahn., *Bibliotheck. der Symbole*, p. 148-174; cited by *D.C.B.*, p. 121.

والروح القدس.](٩٤)

وبينما كان يستخدم الأريوسيون كل هذا الحذق وكل هذا الدهاء في الاكتفاء بالأوصاف الناقصة أو السلبية للروح القدس ليخفوا حقيقة إنكارهم للاهوت الروح القدس، نجد أن أشخاصاً مسئولين وكثيرين من أفراد الشعب بدأوا بسرعة وبدون دهاء يعلنون ويؤكّدون كفرهم بلاهوت الروح القدس صراحةً وعلناً.

فنجد مثلاً لوسيفر سنة ٣٥٨م وهو أسقف كاجلياري يوجه اتهاماً علنياً للإمبراطور قسطنطيوس يقول فيه إن الإمبراطور لا يؤمن أن الباراكليت هو بعينه "**روح الله**"(٩٥).

وفي هذا الصدد أعلن القديس أثناسيوس مرات عديدة منذ البداية ردًّا على محاولات الأريوسيين في تشويه الإيمان بالروح القدس قائلاً إنه يستحيل الإيمان بالروح القدس إيماناً صحيحاً طالما يخفق الإيمان بأن الابن مساوٍ للآب في الجوهر.

ولقد ظلّ الأرثوذكس في كافة أنحاء العالم متمسكين بمقررات مجمع نيقية تجاه الإيمان الصحيح بالابن وبالروح القدس إزاء محاولات الأريوسيين، سواء كان ذلك في الغرب الذي وضح في مجمع سرديكا سنة ٣٤٧م أو في مجمع أريمينيم مع الشرقيين سنة ٣٥٩م.

أمّا القديس أثناسيوس فقد بدأ في تفنيد آراء الأريوسيين من جهة الروح القدس بصورة واضحة ومحدَّدة سنة ٣٦٠م، حينما أصدر أول شرح مستفيض عن شخص الروح القدس موضِّحاً أنه **"منبثق من الآب"**.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح أمام الكنيسة ضرورة مُلحَّة في توضيح كل ما يتعلّق بالروح القدس لتفنيد كفر الأريوسيين! وبينما كان القديس أثناسيوس في منفاه هارباً من وجه مضطهديه في صحراء طيبة، وصلت إلى يديه أول رسالة من القديس سيرابيون أسقف تمّي، يخبره أنه في إيبارشيته (في الدلتا) وجد ضمن الراجعين إلى الكنيسة بعد أن جحدوا الأريوسية لا تزال جماعة من المنحرفين عن العقيدة الصحيحة من جهة الإيمان بالروح القدس، تسمَّى جماعة المتقلّبين tropici، وهم ينادون

(94) Ibid.
(95) Pro Athanas. II; Migne *Patr. Lat.* XIII, 898.

بأن الروح مخلوق وأنه روح خادم لا يختلف عن الملائكة إلاَّ في الدرجة وحسب(٩٦).

وبعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية بعد منفاه، بدأ فوراً بالتحضير لمجمع الإسكندرية الذي أصدر منشوراً مجمعياً سُمِّي بطومس الأنطاكيين، لأنه أُرسل إلى أنطاكية بنوع خاص، يحمل أول حكم بالإدانة تصدره الكنيسة ضد عدم الإيمان بلاهوت الروح القدس، محذِّراً أن كل مَنْ يريد أن يعود إلى الكنيسة من جماعة الأريوسيين عليه أن يجحد أولاً كل مَنْ يقول بأن الروح القدس مخلوق أو أنه منفصل عن جوهر الآب والابن.

وبمجرَّد وصول هذه الوثيقة التاريخية الهامة إلى أنطاكية، قبلها الأسقف بولينوس المرسوم جديداً بكل فرح، ووقع عليها بإمضائه وأضاف إليها اعترافه الخاص الذي فيه يحرم كل مَنْ لا يقول بما جاء فيه.

ويقرِّر كل من المؤرِّخ سوزومين وسقراط وروفينوس أن مجمع الإسكندرية هذا أعلن بوضوح أن الروح القدس مساوٍ في الجوهر للآب والابن(٩٧). وإليك نص أثناسيوس في طومس الأنطاكيين(٩٨):

[الروح القدس غير منفصل عن جوهر الابن والآب ἀδιαίρετον τῆς οὐσίας τοῦ Υἱοῦ καὶ τοῦ Πατρός]

وتحاشى الخطاب ذكر كلمة الهوموؤوسيوس حتى لا يثير مشاكل عند النصف أريوسيين، الذين كانوا قد قبلوا الهوموؤوسيوس بصعوبة في ما يتعلّق بالابن وتعذّر عليهم فهم الهوموؤوسيون بالنسبة للروح القدس.

وقد انبرى في هذه الحقبة مقدونيوس وماراثونيوس Marathonious، اللذان رفضا بشدة القول بلاهوت الروح القدس، وظلاَّ يعلّمان أن الروح القدس مخلوق وخادم لله، ولذلك دُعيا هما وجماعتهما بمحاربي الروح القدس = πνευματομάχοι، الذين حرمتهم الكنيسة آنئذ(٩٩). ولكنهم لم يقووا على مقاومة الكنيسة كثيراً ففي مدى عشرين سنة استسلموا وخضعوا للإيمان

(96) *Ad Serap*, I. init.
(97) Sozom., V. 12; Socrate III. 7; Ruf. *H.E.* 1. 28.
(98) *Tomus ad Amtiochenos,* PG 26, 801.
(99) Socr. II. 45; Sozom. IV. 27; Theodor., II. 6.

الصحيح(١٠٠).

وفي سنة ٣٦٣م عقد القديس أثناسيوس مجمعاً آخر في الإسكندرية، أعاد فيه التأكيد على عقيدة ألوهية الروح القدس، حيث أصدر المنشور المجمعي باسم الإمبراطور جوفيان يدين فيه الذين يحاولون إحياء هرطقة أريوس من جديد، منكرين إيمان مجمع نيقية الذي يتظاهرون بالاعتراف به ولكنهم يحرِّفون معنى الهوموؤوسيون ويجدِّفون على الروح القدس قائلين: إن الابن خلقه، في حين أن واضعي قانون الإيمان في مجمع نيقية يمجِّدونه مع الآب والابن ضمن الإيمان بالثالوث الأقدس(١٠١).

في روما ...

ولكن للأسف وقعت روما في حبائل مقدونيوس وأتباعه، إذ أرسل إلى البابا ليبريوس بعثة من مجمعه الخارج على الإيمان، المُسمَّى بمجمع لمباسكوس سنة ٣٦٥م ونجح مقدونيوس في إقناع البابا ليبريوس وكل أساقفة إيطاليا، واكتسبهم أنصاراً له في ما يخص تعاليمه المغشوشة عن الروح القدس(١٠٢)، مدعياً أنه يتمسَّك بقوانين مجمع نيقية المقدَّس.

وبهذه المناسبة نذكر بالأسى أنه بعد موت هذا البابا حدثت مذبحة قُتل فيها ١٣٧ شخصاً من الشخصيات المتزاحمة بسبب انقسام معركة الانتخابات بين داماسوس ويورسينوس Ursinus المزاحم له، حتى بلغت حد الحصار في الكنائس واقتسام النفوذ عليها. وقد تمَّ بالفعل رسامة كل منهما بابا، داماسوس بابا روما في كنيسة القديس لورنزو ويورسينوس بابا روما في كنيسة بازليكا يوليوس(١٠٣).

ولكن في سنة ٣٦٦م بعد اعتلاء البابا داماسوس وهو أسباني الأصل (٣٠٤-٣٨٤م) كرسي روما(١٠٤)، افتضح الأمر واكتشف الغرب أخيراً الفخ الذي سقطوا فيه وذلك بفضل ومضات النور المنبعثة من فنار الإسكندرية - أثناسيوس اللاهوتي - الذي لم يهدأ و لم ينثنِ أن يفضح الظلام شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً سواء بالرسائل الخاصة أو بإعلان مقرَّرات المجامع التي عقدها في الإسكندرية لهذا الغرض (٣٦٠-٣٦٣م).

(100) *D.C.B.*, p. 1211; by Rev. H.B. Swete.

(101) *Ad. Jovian* 4; Migne XXVI, 820.

(102) *D.C.B.*, by Rev. H.B. Swete, p. 122.

(103) Acc. to the *Gestie inter Liberium et Felicem* 160; cited by Cross. *Dict.* p. 370.

(104) Ibid.

واستيقظت روما متأخرة جدًّا على رائحة الهرطقة التي دخلت كنيستها وتغلغلت فيها بسبب غفلة البابا ليبريوس المذكور، وبدأ الأساقفة في الاجتماع وعقد المجامع المتتالية برئاسة داماسوس أسقف روما، وذلك بمساعدة الإمبراطور فالانتينيان الأول، لدحض هذه الهرطقة بلا توقُّف. ويذكر لنا المؤرِّخ المشهور هِفِلى أنه لم تهدأ روما من سنة ٣٦٨-٣٨١م وهي تقيم المجامع الواحد تلو الآخر، الأول سنة ٣٦٩م، والثاني سنة ٣٧٤م، والثالث سنة ٣٨٠م[١٠٥]. وفي هذه المجامع استعادت روما أرثوذكسيتها وقرَّرت بكل وضوح وتأكيد أن:

١ - الروح القدس غير مخلوق.
٢ - أنه في كرامة واحدة وجوهر واحد (أوسيا) وقدرة واحدة مع الآب والابن.
٣ - أزلي عالِم بكل شيء (كلِّي العلم)، موجود في كل الوجود، متميِّز بشخصه، معبود من الكل (كلِّي العبادة)، منبثق من الآب فقط، مساوٍ للآب والابن باتحاد كامل مطلق.

وحرمت بالتالي أريوس ومقدونيوس وإينوميوس وكل مَنْ أنكر أزلية الروح القدس وانبثاقه من الآب = De Patre esse vere ac proprie (فقط) (لاحِظ هنا أيها القارئ أن إيمان روما كان أرثوذكسياً صحيحاً سليماً في ما يخص انبثاق الروح القدس من الآب **فقط** في القرن الرابع).

كذلك حرمت كل مَنْ يقول إن الروح القدس مخلوق أو إن الابن خلقه، حتى ولو كان أرثوذكسياً في كل نواحي الإيمان الأخرى.

وأعلنت روما إيمانها (بعد وفاة أثناسيوس بخمس سنوات وعلى هدى مقرَّرات مجامع الإسكندرية) بالثالوث الأقدس، لاهوت واحد قدرة واحدة وكرامة ومجد واحد، وسُمِّي هذا: "**طومس داماسوس**" ولاقى قبولاً في أنطاكية ووقَّع عليه ١٤٦ أسقفاً اجتمعوا في مدينة أنطاكية سنة ٣٧٨م بحسب تحقيقات العالِم والمؤرِّخ هِفِلى[١٠٦].

ماذا في قيصرية وتعاليم أسقفها يوسابيوس المؤرِّخ الشهير (٢٦٤-٣٤٠م):

يُعتبر من القلائل الذين عاصروا عصر ما قبل نيقية (وكان عضواً في جماعة النصف أريوسيين)، وعصر ما بعد نيقية، وواحد من أكثر المتحمِّسين لأوريجانوس[١٠٧].

---

(105) Hefele, *op. cit.*, vol. II. 287-393.
(106) Ibid. p. 291, 360-363.
(107) Socr., II. 21.

لقد كان غير دقيق في تعبيراتـه اللاهوتيـة، حتـى أنـه يمكـن بسـهولة وضعـه ضمـن المتقدِّمـين في الهرطقة الأريوسية(١٠٨).

فكان يوسابيوس يؤمن ويعلّم بأن الروح القدس هو ثالث في الكرامة والمجـد وفي الدرجـة أيضـاً، أي في الجوهر(١٠٩).

فكان يصف "الروح القدس بأنه يستقبل نوره مـن (الكلمـة)، كـالقمر في فلـك اللاهـوت وأنـه يستمد كل كيانه وصفاته من الابن".

وبذلك كان يحسبه أنه ليس إلهاً ولا حتى بمستوى الابن، أي ليس غير مخلوق، وكونه لا يستمد أصله من الآب كالابن فيتحتَّم أن يكون واحداً من الأشياء التي خُلقت بواسطة الابن وبالنص الحرفي هكذا:

[οὔτε θεὸς, οὔτε υἱός, ἐπεὶ μὴ ἐκ τοῦ πατρὸς ὁμοίως τῷ υἱῷ καὶ αὐτὸ τὴν γένεσιν, εἴληφεν ἕν δέ τι τῶν διὰ τοῦ υἱοῦ γενομένων].(١١٠)

ثم يعود يوسابيوس ويستدرك هذا الشطط، لعلّه يعيد لـلروح القـدس شيئاً مـن هيبتـه الإنجيليـة فيقول: وبالرغم من أنه مخلوق إلاّ أنـه أعلـى وأفضـل جميـع المخلوقـات ... وهيهـات فـأي كرامـة لمخلوق؟ كما يتبيَّن من قول يوسابيوس هذا، أن انبثاق الروح القـدس مرتبـط فقـط بإرسـاليته، أي كحدث زمني.

وماذا في أُورشليم عند كيرلس الأورشليمي
صاحب التعاليم المشهورة للموعوظين (٣١٥-٣٨٦م):

لقد عاش هذا الأسقف حتى شاهد ختام المعركة اللاهوتية ضد الأريوسيين التي بدأت في صبوتـه المبكِّرة. والمعـروف عـن منهجـه اللاهوتـي أنـه حـاز عـدة تطـورات وتصحيحـات علـى طـول المدى(١١١)، ولقد كتب مقالة عن الروح القدس في بكور حياته (٣٤٧-٣٤٨م).

وكان مـن الآبـاء النـادرين الذيـن تمسَّـكوا بتعليـم الكتـاب المقـدَّس والتقليـد والـتزم الصحـة في

(108) Rev. H.B. Swete, *D.C.B.*, p. 123.
(109) *Paraep. Evang.*, VII. 16.
(110) Euseb., *De Eccl. Theol.*, III, 6.
(111) Sozom., IV. 25; VII, 8; Socr. V. 8.

التعبيرات اللاهوتية في ما يخص الروح القدس، بسبب ما كان يجري أمامه من المعارك اللاهوتية وتعاليم أثناسيوس التي أنارت الشرق والغرب، وبسبب شدة تعلقه بالأسرار الكنسية وخاصة المعمودية التي اعتبرها الأساس في التعليم والبناء الروحي، لذلك صار هذا الأسقف نموذجاً رائعاً للتمسُّك بالتقليد وبالأسرار كمصدر استنارة لإدراك اللاهوت وتجنُّب الأخطاء اللاهوتية، وإن كانت تعاليمه جاءت غامضة في ما نحن بصدده ولكن يمكن استشفاف الأفكار الآتية من تعاليمه عن الروح القدس كالآتي:

١ - يرفض فكرة أوريجانوس في ما يخص خلقة الروح القدس بواسطة الابن.

٢ - يعتبر الروح القدس مساوٍ في الكرامة للآب والابن.

٣ - يحدِّد شخصية الروح القدس ويؤكِّد على وحدانيته المتميِّزة عن ظهوراته المتعدِّدة (بالمواهب المتعدِّدة).

٤ - لا يحدِّد انبثاقه وكيفيته ولكن يكتفي بالقول أن الابن يمنح الروح القدس ما يستلمه هو من الآب، وهنا يظهر بنوع ما الانحراف في فهم درجة طبيعة الروح القدس(١١٢).

"πατὴρ μέν δίδωσιν υἱῷ καὶ υἱὸς μεταδίδωσιν ἁγίῳ πνεύματι".

ثم يقف هنا حائراً ويقول إنه لا يليق بنا بعد ذلك أن نفحص أموره أكثر من ذلك.

٥ - وأهم ما يجيء في تعاليم كيرلس الأورشليمي عن الروح القدس هو مفاعيله ومواهبه وأعماله كالآتي:

(أ) يقدِّس ويؤلِّه - θεοποιόν - بنعمته الخاصة كل ذي طبيعة عاقلة أو مفكِّرة كضرورة حتمية للاقتراب من الله، ولا يُستثنى من ذلك الملائكة ورؤساء الملائكة(١١٣) (يقرِّر هذا القديس أثناسيوس بوضوح).

(ب) ألهم الأنبياء، وحلَّ على الرب، وأُعطي للرسل، **يُمنح للمعمَّدين في المعمودية في لحظة العماد**(١١٤).

τὸ καὶ νῦν κατὰ τὸν καιρὸν τοῦ βαπτίσματος σφραγίζον σου τὴν ψυχήν.

(112) Catech. XVI. 24.
(113) Ibid. IV. 6; XVI. 23.
(114) Ibid. IV. 16.

كذلك فإنه يُعطَى لنا أيضاً لحظة التثبيت(١١٥) **(وضع اليد = الميرون).**

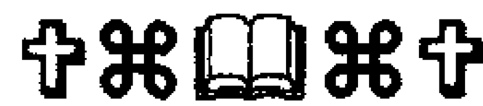
(ج) الروح القدس يقدِّس ويحوِّل الإفخارستيا(١١٦).

(د) يوحي إلينا بكل الأفكار المقدَّسة(١١٧).

(هـ) الروح القدس هو النار الإلهية التي تُفني الخطية وتنير النفس التي تتقبَّل نعمته(١١٨).

وهكذا يغطِّي كيرلس الأورشليمي مفهوم الروح القدس للمعمّد العادي، ولكنه على المستوى اللاهوتي يقف عاجزاً عن فهم الجوهر الواحد الذي للآب والابن والروح القدس، أي التساوي المطلق في الثالوث الذي بدونه يستحيل الإيمان بوحدانية الله.

كما يقف عاجزاً عن فهم **الانبثاق من الآب فقط (كانبثاق الشعاع من الشمس) كصفة جوهرية لأقنوم الروح القدس، الذي بدون ذلك يستحيل فهم مساواته للابن أو الآب في الجوهر والكرامة.**



(115) Ibid. XXI. 2,3.
(116) Ibid. XXIII. v. 9,17.
(117) Ibid. XVI. 19.
(118) Ibid. XVII. 5.

القديس أثناسيوس الرسولي وإرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس ووحدة الثالوث

إلى القديس أثناسيوس يعزى منهج التعريف اللاهوتي للروح القدس على أصول البحث المنهجي العلمي بما لا يقل دقة وأصالة عن منهجه في التعريف بالابن. وبدراسة الرسائل المتبادلة بينه وبين القديس سيرابيون أسقف تمي في ما يخص الروح القدس، كذلك بدراسة كل ما جاء في دفاعه ضد الأريوسيين، يتضح هذا المنهج بخطواته وعمقه واستشهاداته والتزامه بالفكر التقليدي الكنسي الإسكندري على المستوى الكتابي والروحي وبإلهام واضح. فهو يقول لسيرابيون أسقف تمي هكذا:

[إن هذا هو التعليم الذي استلمته الكنيسة من الرسل.] (إلى سيرابيون ٢٨: ٣٢)

[لنتأمَّل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء التي أعطاها الرب، وكرز بها الرسل، وحفظها الآباء. على هذه تأسَّست الكنيسة، ومن يسقط منها لا يعتبر مسيحياً ... هكذا ينادَى بإله واحد في الكنيسة، الذي **على** الكل، وبالكل **وفي** الكل. "الترجمة الأصح: الذي هو كلِّي الأصل (على) وكلِّي السبب (بـ) وكلِّي التنفيذ (في)، وهي الصفات الخاصة المتكاملة بالآب والابن والروح القدس، حيث كلمة **(كل)** لا تفيد الأشياء أو المخلوقات بل تفيد معنى الكلية، أي المطلق، أي الله في ذاته الكلية المطلقة" **على الكل** كآب، كبداية، كينبوع؛ **بالكل** أي بالكلمة، **في الكل** أي في الروح القدس ... فإن كنتم تفصلون وتعزلون الروح القدس عن اللاهوت، لا يكون لكم ذلك الذي هو **في الكل**، وإن فكَّرتم في ذلك فإن طقس الانضمام إلى الكنيسة (المعمودية والتثبيت) الذي تدَّعون أنكم تمارسونه لا يكون في اللاهوت قطعاً.] (إلى سيرابيون ١: ٢٨و٢٩)

والقديس أثناسيوس يواجه أخطاء جماعة المتقلبين "tropici" في عجزهم عن فهم ماهية الثالوث في وحدانية الله، بتوضيحه أن اختلاط الطبائع يستحيل أن يستقيم مع وحدانية الثالوث غير المنفصل؛ فالروح القدس كونه في الثالوث يستحيل أن يكون بطبيعة غير طبيعة الآب والابن عينها. ومن هنا يستحيل أن يُقال أن في الثالوث خالق ومخلوق، بل إله واحد.

"εἰ κτίσμα ἦν, οὐ συνετάσσετο τῇ τριάδι ὅλη γὰρ εἷς θεός ἐστιν"

وفي معرض دفاعه يوضِّح علاقة الروح القدس بالآب والابن، وهكذا يقدِّم القديس أثناسيوس ولأول مرَّة في تاريخ الكنيسة اللاهوتي منهجاً تعليمياً مفصَّلاً عن عقيدة الانبثاق، فهو في الأساس يقرِّر بوضوح:

[إن الروح القدس منبثق من الآب ἐκπόρευμα τοῦ πατρός][(١)]

ثم يضع هذا الاصطلاح اللاهوتي الجوهري مراراً كثيرة هكذا: "الذي من الآب ينبثق"، وهو تجميع للآيتين: يو ١٥:٢٦، ١كو ٢:١٢ = τὸ ἐκ τοῦ πατρός ἐκπορευόμενον

ويضيف أثناسيوس عن عقيدة إرسال الروح القدس هكذا:

[الروح القدس الذي ينبثق من الآب فهو دائماً عند (في يدي) الآب الذي يرسله والابن الذي يوصِّله والذي به يملأ كل شيء.][(٢)]

[لأنه إذا استقام تفكيرهم (المجدِّفين على الروح القدس) عن "**الكلمة**"، استقام تفكيرهم أيضاً عن **الروح المنبثق من الآب**، الذي بفضل علاقته (أي علاقة الروح القدس) بالابن - أعطاه للتلاميذ وكل مَنْ يؤمن به. وهم بأخطائهم هذه لا يستقيم إيمانهم بالآب أيضاً لأن الذين "يقاومون الروح" كما قال الشهيد العظيم استفانوس (أع ٧:٥١و٥٢) ينكرون الابن أيضاً، والذين ينكرون الابن ليس لهم الآب أيضاً (١يو ٢:٢٣).][(٣)]

أولاً: علاقة الروح القدس الجوهرية بالكلمة:

وإزاء محاولة جماعة المتقلِّبين جحد لاهوت الروح القدس في الوقت الذي يعترفون فيه بلاهوت الابن، يبدأ القديس أثناسيوس ينتحي ناحية فرعية - أثناء دفاعه عن لاهوت الروح القدس - **في وصف علاقة الروح القدس الجوهرية بالابن خاصة**، فيقول: إن الروح القدس حتى قبل التجسُّد كان "الكلمة" يعطيه باعتباره أنه - أي الروح القدس - له خاصة وأنه هو الباراكليت:

[عندما حلَّ الكلمة على الأنبياء تنبَّأوا بالروح.] (إلى سيرابيون ٤:٣)

(1) Athanas., *Exposito Fidei* (ek Thesis), parg. 4.

(2) Ibid.

(3) *Ad Serap.* 1, 2.

[وبكل تأكيد فإن الكلمة قبل أن يتأنَّس كان يعطي الروح القدس للقديسين باعتباره له أو كخاصته (as his own = ἴδιον). كذلك لمَّا صار إنساناً فإنه يقدِّس الجميع بالروح القدس ويقول لتلاميذه "اقبلوا الروح القدس".][٤]

[هل الروح القدس "**واحد**" والباراكليت "آخر"، حيث يكون الباراكليت هو بعد الروح القدس، وهل الباراكليت لم يذكر في العهد القديم؟ - حاشا! ... فكما أن "**الكلمة والابن**" هما واحد كذلك "**الروح والباراكليت**" والرب نفسه قال هكذا: "والباراكليت الذي هو الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي" (يو ١٤: ٢٦). وهكذا يتكلَّم الرب عن الواحد نفسه.][٥]

ملاحظة هامة:

وبسبب هذه الهرطقة التي نشأت منذ القرن الثاني القائلة بأن الباراكليت لم يكن موجوداً في العهد القديم، وأن الروح شيء والباراكليت شيء آخر، وقد تبنَّاها جماعة المتقلِّبين والأريوسيين؛ لذلك اهتم مجمع أفسس أن يقرِّر عن الروح القدس أنه: "**الناطق في الأنبياء**"، وقد انبرى قبل أثناسيوس يوستين، الذي كان أول مَنْ أعطى صفة "**روح النبوَّة**" προφητικόν **للروح القدس** التي نردِّدها الآن في الأجبية، عندما كان يتكلَّم عن المعمودية[٦]، كذلك تعرَّض لها أوريجانوس أيضاً[٧].

يقول القديس أثناسيوس:

[إن الكلمة صار جسداً **لكي يقدِّم جسده عن الجميع ولكي إذا نحن اشتركنا في الروح القدس نصير شركاء الطبيعة الإلهية** (نتألَّه). **هذه العطية التي كان يستحيل علينا نَيْلها إذا لم يكن لبس جسداً من جسدنا المخلوق، ولكننا بنيلنا الروح القدس لا نفقد طبيعتنا الخاصة.**][٨]

كذلك فإن أثناسيوس قبل أن يصل بالقارئ إلى المساواة الكاملة للروح القدس في الثالوث مع الآب والابن، يبدأ أولاً يوضِّح العلاقة الجوهرية المتساوية في كل شيء بين الروح القدس والكلمة،

(4) Athanas., C. Ar., I, 48.
(5) Athanas., C. Ar., IV, 29.
(6) Justin, *Apol.* I, 61; I, 6, 13; Trypho 49, 54, 61.
(7) Origen, *In Tir*, t. 4, p. 695; cited by Newman, *op. cit.*,
(8) Athanas., *De Decr.* 14.

حتى ينفي قطعياً قول الهراطقة أن الابن خلقه فيقول:

[كما أن الابن هو في الآب والآب فيه وأنه من جوهـر الآب ἴδιος τῆς τοῦ πατρός οὐσίας، كذلك فإن الروح القدس هو في الآب والابن فيه، ولذلـك لا يمكـن أن يُقـال إن الروح القدس مخلوق أو يوجد منفصلاً عن الكلمة.](٩)

[وكما أن الابن هو في (من) الآب، لذلك هو من جوهر الآب. كذلك بالتالي فإن الروح القدس لأنه في (من) الله فإنه يتحتّم أن يوجد جوهرياً مع الابن ἴδιος κατ' οὐσίαν.](١٠)

[عندما افتقد "**الكلمة**" العذراء القديسة مريم، دخل الكلمـة ومعـه الـروح القـدس إليهـا = ἤρχετο - εἰς - συν وصـاغ الكلمـة جسـده بـالروح القـدس ἐν τῷ πνεύματι وشكّله لذاته، إذ أراد أن يوحِّد ـ فيه ـ كـل البشـرية (اتحـاد) بـا لله ἔπλαιτε τὸ σῶμα ويحضرها إليه بواسطة نفسه.] (إلى سيرابيون ١:٣١)

[لا يمكن أن يتجزّأ الثالوث، هذا نراه في ما قيل للقديسة مريم نفسها، فـإن رئيـس الملائكـة جبرائيل لمّا أُرسل **لكي يعلن حلول الكلمة عليها** قال: «الروح القدس يحـل عليـكِ»، عالمـاً أن **الروح القدس** قـائم في "الكلمـة". وبعـد ذلـك مباشـرة يقـول: «**وقـوة العلـي تظلّلـك (تسكن فيكِ)**» **لأن المسيح هو قوة الله** وحكمة الله.] (إلى سيرابيون ٣:٦)

[لذلك كم يكون مستحيلاً أن يُقال إن الـروح القـدس خـارج عـن أو غريـب مـن الكلمـة ἐκτός ἐστι τοῦ Λόγου τὸ Πνεῦμα, لأنه كونه في الكلمة فهـو في الله = "ἐν τῷ Λόγῳ ὂν ἐν τῷ θεῷ δι' αὐτοῦ ἐστιν".](١١)

[إن الروح القدس هو التعبـير الكيـاني μορφή والصـورة εἰκών الموضّحـة للابـن كمـا أن الابن هو التعبير الكياني وصورة الآب.](١٢)

وأثناسيوس يستخلص من هذه العلاقة الجوهرية والمتسـاوية في كـل شـيء بـين الكلمـة والـروح

(9) Athanas., C. Ar., I, 20, 21.
(10) Ibid. I, 25.
(11) Ibid. III, 5.
(12) Ibid. III, 2; IV, 3.

القدس ردًّا مفحماً لجماعة المتقلِّبين، الذين يقولون بلاهوت الكلمة وينكرون لاهوت الروح القدس قائلين إن الكلمة خلقه.

ولكن لا يغيب عن بالنا أن همّ أثناسيوس الأساسي في إثبات لاهوت الروح القدس ليس من صفاته أو علاقته بالكلمة فحسب، بل ومن عمله في الخليقة القديمة والخليقة الجديدة هكذا:

[بينما أن **الخليقة كلها هي مجال عمل الروح القدس المتعدِّد الجوانب، فإنه يعمل بصورة خاصة جدًّا وفائقة في المعمَّدين الذين يوحِّدهم في ا لله:**

τῇ δε τοῦ Πνεύματος μετοχῇ συναπτόμεθα τῇ θεότητι

وبسبب هذه الوحدة يصيرون بحالة ما مؤلَّهين "θεοποιοῦνται = deified".](١٣)

(١) التقديس:

[إذن فالروح القدس، الذي لا يتقدَّس هو بشيء خارجاً عن نفسه، ولا يستمد قداسته بالشركة بل هو نفسه ينبوع القداسة **وفيه تتقدَّس كل الطبائع المخلوقة**، كيف يمكن أن تكون طبيعته مثل طبيعة المخلوقات التي تتقدَّس به؟] (إلى سيرابيون ١:٢٣)

(٢) طقس الانضمام للكنيسة (العضوية في جسد المسيح):

[لقد أوصى تلاميذه قائلاً: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن **والروح القدس»، لكي بالروح القدس وفيه تكمل معرفتنا با لله** = θεολογία، **ويتم طقس الانضمام للكنيسة (المعمودية والتثبيت معاً)، ويكمل اتحادنا بشخصه وبالآب.**]

(إلى سيرابيون)

(أ) الروح القدس لحظة العماد:

[فماذا قبلوا (لمَّا آمنوا) **إلاَّ الروح القدس الذي يُعطى للذين يؤمنون ويُولَدون ثانيةً** «بغسل الميلاد الثاني» (تي ٣:٥).] (إلى سيرابيون ١:٤)

(ب) الروح القدس لحظة وضع اليد (الميرون = التثبيت):

[كذلك أيضاً **بوضع أيدي الرسل كان الروح القدس يُعطى لِمَنْ وُلِدُوا ثانيةً.**]

---

(13) Ibid. III, 24, 25.

(إلى سيرابيون ١:٦)

[ومتى تمَّ هذا إلاَّ عندما جاء الرب **وجدَّد كل الأشياء بالنعمة؟** فروحنا تجـدَّدت ... **يقـول الله إن روحه هو الذي به تتجدَّد أرواحنا** ἀνακαινίζω.] (إلى سيرابيون ١:٩)

(٣) ثم يشير أثناسيوس إلى عمل الروح القدس الأساسي في رسامة الأساقفة في الكنيسة:

[كما قال بولس الرسول: «**التي أقامكم الروح القدس فيهـا أسـاقفة، لـترعوا كنيسـة الله التي اقتناها بدمه**» (أع ٢٠:٢٨).]

(٤) يمتد أثناسيوس بمفهوم قوة التقديس في الثالوث إلى عملها الخاص بالروح القـدس، ويسـتنتج مباشـرة أن الروح القدس من جوهر الثالوث أي اللاهوت لأنه يقدِّس الإنسان:

[إن الروح القدس يُدعى روح القداسة (المسيح هو القدوس ابن الله)، وأمَّا المخلوقـات فهـي تحتاج - بطبيعتها - إلى التقديس، أمَّا هو فلا ينال القداسة من آخـر بالمشـاركة بـل يمنحهـا باشتراكه هو مع الخليقة (الجديدة)، لذلك كيف يمكن أن يُقال أنه يعتبر واحداً من الخليقة؟] (إلى سيرابيون ١:٢٣)

(٥) كذلك يستخدم أثناسيوس سر قدرة الروح القدس على إعطـاء الحيـاة (المسـيح هـو الحيـاة) في إثبات لاهوته:

[إنه يُدعى **الروح المحيي** (و «روح الحياة في المسيح يسوع»)، لأن منه تنال المخلوقات الحياة؛ علماً بأن الابن هو نفسه **الحياة** ويُدعى في الإنجيل **رئيس الحياة**، فكيـف يُحسـب الـروح القـدس ضمن المخلوقات وهو الذي فيه تنال المخلوقات الحياة بواسطة الكلمة؟] (إلى سيرابيون ١:٢٣)

(٦) وهكذا يرى أثناسيوس أن علاقة الابن بالروح القـدس علاقـة ("الابـن" وروح البنـوَّة)؛ ("قـدوس"، وروح القداسـة)؛ ("حيـاة" وروح محيي). كذلـك يراهـا ("مسـيح"، ومسـحة)؛ ("وكلمـة" وختـم)؛ ("وطيب"، ورائحة زكية):

[لهذا فكما أن الرب يُدعى **ابناً** هكذا يُدعى الروح القدس **روح البنوَّة** (روح التبني)، كذلك أيضاً كما أن الابـن يُدعـى **"الحكمـة"** و**"الحق"**، فـالروح القـدس يُدعـى **"روح الحكمـة"** و**"روح الحق"**، وكما أن الابن **هو قوة الله ومجد الآب** (رب المجد) فـالروح القـدس يُدعـى **روح القوة والمجد:**

+ «لو عرفوا لما صلبوا **رب المجد**.» (١كو ٢:٨)

+ «إذ لم تأخذوا روح العبودية (الناموس) أيضاً للخوفِ، بل أخذتم **روح التبنّي**.» (رو ٨: ١٥)
+ «أرسل الله **روح ابنه** إلى قلوبكم صارخاً: يا أبَا الآبُ.» (غل ٤: ٦)
+ «إن عُيِّرتم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن **روح المجدِ وا لله** يحلُّ عليكم.» (١بط ٤: ١٤)
+ «**المعزي ... روح الحق**» (يو ١٤: ٢٦و١٧).] (إلى سيرابيون ١: ٢٥)

[الروح يُدعى **المسحة** Χρίσμα، ويُدعى أيضاً الختم σφράγις، وبه تُختم وتُمسح الخليقة (الجديدة)، **فإن كان الروح هو المسحة وهو الختم الذي به يَمسَح "الكلمة"** الجميع ويختمهم، فأية مشابهة تكون بين المسحة والمخلوق الذي يُمسح، أو بين الختم والمختوم. يستحيل أن يكون الختم من عداد المختومين به أو تكون المسحة من عداد الممسوحين (الختم شيء والمختوم شيء آخر، المسحة شيء والممسوح شيء آخر، هذه قوة الطبيعة الإلهية الواهبة وهذه ضعف الطبيعة القابلة) إنه الروح الخاص بالكلمة وبه يُمسح ويُختم (المعمَّدون).] (إلى سيرابيون ١: ٢٣)

(٧) ويؤكِّد أثناسيوس أن الروح القدس هو روح المسيح الخاص، ويستدل على ذلك من أن الذين يُمسحون به تصير لهم رائحة المسيح الزكية لله والذين يُختمون به تنطبع عليهم صورة المسيح الكلمة:

[المسحة Χρίσμα لها نفس رائحة الذي يُمسح بها، ولذلك فالذين يقبلون المسحة يقولون: «نحن رائحة المسيح الزكية لله».] (إلى سيرابيون ١: ٢٣)

(٨) [والختم σφράγις يحمل نفس صورة المسيح الذي يختم، ولذلك فالذين يُختمون تصير لهم شركة هذه الصورة، ويتحوَّلون إليها بحسب كلمات الرسول: «يا أولادي الذي أتمخَّض بكم (الميلاد الجديد) إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم (بالروح القدس)».] (إلى سيرابيون ١: ٢٣)

(٩) [وحينما نُختم بالروح القدس نصير شركاء الطبيعة الإلهية (طبيعة الختم والخاتم) بحسب كلمات بطرس الرسول، وهكذا تصبح الخليقة (الجديدة) شريكة الكلمة في الروح القدس.] (المرجع السابق)

(١٠) وينتقل أثناسيوس سريعاً ليصل بالاتحاد الذي يتم بالكلمة في الروح القدس إلى الاتحاد الذي يتم في الثالوث أي ا لله الواحد:

[وحيث أننا نصير بالروح القدس شركاء المسيح وبالتالي شركاء ا لله، يتبرهن من ذلك أن المسحة والختم الذي فينا لا يُحسب أنه من طبيعة الكائنات المخلوقة، بل من **طبيعة الابن** الذي بواسطة

الروح الذي فيه يوحِّدنا مع الآب.] (إلى سيرابيون ١:٢٤)

(١١) [فإن كان الآب هو الذي يخلق ويجدِّد الجميع بواسطة الكلمة في الروح ... فإن الروح الذي فيه يخلق الجميع، كيف يكون هو مخلوقاً؟

إن قبول مثل هذا الافتراء يضطرنا أن نقول مثل هذا بالتالي عن الابن بل وعن الآب نفسه أيضاً.] (إلى سيرابيون ١:٢٤)

ثانياً: علاقة الروح القدس الجوهرية بالآب والابن في الثالوث:

[الثالوث كله إله واحد ...، ولا موضع فيه لشيء غريب عن الله.] (سيرابيون ١:١٧)

[هذا هو إيمان الكنيسة الجامعة، لأن الرب أسَّسها في الثالوث وأصَّلها فيه عندما قال لتلاميذه: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».] (إلى سيرابيون ٣:٦)

يبتدئ أثناسيوس ليثبت وحدة الروح القدس مع الآب والابن، معتمداً كلية على الكتاب المقدَّس، مقدِّماً الآيات تلو الآيات، معتبراً أن إعلان الله في الكتاب المقدَّس هو المصدر الوحيد لفهم ماهية الروح القدس، مؤكِّداً إن وحدة الأقانيم الثلاثة هي وحدة جوهر ثم وحدة في صفات وفي أعمال، فكل ما يعمله الروح القدس إنما يعمله من خلال وحدته بالآب والابن.

فهو يعتمد على بولس الرسول مثلاً في قوله: إننا في الروح القدس تستنير عيوننا (انظر: أف ١:١٧و١٨)، وإننا جميعاً سُقينا روحاً واحداً (انظر: ١كو ١٢:١٣). ثم يطبِّق ذلك على ما جاء عن الآب فيقول إن الكتاب المقدَّس يقول إن الآب نور وينبوع، وكذلك الابن أيضاً الذي يتصل بالآب كما يتصل النهر بالينبوع أو الشعاع بالنور (انظر: عب ١).

[وحيث أن الآب نور والابن بهاء هذا النور، فنحن في الابن ننال الروح الذي به نستنير، وحينما نستنير بالروح القدس يكون المسيح نفسه هو الذي ينير علينا لأنه هو النور الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم.

وبالمثل من حيث أن الآب هو الينبوع، والابن كنهر، يُقال إننا نشرب الروح ...، وحينما نشرب الروح فنحن في الواقع نشرب من المسيح، لأنه هكذا قيل عن شعب إسرائيل في البرية إذ كانوا يشربون من صخرة روحية كانت تتبعهم والصخرة كانت المسيح.] (إلى

سيرابيون ١ :١٩)

ومن نفس هذه الوحدة بين الأقانيم الثلاثة نحن نقبل روح التبني:

[حيث أن المسيح هو الابن الحقيقي (بالجوهر)، فنحن **حينما نقبل الروح القدس نصير أبناءً "بالروح"**. ولكن حينما نصير أبناء، فمن الواضح أن ذلك **يتم في "المسيح"، لذلك نُدعى أبناء "لله"** (بالتبني).] (سيرابيون ١ :١٩؛ ضد الأريوسية ٣ :١٩)

ثم من نفس هذه الوحدة في الثالوث نتقبَّل روح الحكمة:

[حيث أن الابن هو حكمة الله، فنحن حينما نقبل روح الحكمة، فنحن نقبل في الحقيقة الابن الذي به نصير حكماء.] (نفس المرجع السابق)

ثم بنفس هذه الوحدة في الثالوث يصير حلول الأقنوم الواحد، أي الروح القدس، لا بمعنى أنه يكون بديلاً عن الابن أو الآب بل أننا به نحقِّق حلول الآب والابن:

[«إن أحببنا بعضنا بعضاً، فالله يثبت فينا. بهذا نعرف **أننا نثبت فيه** وهو فينا أنه **أعطانا من روحه**». وحيث أن الله يثبت فينا، فالابن أيضاً يكون فينا، لأنه هو نفسه يقول ذلك: «إليه نأتي – أنا وأبي – وعنده نصنع منزلاً».] (نفس المرجع السابق)

هكذا نرى أن جميع الأعمال المنسوبة للروح القدس تكون في الواقع هي أعمال المسيح نفسه:

[كل ما كان الابن يعمله، كان يقول إن الآب الحالّ فيه هو الذي يعمله. وهكذا على هذا النمط كل ما كان بولس الرسول يعمله بالروح كان يدعوه عمل المسيح فيه.] (نفس المرجع السابق)

ومن ذلك يخرج أثناسيوس بالنتيجة الآتية:

[فحيث أن الثالوث المقدَّس يمتاز بمثل هذه الوحدة وهذا الاتحاد، فمن ذا يستطيع أن يفصل الابن عن الآب، أو الروح القدس عن كل من الآب والابن؟ ومَنْ ذا يجسر أن يتكلَّم عن اختلاف أو مفارقة في طبيعة الثالوث كأن يقول إن الابن من جوهر مخالف لجوهر الآب أو إن الروح القدس غريب عن الابن؟] (سيرابيون ١ :٢٠)

هكذا يصل أثناسيوس إلى الحقيقة أن وحدة الروح القدس بكل من الآب والابن هي من نفس نوع الوحدة الكائنة بين الآب والابن، أي وحدة الجوهر والطبيعة. وهكذا يفحم أثناسيوس المعترضين على لاهوت الروح القدس بنفس برهان التحدِّي الذي قدَّمه مراراً للأريوسيين، أن الأحرى بهم أن يفصلوا الشعاع من النور أو الحكمة من الحكيم إن أرادوا أن يفصلوا الروح القدس

عن الآب والابن[14].

[يقولون ـ مستنكرين ـ كيف بمجرَّد أن يكون الروح القدس فينا يُقال إن الابن أيضاً فينا؟ أو حينما يكون الابن فينا يكون الآب أيضاً فينا؟ ـ ثم يستطردون: إن كان الثالوث حقًّا من ثلاثة أقانيم، فكيف يكون وجود الواحد منهم كافياً لوجود الثالوث كله؟ إن مَنْ يتساءل مثل هذه الأسئلة فالأحرى به أن يفصل الشعاع من النور أو الحكمة من الحكيم!!] (إلى سيرابيون ١ : ٢٠)

[كما أن الابن حالٌّ في الروح القدس كما في صورته الخاصة، هكذا الآب حالٌّ في الابن.] (نفس المرجع السابق)

ويوضِّح أثناسيوس هذه التعبيرات الخاصة بالعلاقة بين الأقانيم قائلاً:

[إن الكتاب المقدَّس يستخدم مفاهيم الصورة والشعاع والنور والينبوع والنهر ... إلخ لكي يسهِّل علينا التعبير عن هذه الحقائق الفائقة، ولكي نؤمن أنه لا يوجد إلاَّ تقديس واحد للنفس **وهو الذي يأتي من الآب بالابن في الروح القدس** = ἕνα εἶναι τόν ἁγιασμὸν, τόν ἐκ Πατρὸς δι' Υἱοῦ ἐν πνεύματι ἁγίῳ γινόμενον] (إلى سيرابيون)

وهذا الاصطلاح يعتبر تلخيصاً سهلاً لكل ما أجاب به أثناسيوس على استنكارات المنكرين لوحدة الأقانيم معاً مع احتفاظ كل أقنوم بميزاته الشخصية، لأن وحدة القوة المقدَّسة في الثالوث هي التي تفسِّر لنا أنه بمجرَّد حلول أحد الأقانيم الثلاثة، يُقال في الحال إن الثالوث كله يكون موجوداً:

[لكي نعتقد أن هناك قداسة واحدة مستمدة من الآب بالابن في الروح القدس، وكما أن الابن مولود وحيد الجنس، هكذا فإن الروح القدس واحد غير متعدِّد، ليس واحداً من كثير (المواهب المتعدِّدة التي له)، بل روح وحيد. وكما أن الابن الكلمة الحي وحيد، هكذا ينبغي أن يكون (روح الابن) القوة الحية والعطية، الذي به يقدِّس وينير، ينبغي أن يكون وحيداً كاملاً تاماً، وهو الذي قيل إنه ينبثق من الآب، لأنه من الكلمة المعترف أنه من الآب، وهو الذي قيل إنه يشرق ويرسل ويعطي ـ وكما أن الابن أُرسل من الآب، كذلك الابن يُرسِل الروح القدس: «إن ذهبت أُرسل الباراكليت».] (إلى سيرابيون ١ : ٢٠)

(14) Athanas., *C. Ar.* 1. 29; II. 31; III. 4, 6, 15; *De Syn.* 52.

[**ووحدة الثالوث** كاملة، **لأن الآب يصنع كل شيء بواسطة الابن في الروح القدس.**]
(إلى سيرابيون ١:٢٨)

وهنا نستطيع أن نفهم سر إصرار بولس الرسول حينما يتكلَّم عن مواهب الروح القدس، كيف يُرجع كل شيء إلى الله الآب (١كو ١٢:٦) وهذا يأخذه أثناسيوس ويشرحه:

[**فما يقسمه الروح القدس لكل واحد، يكون الآب هو الذي يمنحه بواسطة الكلمة، لأن كل ما للآب هو للابن، وبالتالي فالمواهب التي يمنحها الابن في الروح القدس هي أصلاً مواهب الآب.**] (إلى سيرابيون ١:٣٠)

ثم إن هذه الوحدة الكائنة بسبب التساوي المطلق في الثالوث ـ وحدانية الله ـ هي التي تفسِّر لنا العمل الواحد والتواجد المشترك للأقانيم فينا:

[**حينما يكون الروح فينا يكون الكلمة ـ الذي يمنح الروح ـ هو أيضاً فينا وفي الكلمة يكون الآب نفسه**].

هكذا يؤكِّد القديس أثناسيوس أن الأقانيم الثلاثة متلازمون، ولا يمكن الفصل بينهم كما لا يمكن الفصل بين النور والشعاع أو بين الشعاع وقوته ...

وهنا يكمن سر البركة المتلازمة العمل والفاعلية للثالوث التي يصر عليها بولس الرسول: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم.» (٢كو ١٣:١٤)

[**إن النعمة التي يمنحها الثالوث هي بالضرورة من الآب بواسطة الابن في الروح القدس. فكما أن النعمة تأتي من الآب بواسطة الابن، هكذا أيضاً لا يمكننا أن ننال شركة فيها إلاَّ في الروح القدس، فحينما ننال شركة الروح تكون لنا بالتالي محبة الآب ونعمة الابن.**] (إلى سيرابيون ١:٣٠)

[ومن هذا يظهر أن عمل الثالوث واحد، فالمواهب التي يتكلَّم عنها الرسول لا يقول عنها إنها تُعطى من كل واحد من الأقانيم الثلاثة على حدة، بل يقول إنها **معطاة في الثالوث، وإن جميعها من الله الواحد ... فالروح القدس إذن، وهو متحد بالابن، لا يوجد شيء يعمله الابن إلاَّ ويكون معمولاً في الروح. كما أن الابن وهو متحد بالآب يصنع كل ما يصنعه الآب، فالروح إذن غير منفصل عن الابن، حتى أنه حينما تتم كلمة الرب** «وإليه نأتي ـ أنا وأبي وعنده نصنع منزلاً»، يكون الروح معهما بالضرورة، يأتي ويسكن فينا

كما يسكن الابن تماماً.] (إلى سيرابيون ١:٣١)

وهكذا فإن القديس أثناسيوس، في معرض دفاعه عن لاهوت الروح القدس، يكون قد استوفى أصعب وأدق موضوع وهو علاقة الأقانيم معاً - وخاصة الروح القدس في الثالوث - وفي نفس الوقت يكون قد استوفى أيضاً عمل الروح القدس فينا من داخل الثالوث.

وهو في ذلك، بينما يقدِّم تعاليمه كرجل لاهوت، لا يفوِّت علينا قط أن نلمح أنه إنما يشرح خبرته الروحية العميقة وعقيدته الإيمانية التي يعيش بها خلاصه وحياته الأبدية ...



مسحة المسيح بالروح القدس وقت العماد
والنعمة التي نلناها من هذه المسحة

لقد تطرَّق أثناسيوس إلى هذا الموضوع لينفي عن "الابن" احتمال قبوله للروح القدس، موضِّحاً أن الابن لم يقبل الروح القدس لأن الروح القدس قائم في الابن والابن قائم في الروح القدس، لأن جوهر الابن والروح القدس واحد. فالروح القدس والابن هما واحد - مع الآب - لاهوتياً؛ أي بحسب الكيان الإلهي الذاتي الواحد. **ولكن الروح القدس حلَّ على الجسد بملء اللاهوت، لكي نأخذ من هذا الملء إذا اتحدنا بالجسد**، وأثناسيوس يقول بوضوح إن هذه المسحة إنما هي لنا، وليست للابن، **والابن لم يتقدَّس من آخر بل هو الذي قدَّس ذاته (الجسد):**

[وإن ما قالته المزامير (الأشعار) المقدَّسة، توضِّح المعنى "**الأرثوذكسي**" الذي يحرِّفه الأريوسيون، مع أنه واضح بكل تقوى لدى صاحب المزامير فهو يقول:

+ «**عرشك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب البر هو قضيب مُلكك،** لقد أحببت البر وأبغضت الإثم، **لذلك فالله وهو إلهك قد مسحك** بزيت البهجة أكثر من رفقائك (شركائك).» (مز ٤٤: ٧و٨ سبعينية)

انظروا أيها الأريوسيون واعرفوا الحق، **فالمرنِّم يتكلَّم عنَّا نحن كرفقاء أو شركاء للرب**، ولكن لو كان المسيح (الابن) هو واحد من المخلوقات التي جاءت من العدم (كما يقول الأريوسيون)، لكان يُحسب واحداً من هؤلاء الرفقاء أو الشركاء، ولكن المزمور يُسبِّح له أنه هو الله الأبدي «عرشك يا الله إلى دهر الدهور»، وأن كل المخلوقات تأخذ منه وتشترك فيه، فماذا نستخلص من هذا في النهاية، غير أنه متميِّز بوضوح عن المخلوقات جميعاً، لأنه هو كلمة الآب الحق وبهاؤه وحكمته، الذي منه تأخذ وتشترك **كافة الخليقة التي تتقدَّس به في الروح القدس.** لذلك يقول هنا إنه "مُسح"، لا ليصير إلهاً لأنه هو إله حقًّا من قبل، ولا لكي يصير ملكاً، لأن له الملكوت منذ الأزل باعتباره صورة الله - كما تقول الأسفار المقدَّسة - ولكن هذا إنما كُتب من أجلنا نحن، لأن ملوك إسرائيل عندما كانوا يُمسحون يصيرون ملوكاً، كونهم لم يكونوا ملوكاً سابقاً كداود وحزقيا ويوشيا والباقين، أمَّا في ما يخص **المخلِّص** فهو على النقيض

من ذلك فإنه **وهو إله وملك قائم على ملكوت الآب** وهو أيضاً الذي **يَمنح الروح القدس**، يقول المزمور ـ بالرغم من ذلك ـ أنه "مُسح" على أساس أنه صار إنساناً. **فهو على هذا الاعتبار مُسح بالروح القدس لكي يمدَّنا نحن البشر ليس فقط بالقيامة والرفعة إلى الأعالي (معه)، بل وبسكنى الروح القدس والأُلفة والمودَّة معه.**

علماً بأن الرب قال من فمه في الإنجيل: «أرسلتهم أنا إلى العالم، ولأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحقِّ» (يو ١٧: ١٨و١٩)، وبقوله هذا يكون قد أوضح أنه **لم يتقدَّس من آخر، بل هو الذي يقدِّس نفسه (الجسد) حتى نتقدَّس نحن في "الحق"**.

والذي قدَّس نفسه هو هو إله التقديس والقداسة، ولكن كيف حدث هذا وما معناه؟: (أنا كوني كلمة الآب ـ وقد صرت إنساناً أُعطي لنفسي الروح القدس، **فأنا إذ صرت إنساناً فكإنسان أتقدَّس فيه (أي في الكلمة)، حتى فيَّ ـ وأنا أيضاً الحق ـ يتقدَّس الجميع!!** "كلمتك هو الحق").

فإن كان قد قدَّس نفسه من أجلنا، وهذا صنعه لمَّا صار إنساناً، فيكون الواضح **أن حلول الروح القدس عليه في الأُردن كان حلولاً علينا، لأنه كان حاملاً جسدنا، وهذا كله حدث ـ في الأُردن ـ ليس لحساب الكلمة، ولكن من أجل تقديسنا، حتى يتسنَّى لنا أن نشترك في مسحته.** وحينئذ يصح فينا القول: «أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم.» (١كو ٣:١٦)

لأن الرب عندما اغتسل في الأُردن ـ كإنسان ـ فالذي اغتسل هو نحن الذين اغتسلنا فيه وبه، وحينما تقبَّل الروح القدس فنحن الذين تقبَّلنا به الروح.

ولكن، وأكثر من ذلك، فإنه لم يُمسح بالزيت كهارون أو داود أو الباقين، وإنما بطريقة أخرى **أعلى** من رفقائه (رفقائه في الكهنوت والملوكية)، «بزيت البهجة» الذي يشرحه المسيح نفسه بأنه الروح القدس قائلاً بفم النبي: «**روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني**» (إش ٦١:١)، وكما قال الرسول أيضاً: «**كيف مسحه الله بالروح القدس**» (أع ١٠:٣٨). ثم متى قيل هذا عنه إلاَّ عندما جاء في الجسد واعتمد في الأُردن وحلَّ عليه الروح؟

والحقيقة أن الرب نفسه قال: "إن الروح سيأخذ مما لي"، "وأنا سأرسله"، كما قال

لتلاميذه: «اقبلوا الروح القدس»، والمُعطِي الروح للآخرين يُقال إنه يتقدَّس: «**لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي**»، وما ذلك إلاَّ لأنه صار بشراً، **وأن الجسد الذي يقدِّسه هو جسده حتى أننا نحن منه ابتدأنا نأخذ المسحة والختم، كما يقول يوحنا: «وأنتم لكم مسحة من القدوس»** والرسول يقول: «**وقد خُتمتم بروح الموعد القدوس**».

لذلك فمن أجلنا وبسببنا قيلت هذه الأقوال، أو ما هو الترقِّي والتقدُّم أو الفضيلة التي صارت، أو حتى السلوك الذي ظهر، كنتيجة لحصول الرب على هذه (المسحة)؟ لأنه إن لم يكن أصلاً إلهاً وصار إلهاً أو إن لم يكن ملكاً وتزكَّى ليكون ملكاً، لكانت تصبح مجادلاتكم مقبولة شكلاً، ولكن إن كان هو إلهاً وإن كان قضيب ملكه أزلياً، فبأي حال من الأحوال يمكن أن يُقال إن الله ترقَّى أو تقدَّم (بنوال المسحة)؟ أو ما هو الذي كان يعوزه ذلك الذي هو جالس بالفعل على عرش مملكة أبيه؟

فإن كان الرب نفسه هو الذي قال إن الروح القدس هو له خاصة، وإن هذا الروح يأخذ منه، وإنه الذي يرسله، إذن فلا يمكن أن يكون الكلمة ككلمة وحكمة هو الذي مُسح بالروح، لأنه هو الذي يعطيه، بل **الجسد الذي اتخذه الرب لنفسه هو الذي مُسح فيه وبه لكي التقديس الذي صار للرب كإنسان ينتقل منه لكل الناس، والمسيح يقول إنه ليس من نفسه يتكلَّم الروح إنما "الكلمة" هو الذي يُعطي الروح للمستحق!**

وهذا يطابق ما قاله الرسول: «الذي إذ كان في صورة الله (وهو كائن في هيئة الله) لم يحسب خلسة (لم يعتبره امتيازاً) أن يكون معادلاً لله (أن يكون متساوياً مع الله)، لكنه أخلى نفسه وآخذاً صورة (هيئة) عبد». هكذا أيضاً يخدم داود الرب (بالتسبيح) معتبراً إيَّاه الإله والملك الأزلي.

لكنه أُرسل إلينا وأخذ جسدنا المائت، وهذا هو المعنى في المزمور: "رائحة ثيابك لها عطر المر والصبر والكاسيا (السليخة)" (إشارة إلى الجسد المائت). وهذا ما اتضح بواسطة نيقوديموس ومريم ومَنْ معها من النسوة حينما جاء الأول حاملاً مزيجاً من المر والصبر نحو مئة رطل والأخريات الحنوط التي حضَّرنها لدفن جسد الرب.

والآن ما هو الامتياز الذي صار لغير المائت (بطبيعته) حينما أخذ لنفسه (الجسد) المائت؟ أو ما هو التقدُّم والترقِّي الذي صار للأبدي حينما لبس (الجسد) الزمني؟ نعم، ما هو العوض

أو المكافأة التي نالها الإله والملك الأزلي الكائن في حضن أبيه من هذه المسحة؟ **ألا ترون إذن أن هذه (المسحة على الأُردن من الروح القدس) إنما صارت وكُتب عنها: "لنا ومن أجلنا نحن"، حتى يحضرنا الرب نحن الزمنيين والمائتين إلى ملكوته السمائي الأبدي؟**

لأنه حينما أتى الرب يسوع المسيح إلينا وصار في وسطنا، حصل لنا نحن الامتياز والترقِّي، إذ قد أُنقذنا من الخطيئة، أمَّا هو فبقي كما هو ولم يتغيَّر قط عندما صار بشراً، بل كما كُتبَ: «إن كلمة الله = Λόγος تثبت (تسكن) إلى الأبد.» (إش ٤٠: ٨)

وبكل تأكيد، فإن "الكلمة" وقبل أن يصير إنساناً (أي في العهد القديم) منح القديسين روحه باعتباره له خاصة، كما منحه بعد أن صار إنساناً ليقدِّس الجميع بالروح، فيقول لتلاميذه: «إقبلوا الروح القدس». كما أعطى موسى والسبعين الآخرين. وداود أيضاً ـ من خلال الابن (الكلمة) ـ يصلِّي إلى الآب قائلاً: «روحك القدوس لا تنزعه مني»! فبالمقابل نجده بعد أن تأنَّس قال: «سأرسل لكم المعزي روح الحق»، وقد أرسله بالفعل ـ وهو الكلمة ـ لأنه صادق.

لذلك فيسوع المسيح: «هو أمساً واليوم وإلى الأبد»، باقٍ غير متغيِّر، وفي نفس الوقت وبآن واحد يعطي (المسحة) ويأخذ (المسحة)، يُعطي باعتباره "**كلمة الله**"، ويأخذ كإنسان. فليس الكلمة إذن الذي يُرى كأنه نال امتيازاً (بالمسحة)، لأنه ككلمة له كل شيء وكل شيء له دائماً، ولكن البشر هم الذين يأخذون أصلهم - ἀρχή - منه وفيه.

إذن فحينما يُقال الآن إنه نال المسحة ـ كإنسان ـ فنحن الذين فيه نكون قد مُسحنا، حيث أيضاً حينما اعتمد فنحن أيضاً الذين اعتمدنا فيه. والرب والمخلِّص يعطي ضوءًا كثيراً على كل هذا حينما يقول للآب: «وأنا أعطيتهم المجد الذي **أعطيتني ليكونوا** واحداً كما أننا نحن واحد.» (يو ١٧: ٢٢)

ولذلك حينما طلب هو المجد لنفسه يكون قد طلبه لنا، وكذلك كل ما قيل عن كونه "أخذ" و"أعطى" و"ارتفع إلى الأعالي"؛ حتى فيه "نأخذ" نحن و"نُعطَى" و"نرتفع"، لأنه أيضاً

لأجلنا قال إنه يقدِّس ذاته حتى نتقدَّس فيه(١٥).

---

(١٥) هنا في الحقيقة ينقل لنا أثناسيوس ـ بحسب التقليد الرسولي ـ مبدءًا آبائياً ضخماً ومدروساً، يقوم على أساس أن الرب قد تفضَّل وتنازل ليكون وساطة سببية **مباشرة لإعطاء حياة لكل فرد مسيحي.**

ومبدأ أثناسيوس هنا يمكن مهاجمته لأول وهلة، إذ يكون السؤال هو أيّة علاقة يمكن أن تقوم بين تقديس المسيح لبشريته وبين تقديسنا نحن؟ إذ كيف يمكن أن يُفهم أن الطبيعة البشرية تتقدَّس عندما يتقدَّس نموذج لها أو عيِّنة ممتازة منها في المسيح؟

يرد على هذا السؤال يوحنا ذهبي الفم:

[إنه لم يكن إرضاءً لنفسه أن يصير إنساناً ولا أن يتألَّم بضرب السياط ولا أن يقدِّم ذاته ذبيحة، **وإنما قصده أن يحتوينا في نفسه** ἀναφύρει ἐν αὐτῷ ἡμῖν **ليس بمجرَّد الإيمان وحسب، وإنما "بالحق وبالفعل" إذ صيَّرنا جسده.**] (John Chrysostom, *Hom. in Matt.* LXXXII. 5)

وأيضاً يقول ذهبي الفم في موضع آخر:

[إننا قد امتزجنا ἀνακερασθῶμεν في هذا الجسد ليس بواسطة مجرَّد المحبة، **وإنما "بالحق وبالفعل" إذ صيَّرنا جسده.**] (Ibid. *Hom. in John.* 46. 3)

وكذلك يكتب القديس كيرلس الكبير ضد نسطور:

[وإذ قد برهنَّا **أن المسيح هو الكرمة، وأننا نحن الأغصان المتحدون به بالاشتراك فيه، ليس على مجرَّد المستوى الروحي – وحسب – وإنما جسدياً**، فلماذا هذا - نسطور - يشوِّش علينا عبثاً قائلاً: بما أننا نلتصق به ليس جسدياً بل بالإيمان فقط وبعاطفة المحبة بحسب الناموس، لذلك فإنه ليس جسده الذي يدعوه الكرمة وإنما لاهوته.] (St. Cyril, *in Johann.*, Lib. 10, cap. 2, cited by N. & P.N.F., vol. IV, p. 333)

وهنا يلاحظ أن الآباء جميعاً لا يقصدون بالاتحاد بالكرمة الامتزاج المادي بين مادة جسده وبين مادة أجسادنا، ولكن الامتزاج والشركة هما مع قوة وتأثير وفعل الحياة الإلهية التي في جسده والموت والضعف والخطية التي في أجسادنا، بحيث أن الحياة التي في جسده (ودمه) تسري في أجسادنا (الميتة)، فتحييها بالسر المقدَّس وتلحمها وتثبتها في جسده.

كما يقول بولس الرسول:

+ «**كذلك المسيح أيضاً، لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً (عصير الكرمة).**» (١كو ١٢:١٢و١٣)

+ «**كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح، الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح. فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد.**» (١كو ١٠:١٦و٢٧)

+ «**وأمَّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.**» (١كو ١٢:١٧)

وبهذين السرين المقدَّسين (المعمودية والتناول) لا يصير مانع من الامتزاج والشركة الحقيقية والفعلية بالروح القدس في جسده، وإنما على مستوى السر غير المنظور، حتى أننا نحسب بالحق الآن أعضاءً من جسده = «من لحمه ومن عظامه» (أف ٥:٣٠)، على مستوى القيامة وعلى مستوى لبس الفاسدِ عدمَ الفساد والمائتِ عدمَ الموت، بل ونصير بالنهاية حسب قول بولس الرسول: «صعد أيضاً فوق جميع السموات **لكي يملأ الكل**، .. لأجل **تكميل القديسين** لعمل الخدمة لبنيان **جسد المسيح**، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح ... صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح الذي منه "كل الجسد مركَّباً معاً" ومقترناً بمؤازرة كل مفصل الذي يعمل بحسب قياس كل جزء، يحصِّل نمو الجسد لبنيانه في المحبة.» (راجع: أف ٤:١٠–١٦)

ويقول في ذلك القديس أثناسيوس:

تكملة الحاشية بالصفحة القادمة

ولكن الأريوسيين حينما يحاولون الانتفاع - في غشِّهم - من كلمة "**لهذا**" «لهذا مسحك الله إلهك» (وكأنها مكافأة)، لخدمة أغراضهم، فينبغي على هؤلاء المبتدئين في فهم الأسفار المقدَّسة والأساتذة المتعتقين في الكفر - أن يعرفوا أن كلمة "لهذا" لا تتضمَّن معنى المكافأة من أجل الفضيلة أو السلوك في حياة الكلمة، بل تحمل ضمناً السبب الذي من أجله نزل إلينا، **ومسحة الروح التي تمَّت فيه من أجلنا**.

هذا هو سر كلمة "**لهذا**" التي جاءت في المزمور، لأنه لم يقل المزمور: «لهذا مسحك الله لكي تصير إلهاً أو ملكاً أو ابناً أو كلمةً»، لأنه هو كذلك قبل ذلك وهو كائن كذلك إلى الأبد. وإنما معنى المزمور: "**لأنك إله وملك لهذا مُسحتَ، لأنه ليس أحد آخر سواك يمكن أن يوحِّد - unite - الإنسان بالروح القدس، ولأنك أنت صورة الآب والذي فيك خُلقنا منذ البدء وأنت الذي له الروح القدس**" لأن طبيعة المخلوقات يستحيل عليها أن تتكفَّل بعمل مثل هذا:

فالملائكة تعدُّوا = ἀγγέλων μὲν παραβάντων

والبشر عصوا = ἀνθρώπων δὲ παρακουσάντων

لذلك أصبحت الحاجة الوحيدة إلى الله، و"الكلمة" هو هو الله.

فالذين وقعوا تحت اللعنة يأتي هو بنفسه ليطلق سراحهم، ... فكما أننا أتينا إلى الوجود جميعاً بواسطته، كذلك أيضاً الآن، فيه، يمكن للجميع أن يُفتدوا من خطاياهم وبه يتدبَّر الكل.

[حيث أيضاً حينما وُلد الجسد من مريم والدة الإله (ثيئوتوكس)، قيل وهو "الكلمة" أنه "وُلِد" مع أنه هو الذي يمنح الآخرين أصل وجودهم؛ وهذا تمَّ لكي يحوِّل أصلنا إلى نفسه ونصير نحن بعد ذلك **لا من مجرَّد تراب، بل ملتحمين بالكلمة السمائي** (كالأغصان بالكرمة) **لكي نُحمل إلى السماء بواسطته**].

[لذلك فنحن لا نموت بعد بحسب أصلنا السابق في آدم، بل من الآن وصاعداً **فإن أصلنا وضعفنا الجسديين إذ قد تحوَّل إلى "الكلمة" نقوم من الأرض، ولعنة الخطية ترفع عنا بسبب وجوده هو فينا، ذاك الذي صار لعنة من أجلنا. وهذا له علَّة، لأنه كما أننا جميعاً من الأرض ونموت في آدم، هكذا وُلدنا ثانية من فوق من الماء والروح، في المسيح وهكذا نحيا، لأن الجسد ليس هو بعد أرضياً بل صار "كلمة" (لوغس)** λογωθείσης τῆς σαρκός **بسبب "كلمة" الله الذي من أجلنا صار جسداً**.] (Athanas., *Contra Arian,* III. 33)

وهذا الكلام بالرغم من صعوبته وخطورته اللاهوتية، إلاَّ أنه يصبح مفهوماً وسهلاً إذا عدنا إلى مثل المسيح الذي قاله عن علاقتنا به وما صرنا بواسطته في مَثَل الكرمة والأغصان، حينما قال إنه **هو الكرمة** ونحن الأغصان، ثم ماذا تُحسب **الأغصان إلاَّ كرمة؟**

وهذا هو السبب في المسحة التي تمت فيه، والتي سبق صاحب المزامير فرآها وحيَّاها، حينما رأى أولاً لاهوته وملكوته اللذين له مع الآب: «عرشك يا الله إلى دهر الدهور قضيب البر هو قضيب **ملكوتك**». ثم بعد ذلك يعلن نزوله إلينا، «**لهذا مسحك** الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك».

فما الذي يستحق الاستغراب من هذا، أو ما هو الداعي هنا لعدم الإيمان إن كان الرب الذي يعطي الروح القدس يُقال هنا عنه أنه "مُسِحَ" بالروح القدس، في حين أنه لم يرفض ـ من جهة بشريته ـ أن يدعو نفسه أنه أقل من الروح القدس؟

لأنه حينما كان يخرج الشياطين وقال اليهود عنه إنه ببعلزبول يُخرج الشياطين، ردَّ عليهم لكي يكشف تجديفهم قائلاً: «إني بروح الرب أُخرج الشياطين». فانظروا هنا كيف أن الذي يعطي الروح القدس يقول إنه بالروح يُخرج الشياطين، وهذا لم يقُلْه إلاَّ بسبب جسده! ... لأنه بسبب أن الطبيعة البشرية ليست قادرة من ذاتها ـ أو بمفردها ـ على إخراج الشياطين بل بقوة الروح فقط، لذلك قال كإنسان: «ولكن إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين.» (مت ١٢:٢٨)

وهنا في الحقيقة يعني المسيح أيضاً أن التجديف من نحو الروح القدس هو أكبر من التجديف تجاه بشريته، عندما قال: «من قال كلمة على **ابن الإنسان** يُغفر له، وأمَّا مَنْ قال على الروح القدس فلن يُغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي» (مت ١٢:٣٢)، [لأن الواقفين كانوا يدركون بشريته فقط، مثل الذين قالوا: «أليس هذا ابن النجار؟» (مت ١٣:٥٥)].

ولكن الذين يجدِّفون على الروح القدس وينسبون أعمال "الكلمة" (وليس ابن الإنسان) إلى الشيطان، فهؤلاء حتماً سينالون عقوبة. (أثناسيوس يشرح ذلك بدقة وبتوسُّع في الرسالة الرابعة لسيرابيون). هذا ما قاله الرب لليهود بصفته إنساناً، ولكنه أعلن لاهوته جهاراً لتلاميذه مُظهراً مجده ـ ككلمة ـ مشدِّداً أنه، على هذا المستوى، ليس أقل من الروح القدس، بل مساوياً له حينما أعطاهم الروح القدس قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠:٢٢)، كما قال: "إني أُرسله"، و"إنه سيمجِّدني"، و"إن كل ما يسمعه يتكلَّم به".

وهنا أيضاً فالرب الذي يعطي الروح القدس لا يمتنع عن أن يقول إنه بالروح القدس يخرج الشياطين كإنسان، كذلك وهو الذي يعطي الروح القدس أيضاً لم يمتنع أن يقول:

«روح السيِّد الرب عليَّ لأن الرب مسحني» (إش ٦١: ١)، باعتبار أنه قد صار جسداً؛ كما قال يوحنا، حتى يتضح من هذين الموقفين الخاصين **أننا نحن الذين نحتاج نعمة الروح في تقديسنا وأننا أيضاً غير قادرين على إخراج الشياطين بدون قوة الروح.**

فبواسطة مَنْ؟ ومِمَن يليق أن يُعطَى الروح إلاَّ بواسطة الابن الذي الروح هو له خاصة؟

ومتى استطعنا أن نتقبَّله ونأخذه إلاَّ بعد أن صار الكلمة إنساناً؟

وكما يقول الرسول إننا لم نكن لنُفتدى أو نرتفع إلى الأعالي إن لم يكن هذا الذي هو صورة الله قد اتخذ صورة عبد!

هذا أيضاً ما أوضحه داود، أنه لم تكن وسيلة أخرى بها يمكن أن نشترك في الروح ونتقدَّس، إن لم يكن هذا الذي له أن يعطي الروح القدس، أي "الكلمة" ذاته يتكلَّم عن نفسه كممسوح بالروح من أجلنا، وبهذا نلنا الروح في يقين وأمان؛ لأنه إذ قيل إنه مُسح بالجسد، وبهذا تقدَّس الجسد أولاً فيه، فبسبب ما قيل عنه - بصفته إنساناً - **إنه قبل الروح من أجل الجسد (الإنسان)، فبالتبعية نلنا نحن أيضاً بالتالي نعمة الروح «من ملئه»**: «ومن **ملئه** نحن جميعاً **أخذنا، ونعمة** فوق نعمة» (يو ١: ١٦).](16)

وفي موضع آخر يشدِّد أثناسيوس على أهمية نوال الرب للمسحة كنعمة موهوبة للبشرية في جسده الخاص هكذا:

[وبالرغم من أنه لم يكن في حاجة إلى شيء، لكن قيل عنه إنه تقبَّل ما تقبَّله (المسحة) بشرياً، حتى من الجهة الأخرى **يصبح ما يكون قد تقبَّله الرب من عطية تسكن فيه في أمان، وتصير النعمة محفوظة ومؤكَّدة لحسابنا.** لأن الإنسان العادي إذا تقبَّل شيئاً، فإنه يفقده ثانية (كما وضح في آدم لأنه تقبَّل وفقد)، **ولكن لكي تكون النعمة غير قابلة بعد للفقدان وتُحفظ في أمان لدى البشر، من أجل هذا تقبَّلها المسيح في ذاته ...**](17)

[فالبشرية إذن قد تكمَّلت فيه واستعادت وجودها كما كانت منذ البدء وإنما بنعمة أعظم.](18)

(16) Athanas., *Contra Arian,* I, 46-50.
(17) Athanas., *Contra Arian,* III, 38.
(18) Athanas., *Contra Arian,* II. 67.

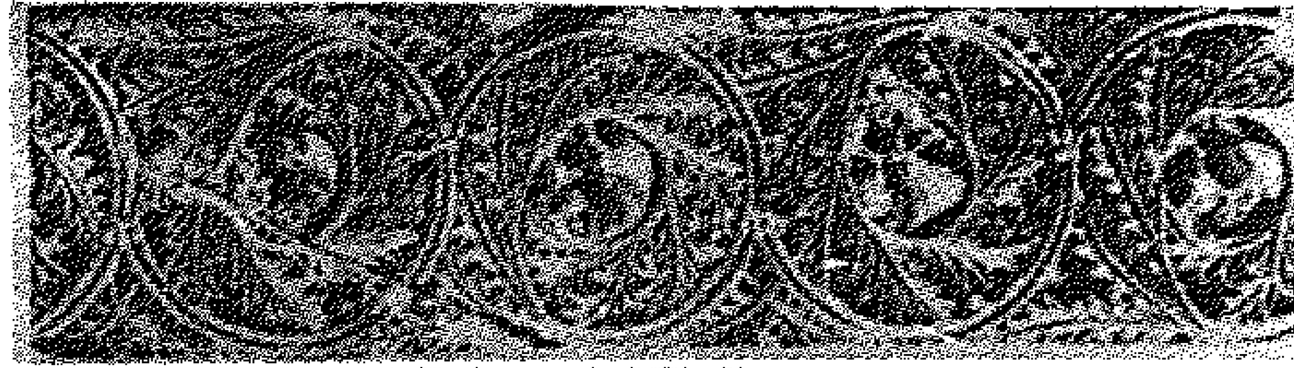
وأثناسيوس في موضع آخر يوضِّح أن "**المسحة**" التي نالها جسد المسيح لحسابنا هي بعينها اللاهوت، فهو أي "الكلمة" - لاهوتياً - هو الذي أعطى جسده المسحة:

[**"أنا الكلمة"**: "**المسحة**" والذي أخذ المسحة مني هو (**أنا**) "**الإنسان**".][19]

وفي هذا يوضِّح أثناسيوس طبيعة الروح القدس التي هي واحد مع الطبيعة الإلهية للكلمة. وبسبب هذا يكون "**الكلمة**" و"**الروح القدس**" **هما واحد جوهرياً أو طبيعياً**.

ولهذا لا يُقال إن **الكلمة** نال المسحة من الروح القدس، بل الجسد (الإنسان) كما سبق الشرح:

[لكن أعمال الجسد لم تكن تتم بدون اللاهوت، ولا أعمال اللاهوت تتم بدون الجسد؛ بل على العكس فإن كل أعماله صنعها الرب الواحد (إشارة واضحة إلى اتحاد الطبيعتين) الذي أكمل كل شيء في سر نعمته ... فعندما نرى أعمال الجسد نتعجَّب ونرى فيها القوة الإلهية التي تعمل؛ هذا هو إيمان الكنيسة.][20]



(19) C. Ar., IV. 36.

(20) Athanas., Ep. V, *Ad Serap*.

مفهوم التجديف على الروح القدس
كما يراه القديس أثناسيوس

+ «هذا (المسيح) لا يُخرج الشياطين إلاّ ببعلزبول رئيس الشياطين» (مت ١٢:٢٤).
+ «إن كنت بروح الله أُخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله.» (مت ١٢:٢٨)
+ «كل خطية وتجديف يُغفر للناس. وأمَّا التجديف على الروح القدس ... فلن يُغفر له ... لا في هذا العالم ولا في الآتي.» (مت ١٢:٣١و٣٢)

الرسالة الخامسة لسيرابيون(٢١):

يقول القديس أثناسيوس مفسِّراً هذا الكلام هكذا:

[لماذا يُغفر التجديف على الابن ولماذا لا يُغفر التجديف على الروح القدس لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي أيضاً؟

لقد قرأت ما كتبه الآباء وبالذات الحكيم المجاهد أوريجانوس والعجيب المجاهد ثيئوغنسطس(٢٢) (تُوفِّي سنة ٢٨٢م) واطَّلعت على كتبهم لأرى ماذا قالوا بخصوص هذا الموضوع.

وكلاهما قال إن التجديف على الروح القدس يحدث عندما يعود الذين حصلوا على **نعمة الروح القدس في المعمودية** إلى الخطية. ولذلك يتفق كلاهما مع الآخر على عدم وجود مغفرة، مستندين إلى ما ذكره بولس في رسالته إلى العبرانيين (٦:٤–٦). عند هذه

(٢١) ترجمها إلى العربية الدكتور جورج حبيب بباوي، وقد نُقل عنه النص بتصريح منه.

(٢٢) ثيئوغنسطس كاتب كنسي ولاهوتي مشهور، كان مديراً لمدرسة الإسكندرية خلفاً لديونيسيوس وقبل بيريوس (وليس بعده). وكتب منهجاً لاهوتياً متكاملاً قائماً على أساس أفكار أوريجانوس وذلك في سبعة كتب، وأسماه هيبوتيبوزيس - ὑποτυπώσεις. وقد تبقّى وصف وتحقيق عنه بقلم فوتيوس (Cod. 106)، كما لا يزال يوجد مقتطفات كثيرة منه في كتاب القديس أثناسيوس إلى سيرابيون، وعلى الدفاع عن قانون نيقية (٢٥). كما استعان به القديس غريغوريوس النيسي في مؤلَّفه *Contra Euno.* III; وبالرغم من سقوطه في مفهوم تدنّي الابن عن الآب بحسب فكر أوريجانوس، فقد استخدم القديس أثناسيوس كثيراً من أفكاره ضد الأريوسيين.

النقطة كل منهما يتحدَّث مثل الآخر تماماً. ولكن بعد ذلك كل منهما له رأيه الخاص.

يشرح أوريجانوس سبب دينونة هؤلاء بهذه الكلمات: "الله الآب يحل في كل شيء ويضبط كل الكائنات الحية وغير الحية، أي التي لها نعمة العقل والتي ليس لها نعمة العقل. أمَّا الابن فهو يشمل بقوته الذين لهم نعمة العقل فقط، مثل الموعوظين والوثنيين الذين لم يأتوا بعد إلى الإيمان. أمَّا الروح القدس فهو يسكن فقط في الذين قبلوه في المعمودية. ولذلك عندما يخطئ الموعوظون أو الوثنيون فإن خطيتهم هي ضد الابن فقط، لأنه هو فيهم كما ذكر - أوريجانوس - ولذلك يمكنهم الحصول على المغفرة عندما يكرمون بنعمة الميلاد الثاني. ولكن عندما يخطئ المعمد فإن الخطية بعد المعمودية موجَّهة ضد الروح القدس الذي يسكن في الذين عُمِّدوا، ولذلك لا مناص من العقاب".

أمَّا ثيئوغنسطس فهو كما ذكرت يتبع شرح أوريجانوس ويقول: إن الذي يتخطَّى الحاجزين الأول والثاني يستحق عقوبة أقل. ولكن الذي يتخطَّى الحاجز الثالث لا يمكن أن يحصل على مغفرة. وهو يدعو التعليم الخاص بالآب والابن بالحاجزين الأول والثاني. أمَّا الحاجز الثالث فهو التعلبم الذي يُقال في المعمودية الخاص بالروح القدس، ولكي يؤكِّد ثيئوغنسطس هذا الشرح اقتبس كلمات الرب للتلاميذ: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمَّا متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يُرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلَّم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلَّم به ويُخبركم بأمور آتية» (يو ١٦: ١٢-١٣). وقد قال ثيئوغنسطس عن هذه الكلمات إن المخلِّص تحدث مع أُناس لا يمكنهم أن يقبلوا التعاليم الكاملة، ولذلك نزل إلى مستواهم غير الكامل. أمَّا الذين تكمَّلوا فهم الذين قبلوا الروح القدس في المعمودية، والتعليم الكامل هو من نصيب الذين حلَّ فيهم الروح القدس.

لكننا نحذِّر كل مَنْ يقرأ هذه الكلمات من عدم فهمها بصورة سليمة، إذ لا يجب أن يظن أحد أن التعليم عن الروح القدس هو "ختم الكمال". كما علينا أيضاً أن نحذِّر من الظن بأن الروح القدس أسمى من الابن طالما أن التجديف على الروح بلا مغفرة. ولكن المغفرة لغير الكاملين (غير المعمَّدين)، أمَّا الذين ذاقوا الموهبة السماوية وصاروا كاملين فلا مغفرة لهم ولا صلاة يمكنها أن تسهِّل لهم المغفرة. هذا ما ذكره هذان الكاتبان المجاهدان.

أمَّا عن نفسي فحسب ما تعلّمت، أعتقد أن رأي كلٍّ منهما يتطلّب فحصاً ومراجعة دقيقة لأن كلمات الإنجيل الخاصة بالتجديف عميقة.

في الحقيقة واضح أن الابن في الآب، وبالتالي فهو في الذين فيهم الآب أيضاً. والروح القدس ليس غائباً عن الآب والابن، لأن الثالوث القدوس المبارك غير منقسم. وزيادة على ذلك إذا كان كل شيء قد خُلق بالابن (يو ١:٣) وفيه كل الأشياء توجد (كو ١:١٧)، فهو ليس كائناً خارج الأشياء التي جاءت إلى الوجود بواسطته. فكل المخلوقات ليست غريبة عنه. هو بالطبيعة في كل شيء، وبالتالي كل مَنْ يخطئ ويجدِّف على الابن يخطئ ويجدِّف على الآب والروح القدس. ولو كان حميم الميلاد الثاني قد أُعطي باسم الروح القدس فقط، لكان من المعقول أن نقول إن الذي عُمِّد إذا أخطأ بعد المعمودية يخطئ ضد الروح القدس وحده. ولكن لأن المعمودية تُعطى باسم الآب والابن والروح القدس، فكل معمَّد يقبل المعمودية باسم الثالوث، وبذلك يصبح واضحاً أن كل مَنْ يجدِّف بعد المعمودية يكون قد جدَّف على الثالوث الأقدس، وهذا هو التعليم الحقيقي الذي يجب أن نقبله.

ولو كان هؤلاء الذين تحدَّث معهم الرب، أعني الفريسيين، قد قبلوا حميم الميلاد الثاني وحصلوا على نعمة الروح القدس، لكان التفسير السابق لكل من أوريجانوس وثيئوغنسطس مقبولاً، لأن الرب لم يكن يتكلّم مع أُناس ارتدوا وجدَّفوا على الروح القدس، لأننا إذا تذكّرنا، لم يكن هؤلاء الناس – أي الفريسيُّون – معمَّدين، بل حتى معمودية يوحنا احتقروها ورفضوها (مت ٢١:٢٥–٢٧). فكيف يمكن اتهامهم بالتجديف على الروح القدس وهم لم يحصلوا عليه بعد؟! ولذلك لم ينطق الرب بهذه الكلمات لكي يعلّم عن الخطية بعد المعمودية، كما أنه لم يكن كذلك يهدِّد بعقوبة أُولئك الذين سيخطئون في المستقبل بعد المعمودية، بل قال هذه الكلمات بطريقة مباشرة وصريحة ضد الفريسيِّين لأنهم أذنبوا فعلاً وسقطوا في هذا التجديف الفظيع. لقد اتهمهم الرب بطريقة واضحة بالتجديف وهم لم يقبلوا المعمودية. فإن هذه الكلمات ليست موجَّهة ضد الذين يخطئون بعد المعمودية، خصوصاً وأن الرب لم يكن يشتكيهم بخطايا عامة ولكن بالتجديف بالذات، وهناك فرق بين الذي يخطئ ويتعدَّى الناموس والذي بسبب عدم تقواه يجدِّف على الله نفسه.

وقبل ذلك اتهم الرب الفريسيِّين بخطايا أُخرى مثل محبة المال التي من أجلها أبطلوا الوصية الخاصة بالوالدين، ورفضوا كلمات الأنبياء وجعلوا بيت الله بيت تجارة، وفي كل

هذا انتهرهم المخلِّص لكي يتوبوا. أمَّا عندما قالوا إنه ببعلزبول يُخرج الشياطين، لم يقل لهم ببساطة إنهم يخطئون بل إنهم يجدِّفون بصورة شنيعة تستوجب العقاب وتجعل المغفرة مستحيلة، لأنهم تمادوا إلى حيث لا حدود لخطئهم.

وزيادة على ذلك، لو كانت هذه الكلمات موجَّهة ضد الذين يخطئون بعد المعمودية وهؤلاء لا مغفرة لهم، فكيف أظهر الرسول محبة نحو التائب في كنيسة كورنثوس (٢كو ٢:٨)؟ وماذا عن الغلاطيين الذين ارتدُّوا (غل ٤:٩)، والذين تألَّم الرسول لكي يولدوا ويتكوَّن فيهم المسيح مرَّة ثانية (غل ٤:١٩)؟ وكيف نلوم نوفاتس (٢٤٩ـ٢٥٠م Novatian) الذي يمنع التوبة ونعترض على قوله بأن الذين يخطئون بعد المعمودية لا مغفرة لهم طالما أن هذه الكلمات الإنجيلية تؤيِّد تعليم نوفاتس وهي موجَّهة إلى الذين يخطئون بعد المعمودية؟

وحتى كلمات الرسالة إلى العبرانيين (٦:٤ـ٦) لا تمنع توبة الخطاة بل تشير إلى أن معمودية الكنيسة الجامعة تُعطَى مرَّة واحدة، ولا يمكن أن تتكرَّر. ويجب أن نلاحظ أنه للعبرانيين بالذات كتب الرسول هذه الكلمات لأنه خاف عليهم من التظاهر بالتوبة وأنهم بسبب تمسكهم الشديد بالناموس الموسوي وشريعة التطهير سيظنون أنه توجد فرصة لمعموديات يومية متكرِّرة كما في مرقس ٧:٣ـ٤، ولذلك يشجِّعهم على التوبة ويعلن أن التجديد في المعمودية هو تجديد فريد لا يعاد. وفي رسالة أخرى يقول: «إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ» (أف ٤:٥). وهو لا يقول إنه من المستحيل أن يتوب الساقط بل من المستحيل أن نصنع نحن تجديداً لأنفسنا بالتوبة، والفرق كبير، لأن مَنْ يتوب يكف عن الخطية ولكن آثار جروحه تظل ظاهرة بعكس مَنْ يعتمد يخلع العتيق ويتجدَّد (كو ٣:٩ـ١٠)، بل ويولد مرَّة ثانية بنعمة الروح القدس (يو ٣:٣).

وعندما أفكِّر في هذه الأشياء أجد في الكلمات السابقة عمقاً عظيماً. ولذلك بعد أن صلَّيت بلجاجة للرب الذي جلس عند البئر (يو ٤:٦) ومشي على المياه (مت ١٤:٢٥)، أعود إلى تدبير الخلاص الذي تمَّ راجياً أن أكون قادراً على أن أملأ دلوي من معاني الكلمات الإنجيلية التي نبحثها.

كل الكتب الإنجيلية، وبالذات إنجيل يوحنا، تخبرنا عن التدبير الإلهي: "الكلمة صار جسداً وسكن فينا" (يو ١:١٤). وبولس عندما يكتب: «الذي إذ كان في صورة الله، لم

يحسب (مساواته) خُلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبدٍ، صائراً في شبه الناس» (في ٢:٦-٨). ولأنه الإله الذي أخلى ذاته وصار إنساناً، أقام الموتى وشفى المرضى، وبكلمته حوَّل الماء خمراً ... وهذه كلها أعمال ليست من قدرة البشر، ولكنه جاع وعطش وتألَّم لأنه أخذ جسداً وكل أعمال الجسد ليست من صفات اللاهوت. كإله قال: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤:١٠)، ولأنه أخذ جسداً حقًّا وبكل يقين، انتهر اليهود قائلاً: «الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يو ٨:٤٠). ورغم كونه إلهاً إلاَّ أنه لم يقم بهذه المعجزات مرَّة واحدة لأنه تجسَّد وكان عليه أن يواجه الاحتياجات والظروف المرتبطة بحياته كإنسان.

لكن لم تكن أعمال الجسد تتم بدون اللاهوت ولا أعمال اللاهوت كانت تتم بدون الجسد، بل على العكس، فإن كل أعماله صنعها الرب الواحد، الذي أكمل كل شيء في سر نعمته. وعلى سبيل المثال، بصق على الأرض كما يبصق كل الناس، لكن لعابه وحده كان فيه قوة إلهية لأنه وهب به البصر لعيني المولود أعمى (يو ٩:٦). ورغم أنه الإله إلاَّ أنه تكلَّم بلغة بشرية وقال: «أنا والآب واحد» (يو ١٠:٣٠)، وبإرادته منح الشفاء (مت ٨:٣). ولكن عندما مدَّ يده الإنسانية، أقام حماة سمعان بطرس من الحُمَّى (مر ١:٣١) وبنفس اليد أقام من الموت ابنة رئيس المجمع (مر ٥:٤٢).

وقد أخطأ الهراطقة كلٌّ حسب مقدار جهله، البعض منهم نسب كل ما حدث من الرب لجسده (أي كإنسان) وتعاموا عن القول الإلهي: «في البدء كان الكلمة» (يو ١:١)، والبعض نسب ما حدث إلى لاهوته فقط، ولم يفهموا القول: «والكلمة صار جسداً» (يو ١:١٤). لكن المؤمن الذي يتبع تعليم الرسل يعرف غنى الرب ومحبته للبشر. وعندما يرى أعماله العجيبة الإلهية يمجِّد الرب الذي ظهر في الجسد. وعندما **يرى أعمال الجسد يتعجَّب ويرى فيها القوة الإلهية التي تعمل.** هذا هو إيمان الكنيسة، ولذلك إذا ثبَّت البعض عيونهم على الجانب الإنساني في حياة الرب، وشاهدوه يختبر الجوع والتعب والألم، يتحدَّثون عنه بدون تقوى كمن يتحدَّث عن إنسان فقط، فيخطئون بذلك خطية عظيمة. وبلا شك إن لم يتأخَّروا في التوبة يمكنهم الحصول على المغفرة، لأن ضعفهم الإنساني هو عذر لهم. وحتى الرسول يمنحهم المغفرة، وبطريقة ما يمد يده إليهم، لأنه بالحق يقول: «وبالإجماع، عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد.» (١تي ٣:١٦)

عندما يرى البعض أعمال اللاهوت يتردَّدون في الاعتراف بإنسانيته ـ وهذا خطأ بالغ ـ ويتوهَّمون عندما يقرأون أن الرب يأكل ويتألَّم أنه خيال، هؤلاء إذا لم يتأخَّروا في التوبة سيغفر لهم يسوع لأنهم لا يفهمون أعماله الفائقة التي أتمها في الجسد. وإذا فحصنا جهل هؤلاء وأولئك، أي الذين يخطئون ولهم معرفة بالناموس مثل الفريسيِّين أو الذين يستسلمون للجنون وينكرون وجود الكلمة في الجسد، أو يذهبون إلى أبعد من هذا عندما ينسبون أعمال اللاهوت إلى الشيطان وجنوده؛ فإنه من العدل أن تكون عقوبة عدم تقواهم هي عدم المغفرة، **لأنهم اعتبروا الشيطان مثل الله**، وحسبوا أن مَنْ هو بالحقيقة الله لا شيء في أعماله يدل على ألوهيته، بل إنه الشيطان يستخدم أعوانه. وإلى هذه الدرجة السفلى من عدم التقوى انحدر اليهود في ذلك الزمان، وبالذات الفريسيُّون منهم. ورغم أن **الرب كان يقوم بأعمال الآب علانية**، فهو أقام الموتى ومنح النظر للعميان وجعل العرج يمشون وفتح آذان الصم وجعل الخرس يتكلَّمون، معلناً أن الخليقة العاقلة وغير العاقلة خاضعة له، لأنه هو الذي أمر الريح ومشي على البحر، والجموع عاينت هذا وامتلأت بالدهشة ومجَّدت الله، إلاَّ أن الفريسيِّين قالوا إن هذه أعمال بعلزبول ـ **ومن فرط جنونهم لم يخجلوا من أن يعطوا الشيطان قوة الله. وأمام هذا أعلن الرب بالحق أن تجديفهم بلا مغفرة**، لأنهم عثروا في كل ما يختص بإنسانيته وكان لهم، في المسيح كإنسان، رأي شرير، إذ قالوا: «أليس هذا ابن النجَّار» (مت ١٣:٥٥)، وكيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلَّم (يو ٧:١٥)، وما هي المعجزات التي «تصنع لنرى ونؤمن بك» (يو ٦:٣٠)، «فلينزل الآن عن صليبه فنؤمن به» (مت ٢٧:٤٢). وقد احتمل الرب كل هذا، وسمَّى الإنجيل مثل هذه الأقوال بالتجديف على ابن الإنسان، وتألَّم الرب من قساوة قلوبهم (مر ٣:٥)، وقال: «لو علمتِ ... ما هو لسلامكم؟» (لو ١٩:٤٢).

وغفر الرب لبطرس عندما تكلَّمت معه الجارية عن يسوع كإنسان، فأجاب بطريقة لا تختلف عن رأي الجارية وكلامها، ولكن الرب غفر له عندما بكى بدموع.

أمَّا عندما سقط الفريسيُّون إلى أدنى من كل هذا وتفوَّهوا بما هو أشر من كل ما سبق، حتى أنهم قالوا إن أعمال الله هي أعمال بعلزبول، لم يتحملهم لأنهم جدَّفوا على روحه بقولهم إن مَنْ يعمل هذه الأعمال ليس الله ولكنه بعلزبول. ولهذا السبب استحقوا عقوبة أبدية. وفي الحقيقة إن جرأتهم زادت عن الحد، وعندما رأوا ترتيب العالم والعناية به نسبوا

الخلق إلى بعلزبول، حتى أن الشمس صارت بحسب قولهم تحت سلطان الشيطان وأصبح الشيطان هو الذي يحرِّك النجوم في السماء، لأن كل أعمال الآب كخالق، عملها يسوع؛ فإذا قالوا إن أعمال يسوع هي أعمال بعلزبول، فكيف إذاً يفهمون القول الإلهي: «في البدء خلق الله السموات والأرض» (تك ١:١). ولكن مثل هذا الجنون ليس غريباً عنهم لأن آباءهم أظهروا نفس الطباع، فبعد خروجهم من مصر صنعوا العجل الذهبي في البرية ونسبوا إليه المعجزات والبركات التي أخذوها من الله وقالوا: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (خر ٣٢:٤). وبسبب هذا التجديف الذي ارتكبه أُولئك المجانين تمَّ فناء الكل في البرية، وأعلن الله أنه في يوم افتقاده «سوف يفتقد فيهم خطيتهم» (خر ٣٢:٣٤). وعندما اشتكوا من انعدام الخبز والماء اهتم بهم تماماً مثل المرضعة برضيعها، ولكنهم زادوا الشكوى إلى الحد الذي وصفه الروح القدس في المزامير: «أبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب» (مز ١٠٦:٢٠). وعندما اجترأوا على ارتكاب مثل هذا العمل الذي لا مغفرة له ضربهم الرب، كما يقول الكتاب، بسبب العجل الذي سبكه هارون (خر ٣٢:٣٥). وتصرَّف الفريسيُّون بنفس الوقاحة، ولذلك أخذوا من الرب عقوبة مماثلة بل هي عقوبة مثل عقوبة بعلزبول نفسه الذي تحدَّثوا عنه، كي يحترقوا معه بنار أبدية.

ولم يكن الرب يقصد بما قاله في الإنجيل أن يقارن بين التجديف الموجَّه ضدَّه، والتجديف الموجَّه للروح القدس؛ ولا أشار ولو من بعيد أو بطريقة غير مباشرة إلى أن الروح القدس أسمى منه ولا لأن التجديف على الروح أخطر، حاشا؛ نطق الرب بهذه الكلمات لأنه علم من قبل أن **كل ما هو للآب فهو للابن، وأن الروح يأخذ من الابن وبذلك يمجِّد الابن** (يو ١٦:١٤و١٥). **والروح لا يعطي الابن بل الابن هو الذي يعطي الروح وقد أعطاه لتلاميذه**، وبهم لمن يؤمنون به بواسطتهم. ولم يكن الرب يقارن نفسه بالروح عندما قال هذه الكلمات، كما أنها لا تعني أن الروح أسمى من الرب، فهذا سوء فهم لكلمات المخلِّص. والتجديف بنوعيه موجَّه بالضرورة للروح القدس. والنوع الأول محتمل، أمَّا النوع الثاني فهو خطير. وقد ارتكب الفريسيُّون نوعي التجديف لأنهم رأوه إنساناً فأهانوه بقولهم: «من أين لهذا الحكمة؟» (مت ١٣:٥٤)؛ وقولهم: «ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟» (يو ٨:٥٧). ورغم أنهم رأوا أعمال الآب فيه إلاَّ أنهم لم يرتضوا بألوهيته. وبدلاً من هذا قالوا إن بعلزبول فيه، وأن هذه الأعمال هي أعمال

بعلزبول، وبذلك أصبح تجديفهم بنوعيه موجَّه ضدَّه. والنوع الأول أقل خطورة بسبب العذر الواضح وهو إنسانيته، أمَّا النوع الثاني فهو أكثر خطورة لأنه إهانة موجَّهة إلى ألوهيته. ومثل هذا التجديف الخطير هو الذي استدعى عقوبة عدم المغفرة. ومن الواضح أن الرب كان يشجِّع التلاميذ عندما قال لهم: «إن كانوا قد لقَّبوا رب البيت بعلزبول» (مت ١٠:٢٥) وأكَّد هنا أنه رب البيت الذي جدَّف عليه اليهود.

أمَّا اليهود فعندما قالوا عنه: "بعلزبول" لم يهينوا أحداً سوى الرب يسوع، وهذا واضح من التعبير نفسه لأن كلمة "الروح" في نص الإنجيل تشير إلى الرب يسوع وإلى الروح القدس، لأن "رب البيت" يُراد به المسيح أي رب الكون كله. وأنا أرجوك أن لا تتضايق من هذا التكرار فهو لازم إذا كنا نحرص على الوصول إلى المعنى الدقيق للنص، ولذلك سأعود إلى ما ذكرته سابقاً أن الجوع والتعب والنوم والإهانات كلها خاصة بناسوته، أمَّا الأعمال الباهرة التي كان يقوم بها الرب، فلم تكن أعمال إنسان بل أعمال الله.

لذلك إذا ما شاهد بعض الناس الأشياء الخاصة بالإنسان مثل الجوع ... إلخ وأهانوا الرب لأنه حسب ظنهم مجرَّد إنسان، فقد حُسبوا مستحقين لعقوبة أقل من عقوبة أُولئك الذين ينسبون أعمال الله للشيطان. لأن هؤلاء لا يكتفون بإلقاء الأشياء المقدَّسة للكلاب (مت ٧:٦)، بل يجعلون الله مساوياً للشيطان ويدعون النور ظلمة (إش ٥:٢٠). لذلك سجَّل مرقس أن تجديف اليهود بلا مغفرة، «ولكن مَنْ جدَّف على الروح القدس، فليس له مغفرة إلى الأبد، بل هو مستحق دينونة أبدية، لأنهم قالوا: إن معه روحاً نجساً (وذلك على أعمال لاهوته).» (مر ٣:٢٩و٣٠)

والرجل الأعمى منذ ولادته عندما أبصر، شهد بأنه لم يُسمع من قبل أن أحداً فتح عيني مولود أعمى، ولذلك قال: «لو لم يكن هذا **(الإنسان) من الله** لم يقدر أن يفعل شيئاً» (يو ٩:٣٣). حتى الجموع نفسها عندما امتلأت من الإعجاب بما فعله الرب قالت: «ليس هذا كلام مَنْ به شيطان، ألعل شيطاناً يقدر أن يفتح أعين العميان» (يو ١٠:٢١). أمَّا هؤلاء الذين امتلأوا من معرفة الناموس، أي الفريسيُّون وهم الذين يلبسون العصائب العريضة (مت ٢٣:٥)، ومزهوُّون بمعرفتهم بالناموس أكثر من باقي الناس (يو ٩:٢٤-٢٩)، كان من المفروض عليهم بسبب هذه المعرفة أن يخجلوا، ولكن كما هو مكتوب عنهم أنهم «تعساء لأنهم ذبحوا لأوثانٍ ليست الله» (تث ٣٢:١٧). وعندما قالوا إن بالرب شيطاناً، وأن أعمال الله هي

أعمال الشيطان؛ لم يكن لديهم أي أسباب مقنعة تدفعهم إلى هذا الاعتقاد، والدافع الحقيقي لمثل هذا التجديف هو رغبتهم في أن ينكروا أن الذي يعمل هذه الأعمال هو الإله ابن الله. وبالحقيقة لقد أكل أمامهم وشاهدوا جسده وتأكّدوا أنه إنسان فكان لديهم فرصة لأن يقتنعوا من أعماله أن الآب فيه وأنه في الآب. **أمّا لماذا لم يقتنعوا؟ فلأنهم لم يشاءوا.**

وفي الحقيقة لقد سكن بعلزبول في الفريسيِّين. وكان بعلزبول هو الذي يتكلّم فيهم. ولذلك قالوا عن المسيح: إنه مجرَّد إنسان، بسبب ناسوته، دون الاعتراف به إلهاً بسبب أعماله التي هي أعمال الله. ولكن بهذه السقطة ألّهوا بعلزبول الذي سكن فيهم، والذي في النهاية سوف يعاقبون معه في النار إلى الأبد.

ودراستنا للنص توضِّح لنا أنه يعني نوعي التجديف الذي أشرنا إليه سابقاً. ذلك أن المخلِّص **أشار إلى نفسه عندما قال: «ابن الإنسان»، ولكنه كان يعني أيضاً نفسه عندما تحدَّث عن** "الروح". والاسم الأول: **«ابن الإنسان» يوضِّح تجسُّده**، والاسم الثاني: **"الروح" يوضِّح طبيعته الروحية غير المادية ولاهوته.** وفي الواقع، إن الخطية التي يمكن غفرانها هي العثرة الناتجة عن رؤية ناسوته، أي ما يتعلّق به كابن الإنسان، ولكنه أوضح أن التجديف الذي لا يمكن مغفرته هو التجديف على "الروح"، أي على الطبيعة الإلهية.

وقد لاحظت أن التعبير "الروح" جاء بالمعنى الذي نتحدَّث عنه في إنجيل القديس يوحنا عندما كان الرب يتحدَّث عن تقديم جسده. ولمّا رأى أن كثيرين عثروا بسبب ما ذكره عن جسده، قال لهم: «أهذا يعثركم؟ **فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً! الروح هو الذي يحيي أمّا الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة**» (يو ٦: ٦٢و٦٣). وقد تحدَّث الرب هنا عن **"الجسد والروح"**، وكما هو واضح كان يتحدَّث عن نفسه. **وميَّز بين الجسد والروح لكي يتمكّن الذين سمعوه من الإيمان بما يرون أي بجسده، وكذلك الإيمان بغير المنظور، أي الروح أو لاهوته، لكي يؤمنوا أن ما يتكلّم عنه ليس الجسديات بل الروحيات.**

ولنسأل كم عدد البشر الذين يمكن أن يقدِّم لهم جسده المادي؟ وماذا عنه كغذاء للعالم كله؟ لهذا السبب تحدَّث عن صعود ابن الإنسان إلى السماء لكي يبعد عن أفكارهم كل التصورات المادية عن جسده، ولكي يفهموا جيداً بدون أي تصورات مادية أن جسده الذي

يتكلّم عنه هو طعام سمائي يأتي من فوق كغذاء روحي يعطيه هو بنفسه. وحقًّا قال: «الكلام الذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة» (يو ٦ :٦٣)، أي أن ما أعلنه، وما سيعطيه لخلاص العالم هو جسده، **ولكن هذا الجسد عينه بما فيه من دم سوف يُعطى لكم بواسطتي روحياً، وكطعام، وبطريقة روحية سوف يوزَّع على كل واحد منكم لكي يصبح عربون القيامة والحياة الأبدية.**

واستعمال كلمة "روح" جاء بنفس المعنى في حديث الرب مع السامرية عندما وجَّه فكرها إلى المعنى الروحي ورفع نظرها إلى الأمور غير المادية بقوله لها: «**الله روح**» (يو ٤ :٢٤)، لكي يستقر في قلبها الفهم الصحيح عن الله، أنه ليس من طبيعة مادية محصورة في مكان بل إنه روح. وهذا ما يعنيه كلام التعليم الذي يقول عندما يتأمَّل الكلمة وقد تجسَّد: "روح الإيمان هو المسيح الرب"، وحتى لا يعثر أحد ما بالشكل الخارجي الملموس ويظن أن الرب هو مجرَّد إنسان، جاءت كلمة: "الروح" لتؤكِّد أن الذي في الجسد هو الله.

وهكذا يبدو لنا شيئان ظاهران تماماً: الأول هو حالة مَنْ يرى الرب في الجسد ويعتبره مجرَّد إنسان ويقول بعدم إيمان: "من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟" (مت ١٣ :٥٤)، وكل مَنْ يتكلَّم بهذا يخطئ بدون شك ويجدِّف على ابن الإنسان؛ والثاني يرى أعماله التي تتم بالروح القدس ويقول إن صانع هذه الأعمال ليس الله ولا ابن الله وينسب هذه الأعمال لبعلزبول، مثل هذا ينكر لاهوته، وهذا ما يظهر واضحاً عدة مرَّات في الإنجيل لا سيما في النص الذي نشرحه.

ومرَّة أخرى، نكرِّر، عندما يوصف الرب بأنه «ابن الإنسان» فهو نفسه يستخدم هذا اللقب لتأكيد بشريته، ولكن عندما يتحدَّث عن الروح أي الروح القدس الذي به يصنع كل هذه الأعمال والذي هو (الروح) أيضاً فيه، يقول بعد إتمامه أعماله الباهرة: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنه فيه» (يو ١٠ :٣٨) ...][٢٣] (انتهى)

وملخَّص عقيدة القديس أثناسيوس في هذا الموضوع كالآتي:

---

(٢٣) من كتاب: "الروح القدس في بعض كتابات الآباء" تعريب: الدكتور جورج حبيب بباوي صفحة ٢٨–٤٢.

١ ـ إن الموضوع لا يختص إطلاقاً بامتياز أقنوم عن آخر في الثالوث، فالتجديف على الروح القدس هو تجديف على الآب والابن أيضاً.

٢ ـ والتجديف لا يختص بالمعمودية ونوال الروح القدس فيها، لأنها تتم باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. فكل مَنْ يُخطئ ويجدِّف بعد المعمودية فهو يخطئ ويجدِّف على الله الثالوث الآب والابن والروح القدس. لذلك فالرب لم يكن يقصد بالتجديف الخطية بعد المعمودية.

٣ ـ إن الخطية بل كل الخطايا بعد المعمودية تُغفر جميعها بالتوبة، ولا توجد خطية قط يمكن أن يُقال إنه من المستحيل غفرانها.

٤ ـ المعمودية هي التي لا يمكن بل ويستحيل أيضاً أن تتكرَّر، وهي التي تسمَّى بالتجديد أو الميلاد الثاني فهي معمودية واحدة.

٥ ـ كذلك هناك فرق بين الخطايا كتعدِّي على الوصايا وبين التجديف على الله نفسه.

٦ ـ إن الالتباس الظاهر في فهم عب ٦: ٤-٦ راجع إلى أن بولس الرسول يخاطب اليهود (العبرانيين) الذين اعتادوا أن يتخلَّصوا من خطاياهم بالتطهير بالماء كل يوم، وكلما أرادوا (حتى الزنا كان في عرفهم يمكن التخلُّص منه بالاستحمام بالماء)، فنبَّههم أن المعمودية في المسيحية ليست تطهيراً بالماء، ولكنها موت عن الإنسان العتيق وخطاياه وولادة روحية من فوق بإنسان جديد، ولا تتم إلاَّ **مرَّة واحدة فقط بنعمة الروح القدس.**

٧ ـ العنصر الجوهري في عدم غفران خطية التجديف على الروح القدس هو المتعلِّق بالذين ينسبون أعمال اللاهوت التي كان يعملها المسيح إلى أنها أعمال الشيطان.

٨ ـ وعلى نفس المستوى، فالذين يعتبرون المسيح أنه مجرَّد إنسان كان يعمل المعجزات بقوة الشيطان فهذا هو التجديف على روح الله أي الروح القدس، لأن المسيح كان يعمل كل الأعمال بروح الله.

٩ ـ وعلى نفس المستوى كل مَنْ يجدِّف على لاهوت المسيح معتبراً أن المسيح مجرَّد إنسان، وأن أعماله كانت مجرَّد أعمال شيطانية (سحرية كما يقول اليهود الآن) وليست أعمالاً إلهية، فهذه تعتبر خطية تجديف غير قابلة للمغفرة.

١٠ - وهنا يقرِّر أثناسيوس أنه لا فرق بين التجديف على الروح القدس والتجديف الموجَّه ضد لاهوت المسيح.



النعمة عند القديس أثناسيوس

أساس التعليم بالنعمة عند القديس أثناسيوس يبدأ من الخلق. فالله، مع فعل الخلق الذي خلق بـه العالم من لا شيء، أعطى المخلوقات فعلاً آخر حافظاً العالم المخلوق من الزوال، لأنـه بحكـم كونـه مخلوقاً من العدم فهو ينزع بطبيعته نحو اللاشيء.

[«أنت يا الله منذ البدء أسَّست الأرض والسموات هي عمل يديك هي تبيد وأنت تبقـى»، بقوله هنا: «هي تبيد» لا يقصد أن الخليقة تعيَّنت للإبادة ولكن هذا قيل للتعبـير عـن طبيعـة الأشياء المخلوقة ونزوعها (نحو الفناء) الذي تميـل إليـه، **فالأشـياء الـتي هـي قابلـة للهـلاك، بالرغم من أنها لا تهلك بسبب النعمة الموهوبة لها مـن خالقهـا**، إلاَّ أن هـذا لا ينفـي أنهـا خُلقت من لا شيء، وهي بذاتها تشهد أنها لم تكن يوماً ما موجودة.](٢٤)

هذا الفعل الحافظ من الزوال هو فعل بركة أو نعمة، هذه البركة أو هذه النعمة الـتي وهبهـا الله للعالم المخلوق ليحفظه من الانحدار نحو العدم، تركت عليـه سمـات الخـالق وبصماتـه الإلهيـة كطابع خاص، حتى أن الله أصبح يُرى ويُحس في الخليقة لأنها صارت حاملة لفعله الدائم في كل دقائق كيانها.

وأثناسيوس يعتبر هذه النعمة القائمة والدائمـة في العـالم المخلـوق هـي بعينهـا حضـور الابـن الكلمة في صميم العالم:

+ «**كل شيء به كان** وبغيره لم يكن شيء مما كـان ... **فيـه كـانت الحيـاة ... في العـالم كـان والعالم به كوِّن** ولم يعرفه العالم.» (يو ١: ٣و٤و١٠)

وأثناسيوس يركِّز على أن كل ما قاله بولس الرسول في الرسالة إلى رومية بخصوص ذلـك إنمـا يخص "الكلمة".

[يقول بولس الرسول: «**إن أموره (الكلمة) غير المنظورة تُرى بوضـوح منـذ خُلق العـالم،**

(24) Athanas., *Contra Arian,* I, 58.

أمَّا قدرته السرمدية ولاهوته، فهي تُدرَك بواسطة الأشياء المخلوقة». فإذا درسنا النص تدركون أن "الابن" هو المقصود هنا، لأنه **بعد أن ذكر الخليقة يبدأ يتكلّم عن القوة التي أعطت هذه المخلوقات طابعها المميَّز**، هذه القوة أقول إنها هي **"كلمة الله"** الذي به كان كل شيء ... لذلك كل مَنْ يتأمَّل في الخليقة عن صحة فهو إنما يتأمَّل **"الكلمة"** الذي شكّلها (أعطاها طابعها المميَّز)، ومن خلال الكلمة يبدأ الإنسان يدرك الآب، لأنه لمَّا سأل فيلبُّس: «أرنا الآب وكفانا» (يو ١٤:٨)، لم يقل له الرب تأمَّل الخليقة، بل قال له: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤:٩).](٢٥)

وأثناسيوس إذ يتأمَّل بالفعل في الخليقة ويرى جمالها وحسنها: «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدًّا» (تك ١:٣١)، يُعزي ذلك الجمال والحُسن إلى حكمة الكلمة كختم وطابع شمل جميع المخلوقات.

[ولكي كل ما يأتي إلى الوجود لا يكون موجوداً وحسب بل ويكون حسناً، كانت مسرَّة الله أن حكمته الخاصة تتنازل لمعونة المخلوقات συγκαταβήναι وذلك لكي تمنحها خاتم وشبه صورتها بالنسبة لها جميعاً ولكل فرد فيها، حتى يكون كل ما جاء إلى الوجود (من العدم) يصير عملاً حكيماً جديراً بالله خالقه.

ومن حيث أن كلمة الله هو الحكمة، لذلك فالحكمة المزروعة فينا هي صورة (الحكمة) التي بواسطتها نحصل على القوة والفكر لإدراك (الكلمة) الحكمة الكلية (التي صاغت ونظّمت الخليقة) الذي به ندرك الآب.](٢٦)

ويبدأ أثناسيوس يركّز على خلقة الإنسان الأول بنوع خاص، ويوضِّح نوع النعمة الخاصة التي خصَّه بها في الخلق الأول كتمهيد لازم وأساسي لنوع النعمة المزمع أن يكمِّل بها أخيراً خلقة الإنسان الجديد كامتياز فائق للحياة الأبدية.

[يقول بولس الرسول: «بالإيمان نفهم أن العالمين **أتقنت بكلمة الله** حتى لم يتكوَّن ما يرى مما هو ظاهر.» (عب ١١:٣)

(25) Athanas., *Contra Arian,* I. II, 12.

(26) Athanas., *Contra Arian,* II, 78.

لأن الله صالح، وبالتالي لابد أن يكون هو مصدر الصلاح، والصلاح لا يضنُّ بشيء، لذلك فإنه لا يضنُّ **بنعمة الوجود** على أي شيء، لذلك خلق كل الأشياء من العدم "**بكلمته**" يسوع المسيح ربنا.

وفضلاً عن ذلك فإنه أظهر محبة خاصة للجنس البشري دون سائر المخلوقات على الأرض، إذ رأى ضعف الإنسان ـ بحسب طبيعة تكوينه ـ وامتناعه عن أن يبقى على حال واحدة **منحه نعمة جديدة**، إذ لم يكتف بمجرَّد خلقته كما فعل بباقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض بل **خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً في قوة كلمته، لكي يستطيع ـ وهو العاقل، وله انعكاس قوة الكلمة فيه ـ أن يبقى في السعادة الأبدية ويحيا الحياة الحقيقية حياة القديسين في الفردوس.**

ولكن لعلمه أيضاً أن إرادة الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتين (أي الخير والشر)، **سبق فدعم النعمة المعطاة له بالوصية**، بالإضافة إلى المكان (الجيد أي الفردوس) الذي أقامه فيه، لأنه **أتى به إلى جنته وأعطاه وصية حتى إذا حفظ النعمة** واستمر صالحاً استطاع أن يحتفظ بحياته في الفردوس بلا حزن ولا ألم ولا هم، **بالإضافة إلى الوعد بعدم الفساد في السماء**، (لاحظ أثناسيوس هنا يشير إلى إمكانية انتقال الإنسان إلى عدم الفساد في السماء).

أمَّا إذا تعدَّى الوصية وارتدَّ وأصبح شريراً، فليعلم أنه جلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يناسبه بحسب الطبيعة ويصبح غير لائق للحياة في الفردوس بل ويُطرد منه من ذلك الوقت لكي يموت ويبقى في الموت والفساد.](٢٧)

ومرَّة أخرى يشدِّد أثناسيوس على امتياز خلقة الإنسان ليدوم أصلاً في عدم الفساد:

[لأن الإنسان **إذ خُلق من العدم فإنه زائل بطبيعته**، غير أنه **بفضل خلقته على صورة الله ـ الكائن الدائم ـ كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطبيعي ويبقى في عدم الفساد لو أنه احتفظ بتلك الصورة، أي بإبقاء الله في معرفته كما تقول الحكمة: «حفظ الوصايا هو تحقيق لعدم الفساد»** (سفر الحكمة ٦:١٨). **وكونه على غير فساد آنئذ فقد كان ممكناً**

(27) Athanas., *Incarn.* 3.

أن يعيش كالله.

منذ ذلك الوقت، وإلى هذا يشير الكتاب المقدَّس على الأرجح عندما يقول: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون.» (مز ٨٢: ٦و٧)

لأن الله لم يكتفِ بأن يخلقنا من العدم ولكنه أيضاً وهبنا مجاناً بنعمة الكلمة حياة منسجمة مع الله.

ولكن البشر إذ رفضوا الأمور الأبدية وتحوَّلوا إلى الأمور الفاسدة بمشورة الشيطان، صاروا سبباً لفساد أنفسهم بالموت، لأنهم بالطبيعة زائلون، ولكنهم تعيَّنوا للخلاص من حالتهم الطبيعية هذه وذلك بنعمة اشتراكهم في الكلمة(٢٨) إن ثبتوا في الصلاح. ولأن الكلمة سكن فيهم فحتى فسادهم الطبيعي لم يجسر أن يقترب منهم كما تقول الحكمة أيضاً: «**الله خلق الإنسان على غير فساد وصنعه على صورة أزليته، ولكن الموت دخل إلى العالم بحسد إبليس**» (سفر الحكمة ٢: ٢٣و٢٤) وعندما تمَّ ذلك بدأ البشر يموتون.](٢٩)

وليلاحظ القارئ هنا أن القديس أثناسيوس يرى **عمل النعمة يؤازر الإنسان جدًّا من بدء خلقته كشركة في الكلمة** ... وكان ممكناً لو هو تمسَّك بمعرفة الله وطاعته، أي احتفظ بفاعلية صورة الحكمة التي زُرعت فيه منذ بدء خلقته **التي كُني عنها بصورة الله فيه، كان ممكناً أن يستحق الانتقال إلى حالة الخلود في السماء.**

وهنا يتضح أمامنا أن محبة الله للعالم وبذل ابنه الوحيد لفداء الإنسان لم تأتِ من فراغ، فالإنسان حاصل على نعمة أصيلة من الله واشتراك حقيقي في الكلمة، وذلك في صميم خلقته وكيانه منذ البدء الذي يظهر بوضوح في حكمة الإنسان وذكائه وفهمه ومعرفته وتأمله وميله الغريزي إلى التأمُّل في الإلهيات منذ البدء أيضاً.

كما نلاحظ أن أثناسيوس يعتبر **الوصية** التي أمر الله بها آدم في الفردوس **هي نعمة**، وأنها

---

(٢٨) لاحظ هنا كيف يوضِّح أثناسيوس كيفية اشتراك الإنسان في الكلمة منذ الخلقة الأُولى، وذلك كعمل نعمة الذي يهيِّئ بالفعل إلى امتداد عمل الفداء للإنسان بالتجسُّد.

(29) Athanas., *Incarn.* 4,5.

كانت كفيلة لو تمسك بها آدم أن تحفظه من الهلاك بغير موت أو فساد وتؤهِّله لتكميل الوعد بالخلود في السماء مع الله. لأن أثناسيوس يؤكِّد أن **الإنسان تعيَّن منذ خلقته الأُولى للخلاص.**

ثم ينقل إلينا أثناسيوس هنا قولاً من سفر الحكمة، هو في الحقيقة مطلع صلاة الصلح في قدَّاس القديس باسيليوس، ليؤكِّد لنا به صدق عقيدته هذه أن الإنسان **معيَّن منذ خلقته الأُولى للخلاص وعدم الفساد كنعمة فائقة من الله،** وأن الموت دخيل علينا وهو من عمل **حسد العدو المهلك الذي أوقف فاعلية هذه النعمة فينا.**

وهذا يعتبره أثناسيوس تمهيداً رائعاً بل سبباً محكماً وبليغاً لتجسُّد "الكلمة" في جسد الإنسان ليرفع عن الإنسان ما أصابه من موت وفساد وهلاك، **ويعيد إلينا هذه النعمة عينها إنما بصورة أعظم وأبقى وأضمن!!** بالروح القدس بالإيمان به وبالمعمودية والتناول من جسده ودمه.

[عندما كان يمسح الإسرائيليون أعتاب أبواب بيوتهم **بالدم كانوا يترجَّون المعونة ضد الملاك المهلك،** ولكننا نحن الآن إذ **نأكل "كلمة الآب" نختم أعتاب قلوبنا بدم العهد الجديد، معترفين بفضل النعمة التي أُعطيت لنا من المخلِّص** الذي قال من جهة هذا: «ها أنا أعطيكم سلطاناً **لتدوسوا** الحيَّات والعقارب وكل قوة **العدو**» (لو ١٠:١٩).][٣٠]

[فالبشرية إذن تكمَّلت فيه واستعادت وجودها كما كانت منذ البدء **وإنما بنعمة أعظم.**][٣١]

وأثناسيوس يقارن بين النعمة التي أخذها آدم بالخلقة والتي **صارت لنا في يسوع المسيح، هكذا:**

[وبالرغم من أنه (المسيح) لم يكن في حاجة ما - إلى أي شيء - إلاَّ أنه قيل عنه إنه تقبَّل ما تقبَّله (المسحة) - بشرياً - حتى من الجهة الأخرى (لاهوته) **فإنه بسبب ما تقبَّله الرب من عطية، وقد سكنت فيه بأمان فإن النعمة تصير محفوظة وثابتة لحسابنا،** لأن الإنسان العادي إذا تقبَّل شيئاً فإنه يفقده ثانية (كما وضح في آدم لأنه تقبَّل وفقد). **ولكن لكي تكون النعمة غير قابلة للفقدان، وتُحفظ في أمان (ثابتة) لدى البشر، من أجل ذلك تقبَّلها المسيح في ذاته (لنا).**][٣٢]

(30) Athanas., *Fastal. Letters*, IV. 3.
(31) Athanas., *Contra Arian,* II, 67.
(32) Athanas., *Contra Arian,* III, 38.

[فإذ تقدَّس الجسد أولاً فيه، صارت لنا بالتالي **نعمة الروح القدس نأخذها من ملئه.**][٣٣]

أثناسيوس يشرح كيف يتحد الإنسان بالروح القدس (مفاعيل النعمة)
وكيف يفارق الروح القدس الإنسان إذا استسلم للشرير:

[... ويوحنا يكتب قائلاً: «بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا: أنه قد أعطانا مِنْ روحهِ» (١يو ٤:١٣)، لذلك بسبب نعمة الروح القدس التي أُعطيت لنا نصير فيه ويصير هو فينا.

ولأنه هو روح الله، لذلك فبسبب أنه يصير فينا نصبح بحق في الله، إذ يكون لنا الروح القدس، ويصير الله بذلك فينا.

ولكن ليس كما يكون الابن في الآب نكون نحن في الآب، لأن الابن لا يشترك في الروح القدس ولا يتقبَّله، بل بالحري يعطيه للجميع ...، أمَّا نحن فبدون الروح القدس نكون بعيدين وغرباء عن الله! ولكن بالشركة في الروح القدس نصير موثقين وملتحمين – knit – بالله (اللاهوت)، وهكذا يصبح وجودنا وكياننا في الله الآب ليس منا، ولكن من الروح القدس الذي يكون فينا والذي يسكن فينا، الذي باعترافنا الحسن الصادق نحتفظ به داخلنا كما يقول يوحنا الرسول: «مَنِ اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله.» (١يو ٤:١٥)

والمسيح يطلب (في صلاته في يوحنا ١٧) أن نقبل الروح القدس، حتى إذا استلمناه يكون لنا روح الكلمة الذي هو في الآب، فنصير نحن بسبب الروح واحداً في الكلمة ثم في الآب بواسطة الكلمة. وإن كان المسيح يقول: «**كما نحن**» فهذا لا يخرج عن كونه توسُّلاً، **حتى تصير نعمة الروح القدس عندما تُعطى للتلاميذ تكون بدون إخفاق أو رجوع** (revocation) **(كما حدث سابقاً لآدم).**

لأن كل ما للكلمة في الآب بالطبيعة هو يرغب أن يكون لنا بواسطة الروح القدس "بدون رجوع"، كما يقول الرسول: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة.» (رو ٨:٣٥، ١١:٢٩)

(33) Athanas., *Contra Arian,* I, 50.

إذن، فالروح الذي هو في الله يكون فينا وليس من أنفسنا (نكون في الله)، وإنه يُقال إننا أبناء وآلهة بسبب "الكلمة" الذي يكون فينا، وهكذا نكون في الابن وفي الآب ونُحسب أننا واحد في الابن وفي الآب، لأن الروح يكون فينا وهو نفسه في الكلمة وفي الآب.

فإذا سقط الإنسان من الروح بسبب أي شر **وندم وتاب عن سقطته، فإن النعمة تظل فيه بلا رجعة (نكوص) حسب تمسُّك إرادتهما - أمَّا إذا لم يتب فإنه بسقوطه لا يصير بعد في الله. لأن الروح القدس المعزِّي الذي في الله يفارقه (أي يفارق غير التائب)، ويظل الخاطئ في الذي أسلم نفسه له (الشيطان)** كما حدث في حالة شاول الملك لأن روح الله فارقه ودهمه روح شرير.][٣٤]

[إن نعمة الروح القدس المعطاة في المعمودية ستُرفع عن الأشرار في الدينونة الأخيرة.]
(شرح المزامير ١٣:٧٥ "الترجمة السبعينية")

[وبكل تأكيد لأنهم ليسوا أبناءً (لله) بالطبيعة (كعلاقة الله الابن بالله الآب) لذلك فإنهم حينما تغيَّروا (عن عهدهم) أُخذ منهم الروح القدس وفقدوا ميراثهم؛ ولكن عند توبتهم فإن الله الذي أعطاهم النعمة في البداية يقبلهم ويعطيهم نوراً ويدعوهم أبناءً مرَّة أخرى.][٣٥]

هنا يمتاز القديس أثناسيوس بالوضوح التام كيف أن التوبة تعيد النور وتعيد النعمة وتعيد عطية الروح وتعيد البنوَّة وتعيد الميراث.



(34) Athanas., *Contra Arian,* III, 24,25.
(35) Ibid. I, 37 fin.

ملخّص الفصل العاشر

الروح القدس وكمال استعلان الثالوث

عند القديس أثناسيوس

- **أثناسيوس هو أول لاهوتي في العالم دافع عن لاهوت الروح القدس** وذلك جاء ردًّا على جماعة المتقلّبين والأريوسيين الذين قالوا بأنه مخلوق!
- **يقوم دفاعه أساساً على إثبات الوحدة القائمة بين الثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس،** وقد جاء دفاعه متفرِّقاً في مقالاته ضد الأريوسية ثمَّ مركَّزاً في أربع رسائل موجَّهة للأسقف سيرابيون عن الروح القدس.
- **سار منهج التعريف بالروح القدس منذ بدء عصر الرسل حتى أثناسيوس في خطَّين متوازين:**

أولاً: خط الرسل والآباء المنقادين بروح الله الذي يعطي الإيمان الواضح المحدَّد عن شخص الروح القدس الإله الكامل في الثالوث المساوي للآب والابن في المجد والكرامة والعمل.

ثانياً: خط طبقة المفكِّرين في الكنيسة الذين حاولوا باجتهادهم وتصوُّرواتهم بدون قيادة الروح القدس وبدون الاعتماد على التسليم الرسولي أن يعرِّفوا بالروح القدس فانحرفوا عن الخط الرسولي الواضح والبسيط.

- ما عمله أثناسيوس هو أنه امتد بالخط الأول في منهج مدرسي مساوٍ تماماً لفكر الرسل والإنجيل البسيط المعاش عن الروح القدس، كما عرفته الكنيسة وعاشته حتى ذلك الوقت، مستقطباً كل الهرطقات والانحرافات ومنهياً عليها إلى الأبد.
- **تعاليم العهد القديم عن الروح القدس تتلخَّص في أنه روح الله القدوس، ذو الصلاح المطلق والوجود الكلّي في كل مكان، ومن حيث أعماله فهو:**

١ ـ العامل الفعَّال في الخلق.

٢ ـ يُعطَى للمختارين من الله بوضع اليد والمسحة وبوسائل أخرى فيهبهم نعمه المتعدِّدة.

٣ ـ القوة الفعَّالة في الأبطال المدافعين عن إسرائيل.

٤ ـ قوة الإلهام الذي يدبِّر حكام إسرائيل.
٥ ـ إلهام الأنبياء للنطق بكلمة الله.
٦ ـ قوة التقديس وقوة الدينونة في القضاء.
٧ ـ بصيرة التنبُّؤ عن أواخر الدهور.
٨ ـ علامات حضوره تعلن عن حضرة الله.
٩ ـ هو التعبير عن جوهر الوجود الإلهي على مدى الأسفار. فهو "الله الفعَّال بالقوة"، ويُذكر أحياناً في أسفار العهد القديم بصفة شبه مستقلة في حدود الشخصية المتميِّزة عندما يُقارَن "الروح" مع "الكلمة".

■ **قدَّمت الأسفار القانونية الثانية أيضاً فكرة قوية وواضحة عن شخصية الروح القدس معبَّراً عنه بحكمة الله.** وتتلخَّص أعماله فيها بأنه يملأ الكون ويحب البشرية ويعلِّم ويطهِّر أفكار الإنسان وقلبه.

■ في العصور المتأخِّرة من الفكر اليهودي اقتصر مفهوم الروح القدس عندهم بأنه حكمة الله الموهوبة للحكماء، أو مجرَّد قوة يؤثِّر بها الله على الموحَى إليهم. وقد تسرَّب هذا المفهوم الخاطئ إلى الفكر المسيحي حتى القرن الرابع.

■ **يبدأ العصر المسحي بتقدُّم هائل في التعرُّف على الروح القدس وأعماله حسب الأناجيل:**
١ – أداة التجسُّد: "الروح القدس يحل عليكِ وقوة العلي تظلِّلكِ".
٢ – الفعَّال في حياة المسيح، في مسحته الأُولى على نهر الأُردن لبدء الخدمة، وفي كل أعماله.
٣ – به بنى المسيح كنيسته على أساس أنها خليقة جديدة مولودة من فوق من الروح القدس والماء، وأنها تعيش وتعمل في العالم بقوة الروح القدس.
٤ – الروح القدس هو عطية المسيح لتلاميذه: «اقبلوا الروح القدس». وهو الساكن في أولاد الله لتبكيت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة.
٥ – وهو قوة البشارة للشهادة للمسيح إلى أقصى الأرض.
٦ ـ وقد أظهره المسيح بوضوح كأقنوم له هيبته الإلهية حتى أنه اعتبر التجديف على الروح القدس خطية لا تغفر.

■ **عصر الرسل هو عصر إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً:**

١ - بحلوله على التلاميذ في يوم الخمسين بصورة محسوسة.

٢ - في استعلان شخصيته في كل تدبير الكنيسة وحياتها بعد ذلك، عاملاً عمل المسيح في الكنيسة ومكمِّلاً فينا الخلاص والفداء، وواهباً إيَّانا القداسة والبر التي بها نثبت في المسيح ونحيا فيه، فهو يأخذ مما للمسيح ويعطينا، لذلك دعاه بولس الرسول «روح المسيح».

٣ - في قوة شهادة الرسل، الذين أحسوا به كشخص متميِّز بشهادته في داخلهم بجانب شهادتهم هم أيضاً.

٤ - في سلطانه التأديبي على المستهينين بتدبيره للكنيسة.

٥ - في حلوله على المؤمنين قبل معموديتهم، كما حدث مع كرنيليوس وأهل بيته مبيِّناً بذلك أن الروح القدس هو الذي يعمِّد.

٦ - في إشرافه الشخصي على تدبير عمل الكرازة وإرسال المعيَّنين للخدمة.

٧ - في إعلانه لأمور آتية لأنبياء العهد الجديد.

٨ - في حراسته للإيمان وصحة العقيدة ببرهان ومعجزة، مؤدِّباً بقسوة كل محاولة لإفساد طريق المسيح لحماية الكنيسة من كل انحراف.

٩ - في اقتران الملء به بالامتلاء بالفرح الذي لا يُنطق به.

١٠ - في حضوره الشخصي في أول مجمع للرسل لإقرار السلوك المسيحي للأُمم الداخلين جديداً في الإيمان، كقاضٍ ومشرِّع للكنيسة الجديدة.

١١ - في إقامته للأساقفة والكهنة لرعاية كنيسة الله التي اقتناها بدمه.

- **في عصر الرسل أيضاً تمَّ استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً في رسائلهم:**

١ - فهو الروح المحيي الذي أقام المسيح من الأموات والذي سيُحيي أجسادنا أيضاً بروحه الساكن فينا.

٢ - وهو روح التبني الذي يلد الإنسان ويتبنَّاه لله، وبه نصرخ نحو الآب وندعوه "أبانا".

٣ - وهو الذي يحرِّرنا ويتدرج بنا في الكمال المسيحي بالاستنارة.

٤ - وهو يوحِّد المؤمنين في جسد المسيح ليصيروا جسداً واحداً فيه بالروح الواحد.

٥ - ويوزِّع المواهب على المؤمنين لخدمة الجسد الواحد لمجد المسيح.

٦ - يضطلع بحفظ الوديعة الصالحة أي التقليد المسلَّم في الكنيسة بالإيمان وذلك من خلال سكناه في الأفراد الأمناء له.

٧ - لا يلغي شخصية المؤمن، لذلك ينتظر منه إضرام الموهبة بالصلاة والأعمال الصالحة لحساب الكنيسة.

٨ - يظل يشهد للمسيح في الكنيسة داخل المؤمنين بالمواهب والآيات.

٩ - التنكُّر لشركة الروح القدس والازدراء بها تنكُّرٌ للاهوت المسيح شخصياً.

▪ **في عصر ما بعد الرسل بقيت تعاليم الرسل واضحة في ما يختص بشخص الروح القدس ضمن الجوهر اللاهوتي للثالوث في تسليم قانون التعميد:**

١ - ففي كتابات الآباء الرسوليين كليمندس الروماني، وإغناطيوس الأنطاكي، وبرناباس، وكتاب "الراعي" لهرماس، نجد مطابقة لتعليم الرسل في كل ما يختص بشخص الروح القدس.

٢ - في القرن الثاني ابتدأ التباعد عن منبع التقليد الرسولي نوعاً ما بسبب انشغال المدافعين عن الإيمان بالتركيز على لاهوت الابن، حتى أنهم بدأوا ينسبون للكلمة الصفات والأعمال الشخصية للروح القدس.

٣ - ابتدأت تظهر انحرافات خطيرة تضع الروح القدس في المرتبة الثالثة كخادم للمسيح، وكرباط الوحدة بين الآب والابن. كان هذا من داخل الكنيسة!!

٤ - أمَّا خارج الكنيسة فكانت هناك قوتان من الهراطقة تتصارعان معاً بشدة ضد الكنيسة هما: جماعة المونتانيين، وجماعة الغنوسيين الذين قالوا عن الروح القدس إنه قوة مؤنَّثة والدة للمسيح! ثم جماعة المونوأرخيين الذين جحدوا الثالوث القائم على أقانيم متميِّزة، ومنها خرجت بدعة السابلية وبدعة بولس الساموساطي المنكرة لشخصية الروح القدس كأقنوم.

▪ **تتمثَّل تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية في أواخر القرن الثاني حتى منتصف الثالث في الآباء:**

١ - إيرينيئوس: ولكنه أخفق أيضاً إذ تصوَّر الابن والروح القدس بأنهما يدا الآب، إلاَّ أنه يحس بخطورة هذا الوصف فيصحِّحه.

٢ - ترتليان: ولكنه يخطئ في القول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن، وأن الروح القدس خاضع للآب والابن، إلاَّ أنه يعود فيضع ضوابط لهذا التدرُّج حتى لا ينقسم الجوهر.

٣ - كبريانوس تلميذ ترتليان: وهو يؤكِّد على وحدة الأقانيم وعلى علاقة الروح القدس بالكنيسة كجسد وكأفراد في الجسد.

٤ - هيبوليتس: أكَّد على لاهوت الروح القدس بوضوح، ولكنه رغم دحضه لفكرة خضوع

الروح القدس للمسيح لم يستطع أن يرقى للتساوي المطلق بين الأقانيم الثلاثة، فأعطى الروح القدس صفة النعمة، وقصر صفة الأقنوم على الآب والابن.

٥ - ديونيسيوس الروماني: ولكنه أخطأ في اعتباره أن الابن والروح القدس خاضعان للآب من جهة الأصل والمنبع، مع أنه يؤكِّد على وحدة الثالوث.

▪ **أمَّا كنيسة الإسكندرية في تلك الفترة فيمثِّلها:**

١ - كلمندس الإسكندري: وهو يعلن بوضوح لاهوت الروح القدس، ويشدِّد على وحدانية الروح رغم تعدُّد مواهبه. ويعتبر حضور الروح القدس في المؤمنين أنه تشكيل لطبيعة بشرية جديدة، ويؤكِّد على دور الروح القدس في إنارة الكنيسة ككل وكأفراد، وأن المؤمن هو العارف الحقيقي بالله الذي اتحدت نفسه بالروح القدس وتتلمذ لتعاليم الكلمة بواسطته.

٢ - أوريجانوس: علَّم بأن الروح القدس مساوٍ في الكرامة والمجد للآب والابن، وأكَّد بأن الروح القدس منبثق من الآب انبثاقاً أزلياً. وميَّز عمل الروح القدس عن عمل الآب والابن بأنه مختص بنفوس المؤمنين، مؤكِّداً أيضاً أن الشركة في الروح القدس هي شركة في الثالوث غير المفترق.

إلاَّ أنه في شرحه لإنجيل يوحنا أخطأ في وضع الروح القدس في درجة أقل من الابن، لا بالنسبة للكرامة بل بالنسبة للأصل، لأنه قال إن الابن فقط هو من الآب أمَّا الروح القدس فهو من الآب بواسطة الابن، وهذا هو بداية خطأ الكاثوليك في قولهم: إن الروح القدس منبثق من الآب والابن. وتمادى في خطئه عندما اعتبر الروح القدس أقل من الابن الذي بواسطته يستمد وجوده! ولكونه لم يلتزم بالتقليد واعتمد على المنطق سقط في الخطأ، ومهَّد دون أن يدري لبدعة أريوس.

٣ - امتد خطأ أوريجانوس لتلميذيه بييريوس وثيئوغنسطس.

▪ **في القرن الرابع، أعلن الأريوسيون إنكارهم للاهوت الروح القدس في سياق كفرهم بلاهوت المسيح. ولكن ظل الأرثوذكس في أنحاء العالم متمسِّكين بمقرَّرات مجمع نيقية تجاه الإيمان الصحيح بالابن والروح القدس:**

١ - بدأ القديس أثناسيوس تفنيد آراء الأريوسيين من جهة الروح القدس بصورة واضحة سنة ٣٦٠م في أول شرح مستفيض عن شخص الروح القدس وانبثاقه من الآب.

٢ - ثم أصدر منشوراً مجمعياً من الإسكندرية لأنطاكية عن لاهوت الروح القدس سُمِّي: "طومس الأنطاكيين"، قبله بولينوس الأسقف بكل فرح.

٣ - وقعت روما برئاسة البابا ليبيريوس في حبائل جماعة "محاربي الروح القدس" التي كان على رأسها مقدونيوس وماراثونيوس، الذين حرمتهم الكنيسة. إلاّ أن البابا داماسوس الذي جاء بعده استطاع دحض هذه البدعة في ثلاثة مجامع كان آخرها سنة ٣٨٠م؛ كما أقرَّ بأن الروح القدس منبثق من الآب فقط.

٤ - في قيصرية كان الأسقف يوسابيوس المؤرِّخ - والمعاصر لما قبل نيقية حتى بعد نيقية - يعلِّم بأن الروح القدس ثالث في الكرامة والمجد والدرجة أيضاً ... وأن انبثاقه مرتبط فقط بإرساليته، كحدث زمني!!

٥ - في أُورشليم تمسَّك كيرلس الأورشليمي بالكتاب المقدَّس والتقليد في ما يخص الروح القدس، وإن كان قد عجز عن شرح ما يؤمن به.

- **أمام هذا كله يرجع الفضل للقديس أثناسيوس في إرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس ووحدانية الثالوث هكذا:**

١ - هذا التعليم استلمته الكنيسة من الرسل ومن الرب نفسه.

٢ - وحدانية الثالوث تحتِّم المساواة في وحدانية جوهر الأقانيم.

٣ - الروح القدس منبثق من الآب والذي يعطيه هو الابن.

٤ - لا يمكن أن يتجزَّأ الثالوث؛ فكما أن الآب في الابن كذلك الروح القدس هو في الآب والابن، وكل ما يعمله الروح القدس إنما يعمله من خلال وحدته بالآب والابن.

٥ - وحدة الثالوث كاملة لأن الآب يصنع كل شيء بواسطة الابن في الروح القدس.

٦ - الروح القدس هو ينبوع القداسة لكل الكائنات، لذلك فهو من جوهر الثالوث، لأنه لا يوجد إلاّ تقديس واحد للنفس وهو الذي يأتي من الآب بالابن في الروح القدس.

٧ - علاقة الابن بالروح القدس هي علاقة الابن بروح البنوَّة، والقدوس بروح القداسة، والحياة بالروح المحيي، والمسيح بالمسحة، والحق بروح الحق، ورب المجد والقوة بروح المجد والقوة، فالروح القدس إذن هو روح المسيح الخاص.

٨ - بالروح القدس - المسحة والختم - نصير شركاء المسيح، وبالتالي شركاء الطبيعة الإلهية.

٩ - بالروح القدس يتم انضمامنا للكنيسة (بالمعمودية والتثبيت) وتكميل معرفتنا با لله واتحادنا به.

١٠ - الروح القدس هو الذي يقيم الأساقفة ليرعوا رعية الله.

١١ - الروح القدس حلَّ على المسيح وقت العماد، لكي - بنواله المسحة كإنسان - نكون نحن

الذين في جسد بشريته قد مُسحنا فيه، حتى يتم ما قاله المسيح: «لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق» (يو ١٧: ١٩). فالابن لم يتقدَّس من آخر بل هو الذي قدَّس ذاته حتى نتقدَّس فيه.

١٢ ـ خطية التجديف على الروح القدس التي لا تُغفر لا تعني إطلاقاً امتياز أقنوم عن آخر في الثالوث، فالتجديف على الروح القدس هو تجديف على الآب والابن أيضاً.

١٣ ـ العنصر الجوهري في عدم غفران خطية التجديف على الروح القدس هو بسبب نسبة أعمال اللاهوت التي كان يعملها المسيح إلى أنها أعمال الشيطان! أي التجديف على لاهوت المسيح هو تجديف على الروح القدس.

النعمة عند القديس أثناسيوس هي:

١ ـ نعمة الوجود من العدم.

٢ ـ النعمة الحافظة للمخلوقات من الانحدار نحو العدم الذي تميل إليه.

٣ ـ نعمة إضافية للإنسان بخلقته على صورة الله ومثاله، أي الاشتراك في "كلمته" الذي هو صورة الآب ورسم جوهره.

٤ ـ نعمة الوصية التي أمر الله بها آدم في الفردوس لتدعيم النعم السابقة.

٥ ـ الغرض من تجسُّد الكلمة هو إعادة النعمة المفقودة بمخالفة الوصية، وإنما بصورة أعظم وأبقى وأضمن.

٦ ـ فالمسيح تقبَّل نعمة الروح القدس لنا، وإذ سكنت في جسده المأخوذ منا بأمان صارت محفوظة وثابتة لحسابنا غير قابلة للفقدان.

٧ ـ بقبولنا للمسيح بالإيمان به وبالمعمودية والتناول من جسده ودمه، نقبل الروح القدس، فيكون لنا روح الكلمة الذي هو في الآب، فنصير بسبب الروح واحداً في الكلمة ثم في الآب بواسطة الكلمة.

٨ ـ إذا سقط الإنسان من الروح بسبب أي شر وندم وتاب عن سقطته فإن النعمة تظل فيه، أمَّا إذا لم يتب يفارقه روح الله. أي أن التوبة تعيد النعمة وتعيد عطية الروح والبنوَّة والميراث.



جداول الكتاب

فهرس حياة القديس أثناسيوس الرسولي

سنة ميلادية	الشهر واليوم التقويم اليولياني أيام أثناسيوس	التقويم الغريغوري الحالي	الحدث
٢٨٤	٢٩ أغسطس	١١ سبتمبر	بداية حكم دقلديانوس، وبداية التقويم القبطي للشهداء.
٢٩٧/٢٩٦			**ميلاد القديس أثناسيوس.**
٢٩٧			سقوط الإسكندرية في يد دقلديانوس.
٣٠١			نياحة البابا ثيئوناس، وبدء بطريركية أنبا بطرس (خاتم الشهداء) بابا الإسكندرية.
٣٠٣	٢٣ فبراير	٧ مارس	أول مرسوم إمبراطوري من دقلديانوس وجاليريوس بالاضطهاد.
٣٠٣	ديسمبر		الاحتفال العشريني لدقلديانوس في روما.
٣٠٤			المرسوم الرابع للاضطهاد.
٣٠٥	١ مايو	١٤ مايو	تنازل دقلديانوس عن العرش (لقسطنطين ومكسيمين قياصرة).
٣٠٦	٢٥ يولية	٧ أغسطس	المناداة بقسطنطين "أوغسطساً" في يورك ببريطانيا.
٣٠٧			مكسيمين يتخذ لنفسه لقب "أغسطس" (وتخضع له سوريا ومصر).
٣١١	٣٠ أبريل	١٣ مايو	أول مرسوم للتسامح (موت جاليريوس).
٣١١			تجدُّد الاضطهاد بواسطة مكسيمين في سوريا ومصر. استشهاد البابا بطرس خاتم الشهداء.
٣١٢			مرسوم بالتسامح الديني من قسطنطين، يصدر في ميلان.
	٢٦ أكتوبر	٨ نوفمبر	قسطنطين ينتصر على مكسينتيوس عند كوبري ميلفيان. أخيلاّس بابا الإسكندرية.
٣١٣			المرسوم الثالث للتسامح الديني من قسطنطين وليسينيوس (يصدر في ميلان)، ألكسندروس بابا الإسكندرية.
	٣٠ أبريل	١٣ مايو	ليسينيوس ينتصر على مكسيمين في هرقليا، ويصدر مرسوماً بالتسامح الديني — موت مكسيمين.
٣١٤			هزيمة ليسينيوس في سيباليا.
٣١٨			أول كتاب لأثناسيوس "ضد الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة".
٣١٩			بداية النزاع مع الأريوسية.

٣٢١			حرم أريوس في مجمع مصري.
٣٢٢			انضمام كنائس ومتوحّدي مريوط لأريوس.
			وثيقة حرم أريوس موقّعة من إكليروس الإسكندرية.
			انقسام كولّوثوس (قس إسكندري لم يطق تأنّي البابا ألكسندروس على أريوس).
٣٢٣			رسالة ألكسندروس بابا الإسكندرية إلى سميِّه أسقف القسطنطينية.
	١٨ سبتمبر	١ أكتوبر	الهزيمة النهائية لليسينيوس في "كريزوبوليس".
			قسطنطين الإمبراطور الأوحد.
٣٢٤			أول تدخُّل لقسطنطين في القضية الأريوسية. هوسيوس أسقف غرناطة بأسبانيا ومستشار قسطنطين يصل إلى الإسكندرية، اجتماع المجمع هناك.
٣٢٥	الصيف		**مجمع نيقية المسكوني.**
٣٢٧	نوفمبر		اجتماع الأساقفة المنشقين اتباع ميليتوس متروبوليت ليكوبوليس (أسيوط) بأجمعهم في الإسكندرية ومصالحتهم مع الكنيسة.
٣٢٨	١٧ أبريل	٣٠ أبريل	نياحة البابا ألكسندروس بابا الإسكندرية.
	٨ يونية	**٢١ يونية**	**أثناسيوس يُقام بابا الإسكندرية.**
٣٢٩-٣٣٠			زيارة أثناسيوس لطيبة، في صعيد مصر. ومحاولته رسامة باخوميوس أب الشركة قساً!
٣٣٠			مجمع في أنطاكية يحرم يوستاثيوس أسقفها.
٣٣١			أثناسيوس يدافع عن نفسه أمام قسطنطين.
٣٣٤			مجمع في قيصرية، أثناسيوس يرفض الحضور فيه.
٣٣٥	١١ يولية	٢٤ يولية	أثناسيوس يغادر الإسكندرية إلى مجمع صور (بداية نفيه الأول).
	٦ سبتمبر	١٩ سبتمبر	الأساقفة المصريون يسجِّلون احتجاجهم.
	أغسطس	سبتمبر	لجنة تحقيق من قِبَل المجمع تزور مريوط في مصر (اللجنة المريوطية).
		نهاية سبتمبر	مجمع في أورشليم يقرِّر قبول أريوس في شركة الأسرار!
	٣٠ أكتوبر	١٢ نوفمبر	أثناسيوس يصل إلى القسطنطينية.
٣٣٦	٨ فبراير	٢١ فبراير	مجمع في القسطنطينية، حرم مارسيللوس وأتباعه.
			نفي أثناسيوس إلى تريفري في بلاد الغال (فرنسا).
			باسيليوس أسقفاً لأنقرة.
			موت أريوس في القسطنطينية.

٣٣٧	٢٢ مايو	٤ يونية	موت قسطنطين في نيقوميديا.
	١٧ يونية	٣٠ يونية	رسالة قسطنطيوس قيصر بالأمر بعودة أثناسيوس.
	٢٣ نوفمبر	٥ ديسمبر	**عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية.**
٣٣٨	٢٥-٢٧ يولية	٧-٩ أغسطس	زيارة أنبا أنطونيوس للإسكندرية.
			بيستوس أسقف الإسكندرية غير القانوني (الدخيل).
٣٣٩		الشتاء	مجمع للأساقفة المصريين في الإسكندرية.
			مبعوثون من الطرفين في روما.
٣٣٩		يناير	مجمع في أنطاكية يحرم أثناسيوس.
			ويعيِّن جريجوريوس أسقفاً على الإسكندرية.
	١٩ مارس	١ أبريل	هروب أثناسيوس من كنيسة ثيئوناس بالإسكندرية.
	٢٢ مارس	٤ أبريل	وصول غريغوريوس البطريرك الدخيل للإسكندرية.
	١٦ أبريل	٢٩ أبريل	**سفر أثناسيوس إلى روما.**
٣٤٠		يناير	الأساقفة اليوسابيون يجتمعون في أنطاكية ويردُّون على رسالة يوليوس أسقف روما. وصول خطابهم إلى روما في الربيع.
		الخريف	مجمع الأساقفة الرومانيين ورد يوليوس على اليوسابيين (١٨ شهراً بعد وصول أثناسيوس لروما).
٣٤١		منتصف الربيع	مجمع "التدشين"(١) في أنطاكية. أربعة قوانين.
٣٤٢		مايو	أثناسيوس يترك روما (بعد إقامته فيها ٣ سنوات)، ويتجه إلى ميلان لمقابلة قسطانس الذي يتركه هناك، ويقوم بحملته ضد الفرنج. مجمع غانغرا.
		الصيف	قسطانس يطرد منلوبي يوسابيوس في تريفري.
		أواخر الصيف	موت يوسابيوس النيقوميدي.
٣٤٣		عيد الفصح	أثناسيوس في تريفري.
		يوليو	اجتماع مجمع سرديكا (مدينة صوفيا - عاصمة بلغاريا حالياً).
٣٤٤		عيد الفصح	أثناسيوس في نيسس.
		بعد الفصح	مجمع في أنطاكية يحرم استفانوس ويعيِّن ليونتيوس. ويصدر قراراً مجمعياً سُمِّي في التاريخ باسم: μακρόστιχος أي المطوَّل.
		أغسطس	قسطنطيوس يكتب مانعاً اضطهاد الأرثوذكس في الإسكندرية.

(١) نسبة إلى اجتماعه في أنقرا أثناء تدشين إحدى كنائسها.

٣٤٥	٧ أبريل	٢٠ أبريل عيد الفصح	أثناسيوس في أكويلا بإيطاليا.
			مجمع في ميلان يدين فوتينوس.
	٢٦ يونية	٩ يولية	موت غريغوريوس الدخيل في الإسكندرية. (بعد ١٠ شهور من رسالة قسطنطيوس).
٣٤٦	سبتمبر		مقابلة أثناسيوس لقسطنطيوس في أنطاكية.
	٢١ أكتوبر	**٣ نوفمبر**	**عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية.**
		أواخر العام	رسامة فرومنتيوس أسقفاً على الحبشة بواسطة أثناسيوس.
٣٤٧			أول مجمع ضد فوتينوس في سيرميُم.
٣٤٩			الحوار مع روما بخصوص تحديد يوم عيد الفصح.
٣٥٠	١٨ يناير	٣١ يناير	اغتيال قسطانس.
٣٥١	١٥ مارس	٢٨ مارس	جالّوس ينادَى بهِ مثل "قسطنطيوس قيصر".
	٢٨ سبتمبر	١١ أكتوبر	معركة مورسا.
			مجمع سيرميُم الثاني، وحرم فوتينوس.
٣٥٣	١٩ مايو	١ يونيو	بعثة برئاسة سيرابيون الأسقف المصري لقسطنطيوس.
			مونتانوس أحد ضباط القصر في الإسكندرية.
٣٥٣		الخريف	مجمع في آرل بفرنسا ضد أثناسيوس.
٣٥٤			إعدام جالّوس.
٣٥٥			مجمع في ميلان ضد أثناسيوس.
		يوليو – ديسمبر	ديوجينيس سكرتير الإمبراطور في الإسكندرية.
		نوفمبر	يوليان (الجاحد) يصير "قيصراً".
٣٥٦			نياحة القديس أنطونيوس الكبير، نفي هيلاريون.
	٦ يناير	١٩ يناير	الوالي الروماني سيريانوس يصل إلى الإسكندرية.
	٨ فبراير	٢١ فبراير	سيريانوس يقتحم كنيسة ثيئوناس بالإسكندرية.
			بداية النفي الثالث لأثناسيوس.
	١٠ يونيو	٢٣ يونيو	كاتافرونيوس يصير حاكماً لمصر.
٣٥٧	٢٤ فبراير	٨ مارس	جورجيوس البطريرك الدخيل يدخل الإسكندرية كأسقف.
		الصيف	المجمع الثالث بسيرميُم، والقانون الثاني (التجديف).
		الصوم الكبير	مجمع أنقرة.
		الصيف	تجدُّد الحرب مع فارس.
	٢ أغسطس	١٥ أغسطس	عودة ليبيريوس إلى روما.

	٢ أكتوبر	١٥ أكتوبر	طرد جورجيوس من الإسكندرية.
٣٥٩	٢٢ مايو	٤ يونيو	مؤتمر سيرميُم – القانون التاريخي Dated Creed
		يونيو – ديسمبر	مجامع أريمينم وسلوكية.
٣٥٩	٣١ ديسمبر	١٣ يناير	قانون نيكي Niké (مدينة في تراقيا بالبلقان)، الذي صدَّق عليه مندوبو مجمعي أريمينم وسلوكية في القسطنطينية.
٣٦٠		يناير	المناداة بيوليانوس "أُوغسطساً" في باريس.
			مجمع "التدشين" يرفع قراراته إلى الإمبراطور في القسطنطينية. [إدخال عبارة "مشابه في الجوهر" بدلاً من "مساو في الجوهر" في تعريف الابن – عزل قادة الأريوسيين المعتدلين – قطع أتيوس].
٣٦١			انتخاب ميليتوس أسقفاً على أنطاكية ثم تنحيته.
			أوزويوس الأريوسي أسقفاً.
	٣ نوفمبر	١٦ نوفمبر	موت قسطنطيوس.
٣٦٢	٩ فبراير	٢٢ فبراير	مرسوم يوليانوس الجاحد (لعودة الأساقفة) مُرسل من الإسكندرية.
	٢١ فبراير	٥ مارس	عودة أثناسيوس إلى كرسيه.
		الصيف	مجمع المعترفين بالإسكندرية، لوسيفوروس يبذر الشقاق في أنطاكية.
	٤ أكتوبر	١٧ أكتوبر	تجديد الأمر من يوليانوس ضد أثناسيوس. اختفاء أثناسيوس.
٣٦٣	٢٦ يونيو	٩ يوليو	موت يوليانوس وتنصيب جوفيان عوضاً منه.
			أثناسيوس في صعيد مصر.
		أغسطس؟	أثناسيوس في الإسكندرية سرًّا.
	٦ سبتمبر	١٩ سبتمبر	أثناسيوس يعبر الفرات.
		سبتمبر	ويقابل جوفيان في إديسًّا.
		الشتاء	أثناسيوس في أنطاكية.
٣٦٤	١٤ (أو ٢٠) فبراير	٢٧ فبراير (أو ٥ مارس)	العودة إلى الإسكندرية.
	١٧ فبراير	١ مارس	موت جوفيان.
	٢٩ مارس	١١ أبريل	فالنس يُعيَّن "أُغسطساً" بواسطة فالنتينيان.
		الخريف	مجمع لامبساكوس.
٣٦٥		الربيع	فالنس في أنطاكية. تجدُّد الاضطهادات الأريوسية ضد الأرثوذكس.
	٥ مايو	١٨ مايو	وصول القرار بطرد أثناسيوس.
	٥ أكتوبر	١٨ أكتوبر	أثناسيوس ينسحب إلى بلده الريفي.

	٢٨ سبتمبر	١١ أكتوبر	تمرُّد بروكوبيوس بالقسطنطينية.
		الشتاء	رسالة أنصاف الأريوسيين لليبيريوس.
٣٦٦	أول فبراير	١٤ فبراير	إعادة أثناسيوس رسمياً إلى كرسيه.
	٢١ مايو	٣ يونيو	هزيمة بروكوبيوس.
	٢١ يوليو	٣ أغسطس	حرق السيزاريوم (نسبة إلى سيزار = قيصر) بالإسكندرية. واحتراق الكنيسة الكبرى هناك.
٣٦٧	٢٤ سبتمبر	٧ أكتوبر	محاولة لوسيوس الأسقف الأريوسي دخول الإسكندرية.
٣٦٨	٢٢ سبتمبر	٥ أكتوبر	أثناسيوس يبدأ في بناء الكنيسة التذكارية التي سُـمِّيت على اسمه في ما بعد.
٣٧٠	٧ أغسطس	٢٠ أغسطس	تدشين الكنيسة التذكارية.
			بداية تبادل الرسائل بين أثناسيوس وباسيليوس الكبير رئيس أساقفة الكبادوك.
٣٧١			وصول وفد من أتباع مارسللوس أسقف أنقرة إلى الإسكندرية؛ وعقد مجمع مكاني برئاسة أثناسيوس وقبولهم في شركة الكنيسة الجامعة.
٣٧٢			كتابان لأثناسيوس ضد الأبولينارية.
٣٧٣	**٢-٣ مايو**	**١٥-١٦ مايو**	**نياحة القديس أثناسيوس بسلام الرب.**



الفترات التي نُفي فيها أثناسيوس والفترات التي قضاها في الكرسي

فترات التواجد بالكرسي

	بدايتها	مدتها: سنة	شهر	يوم
الفترة الأولى:	١٤ بؤونة ٤٤ للشهداء ٨ يونيو ٣٢٨ ميلادية	٧	١	٣
الفترة الثانية:	٢٧ هاتور ٥٣ للشهداء ٢٣ نوفمبر ٣٣٧ ميلادية	١	٤	٢٤
الفترة الثالثة:	٢٤ بابة ٦٢ للشهداء ٢١ أكتوبر ٣٤٦ ميلادية	٩	٣	١٩
الفترة الرابعة:	٢٧ أمشير ٧٨ للشهداء ٢١ فبراير ٣٦٢ ميلادية		٨	
الفترة الخامسة:	١٩ أمشير ٨٠ للشهداء ١٤ فبراير ٣٦٤ ميلادية	١	٧	١٧
الفترة السادسة:	٧ أمشير ٨٢ للشهداء ١ فبراير ٣٦٦ ميلادية	٧	٤	٢
إجمالي المدة التي قضاها في الكرسي =		**٢٧**	**٥**	**٥**

فترات المنفى

	بدايته	مدته: سنة	شهر	يوم
النفي الأول:	١٧ أبيب ٥١ للشهداء ١١ يوليو ٣٣٥ ميلادية	٢	٤	١٥
النفي الثاني:	٢١ برمودة ٥٥ للشهداء ١٦ أبريل ٣٣٩ ميلادية	٧	٦	٣
النفي الثالث:	١٣ أمشير ٧٢ للشهداء ٨ فبراير ٣٥٦ ميلادية	٦		١٤
النفي الرابع:	٢٧ بابة ٧٨ للشهداء ٢٤ أكتوبر ٣٦٢ ميلادية	١	٣	٢٢
النفي الخامس:	٨ بابة ٨١ للشهداء ٥ أكتوبر ٣٦٥ ميلادية		٤	
إجمالي المدة التي قضاها في المنفى =		**١٧**	**٦**	**٢٤**

جدول المجامع التي انعقدت في حياة أثناسيوس الرسولي

السنة الميلادية	المجمع الذي انعقد
٣٢٥ من ١٩ يونيو حتى ٢٥ أغسطس	**مجمع نيقية المسكوني**، حُرم فيه أريوس وأتباعه ونُفي إلى الليريكون. توقيع اليوسابيين على اصطلاح الهوموؤوسيوس (المساواة في الجوهر بين الآب والابن) ـ كان أثناسيوس شماس البابا ألكسندروس.
٣٢٨	أثناسيوس بابا الإسكندرية.
٣٣٠	قسطنطين يفرج عن أريوس ويعيده للإسكندرية.
٣٣١	أثناسيوس يرفض قبوله في الشركة.
٣٣٤	**مجمع قيصرية** ضد أثناسيوس الذي رفض الحضور.
٣٣٥	**مجمع صور وأُورشليم**، يقرر قبول أريوس والأريوسيين رسمياً في الكنيسة. أثناسيوس يُجبَر على الحضور بأمر إمبراطوري ولكنه يترك المجمع متوجِّهاً إلى قسطنطين. اليوسابيون يحرمون أثناسيوس، وقسطنطين ينفيه إلى تريفري.
٣٣٦	اليوسابيون يعقدون **مجمعاً في القسطنطينية** لاتهام مارسيلوس بالسابليانية، ولتثبيت قبول أريوس. موت أريوس.
٣٣٧	موت قسطنطين، قسطنطيوس يخلفه في الشرق وقسطانس الأرثوذكسي في الغرب.
٣٣٨	عودة المنفيين، أثناسيوس يعود إلى الإسكندرية. **مجمع أساقفة مصر** في الإسكندرية.
٣٣٩	**مجمع في أنطاكية** يعيِّن غريغوريوس أسقفاً على الإسكندرية، هرب أثناسيوس إلى روما.
٣٤٠	**اجتماع الأساقفة اليوسابيين في أنطاكية** وردهم على رسالة يوليوس أسقف روما.

اجتماع الأساقفة الرومان ورد يوليوس على اليوسابيين.

٣٤١ **مجمع "التدشين" في أنطاكية** (يصدر أربعة قوانين) من الأساقفة اليوسابيين.

٣٤٣ **مجمع سارديكا** بناء على طلب الإمبراطور قسطانس الأرثوذكسي من أجل مصالحة الكنائس.

٣٤٤ **مجمع في أنطاكية** من اليوسابيين يحرم استفانوس ويعيِّن ليونتيوس ويصدر الماكروستخ Macrostich (القرار المطوَّل).

٣٤٥ **مجمع ميلان** ضد فوتينوس.

موت غريغوريوس الأسقف الدخيل في الإسكندرية.

٣٤٦ مقابلة أثناسيوس في أنطاكية للإمبراطور قسطنطيوس.

عودة أثناسيوس للإسكندرية.

٣٤٧ **مجمع سيرميوم الأول** ضد فوتينوس (نصف أريوسي).

٣٥١ **مجمع سيرميوم الثاني** يحرم فوتينوس، ويصدر قانون سيرميوم الأول (نصف أريوسي) ويوقِّع عليه ليباريوس بابا روما مستذنباً أثناسيوس.

٣٥٣ **مجمع آرل** ضد أثناسيوس (عقده اليوسابيون).

٣٥٥ **مجمع ميلان** ضد أثناسيوس (عقده اليوسابيون).

٣٥٦ سيريانوس في الإسكندرية وبداية المنفى الثالث لأثناسيوس.

٣٥٧ تعيين جورجيوس أسقفاً على الإسكندرية بالقوة.

مجمع سيرميوم الثالث يصدر قانون سيرميوم الثاني (تجديف بوتاميوس وهوسيوس ويوقِّع عليه هوسيوس ولكن يرفض الإمضاء على حرم أثناسيوس). أمَّا ليبيريوس فيوقِّع عليه ويحرم أثناسيوس.

٣٥٨ **مجمع أنقرة** Ancyra من ١٢ أسقفاً (أنصاف الأريوسيين) يوقِّع عليه ليبيريوس!

طرد جورجيوس من الإسكندرية.

٣٥٩ **مجمع سيرميوم الرابع** من أنصاف الأريوسيين، يوقِّع عليه ليبيريوس!

المجمع الثنائي في أريمنم وسلوكيا من الهوموؤوسيين وأنصاف الأريوسيين.

٣٦٠ يوليانوس الإمبراطور.

	مجمع التدشين بالقسطنطينية، يحرم قادة النصف أريوسية، وإيتيوس.
٣٦١	موت قسطنطيوس.
٣٦٢	عودة أثناسيوس إلى كرسيه.
الصيف	**مجمع المعترفين في الإسكندرية.**
	تجديد الحكم ضد أثناسيوس من يوليانوس، وهروب أثناسيوس.
٣٦٣	موت يوليانوس، وعودة أثناسيوس سرًّا إلى الإسكندرية. جوفيان الإمبراطور.
٣٦٤	**مجمع لامبساكوس** (نصف أريوسي).
	موت جوفيان. فالنتينيان في الغرب وفالنس في الشرق.
٣٦٥	تجديد الحكم ضد أثناسيوس والأمر بطرده.
	أثناسيوس يعتزل في بلدته.
٣٦٦	عودة أثناسيوس رسمياً.
٣٧٣	**نياحة القديس أثناسيوس.**

جدول للأباطرة وأساقفة الكراسي الرئيسية والمجامع التي عُقدت في حياة أثناسيوس

سنة ميلادية	الإمبراطور الروماني: في الغرب	الإمبراطور الروماني: في الشرق	أسقف روما	أسقف الإسكندرية	أسقف أنطاكية	أسقف القسطنطينية	المجامع
٣٠١				بطرس خاتم الشهداء			
٣٠٥		جاليريوس					إلليبيريس
٣٠٦	قسطنطين						
٣٠٧		ليسينيوس					
٣٠٨	مكسيمين (٣٠٨-٣١٣)						
٣٠٩			يوسابيوس				
٣١٠			ملكيادس				
٣١٢				أخيلاس			
٣١٣				ألكسندروس			روما
٣١٤			سيلفستر (†٣٣٥)				آرل أنقرة؟
٣١٥							نيوقيصرية؟
٣١٩					فيلوجونيوس		
٣٢٠						ألكسندروس؟	
٣٢١							الإسكندرية
٣٢٣	قسطنطين الإمبراطور الأوحد						

سنة ميلادية	الإمبراطور الروماني في الغرب	الإمبراطور الروماني في الشرق	أسقف روما	أسقف الإسكندرية	أسقف أنطاكية	أسقف القسطنطينية	المجامع
٣٢٤					يوستاثيوس		الإسكندرية
٣٢٥							نيقية
٣٢٨				أثناسيوس			
٣٣٠					باولينوس؟	[اعتبار القسطنطينية روما الجديدة]	أنطاكية (+)
٣٣٢					يولاليوس		
					يوفرونيوس		
٣٣٣					بلاسيتوس		
٣٣٤							قيصرية(+)
٣٣٥							صور وأُورشليم(+)
٣٣٦			مرقس			بولس (†٣٥٠م)	القسطنطينية(+)
٣٣٧	قسطنطين الثاني (†٣٤٠) قسطانس (†٣٥٠)	قسطنطيوس	يوليوس				
٣٣٨				بيستوس(×)			
٣٣٩				غريغوريوس(×)			أنطاكية(+)
٣٤٠							روما غنغرا(+)
٣٤١							أنطاكية(*) (+)
٣٤٢					استفانوس	مكدونيوس (×)	

سنة ميلادية	الإمبراطور الروماني في الغرب	الإمبراطور الروماني في الشرق	أسقف روما	أسقف الإسكندرية	أسقف أنطاكية	أسقف القسطنطينية	المجامع
٣٤٣							ساردیکا فيلبوبوليس(*)
٣٤٤					ليونتيوس		أنطاكية (*)
٣٤٥							ميلان
٣٤٧							سيرمُيم الأول(*)
٣٥٠	قسطانطيوس الإمبراطور الأوحد						
٣٥١							سيرمُيم الثاني(*)
٣٥٢			ليبريوس				
٣٥٣							آرل(*)
٣٥٥							ميلان(*)
٣٥٧			فيلكس (×)	جورجيوس (×)	إفدوكسيوس		سيرميوم الثالث(**)
٣٥٨							أنقرة(٠)
٣٥٩					أنيانوس(×)		سيرمُيوم الرابع(*) أريمينم(*) سلوكيا(*)
٣٦٠						أفدوكسيوس (×)	القسطنطينية(**)
٣٦١	يوليان				ميليتوس يوزويوس (×)		
٣٦٢					بولينوس(×)		الإسكندرية

سنة ميلادية	الإمبراطور الروماني: في الغرب	الإمبراطور الروماني: في الشرق	أسقف روما	أسقف الإسكندرية	أسقف أنطاكية	أسقف القسطنطينية	المجامع
					(انقسام الإيبارشية)		لاودكية؟؟(٠)
٣٦٣	جوفيان						أنطاكية
٣٦٤	فالنتينيان	فالنس					لامبساكوس(٠)
٣٦٦			داماسوس (٣٨٤†)				
٣٦٧			يورسينوس (×)	لوسيوس(*)			تيانا(٠)
٣٧٠						ديموفيلوس (إيفاجريوس)	
٣٧٣				بطرس الثاني			
٣٧٥	جراتيان (٣٨٣†) فالنتينيان الثاني (٣٩٢†)						
٣٧٩		ثيئودوسيوس					

ملحوظة: العلامات الموضوعة أمام المجامع تشير إلى:

(+) المجمع لم يكن أريوسياً أصلاً ولكنه عُقد تحت تأثير يوسابيوس النيقوميدي.

(*) المجمع تورَّط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها (مجمع آرل "٣٥٣" وميلان "٣٥٥" لم يصدر عنهما قوانين).

(**) مجمع أريوسي من بدايته.

(٠) مجمع نصف أريوسي.

(×) أريوسي.

ولاة وحكّام مصر وهي تحت الاحتلال الروماني أثناء حياة أثناسيوس

فترة الولاية	اسم الوالي أو الحاكم	فترة الولاية	اسم الوالي أو الحاكم
٣٢٨-٣٢٩	سبتيموس زينيوس Septimius Zenius	٣٥٦-٣٥٧	(وصل في ١٠ يونيو سنة ٣٥٦م) كاتافرونيوس Cataphronius
٣٣٠	ماجننيانوس Magninianus	٣٥٧-٣٥٩	بارناسيوس Parnassius
٣٣١	هيجينوس أو يوجنيوس Hyginus or Eugenius	٣٥٩	إيتاليسيانوس الإيطالي (لمدة ٣ شهور) Italicianus of Italy
٣٣٣	باترنس Paternus	٣٥٩-٣٦١	فاوستينوس Faustinus
٣٣٤-٣٣٥	باترنس Paternus ثم فيلاجريوس Philagrius	٣٦١-٣٦٢	جيرونتيوس Gerontius
٣٣٦-٣٣٧	فيلاجريوس Philagrius	٣٦٢-٣٦٣	إكديكيوس أولمبوس Ecdikius Olympus
٣٣٨	ثيئودوروس Theodorus وبعده فيلاجريوس	٣٦٤	ييريوس أو إيريوس Hierius or Aerius
٣٣٩-٣٤٠	فيلاجريوس Philagrius	٣٦٤	مكسيموس Maximus
٣٤١-٣٤٣	لونجينوس Longinus	٣٦٤-٣٦٦	فلافيانوس Flavianus
٣٤٤	بالليديوس الإيطالي Palladius of Italy	٣٦٦-٣٦٧	بروكليانوس Proclianus
٣٤٥-٣٥٢	نسطوريوس الغزّاوي Nestorius of Gaza	٣٦٧-٣٧٠	تاتيانوس Tatianus
٣٥٣-٣٥٤	سباستيانوس التراقي Sebastianus of Thrace	٣٧٠-٣٧١	أولمبيوس بالليديوس Olympius Palladius
٣٥٥-٣٥٦	مكسيموس الكبير النيقاوي Maximus "the elder" of Nicaea	٣٧١-٣٧٣	إليوس بالليديوس Aelius Palladius

قادة الجيوش الرومانية الذين باشروا احتلال مصر أثناء حياة أثناسيوس

سنة الاحتلال	اسم القائد الروماني	
٣٤٠-٣٤٥	بالاشيوس	Valacius or Balacius
٣٥٠	فليكسيموس	Pheliccimus
يناير وفبراير ٣٥٦	سيريانوس	Syrianus
بعد منتصف صيف ٣٥٦	سباستيانوس	Sebastianus
٣٦٠	أرطاميوس	Artemius
٣٦٥-٣٦٦	فيكتورينوس	Victorinus
٣٦٧-٣٦٨	تريانوس	Traianus

كتابات القديس أثناسيوس

هذه قائمة شاملة لكتاباته مرتّبة زمنياً، والرقم يشير إلى تاريخ كتابتها:

(١) سنة ٣١٨ كتابان: ضد الوثنيين Contra Gentes
: تجسُّد الكلمة De Incarnatione Verbi Dei
(٢) سنة ٣٢١-٣٢٢ منشور عزل أريوس Depositio Arii
(٣) سنة ٣٢٨-٣٧٣ الرسائل الفصحية (راجع فهرس الرسائل الفصحية).
(٤) سنة ٣٢٨-٣٣٥ شرح الإيمان Expositio Fidei
(٥) سنة ٣٣٥ على الآية: «كل شيء دُفع إليَّ من أبـي» (لـو ١٠:٢٢، مـت ١١:٢٧) In Illud Omnia
(٦) سنة ٣٣٩ خطاب دوري لأساقفة المسكونة Encyclica ad Episcopos ecclesiae catholicae
(٧) سنة ٣٤٣ رسالتان من مجمع سرديقا (حالياً صوفيا عاصمة بلغاريا في البلقان).
(٨) سنة ٣٥١ احتجاج ضد الأريوسيين Apologia contra Arianos
(٩) سنة ٣٥٢ دفاع عن مجمع نيقية De Decretis Concilii Nicaeni ومذيَّل برسالة يوسابيوس القيصري لرعيته أرسلها سنة ٣٢٥.
(١٠) سنة ٣٥٢ شرح رأي البابا ديونيسيوس الكبير بطريرك الإسكندرية De Sententia Dionysii
(١١) سنة ٣٥٠-٣٥٣ رسالة إلى أنبا أمون من آباء نتريا Ad Amun
(١٢) سنة ٣٥٤ رسالة إلى دراكونتيوس أسقف هرموبوليس بارفا (دمنهور حالياً) Ad Dracontium
(١٣) سنة ٣٥٦-٣٦٢ حياة القديس أنطونيوس Vita Antonii
(١٤) سنة ٣٥٦ رسالة إلى أساقفة مصر وليبيا Epistola ad Episcop. Aegypti et Libyae
(١٥) سنة ٣٥٦-٣٥٧ الدفاع المقدَّم للإمبراطور قنسطنطيوس Apologia ad Constantium
(١٦) سنة ٣٥٧ دفاع عن هروبه Apologia de Fuga
(١٧) سنة ٣٥٨ الرسالة إلى سيرابيون عن موت أريوس Epist. ad Serapionem de Morte Arii
(١٨) سنة ٣٥٨ رسالتان إلى الرهبان Ad Monachos
(١٩) سنة ٣٥٨ تاريخ الأريوسية Historia Arianorum ad Monachos

(٢٠) سنة ٣٥٨ أربع مقالات ضد الأريوسيين Orationes ad Arianos IV

(٢١) سنة ٣٥٩ رسالتان إلى لوسيفر أسقف كالاريس في سردينيا (نُفي إلى صعيد مصر) Ad Luciferum

(٢٢) سنة ٣٥٩ أربع رسائل إلى سيرابيون أسقف طمويه (تمي الأمديد حالياً) في دلتا مصر Ad Serapionem Orationes IV

(٢٣) سنة ٣٥٩-٣٦٠ على مجمع أريميني ومجمع سلوكية De Synodius Arimini et Seleuciae celebratis

(٢٤) سنة ٣٦٢ خطاب مجمعي إلى كنيسة أنطاكية Tomus ad Antiochenos

(٢٥) سنة ٣٦٢ مقالة في تحديد العقائد Syntagma Doctrinae

(٢٦) سنة ٣٦٢ رسالة إلى روفينيانوس Ad Rufinianum

(٢٧) سنة ٣٦٣-٣٦٤ رسالة إلى الإمبراطور جوفيان Ad Juvianum

(٢٨) سنة ٣٦٤ رسالتان قصيرتان إلى الأب أورسيسيوس رئيس دير طبانسين في صعيد مصر Ad Orsisium

(٢٩) سنة ٣٦٩ خطاب مجمعي إلى أساقفة إفريقيا من أساقفة مصر وليبيا ومعهم أثناسيوس Ad Afros Epistola Synodica

(٣٠) سنة ٣٦٩ أيضاً: رسالة إلى إبيكتاتوس أسقف كورنثوس Ad Epictatus

(٣١) سنة ٣٦٩ أيضاً: رسالتان: الأُولى إلى أدلفيوس المعترف أسقف أونوفيس Ad Adelphium
والثانية إلى مكسيموس فيلسوف كلبي إسكندراني Ad Maximus

(٣٢) سنة ٣٦٣-٣٧٢ رسالة إلى ديودورس أسقف صور Ad Diodorus

(٣٣) سنة ٣٧٢ رسالة إلى يوحنا وأنطيوخس (الذي صار أسقفاً في ما بعد على بتولمايس) Ad Joannem et Antiochum

سنة ٣٧٢ أيضاً: رسالة إلى بالليديوس كاهن مقيم في قيصرية فلسطين Ad Palladius

(٣٤) سنة ٣٧٢ كتابان ضد أتباع أبولليناريوس Contra Apollinarium

أمَّا باقي كتاباته التي لم يتوصَّل العلماء بعد إلى تحديد زمن كتابتها فيمكن تقسيمها إلى مجموعات هكذا:

أولاً: عقائدية ـ تعليمية:

(٣٥) عن الثالوث والروح القدس De Trinitate et Spiritu Sancto

وهو معروف في ترجمته اللاتينية فقط. ولكن واضح أنها مأخوذة عن أصل يوناني، ويرجع البعض كتابته عام ٣٦٥.

(٣٦) التجسُّد وضد الأريوسيين De Incarnatione et Contra Arianos

في حقيقته هو إثبات ألوهية المسيح من الكتاب المقدَّس أساساً، ثم الاستطراد إلى الروح القدس. و لم يُتفق على صحة نسبته إلى أثناسيوس.

(٣٧) العظة الكبرى عن الإيمان Sermo Maior de Fide

وعنه يقول الأسقف نيومان، العالِم الآبائي الإنجليزي في القرن الماضي، إنه تجميع من أعمال أثناسيوس ولذلك لم يعترف العلماء بنسبته الأصلية لأثناسيوس.

(٣٨) مقتطفات ضد بولس الساموساطي (بطريرك أنطاكية في القرن الثالث الذي حكمت المجامع بتجريده وعزله لهرطقته)، وقد اتُّفق على صحة نسبتها إلى أثناسيوس.

وباقي المقتطفات التي ضد مكدونيوس (المسمَّى عدو الروح القدس) ونوفاتيان وقد صعب على العلماء تقرير صحة نسبتها إليه.

(٣٩) تفسير الرموز Interpretatio Symboli وقد ثبت أنه تعديل لقانون المعمَّدين الذي وضعه إبيفانيوس أسقف قبرس المصري سنة ٣٧٢ ولذلك يحتمل أن أصله من الإسكندرية، لذلك يرجح العلماء أن واضعه هو أنبا بطرس الثاني أو ثيوفيلس من بطاركة الإسكندرية سنة ٣٨٠.

(٤٠) تجسُّد كلمة الله De Incarnatione Verbi Dei وقد رجع إليه القديس كيرلس الكبير في عبارته المشهورة:

طبيعة واحدة متجسِّدة لله الكلمة

μία φύσις τοῦ Θεοῦ Λόγου σεσαπκωμένη

ثانياً: تفسيرية:

(٤١) إلى مارسللينوس على تفسير المزامير Ad Marcellinum de Interpretatione Psalmorum

وهو مقال تقوي عميق عن استعمال المزامير في الصلاة، ويؤكِّد شيوع استعمالها لأنها تجمع في إيجاز روح أسفار الكتاب المقدَّس كله مع تطبيقها للاحتياجات الروحية لكل نفس تحت مختلف الظروف. ويقول إن ترتيل المزامير ليس بقصد تأثيرها الموسيقي بل ليتمكَّن المصلّي من التأمُّل الهادئ في معانيها.

(٤٢) شروحات على المزامير Expositiones in Psalmos مع مقدِّمة يشير فيها إلى ترتيب المزامير

العبرية وتقسيمها إلى ٥ كتب، ويُرجع عدم تنظيمهـا إلى الاعتقـاد أنـه خـلال سبي الشـعب اليهودي جَمَعَ أحد الأنبياء بقدر استطاعته الأسفار المقدَّسة التي فقدت ترتيبها بسبب إهمـال اليهود. أمَّا الأجزاء التي فيها اللعنات فهي تنطبق على أعدائنا الروحيين.

وفي هذه الشـروحات يتقـدَّم كـل مزمـور تمهيـد يبيِّـن موضوعـه العـام. وكذلـك يرجـع أثناسيوس عَرَضاً إلى الترجمات اليونانية الأخرى مثل ترجمة أكويلا وثيودوشن وسيماخوس.

(٤٣) أجزاء متناثرة على إنجيل متى Fragmenta in Evang. Matthaei، وفيها ملاحظة هامة عن الإفخارستيا (علـى متـى ٧:٦). ويبـدو أن هـذه المتفرِّقـات مـأخوذة مـن مواعـظ وتفاسـير لأثناسيوس ومجمَّعة في أقوال مستقلة.

(٤٤) متفرِّقات على إنجيل لوقـا Fragmenta in Lucam وفي نهايتهـا يشـرح أثناسـيوس حـدود المعونة التي تقدِّمها الصلاة على المتقلين.

ثالثاً: النسكيات:

(٤٥) على البتولية De Virginitate ويؤكِّد البعض صحة نسبته إليه والبعض الآخر ينفي ذلك.

رابعاً: كتابات ضائعة:

وهي ما جاء ذكرها في كتاباته، أو ذكرها المؤرِّخون القريبون من عصره مثـل المـؤرِّخ سـقراط. مثال ذلك خطاب حرَّره لتعزية العذارى اللواتي أساء معاملتهن جورجيوس الوالي الأريوسي، وجـاء عنـه في تـاريخ الكنيسـة لثيودوريـت (*H. E.* ii, 14)، ويقتبـس منـه أن الأريوسـيين لم يسـمحوا للعذارى بالدفن في سلام بل "كانوا جالسين حول المقابر كالأبالسة ليمنعوهنَّ".

وأهم أعماله الضائعة رسائله الفصحية الناقصة ومراسلاته مع القديس باسيليوس الكبير.

وكان الاهتمام شديد في القرن السادس بجمع كتاباته بأي وسيلة، حتى أن قزمان أحد رؤساء الأديرة كان ينصح الإنسان بأن ينسخ في الحال أي شيء يصادفه من أعمال أثناسيوس، وإذا لم يتيسَّر له ما يكتبه عليه فليكن ذلك على ملابسه. وهذا يعلِّل كثرة الأعمال الجزئيـة الـتي لأنبـا أثناسـيوس والـتي تدخل ضمن سلسلة "مقتطفات آباء الكنيسة" في الغرب المسمَّاة السلاسل الذهبية Catena Aurea.

وكذلك تسبب هذا في وجود كثير من الكتابات المدسوسة عليه، أهمها ما يسمَّى بقـانون إيمـان أثناسيوس الذي مازال مصدره قيد البحث.

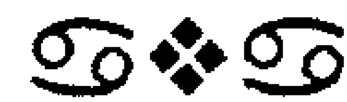
جدول الرسائل الفصحية للقديس أثناسيوس وما لازمها من أحداث وحُكّام

رقم الرسالة	السنة القبطية	السنة الميلادية	عيد الفصح (القيامة) قبطي	عيد الفصح (القيامة) ميلادي	الإمبراطور	حاكم مصر	أهم الأحداث
١	٤٥	٣٢٩	١١ برمودة	٦ أبريل	قسطنطين الكبير	زينوس الإيطالي	أول رسالة بعد رسامته في ١٤ بؤونة ٤٤ ش.
٢	٤٦	٣٣٠	٢٤ برمودة	١٩ أبريل	قسطنطين الكبير	ماجنيانوس الكبادوكي	في هذه السنة سافر إلى طيبة.
٣	٤٧	٣٣١	١٦ برمودة	١١ أبريل	قسطنطين الكبير	هيجينوس الإيطالي	أرسلها أثناء رحلة عودته بعد مقابلة قسطنطين.
٤	٤٨	٣٣٢	٧ برمودة	٢ أبريل	قسطنطين الكبير	هيجينوس الإيطالي	في هذه السنة ذهب إلى الخمس مدن الغربية.
٥	٤٩	٣٣٣	٢٠ برمودة	١٥ أبريل	قسطنطين الكبير	باتيرنوس	ذهب إلى الوجه البحري، ورفض حضور مجمع في قيصرية فلسطين عقده أعداؤه لمحاكمته.
٦	٥٠	٣٣٤	١٢ برمودة	٧ أبريل	قسطنطين الكبير	باتيرنوس	
٧	٥١	٣٣٥	٤ برمودة	٣٠ مارس	قسطنطين الكبير	باتيرنوس	
لم يكتب الرسالة	٥٢	٣٣٦	٢٣ برمودة	١٨ أبريل	قسطنطين الكبير	فيلاجريوس الكبادوكي	حضر مجمع صور الذي عقده أعداؤه، ثم هرب إلى القسطنطينية وقابل قسطنطين وكلّمه بصراحة، ولكن الإمبراطور تغيَّر بعد ذلك فجأة وحكم بنفيه إلى فرنسا، حيث اتجه إلى هناك في ١١ هاتور.
لم يكتب الرسالة	٥٣	٣٣٧	٨ برمودة	٣ أبريل	قسطنطين الكبير	فيلاجريوس الكبادوكي	كان في تريفري بفرنسا.
١٠	٥٤	٣٣٨	٣٠ برمهات	٢٦ مارس	قسطانس	ثيودوروس	مات قسطنطين في ٢٧ بشنس، عودة أثناسيوس في ٢٧ هاتور من السنة التالية.
١١	٥٥	٣٣٩	٢٠ برمودة	١٥ أبريل	قسطنطيوس	فيلاجريوس الكبادوكي	هوجم في كنيسة ثيوناس مساء ٢٢ برمهات، وهرب في اليوم الثاني وبعد أربعة أيام اقتحم غريغوريوس الكبادوكي المدينة باعتباره أسقفاً للإسكندرية.
لم يكتب الرسالة	٥٦	٣٤٠	٤ برمودة	٣٠ مارس	قسطنطيوس	فيلاجريوس الكبادوكي	استمرار غريغوريوس في أعمال عنفه، الأريوسيون يخطئون في تحديد عيد الفصح، ثم

رقم الرسالة	السنة القبطية	السنة الميلادية	عيد الفصح (القيامة) قبطي	عيد الفصح (القيامة) ميلادي	الإمبراطور	حاكم مصر	أهم الأحداث
							يتنبهون في منتصف الصوم!! أثناسيوس يكتب لكهنة الإسكندرية لملاحظة ذلك.
لم يكتب الرسالة	٥٧	٣٤١	٢٤ برمودة	١٩ أبريل	قسطنطيوس	لونجينوس النيقي	استمرار غريغوريوس في أعمال عنفه، رغم مرضه.
لم يكتب الرسالة	٥٨	٣٤٢	١٦ برمودة	١١ أبريل	قسطنطيوس	لونجينوس النيقي	غريغوريوس في أشد حالات مرضه.
١٥	٥٩	٣٤٣	١ برمودة	٢٧ مارس	قسطنطيوس	لونجينوس النيقي	عقد مجمع سارديكا، الكتابة لأثناسيوس بسحب قرار حرمانهم، وإصدار لائحة بخصوص عيد الفصح.
١٥	٦٠	٣٤٤	٢٠ برمودة	١٥ أبريل	قسطنطيوس	باليديوس الإيطالي	كتب كلمات قليلة - أثناء عودته من نيصص بعد حضوره المجمع - لكهنة الإسكندرية فقط.
١٧	٦١	٣٤٥	١٢ برمودة	٧ أبريل	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	سافر إلى أكويلا وأمضى العيد هناك، لذلك كتب كلمات قليلة لكهنة الإسكندرية فقط.
١٨	٦٢	٣٤٦	٤ برمودة	٣٠ مارس	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	موت غريغوريوس - عودة أثناسيوس واستقباله بحفاوة عظيمة.
١٩	٦٣	٣٤٧	١٧ برمودة	١٢ أبريل	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	كتب الرسالة من الإسكندرية ولذلك ضمَّنها أشياء لاحظها و لم يكن في استطاعته ملاحظتها من قبل.
٢٠	٦٤	٣٤٨	٨ برمودة	٣ أبريل	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	كتب الرسالة من الإسكندرية أيضا.
٢١	٦٥	٣٤٩	٣٠ برمهات	٢٦ مارس	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	كتب الرسالة من الإسكندرية.
٢٢	٦٦	٣٥٠	١٣ برمودة	٨ أبريل	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	قتل قسطانس، قسطنطيوس الإمبراطور الأوحد يكتب لأثناسيوس ليطمئنه.
٢٣	٦٧	٣٥١	٥ برمودة	٣١ مارس	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	
٢٤	٦٨	٣٥٢	٢٤ برمودة	١٩ أبريل	قسطنطيوس	نسطوريوس من غزة	جاللوس قيصراً باسم قسطنطيوس الثاني.
٢٥	٦٩	٣٥٣	١٦ برمودة	١١ أبريل	قسطنطيوس	سبستيانوس من كريت	إرسال بعثة سيرابيون أسقف تمي ومَنْ معه إلى قسطنطيوس لإحباط مؤامرات الأعداء

رقم الرسالة	السنة القبطية	السنة الميلادية	عيد الفصح (القيامة) قبطي	عيد الفصح (القيامة) ميلادي	الإمبراطور	حاكم مصر	أهم الأحداث
							ولكن دون جدوى.
٢٦	٧٠	٣٥٤	١ برمودة	٢٧ مارس	قسطنطيوس	سباستيانوس من كريت	قسطانتيوس الثالث قيصراً.
٢٧	٧١	٣٥٥	٢١ برمودة	١٦ أبريل	قسطنطيوس	مكسيموس الشيخ من نيقية	ديوجنيس سكرتير الإمبراطور يدخل المدينة بقصد القبض على أثناسيوس، ولكنه لا يفلح.
٢٨	٧٢	٣٥٦	١٢ برمودة	٧ أبريل	قسطنطيوس	مكسيموس ثم كتافرونيوس	محاولة القائد سيريانوس القبض على أثناسيوس ولكنه هرب بمعجزة.
لم يكتب الرسالة	٧٣	٣٥٧	٢٧ برمهات	٢٣ مارس	قسطنطيوس	كتافرونيوس ثم بارناسيوس	جورجيوس يدخل المدينة في ١٣ أمشير بقسوة شديدة ويبحث عن أثناسيوس ولا يجده.
لم يكتب الرسالة	٧٤	٣٥٨	١٧ برمودة	١٢ أبريل	قسطنطيوس	باريوس من كورنثوس	أثناسيوس يبقى في الإسكندرية متخفياً، جورجيوس يطرده الشعب في ٥ بابة من البلاد.
لم يكتب الرسالة	٧٥	٣٥٩	٩ برمودة	٤ أبريل	قسطنطيوس	باريوس ثم إيتاليكيانوس الإيطالي ثم فوستينوس الخلقيدوني	أثناسيوس مازال مختفياً في الإسكندرية.
لم يكتب الرسالة	٧٦	٣٦٠	٢٨ برمودة	٢٣ أبريل	قسطنطيوس	,,	أثناسيوس مازال مختفياً في الإسكندرية.
لم يكتب الرسالة	٧٧	٣٦١	١٣ برمودة	٨ أبريل	قسطنطيوس	فوستينوس ثم جيرونتيوس الأرمني	مات قسطنطيوس، وتوقّف اضطهاد الأرثوذكس، ولكنه لم يستطع كتابة الرسالة أيضاً.
٣٤	٧٨	٣٦٢	٥ برمودة	٣١ مارس	قسطنطيوس	جيرونتيوس ثم أوليمبوس الطرسوسي	عودة أثناسيوس إلى كرسيه بناء على صفح يوليانوس.

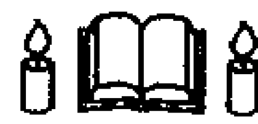
رقم الرسالة	السنة		عيد الفصح (القيامة)		الإمبراطور	حاكم مصر	أهم الأحداث
	القبطية	الميلادية	قبطي	ميلادي			
٣٥	٧٩	٣٦٣	٢٥ برمودة	٢٠ أبريل	جوفيان	أوليمبوس الطرسوسي	أثناسيوس يترك المدينة على أثر تهديده متجهاً إلى الصعيد ويعود بعد ٨ شهور سراً بعد علمه بموت يوليانوس ثم يسافر إلى هيرابوليس لمقابلة جوفيان.
٣٦	٨٠	٣٦٤	٩ برمودة	٤ أبريل	فالنتينيان فالنس	إيريوس - مكسيموس ثم فلافيانوس	عودة البابا إلى الإسكندرية في ٢٥ أمشير.
٣٧	٨١	٣٦٥	١ برمودة	٢٧ مارس	فالنتينيان فالنس	فلافيانوس	حدوث زلزال في ٢٧ أبيب دمَّر بلاداً كثيرة.
٣٨	٨٢	٣٦٦	٢١ برمودة	١٦ أبريل	فالنتينيان فالنس	فلافيانوس ثم بروكليانوس	الوثنيون بالإسكندرية يحرقون السيزاريوم، وينتج عن ذلك معاقبة المدينة كلها، وتعيين بروكليانوس.
٣٩	٨٣	٣٦٧	٦ برمودة	١ أبريل	فالنتينيان فالنس	بروكليانوس ثم تاتيانوس	في هذه السنة كتب أثناسيوس قانون الأسفار المقدَّسة.
٤٠	٨٤	٣٦٨	٢٥ برمودة	٢٠ أبريل	فالنتينيان فالنس	تاتيانوس	بدأ أثناسيوس بناء السيزاريوم، بعد اكتشافه لمثيري الفتنة. في الحال أزال بقايا الحريق، ورمَّم الصرح في شهر بشنس.
٤١	٨٥	٣٦٩	١٧ برمودة	١٢ أبريل	فالنتينيان فالنس	تاتيانوس	بدأ البابا بناء الكنيسة التي تحمل اسمه في "مينديوم" في ٢٥ توت.
٤٢	٨٦	٣٧٠	٢ برمودة	٢٨ مارس	جوفيان	تاتيانوس ثم أوليمبيوس	انتهى البابا من بناء الكنيسة؛ وكرَّسها في ١٤ مسرى.
٤٣	٨٧	٣٧١	٢٢ برمودة	١٧ أبريل	جوفيان	أوليمبيوس ثم إيليوس	
٤٤	٨٨	٣٧٢	١٣ برمودة	٨ أبريل	جوفيان	أوليمبيوس ثم إيليوس	
٤٥	٨٩	٣٧٣	٥ برمودة	٣١ مارس	جوفيان	أوليمبيوس ثم إيليوس	**في هذه السنة تنيَّح البابا القديس أثناسيوس في السابع من بؤونة.**



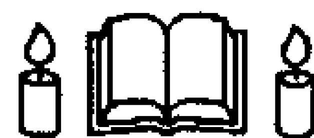
فهارس الكتاب

فهرس بأسماء الشخصيات

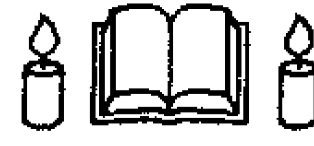
التي ورد ذكرها في سيرة القديس أثناسيوس



فهرس بأسماء البلاد والمواقع والتجمعات الرهبانية



فهرس موضوعي
للقسم اللاهوتي من الكتاب



التعبيرات اللاهوتية

التعبيرات اليونانية

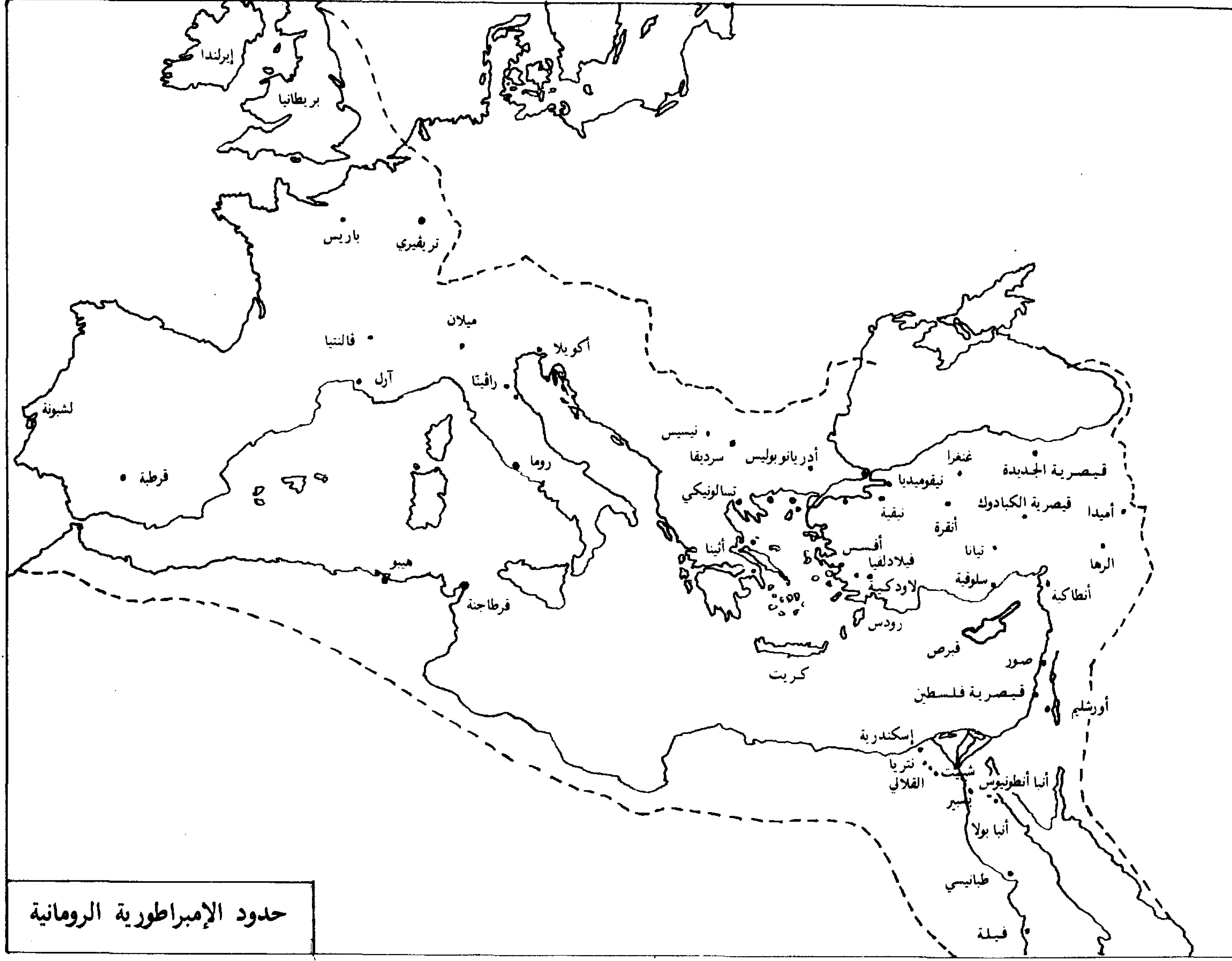
التعبير العربي	التعبير اليوناني	صفحة
غير مخلوق	ἀγένητος	٤٢٥
غير مولود	ἀγέννητος	٤٢٧
غير مخلوق	ἄναρχον	٤٤٨
أبوَّة	ἀρχή	٤٦٨
مخلوق	γέννητος	٤٢٥
بنوَّة	γέννημα	٤٦٨
إله متأنّس	Θεάνθρωπος	٤٥٤
مولود	γέννητος	٤٢٥
أقنوم ـ هيئة	εἶδος	٤٢٢
صورة	εἰκών	٤٢٢
وحدة لا تتجزَّأ ولا تنقسم	μονάς	٤٦٧
وحيد الجنس	μονογενής	٤٢٥
مساوي في الجوهر	ὁμοούσιος	راجع الفهرس
جوهر ـ الكيان الذاتي	οὐσία	٤١٧
شخص	πρόσωπον	٤١٠
البكر	πρωτότοκος	٤٢٥
أقنوم	ὑπόστασις	٤١٧
جسد (مرادف لإنسان)	σῶμα	٥٤٣
جسد (مرادف لإنسان)	σάρξ	٥٤٣
هيأة	τρόπος	٤١٢
طبيعة	φύσις	٤١٩

التعبيرات اللاتينية

التعبير العربي	اللاتيني	صفحة
جوهر	Essentia	٤١٧
طبيعة	Natura	٤١٢
جوهر	Substantia	٤١٠

الخرائط

خريطة رقم ١



حدود الإمبراطورية الرومانية
إيرلندا
بريطانيا
باريس
تريفيري
ميلان
فالنتيا
آرل
أكويلا
رافنا
لشبونة
قرطبة
روما
هيبو
قرطاجنة
نيسيس
سرديقا
أدريانوبوليس
تسالونيكي
أثينا
غنغرا
نيقوميديا
قيصرية الجديدة
قيصرية الكبادوك
نيقية
أنقرة
أميدا
أفسس
فيلادلفيا
تيانا
الرها
لاودكية
سلوقية
أنطاكية
رودس
قبرص
كريت
صور
قيصرية فلسطين
أورشليم
إسكندرية
نتريا
شيت
القلالي
أنبا أنطونيوس
بسبير
أنبا بولا
طبانيسي
فيلة

تعليق خريطة ١و٢
(حدود الإمبراطورية الرومانية وولايتها في القرن الرابع)

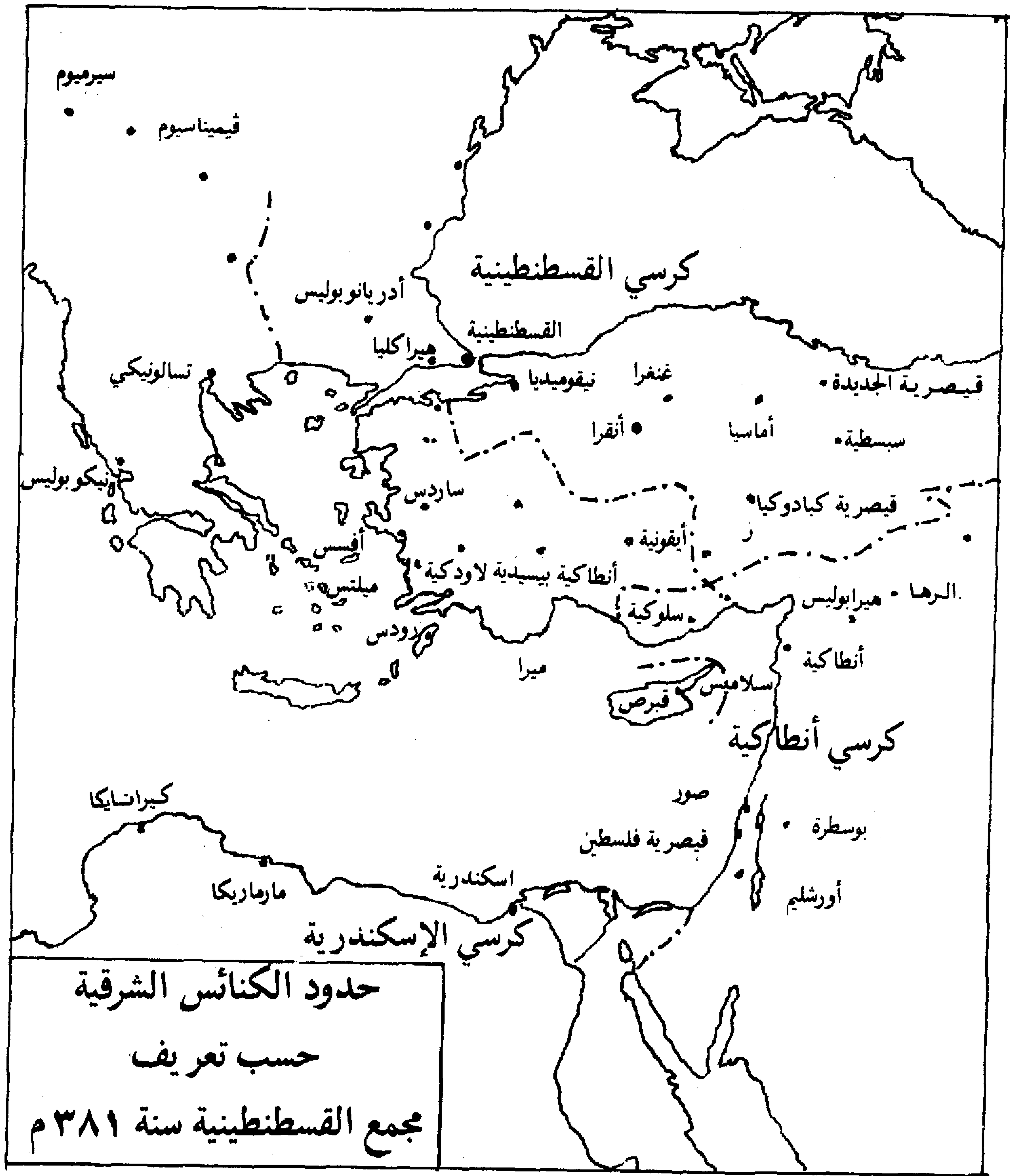
الاسم القديم	الاسم والموقع الحالي
تريفيري	تريف في بلجيكا
فالنتيا	فالنس في فرنسا
آرل	آرل في مقاطعة Bouches du Rhône في فرنسا
نيسس	نيس في يوجوسلافيا
سرديقا	صوفيا عاصمة بلغاريا
أدريانوبوليس (أدريانوبل)	أدرنة في تركيا الأوروبية
قيصرية الجديدة (آسيا)	نكسار في شمال تركيا
غانغرا	كانكريري في تركيا
نيقوميديا	إزميد في تركيا
أميدا	ديار بكر على نهر الفرات جنوب شرق تركيا
أنقرا	أنقرة عاصمة تركيا
الرها	عرفة في شمال العراق
أنطاكية	الأنطاكية على نهر أورنتوس شمال سوريا
سلوكية	سيلفكي - جنوب غرب تركيا
لاودكية (آسيا)	سكيحيصار جنوب غرب تركيا
فيلادلفيا (آسيا)	الأصاهير غرب تركيا
أفسس	آيه سلوق غرب تركيا
نيقية	إزنيق شمال تركيا
سيرميوم	سريمسكا متروفيكا في يوغوسلافيا
مورسا	إزبك في المجر

ولايات الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع

I	بريطانيا	II	أسبانيا	III	الغال
IV	السبع مقاطعات	V	إيطاليا الشمالية	VI	إيطاليا الجنوبية
VII	أفريقيا	VIII	بانونيا	IX	داسيا
X	مقدونيا	XI	تراقيا	XII	آسيا
XIII	بنطس	XIV	الشرق	XV	مصر

أيرلندة
I بريطانيا
III الغال
رايمي
بواتييه
IV السبع مقاطعات
آرل
II أسبانيا
لشبونة
إلفيرا
V إيطاليا الشمالية
ميلان
رافنا
أكويليا
VIII بانونيا
موروسا
سيرميوم
VI إيطاليا الجنوبية
روما
كورسيكا
IX داسيا
XI تراقيا
X مقدونيا
القسطنطينية
نيقوميديا
خلقيدونية
نيقية
XII آسيا
XIII بنطس
غنغرا
قيصرية
أرمينيا
ساموساطة
الرها
أنطاكية
XIV الشرق
دمشق
أورشليم
موريتانيا
VII أفريقيا
هيبو
قرطاجة
تاغستا
القيروان
بتولمايس
الإسكندرية
طموية
نتريا
شيهيت
XV مصر
البهنسا
ليكوبوليس
تابنيسي

خريطة رقم ٣

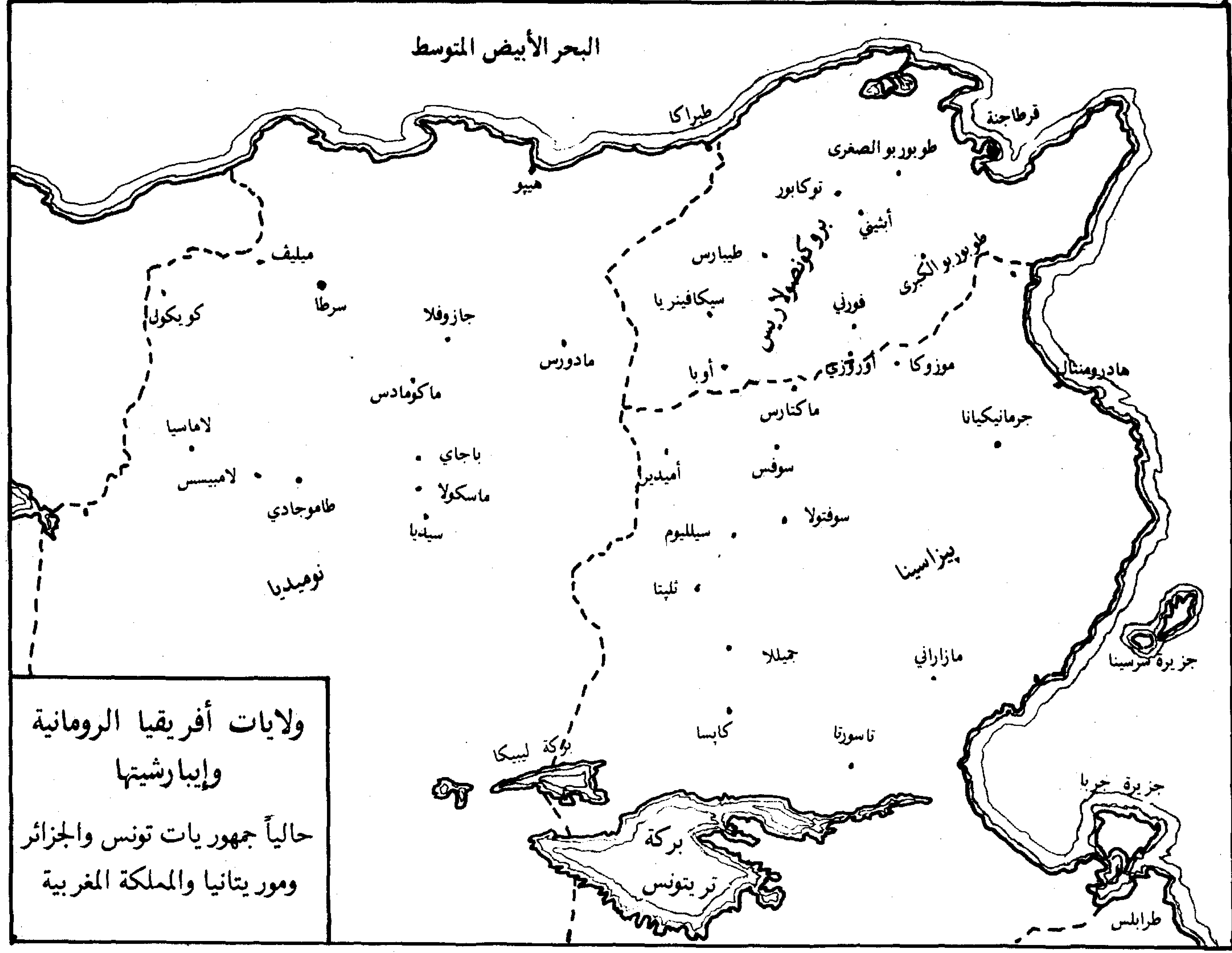


خريطة رقم ٣: حدود الكنائس الشرقية

مارماريكا	إقليم ليبيا السفلي (شرق ليبيا).
كيرانايكا	إقليم ليبيا العليا (غرب ليبيا).
بوسطرة	بُصْرَه في حوران شرق الأردن.
هيرابوليس	منبج في شمال سوريا.
سبسطية	سيڤاس في أرمينيا التركية.

أماسيا	عماسيا في تركيا.
هيراكليا	بيت أولج (أو «موناستير») في تركيا الأوروبية.
أيقونية	قونية في تركيا.
ميرا	دمري على ساحل تركيا الجنوبي

خريطة رقم ٤



ولايات أفريقيا الرومانية
وإيبارشيتها
حالياً جمهوريات تونس والجزائر
وموريتانيا والمملكة المغربية
البحر الأبيض المتوسط
قرطاجنة
طبراكا
هيبو
طوبوربو الصغرى
توكابور
أبثيني
طيبارس
بروكونصولاريس
طوبوربو الكبرى
سيكافينريا
فورني
أوبا
أوروزي
موزوكا
هادرومنتا
ماكتارس
جرمانيكيانا
ميليف
سرطا
كويكول
جازوفلا
مادورس
ماكومادس
لاماسيا
لامبيسس
طاموجادي
باجاي
ماسكولا
سيديا
نوميديا
أميديرا
سوفس
سوفتولا
سيلليوم
بيزاسينا
ثليبتا
جيللا
مازاراني
جزيرة سرسينا
كابسا
تاسورتا
بركة ليبيكا
بركة
تريتونس
جزيرة جربا
طرابلس

تعليق خريطة ٤
(ولايات أفريقيا وإيبارشياتها في القرن الرابع)

ولايات: بروكونصولاريس - بيزاسينا - نوميديا

كنائس أفريقية:

هادروميتام .... سوسّ في تونس

قرطاجنة .... آثارها قرب مدينة القيروان في تونس

أبتونجا .... هبشير الثوار - تونس

سيكا - فينريا .... الكف (بين تونس والجزائر)

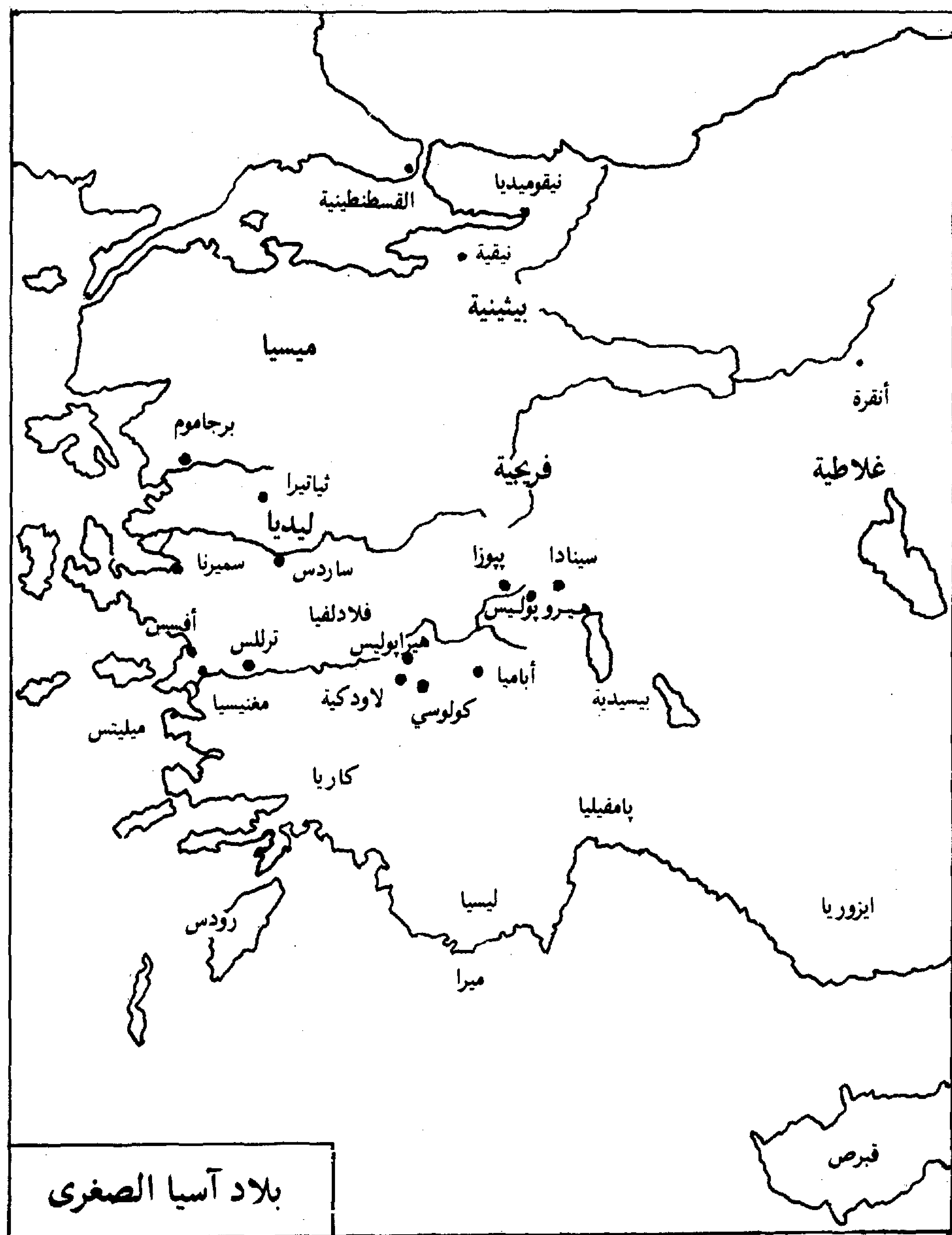
هيبو .... آثارها بجوار بونا على ساحل الجزائر

تاغسطا .... مدينة سوق أهراس في الجزائر

سيرتا.. مدينة قسطنطينية في الجزائر

ميليو .... مدينة ميلا في الجزائر

خريطة رقم ٥



القسطنطينية
نيقوميديا
نيقية
بيثينية
ميسيا
أنقرة
برجاموم
ثياتيرا
فريجية
غلاطية
ليديا
سميرنا
ساردس
بيوزا
سينادا
فلادلفيا
هيروبوليس
أفسس
تراللس
هيرابوليس
أباميا
لاودكية
كولوسي
مغنيسيا
بيسيدية
ميليتس
كاريا
بامفيليا
ليسيا
ايزوريا
رودس
ميرا
قبرص
بلاد آسيا الصغرى

تعليق خريطة رقم ٥
بلاد آسيا الصغرى

نيقوميديا: اسمها الحالي: "أزميد" عاصمة بيثينية

القسطنطينية: بيزنطة سابقاً ـ اسمها الحالي "اسطنبول" ـ عُقد فيها المجمع المسكوني الثاني عام ٣٨١

نيقية: اسمها الحالي "أزنيق" ـ في بيثينية ـ عُقد بها المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥

أنقرة: عاصمة غلاطية ـ عُقد بها مجمع مكاني عام ٣١٤و٣٥٨ للنصف أريوسي برئاسة أسقفها باسيليوس

غلاطية: مقاطعة في آسيا الصغرى وهي الآن جزء من تركيا. أرسل القديس بولس لأهلها المؤمنين رسالة حوالي عام ٥٢

برجاموم: اسمها الحالي "برجاما"، غرب تركيا في مقاطعة آسيا. ذُكرت في سفر الرؤيا ١١:١، ٢:١٢-١٧ كانت مدينة هامة ومركزاً للحكم الروماني

ثياتيرا: اسمها الحالي "آخيسار" وبها عدد قليل من المسيحيين ـ ذُكرت في سفر الرؤيا ١١:١، ٢:١٨-١٩ أسقفها "سوزون" اشترك في مجمع نيقية عام ٣٢٥م.

سميرنا: "أزمير" في تركيا الآن، ميناء في غرب تركيا. دخل إليها الإنجيل مبكّراً. كانت لها رسالة في سفر الرؤيا ٢:٨-١١. من مشاهير أساقفتها القديس بوليكاربوس الذي كان أحد تلاميذ يوحنا الرسول

ساردس: إحدى المدن السبع في آسيا التي وجَّه الله لها رسالة في سفر الرؤيا ٣:١-٦.

فيلادلفيا: الآن "الأصاهير" في غرب تركيا. وهي إحدى المدن السبع المذكورة في سفر الرؤيا ٣:٧. مقاطعة رومانية في آسيا. تعرَّضت في القرن الرابع عشر لحصار شديد من جانب الأتراك.

أفسس: هي الآن عبارة عن حطام مباني في تركيا. كانت أيام بولس الرسول ميناءً هاماً حيث سكنها الرسول العظيم لمدة سنتين أو ثلاثة قام فيها بعمله التبشيري. هناك تقليد بأن القديس يوحنا الرسول سكن فيها إبَّان أواخر حياته. وفيها منزل أثري للقديسة العذراء مريم. بجانب المسرح مازالت آثار بقايا الكنيسة التي عقد فيها مجمع أفسس المسكوني عام ٤٣١م.

تراللوس "آيدين" الآن، على نهر مايندر في غرب تركيا. كان لها أسقف في القرن الثاني اسمه "بولييبوس". أرسل لها القديس إغناطيوس الأنطاكي رسالة.

هيرابوليس: الآن «كوماناكروسو» في أرمينيا.

أباميا: "دينر" الآن.

لاودكية: هي الآن يورغان لايك في تركيا. ذُكرت في سفر الرؤيا ٣:١٤-٢٢. كَتَبَ إلى الكنيسة فيها الرسول بولس رسالة ذُكر عنها في كولوسي ٤:١٦ (قد تكون هي نفسها رسالة أفسس أو تكملة لها). وظلَّت مركزاً أسقفياً هاماً لعدة قرون. وهذه المدينة غير مدينة لاودكية (اللاذقية) الواقعة على شواطئ سوريا. وهي مقر أبوليناريوس الهرطوقي. ينسب إلى هذه المدينة قوانين بمجمع غير معروف عُقد فيها في القرن الرابع.

مغنيسيا: مايتزا على الساحل الغربي لتركيا. كتب إلى كنيستها القديس إغناطيوس الأنطاكي إحدى رسائله. كان بها أسقف اسمه "داماسوس".

كولوسي: في فريجية (وسط تركيا). بشَّرها بولس الرسول وأرسل للمؤمنين بها رسالة عام ٦١م.

ميليتس: كانت مدينة هامة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى (تركيا). زارها القديس بولس الرسول (أع ٢٠:١٥).

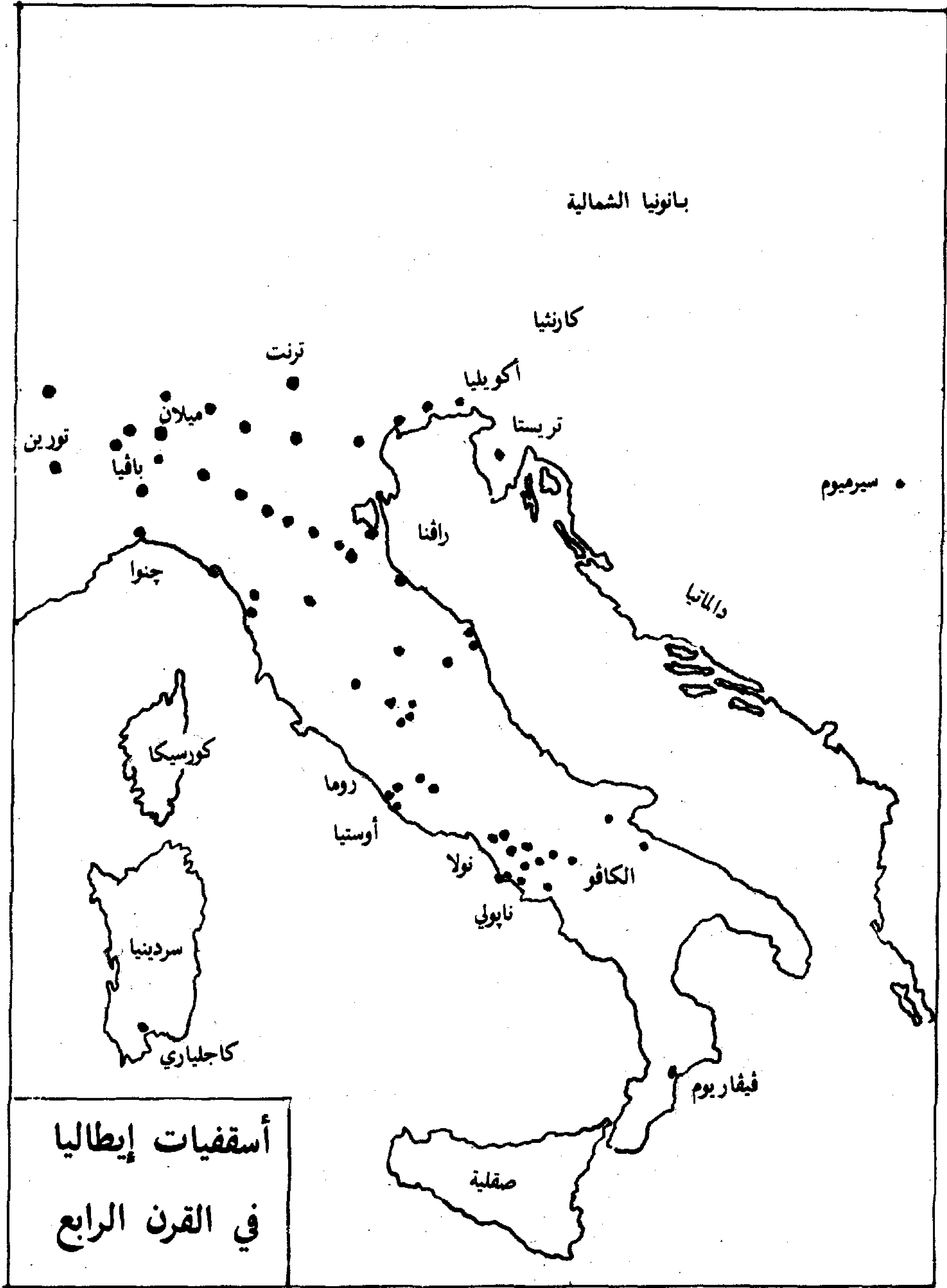
بامفيليا: منطقة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى. من مدنها الرئيسية برجة (أع ١٣:١٣).

رودس: مرَّ عليها القديس بولس الرسول في رحلته الأخيرة إلى أُورشليم (أع ٢١:١).

ميرا: الآن "ديمري" ميناء في تركيا جنوب غرب آسيا الصغرى. عندها نزل القديس بولس الرسول في رحلته الأخيرة إلى أُورشليم (أع ٢١:١).

قبرص: كان يمثلها في مجمع نيقية ثلاثة أساقفة من بينهم القديس أسبريدون. اشتهر بعد ذلك من أساقفتها المؤرِّخ إبيفانيوس (تنيَّح سنة ٤٠٣م).

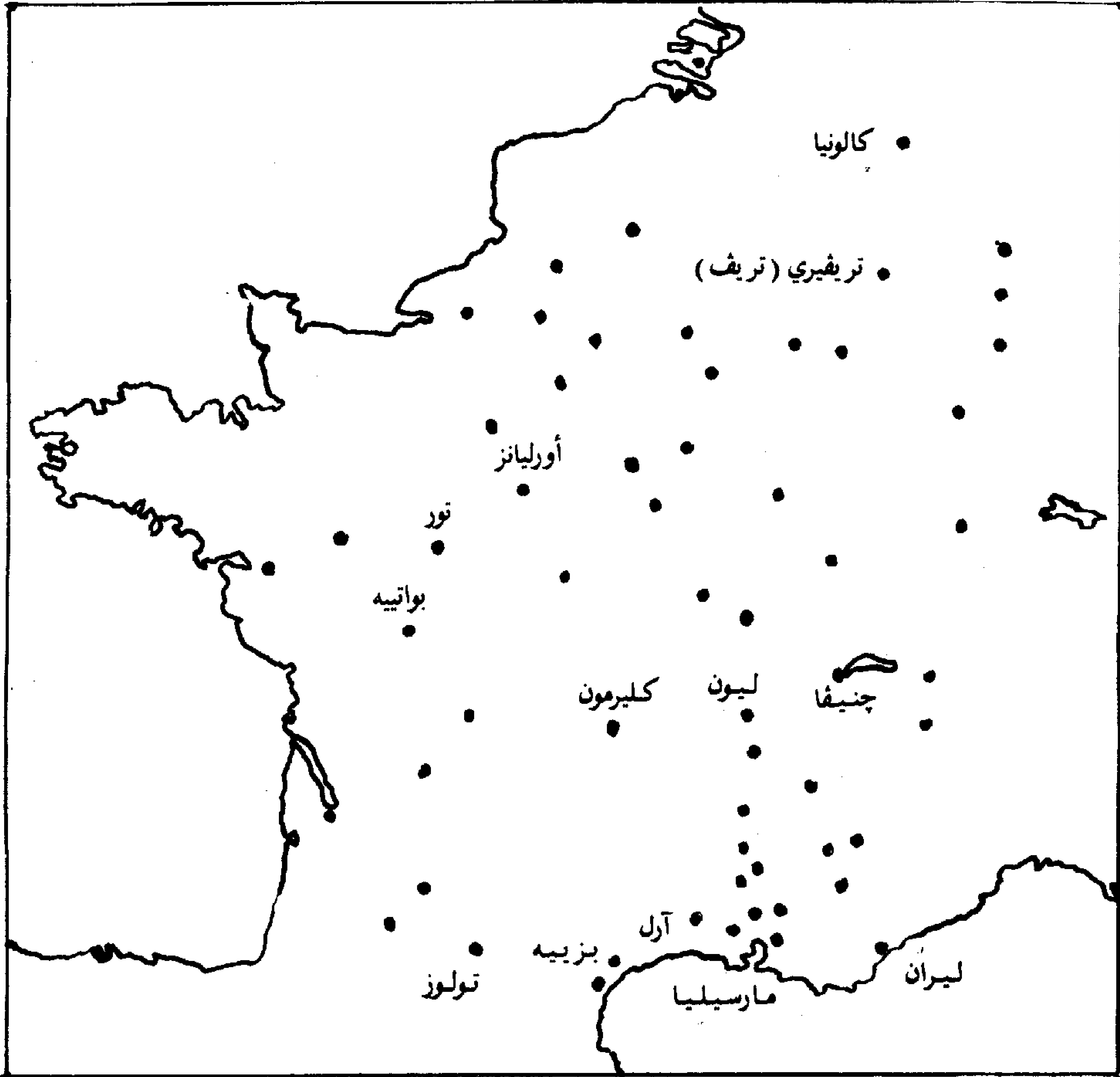
خريطة رقم ٦



أسقفيات إيطاليا في نهاية القرن الرابع

تورين، بافيا، ميلان، ترنت، أكويليا، تريستا، رافنا، جنوا، روما، أوستيا، نولا، نابولي، فيفاريوم، كاجلياري

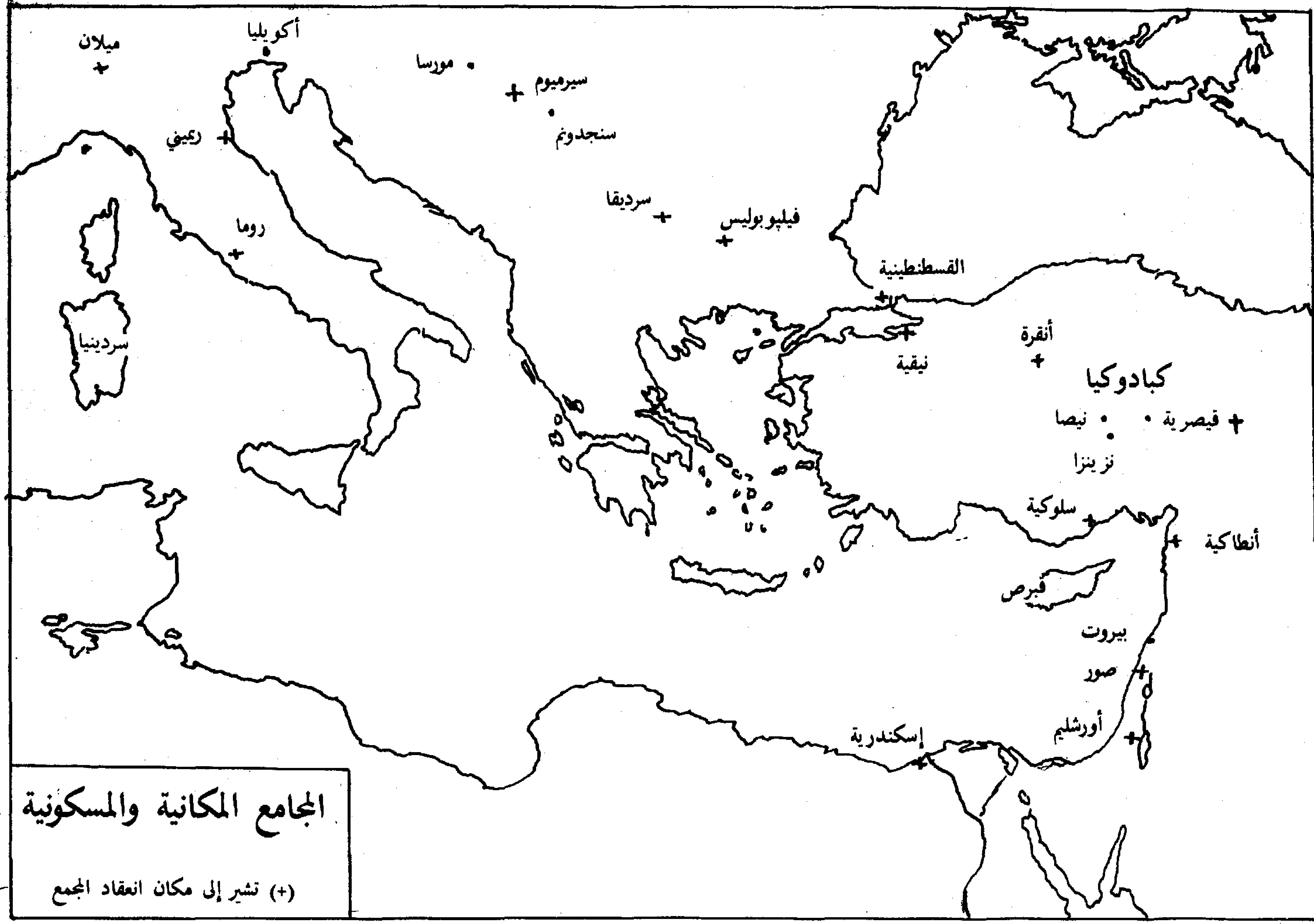
خريطة رقم ٧



أسقفيات بلاد الغال (فرنسا) وجنوب ألمانيا (في القرن الرابع)

كالونيا، تريفيري، أورليانز، تور، بواتييه، كليرمون، ليون، جنيفا، آرل، بزييه، تولوز، مارسيليا

خريطة رقم ٨


المجامع المكانية والمسكونية
(+) تشير إلى مكان انعقاد المجمع
ميلان
أكويليا
ريميني
روما
سردينيا
مورسا
سيرميوم
سنجدونم
سرديقا
فيليبوبوليس
القسطنطينية
نيقية
أنقرة
كبادوكيا
قيصرية
نيصا
نزينزا
سلوكية
أنطاكية
قبرص
بيروت
صور
أورشليم
إسكندرية

خريطة رقم ٨

المجامع المكانية والمسكونية

نيقية: مجمع مسكوني في سنة ٣٢٥م، حضره ٣١٨ أسقفاً من جميع أنحاء العالم، حُكم فيه على أريوس وأتباعه بالحرم، برز فيه أثناسيوس شماس البابا ألكسندروس بدفاعه المجيد عن الإيمان. وحضره الإمبراطور قسطنطين.

قيصرية مجمع في سنة ٣٣٤م، عُقد بقصد محاكمة أثناسيوس تحت تأثير يوسابيوس النيقوميدي أكبر أنصار أريوس. أثناسيوس رفض الحضور.

صور وأورشليم: مجمع في سنة ٣٣٥م، قرَّر قبول أريوس والأريوسيين في الكنيسة ثانية، أثناسيوس يـ ترك المجمع محتجاً ويتوجَّه إلى قسطنطين. اليوسابيون يوقِّعون عليه الحرم، والإمبراطور ينفيه إلى تريفري.

القسطنطينية: مجمع في سنة ٣٣٦م، يعقده الأريوسيون لتثبيت قبول أريوس ولاتهام مارسيليوس بالسابلينية.

مجمع التدشين في سنة ٣٦٠م، مجمع أريوسي، يحرم أنصاف أريوس.

مجمع مسكوني في سنة ٣٨١م دعا إليه الإمبراطور ثيئودوسيوس الكبير، وحضره ١٥٠ أسقفاً لدحض هرطقة أبوليناريوس ومقدونيوس، ويعتبر مكمِّلاً لمجمع نيقية.

الإسكندرية: مجمع في سنة ٣٣٨م، يعقده أساقفة مصر بعد عودة أثناسيوس من المنفى.

مجمع المعترفين في سنة ٣٦٢م، عُقد في صيف هذه السنة بعد عودة أثناسيوس إلى كرسيه.

أنطاكية: مجمع في سنة ٣٣٩م، يعقده الأريوسيون لتعيين غريغوريوس الأسقف الأريوسي على الإسكندرية.

هرب أثناسيوس إلى روما.

مجمع التدشين في ٣٤١م، تورَّط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

مجمع في سنة ٣٤٤م، يعقده اليوسابيون، يحكم على الأسقف استفانوس ويعيِّن ليونتيوس أسقفاً على أنطاكية، ويصدر الماكروستخ (القرار المطوَّل).

مجمع في سنة ٣٦٤م، عُقد في عهد الإمبراطور فالنتينيان.

سارديكا: مجمع في سنة ٣٤٣م، عُقد بناء على طلب الإمبراطور قسطانس الأرثوذكسي من أجل مصالحة الكنائس.

فيليبوبوليس: مجمع في سنة ٣٤٣م، تورَّط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

ميلان: مجمع في سنة ٣٤٥م، ضد فوتينوس، وتورَّط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

مجمع في سنة ٣٥٥م، عقده اليوسابيون ضد أثناسيوس.

سيرميوم: مجمع أول في سنة ٣٤٧م، ضد فوتينوس أيضاً، وتورط الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

مجمع ثان في سنة ٣٥١م، يحرم فوتينوس، ويصدر قانون سيرميُم الأول (وهو قانون نصف أريوسي) ويوقِّع عليه ليبيريوس بابا روما ويستذنب أثناسيوس.

مجمع ثالث في سنة ٣٥٧م، عقده الأريوسيون لحرم أثناسيوس، وقَّع عليه ليبيريوس أسقف روما وهوسيوس أسقف قرطاجنة ولكنه يرفض التوقيع على حرم أثناسيوس.

مجمع رابع في سنة ٣٥٩م، عقده اليوسابيون ضد أثناسيوس.

آرل: مجمع في سنة ٣٥٣م، عقده اليوسابيون ضد أثناسيوس.

أنقرة: مجمع في سنة ٣٥٨م، من أنصاف الأريوسيين، وقَّع عليه ليبيريوس، وطرد جورجيوس من الإسكندرية.

أريمنم وسلوكيا: مجمع في سنة ٣٥٩م، من الهوموؤسيين وأنصاف الأريوسيين.

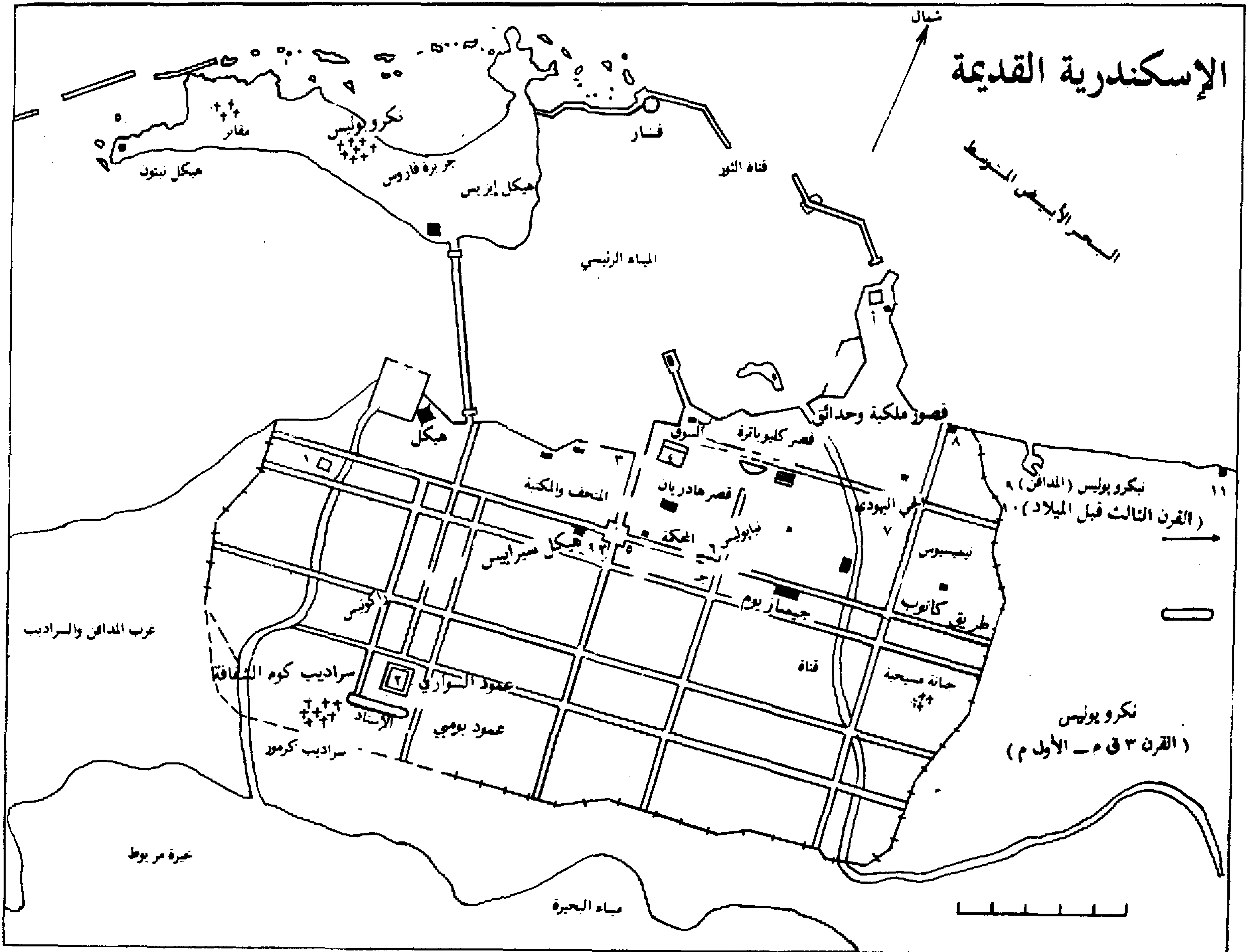
لاودكية: مجمع في سنة ٣٦٣م، من أنصاف الأريوسيين في عهد الإمبراطور جوفيان.

لامبساكوس مجمع في سنة ٣٦٦م، عقده أنصاف الأريوسيين.

تيانا: مجمع في سنة ٣٧٠م، عقده أنصاف الأريوسيين.

أفسس: مجمع مسكوني عُقد في سنة ٤٣١م، لمناقشة البدعة النسطورية ـ حضره البابا كيرلس الكبير و٢٠٠ أسقف.

خريطة رقم ٩



الكنائس

١. البابا ثيوناس
٢. يوحنا المعمدان
٣. البابا ديونيسيوس الكبير
٤. الكاتدرائية
٥. تترابيلون
٦. معبد ساتورن (تحول إلى كنيسة ٣١٣ــ٣٢٦)
٧. الملاك ميخائيل.
٨. بازيليكا مارمرقس.
٩. ق. العذراء.
١٠. ق. ميترا
١١. هيكل ميركينار يس
أ. قصر
ب. هيكل بوسيديون
حـ. هيكل الإسكندر
١٢. كنيسة القديس أثناسيوس.

كنائس غير مستعملة

ثيودوسيوس، وأركاديوس،
هونوريوس، ٣ فتية
ق. بقطر
ق. دوروثي
ق. يوليان
ق. سيرابيون
بيريوس وإيسيذور

مارجرجس
ق. قزمان ودميان (بجانب السيرابيوم)
ق. فاوستوس (في الفنار)
ق. فاوستوس
ق. صوفيا (في الفنار)
(لم تبق أية كنيسة من كنائس الإسكندرية القديمة.)

خريطة رقم ٩
خريطة الإسكندرية القديمة راكوتي أو راكودة(١)
(المواقع القديمة وتوقيعها على أماكنها الحالية)

١ ـ كنيسة البابا ثيوناس:

مسجد مهدَّم يسمَّى مسجد الألف والواحد عمود (منطقة الجمرك حالياً).

٢ ـ كنيسة يوحنا المعمدان:

مكان السيرابيوم حيث يوجد الآن عمود بومبي، المشهور باسم: عمود السواري.

٣ ـ كنيسة البابا ديونيسيوس الكبير:

المنطقة المحصورة ما بين شارع النبي دانيال والمنشية، بالقرب من الكورنيش.

٤ ـ الكاتدرائية:

موضعها الحالي (محطة الرمل).

٥ ـ تترىلىون τετράπυλον:

(أي ذو الأربعة مداخل) مبنى بدون أبواب، كان يُقام عند التقاء الشوارع الرئيسية في المدن أو في مخارجها. وكان ملتقى الطريقين الرئيسيين في الإسكندرية: طريق كانوب وطريق الميناء. وموضعه الحالي: تقاطع شارعي الحرية والنبي دانيال.

٦ ـ معبد ساتورن (زحل):

تحوَّل إلى كنيسة الملاك ميخائيل، في عهد البابا ألكسندروس البطريرك الـ ١٩. وهو موضع البلدية حالياً.

٧ ـ كنيسة الملاك ميخائيل:

بمنطقة الشاطبي الآن.

٨ ـ بازيليكا مار مرقس:

كلية سانت مارك بالشاطبي حالياً.

٩و١٠ ـ كنيسة القديسة العذراء مريم وكنيسة القديس ميترا:

بمنطقة الشاطبي الآن.

١١ ـ (أ) السلسلة

(ب) محطة الرمل

(ج) كوم الدكة

١٢ ـ كنيسة القديس أثناسيوس:

جامع بمنطقة الرمل حالياً (عن خريطة محمود الفلكي ـ ١٨٦٦).

الفنار ـ فاروس ـ قايتباي حالياً.

هيكل إيزيس ـ غارق بالقرب من حي "السلسلة".

جزيرة فاروس ـ المنطقة الممتدة من قايتباي حتى قصر رأس التين.

الميناء الرئيسي ـ الميناء الشرقي حالياً.

قصور ملكية وحدائق ـ حي القصور الملكية (السلسلة، محطة الرمل).

يُقصد بكلمة نيكروبوليس νεκρόπολις عادة الجبانة القديمة للإسكندرية القديمة.

السوق: محطة الرمل.

الحي اليهودي:. الشاطبي.

قصر هادريان: بمنطقة محطة الرمل.

طريق كانوب: طريق الحرية حالياً (طريق أبو قير ـ شارع جمال عبد الناصر).

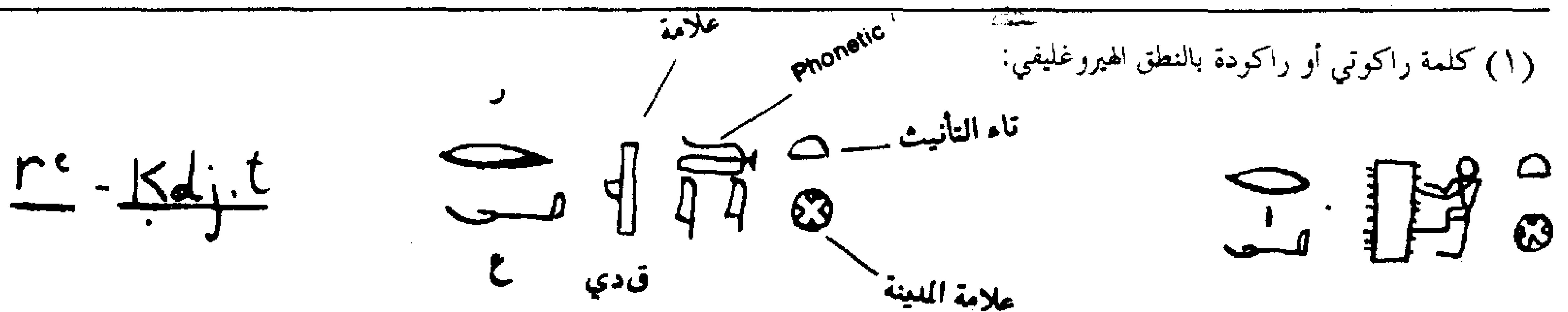
القناة: اختفت.

سراديب كوم الشقافة ـ مقابر كوم الشقافة.

غرب المدافن والسراديب: كرموز.

---

(١) كلمة راكوتي أو راكودة بالنطق الهيروغليفي:



الإسم الميروغليفي يُنطق بالعربية رع قديت.

الإسم القبطي يُنطق بالعربية راكوتي.

Erman & Grapow: *Wörterbuch der Aegytischen Sprache* Band II, S, 403, 5.

مصر في القرن الرابع والخامس
أقسامها الإدارية
وأهم الجماعات الرهبانية

( ) الإسم الحديث .
د . جماعات وأديرة رهبانية

تعليق خريطة رقم ١٠

مصر في القرن الرابع والخامس

أقسامها الإدارية ـ أهم الجماعات الرهبانية

(α): مصر الأُولى (I) Aegyptus تشمل الصحراء الغربية المتاخمة لغرب الدلتا ـ محافظة البحيرة والأجزاء الغربية من محافظات كفر الشيخ والغربية والمنوفية ـ براري شيهيت والقلالي ونتريا.

	الإيبارشية	الموقع الحالي
بوكليا	Bucolia	ضاحية أبوقير.
شيديا	Schedia	قرية نيشو على مسافة ٢٥ كم من الإسكندرية على الطريق الزراعي إلى القاهرة.
أونوفيس	Onuphis	بين المحمودية ودمنهور؟ (عاصمة لإحدى الولايات القديمة بالدلتا Lychni).
هرموبوليس بارفا	Hermopolis Parva	مدينة دمنهور.
نوقراطيس	Naucratis	كوم النقراش مركز إيتاي البارود.
أندروبوليس	Andropolis	مركز كفر الزيات (؟).
سايس	Saïs	صا الحجر مركز كفر الزيات.
تانا	Tana	مدينة طنطا (؟).
مينوفيس	Menuphis	مركز كوم حمادة (؟).
نقيوس	Nikiopolis	زاوية رزين منوفية.
ترينوتس	Terennutis	ترنوط: إتريس.
بروسوبوليس	Prosopolis	مركز منوف (؟).
أيتوبوليس	Hetopolis	أوسيم مركز إمبابة.

(β): مصر الثانية (II) Aegyptus: وتشمل الأجزاء الشمالية الغربية من محافظة دمياط وباقي شمال الدلتا حتى فرع دمياط شرقاً.

	الإيبارشية	الموقع الحالي
بارالوس	Paralus	قرية البرلّس مركز بلطيم.
فتينيجيس	Phtenegys	على شواطئ بحيرة البرلّس.
بوتو	Buto	تل الفراعنة (أو تل الفراعين) مركز دسوق.
ميتليس	Metelis	مدينة فوّة.
كاباسا	Cabasa	(وكانت مقرًّا لمطرانية) القصَّابي مركز فوّة (؟).
خايس	Xaïs	سخا مركز كفر الشيخ.
بوسيريس	Busiris	بوصيربنا مركز سمنود.
سينوبوليس	Cynopolis	سنباط (؟) مركز زفتى.
سبنيتس	Sebennytis	مدينة سمنود.

(γ): أوغسطاميكا الأُولى (I) Augustamica: وتشمل الأجزاء الشرقية من الدلتا في محافظات الشرقية والدقهلية ومدن السويس والإسماعيلية وبورسعيد حتى حدود مصر الشرقية التي كانت عند العريش وقتئذ.

	الإيبارشية	الموقع الحالي
فاكوسا	Phacusa	مدينة فاقوس.
تنّيس	Tannis	صان الحجر على بحيرة المنزلة، وهي تحفنحيس التي وردت في الكتاب المقدَّس (إر ١٦:٢، ٧:٤٣، حز ١٨:٣٠ ... إلخ).

الإيبارشية		الموقع الحالي
بلزيوم	Pelusium	الفرما قديماً وهي شرقي بورفؤاد وكانت مقرًّا لمطرانية وتسمّى الآن بالوظا.
كازيوم	Casium	(؟) قرية قاطية على الشاطئ الجنوبي لبحيرة البردويل بين بورفؤاد والعريش.
أوستراكن	Ostrakin	(؟) قرية مزار على الشاطئ الجنوبي لبحيرة البردويل بين بورفؤاد والعريش.
رينوكولورا	Rhinocolora	مدينة العريش وكانت محاطة بمجامع رهبانية.
دافني	Daphnae	تل دفني على مسافة ١٠ كم شمال غرب مدينة القنطرة.
سيل	Sele	القنطرة (؟).
هيراكليوبوليس بارفا	Heracleopolis Parva	على شوطئ بحيرة المنزلة.

(Δ): أوغسطاميكا الثانية (Augustamica (II: وتنحصر بين أوغسطاميكا الأُولى شرقاً وفرع دمياط غرباً وتقع فيها أغلبية محافظات الدقهلية والشرقية ودمياط.

الإيبارشية		الموقع الحالي
دامياتس	Thamiates	مدينة دمياط.
تمويه	Thmui	قرية تمي الأمديد مركز السنبلاوين.
فاربيتوس	Pharbetus	قرية حورييت مركز أبو كبير.
ليونتوبوليس	Leontopolis	قرية صهرجت مركز ميت غمر، وكانت مقرًّا للمطرانية.
بوباستس	Bubastis	تل بسطة بجوار مدينة الزقازيق.
أتريبس	Attribis	تل أتريب شرقي مدينة بنها.
هليوبوليس	Heliopolis	ضاحية عين شمس شمال مدينة القاهرة.
بابيلون	Babylon	مصر القديمة وكانت غنية بالأديرة والرهبان.
القلزم	Klysma	شمالي مدينة السويس الحالية.

(ع): أركاديا Arcadia: وهي مصر الوسطى وتشمل محافظات الجيزة وبني سويف والفيوم والجزء الشمالي من محافظة المنيا. وكانت عاصمتها الإدارية أكسيرنخوس (البهنسا).

الإيبارشية		الموقع الحالي
منفيس	Memphis	قرية ميت رهينة (سقارة) وكانت مركزاً لمجامع رهبانية وأديرة أهمها: دير أنبا إرميا المعروف برسوماته الحائطية (فرسكات).
أفروديتوبوليس	Aphroditopolis	قرية أطفيح مركز الصف، وكانت تشتهر بأديرة القديس أنطونيوس قرب البحر الأحمر وفي بسبير (دير الميمون حالياً شرق النيل).
نيلوبوليس	Nilopolis	قرية دالاص بين محافظتي بني سويف والفيوم.
أرسينو	Arsinoë	مدينة الفيوم.
فيلادلفيا	Philadelphia	(؟) قرية أهريت مركز أبشواي بالفيوم.
هيراكليوبوليس ماجنا	Heracleopolis Magna	أهناسية المدينة محافظة بني سويف.
كينوبوليس العليا	Kynopolis Superior	قرية الحيبة شرق النيل - مركز الفشن.
موسى	Musae	(؟) شرق النيل أمام بني مزار.
أُكسيرنخوس	Oxyrhynchus	قرية البهنسا، وكانت مقرًّا لمطرانية ويتبعها أديرة كثيرة.

(Γ): طيبة الأُولى (Thebaïs (I: وتشمل جنوب محافظة المنيا وأسيوط حتى أخميم في محافظة سوهاج، وعاصمتها الإدارية أنتنويه (أنصنا).

الإيبارشية		الموقع الحالي
هرموبوليس ماجنا	Hermopolis Magna	الأشمونين، كانت مقرًّا للمطرانية.

	الإيبارشية	الموقع الحالي
أنتينويه	Antinoë	الشيخ عبادة مقابل مدينة ملوي، وهي غنية بالأديرة.
كوزيه	Cusae	مدينة القوصية.
ليكوبوليس	Lycopolis	مدينة أسيوط.
هيسبل	Hyspele	دير ريفا بجوار درنكة محافظة أسيوط.
أفروديتوبوليس	Aphroditopolis	مركز طهطا (؟).
أسبيس	Hispis	مركز طهطا (؟).
أنتيوبوليس	Antaeopolis	وكانت معروفة قديماً باسم "دي كاو" وموضعها قرية قاو الكبير شرق النيل مركز ساقلته.
بانوبوليس	Panopolis	مدينة أخميم وبجوارها أديرة كثيرة.

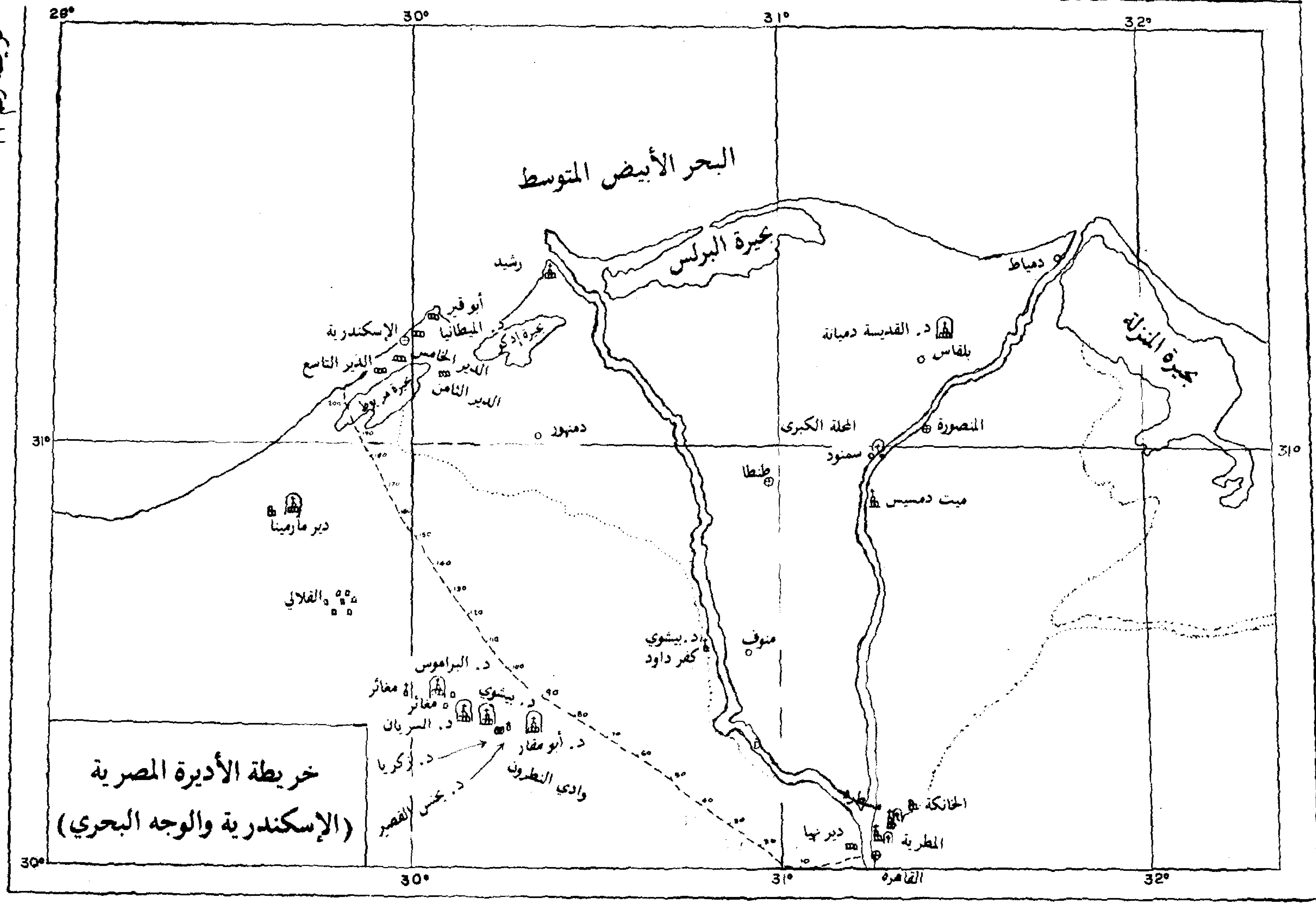
(ح): طيبة الثانية (II) Thebaïs: تمتد من جنوب أخميم حتى حدود النوبة.

	الإيبارشية	الموقع الحالي
بتولومايس	Ptolomaïs	المنشاة محافظة سوهاج، منطقة أديرة أشهرها الدير الأبيض والدير الأحمر.
ثنيس	Thynis	البربا مركز البلينا.
ديوسبوليس بارفا	Diospolis Parva	قرية هو مركز نجع حمادي
تنتيرا	Tentyra	دندرة ـ أسقفية قديمة مشهورة وتحيط بها أديرة كثيرة.
قبطس	Coptus	مدينة قفط وترجع شهرتها إلى أنبا بسنتي رئيس أديرتها الذي صار أسقفاً للمدينة في القرن السابع
أبوللينوبوليس بارفا	Apollinopolis Parva	مدينة قوص محافظة قنا، ذُكر أنها قرية قسقام (دير المحرق) راجع كتاب: *Churches & Monasteries in Egypt,* p. 225
مكسيميانوبوليس	Maximianopolis	مدينة الأقصر - طيبة
تو	Tooû	قرية طو شرق النيل تابعة لمركز إسنا
هرمونتيس	Hermonthis	مدينة أرمنت
لاتوبوليس	Latopolis	مدينة إسنا - يجاورها عدد كبير من الأديرة
أبوللينوبوليس ماجنا	Apollinopolis Magna	مدينة إدفو
أمبوس	Ombus	مدينة كوم أمبو
سيين	Syene	مدينة أسوان

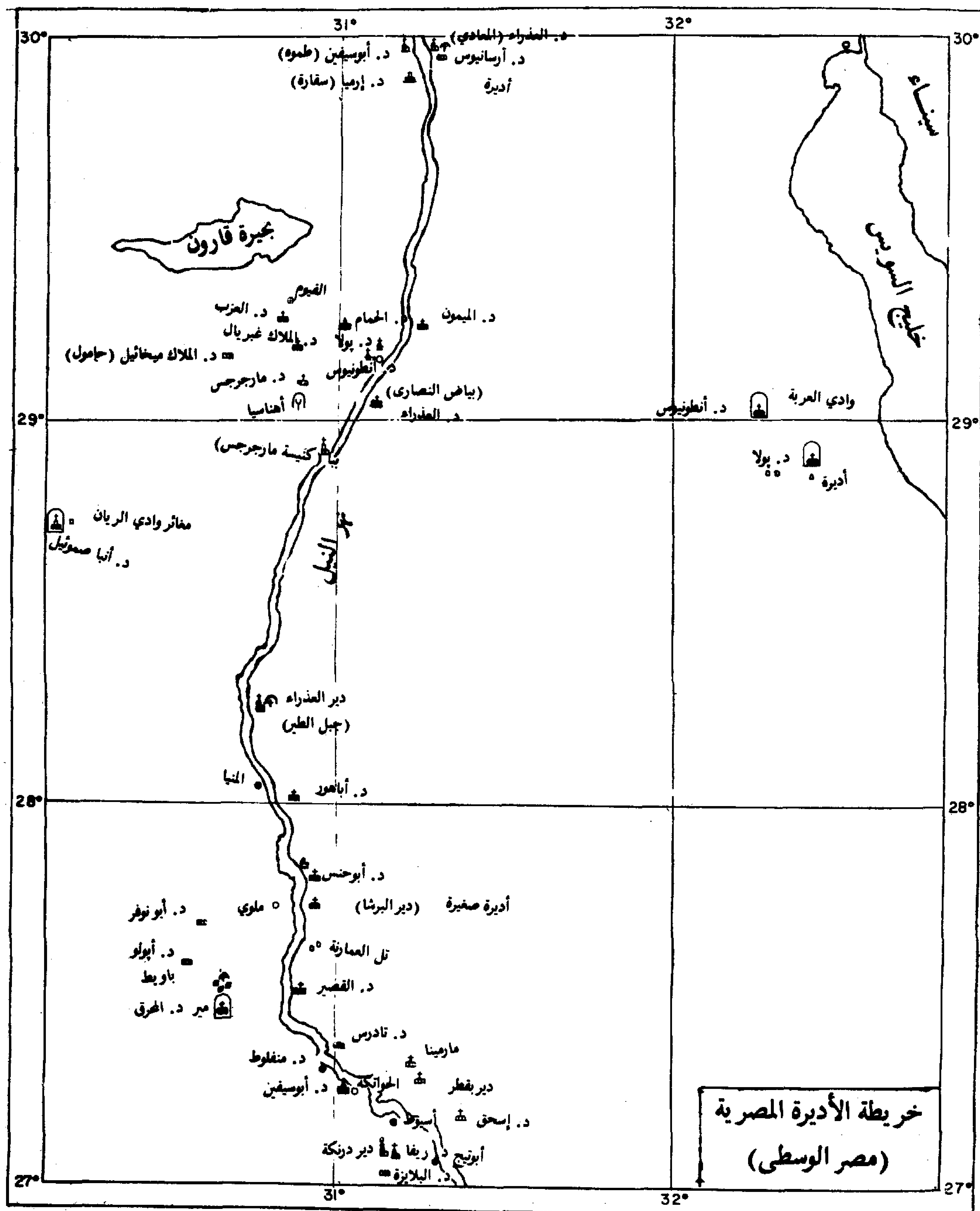
(ط): أسقفيات أخرى تابعة لبطريرك الإسكندرية

	الإيبارشية	الموقع الحالي
أنتيفري	Antiphrae	العلمين محافظة مطروح
زيجرس	Zygris	سيدي حنّيش عند مفترق الطريق الموصّل إلى منخفض القطّارة
باريتوريوم	Paraetorium	مدينة مرسى مطروح
بركا	Barca	برقة في البلاد الليبية
بنتابوليس	Pentapolis	الخمس مدن في البلاد الليبية

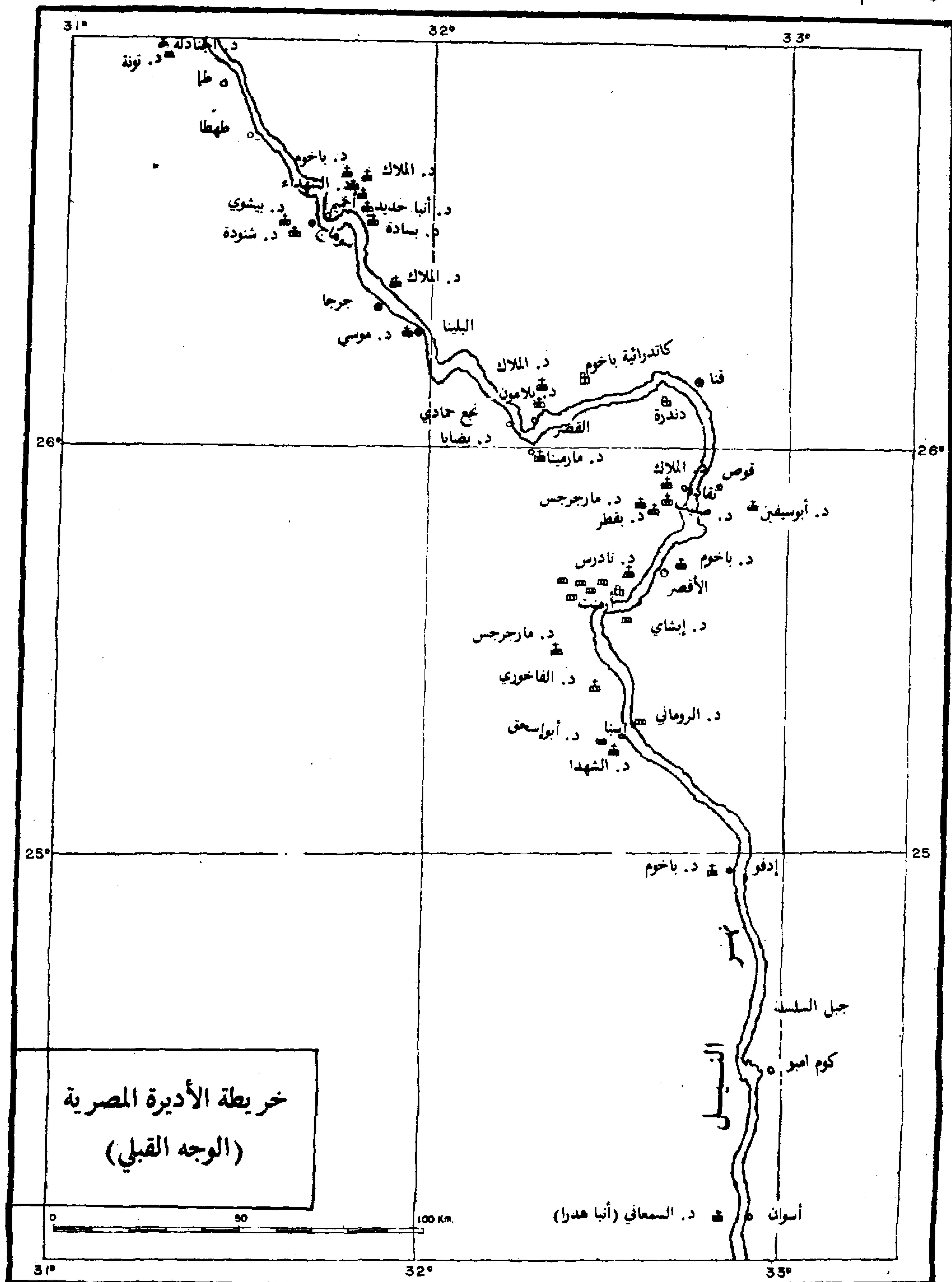
وبخلاف الإيبارشيات الواقعة على الساحل الشمالي بين الإسكندرية وليبيا (وليبيا انضمت للبلاد المصرية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٨١م)، كانت هناك أسقفيات في الواحات الخارجة والبجوات (الصحراء الليبية) وبها مجامع رهبانية. ثم أسقفيات بلاد النوبة ومملكة أكسيوم (أثيوبيا) وأريتريا.

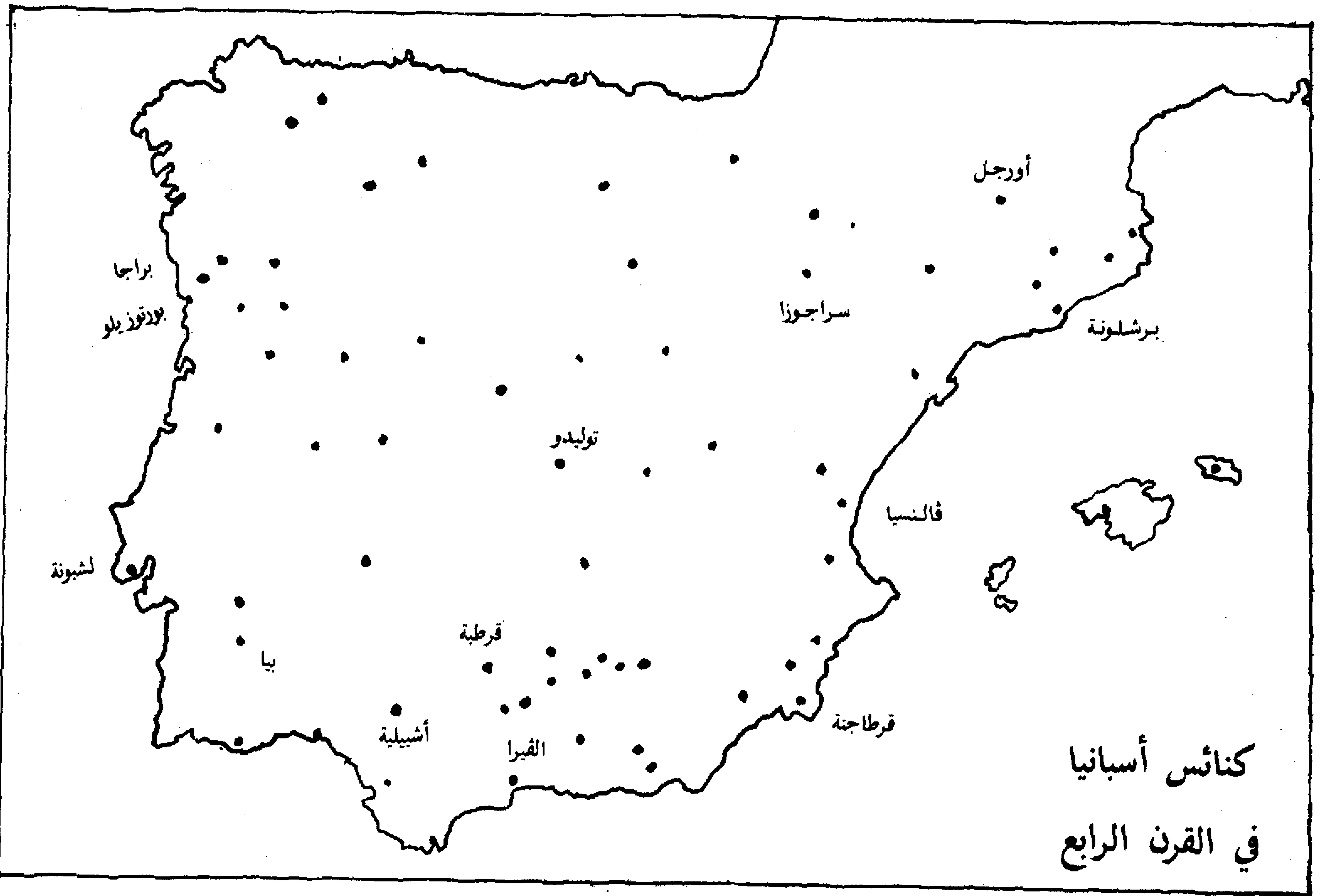

خريطة الأديرة المصرية
(الإسكندرية والوجه البحري)
البحر الأبيض المتوسط
بحيرة البرلس
بحيرة المنزلة
بحيرة إدكو
بحيرة مريوط
رشيد
أبو قير
د. الميطانيا
الإسكندرية
الدير الخامس
الدير التاسع
الدير الثامن
دمنهور
دمياط
د. القديسة دميانة
بلقاس
المحلة الكبرى
المنصورة
سمنود
طنطا
ميت دمسيس
دير مارمينا
القلالي
منوف
د. بيشوي
كفر داود
د. البراموس
مغائر
د. بيشوي
د. السريان
د. أبو مقار
د. زكريا
د. يحنس القصير
وادي النطرون
الخانكة
المطرية
دير نهيا
القاهرة
28°
30°
31°
32°

خريطة رقم ١٢



خريطة الأديرة المصرية
(مصر الوسطى)
30°
31°
32°
29°
28°
27°
بحيرة قارون
سيناء
خليج السويس
بحر النيل
د. العذراء (المعادي)
د. أبوسيفين (طموه)
د. أرسانيوس
د. إرميا (سقارة)
أديرة
الفيوم
د. العزب
د. الحمام
د. الميمون
د. الملاك غبريال
د. بولا
د. الملاك ميخائيل (حامول)
د. أنطونيوس
د. مارجرجس
(بياض النصارى)
أهناسيا
د. العذراء
وادي العربة
د. أنطونيوس
د. بولا
أديرة
كنيسة مارجرجس
مغائر وادي الريان
د. أنبا صموئيل
دير العذراء
(جبل الطير)
المنيا
د. أباهور
د. أبوحنس
د. أبو نوفر
ملوي
(دير البرشا)
أديرة صغيرة
د. أبولو
تل العمارنة
باويط
د. القصير
مير د. المحرق
د. تادرس
مارمينا
د. منفلوط
الحواتكة
دير بقطر
د. أبوسيفين
أسيوط
د. إسحق
أبوتيج
د. ريفا
دير درنكة
د. البلايزة

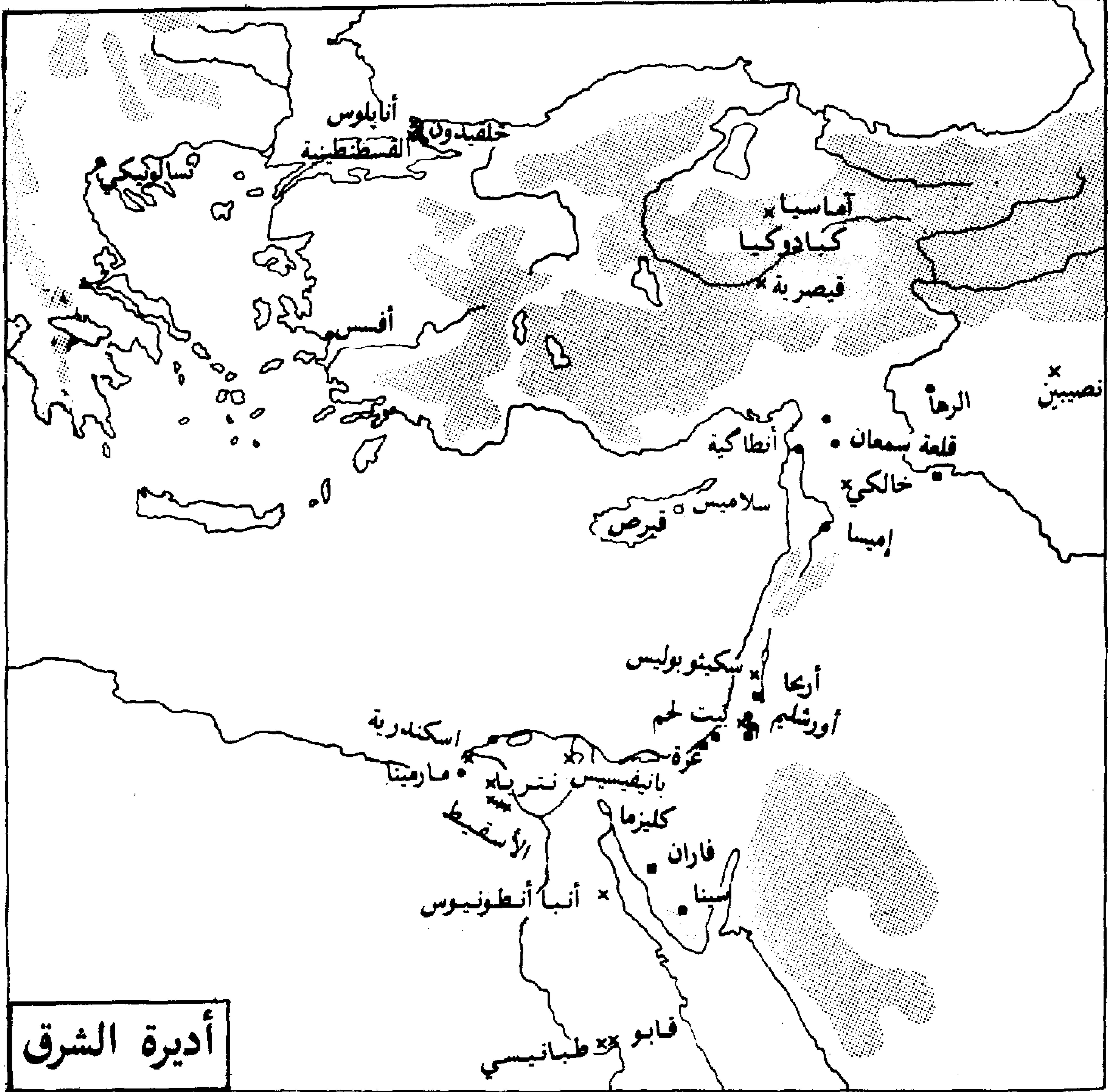

خريطة الأديرة المصرية
(الوجه القبلي)
د. تونة
طما
طهطا
د. باخوم
د. الملاك
د. الشهداء
د. أنبا حديد
أخميم
د. بيشوي
د. شنودة
د. بسادة
د. الملاك
جرجا
البلينا
د. موسي
د. الملاك
كاتدرائية باخوم
قنا
د. بلامون
نجع حمادي
القصر
دندرة
د. بضابا
د. مارمينا
قوص
الملاك
د. مارجرجس
د. بقطر
د. أبوسيفين
د. باخوم
د. تادرس
الأقصر
أرمنت
د. إبشاي
د. مارجرجس
د. الفاخوري
د. الروماني
إسنا
د. أبواسحق
د. الشهدا
د. باخوم
إدفو
جبل السلسلة
كوم امبو
د. السمعاني (أنبا هدرا)
أسوان
31°
32°
33°
26°
25°
0
50
100 KM.



خريطة رقم ١٤: كنائس أسبانيا
في نهاية القرن الرابع

براجا، توليدو، سراجوزا، لشبونة، أشبيلية، قرطبة، إلقيرا، قرطاجنة، برشلونة.

خريطة رقم ١٥



× مواضع رهبانية في القرنين الرابع والخامس.

■ مواضع رهبانية في القرن السادس.

● مزارات رهبانية مقدسة.

تعليق خريطة رقم ١٥

أديرة الشرق في القرن الرابع

(١) مصر مهد الرهبنة:

+ أديرة بسبير: أسَّسها أنبا أنطونيوس الكبير سنة ٢٨٥م (†٣٥٦)، وكان يعيش وقتها في مغارة بالقرب من الدير ومعروف أن البابا أثناسيوس كان يتردَّد عليه كثيراً ويصب ماءً على يديه.

+ أديرة بافو وطبانيس: وباقي الأديرة التي أسَّسها أنبا باخوميوس سنة ٣١٨م (†٣٤٨). وقد زارها البابا أثناسيوس سنة ٣٦٣م. ومن مشاهير الآباء فيها أنبا تادرس وأنبا بترونيوس، وأنبا أوراسيوس، وأنبا آمون وغيرهم كثيرون.

+ رهبنة نتريا: أسَّسها أنبا آمون سنة ٣٢٠-٣٣٠م، وكان على علاقة وثيقة بالأنبا أنطونيوس.

+ رهبنة الإسقيط: أسَّسها أنبا مقاريوس الكبير سنة ٣٤٠م (†٣٩٠) وقد زار أنبا أنطونيوس مرتين. واشتهر من آباء الإسقيط أنبا مقاريوس الإسكندري، وأنبا بيمين، وأنبا بامو، وأنبا إيسيذوروس، وأنبا موسى الأسود، وغيرهم كثيرون. ولكن لم يجئ في سيرة البابا أثناسيوس أنه زار الإسقيط.

+ بانفسيس: جماعة رهبانية مقبلة من الإسقيط ونتريا.

+ كليزما: جماعة رهبانية من الإسقيط ونتريا.

(٢) أديرة فلسطين:

+ بيت لحم: جماعة رهبانية أسَّسها القديس جيروم سنة ٣٨٦-٤٢٠م على غرار نظام الرهبنة المصرية.

+ سكيثوبوليس: جماعة رهبانية أسَّسها هيلاريون وشاريتون ويوثيميوس على غرار نظام الرهبنة المصرية.

+ خالكي: جماعة رهبانية أسَّسها القديس جيروم على نظام الرهبنة المصرية.

(٣) أديرة العراق:

+ نصيبين والرها: جماعة رهبانية أسَّسها مار أوجين سنة ٣٢٥م متّبعاً نظام الرهبنة المصرية.

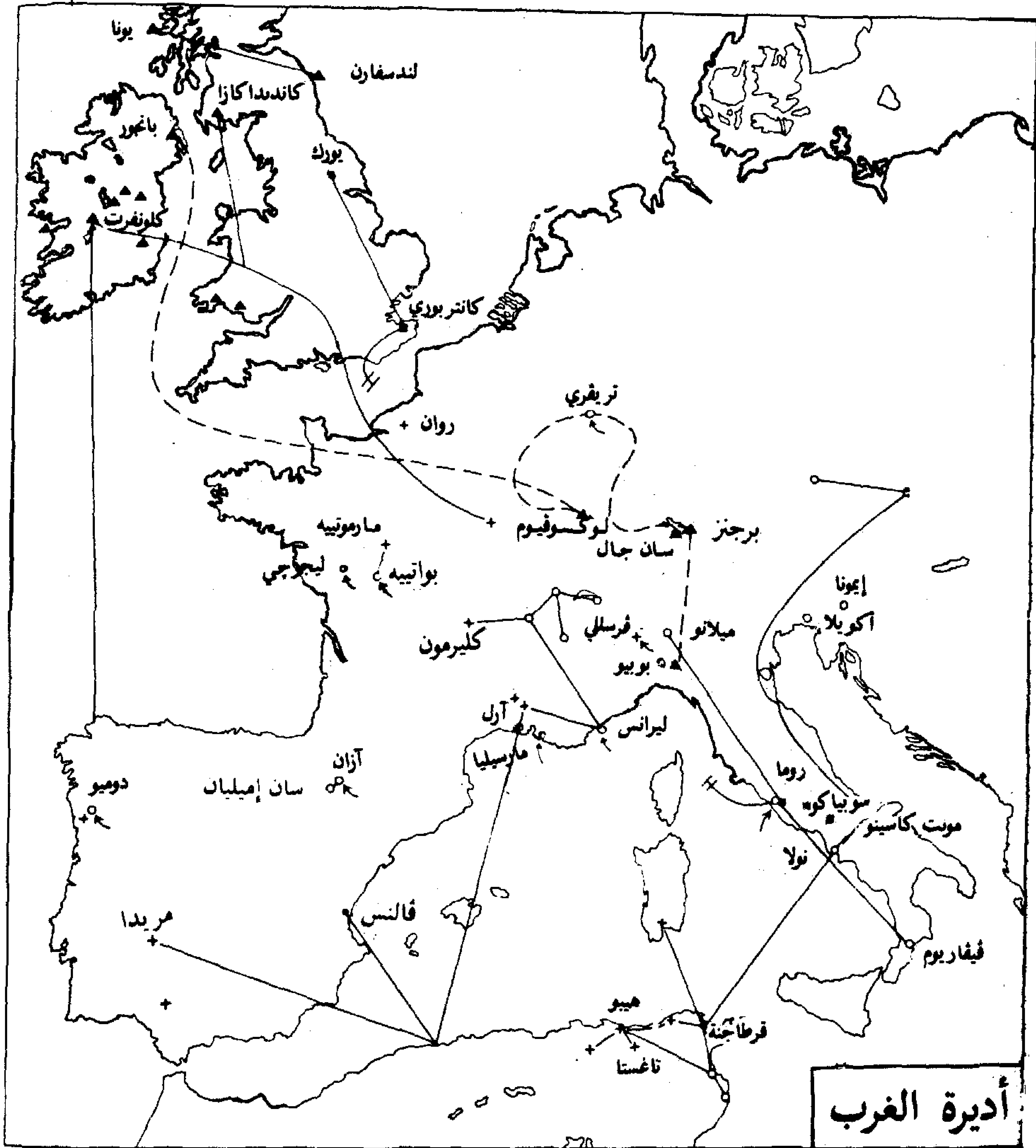
(٤) أديرة آسيا الصغرى:

+ قيصرية الكبادوك: جماعة رهبانية أسَّسها القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية الكبادوك سنة ٣٩٠م، متّبعاً نظام الرهبنة القبطية. وقد وضع لهم قوانينه النسكية المعروفة.

+ خلقيدون والقسطنطينية: جماعة رهبانية أسَّسها الإخوة الطوال القادمون من نتريا سنة ٤١٠م.

+ أنابلوس: جماعة رهبانية نابعة من رهبنة باسيليوس الكبير تتبع نظام الرهبنة المصرية.

خريطة رقم ١٦



○ أديرة على النظام المصري
+ مراكز أسقفية
مراكز تأثير رهباني

▲ أديرة على النظام السلتيكي (لغة أيرلندا وشمال غرب اسكتلندا وويلز)
■ أديرة على النظام البندكتي
ارتباطات أخوية بين رهبنات في أماكن مختلفة.

تعليق خريطة رقم ١٦

أديرة الغرب في القرن الرابع

أهم مراكز انتشار الرهبنة المصرية في الغرب

- **تريفري** Treveri = Trêves وقد صارت من أهم مراكز انتشار الرهبنة المصرية في الغرب منذ نفي أثناسيوس سنة ٣٤٠م.
- **فرسللي** Vercelli وقد تأسَّست بها جماعة رهبانية على النظام المصري بقيادة الأسقف يوسابيوس سنة ٣٦٠. ومعروف أن هذا الأسقف (يوسابيوس فرسللي) من أكثر أساقفة الغرب الذين تأثَّروا بأثناسيوس.
- **ليجوجي** Ligugé أسَّس بها القديس مارتينوس ديراً على النظام المصري سنة ٣٦٠م.
- **مارسيليا** Merseilles أسَّس بها كاسيان ديرين على النظام المصري سنة ٤١٥. ومعروف أن كاسيان زار الأسقيط وسجَّل أخبار الرهبان المصريين في كتابين: "المناظرات الروحية" و"الأنظمة الرهبانية".
- **ليرانس** Lerins وقد تأسَّست بها سنة ٤١٠ حياة رهبانية على النظام المصري بقيادة القديس هونوراتس.
- **آزان** Asan ودوميو Dumio وتعتبر من أهم مراكز انتشار النظام الرهباني المصري بأسبانيا.
- **روما** تعتبر أهم مركز لانتشار الرهبنة المصرية في إيطاليا بسبب نفي أثناسيوس بها سنة ٣٤٠ إلى ٣٤٤ ثم إرساله كتاب "حياة أنطونيوس" إلى رهبانها.
- **أكويليا** Aquileia مسقط رأس روفينوس وقد تأسَّست بها رهبنة على النظام المصري، ومعروف أن روفينوس زار الإسقيط وكتب "تاريخ رهبان مصر".
- **إيمونا** Emona وقد أسَّس بها روفينوس أيضاً ديراً على النظام المصري سنة ٣٧٦، وقد ذكر جيروم ذلك (رسالة ١١:١٢).

أديرة أخرى غربية على النظام المصري

- **ميلانو** Milano = Mediolanum أسَّس بها القديس أمبروسيوس سنة ٣٨٠ ديراً على النظام المصري.
- **روان** Rotomagus = Rouen جمع فيها الأسقف فيتريسيوس في القرن الرابع كهنة يعيشون حياة شركة رهبانية متأثرة بالأنظمة الشرقية.
- **مارموتيه** Marmoutier وبها أسَّس القديس

مارتان أسقف تور سنة ٣٧٢ شركة رهبانية لكهنة إيبارشية.

- **نولا** Nola بجوار مدينة نابولي بجنوب إيطاليا وبها أسَّس أيضاً الأسقف بولينوس سنة ٣٩٤ جماعة رهبانية على النظام المصري.
- **تاغستا** Thagaste أسَّس فيها القديس أغسطينوس ديراً على النظام المصري سنة ٣٨٨. ومعروف أن أغسطينوس أكثر الذين تأثَّروا بكتاب "حياة أنطونيوس" بقلم أثناسيوس.
- **هيبو** Hippo لمَّا صار أغسطينوس كاهناً في مدينة هيبو أسَّس بها سنة ٣٩٠ جماعة رهبانية على النظام المصري.
- **قرطاجنة** والبلاد المحيطة بها (شمال أفريقيا) تأسَّست بها أكثر من ٢٥ جماعة رهبانية على النظام المصري في بلاد مختلفة من شمال إفريقيا، وكان لأغسطينوس الأثر الأكبر في انتشار الرهبنة في هذه البلاد.
- **فيفاريوم** Vivarium بجنوب إيطاليا وقد تأسَّس بها دير سنة ٥٤٠ على يد كاسيودورس.
- آرل Arles بجنوب فرنسا وقد تأسَّس بها دير سنة ٥٤٢ على يد قيصريوس أسقف آرل.

أديرة غربية أخرى نشأت قبل القرن السابع الميلادي

- **أديرة على النظام السلتيكي Celtic، وأهمها:**

كانديداكازا Candida Casa (تأسَّس ما بين ٣٦٠و٤٣٢م)

كلونفرت Clonfert (تأسَّس حوالي ٤٨٢)

لوكسوفيوم Luxovium (سنة ٦١٠)

لندسفارن Lindisfarne (سنة ٦٣٥)

سان جال St. Gall (سنة ٦١٢)

بوبيو Bobbio (سنة ٦١٥)

يونا Iona **وبانجور** Bangor

- **أديرة على النظام البندكتي، وأهمها:**

سوبياكو Subiaco (تأسَّس سنة ٥٠٠م بواسطة بندكتوس)

مونتي كاسينو Monte Cassino (سنة ٥٢٩ بواسطة بندكتوس)

روما (تأسَّس سنة ٥٧٠ بواسطة غريغوريوس الكبير)

كانتربري Canterbury (سنة ٥٩٦)

يورك York (تأسَّس ما بين ٥١٤-٦٠٣م)

لوحات الكتاب



بقايا قصر لأحد الأمراء في روما من القرن الرابع



بقايا عقد لأحد أجنحة الكنيسة الإمبراطورية الكبرى على اسم قسطنطين من القرن الرابع



جزء من تمثال برونزي لقسطنطيوس الثاني
(٣٣٧ـ٣٦١) يرجع إلى حوالي عام ٣٦٠



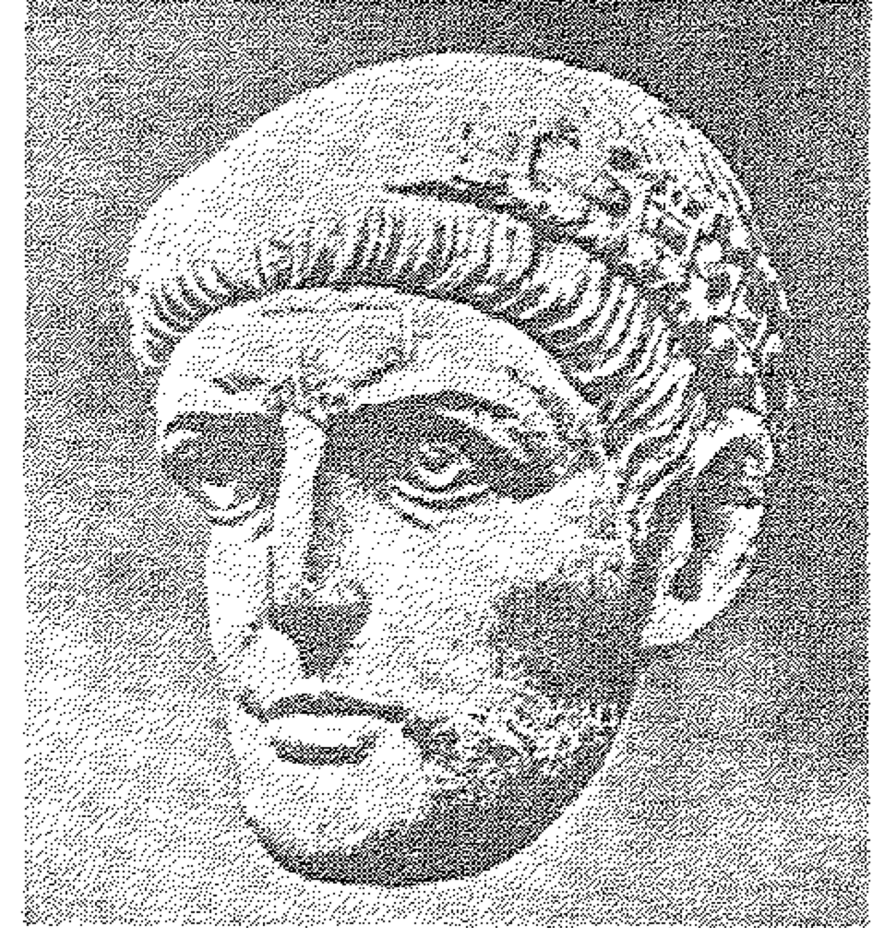
الإمبراطور فالنس (٣٦٤ـ٣٧٨) الذي كان نصيراً
للأريوسيين ـ من متحف فلورنسا



تمثال ليوليانس الجاحد (٣٦١ـ٣٦٣) بلحيته
التي كانت موضع سخرية أهل أنطاكية



جزء من تمثال يرجح أنه لقسطانس (٣٣٧ـ٣٥٠)
حاكم الغرب ـ باريس متحف اللوفر



تمثال الإمبراطور فالنتينيان الأول (٣٦٤ــ ٣٧٤)
صديق القديس أمبروسيوس أسقف ميلان ــ متحف
كوبنهاجن



عملة نقدية عليها نقش لصورة دقلديانوس



رسم على أحد مخطوطات الفاتيكان للقيصر
قسطنطيوس غاللوس



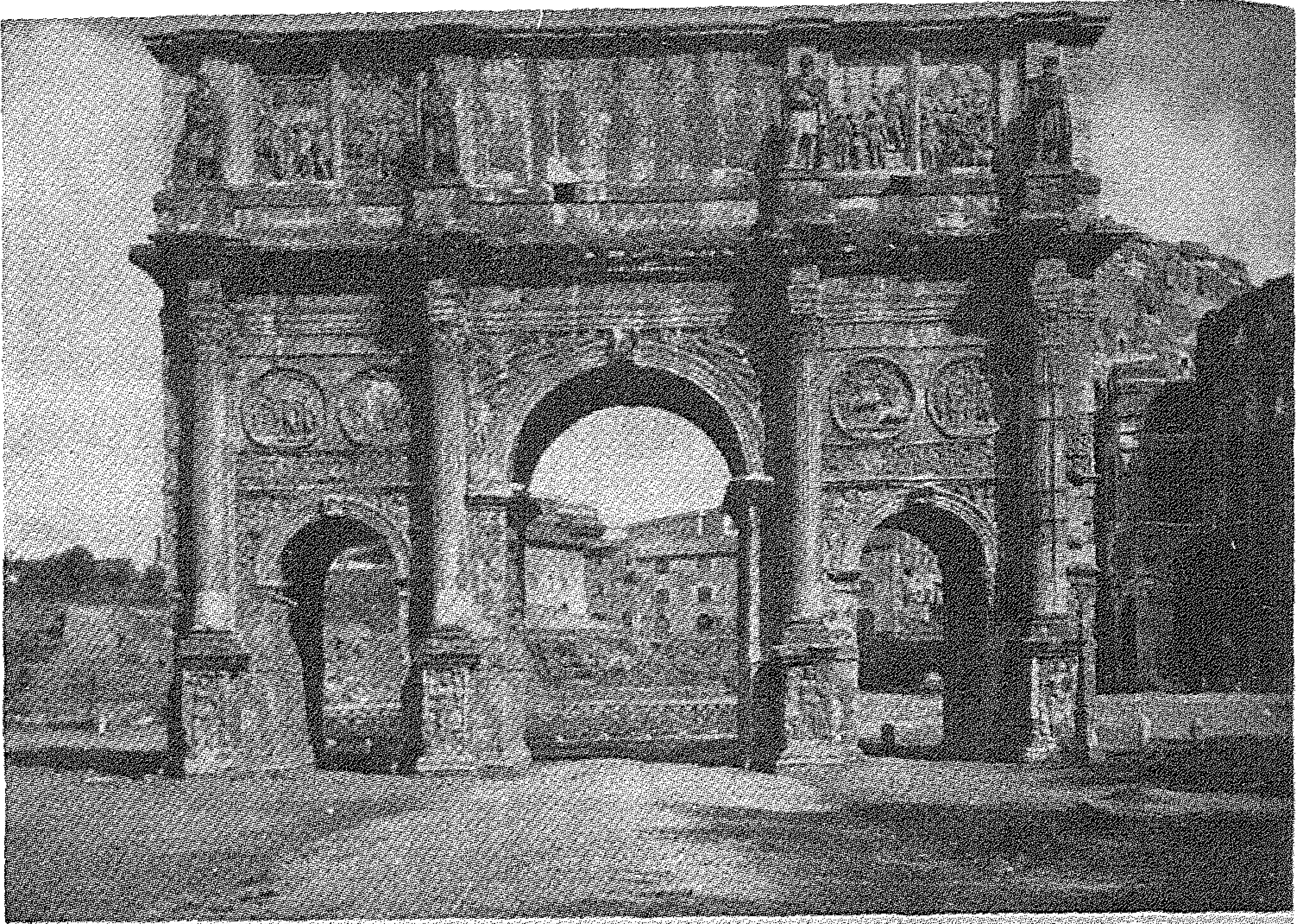
قصر البالاتين ــ قصر كاليجولا على اليمين ــ والپالاتين أحد تلال روما السبعة المشهورة

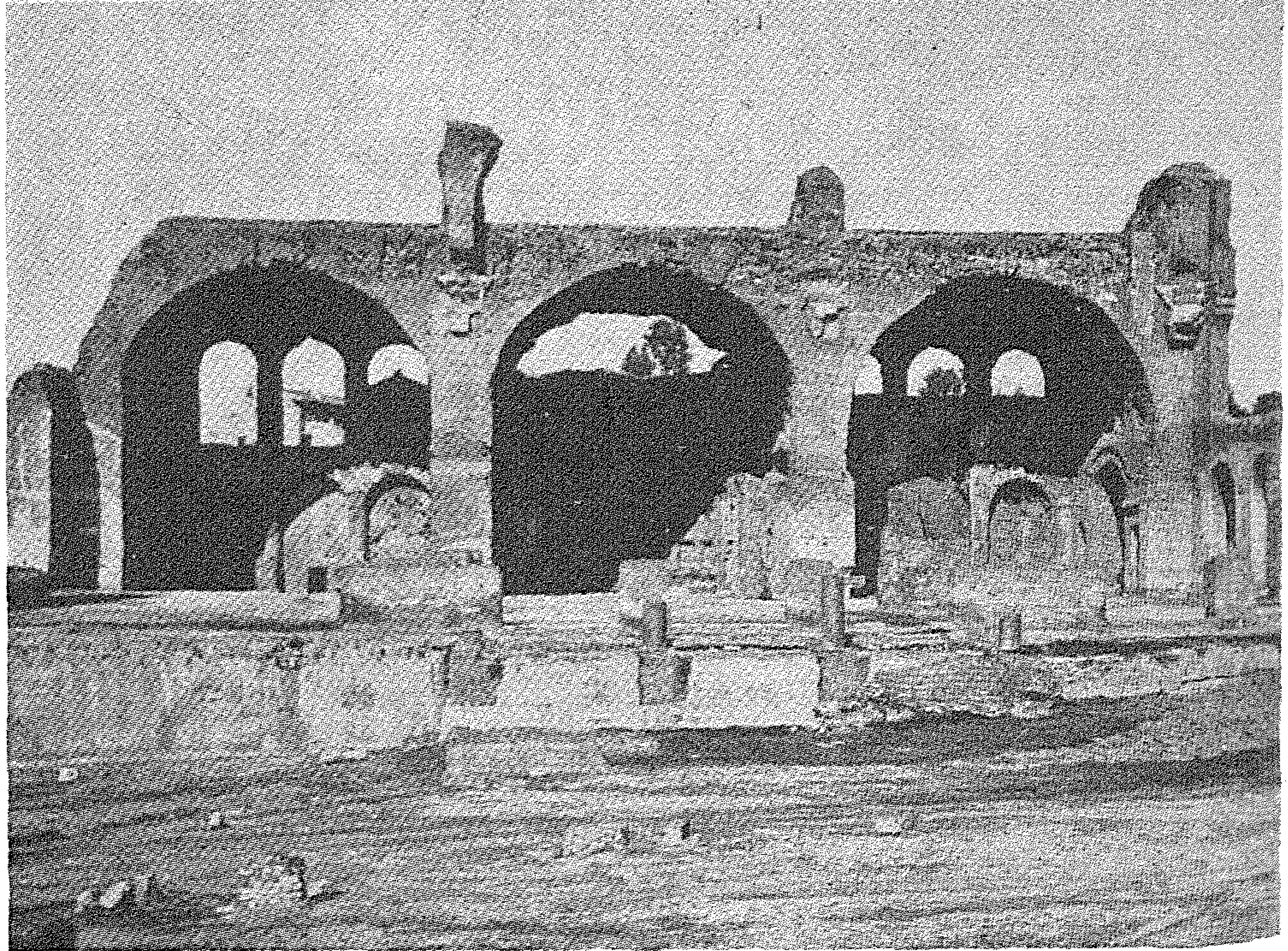


مدينة تريف التي نفي فيها أثناسيوس



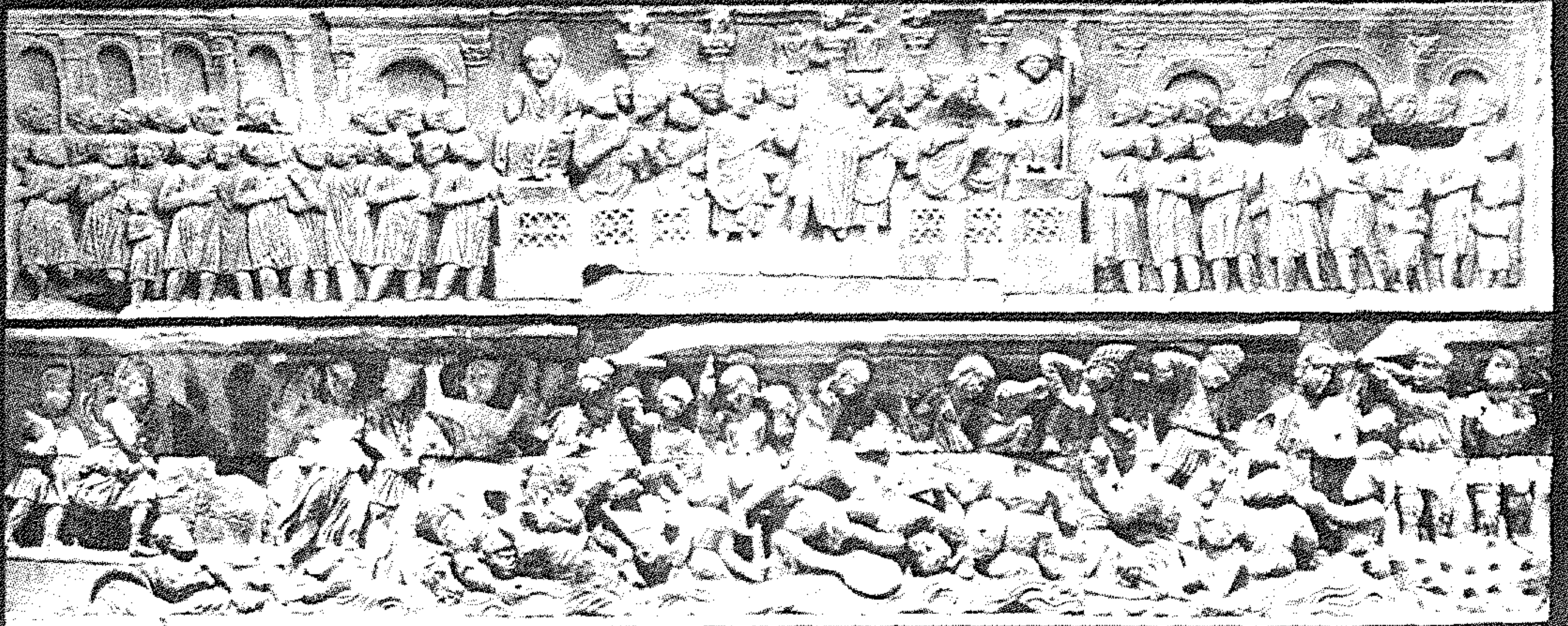
تمثال ضخم للإمبراطور قسطنطين





بقايا كاتدرائية قسطنطين في روما

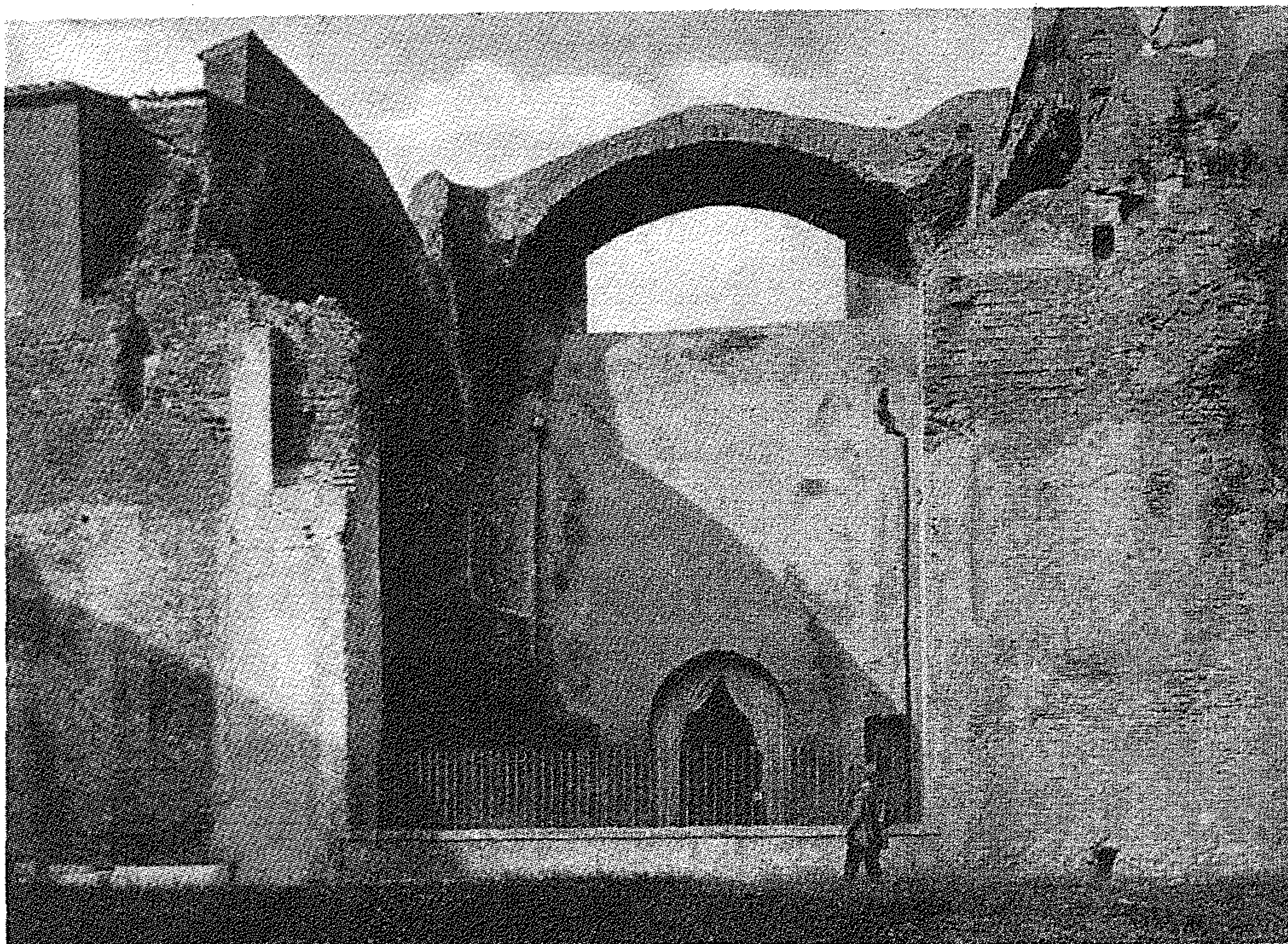
(أعلى) قوس النصر اُقيم في مدخل مدينة روما تذكاراً لإنتصار قسطنطين على مكسنتيوس في معركة جسر الميلفيان والتي أعلن بعدها منشور التسامح للمسيحيين



قوس نصر قسطنطين بجانب الكولوزيوم (حوالي عام ٣١٥م)

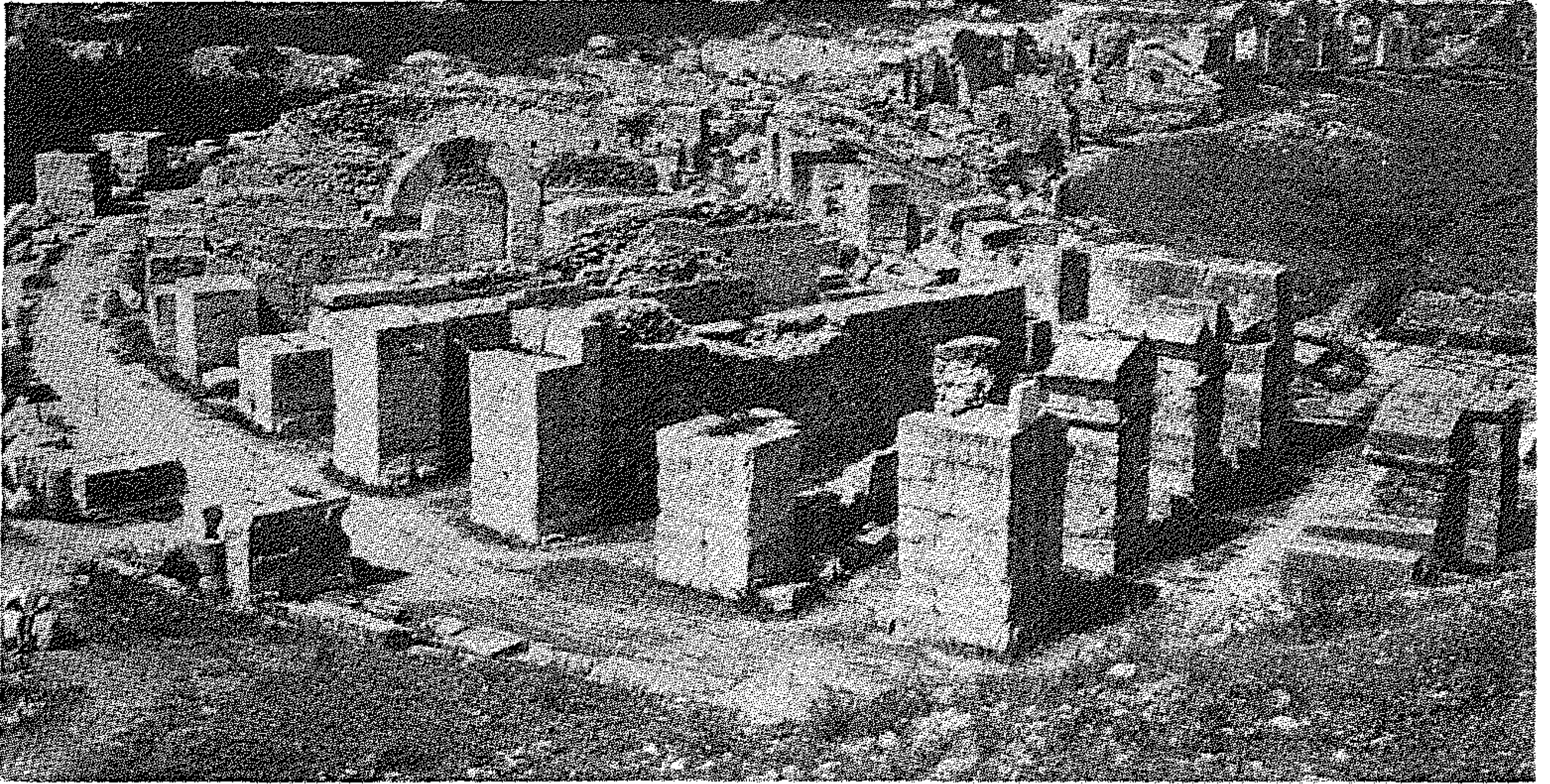
النقش الأوسط : الإمبراطور على المنصة الإمبراطورية يوزع الكرامات على الشعب .

النقش الأسفل : الإنتصار على مكسنتيوس عند كوبري ميلفيان .

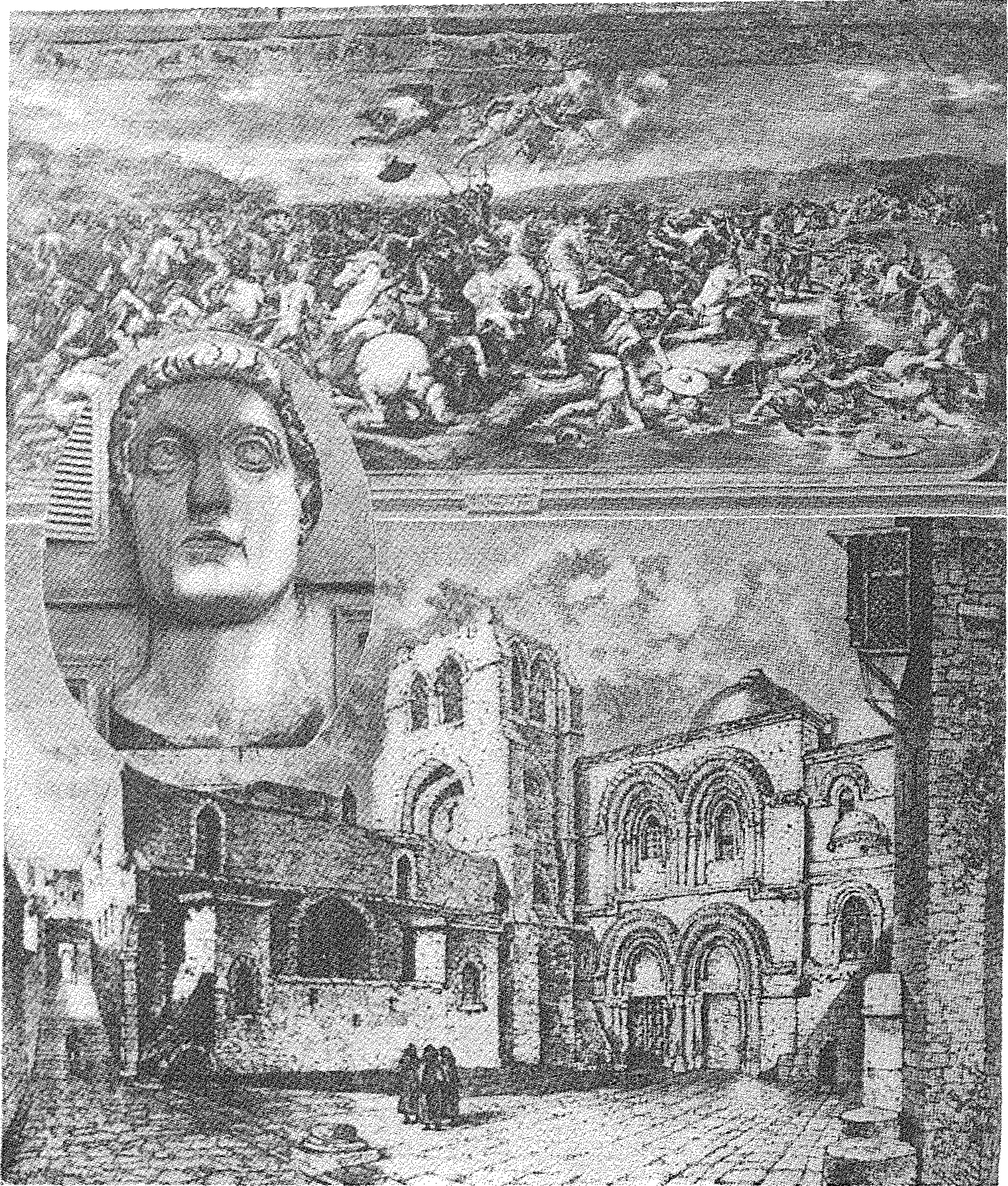




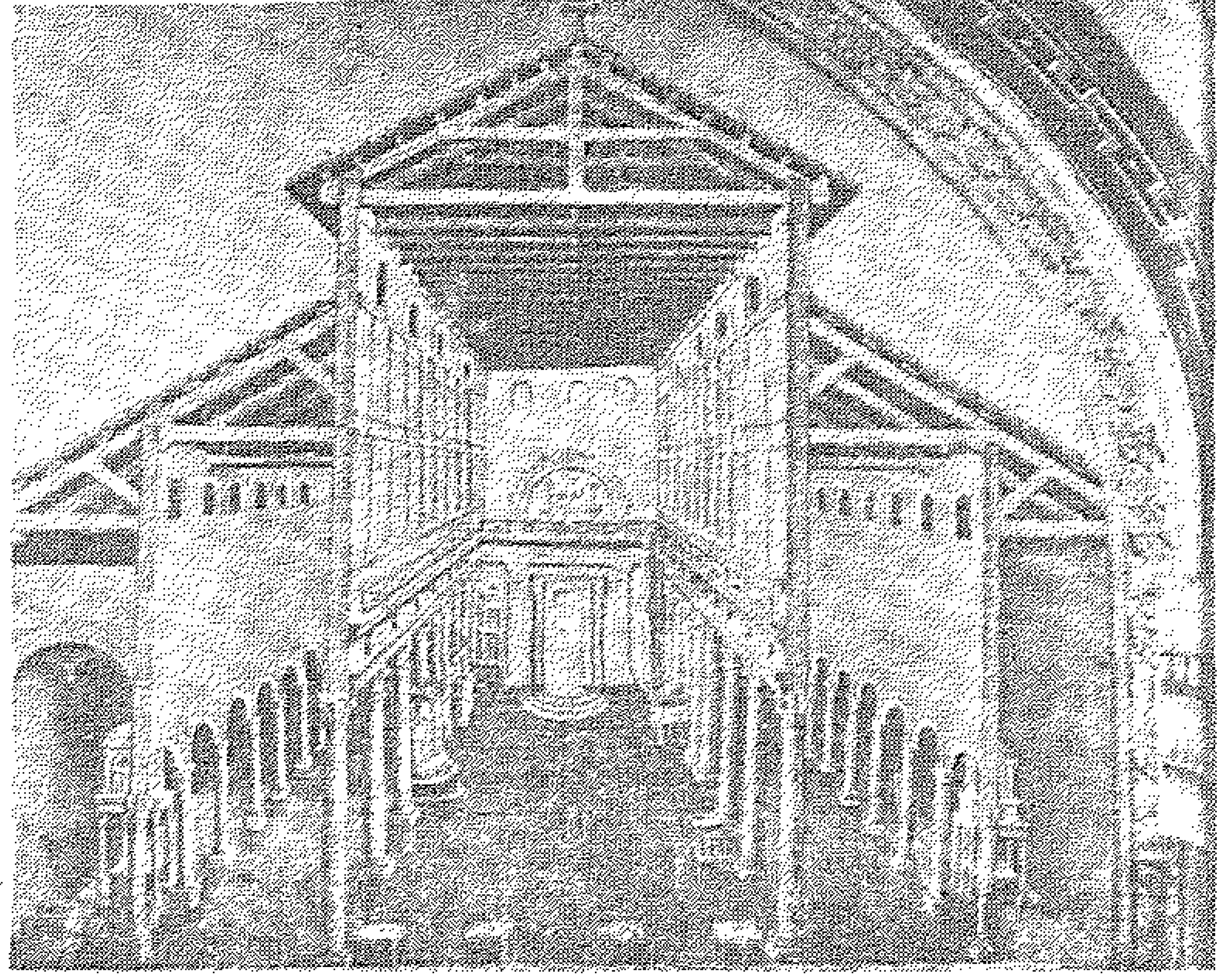
حمامات دقلديانوس في روما
أيام أثناسيوس وهو شاب



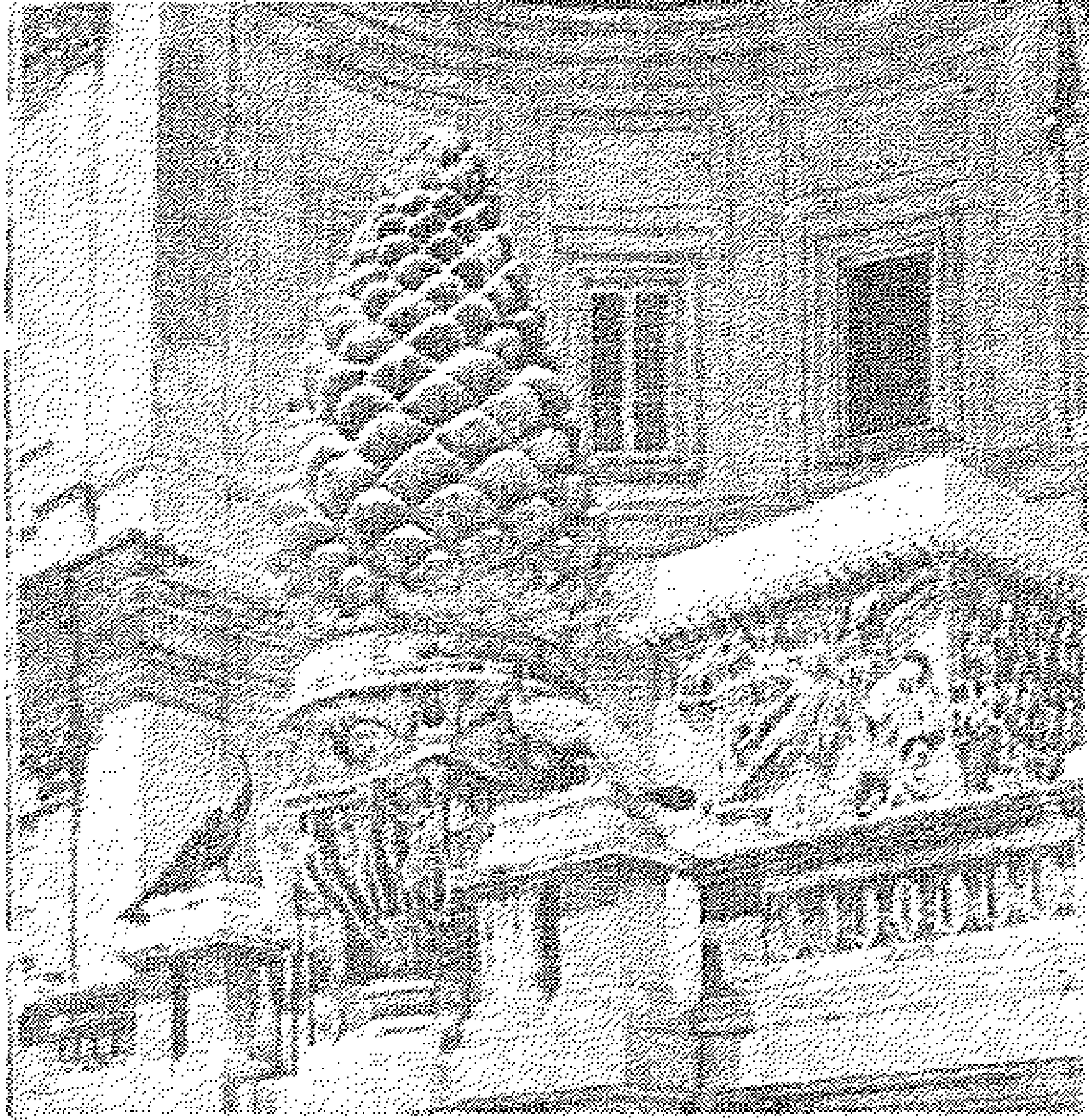
خرائب المدينة التي عاش فيها دقلديانوس
هنا في هذا المسرح كان المسيحيون يستشهدون تحت حكم دقلديانوس في شباب أثناسيوس



(أعلى) لوحة تبين معركة جسر الميلفيان الفاصلة التي انتصر فيها قسطنطين على أعدائه .
(الوسط) عن تمثال ضخم للإمبراطور قسطنطين في روما .
(أسفل) كنيسة القيامة بنيت مكان الكنيسة الأصلية التي بنتها الملكة هيلانة في أورشليم في القرن الرابع .



رسم تخطيطي من القرن السابع عشر
لداخل كنيسة القديس بطرس القديمة في الفاتيكان



جانب من بقايا كنيسة قسطنطين التي على اسم القديس
بطرس في الفاتيكان حيث حُفظ جسد القديس



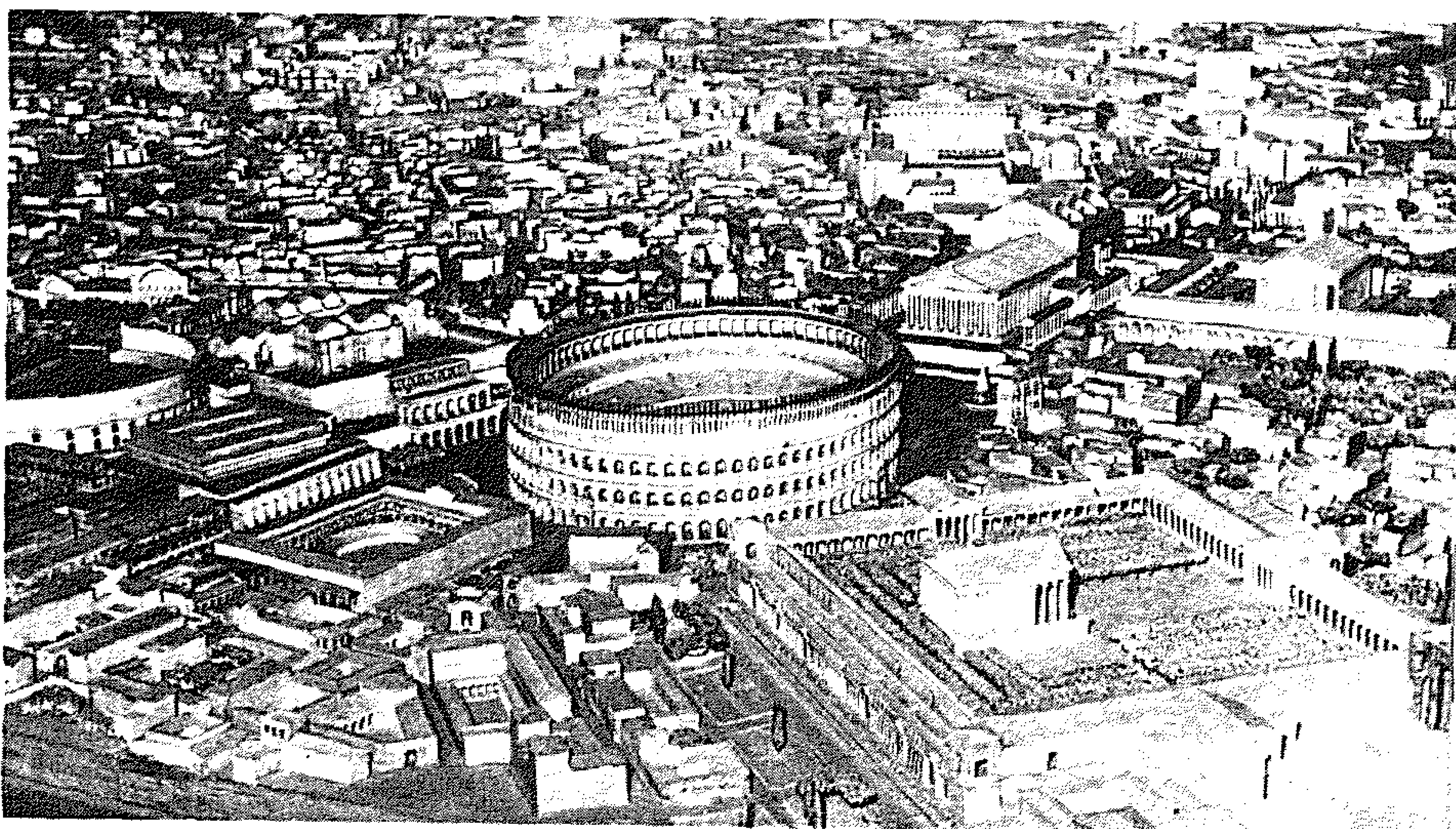
تمثال لرأس قسطنطين



تمثال لأميرة مجهولة من بلاط الإمبراطور قسطنطين ــ هل هي قسطنطيا ؟ هذا التمثال يرجع تاريخه إلى عام ٣٥٠ م ــ متحف تورلونيا بروما

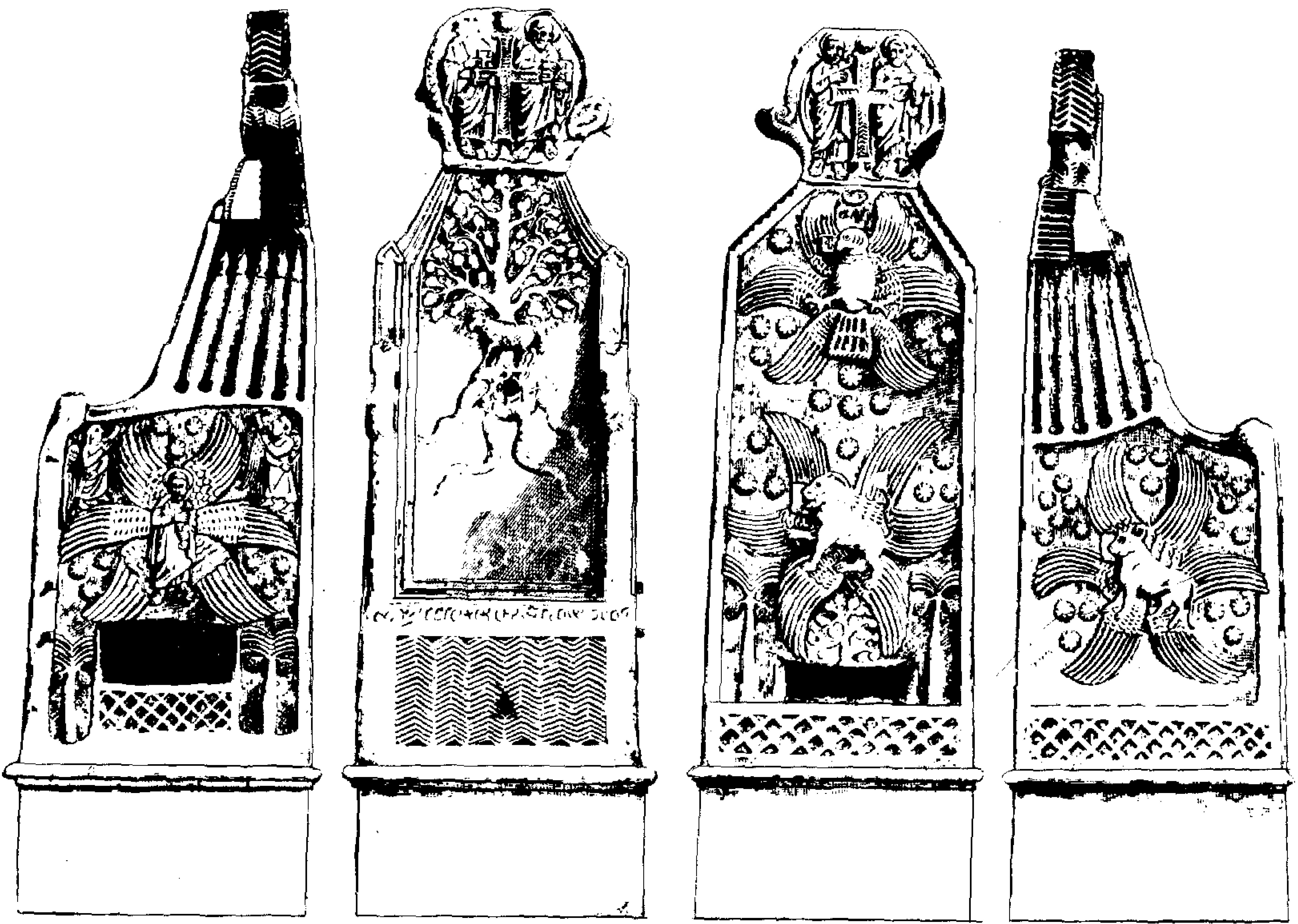


عملة نقدية عليها صورة الإمبراطورة هيلانة عملة نقدية عليها صورة الإمبراطور قسطنطين



صورة تخيلية لروما في القرن الرابع . ويُرى على اليسار قوس قصر قسطنطين

كرسي مارمرقس



نماذج من الفن المسيحي المصري

كرسي مار مرقس

تحتفظ مدينة فينيسيا ـ كما احتفظت برفات القديس مرقس الرسول ـ بالكرسي البطريركي الذي كان يستعمله بطاركة الإسكندرية في القرون الأُولى.

وقد حُمل هذا الكرسي بعد الفتح العربي من الإسكندرية إلى القسطنطينية، ومن هناك حمله الصليبيون إلى فينيسيا في القرن الثالث عشر أثناء احتلالهم للقسطنطينية.

وهو من الألباستر المصري، تبدو في صناعته المهارة والليونة التي تتيح الراحة للجالس عليه، فالظهر مقعَّر قليلاً حتى يرتاح عليه برفق ظهر الجالس، والمساند الجانبية فيها انحناءة خفيفة تتناسب مع مرفق الذراع.

وقد أجمع العلماء أن الكرسي كان أصلاً خالياً من النقوش والنحت والإضافات التي زيدت عليه بعد ذلك.

وزخرفته الحالية تكشف عن أصله الإسكندري حيث اشتهرت المدينة بمدرستها اللاهوتية المتميِّزة بالتصوُّف والرمزية. فالنقوش مستوحاة من رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي:

١ ـ يعلو الظهر دائرة تحمل على كلا الوجهتين صليباً منحوتاً فوقه كرة، وبجواره اثنان من الإنجيليين، يُعتقد أنهما مرقس ومتى. ويتوسَّط ظهر الكرسي من الداخل حَمَل يعلوه شجرة ذات فروع وأوراق، واقف على رابية تصب فيها الأربعة الأنهار السرائرية (تك ٢: ١٠).

٢ ـ أمَّا ظهر الكرسي من الخارج، فعليه نحت يمثِّل اثنين من الأربعة أحياء غير المتجسِّدين ذات الستة أجنحة (رؤ ٤: ٨) هما النسر والأسد، وسط خلفية من الكواكب المتناثرة يعلوها هلال يرمز لانفتاح السموات. من أسفل على الجانبين شجرتا نخيل مصري تتوسطهما شجرة ذات اثنتي عشرة ورقة أسفلها تجويف داخلي تحت المقعد ربما كان يُستعمل لحفظ ذخائر البطاركة.

٣ ـ المسند الأيسر من الخارج عليه نحت لإنسان في شكل أحد الأربعة خلائق الحية ذات الستة أجنحة، وفي الجانبين من أعلى ملاكان ينفخان بالبوق ومن أسفل شجرتا نخيل يتوسَّطهما التجويف السابق ذكره. وباقي المساحة تحتله كواكب متناثرة.

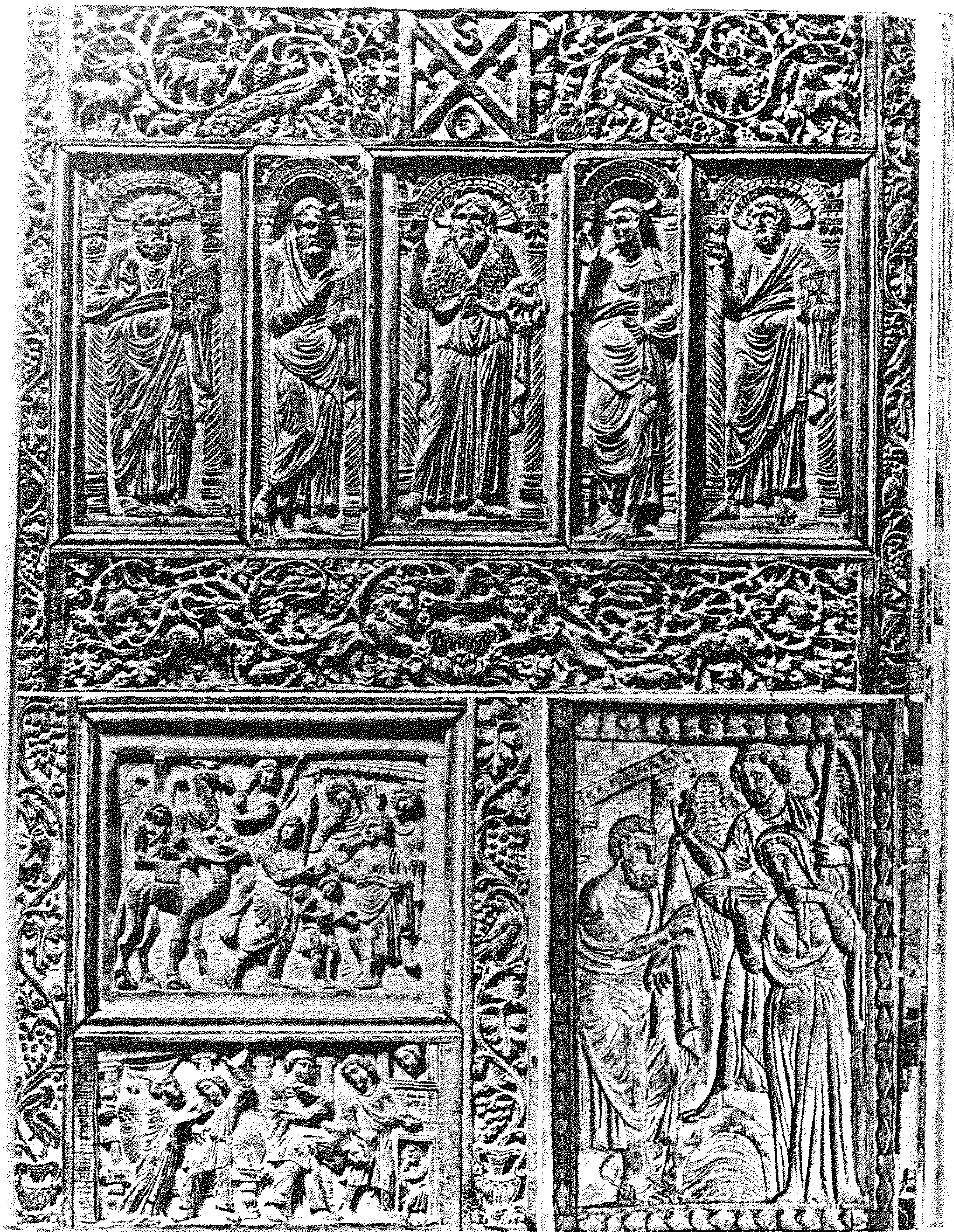
٤ ـ أمَّا المسند الأيمن فعليه من الخارج نحت الثور وهو الرابع في الخلائق الحيَّة وله أيضاً ستة أجنحة.

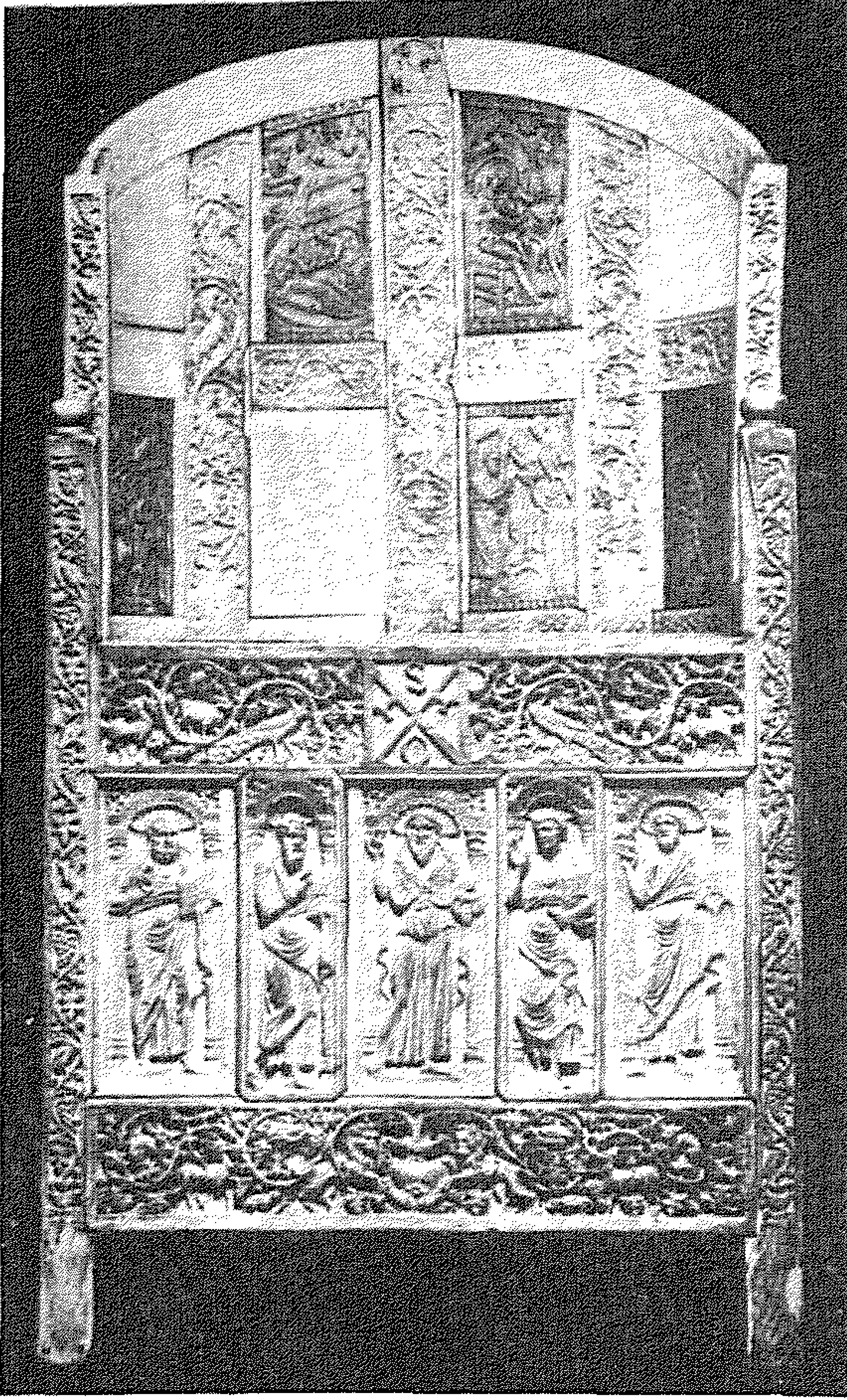
ويعلو النحت الذي على المساند الجانبية خمسة مشاعل مضيئة ترمز للمعرفة المستنيرة.

وعلى عتبة الكرسي من أسفل في مواجهة الرائي يوجد مستطيل مملوء بالخطوط الزجزاجية، تمثِّل بحر الزجاج شبه البللور (رؤ ٤: ٦، ٢٢: ١) ويعلوه كتابة اتضح أنها حروف عبرية مكتوبة من اليسار إلى اليمين (على عكس المألوف) أمكن ترجمتها هكذا:

﴿كرسي مرقس الذي ثبَّت الإنجيل في الإسكندرية﴾

والكرسي في مجمله يُعطي تصويراً مجسَّماً يجمع ما جاء في سفر الرؤيا (٤: ٦-٨، ٥: ٦، ٢٢: ١-١٢) عن عرش الله الذي وسطه الخروف ويحيط به الأربعة خلائق الحيَّة وأمامه بحر زجاج شبه البللور.





كرسي مكسيميانوس

ثلاث قطع من الفن الإسكندري

وهو نقش على كرسي الأسقف مكسيميانوس (٥٤٦ـ٥٦٤م) في رافنا:

(أعلى) واجهة الكرسي: و يرى صورة يوحنا المعمدان في الوسط وعلى جانبيه الإنجيليون الأربعة.

(إلى اليسار) أحد جوانب الكرسي: يوسف يُباع لفوطيفار ـ ومع زوجة فوطيفار.

(إلى اليمين) الجانب الداخلي من الكرسي، مسند الظهر: أحد مناظر حياة القديسة العذراء مريم.



كرسي مكسميانوس رئيس أساقفة رافنا
(شمال شرق إيطاليا) في القرن السادس

تحفة أخرى من الفن الإسكندري، فالكرسي مصنوع من الخشب البسيط، لكن عليه حشوات من العاج الدقيق النقش مما لفت نظر النقاد الفنيين، خاصة واجهته الأمامية المكونة من خمس حشوات مستطيلة، الوسطى للقديس يوحنا المعمدان يحيط به إثنان من الإنجيليين على كل جانب. وأعلى وأسفل هذه الحشوات إفريز من العاج بلغ في دقة النقش وجمال الزخرفة ما وصل إلى حد الإعجاز. وقد اعترف النقاد أن البلد الذي خرج منه هذا العمل كان متقدماً في فن العاجيات بدرجة فاقت ما وصل إليه هذا الفن الكلاسيكي في العصور الرومانية الزاهرة.

الطاووس المنقوش على الإفريز العلوي، ولو أنه عنصر زخرفي قديم، إلا أنه في هذا العمل الفني أخذ شكلاً جديداً تحت يد الفنان الماهر الذي عرف كيف يعكس عليه مزاجه الفني الرائع.

والأسد في الإفريز السفلي سبق ظهوره على بعض التوابيت الرومانية المسيحية القديمة.

ولكن الأرانب والبط وجميع أنواع الطيور التي تتحرك وسط عنصر نباتي غزير حيّ ـ وهو فرع الكرمة ـ فهذا من خصائص فن الإسكندرية المصري الذي وُجدت له أمثلة مشابهة في المنسوجات والأقمشة القبطية كالتي اكتشفت في باويط وسقارة وأخميم وأنصنا، حيث نجد الزخرف النباتي يتعرج في ثنيات وطيات رشيقة مخلّفاً داخل كل ثنية إما ورقة عنب أو عنقود كرمة، ثم حيوان أو طائر له علاقة بما قبله أو ما بعده وليس كمجرد عنصر زخرفي بسيط.

*****

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ـ ت ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء ـ المنشية ـ ت ٤٨٤٠١١٠

وجميع المكتبات المسيحية